

العلاقات الأخلاقية في القرآن

إبراهيم أبو عواد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَإِخْوَتِهِ الْأَنْبِيَاءِ الْكِرَامِ، وَآلِ كُلِّ، وَصَحْبِ كُلِّ .

إنَّ المنظومة الأخلاقية في الإسلام شديدة التماسك والتأثير لأنها مُتَّصِلَةٌ بِالسَّمَاءِ ، وليست تيارًا فلسفيًا أرضيًا من بنات أفكار الفلاسفة والعلماء . لذلك نجد آثار الثقافة الأخلاقية الإسلامية ماثلة في سلوك الفرد والجماعة في عصور الازدهار. وحين فَقَدَتْ هذه الآثارُ بريقها في السلوك الإنساني ، تخَلَّفَت حضارةُ المسلمين عن الرُّكْبِ العالمي . وهذه ليست مشكلة الشريعة بل مشكلة الإنسان نفسه ، فقد قامت الشريعةُ بإخراج الناس من جاهلية الأخلاق الدنيئة إلى سُموِّ الأخلاق الرفيعة ، فصاروا بَشَرًا حَقِيقِينَ ، يعيشون حياتهم وَفْقَ منظور أخلاقي راقٍ وَفَعَالٍ ، ممَّا أدَّى إلى صناعة مُجتمعات الخير والتسامح والفضيلة عبر الأطوار الزمنية المختلفة . وَكُلُّ ثَغْرَةٍ فِي الجدار الأخلاقي المجتمعي مَرَجَعُهَا إِلَى السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ لَا الشَّرِيعَةَ الْمَعْصُومَةَ . وَإِذَا وَجِدَ خَلَلٌ فِي الْمَعْنَى الْحَضَارِيِّ فَسَيَكُونُ نَاتِجًا عَنِ سُوءِ أَخْلَاقِ تَرَكَمَ مَعَ الزَّمَنِ ، حَتَّى صَارَ مِسْمَارًا فِي نَعَشِ الْحَضَارَةِ . وَكُلُّ مَجْتَمَعٍ إِنْسَانِيٍّ مَهْمَا بَلَغَ مِنْ دَرَجَةِ التَّقَدُّمِ فِي الْعِلْمِ الْمَادِيَةِ وَالتَّكْنُولُوجِيَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَمِرَّ إِلَّا مِنْ خِلَالِ حَصَانَةِ أَخْلَاقِيَّةٍ ، تَعْمَلُ عَمَلِ السِّيَاحِ الْوَاقِي الَّذِي يَصُدُّ الْهَجْمَاتِ الْقَاتِلَةَ لِلرُّوحِ وَالْمَادَّةِ . لِذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعِلَاقَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةَ لَيْسَتْ تَرَفًّا زَائِدًا عَنِ الْحَاجَةِ ، أَوْ فِلْسَفَةً مَحْصُورَةً فِي الْكُتُبِ . إِنَّ الْأَخْلَاقَ نِظَامَ حَيَاتِيٍّ مُتَكَامِلٍ ، وَيَدُونُهُ سَيَّرَتِدُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْمَسْتَوَى الْحَيَوَانِيِّ الْغَرِيزِيِّ الْبِدَائِيِّ . وَكُلُّ حَضَارَةٍ تَتَخَلَّى عَنِ الْأَخْلَاقِ إِنَّمَا تَكْتُبُ قِصَّةَ نَهَايَتِهَا عَنِ سَبْقِ الْإِصْرَارِ وَالتَّرْصُدِ .

والتُّصُوصُ الشَّرِيعِيُّ أَسَّسَتْ نِظَامًا أَخْلَاقِيًّا مُتَكَامِلًا ، وَفَتَحَتْ الْمَجَالَ لِنُطْبِيقِ الْأَخْلَاقِ عَلَى الْذَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَعَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ . وَقَدْ صَدَّقَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ : ((بَعُثْتُ لَأَتَمَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ)) [رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ] .

وَالْخُلُقُ هُوَ الصِّفَةُ الْمُلْتَصِقَةُ بِالْفَرْدِ كَالْتِصَاقِ طَائِعِ الْبَرِيدِ بِالرِّسَالَةِ ، وَكُلُّ صِفَةٍ خُلُقِيَّةٍ بِمَثَابَةِ هُوِيَّةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ لِلْإِنْسَانِ ، تَكْشِفُ عَنِ مَسْتَوَى التَّحَضُّرِ أَوْ الِهْمَجِيَّةِ فِي السِّيَاقَاتِ الْجَمَاعِيَّةِ . وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعِلَاقَاتُ الْأَخْلَاقِيَّةُ دُسْتُورًا اجْتِمَاعِيًّا ، يَنْتَشِرُ بِقُوَّةٍ وَكثَافَةٍ ، فَرْدِيًّا وَجَمَاعِيًّا ، مَعْنَوِيًّا وَمَادِيًّا ، لِكَيْ تَخْرُجَ الصِّفَاتُ الرَّاقِيَّةُ مِنْ إِطَارِ حَبْرِ الْكَلِمَاتِ إِلَى الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ الْمَحْسُوسِ وَالْمُعَاشِ .

يتكوّن هذا الكتاب من فصلين : الأخلاق الحميدة ، والأخلاق الذميمة .

والأخلاق الحميدة تنبع من الدين، كما أنّ الدين يقوم عليها. وقد عظم الإسلام حسن الخلق، وجعله عبادة مقدّسة يُؤجر المُلتزم بها ، وطاعة عظيمة يُثاب فاعلها . والخلق هو أساس النفاضل يوم القيامة . وجميع دارسي التاريخ في الشرق والغرب يعرفون أنّ الإسلام دخل إلى بلاد كثيرة وحضارات عديدة بسبب أخلاق المُسلمين الحميدة، بلا قتال ولا غزو ولا عنف ولا سيف ولا دم. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على ضرورة أن يكون المُسلم حسن الخلق ، وقرأنا يمشي على الأرض ، كي يجذب الآخرين إلى الإسلام ، فيعبدوا الله ، ويلتزموا بأمره ، ويجتنبوا نواهيه .

واكتساب الأخلاق الحميدة لا يكون بالتّعني بالشّعارات ، أو التكلّف والتّصنع ، أو لعب الأدوار الاجتماعية ، والتمثيل على الناس، وإنّما يكون باللجوء إلى الله كي يمنّ على عبده بحسن الخلق ، فهذا رزق عظيم ، لا يعرف قيمته إلا العفلاء . ولا بُدّ أن يُجاهد العبد نفسه الأُمارة بالسوء ، ويتصدّى بحزم للشّهوات والشُّبهات ، فالشّهوات تُحطّم الجسد ، والجسد ضعيف ، والشّهوات نازّ مُحرّقة ، والشُّبهات تُحطّم القلب ، والقلب ضعيف ، والشُّبهات أمواج مُغرقة . وإذا فكّر العبد بآثار حسن الخلق، وفائدته في الدنيا والآخرة ، فسوف يحرص عليه ، ويتمسك به .

أما الأخلاق الذميمة فهي حزبي في الدنيا ، وعار في الآخرة . وقد نهى الإسلام العبد أن يتّصف بأيّ خلق سيّئ مهما كان صغيراً ، لأنّه طريق الشقاء والعذاب والهلاك . وأصل الأخلاق الذميمة موجود في الشّهوات والشُّبهات ، وهي التي تدفع العبد إلى ارتكاب الجرائم ، واقتراف المعاصي ، والغرق في الدُّنوب والآثام ، ونشر الفساد في الأرض بكل أشكاله وأنواعه .

والأخلاق الذميمة لها أثر سيّئ على العبد ، ولها تأثير كارثي على المجتمع . وبما أنّ الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الفاضل، كانت المسؤولية المُلقاة على كاهلها عظيمة وهائلة، فلا بُدّ أن تقوم بواجبها في التربية الحسنة ، والتنشئة القويمة ، والتّوجيه الصحيح ، مع ضرورة الاهتمام بالحوار الهادئ والتّقدي البناء . ولا يُمكن تجاهل دور المساجد والمدارس والمؤسسات في بناء المجتمع بشكل سليم ومتماسك ومتوازن . ومن نظر في عواقب سوء الخلق ، فلا بُدّ أن يبتعد عنه قولاً وفِعلاً ، فهو يجلب الندم والأسف ، ويؤدّي إلى تحطيم الكيان الإنساني ، وتمزيق المُجتمع ، وتدمير مُنجزات الحضارة ، والتعاسة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

وإنّ وَجَدْتَ أخي القارئ خيراً في هذا الكتاب فهو من الله وَحْدَهُ ، وإنّ وَجَدْتَ غير ذلك، فَمِنْ نَفْسِي والشَّيْطَانِ . والحمدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ دائماً وأبداً .

الفصل الأول الأخلاق الحميدة

تمهيد

يتحدث هذا الفصل عن أهمية الأخلاق الحميدة ، وضرورة تفعيلها وتعزيزها ، وبيان مركزية السلوك الحسن في حياة الأفراد ، ودوره في بناء المجتمع ، وتحسينه ، وحمايته من الأخطار والشُرور . ولا بُدَّ من دَفْعِ السيئة بالحسنة ، ومقابلة الإساءة بالإحسان ، والتجاوز عن أخطاء الآخرين وعثراتهم ، ومساعدتهم ، والإحسان إليهم بكل الأشكال . والنُّفوسُ مَجْبُولَةٌ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إليها . وعلى الفرد أن يفعل الخَيْرَ ، ويُسَارِعَ إليه ، ولا يَنْتَظِرُ شُكْرًا وَجَزَاءً مِنَ النَّاسِ ، فالدُّنيا دارُ عملٍ ، والآخرة دارُ الجَزَاءِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَحْفُوظٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، ولا شيء يَضِيعُ عنده . ويجب التَّحَلِّيُ بالحكمة ، والتعامل مع الناس بأدب واحترام وتواضع ، والإصلاح بينهم ، مع الالتزام بالصدق الذي يفتح مغاليق الأمور ، ويحلُّ المشكلات ، ويُلِينُ قلوبَ الناس ، ويجذبهم . ولا يخفى أَنَّ لسانَ العاقل وراء قلبه ، وقلبَ الأحمق وراء لسانه ، وهذا يعني أن العاقل يُفَكِّرُ بالكلام قبل أن ينطق به ، أمَّا الأحمق فهو غارق في فَلَائِتِ اللسان ، والأفكارِ السقيمة . وهنا تتضح أهمية قول التي هي أحسن .

وينبغي الانتباه إلى أهمية الاستقامة في التعامل مع الله تعالى ، والعفو عن الناس ، والصفح عنهم ، ونشر روح السلام والوئام ، وتعميق معاني الرحمة والمودة ، والتركيز على التعاون في العبادات والطاعات والخير ، والالتزام بالقيم الأخلاقية السامية كالإخاء والإحسان والقرى (إكرام الصَّيْفِ) ، لأنها من أسس بناء المجتمع معنويًا وماديًا ، وبناء شخصية الفرد علميًا وعمليًا . والشرف هو شرعية الفرد والجماعة والمجتمع ، لذلك ، يجب الحرص على العفة ، وعدم خدش الحياء والمروءة ، والانتصار على النفس الأمارة بالسوء ، ومقاومة الشهوات المحرمة ، والتمسك بالأفعال الجميلة ، وإقامة الطهارة في النفوس ، وعزس الفضائل والمحاسن على أرض الواقع . وهذا يتحقق بعصَّ البصر وحفظ الفرج .

والاهتمام بالأمور العظيمة ، والابتعاد عن الأشياء النافهة ، دليلان على كمال العقل وسموِّ النفس . وفي هذا السياق تبرز أهمية الإعراض عن اللغو ، والمشي بهدوء وطمأنينة بلا غرور ولا تكبر ، والخفض من الصوت ، والسكينة ، والاعتدال في الأمور كُلِّهَا بلا إفراط ولا تفريط ، وشكر الله على نعمه ، والشكر تدوم النعم ، والصبر على المصائب والكوارث ، لأنها امتحان من الله للفرد ، وكظم الغيظ ، وإصدار الأحكام العادلة ، والتواضع ، والوفاء بالعهد ، والنظافة بكل أبعادها .

١_ السُّلُوكُ الْحَسَنُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقْتُمْ بَوْحَدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَرْتُمْ بِبُنْيُوتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، _ وَنداءُ الْمُخَاطَبِينَ بِاسْمِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْكَرُهُمْ بِأَنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي امْتِنَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ _ ، لَا تَقُولُوا : رَاقِنَا وَأَمْهَلْنَا حَتَّى نَحْفَظَ مَا تُلْقِيهِ عَلَيْنَا . وَالتَّهْيِي يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ . وَكَلِمَةُ ﴿ رَاعِنَا ﴾ بِلُغَةِ الْيَهُودِ شَتِيمَةٌ ، مِنْ الرُّعُونَةِ (الْحُمُقُ) لَا مِنَ الرَّعَايَةِ ، وَكَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : أَنْتَ أَرْعَنُ . فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهَا ، وَعَنْ التَّشْبِيهِ بِالْيَهُودِ ، وَقَطَعَ الذَّرِيعَةَ لِئَلَّا يَتَوَصَّلَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ إِلَى سَبِّ النَّبِيِّ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُ . وَقُولُوا بِدَلَّهَا : أَقْبَلْ عَلَيْنَا ، وَانظُرْ إِلَيْنَا . وَهَذَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاحْتِرَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمِهِ ، وَاسْمَعُوا مَا أَمَرْتُمْ بِهِ وَنَهَيْتُمْ عَنْهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ، لَا كَسَمَاعِ الْيَهُودِ . وَالْمَعْنَى : أَطِيعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ ، وَلَا تَتَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ . وَالطَّاعَةُ تَجِبُ بِالسَّمْعِ . وَلِلْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى عَذَابٌ شَدِيدٌ مُوجِعٌ .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَةِ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ أَلْفَاظَهُ بِعِنَايَةِ فَائِقَةٍ ، وَيَتَعَدَّ فِي مُخَاطَبَاتِهِ عَنِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤْهِمُ الْجَفَاءَ وَالتَّنْقِيسَ فِي مَقَامِ يَقْتَضِي الاحْتِرَامَ وَالتَّعْظِيمَ . وَاللَّفْظُ الْجَمِيلُ هُوَ مِفْتَاحُ الْقَلْبِ . وَالْآيَةُ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَبْدَأِ سَدِّ الذَّرَائِعِ ، وَالدَّرِيعَةُ عِبَارَةٌ عَنْ أَمْرٍ مُبَاحٍ فِي نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ وَالْمَحْظُورِ . فَالْمُؤْمِنُونَ اسْتَعْمَلُوا كَلِمَةَ (رَاعِنَا) بِأَدَبٍ وَحُسْنِ نِيَّةٍ ، وَلَكِنْ يُخَشَى أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى إِهَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَانْتِقَاصِهِ ، لِأَنَّ الْيَهُودَ حَوَّلُوهَا إِلَى شَتِيمَةٍ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١٢٣) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ، كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : رَاعِنَا سَمْعَكَ ، وَكَانَ هَذَا بِلِسَانِ الْيَهُودِيَّةِ سَبًّا قَبِيحًا ، فَلَمَّا سَمِعُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ يَقُولُونَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْجَبْتَهُمْ ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ وَيَقُولُونَ ذَلِكَ وَيَضْحَكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا بِدَلِّ رَاعِنَا ﴿ انظُرْنَا ﴾ ، أَي : انظُرْ إِلَيْنَا حَتَّى نُفْهِمَكَ مَا نَقُولُ ، ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ، أَي : أَطِيعُوا وَاتْرَكُوا هَذِهِ الْكَلِمَةَ ، لِأَنَّ الطَّاعَةَ تَجِبُ بِالسَّمْعِ)) .

وَفِي الشَّفَا (٢ / ١٨٥) : ((قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاجْتِمَاعِ الْأُمَّةِ مَا يَجِبُ مِنَ الْحَقُوقِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَمَا يَتَعَيَّنُ لَهُ مِنْ بَرٍّ وَتَوْقِيرٍ وَتَعْظِيمٍ

وَإِكْرَامَ ، وَبِحَسَبِ هَذَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى أَذَاهُ فِي كِتَابِهِ ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى قَتْلِ مُتَنَقِّصِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِبِهِ)) .

وعن ابن عباس : في قوله : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ ، قال : كانوا يقولون للنبي ﷺ : أَرَعْنَا سَمْعَكَ ، وَإِنَّمَا رَاعِنَا كَقَوْلِكَ : عَاطِنَا . ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ للنبي ﷺ . قال : يقولون : لَا سَمِعَتْ وَاسْمَعْ للنبي ﷺ ، لَا سَمِعَتْ ، قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ !

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٠٦ / ١) : ((نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص _ عليهم لعائن الله _ ، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا ، ويؤرون بالرُعونة ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٤٦] ، وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلّموا إنَّما يقولون : السَّامَ عليكم ، والسَّامَ هو الموت ، ولهذا أمرنا أن نردَّ عليهم بِ (وَعَلَيْكُمْ) ، وَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيْنَا ، والغرض أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وروى أبو داود عن عثمان بن أبي شيبة عن أبي شيبة عن أبي النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به : " مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ " ، ففیه دلالة على التَّهْيِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ وَالتَّوْعِيدِ عَلَى التَّشْبَهِ بِالْكَفَّارِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلباسهم وأعيادهم وعباداتهم ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ الَّتِي لَمْ تُشْرَعْ لَنَا ، وَلَا نُقَرَّ عَلَيْهَا . وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ أَخْبَرَنَا مِسْعَرٌ عَنْ مَعْنٍ وَعَوْنٍ أَوْ أَحَدِهِمَا أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، فَقَالَ اعْهَدْ إِلَيَّ ، فَقَالَ : إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فَأَرَعَهَا سَمْعَكَ ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ وقال محمد بن إسحاق : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَوْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ رَاعِنَا ﴾ ، أَي : أَرَعْنَا سَمْعَكَ ، وَقَالَ الصَّحَّاحُ : عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا

١ رواه الطبراني (١٢٣/١٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٦٠/٧) : ((فيه بشر بن الحارث ، وهو ضعيف)) .

رَاعِنَا ﴿﴾ ، قال : كانوا يقولون للنبي ﷺ : أَرْعِنَا سَمْعَكَ ، وَإِنَّمَا رَاعِنَا كَقَوْلِكَ : عَاطِنَا وقال السُّدِّي : كان رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعٍ يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ ، فَإِذَا لَقِيَهِ فَكَلَّمَهُ قَالَ : أَرْعِنِي سَمْعَكَ ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ . وكان المسلمون يَحْسِبُونَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانَتْ تُفْتَحَمُ بِهِذَا ، فَكَانَ نَاسٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ : اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ غَيْرَ صَاغِرٍ ، وَهِيَ كَالَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ ، فَتَقَدَّمَ اللَّهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَقُولُوا : رَاعِنَا ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يَنْحُو مِنْ هَذَا . قال ابن جرير : والصواب مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا لِنَبِيِّهِ ﷺ : رَاعِنَا ، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ كَرِهَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَقُولَهَا لِنَبِيِّهِ ﷺ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾ [النساء : ٨٦] .

لِكُلِّ جَوْهَرٍ مَظْهَرٌ . وجَوْهَرُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ هُوَ السَّلَامُ وَالتَّسَامُحُ وَالْأَمَانُ وَالْحَرِيَّةُ ، لِذَلِكَ كَانَتِ التَّحِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ هِيَ السَّلَامُ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَرَابُطِ الْجَوْهَرِ وَالْمَظْهَرِ ضِمْنَ مَنْظُومَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ ، لَا تَعَارُضُ فِيهَا ، وَلَا تَضَادُ . وَالتَّحِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ تَعْبِيرٌ عَنِ رِسَالَتِهِ وَأَهْدَافِهِ ، وَلَيْسَتْ كَلِمَةً عَابِرَةً ، أَوْ مُجَامِلَةً اجْتِمَاعِيَّةً .

وهذا الإرشاد القرآني إلى حُسن التعامل في مسألة " التحية " يدل على عَظْمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَنَائَتِهِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَنَشْرُهَا فِي الْمُجْتَمَعِ مِنْ أَجْلِ بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ وَفَقْ مَنظُورِ إِيْمَانِيٍّ ، لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْقِيَمِ الْجَمَاعِيَّةِ السَّامِيَّةِ . وَلَا بُدَّ مِنْ مُقَابَلَةِ التَّحِيَّةِ بِأَفْضَلِ مِنْهَا أَوْ رَدِّهَا . وَفِي هَذَا تَقْوِيَّةٌ لِلرَّوَابِطِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَنَشْرٌ لِلْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ ، وَتَطْهِيرٌ لِلْمُجْتَمَعِ مِنَ الْحَقْدِ وَالكَرَاهِيَّةِ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢ / ١٥٢) أَنَّ الْجُمْهُورَ يَرَوْنَ أَنَّ " التَّحِيَّةَ " هِيَ السَّلَامُ . إِذَا سَلَّمَ الْمُسْلِمُ عَلَى قَوْمٍ ، فَمِنَ الْمُسْتَحَبِّ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ بِأَفْضَلِ مِمَّا سَلَّمَ ، وَفَرَضَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٧٠٥) : ((فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ ، وَالْمُمَاتَلَةُ مَفْرُوضَةٌ)) .

إِنَّ إِقْلَاءَ السَّلَامِ سُنَّةً ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِ فَرَضٌ . وَهَذَا يَشِيرُ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْمُطَهَّرَةُ لِتَعزِيزِ الرَّوَابِطِ الْجَمَاعِيَّةِ ، وَتَوْحِيدِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . فَالتَّحِيَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدُ كَلَامٍ . إِنَّهَا مَنْظُومَةٌ دِينِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ ثِقَافِيَّةٌ شَامِلَةٌ تُعزِّزُ التَّكَاوُلَ الْجَمَاعِيَّ ، وَتَنْتَزِعُ الْأَحْقَادَ مِنْ صُدُورِ النَّاسِ ، وَتُصَفِّي الْأَجْوَاءَ مِنْ كُلِّ الشَّوَابِ الْجَمَاعِيَّةِ وَالْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ كَالْحَسَدِ وَالْحَقْدِ وَحُبِّ الْإِنْتِقَامِ . فَالتَّحِيَّةُ تُشِيعُ جَوْاً مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَقَبُولِ الْآخَرِ ، فَتَنْشَأُ عِلَاقَاتُ اجْتِمَاعِيَّةٌ صَحِيحَةٌ ، وَتَتَضَافَرُ الْجُهُودُ الْبَشَرِيَّةُ وَتَلْتَقِي لِقِيَادَةِ حَرَكَةِ الْإِصْلَاحِ الْجَمَاعِيَّ ،

ودفع المُجتمع باتجاه التقدُّم والازدهار والتنمية. وعن ابن عباس _ رضي اللّهُ عنهما _ قال: ((مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، فَارْزُدْ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ مَجُوسِيًّا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾)) ٢ .

يجب ردّ السّلام على الناس، مهما كانت أديانهم وعقائدهم ومذاهبهم، وهو فرضٌ لعموم الآية. وهذا يدلُّ على مكارم الأخلاق ، وحُسن التعامل بين الناس، وفيه استمالة لقلوبهم، وإحسان إليهم، والنّفوس مَجبولة على حُب مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وعاملها بأدب واحترام .

وعن الحسن : ((﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾)) لأهل الإسلام ، ﴿ أَوْ رُدُّوها ﴾ على أهل الشّرك)) ٣ . وروى الطبراني في الكبير (٦ / ٢٤٦) عن سلمان الفارسي _ رضي اللّهُ عنه _ قال: جاء رَجُلٌ فسَلَّمَ على رسول اللّهِ ﷺ ، فقال: السلام عليكم يا رسول اللّهِ ، قال: ((وَعَلَيْكَ السلام ورحمة اللّهِ)) ، ثم جاء آخَرٌ فقال: السلام عليك يا رسول اللّهِ ورحمة اللّهِ ، قال: ((وَعَلَيْكَ السلام ورحمة اللّهِ وبركاته)) ، ثم جاء آخَرٌ فقال : السلام عليك يا رسول اللّهِ ورحمة اللّهِ وبركاته ، فقال له رسول اللّهِ ﷺ : ((وَعَلَيْكَ)) ، فقال الرّجل : يا رسول اللّهِ ، أتاك فلان وفلان فَحَيَّيْتُهُمَا بأفضل ممّا حَيَّيْتِي ، فقال رسول اللّهِ ﷺ : ((إِنَّكَ لَنْ _ أَوْ لَمْ _ تَدَعِ شَيْئًا ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾)) ٤ .

هذا يُشير إلى عِظَم شأن التّحية ، وأهميتها الدينية والاجتماعية . فالتّحية جزءٌ من المنظومة الشرعية ، لها أحكام دينية واضحة ، وتطبيقات اجتماعية لا يُمكن إخفاؤها ، وليست التّحية كلمةً للاستهلاك اليومي . وهذا يُفسّر الحرصَ على ردّ التّحية بالصيغة الشرعية المُعتبرة .

٢ رواه أبو يعلى في مسنده (٣ / ١٠٠) برقم (١٥٣٠) . وقال الهيثمي في الجمع (٨ / ٨٢) : ((ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة)) اه . وفي فتح الباري (١١ / ٤٢) : ((قال ابن بطّال: قال قوم : ردّ السلام على أهل الدّمة فرضٌ لعموم الآية . وثبت عن ابن عباس أنه قال: " مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ فَارْزُدْ عَلَيْهِ ولو كان مجوسياً " ، وبه قال الشّعبي وقتادة . ومنع من ذلك مالك والجمهور . وقال عطاء : الآية مخصوصة بالمسلمين فلا يُردّ السلام على الكافر مُطلقًا)) .

٣ رواه أبو يعلى في مسنده (٣ / ١٠٠) . وقال الهيثمي في الجمع (٧ / ٦٤) : ((ورجاله ثقات)) .
٤ قال السّيوطي في الدر المنثور (٢ / ٦٠٥) : أخرجه أحمد في الرّهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مَرَدَوَيْه بسند حسن .

وفي صحيح مسلم (١ / ٧٤) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ :
 ((لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوْلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ
 تَحَابُّتُمْ ؟ ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)) .

لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَالتَّحَابُّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ . وَلَا يَكْتَمِلُ إِيمَانُ
 الْعِبَادِ، وَلَا يَصْلُحُ حَالُهُمْ فِي الْإِيمَانِ ، حَتَّى يُحِبَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَمِنْ أَفْضَلِ الْخِصَالِ الَّتِي تُسَاعِدُ
 عَلَى تَحْقِيقِ التَّحَابِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَقْوِيَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ ، هِيَ إِفْشَاءُ السَّلَامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
 بِإِظْهَارِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ . وَالسَّلَامُ هُوَ التَّحِيَّةُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ ، فَلَا يُمْرُ مُسْلِمٌ عَلَى مُسْلِمٍ _ غَرِيبًا
 أَوْ قَرِيبًا _ إِلَّا أَلْقَى عَلَيْهِ السَّلَامَ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبًا لِلْمَحَبَّةِ ، وَجَعَلَ الْمَحَبَّةَ سَبَبًا
 لِكَمَالِ الْإِيمَانِ . وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ يُؤَدِّي إِلَى التَّحَابِّ وَالتَّوَادُّ ، مِمَّا يُكْرِسُ الْأُلْفَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، الَّتِي
 تُحَقِّقُ كَمَالَ الدِّينِ ، وَتُعَلِّي كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ . أَمَّا الْبَغْضَاءُ وَالتَّهَاجِرُ وَالتَّقَاطُعُ وَالشَّحْنَاءُ وَالعِدَاوَةُ ،
 فَتُؤَدِّي إِلَى تَفْرِيقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَمْزِيقِ الْمَجْتَمَعِ ، وَتَدْمِيرِ مُنْجَزَاتِهِ .

وَصِيغَةُ السَّلَامِ الثَّابِتَةُ شَرَعًا هِيَ : " السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ " ° .

وقد كان النبي ﷺ يُعَلِّمُ أَصْحَابَهُ وَأُمَّتَهُ مَحَاسِنَ الْأُمُورِ وَفَضَائِلَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ فِي
 الْآخِرَةِ ، وَتَنْفَعُ النَّاسَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، بِاسْتِجْلَابِ الْمَحَبَّةِ وَالْمُؤَدَّةِ بَيْنَهُمْ . كَمَا كَانَ ﷺ يُحَدِّثُهُمْ
 مِنْ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى نَشْرِ الْحَقِّدِ وَالبَغْضَاءِ وَالكِرَاهِيَةِ وَالتَّنَافُرِ وَالشَّحْنَاءِ .

وفي فتح الباري (١١ / ١٨ و ١٩) : ((قال ابن العربي : فِيهِ أَنَّ مِنْ فَوَائِدِ إِفْشَاءِ السَّلَامِ
 حُصُولَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْمُتَسَالِمِينَ ، وَكَانَ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ ائْتِلَافِ الْكَلِمَةِ لِتَعْمُّ الْمَصْلُحَةِ بِوُقُوعِ
 الْمَعَاوَنَةِ عَلَى إِقَامَةِ شَرَائِعِ الدِّينِ ، وَإِخْرَاجِ الْكَافِرِينَ ، وَهِيَ كَلِمَةٌ إِذَا سُمِعَتْ أَخْلَصَتْ الْقَلْبَ
 الْوَاعِي لَهَا عَنِ التُّفُورِ إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى قَائِلِهَا)) .

٥ روى أبو داود في سننه (٢ / ٧٧١) عن عمران بن حصين قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال :
 السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ جَلَسَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " عَشْرٌ " ، ثُمَّ جَاءَ آخَرَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ ، فَقَالَ : " عَشْرُونَ " ، ثُمَّ جَاءَ آخَرَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ
 اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ ، فَقَالَ : " ثَلَاثُونَ " . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (٢ / ١٦٤) : ((أَخْرَجَهُ
 أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ غَرِيبٌ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي
 الشُّعْبِ : إِسْنَادُهُ حَسَنٌ)) .

والحديث دعوة صريحة إلى نشر السلام ، وإلقائه على المسلمين كلهم، سواء كنت تعرفهم أم لا. ولا تخفى فوائد السلام ، فهو يُؤدِّي إلى تجذير المحبة والمودة، وجمع القلوب، وتعميق القيم النبيلة، وترسيخ ثقافة التسامح والتواضع ، وتعظيم حُرُمات المسلمين ، ورفع قدرهم ، ونشر الألفة وروح التعاون في المجتمع المسلم ، وإزالة الخوف والحقد والعداوة والبغضاء. كما أن إظهار السلام هو إظهار لشعار الإسلام ، وإبراز للصفة المُميّزة للمسلمين عن باقي أصحاب الأديان . فلا بُدَّ من إفشاء السلام وبذله للمسلمين ، لِمَا فيه من نشر المودة والأمان بين الناس . وإفشاء السلام من أسباب المحبة والتآلف بين المسلمين ، والمحبة من كمال الإيمان .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٣٦) : ((فَقَوْلُهُ ﷺ : " وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا " ، معناه : لَا يَكْمُلُ إِيْمَانُكُمْ ، وَلَا يَصْلُحُ حَالُكُمْ فِي الْإِيْمَانِ إِلَّا بِالتَّحَابِّ . وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا " ، فهو على ظاهره وإطلاقه ، فلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَامِلَ الْإِيْمَانِ ، فهذا هو الظاهر من الحديث . وقال الشيخ أبو عمرو رحمه الله : معنى الحديث : لَا يَكْمُلُ إِيْمَانُكُمْ إِلَّا بِالتَّحَابِّ ، وَلَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا إِذَا لَمْ تَكُونُوا كَذَلِكَ ، وهذا الذي قاله مُحْتَمَلٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ " ، ... ، وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام ، وبذله للمسلمين كلهم ، مَنْ عَرَفَتْ ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ ، والسلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودَّة ، وفي إفشائه تَمَكُّنُ أُلْفَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وإظهار شعارهم المُميّز لهم مِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ ، مع ما فيه من رياضة النَّفْسِ ، ولزوم التواضع ، وإعظام حُرُمات المسلمين . وقد ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ : عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيْمَانَ : الْإِنصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ . وَرَوَى غَيْرُ الْبُخَارِيِّ هَذَا الْكَلَامَ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ . وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ ، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ ، كُلُّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَفِيهَا لَطِيفَةٌ أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّهَا تَنْتَضِمْنَ رَفْعَ التَّقَاطُعِ وَالتَّهَاجُرِ وَالتَّشْحَانِ وَفَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ ، الَّتِي هِيَ الْحَالِقَةُ ، وَأَنَّ سَلَامَهُ لِلَّهِ ، لَا يَتَّبِعُ فِيهِ هَوَاهُ ، وَلَا يَخْصُ أَصْحَابَهُ وَأَحِبَّاهُ بِهِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٢٣) : ((أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ تَحَابُّوا) ، ... ، أي : تأتلف قلوبكم . وفيه مصلحة عظيمة من اجتماع قلوب المسلمين ، وتناصرهم ، وتعاضدهم ، ولهذا قال بعضهم إنَّه أَدْفَعُ لِلصَّغِينَةِ بِغَيْرِ مُؤَنَةٍ ، وَآكْتَسَابَ أُخُوَّةَ بَاهُونَ عَطِيَّةٍ . وَصَدْرُ هَذَا

الحديث : " لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، ولا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ ، أَفْشُوا " إِلَى آخِرِهِ . وإفشاؤه نشره لكافة المسلمين ، مَنْ عَرَفَ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ . قال النووي: الإفشاء الإظهار، والمراد نشر السلام بين الناس لِيُحْيُوا سُنَّتَهُ ، وأقلُّه أن يرفع صَوْتَهُ ، بحيث يُسْمِعَ المُسَلِّمَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ لَمْ يُسْمِعْهُ لَمْ يَكُنْ آتِيًّا بِالسُّنَّةِ ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ بِقَدْرٍ مَا يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ سَمِعَهُ)) .

وَمِنَ الضَّرُورِيِّ مَعْرِفَةَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ (الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى) لَا يُبَدُّونَ بِالسَّلَامِ ، فَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيرِ .

في صحيح مسلم (٤ / ١٧٠٧) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تَبَدُّوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ)) .

إِنَّ إِقَاءَ السَّلَامِ إِكْرَامٌ ، وَالكَافِرُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِكْرَامِ . فَالكَافِرُ أَهَانَ نَفْسَهُ ، وَأَلْقَاهَا فِي التَّهْلُكَةِ ، وَذَلِكَ بِاخْتِيَارِهِ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، فَلَا يَنْبَغِي تَقْدِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ ، بَلْ يَجِبُ تَصْغِيرُهُ وَالتَّقْلِيلُ مِنْ شَأْنِهِ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١١٠) : ((فمذهب الشافعي وجمهور أصحابه وأكثر العلماء أنه لا يجوز للمسلم أن يبتدئ كافرًا بالسَّلام ، وأجازه كثيرون من السَّلف . وهذا مردود بالأحاديث الصحيحة في النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء : ٥٣] .^٦

الْخِطَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ : وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُوا الْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ فِي حِوَارَاتِهِمْ ، بِأَسْلُوبٍ لَطِيفٍ بَدُونِ خُشُونَةٍ . وقال الطبري في تفسيره (٨ / ٩٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِعِبَادِي يَقُلْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْمُحَاوَرَةِ وَالْمُخَاطَبَةِ)) . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٣٧) : ((قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَ مُحَاوَرَتِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ الْكَلِمَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ الْحَسَنِ ، ... ، لِأَنَّ الْمُخَاشَنَةَ لَهُمْ رَبَّمَا تُنْفَرُهُمْ عَنِ الْإِجَابَةِ)) .

٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٦ و ٤٧) عن الآية : ((في سبب نزولها قولان : أحدهما أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُؤَدُّونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ شَتَمَ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ ، فَهَمَّ بِهِ عُمَرُ _ رضي الله عنه _ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) .

من أهم أركان الدعوة إيصالها بأسلوب طيب وجميل وجذاب، ومُحَبَّب للنفس الإنسانية ، يعتمد على البشارة ، ويُوازَن بين الترغيب والترهيب ، ويحترم عقولَ الناس ومكانتهم الاجتماعية ، ويُنزلهم في مقاماتهم اللائقة . وهذا الأسلوب ينبغي أن يشمل على العِلْم الشرعيّ ، والحُجَّةِ الناصعة، واللغة المُستقيمة الهادئة ، ويتعد عن الصُّراخ والضجيج وتغيير الناس وبعث اليأس فيهم . والأسلوبُ الحَسَن حين يحمل الحقَّ ، فإنَّ الناس سيستعدون عن الحق ، من أجل أداة توصيله السيئة ، والعقبة في طريق الدعوة هي وجود مُحامٍ سيئٍ لقضية حقَّة . وينبغي تذكير الناس بالنعم الإلهية عليهم، فهذا من شأنه جَذبهم إلى مَحَبَّة الله تعالى ، وتعظيمه ، وشكره، والالتزام بشريعته ، لأنَّ النفوس مَجبولة على مَحَبَّة من أحسن إليها .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٠٤) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ : عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ)) .

الرفق في الأمور، والتعامل مع الناس بلطف ، واللين ، والتيسير ، من أهم الأخلاق الإسلامية . وعندما ينتشر الرفق في الأشياء والمعاملات ، فإنها تُصبح حسنة جميلة ، وتصل المعاني الرائعة إلى النفوس بلا تعب ، وتحقق المطالب بلا عناء . وغياب الرفق سبب رئيسي في جعل الأمور قبيحة ومُعقدة وبعيدة عن القبول . وأكبر ظلم يلحق بالمعاني الجميلة أن تُوضع في قوالب قبيحة . والحديث يوضح أهمية الرفق وضرورته في العلاقات الإنسانية ، وخطورة العنف والقسوة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٤٥) : ((وفي الحديث فضل الرفق، والحث على التخلُّق، ودم العنف . والرفق سبب كلِّ خير وقال القاضي : يتأتى به من الأغراض ، ويسهل من المطالب ، ما لا يتأتى بغيره)) .

وقال المُنَاوي في فيض القدير (٥ / ٤٦١) : ((لأنَّ به تسهّل الأمور ، وبه يتصل بعضها ببعض ، وبه يجتمع ما تشتت ، ويأتلَف ما تنافر وتبدد ، ويرجع إلى المأوى ما شدَّ ، وهو مؤلَّف للجماعات، جامع للطاعات، ومنه أخذ أنه ينبغي للعالم إذا رأى من يُخلُّ بواجب، أو يفعل مُحَرِّمًا، أن يترفق في إرشاده ، ويتلطف به . روي عن أبي أمامة أنَّ شأبًا أتى المصطفى ﷺ ، فقال له : ائذَّن لي في الزنا ، فصاح الناسُ به ، فقال : " ائذَّن مِنِّي " ، فدنا ، فقال : " أتجبه لأُمَّك ؟ " ، قال : لا ، قال : " فالناس لا يُجِبُّونه لأُمَّهاتهم ، أتجبه لابنتك ؟ " ، قال : لا ، قال : " فالناس لا يُجِبُّونه لبناتهم " ، حتَّى ذَكَرَ الزَّوْجَةَ والعَمَّةَ والخَالَةَ ، ثم دعا له ، فلم يكن بعد شيء أبغض إليه من الزنا . ولأبي الفتح البستي :

مَنْ جَعَلَ الرَّفْقَ فِي مَقَاصِدِهِ وَفِي مَرَاقِيهِ سُلْمًا سَلِمَا
وَالصَّبْرُ عَوْنُ الْفَتَى وَنَاصِرُهُ وَقَالَ مَنْ عَنَهُ نَدًّا مَا نَدِمَا
كَمْ صَدْمَةٌ لِلزَّمَانِ مُنْكَرَةٌ لَمَّا رَأَى الصَّبْرَ صَدًّا مَا صَدَمَا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور : ٢٧] .^٧

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوحدانية الله ، وأقرُّوا بنبوَّة مُحَمَّد ﷺ ، لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا لَيْسَتْ لَكُمْ ، حتى تستأذِنوا ، وتلقُوا السَّلَامَ على أصحابها . لا بُدَّ من الاستئذان قبل الدُّخول إلى بُيوت الآخرين ، والتَّسليم على أهلها ، فيقول الواحدُ : السَّلَامُ عليكم ، أَدْخُلْ ؟ .

وهذه الآدابُ الجليلةُ من شأنها حماية المجتمع من الفساد الأخلاقي ، وتدعيم التماسك الاجتماعي عبر إحاطة البيوت بسياج أخلاقي منيع من الآداب العامة والاستئذان والسلام . وكيفية الدخول إلى البيوت أمرٌ بالغ الأهمية ، لأن فيه إطلاعاً على ما وراء الأسوار والستائر المُغلقة ، فأعطته الشريعةُ مكانةً خاصةً وأهميةً كبرى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٧٢) : ((هذه آداب شرعية أَدَّبَ اللهُ بها عباده المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمرهم أن لا يَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا ، أي : يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ ، وَيُسَلِّمُوا بَعْدَهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا انصَرَفَ)) .

ذلك الاستئذان والتَّسليم أفضل وأحسن وخَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ بَعْتَةً ، لَعَلَّكُمْ تَتَعَطَّوْنَ ، وَتَعْمَلُونَ بِمَا أُمِرْتُمْ بِهِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨١) : ((﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، أي : الاستئذان أو التَّسليم خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَدْخُلُوا بَعْتَةً ، أَوْ مِنْ تَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِهِ قَالَ : حَيَّيْتُمْ صَبَاحًا أَوْ حَيَّيْتُمْ مَسَاءً ، وَدَخَلَ ، فَرُبَّمَا أَصَابَ الرَّجُلَ مَعَ امْرَأَتِهِ فِي لِحَافٍ)) اهـ . وفي زاد المسير (٦ / ٢٨) : ((قال عطاء : قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ : أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي وَأُخْتِي وَنَحْنُ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ؟ ، قَالَ : أَيْسُرُكَ أَنْ تَرَى مِنْهُنَّ عَوْرَةً ، قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَاسْتَأْذِنُ)) .

^٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٧) : ((ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ أَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَكُونُ فِي بَيْتِي عَلَى حَالٍ ، لَا أَحِبُّ أَنْ يَرَانِي عَلَيْهَا أَحَدٌ ، فَلَا يَزَالُ يَدْخُلُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِي ، فَتَنَزَلْتُ هَذِهِ الْآيَةَ)) .

إنَّ البُيُوتَ أسرار ، يجب سَتْرُها ، وتحصينها ، وعدم كَشْفِها . كما يجب الحفاظُ على حُرْمَةِ البيوتِ وسُمْعِتها . وهذه هي الضَّمانة الوحيدة لحماية الأُسرة من التفكك والفضائح . وإذا خَرَجْتَ أسرارُ البيوتِ إلى الخارجِ، فقد انتهت الأُسرة، وضاعت إلى الأبد، وانهار المجتمع الإنساني . وينبغي للمرء أن يَسْتَأْذِنَ ثلاثَ مَرَّاتٍ ، فَإِنْ أُذِنَ له كان بها ، وإلا فعليه الرُّجُوعُ . وهذه من السُّنَنِ الظاهرة التي يَنبغي الالتزام بها . ففي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((إذا استأذَنَ أحدُكم ثلاثًا فَلَمْ يُؤذَنَ لَهُ فَلْيَرْجِعْ))^٨ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٣١) : ((أجمع العلماء أن الاستئذان مشروع ، وتظاهرت به دلائل القرآن والسنة وإجماع الأمة . والسنة أن يُسَلَّمُ ويستأذن ثلاثًا ، فيجمع بين السلام والاستئذان ، كما صرَّح به في القرآن ، واختلفوا في أنه هل يُستحب تقديم السلام ثم الاستئذان ، أو تقديم الاستئذان ثم السلام . الصحيح الذي جاءت به السنة ، وقاله المحققون أنه يُقدَّم السلام ، فيقول : السلام عليكم ، أَدْخُلْ ؟ ، والثاني يُقدَّم الاستئذان . والثالث وهو اختيار الماوردي من أصحابنا ، إن وَقَعَتْ عَيْنُ المُسْتَأْذِنِ على صاحب المنزل قَبْلَ دُخُولِهِ قَدَّمَ السلامَ ، وإلا قَدَّمَ الاستئذان)) .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (١ / ٢٧٣) : ((إذا استأذَنَ أحدُكم ثلاثًا) أي: طَلَبَ الإِذْنَ في الدُّخُولِ ، وكَرَّرَهُ ثلاثَ مَرَّاتٍ بالقول ، أو بِقَرَعِ البابِ قَرَعًا خَفِيًّا (فَلَمْ يُؤذَنَ له) فيه (فليرجع) وَجُوبًا ، إنْ غَلَبَ على ظَنِّه أَنَّهُ سَمِعَهُ ، وإلا فَنَدْبًا ، وبه يَحْصُلُ التوفيق بين الكلامين ، ولا يُلح في الإِذْنَ، ولا يقف على الباب مُنْتَظِرًا، لأن هذا يَجْلِبُ الكَرَاهِيَةَ، وَيَقْدَحُ في قلوب الناس، سِيِّمًا إذا كانوا ذوي مَرُوءَةٍ ، مُرتاضين بالآداب الحسنة)) .

وينبغي للزائر أن يُعْرِفَ بِنَفْسِهِ حين يَطْلُبُ أهلَ الدار مَعْرِفَتَهُ. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ في دِينِ كان على أبي ، فَدَقَّقْتُ البابَ ، فقال : ((مَن ذا ؟)) ، فقلتُ : أنا ، فقال : ((أنا أنا)) . كأنه كَرِهَها^٩ .

هذه اللفظة " أنا " لا تكشف عن هُويَّةِ صاحبها ، فهي تنطبق على كُلِّ الناس ، فلا يَحْصُلُ بها دِفءُ الاستئذان، ولا تتحقَّقُ آدابه، لذلك أعاد النبي ﷺ كلامَ جابر _ رضي الله عنه _ مُنْكَرًا عليه.

٨ متفق عليه. البخاري (٥ / ٢٣٠٥) برقم (٥٨٩١) ، ومسلم (٣ / ١٦٩٤) برقم (٢١٥٣) .

٩ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٥ / ٢٣٠٦) برقم (٥٨٩٦) . ومسلم (٣ / ١٦٩٧) برقم (٢١٥٥) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٤ / ١٣٥) : ((قال العلماء : إذا استأذن فقبل له : مَنْ أنت ؟ ، أو مَنْ هذا ؟ ، كره أن يقول : أنا ، لهذا الحديث . ولأنه لم يحصل بقوله : أنا ، فائدة ولا زيادة، بل الإبهام باقٍ، بل ينبغي أن يقول: فلان، باسمه، وإن قال: أنا فلان، فلا بأس)) .
وعلى المُسْتَأْذِنِ على أهل المنزل ألا يقف مُقابل الباب مُباشرةً ، ولكنَّ يَنحرف يَمِينًا أو يسارًا ، وذلك لئلا يَرى ما في داخل البيت ، ويكشف أسرارَه ، ويَطَّلِع على ما لا يُراد كَشْفُه .

روى أبو داود في سننه (٢ / ٧٦٨) عن عبد الله بن بسر _ رضي الله عنه _ قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قَوْمٍ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: ((السلام عليكم، السلام عليكم)) ، وذلك أن الدور لم تكن عليها يومئذ سُتور .
وفي عون المعبود (١٤ / ٦٠) : ((لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه) أي مُقابل وجهه وحِذائه ، لئلا يقع بَصْرُه على أهل البيت (ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر) أي: لكن يستقبل مع الانحراف والميل من ركنه الأيمن أو الأيسر ، أي : من أحد جانبيه الأنسب بالوقوف (ويقول: السلام عليكم) أي: أولًا السلام عليكم ، أي ثانيًا، حتَّى يتحقَّق السَّماع والإذن . وأراد بالتكرار التَّعَدُّد لا الاقتصار على المرَّتَيْن ، فإنَّه كان من عادته التَّثْلِيث (وذلك) أي ما ذُكِرَ من عدم استقبال الباب ووجود الانحراف (أن الدور) جمع الدَّار أي أبوابها (لم تكن عليها يومئذ سُتور) جَمْع سِتْر ، بالكسْر ، وهو الحِجَاب)) .

وقال المُناوي في فيض القدير (٥ / ٨٧) : ((كان إذا أتى باب قَوْمٍ) بنحو عيادة أو زيارة أو غير ذلك من المصالح (لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه) كراهة أن يقع النظر على ما لا يُراد كَشْفُه ممَّا هو داخل البيت (ولكن) يستقبله (من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلام عليكم) وذلك لأنَّ الدور يومئذ لم تكن لها سُتور . والظاهر أنَّ تكرير السلام إنما هو لِمَن عَن يَمِينِه مرَّةً ، ومَن عَن يساره مرَّةً)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢٨] .

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي الْبُيُوتِ أَحَدًا يَأْذَنُ لَكُمْ بِدُخُولِهَا ، فَلَا تَدْخُلُوهَا ، فَدُخُولُهَا حَرَامٌ عَلَيْكُمْ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ بِذَلِكَ . وَلِلْبُيُوتِ حُرْمَةٌ لَا يَجُوزُ انْتِهَاكُهَا، وَلَا يَحِلُّ دُخُولُ الْبُيُوتِ إِلَّا بِإِذْنِ أَصْحَابِهَا . وَالتَّصَرُّفُ فِي مُلْكِ الْآخِرِينَ بغيرِ إِذْنِهِمْ مُحَرَّمٌ ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِرِضَاهُمْ . فَإِنْ أذِنَ لَكُمْ أَصْحَابُ الْبُيُوتِ بِدُخُولِهَا كَانَ بِهَا ، وَإِنْ طَلَبُوا مِنْكُمْ الرَّجُوعَ فَلَا بُدَّ مِنَ الرَّجُوعِ ، وَعَدَمُ الْإِلْحَاحِ ، وَعَدَمُ

الوقوف على الأبواب . ولا يَحْفَى أن صاحب البيت حُر في اختياره ، فإن شاء أَدَن بالدُّخول ، وإن شاء لَمْ يَأْذَن . وعلى المُسْتَأْذِن أن يتقبَّل عملية الرُّجوع _ إن طَلَب منه ذلك _ بصَدْر رَحْب ، ودون شُعور بالألم أو الغضب أو الحقد .

إنَّ الرُّجوع أظْهر لكم ، وأكرم لثُفوسكم ، وهو أفضل من الانتظار على الأبواب ، واللَّهُ عَالِم بالقلوب والضمائر والخفايا ، ولا يَحْفَى عليه شيء ، وهو مُطَّلِع على أعمالكم، وسيُجازيكم عليها، إن خَيْرًا فخير ، وإن شَرًّا فشر .

وقال البَغوي في تفسيره (١ / ٣١): ((قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ أي : إن لَمْ تَجِدُوا فِي الْبُيُوتِ أَحَدًا يَأْذَن لَكُمْ فِي دُخُولِهَا فَلَا تَدْخُلُوهَا ، ﴿حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ، يعني : إذا كان في البيت قَوْمٌ فَقَالُوا : ارجع ، فليرجع ، ولا يقف على الباب مُلَازِمًا ، ﴿هُوَ أَرْكَى لَكُمْ﴾ ، يعني: الرُّجوع أَظْهَر وَأَصْلَحَ لَكُمْ. قال قَتَادَةَ : إذا لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، فَلَا يَقْعُدُ عَلَى الْبَابِ ، فَإِنَّ لِلنَّاسِ حَاجَاتٍ ، وَإِذَا حَضَرَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ وَقَعَدَ عَلَى الْبَابِ مُنْتَظِرًا جَارًا . وكان ابن عباس يأتي باب الأنصار لطلب الحديث ، فيقْعُدُ عَلَى الْبَابِ حَتَّى يَخْرُجَ وَلَا يَسْتَأْذِنُ ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ ، ويقول : يا ابنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ، لَوْ أَخْبَرْتَنِي فَيَقُولُ : هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَطْلُبَ الْعِلْمَ . وإذا وقف فلا يَنْظُرُ مِنْ شَقِّ الْبَابِ إِذَا كَانَ الْبَابُ مَرْدُودًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِالْإِذْنِ وَغَيْرِ الْإِذْنِ)) .

وقال القُرطبي في تفسيره (١٢ / ١٩٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ ، الصَّمِيرُ فِي ﴿تَجِدُوا فِيهَا﴾ لِلْبُيُوتِ الَّتِي هِيَ بُيُوتُ الْغَيْرِ... . التَّقْدِيرُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا ، فَإِنْ أُذِنَ لَكُمْ فَادْخُلُوا ، وَإِلَّا فَارْجِعُوا ، كَمَا فَعَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ سَعْدٍ ، وَأَبُو مُوسَى مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا يَأْذَنَ لَكُمْ ، فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى تَجِدُوا إِذْنًا . وَأَسْنَدَ الطَّبْرِيُّ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ : لَقَدْ طَلَبْتُ عُمَرِي كُلَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَا أَدْرَكْتُهَا ، أَنْ أَسْتَأْذِنَ عَلَى بَعْضِ إِخْوَانِي فَيَقُولُ لِي : ارْجِعْ ، فَارْجِعْ وَأَنَا مُعْتَبِطٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿هُوَ أَرْكَى لَكُمْ﴾ سِوَاءَ كَانَ الْبَابُ مُغْلَقًا أَوْ مَفْتُوحًا ، لِأَنَّ الشَّرْعَ قَدْ أَغْلَقَهُ بِالتَّحْرِيمِ لِلدُّخُولِ حَتَّى يَفْتَحَهُ الْإِذْنُ مِنْ رَبِّهِ (صَاحِبِهِ) ، بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ الْبَابَ وَيُحَاوِلَ الْإِذْنَ عَلَى صِفَةِ لَا يَطَّلِعُ مِنْهُ عَلَى الْبَيْتِ لَا فِي إِقْبَالِهِ وَلَا فِي انْقِلَابِهِ إِذَا تَبَّتْ أَنْ الْإِذْنَ شَرَطَ فِي دُخُولِ الْمَنْزِلِ ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ مِنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، وَقَدْ كَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ذُو الْبُلُوغِ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَذَلِكَ الصَّحَابَةُ مَعَ أَبْنَائِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ تَوَعَّدُ لأهل التَّجَسُّسِ على البيوت ، وطلب الدُّخول على غفلة للمعاصي ، والنظر إلى ما لا يَحِلُّ ولا يَجُوز ، ولغيرهم مِمَّنْ يقع في محذور)) .
وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ
العِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوْر : ٥٨] .^{١٠}

هذه الآية تُعَدُّ دُسْتُورًا في الآداب العامَّة ، واستئذان الناس بعضهم على بعض . وهي تَعَكِّسُ
حِرْصَ الإسلام على بناء نظام اجتماعي متماسك ، لا مكان فيه للشُّكُوكِ أو الشُّبُهَاتِ .
والآية مُحْكَمَةٌ لَمْ تُنْسَخْ ، لكنَّ الناس لا يَعْمَلُونَ بها ، وقد تَهَاوَنُوا في تَرْكِ الاستئذان .
يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَسْتَأْذِنَكُمْ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ
العبيدُ والإماءُ (الخَدَمُ) ، والصِّبْيَانُ مِنَ الأحرار الذين لَمْ يَصِلُوا إلى سِنِّ البُلُوغِ (لَمْ يَحْتَلِمُوا) ،
وهؤلاء الصِّبْيَانُ لَيْسُوا الأَطْفَالُ الذين لَمْ يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، بل الذين عَرَفُوا أَمْرَ النِّسَاءِ ،
لكنهم لَمْ يَبْلُغُوا ، والاحتلامُ أقوى مُؤَشِّرَاتِ البُلُوغِ ، في ثلاثة أوقات ، وهي التي يَكُونُ فيها
الانكشافُ والتَّعَرِّيُّ ، في الليل (قبل صلاة الفجر) وَقَتِ نَوْمِكُمْ وراحتكم ، وحين تَخْلَعُونَ ثِيَابَكُمْ
للْقِيلُولَةِ ، وبعد صلاة العِشَاءِ ، عندما تُريدون النَّوْمَ .

إنَّ الدُّخُولَ بِغَيْرِ استئذان حالةٌ مُنتشرة في المجتمع ، تتطلَّبُ علاجًا جذريًّا . وهي مشكلة
اجتماعية لها عواقب وخيمة ، إذ إنَّها تَكْشِفُ أسرارَ الناسِ والبيوتِ ، وتَفْصَحُ العَوْرَاتِ . وقد
جاءت الشَّرِيعَةُ لِرَفْعِ الحَرَجِ ، وِصْوَنِ الأَعْرَاضِ ، وحمايةِ أسرارِ الناسِ ، وتفصيلِ حياتهم . واللَّهُ
تعالى لَمْ يَتْرِكِ الناسَ يتخَبِّطُونَ في مُعَانَاتِهِمْ ، فقد أَنْزَلَ سُبْحَانَهُ عِلَاجًا سَمَويًّا لهذه المشكلة ،

١٠ قال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٧٦) : ((اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى : ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ ﴾ على ستة أقوال : الأول : أنها منسوخة ، قاله ابن المُسَيَّبِ وابن جُبَيْرِ . الثاني : أنها نَدْبٌ غير واجبة ، قاله أبو قلابة ، قال : إنما أُمِرُوا بهذا نظرًا لهم . الثالث : عَنَى بِهَا النِّسَاءُ ، قاله أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ . وقال ابن عمر : هي في الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ ، وهو القول الرابع . الخامس : كان ذلك واجبًا إذ كانوا لا غَلَقَ لهم ولا أبواب ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاه المهدي عن ابن عباس . السادس : أنها مُحْكَمَةٌ واجبة ثابتة على الرجال والنساء ، وهو قول أكثر أهل العِلْمِ ، منهم القاسم وجابر بن زيد والشَّعْبِيُّ)) .

قُرْآنًا يُتْلَى حَتَّى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ حَدَّدَ اللَّهُ ثَلَاثَةَ أَوْقَاتٍ يَجِبُ فِيهَا عَلَى الْعَبِيدِ وَالْخَدَمِ وَالصَّبِيَّانِ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا :

١- ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ . فِي هَذَا الْوَقْتِ ، يَكُونُ النَّاسُ قَدْ اسْتَيْقَظُوا مِنَ النَّوْمِ ، وَيَرْتَدُّونَ ثِيَابَ النَّوْمِ . وَرُبَّمَا نَامَ الْإِنْسَانُ غُرْيَانًا ، أَوْ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُحِبُّ أَنْ يُرَى فِيهَا .

٢- ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ . هَذَا وَقْتُ الْقَيْلُولَةِ ، وَقَدْ يَتَجَرَّدُونَ مِنْ ثِيَابِهِمْ أَوْ يَلْبَسُونَ ثِيَابًا خَفِيفَةً ، بِسَبَبِ ارْتِفَاعِ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلنَّوْمِ وَالْخُلُودِ إِلَى الرَّاحَةِ .

٣- ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ . هَذَا وَقْتُ التَّعَرِّيِّ لِلنَّوْمِ ، أَوْ الْخَلْوَةِ بِالزَّوْجَةِ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٠) : ((وَإِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ لِأَنَّهَا سَاعَاتُ الْخَلْوَةِ ، وَوَضَعَ الثِّيَابَ ، فَرُبَّمَا يَبْدُو مِنَ الْإِنْسَانِ مَا لَا يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ . أَمَرَ الْعَبِيدَ وَالصَّبِيَّانَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَيْسَتْ أَسْأَلُهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ)) .

هَذِهِ الْأَوْقَاتُ الثَّلَاثَةُ هِيَ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَا يَجُوزُ لِلْعَبِيدِ وَالْخَدَمِ وَالصَّبِيَّانِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْكُمْ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْاسْتِئْذَانِ . وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْأَوْقَاتُ عَوْرَاتٍ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلَعُ فِيهَا ثِيَابَهُ ، فَتَظْهَرُ عَوْرَتُهُ ، وَيَكُونُ مُنْكَشِفًا .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٩٩) : ((﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ ، أَي : هِيَ ثَلَاثَةُ أَوْقَاتٍ ، يَخْتَلُ فِيهَا تَسْتُرُكُمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً ، وَخَيْرُهُ مَا بَعْدَهُ ، وَأَصْلُ الْعَوْرَةِ الْخَلْلُ ، وَمِنْهَا أَعْوَرُ الْمَكَانِ ، وَرَجُلٌ أَعْوَرٌ)) .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ (١ / ٣٦٢) : عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكِ الْقُرْظِيِّ : أَنَّهُ رَكِبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُؤَيْدِ أَخِي بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ ، وَكَانَ يَعْمَلُ بِهِنَّ ، فَقَالَ : مَا تَرِيدُ ؟ ، فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ ، فَقَالَ : إِذَا وَضَعْتَ ثِيَابِي مِنَ الظَّهِيرَةِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِي بَلَّغَ الْخُلْمَ إِلَّا بِإِذْنِي إِلَّا أَنْ أَدْعُوهُ فَذَلِكَ إِذْنُهُ ، وَلَا إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ وَعَرَفَ النَّاسُ حَتَّى تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ ، وَلَا إِذَا صَلَّيْتَ الْعِشَاءَ وَوَضَعْتَ ثِيَابِي حَتَّى أَنْامَ ^{١١} .

١١ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ (٥ / ٢١٩) : ((عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُؤَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ الْحَارِثِيُّ ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، لَهُ صُحْبَةٌ . حَدِيثُهُ عِنْدَ الرَّهْرِيِّ عَنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكِ الْقُرْظِيِّ عَنْهُ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ ، هُوَ مَوْقُوفٌ . قُلْتُ : أَتَبَيَّنْتُ صُحْبَتَهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو حَاتِمٍ وَغَيْرُهُمَا ، وَقَالَ السُّكْرِيُّ : قَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تَصِحُّ لَهُ صُحْبَةٌ ، وَكَأَنَّهُ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُهُ)) .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَى الْعَبِيدِ وَالْخَدَمِ وَالصَّبِيَّانِ حَرْجٌ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ بغيرِ اسْتِئْذَانٍ ، بعد الأوقات الثلاثة . وبعبارة أخرى ، إن دَخَلُوا فِي غيرِ الأوقات الثلاثة بلا اسْتِئْذَانٍ ، فلا حَرْجَ عَلَيْكُمْ فِي تَمَكِينِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا حَرْجَ عَلَيْهِمْ إِذَا رَأَوْا شَيْئًا .

وقال الطبري في تفسيره (٣٤٤ / ٩) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ مَعْشَرُ أَرْبَابِ الْبُيُوتِ وَالْمَسَاكِينِ ، ﴿ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : وَلَا عَلَى الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْخُلْمَ مِنْ أَوْلَادِكُمُ الصِّغَارِ حَرْجٌ وَلَا إِثْمٌ بَعْدَهُنَّ ، يَعْنِي بَعْدَ الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ)) . وقد تَمَّ تَوْضِيحُ سَبَبِ رَفْعِ الْحَرْجِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ . أَي : يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ لِلخِدْمَةِ ، وَتَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ . وَهَؤُلَاءِ خَدَمُكُمْ يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ بغيرِ إِذْنٍ ، وَلَا حَرْجَ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْكُمْ بِلَا اسْتِئْذَانٍ فِي غيرِ الأوقات الثلاثة ، وَيُغْفَرُ لَهُمْ مَا لَا يُغْفَرُ لِغَيْرِهِمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١٩٩ / ١) : ((﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أَي : هُمْ طَوَّافُونَ . اسْتِئْذَانٌ بِيَانِ الْعُدْرِ الرَّخِصِ فِي تَرْكِ الاسْتِئْذَانِ ، وَهُوَ الْمُخَالَطَةُ وَكَثْرَةُ الْمُدَاخَلَةِ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَعْلِيلِ الْأَحْكَامِ ، وَكَذَا فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهَا ، بِأَنَّهَا عَوْرَاتٌ)) . مِثْلُ ذَلِكَ التَّبْيِينِ ، يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ ، وَيُوضِّحُ لَكُمْ الشَّرَائِعَ ، مِنْ أَجْلِ الْإِتِّمَاعِ بِهَا ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِأُمُورِ خَلْقِهِ وَأَحْوَالِهِمْ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ لَهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٣٤٤ / ٩) : ((كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ . يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : كَمَا بَيَّنَّتْ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَحْكَامَ الاسْتِئْذَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ جَمِيعَ أَعْلَامِهِ وَأَدْلَتِهِ وَشَرَائِعِ دِينِهِ ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، يَقُولُ : وَاللَّهُ ذُو عِلْمٍ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ إِيَّاهُمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِ)) .

وَعَنْ عَلِيٍّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسْتَأَذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، قَالَ : ((النَّسَاءُ ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَسْتَأْذِنُونَ)) ١٢ .

إِنَّ " الَّذِينَ " لَا تُسْتَعْمَلُ لِلنِّسَاءِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلرِّجَالِ . وَمِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَدْخُلَ مَعَهُمُ النِّسَاءُ ، لَكِنَّ ذَلِكَ بِحَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ ، وَيَجِبُ أَخْذُ الْكَلَامِ عَلَى ظَاهِرِهِ ، إِلَّا إِذَا بَرَزَتْ قَرِينَةٌ تُحِيلُهُ إِلَى مَعْنَى آخَرَ . وَهَذَا تَطْهَرُ الْقَاعِدَةُ : اسْتِحْالَةُ التَّرْجِيحِ بِلَا مُرْجِّحٍ (قَرِينَةٍ) .

١٢ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤٣٤ / ٢) بِرَقْمِ (٣٥١٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦٠ / ٦١ و ٦٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَتْ أَدْنَىٰكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، فِي سَبَبِ نُزُولِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَجَّهَ غُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ مُدْلَجٌ بِنِ عُمَرَ بْنِ عُمَرَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَقَتِ الظَّهْرِ لِيَدْعُوهُ ، فَدَخَلَ ، فَرَأَى عُمَرَ عَلَى حَالَةِ كَرِهَةٍ عُمَرَ رُؤْيَتُهُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا وَنَهَانَا فِي حَالِ الْاِسْتِئْذَانِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ مَرْثَدٍ كَانَتْ لَهَا غُلَامٌ فَدَخَلَ عَلَيْهَا فِي وَقْتِ كَرِهَتِهِ فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : إِنَّ خَدَمَنَا وَغِلْمَانَنَا يَدْخُلُونَ عَلَيْنَا فِي حَالَةِ نَكْرَهَتِنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : لَيْسَتْ أَدْنَىٰكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، وَفِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ الذُّكُورَ دُونَ الْإِنَاثِ ، قَالَه ابْنُ عُمَرَ ، وَالثَّانِي الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ ، رَوَاهُ أَبُو حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ . وَمَعْنَى الْكَلَامِ : لَيْسَتْ أَدْنَىٰكُمْ مِمَّا لِيَكُمُ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَالْأَظْهَرُ أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ : الْعَبِيدَ الصَّغَارَ ، وَالْإِمَاءَ الصَّغَارَ ، لِأَنَّ الْعَبْدَ الْبَالِغَ بِمَنْزِلَةِ الْحُرِّ الْبَالِغِ فِي تَحْرِيمِ النَّظَرِ إِلَى مَوْلَاتِهِ ، فَكَيْفَ يُضَافُ إِلَى الصَّبِيَّانِ الَّذِينَ هُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ !؟ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ ، ... ، ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أَي : مِنْ أَحْرَارِكُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ ، أَي : ثَلَاثَةَ أَوْقَاتٍ ، ثُمَّ بَيَّنَّهَا فَقَالَ : ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ بَيَّتَ غُرْيَانًا ، أَوْ عَلَى حَالَةٍ لَا يُحِبُّ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهِ فِيهَا ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ ، أَي : الْقَائِلَةَ ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ حِينَ يَأْوِي الرَّجُلُ إِلَى زَوْجَتِهِ ﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ ﴾ ... وَالْمَعْنَى : هَذِهِ الْأَوْقَاتُ هِيَ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَضَعُ فِيهَا ثِيَابَهُ فَرُبَّمَا بَدَتْ عَوْرَتُهُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْمُؤْمِنِينَ الْأَحْرَارَ ﴿ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : الْخَدَمَ وَالْعِلْمَانَ ﴿ جُنَاحٌ ﴾ أَي : حَرَجٌ ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ ، أَي : بَعْدَ مُضِيِّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ أَنْ لَا يَسْتَأْذِنُوا ، فَرَفَعَ الْحَرَجَ عَنِ الْفَرِيقَيْنِ ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أَي : هُمْ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴿ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، أَي : يَطُوفُ بَعْضُكُمْ وَهُمْ الْمَمَالِكُ عَلَى بَعْضٍ وَهُمْ الْأَحْرَارُ . فَصَّلَ . وَأَكْثَرَ عُلَمَاءَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ . وَمِمَّنْ رَوَى عَنْهُ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَالشَّعْبِيُّ . وَحُكِيَ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، لِأَنَّ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ : وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ، أَوْ مِنَ الْأَحْرَارِ ، فَلْيَسْتَأْذِنُوا ، أَي : فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ ، ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : كَمَا اسْتَأْذَنَ الْأَحْرَارُ الْكِبَارُ الَّذِينَ هُمْ قَبْلَهُمْ فِي الْوُجُودِ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَمُرُوا بِالِاسْتِئْذَانِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَالْبَالِغُ يَسْتَأْذِنُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَالطِّفْلُ وَالْمَمْلُوكُ يَسْتَأْذِنَانِ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ)) .

وعن عكرمة أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا : يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، كَيْفَ تَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي أُمِرْنَا فِيهَا بِمَا أُمِرْنَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ ؟ ، قَوْلُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، قال ابن عباس : ((إِنَّ اللَّهَ حَلِيمٌ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، يُحِبُّ السُّتْرَ ، وَكَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبَيْوتِهِمْ سُتُورٌ ، وَلَا حِجَالٌ - وَهِيَ بَيْوتٌ تُزَيَّنُ بِالثِّيَابِ وَالْأَسِرَّةِ وَالسُّتُورِ لَهَا عُرَى وَأَزْرَارٌ - ، فَرُبَّمَا دَخَلَ الْخَادِمُ أَوْ الْوَلَدُ أَوْ يَتِيمَةُ الرَّجُلِ وَالرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالاسْتِئْذَانِ فِي تِلْكَ الْعَوْرَاتِ ، فَجَاءَهُمُ اللَّهُ بِالسُّتُورِ وَالْخَيْرِ)) ١٣ .

إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْإِنْسَانِ ، وَيَعْلَمُ نِقَاطَ قُوَّتِهِ وَضَعْفِهِ ، وَمَاهِيَةَ شَهَوَاتِهِ وَنَزَوَاتِهِ . وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - رُوُوفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ لَمْ يُكَلِّفْهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ ، وَلَمْ يَتْرِكْهُمْ لَشَهَوَاتِهِمْ وَخَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ . وَقَدْ كَانَ النَّاسُ لَيْسَ لِبَيْوتِهِمْ سُتُورٌ وَلَا حِجَابٌ . وَهَذَا قَدْ يُؤَدِّي إِلَى نَتَائِجٍ غَيْرِ مَحْمُودَةٍ ، إِذْ إِنَّ غِيَابَ السُّتْرِ يَتَنَاقَضُ مَعَ الْعِفَّةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَيُهْدِدُ أَمْنَ الْمَجْتَمَعِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ . فَقَدْ يَدْخُلُ أَحَدُهُمْ بِلَا اسْتِئْذَانٍ ، فَيَرَى مَا يَكْرَهُهُ ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مَعَ زَوْجَتِهِ فِي الْعِلَاقَةِ الْجِنْسِيَّةِ . فَأَمَرَ اللَّهُ بِالاسْتِئْذَانِ صِيَانَةً لِلْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ ، وَحِفْظًا لَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْأَزْمَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْكَارِثِيَّةِ . فَكَانَتِ السُّتُورُ لِحِفْظِ حُرْمَاتِ النَّاسِ وَأَسْرَارِهِمْ وَبَيْوتِهِمْ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ : ((لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا أَكْثَرُ النَّاسِ آيَةَ الْإِذْنِ ، وَإِنِّي لَأَمُرُ جَارِيَتِي هَذِهِ تَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ)) ١٤ .

هَذَا يُشِيرُ إِلَى الْحَرَصِ الشَّدِيدِ عَلَى صِيَانَةِ تَفَاصِيلِ الْحَيَاةِ الْخَاصَّةِ ، وَمَنْعِ الْآخَرِينَ مِنَ الْاطَّلَاعِ عَلَى الْعَوْرَاتِ وَالْأَسْرَارِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَحِبُّ التَّمَتُّعَ بِالْخُصُوصِيَّةِ ، وَلِهَذَا لَا يُحِبُّ أَنْ يَرَاهُ فِيهَا أَحَدٌ مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التَّوْرَةُ : ٥٩] .

١٣ رواه أبو داود في سننه (٧٧٠ / ٢) برقم (٥١٩٢) ، وصحَّحه الحافظ في الفتح (٢٥ / ١١) .
١٤ رواه أبو داود في سننه (٧٧٠ / ٢) برقم (٥١٩١) ، وابن أبي شَيْبَةَ فِي مُصْنَفِهِ (٤٣ / ٤) برقم (١٧٦١١) ، وصحَّحه الحافظ في الفتح (٣١ / ١١) .

وإذا وصلَ الأطفالُ إلى سنِّ البلوغِ (سنِّ التَّكْلِيفِ) وَجَبَ عليهم أن يَسْتَأْذِنُوا تمامًا كالرِّجَالِ ، في كُلِّ الأوقاتِ ، وينبغي تعليمهم هذا الأدبَ الرَّفِيعَ ، وإرشادهم إليه ، وتنبههم عليه .
كذلك يُوضِّحُ اللهُ لكم أحكامَ الدِّينِ وتعاليمَ الشريعةِ ، واللهُ عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ ، حَكِيمٌ في تَشْرِيعِهِ .
والتَّكْرَارُ للتَّأَكِيدِ والمُبَالَغَةُ في الأمرِ بالاستئذان .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٣٤٨) : ((كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ ، يقول : هذا يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، أحكامَه وشرائعَ دِينِهِ ، كما بيَّنَ لكم أمرَ هؤلاء الأطفالِ في الاستئذانِ بعد البلوغِ ، ﴾ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، يقول : واللهُ عَلِيمٌ بما يُصْلِحُ خَلْقَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَشْيَاءِ ، حَكِيمٌ في تَدْبِيرِهِ خَلْقَهُ)) .

واللهُ يُوضِّحُ للناسِ طريقَ سَعَادَتِهِمْ ، وَيُبَيِّنُ للمُجْتَمَعِ السُّبُلَ المُثَلَى لتحقيقِ العِفَّةِ والطهارةِ . وهذا كُلُّهُ يُؤدِّي إلى صِيَانَةِ المُجْتَمَعِ مِنَ الأَمْرَاضِ الرُوحِيَّةِ والمَادِيَّةِ ، وَيَحْمِي الإنسانَ مِنَ السُّقُوطِ في فِخِّ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَاتِ ، وَمَصِيدَةِ التَّزَوَّاتِ السَّيِّئَةِ ، إِذْ إِنَّ الاستئذانَ مِنْ شأنِهِ حِرَاسَةَ المُجْتَمَعِ مِنَ الانحِرَافِ الأخلاقِيِّ الَّذِي يُفْضِي إلى كَوَارِثِ اجْتِمَاعِيَّةِ هَائِلَةٍ ، كما أَنَّ سَدَّ الذَّرَائِعِ ، وإِغْلَاقِ الطُّرُقِ المُوصِلَةِ إلى الحرامِ ، يَدْفَعَانِ بِاتِّجَاهِ صِنَاعَةِ مُجْتَمَعِ الشَّرْفِ والفضيلةِ . والإِسْلَامُ لا يَنْتَظِرُ وَقُوعَ الدَّاءِ حَتَّى يُقَدِّمَ الدَّوَاءَ ، بَلْ يُقَدِّمُ الدَّوَاءَ قَبْلَ الدَّاءِ ، وَهَذِهِ هِيَ الوَقَايَةُ . وَدِرْهَمٌ وَقَايَةُ خَيْرٌ مِنْ قِنْطَارِ عِلاجِ .

وقال الشُّوكَانِي في فَتْحِ القَدِيرِ (٤ / ٧٦) : ((وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمْ الحُلُمَ ﴾ ، بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ هَاهُنَا حُكْمَ الأَطْفَالِ الأَحْرَارِ إِذَا بَلَغُوا الحُلُمَ ، بَعْدَمَا بَيَّنَّ فِيما مَرَّ حُكْمَ الأَطْفَالِ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ ، فِي أَنَّهُ لا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الاستئذانِ ، فِيما عدا الأوقاتِ الثلاثةَ ، فقال : ﴿ فليستأذِنوا ﴾ ، يعني الَّذِينَ بَلَغُوا الحُلُمَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْكُمْ ﴾ كما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، وَالكَافِ نَعْتٌ مَصْدَرٌ مَحذُوفٌ ، أَي : اسْتَأْذَانًا كما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَالْمَوْصُولُ عِبارةٌ عَنِ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ : ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، الآيةُ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ بَلَغُوا الحُلُمَ يَسْتَأْذِنُونَ فِي جَمِيعِ الأوقاتِ ، كما اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الكِبَارِ ، الَّذِينَ أُمِرُوا بِالاسْتِئْذَانِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْناءِ ، ثُمَّ كَرَّرَ ما تَقَدَّمَ لِلتَّأَكِيدِ ، فقال : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قال عطاءُ : وَاجِبٌ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا إِذَا احْتَلَمُوا ، أحرارًا كانوا أَوْ عبيدًا . وقال الرُّهْرِيُّ : يَسْتَأْذِنُ الرَّجُلُ عَلَى أُمَّه ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ)) .

وقال الحافظ في الفتح (٢٧٧ / ٥) : ((وَقَوْلَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا ﴾ ، في هذه الآية تعليق الحُكْم ببلوغه الحُلْم . وقد أجمع العلماء على أن الاحتلام في الرجال والنساء يلزم به العبادات والحدود وسائر الأحكام)) .

الحُلْم هُوَ الْبُلُوغُ مَبْلَغَ الرَّجَالِ ، ويكون ذلك بخروج المني من الذكر ، وبالحيض من الأنثى ، أو ببلوغهما خمسة عشر عاماً . والاحتلام نُقْطَةُ الْبِدَايَةِ ، والركيزة الأساسية التي تُبْنَى عليها الأحكام الشرعية ، وهو العلامة الفاصلة بين مرحلتين . فإذا احتلم الطفل فعندئذ تسري عليه تعاليم الدين لأنه صار رجلاً مُحَاطَبًا بالأحكام الشرعية ، أي إنه مُكَلَّفٌ في نظر الشريعة ، ومُلزَمٌ بأداء العبادات كاملةً . والأمر يشمل الرجال والنساء معاً .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه كان إذا بلغ بعض ولده الحُلْمَ عَزَلَهُ ، فلم يدخل عليه إلا ياذن^{١٥} .

وعن علقمة قال : جاء رجل إلى عبد الله - يعني ابن مسعود - قال : أستاذن علي أمي ؟ ، فقال : ((ما على كل أحيانها تحب أن تراها))^{١٦} .

وعن عطاء قال : سألت ابن عباس فقلت : أستاذن علي أختي ؟ ، فقال : ((نعم)) ، فأعدت فقلت : أختان في حجري وأنا أمونهما وأنفق عليهما ، أستاذن عليهما ؟ ، قال : ((نعم ، أتحب أن تراهما عريانتيين ؟))^{١٧} .

هذه الأحاديث تمثل منهجاً أخلاقياً متكاملًا لصيانة المجتمع المسلم ، وحفظ الأسرة من الانهيار الأخلاقي ، وحنون الغريزة الشرس . وهذا المنهج يتجلى في سد الدرائع الموصلة إلى الحرام ، وهو بالتأكيد لا يعني عدم الثقة بالآخرين ، أو التشكيك بإيمانهم وأخلاقهم . بل يعني إحاطة المجتمع والأسرة بسور متماسك من الفضيلة يجمع الأعيب الشيطان ، ويُغلق الطريق أمام تأجج الشهوة الإنسانية التي يضعف أمامها الكثيرون .

ولا يمكن إنكار أهمية الاستئذان في هذه المنظومة مهما بلغت درجة القرابة . فالولد قد يرى أباه في وضع غير لائق ، وهذا يؤدي إلى تدمير صورة الأب في الذهن ، وتفتيت الأسرة ، وتكسير

١٥ رواه البخاري في الأدب المفرد (١ / ٣٦٤) برقم (١٠٥٨) ، وصححه الحافظ في الفتح (٢٥ / ١١) .

١٦ رواه البخاري في الأدب المفرد (١ / ٣٦٤) برقم (١٠٥٩) ، وصححه الحافظ في الفتح (٢٥ / ١١) .

١٧ رواه البخاري في الأدب المفرد (١ / ٣٦٥) برقم (١٠٦٣) ، وصححه الحافظ في الفتح (٢٥ / ١١) .

الروابط العائلية ، وتهشيم المفاهيم التربوية ، بحيث لا يمكن إصلاحها مرّةً أُخرى . وقد يرى الرَّجُلُ أُمَّه أو أخته في حالة عُري . وعندئذ يكون الموقف مُحرِّجًا للغاية ، وقد يتطور فيما بعد ليصل إلى زنا المحارم الذي ينتشر في التجمعات البشرية المكشوفة التي لا تهتم بالسُّتْر والعِفَّة . لذلك أراح الإسلام الفردَ والجماعةَ من الوسوس والشُّكوك والشُّبهات والسلوكيات الخاطئة ، وأغلق الطريقَ المُوصل إلى الحرام ، كي يُحافظ المجتمعُ على تماسكه وطهارته وأخلاقه .

وإذا زالت الأخلاقُ وانتحر العفافُ فسوف ينهار المجتمع لا محالة ، لأنه _عندئذ_ يكون قد فقد المناعةَ الذاتية ، وحصانةَ الجبهة الداخلية ، فيسقط في الهاوية السحيقة .

وكما قال الشاعر :

_ وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِن هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا
_ إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِن تَوَلَّتْ مَضَوْا فِي إِثْرِهَا قُدَمَا

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٠] .

والنساءُ العجائزُ اللواتي كَبُرْنَ في السِّنِّ ، فلا يَحِضْنَ ولا يِلْدُنَّ ، وَقَعَدْنَ عن التَّصَرُّفِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُنَّ شَوْقٌ إلى الزَّوْجِ ، ولا يَطْمَعْنَ فيه ، ولا يَرْغَبْنَ فيه ، لانعدام دوافع الشَّهْوَةِ فِيهِنَّ ، فلا حَرَجَ ولا إِثْمَ عليهنَّ في أَنْ يَضَعْنَ بعضَ ثيابهنَّ الظاهرة ، كالرِّداءِ والجلبابِ ، عند المحارمِ والأجانبِ على حَدِّ سَوَاءٍ ، وَيَطْهَرْنَ أمامَ الرِّجَالِ بملابسهنَّ المعتادة التي لا تَلْفَتُ انتباهًا ، ولا تُثِيرُ شَهْوَةً .

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ المرأةَ إِذْ كانَ فيها بَقِيَّةٌ من جَمالٍ ، وهي مَوْضِعُ الشَّهْوَةِ والفِتْنَةِ ، فلا تَدْخُلُ في هذه الآية .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٤٠٤) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة : هُنَّ اللواتي انقطعَ عنهنَّ الحيضُ وَيَسُنُّ مِنَ الْوَلَدِ ، ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ ، أَي : لَمْ يَبْقَ لَهُنَّ تَشَوُّفٌ إِلَى التَّزْوُجِ ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، أَي : لَيْسَ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَرَجِ فِي التَّسْتُرِّ كَمَا عَلَى غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٣٤٨) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَاللَّوَاتِي قَدْ قَعَدْنَ عَنِ الْوَلَدِ مِنَ الْكِبَرِ مِنَ النِّسَاءِ فَلَا يَحِضْنَ وَلَا يِلْدُنَّ ، واحدتهن قَاعِدٌ ، ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ ، يَقُولُ : اللَّاتِي قَدْ يَسُنُّ مِنَ الْبُعُولَةِ _ جَمْعُ بَعْلٍ وَهُوَ الزَّوْجُ _ ، فَلَا يَطْمَعْنَ فِي الْأَزْوَاجِ ، ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

جُنَاحُ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴿١٢﴾ ، يقول : فَلَيْسَ عَلَيْهِنَ حَرَجٌ وَلَا إِثْمٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ، يعني جلابيبهن ، وهي القِنَاعُ الذي يكون فوق الخِمَارِ ، والرِّدَاءُ الذي يكون فوق الثياب ، لا حَرَجٌ عليهن أَنْ يَضَعْنَ ذَلِكَ عِنْدَ الْمَحَارِمِ مِنَ الرِّجَالِ ، وَغَيْرِ الْمَحَارِمِ مِنَ الْغُرَبَاءِ ، غَيْرِ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ)) .
وقال القُرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٨٢) : ((القواعد : العَجَزُ اللواتي قَعَدْنَ عَنِ التَّصَرُّفِ مِنَ السَّنِّ ، وَقَعَدْنَ عَنِ الْوَلَدِ وَالْمَحِيضِ ، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ . قَالَ رَبِيعَةُ : هِيَ الَّتِي إِذَا رَأَيْتَهَا تَسْتَقْدِرُهَا مِنْ كِبَرِهَا)) .

وفي واقع الأمر ، إِنَّ الْمَرْأَةَ الطَّاعِنَةَ فِي السَّنِّ سَمِّيَتْ قَاعِدًا ، لِأَنَّهَا تَكْثُرُ الْقُعُودَ ، فَهِيَ إِذَا كَبُرَتْ فِي السَّنِّ قَلَّتْ حَرَكَتُهَا ، وَضَعُفَتْ قُدْرَتُهَا عَلَى التَّصَرُّفِ وَمُمَارَسَةِ الْأَنْشِطَةِ الْحَيَاتِيَّةِ .
وقد تَمَّ التَّخْفِيفُ عَنِ الْقَوَاعِدِ لِعَدَمِ رَغْبَتِهِنَّ فِي الرِّجَالِ ، وَعَدَمِ رَغْبَةِ الرِّجَالِ فِيهِنَّ ، فَلَسَّنَ مَوْضِعًا لِلشَّهْوَةِ وَلَا الْفِتْنَةِ . وقال القُرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٨٢) : ((إِنَّمَا خَصَّ الْقَوَاعِدَ بِذَلِكَ لِانْصِرَافِ الْأَنْفُسِ عَنْهِنَّ ، إِذْ لَا مَذْهَبَ لِلرِّجَالِ فِيهِنَّ ، فَأَبِيحٌ لَهُنَّ مَا لَمْ يُحِبَّ لِغَيْرِهِنَّ ، وَأَزِيلٌ عَنْهِنَّ كُلْفَةُ التَّحَفُّظِ الْمُتَعَبِ لَهُنَّ)) .

﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ ، أَي : غَيْرَ مُظْهِرَاتِ الزَّيْنَةِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي أُمِرْنَ بِإِخْفَائِهَا كَالشَّعْرِ وَالنَّخْرِ وَالسَّاقِ . وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَتَبَرَّجُ ، وَتُبْرِزُ مَحَاسِنَهَا ، إِنَّمَا تَهْدَفُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَى جَذْبِ أَعْيُنِ الرِّجَالِ وَإِغْرَائِهِمْ وَاسْتِمَالَتِهِمْ إِلَيْهَا . وَحَقِيقَةُ التَّبَرُّجِ إِظْهَارُ مَا يَجِبُ إِخْفَاؤُهُ ، وَقَدْ تَحَرَّصَ عَجُوزُ شَمْطَاءَ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ بِهَا جَمَالٌ^{١٨} .

١٨ يُقَالُ: تَبَرَّجَتِ السَّمَاءُ ، أَي تَزَيَّنَتْ بِالْكَوَاكِبِ . وَتَبَرَّجَتِ الْمَرْأَةُ ، أَي أَظْهَرَتْ زِينَتَهَا وَمَحَاسِنَهَا . [انظر المعجم الوجيز ، ص ٤٣] . وقال إبراهيم أبو عواد في عقائد العرب في الجاهلية (ص ١١٨) : ((والتَّبَرُّجُ هو إِظْهَارُ الْمَرْأَةِ لَزِينَتِهَا وَمِفَاتِنِهَا ، وَهُوَ انْعِكَاسٌ طَبِيعِيٌّ لِحَالَةِ الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي سَلَّعَتِ الْمَرْأَةَ (أَي جَعَلَتْهَا سِلْعَةً دَنِيئَةً) ، وَأَدَخَلَتْهَا فِي التَّشْيُؤِ الرَّخِيفِ (أَي جَعَلَتْهَا شَيْئًا غَيْرَ ذِي قِيَمَةٍ) ، فَصَارَتِ الْمَرْأَةُ تُضَحِّي بِجَسَدِهَا وَتُعْرِضُهُ عَلَى الْعَامَّةِ مَقَابِلَ أَنْ تَلْقَى الْإِهْتِمَامَ وَالْإِشْبَاعَ الذَّاتِيَّ ، وَلَكِي تُفْنِعَ نَفْسَهَا أَنَّهُمَا قَادِرَةٌ عَلَى الْإِغْرَاءِ وَجَذْبِ الرِّجَالِ . وَالْمَرْأَةُ تَشْعُرُ بِالْإِهْتِمَامِ حِينَ تَفْقَدُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِغْرَاءِ ، أَوْ حِينَ تَشْعُرُ أَنَّهَا غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهَا . لِذَا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْإِغْرَاءِ وَتَفْعِيلُهُ دَاخِلَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ لِئَلَّا تَبْحَثَ الْمَرْأَةُ عَمَّنْ تُغْرِيه خَارِجَ نِطَاقِ الزَّوْجِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى إِظْهَارِ زِينَتِهَا ، وَكَشَفِ مِفَاتِنِهَا ، لِإِغْرَاءِ الرِّجَالِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى اِهْتِمَامِهِمْ ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَمَشِي بَيْنَ الرِّجَالِ ، كَمَا أَنَّ مِشْيَتَهَا فِيهَا تَكْسُرُ وَتَعْنُجُ وَتَبْحَثُ)) .

وقال البغوي في تفسيره (٦٢ / ١) : ((غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ)) ، أي : من غير أن يُرَدْنَ بوضع الجلباب والرِّداء إظهار زينتهن . والتَّبَرُّجُ هو أن تُظْهِرِ الْمَرْأَةُ مِنْ مَحَاسِنِهَا مَا يَبْغِي لَهَا أَنْ تَتَنَبَّهَ عَنْهُ)) .

وفي الدر المنثور (٢٢٢ / ٦) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة أنها سُئِلَتْ عَنِ الْخِضَابِ ، وَالصَّبَاغِ ، وَالقُرْطَيْنِ ، وَالخَلْخَالِ ، وَخَاتَمِ الذَّهَبِ ، وَثِيَابِ الرَّقَاقِ ، فَقَالَتْ : يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ، قِصَّتُكُنَّ كُلُّهَا وَاحِدَةٌ ، أَحَلَّ اللَّهُ لَكُنَّ الزَّيْنَةَ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)) .

والخِضَابُ (ما يُخَضَّبُ بِهِ مِنْ حِنَاءٍ وَنَحْوِهِ). وَالصَّبَاغُ مَا يُصْبَغُ بِهِ. وَنُلاحِظُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْحَدِيثِ هِيَ أَعْمَدَةُ حَيَاةِ الْمَرْأَةِ ، فَالْمَرْأَةُ زِينَةٌ فِي حَدِّ ذَاتِهَا . وَهِيَ حَرِيصَةٌ أَشَدَّ الْحَرِصِ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِنَفْسِهَا وَجَسَدِهَا ، وَالظُّهُورِ فِي أَجْمَلِ صُورَةٍ . وَهَذِهِ هِيَ قِصَّةُ كُلِّ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ . وَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَهُنَّ الزَّيْنَةَ ضِمْنَ ضَوَابِطِ شَرْعِيَّةٍ وَاضِحَةٍ ، بَعِيدًا عَنِ التَّبَرُّجِ وَالْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيِّ .

﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ ، أَي : وَأَنْ يَسْتَتِرْنَ بِارْتِدَاءِ الْجِلْبَابِ ، وَيَلْبَسْنَ الشَّيْبَ مِثْلَ الشَّابَّاتِ ، مُبَالَغَةً فِي السُّتْرِ وَالتَّعْفُفِ خَيْرٌ لَهُنَّ وَأَكْرَمُ وَأَطْهَرُ وَأَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . أَي إِنْ تَرَكَ وَضَعَهُنَّ لِثِيَابِهِنَّ _ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا _ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لَهُنَّ ، لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ التُّهْمَةِ .

وقال البغوي في تفسيره (٦٢ / ١) : ((وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ)) فَلَا يُلْقِينَ الْجِلْبَابَ وَالرِّدَاءَ ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾)) . اهـ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٥٧ / ٣) : ((وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ)) أَي : يَطْلُبْنَ الْعِفَّةَ عَنِ وَضْعِ الثِّيَابِ فَيَسْتَتِرْنَ ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ ، خَيْرُهُ : ﴿ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾)) .

﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، أَي : وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِقَوْلِكُمْ ، عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ . أَي إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ خَفَايَا النُّفُوسِ ، وَيُحِيطُ بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيُجَازِي كُلَّ إِنْسَانٍ بِعَمَلِهِ . وَفِيهِ وَعْدٌ وَتَحْذِيرٌ .

وقال الطبري في تفسيره (٣٤٨ / ٩) : ((وَاللَّهُ سَمِيعٌ)) مَا تَنْطِقُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بِمَا تُضْمِرُهُ صُدُورِكُمْ ، فَاتَّقُوهُ أَنْ تَنْطِقُوا بِأَلْسِنَتِكُمْ مَا قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ أَنْ تَنْطِقُوا بِهِ ، أَوْ تُضْمِرُوا فِي صُدُورِكُمْ مَا قَدْ كَرِهَهُ لَكُمْ ، فَتَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ مِنْهُ عِقَابَهُ)) .

وروى أبو داود في سننه (٤٦١ / ٢) عن ابن عباس : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الْآيَةَ ، فَنَسَخَ وَاسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الْآيَةَ .

وفي عون المعبود (١١٣ / ١١) : ((فَنَسَخَ وَاسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ) أَي : الْمَذْكُورُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الْآيَةَ . وَالْفِعْلَانِ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ، وَنَائِبٌ فَاعِلُهُمَا هُوَ قَوْلُهُ : ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الْإِخ . ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ، أَي : اللَّاتِي قَعَدْنَ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَالِدِ

لِكِبْرِهِنَّ ﴿ اللّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الآية . وَتَمَامُ الْآيَةِ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . والحاصل أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى بِعُمُومِهَا كَانَتْ شَامِلَةً لِلْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ أَيْضًا ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ خَرَجْنَ مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ الْأُولَى ، فَلَهُنَّ أَنْ لَا يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ . قَالَ الْمُنْذَرِيُّ : فِي إِسْنَادِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ ، وَفِيهِ مَقَالٌ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [التَّوْرَةُ: ٦١] .

إِنَّ الْمُجَاهِدِينَ _ بَوَضَّعَهُمْ حَمَلَةَ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ النَّبِيلَةَ _ يَبْغِي أَنْ يَكُونُوا أَصْحَابَ عُقُولٍ سَلِيمَةٍ وَأَجْسَامٍ صَحِيحَةٍ . فَالْعُقْلُ السَّلِيمُ فِي الْجِسْمِ السَّلِيمِ . وَاللَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا . وَهَنَكَ أَشْخَاصٌ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى الْجِهَادِ مِثْلَ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ ، وَهَؤُلَاءِ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، وَلَا لُؤْمَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، بِسَبَبِ ضَعْفِهِمْ ، وَوَضْعِهِمُ الصَّحِي الصَّعْبِ . وَالْجِهَادُ عَنْهُمْ مَرْفُوعٌ . وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٣ / ٤٠٦) : ((اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ _ رَحِمَهُمُ اللَّهُ _ فِي الْمَعْنَى الَّتِي لَهَا أَجَلُهُ رُفِعَ الْحَرَجُ عَنِ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ هَهُنَا . فَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدٍ بِنِ اسْمٍ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ... أَيِ إِنَّهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ لِضَعْفِهِمْ وَعَجْزِهِمْ)) .

وَقَدْ وَرَدَ سَبَبٌ آخَرَ لِنَزُولِ الْآيَةِ : ((عَنْ مُجَاهِدٍ : كَانَ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِالْأَعْمَى أَوْ الْأَعْرَجِ أَوْ الْمَرِيضِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُخِيهِ أَوْ قَرِيبِهِ ، فَكَانَ الزَّمَنِيُّ _ الضَّعَافُ بِسَبَبِ الْكِبَرِ أَوْ الْعِلْلِ الْمُزْمِنَةِ _ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ إِنَّمَا يَذْهَبُونَ بِنَا إِلَى بُيُوتِ غَيْرِهِمْ . فَنَزَلَتِ الْآيَةُ رُخْصَةً لَهُمْ)) ١٩ .

هَذِهِ الْفِتْنَةُ الضَّعِيفَةُ حِينَ يَتَوَاجَدُونَ فِي بُيُوتِ النَّاسِ يَشْعُرُونَ بِالْإِحْرَاجِ ، فَقَدْ تُقَدِّمُ لَهُمُ النِّسَاءُ بَعْضَ الطَّعَامِ ، أَوْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ أَشْخَاصٍ غُرَبَاءَ لَا يَعْرِفُونَهُمْ . وَهَذَا يُصَيِّبُهُمُ بِالْانْقِبَاضِ وَعَدَمِ الرَّاحَةِ ، وَقَدْ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ تُقْلَاءُ عَلَى الْآخَرِينَ ، فَنَزَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ لِتَرْفَعَهُمْ عَنِ الْحَرَجِ . وَعَلَى أَيْتِهِ حَالٌ ، فَالْآيَةُ شَامِلَةٌ وَعَامَّةٌ فِي دَلَالَتِهَا ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

١٩ دَكَرَ هَذَا الْأَثَرُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٩ / ٥٢٩) وَصَحَّحَهُ .

وليس عليكم أيها الناس إثم ولا لوم أن تأكلوا من بيوت أزواجكم وأولادكم . وقد جعل الله بيوت أولادهم بيوتهم، لأن ولد الرجل من كسبه، ومال الولد كمال أبيه . وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ((إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم))^{٢٠} .
 ولا إثم عليكم في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب المذكورين في الآية . وقال الرازي في التفسير الكبير (٣٦ / ٢٤) : ((والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان ، لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب)) .
 أو ما ملكتم مفاتيحه من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها ، أو أن يكون وكيل بستان أو ماشية ، فإنه يأكل من ثماره ، ويشرب من لبنها .

وفي تفسير البغوي (١ / ٦٢) : ((قال ابن عباس رضي الله عنهما : عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته ، لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ، ويشرب من لبن ماشيته ، ولا يحمل ، ولا يدخر . وقال الضحاك: يعني في بيوت عبيدكم ومماليككم، وذلك أن السيد يملك منزل عبده ، والمفاتيح الخزان ، لقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . ويجوز

٢٠ رواه الترمذي في سننه (٣ / ٦٣٩) ، وقال : ((حسن صحيح)) . ومعنى الحديث : إن أفضل وأهنأ ما استفدتم به من المال في جميع أحوالكم وشؤونكم ، هو ما كان بسبب عملكم بأيديكم ، وحصلتم عليه بأنفسكم ، في الصناعة أو التجارة أو الزراعة . وسبب ذلك الفضل أن في الكسب حسن توكل على الله تعالى . والتعبير بالأكل لأنه أغلب الحال في الاستفادة من المال . وإن ما عمله الولد بيديه كأن والده عمله ، فإن أكل منه الولد فهو أطيب الرزق أيضاً ، لأن الابن جزء من والده ، والوالد قد طلبه ، وسعى في تحصيله ، وحكم الولد هو حكم والده ، وهو مشارك له ، وله الأكل من مال ولده . والحديث يدل على الإباحة لا التملك ، لأن مال الولد له ، وزكاته عليه ، وهو موروث عنه . وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٢٥) : (((إن أطيب ما أكلتم) أي أحله وأهنأه (من كسبكم) يعني إن أطيب أكلكم مما كسبتموه بغير واسطة لقربه للتوكل ، وتعددي نفعه ، وكذا بواسطة أولادكم ، كما بينه بقوله : (وإن أولادكم من كسبكم) لأن ولد الرجل بعرضه ، وحكم بعرضه حكم نفسه ، ويسمى الولد كسباً مجازاً ، وذلك لأن والده سعى في تحصيله ، والكسب الطلب والسعي في الرزق . ونفقة الأصل الفقير واجبة على فرعه عند الشافعي رضي الله عنه . وقوله : (من كسبكم) خير إن ، ومن ابتدائية ، يعني إن أطيب أكلكم مبتدئاً بما كسبتموه بغير واسطة ، أو بواسطة من كسب أولادكم)) .

أن يكون الذي يُفْتَحُ به. قال عكرمة: إذا مَلَكَ الرَّجُلُ المِفْتَاحَ فهو خازن، فلا بأس أن يَطْعَمَ الشيءَ اليسير، وقال السُّدي: الرَّجُلُ يُؤَلِّي طَعَامَهُ غَيْرَهُ يَقُومُ عَلَيْهِ، فلا بأس أن يأكل منه. وقال قوم: ﴿ ما مَلَكَكُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ما خَزَنْتُمُوهُ عِنْدَكُمْ. قال مُجاهد وقتادة: من يُبِوتَ أنْفُسَكُمْ مِمَّا أَحْرَزْتُمْ وَمَلَكَكُمْ)). وفي مجمع الزوائد للهيثمي (٧ / ١٩٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ الآية . عن عائشة قالت : كان المسلمون يَرْعَبُونَ فِي التَّغْيِيرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيَدْفَعُونَ مَفَاتِحَهُمْ إِلَى ضَمَنَائِهِمْ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ : قَدْ أَخْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا أَحْبَبْتُمْ ، فَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَنَا ، إِنَّهُمْ أَذْنُوا عَنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ﴾ ، إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ . رواه البَرَزَارُ ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ)) .

كان المسلمون يُحِبُّونَ الجِهَادَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيُرِيدُونَ الخُرُوجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيُعْطُونَ مَفَاتِحَ بُيُوتِهِمْ إِلَى ضَمَنَائِهِمْ ، وَالضَّمَنَاءُ جَمْعُ ضَمِينٍ ، وَهُوَ الكَفِيلُ الَّذِي ضَمِنَ الشَّيْءَ ، وَيَسْمَحُونَ لَهُمْ بِالْأَكْلِ مِمَّا يُحِبُّونَ ، فَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُمُ الأَكْلُ ، لِأَنَّ إِذْنَهُمْ بِذَوْنِ طِيبِ نَفْسٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ الحَرَجَ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ وَلَا لَوْمَ فِي الأَكْلِ مِنَ البُيُوتِ ، وَالتَّصَرُّفِ فِيهَا بِإِذْنِ أَصْحَابِهَا .

أَوْ بُيُوتِ أَصْدِقَائِكُمْ وَأَصْحَابِكُمْ . وَالصَّدِيقُ مَنْ يَصْدُقُكَ فِي مَوَدَّتِهِ ، وَتَصَدَّقُهُ فِي مَوَدَّتِكَ ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتَهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ تَأْكُلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ . وَقَالَ البِيضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٠١) : ((﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ ، أَوْ بُيُوتِ صَدِيقِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ أَرْضَى بِالتَّبَسُّطِ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَأَسْرُ بِهِ ، وَهُوَ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ كَالخَلِيطِ ، هَذَا كُلهُ إِثْمًا يَكُونُ إِذَا عَلِمَ رِضَا صَاحِبِ الْبَيْتِ بِإِذْنِ أَوْ قَرِينَةٍ ، وَلِذَلِكَ خَصَّصَ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ يُعْتَادُ التَّبَسُّطَ بَيْنَهُمْ ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ فُنُسِخَ ، فَلَا احْتِجَاجَ لِلْحَنْفِيَةِ بِهِ عَلَى أَنْ لَا قَطْعَ بِسَرِقَةِ مَالِ المُحْرَمِ)) .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ أَنْ تَأْكُلُوا مُجْتَمِعِينَ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ . وَقَدْ نَزَلَتْ فِي مَن يَتَضَاقِقُ أَنْ يَأْكُلَ وَخَدَّهُ ، وَيَعْتَبِرُهُ خَزْيًا وَعَارًا ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَنْ يَأْكُلُ مَعَهُ يَتْرَكَ الأَكْلَ . وَقَالَ القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٢ / ٢٩١) : ((قِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَنِي لَيْثِ بْنِ بَكْرٍ ، وَهُمْ حَيٌّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَا يَأْكُلُ وَخَدَّهُ ، وَيَمْكُثُ أَيَّامًا جَانِعًا حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُؤَاكِلُهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَخَدِي

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم عليه السلام ، فإنه كان لا يأكل وخذته . وكان بعض العرب إذا كان له صيف لا يأكل إلا أن يأكل مع صيفه ، فنزلت الآية مبينة سنة الأكل ، ومذهبة كل ما خالفها من سيرة العرب ، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً ، نحت به نحو كرم الخلق ، فأفرطت في إلزامه ، وإن إحضار الأكيل لحسن ، ولكن بألا يحرم الانفراد)) .
لقد أباح الله للرجل أن يأكل وخذته ، ومع الجماعة . والأكل مع الجماعة أفضل وأكثر بركة ، لما فيه من التآلف والاجتماع وتقوية الروابط الاجتماعية .

وفي الحديث أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، إننا نأكل ولا نشبع، قال: ((فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ))، قالوا: نعم، قال: ((فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ))

٢١

٢١ رواه أبو داود في سننه (٣٧٣ / ٢) . وقال العراقي في تحريج الإحياء (٤ / ٢) : ((أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث وحشي بن حرب بإسناد حسن)) .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه أهمية التآلف والاجتماع واحترام نعم الله ، والحرص على الخيرات والبركات . وقد شكوا الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يأكلون ولا يشبعون ، وقال لهم: " فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ " ، أي: تفترون عند الأكل ، وكل واحد يأكل وخذته ، وأخبروه بأن هذا ما يحدث ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم أن يأكلوا مجتمعين غير متفرقين ، ويذكروا اسم الله على طعامهم ، وهذا يؤدي إلى البركة والشبع والرضا . وفي هذا دليل واضح على استحباب الاجتماع على الطعام ، وأن لا يأكل الرجل وحيداً . والاجتماع سبب للنعمه والبركة . وقال المناوي في فيض القدير (١٥٢ / ١) : ((اجتمعوا) بمزة وصل مكسورة ، خطاب لمن شكوا إليه أنهم يأكلون فلا يشبعون (على طعامكم) ندباً من الاجتماع ضد الافتراق (وادكروا) حال شروعكم في الأكل (اسم الله عليه) بأن تقولوا في أوله : بسم الله ، والأكمل إكمال البسملة فإنكم إن فعلتم ذلك (يبارك) أي: الله ، فهو مبني للفاعل ، ويجوز للمفعول (لكم فيه) فتشبعون ، فالاجتماع على الطعام ، وتكثر الأيدي عليه ، ولو من الأهل والخدم مع التسمية سبب للبركة ، التي هي سبب للشبع والخير ، والتسمية على الأكل سنة كفاية ، والأكمل أن يُسمي كل واحد منهم ، فإن ترك التسمية أوله عمداً أو سهواً تداركها في أثناءه)) اه . وفي نفس المرجع (٤٤ / ٥) : ((قال بعضهم: وفي الأكل مع الجماعة فوائد ، منها : ائتلاف القلوب ، وكثرة الرزق والمدد ، وامتنال أمر الشارع ، لأنه تعالى =

إذا دخلتم بيوتاً فليُسلِّمَ بعضكم على بعض ، أي : إذا دَخَلَ المَرءُ بَيْتَهُ فليُسلِّمَ على أهله
والموجودين فيه، وحيَّوهم بتحيَّة الإسلام " السَّلَام عليكم" ، وهي تَحِيَّة مُبَارَكَةٌ عَظِيمَةٌ طَيِّبَةٌ حَسَنَةٌ ،
تَشْتَمِلُ على الدُّعَاءِ بِالخَيْرِ ، وفيها الأجر العظيم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٩١) : ((وَصَفَهَا بِالْبِرْكََةِ ، لِأَنَّ فِيهَا الدُّعَاءَ ، وَاسْتِجَابَةَ
مَوَدَّةِ المُسَلِّمِ عَلَيْهِ ، وَوَصَفَهَا أَيْضًا بِالطَّيْبِ ، لِأَنَّ سَامِعَهَا يَسْتَطِيبُهَا)) .

وقال الواحدي في الوجيز (ص ٧٧٠) : ((﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ،
فَلْيُسَلِّمَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ . وَقِيلَ : إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا خَالِيَةً فَلْيَقُلْ الدَّاخِلُ : السَّلَامُ عَلَيْنَا ، وَعَلَى
عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ)) .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٤ / ٧٧) : ((أَخْرَجَ ابْنَ المُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَالبَيْهَقِي
فِي الشُّعْبِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، يَقُولُ : إِذَا
دَخَلْتُمْ بُيُوتَكُمْ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴿ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، وَهُوَ السَّلَامُ ، لِأَنَّهُ اسْمُ اللَّهِ ، وَهُوَ
تَحِيَّةُ أَهْلِ الجَنَّةِ . وَأَخْرَجَ البُخَارِيُّ وَابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزُّبَيْرِ ،
عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ مُبَارَكَةٌ
طَيِّبَةٌ ﴾)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى
أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، قَالَ : ((هُوَ المَسْجِدُ إِذَا دَخَلْتَهُ فَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْنَا ، وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ))^{٢٢} .
وعن نافع أن عبد الله بن عمر _ رضي الله عنهما _ قَالَ : ((إِذَا دَخَلَ البَيْتَ غَيْرَ المَسْكُونِ ،
فَلْيَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْنَا ، وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ))^{٢٣} .

=أَمَرْنَا بِإِقَامَةِ الدِّينِ ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ فِيهِ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ ذَلِكَ إِلَّا بِاتِّلَافِ القُلُوبِ ، وَلَا تَأَلَّفَ إِلَّا بِالاجْتِمَاعِ
عَلَى الطَّعَامِ . وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَحَدَهُ ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ _ يَعْنِي عَطَاءَهُ _ كَمَا مَرَّ فِي حَدِيثٍ . فَمَنْ فَعَلَ
ذَلِكَ ، وَأَرَادَ مِنَ النَّاسِ نُصْرَتَهُ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، فَقَدْ أَتَى البُيُوتَ مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا ، وَرُبَّمَا خَدَّلُوهُ عِنَادًا
لِبُغْضِهِمْ لَهُ ، إِذِ البَحِيلُ مَبْغُوضٌ وَلَوْ كَثُرَ تَعَبُّدُهُ ، وَالسَّخِي حُبُوبٌ وَلَوْ فَاسَقًا ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ)) .

٢٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٣٤) برقم (٣٥١٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٣ رواه البخاري في الأدب المفرد (١ / ٣٦٣) ، وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٢٠) : أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ
فِي الأَدَبِ المُفْرَدِ وَابْنَ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، كما وَضَحَ اللَّهُ لَكُمْ هذه الأشياء ، كذلك يُوضِّحُ لَكُمْ أَحْكَامَ الدِّينِ وَمَعَالِمَ الشَّرِيعَةِ ، كَيْ تَفْهَمُوا ذَلِكَ ، وَتَعْمَلُوا بِهِ .
 وقال الطبري في تفسيره (٣٥١ / ٩) : ((قَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : هَذَا يُفَصِّلُ اللَّهُ لَكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ ، فَيُبَيِّنُهَا لَكُمْ ، كَمَا فَصَّلَ لَكُمْ فِي هَذَا الْآيَةِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ فِيهَا ، وَعَرَّفَكُمْ سَبِيلَ الدُّخُولِ عَلَى مَنْ تَدْخُلُونَ عَلَيْهِ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، يَقُولُ : لِكَيْ تَفْقَهُوا عَلَى اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَأَدْبَهُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٦٣ - ٦٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ . فِي سَبَبِ نَزُولِهَا خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النِّسَاءُ : ٢٩] ، تَخَرَّجَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مُوَآكَلَةِ الْمَرَضِيِّ وَالزَّمْنِيِّ وَالغُمِّيِّ وَالغُرْجِ ، وَقَالُوا : الطَّعَامُ أَفْضَلُ الْأَمْوَالِ ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ ، وَالْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ مَوْضِعَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ ، وَالْمَرِيضُ لَا يَسْتَوْفِي الطَّعَامَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ نَاسًا كَانُوا إِذَا خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَضَعُوا مِفْتَاحَ بُيُوتِهِمْ عِنْدَ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجِ وَالْمَرِيضِ ، وَعِنْدَ أَقْرَابِهِمْ ، وَكَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي بُيُوتِهِمْ إِذَا احتاجوا ، فَكَانُوا يَتَّقُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ، وَيَقُولُونَ : نَخْشَى أَنْ لَا تَكُونَ أَنْفُسُهُمْ بِذَلِكَ طَيِّبَةً ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْعُرْجَانَ وَالْعُمِيَانَ كَانُوا يَمْتَنِعُونَ عَنْ مُوَآكَلَةِ الْأَصْحَاءِ ، لِأَنَّ النَّاسَ يَتَّقِدُونَهُمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ . وَالرَّابِعُ أَنَّ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مَا يُطْعَمُونَ الْمَرِيضَ وَالزَّمْنَ ، ذَهَبُوا بِهِ إِلَى بُيُوتِ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَبَعْضُ مَنْ سَمَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَكَانَ أَهْلُ الزَّمَانَةِ يَتَخَرَّجُونَ مِنْ أَكْلِ ذَلِكَ الطَّعَامِ ، لِأَنَّهُ أَطْعَمَهُمْ غَيْرَ مَالِكِهِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ مُجَاهِدٌ . وَالخَامِسُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي إِسْقَاطِ الْجِهَادِ عَنْ أَهْلِ الزَّمَانَةِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْآيَةِ ، قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ . فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ : لَيْسَ عَلَيْكُمْ فِي الْأَعْمَى حَرَجٌ أَنْ تَأْكُلُوا مَعَهُ ، وَلَا فِي الْأَعْرَجِ ، وَتَكُونَ " عَلَى " بِمَعْنَى " فِي " ، ذَكَرَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ ، وَكَذَلِكَ يَخْرُجُ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ بِمَا يَلِيْقُ بِهِ . وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ آخِرَ الْكَلَامِ : ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ ، وَأَنَّ مَا بَعْدَهُ مُسْتَأْنَفٌ لَا تَعْلُقُ لَهُ بِهِ ، وَهُوَ يُقَوِّي قَوْلَ الْحَسَنِ وَابْنِ زَيْدٍ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهَا بُيُوتُ الْأَوْلَادِ . وَالثَّانِي الْبُيُوتُ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا ، وَهُمْ فِيهَا عِيَالٌ غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونُ الْخُطَابُ لِأَهْلِ الرَّجُلِ وَوَلَدِهِ وَخَادِمِهِ ، وَمَنْ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْزَلُهُ ، وَنَسَبُهَا إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ سَكَّانُهَا . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا بُيُوتِهِمْ ، وَالْمُرَادُ أَكْلَهُمْ مِنْ مَالِ

عِيَالِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ، لِأَنَّ بَيْتَ الْمَرْأَةِ كَبَيْتِ الرَّجُلِ. وَإِنَّمَا أَبَاحَ الْأَكْلَ مِنْ بَيْوتِ الْقَرَابَاتِ الْمَذْكُورِينَ لِجَرِيَانِ الْعَادَةِ بِبَدْلِ طَعَامِهِمْ لَهُمْ، فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ وَرَاءَ حِرْزٍ لَمْ يَجْزُ هُنَاكَ الْحِرْزُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُ الْوَكِيلُ لَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ الْيَسِيرَ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ... . وَالثَّانِي بَيْتُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَمْلِكُهُ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ. وَالثَّلَاثُ بَيْتُ الْعَبِيدِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ فِي الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَازِيًا، وَخَلَّفَ مَالِكَ بْنَ زَيْدٍ عَلَى أَهْلِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ وَجَدَهُ مَجْهُودًا، فَقَالَ: تَحَرَّجْتُ أَنْ أَكُلَ مِنْ طَعَامِكَ بَعِيرًا إِذْ ذَٰلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَكَانَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ يَرِيَانِ الْأَكْلَ مِنْ طَعَامِ الصَّدِيقِ بَعِيرًا اسْتِئْذَانًا جَائِزًا. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾، فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّ حَيًّا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لَيْثٍ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ الطَّعَامَ وَحْدَهُ، فَرُبَّمَا قَعَدَ الرَّجُلُ وَالطَّعَامُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الرَّوْحِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ. وَالثَّانِي أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ إِلَّا مَعَ ضَيْفِهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَرُخِّصَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا، قَالَهُ عِكْرَمَةُ. وَالثَّلَاثُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ مُؤَاكَلَةِ أَهْلِ الضَّرِّ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَسْتَأْثِرُوا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ الْجَمَاعِ عَلَى الطَّعَامِ، لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي مَا كُلُّهُمْ، وَزِيَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فَوُضِعَ عَلَيْهِمْ، وَقِيلَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ أَيُّ مُجْتَمَعِينَ ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾، أَيُّ: مُتَفَرِّقِينَ، قَالَهُ ابْنُ قَتَيْبَةَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّهَا بَيْوتُ أَنْفُسِكُمْ، فَسَلَّمُوا عَلَى أَهْلِيكُمْ وَعِيَالِكُمْ. قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَطَاوُوسُ وَقَتَادَةُ. وَالثَّانِي أَنَّهَا الْمَسَاجِدُ فَسَلَّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَالثَّلَاثُ بَيْوتُ الْغَيْرِ، فَالْمَعْنَى: إِذَا دَخَلْتُمْ بَيْوتَ غَيْرِكُمْ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِمْ، قَالَهُ الْحَسَنُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَحِيَّةٌ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: هِيَ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْمَصْدَرِ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَسَلَّمُوا﴾ بِمَعْنَى فَحِيَّوْا، وَلِيُحَيِّيَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قَالَ مُقَاتَلُ: ﴿مُبَارَكَةٌ﴾ بِالْأَجْرِ ﴿طَيِّبَةٌ﴾ أَيُّ: حَسَنَةٌ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التَّوْر: ٦٢] ٢٤.

٢٤ فِي فَتْحِ الْبَارِي (٦ / ١٢١): ((قَالَ ابْنُ التَّيْنِ : هَذِهِ الْآيَةُ احْتِجَّ بِهَا الْحَسَنُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَذْهَبَ مِنَ الْعَسْكَرِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ الْأَمِيرَ. وَهَذَا عِنْدَ سَائِرِ الْفُقَهَاءِ كَانَ خَاصًّا بِالنَّبِيِّ ﷺ ، كَذَا قَالَ =

هنا تظهر حقيقة الإيمان وتطبيقاته العملية . فالمؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقَّ الإيمان ، هم الذين أقرُّوا بوحداية الله ، وصدَّقوا بنبوَّة مُحَمَّد ﷺ . وإذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمرٍ يجمعهم كصلاة الجمعة والعِيدَيْن ، أو حربٍ ، أو مشورةٍ ، لم يتزكوه وحيداً ، ولم ينصرفوا إلا بعد أخذ الإذن منه . لقد أمرهم الله بالاستئذان عند الانصراف ، وهنا يتجلى احترام الرسول ﷺ وتقديره ، والاعتراف به قائداً ومرجعاً وقُدوةً ساميةً ومثلاً أعلى . و ﴿ إِنَّمَا ﴾ تُفيد الحصر . يعني : لا يكتمل إيمان الإنسان إلا بالخضوع التام لله ورسوله ﷺ قولاً وفعلاً .

قال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٠٩) : ((وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدُّخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيَّما إذا كانوا في أمرٍ جامع مع الرسول _ صلوات الله وسلامه عليه _ من صلاة جُمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك . أمرهم الله تعالى أن لا يتفرَّقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين)) .

واستئذان الرسول ﷺ عند الانصراف دليلٌ على كمال الإيمان ، لأنه تعظيمٌ للرسول ﷺ واحترامٌ له ، وتصديقٌ بما جاء به . كما أن عملية الاستئذان تُميِّز المؤمنين من المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون ويفرُّون من مجلس الرسول ﷺ . ولا شك أن الخروج بدون استئذان الرسول ﷺ جريمةٌ شنيعةٌ وذنبٌ عظيم ، لذلك جعل الله عملية الاستئذان في المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله ﷺ .

=والذي يظهر أنَّ الخصوصية في عموم وجوب الاستئذان، وإلا فلو كان بمن عيّنه الإمام، فطراً له ما يقتضي التخلف أو الرجوع ، فإنه يحتاج إلى الاستئذان)) اهـ . أمَّا سبب نزول الآية ، ففي الدر المنثور (٦ / ٢٢٩) : ((أخرج ابن إسحق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن عُروة ومحمد بن كعب القرظيَّ قالا : لَمَّا أُقبلت فُرَيْش عامَ الأحزاب ، نزلوا بمجمع الأسيال من بئر رومة بالمدينة، فأتوها أبو سُفيان . وأقبلت عَطْفان حتى نزلوا بتغمين إلى جانب أحد. وجاء رسول الله ﷺ الخبر، وضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه ، وعمل المسلمون فيه ، وأبطأ رجالٌ من المنافقين ، وجعلوا يُورُونَ بالضعيف من العمل ، فيتسلَّلون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن ، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابتة النابتة من الحاجة التي لا بُدَّ منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع)) .

وهكذا تتضح أهمية الاستئذان من الرسول ﷺ عند الانصراف ، وهذه الخصلة الحميدة تدل على تماسك الجماعة الإسلامية، ودور قائدها في ضبط أمورها ، وولاء الأتباع لإمامهم والالتفاف حول قيادته ، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

وَلَوْ حَضَرَ النَّاسُ وَغَادَرُوا بِلَا اسْتِئْذَانٍ لَعَمَّتِ الْفَوْضَى ، وَفَقَدَتِ الْقِيَادَةَ مَرْكَزِيَّةَ الانضباط والتوجيه ، واختلط المؤمنون بالمنافقين ، وانتشرت الظنون السيئة ، والإشاعات المغرضة .

وقد تظهر حاجة ملحة إلى وجود شخص ما ، وفي حال غيابه بلا استئذان فإن ذلك سيخلق فراغاً يؤثر سلباً على المنظومة الاجتماعية . إذن ، فالقضية شديدة الأهمية ، وليست مجاملة اجتماعية ، أو عملية روتينية بسيطة . إنَّ استئذان الرسول ﷺ منظومة دينية وأخلاقية واجتماعية في غاية الأهمية .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٦٦) : ((قال المُفسِّرون : كان رسولُ الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عُذر لم يخرج حتى يقوم بحِجال رسول الله ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام يستأذن ، فيأذن لمن شاء منهم . قال مجاهد : وإذنُ الإمام يوم الجمعة أن يُشير بيده . قال أهل العلم : وكذلك كل أمرٍ اجتمع عليه المسلمون مع الإمام ، لا يُحالفونه ، ولا يرجعون عنه إلا بإذن . وإذا استأذن فلإمام إن شاء أذن له ، وإن شاء لم يأذن ، وهذا إذا لم يكن له سبب يمنعه من المقام ، فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكون في المسجد فتحيض منهم امرأة ، أو يُجنب رجل ، أو يعرض له مرض ، فلا يحتاج إلى الاستئذان)) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إنَّ الذين يأخذون الإذن من الرسول ﷺ قبل انصرافهم ، طاعةً لله ، واحتراماً للرسول ﷺ ، أولئك المؤمنون الحقيقيون الذين أقرُّوا بوحداية الله وصدقوا بنبوَّة مُحَمَّد ﷺ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وليس الذين يُخالِفون أمرَ الله ورسوله ﷺ ، وينصرفون بلا إذن الرسول ﷺ . ولا يكتمل ولا يتم إيمان الشخص إلا إذا جمع بين الإيمان بالله ورسوله ﷺ وبين الاستئذان . وهذا يدل على أن الاستئذان هو الركن الثالث من أركان الإيمان . وهكذا ، صار الاستئذان مصداقاً لصحة الإيمان ، وتمييزاً للمؤمنين عن المنافقين . و ﴿ أُولَئِكَ ﴾ تُشير إلى تعظيم المُستأذنين ، وتفخيم شأنهم ، فهم المؤمنون الحقيقيون الكاملون في إيمانهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٠٣) : ((فإنه يُفيد أنَّ المُستأذِن مُؤْمِنٌ لَا مَحَالَةَ ، وَأَنَّ الذَّهَابَ بِغَيْرِ إِذْنٍ لَيْسَ كَذَلِكَ)) .

﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ .

إذا استأذن المؤمنون رسولَ الله ﷺ من أجل الانصراف لقضاء حوائجهم، فَمِنْ حَقِّ الرَسُولِ ﷺ أن يأذن لِمَنْ شاء ، وَيَمْنَعُ مَنْ شاء ، وَفَقَى مَا يَرَاهُ مُنَاسِبًا ، وَحَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي يُقَدِّرُهَا الرَسُولُ ﷺ . وَهَذَا رَفَعَ لِمَكَانَةِ الرَسُولِ ﷺ ، وَتَعْظِيمَ لِشَأْنِهِ ، وَإِحَالَةَ الْأُمُورِ إِلَى تَقْدِيرِهِ ﷺ وَرَأْيِهِ وَحُكْمِهِ . وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى تَضْيِيقِ الْأَمْرِ ، وَأَنَّ الْإِنْصِرَافَ عَنِ الرَسُولِ ﷺ _ وَلَوْ كَانَ بِعُذْرِ قَوِيٍّ _ لَيْسَ سَهْلًا وَلَا بَسِيطًا .

﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

أرشد الله الرسول ﷺ إلى طلب المغفرة للمؤمنين، لخروجهم عن الجماعة ، فالله كثير المغفرة، عظيم الرحمة . والآية تُشير إلى أن الاستئذان ولو كان بعذر قويٍّ ، فهو أمرٌ دُنْيَوِيٌّ يُؤَثِّرُ عَلَى الْآخِرَةِ ، لِذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ . فَالاسْتِئْذَانُ _ أَوَّلًا وَأَخِيرًا _ تَقْدِيمٌ لِأَمْرِ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الدِّينِ . وَقَالَ التَّنْسُفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣/ ١٥٨) : ((﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ ﴾ فِي الْإِنْصِرَافِ ﴿ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾ أَمْرُهُمْ . ﴿ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ فِيهِ رَفَعُ شَأْنِهِ _ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَذَكَرَ الْاسْتِغْفَارَ لِلْمُسْتَأْذِنِينَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْإِفْضَلَ أَنْ لَا يَسْتَأْذِنَ . قَالُوا : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كَذَلِكَ مَعَ أُنْمَتِهِمْ مُقَدِّمِهِمْ فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ ، يُظَاهِرُونَهُمْ ، وَلَا يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنٍ . قِيلَ : نَزَلَتْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ . كَانَ الْمَنَافِقُونَ يَرْجِعُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ)) . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُحَادِّثَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التَّوْرَةُ : ٦٣] .

يجب احترامُ الرَسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وتَعْظِيمُهُ ، وَمُخَاطَبَتُهُ بِعِبَارَاتِ التَّوْقِيرِ وَالتَّجْهِيلِ وَالتَّفْخِيمِ ، مِثْلُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، أَوْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فِي لَبِنٍ وَتَوَاضَعٍ وَأَدَبٍ وَخَفْضِ صَوْتٍ . وَلَا يَجُوزُ مُخَاطَبَتُهُ بِاسْمِهِ الْمُجَرَّدِ " يَا مُحَمَّدٌ " ، أَوْ بِكُنْيَتِهِ : يَا أَبَا الْقَاسِمِ .

وقال السُّيُوطِيُّ فِي لُبَابِ التَّقْوِيلِ (١ / ١٥٢) : ((أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ طَرِيقِ الصَّحَّاحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانُوا يَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدٌ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ ، فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ)) .

لقد أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعْظَمُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وَيُشْرَفُوا فِي الْخِطَابِ وَالتَّذْءِ ، وَيَتَعَامَلُوا مَعَهُ بِأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ . فَهُوَ أَعْظَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ، وَيَجِبُ أَنْ يُهَابَ وَيُعْظَمَ . وَيَنْبَغِي إِثْبَاتُ التُّبُوءَةِ لَهُ

والسيادة والمجد والرفعة^{٢٥}. وقال التَّنْفِي في تفسيره (٣ / ١٥٩) : ((إذا احتاج رسولُ الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمرٍ فدعاكم ، فلا تُقربوا منه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دُعَاءَهُ إِيَّاكُمْ على دُعَاءِ بعضكم بعضاً ، ورجوعكم عن المجمع بِغَيْرِ إِذْنِ الداعِي ، أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يُسَمِّي بعضكم بعضاً ، ويُناديه باسمه الذي سَمَّاه بِهِ أَبَوَاهُ ، فلا تقولوا : يا مُحَمَّد ، ولكن : يا نبيَّ الله ، يا رسولَ الله ، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض)) .

وهناك قولٌ ثانٍ في تفسير الآية ، وهو : اَحْذَرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تُغْضِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ، فَيَدْعُو عَلَيْكُمْ فَتَهْلِكُوا ، فَإِنَّ دُعَاءَهُ مُسْتَجَابٌ ، وليس كدُعَاءِ غَيْرِهِ .

والنبيُّ ﷺ ليس شخصاً عادياً . وبالتالي ، له وَضْعٌ خاص ، ويتمتع بخصوصية مقدَّسة . فيجب إجابته فوراً ، وعدم مُغادرة مجلسه بدون إذن ، وعدم رفع الصوت أثناء مخاطبته أو في حضرته . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٦٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ نَهَى عَنِ التَّعَرُّضِ لِإِسْخَاطِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ إِذَا دَعَا عَلَى شَخْصٍ فَدَعْوَتُهُ مُوجِبَةٌ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَنُهِوا أَنْ يَقُولُوا : يَا مُحَمَّد ، قَالَه سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَلَقَمَةُ وَالْأَسْوَدُ وَعِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ نَهَى لَهُمْ عَنِ الْإِبْطَاءِ إِذَا أَمَرَهُمْ ، وَالتَّأَخُّرِ إِذَا دَعَاهُمْ ، حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ)) .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِدُونِ إِذْنِهِ ، حَيْثُ يَخْرُجُونَ تَسْتُرًا وَخُفْيَةً . وَإِنْ خَفِيَ الْأَمْرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَالآيَةُ تَحْمِلُ مَعْنَى التَّهْدِيدِ وَالْمُعَاقَبَةِ .

لقد كانوا يخرجون من المسجد في الخطبة بلا استئذان . يخرجون خفيةً من بين الناس . ومعنى : ﴿ لِوَاذًا ﴾ يستتر الشخص بغيره فيخرج مخفياً .

و ﴿ قَدْ ﴾ تُفِيدُ التَّحْقِيقَ ، وَلَيْسَ الشَّكُّ . فَاللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ .

٢٥ في الشفا ليعياض (٢ / ١٨٥) : ((قال القاضي أبو الفضل - رضي الله عنه - : قد تقدّم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ ، وما يتعيّن له من بر ، وتوقير ، وتعظيم ، وإكرام ، ويحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه ، وأجمعت الأمة على قتل مُنتَقِصه من المسلمين وسابّه)) اهـ . وقال ابن المنذر في الإجماع (ص ١٢٢) : ((وأجمعوا على أن من سب النبي ﷺ أن له القتل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤٠٩/٣): ((وَقَوْلُهُ: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال مقاتل بن حَيَّان : هُمُ المنافقون ، كان يَنْقُلُ عَلَيْهِمُ الْحَدِيثَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ . ويعني بالحديث الخُطْبَةُ ، فَيَلْوِذُونَ ببعض أصحاب مُحَمَّدٍ ﷺ حتى يَخْرُجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ . وكان لا يَصْلُحُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ مَا يَأْخُذُ فِي الْخُطْبَةِ ، وكان إذا أَرَادَ أَحَدُهُمُ الْخُرُوجَ أَشَارَ بِأَصْبَعِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَأْذَنُ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ ، لِأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ بَطَلَتْ جُمُعَتُهُ . وقال السُّدِّي : كانوا إذا كانوا معه في جماعةٍ لاذَ بعضهم ببعض حتى يَتَغَيَّبُوا عَنْهُ ، فلا يَرَاهُمْ)) .

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . إِنَّ الْأَمْرَ شَدِيدُ الْخُطُورَةِ ، فَلْيَنْتَبِهْ وَلْيَحْذَرِ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ مِنْهَا النَّبِيَّ ﷺ وَشَرِيعَتَهُ بَاطِنًا أَوْ ظَاهِرًا ، أَنْ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَيَسْقُطُونَ فِي هَاوِيَةِ الْكُفْرِ ، وَقَدْ يَظْهَرُ فِي قُلُوبِهِمُ الْكُفْرُ أَوْ التَّفَاقُ أَوْ الْبِدْعَةُ . أَوْ يُصِيبُهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَعَذَابُ الدُّنْيَا هُوَ الْقَتْلُ أَوْ الْحَدُّ أَوْ الْحَبْسُ . وَعَذَابُ الْآخِرَةِ هُوَ النَّارُ الشَّدِيدَةُ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٤ / ١٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ بهذه الآية احتجَّ الفُقهاءُ على أَنَّ الْأَمْرَ على الْوُجُوبِ . وَوَجْهُهَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ حَذَرَ مِنَ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ ، وَتَوَعَّدَ بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فَتَحْرُمُ مُخَالَفَتُهُ ، فَيَجِبُ امْتِثَالُ أَمْرِهِ . وَالْفِتْنَةُ هُنَا الْقَتْلُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . عَطَاءٌ : الزَّلَازِلُ وَالْأَهْوَالُ . جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ : سُلْطَانُ جَائِرٍ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ . وَقِيلَ : الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِشُؤْمٍ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ . وَالضَّمِيرُ فِي ﴿ أَمْرِهِ ﴾ . قِيلَ : هُوَ عَائِدٌ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَه يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ . وَقِيلَ : إِلَى أَمْرِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَمَعْنَى: ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أَي : يُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِهِ)) .

يجب الالتزام بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالسَّيْرَ وَفَقَّ مِنْهَا وَشَرِيعَتَهُ ، وَتَحْوِيلَ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ إِلَى وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ . وَمَنْ خَالَفَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَمُخَالَفَتُهُ مَرْفُوضَةٌ ، وَمَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهَا مَنْ كَانَ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٣٤٣ / ٣) : عَنْ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَمِلَ عَمَلًا لَمْ يَعْمَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَمَلُهُ (بِدْعَتُهُ) بَاطِلٌ وَمَرْدُودٌ ، وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٦ / ١٢) : ((وَهَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ ﷺ ، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ كُلِّ الْبِدْعِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ)) .

لقد أكمل الله الدين ، وأتم النعمة على عباده . والواجب على كل مسلم أن يحرص على اتباع القرآن والسنة على قدر طاقته ، ولا يحدث ولا يتدع في دين الله شيئاً من عند نفسه . ومن اخترع في الدين شيئاً ليس له أصل من القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة ، فهو باطل ، ومردود عليه . والحديث يُبطل المنكرات الخارجة عن أصول الدين ، ويأمر باتباع القرآن والسنة والالتزام بهما ، وينهى عن كل بدعة في الإسلام . والمقياس في كون الشيء مُحدثاً أو غير مُحدث هو أصول الدين من القرآن والسنة .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾ [المجادلة : ١١] .

يا أيها الذين صدقوا بوحدانية الله ، وأقروا بنبوة محمد ﷺ ، إذا قيل لكم : توسعوا في مجلس النبي ﷺ ، أو غيره من المجالس ، حتى يجلس من جاءكم ، فأوسعوا المجلس ، وافسحوا له ، يوسع الله لكم في الجنة . وقد كان الصحابة يتنافسون في مجلس النبي ﷺ ، ويحرصون على القرب منه ، والأخذ عنه ، فأمرهم الله بالتواضع ، وأن يفسح بعضهم لبعض ، من أجل أن يتساوى الناس في الحظ من النبي ﷺ ، ويستفيدوا منه ، بعيداً عن الأنايئة وحُب الذات .

وهذا هو الأدب القرآني في قضية المجالس ، وكيفية الجلوس فيها والتعامل بين الحضور ، فقد أمر الله المؤمنين بالتأدب في المجلس والتوسعة فيه ، لكي يستطيع الجميع الجلوس دون مضايقة أحد لأحد. ولا شك أن التوسعة في المجلس دليل على الإحسان والتواضع ولين الجانب . وهذه العملية (التوسعة) تنشر المحبة والوئام والأخوة بين الناس ، وتزيل الحواجز من قلوبهم . والآية عامة في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير ، وما فيه منفعتهم ، وصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة . وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٩ / ٢٦٩) : ((قوله : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ مُطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه ، في المكان ، والرزق ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، واعلم أن الآية دللت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة)) . وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٧٤) أن النبي ﷺ قال : ((...) ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)) . ينبغي على المسلم أن يسعى لقضاء حاجة أخيه المسلم ، وتفريج كربته ، ومساعدته . ومن فعل هذا ، فإن الله يُعينه ويُوفقه ويقضي حاجته . والجزاء من جنس العمل . وفي الحديث فضيلة إعانة الغير .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٤ / ٥٧٥) : ((وفيه تنبيه نبيه على فضيلة عون الأخ على أموره ، وإشارة إلى أن المكافأة عليها بحسنها من العناية الإلهية ، سواء كان بقلبه ، أو بدنه ، أو بهما ، لدفع المصاّر ، أو جلب المنافع ، إذ الكل عون)) .

وقال ابن الجوزى في زاد المسير (٨ / ١٩١) عن سبب نزول الآية : ((قال المفسرون : نزلت في نفر من المؤمنين كانوا يسابقون إلى مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا أقبل المهاجرون وأهل السابقة ، لم يجدوا موضعاً ، وكان رسول الله ﷺ يُحِبُّ أن يليه أولو الفضل ليحفظوا عنه ، فبينما رسول الله ﷺ يوم الجمعة جالس في صفة صيقة في المسجد ، جاء نفر من أهل بدر ، فيهم ثابت ابن قيس بن شماس ، فسلموا وانتظروا أن يُوسَّعوا لهم ، فأوسَّعوا لبعضهم ، وبقي بعضهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فقال : " فم يا فلان ، فم يا فلان " ، حتى أقام من المجلس على عدة من هو قائم من أهل السابقة ، فرأى رسول الله ﷺ في وجوه من أقامهم الكراهة ، وتكلم المناقون في ذلك ، وقالوا : والله ما عدل ، فنزلت هذه الآية . وقال قتادة : كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ ، فإذا أقبل مُقبِلٌ ضنوا بمجلسهم ، فأمرهم الله أن يُفَسِّحَ بعضهم لبعض . قال المفسرون : ومعنى (تَفَسَّحُوا) تَوَسَّعُوا ، وذلك أنهم كانوا يجلسون متضايقين حول رسول الله ﷺ ، فلا يجد غيرهم مجلساً عنده ، فأمرهم أن يُوسَّعُوا لغيرهم ، ليتساوى الناس في الحظ منه ، ويظهر فضيلة المُقَرَّبِينَ إليه من أهل بدر ، وغيرهم)) .

استغلَّ المناقون هذه الحادثة لإشاعة البليلة في المجتمع الإسلامي ، وشقَّ الصفوف ، وإثارة التّعرّات والأحقاد بين المسلمين . وهذا هو ديدنهم ، فهم يُحاولون جاهدين الاصطياد في ماء أفكارهم العكبر ، والتقاط الأحداث وتسجيل المواقف التي تدعم مشاريعهم الدنيئة _ حسب تصوّرتهم _ ، وتغليف هذه المواقف بالعصبيّة القبليّة والحقد والكراهية والشكوك ، وتوظيف هذه المنظومة الجنونية لخدمة أهدافهم القذرة ، وتحقيق أحلامهم السيئة ، ولكنَّ جهودهم الجبارة تنكسر دائماً على صخرة الوعى الاجتماعي . وينبغي للجماعة المسلمة أن تكون متماسكة كالتّبيان المرصوص ، ومتعاطفة اجتماعياً في كلّ المجالات . وفي المجالس تتجلى الآداب الإسلامية بإفراح المجال للآخرين كي يجلسوا مُرتاحين بلا ضيق ، وفي هذا احترامٌ بالغ ، وتطبيب للنفوس ، ومعرفة مكانة الرجال وإنزالهم منازلهم ، ممّا يُؤدّي إلى توليد حالة عظيمة من الوحدة الاجتماعية ، بلا حقد أو سوء أدب . والاحترام المتبادل ينشر مناخاً من المودة والقبول التّفسي الذي ينعكس على السلوك الاجتماعيّ بشكل إيجابي . كما ينبغي نشر قيم الإيثار ، وتقديم الآخرين لمكانتهم

الدِّينِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، وليس مجاملةً أو تحصيلياً لمنفعةٍ وقتيةٍ زائلةٍ . فالْمُسْلِمُ أكبر من المصالح الدُّنْيَوِيَّةِ ، وحياته مرسومةٌ وَفَقَ الدِّينَ والأهداف الشريفة ، وليس وَفَقاً للقضايا المادية الوضيعة .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٩٢) : ((وفي المُراد بالمجلس هاهنا ثلاثة أقوال :
أحدها أنه مجلس الحرب ومقاعد القتال ، كان الرَّجُلُ يأتي القوم في الصَّفِّ ، فيقول لهم: تَوَسَّعُوا
فَيَأْبُونَ عليه لِحِرصهم على القتال ، وهذا قول ابن عباس والحسن وأبي العالية والقرظي . والثاني
أنه مجلس رسول الله ﷺ ، قاله مُجاهد . وقال قتادة : كان هذا للنبي ﷺ وَمِنْ حَوْلِهِ خَاصَّةً .
والثالث مجالس الذِّكْرِ كُلِّهَا ، رُوِيَ عن قَتَادَةَ أَيضاً)) .

والجديرُ بالذكرُ أنَّ كُلَّ شخصٍ أحق بمكانه الذي سَبَقَ إليه ، ولكن يُوسَّعُ لأخيه بشكل معقول
دُونِ إحدَثِ ضَرَرٍ أو ضَيْقٍ لأَيِّ طَرَفٍ . والمؤمنون كانوا يتسابقون إلى مجلس النبي ﷺ ،
ويحاولون قَدْرَ المُستطاع الاقتراب منه ، ويحِرِّصون على الأخذ منه ، وإذا أُقبلَ أحدهم تَمَسَّكُوا
بمجلسهم ، فأمرهم اللهُ أن يُوسَّعَ بعضهم لبعض . وهذا يعني الاحترام والأدب في مُجَالَسَةِ النبي ﷺ
وعدم تَضْيِيقِ المجلس عليه، ويُعزِّزُ المحبَّةَ والتآلفَ بين المؤمنين، حيث إنَّ بعضهم يُفَسِّحُ لبعض ،
حتى يَسْتَطِيعُوا الاستماعَ من النبي ﷺ ، والنظر إليه ، والاستفادة من مواعظه وإرشاداته .
والمُكَافَأَةُ العظيمةُ التي تنتظر المؤمنين إذا أفسَّحوا لإخوانهم ، هي أَنَّ اللهُ سَيُوسَّعُ عليهم في
الدُّنْيَا والآخرة ، فالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ . سَوْفَ يُفَسِّحُ اللهُ لهم في قُبُورهم ، ويُوسَّعُ منازلهم في
الجَنَّةِ .

وعن ابن عُمر _ رضي اللهُ عنهما _ عن النبي ﷺ قال : ((لا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنَ مَقْعَدِهِ ثُمَّ
يجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحُوا وتَوَسَّعُوا)) ٢٦ .

إنَّ إقامة الرَّجُلِ مِنْ مَقْعَدِهِ ثُمَّ الجُلُوسُ فِيهِ ، دليل على الوَقَاحَةِ والتكِبُّرِ والأثرة وسوء الأدب .
وهذا الفِعْلُ البَغِيضُ يَزْرَعُ الحِقْدَ في القُلُوبِ ، وَيُبْثِّثُ رُوحَ الانتقام ، وَيُمزِّقُ العلاقاتِ الاجتماعية .
لقد أوَلَّتِ الشريعةُ الإسلامية اهتماماً خاصاً بأدابِ المَجْلِسِ ، وجاء الإِرشادُ النبويُّ الواضح
بأن لا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَكَانِهِ ثُمَّ يجلس مَحَلَّهُ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ سوء الأدب ، ونشر الحِقْدِ
والضِّيْقِ فِي الصُّدُورِ . والحَلُّ إنما يكون في التَّوَسُّعِ ، واستيعاب الآخرين . وهكذا يكون للمجلس
دورٌ مُهمٌ لتصفية النُّفُوسِ مِنَ الشوائبِ ، وتطهيرها مِنَ الصِّفَاتِ الذميمة والأخلاقِ السَّيِّئَةِ .

٢٦ متفق عليه . واللفظ لمسلم (٤ / ١٧١٤) برقم (٢١٧٧) . البخاري (٥ / ٢٣١٣) برقم (٥٩١٤) .

والحديث يدل على تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه . ومن سبق إلى شيء صار مُستحقاً له ، ولا يجوز أخذه منه بغير حق .

لقد حرص الإسلام على نشر أسباب المحبة والمودة بين الناس ، وإبعادهم عن الحقد والعداوة والبغضاء . ولا يجوز أن يُقام الرجل من مقعده ، لأي سبب كان ، وهذا عام في كل مجلس . والسابق إلى مقعد في المجلس قد اختص به إلى أن يقوم باختياره ، فكأنه قد ملك منفعة ما .

وقد أرشد النبي ﷺ إلى أدب آخر من آداب المجلس ، وهو الإفساح والتوسيع لمن أتى ولم يجد مكاناً للجلوس ، وذلك أنه لما نهى عن أن يُقام أحد من موضعه ، تعين على الجالس أن يُوسّعوا له ، ولا يتركوه قائماً ، فإن ذلك يؤذيه ، وقد يُخجله . ولا شك أن الإفساح والتوسيع دليلان واضحيان على التقدير والاحترام للشخص القادم ، وهذا يُكرّس المحبة والمودة بين الناس . وقد سَمَّى العيني في عمدة القاري (٢٢ / ٢٥٦) باباً بعنوان " لا يُقيم الرجل الرجل من مجلسه " ، وقال عقبه : ((أي هذا باب يذكر فيه لا يُقيم الرجل الرجل ، الأول فاعل ، والثاني مفعول ، هذا من لفظ الحديث ، وهو خبر معناه النهي ، وقيل إنه للتحريم ، وقيل للتنزيه ، وهو من باب الآداب ومحاسن الأخلاق)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٦٠) : ((هذا النهي للتحريم ، فمن سبق إلى موضع مباح في المسجد وغيره يوم الجمعة أو غيره لصلاة أو غيرها ، فهو أحق به ، ويحرم على غيره إقامته لهذا الحديث ، إلا أن أصحابنا _ الشافعية _ استثنوا منه ما إذا أُلِف من المسجد موضعاً يُفتي فيه ، أو يُقرأ قرآناً ، أو غيره من العلوم الشرعية ، فهو أحق به ، وإذا حضر لم يكن لغيره أن يقعد فيه . وفي معناه من سبق إلى موضع من الشوارع ومقاعد الأسواق لمعاملة . وأما قوله : وكان ابن عمر إذا قام له رجل عن مجلسه لم يجلس فيه ، فهذا ورع منه ، وليس قعوده فيه حراماً إذا قام برضاه ، لكنه تورّع عنه لوجّهين : أحدهما أنه ربما استحي منه إنسان ، فقام له من مجلسه من غير طيب قلبه ، فسدّ ابن عمر الباب ليسلم من هذا . والثاني أن الإيثار بالقرب مكروه أو خلاف الأولى ، فكان ابن عمر يمتنع من ذلك لئلا يرتكب أحد بسببه مكروهاً أو خلاف الأولى بأن يتأخر عن موضعه من الصف الأول ، ويُؤثره به ، وشبه ذلك . قال أصحابنا : وإنما يُحمد الإيثار بحظوظ النفوس وأمور الدنيا دون القرب ، والله أعلم)) .

وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٦٣) : ((قال ابن أبي جمرة : هذا اللفظ عام في المجالس ، ولكنه مخصوص بالمجالس المباحة ، إمّا على العموم كالمساجد ومجالس الحكام والعلم ، وإمّا

على الخُصوص كَمَنْ يَدْعُو قَوْمًا بِأَعْيَانِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ لَوْلِيْمَةٍ وَنَحْوِهَا . وَأَمَّا الْمَجَالِسُ الَّتِي لَيْسَ لِلشَّخْصِ فِيهَا مُلْكٌ وَلَا إِذْنٌ لَهُ فِيهَا ، فَإِنَّهُ يُقَامُ وَيُخْرَجُ مِنْهَا ، ثُمَّ هُوَ فِي الْمَجَالِسِ الْعَامَّةِ ، وَلَيْسَ عَامًّا فِي النَّاسِ ، بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِغَيْرِ الْمَجَانِينَ ، وَمَنْ يَحْضُرُ مِنْهُ الْأَذَى كَأَكْلِ الثُّومِ النَّيِّءِ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَالسَّفِيهِ إِذَا دَخَلَ مَجْلِسَ الْعِلْمِ أَوْ الْحُكْمِ . قَالَ : وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا النَّهْيِ مَنَعُ اسْتِنْقَاصِ حَقِّ الْمُسْلِمِ الْمُقْتَضِي لِلضَّغَاتِنِ ، وَالْحَثُّ عَلَى التَّوَاضُعِ الْمُقْتَضِي لِلْمُؤَادَّةِ ، وَأَيْضًا فَالنَّاسُ فِي الْمُبَاحِ كُلِّهِمْ سَوَاءٌ ، فَمَنْ سَبَقَ إِلَى شَيْءٍ اسْتَحَقَّهُ ، وَمَنْ اسْتَحَقَّ شَيْئًا فَأَخَذَ مِنْهُ بِغَيْرِ حَقِّ فَهُوَ غَضَبٌ ، وَالغَضَبُ حَرَامٌ ، فَعَلَى هَذَا قَدْ يَكُونُ بَعْضُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْكِرَاهَةِ ، وَبَعْضُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّحْرِيمِ . قَالَ : فَأَمَّا قَوْلُهُ : " تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا " ، فَمَعْنَى الْأَوَّلِ : أَنْ يَتَوَسَّعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَمَعْنَى الثَّانِي : أَنْ يَنْضُمَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يَفْضُلَ مِنَ الْجَمْعِ مَجْلِسٌ لِلدَّخْلِ) .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٧١٥) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ _ وَفِي حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ : مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ _ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ)) . إِذَا قَامَ الشَّخْصُ مِنْ مَكَانِهِ فِي الْمَسْجِدِ ، الَّذِي كَانَ يَقْعُدُ فِيهِ ، لِيَتَوَضَّأَ أَوْ لِيَقْضِيَ شُغْلًا يَسِيرًا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتٍ قَرِيبٍ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَكَانِ ، وَلَهُ أَنْ يُقِيمَ الشَّخْصَ الَّذِي حَلَّ مَكَانَهُ . وَالْأَمْرُ مُخْتَصٌّ بِتِلْكَ الصَّلَاةِ دُونَ غَيْرِهَا .

وَمَجَالِسُ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالخُطْبِ فِي الْمَسَاجِدِ ، لَهَا حُقُوقٌ عَلَى مَنْ يَتِمَكَّنُ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا ، وَكُلُّ جَالِسٍ فِيهَا لَهُ حُقُوقٌ عَلَى الدَّخْلِ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْمَكَانِ الَّذِي جَلَسَ فِيهِ ، وَلَا يُقِيمُهُ أَحَدٌ مِنْهُمَا كَانَ قَدْرُ الدَّخْلِ عَلَيْهِ . وَلَكِنْ لَوْ قَامَ بِاخْتِيَارِهِ وَرِضَاهُ تَكْرِيمًا لِقَادِمٍ ، لِيُجْلِسَهُ فِي مَكَانِهِ ، كَانَ ذَلِكَ تَنَازُلًا وَإِثَارًا مَقْبُولًا مِنْهُ ، مَشْكُورًا عَلَيْهِ .

وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَتَّبَ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ عَلَى النَّاسِ فِي الْجَمَاعَاتِ ، وَحَرَّصَ عَلَى بَيَانِهَا ، حِفَاطًا عَلَى الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَحِمَايَةً لِلْمُجْتَمَعِ مِنَ الْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٤ / ١٦١ و ١٦٢) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ " . قَالَ أَصْحَابُنَا _ يَعْنِي الشَّافِعِيَّةُ _ : هَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ جَلَسَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرِهِ لِصَلَاةٍ مَثَلًا ، ثُمَّ فَارَقَهُ لِيَعُودَ ، بِأَنْ فَارَقَهُ لِيَتَوَضَّأَ أَوْ يَقْضِيَ شُغْلًا يَسِيرًا ثُمَّ يَعُودُ ، لَمْ يَبْطُلْ اخْتِصَاصُهُ ، بَلْ إِذَا رَجَعَ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ قَعَدَ فِيهِ غَيْرُهُ فَلَهُ أَنْ يُقِيمَهُ ، وَعَلَى الْقَاعِدِ أَنْ يُفَارِقَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ قَعَدَ فِيهِ مُفَارَقَتَهُ إِذَا رَجَعَ الْأَوَّلُ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا مُسْتَحَبٌّ وَلَا يَجِبُ ،

وهو مذهب مالك، والصواب الأول . قال أصحابنا : ولا فرق بين أن يقوم منه ويترك فيه سجادة ونحوها أم لا ، فهذا أحق به في الحالين ، قال أصحابنا : وإنما يكون أحق به في تلك الصلاة وحدها دون غيرها ، والله أعلم)) .

﴿ وإذا قيل انشؤوا فانشؤوا ﴾ . وإذا قيل لكم أيها المؤمنون : قوموا من المجلس لتوسعوا لغيركم ، أو انهضوا وقوموا إلى صلاة أو جهاد أو عمل خير ، فقوموا، ولا تقصروا ، ولا تتكاسلوا . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٩٢ و ١٩٣) : ((وفي المراد بهذا القيام خمسة أقوال : أحدها أنه القيام إلى الصلاة ، وكان رجال يتناقلون عنها ، فقبل لهم : إذا نُودي للصلاة فانهضوا ، هذا قول عكرمة والضحاك . والثاني أنه القيام إلى قتال العدو ، قاله الحسن . والثالث أنه القيام إلى كل خير من قتال ، أو أمر بمعروف ، ونحو ذلك ، قاله مجاهد . والرابع أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله ﷺ أطالوا ، ليكون كل واحد منهم آخرهم عهدًا به ، فأمرُوا أن ينشؤوا إذا قيل لهم: انشؤوا ، قاله ابن زيد . والخامس أن المعنى : قوموا وتحركوا وتوسعوا لإخوانكم، قاله الثعلبي)) .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ . يرفع الله المؤمنين منكم بامتثال أوامر الله ورسوله والعلماء خاصة درجات عالية في الشرف والكرامة في الدنيا، ويمنحهم الأجر العظيم في الآخرة . وهذا مدح إلهي للعلماء ، وتشريف لهم ، وتعظيم لقدرهم . وتخصيص الذين أوتوا العلم بالذكر ، بسبب جمعهم بين العلم النافع والعمل به . والآية تدل على أن المؤمن العالم أعظم وأفضل من المؤمن غير العالم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٢٥١) : ((ويبيّن في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان ، لا بالسبق إلى صدور المجالس)) .

وعطف الخاص ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ على العام ﴿ الذين آمنوا منكم ﴾ ، لتعظيم العلم ، وبيان شرفه وفضله ، والتنبية على منزلة العلماء الرفيعة ، فإن ﴿ والذين أوتوا العلم ﴾ دخلوا في المؤمنين أولاً ، ثم خصوا بالذكر ثانيًا ، تعظيمًا لهم ، وتشريفًا لقدرهم ، وتفخيماً لأمرهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٩٣) : ((قوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ ، أي : يرفعهم بإيمانهم على من ليس بمنزلتهم من الإيمان ، ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ على من ليس بعالم . وهل هذا الرفع في الدنيا أم في الآخرة ؟ ، فيه وجهان : أحدهما أنه إخبار عن ارتفاع درجاتهم في الجنة ، والثاني أنه ارتفاع مجالسهم في الدنيا ، فيكون ترتيبهم فيها بحسب

فضائلهم في الدين والعلم . وكان ابن مسعود يقول : أيها الناس ، أفهموا هذه الآية ، ولترغبكم في العلم ، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق من لا يعلم درجاته .
وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : ((يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء)) ٢٧ .

الحديث ضعيف ، وتكلم فيه العلماء ، ومع هذا ، فهو يوضح شرف العلم ، ومنزلة العلماء الرفيعة بين الأنبياء الذين اختارهم الله لحمل وحيه السماوي إلى الناس ، وبين الشهداء الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى .

قال المناوي في فيض القدير (٦ / ٤٦٢) : ((قال القرطبي : فأعظم بمنزلة هي بين النبوة والشهادة ، بشهادة المصطفى ﷺ . ولما كان العلماء يحسنون إلى الناس بعلمهم الذي أفتوا فيه نفائس أوقاتهم ، أكرمهم الله تعالى بولاية مقام الإحسان إليهم في الآخرة بالشفاعة فيهم جزاءً وفاءً ، وقد أخذ بقضية هذا الخبر جمع جم ، فصرحوا بأن العلم أفضل من القتل في سبيل الله ، لأن المجاهد وكل عامل إنما يتلقى عمله من العالم ، فهو أصله وأسه ، وعكس آخرون . وقد رويت أحاديث من الجانبين ، وفيها ما يدل للفريقين . قال ابن الزمكاني : وعندي أنه يجب التفصيل في التفصيل ، وأن يحمل على بعض الأحوال ، أو بعض الأشخاص ، كل دليل)) .

﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ . واللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَسِيَّجَازِي الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ . وهذا وعدٌ ووعد ، ويشتمل على تهديد لمن لم يلتزم بالأمر . وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ١٧) : ((قوله : ﴿ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ . يقول تعالى ذكروه : واللَّهُ بِأَعْمَالِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ذُو خَبْرَةٍ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْمُطِيعُ مِنْكُمْ رَبَّهُ مِنَ الْعَاصِي ، وَهُوَ مُجَازٍ جَمِيعِكُمْ بِعَمَلِهِ ، الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ أَوْ يَعْنُو)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤١٥) : ((وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : " قوموا إلى سيّدكم " ، ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " ، ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مُقبلاً قال للمسلمين : " قوموا إلى

٢٧ رواه ابن ماجه في سننه (٢ / ١٤٤٣) ، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (١ / ٨) .

سَيِّدِكُمْ " ، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتّخاذُه دَيْدَنًا فَإِنَّهُ مِنْ شِعَارِ الْعَجَمِ ، وقد جاء في السُّنَنِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَخْصًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كِرَاهَتِهِ لِذَلِكَ . وفي الحديث المرويِّ في السُّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ ، وَلَكِنْ حَيْثُ يَجْلِسُ يَكُونُ صَدْرُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَجْلِسُونَ مِنْهُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ ، فَالصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَجْلِسُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعُمَرُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَيَبِينُ يَدَيْهِ غَالِبًا عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ ، لِأَنَّهُمَا كَانَا مِمَّنْ يَكْتُبُ الْوَحْيَ ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمَا بِذَلِكَ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : " لَيْلِيَّيْنِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهْيِ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ " . وما ذاك إلا لِيَعْقِلُوا عَنْهُ مَا يَقُولُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلِهَذَا أَمَرَ أَوْلَئِكَ التَّنْفِرَ بِالْقِيَامِ لِيَجْلِسَ الَّذِينَ وَرَدُوا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ ، إِمَّا لِتَقْصِيرِ أَوْلَئِكَ فِي حَقِّ الْبَدْرِيِّينَ ، أَوْ لِأَخْذِ الْبَدْرِيِّينَ مِنَ الْعِلْمِ نَصِيْبِهِمْ ، كَمَا أَخَذَ أَوْلَئِكَ قَبْلَهُمْ ، أَوْ تَعْلِيمًا بِتَقْدِيمِ الْأَفْضَلِ إِلَى الْأَمَامِ قالوا : وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانَشُرُوا ﴾ ، أَي : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى فَانَشُرُوا ﴾ ، أَي : انْهَضُوا لِلْقِتَالِ . وقال قتادة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانَشُرُوا ﴾ ، أَي : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى خَيْرٍ فَأَجِيبُوا . وقال مقاتل : إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَارْتَفِعُوا إِلَيْهَا . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : كَانُوا إِذَا كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ ، فَارَادُوا الْإِنْصِرَافَ ، أَحَبَّ كُلُّ مَنْهُمْ أَنْ يَكُونَ هُوَ آخِرَهُمْ خُرُوجًا مِنْ عِنْدِهِ ، فَرُبَّمَا يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ ، وَقَدْ تَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ ، فَأَمْرُوا أَنَّهُمْ إِذَا أَمُرُوا بِالْإِنْصِرَافِ أَنْ يَنْصَرِفُوا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، أَي : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّهُ إِذَا أَفْسَحَ أَحَدٌ مِنْكُمْ لِأَخِيهِ إِذَا أَقْبَلَ ، أَوْ إِذَا أَمَرَ بِالْخُرُوجِ فَخَرَجَ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي حَقِّهِ ، بَلْ هُوَ رِفْعَةٌ وَرُتْبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضَيِّعُ ذَلِكَ لَهُ ، بَلْ يَجْزِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ مَنْ تَوَاصَعَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، رَفَعَ اللَّهُ قَدْرَهُ ، وَنَشَرَ ذِكْرَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، أَي : خَبِيرٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ وَبِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ . وقال الإمام أحمد : حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ حَدَّثَنَا ابْنُ شَهَابٍ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ أَنَّ نَافِعَ ابْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بِعُسْفَانَ _ مَوْضِعَ الْحِجَازِ _ ، وَكَانَ عُمَرُ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَكَّةَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَنْ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي ؟ قَالَ : اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ ابْنَ أَبِيزَى ، رَجُلٌ مِنْ مَوَالِينَا ، فَقَالَ عُمَرُ : اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى ؟ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ ، عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ ، قَاضٍ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا

الكتاب قَوْماً ، وَيَضَعُ بِهِ آخِرِينَ " ، وهكذا رواه مُسلمٌ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ الزُّهْرِيِّ بِهِ ، وَرُويَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ عُمَرَ بْنِ خُوَيْمَةَ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فَضْلَ الْعِلْمِ وَأَهْلَهُ ، وَمَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ مُسْتَقْصَاةً فِي شَرْحِ كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

٢_ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦] ٢٨ .
هَذَا تَوْجِيهٌ إلهِيٌّ جليلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَتَحَلَّى بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَنْ يُقَابِلَ السَّيِّئَةَ بِالْإِحْسَانِ وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ . اصْفَحْ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ الْجُهَّالِ يَا مُحَمَّدُ ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ ، وَعَامِلِهِمْ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ ، وَالْقِيَمِ النَّبِيلَةِ .
وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ ، وَلَا مَعْنَى لِكَلَامِهِمْ . فَالْمُعَامَلَةُ الْحَسَنَةُ مَطْلُوبَةٌ مَعَ الْكُفْرَانِ مَا لَمْ تَكُنْ عَلَى حِسَابِ الدِّينِ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي مُصَفًى النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ (١ / ٤٥) : ((ادَّعَى بَعْضُهُمْ نَسْخَهَا بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَى ، لِأَنَّ الْمُدَارَاةَ مَحْمُودَةٌ ، مَا لَمْ تَضُرَّ بِاللِّدِينِ ، أَوْ تُؤَدِّ إِلَى إِثْبَاتِ بَاطِلٍ ، أَوْ إِبْطَالِ حَقٍّ)) .
وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣٤١) : ((أَرشَدَهُ اللَّهُ إِلَى التَّرْيَاقِ النَّافِعِ فِي مُخَالَطَةِ النَّاسِ ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إِلَى مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهِ ، لِيَسْتَجْلِبَ خَاطِرَهُ ، فَتَعُودَ عِدَاوَتُهُ صِدَاقَةً ، وَتُبْعَضَهُ مَحَبَّةً)) .
نَحْنُ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْوَحْيِ وَالتَّوْبَةِ ، وَسَوْفَ نُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَنُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ . وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ .
وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٦٦) : ((اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ ، وَهُوَ الصَّفْحُ عَنْهَا ، وَالْإِحْسَانُ فِي مُقَابَلَتِهَا ، لَكِنْ بِحَيْثُ لَمْ يُؤَدِّ إِلَى وَهْنٍ فِي الدِّينِ . وَقِيلَ : هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ، وَالسَّيِّئَةُ الشِّرْكَ . وَقِيلَ : هُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالسَّيِّئَةُ الْمُنْكَرُ . وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ " اذْفَعْ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ " لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنْصِيصِ عَلَى التَّفْضِيلِ . ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بِمَا يَصِفُونَكَ بِهِ ، أَوْ يَوْصِفُهُمْ بِإِيَّاكَ عَلَى خِلَافِ حَالِكَ ، وَأَقْدَرُ عَلَى جَزَائِهِمْ ، فَوَكَّلْ إِلَيْنَا أَمْرَهُمْ)) .

٢٨ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٤٨٩) : ((فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا اذْفَعْ إِسَاءَةَ الْمُسِيءِ بِالصَّفْحِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَالتَّانِي : اذْفَعِ الْفُحْشَ بِالسَّلَامِ ، قَالَهُ عَطَاءٌ وَالتَّالِي : اذْفَعِ الشِّرْكَ بِالتَّوْحِيدِ ، قَالَهُ ابْنُ السَّائِبِ . وَالرَّابِعُ اذْفَعِ الْمُنْكَرَ بِالْمَوْعِظَةِ ، حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ)) .

والتعاملُ الحَسَنَ مع الناس ، وَبَثُّ المعاني الطَّيِّبَةِ الهادئة في النُّفوس بأسلوب ناعم وسَلِس ، مِن شأنه أن يُلين قلوبَ الناس ، وَيَعْمَل على استقطابهم إلى الإيمان بالله تعالى ، لأنَّ النُّفوس مَجْبُولَةٌ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَقَدَّمَ لها المساعدة بطريقة جميلة . والإحسانُ إلى الناس يجعل المرءَ يُسيطر على قلوبهم ، فتنقاد جوارحهم إليه ، وَتَخضع له ، وَتَسْمَعُ لكلامه ، وَكَأَنَّهَا تحت تأثير السِّحْرِ ، فالكلمة الطَّيِّبَةُ لها وَقْعٌ عميق في النُّفوس ، وتأثير هائل في القلوب .
وكما قال الشاعر :

أَحْسِنَ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعِيدُ قُلُوبَهُمْ فَطالما استعبدَ الإنسانَ إحساناً

وكما قال شاعر آخر :

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجِدَ العَدُوَّ وَقَدْ عَدَا لَكَ صَاحِبًا يُؤَلِي الجميلَ وَيُحْسِنُ
فَاعْمَلْ كَمَا قَالَ الخبيرُ بِخَلْقِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ادْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ ﴾

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فَصَّلَتْ : ٣٤] .

لا تتساوى الحَسَنَةُ التي تُرَضِي اللهُ ويتقبلها مع السَّيِّئَةِ التي يَكْرَهُها اللهُ ويُعاقِبُ عليها . فَرقٌ عظيم بين الحَسَنَةِ والسَّيِّئَةِ في الدُّنْيَا والآخرة . ولا يتساوى الإيمان بالله وطاعته مع الكُفْرِ به ومعصيته ، في الجزاء وحسن العاقبة . ادْفَعْ السَّيِّئَةَ بالحَسَنَةِ ، كالغضب بالصَّبْرِ ، والجهل بالِحِلْمِ ، والإساءة بالعَفْوِ ، والنزَمُ بأفضل الصِّفَاتِ وأعظم الأخلاق . وفي تفسير ابن كثير (١٢٨ / ٤) :
((﴿ ادْفَعْ بِالنِّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أي : مَنْ أساءَ إِلَيْكَ فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عُمر _ رضي اللهُ عنه _ : ما عاقبتَ مَنْ عَصَى اللهُ فيك ، بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللهُ فِيهِ)) .
فإذا فعلتَ ذلك ، صارَ عَدُوُّكَ كالصَّدِيقِ القريب في إخلاصه ومَحَبَّتِهِ لك ، والشَّفَقَةِ عليك ، والإحسانِ إِلَيْكَ .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٧٣٤ / ٤) : ((بَيْنَ سُبْحَانِهِ الفَرْقُ بين مَحاسن الأعمالِ وَمَسَاوِيهَا ، فقال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ ، أي : لا تستوي الحَسَنَةُ التي يَرْضَى اللهُ بها وَيُثِيبُ عليها ، ولا السَّيِّئَةُ التي يَكْرَهُها اللهُ ويُعاقِبُ عليها . ولا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات ، وتخصيص السَّيِّئَةِ بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك . وقيل : الحسنة التوحيد ، والسَّيِّئَةُ الشُّرْكُ ، وقيل : الحسنة المُداراة ، والسَّيِّئَةُ العِلْظَةُ ، وقيل : الحسنة العَفْوُ

والسَّيِّئَةُ الانتصار، وقيل: الحسنة العِلْمُ، والسَّيِّئَةُ الفُحْشُ، قال الفَرَّاءُ: " لا " في قوله: ﴿ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ زائدة ، ﴿ ادْفَعْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أي : ادْفَعِ السَّيِّئَةَ إِذَا جَاءَتْكَ مِنَ الْمُسِيءِ بِأَحْسَنِ مَا يُمَكِّنُ دَفْعَهَا بِهِ مِنَ الْحَسَنَاتِ ، وَمِنْهُ مُقَابَلَةُ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ ، وَالذَّنْبُ بِالْعَفْوِ ، وَالغَضَبُ بِالصَّبْرِ ، وَالْإِغْضَاءُ عَنِ الْهَفَوَاتِ ، وَالْإِحْتِمَالُ لِلْمَكْرُوِهَاتِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ : ﴿ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ يَعْنِي بِالسَّلَامِ إِذَا لَقِيَ مَنْ يُعَادِيهِ ، وَقِيلَ : بِالْمُصَافِحَةِ عِنْدَ التَّلَاقِ ، ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، هَذِهِ هِيَ الْفَائِدَةُ الْحَاصِلَةُ مِنَ الدَّفْعِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ الدَّفْعَ ، صَارَ الْعَدُوُّ كَالصَّدِيقِ ، وَالْبَعِيدُ عَنكَ كَالْقَرِيبِ مِنْكَ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ كَانَ مُعَادِيًّا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَصَارَ لَهُ وَلِيًّا بِالْمُصَاهَرَةِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، ثُمَّ أَسْلَمَ فَصَارَ وَلِيًّا فِي الْإِسْلَامِ حَمِيمًا بِالْمُصَاهَرَةِ. وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَالْأَوْلَى حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى الْعُمُومِ)).
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٥].
 وَمَا يُلْقَى هَذِهِ الْفَعْلَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الْعَظِيمَةُ ، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ ، إِلَّا الَّذِينَ جَاهَدُوا أَنْفُسَهُمْ بِكَظْمِ الْغَيْظِ ، وَاحْتِمَالِ الْأَذَى ، وَمَا يَصِلُ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ إِلَّا ذُو نَصِيبٍ وَافِرٍ مِنَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالآيَةُ مَدْحٌ لِمَنْ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ .
 وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٧٥) : ((﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ ، مَا يُلْقَى هَذِهِ الْخَصْلَةَ ، وَهِيَ دَفْعُ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ عَلَى كَظْمِ الْغَيْظِ ، وَاحْتِمَالِ الْمَكْرُوهِ ، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فِي الْخَيْرِ وَالثَّوَابِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : " الْحَظُّ الْعَظِيمُ " : الْجَنَّةُ ، أَي : مَا يُلْقَاهَا إِلَّا مَنْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)) .

٣_ فِعْلُ الْخَيْرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٥].
 وَمَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ، فَلَنْ يَضِيعَ أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَنْ يُعَدِّمُوا ثَوَابَهُ، وَلَنْ يُجْحَدُوا فَضْلَهُ، بَلْ يُشْكِرُ لَهُمْ، وَيَجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. وَاللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُتَّقِينَ. وَهَذِهِ بَشَارَةٌ لِلْمُتَّقِينَ بِجَزِيلِ الثَّوَابِ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى هِيَ أَسَاسُ الْخَيْرِ، وَمَبْدَأُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ التَّقِيَّ هُوَ الْفَائِزُ بِأَجْرِ اللَّهِ وَنَعِيمِهِ الدَّائِمِ.
 وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٠٢) : ((وَمَا تَفْعَلُ هَذِهِ الْأُمَّةُ _ الْمَذْكُورَةُ سَابِقًا _ مِنْ خَيْرٍ، وَتَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ لِلَّهِ فِيهِ رِضَى، فَلَنْ يُكْفَرَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ. يَعْنِي بِذَلِكَ: فَلَنْ يُبْطِلَ اللَّهُ ثَوَابَ عَمَلِهِمْ

ذلك ، ولا يدعهم بغير جزاء منه لهم عليه ، ولكنّه يُجزل لهم الثواب عليه ، ويُسني لهم الكرامة والجزاء . وقد دللنا على معنى (الكفر) فيما مضى قبل بشواهد ، وأن أصله تغطية الشيء . فكذا ذلك في قوله : ﴿ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ ، فلن يُعطى على ما فعلوا من خير فيتركوا بغير مجازاة ، ولكنهم يشكرون على ما فعلوا من ذلك ، فيجزل لهم الثواب فيه ... وأما قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ، فإنه يقول تعالى ذكره: واللّه ذو علم بمن اتقاه ، لطاعته واجتناب معاصيه ، وحافظ أعمالهم الصالحة ، حتى يُثيبهم عليها ، ويُجازيهم بها تبشيراً منه لهم جلّ ذكره في عاجل الدنيا ، وخصاً لهم على التمسك بالذي هم عليه من صالح الأخلاق التي ارتضاها لهم)) .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] .
ومن يفعل الطاعات ، ويقم بفرائض الله تعالى ، وهو مُصدّق بوحداية الله ونبوّة محمد ﷺ ، وأن الله يُجازي الناس بأعمالهم ، فيثيب المُحسن ، ويُعاقب المُسيء ، فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا نقصاً لحسناته . والإيمان شرط في صحّة العبادات وقبول الطاعات .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٢٤ / ٥) : ((قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ . ﴿ مِنْ ﴾ هاهنا للجنس . وإنما شرط الإيمان ، لأن غير المؤمن لا يقبل عمله ، ولا يكون صالحاً ، ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ أي : فهو لا يخاف . قوله تعالى : ﴿ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها لا يخاف أن يُظلم فيزيد في سيئاته ، ولا أن يُهضم من حسناته ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني لا يخاف أن يُظلم فيزيد من ذنب غيره ، ولا أن يُهضم من حسناته ، قاله قتادة . والثالث أن لا يخاف أن يُؤاخذ بما لم يعمل ، ولا يُنتقص من عمله الصالح ، قاله الضحاك . والرابع لا يخاف أن لا يُجزى بعمله ، ولا أن يُنقص من حقه ، قاله ابن زيد)) .

وقال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] . من عبّد الله وأطاعه في الدنيا ، فهو المُستفيد ، ويعود نفع ذلك على نفسه ، ومن ارتكب الذنوب والمعاصي ، فهو الخاسر ، ويرجع ضرر ذلك عليه . والله غني عن العباد وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . من فعل الطاعات ، فله الأجر والثواب ، ومن فعل المعاصي ، فعليه الإثم والعقاب . والله عادلٌ ، لا يُظلم الناس شيئاً ، ولا يُعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه ، وقطع عُذره .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ١٢١) : ((يقول تعالى ذكره : مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَاتَمَرَ لِأَمْرِهِ ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَاها عَنْهُ ﴾ فَلِنَفْسِهِ ﴾ . يقول : فلنفسه عمل ذلك الصالح من

العمل، لأنه يُجَازَى عَلَيْهِ جزاءه فيستوجب في المَعَادِ مِنَ اللَّهِ الْجَنَّةَ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ ، يقول: وَمَنْ عَمِلَ بِمَعَاصِي اللَّهِ فِيهَا، فَعَلَى نَفْسِهِ جَنَى، لِأَنَّهُ أَكْسَبَهَا بِذَلِكَ سَخَطَ اللَّهِ وَالْعِقَابَ الْأَلِيمَ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَمَا رَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ بِحَامِلِ عُقُوبَةِ ذَنْبٍ مُذْنِبٍ عَلَى غَيْرِ مُكْتَسِبِهِ ، بَلْ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا عَلَى جُرْمِهِ الَّذِي أَكْتَسَبَهُ فِي الدُّنْيَا ، أَوْ عَلَى سَبَبِ اسْتِحْقَاقِهِ بِهِ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وفي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (١٥ / ١٦) : ((قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : لَيْسَتْ صِيغَةُ " ظَلَامٌ " هُنَا لِلْمُبَالَغَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ صِيغَةُ نِسْبَةٍ ، مِثْلُ : عَطَّارٌ ، وَنَجَّارٌ ، وَتَمَّارٌ ، وَلَوْ كَانَتْ لِلْمُبَالَغَةِ لَأَوْهَمَ أَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ كَثِيرَ الظُّلْمِ ، وَلَكِنَّهُ يَظْلِمُ أحيانًا ، وَهَذَا الْمَعْنَى فَاسِدٌ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الظُّلْمُ جَلًّا وَعِلًّا)) .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ [الْبَيِّنَاتِ : ٧] .
إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، أَي : جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، أُولَئِكَ هُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٩٦) : ((أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِأَبْدَانِهِمْ ، بِأَنَّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَفْضِيلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْبَرِيَّةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾)) .

٤_ الْمُسَارَعَةُ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [الْبَقَرَةِ : ١٤٨] .

فَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَاحْرِصُوا عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَاسْبِقُوا غَيْرَكُمْ فِي الْقُرْبَاتِ وَالْعِبَادَاتِ وَالْفُوزِ بِالْجَنَّةِ ، وَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى فَضْلِهِ وَنِعْمِهِ وَهِدَايَتِهِ لَكُمْ ، وَحَافِظُوا عَلَى صَلَاتِكُمْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا ، وَتَمَسَّكُوا بِقَبْلَتِكُمْ ، وَلَا تُضَيِّعُوهَا كَمَا ضَيَّعَتْهَا الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، فَتَضِلُّوا كَمَا ضَلُّوا ، وَتَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا . وَلَا طَاعَةَ وَلَا فَضْلَ وَلَا نَجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، إِلَّا بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَاتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَوْلًا وَفِعْلًا .

وَالْأَمْرُ الْإِلَهِيُّ : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ يُفِيدُ الْوُجُوبَ . يَجِبُ وَجُوبًا شَرْعِيًّا الْمُسَارَعَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ . وَقَالَ ابْنُ حَزْمٍ فِي الْإِحْكَامِ (٣ / ٣٠٧) : ((وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوُجُوبِ ، فَإِذَا أَمَرْنَا تَعَالَى بِالِاسْتِبَاقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ ، فَقَدْ ثَبَتَ وَجُوبَ الْبِدَارِ إِلَى مَا أَمَرْنَا بِهِ سَاعَةَ وُرُودِ الْأَمْرِ ، دُونَ تَأَخُّرٍ وَلَا تَرَدُّدٍ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣٠ / ٢) : ((وإنما حَضَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَالتَّزُودِ فِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَهُمْ : ﴿ فَاسْتَبِقُوا ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الْعَمَلِ بِطَاعَةِ رَبِّكُمْ ، وَلِزُومِ مَا هَدَاكُمْ لَهُ مِنْ قِبَلَةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ وَشَرَائِعِ دِينِهِ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَاسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [آل عمران : ١١٤] .

هذا مدْحٌ إلهيٌّ عظيمٌ للمؤمنين . إنَّهُمْ يُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، بِلا تَكَاسُلٍ ، وَلا تَتَأَقَّلُ ، وَلا تَبَاطُؤُ ، لِمَعْرِفَتِهِمْ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ . وَهَذِهِ الْمُسَارَعَةُ تَعَكِّسُ قُوَّةَ الْإِيمَانِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَالثَّابِرَةَ فِي تَحْصِيلِ الْأَجْرِ ، وَقُوَّةَ الْوِازِعِ الدِّينِيِّ ، وَالدَّفَاعِيَةَ إِلَى التَّحَدِيِّ وَالْإِنْجَازِ . فَهُمْ فِي سِبَاقٍ مَعَ الزَّمَنِ ، يَعْمَلُونَ الْخَيْرَاتِ دُونَ تَأْخِيرٍ لئَلَّا يَدْهَمَهُمُ الْمَوْتُ فَيُنْهِيَ حَيَاتَهُمْ ، فَتَنْقَطِعَ بِذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ . أَيُّ إِنَّهُمْ يُبَادِرُونَ بِالْعَمَلِ قَبْلَ قَوَاتِ الْأَوَانِ .

وقال الطبري في تفسيره (٤٠٢ / ٣) : ((وَيَبْتَدِرُونَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ خَشْيَةَ أَنْ يَفُوتَهُمْ ذَلِكَ ، قَبْلَ مُعَالَجَتِهِمْ مِنْهَا)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] .

بَادِرُوا وَسَابِقُوا إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِ اللهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَإِلَى جَنَّةٍ وَاسِعَةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى ، وَصَمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ . وَإِذَا كَانَ هَذَا عَرْضَ الْجَنَّةِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ طُولُهَا ؟ . وَالْمَقْصُودُ بِيَانِ سَعَةِ الْجَنَّةِ وَعِظْمِهَا . أَعَدَّهَا اللهُ وَهَيَّأَهَا لِمَنْ أَطَاعَهُ ، وَابْتَعَدَ عَنْ مَعْصِيَتِهِ .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٧٨ / ١) : ((وَمَعْنَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ الْإِقْبَالَ عَلَى مَا يُوصِلُ إِلَيْهِمَا . ثُمَّ قِيلَ : هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، أَوْ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى ، أَوْ الطَّاعَةُ ، أَوْ الْإِخْلَاصُ ، أَوْ التَّوْبَةُ ، أَوْ الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَاتُ . ﴿ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ، أَيُّ : عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْمُرَادُ وَصْفُهَا بِالسَّعَةِ وَالْبَسْطِ ، فَشَبَّهَتْ بِأَوْسَعِ مَا عَلِمَهُ النَّاسُ مِنْ خَلْقِهِ وَأَبْسَطِهِ . وَخَصَّ الْعَرْضَ ، لِأَنَّهُ فِي الْعَادَةِ أَدْنَى مِنَ الطُّولِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا _ : كَسَبَعُ سَمَاوَاتٍ وَسَبَعُ أَرْضِينَ لَوْ وُصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَمَا زُوِيَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ أَوْ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا فِي جِهَتِهَا ، لَا أَنَّهَا فِيهَا ، أَوْ فِي بَعْضِهَا ، كَمَا يُقَالُ : فِي الدَّارِ بُسْتَانٌ ، وَإِنْ كَانَ يَزِيدُ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ بَابَهُ إِلَيْهَا . ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ فِي مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةٍ لِـ (جَنَّةٍ) أَيْضًا ، أَيُّ : جَنَّةٍ وَاسِعَةٍ مُعَدَّةٍ لِلْمُتَّقِينَ ، وَدَلَّتِ الْآيَاتَانِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ . ثُمَّ

الْمُتَّقِي مَنْ يَتَّقِي الشِّرْكَ ... ، أَوْ : مَنْ يَتَّقِي المعاصي ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ الثَّانِي فَهِيَ لَهُمْ بِغَيْرِ عُتُوبَةٍ ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَهِيَ لَهُمْ أَيْضًا فِي الْعَاقِبَةِ)) .

وَفِي صَفْوَةِ التَّفَاسِيرِ (٢ / ٥٥) : ((قَدَّمَ الْمَغْفِرَةَ عَلَى الْجَنَّةِ ، لِأَنَّ التَّخْلِيَةَ مُقَدِّمَةً عَلَى التَّحْلِيَةِ ، فَلَا يَسْتَحِقُّ دُخُولَ الْجَنَّةِ مَنْ لَمْ يَتَطَهَّرْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ)) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَرَأَيْتَ جَنَّةَ عَرَضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، فَأَيْنَ النَّارُ ؟ ، قَالَ : ((أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ الَّذِي قَدْ أَلْبَسَ كُلَّ شَيْءٍ ، فَأَيْنَ جَعَلَ النَّهَارَ ؟)) ، قَالَ : اللَّهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : ((كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)) ٢٩ .

إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ وَحْدَهُ فِي الْكَوْنِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَلَكَ لَهُ ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ . وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى أَنَّ النَّهَارَ يَكُونُ فِي جِهَةٍ غَيْرِ الَّتِي فِيهَا اللَّيْلُ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التَّوْبَةُ : ١٠٠] .

رَضِيَ اللَّهُ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ . شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ رَحِمَهُمْ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ ، وَرَضِيَ أَعْمَالَهُمْ ، وَرَضُوا مَا مَنَحَهُمْ إِيَّاهُ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَالتَّوَابِ الْجَزِيلِ . أَيِ إِنَّ اللَّهَ رَضِيَ عَنْهُمْ بِطَاعَتِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَرَضُوا عَنْهُ بِأَجْرِهِ وَتَوَابِهِ . وَالآيَةُ بَيِّنَةٌ لِفَضَائِلِ قَادَةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَشْرَافِهِمْ .

لَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الصَّحَابَةَ الْكِرَامَ الَّذِينَ امْتَارُوا بِالسَّبْقِ وَالْمُسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَعَدِمَ التَّقَاعُسِ وَالرُّكُونَ إِلَى الدُّنْيَا ، فَكَانُوا سَادَةً لِلنَّاسِ وَقُدُوةً لَهُمْ ، وَمَثَلًا أَعْلَى يُحْتَدَى .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٤٥٣) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَالَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ أَوَّلًا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ ، وَفَارَقُوا مَنَازِلَهُمْ وَأَوْطَانَهُمْ ، ﴿ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، يَقُولُ : وَالَّذِينَ سَلَكَوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ طَلَبَ رِضَا اللَّهِ ، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وَمَعْنَى الْكَلَامِ : رَضِيَ اللَّهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ لِمَا أَطَاعُوهُ ، وَأَجَابُوا نَبِيَّهَ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَرَضِيَ عَنْهُ

٢٩ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١ / ٩٢) بِرَقْمِ (١٠٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لِمَا أَجَزَلْ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِنَّهُ ، وإيمانهم به وَبِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ)) .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٩٠ و ٤٩١) ستة أقوال في قوله _ سبحانه _ :
﴿ والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ : ((أحدها أنهم الذين صلُّوا إلى القِبْلَتَيْنِ مع رسول الله ﷺ ... والثاني
أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ... والثالث أنهم أهل بَدْر ... والرابع أنهم جميع
أصحاب رسول الله ﷺ حصل لهم السَّبْقُ بَصْحَبَتِهِ ... والخامس أنهم السابقون بالموت والشَّهَادَةِ
سَبَقُوا إلى ثواب الله تعالى ... ، والسادس أنهم الذين أسلموا قَبْلَ الهِجْرَةِ)) .
كُلُّ هذه الأقوال تشير إلى أهمية المُسَارَعَةِ في الخيرات ، والمُبَادَرَةِ إلى فِعْلِ الطاعات ،
والجُرْحِ على مُسَابَقَةِ الناس إلى العبادات والطاعات .

وعلى العبد أن يكون حريصًا أن لا يَسْبِقَهُ إلى الله أَحَدٌ . فهذا هو مجال التسابق والتنافس
والإصرار والعزيمة . والإيمان حين يَمَلَأُ الكِيَانَ البشريَّ فإن الفرد يتحوَّل إلى شُعْلَةٍ نشاط ، وبصير
المُجْتَمَعِ خَلِيَّةً نَحْلٍ دَوَّوب ، ولا يتوقَّف عن العمل والإنتاج والإبداع .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١٣٧٦) أن غَيْلَانَ بن جَرِيرٍ قال : قُلْتُ لَأَنْسِ : أَرَأَيْتَ اسْمَ
الأنصار ، كُنْتُمْ تُسَمُّونَ بِهِ أَمْ سَمَّاكُمْ اللهُ ؟ ، قال : بَلْ سَمَّانا اللهُ . كُنَّا نَدْخُلُ على أنس ،
فَيَحْدُثُنَا مَنَاقِبَ الأنصارِ وَمَشَاهِدَهُمْ ، وَيُقْبَلُ عَلَيَّ ، أو على رَجُلٍ مِنَ الأَزْدِ ، فَيَقُولُ : فَعَلَّ قَوْمُكَ
يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا .

إنَّ الأنصار هم أهلُ المدينة الذين نَصَرُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وآوَوْهُ في ديارهم ومن معه مِنَ المُهاجرين ،
ولهم في الإسلام سابقة ، وفضل على جميع المسلمين .

سأل التابعيُّ غَيْلَانُ بن جَرِيرٍ الصحابيَّ أنس بن مالك _ رضي اللهُ عنه _ عن اسم الأنصار ،
هل كانوا يُسَمُّونَ به قبل نزول القرآن ، أم أنَّ هذه التسمية مِنَ اللهِ تعالى ؟ . فأجاب أنَّ التسمية
مِنَ اللهِ تعالى ، كما في قوله : ﴿ والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجرينِ وَالأنصارِ ﴾ .

ويُخْبِرُ غَيْلَانُ بن جَرِيرٍ أنَّهم كانوا يَدْخُلُونَ على أنس بن مالك _ رضي اللهُ عنه _ بالبَصْرَةِ ،
فَيَحْدُثُ أصحابَه عن فضائل الأنصارِ وأمجادهم ومحاسنهم وِطُولَاتِهِمْ ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ مواقفهم النبيلة
لِنُصْرَةِ الإسلام ، وَيُقْبَلُ عَلَيْهِ أو على رَجُلٍ مِنَ الأَزْدِ ، وهي قبيلة كبيرة مِنَ العرب ، وكان غَيْلَانُ
أَيْضًا مِنَ الأَزْدِ ، والأَزْدُ هم الأنصار ، وهو اسم أبيهم ، فَيَقُولُ أنسُ مُخَاطِبًا لِغَيْلَانَ أو لِلرَّجُلِ :
فَعَلَّ قَوْمُكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا . يَحْكِي ما كان مِنَ مآثرهم في المَعَازِي ونَصْرِ الإسلام .

والحديث يدل على أنَّ تسمية الأَنْصار بالأَنْصار اسمٌ شَرَّفَ اللهُ به ذلك الحَيِّ . وفيه ضرورة معرفة قَدْرُ كُلِّ إنسان بما قَدَّمه .

وقال العيني في عمدة القاري (١٦ / ٢٥٤) : ((قَوْلُهُ : أَوْ عَلَى رَجُلٍ . شَكٌّ مِنَ الرَّوِيِّ ، أَيْ : أَوْ يُقْبَلُ أَنْسَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ غَيْلَانَ الْمَذْكُورَ ، لِأَنَّهُ مِنَ الْأَزْدِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَزْدِ ، فَإِنْ قُلْتَ : فَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ قَالَ أَنْسُ : " فَعَلَ قَوْمَكَ " بِالْخَطَابِ إِلَى غَيْلَانَ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْدِ ، بِقَوْلِهِ : " قَوْمَكَ " وَلَيْسَ قَوْمُهُ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قُلْتَ : هَذَا بِاعْتِبَارِ النَّسَبَةِ الْأَعْمِيَّةِ إِلَى الْأَزْدِ ، فَإِنَّ الْأَزْدَ يَجْمَعُهُمْ قَوْلُهُ : فَعَلَ قَوْمُكَ كَذَا ، أَيْ يَحْكِي مَا كَانَ مِنْ مَآثِرِهِمْ فِي الْمَغَازِي وَنَصْرِ الْإِسْلَامِ)) .

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وأعدَّ اللهُ لهم في الآخرة جَنَّاتٍ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَفُصُورِهَا الْأَنْهَارُ ، مَآكِنٍ فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ ، لَا يَمُوتُونَ فِيهَا ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يُوجَدُ أَعْظَمُ مِنْهُ . وَفَضْلُ اللَّهِ الْعَظِيمُ لَا يُمَكِّنُ تَقْدِيرَهُ وَلَا تَوْفِيقَهُ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤٥٣) : ((﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ يَدْخُلُونَهَا ﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لَا يَبْنِي فِيهَا ﴾ أَبَدًا ﴾ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) ﴾ [الواقعة] .

التَّكْرِيرُ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ . وَالسَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ وَالْحَسَنَاتِ ، هُمْ السَّابِقُونَ إِلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْأَبَدِيِّ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا ثَنَاءٌ إِلَهِيٌّ عَلَيْهِمْ ، وَمَدْحٌ لَهُمْ ، وَإِشَادَةٌ بِهِمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٣٣ و ١٣٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ فِيهِمْ خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنََّّهُمُ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، قَالَه الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ . وَالثَّانِي أَنََّّهُمُ الَّذِينَ صَلُّوا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، قَالَه ابْنُ سِيرِينَ . وَالثَّلَاثُ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، قَالَه كَعْبٌ . وَالرَّابِعُ الْأَنْبِيَاءُ ، قَالَه مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ . وَالخَامِسُ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَإِلَى الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَه عُثْمَانُ بْنُ أَبِي سَوْدَةَ . وَفِي إِعَادَةِ ذِكْرِهِمْ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّ ذَلِكَ لِلتَّوَكُّيدِ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمَعْنَى السَّابِقُونَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ هُمْ السَّابِقُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، ذَكَرَهُمَا الرَّجَّازُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ : يَعْنِي عِنْدَ اللَّهِ ، فِي ظِلِّ عَرْشِهِ وَجِوَارِهِ)) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا وَإِنَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

هذه دَعْوَة النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِي الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، وَيُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالشِّرْكَ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ . وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ ، وَالْحَكِيمُ الْمُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ ، فَكُلُّ أَعْيَانِهِ وَأَقْوَالِهِ لَهَا حِكْمٌ بَلِيغَةٌ ، وَلَا تَجِيءُ صُدْفَةً ، وَلَا تَجِيءُ بِشَكْلِ عَابَثٍ . وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ الْكَرِيمَةِ الصَّادِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَرَحْمَةً بِعِبَادِهِ .

﴿ رَبَّنَا وَإِنَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . اسْتَجَابَ اللَّهُ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، يَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَحَسَبَهُ ، وَيُدْرِكُونَ تَفَاصِيلَ حَيَاتِهِ دُونَ مَنَاطِقِ غَامِضَةٍ وَلَا نِقَاطِ مُظْلِمَةٍ . يُخْرِجُهُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ . وَالآيَةُ تُشِيرُ إِلَى مَكَانَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَدَوْرِهِ الْبَارِزِ فِي الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ بِهِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ النَّبِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي جَاءَ مِنْ نَسْلِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ _ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ . وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ الشَّرْفُ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٥٢) : ((يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ، أَيِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمَسْتَجَابَةَ قَدَرَ اللَّهِ السَّابِقَ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ _ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ _ رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ ، إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ)) .

وَعَنْ الْعَرَبِيَّاتِ بِنِ سَارِيَةِ الْفَرَّازِيِّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذَلِكَ : دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَتِهِ عِيسَى ، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ حِينَ وَضَعْتَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ)) ٣٠ . قَدَرَ اللَّهُ فِي الْأَزْلِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَإِنَّ آدَمَ ﷺ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ . لَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ خَلْقِ جَسَدِ آدَمَ ﷺ ، وَقَبْلَ نَفْخِ

٣٠ رواه ابن جِبَّانِ فِي صَحِيحِهِ (١٤ / ٣١٢) وَاللَّفْظُ لَهُ ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٤٥٣) بِرَقْمِ

(٣٥٦٦) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

الرُّوحُ فِيهِ . وقد كَانَ آدَمَ ﷺ صُورَةً مِنْ طِينٍ ، مَطْرُوحَةً عَلَى الْأَرْضِ ، لَمْ تَجْرِ فِيهِ الرُّوحُ . وقال ابن الأثير في النِّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْأَثَرِ (٧٠٧ / ١) عن معنى عبارة (مُنْجِدِلٌ فِي طِينَتِهِ) : ((أَي مُلْقَى عَلَى الْجَدَالَةِ ، وَهِيَ الْأَرْضُ)) .

وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ سَيِّخِرُهُمْ بِأَوَّلِ مَا ظَهَرَ مِنْ نُبُوتِهِ ، وَرَفَعَتْهُ فِي الدُّنْيَا : دَعْوَةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ . أَي إِنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ دَعْوَةُ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ بَنَى الْكَعْبَةَ ، فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ، أَي : ابْعَثْ فِي الْعَرَبِ رَسُولًا مِنْهُمْ ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ . وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ بِشَارَةُ النَّبِيِّ عِيسَى ﷺ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] . " وَرُؤْيَا أُمِّي النَّبِيَّ رَأَتْ " : يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الرُّؤْيَا مَنَامِيَّةً ، وَيُحْتَمَلُ الْيَقَظَةُ ، " حِينَ وَضَعْتَنِي " : عِنْدَ وِلَادَتِي ، " أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ " : وَالنُّورُ عِبَارَةٌ عَنِ الظُّهُورِ نُبُوتِهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَاضْمَحَلَّ بِهَا ظِلْمَةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، وَأَضَاءَ نُورٌ هِدَايَتَهُ قُصُورَ الشَّامِ ، حَيْثُ كَانَ يُوجَدُ الرُّومُ وَقُصُورُهُمْ ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ مِنَ النَّصَارَى ، فَكَأَنَّ نُورَ الْحَقِّ أَضَاءَ عَلَى أَهْلِ رِسَالَةِ عِيسَى ﷺ ، بَعْدَمَا بَدَّلُوهَا وَحَرَّفُوهَا ، وَهُوَ آخِرُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَآخِرُ نَبِيِّ قَبْلَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ٣١ .

وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ مَكَانَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْأَقْدَارَ مُحْتَمَةٌ وَمُقَدَّرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْرَ كُلِّ شَيْءٍ قَبْلَ خَلْقِ الْأَكْوَانِ ، وَكُنْتُ الْمَقَادِيرَ ، فَحَدَّدَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ ، أَوْلَهُمْ وَأَحْرَمَهُمْ .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ . يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ كِتَابِكَ (الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ) .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ . يُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ . وَقِيلَ : الْحِكْمَةُ هِيَ الْمَعْرِفَةُ بِالذِّينِ وَالْفِئَةِ فِيهِ . وَالنَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ الْمُعَلِّمُ الَّذِي يُؤَسِّسُ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْمَعَارِفَ الْكُونِيَّةَ وَفَقَّ الْوَحْيِ

٣١ قال المناوي في فيض القدير (٥٧٣ / ٣) : ((رَأَتْ أُمِّي) فِي الْمَنَامِ (كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ) لِأَنَّهَا حِينَ حَمَلَتْ بِهِ كَانَتْ ظَرْفًا لِلنُّورِ الْمُنتَقِلِ إِلَيْهَا مِنْ أَبِيهِ (أَضَاءَتْ مِنْهُ) أَي : مِنْ ذَلِكَ النُّورِ (قُصُورُ الشَّامِ) فَأَوَّلَ بَوْلِدٍ يَخْرُجُ مِنْهَا يَكُونُ كَذَلِكَ ، وَذَلِكَ النُّورُ إِشَارَةٌ لِظُهُورِ نُبُوتِهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَاضْمَحَلَّ ظِلْمَةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ . قَالَ فِي اللَّطَائِفِ : هَذَا النُّورُ إِشَارَةٌ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ النُّورِ الَّذِي اهْتَدَى بِهِ أَهْلُ الْأَرْضِ ، وَزَالَ بِهِ الشُّرْكُ ، وَخُصِّتْ بِهِ الشَّامُ لِأَنَّهَا دَارُ مُلْكِهِ ، وَتَحَلَّ سُلْطَانَهُ . وَفِي وَصْفِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ ، مَوْلَدَهُ بِمَكَّةَ ، وَمُهَاجِرَتَهُ يَثْرِبَ _ يَعْنِي الْمَدِينَةَ _ ، وَمُلْكَهُ بِالشَّامِ)) .

الإلهي الذي يتلقاه . وسُميت الحكمة بهذا الاسم لأنها تمنع من الجهل . وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٢٩) : ((الكتاب : القرآن ، والحكمة : المعرفة بالدين والفقّه في التأويل والفهم الذي هو سجيّة وثور من الله تعالى ، قاله مالك . ورواه عنه ابن وهب ، وقاله ابن زيد . وقال قتادة: الحكمة السنّة وبيان الشرائع)) .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٦) : ((والصواب من القول عندنا في الحكمة أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ ، والمعرفة بها ، وما دلّ عليه ذلك من نظائره ، وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل)) .

﴿ وَيُرَكِّبُهُمْ ﴾ . يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ وَعِبَادَةَ الْأَصْنَامِ . وَقِيلَ : يَأْخُذُ مِنْهُمْ الزَّكَاةَ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٤٦) : ((وفي قوله تعالى : ﴿ وَيُرَكِّبُهُمْ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه يأخذ الزكاة منهم فيطهرهم بها ، قاله ابن عباس والفرّاء ، والثاني : يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشَّرْكَ وَالْكُفْرِ ، قاله مقاتل . والثالث : يدعوهم إلى ما يصيرون به أركياء)) .
﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . العزيز هو القويّ الغالب ، الذي لا يعجزه شيء ، لأنه قادر على كل شيء ، والحكيم الذي تخلو أفعاله وأقواله من الخطأ والعبث والصدفة .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٦٠٦) : ((يعني تعالى ذكره بذلك : إِنَّكَ يَا رَبِّ ، أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الذي لا يعجزه شيء أراده : فافعل بنا وبذرّيتنا ما سألناه وطلّبناه منك . و﴿ الحكيم ﴾ الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، فأعطينا ما ينفعنا وينفع ذرّيتنا ولا ينقصك ولا ينقص خزائنتك)) .
وقال الله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

يَمُنُّ اللَّهُ عَلَى الْعَرَبِ أَنْ أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وهو ينتمي إليهم . وهذه النعمة الإلهية العظيمة يجب أداء حَقِّهَا ، وشكْرُ اللَّهِ عَلَيْهَا قَوْلًا وَفِعْلًا . فالنبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ قد أرسله الله رحمةً للإنس والجن ، كي يُنقِذَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَيُقَوِّدَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويُطَهِّرُهُمْ مِنَ الْآثَامِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعَهُ ، وَالْمَوَاعِظَ الدِّينِيَّةَ ، وَالْأَفْكَارَ الْبَلِيغَةَ ، وَأَحْوَالَ الْأُمَّمِ الْغَابِرَةِ ، وَأُمُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فقد كانوا في جاهلية عمياء ، فنقلهم الله ببركة البعثة المحمّدية من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن مُستنقع الكفر إلى فضاء الإيمان ، فصاروا مؤمنين وعلماء ومفكرين ، ينطقون بالحكمة والمعرفة ، وينون حياتهم على بصيرة . والتعلّم النبويّ إنما يستند إلى توجيهات الوحي الإلهي المعصوم والكمال . والنبيُّ ﷺ

لا يَعْلَمُ إِلَّا إِذَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١٣٩) : ((﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ ﴾ . المعنى : ولأتمَّ نعمتي عليكم كإرسالي إليكم رسولاً ، أي : أتم هذه كما أتممت تلك بإرسالي ﴿ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾ تَعْرِفُونَ صِدْقَهُ وَنَسَبَهُ ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ يعني : القرآن . وهذا احتجاج عليهم ، لأنهم عَرَفُوا أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، فَلَمَّا قَرَأَ عَلَيْهِمْ تَبَيَّنَ لَهُمْ صِدْقُهُ فِي النُّبُوَّةِ . ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي : يُعَرِّضُكُمْ لِمَا تَكُونُوا بِهِ أَزْكِيَاءَ مِنَ الْأَمْرِ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢ / ٣٩) : ((﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ﴾ وَهُوَ الْفُرْقَانُ . يَعْنِي أَنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ أَحْكَامَهُ . وَيَعْنِي بِـ ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ السُّنْنَ وَالْفِقْهَ فِي الدِّينِ ... وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : وَيُعَلِّمُكُمْ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَصَصِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَالخَبْرُ عَمَّا هُوَ حَادِثٌ وَكَائِنٌ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ الْعَرَبُ تَعْلَمُهَا ، فَعَلِمُوهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنَّمَا يُدْرِكُونَهُ بِرَسُولِهِ ﷺ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣١] .

وَادْكُرُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ، وَرَحْمَتَهُ بِكُمْ ، بِهَدَايَتِكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، حَيْثُ أَرْسَلَ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ ضَالِّينَ فِي جَاهِلِيَّةِ جَهْلَاءَ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ . وَالْحِكْمَةُ هِيَ السُّنَّةُ . وَقِيلَ : مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ : مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَقِيلَ : الْفِقْهُ . يُذَكِّرُكُمْ اللَّهُ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَيُرْشِدُكُمْ سُبْحَانَهُ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٣ / ١٤٧) : ((وَالْحِكْمَةُ : هِيَ السُّنَّةُ الْمُبَيَّنَةُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُرَادَ اللَّهِ فِيهَا لَمْ يُنْصَ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ)) .

وَسِيَاقُ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ يَدُلُّ عَلَى عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالنَّعْمَةِ هُوَ نِعْمَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ هَذِهِ النَّعْمِ . وَقَدْ أَفْرَدَهُمَا اللَّهُ بِالذِّكْرِ إِظْهَارًا لِشَرْفِهِمَا ، وَتَبْيِهَا عَلَى عِظَمِ شَأْنِهِمَا .

وقال الطبري في تفسيره (٢ / ٤٩٣) : ((وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ ، الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهِ ، فَهَذَا كَمِثْلِهِ ، وَسَائِرُ نِعْمَةٍ الَّتِي خَصَّكُمْ بِهَا دُونَ غَيْرِكُمْ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ ، فَاشْكُرُوهُ عَلَى ذَلِكَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَنَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَادْكُرُوا أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِهِ ، وَذَلِكَ : الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَادْكُرُوا ذَلِكَ ، فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَاحْفَظُوا حُدُودَهُ فِيهِ .

والحكمة ، يعني : وما أنزل عليكم من الحكمة ، وهي السنن التي علمكموها رسول الله ﷺ ،
وسنّها لكم يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ يعظكم بالكتاب الذي أنزل عليكم .
والهاء التي في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ عائدة على الكتاب .

وقال الله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

الحكمة مأخوذة من الأحكام ، وهو الإتقان في القول والفعل . والحكمة هي العلم النافع
المؤدّي إلى العمل الصالح ، وهي تمنع الإنسان من السّفه والطّيش والأقوال السيئة والأفعال
القيحة، وترشده إلى الحق والصواب . والحكمة _ أيضًا _ هي العمل بالعلم النافع . ورأس الحكمة
مخافة الله . والله يؤتي الفهم والإصابة في القول والفعل من يشاء من خلقه . وهذا يدل على
خصوصية الحكمة ، وأنها تُمنح لأشخاص محدّدين ، وفق مشيئة الله النافذة وحكمته البالغة .
وفي سنن الدارمي (٢ / ٥٢٨) عن مجاهد : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، قال : الكتاب ،
يؤتي إصابته من يشاء .

ومن يُعط الحكمة فقد أُعطي خيرًا كثيرًا وفضلاً عظيمًا ، لأنها طريق السعادة في الدنيا ،
والنعم الأبدي في الآخرة . وتكرير ذكر الحكمة لبيان عظمتها وأهميتها وشرفها .
وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٤٣٨) : ((والمعنى : أن من أعطاه الله الحكمة ، فقد
أعطاه خيرًا كثيرًا ، أي : عظيمًا قدره ، جليلاً خطره)) .

وما يتعظ بآيات الله وأحكامه وشرائعه ، إلا أصحاب العقول السليمة البعيدة عن الأوهام
والأهواء ، الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه ، وحولوا العلم النافع إلى تطبيق عملي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٥٧٠) : ((﴿ وما يذكّر ﴾ ، وما يتعظ بما قص من الآيات ،
أو ما يتفكر ، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة ﴿ إلا أولو الألباب ﴾
ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم ، والركون إلى متابعة الهوى)) .

والآية تدل على أنّ المواعظ لا تنفع إلا أصحاب العقول النيرة ، أمّا الجهال فلا يستفيدون
من المواعظ ، ولا ينتفعون بالأحكام . وهذا يوضح أهمية العقل ، فهو مناط التكليف . وإذا أخذ الله
ما أوهب ، أسقط ما أوجب . وفي تفسير الجلالين (١ / ٥٧) : ((﴿ يؤتي الحكمة ﴾ ، أي :
العلم النافع المؤدّي إلى العمل ﴿ من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ لمصيره إلى
السعادة الأبدية ، ﴿ وما يذكّر ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الدال ، يتعظ ﴿ إلا أولو الألباب ﴾

أصحاب العقول)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٢٤) : ((في المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولاً : أحدها أنها القرآن ، قاله ابن مسعود ومجاهد والضحاك ومقاتل في آخرين . والثاني معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، ونحو ذلك ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث النبوة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والرابع الفهم في القرآن ، قاله أبو العالية وقتادة وإبراهيم . والخامس العلم والفقه ، رواه ليث عن مجاهد . والسادس الإصابة في القول ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . والسابع الورع في دين الله ، قاله الحسن . والثامن الخشية لله ، قاله الربيع ابن أنس . والتاسع العقل في الدين ، قاله ابن زيد . والعاشر الفهم ، قاله شريك . والحادي عشر العلم والعمل . لا يُسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمعهما ، قاله ابن قتيبة)) .

إن النبوة هي الحكمة العليا التي لا يعلمها شيء . ولكن الحكمة لا تختص بالنبوة ، فمفهوم الحكمة واسع وشامل . والسائر على خطى الأنبياء لهم نصيب من الحق والهدى والخير ، لأنهم تابعون لأعظم البشر الذين يأتيهم الوحي السماوي . وهؤلاء التابعون هم العلماء الراسخون في العلم ، الذين يعملون بالعلم النافع .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : ((من قرأ القرآن ، فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه)) ٣٢ .

تتضح فضيلة القرآن العظيمة . فمن قرأ القرآن وحفظه ، وأصبح في صدره محفوظاً ، فقد جمع النبوة في صدره ، لأن القرآن كلام الله ، أوحاه إلى محمد ﷺ ، فمن اعتنى بالقرآن قراءة وحفظاً وفهماً صار شبيهاً بالنبى ﷺ إلا أنه ليس نبياً ، ولا يوحى إليه ، لأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨] .
 ويعلم الله النبى عيسى ﷺ الكتابة والخط ، والعلم والفقه ، والتوراة (الكتاب الذي أنزله الله على النبى موسى بن عمران) ، والإنجيل (الكتاب الذي أنزله الله على النبى عيسى بن مريم) ، وقد كان النبى عيسى ﷺ يحفظ التوراة والإنجيل . وخص الكتابان بالذكر لفضلهما وشرفهما .
 وقيل إن الحكمة هي السداد في القول والعمل ، وقيل : تهذيب الأخلاق ، وقيل : سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٣٢ رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣٨) برقم (٢٠٢٨) وصححه .

وقال الطبري في تفسيره (٢٧٢ / ٣) : ((وهذا ابتداء خبر من الله عز وجل لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة ورفعة المنزلة والفضيلة . فقال : كذلك الله يخلق منك ولدا من غير فحل ولا بعل ، فيعلمه الكتاب ، وهو الخط الذي يخطه بيده ، والحكمة : وهي السنة التي نوحها إليه في غير كتاب ، والتوراة : وهي التوراة التي أنزلت على موسى كانت فيهم من عهد موسى ، والإنجيل : إنجيل عيسى ، ولم يكن قبله ، ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه موحى إليه . وإنما أخبرها بذلك فسماها لها ، لأنها قد كانت علمت فيما نزل من الكتاب أن الله باعث نبيا يوحى إليه كتابا اسمه الإنجيل ، فأخبرها الله عز وجل أن ذلك النبي ﷺ الذي سمعت بصفته الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزل عليه الكتاب الذي يسمى إنجيلا ، هو الولد الذي وهبه لها ، وبشرها به)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٩١ / ١) : ((وفي الكتاب قولان : أحدهما أنه كُتب النبيين وعلمهم ، قاله ابن عباس . والثاني الكتابة ، قاله ابن جريج ومقاتل . قال ابن عباس : والحكمة الفقه وقضاء النبيين)) .

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۗ ﴾ [النساء: ١١٣] . من فضل الله عليك يا محمد أنه أنزل عليك القرآن والسنة ، وعلمك ما لم تكن تعلم من المواعظ والشرائع والأحكام والأمور الغيبية . أي : إن الله علمه أحوال الدنيا والآخرة ، ووضح حاله وحرامه ، ليقيم الحجة على الناس ، ويقطع أعدائهم .

وقال الطبري في تفسيره (٢٧٥ / ٤) : ((وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، يقول : ومن فضل الله عليك يا محمد مع سائر ما تفضل به عليك من نعمه أنه أنزل عليك الكتاب ، وهو القرآن الذي فيه بيان كل شيء وهدى وموعظة ﴾ والحكمة ، يعني : وأنزل عليك مع الكتاب الحكمة ، وهي ما كان في الكتاب مجملا ذكره من حلاله وحرامه وأمره ونهيه وأحكامه ووعده ووعيده ﴾ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ من خبر الأولين والآخرين ، وما كان وما هو كائن)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٩٧ / ٢) : ((فأما الكتاب فهو القرآن . وفي الحكمة ثلاثة أقوال: أحدها: القضاء بالوحي، قاله ابن عباس. والثاني: الحلال والحرام، قاله مقاتل. والثالث: بيان ما في الكتاب وإلهام الصواب وإلقاء صححة الجواب في الرُوع (النفس)، قاله أبو سليمان الدمشقي . وفي قوله : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنه الشرع ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني: أخبار الأولين والآخرين، قاله أبو سليمان. والثالث: الكتاب والحكمة، ذكره الماوردي)) .

وقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التَّحْلُ : ١٢٥] .

ادْعُ يا مُحَمَّدُ النَّاسَ إِلَى الشَّرِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ (الإسلام) بِالْبُرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَالْأَدْلَةَ الْحَاسِمَةَ ، الْمَوْجُودَةَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ﴿وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ﴾ ، وَهِيَ الدُّعَاءُ إِلَى اللَّهِ بِالرَّغْبِ وَالرَّهْبِ ، وَذِكْرُ الْعَبْرِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ ، وَتَدْخُلُ إِلَى قَلْبِهِ ، وَتُغَيِّرُ سُلُوكَهُ . وَالْحِكْمَةُ وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ هُمَا الرُّكْنَانِ اللَّذَانِ تَقُومُ عَلَيْهِمَا الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ .

وهناك أفراد لا يَقْبَلُونَ بهِذِينَ الرُّكْنَيْنِ ، وَلَا يَخْضَعُونَ لِلْحَقِّ ، وَلَا يُسَلِّمُونَ لَهُ . وَهَؤُلَاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى جِدَالٍ وَمُنَازَعَةٍ وَمُقَارَعَةٍ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، فَجَادِلْهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَخَاصِمْهُمْ بِأَسْلُوبٍ جَمِيلٍ وَهَادِيٍّ وَمُؤَيِّدٍ بِالنُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ وَالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ . وَأَعْرِضْ عَنْ أَذَاهِمُ ، وَوَاصِلِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِكُلِّ نَشَاطٍ وَقُوَّةٍ . وَالْهَدَفُ مِنَ الْجِدَالِ بِأَسْلُوبِ الْحَسَنِ الطَّيِّبِ هُوَ إِظْهَارُ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَكَشْفُ الْبَاطِلِ الْمَوْجُودِ عِنْدَ الْخَصْمِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُجَادَلَةَ الْحَسَنَةَ تُوقِظُ الْقُلُوبَ مِنْ غَفْلَتِهَا ، وَتُؤَثِّرُ فِي النُّفُوسِ بِشَكْلِ إِيْجَابِيٍّ ، وَتُنْفِي الْعُقُولَ مِنَ الشَّوَابِ .

وَالآيَةُ : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ رَدُّ عَلَى الرَّافِضِينَ لِلْمُنَازَعَةِ فِي الدِّينِ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣٢٧ / ٢) : ((وَقَوْلُهُ سُحَّانَهُ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ . أَمَرَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرَعَهُ بِتَلَطُّفٍ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُوعِظَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٤٢٦ / ١) : ((﴿ ادْعُ ﴾ مِنْ بُعِثَتْ إِلَيْهِمْ ﴿ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿ بِالْحُكْمِ ﴾ بِالْمَقَالَةِ الْمُحْكَمَةِ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ الْمَوْضِحُ لِلْحَقِّ ، الْمُزِيحُ لِلشُّبُهَةِ ، ﴿ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ ﴾ الْخِطَابَاتُ الْمُقْنِعَةُ وَالْعَبْرُ النَّافِعَةُ ، فَالْأَوْلَى لِذَعْوَةِ خَوَاصِ الْأُمَّةِ الطَّالِبِينَ لِلْحَقَائِقِ ، وَالثَّانِيَةِ لِذَعْوَةِ عَوَامِهِمْ . ﴿ وَجَادِلْهُمْ ﴾ وَجَادِلْ مُعَانِدِيهِمْ ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ طَرِيقِ الْمُجَادَلَةِ ، مِنَ الرَّفْقِ وَاللِّينِ ، وَإِثَارِ الْوَجْهِ الْأَيْسَرِ ، وَالْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْهَرُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْفَعُ فِي تَسْكِينِ لَهُبِهِمْ ، وَتَبْيِينِ شَعْبِهِمْ)) .

وقال السَّفِي فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٦ / ٢) : ((﴿ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ ﴾ وَهِيَ الَّتِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِمْ أَنَّكَ تُنَاصِحُهُمْ بِهَا ، وَتَقْصِدُ مَا يَنْفَعُهُمْ فِيهَا ، أَوْ بِالْقُرْآنِ ، أَي : ادْعُهُمْ بِالْكِتَابِ الَّذِي هُوَ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ حَسَنَةٌ ، وَالْحِكْمَةُ الْمَعْرِفَةُ بِمَرَاتِبِ الْأَفْعَالِ ، وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ أَنْ يَخْلِطَ الرَّغْبَةَ بِالرَّهْبَةِ ، وَالْإِنْذَارَ بِالْبِشَارَةِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٥٠٦) : ((فأما السبيل ، فقال مقاتل : هو دين الإسلام. وفي المُرَاد بالحكمة ثلاثة أقوال : أحدها أنها القرآن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني الفقه ، قاله الضَّحَّاك عن ابن عباس ، والثالث التَّبَوَّة ، ذَكَرَهُ الرَّجَّاجُ. وفي المَوْعِظَةُ الحَسَنَةُ قَوْلَانِ : أحدهما مَوَاعِظُ القُرْآنِ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، والثاني الأدب الجميل الذي يعرفونه ، قاله الضَّحَّاك عن ابن عباس . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ ﴾ في المُشَارِ إِلَيْهِمْ قَوْلَانِ : أحدهما أَنَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، قاله أبو صالح ، والثاني أَهْلُ الكِتَابِ ، قاله مُقَاتِلُ . وفي قَوْلِهِ : ﴿ بِالنَّبِيِّ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أحدها جَادِلْهُمْ بِالقُرْآنِ ، والثاني بِإِلَهٍ إِلاَّ اللّٰهُ ، رُوِيَ القَوْلَانِ عن ابن عباس . والثالث جَادِلْهُمْ غَيْرَ قِطْ وَلَا غَلِيظَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، قاله الرَّجَّاجُ)) .

وقالَ اللّٰهُ تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٣٩] .

ذلك الذي تَقَدَّمَ _ في الآيات السابقة لهذه الآية في سورة الإسراء _ من الآداب والأحكام والأخلاق الجميلة التي أَمَرَكَ اللّٰهُ بها ، والصِّغَاتِ السَّيِّئَةِ التي نَهَاكَ عنها ، مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ بها يا مُحَمَّدٌ لتأمر به الناس .

والحِكْمَةُ هي معرفة الحق لذاته ، والعمل به ، وهي عِلْمُ الشرائع ، والمواعظُ البليغة ، والحِكْمُ الفريدة ، والأحكامُ المُحْكَمَةُ ، والآدابُ الجامعةُ لِكُلِّ خَيْرٍ ، مِمَّا يَحْكُمُ العَقْلُ بِصِحَّتِهِ ، وَتَصْلُحُ النَّفْسُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَطْبِيقِهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٢٣٠) : ((الإشارة بـ " ذلك " إلى هذه الآداب والقصاص والأحكام التي تَصَمَّتْهَا هذه الآياتُ المُتَقَدِّمَةُ التي نَزَلَتْ بها جبريل عليه السلام ، أي: هذه من الأفعال التي تقتضيها حكمة الله عزَّ وَجَلَّ في عبادته، وَخَلَقَهَا لَهُمْ من محاسن الأخلاق، والحكمة، وقوانين المعاني المُحْكَمَةِ ، والأفعال الفاضلة)) .

وقالَ اللّٰهُ تعالى : ﴿ واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللّٰهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] ٣٣ .

٣٣ قال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٦١) : ((لفظ الذُّكْرُ يحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها : أي اذْكُرْنَ مَوْضِعَ النِّعْمَةِ ، إِذْ صَيَّرَكُنَّ اللّٰهُ فِي بُيُوتِكُنَّ فِيهَا آيَاتِ اللّٰهِ وَالْحِكْمَةِ . الثاني : اذْكُرْنَ آيَاتِ اللّٰهِ ، وَأَقْدُرْنَ قَدْرَهَا ، وَفَكَّرْنَ فِيهَا حَتَّى تَكُونَ مِنْكُنَّ عَلَى بَالٍ ، لِتَتَّعِظْنَ بِمَوَاعِظِ اللّٰهِ تعالى . وَمَنْ كَانَ هَذَا حاله يَنْبَغِي أَنْ تَحْسُنَ أَعْمَالَهُ . الثالث : ﴿ اذْكُرْنَ ﴾ بمعنى: احْفَظْنَ وَأَقْرَأْنَ وَالزَّمِنَةُ الألسنة ، فكأنه يقول : احْفَظْنَ =

وَأذْكَرْنَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الإِلَهِيَّةَ الْجَلِيلَةَ ، وَهِيَ نُزُولُ الوَحْيِ فِي بُيُوتِكُنَّ ذُونَ سَائِرِ النَّاسِ .
وَمُخَاطَبَةُ اللَّهِ لَهُنَّ رَفْعَ لِقَدْرِهِنَّ ، وَتَعْظِيمَ لِمَكَانَتِهِنَّ ، وَتَشْرِيفَ لَهُنَّ ، وَمِنْ أَجْلِ إِرْشَادِهِنَّ وَتَوْجِيهِهِنَّ
وَوَعظِهِنَّ ، وَتَذْكِيرِهِنَّ بِالنِّعْمَةِ الإِلَهِيَّةِ بِمَا يُتْلَى فِي بُيُوتِهِنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ (الْحِكْمَةُ) .
وَيَجِبُ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَعْرِفْنَ قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَذَلِكَ بِقِرَاءَةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ، فَإِنَّ
فِيهِمَا الصَّلَاحَ وَالْفَلَاحَ وَالنَّجَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

لَقَدْ جَعَلَهُنَّ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ ، وَذَكَرَهُنَّ أَنَّ بُيُوتَهُنَّ هِيَ مَهَابِطُ الوَحْيِ ، وَأَمَرَهُنَّ بِعَدَمِ نَسْيَانِ
آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَشْتَمَلِ عَلَى الْمَوَاعِظِ ، وَالْأَخْبَارِ ، وَالْعُلُومِ ، وَالشَّرَائِعِ ، وَالْمَعَارِفِ ، وَبِرَاهِينِ النَّبُوَّةِ ،
وَالتَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ ، وَالْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

وَفِي الْآيَةِ أَمْرٌ إِلَهِيٌّ لِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ بِتَبْلِيغِ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ ، وَالْعَمَلَ عَلَى
نَشْرِهَا بَيْنَ النَّاسِ ، حَتَّى يَقْتَدُوا بِهَا ، وَيَعْمَلُوا بِهَا .

وَمَا شَاهَدْنَهُ مِنْ شِدَّةِ نُزُولِ الوَحْيِ يَبْغِي أَنْ يَدْفَعَهُنَّ إِلَى قُوَّةِ الإِيمَانِ ، وَالْيَقِينِ الثَّابِتِ ، وَزِيَادَةِ
الطَّاعَاتِ ، وَالإِبْتِعَادِ عَنِ الْمَعَاصِي .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ . اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ ، وَأَوْلِيائِهِ الْمُتَّقِينَ . وَكَانَ لَطِيفًا
بِنِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ، إِذْ جَعَلَهُنَّ فِي مَهَابِطِ الوَحْيِ (التَّيُّوتِ الَّتِي تُتْلَى فِيهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ) ، خَبِيرٌ
بِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَخَبِيرٌ بِهِنَّ ، إِذْ اخْتَارَهُنَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْرِفُ مَا يُصْلِحُ الْعِبَادَ فَهُوَ
خَالِقُهُمْ ، لِذَلِكَ شَرَعَ لَهُمْ مَا فِيهِ نَجَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَعْلَمُ مَا يَصُدُّرُ عَنِ عِبَادِهِ مِنْ خَيْرٍ
أَوْ شَرٍّ ، وَيُجَازِي الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءَةَ بِإِسَاءَتِهِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ مُدَبِّرُ الْكَوْنِ ، وَمُنزِلُ الوَحْيِ ، وَيَعْلَمُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، لِذَلِكَ وَجَّهَ نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ
إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَوَعظَهُنَّ ، وَجَعَلَ حَيَاتَهُنَّ وَفَقَّ الصُّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ . وَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَنْ
يُصْلِحُ لِلنَّبُوَّةِ ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٦٣٦) : ((وَعَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا
أَوْلَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ ، وَأَخْصَهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ

=أوامرَ اللَّهِ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ
يُخْبِرَنَّ بِمَا يَنْزَلُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي بُيُوتِكُنَّ ، وَمَا يَرَيْنَ مِنْ أَعْمَالِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَيَسْمَعْنَ مِنْ أَقْوَالِهِ حَتَّى يُبَلِّغَنَّ ذَلِكَ
إِلَى النَّاسِ فَيَعْمَلُوا وَيَقْتَدُوا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الدِّينِ)) .

على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نصَّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمه الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ، ورضي الله عنها ، فناسب أن تُخصَّص بهذه المزية ، وأن تُفرد بهذه المرتبة العليا)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧ / ١٠٣) : ((﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي : اذْكُرْنَ للناس بطريق العظة والتذكير ما يُتلى في بيوتكن ﴾ من آيات الله والحكمة ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة ، الدالة على صدق النبوة ، بنظمه المعجز ، وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع ، وهو تذكير بما أنعم عليهن ، حيث جعلهنَّ أهل بيوت النبوة ومهبط الوحي . وما شاهدنَّ من بُرحاء (شدة) الوحي ممَّا يُوجب قوة الإيمان ، والحِرص على الطاعة ، حتَّى على الانتهاء والائتمار فيما كُلفنَّه . والتعرُّض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها ، مع أنه الأنسب ، لكونها مهبط الوحي ، لعمومها لجميع الآيات ، ووقوعها في كل البيوت ، وتكرُّرها الموجب لتمامهنَّ من الذكر والتذكير ، بخلاف النزول . وعدم تعيين التالي لتعمُّ تلاوة جبريل ، وتلاوة النبيِّ — عليهما الصلاة والسلام — ، وتلاوتهنَّ وتلاوة غيرهنَّ تعليمًا وتعلُّمًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الزُّحْرُفُ : ٦٣] .

ولمَّا جاء النبيُّ عيسى ﷺ بني إسرائيل بالمعجزات الباهرة ، والشرائع الواضحة . وقيل : المقصود هو الإنجيل . قال : قد جئتكم بالنبوة ، وذلك لكي تكونوا على يقين من أن كلامه ليس من عنده ، وإنما من عند الله تعالى . والله يبعث الرُّسل من أجل إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

والنبيُّ عيسى ﷺ جاء ليبيِّن لبني إسرائيل الأمور الدنيوية لا الدنيوية ، ويوضح لهم في الإنجيل بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة . وقد بيَّن لهم أمر الدين بشكل واضح وكامل . وجميع الأنبياء يُبيِّنون الأمور الدنيوية لا الدنيوية .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأطيعوا أمري فيما أُبلِّغه إليكم من التكليف والأحكام .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٩٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ، قال ابن عباس : يُريد إحياء الموتى ، وإبراء الأَسقام ، وخلق الطير ، والمائدة ، وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البيِّنات هنا الإنجيل . ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴾ ، أي : النبوة ،

قاله السُّدي. ابن عباس : عَلِمَ ما يُؤدِّي إلى الجميل ، وَيَكْف عن القبيح . وقيل : الإنجيل ، ذَكَرَهُ القُشيري والماوردي ، ﴿ وَلَا يُبَيِّن لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ، قال مُجاهد: من تَبَدَّل التَّوراة . الرَّجَّاج : المعنى لأبَيِّن لَكُمْ في الإنجيل بعضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ من تَبَدَّل التَّوراة . قال مُجاهد : ويَبَيِّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه . وقيل : بَيَّن لهم بعضَ الَّذِي اختلفوا فيه من أحكام التَّوراة على قَدَر ما سألوه . ويجوز أن يَخْتَلِفُوا في أشياء غير ذلك لَم يَسألوه عنها . وقيل : إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد مَوْت مُوسى في أشياء من أمر دينهم ، وأشياء من أمر دُنياهم ، فَبَيَّن لهم أمرَ دينهم ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ ، أي : اتَّقُوا الشَّرْكَ ، ولا تَعْبُدُوا إلا اللَّهَ وَحْدَهُ . وإذا كان هذا قول عيسى، فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله ؟ ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أدعوكم إليه من التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ)).
والجدِيرُ بالذِّكْرِ أنَّ النَّبِيَّ عيسى ﷺ قال : ﴿ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ذُون الكُلِّ ، لأنَّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ يُبَيِّنُونَ أُمُورَ الدِّينِ لا أُمُورَ الدُّنْيَا .
لَم يُبَيِّنُوا الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لبيان الأمور الدُّنْيَوِيَّة ، فهذه الأُمُورُ مَرَجَعُهَا إلى معارف الناس وخبراتهم الحياتية .

وفي صحيح مسلم (٤ / ١٨٣٦) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْيَاكُمْ)) .
أنتم أعلمُ بأمرِ دُنْيَاكُمْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، والنبيُّ ﷺ أعلمُ بأمرِ أُخْرَاكُمْ مِنْكُمْ ، فإنَّ الأنبياء والرُّسُلُ بُعِثُوا لِإِنْقَادِ النَّاسِ مِنَ الشَّقَاوَةِ الأُخْرَوِيَّةِ ، وَفُوزِهِم بِالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ١١٦) : ((باب وُجُوبِ امْتِثَالِ ما قاله شَرَعًا ذُون ما ذَكَرَهُ ﷺ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا على سبيلِ الرَّأْيِ قال العلماء: قَوْلُهُ ﷺ: " مِنْ رَأْيِي " (رواية أُخْرَى) ، أي : في أمرِ الدُّنْيَا ومعايشها لا على التَّشْرِيعِ ، فأَمَّا ما قاله باجتهاده ﷺ ، ورآه شَرَعًا يجب العمل به)) .

وَرَأْيُ النَّبِيِّ ﷺ في أُمُورِ الدُّنْيَا ومعايشها وَظَنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ ، وهذا ليس نقصًا ولا عَيْبًا ، وَسَبَبُهُ أنَّ قُلُوبَ الأنبياء مُعَلَّقَةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَهَمَمُهُمْ مُرْتَبِطَةٌ بِالْآخِرَةِ ومعارفها . ويجب التفريق بين ما قاله النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا على سبيلِ الرَّأْيِ ، وبين ما قاله شَرَعًا ، وَحَدَّثَ بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى . وما صَدَرَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ عَنِ اللَّهِ ، فهو وَحْيٌ إلهيٌّ مَعْصُومٌ وكاملٌ وصحيحٌ ، لا مجال للخطأ فيه ، ولا يُسْتَدْرَكُ عليه .

وروى ابن جِبَّان في صحيحه (١ / ٢٠١) أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((إذا كان شيء من أمرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ ، وإذا كان شيء من أمرِ دِينِكُمْ فَأَلْيُّ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ ﴾ [القَمَر : ٥] .
هذا القرآن حِكْمَةٌ بالغة ، بَلَغَتِ النهايةَ في الهداية والبيان والفصاحة ، فَأَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي التُّذْرُ
عَمَّنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ؟ . وَالتُّذْرُ جَمْعُ نَذِيرٍ .
والمعنى : لقد جاءهم القرآن ، وهو حِكْمَةٌ كاملة وتامة ، بَلَغَتِ الغايةَ ، فَمَاذَا تَنْفَعُ الإِنذاراتِ
والتحذيراتِ لِقَوْمٍ مُعْرِضِينَ رَافِضِينَ لِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ .
وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٣٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ ، أَي : فِي هِدَايَتِهِ
تَعَالَى لِمَنْ هَدَاهُ ، وَإِضْلَالِهِ لِمَنْ أَضَلَّهُ ، ﴿ فَمَا تُغْنِي التُّذْرُ ﴾ ، يَعْنِي : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي التُّذْرُ عَمَّنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ ، وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ ، فَمَنْ الَّذِي يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟)) .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٩٠) : ((وَ " مَا " فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَمَا تُغْنِي التُّذْرُ ﴾
جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا بِمَعْنَى التَّوْبِيخِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : أَيُّ شَيْءٍ تُغْنِي التُّذْرُ ؟ . وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ
نَفْيًا عَلَى مَعْنَى : فَلَيْسَتْ تُغْنِي التُّذْرُ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَالْمَعْنَى : جَاءَهُمُ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ حِكْمَةٌ
تَامَةٌ قَدْ بَلَغَتِ الْغَايَةَ ، فَمَا تُغْنِي التُّذْرُ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا)) .

٦_الإصلاح بين الناس

قال الله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النِّسَاء : ١١٤] .
لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يُسِرُّهُ الْقَوْمُ ، وَيَتَحَدَّثُونَ بِهِ فِي الْخَفَاءِ . وَالتَّجْوَى (الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ
فَأَكْثَرُ سِرًّا) ، إِلَّا نَجْوَى مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ لِيُعْطِيَهَا سِرًّا ، أَوْ أَمْرٍ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، أَوْ إِصْلَاحِ شُؤْنِ النَّاسِ ،
وَجَمْعُهُمْ عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَنَزَعَ الْمُشْكَلَاتِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ مُتَحَدِّينَ . وَلَا شَكَّ
أَنَّ هَذِهِ الْقِيَمَ النَّبِيلَةَ تُؤَدِّي إِلَى نَشْرِ الْوَنَامِ فِي الْمُجْتَمَعِ ، وَبَثُّ رُوحِ التَّسَامُحِ وَالْأُلْفَةِ ، وَاجْتِمَاعِ
الْكَلِمَةِ . وَالجدير بالذكر أَنَّ الْمَعْرُوفَ هُوَ كُلُّ مَا حَثَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ .
وَمَنْ يَفْعَلِ الْبِرَّ وَالْمَعْرُوفَ وَالْإِصْلَاحَ طَالِبًا لِرِضَا اللَّهِ وَحَدَهُ ، بِدُونِ رِيَاءٍ وَلَا سَمْعَةٍ ، وَلَا جِرْصًا
عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا ، فَسَوْفَ يُعْطِيهِ اللَّهُ ثَوَابًا جَزِيلًا ، وَهُوَ الْجَنَّةُ .
وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٦٣) : ((أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عَامٌ فِي الدِّمَاءِ
وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ التَّنَادَعِيُّ وَالْإِخْتِلَافُ فِيهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ)) .

والتعبير بـ ﴿ فَسَوْفَ ﴾ إشارة إلى أن جزاء العبادات والطاعات والأعمال الصالحة في الآخرة (دار الجزاء) ، وليس في الدنيا ، لأنها دار عمل واختبار وابتلاء ، وليست دار جزاء .

وقال الطبري في تفسيره (٢٧٦ / ٤) : ((يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ . لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَى النَّاسِ جَمِيعًا ، ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ ، والمعروف هو كل ما أمر الله به ، أو ندب إليه من أعمال البر والخير ، ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ، وهو الإصلاح بين المتباينين أو المختصمين بما أباح الله الإصلاح بينهما ليتراجعا إلى ما فيه الألفة واجتماع الكلمة على ما أذن الله ، وأمر به . ثم أحبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ بما وعد من فعل ذلك ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، يقول : ومن يأمر بصدقته ، أو معروف من الأمر ، أو يصلح بين الناس ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ ، يعني : طلب رضى الله بفعله ذلك ، ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، يقول : فسوف نعطيه جزاء لما فعل من ذلك عظيمًا)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢٥١ / ١) : ((﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ من متناجيتهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ [الإسراء : ٤٧] ، أو من تناجيتهم ، فقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ ، على حذف مضاف أي : إلا نجوى من أمر ، أو على الانقطاع ، بمعنى : ولكن من أمر بصدقته ، ففي نجواه الخير . والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ، ولا ينكره العقل . وفسرها هنا بالقرض ، وإغاثة الملهوف ، وصدقته التطوع ، وسائر ما فسره به ، ﴿ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ، أو إصلاح ذات البين ، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ، بُني الكلام على الأمر ، ورتب الجزاء على الفعل ، ليدل على أنه لما دخل الأمر في زمرة الخيرين ، كان الفاعل أدخل فيهم ، وأن العمد والغرض هو الفعل ، واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه ، وقيد الفعل بأن يقول لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى ، لأن الأعمال بالنيات ، وأن كل من فعل خيرًا رياءً وسُمعًا لم يستحق به من الله أجرًا ، ووصف الأجر بالعظم تنبيها على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا)) .

وما أجمل قول الشاعر :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْغُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

من يفعل الأعمال الصالحة فلا بد أن يلاقي حُسنَ الجزاء في الآخرة ، والسعادة والهناء والتقدير والفائدة المعنوية والمادية في الدنيا . والله لا يُضيع أجره ، بل يحفظه عنده ، ويثيبه ، ويمنحه نعيم الجنة الدائم .

وعن أمِّ كُثُوم بنتِ عُقْبَةَ _ رضي اللهُ عنها _ أَنَّهَا سَمِعَت النَّبِيَّ ﷺ يقول : ((لَيْسَ الكَذَّابُ الذي يُصَلِّح بين الناس ، فَيَنْمِي خَيْرًا ، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))^{٣٤} .

هذا الشخص الذي يُصَلِّح بين الناس ذَاكِرًا الخِصَال الطَّيِّبَةَ لا يُعْتَبَر كاذبًا مَذْمُومًا ، وإنَّما هو مُحْسِن ، يَذْكُر الأشياءَ الجميلة والصفاتَ الرائعة ومحاسن الأمور من أجل رَأْب الصَّدْعِ بين المُتَخاصِمين والمُتَنازعين، وتَنْقِيَةِ الأَجْواء، ونَزْعِ الحِقْدِ مِنَ الصُّدُور، وتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس. وعمله هذا لا ينطوي على تغيير الحقائق أو تزييفها، أو التلاعب بالأحداث الجارية، أو خِدَاع الناس وإسقاطهم في مَصِيدَةِ الوَهْم ، فهو يتحدَّث بما رآه، ولا يخترع الوقائع من بنات أفكاره .

لقد حَثَّت الشريعةُ الإسلامية على تقوية الروابط الاجتماعية والإصلاح بين الناس ، حتى وإنْ تَحَقَّقَ ذلك بالكذب ، لأنَّه يُعَوِّد بالفائدة والمنفعة والمصلحة على المُتباغضين والمُتخاصمين ، وإزالة العداوة والكراهية والحِقْد . والحديثُ يُوضِّح أنَّ الكَذَّاب المَذْمُوم المُتَحَقِّق فيه الوعيد لَيْسَ الذي يَقْصِدُ بكذبه الصُّلْحَ بين الناس بالنصيحة التي تقتضي الخَيْرَ ، بلْ هذا مُحْسِن وفاضل ، ويقوم بأداء طاعة . إِنَّه يَنْمِي خَيْرًا (ينقل كلامًا) أَوْ يَقُولُ خَيْرًا للإصلاح بين المُتخاصمين ، بأنه يقول لأحدهما إنَّ صاحبه يمدحه ويثني عليه _ وصاحبه لم يفعل _ ، وما أشبه ذلك من الكلمات . وهذا لا بأس به . وهذه أمور قد يُضْطَرُّ الإنسان فيها إلى زيادة القول، ومُجاوِزَةِ الصَّدْق، على وجه الإصلاح وطلب الخَيْر . وليس المُراد في الحديث نَفْيُ ذات الكذب ، بلْ نَفْيُ إثمِهِ ، فَالكَذِبُ كَذِبٌ ، سواءً كان للإصلاح أو لغيره . وقد يُرَخَّص أحيانًا في الفساد القليل الذي يُؤمِّلُ فيه الصلاح الكثير . وقال الحافظ في الفتح (٥ / ٢٩٩ و ٣٠٠) : ((قال العلماء : المُراد هنا أَنَّهُ يُخَيَّرُ بما عَلِمَهُ مِنَ الخَيْرِ ، وَيَسْكُتُ عَمَّا عَلِمَهُ مِنَ الشَّرِّ ، ولا يكون ذلك كَذِبًا ، لأنَّ الكَذِبَ الإخبار بالشئ على خلاف ما هو به ، وهذا ساكت ولا يُنْسَبُ لساكت قول، ولا حُجَّةٌ فيه لمن قال : يُشْتَرَطُ في الكذب القصد إليه ، لأن هذا ساكت)) .

إنَّ المُؤْمِنَ يَسْتَرُ العُيُوبَ ، وَيَنْشُرُ الفضائلَ ، ولا يُلاحق سَقَطَاتِ الناسِ وأخطاءهم وخطاياهم ، ولا يتصيَّدُ عثراتهم ، بلْ يَلْتَمِسُ لَهُمُ عُذْرًا ، ويتذكر محاسنهم . فإنْ ظَهَرَ مِنْهُمُ أمرٌ قبيحٌ ، تَذَكَّرَ الأمورَ الجميلة التي قاموا بها . وكُلُّ الناسِ لَهُمُ ذُنُوبٌ وآثامٌ ، ولَهُمُ كذلك فضائل طَيِّبَةٌ ، وصفات حَسَنَةٌ ، فينبغي تعميم الجانب الإيجابي ، ورؤية النَّصْفِ المَلَّانِ مِنَ الكَأْسِ لا النَّصْفِ الفارغِ .

٣٤ متفق عليه. البخاري (٢ / ٩٥٨) برقم (٢٥٤٦) ، ومسلم (٤ / ٢٠١١) برقم (٢٦٠٥) .

وعن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أُخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام ؟))
 قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ((إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة))^{٣٥} .
 معنى سؤال النبي ﷺ : ألا أُخبركم بعمل أعظم أجراً وأعلى درجة من درجة الصيام والقيام ؟ .
 وقد طلب الصحابة أن يُخبرهم بذلك ، فبيّن النبي ﷺ أن السعي في إصلاح العلاقات بين الناس ،
 وإزالة الخصومات والنزاعات ، ونشر المحبة والألفة بينهم ، هو الأمر الأفضل في المنفعة بين
 الناس، حيث إنه يُقوّي الفرد، ويؤدّي إلى تماسك المجتمع. وترك السعي في الإصلاح بين الناس،
 يؤدّي إلى الهلاك والدمار والضياع والاقتتال .

والحالقة هي التي تحلق الدين وتستأصله، وتجعله أثراً إثر عَيْن في النفوس البشرية. والإصلاح
 بين الناس تقوية للمجتمع الإسلامي ، وإشاعة للأمن والأمان والسلم الاجتماعي والتصالح مع
 الذات والآخرين ، وهذا من شأنه إعطاء زخم حقيقي للفرد والجماعة . أمّا الفساد بين الناس فإنه
 يقضي على تماسك المجتمع ، ممّا يجعل عقيدة الفرد في مهب الريح ، فتنهار القيم المجتمعية ،
 وتسقط المنجزات الحضارية، وهذا يؤدّي إلى إعطاء صورة سلبية عن الإسلام ، وتصوير المسلمين
 على أنهم أمم متناحرة لا رابط بينها ، وجماعات همجية فوضوية دموية لا أخلاق لها . وهذا أمر
 شديد الخطورة لأنه يهدّد وجود الفرد والجماعة على حدّ سواء، ويحطّم الحاضر، ويُدمر المستقبل.
 وقد أقام الإسلام العلاقات بين المسلمين على المحبة والتعاون والتعارف والتواصل والنصيحة.
 وإذا انتشرت العداوة والبغضاء والكراهية ، فإنّ هذا يؤدّي إلى خراب المجتمعات وضياع الدين .
 وفي الحديث حثّ على إصلاح العلاقات بين الناس ، وترغيب في نشر المحبة والألفة بينهم،
 وبيان أنّ إفساد العلاقات بين الناس يهدم الدين والدنيا معاً .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٠٦) _ عن رواية أخرى للحديث _ : ((ألا أُخبركم
 بأفضل) أي بدرجة هي أفضل (من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟) أي:المستمرات أو الكثيرات،
 قالوا : أخبرنا به، قال : (إصلاح ذات البين) أي إصلاح أحوال البين ، حتى تكون أحوالكم
 أحوال صُحبة وألفة ، أو هو إصلاح الفساد والفتنة التي بين القوم (فإن فساد ذات البين هي
 الحالقة) أي الخصلة التي شأنها أن تحلق ، أي : تُهلك وتستأصل الدين ، كما يستأصل موسى
 الشّعْر ، أو المراد : المزيلة لمن وقّع فيها ، لِمَا يترتب عليه من الفساد والضغائن ، وذلك لِمَا فيه

٣٥ رواه ابن جبان في صحيحه (١١ / ٤٨٩) ، والترمذي في سننه (٤ / ٦٦٣) وصحّحه .

من عموم المنافع الدينية والدنيوية من التعاون والتناصر والألفة والاجتماع على الخير، حتى أبيض فيه الكذب . وكثرة ما يندفع من المصرة في الدنيا والدين بتشتت القلوب ووهن الأديان ، من العداوات وتسلط الأعداء وشماتة الحساد ، فلذلك صارت أفضل الصدقات)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ [الحجرات : ٩] .

إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فيجب على المسلمين أن يسعوا بالصالح بينهما ، والدعاء إلى حكم الله في القرآن ، والقبول به ، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ، حيث الأخوة الإسلامية والمودة والتعاون . وعلاج المشكلات يكون بالاحتكام إلى الشريعة ولغة العقل والحوار لا لغة القتل والقتال . ومهمته الإصلاح يضطلع بها أصحاب العقول الواعية والصدور الواسعة القادرون على الحل والربط ، ولا يضطلع بها المتهورون أو السفهاء أو أصحاب الأغراض الشخصية والمصالح الذاتية الضيقة . فلا بد من إبعاد تجار الدماء وسماسة الحروب ، الذين يستثمرون أموالهم في سفك دماء الأبرياء المعصومة ، ولا يقيمون وزناً للقيم الإنسانية ، ولا يعرفون حرمة لحياة الناس .

والجمع ﴿ اقتتلوا ﴾ باعتبار المعنى ، والتشبيه ﴿ بينهما ﴾ باعتبار اللفظ .

وقال الطبري في تفسيره (٣٨٦ / ١١) : ((وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله ، والرضا بما فيه لهما وعليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل)) .

فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى ، وتجاوزت حدها بالظلم والطغيان ، ولم تقبل الصلح ، وأصررت على البغي ، فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتقلع عن البغي والعدوان ، وتلتزم بأخوة الإسلام . والآية تأمر بالقتال ، وهو فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقي .

فإن رجعت الطائفة الباغية عن بغيها ، وقبلت الدعاء إلى حكم الله في القرآن ، وكفت عن القتال ، فيجب على المسلمين أن يصلحوا بين الطائفتين بالعدل ، ويحكموا بينهما بالحق ، دون ظلم أو محاباة أو مجاملة ، واعدلوا في جميع أموركم ، إن الله يحب العادلين الذين لا يجورون في أحكامهم .

والآية تدلُّ على أنَّ الباغي مؤمن ، وأنه إذا كفَّ عن الحرب ترك ، وأنه يجب تقديم النصح والسَّعي في المصالحة ، وأنَّ القتال هو الحلُّ الأخير ، وآخر الدواء الكي .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٨٦) : ((﴿ فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى ﴾ ، يقول : فإنَّ أبْتِ إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حُكْمِ اللَّهِ ، لها وعليها ، وتعدَّتْ ما جعلَ اللَّهُ عدلاً بين خَلْقِهِ ، وأجابت الأخرى منهما ، ﴿ فَقاتِلُوا التي تَبغي ﴾ ، يقول : فقاتِلُوا التي تُعتدي ، وتأبى الإجابة إلى حُكْمِ اللَّهِ ، ﴿ حتَّى تفيءَ إلى أمرِ اللَّهِ ﴾ ، يقول : حتى ترجع إلى حُكْمِ اللَّهِ الذي حَكَمَ في كتابه بين خَلْقِهِ ، ﴿ فَإِنْ فاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ ﴾ ، يقول : فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إليهم إلى الرضا بحُكْمِ اللَّهِ في كتابه ، فاصْلِحُوا بَيْنَها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل ، يعني بالإنصاف بَيْنَها ، وذلك حُكْمِ اللَّهِ في كتابه الذي جعله عدلاً بين خَلْقِهِ

وقوله : ﴿ وأقسطوا ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرَهُ : واعدلوا أيها المؤمنون في حُكْمِكُمْ بين مَنْ حَكَمْتُمْ بينهم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حُكْمَ اللَّهِ وحُكْمَ رسوله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، يقول : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العادِلين في أحكامهم ، القاضين بين خَلْقِهِ بالقسط)) .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ ، وركب حِمَارًا ، فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهي أرض سبخة ، فلما أتاه النبي ﷺ قال : إنيك عني ، والله لقد آذاني نثن حِمَارك ، فقال رجلٌ من الأنصار منهم : والله لِحِمَارِ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك ، فغضب لعبد الله رجُلٌ من قومه فشتمه ، فغضب لِكُلِّ واحدٍ منهما أصحابه ، فكان بينهما ضربٌ بالجريد والأيدي والتعال ، فبلغنا أنها أنزلت : ﴿ وإن طائفتانٍ من المؤمنين اقتتلوا فاصْلِحوا بَيْنَهُما ﴾ ^{٣٦} .

كان عبد الله بن أبي بن سلول أحد قادة وزعماء الخزرج ، ولما عرض عليه الإسلام أسلم في الظاهر ، ولكنه كان رأس المنافقين بالمدينة ، ويطن العداوة للنبي ﷺ وللمسلمين .

قيل للنبي ﷺ : لو تذهب إلى عبد الله بين أبي بن سلول لدعوته إلى الإسلام ، وكان ذلك في أول قدومه للمدينة ، فانطلق النبي ﷺ ، وركب حِمَارًا ، ومعه المسلمون يمشون ، وكانت الأرض التي يمشون عليها سبخة ، وهي التي لا تثبت لمُلوحة أرضها ، فلما أتاه النبي ﷺ ، طلب منه الابتعاد عنه ، مُتعللاً برائحة الحِمَار الكريهة ، فقال رجلٌ من الأنصار ممن كان مع النبي ﷺ لابن

٣٦ متفق عليه. البخاري (٢ / ٩٥٨) برقم (٢٥٤٥) ، ومسلم (٣ / ١٤٢٤) برقم (١٧٩٩) .

سَلُولُ إِنَّ حِمَارَ النَّبِيِّ ﷺ أَطْيَبَ رِيحًا مِنْكَ ، فَغَضِبَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِ ابْنِ سَلُولٍ ، فَشَتَمَ الرَّجُلَ الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي دَافَعَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَظَهَرَتِ الْحَمِيَّةُ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ضِدَّ أَصْحَابِ ابْنِ سَلُولٍ ، فَوَقَعَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ (فُرُوعُ النَّخْلِ) وَالْأَيْدِي وَالنَّعَالِ (الْأَحْذِيَّةُ) . وَقَالَ أَنَسٌ : فَبَلَّغْنَا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ .

وقد استشكل من الحديث أنَّ الآية تخصُّ المؤمنين ، والقصة بين النبي ﷺ وبين ابن سَلُولٍ كان قبل إسلامه ، فقيل : إنَّ من بين رجال ابن سَلُولٍ رجالاً مؤمنين . وقيل : إنَّ قول أنس : " بلَّغنا " ، إشارة إلى أنَّ سبب نزول تلك الآية ليست هذه القصة ، ولم يذكر أنس من أنبأه بذلك . وقيل : إنَّ قول أنس : " بلَّغنا أَنَّهَا أَنْزَلَتْ " لا يستلزم النزول في ذلك الوقت ، فإنَّ آية الحجرات نُزِلَتْ مُتَأَخِّرًا جدًا وقت مجيء الوفود سنة ٩ هـ . وقيل : يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ آيَةُ الْإِصْلَاحِ نَزَلَتْ قَدِيمًا ، فيندفع الإشكال .

والحديث يُبَيِّنُ حِلْمَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَصَبْرَهُ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدَوَامَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ ، وَضُرُورَةَ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ، وَجَمْعِ الْكَلِمَةِ ، وَتَوْحِيدِ الصَّفِّ . كَمَا يُبَيِّنُ تَعْظِيمَ الصَّحَابَةِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَدِفَاعَهُمْ عَنْهُ .

والمؤمنون قد تنشأ بينهم نزاعاتٌ وحروبٌ ، فهم ليسوا ملائكة أو معصومين . وعند حدوث قتال بينهم ينبغي الإصلاح بينهم من أجل استئصال الفتنة ، وتنقية القلوب من الصغائر ، وهذا يؤدي إلى إعادتهم إلى طريق الخير والأخوة ، فيستفيد كلُّ طرف من أخطائه لئلا يقع فيها مرةً أخرى . والجدير بالذكر أنهم _ بقتالهم _ لم يخرجوا عن دائرة الإيمان ، لكنَّ الشيطان نزعَ بينهم ، والرجوعُ إلى الحق فضيلة . وأيضًا الرجوعُ إلى الحق خيرٌ من التماسي في الباطل .

وقال الحافظ في الفتح (٥ / ٢٩٩) : ((وقد استشكل ابنُ بطَّالٍ نزولَ الآية المذكورة وهي قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ في هذه القصة ، لأنَّ الْمُخَاصِمَةَ وَقَعَتْ بَيْنَ مَنْ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَبَيْنَ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ، وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ كُفَرَاءً ، فَكَيْفَ يَنْزَلُ فِيهِمْ : ﴿ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ قُلْتُ : يُمَكِّنُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى التَّغْلِيْبِ مَعَ أَنَّ فِيهَا إِشْكَالًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ حَدِيثَ أُسَامَةَ (حَدِيثِ آخَرَ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، وَقَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابُهُ ، وَالآيَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحُجْرَاتِ ، وَنُزُولِهَا مُتَأَخِّرًا جدًا وقت مجيء الوفود ، لكنه يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ آيَةُ الْإِصْلَاحِ نَزَلَتْ قَدِيمًا فيندفع الإشكال وفي الحديث بيان ما كان النبي ﷺ عليه من الصُّفْحِ وَالْحِلْمِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي اللَّهِ ، وَالدُّعَاءِ

إلى الله ، وتأليف القلوب على ذلك ، وفيه أن ركوب الحمار لا تُفص فيه على الكبار ، وفيه ما كان الصحابة عليه من تعظيم رسول الله ﷺ ، والأدب معه ، والمحبة الشديدة ، وأن الذي يُشير على الكبير بشيء يُورده بصورة العَرَض عليه لا العَزْم. وفيه جَوَاز المُبَالِغَة في المَدْح لأنَّ الصحابي أطلق أن رِيح الحِمَار أَطْيَب مِن رِيح عبد الله بن أبي ، وأقرّه النبي ﷺ على ذلك)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٩) : ((يقول تعالى آمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فَسَمَّاهُمْ مُؤْمِنِينَ مَعَ الاقْتِتَالِ. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يَخْرُج عن الإيمان بالمعصية وإن عَظُمَتْ ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم)) .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١٣٢٨) : عن أبي بكر _ رضي الله عنه _ قال : أخرج النبي ﷺ ذاتَ يَوْمِ الحَسَنِ ، فَصَعِدَ بِهِ عَلَى المِنْبَرِ ، فَقَالَ : ((ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ ، وَلَعَلَّ اللّٰهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) .

والمقصود ما حَدَثَ بين الحسن _ رضي الله عنه _ ومعاوية بن أبي سفيان ، فإنَّ نزاعهما على أمر الخلافة لم يُخرجهما من دائرة الإسلام . وكانت تلك السَّنة سَنة الجَمَاعَة ، لاجتماع الناس واتفاقهم ، وانقطاع الحرب . والحسن _ رضي الله عنه _ سيّد فاضل حليم يمتاز بالحكمة والأخلاق الحميدة ، وهذه الإمكانيات تُؤهلّه للإصلاح بين الناس. وقد أصلح بين أهل الشام وأهل العراق بعد حروب طاحنة، وتنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حَقْنًا لدماء المسلمين ، وكان سببًا في توحيد كلمة المسلمين بعد تشبُّثها لفترة طويلة . والصُّلْحُ بين المسلمين أمرٌ واجبٌ شرعًا على مَنْ قَدَرَ عليه . وقد صَرَبَ الحسن بن علي بن أبي طالب _ رضي الله عنهما _ أروع الأمثلة في التضحية بحظ نفسه ، من أجل الصُّلْحِ بين المسلمين بعد القتال بينهم في أحداث الفتن الكبرى . وأي شرف أعظم من شرف من سَمَّاه النبي ﷺ سَيِّدًا !؟ ، يا لها من منزلة رفيعة ومكانة عظيمة ورتبة سامية . والحديث يدلُّ على صِحَّة نُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ وصدقته ، فقد أخبر بأمر غيبي ، وحَدَّثَ كما أخبر ، ويدلُّ على فضيلة الحسن بن علي _ رضي الله عنهما _ . وفي الحديث : ولاية المفضول على الفاضل ، وفيه : أنَّ السِّيَادَة إِنَّمَا يستحقها مَنْ ينتفع به الناس ، لأنَّ النبي ﷺ علَّق السِّيَادَة بالإصلاح بين الناس .

وفي عَوْن المَعْبُود (١٢ / ٢٧٣ و ٢٧٤) : ((إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ) أَي : حليم كريم مُتَجَمِّل (بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ أُمَّتِي) هما طائفة الحسن وطائفة معاوية ، وكان الحسن رضي الله عنه حليماً

فاضلاً ورِعاً ، دعاه ورَعَهُ إلى أن تَرَكَ المُلْكَ رَغْبَةً فيما عِنْدَ اللَّهِ تعالى ، لا لِقَلَّةٍ ولا لِعِلَّةٍ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِلَ عَلِيٌّ _ رضي اللَّهُ عنه _ بايعه أكثر من أربعين ألفاً ، فبقي خليفة بالعراق وما وراءها مِن خُرَاسان ستة أشهر وأياماً ، ثُمَّ سار إلى معاوية في أهل الحِجَاز ، وسار إليه معاوية في أهل الشام ، فلَمَّا التقى الجمعان بمنزل من أرض الكوفة ، وأرسل إليه معاوية في الصُّلْحِ أجابَ على شروط منها أن يكون له الأمر بعده، وأن يكون له من المال ما يكفيهِ في كُلِّ عام ، كذا في السِّراجِ المُنِيرِ (ولعلَّ اللَّهُ أن يُصَلِّحَ به) أي : بسبب تكرُّمه وعَزَلِهِ نَفْسَهُ عن الأمر ، وتَرَكَه لمعاوية اختياراً (بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ عَظِيمَتَيْنِ) فيه دليل على أن واحداً من الفريقين لَمْ يَخْرُجْ بما كان منه في تلك الفِتْنَةِ مِن قَوْلٍ أو فِعْلٍ عن مِلَّةِ الإسلام ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَهُمْ كُلَّهُم مُسْلِمِينَ مَعَ كَوْنِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مُصِيبَةً ، وَالْأُخْرَى مُخْطِئَةً)) .

وقال السُّيُوطِيُّ في تاريخ الخُلَفَاءِ (١ / ١٦٩) : ((وَلِيَ الحَسَنُ _ رضي اللَّهُ عنه _ الخِلافةَ بعد قتل أبيه بِمُبايعته أهل الكوفة ، فأقام فيها ستة أشهر وأياماً ، ثُمَّ سار إليه معاوية _ والأمر إلى اللَّهِ _ فأرسل إليه الحسن يَبْذُلُ له تسليم الأمر إليه على أن تكون له الخِلافةُ مِن بَعْدِهِ ، وعلى أن لا يُطالَبَ أحداً من أهل المدينة والحِجَاز والعراق بشيءٍ مِمَّا كان أيام أبيه ، وعلى أن يَقْضِيَ عنه دُيُونُهُ ، فأجابهُ معاوية إلى ما طَلَبَ ، فاصطلحا على ذلك ، فَظَهَرَتِ المُعْجِزَةُ النَّبَوِيَّةُ في قَوْلِهِ ﷺ : " يُصَلِّحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ " ، وَنَزَلَ له عن الخِلافةِ . وقد استدلُّ البُلْغِيَّيْنِ بِنُزُولِهِ عن الخِلافةِ _ التي هي أعظم المناصب _ على جَوَازِ النَّزُولِ عن الوظائفِ . وكان نزوله عنها في سنة إحدى وأربعين في شهر ربيع الأول ، وقيل : الآخر ، وقيل : في جُمادى الأولى ، فكان أصحابُهُ يقولون له : يا عازِ المؤمنين ، فيقول : العار خير من النار ، وقال له رَجُلٌ : السلام عليك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فقال : لَسْتُ بِمُذِلِّ المؤمنين ، ولكني كَرِهْتُ أن أقتلكم على المُلْكِ)) .

وعن حمزة بن عبد اللَّهِ بن عُمر : أقبلَ إلينا عبد اللَّهِ بن عُمر فقال : ما وَجَدْتُ في نَفْسِي في شيءٍ من أمر هذه الآية _ يعني الآية : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ _ ، إلا ما وَجَدْتُ في نَفْسِي أَنِّي لَمْ أَقَاتِلْ هذه الفِئَةَ الباغية كما أَمَرَنِي اللَّهُ تعالى ٣٧ .

٣٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٠٢) برقم (٣٧٢٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

لقد تَخَلَّفَ الصحابيُّ الجليلُ عبدَ اللهِ بنِ عُمرَ _ رضي اللهُ عنهما _ عن صِفيِّين ، لأنَّهُ كان مُتَأَوِّلاً ، وقد اعترفَ بأنَّه أخطأ ، ونَدِمَ على ذلك أشدَّ النَّدمِ ، وكان يجب عليه قِتالُ الفِئَةِ الباغيةِ (فرقة معاوية بن أبي سُفيان وعمر بن العاص) ، كما أمرَه اللهُ في هذه الآيةِ الكريمةِ .

وذكرَ الذهبيُّ في دُؤْلِ الإسلامِ (١ / ٢٩) ساداتِ الصحابةِ الذين تَخَلَّفوا عن صِفيِّين منهم : ((سعد بن أبي وقاص الذي افتتح العراق ، وسعيد بن زيد ، وأبو اليُسْر السُّلَمِيُّ ، وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مَسلمة ، وابن عُمر ، وأسامة بن زيد ، وصُهَيْب الرُّومي ، وأبو موسى الأشعري ، وجماعة رَأوا السلامةَ في العزلةِ ، وقالوا : إذا كان غَزوُ الكفارِ قَاتِلنا ، فأما قِتالُ الفِئَةِ والبِغْيِ فلا نُقاتِلُ أهلَ القِبلةِ)) .

وهؤلاءِ الصحابةُ _ رضي اللهُ عنهم _ كانوا مُتَأَوِّلين اعتماداً على تَعَلُّقهم بِشبهةٍ ، وهي أنهم لَمْ يُريدوا أن تطلخَ أيديهم بدماءَ المسلمين ، ولم يتبيَّنوا الصوابَ في تلك اللحظة لذلك آثَرُوا العزلةَ . لكننا نقول إنَّ فِعْلهم مُخالِفٌ لآيةِ قِتالِ الفِئَةِ الباغيةِ . وكان يجب عليهم قِتالُ الفِئَةِ الباغيةِ في صِفيِّين كما أمرَ اللهُ تعالى .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحُجرات : ١٠] . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ في الدِّينِ والحُرْمَةِ لا في النَّسَبِ . جمعهم رابطةُ الإيمانِ (التَّصديقِ بَوحدانيةِ اللهِ وَتُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ) ، ولا يجوز أن تكونَ بينهم عداوةٌ ولا شحنةٌ ولا تَقَاتُل . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٦٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، أي : الجميع إِخْوَةٌ في الدِّينِ)) .

وَأُخُوَّةُ الإسلامِ أثبتَ مِنْ أُخُوَّةِ النَّسَبِ ، فَإِنَّ أُخُوَّةَ النَّسَبِ تَنْقَطِعُ بِمُخالِفَةِ الإسلامِ ، وَأُخُوَّةُ الإسلامِ لا تَنْقَطِعُ بِمُخالِفَةِ النَّسَبِ .

و " إِنَّمَا " تُفيدُ الحَصْرَ ، فكأنَّه يقولُ : لا أُخُوَّةَ إلا بين المؤمنين ، ولا أُخُوَّةَ بين مؤمنٍ وكافرٍ . والمؤمنون إِخْوَةٌ في العقيدة ، وإن حَصَلَ بينهما أيُّ نِزاعٍ مهما كانت صورته ، فلا بُدَّ مِنَ الإِصلاحِ بين الطرفين ، فالرُّجوعُ إلى الحقِّ فضيلةٌ . وإمكانيةُ حدوثِ نِزاعٍ أو قِتالٍ بين المسلمين واردةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهذا لا يَقْدَحُ في إيمانهم ، فَهَمَّ لَيْسوا ملائكةَ مَعْصومين ولا أنبياءَ يُوحى إليهم ، فقد تختلفُ زوايا النظرِ إلى القضايا ، وقد تتطورُ الأمورُ إلى نِزاعٍ مُسَلَّحٍ كما حدثَ في صِفيِّين ، لكن الإِصلاحَ يظلُّ هو القضيةُ الجوهريةُ في هذا السِّياقِ ، فَأُخُوَّةُ الدِّينِ أعظمُ مِنَ رابطةِ النَّسَبِ ، وأكْبَرُ مِنْ كُلِّ العِلاقاتِ الأخرى .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((...، وكونوا عباد الله إخواناً))^{٣٨}.
 وكونوا أيها المسلمون ، كما أراد الله لكم ، إخوة في الدين، وهذا يزيد المحبة والألفة بينهم .
 وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٢٣) : ((وكونوا عباد الله) بحذف حرف النداء
 (إخواناً) أي : اكتسبوا ما تصيرون به إخواناً) .

وعن عبد الله بن عمر _ رضي الله عنهما _ أخبره أن رسول الله ﷺ قال : ((المسلم أخو
 المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ، ومن فرج عن
 مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة))^{٣٩}.
 بنى الإسلام المجتمع على قاعدة صلبة وأساس متين من المحبة والمودة والتعاون والأخوة .
 وقد بين النبي ﷺ أن المسلم أخو المسلم في الإسلام والخزعة والنصرة ، لا يقوم بظلمه ، فإن الله
 حرم قليل الظلم وكثيره ، وفي الوقت نفسه لا يتركه إلى الظلم دون أن يعينه ، ولا يتركه مع من
 يؤذيه دون أن يحميه على قدر استطاعته .

ومن سعى في قضاء حاجة أخيه المسلم ، أعانه الله تعالى ، وسهل عليه قضاء حاجته . ومن
 ساعد أخاه المسلم في كربة نزلت به من كربات الدنيا ، أي : في غم يؤثر في نفسه ، أو في
 مصيبة من مصائب الدنيا، حتى يزول غمه ومصيبته ، أزال الله عنه مصيبة من مصائب يوم القيامة.
 ومن أطلع على عورة أخيه المسلم أو زلته، فستره ولم يفضحه، ستره الله يوم القيامة. وهذا لا يعني
 أن يسكت عن معصية إن رآه متلبساً بها ، بل يجب عليه نصحه والإنكار عليه بالوسائل الشرعية
 حتى ينتهي عن معصيته ، وهذا من النصيحة الواجبة .

وقال الحافظ في الفتح (٥ / ٩٧) : ((قوله : " المسلم أخو المسلم " هذه أخوة الإسلام،
 فإن كل اتفاق بين شيئين يُطلق بينهما اسم الأخوة ، ويشترك في ذلك الحر والعبد والبالغ والمميز .
 قوله : " لا يظلمه " ، هو خبر بمعنى الأمر، فإن ظلم المسلم للمسلم حرام . وقوله : " ولا يسلمه "
 أي: لا يتركه مع من يؤذيه ، ولا فيما يؤذيه ، بل ينصره ، ويدفع عنه ، وهذا أخص من ترك الظلم.
 وقد يكون ذلك واجباً ، وقد يكون مندوباً ، بحسب اختلاف الأحوال قوله : " ومن كان
 في حاجة أخيه " . في حديث أبي هريرة عند مسلم : " والله في عون العبد ما كان العبد في عون

٣٨ متفق عليه. واللفظ للبخاري (٢٤٧٤ / ٦) برقم (٦٣٤٥). ومسلم (٤ / ١٩٨٥) برقم (٢٥٦٣).

٣٩ متفق عليه. البخاري (٢ / ٨٦٢) برقم (٢٣١٠) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٦) برقم (٢٥٨٠) .

أخيه . قوله : " وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً " ، أي : غُمَّة ، والكَرْبُ هو الغَم الذي يأخذ النَّفْسَ .
... قوله : " وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا " ، أي : رآه على قبيح فلم يُظهره ، أي : للناس ، وليس في هذا ما يقتضي تَرْكَ الإنكار عليه فيما بينه وبينه . ويُحْمَلُ الأمر في جَوَاز الشهادة عليه بذلك على ما إذا أنكر عليه ونَصَحَه فلم يَنْتَه عن قبيح فعله ثمَّ جاهرَ به ، كما أنَّه مأمور بأن يستتر إذا وقع منه شيء ، فَلَوْ توجَّه إلى الحاكم وأقر لم يمتنع ذلك ، والذي يظهر أنَّ السَّتْرَ محلُّه في معصية قد انقضت ، والإنكار في معصية قد حصل التَّلبُّس بها ، فيجب الإنكار عليه ، وإلا رفعه إلى الحاكم ، وليس من الغيبة المُحرَّمة ، بل من النصيحة الواجبة . وفيه إشارة إلى تَرْكَ الغيبة ، لأنَّ مَنْ أظهر مساوئ أخيه لم يَسْتُرْهُ . قوله : " سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . في حديث أبي هريرة عند الترمذي : " سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " . وفي الحديث حَضَّ على التعاون وحُسن التَّعَاشُرِ والأُلْفَةِ . وفيه أنَّ المُجَاوِزَةَ تقع من جنس الطاعات ، وأنَّ مَنْ حَلَفَ أَنْ فَلَانًا أخوه ، وأرادَ أُخُوَّةَ الإسلام لم يَحْنُثْ)) .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٤ و ١٣٥) : ((قوله ﷺ : (مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ) أي : أعانه عليها ولطفَ به فيها . قوله ﷺ : (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) في هذا فضل إعانة المسلم ، وتفريج الكُرب عنه ، وسِتْرَ زَلَّاتِهِ ، ويدخل في كشف الكُربة وتفريجها مَنْ أزالها بماله ، أو جاهه ، أو مُساعدته . والظاهر أنَّه يدخل فيه مَنْ أزالها بإشارته ورأيه ودلالته . وأمَّا السَّتْرُ المندوب إليه هُنَا فالمراد به السَّتْرُ على ذوي الهَيْئَاتِ ونَحْوِهِمْ ، مِمَّنْ ليس هو معروفًا بالاذى والفساد ، فأما المعروف بذلك فَيُسْتَحَبُّ أَنْ لَا يَسْتُرَ عَلَيْهِ ، بل تُرْفَعُ قضيته إلى ولي الأمر إن لم يُخَفَّ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ ، لأنَّ السَّتْرَ على هذا يُطْمِعُهُ فِي الإيذاء والفساد وانتهاك الحُرْمَاتِ ، وِجَسَارَةِ غَيْرِهِ على مثل فعله ، هذا كُلُّهُ فِي سِتْرٍ معصية وَقَعَتْ وانقضت ، أمَّا معصية رآه عليها وهو بعد مُتَلَبِّسٌ بِهَا ، فتجب المُبادَرة بِإِنكَارِهَا عليه ، ومنعه منها على مَنْ قَدَرَ على ذلك ، وَلَا يَحِلُّ تَأخِيرُهَا ، فَإِنْ عَجَزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إِلَى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مَفْسَدَةٌ ، وأمَّا جَرَحُ الرُّوَاةِ والشُّهُودِ والأُمْنَاءِ على الصَّدَقَاتِ والأَوْقَافِ والأَيْتَامِ ونَحْوِهِمْ ، فيجب جَرَحُهُمْ عند الحَاجَةِ ، وَلَا يَحِلُّ السَّتْرُ عَلَيْهِمْ إِذَا رَأَى مِنْهُمْ مَا يَقْدَحُ فِي أَهْلِيَّتِهِمْ ، وليس هذا من الغيبة المُحرَّمة ، بل من النصيحة الواجبة ، وهذا مُجْمَعٌ عليه . قال العلماء في القِسْمِ الأوَّلِ الذي يَسْتُرُ فِيهِ هَذَا السَّتْرَ مَدْرُوبٌ ، فَلَوْ رَفَعَهُ إِلَى السُّلْطَانِ ونَحْوِهِ لَمْ يَأْتِ بِالإِجْمَاعِ ، لَكِنْ هَذَا خِلَافُ الأوَّلِيِّ ، وقد يكون في بعض صُوَرِهِ ما هو مَكْرُوهٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ إِذَا اختلفا واقتتلا ، ولا تتركوا التنازع يُسيطر عليهما ، والبغضاء تتحكّم بهما، وذلك بِحَمْلِهَا عَلَى الْإِلتِزَامِ بِحُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ رَسُولِهِ ﷺ .
وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٧٤) : ((قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، أي : بين كلِّ مسلمين تخاصّما ، وقيل : بين الأوس والخزرج ، على ما تقدّم . وقال أبو علي : أراد بالأخوين الطائفتين ، لأنّ لفظ التثنية يردُّ والمراد به الكثرة ، كقوله تعالى : ﴿ بل يدها مبسوطتان ﴾ [المائدة : ٦٤] . وقال أبو عبيدة : أي أصلحوا بين كلِّ أخوين ، فهو آت على الجميع)) .

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ، وخافوا الله تعالى بامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه ، لتنالكم رحمته ، وتعيشوا بسعادة في الدنيا، وتسعدوا بنعيم الجنة الدائم في الآخرة . والآية تحقيق من الله للرحمة لمن اتقاه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٧٤) : ((في هذه الآية والتي قبلها _ يعني [الحجرات : ١٠ و ٩] _ دليل على أنّ البغي لا يُزيل اسم الإيمان ، لأنّ الله تعالى سمّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين . قال الحارث الأعور : سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو القدوة عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفيين : أمشركون هم ؟ ، قال : لا ، من الشرك فرؤوا ، فقيل : أمنافقون ؟ ، قال : لا ، لأنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، قيل له : فما حالهم ؟ ، قال : إخواننا بغوا علينا)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٩٠) : ((وفي هذه الآية دليل على قتال الفئة الباغية إذا تقرّر بغيتها على الإمام ، أو على أحد من المسلمين ، وعلى فساد قول من قال بعدم الجواز مُستندلاً بقوله ﷺ : " قتال المسلم كُفر " ، فإنّ المراد بهذا الحديث ، وما ورد في معناه ، قتال المسلم الذي لم يَبغ . قال ابن جرير : لو كان الواجب في كلِّ اختلاف يكون بين فريقين من المسلمين الهرب منه ، ولزوم المنازل ، لما أُقيم حق ، ولا أُبطل باطل ، ولوجد أهل النفاق والفجور سبباً إلى استحلال كلِّ ما حرّم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبي نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحرّبوا عليهم ، ولكف المسلمين أيديهم عنهم ، وذلك مُخالف لقوله ﷺ : " خذوا على أيدي سفهائكم " . قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، وعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة ، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله : " تقتل عمارة الفئة الباغية " ، وقوله ﷺ في شأن الخوارج : " يخرجون على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق ")) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢١٦ / ١) : ((إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)) مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَسْلِ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ الْمَوْجِبُ لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ وَتَقْرِيرٌ لِلْأَمْرِ بِالْإِصْلَاحِ ، وَلِذَلِكَ كَرَّرَهُ مُرْتَبًا عَلَيْهِ بِالْفَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ ، وَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ مُضَافًا إِلَى الْمَأْمُورِينَ لِلْمَبَالِغَةِ فِي التَّقْرِيرِ وَالتَّخْصِيسِ . وَخَصَّ الْاِثْنَيْنِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَقَلُّ مَنْ يَقَعُ بَيْنَهُمُ الشَّقَاقُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْأَخَوَيْنِ الْأَوْسَ وَالْحَزْرَجَ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِهِ وَالْإِهْمَالِ فِيهِ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ عَلَى تَقْوَاكُمْ)) .

٧_ الصَّدَق

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .
فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ فِي الدُّنْيَا صِدْقُهُمْ ، أَيْ : يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدَهُمْ ، لِأَنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ . وَخُصَّ نَفْعُ الصَّدَقِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ . إِنَّ صِدْقَهُمْ فِي الدُّنْيَا يَنْفَعُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْمُرَادُ بِالصَّدَقِ الصَّدَقُ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّ النَّافِعَ مَا كَانَ حَالَ التَّكْلِيفِ ، وَالْآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ لَا دَارَ عَمَلٍ . وَلَا يَنْفَعُ الْكَاذِبِينَ فِي الدُّنْيَا صِدْقُهُمْ فِي الْآخِرَةِ كَالْكَفَّارِ لَمَّا يُؤْمِنُونَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٣٥٠ / ٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ ، أَيْ : صِدْقُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، فَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّدَقُ . وَصِدْقُهُمْ فِي الدُّنْيَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صِدْقُهُمْ فِي الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَرْكُهُمُ الْكُذْبَ عَلَيْهِ وَعَلَى رُسُلِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُهُمُ الصَّدَقُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَإِنْ كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ الْأَيَّامِ ، لَوْ قَوَّعَ الْجَزَاءُ فِيهِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ صِدْقُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ فِي الشَّهَادَةِ لِأَنْبِيَائِهِمْ بِالْبَلَاغِ ، وَفِي مَا شَهِدُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَيَكُونُ وَجْهُ النِّفْعِ فِيهِ أَنْ يُكْفَوُا الْمُؤَاخَذَةَ بِتَرْكِهِمْ كَتَمِ الشَّهَادَةِ ، فَيُعْفَرُ لَهُمْ بِإِقْرَارِهِمْ لِأَنْبِيَائِهِمْ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا غُرْفُهَا وَأَشْجَارُهَا الْأَنْهَارُ ، مَا كَثُرْنَ فِيهَا ، لَا يَمُوتُونَ ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَنَالُوا رِضْوَانَ اللَّهِ لِصِدْقِهِمْ ، وَرَضُوا عَنِ اللَّهِ بِثَوَابِهِ الْعَظِيمِ ، وَهَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، لِأَنَّهُمْ فَازُوا بِنِعْمِ الْجَنَّةِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يُزُولُ . وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ (الَّذِي عَظُمَ خَيْرُهُ وَارْتَفَعَتْ مَنْزِلَةُ صَاحِبِهِ) إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، لِأَنَّ الْجَنَّةَ بَاقِيَةٌ ، أَمَّا الْفَوْزُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ زَائِلٌ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ١٣٩) : ((قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ، أي : رَضِيَ عَنْهُمْ بما عملوه من الطاعات الخالصة له ، وَرَضُوا عنه بما جازاهم به ، مِمَّا لَا يَخْطُرُ لهم على بال ، ولا تتصوّره عُقُولُهُمْ ، والرِّضَا منه سُبْحَانَهُ هو أرفع دَرَجَاتِ النَّعِيمِ ، وأعلى منازل الكرامة ، والإشارة بذلك إلى نَيْلِ ما نالوه من دخول الْجَنَّةِ والخُلُودِ فيها أبداً ، ورضوان الله عنهم . والفوز : الظَّفَرُ بالمطلوب على أتم الأحوال)) .

إِنَّ جَزَاءَ الصَّدَقِ سَعَادَةٌ وَشَرَفٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَالصَّدَقُ ليس إجراءً ترفيهياً أو تَرْفَافاً زائداً عن الحاجة أو لحظة زمنية مُنْقِضية بلا نتائج . إِنَّهُ خِلاصُ الْإِنْسَانِ الَّذِي سَيَجِدُ نَتَائِجَ صِدْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حيث يَرْضَى اللَّهُ عنه ، وَيَمْنَحُهُ الْجَنَّةَ ، وذلك لأنه كان عبداً مؤمناً صادقاً في الدُّنْيَا (دار التكليف) ، فقد التزم بالأوامر الإلهية ، ولم ينحرف عنها ، وقام بأداء واجبات العبودية بإيمان وإخلاص وصدق ، قولاً وفِعْلاً .

وللأسف ، إِنَّ كَثِيرِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الكَذِبَ مفتاح سعادتهم ، وطريق تحقيق أحلامهم ، فينظرون إليه على أنه ذكاء اجتماعي . وهؤلاء غارقون في متهاتهم الفوضوية لأنهم عاجزون عن معرفة حقيقة الأمور ، فلا يمكن أن يكون الصدق ضَعْفًا أو غِبَاءً ، ولا يمكن أن يكون الكذب عبقريةً .

وصدق القائل :

عليك بالصدق ولو أنه
أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغِ رضا المولى فأغبي الورى
من أسخط المولى وأرضى العبيد

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .
يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، خَافُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَكُونُوا مَعَ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْيَقِينِ ، الَّذِينَ صَدَّقُوا فِي الدِّينِ نِيَّةً وَقَوْلًا وَعَمَلًا . وبعبارة أخرى ، كُونُوا مَعَ الَّذِينَ صَدَقَتْ نِيَّتُهُمْ ، واستقامت قُلُوبُهُمْ وأعمالُهُمْ .
والآية نَهْيٌ واضحٌ عن الكذب ، وتدلُّ على أَنَّ الإجماع حُجَّةٌ ، لأنَّ اللَّهَ أمرهم بأن يَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ، فَلَنَرَمَ قَبُولَ قَوْلِهِمْ .

هذه دعوة إلهية مجيدة إلى الحرص على مرافقة الصادقين ، والالتزام بنهجهم ، وعدم مفارقتهم . لأن في ذلك فلاحهم في الدنيا والآخرة ، فالصدقُ خُلُقٌ شريف ، والمُتَصِفُونَ به هُم سَادَةُ المَجْتَمَعِ الَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ ، وَيُضْرَبُ المَثَلُ فِي عُلوِّ هِمَّتِهِمْ ، وصدق لهجتهم ، وحملهم لمعاني

الأخلاق الإسلامية الراقية . لذلك فالصادقون هم صفة الجماعة البشرية حيث طهر الله ألسنتهم من الكذب ، فصاروا نجوماً في المجتمع ، متصالحين مع ذواتهم ومحيطهم ، ومتعاونين مع الآخرين ، ومؤثرين في بيئتهم بشكل إيجابي ، يقومون بإرشاد الناس إلى صلاحهم وفلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة .

وقال الطبري في تفسيره (٥٠٩ / ٦) : ((يقول تعالى ذكره للمؤمنين معرفهم سبيل النجاة من عقابه ، والخلاص من أليم عذابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وراقوه بأداء فرائضه وتجنب حدوده ﴿ وَكُونُوا ﴾ في الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا في الآخرة ﴿ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ في الجنة ، يعني : مع من صدق الله الإيمان به ، فحقق قوله بفعله ، ولم يكن من أهل التفاق فيه ، الذين يكذب قيلهم فغلهم . وإنما معنى الكلام : وكُونُوا مع الصادقين في الآخرة باتقاء الله في الدنيا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥١٣ و٥١٤ / ٣) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وكُونُوا مع الصادقين ﴾ في سبب نزولها قولان : أحدهما أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلفين _ يعني الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية _ . والثاني أنها في أهل الكتاب ، والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتَّقُوا اللَّهَ فِي إيمانكم بمحمد ﷺ ، وكُونُوا مع الصادقين . وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال : أحدها أنه النبي ﷺ وأصحابه ، قاله ابن عمر . والثاني أبو بكر وعمر ، قاله سعيد بن جبير والضحاك والثالث أنهم الثلاثة الذين خلفوا صدقوا النبي ﷺ عن تأخرهم ، قاله السدي . والرابع أنهم المهاجرون لأنهم لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد ، قاله ابن جريج . قال أبو سليمان الدمشقي : وقيل : إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة ، فقال : يا معشر الأنصار ، إن الله يقول في كتابه : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] ، من هم ؟ قالت الأنصار : أنتم هم . قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، فأمركم أن تكونوا معنا ، ولم يأمرنا أن نكون معكم ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء . والخامس أنه عام ، قاله قتادة . و(مع) بمعنى (من))) .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْمَجُورِ ،

وَأَنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا)) ٤٠ .
يُوضَحُ النَّبِيُّ ﷺ أَهْمِيَةَ الصَّدَقِ ، وَضُرُورَةَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ صَادِقًا مُجِبًّا لِلصَّدَقِ ، وَيُيَسِّنُ أَجْرَ
الصادقين ومنزلتهم الرفيعة ومكانتهم العظيمة ، لتشجيع الناس على التزام الصَّدَقِ والتَّمَسُّكِ بِهِ .
وَالصَّدَقُ يُوصِلُ إِلَى الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا ، وَالْبِرُّ اسْمُ جَامِعٍ لِلْخَيْرِ كُلِّهِ . وَالصَّدَقُ يُطَلَّقُ عَلَى صِدْقِ
اللِّسَانِ ، وَهُوَ نَقِيضُ الْكُذْبِ ، وَالصَّدَقُ فِي النَّيَّةِ ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ ، وَالصَّدَقُ فِي الْأَعْمَالِ ، وَأَقْلُهُ
اسْتَوَاءُ سَرِيرَتِهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَالصَّدَقُ فِي الْمَقَامَاتِ ، كَالصَّدَقِ فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَغَيْرِهِمَا ، فَمَنْ
اتَّصَفَ بِذَلِكَ كَانَ صِدِّيقًا ، أَوْ بَعْضُهَا كَانَ صَادِقًا . وَالْبِرُّ يُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ .
وَأَنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيَحْرِصُ عَلَى الصَّدَقِ ، وَيَتَّعَدُّ عَنِ الْكُذْبِ ، حَتَّى
يَبْلُغَ فِي الصَّدَقِ غَايَتَهُ وَنَهَايَتَهُ ، فَيَدْخُلُ فِي زُمْرَةِ الصَّادِقِينَ ، وَيَسْتَحِقُّ ثَوَابَهُمْ .
وَأَنَّ الْكُذْبَ (الْإِخْبَارَ عَلَى غَيْرِ مَا هُوَ فِي الْوَاقِعِ) يُوصِلُ إِلَى الْفُجُورِ ، وَهُوَ ضِدُّ الْبِرِّ ، وَهُوَ
الْمَيْلُ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ ، وَالْإِنْبِعَاثُ فِي الْمَعَاصِي ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يُوصِلُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ يَكْذِبُ
وَيَحْرِصُ عَلَيْهِ وَيَتَكَرَّرُ ذَلِكَ مِنْهُ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا ، وَيُحْكَمُ لَهُ بِذَلِكَ .
وَالْحَدِيثُ يُرْغَبُ فِي الصَّدَقِ ، وَيُحذَّرُ مِنَ الْكُذْبِ . وَالصَّدَقُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفِهَا ،
وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ لِنَيْلِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَالنَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ .
وَالصَّدَقُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ ، فَهُوَ يَهْدِي إِلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَبْوَابِ الْخَيْرِ ، وَأَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ ،
وَهَذَا هُوَ طَرِيقُ الْجَنَّةِ . وَكُلَّمَا تَنَزَّمَ الْعَبْدُ بِالصَّدَقِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، صَارَ الصَّدَقُ صِفَةً لَازِمَةً لَهُ بِدُونِ
تَكْلُفٍ ، وَعِنْدئذٍ يَكُونُ صِدِّيقًا ، وَهَذِهِ الرُّتْبَةُ جَاءَتْ نَتِيجَةً لِلصَّدَقِ الْمُتَوَاصِلِ الَّذِي لَا يَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ
كُذْبٌ . أَمَّا الْكُذْبُ فَيَقُودُ إِلَى الْفَسْقِ وَالْفُجُورِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَاصِي الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَهَذَا هُوَ طَرِيقُ
النَّارِ . وَكُلَّمَا عَرِقَ الْعَبْدُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْكُذْبِ ، كُتِبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا ، وَهِيَ رُتْبَةٌ قَبِيحَةٌ لِلْغَايَةِ
تَسْتَدْعِي الْخِزْيَ وَالْعَارَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٦٠) : ((قال العلماء : معناه أن
الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْخَالِصِ مِنْ كُلِّ مَذْمُومٍ . وَالْبِرُّ اسْمُ جَامِعٍ لِلْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَقِيلَ :
الْبِرُّ الْجَنَّةُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الْعَمَلُ الصَّالِحَ وَالْجَنَّةَ . وَأَمَّا الْكُذْبُ فَيُوصِلُ إِلَى الْفُجُورِ ، وَهُوَ
الْمَيْلُ عَنِ الْاسْتِقَامَةِ ، وَقِيلَ : الْإِنْبِعَاثُ فِي الْمَعَاصِي . قَوْلُهُ ﷺ : " وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ

٤٠ متفق عليه. البخاري (٥ / ٢٢٦١) برقم (٥٧٤٣) ، ومسلم (٤ / ٢٠١٢) برقم (٢٦٠٧) .

عند الله صديقًا ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " قال العلماء : هذا فيه حث على تَحَرِّي الصَّدَق ، وهو قَصْدُه ، والاعتناء به ، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه ، فإنه إذا تساهل فيه كَثُرَ منه ، فَعُرِفَ به ، وكتبه الله لمبالغته صديقًا إن اعتاده ، أو كذَّابًا إن اعتاده . ومعنى (يُكْتَب) هنا يُحْكَم له بذلك ، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم ، أو صفة الكذابين وعقابهم ، والمُرَاد إظهار ذلك للمخلوقين ، إمَّا بأن يكتبه في ذلك ليشتهر بحظه من الصفتين في المَلَأ الأعلى ، وإمَّا بأن يُلقِي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم ، كما يُوضَع له القبول والبغضاء ، وإلا فَقَدَر الله تعالى وكتابه السابق قد سَبَقَ بِكُلِّ ذلك ، والله أعلم)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٣٤٣ و ٣٤٤) : ((عَليكم بالصَّدَق) أي : القول الحق ، وهو ضد الكذب . وقد يُسْتَعْمَل في أفعال الجوارح ، كصِدْقُ فلان في القتال إذا وَقَّاه حَقَّهُ ، وقد يُعْبَرُ عَنْ كُلِّ فاضل بالصَّدَق ، والمُحْكَم في ذلك ما يقتضيه المَقَام والقياس . (تنبيه) قال القشيري : الصَّدَق عماد الأمر ، وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وأقله استواء السر والعلانية . وقال التُّسْتَرِي : لا يَشُمُّ رائحة الصَّدَق عبدٌ داهنَ نَفْسَه أو غَيَّرَه . وقال المُحَاسِبِي : الصَّادِق هو الذي لا يُبَالِي لَوْ خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يُحِبُّ إِطْلَاعَ الناس على مِنْتَقَلِ ذَرَّةٍ مِنْ حُسْنِ عمله ، وإذا طلبته بالصَّدَق أعطاك مِرْآةً ، تُبَصِّرُ بها كُلَّ شيءٍ من عجائب الدنيا والآخرة (فَإِنَّ الصَّدَق يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ) أي : إلى العمل الصالح الخالص ، والبر سَبَقَ أَنَّهُ اسم جامع للخير (وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ) أي : يُوصِلُ إليها . قال ابن العربي : بَيَّنَّ أَنَّ الصَّدَق هو الأصل ، الذي يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ كُلِّهِ ، وذلك لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَحَرَّى الصَّدَقَ لَمْ يَعْصِ أَبَدًا ، لِأَنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَشْرِبَ ، أَوْ يَزِنِي ، أَوْ يُؤْذِي ، خَافَ أَنْ يُقَالَ له : زَنَيْتَ أَوْ شَرَيْتَ ، فَإِنَّ سَكَتَ جَرِّ الرَّيْبَةِ ، وَإِنْ قَالَ : لا ، كَذَبَ ، وَإِنْ قَالَ : نَعَمْ ، فَسَقَ ، وَسَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ ، وَذَهَبَتْ حُرْمَتُهُ (وما يزال الرَّجُلُ يَصُدَّق) في كلامه (ويتحرى الصَّدَق) أي : يَجْتَهِدُ فِيهِ (حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا) أي : يُحْكَمُ له بذلك ، ويستحق الوصف بمنزلة الصديقية (وإياكم والكذب) أي : احذروه (فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ) أي : يُوصِلُ إِلَى الْمَيْلِ عَنِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَالْإِنْبِعَاثِ فِي الْمَعَاصِي (وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ) أي : يُوصِلُ إِلَيْهَا (وما يزال الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) أي : يُحْكَمُ له بذلك ، ويستحق الوصف بمنزلة الكذابين ، وعاقبتهم ، والمُرَاد إظهار ذلك لِخَلْقِهِ بكتابه في اللوح ، أو الصُّحُفِ ، أو بِالْإِلْقَاءِ فِي الْقُلُوبِ ، وعلى الألسنة)) .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أنَّ النبي ﷺ قال : ((إِنَّ الكَذِبَ لا يَصْلُحُ مِنْهُ جِدٌّ ولا هَزْلٌ ، ولا أن يَعِدَ الرَّجُلُ ابْنَهُ ثُمَّ لا يُنْجِرُهُ له))^{٤١} .

الكذبُ فاسدٌ في جميع الحالات ، لا يُمكن استخدامه في الأمور الجادة ولا الهزلية ، فلا يوجد كذبٌ أبيض ولا أسود ، فكلُّه كذبٌ مذموم . ولا يجوز كذلك أن يضحك الرجلُ على ابنه بأن يعده بعمل كذا وكذا ، ثم لا يُنفذ وعده ، فهذا يدخل في باب الكذب ، ويُؤدِّي إلى غياب الثقة تمامًا بين أفراد الأسرة ، وأعضاء المجتمع الواحد ، وتمزيقه إلى شظايا لا تجتمع على هدف واحد . وقد اعتنت الشريعة الإسلامية بالصدق ، ورعبت فيه ، وحرمت الكذب ، وذلك من أجل صناعة مجتمع متماسك لا يوجد فيه إلا الحق والحقيقة ، وبالتالي لا تُقدَّر فوضى الأكاذيب والإشاعات أن تُضعفه، أو تُقضي على حياة الأفراد والجماعات ، وتبث الاضطراب في صفوف المجتمع، فالصدقُ هو قوة التماسك الاجتماعي، أمَّا الكذبُ فالمسار الأول في نَعش المجتمع.

وقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٨] .

في يوم القيامة ، يسأل الله الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم . والحكمة في سؤال الرُّسل مع علم الله بصدقهم ، وتبليغهم الرسالة كاملةً بلا نقص ولا زيادة، هو تبييت الكافرين وتوبيخهم وتقيحهم في يوم القيامة . وفي هذا وعيد لغيرهم ، لأنهم إذا كانوا يُسألون عن ذلك ، فكيف غيرهم ؟ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١١٦) : ((قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ أَلِ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه : أحدهما : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاة النَّقَّاش . وفي هذا تشبيه، أي: إذا كان الأنبياء يُسألون، فكيف من سواهم ؟. الثاني: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاة علي بن عيسى . الثالث : ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم ، حكاة ابن شجرة . الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المُخلصة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦١٩) : ((... ، فنحن نشهد أن الرُّسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصَّحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق الجلي ، الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمُعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرُّسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال)) .

٤١ رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٢١٧) برقم (٤٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ٤٢ .

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَادِقُونَ ، قَامُوا بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ النَّبَاتِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَنُصِرْتَهُ ، وَالْقِتَالِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ . وَالْمُعَاهِدِ إِذَا وَفَىٰ بَعْدَهُ فَقَدْ صَدَقَ فِيهِ . وَهَذَا مَدْحٌ إِلَهِيٍّ لِلصَّادِقِينَ الَّذِينَ أَوْفَوْا بِعَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالتَّزَمُوا بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَرَجَعُوا ، وَلَمْ يَخُونُوا عَهْدَهُمْ .

فَمِنْهُمْ مَنْ وَفَىٰ بِنَدْوِهِ وَعَهْدِهِ ، وَصَبَرَ عَلَى الْجِهَادِ ، وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَحِمْرَةَ وَمُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ وَأَنْسَ بْنَ النَّضْرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الشَّهَادَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَعُثْمَانَ وَطَلْحَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ . وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى ، مِنْهُمْ مَنْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ بَعْدَ هَوْلَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَنْتَظِرُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ ، إِمَّا الشَّهَادَةَ أَوْ النَّصْرَ . وَمَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمُ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ اللَّهُ أَبَدًا ، وَهُمْ بِخِلَافِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ .

وَالنَّحْبُ : النَّذْرُ ، وَاسْتَعِيرَ لِلْمَوْتِ لِأَنَّهُ كَنَذَرٍ لِأَمْرٍ فِي رَقَبَةِ كُلِّ إِنْسَانٍ .

٤٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٧١ و ٣٧٢) : ((قال ابن جرير: ومعنى الآية: وَفَوْا لِلَّهِ بِمَا عَاهَدُوهُ عَلَيْهِ . وَفِي ذَلِكَ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ عَاهَدُوا لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّصْرَةَ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا فَعَاهَدُوا اللَّهَ أَنْ لَا يَتَأَخَّرُوا بَعْدَهَا . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُمْ عَاهَدُوا أَنْ لَا يَقْرَبُوا إِذَا لَاقُوا ، فَصَدَقُوا . وَالرَّابِعُ أَنَّهُمْ عَاهَدُوا عَلَى الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ عَهْدَهُ قُتِلَ أَوْ عَاشَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْضِيَهُ بِقِتَالٍ أَوْ صِدْقٍ لِقَاءٍ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَالثَّلَاثُ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَدْوَهُ الَّذِي كَانَ نَذْرًا ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ ، فَيَكُونُ النَّحْبُ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ : الْأَجَلُ ، وَعَلَى الثَّانِي : الْعَهْدُ ، وَعَلَى الثَّلَاثِ : النَّذْرُ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : ﴿ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ ، أَي : قُتِلَ . وَأَصْلُ النَّحْبِ : النَّذْرُ ، كَأَنَّ قَوْمًا نَذَرُوا أَنَّهُمْ إِنْ لَقُوا الْعَدُوَّ قَاتَلُوا حَتَّى يُقْتَلُوا أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَقُتِلُوا . فَقِيلَ : فُلَانٌ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، أَي : قُتِلَ ، فَاسْتُعِيرَ النَّحْبُ مَكَانَ الْأَجَلِ ، لِأَنَّ الْأَجَلَ وَقَعَ بِالنَّحْبِ ، وَكَانَ النَّحْبُ سَبَبًا لَهُ . وَمِنْهُ قِيلَ لِلْعَطِيَّةِ : مَنْ ، لِأَنَّ مَنْ أَعْطَى فَقَدْ مَنْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بِمَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ حِمْرَةُ ابْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَأَنْسُ بْنُ النَّضْرِ وَأَصْحَابُهُ . وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ ، مَنْ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأُحُدٍ ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ ، أَوْ الشَّهَادَةَ عَلَى مَا مَضَىٰ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، ﴿ وَمَا بَدَّلُوا ﴾ ، أَي : مَا غَيَّرُوا الْعَهْدَ الَّذِي عَاهَدُوا رَبَّهُمْ عَلَيْهِ ، كَمَا غَيَّرَ الْمُنَافِقُونَ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٨٦) : ((مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، أَي : مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ، أَتَوْا بِالصِّدْقِ والمعنى : أَنَّهُمْ وَفَّوْا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ مِنَ الثَّبَاتِ مَعَهُ ، وَالْمُقَاتَلَةَ لِمَنْ قَاتَلَهُ ، بِخِلَافِ مَنْ كَذَبَ فِي عَهْدِهِ ، وَخَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ . وَقِيلَ : هُمُ الَّذِينَ نَذَرُوا أَنَّهُمْ إِذَا لَقُوا حَرْبًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثَبَّتُوا لَهُ ، وَلَمْ يَفِرُّوا ثُمَّ فَصَّلَ سُبْحَانَهُ حَالَ الصَّادِقِينَ بِمَا وَعَدُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَقَسَمَهُمْ إِلَى قِسْمَيْنِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ . النَّحْبُ : مَا التَزَمَهُ الْإِنْسَانُ وَاعْتَقَدَ الْوَفَاءَ بِهِ وَالتَّحَبُّ يُطْلَقُ عَلَى التَّنْذِرِ وَالْقَتْلِ وَالْمَوْتِ وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالًا أَدْرَكُوا أَمْنِيَّتَهُمْ ، وَقَضَوْا حَاجَتَهُمْ ، وَوَفَّوْا بِنَذْرِهِمْ ، فَقَاتَلُوا حَتَّى قُتِلُوا ، وَذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ ، كَحِمَزَةَ وَمُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ وَأَنَسَ بْنَ النَّضْرِ ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ فَضَاءَ نَحْبِهِ حَتَّى يَحْضُرَ أَجَلُهُ كَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَأَمْثَالَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَمِرُونَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّبَاتِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالْقِتَالَ لِعَدْوِهِ ، وَمُنْتَظِرُونَ لِقَضَاءِ حَاجَتِهِمْ ، وَحُصُولِ أَمْنِيَّتِهِمْ بِالْقِتْلِ ، وَإِدْرَاكَ فَضْلِ الشَّهَادَةِ . وَجُمْلَةُ ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿ صَدَقُوا ﴾ ، أَي : مَا غَيَّرُوا عَهْدَهُمُ الَّذِي عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ كَمَا غَيَّرَ الْمُنَافِقُونَ عَهْدَهُمْ ، بَلْ ثَبَّتُوا عَلَيْهِ ثُبُوتًا مُسْتَمِرًّا ، أَمَا الَّذِي قَضَوْا نَحْبَهُمْ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَا الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فَضَاءَ نَحْبِهِمْ ، فَقَدْ اسْتَمَرُوا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى فَارَقُوا الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُغَيِّرُوا ، وَلَا بَدَّلُوا)) .

وفي صحيح البخاري : عن أنس _ رضي الله عنه _ قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم أُحُدٍ وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء _ يعني أصحابه _ ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء _ يعني المشركين _ . ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، فَقَالَ : يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، الْجَنَّةُ وَرَبِّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ ، قَالَ سَعْدُ : فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ، قَالَ أَنَسُ : فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثْمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ ، أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَمَا عَرَفَهُ أُحُدٌ إِلَّا أُحْتَهُ بِبَنَانِهِ . قَالَ أَنَسُ : كُنَّا نَرَى _ أَوْ نَنْظُرُ _ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

ضَرَبَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ مِثَالًا رَائِعًا فَرِيدًا فِي صِدْقِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالنَّفْسِ مِنْ أَجْلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ .

لقد غاب أنس بن النَّضْر _ رضي الله عنه _ عن غزوة بدر ، التي حدثت في رَمَضانِ مِنَ السَّنَةِ الثانية للهجرة ، لأنَّ النبي ﷺ لم يُعلنِ النفيِرَ العام ، فلم يكن خروجه ﷺ للقتال ، وإنما خرَجَ لقافلة أبي سُفيان ، ولكنَّ الله أراد القتالَ ، ونَصَرَ رسوله والمؤمنين .

لَمَّا غاب أنس عن غزوة بدر ، جاء إلى النبي ﷺ ، وأخبره بأنَّ الله إذا أَحْضَرَهُ قِتالَ المُشركين سَيَرى الله ما يَصْنَع . وأبهم ما سيصنع تعظيمًا له وتهويلًا . فلمَّا كانت غزوة أُحُد (وكانت في سَوالِ مِنَ السَّنَةِ الثالثة للهجرة) ، وأُحُدَ جِبلٍ مِنَ جِبالِ المدينة ، وكانت بين قُريش والمُسلمين ، وانكشَفَ المُسلمون لِعَدُوِّهم ، وبَدَتْ هزيمتهم ، قال أنس : " اللهم إني أعتذر إليك ممَّا صَنَعَ هؤلاء " ، يعني أصحابه الذي تركوا أمر النبي ﷺ ، ونزلوا مِنَ فَوْقِ الجِبالِ لِجَمْعِ الغنائم ، " وأبرأ إليك ممَّا صَنَعَ هؤلاء " ، يعني المُشركين الذي يُقاتلون المُسلمين ، ويُؤذون النبي ﷺ . ثُمَّ تقدَّم أنس رضي الله عنه ، فاستقبله سعد بن مُعاذ _ رضي الله عنه _ مُنْهزِمًا ، فأخبره أنس أنه يُريد الجَنَّةَ ، وهي مقصوده ومطلوبه ، وأنه يجد ريحَ الجَنَّةِ وطيبها عند جِبالِ أُحُد . وبين سعد إنه لم يستطع أن يفعل مثلما فعل أنس ، من إقدامه وقتاله للمُشركين .

ووضَّح أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ شجاعةَ عمِّه أنس بن النَّضْر _ رضي الله عنه _ وبأسه الشديد ، وصبره العظيم في القتال ، حيث وَجَدُوا في جِسمِهِ بَضْعًا وثمانين ضربةً بالسيف ، أو طعنة بَرْمُح ، أو رمية بسهم . والبِضْعُ : ما بين الثلاث والسبع ، ووجدوه مقتولًا ، وقد مثل به المُشركون ، أي : قَطَعُوا مِنَ أعضائه بعد موته ، فما عَرَفَهُ أَحَدٌ إلا أُخْتَهُ (الرُّبِيعُ بنت النَّضْر) بِطَرَفِ إصبعه .

والصحابَةُ _ رضي الله عنهم _ بَدَلُوا قُصارى جُهدهم مِنَ أجلِ إعلاءِ كَلِمَةِ التَّوحيدِ ، وقَدَّموا أَنفُسَهُم وأموالَهُم رخيصةً في سبيلِ الله تعالى ، ونُصْرَةَ دينه ، وضَرَبُوا في ذلك أروعَ الأمثلة . والحديثُ يُبينُ فضلَ الوفاءِ بالعَهْدِ معَ الله تعالى ، وَلَوْ كانَ صعبًا وشديدًا على النَّفسِ ، كما يُبينُ أن طلبَ الشَّهادةِ لا يتناولُه التَّهْيُ عن الإلقاءِ بالنَّفسِ إلى التَّهْلُكَةِ ، لأنَّ الشَّهادةَ حياةً ، وليستَ هلاكًا . وفي الحديثِ فضيلةٌ عظيمةٌ للصحابيِّ الجليلِ أنس بن النَّضْر _ رضي الله عنه _ .

إنَّ المُؤمِنَ يَحْزَنُ ويتأثرُ بالغيابِ عن الوقائعِ المجيدةِ والأحداثِ الجسيمةِ ومواطنِ الخَيرِ والصَّلاحِ . وليس كالمنافق الذي يفرح بالتخلفِ عن المعاركِ ومواطنِ الرجولةِ لكي يحافظَ على نَفْسِهِ ويكسبَ عُمرَهُ _ كما يتوهم _ . وأنس بن النَّضْر _ رضي الله عنه _ لم يَقْبَلْ بالغيابِ عن أولِ قِتالِ (غزوة بدر) ، واعتبرَ ذلك نُقْطةً سوداءَ في تاريخه ، فأراد أن يتداركَ الموقفَ ، فعَقَدَ

العزم الأكيد على القتال بصرَاوة في المواجهة القادمة مع المشركين . وقد كان كلامه نابعا من قلب صادق، وإرادة مُتحررة من شهوات النفس ، وشعور بالمسؤولية عن حماية الإسلام ، ولم تكن شعارات بَرّاقة ، أو أُغنيات وطنية للنسيان . وقد طبّق كلامه على أرض الواقع فقاتل حتى النهاية ، وصدق الله فصّده الله تعالى . والمؤمن يتطابق قَوْلُهُ مَعَ فِعْلِهِ ذُوْنُ أَنْ يُكذِّبَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ .

وقال الله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٤] .

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِسَبَبِ صِدْقِهِمْ (الوفاء بعهد الله) أحسن الجزاء في الآخرة ، وهم المؤمنون الذين صدّقوا فيما عاهدوا الله عليه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٢٧) : ((أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظةهم عليه)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٨٢) : ((لِيُثَبِّتَ اللَّهُ أَهْلَ الصِّدْقِ بِصِدْقِهِمْ اللَّهُ بِمَا عَاهَدُوهُ عَلَيْهِ ، ووفائهم له به)) .

ويُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ الناقضين لعهد الله ، المخالفين لأمره ، بأن يُمَيِّتَهُمْ عَلَى النَّفَاقِ ، فيستحقوا عقابه وعذابه ، أو يتوب عليهم في الدنيا ، فيُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ ، فيرحمهم ، ويغفر لهم . والمعنى : إن شاء الله أن يُعَذِّبَهُمْ لَمْ يُوقِّعَهُمْ لِلتَّوْبَةِ ، وإن شاء أن لا يُعَذِّبَهُمْ تَابَ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْمَوْتِ . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٢٧) : ((ولكن هُم تَحْتَ مَشِيئَتِهِ فِي الدُّنْيَا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يَلْقَوْهُ فَيُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهِ ، وإن شاء تَابَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ أَرْشَدَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ عَنِ النَّفَاقِ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بَعْدَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ)) اهـ . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٨٧) : ((﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ ﴾ بِمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ . جَعَلَ الْمُنَافِقِينَ كَأَنَّهُمْ قَصَدُوا عَاقِبَةَ السُّوءِ وَأَرَادُوا بِسَبَبِ تَبْدِيلِهِمْ وَتَغْيِيرِهِمْ ، كَمَا قَصَدَ الصَّادِقُونَ عَاقِبَةَ الصِّدْقِ بِوَفَائِهِمْ ، فَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مَسُوقٌ إِلَى عَاقِبَتِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، فَكَأَنَّهُمَا اسْتَوَيَا فِي طَلِبِهَا ، وَالسَّعْيِ لِتَحْصِيلِهَا . وَمَفْعُولٌ ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ وَجَوَابُهَا مَحْذُوفَانِ ، أَي : إِنْ شَاءَ تَعَذِّبَهُمْ عَذَابَهُمْ ، وَذَلِكَ إِذَا أَقَامُوا عَلَى النَّفَاقِ ، وَلَمْ يَتْرَكُوهُ وَيَتُوبُوا عَنْهُ)) .

إنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، رَحِيمٌ بِالْعِبَادِ . وَالْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ وَأَقْلَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفَاقِ . وَلَمَّا كَانَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ غَالِبَةً لِعُضْبِهِ حَتَمَ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٨٢) : ((يقول : إِنَّ اللَّهَ كَانَ ذَا سَرٍّ عَلَى ذُنُوبِ التَّائِبِينَ ، رَحِيمًا بِالتَّائِبِينَ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بَعْدَ التَّوْبَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزُّمَر : ٣٣] .
 النبي مُحَمَّد ﷺ هو الصَّادِق المَصْدُوق . قد جاء بأصدق كَلِمَة ، وهي كَلِمَة التَّوْحِيد : لا إله
 إلا الله ، وصدقَ بها ، واعتنقها منهجًا حياتيًا ، لا مجال للانحراف عنه . وهذا يُشير إلى أن
 الدعوة مرتبطة بالصدق بحيث لا يمكن حدوث انفصال بينهما أو تعارض ، فالدَّعوة المُحمَّدية
 الإسلامية دعوة صادقة ، مصدرها صادق ، ورسولها صادق ، وكتابتها صادق ، وأتباعها صادقون .
 وبغير الصدق سوف تنهار الدَّعوة قبل أن تبدأ ، ويَهْرُب منها الناس .

وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ٤٩٥) : ((ومن طريق قَتَادَة بسند صحيح : الذي جاء
 بالصدِّق رسولُ الله ﷺ ، جاء بالقرآن ، والذي صدَّق به المؤمنون)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٨٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ ﴾
 فيه أربعة أقوال : أحدها أنه رسول الله ﷺ ، قاله عليُّ بن أبي طالب وابن عباس وقَتَادَة وابن زيد ،
 ثمَّ في الصَّدِّق الذي جاء به قولان : أحدهما أنه لا إله إلا الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ،
 وبه قال سعيد بن جبَّير . والثاني أنه القرآن ، قاله قَتَادَة . وفي الذي صدَّق به ثلاثة أقوال : أحدها
 أنه رسول الله ﷺ أيضًا ، هو جاء بالصدِّق ، وهو صدَّق به ، قاله ابن عباس والشَّعْبِي ، والثاني أنه
 أبو بكر ، قاله عليُّ بن أبي طالب ، والثالث أنهم المؤمنون ، قاله قَتَادَة والضَّحَّاك وابن زيد .
 والقول الثاني أن الذي جاء بالصدِّق أهل القرآن ، وهو الصَّدِّق الذي يُجيبون به يوم القيامة ، وقد
 أدَّوا حَقَّهُ ، فهم الذين صدَّقوا به ، قاله مُجاهد . والثالث أن الذي جاء بالصدِّق الأنبياء ، قاله
 الربيع ، فعلى هذا يكون الذي صدَّق به المؤمنون . والرابع أن الذي جاء بالصدِّق جبريل ، وصدقَ
 به مُحَمَّد ، قاله السُّدِّي)) .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، أولئك الموصوفون بالصفات الحميدة ، والمتصفون بالتقوى التي
 هي عنوان النَّجاة ، حيث التزموا بالتوحيد ، وابتعدوا عن الشُّرك ، هم أهل التقوى والصَّلاح الذين
 يستحقون كُلَّ إحسان وإكرام . وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٤) : ((يقول جلَّ ثناؤه : هؤلاء
 الذي هذه صفتهم هم الذين اتَّقوا الله بتوحيده ، والبراءة من الأوثان والأنداد ، وأداء فرائضه ،
 واجتناب معاصيه ، فخافوا عقابه)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [مُحَمَّد : ٢١] .
 فإذا جدَّ الجدُّ وفرضَ القتال ، فلَوْ أخلصوا نبيَّاتهم ، وصدقوا الله في الإيمان والطاعة والجهاد ،
 وجاهدوا بصدق ويقين ، لكان الصدِّق خيرًا لهم من المعصية والمخالفة .

وهذا يُشير إلى أهمية الصَّدق مع الله تعالى ، إذ إنَّ الصَّدق يفتح الأبواب المُغلَّقة ، ويجعل من الإنسان طاقةً فعَّالة في بناء المجتمع الإنساني الكَوْنِي في ظل الشريعة المُحمَّدية الإسلامية .
وغياب الصَّدق مع الله ، له عواقب وخيمة ، وهذه الصِّفة السيئة تتعارض مع الإيمان .

وقال البَغوي في تفسيره (٢٨٦ / ١) : ((﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ ، أي : جدَّ الأمرُ ، ولزِمَ فَرَضُ الْقِتَالِ ، وصار الأمرُ مَعزومًا ، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ في إظهار الإيمان والطاعة ، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ . وقيل : جواب (إذا) مَحذوف ، تقديره : فإذا عَزَمَ الْأَمْرُ نَكَلُوا (امتنعوا) وَكَذَبُوا فِيمَا وَعَدُوا ، وَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٠٦ / ٧) : ((قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ . قال الحسن : جدَّ الأمرُ . وقال غَيْرُهُ : جدَّ رسولُ الله ﷺ وأصحابه في الجهاد ، ولزِمَ فَرَضُ الْقِتَالِ ، وصار الأمرُ معروفًا عليه . وجواب (إذا) مَحذوف ، تقديره : فإذا عَزَمَ الْأَمْرُ نَكَلُوا ، يدلُّ على المَحذوف : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ ، أي : في إيمانهم وجهادهم ، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من المعصية والكراهة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الْحُجُرَات : ١٥] .

إنَّما المؤمنون الحقيقيون الصادقون في إيمانهم ، الذين صَدَّقُوا بَوحدانية الله ، وأَقْرَبُوا بِاللَّوْهِيَّةِ وَرُبُوبِيَّةِ ، وَصَدَّقُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ورسالته ، عن إيمان كامل ، ويقين راسخ ، واقناع تام ، ثُمَّ لَمْ يَشْكُوا فِي إِيْمَانِهِمْ ، بَلْ تَمَسَّكُوا بِدِينِهِمْ ، وَتَبَتُّوا عَلَى الْحَقِّ وَالْيَقِينِ ، وَالتَزَمُوا الْهُدَى وَالصَّوَابَ وَالتَّصَدِيقَ ، وَبَدَّلُوا أَمْوَالَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ رَحِيصَةً فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، طَلَبًا لِرِضَاهِ ، وَابْتِغَاءَ رِضْوَانِهِ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ قَوْلًا وَفِعْلًا . وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْجِهَادَ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْإِيْمَانِ ، وَقُوَّةِ الْيَقِينِ . وَالْإِيْمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ ، وَصَدَّقَهُ اللِّسَانُ ، وَظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ .

والآية تُبين ثلاث صفات للمؤمنين الصادقين :

أ _ التصديق الكامل الجازم بوحداية الله ونُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

ب _ عدم الشك في الإيمان .

ج _ الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٩٧ / ٥) : ((﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، يعني إيمانًا صحيحًا خالصًا عن مُوَاطَاةِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ، أي : لَمْ يَدْخُلْ

قُلُوبِهِمْ شَيْءٍ مِنَ الرَّيْبِ ، وَلَا خَالَطَهُمْ شَكٌّ مِنَ الشُّكُوكِ ، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أي : في طاعته ، وابتغاء مَرْضَاتِهِ ، ويدخل في الجهاد الأعمال الصالحة التي أمر الله بها ، فإنها من جملة ما يُجَاهِدُ المرءُ نَفْسَهُ ، حتى يقوم به ويؤدِّيهِ ، كما أمر الله سبحانه . والإشارة بقوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إلى الجامعين بين الأمور المذكورة ، وهو مُبتدأ ، وخبره قوله : ﴿ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ، أي : الصَّادِقُونَ في الاتِّصَافِ بِصِفَةِ الإِيمَانِ ، والدُّخُولِ فِي عِدَادِ أَهْلِهِ ، لَا مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ بِلِسَانِهِ ، وادَّعى أنه مؤمن ، ولم يطمئن بالإيمان قلبه ، وَلَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَعْنَاهُ ، وَلَا عَمِلَ بِأَعْمَالِ أَهْلِهِ ، وَهُمُ الأَعْرَابُ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ [الحُجُرَاتُ : ١٤] ، وسائر أهل التَّفَاقُ .

٨_ قول التي هي أحسن

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] .

وقُولُوا لِلنَّاسِ قَوْلًا ذَا حُسْنٍ . وَسَمَّاهُ ﴿ حُسْنًا ﴾ لِلْمُبَالَغَةِ . أَي : كَلَّمُوهُمْ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ ، وَالْمَوْعِظَةِ الطَّيِّبَةِ ، وَالتَّصِيحَةِ اللطيفة الصادقة ، وَلَا تَسْتَعْمَلُوا مَعَهُمْ حُسُونَةَ الأَلْفَاظِ ، وَقَسْوَةَ الكَلِمَاتِ ، مَعَ الأَمْرِ بِالمعروفِ وَالتَّهْنِيهِ عَنِ المُنْكَرِ بِأَسْلُوبِ هَادِيٍّ جَدَّابٍ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَمْرَ بِالإِحْسَانِ عَامٌ وَشَامِلٌ لَجَمِيعِ النَّاسِ ، المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ ، الصَّالِحِ وَالفَاسِدِ ، الطَّائِعِ وَالعَاصِي . وَالأَيَةُ تَدْعُو إِلَى التَّحَلِّيِ بِالأَخْلَاقِ الحَمِيدَةِ ، وَالصِّفَاتِ الجَمِيلَةِ ، وَالألتِزَامِ بِالأَسْلُوبِ الهَادِيِّ الجَدَّابِ . وَكَمَا قِيلَ :

أُبْنِي إِنْ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجَهَ طَلِيقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٦٩) : ((أَي : كَلَّمُوهُمْ طَيِّبًا ، وَلِينُوا لَهُمْ جَانِبًا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الأَمْرُ بِالمعروفِ ، وَالتَّهْنِيهِ عَنِ المُنْكَرِ بِالمعروفِ ، كَمَا قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ، فَالْحَسَنُ مِنَ القَوْلِ يَأْمُرُ بِالمعروفِ ، وَيَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ ، وَيَحْلُمُ وَيَعْفُو وَيَصْفَحُ ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهِ اللَّهُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١١٠) : ((وَاخْتَلَفُوا فِي المُخَاطَبِ بِهَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ اليَهُودُ ، قَالَه ابن عباس وابن جُبَيْرِ وابن جُرَيْجِ ، وَمَعْنَاهُ : اصْدُقُوا وَبَيِّنُوا صِفَةَ النَبِيِّ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ . قَالَ أَبُو العَالِيَةِ : قُولُوا لِلنَّاسِ مَعْرُوفًا . وَقَالَ مُحَمَّدُ بنِ عَلِيِّ ابنِ الحَسَنِ : كَلَّمُوهُمْ بِمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَقُولُوا لَكُمْ)) .

وروى ابن جَبَّان في صحيحه (٢ / ٢١٤) عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ : ((لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ، فإن لم تجدَ فلأين الناس ، ووجهك إليهم مُبْسِط)) .
ينبغي على المسلم أن يحرص على المعروف ، وأن لا يُقلِّل منه ، ولا يستهين بفعل الخير ، مهما كان صغيراً وضيعاً ، فإن لم يجد شيئاً من المعروف ، فليعامل الناس بأدب ولين ولطف ، بلا فسوة ولا خُسونة ، ويُقابِلهم بوجه ضاحك مُستبشِر ، وليس بوجه عبوس مُكفهر . ولا شك أن الوجه الضاحك يُوصِل إلى قلوب الآخرين السُرور .
والحديث يُدعو إلى مكارم الأخلاق ، والتعامل مع الناس بلطف ، ولقائهم بوجه مُبْسِط ، والحرص على فعل الخير ، قليلاً كان أو كثيراً ، معنوياً أو مادياً ، بالمال أو بالخلق الحسن .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٧٧) _ عن حديث آخر بنفْس المعنى _ :
((فيه الحث على فَضْل المعروف ، وما تيسر منه ، وإن قلَّ ، حتى طَلَاقة الوجه عند اللقاء)) .
وفي تحفة الأحوذى (٥ / ٤٥٨) : ((قال الطَّيْبِي : المعروف اسم جامع لكلِّ ما عَرِف من طاعة الله تعالى ، والإحسان إلى الناس ، وهو من الصِّفَات الغالبة ، أي : أمر معروف بين الناس إذا رأوه لم يُنكروه . ومن المعروف النَّصْفَة (الإنصاف) وحسن الصُّحبة مع الأهل وغيرهم ، وتلقِّي الناس بوجه طَلْق)) .
وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فَصَّلَتْ : ٣٣] ٤٣ .

٤٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٥٦ و ٢٥٧) : ((قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ فيمن أريد بهذا ثلاثة أقوال : أحدها أنهم المؤدِّنون . روى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال : " نزلت في المؤدِّنين " ، وهذا قول عائشة ومجاهد وعكرمة . والثاني أنه رسول الله ﷺ ، دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس والسُّدي وابن زيد . والثالث أنه المؤمن أجاب الله إلى ما دعاه ، ودعا الناس إلى ذلك ، وعمل صالحاً في إجابته ، قاله الحسن . وفي قوله : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها صلى ركعتين بعد الأذان ، وهو قول عائشة ومجاهد ، وروى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ قال : الأذان . ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال : الصلاة بين الأذان والإقامة ، والثاني أدَّى الفرائض وقام لله بالحقوق ، قاله عطاء . والثالث صام وصلى ، قاله عكرمة)) اهـ .
وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٩٢) : ((وقيل : إن الآية نزلت في المؤدِّنين ، وهذا ضعيف ، لأن الآية مكية ، والأذان شرع بالمدينة)) .

وَمَنْ أَحْسَنُ مِمَّنْ دَعَا الْعِبَادَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، قَوْلًا وَفِعْلًا، وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ ، وَكَتَسَبَ الْحَسَنَاتِ، وَابْتَعَدَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَالْآثَامِ ، وَاعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ دِينًا، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْتَسْلِمِينَ لِلَّهِ ، الْخَاضِعِينَ لِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ . وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ صَالِحٍ مُصْلِحٍ ، يُطِيعُ اللَّهَ وَلَا يَعْصِيهِ . وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْإِبْتِعَادِ عَنْ مَعْصِيَتِهِ . وَكَانَ مُسْلِمًا مُوَحَّدًا مُخْلِصًا مُفْتَخِرًا بِالْإِسْلَامِ . فَلَا شَيْءَ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَلَا طَرِيقَةَ أَوْضَحَ مِنْ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا عَمَلًا أَكْثَرَ أَجْرًا مِنْ عَمَلِهِ . لَقَدْ وَصَلَ إِلَى قِمَّةِ الْعِبَادَةِ . وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . لِذَلِكَ ، الْآيَةُ عَامَّةٌ لِمَنْ جَمَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةَ . وَالْمَعْنَى الْعَامُّ لِلآيَةِ : لَا أَحَدٌ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ هَذِهِ حَالُهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٢٨) : ((يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أَي : دَعَا عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ ﴾ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أَي : هُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ بِمَا يَقُولُهُ ، فَفَعَلَهُ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ ، لِأَزْمِ وَمُتَعَدِّ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَأْتُونَهُ ، بَلْ يَأْتِمُرُ بِالْخَيْرِ ، وَيَتْرِكُ الشَّرَّ ، وَيَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . وَهَذِهِ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ دَعَا إِلَى الْخَيْرِ ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُهْتَدٍ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ)) اهـ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ (٤ / ١٥٦) : ((وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثِ : أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا مُعْتَقِدًا لِلدِّينِ الْإِسْلَامِ ، عَامِلًا بِالْخَيْرِ ، دَاعِيًا إِلَيْهِ ، وَمَا هُمْ إِلَّا طَبَقَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ)) .

٩_ الاستقامة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٨٩] .
أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى وَهَارُونََ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ _ بِالِاسْتِقَامَةِ عَلَى الرَّسَالَةِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَدِمِ اتِّبَاعِ طَرِيقِ الْجَهْلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ قَضَاءِ اللَّهِ، فَوَعْدُ اللَّهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٦٠٢) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ ، فَإِنَّهُ أَمَرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونََ بِالِاسْتِقَامَةِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى أَمْرِهِمَا ، مِنْ دُعَاءِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَى الْإِجَابَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ عِقَابُ اللَّهِ الَّذِي أَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ أَجَابَهُمَا فِيهِ ، كَمَا حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ قَالَ : حَدَّثَنِي حَجَّاجٌ قَالَ : قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ فَاْمُضِيًا لِأَمْرِي ،

وهي الاستقامة . قال ابن جريج : يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة . وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، يقول : ولا تسلكان طريق الذين يجهلون حقيقة وعدي فتستعجلان قضائي ، فإن وعدي لا خلف له ، وإن وعيدي نازل بفرعون ، وعذابي واقع به وبقومه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٥٨ و ٥٩) : ((وفي قوله : ﴿ فاستقيما ﴾ أربعة أقوال : أحدها فاستقيما على الرسالة ، وما أمرتكما به ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني فاستقيما على دعاء فرعون وقومه إلى طاعة الله ، قاله ابن جرير . والثالث فاستقيما في دعائكما على فرعون وقومه . والرابع فاستقيما على ديني ، ذكرهما أبو سليمان الدمشقي . وفي المراد بسبيل الذين لا يعلمون ، قولان : أحدهما أنهم فرعون وقومه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطَّغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] .

هذا أمر إلهي عظيم للنبي ﷺ وأُمَّتِهِ بالاستقامة على الصراط المستقيم ، والتمسك بالشرعية السماوية ، وعدم الانحراف عن طريق الدعوة . والاستقامة أمر جامع لأنواع الطاعات ، وثبات على الدرب الواضح بلا انحراف أو زيغ . وبعبارة أخرى ، إن الاستقامة هي الثبات على الأوامر والنواهي . فَاسْتَقِمْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ ، والعمل به ، والدعاء إليه ، كما أمرك الله ، وَمَنْ تَابَ مِنَ الشَّرِّ وَالْكُفْرِ ، وآمن معك ، ولا تتجاوزوا أوامر الله وحدوده ، إن الله يعلم كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وسيجازيكم عليها ، فاتقوه ، والتزموا أوامره ، واجتنبوا نواهيه .

وقال القرطبي في تفسيره (٩ / ٩١) : ((الخطاب للنبي ﷺ ولغيره . وقيل : له والمراد أُمَّتِهِ ، قاله السُّدِّي . وقيل : (اسْتَقِمْ) اطلب الإقامة على الدين من الله ، واسأله ذلك ، فتكون السنين سين السؤال ، كما تقول : أسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، اطلب الغفران منه . والاستقامة : الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ، فاستقم على امتثال أمر الله .)) .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ١٢٣) : ((يقول تعالى ذَكَرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : فَاسْتَقِمْ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى أَمْرِ رَبِّكَ وَالَّذِينَ ابْتَعَثَكَ بِهِ ، والدعاء إليه كما أمرك ربك ، ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ ، يقول : وَمَنْ رَجَعَ مَعَكَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، والعمل بما أمره به ربُّه من بعد كُفْرِهِ ، ﴿ وَلَا تَطَّغَوْا ﴾ ، يقول : وَلَا تَعُدُّوا أَمْرَهُ إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، يقول : إِنَّ رَبَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ، بما تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا طَاعَتِهَا وَمَعْصِيَتِهَا ، ﴿ بَصِيرٌ ﴾ ذُو عِلْمٍ بِهَا ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ ،

وهو لجميعها مُبصر . يقول تعالى ذِكْرُه : فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ يَظَّلِعَ عَلَيْكُمْ رُبُّكُمْ وَأَنْتُمْ عَامِلُونَ بِخِلَافِ أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ ذُو عِلْمٍ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَهُوَ لَكُمْ بِالْمِرْصَادِ)) .

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ الأمرَ بِالْخَيْرِ أَفْرَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، مَعَ أَنَّ مَعْنَاهُ عَامٌ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَقِمُّوا ﴾ ، وَأَمَّا التَّهْيِيءُ عَنِ الشَّرِّ فَجَمَعَ لِلأُمَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطْعَمُوا ﴾ ، وَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ : وَلَا تَطْعَمَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بِلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَفَصَاحَتِهِ ، وَحُسْنِ بَيَانِهِ ، وَدِقَّةِ أَلْفَاظِهِ وَتَعْبِيرَاتِهِ ، وَالْعِنَايَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ ، وَرَفْعِ مَنَزَلَتِهِ .

وفي صحيح مسلم (١ / ٦٥) عن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ : ((قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ، فَاسْتَقِمُّوا)) .

كَانَ الصَّحَابَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ حَرِيصِينَ عَلَى سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ ، وَمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَدْ سَأَلَ هَذَا الصَّحَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ عَمَلٍ يُبْقِيهِ وَيُنْجِيهِ وَيَكْفِيهِ عَنِ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى . طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخْبِرَهُ عَنْ قَوْلِ جَامِعٍ وَشَامِلٍ فِي أَصُولِ الْإِسْلَامِ وَفُرُوعِهِ ، يَكْتَمِلُ بِهِ دِينُهُ ، وَيُرْشِدُهُ إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى ، وَيَكْفِيهِ عَنِ بَاقِي الْأَعْمَالِ ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي سَعَادَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَنَجَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ . وَقَدْ أَرْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَحَقًّا وَصِدْقًا وَيَقِينًا ، وَالتَّمَسُّكَ بِالْإِيمَانِ ، وَالِاسْتِقَامَةَ عَلَى أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيمِهِ . وَالِاسْتِقَامَةُ هِيَ الْإِلتِمَامُ بِالطَّاعَاتِ ، وَالِابْتِعَادُ عَنِ الْمَعَاصِي . وَنَجَاتُ الْعَبْدِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالْإِيمَانِ ، وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ حَتَّى الْمَوْتِ . وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ إِلَى الْجَنَّةِ . وَمَنْ عَاشَرَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ . وَالْعِبْرَةُ بِالنَّحْوَاتِيمِ .

وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ ثُمَّ الْاسْتِقَامَةُ ، هَذِهِ هِيَ الْقِضِيَّةُ الْمَرْكَزِيَّةُ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَقَدْ أُوتِيَ النَّبِيُّ ﷺ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، فَعَبَّرَ بِشَكْلِ مُوجَزٍ غَيْرِ مُخِلٍّ عَنِ طَرِيقِ الْخِلَاصِ لِلبَشَرِ ، وَمَنْ انْحَرَفَ عَنْهُ فَإِنَّهُ ضَائِعٌ وَهَالِكٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ هُوَ الْأَسَاسُ ، وَالِاسْتِقَامَةُ هِيَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ ، وَهِيَ التَّطْبِيقُ الْوَاقِعِيُّ لِتَعَالِيمِ الدِّينِ الْمُشْتَمَلَةِ عَلَى الْقَوْلِ الصَّادِقِ وَالْفِعْلِ الْمُطَابِقِ لِلْقَوْلِ بِلا تَعَارُضٍ . وَكَمَا يُقَالُ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ إِنَّ أَقْصَرَ مَسَافَةَ بَيْنَ نَقْطَتَيْنِ هِيَ الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٩) : ((قال القاضي عياض رحمه الله : هذا من جوامع كلمه ﷺ ، وهو مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ، أَي : وَحَدُّوا اللَّهَ ، وَآمَنُوا بِهِ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، فَلَمْ يَحِيدُوا عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَالتَّزَمُوا طَاعَتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، إِلَى أَنْ تُؤْفُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَعَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَهُوَ مَعْنَى

الحديث إن شاء الله تعالى ، هذا آخر كلام القاضي رحمه الله قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته: الاستقامة دَرَجَةٌ بها كمال الأُمُور وتَمَامُها، وبوجودها حُصول الخَيْرَات ونظامها، ومَن لَم يكن مُستقيماً في حالته ضاعَ سَعْيُهُ وخابَ جُهْدُهُ . قال : وقيل : الاستقامة لا يُطيقها إلا الأكابر ، لأنَّها الخُروجُ عن المَعهودات ، ومُفَارَقَةُ الرُّسُومِ والعادات ، والقِيامُ بين يَدَيِ اللَّهِ تعالى على حَقِيقَةِ الصِّدْقِ ، ولذلك قال ﷺ : " استقيموا ولَن تُحْصُوا " ٤٤ . وقال الواسطي : الحِصْلَةُ التي بها كُمِلتِ المحاسن ، وبفَقْدِها قَبِحَتِ المحاسن ، واللَّهُ أعلم)) .

وقال المُنَاوِي في فيضِ القَدِيرِ (٤ / ٥٢٣) : ((قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ) أَي جَدَّدْ إِيمَانَكَ بِاللَّهِ ذِكْرًا بِقَلْبِكَ، وَنُطْقًا بِلِسَانِكَ، بَأَن تَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ مَعَانِي الإِيمَانِ الشَّرْعِيِّ (ثُمَّ اسْتَقِم) أَي: الزَّمِ عَمَلَ الطَّاعَاتِ، وَالإِنْتِهَاءَ عَنِ المُخَالَفَاتِ، إِذْ لَا تَتَأَتَّى مَعَ شَيْءٍ مِنَ الإِعْوَجَاجِ، فَإِنَّهَا ضِدُّهُ ، وَانْتِزَاعُ هَاتَيْنِ الجُمْلَتَيْنِ مِنْ آيَةِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَدَائِعِ جَوَامِعِ الكَلِمِ، فَقد جَمَعَتَا جَمِيعَ مَعَانِي الإِيمَانِ والإِسْلَامِ ، اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا ، إِذِ الإِسْلَامُ تَوْحِيدٌ ، وَهُوَ حَاصِلُ بِالْجُمْلَةِ الأَوَّلَى، وَالطَّاعَةُ بِسَائِرِ أَنْوَاعِهَا فِي ضِمْنِ الثَّانِيَةِ، إِذِ الاستقامة امتثال كُلِّ مَأْمُورٍ، وَتَجَنُّبُ كُلِّ مَنَهِيٍّ . وَعَرَّفَهَا بَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا المُتَابَعَةُ لِلسُّنَنِ المُحَمَّدِيَةِ ، مَعَ التَّحَلُّقِ بِالأَخْلَاقِ المَرْضِيَةِ، وَبَعْضُهُمْ بِأَنَّهَا الإِتِّبَاعُ مَعَ تَرْكِ الإِبْتِدَاعِ . وَقِيلَ : حَمَلُ النَّفْسِ عَلَى أَخْلَاقِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : أَرَأَيْكَ قَدْ شَبَّتْ ، قَالَ : ((شَبَّيْتَنِي هُودٌ ، ...)) ٤٥ .

إِنَّ سُورَةَ هُودٍ بِمَا فِيهَا مِنْ أَوَامِرِ إلهِيَةِ تَأْمُرُ بالإِيمَانِ وَالاستقامة وَالانضباط وَعَدَمِ الانحرافِ ، قَدْ شَبَّتِ النَّبِيَّ ﷺ ، لِعِظَمِ شَأْنِهَا وَتَعَالِيْمِهَا . وَفِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢ / ٩) : ((قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَقِمُّوا كَمَا أُمِرْتُمْ ﴾ : مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمِيعِ القُرْآنِ آيَةٌ كَانَتْ أَشَدَّ وَلَا أَشَقَّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ حِينَ قَالُوا : قَدْ أُسْرِعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ ، فَقَالَ : " شَبَّيْتَنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا ")) .

٤٤ قال السيوطي في الدر المنثور (١ / ٧٠٨) : أخرجه ابن ماجة وابن جبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ثوبان ((اه . وفي النهاية في غريب الأثر (١ / ٩٨٥) : ((اسْتَقِيمُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا تَمِيلُوا ، وَلَنْ تُطِيقُوا الاستقامة)) .

٤٥ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٧٤) برقم (٣٣١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

الاستقامة ليست عملية سهلة ، إنها قضية كبرى تستلزم نقاء قلبياً ، وصفاء روحياً ، وطهارة جسدية ، وجهداً خارقاً ، لكنها يسيرة إذا اقترنت بالهداية الإلهية والتوفيق الرباني . ولا سهل إلا ما جعله الله سهلاً . وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ١٦٨) : ((شَيَّبَنِي هُودَ) أي سورة هُودَ (وأخواتها) أي : وأشباهها من السُّور التي فيها ذُكر أهوال القيامة والعذاب . والهُموم والأحزان إذا تقاحمت على الإنسان أسرع إليه الشَّيبُ في غير أوان . قال المُتنبِّي :

وَالهَمُّ يَحْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّيِّ وَهَرِمُ

قال الزمخشري : مرَّ بي في بعض الكتب أن رجلاً أمسى فأجم الشعر كحنك الغراب ، وأصبح أبيض الرأس واللحية كالنَّعَامَةِ (شجرة بيضاء الورق) ، فقال : أريت القيامة والناس يُفتادون بسلاسل إلى النار ، فمن هؤل ذلك أصبحت كما ترون)) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [فَصَّلَتْ : ٦] .

النبي ﷺ بشر كباقي الناس ، لكنَّ الله خصَّه بالوحي والتبوة ، فصار مُتميِّزاً عن الناس . وقد جاء بدعوة التوحيد ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، فيجب الإيمان بالله والاستقامة على طريقه ، واللجوء إليه في كلِّ الحالات ، وطلب الغفران منه ، لأنه سبحانه يملك سلطة غفران الذنوب .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤَلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : أَنَا لَسْتُ إِلَّا بَشَرًا مِنْ جِنْسِكُمْ ، اختارني الله نبياً ورسولاً لإيصال الرسالة الإلهية إلى الناس .

وفي تفسير القرطبي (١٥ / ٢٩٧) : ((قال الحسن : عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى التَّوَّابِينَ)) .

وَجَبَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُبْلَغَ ، وَوَجَبَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ ، وَلَا دَاعِيَ لِتَكْذِيبِهِ ، لِأَنَّهُ قَدَّمَ الْأَدْلَةَ النَّقْلِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ . وَالرَّسَالَةُ الْإِلَهِيَّةُ قَائِمَةٌ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ ، فَهُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَيْسَ مِثْلَ الْأَصْنَامِ الْإِلَهَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَالْمُتَفَرِّقَةِ ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ . وَبِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ ، وَلَا يَمْلِكُ سُلْطَةَ غُفْرَانِ ذُنُوبِهِمْ . لِذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، مُسْتَقِيمِينَ عَلَى طَرِيقِهِ ، طَالِبِينَ الْمَغْفِرَةَ مِنْهُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٠٦) : ((لَسْتُ مَلَكًا وَلَا جِنِّيًّا لَا يُمَكِّنُكُمْ التَّلْقِي مِنْهُ ، وَلَا أَدْعُوكُمْ إِلَى مَا تَنبُو عَنْهُ الْعُقُولُ وَالْأَسْمَاعُ ، وَإِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْعَمَلِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِمَا دَلَائِلُ الْعَقْلِ وَشَوَاهِدُ النَّقْلِ)) .

﴿ فاستقيموا إليه واستغفروهُ ﴾ . فأخلصوا له العبادة، واستقيموا على المنهاج الإلهي ، واطلبوا المغفرة من الله ، فهو خالقكم الذي يقبل التائبين ، ويغفر للمستغفرين .
﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ . هذا تهديدٌ للمُشركين ، ووعيد لهم ، فالعذابُ لهم ، والهلاكُ عليهم ، إن ظلُّوا على شركهم . وَيْلٌ لهم بسبب جهلهم ، واستهانتهم بأحكام الله ، وكفرهم به سبحانه .
وقد قال النبي ﷺ : ((... ، إنما أنا بشرٌ مثلكم))^{٤٦} .
إن النبي ﷺ بشرٌ كباقي الناس ، لكنه مُتميِّزٌ عنهم في الأمور الدنيوية ، لأنَّ الوحيَ ينزلُ عليه ، ولا ينزلُ على الناس . أي إنَّ الله خصَّه بالوحي والرَّسالة .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٥٦٧) _ شارحًا حديثًا آخر _ : ((إنما أنا بشرٌ) أي: واحد منهم في البشرية، ومساوٍ لهم فيما ليس من الأمور الدينية ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ ، فقد ساوى البشر في البشرية ، وامتنازَ عنهم بالخصوصية الإلهية التي هي تبليغُ الأمور الدينية (إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم) أي : إذا أمرتكم بما ينفعكم في أمر دينكم (فخذوا به) أي : افعلوهُ فهو حق وصواب دائماً (وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيي) يعني من أمور الدنيا (فإنما أنا بشرٌ) يعني : أخطئُ وأصيبُ فيما لا يتعلق بالدين ، لأنَّ الإنسان محلُّ السُّهُو والنسيان ، ومُرادُه بالرأي الرأي في أمور الدنيا لكن بعض الكاملين قال : أرادَ به الظنَّ ، لأنَّ ما صدرَ عنه برأيه واجتهاده ، وأقرَّ عليه حُجَّة الإسلام مُطلقًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فَصَّلَتْ : ٣٠] .
إنَّ الذين آمنوا بالله حقًا وصدقًا ، وأقروا بوحْدانيته ، واعترفوا بألوهيته وربوبيته ، وعبدوه وحده لا شريك له ، وأخلصوا العملَ له ، والتزموا أوامره ، وأطاعوه ، واجتنبوا نواهيه ، وابتعدوا عن معصيته ، ثمَّ استقاموا على توحيد الله وعبادته وطاعته، ولم يُشركوا به شيئًا ، وثبتُّوا على ذلك حتى المموت ، تَتَنَزَّلُ عليهم ملائكةُ الرَّحمةِ عند المموت ، بأن لا تخافوا ممَّا تُقدِّمون عليه من أحوال القيامة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل ومال وولد ، فإنَّا نخلفكم فيه .
وهذه بُشْرَى عظيمة من الملائكة . أو : لا تخافوا ذنوبكم ، ولا تحزنوا عليها، فإنَّ الله يغفرها لكم ، ويتجاوز عنكم . وأبشروا بأنَّ لكم في الآخرة الجنة التي وعدكم الله بها في الدنيا على السنة

٤٦ متفق عليه. البخاري (١ / ١٥٦) برقم (٣٩٢) ، ومسلم (١ / ٤٠٠) برقم (٥٧٢) .

الرُّسُل ، وأنكم خالدون في نعيمها ، بسبب إيمانكم بالله ، واستقامتكم على عبادته وطاعته . وقال السَّفي في تفسيره (٩٠ / ٤) : ((أي : لا تخافوا ما تُقدِّمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتُمْ ، فالخوفُ غمٌ يلحق الإنسان ليتوقَّع المَكروه ، والحزنُ غمٌ يلحق لوقوعه من فوات نافع ، أو حصول ضرر . والمعنى : إن الله كتب لكم الأمن من كلِّ غم ، فلن تذوقوه ، ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم تُوعدون ﴾ في الدنيا . وقال مُحَمَّد بن علي الترمذي : تنزل عليهم ملائكة الرحمن عند مفارقة الأرواح الأبدان ، أن لا تخافوا سلب الإيمان ، ولا تحزنوا على ما كان من العصيان ، وأبشروا بدخول الجنان التي كنتم تُوعدون في سالف الزمان)) .

والاستقامة هي الثبات على الإيمان ، وإخلاص العمل لله تعالى ، وأداء العبادات والطاعات على أكمل وجه . والاستقامة أعظم كرامة . وحقيقة الاستقامة القَرار بعد الإقرار لا الفِرار بعد الإقرار . وفي حاشية شيخ زادة على البيضاوي (٢٦١ / ٣) : ((إن الملائكة تنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة ، أن لا تخافوا من هول الموت ، ولا من هول القبر ، وشدائد يوم القيامة ، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه ، قائمين على رأسه ، يقولان له : لا تخف اليوم ، ولا تحزن ، وأبشروا بالجنة التي كنتم تُوعد ، وإنك سترى اليوم أموراً لم تر مثلاً ، فلا تهولت ، فإنما يُراد بها غيرك)) .

وقال البغوي في تفسيره (١٧٢ / ١) : ((قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ . سئل أبو بكر الصديق _ رضي الله عنه _ عن الاستقامة ، فقال : أن لا تُشرك بالله شيئاً . وقال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : (الاستقامة) أن تستقيم على الأمر والنهي ، ولا تروغ روغان الثعلب . وقال عثمان بن عفان _ رضي الله عنه _ : أخلصوا العمل لله . وقال علي _ رضي الله عنه _ : أدوا الفرائض . وقال ابن عباس : استقاموا على أداء الفرائض . وقال الحسن : استقاموا على أمر الله تعالى ، فعملوا بطاعته ، واجتنبوا معصيته . وقال مُجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله ، حتى لحقوا بالله . وقال مقاتل : استقاموا على المعرفة ، ولم يرتدوا . وقال قتادة : كان الحسن إذا تلا هذه الآية قال : اللهم أنت ربنا ، فارزقنا الاستقامة . قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ ، قال ابن عباس : عند الموت . وقال قتادة ومقاتل : إذا قاموا من قبورهم . قال وكيع بن الجراح : البشرية تكون في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وعند البعث ، ﴿ ألا تخافوا ﴾ من الموت . وقال مُجاهد : لا تخافوا على ما تُقدمون عليه من أمر الآخرة ، ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلَّفْتُمْ من أهل وولد ، فإننا نخلفكم في ذلك كله . وقال

عطاء بن أبي رباح : لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم ، فإنني أغفرها لكم ، ﴿ وَأَبشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٢٥٣ و ٢٥٤) : ((ذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ، أَي: وَحْدَهُ ، ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا اسْتَقَامُوا عَلَى التَّوْحِيدِ ، قَالَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَمُجَاهِدٌ . وَالثَّانِي عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ . وَالثَّلَاثُ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ إِلَى الْمَوْتِ ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالسُّدِّيُّ . وَرَوَى عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُهُ ، وَهَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَلَمْ يَسْتَقِيمُوا . وَقَالَتِ الْيَهُودُ : رَبُّنَا اللَّهُ ، وَعُزَيْرُ ابْنِهِ ، وَمُحَمَّدٌ لَيْسَ بِنَبِيِّ ، فَلَمْ يَسْتَقِيمُوا ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : رَبُّنَا اللَّهُ ، وَالْمَسِيحُ ابْنُهُ ، وَمُحَمَّدٌ لَيْسَ بِنَبِيِّ ، فَلَمْ يَسْتَقِيمُوا . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : رَبُّنَا اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَمُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَاسْتَقَامَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ ، أَي : بِأَنَّ لَا تَخَافُوا ، وَفِي وَقْتِ نُزُولِهَا عَلَيْهِمْ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا عِنْدَ الْمَوْتِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ . فَعَلَى هَذَا فِي مَعْنَى : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا لَا تَخَافُوا الْمَوْتَ ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ . وَالثَّانِي لَا تَخَافُوا مَا أَمَامَكُمْ ، ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ عَلَى مَا خَلْفَتْكُمْ ، قَالَهُ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي تَنْزَلُ عَلَيْهِمْ إِذَا قَامُوا مِنَ الْقُبُورِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ ، فَيَكُونُ مَعْنَى : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أَنَّهُمْ يُسْأَرُونَ بِزَوَالِ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

إِنَّ الاستقامة مفهوم جامع لأوامر الله ونواهيه ، وهي أعظم كرامة ، وهي لا تتحقق إلا بعبادة الله وحده ، لا شريك له ، وفعل الطاعات ، والابتعاد عن المعاصي . والاستقامة هي الإيمان بالله ، والتزام طاعته قولاً وفِعْلاً . وهي تَجْمَعُ معاني الإسلام والإيمان معاً ، حيث الاستسلام لله وحده ، والخضوع لأوامره ، والانصياع لإرادته ومشيئته ، والتصديق بوحْدانيته باللسان ، واستقرار الإيمان في القلب ، والتزام العبادات والطاعات ، والابتعاد عن الذنوب والآثام والمعاصي . ولا نجاة للعبد إلا بالإيمان بالله وحده ، وطاعته ، والاستقامة على ذلك حتى الموت .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [التَّكْوِير : ٢٧] .

ما هذا القرآن إلا تذكرة وموعظة للإنس والجن ، يتذكرون به ويتعظون ، وهو ينفعهم ويفيدهم في الدنيا والآخرة .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٥٣) : ((ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التَّكْوِير : ٢٨] .
 ما القرآنُ إلا ذِكرٌ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ على شريعة الله وطاعته، ويتبع الحقَّ ، ويؤمن به،
 ويُقيم عليه ، ويسلك طريقَ الصالحين . وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير والموعظة .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦١٥) : ((﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ، أي : مَنْ أَرَادَ
 الهِدَايَةَ ، فعليه بهذا القرآن ، فَإِنَّهُ مَنجَاةٌ لَهُ وَهِدَايَةٌ ، وَلَا هِدَايَةَ فِيهَا سِوَاهُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التَّكْوِير : ٢٩] .
 وما تَقْدِرُونَ على الاستقامة إلا بتوفيق الله وهدايته ولطفه ، فاطلبوا من الله التوفيق إلى طريق
 الحق ومنهج الصواب . وقد أعلمهم الله أنَّ المَشِيئَةَ في التوفيق إليه ، وأنهم لا يَقْدِرُونَ على ذلك
 إلا بمشيئة الله . وهذا دليلٌ على أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْمَلُ خَيْرًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ، وَلَا شَرًّا إِلَّا بِحِذْلَانِهِ .
 والعِبَادُ لَا يَشَاؤُونَ شَيْئًا إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، أَي : مَالِكُ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 وَمُرَبِّهِمْ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْهِ ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَاللَّهُ هَدَى بِالْإِسْلَامِ ، وَأَضَلَّ بِالْكَفْرِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦١٥) : ((لَيْسَتْ الْمَشِيئَةُ مَوْكُولَةً إِلَيْكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ اهْتَدَى ،
 وَمَنْ شَاءَ ضَلَّ ، بَلْ ذَلِكَ كُلُّهُ تَابِعٌ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : عَنْ سَعِيدِ
 ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ،
 قَالَ أَبُو جَهْلٍ : الْأَمْرُ إِلَيْنَا ، إِنْ شِئْنَا اسْتَقَمْنَا ، وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَسْتَقِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا
 تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ٢١١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ الْعَبْدُ خَيْرًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ، وَلَا شَرًّا إِلَّا بِحِذْلَانِهِ . وَقَالَ
 الْحَسَنُ : وَاللَّهِ مَا شَاءَتِ الْعَرَبُ الْإِسْلَامَ حَتَّى شَاءَهُ اللَّهُ لَهَا . وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبَهٍ : قَرَأْتُ فِي
 سَبْعَةِ وَثَمَانِينَ كِتَابًا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ : مَنْ جَعَلَ إِلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْمَشِيئَةِ فَقَدْ كَفَرَ)) .

١٠_ العفو عن الناس

قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .
 والَّذِينَ يَعْفُونَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ أَوْ ظَلَمَهُمْ ، وَيَتْرَكُونَ عُقُوبَتَهُمْ ، وَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ حِقْدٌ عَلَى
 أَحَدٍ ، وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ . وَالْآيَةُ تُبَيِّنُ فَضْلَ الْعَفْوِ ، وَعِظَمَ مَنزِلَةَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ
 يَمْنَحُهُمُ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ .

وَرَدَ ذِكْرُ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ فِي سِيَاقِ الْإِشَادَةِ وَالْمَدْحِ ، فَهُمْ يَتَجَاوَزُونَ عَنِ النَّاسِ رَحْمَةً بِهِمْ ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ ، فَيَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ ، وَتَكُونُ قُلُوبُهُمْ خَالِيَةً مِنَ الْحِقْدِ وَالْإِنْتِقَامِ ، وَهَذَا مُنْتَهَى الصَّفَاءِ وَالنَّقَاءِ ، وَحُبِّ الْخَيْرِ لِلْآخِرِينَ .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٤٣٧) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : وَالصَّافِحِينَ عَنِ النَّاسِ عُقُوبَةَ ذُنُوبِهِمْ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ قَادِرُونَ ، فَتَارِكُوهَا لَهُمْ)) .
وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٥٧٥) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، أَيْ : التَّارِكِينَ عُقُوبَةَ مَنْ أَذْنَبَ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقَّ الْمُؤَاخَذَةَ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ ضُرُوبِ الْخَيْرِ . وَظَاهِرُهُ الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ ، سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْمَمَالِكِ أَمْ لَا . وَقَالَ الرَّجَّاحُ وَغَيْرُهُ : الْمُرَادُ بِهِمُ الْمَمَالِكُ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] .

إِنْ تُظْهِرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَمَلَ الْخَيْرِ ، أَوْ تَفْعَلُوهُ سِرًّا ، أَوْ تَعْفُوا عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَثِيرُ الْعَفْوِ عَنِ عِبَادِهِ ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ .
إِنَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنِ الْمُذْنِبِينَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ ، فَيَنْبَغِي الْإِفْتِدَاءُ بِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَدْ حَثَّ عَلَى الْعَفْوِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ عَفُورٌ مَعَ قُدْرَتِهِ ، فَكَيْفَ لَا تَعْفُونَ مَعَ ضَعْفِكُمْ وَعَجْزِكُمْ ؟ .
لَقَدْ نَدَبَ اللَّهُ إِلَى الْعَفْوِ ، وَرَغَّبَ فِيهِ . وَالْعَفْوُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ . وَالْعَفْوُ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ أَوْ ظَلَمَكُمْ يُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَيَجْعَلُكُمْ تَحْصُلُونَ عَلَى الْأَجْرِ الْإِلَهِيِّ الْعَظِيمِ . وَالآيَةُ تَحُثُّ الْمَظْلُومَ عَلَى الْعَفْوِ ، وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْإِسَاءَةِ .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٣٤٣) : ((يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ إِنْ تُبْدُوا ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿ خَيْرًا ﴾ ، يَقُولُ : إِنْ تَقُولُوا جَمِيلًا مِنَ الْقَوْلِ لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ ، فَتُظْهِرُوا ذَلِكَ شُكْرًا مِنْكُمْ لَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ حُسْنِ إِلَيْكُمْ ، ﴿ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ ، يَقُولُ : أَوْ تَتْرَكُوا إِظْهَارَ ذَلِكَ فَلَا تُبْدُوهُ ﴾ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ ﴾ ، يَقُولُ : أَوْ تَصَفَّحُوا لِمَنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ عَنْ إِسَاءَتِهِ ، فَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَذْنَبْتُمْ لَكُمْ أَنْ تَجْهَرُوا لَهُ بِهِ ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا ﴾ ، يَقُولُ : لَمْ يَزَلْ ذَا عَفْوٍ عَنِ خَلْقِهِ ، يَصَفِّحُ عَمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ﴿ قَدِيرًا ﴾ ، يَقُولُ : ذَا قُدْرَةٍ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ . وَإِنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ : أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ ذَا عَفْوٍ عَنِ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ . يَقُولُ : فَاعْفُوا أَنْتُمْ أَيْضًا أَيُّهَا النَّاسُ عَمَّنْ أَتَى إِلَيْكُمْ ظُلْمًا ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ وَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ ، كَمَا يَعْفُو عَنْكُمْ رَبُّكُمْ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ وَتُخَالِفُونَ أَمْرَهُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظالمين ﴾ [الشورى : ٤٠] .

أباح الله للمظلوم أن ينتصر ممن ظلمه بدون اعتداء عليه بالزيادة. ويتجلى العدل في الانتصار المقيّد بالمماتلة والمساواة ، بدون زيادة . والآية تدلُّ على حرمة التعدي . وسمى الله الثانية ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ للازدواج ، أو لأنها تسوء من تنزل به .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٧٧٠ / ٤) : ((بين سبحانه أن العدل في الانتصار هو الاقتصار على المساواة . وظاهر هذا العموم . وقال مقاتل والشافعي وأبو حنيفة وسفيان : إن هذا خاص بالمجروح ينتقم من الجراح بالقصاص دون غيره ، وقال مجاهد والسدي: هو جواب القبيح إذا قال : أخزأك الله ، يقول : أخزأك الله ، من غير أن يعتدي . وتسمية الجزاء سَيِّئَةٌ إما لكونها تسوء من وقعت عليه ، أو على طريق المشاكلة ، لتشابهها في الصورة)) .

من ترك العقوبة ، وهو قادرٌ عليها ، وعفا عن ظلمه ، وأصلح بينه وبين ظالمه ، ابتغاء وجه الله ، فإن الله ينييه ويمنحه الأجر الجزيل . وأخفى الله الأجر تعظيمًا لشأنه ، وتبهيها على أهميته . لقد أباح الله القصاص (وهو العدل) ، وندب إلى العفو (وهو الفضل) ، فمن عفا فأجره محفوظ عند الله ، ولن يضيعه .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ١٥٥) : ((فمن عفا عن أساءة إليه إساءته إليه ، فغفرها له ، ولم يعاقبه بها ، وهو على عقوبته عليه قادر ، ابتغاء وجه الله ، فأجر عفو ذلك على الله ، والله مثيبه على ثوابه)) . اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٩٨) : ((ذكر العفو فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ بالعفو بينه وبين ظالمه ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فلا يقوم إلا من عفا، ثُمَّ قرأ هذه الآية)) . إن الله يُغض البادين بالظلم ، أو الذين يتجاوزون الحد في القصاص .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ١٥٥) : ((﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظالمين ﴾ يقول: إن الله لا يحب أهل الظلم ، الذين يتعدون على الناس ، فيسيئون إليهم بغير ما أذن الله لهم فيه)) . وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٠١) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : ((... ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً)) .

ما زاد الله عبداً بسبب عفوهِ عَمَّنْ أساءَ إليه أو ظلمه ، مع قدرته على الانتقام ، إلا عزاً وسيادةً وعظماً في قلوب الناس في الدنيا . وقد يكون المراد أن أجره في الآخرة عزة عند الله .

إنَّ العبد الذي مَنَحَهُ اللهُ نِعْمَةَ العَفْوِ والنَّجَازِ عن أخطاء الناس وخطاياهم ، هو كبيرٌ في عيون الناس ، يُنظَرُ إليه كَسَيِّدٍ كريمٍ عزيز ، راجح العقل ، وحَسَنَ الأخلاق . وهذا يجعله ذا مكانة رفيعة في قومه . وهذه هي النِّعْمَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ ، أمَّا النِّعْمَةُ الأَخْرَوِيَّةُ فتتجلى في حصوله على الرِّضَا الإلهيِّ ، ونَيْلِ جَنَّتِهِ ، وهذا هو العِزُّ المُطْلَقُ ، والشرف الذي ما بَعْدَهُ شرف .

والحديثُ يُبَيِّنُ فَضْلَ العَفْوِ والصَّفْحِ ، وأنَّ مَنْ عُرِفَ بالعَفْوِ والصَّفْحِ صَارَ سَيِّدًا عَزِيْزًا ، وَعَظْمًا في قلوب الناس ، أو أنَّ عِزَّهُ في الآخرة بكثرة الثواب وترك العِقَابِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٤١) : ((فيه أيضًا وجهان ، أحدهما أنه على ظاهره ، وأنَّ مَنْ عُرِفَ بالعَفْوِ والصَّفْحِ سَادَ وَعَظْمًا في القلوب ، وزادَ عِزَّهُ وإكرامه ، والثاني أنَّ المرادَ أَجْرُهُ في الآخرة ، وعِزُّهُ هناك)) .

والبعضُ يَعْتَقِدُ أنَّ العَفْوَ وسيلة المغلوب على أمره ، وموقف العاجز الضعيف ، وهذا فهمٌ قاصر يتنافى مع الحقيقة . فالعَفْوُ مَعَ القُدْرَةِ على الانتقام دليلٌ على قُوَّةِ الشخصية ، والثِّقَّةِ بالنَّفْسِ ، والشَّفَقَةِ على الآخرين ، والرحمة بهم ، والإحسان إليهم ، والتَّفَضُّلُ عليهم ، وهو لا يصدر إلا عن الواثقين القادرين لا الضعفاء العاجزين .

١١ _ العَفْوُ مَقْرُونًا بالصَّفْحِ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ [النور : ٢٢] .

وَلْيَعْفُوا عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ جُرْمٍ ، وَلْيَصْفَحُوا عَمَّا بَدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الإِسَاءَةِ والأذى . والآيةُ تتحدَّثُ عن العَفْوِ والصَّفْحِ عَمَّنْ خاضَ في أمرِ السَيِّدَةِ عائِشَةَ _ رضي اللهُ عنها _ . والعِبْرَةُ بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٢٨٨) : ((﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ ، يقول : وَلْيَعْفُوا عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ جُرْمٍ ، وذلك كَجُرْمِ مِسْطَحٍ إلى أبي بكرٍ في إشاعته على ابنته عائشة ما أشاع من الإفك ، ﴿ وَلْيَصْفَحُوا ﴾ ، يقول : وَلْيَتْرَكُوا عُقُوبَتَهُمْ على ذلك بِحِرْمَانِهِمْ ما كانوا يُؤْتُونَهُمْ قَبْلَ ذلك ، ولكن لِيَعُودُوا لَهُمْ إلى مثل الذي كانوا لهم عليه من الإفضال عليهم)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٥) : ((﴿ وَلْيَعْفُوا ﴾ عَن ذُنُوبِهِم الذي أذنبوه عليهم ، وَجَنَائِبِهِم التي افتروها ﴿ وَلْيَصْفَحُوا ﴾ بالإغضاء عن الجاني ، والإغماض عَن جِنَائِبِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التَّوْبَاتِ : ١٤] .
 وإن تَعْفُوا عَنْهُمْ فِي تَسْبِيحِكُمْ عَنِ الْخَيْرِ ، وَتَصْفَحُوا عَنْ عُقُوبَتِكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَغْفِرُوا
 لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَأَخْطَاءَهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ ، عَظِيمٌ الرَّحْمَةِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٣٣٤) : ((أرشدكم الله إلى التجاوز ، فقال : ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ﴾ ، أَي : تَعْفُوا عَنْ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي ارْتَكَبُوهَا ، وَتَرَكَوْا الشَّرِيبَ (التَّوْبِيخَ)
 عَلَيْهَا ، وَتَسْتَرُوهَا ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بِالْغِ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لَكُمْ وَلَهُمْ . وَقِيلَ : كَانَ الرَّجُلُ
 الَّذِي تَبَّطَهُ أَزْوَاجُهُ وَأَوْلَادُهُ عَنِ الْهَجْرَةِ إِذَا رَأَى النَّاسَ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَيْهَا ، وَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، هَمَّ أَنْ
 يُعَاقِبَ أَزْوَاجَهُ وَأَوْلَادَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَإِن تَعْفُوا ﴾ الْآيَةَ . وَالْآيَةُ تَعْمٌ ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ خَاصًّا)) .
 وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ١١٦) : ((﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لَكُمْ لِمَنْ تَابَ مِنْ
 عِبَادَةِ مَنْ ذُنُوبِهِ ، ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بِكُمْ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ بَعْدِ تَوْبَتِكُمْ مِنْهَا)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
 عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ ، فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، أَسْلَمُوا ، وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَبَى
 أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدْعُوهُمْ ، فَأَتَوْا الْمَدِينَةَ ، فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَوْهُمْ قَدْ فَقَّهُوا ،
 فَهَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا ﴾ الْآيَةَ ^{٤٧} .
 إِنَّ بَعْضَ الْأَزْوَاجِ وَبَعْضَ الْأَوْلَادِ بِمَنْزِلَةِ الْعَدُوِّ لَكُمْ ، لِأَنَّهُمْ سَبَبٌ فِي تَأْخُرِكُمْ ، وَانْشِغَالِكُمْ عَنِ
 الْخَيْرِ ، مِنْ جِهَادٍ وَهَجْرَةٍ وَعِلْمٍ وَطَاعَةٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

أَسْلَمَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَرَادُوا أَنْ يُهَاجِرُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَمَنْعَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ مِنْ
 الْهَجْرَةِ ، وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ ، فَلَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مُدَّةٍ زَمْنِيَّةٍ ، رَأَوْا النَّاسَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ فِي
 الْهَجْرَةِ ، قَدْ صَارُوا فُقَهَاءَ عَالِمِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْفَقْهِيَّةِ بِمُصَاحِبَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَحَزِنُوا وَنَدِمُوا
 لِذَلِكَ ، فَأَرَادُوا مُعَاقِبَةَ أَهْلِهِمُ الَّذِينَ مَنَعُوهُمْ مِنَ الْهَجْرَةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيَّةَ الْآيَةِ : ﴿ وَإِن تَعْفُوا
 وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، أَي : إِنْ تَعْفُوا عَنْهُمْ وَلَا تُعَاقِبُوهُمْ عَمَّا تَسَبَّوْا فِيهِ ، فَإِنَّ
 اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْجَمِيعِ ذُنُوبَهُمْ ، وَيَشْمَلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ . وَهَذَا وَإِنْ كَانَ سَبَبًا فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ
 بَعْمُومِ اللَّفْظِ ، وَلَيْسَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ . وَالْمَعْنَى عَامٌ وَشَامِلٌ ، وَيَشْمَلُ الْحَدَرَ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ
 عَمَّا يَشْغَلُ عَنِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، كَمَا يَشْمَلُ الْعَفْوُ وَالصَّفْحُ عَنْ كُلِّ مَنْ أَسَاءَ .

٤٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣٢) برقم (٣٨١٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والحديث يدلُّ على أن العدو قد لا يكون بذاته، وإنما بأفعاله . والأزواج والأولاد لا يُنظر إليهم كأعداء في المجتمع الأسري، ولكن قد تكون بعض أفعالهم عدائيةً وخطيرةً، وتؤثر سلبيًا على المرء، وتدمر حياته، فيصبحون أعداءً بهذه الأفعال . وعلى المرء أن لا يخضع لعملية الشيطان، وخفض الهمة، وتحطيم المعنويات، التي قد تأتي من أفراد الأسرة، وأن لا يخسر مستقبله من أجل استسلامه لطاعة زوجته أو حُبِّ أبنائه . وهذا الحُبُّ القاتلُ أشدَّ خطورةً من حقد الأعداء المكشوف. وقد نهى الشرع أن يُطاع أحد في معصية الله تعالى ، وأن يبقى مع من يُتَّبَطه عن فعل العبادات وعمل الطاعات . والقاعدة الأساسية الثابتة في كلِّ زمان ومكان : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

١٢- رُوح السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال : ٦١]^{٤٨}.

وإن مالوا إلى المصالحة والمهادنة، فمِلْ إليها، واقبل منهم ، وأجِبْهم إلى ما طلبوا . وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٢٦) : ((ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر)) . وهذه الآية دالة على مشروعية المصالحة مع المشركين . ومعنى الشرط في الآية أن الأمر بالصلح مُقَيَّد بوجود المصلحة والمنفعة . فإذا كان هناك مصلحة للمسلمين من الصلح فينبغي الصلح ، وإذا كان هناك مفسدة للمسلمين من الصلح فلا يجوز الصلح . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٢٧٨) : ((﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ ، وإن مالوا إلى مُسالمتك ومُتاركتك الحرب ، إمَّا بالدُّخول في الإسلام ، وإمَّا بإعطاء الجزية ، وإمَّا بمُوادعة ، ونحو ذلك من أسباب السِّلْم والصلح ، ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ ، يقول : فَمِلْ إليها ، وابذلْ لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه)) .

٤٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٧٦) : ((وفيمن أريد بهذه الآية قولان : أحدهما المشركون، وأنها نُسِختْ بآية السَّيْف _ يعني الآية الخامسة من سُورة التَّوْبَة _ . والثاني أهل الكتاب . فإن قيل إنهما نزلت في ترك حربهم إذا بذلوا الجزية ، وقاموا بشرط الدِّمَّة ، فهي مُحْكَمَة . وإن قيل : نزلت في مُوادعتهم على غير جزية، تَوَجَّه النَّسَخُ لها بآية الجزية)) .

واعتمد يا مُحَمَّد على الله ، وفَوِّض الأمر إليه ، ولا تَخَف من إبطانهم العَدْر والخيانة في جُنوحهم إلى السَّلْم ، أو أنهم يُريدون بالصُّلْح خديعة كي يَتَقَوَّوا وَيَسْتَعِدُوا ، فإنَّ الله عاصمك وكافيك وناصرك ومعينك . إِنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ السَّمِيعُ لأقوالهم ، العليم بأحوالهم .

وقال الطبري في تفسيره (٢٧٨ / ٦) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، يقول : فَوِّضْ إِلَى اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ أَمْرَكَ ، وَاسْتَكْفِهِ وَاتَّقَا بِهِ أَنَّهُ يَكْفِيكَ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، يعني بذلك : إِنَّ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُ أَنْتَ ، وَمَنْ تُسَالِمُهُ وَتُتَارِكُهُ الْحَرْبُ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِكَ ، عِنْدَ عَقْدِ السَّلْمِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، وَمَا يَشْتَرِطُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ عَلَى صَاحِبِهِ مِنَ الشُّرُوطِ ، الْعَلِيمُ بِمَا يُضْمِرُهُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لِلْفَرِيقِ الْآخَرَ مِنَ الْوَفَاءِ بِمَا عَاقَدَهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ الْمُضْمِرُ ذَلِكَ مِنْكُمْ فِي قَلْبِهِ ، وَالْمُنْطَوِي عَلَى خِلَافِهِ لِمَا يَصَاحِبُهُ)) .

إنَّ الحرب في الإسلام هي الاستثناء لا القاعدة ، وهي حالة مؤقتة لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح عبر استئصال الشر ، وتعميم الخير . والنبي ﷺ يُحَارِبُ بِكَرَامَةِ وَعِزَّةٍ ، وَيُسَالِمُ بِشَمُوحٍ وَثِقَةٍ . فالسلام والحرب في حياة النبي ﷺ إنما هما تنفيذ للأوامر الإلهية لا الاستجابة لخطوط النفس . ولا يخفى أنَّ قرار الحرب والسلام مُرتبط بمصلحة الأمة المُحمَّدية الإسلامية ، فأحياناً تكون المصلحة واضحة في الحرب ، لأن السلام طريقه مسدود ولا يُؤدِّي إلى نتائج ، وأحياناً تكون المصلحة في السلام إذا عَجَزَتِ الْأُمَّةُ عَنِ حَوْضِ الْحُرُوبِ ، وكان السلام يُحَقِّقُ لَهَا أَهْدَافَهَا . وهذا الأمر تُحدِّده القيادة الدينية والقيادة السياسية معاً .

وعن عليِّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ السَّلْمَ فَافْعَلْ))^{٤٩} .

سَيُوجَدُ وَيَتَحَقَّقُ بَعْدِي اخْتِلَافٌ أَوْ أَمْرٌ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ يَا عَلِيُّ أَنْ تُطَبِّقَ السَّلَامَ ، وَتُحَقِّقَ الصُّلْحَ ، فَافْعَلْ ذَلِكَ . وَهَذَا أَمْرٌ بِأَنْ يَسْعَى فِي الصُّلْحِ مَهْمَا أَمَكْنَ .

وقال الله تعالى : ﴿ دَعُواهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يُونُسُ : ١٠] . قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ دَعَاؤُهُمْ فِي الْجَنَّةِ : اللَّهُمَّ إِنَّا نُسَبِّحُكَ تَسْبِيحًا ، أَي : نُقَدِّسُكَ وَنُنَزِّهُكَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِكَ .

٤٩ رواه أحمد في مسنده (٩٠ / ١) ، وقال مُحَقِّقُ الْكِتَابِ : إسناده ضعيف . وقال الهيثمي في المجمع (٤٧٣ / ٧) : ((رواه عبد الله _ يعني ابن الإمام أحمد _ ، ورجاله ثقات)) .

و" اللهم " نداء لله تعالى ، أي إنهم يدعون الله بقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، تعظيماً لله ، وتقديساً له ، واستمتاعاً بذكره وتلذذاً بدعائه ، وليس المعنى أنهم مكلفون بأداء العبادة ، لأن الجنة مكان للاستمتاع واللذة ، أما الدنيا فهي دار التكليف وأداء العبادات والطاعات .

ويحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، وقيل : تحية الملائكة لهم بالسلام . وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين . أي إنهم يفتتحون كلامهم بالتسبيح ، ويختتمونه بالتحميد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠ / ٤) : ((قوله تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا ﴾ ، أي : دعواؤهم . وفي المراد بهذا الدعاء قولان : أحدهما أنه استدعاؤهم ما يشتهون . قال ابن عباس : كلما اشتهى أهل الجنة شيئاً ، قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، فيأتيهم ما يشتهون ، فإذا طعموا ، قالوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فذلك آخر دعواؤهم . وقال ابن جريج : إذا مرَّ بهم الطيرُ يشتهونه ، قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، فيأتيهم الملكُ بما اشتهوا ، فيسلم عليهم ، فيردون عليه ، فذلك قوله : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ، فإذا أكلوا حمداً ربه ، فذلك قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . والثاني أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به ، قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، قاله قتادة . قوله تعالى : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنها تحية بعضهم لبعض ، وتحية الملائكة لهم ، قاله ابن عباس . والثاني أن الله تعالى يحييهم بالسلام . والثالث أن التحية الملك ، فالمعنى ملكهم فيها سالم ، ذكرهما الماوردي . قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ ﴾ ، أي : دعواؤهم ، وقولهم : ﴿ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الزجاج : أعلم الله أنهم يبتدون بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختتمون بشكره والثناء عليه . وقال ابن كيسان : يفتتحون كلامهم بالتوحيد ، ويختتمونه بالتوحيد)) .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢١٨٠) أن النبي ﷺ قال عن أهل الجنة : ((يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ)) .

الإلهام : إلقاء شيء في النفوس يبعث على فعل شيء أو تركه . إن المؤمنين في الجنة يجري تسبيحهم وتحميدهم مع الأنفاس ، كما يلهم الناس في الدنيا النفس ، فلا يقع فيه تعب ولا مشقة ، كما لا يتعب الناس في الدنيا من التنفس . ولا يشغلهم عن التسبيح والتحميد شيء ، كالملائكة ، أو إن التسبيح والتحميد يصير صفة لازمة لا ينفكون عنها ، كالتنفس اللازم للإنسان . ولا يخرج منهم نفس إلا مقرراً بذكر الله وشكره ، لأن قلوبهم امتلأت بحمده الله تعالى ، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره والتسبيح والتحميد ليسا تكليفاً إلزامياً ، ولكن الله بفضله وكرمه يوفق المؤمنين لهما .

وقال الحافظ في الفتح (٣٢٦ / ٦) : ((وَوَجْهَ التَّشْبِيهِ أَنَّ تَنَفُّسَ الْإِنْسَانِ لَا كُلْفَةَ عَلَيْهِ فِيهِ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ، فَجَعَلَ تَنَفُّسَهُمْ تَسْبِيحًا ، وَسَبِيَهُ أَنَّ قُلُوبَهُمْ تَنَوَّرَتْ بِمَعْرِفَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ ، وَامْتَلَأَتْ بِحُبِّهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٤٣٣ / ٢) : ((يعني : لا يَتَعَبُونَ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ ، كَمَا لَا تَتَعَبُونَ أَنْتُمْ مِنَ التَّنَفُّسِ ، ... ، وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ تَنَوَّرَتْ بِمَعْرِفَتِهِ ، وَأَبْصَارُهُمْ تَنَعَّمَتْ بِرُؤْيَتِهِ ، وَغَمَّرَتْهُمْ سِوَابِغِ نِعْمَتِهِ ، فَامْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ بِمَحَبَّتِهِ ، وَأَلْسِنَتُهُمْ مُلَازِمَةٌ لِذِكْرِهِ ، رَهِينَةٌ لِشُكْرِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرِّعْدُ : ٢٤] .
تَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُهَيَّئِينَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَتَقُولُ لَهُمْ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ ، سَلِّمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الْآفَاتِ الَّتِي كُنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْهَا ، وَنَجِّكُمْ مِنَ الْمِحْنِ الَّتِي كُنْتُمْ تَقْلَقُونَ مِنْهَا ، وَأَنْقِذَكُم مِنَ الْعَذَابِ ، بِسَبَبِ صَبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالتَّزَامِ أَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الشَّهَوَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى رِضَا اللَّهِ وَنَيْلِ جَنَّتِهِ . فَنِعْمَ هَذِهِ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ ، أَي : فَنِعْمَ دَارُ الْجَنَّةِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٦٥ / ٩) : ((﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، أَي يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . فَأُضْمِرَ الْقَوْلُ ، أَي : قَدْ سَلِّمْتُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمِحْنِ . وَقِيلَ : هُوَ دُعَاءٌ لَهُمْ بِدَوَامِ السَّلَامَةِ وَإِنْ كَانُوا سَالِمِينَ ، أَي : سَلِّمَكُمُ اللَّهُ ، فَهُوَ خَيْرٌ مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ ، وَيَتَضَمَّنُ الْإِعْتِرَافَ بِالْعُبُودِيَّةِ ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ ، أَي : بِصَبْرِكُمْ ، ف (مَا) مَعَ الْفِعْلِ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ ، وَالبَاءُ فِي ﴿ بِمَا ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَعْنَى ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وَبِجُوزِ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَحْذُوفٍ ، أَي : هَذِهِ الْكِرَامَةُ بِصَبْرِكُمْ ، أَي : عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . وَقِيلَ : عَلَى الْفَقْرِ فِي الدُّنْيَا ، قَالَهُ أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ . وَقِيلَ : عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٢٥ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . قَالَ الرَّجَّاحُ : أُضْمِرَ الْقَوْلُ هَاهُنَا ، لِأَنَّ فِي الْكَلَامِ دَلِيلًا عَلَيْهِ . وَفِي هَذَا السَّلَامِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ التَّحِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ ، يَدْخُلُ الْمَلِكُ فِيهِ سَلَامًا وَيَنْصَرِفُ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَفِي قَوْلِ الْمُسْلِمِ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ السَّلَامَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالمَعْنَى : اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، أَي : عَلَى حِفْظِكُمْ . وَالثَّانِي أَنَّ المَعْنَى السَّلَامَةَ عَلَيْكُمْ ، فَالسَّلَامُ جَمْعُ سَلَامَةٍ . وَالثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهُ إِنَّمَا سَلِّمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَشَرِّهَا بِصَبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا . وَفِيمَا صَبَرُوا عَلَيْهِ خَمْسَةٌ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ ،

قاله سعيد بن جبیر . والثاني فضول الدنيا ، قاله الحسن . والثالث الذين . والرابع الفقر ، رويًا عن أبي عمران الجوني . والخامس أنه فقد المحبوب ، قاله ابن زيد) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ أوَّلَ ثلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ ، الَّذِينَ تُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ ، إِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا ، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى السُّلْطَانِ ، لَمْ تُفْضَلْ لَهُ حَتَّى يَمُوتَ وَهِيَ فِي صَدْرِهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَرَبِّهَا فَيَقُولُ : أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي ؟ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ . فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ، فَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آتَرْتَهُمْ عَلَيْنَا ؟ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ _ تَبَارَكَ وَتَعَالَى _ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي ، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)) ° .

إنَّ أوَّلَ جماعةٍ مِنَ النَّاسِ (ثَلَاثَةٌ) يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، هُمُ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ (الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ) ، بِسَبَبِ تَضَحِيَّتِهِمْ الْعَظِيمَةِ مِنْ أَجْلِ رَفْعِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الْخَالِدَةِ ، فَهَؤُلَاءِ أوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِنْجَازَاتِهِمْ الْجَلِيلَةِ ، وَتَحَمُّلِهِمْ لِلْعَذَابِ وَالصَّعَابِ ، وَتَضَحِيَّتِهِمْ بِالْغَالِي وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى .

وهذا يدلُّ على المنزلة الرفيعة للمهاجرين ، حيث إنَّ لهم فضلًا عظيمًا عند الله ، وأهميةً كبيرةً عند النبي ﷺ . وقد بشرهم النبي ﷺ بالأجر والثواب ، وأعلمهم بما لهم من مكانة جلييلة عند الله تعالى ، والمُجَازَاة لهم بالسَّبق إلى دُخُولِ الْجَنَّةِ .

وهؤلاء المؤمنون الصادقون (الفقراء المهاجرون) دائمةً في الصفوف الأمامية (المُقَدِّمَةِ) ، يَدْفَعُونَ وَيُدْفَعُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ . إنهم الجنود في الخطوط الأمامية ، الَّذِينَ يَحْمُونَ الْآخِرِينَ ، وَيُحْتَمَى بِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ . وهذا معنى " تُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ " .

والواحدُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا أُمِرَ أَنْ يَخْرُجَ لِلْجِهَادِ ، أَوْ أَنْ يُسَافِرَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، سَمِعَ وَأَطَاعَ بِلَا نِقَاشٍ ، وَخَضَعَ لِلْأَمْرِ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اسْكُتْ ، سَكَتَ . فهو فقير ليس من القادة العسكريين ولا أصحاب الرأى ، ولا من كبار القوم الذين يُصْدِرُونَ الأوامرَ . إنَّه مِنْ صِغَارِ الْقَوْمِ ، يَتَلَقَّى الأوامرَ ، وَيَخْضَعُ لَهَا ، سِوَاءً فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ .

٥٠ . رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٨١) برقم (٢٣٩٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا الفقيرُ تكون له حاجة إلى الأمير أو الحاكم ، ولكن بسبب فقره أو مكانته الاجتماعية المُتدنية، لا يُعبأ به، ولا يُلتفت إليه، ولا تُقضى حاجته، فيموت وحاجته في صدره، لأنه لم يستطع الحصولَ عليها . وتأتي المكافأة العظيمة لهؤلاء يوم القيامة ، فيدعو اللهُ الجنةَ ، فتأتي بزینتها الخالدة، وجمالها الأخاذ ، وريِّها (حالها الحسنَة) ، ويُدخلهم اللهُ الجنةَ بلا حساب ولا عذاب ، وقد قدّمهم اللهُ على الملائكة . وسؤال الملائكة للاستفهام ، وليس الكبر ، فالملائكة معصومون عن الصفات السيئة . وتدخل الملائكة عليهم لتهنئتهم بالثواب العظيم ، فيسألون عليهم بما صبروا على الفقر في الدنيا، وقيل: على الجهاد، وقيل: على ملازمة الطاعة ومُفارقة المعصية، وقيل: على تركهم الشهوات . وإذا أفقر الله العبد ، فلا يئأس ، ولا يحزن ، ولا يحسد غيره ممن آتاه الله مالا . والمالُ نعمة عظيمة من الله تعالى ، فإذا تقوى به العبدُ على طاعة الله وعمَل الخير ، كان نعمةً ، وإذا تقوى به على معاصي الله تعالى ، كان نعمةً .

وفي الحديث منقبة عظيمة لفقراء المهاجرين الأولين .

وهذا الحديث يدعو إلى الصبر ، والتحمل ، والثبات على الحق، والنزاهة وأوامر الله ، واجتناب نواهيه ، والجهاد في سبيل الله بكل يقين وإصرار ، لأن هذه الأمور تُقود المؤمن إلى الجنة ، والخلود فيها ، والاستمتاع بزخرفها وحسنها وجمالها وزينتها . ومهما عانى المؤمن في الدنيا ، ولقي الشدائد والمصائب في سبيل الله تعالى ، مُخلصاً له ، طالباً لرضاه ، فهو على خير عظيم ، والموتُ فقط يفصله عن نيل رضا الله وجنته . والشجاعة صبر ساعة . والصبر مفتاح الفرج .

وقال الله تعالى : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم : ٦٢] .

لا يسمع المؤمنون في الجنة كلاماً تافهاً أو قولاً قبيحاً أو عبارات باطلة ، كما قد يوجد في الدنيا ، ولكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام .

والاستثناء في الآية منقطع ، ومعناه : ولكن يسمعون سلاماً ، وهو تحية الملائكة إيّاهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١١٦ / ١١) : ((﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ ، أي : في الجنة . واللغو معناه : الباطل من الكلام ، والفحش منه ، والفُضول ، وما لا يُنتفع به قال ابن عباس : اللغو كلُّ ما لم يكن فيه ذكرُ الله تعالى ، أي : كلامهم في الجنة حمدُ الله وتسيبته ﴾ إلا سلاماً ﴾ ، أي : لكن يسمعون سلاماً ، فهو من الاستثناء المنقطع ، يعني : سلام بعضهم على بعض ، وسلام الملك عليهم ، قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير ، والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يُحبون)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .
 إنّ عباد الله المؤمنين الصالحين هم نُخبة المجتمع ، وسادة الناس ، وأشرافهم ، يتحملون
 تفاهة الجهّال وسفاهتهم وكلامهم السيئ ، ويصفحون عنهم ، ولا يزدنون الإساءة بالإساءة ، وإنما
 يقولون لهم كلامًا جميلًا طيبًا يرفق ولين . وبعبارة أخرى ، إذا خاطبهم الجاهلون السفهاء بما
 يكرهونه ، قالوا لهم قَوْلًا لَيِّنًا يَسْلُمُونَ فيه من الإثم ، وَيَنْجُونَ من أذاهم وشَرِّهم .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠١/٦) : ((﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ،
 أي : سَدَادًا . وقال الحسن : لا يَجْهَلُونَ على أحد ، وإن جَهِلَ عليهم حَلِمُوا . وقال مقاتل بن حَيَّان
 قالوا : سَلَامًا ، أي قَوْلًا يَسْلُمُونَ فيه من الإثم . وهذه الآية مُحْكَمَةٌ عند الأكثرين ، وزعم قوم أن
 المراد بها أنهم يقولون للكفار : ليس بيننا وبينكم غير السلام ، ثم نُسِخَتْ بآية السَّيْفِ)) .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٤٣٣ / ٣) : ((﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أي :
 إذا سَفِهَ عليهم الجُهَّال بالقول السيئ لم يُقابلوهم عليه بمِثْلِهِ ، بل يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ، ولا يقولون
 إلا خَيْرًا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شِدَّةُ الجاهل عليه إلا حِلْمًا)) .
 وما أجمل قول الإمام الشافعي :

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ فُجْحٍ فَأُكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبًا
 يَزِيدُ سَفَاهَةً وَأَزِيدُ حِلْمًا كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طِيبًا

وقال الله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .
 تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللَّهَ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ . أي إنّ الله يُسَلِّمُ عليهم ، أو تكون تَحِيَّةُ
 الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ هِيَ السَّلَامُ . والسَّلَامُ أَمَانٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وإِخْبَارٌ
 بِالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ ، وَالنَّجَاةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ ، وَتَسْلِيمٌ لَهُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ .
 وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ١٧٦) : ((اخْتُلِفَ فِي الضَّمِيرِ الَّذِي فِي ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ عَلَى
 مَنْ يَعُودُ . فَقِيلَ : عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، أَي كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ، فَهُوَ يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، وَ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أَي : تَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ﴿ سَلَامٌ ﴾ ، أَي سَلَامَةٌ لَنَا وَلَكُمْ
 مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : هَذِهِ التَّحِيَّةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . الْمَعْنَى : فَيُسَلِّمُهُمْ مِنَ الْآفَاتِ ، أَوْ يُشَرِّهُمُ
 بِالْأَمْنِ مِنَ الْمَخَافَاتِ ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، أَي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ ، قَالَ مَعْنَاهُ الرَّجَاحُ)) .

وهيأ الله لهؤلاء المؤمنين أجراً حسناً ، وثواباً كريماً على طاعتهم إياه في الدنيا ، وهو الجنة ، وما فيها من النعيم الدائم ، والسعادة المستمرة ، وما تشتهيهِ أنفسهم ، وتلذذه أعينهم . وهذا يدل على رحمة الله بالمؤمنين ، وتفضله عليهم ، وإحسانه إليهم ، وعنايته بهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٥٣) : ((وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعني : الجنة ، وما فيها من المأكِل ، والمشَارِب ، والملابس ، والمساکن ، والمناکح ، والملاذ ، والمنظر ، ممَّا لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطرَ على قلب بشر)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٩٨ و ٣٩٩) : ((قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ الهاء والميم كناية عن المؤمنين . فأما الهاء في قوله : ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ففيها قولان : أحدهما أنها ترجع إلى الله عزَّ وجلَّ ، ثمَّ فيه ثلاثة أقوال : أحدها أن معناه تَحِيَّتُهُمْ مِنْ اللَّهِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ . وروى صهيب عن النبي ﷺ : " أَنَّ اللَّهَ يُسَلِّمُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ " . والثاني تحيتهم من الملائكة يوم يلقون الله سلام ، قاله مقاتل . وقال أبو حمزة الثمالي : تُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وتُبَشِّرُهُمْ بِمُخْرَجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ . والثالث تحيتهم بينهم يوم يلقون ربهم سلام ، وهو أن يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . والقول الثاني أن الهاء ترجع إلى ملك الموت ، وقد سبق ذكره في ذكر الملائكة . قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن ، قال له : رَبُّكَ يُفْرِنُكَ السَّلَامَ . وقال البراء بن عازب في قوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، قال : ملك الموت ، ليس مؤمن يقبض روحه إلا سلم عليه ، فأما الأجر الكريم فهو الحسن في الجنة)) .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه : _ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ ، قال : ((يَوْمَ يَلْقَوْنَ مَلَكَ الْمَوْتِ ، لَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ يَقْبِضُ رُوحَهُ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ))^{٥١} .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴾ [الرُّم: ٧٣] . وقال للمؤمنين خُرَّاسُ الْجَنَّةِ : سلام عليكم أيها المتقون الأبرار ، أو سلام لكم من كل آفة ومكروه ، كنتم طيبين في الدنيا ، طهَّرتُم فيها ، فلم تندنسوا بالذنوب والمعاصي والكفر . أو طبتُم بطاعة الله والعمل الصالح ، وطابت أفعالكم وأفعالكم ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم ، فادخلوا الجنة دار الخلود ، ماكثين فيها أبداً . والمعنى العام : طابت أعمالكم في الدنيا ، فطاب متواكم في الجنة .

٥١ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٣) برقم (٣٣٤٠) وصحَّحه ، وقال الذهبي عَنِّيهِ : ((عبد الله ابن واقد ، قال ابن عدي : مُظْلِمُ الْحَدِيثِ . ومحمد بن مالك ، قال ابن جبان : لا يُجْتَنَبُ بِهِ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٨٠/١): ((«وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ، لا يعترِبكم بَعْدَ مَكْرُوهِ «طِبْتُمْ» طَهَّرْتُمْ مِنْ دَنَسِ الْمَعَاصِي «فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ فِيهَا. وَالْفَاءُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ طَيْبَهُمْ سَبَبٌ لِدُخُولِهِمْ وَخُلُودِهِمْ، وَهُوَ لَا يَمْنَعُ دُخُولَ الْعَاصِي بَعْفُوهُ لِأَنَّهُ مُطَهَّرُهُ)) .
 وقال القرطبي في تفسيره (٢٥٠ / ١٥) : ((« سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ » ، أي : في الدُّنْيَا .
 قال مُجَاهِدٌ : بِطَاعَةِ اللَّهِ . وَقِيلَ : بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، حَكَاهُ النَّقَّاشُ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ :
 إِذَا قَطَعُوا جِسْرَ جَهَنَّمَ حَبِسُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ
 بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُدِّبُوا وَطِيبُوا ، قَالَ لَهُمْ رِضْوَانُ وَأَصْحَابُهُ : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » بِمَعْنَى
 التَّحِيَّةِ ، « طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ »)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ [الواقعة : ٢٥] .

يُبين الله كمالَ نعيمِ المؤمنين في الجنة ، حيث إنهم لا يسمعون فيها كلامًا فاحشًا ، ولا باطلاً ،
 ولا كذبًا ، ولا ما يُوقِع في الإثم .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢١٣ / ٥) : ((اللغو : الباطل من الكلام ، والتأنيب النسبة
 إلى الإثم . قال مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : لَا يُؤْتَمُّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَا يَسْمَعُونَ شَتْمًا وَلَا مَائِمًا ،
 وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ لَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ : أَثِمْتَ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا فِيهِ إِثْمٌ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة : ٢٦] .

إلا قول بعضهم لبعض: سلامًا سلامًا. أي: اسلمم مما تكره. يُحَيِّي بعضهم بعضًا بالسلام، ويُفَشِّونَ
 السَّلامَ بَيْنَهُمْ ، فَيَسَلِّمُونَ سَلَامًا بَعْدَ سَلَامٍ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا تَحِيَّةَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ .

والاستثناء في الآية منقطع لأنَّ السَّلام لا يندرج في اللغو ولا التأنيب . وقال ابن كثير في
 تفسيره (٣٦٣ / ٤) : ((« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) » ،

أي : لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا ، أي : عَبَثًا خَالِيًا مِنَ الْمَعْنَى ، أَوْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَعْنَى حَقِيرٍ
 أَوْ ضَعِيفٍ ، كَمَا قَالَ : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] ، أي : كَلِمَةً لَاغِيَةً « وَلَا تَأْتِيهَا »
 أي : وَلَا كَلِمًا فِيهِ قُبْحٌ ، « إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا » ، أي : إِلَّا التَّسْلِيمَ مِنْهُمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] ، وَكَلَامَهُمْ أَيْضًا سَلَامٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالْإِثْمِ)) .

وقال الصابوني في صفوة التفاسير (٤٢ / ١٧) : ((تَأْكِيدُ الْمَدْحِ بِمَا يُشْبِهُ الدَّمَّ : ﴿ لَا
 يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) ﴾ ، لِأَنَّ السَّلامَ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ
 اللَّغْوِ وَالتَّأْيِيبِ ، فَهُوَ مَدْحٌ لَهُمْ بِإِفْشَاءِ السَّلامِ ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ : لَا ذَنْبَ لِي إِلَّا مَحَبَّتُكَ)) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الْفَتْح: ٢٩].
 إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدِ اخْتَارَهُ اللَّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا ، كَمَا اخْتَارَ لَهُ أَصْحَابَهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ حَمَلُوا الدَّعْوَةَ
 الْإِسْلَامِيَّةَ فِي شَتَّى بِقَاعِ الْأَرْضِ . وَهَؤُلَاءِ الْأَصْحَابُ الْكِرَامُ يَمْتَازُونَ بِالْإِيمَانِ الرَّاسِخِ ، وَالْأَخْلَاقِ
 الْحَمِيدَةِ ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ، وَالْمَزَايَا الْكَثِيرَةِ . وَقَدْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ ،
 وَوَعَدُ اللَّهُ وَاقِعَ لَا مَحَالَةَ ، وَلَا يَتَخَلَّفُ ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ وَقْتِهِ .

بَدَأَ اللَّهُ بِذِكْرِ اسْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ تَعْظِيمًا لِقَدْرِ
 هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ . فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا ، وَلَيْسَ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ . فَإِنَّ كَذِّبَهُ النَّاسُ ،
 فَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَادِقٌ ، وَيَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُهُ .

وَالَّذِينَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ هُمُ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ الَّذِي يَسِيرُونَ عَلَى خُطَاهِ ، وَيَحْمِلُونَ دَعْوَتَهُ إِلَى
 الْعَالَمِ ، قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ عَلَى الْكُفَّارِ أَعْدَاءِ الدِّينِ ، بِسَبَبِ عِدَاوَتِهِمْ لِلْحَقِّ ، وَمُحَارَبَتِهِمْ لِثُورِ الْإِيمَانِ ،
 لَكِنَّهُمْ أَصْحَابُ قُلُوبٍ رَقِيْقَةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ .
 وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ : الشَّدَّةُ عَلَى الْكُفَّارِ ، وَالرَّحْمَةُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ . فَهُمْ غَلَاظٌ عَلَى الْكُفَّارِ ، كَمَا
 يَغْلُظُ الْأَسَدُ عَلَى فَرِيْسَتِهِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِيْمَهُمْ رَأْفَةٌ ، لَكِنَّهُمْ مُتَعَاظِفُونَ وَرُحَمَاءُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، كَالْوَالِدِ
 مَعَ الْوَالِدِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُ : يَغْلُظُونَ عَلَى مَنْ خَالَفَ دِيْنَهُمْ ، وَيُظْهِرُونَ لَهُ الْقَسْوَةَ وَالشَّدَّةَ وَالصَّلَابَةَ ،
 وَيَتْرَاحُمُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَعْطِفُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ . إِنَّهُمْ يُنْفَذُونَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، حَيْثُ أَمَرَ هُمْ
 بِالْعِلَظَةِ عَلَى الْكُفَّارِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التَّوْبَةُ : ١٢٣] . أَي : شِدَّةُ
 وَحَمِيَّةٌ وَخُشُوْنَةٌ وَبَاسًا وَصَبْرًا عَلَى جِهَادِهِمْ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ تَشَدُّدِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْتَعِدُونَ عَنْهُمْ لِئَلَّا يَحْدُثَ تَلَامُسٌ بَيْنَهُمْ ،
 فِي حِيْنٍ أَنَّهُمْ يُصَافِحُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُعَانِقُونَهُمْ . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيْرِهِ (٤ / ١٥٩) : ((وَبَلَغَ
 مِنْ تَشَدُّدِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّزُونَ مِنْ ثِيَابِهِمْ أَنْ تَلْرَقَ بِثِيَابِهِمْ ، وَمِنْ أَبْدَانِهِمْ أَنْ تَمَسَّ
 أَبْدَانَهُمْ ، وَبَلَغَ مِنْ تَرْحُمِهِمْ فِيْمَا بَيْنَهُمْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى مُؤْمِنًا إِلَّا صَافِحَهُ وَعَانِقَهُ)) .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيْرِهِ (١١ / ٣٦٩) : ((﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَتْبَاعُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ مَعَهُ عَلَى
 دِيْنِهِ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ غَلِيْظَةٌ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ ، قَلِيْلَةٌ بِهِمْ رَحْمَتُهُمْ ، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، يَقُولُ :
 رَقِيْقَةٌ قُلُوبٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، لِيْنَةٌ أَنْفُسُهُمْ لَهُمْ ، هَيْئَةٌ عَلَيْهِمْ لَهُمْ)) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى))^{٥٢} .
 إن المؤمنين يرحم بعضهم بعضًا بأخوة الإسلام ، ويتواصلون فيما بينهم ، لأن تواصلهم جالب للمحبة كالتزاور والتهادي ، ويتعاطفون بأن يعين بعضهم بعضًا . وهم بذلك يكونون كمثل الجسد بالنسبة إلى جميع أعضائه ، إذا اشتكى عضوًا دعا بعض الجسد بعضًا إلى المشاركة بالسهر لأن الألم يمنع النوم ، والحمى لأن فقد النوم يثيرها .

والمعنى : إن المسلمين يستشعرون آلام بعضهم ومصائبهم بالعمى وتقديم المساعدة لبعضهم البعض ، وينبغي أن يكونوا كذلك في جميع شؤونهم ، ويتعاونون فيما بينهم في كل القضايا ، ويهتمون ببعضهم البعض في الأمور الصغيرة والكبيرة على حد سواء .

والحديث يُنبه على ضرورة المؤاخاة والألفة والمواساة بين المؤمنين ، وأن يكونوا متكاتفين مثل الجسد الواحد ، ومثل البنيان المرصوص . وهذا يؤدي إلى تقوية وحدتهم ، واجتماع كلمتهم . وقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى ما ينشئ فيهم التراحم والمودة والتعاطف والمحبة ، وهذا يدل على حرص النبي ﷺ على أمته ، وإخلاصه في الدعوة ، وبيان الأمور التي تؤدي إلى الخير والمصلحة ، والتحذير من الأمور التي تؤدي إلى الشر والمفسدة .

والتشبيه وضرب الأمثال من أجل تقريب المعاني إلى العقول ، وتوضيح الصورة في الأذهان ، وربط الأجزاء بعضها ببعض من أجل اكتمال المشهد .

إن المؤمنين جسد واحد ، يتعاونون فيما بينهم لأداء الوظائف الحيوية في المجتمع ، وأي خلل في أي جزء من هذه المنظومة سوف يؤثر على المنظومة بشكل كامل . والمؤمنون وحدة واحدة ، يساعد الغني الفقير ، ويهتم القوي بالضعيف ، ويعلم العالم الجاهل ، ويحترم الصغير الكبير ، ويعطف الكبير على الصغير ... إلخ . وإذا تعرض مؤمن لمشكلة ما ، فعلى جميع المؤمنين الوقوف إلى جانبه بالقول والفعل ، ومساعدته من أجل حل هذه المشكلة . فالمجتمع الإيماني كله في سفينة واحدة ، إما النجاة معًا أو الهلاك معًا .

وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٤٣٩ و ٤٤٠) : ((قال ابن أبي جمرة : الذي يظهر أن التراحم والتوادد والتعاطف ، وإن كانت متقاربة في المعنى ، لكن بينها فرق لطيف ، فأما التراحم

٥٢ متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٢٣٨) برقم (٥٦٦٥) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٩) برقم (٢٥٨٦) .

فالمُرَاد به أن يَرَحَمَ بعضُهُم بعضًا بِأُخُوَّةِ الإِيمَانِ لا بسبب شيءٍ آخَرَ ، وَأَمَّا التَّوَادُّدُ فالمُرَادُ به التَّوَادُّلُ الجَالِبُ لِلْمَحَبَّةِ كالتزاور والتهادي ، وَأَمَّا التَّعَاطُفُ فالمُرَادُ به إعانة بعضهم بعضًا ، كما يَعْطِفُ الثَّوْبَ عَلَيْهِ لِيُقَوِّيه . اهـ مُلَخَّصًا قَوْلُهُ : " كَمَثَلِ الجَسَدِ " أي بالنسبة إلى جميع أعضائه . ووجه التشبيه فيه التوافق في التعب والراحة . قَوْلُهُ : " تداعى " أي دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : تداعت الحيطان ، أي : تساقطت أو كادت . قَوْلُهُ : " بالسَّهَرِ والحُمَّى " ، أَمَّا السَّهَرُ فَلأنَّ الألمَ يَمْنَعُ النَّوْمَ ، وَأَمَّا الحُمَّى فَلأنَّ فَقْدَ النَّوْمِ يُثِيرُهَا . وَقَدْ عَرَّفَ أَهْلُ الحَدِيقِ الحُمَّى بِأنها حرارة غريزية تشتعل في القلب ، فَتَشْبُ مِنْهُ فِي جَمِيعِ البَدَنِ ، فَتَشْتَعِلُ اشتعالًا يَضُرُّ بالأفعال الطبيعية . قال القاضي عياض : فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح ، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية ، وفيه تعظيم حقوق المسلمين ، والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضًا . وقال ابن أبي جمرة : شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الإِيمَانَ بالجسد ، وَأَهْلَهُ بالأعضاء ، لِأَنَّ الإِيمَانَ أَصْلَ ، وَفُرُوعَهُ التَّكْلِيفَ ، فَإِذَا أَحَلَّ المَرْءُ بِشيءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ شَأْنَ ذَلِكَ الإِخْلَالَ الأَصْلَ ، وَكَذَلِكَ الجَسَدُ أَصْلُ كَالشَّجَرَةِ ، وَأَعْضَاؤُهُ كالأَغْصَانِ ، فَإِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنَ الأَعْضَاءِ اشْتَكَّتْ الأَعْضَاءُ كُلُّهَا ، كَالشَّجَرَةِ إِذَا ضُرِبَ عُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهَا ، اهْتَزَّتْ الأَغْصَانُ كُلُّهَا بِالتَّحْرُكِ وَالاضطراب)) .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البَلَد: ١٧] .
 إِنَّ العِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ لَا تَنْفَعُ إِلا مَعَ الإِيمَانِ ، لِأَنَّ الإِيمَانَ شَرْطُ قَبُولِ الأَعْمَالِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى التَّرَابِطِ الحَتْمِيِّ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ . وَالمُؤْمِنُونَ العَامِلُونَ الصَّالِحُونَ المُصْلِحُونَ يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى الإِيمَانِ ، وَطَاعَةِ اللهِ ، وَبِالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَالمَسَاكِينِ .
 وَقَالَ القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠ / ٦٤) : ((﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ، أَي : أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَعَنْ مَعَاصِيهِ ، وَعَلَى مَا أَصَابَهُمُ مِنَ البَلَاءِ وَالمَصَائِبِ ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ، أَي : بِالرَّحْمَةِ عَلَى الخَلْقِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، رَحِمُوا اليَتِيمَ وَالمَسْكِينِ)) .
 وَقَالَ النُّعَالِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٤١٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ مَعْنَاهُ : عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَبِلَائِهِ وَقَضَائِهِ ، وَعَنْ الشَّهَوَاتِ وَالمَعَاصِي . وَالمَرْحَمَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ مَا يُؤَدِّي إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ التَّرَاحِمُ وَالتَّعَاطُفُ بَيْنَ النَّاسِ . وَفِي ذَلِكَ قِيَامُ النَّاسِ . وَلَوْ لَمْ يَتَرَاحَمُوا جُمْلَةً لَهَلَكُوا)) .

وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ : ((نَبِيُّ الرَّحْمَةِ)) [صحیح مسلم (٤ / ١٨٢٨)] .

لقد بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ، وَرَحْمَةً لِأُمَّتِهِ ، وَرَحِيمًا بِهِمْ ، وَمُسْتَغْفِرًا لَهُمْ ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ مَرْحُومَةً ، وَالْمُؤْمِنُونَ يَرْحَمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُمْ بِذَلِكَ كَيَانَ وَاحِدٌ ، وَمَصِيرُهُمْ وَاحِدٌ .
 وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥ / ١٠٦) : ((وَأَمَّا نَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ الْمَرْحَمَةِ ، فَمَعْنَاهَا مُتَقَارِبٌ ، وَمَقْصُودُهَا أَنَّهُ ﷺ جَاءَ بِالتَّوْبَةِ وَبِالتَّرَاحُمِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .
 وعن عبد الله بن عمرو قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ)) ٥٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْحَمُونَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ إِنْسَانٍ أَوْ حَيَوَانَ أَوْ طَيْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ، شَفَقَةً وَرَحْمَةً وَمُؤَاسَاةً ، يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَغْفِرُ لَهُمْ ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ، وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ . وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . ارْحَمُوا جَمِيعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَلْقِ ، يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .
 وفي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٣ / ١٩٤ و ١٩٥) : (((الرَّاحِمُونَ) أَي : لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ آدَمِيٍّ وَحَيَوَانَ لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ ، بِالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ (يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ) أَي : يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ، وَيُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ . وَالرَّحْمَةُ مُقَيَّدَةٌ بِاتِّبَاعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فِإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَالْإِنْتِقَامِ لِحُرْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُنَافِي كُلُّ مِنْهُمَا الرَّحْمَةَ (ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ) بِالْجَزْمِ جَوَابُ الْأَمْرِ (مَنْ فِي السَّمَاءِ) هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . وَفِي السَّرَاحِ الْمُنِيرِ : وَقَدْ رُوِيَ بِلَفْظِ : " ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ أَهْلُ السَّمَاءِ " وَالمُرَادُ بِأَهْلِ السَّمَاءِ الْمَلَائِكَةُ ، وَمَعْنَى رَحْمَتِهِمْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دُعَاؤُهُمْ لَهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ)) .
 وقال المباركفوري في تحفة الأحمدي (٦ / ٤٣) : (((ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ) ، قَالَ الطَّيْبِيُّ : أَتَى بِصِيغَةِ الْعُمُومِ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْخَلْقِ ، فَيَرْحَمُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَالنَّاطِقَ وَالْبَهِيمَ ، وَالْوُحُوشَ وَالطَّيْرَ . وَانْتَهَى . وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِبْرَادَ " مَنْ " لِتَغْلِيْبِ ذَوِي الْعُقُولِ لِشَرْفِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، أَوْ لِلْمُشَاكَلَةِ الْمُقَابَلَةِ بِقَوْلِهِ (يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وَهُوَ مَجْزُومٌ عَلَى جَوَابِ الْأَمْرِ ، أَي : اللَّهُ تَعَالَى . وَقِيلَ : الْمُرَادُ مَنْ سَكَنَ فِيهَا ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ)) .
 وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٤٢) : (((الرَّاحِمُونَ) لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ آدَمِيٍّ وَحَيَوَانَ لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ بِالشَّفَقَةِ ، وَالْإِحْسَانِ ، وَالْمُؤَاسَاةِ ، وَالشَّفَاعَةِ ، وَكَفِّ الظُّلْمِ ، ثُمَّ بِالتَّوَجُّعِ

٥٣ رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٢٣) برقم (١٩٢٤) ، وقال : ((حسن صحيح)) . وقال السيوطي في الدر المنثور (٧ / ٤٩٩) : أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصحاحه والبيهقي .

والتَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ ، والالتجاء إليه ، والدُّعَاءُ بِإِصْلَاحِ الْحَالِ ، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ (يَرْحَمُهُمْ) خَالِفُهُمْ (الرَّحْمَنُ) أَي : يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُفَضِّلُهُمْ عَلَيْهِمْ (اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ) أَي : مَنْ تَسْتَطِيعُونَ رَحْمَتَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ بِرَحْمَتِكُمُ الْمُتَجَدِّدَةِ الْحَادِثَةِ (يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) أَي : مَنْ رَحْمَتُهُ عَامَّةٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، أَوْ الْمُرَادُ أَهْلُ السَّمَاءِ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ رِوَايَةٌ : أَهْلُ السَّمَاءِ . قَالَ الْعَارِفُ الْبُونِيُّ : فَإِنْ كَانَ لَكَ شَوْقٌ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَكُنْ رَحِيمًا لِنَفْسِكَ وَلِغَيْرِكَ ، وَلَا تَسْتَبِدْ بِخَيْرِكَ ، فَارْحَمْ الْجَاهِلَ بِعِلْمِكَ ، وَالذَّلِيلَ بِجَاهِكَ ، وَالْفَقِيرَ بِمَالِكَ ، وَالْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ بِشَفَقَتِكَ وَرَأْفَتِكَ ، وَالْعَصَاةَ بِدَعْوَتِكَ ، وَالْبَهَائِمَ بِعَطْفِكَ وَرَفْعِ غَضَبِكَ ، فَأَقْرَبِ النَّاسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَرْحَمَهُمْ لِخَلْقِهِ ، فَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ خَيْرٍ ذَقَّ أَوْ جَلَّ فَهُوَ صَادِرٌ عَنْ صِفَةِ الرَّحْمَةِ قَالَ الْعَلَامَةُ أَقْضَى الْقَضَاةِ الْجَوْنِيِّ فِي يَنْبِيعِ الْعُلُومِ : حِكْمَةٌ إْتْيَانَهُ بِالرَّاحِمِينَ جَمْعُ رَاحِمٍ ، ذُونَ الرَّحْمَاءِ جَمْعُ رَحِيمٍ ، وَإِنْ كَانَ غَالِبَ مَا وَرَدَ مِنَ الرَّحْمَةِ اسْتِعْمَالَ الرَّحِيمِ لَا الرَّاحِمِ ، أَنَّ الرَّحِيمَ صِبْغَةٌ مُبَالَغَةٌ ، فَلَوْ عَبَّرَ بِجَمْعِهَا اقْتِضَاءُ الْاِقْتِصَارِ عَلَيْهِ ، فَعَبَّرَ بِجَمْعِ رَاحِمٍ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْعِبَادَ مِنْهُمْ مَنْ قَلَّتْ رَحْمَتُهُ ، فَيَصِحُّ وَصْفُهُ بِالرَّاحِمِ لَا الرَّحِيمِ ، فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ أُورِدَ عَلَى نَفْسِهِ حَدِيثٌ : " إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ " [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ] ، وَقَالَ : إِنَّ لَهُ جَوَابًا حَقُّهُ أَنْ يُكْتَبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ عَلَى صَفْحَاتِ الْقُلُوبِ ، وَهُوَ أَنَّ لَفْظَ الْجَلَالَةِ دَالٌ عَلَى الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ، وَلَفْظُ الرَّحْمَنِ دَالٌ عَلَى الْعَفْوِ بِالِاسْتِقْرَاءِ ، حَيْثُ وَرَدَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ لِيَكُونَ الْكَلَامُ مَسْئُوفًا لِلتَّعْظِيمِ ، فَلَمَّا ذُكِرَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ : " إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ " لَمْ يُنَاسِبْ مَعَهَا غَيْرَ ذِكْرِ مَنْ كَثُرَتْ رَحْمَتُهُ وَعَظُمَتْ ، لِيَكُونَ الْكَلَامُ جَارِيًا عَلَى نَسَقِ الْعَظَمَةِ ، وَلَمَّا كَانَ الرَّحْمَنُ يَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْعَفْوِ ، ذَكَرَ كُلَّ ذِي رَحْمَةٍ وَإِنْ قَلَّتْ)) .

وما أجمل قول القائل :

بَادِرٌ إِلَى الْخَيْرِ يَا ذَا اللَّبِّ مُغْتَنِمًا	وَلَا تَكُنْ مِنْ قَلِيلِ الْخَيْرِ مُحْتَشِمًا
وَأَشْكُرُ لِمَوْلَاكَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ نِعَمٍ	فَالشُّكْرُ يَسْتَوْجِبُ الْإِفْضَالَ وَالْكَرَمَا
وَأَرْحَمُ بِقَلْبِكَ خَلْقَ اللَّهِ وَارْعَهُمْ	فَإِنَّمَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ رَحِمَا

١٤_ الْمَوَدَّةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرُّومُ : ٢١] .

مِنْ عَلامَاتِ عَظَمَةِ اللَّهِ الخالقي ، وكمالِ قُدرته ، ودلائلِ حِكمته الباهرة ، أن خَلَقَ نِساءً آدَمِيَّاتٍ مِنْ نَفْسِ صِنْفِ الرِّجالِ وَجِنْسِهِمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُنَّ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ، وَذَلِكَ لِيَحْصُلَ السَّكَنُ والأُلُفةُ بدونَ نُفورٍ ، فَتستمر الحياةُ دونَ تناقضٍ ولا عوائقٍ . وَلَوْ جَعَلَ اللَّهُ الإناثَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ، مِنْ جِنِّ أَوْ حَيَوَانَ ، لَمَّا حَصَلَ الاِئتلافُ بَيْنَ الذُّكُورِ والإناثِ ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ التنافرُ والتباعدُ بَيْنَهُما ، وَهَذَا يَدُلُّ على رَحْمَةِ اللَّهِ بالناسِ ، وَفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ ، وإِحسانِهِ إِلَيْهِمْ .
والجدِيرُ بالذُّكرِ أَنْ حَوَّاءَ _ عليها السلام _ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ ﷺ ، وَسائِرُ النِّساءِ خُلِقْنَ مِنْ نَظْفِ الرِّجالِ .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٣١٢/٤): ((﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أَي : وَمِنْ عَلاماتِهِ وَدَلالاتِهِ الدَّالَّةُ على البِعثِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، أَي : مِنْ جِنْسِكُمْ فِي البُشريةِ والإِنسانيةِ . وَقِيلَ : المُرادُ : حَوَّاءَ ، فَإِنَّهُ خَلَقَهَا مِنْ ضِلْعِ آدَمَ)) .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٩٥ / ٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ، فِيهِ قَوْلانُ : أَحَدُهُما أَنَّهُ يَعْنِي بِذَلِكَ آدَمَ ، خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ . وَالثَّانِي أَنَّ المَعْنَى جَعَلَ لَكُمْ آدَمِيَّاتٍ مِثْلَكُمْ ، وَلَمْ يَجْعَلْهُنَّ مِنْ غَيْرِ جِنْسِكُمْ ، قاله الكلبي)) .

﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، أَي : لَتَمِيلُوا إِلَيْهِنَّ وَتَأَلَّفُوهُنَّ . وَالتَّجانُسُ سَبَبٌ للأُلُفةِ ، وَالاختلافُ سَبَبٌ للتنافرِ . وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٣١٢ / ٤) : ((﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، أَي : تَأَلَّفُوها وَتَمِيلُوا إِلَيْها ، فَإِنَّ الجِنْسَيْنِ المُختلِفَيْنِ لا يَسْكُنُ أَحَدُهُما إلى الآخَرَ ، وَلا يَمِيلُ قَلْبُهُ إلىهِ)) .
﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ، وَجَعَلَ اللَّهُ بَيْنَ الأزْواجِ وَالرِّوْجاتِ مَحَبَّةً وَشَفَقَةً ، حَيْثُ يُحِبُّ الرِّجُلُ امْرَأَتَهُ ، وَيُشْفِقُ عَلَيْهِ أَنْ يُصِيبَهَا بِسُوءٍ . وَالرِّوْجانُ يَتَوادَّانِ وَيَتَرَاحمانِ مِنْ غَيْرِ رَحِمٍ بَيْنَهُما ، وَلا مَعْرِفَةَ مُسَبِّقَةَ . وَقِيلَ : المَوَدَّةُ كِنَايَةٌ عَنِ الجِمَاعِ ، وَالرِّحْمَةُ عَنِ الوَلدِ . وَقِيلَ : المَوَدَّةُ لِلشَّابَّةِ ، وَالرَّحْمَةُ لِلعَجُوزِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ١٤) : ((﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . قال ابن عباس ومُجاهد : المَوَدَّةُ الجِمَاعُ ، وَالرَّحْمَةُ الوَلدُ ، وَقَالَ الحَسَنُ . وَقِيلَ : المَوَدَّةُ وَالرِّحْمَةُ عَطْفٌ قُلُوبِهِمْ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . وَقَالَ السُّدِّي : المَوَدَّةُ : المَحَبَّةُ ، وَالرَّحْمَةُ : الشَّفَقَةُ . وَرُوِيَ مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : المَوَدَّةُ حُبُّ الرِّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَالرِّحْمَةُ رَحْمَتُهُ إِياها أَنْ يُصِيبَهَا بِسُوءٍ . وَيُقَالُ : إِنَّ الرِّجُلَ أَصْلَهُ مِنَ الأَرْضِ ، وَفِيهِ قُوَّةُ الأَرْضِ ، وَفِيهِ الفَرْجُ الَّذِي مِنْهُ بُدِئَ خَلْقُهُ ، فَيَحْتَاجُ إلى سَكَنِ ،

وَحَلَقَتِ الْمَرْأَةَ سَكَنًا لِلرَّجُلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ [الرُّوم: ٢٠] الآية . وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، فأول ارتفاق الرَّجُلِ بالمرأة سكونه إليها ممَّا فيه من غَلِيَانِ الْقُوَّةِ ، وذلك أَنَّ الفَرْجَ إِذَا تَحَمَّلَ فِيهِ هَيْجَ مَاءِ الصُّلْبِ إِلَيْهِ ، فَإِلَيْهَا يَسْكُنُ ، وبها يتخلَّص من الهِيَاجِ ، وللرَّجَالِ خُلِقَ البُضْعُ مِنْهُنَّ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٦٦] ، فأعلمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّجَالَ أَنَّ ذَلِكَ المَوْضِعَ خُلِقَ مِنْهُنَّ لِلرَّجَالِ ، فعليها بَدَلُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَدْعُوهَا الزَّوْجُ ، فَإِنَّ مَنَعْتَهُ فِيهَا ظالمة ، وفي حَرَجٍ عَظِيمٍ)) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، إِنَّ فِي هَذَا الفِعْلِ الإِلَهِيِّ لَعِبْرًا وَدَلَالَاتٍ وَعِظَاتٍ ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الإِلَهَ الحَقَّ القَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، والحكيم في أقواله وأفعاله ، وأَنَّهُ جَعَلَ قِوَامَ الدُّنْيَا بِالتَّزَاجِ والتكاثر ، وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ . وَخُصَّ القَوْمَ الَّذِي يَتَفَكَّرُونَ بِالدُّكْرِ ، لِأَنَّهُمُ القَادِرُونَ عَلَى التَّفَكْرِ والتفكير والاستدلال والاستنتاج واتخاذ القرارات الصحيحة ، والانتفاع بها في دِينِهِمْ ودُنْيَاهُمْ . أَمَّا الغافلون عن التَّفَكُّرِ فَلَنْ يَفْهَمُوا آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَنْ يَهْتَمُّوا بِمَظَاهِرِ قُدْرَتِهِ . وَهُمْ يَعِيشُونَ لِلأَكْلِ والشُّرْبِ كالأَنْعَامِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٠ / ١٧٥) : ((﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : إِنَّ فِي فِعْلِهِ ذَلِكَ لَعِبْرًا وَعِظَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ فِي حُجَجِ اللَّهِ وَأَدْلَتِهِ ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الإِلَهَ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ ، وَلَا يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ فِعْلُ شَيْءٍ شَاءَهُ)) .

إِنَّ انبِشَاقَ الرَّجَالِ والنِّسَاءِ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ مِنْ شَأْنِهِ التَّوْفِيقِ بَيْنَهُمَا بِسَهُولَةٍ ، وَالتَّأْلِيفِ بَيْنِ الأَحَاسِيسِ المُشْتَرَكَةِ لِأَنَّهُمَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ (الإِنْسِ) . وَلَوْ كَانُوا مِنْ جِنْسَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ لَحَصَلَ النُّفُورُ ، وَانْعَدَمَ التَّجَادِبُ ، وَبِالتَّالِي لَمْ تَعُدْ هُنَاكَ إِمْكَانِيَّةٌ لِتَكْوِينِ الأُسْرَةِ وإعمار الأَرْضِ واستمرار الحياة . لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ جِنْسِكُمْ البَشَرِيَّ نِسَاءً لِتَمِيلُوا إِلَيْهِنَّ وَتَأَلَّفُوهُنَّ . وَكُلُّ جِنْسٍ يَمِيلُ إِلَى جِنْسِهِ . وَالجِنْسَانِ المُخْتَلِفَانِ مُتَنَافِرَانِ ، لَا تَحْصُلُ السَّكِينَةُ والأُلْفَةُ بَيْنَهُمَا . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَ الأَزْوَاجِ وَالرَّوْجَاتِ مَحَبَّةً وَشَفَقَةً وَرَحْمَةً . وَالرَّوْجَانِ يُحِبَّانِ بَعْضُهُمَا البَعْضَ مِنْ غَيْرِ رَحْمٍ بَيْنَهُمَا ، وَيَحْرِصُ كُلُّ طَرَفٍ عَلَى الآخَرِ بِدُونِ وُجُودِ مَصْلَحَةٍ مَادِيَّةٍ .

وَالرُّسُلُ الكِرَامُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُدُوةٌ بَشَرِيَّةٌ ، قَدْ كَوَّنُوا عَائِلَاتٍ ، وَلَهُمْ أَزْوَاجٌ وَذُرِّيَّةٌ . وَوُجُودُ زَوْجَاتٍ وَأَبْنَاءٍ فِي حَيَاةِ الأنْبِيَاءِ لَا يَقْدَحُ فِي زُهْدِهِمْ ، أَوْ اشْتِغَالِهِمْ بِالدَّعْوَةِ ، بَلْ هُوَ جُزْءٌ مِنَ الدَّعْوَةِ ، وَذَلِكَ بِإِنْشَاءِ أُسْرِ صَالِحَةٍ تَكُونُ قُدُوةً لِالأَتْبَاعِ كِي يُكُونُوا مُجْتَمِعَ الحَقِّ وَالهُدَى وَالفَضِيلَةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٦٨) : ((قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ، أي : خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جِنْسِكُمْ إِنَاثًا يَكُنُّ لَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ، يعني بذلك حَوَاءَ ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ آدَمَ ، مِنْ ضِلْعِهِ الْأَقْصَرَ الْأَيْسَرَ ، وَلَوْ أَنَّ تَعَالَى جَعَلَ بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ذُكُورًا ، وَجَعَلَ إِنَاتِهِمْ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ، إِمَّا مِنْ جَانِ أَوْ حَيَوَانَ ، لَمَّا حَصَلَ هَذَا الْإِتِّلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَزْوَاجِ ، بَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ نُفْرَةٌ لَوْ كَانَتْ الْأَزْوَاجُ مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ ، ثُمَّ مِنْ تَمَامِ رَحْمَتِهِ بَنَى آدَمَ أَنْ جَعَلَ أَزْوَاجَهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُنَّ مَوَدَّةً ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ ، وَرَحْمَةٌ ، وَهِيَ الرَّأْفَةُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُمَسِّكُ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا لِمَحَبَّتِهِ لَهَا ، أَوْ لِرَحْمَةِ بِهَا ، بَأَنَّ يَكُونُ لَهَا مِنْهُ وَلَدٌ ، أَوْ مُتَحَاجَةً إِلَيْهِ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَوْ لِلْأَلْفَةِ بَيْنَهُمَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾)) .

وقال الله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ﴾ [الْمُتَحَنِّنُ : ٧]^{٤٤} .
 لعلَّ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ (أَقْرَابِهِمْ مُشْرِكِي فُرَيْشِ) مَحَبَّةً وَأَلْفَةً ، مَحَبَّةً بَعْدَ الْبَغْضَاءِ ، وَتَجَادُبًا بَعْدَ التَّنَافُرِ ، وَأَلْفَةً بَعْدَ الْفُرْقَةِ . وَقَدْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِأَنَّ دَخَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ ، فَصَارَ الْجَمِيعُ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى .
 وَفِي التَّسْهِيلِ لِعُلُومِ التَّنْزِيلِ (٤ / ١١٤) : ((لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ وَمُقَاطَعَتِهِمْ ، عَلَى مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَعَلِمَ اللَّهُ صِدْقَهُمْ ، آتَسَّهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَوَعَدَهُمْ بِأَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً ، أَي : مَحَبَّةً ، وَهَذِهِ الْمَوَدَّةُ كَمُلْتُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ ، فَإِنَّهُ أَسْلَمَ حِينَئِذٍ سَائِرَ فُرَيْشِ ، وَجَمَعَ اللَّهُ الشَّمْلَ بَعْدَ التَّفْرِقِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٣٥) : ((فَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِعَدَاوَةِ الْكُفَّارِ ، عَادُوا أَقْرَابَهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ ﴾ ، أَي : مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴾ مَوَدَّةً ﴾ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِأَنَّ أَسْلَمَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَوْمَ الْفَتْحِ ، وَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَانكَسَرَ أَبُو سُفْيَانَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ)) .

٥٤ قال الزُّخْرِيُّ فِي الْكَشَّافِ (١ / ١٢٤٧) : ((وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ ، تَشَدَّدَ الْمُؤْمِنُونَ فِي عَدَاوَةِ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَجَمِيعِ أَقْرَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمُقَاطَعَتِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُمْ الْجِدَّ وَالصَّبْرَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّدِيدِ ، وَطَوَّلَ التَّمَيُّنَ لِلْسَبَبِ الَّذِي يُبِيحُ لَهُمُ الْمَوْلَاةَ وَالْمُؤَاصَلَةَ . رَحِمَهُمْ ، فَوَعَدَهُمْ تَيْسِيرَ مَا تَمَنَّوْهُ ، فَلَمَّا يَسَّرَ فَتْحَ مَكَّةَ ، أَظْفَرَهُمُ اللَّهُ بِأُمَّيَيْتِهِمْ ، فَأَسْلَمَ قَوْمُهُمْ ، وَتَمَّ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّحَابِّ وَالتَّصَافِي مَا تَمَّ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٢٩٩) : ((عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)) ، وذلك بأن يُسَلِّمُوا فَبَصِرُوا مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة ، وحسن إسلامهم ، ووقعت بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام مودة ، وجاهدوا ، وفعلوا الأفعال المقررة إلى الله . وقيل : المراد بالمودة هنا تزويج النبي ﷺ بأُم حبيبة بنت أبي سفيان ، ولا وجه لهذا التخصيص ، وإن كان من جملة ما صار سبباً إلى المودة ، فإن أبا سفيان بعد ذلك ترك ما كان عليه من العداوة لرسول الله ﷺ ، ولكنها لم تحصل المودة إلا بإسلامه يوم الفتح ، وما بعده)) .

عندما أمر الله المؤمنين بعبادة الكفار ، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين ، وأظهروا لهم العداوة ، وتبرؤوا منهم . ولما رأى الله من المؤمنين التصلب والتشدد في معاداة أقربائهم المشركين ، وشدة وجد المؤمنين ، وعدهم الله _ تطيباً لقلوبهم _ بأن يجعل بينهم وبين أقربائهم المشركين محبة وألفة . وأنجز الله وعده ، وفعل ذلك بأن أسلم كثير منهم ، فصاروا للمؤمنين أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم .

و " عسى " وعد من الله تعالى ، ووعد الله واقع لا محالة ، ولا يتخلف . وقد حقق الله ما وعد المؤمنين به . وقال التفسيره (٤ / ٢٣٨) : ((و " عسى " وعد من الله على عادات الملوك ، حيث يقولون في بعض الحوائج : عسى ، أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك ، وأريد به إطماع المؤمنين)) .

وبشكل عام ، ينبغي أن يكون المرء معتدلاً ومُتَوَسِّطاً في الحب والبغض ، خاضعاً للشريعة الإسلامية ، يتعامل بالعدل مع أحبابه وأعدائه ، ويلتزم بالمشاعر المتزنة والمتوازنة ، بلا إفراط ولا تفريط .

وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أراه رفعه قال : ((أَحِبِّ حَبِيْبَكَ هُوْنَا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَعْضُكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَعْضَكَ هُوْنَا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيْبَكَ يَوْمًا مَا)) .^{٥٥}

٥٥ رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٦٠) برقم (١٩٩٧) . وقال : ((هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا ، ورواه الحسن بن أبي جعفر وهو حديث ضعيف أيضاً بإسناده له عن النبي ﷺ ، والصحيح عن عليّ موقوف)) اهـ . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢ / ١٣٩) : ((أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ، وقال : غريب . قلت : =

ينبغي أن يكون المرء مُتَوَسِّطاً في الحُبِّ ، ومُقْتَصِداً في المَوَدَّةِ ، فَرُبَّمَا انقلبَ الزمانُ ، وتبدَّلت الأحوالُ ، وصار الحُبُّ كُرْهًا ، فعندئذٍ لا يُصاب المرءُ بالصَّدْمَةِ ، ولا يسقط ضحيةً لغنصر المفاجأة ، ولا يغرق في الندم القاتل ، إذ إنَّ حُبَّهُ كان مُعْتَدِلاً بِلا إفراط .

وعلى المرء كذلك أن يكون مُقْتَصِداً في الكَرَاهِيَةِ والبُغْضِ ، فَرُبَّمَا انقلبت الظروفُ ، وصار البُغْضُ حُبًّا ، وعندئذٍ لا يسقط المرءُ في الحَرَجِ ، ولا يخجل من حبيبه الذي كان في الماضي بغيضه ، لأنَّ بُغْضَهُ كان مُتَوَسِّطاً لا مُتَطَرِّفاً ولا مُتَشَدِّداً . وعلى المرء ألا ييأس من عَودة الحُبِّ والصَّفَاءِ مهما كانت الظروف قاسيةً .

لا تُحِبَّ حبيبَكَ حُبًّا شديدًا ، ولكنَّ أَحِبَّهُ هَوْنًا ، أي : حُبًّا سَهْلًا يسيرًا مُقْتَصِداً ، لا إفراط فيه ، فعسى أن يكون بغيضَكَ في يومٍ من الأيام . وما ينطبق على الحُبِّ ينطبق على البُغْضِ .
والمراد بالحديث النَّهْيُ عن المُبالِغة والإفراط الشديد في الحُبِّ والبُغْضِ ، وليس المراد أن يكون المرء مُنْقَبِضًا حَذَرًا من أخيه سَيِّئ الظَّنِّ به ، بل الأصل في المُسْلِمِ سلامة الصَّدْرِ وإحسان الظنِّ بإخوانه المسلمين ، وإخلاص المحبة ، وصَفَاءُ الوُدِّ لهم ، لكن اندفاع العواطف حُبًّا وبُغْضًا إذا جاوزَ الحدَّ فهو مذموم ، ولا شك أنَّ القصد والاعتدال في الأمور مِمَّا يُوافِقُ الشَّرْعَ ، ومن

=رجاله ثقات رجال مسلم ، لكن الراوي تردّد في رفعه)) اه . وقال أبو الشيخ الأصبهاني في الأمثال (١ / ١٥١) : ((إسناده حسن)) اه . وفي كشف الخفاء (١ / ٥٣ و ٥٤) : ((رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هُرَيْرَةَ والطبراني عن عُمر وابن عمرو والدارقطني وابن عَدِي والبيهقي عن عليٍّ موقوفًا ، والبحاري في الأدب المُفْرَد . وفي معناه قول بعضهم : لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلْفًا ، ولا بُغْضُكَ تَلْفًا . وأخرج الخرائطي عن الحسن : تَنَفَّؤا الإخوانَ والأصحابَ والمجالسَ ، وأحِبُّوا هَوْنًا ، وأبْغِضُوا هَوْنًا ، فقد أفرطَ أقوام في حُبِّ أقوام فَهَلَكُوا ، وأفرطَ أقوام في بُغْضِ أقوام فَهَلَكُوا ، وإنَّ رَأَيْتَ دُونَ أَحْيِكَ سِتْرًا فلا تَكشِفْهُ . وقد رَمَزَ السُّيُوطِيُّ لِحُسْنِهِ ، ولعلَّه لاعتضاده ، وإلا فقد تكلموا في كثير من رجاله ، وما أحسنَ ما أخرجهُ الرافعي عن أبي إسحاق السَّبَّيْعِيِّ مِنْ أَنَّهُ قال : كان عليٌّ بن أبي طالب يُذَكِّرُ أصحابَهُ وجُلَسَاءَهُ في حُسْنِ الأَدَبِ بِقَوْلِهِ :

وَكُنْ مَعْدِنًا لِلخَيْرِ واصْفَحْ عَنِ الأَذَى	فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعْتَ
وَأَحِبِّ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا	فَإِنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نازِعٌ
وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا	فَإِنَّكَ لا تَدْرِي مَتَى الحُبُّ راجِعٌ)) .

أسباب طُمأنينة النَّفس وانسراح الصدر . والجدير بالذكر أنَّ إضافة " ما " إلى الحُبِّ والبُغض في الحديث، تُفِيد التقليل، والمعنى : لا تُسْرِف في الحُبِّ والبُغض، فعسى أن يَصِيرَ الحبيبُ بغيضًا ، والبغيض حبيبًا ، فلا تكون قد أسْرَفْتَ في الحُبِّ فتندم ، ولا في البُغض فتَحْجَل .
إذا أَحْبَبْتَ فلا تُفْرِطْ ، وإذا أَبْغَضْتَ فلا تُشْطِطْ ، وخير الأُمُور أوسطها .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ١٧٦) : (((أَحْبَبْ) ... فِعْلٌ أَمْرٌ (حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا) بفتح فسكون ، أي : أَحْبِبْهُ حُبًّا قَلِيلًا . فَهَوْنًا مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ صِفَةً لِمَا اشْتَقَّ مِنْهُ أَحْبَبْ . قال الزَّمَخْشَرِيُّ : و " ما " إِبْهَامِيَّةٌ تَزِيدُ التَّكْرَةَ إِبْهَامًا وَشِيَاعًا ، وَتَسُدُّ عَنْهَا طُرُقَ التَّقْيِيدِ . وقال غَيْرُهُ : مَزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الْقَلَّةِ ، وَعَلَيْهِ فَلَا يَتَّبِعُهُ قَوْلُهُ فِي الدَّرِّ كَأَصْلِهِ ، أَي : حُبًّا مُقْتَصِدًا لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ فِيهِ . وَيَصِحُّ نَصْبُهُ عَلَى الظَّرْفِ ، لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْأَحْيَانِ ، أَي : أَحْبِبْهُ فِي حِينٍ قَلِيلٍ ، وَلَا تُسْرِفْ فِي حُبِّهِ ، فَإِنَّهُ (عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضًا يَوْمًا مَا وَأَبْغَضَ بَغِيضًا هَوْنًا مَا) فَإِنَّهُ (عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبًا يَوْمًا مَا) أَي : زَيْمًا انْقَلَبَ ذَلِكَ بِتَغْيِيرِ الزَّمَانِ وَالْأَحْوَالِ بُغْضًا ، فَلَا تَكُونَ قَدْ اسْرَفْتَ فِي حُبِّهِ ، فَتَنْدَمُ عَلَيْهِ إِذَا أَبْغَضْتَهُ ، أَوْ حُبًّا فَلَا تَكُونَ قَدْ اسْرَفْتَ فِي بُغْضِهِ فَتَسْتَحْيِي مِنْهُ إِذَا أَحْبَبْتَهُ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ . وقال ابن العربي : معناه أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، فَقَدْ يَعُودُ الْحَبِيبُ بَغِيضًا ، وَعَكْسَهُ ، فَإِذَا أَمَكَّنْتَهُ مِنْ نَفْسِكَ حَالِ الْحُبِّ ، ثُمَّ عَادَ بَغِيضًا كَانَ لِمَعَالِمِ مَضَارِكِ أَجْدَرٍ ، لِمَا اطَّلَعَ مِنْكَ حَالِ الْحُبِّ بِمَا أَفْضَيْتَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَسْرَارِ . وقال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلْفًا ، وَلَا بُغْضُكَ تَلْفًا ، وَعَلَيْهِ أَنْشَدَ هُدَيْبَةُ بْنُ خَشْرَمٍ :

وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا	فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
وَكُنْ مَعْدِنًا لِلْخَيْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْأَذَى	فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعُ
وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا	فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَارِعُ

ولهذا قال الحسن البصري : أَحِبُّوا هَوْنًا ، وَأَبْغِضُوا هَوْنًا ، فَقَدْ أَفْرَطَ قَوْمٌ فِي حُبِّ قَوْمٍ فَهَلَكُوا ، وَأَفْرَطَ قَوْمٌ فِي بُغْضِ قَوْمٍ فَهَلَكُوا)) .

وصدق القائل :

وقد يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّتِيَّتَيْنِ بَعْدَمَا
يُظَنُّ أَنْ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وقال الميداني في مجمع الأمثال (٢ / ٢١٨): ((وَيُرَوَّى عَنْ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ قَالَ : لَا تُكُنْ فِي الْإِحْيَاءِ مُكْثِرًا ، ثُمَّ تَكُونُ فِيهِ مُدْبِرًا ، فَيُعْرِفُ سَرْفَكَ فِي الْإِكْتَارِ بِجَفَائِكَ فِي الْإِدْبَارِ . وَمِنْهُ الْحَدِيثُ (يُنْسَبُ هَذَا الْكَلَامُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ) : " أَحِبِّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا " . وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ بْنِ تَوَلَّبَ :

أَحِبِّ حَبِيبَكَ حُبًّا رُوَيْدًا فَلَيْسَ يَعْوَلُكَ أَنْ تَصْرِمَا
وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ بَغْضًا رُوَيْدًا إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا)) .

ومعنى البَيَّتَيْنِ : أَحِبِّ حَبِيبَكَ حُبًّا سَهْلًا مُعْتَدِلًا ، فَلَيْسَ يَعْوَلُكَ قَطْعُ ذَلِكَ الْحُبِّ . وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ بَغْضًا مُقْتَصِدًا غَيْرَ شَدِيدٍ ، إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَكُونَ حَكِيمًا . وَالغَرَضُ هُوَ النَّهْيُ عَنِ الْإِفْرَاطِ فِي الْحُبِّ وَالْبُغْضِ ، وَالْأَمْرُ بِالْإِعْتِدَالِ فِي الْمَعْنَيْنِ .
والجدير بالذكر أن الأسرار ينبغي حفظها وعدم إفشائها لأحد، خصوصًا للأحباب والأصدقاء في ساعات الصفاء والمودة ، فقد ينقلب الصديق إلى عدو ، ويصبح الحبيب بغيضًا . والأمور دائمة التقلب والتبدل ، والظروف متغيرة باستمرار .
وقد صدق القائل :

أَحْذَرُ عَدُوَّكَ مَرَّةً وَأَحْذَرُ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةً
فَلَرَبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالْمَضَرَّةِ

وما أجمل قول الشاعر :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرُ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ عَدَا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ
وَلَوْ كَانَ الْكَثِيرُ يَطِيبُ كَانَتْ مُصَاحِبَةُ الْكَثِيرِ مِنَ الصَّوَابِ
وَلَكِنْ قَلَّمَا اسْتَكْثَرْتَ إِلَّا سَقَطَتْ عَلَى ذَنَابِ فِي ثِيَابِ
فَدَغَ عَنْكَ الْكَثِيرَ فَكَمْ كَثِيرٌ يُعَافُ وَكَمْ قَلِيلٌ مُسْتَطَابِ

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .
 يأمر الله عباده أن يتعاونوا على فعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥) : ((يأمرُ تعالى عباده المؤمنين بالمُعَاوَنَةِ على فعلِ
 الخيرات ، وهو البر ، وترك المنكرات ، وهو التَّقْوَى)) .
 وقد ورد تعريفٌ جميلٌ للتَّقْوَى : ((الخوفُ من الجليل ، والعملُ بالتنزيل ، والرِّضَا بالقليل ،
 والاستعدادُ ليومِ الرحيل)) .

إنَّ التعاونَ قيمةٌ أساسيةٌ في بناء الحضارات ، ونهضة الأمم . والإنسانُ مَدَنِيٌّ بطَبْعِهِ ، يحتاج
 إلى مساعدة الآخرين ، ولا يَقْدِرُ على الاستغناء عنهم مهما كان قويًّا . وهذا يعني أن التعاون أمر
 حتمي لا مفر منه . وهُنَا تظهر أهمية التعاون على فعلِ الخَيْرِ وتركِ المُنْكَرِ ، وتضامُرُ الجهودِ
 الفردية والجماعية من أجل التَّقَرُّبِ إلى الله تعالى . والبرُّ يتجسَّدُ في فعلِ الطاعات ، والتَّقْوَى
 تتمثل في اجتناب المعاصي .

وقد أعلت الشريعة الإسلامية من قيمة التعاون وإرشاد الآخرين إلى الخير لِمَا في ذلك من
 تقوية الأواصر المجتمعية ، وتوحيد كافة الإمكانيات لنشر الفضيلة واجتثاث الرذيلة . وحُبُّ الخير
 للآخرين من علامات المروءة واحترام الإنسان لنفسه . والمؤمنُ مرآةُ أخيه ، وهو قويٌّ بإخوانه .
 وهذا الترابط الإنساني الجماعي لا يمكن أن يتأسس إلا بتعميم منظومة نشر الخير ، وإرشاد
 الآخرين إلى السعادة . وانكماشُ المرء على نفسه ، والعيش من أجل ذاته فقط ، يُشيران إلى سُوءِ
 أخلاق وأثره مَقْتِيَةٌ ، تُنبئ عن أمراض اجتماعية ونَفْسِيَّةٍ تستوطن كيان ذلك الشخص . لذلك يجب
 أن يسعى كُلُّ شخصٍ لإنقاذ نفسه، وإنقاذ الآخرين ، بكُلِّ ما أُوتِيَ من قُوَّةٍ ، ولا مُعَارَضَةٍ بين الأمرين .
 وفي صحيح مسلم (٣ / ١٥٠٦) أن النبي ﷺ قال : ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ)) .
 مَنْ أرشد إلى خَيْرٍ ، فاللهُ يَمْنَحُهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ فَعَلَهُ وَقَامَ بِهِ ، لأنَّه تَسَبَّبَ في حُصُولِهِ وفَعَلَهُ
 والإعانة عليه . وهذا يَشْمَلُ كُلَّ أعمالِ الخَيْرِ ، كإعطاء صَدَقَةٍ ، أو بناء مسجد أو مدرسة ، أو
 نشر العلم ، وغير ذلك من الخيرات .

والحديثُ يُبَيِّنُ أهميةَ فعلِ الخَيْرِ ، والإرشاد إليه ، والتَّحْرِيزُ عليه . وهذا من أسباب تكافل
 المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ وتكامله .

ولا بُدَّ من إرشاد الآخرين إلى الخير ، وهدايتهم إلى الصَّواب ، ولا يكفي أن يكون المرء صالحًا ، بل يجب أن يكون مُصْلِحًا أيضًا، وهذا لا يتأتَّى إلا بتعميم الخير ، والأخذ بأيدي الناس إلى برِّ الأمان، وتوجيههم إلى سُبُل الفضيلة والأخلاق من أجل تحصيل السعادة الدُّنيوية والأخروية. والمؤمنُ ليس أنانيًّا يَمنع وُصولَ الخيرِ إلى الناس ، وإنما هو شمعةٌ ، يُضيءُ لِنَفْسِهِ ولِغَيْرِهِ ، ويُحِبُّ الهداية والصَّلاحَ لكلِّ الناسِ بَدُونِ استثناء .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٣٩) : ((فيه فضيلة الدلالة على الخير ، والتنبيه عليه ، والمُساعدة لفاعله . وفيه فضيلة تعليم العِلْمِ ووظائف العبادات ، لا سِيَّما لِمَنْ يَعْمَلُ بها مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ وَغَيْرِهِمْ . والمُرَادُ بِمِثْلِ أَجْرِ فاعله أَنَّ لَهُ ثَوَابًا بِذَلِكَ الفِعْلِ كما أَنَّ لفاعله ثَوَابًا ، ولا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ قَدْرُ ثَوَابِهِمَا سَوَاءً)) .

وقال المُناوي في فيض القدير (٦ / ١٢٧) : ((مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ) شَمِلَ جَمِيعَ أَنْواعِ الخِصَالِ الحميدة (فَلَهُ) مِنَ الأَجْرِ (مِثْلُ أَجْرِ فاعله) أي لَهُ ثَوَابٌ كما لفاعله ثَوَابٌ ، ولا يَلْزَمُ تساوي قَدْرِهِمَا ، ذَكَرَهُ النووي . أو أَنَّ المُرَادَ المِثْلَ بِغَيْرِ تَضْعِيفٍ وَقَدْ مَرَّ هَذَا غَيْرَ مَرَّةٍ . [تنبيه] عُلِمَ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ وحديث : " مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى " المُتَقَدِّم ، أَنَّ كُلَّ أَجْرٍ حصلَ لِلدَّالِّ والدَّاعِي ، حَصَلَ لِلْمُصْطَفَى ﷺ مِثْلُهُ ، زِيَادَةٌ عَلَى ما لَهُ مِنَ الأَجْرِ الخاصِّ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى دَلالته أو هِدايته لِلْمُهْتَدِي ، وَعَلَى ما لَهُ مِنَ الأَجْرِ عَلَى حَسَناتِهِ الخاصَّةِ مِنَ الأَعْمَالِ والمَعَارِفِ والأَجُورِ ، التي لا تَصِلُ جَمِيعَ أُمَّتهِ إِلَى عَرَفِ نَشْرُهَا (رَائِحَتِهَا الطَّيِّبَةُ) ، ولا يَبْلُغُونَ عَشْرَ عَشْرِهَا ، وهكذا نَقُولُ إِنَّ جَمِيعَ حَسَناتِنا وَأَعْمالِنا الصَّالِحَةِ وعباداتِ كُلِّ مُسْلِمٍ مُسْطَّرَّةٌ فِي صَحَائِفِ نَبِيِّنا ﷺ ، زِيَادَةٌ عَلَى ما لَهُ مِنَ الأَجْرِ ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الأَجُورِ بَعْدُ أُمَّتُهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، لا تُخْصِي ، يَقْصُرُ العَقْلُ عَنِ إدراكِها ، لِأَنَّ كُلَّ مُهْدٍ وَدَالٍ وَعَالِمٍ يَحْصُلُ لَهُ أَجْرٌ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وَيَتَجَدَّدُ لِشَيْخِهِ فِي الهِدَايَةِ مِثْلَ ذَلِكَ الأَجْرِ ، وَلِشَيْخِ شَيْخِهِ مِثْلَهُ ، وَلِلشَيْخِ الثالثِ أَرْبَعَةٌ ، والرَّابِعِ ثَمَانِيَةٌ ، وهكذا تُضَعَّفُ فِي كُلِّ مَرْتَبَةٍ بَعْدَ الأَجُورِ الحاصلةِ قَبْلَهُ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى المُصْطَفَى ﷺ . إِذَا فُرِضَتْ المَرَاتِبُ عَشْرَةٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، كانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَجْرِ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ ، فَإِذَا اهْتَدَى بِالْعَاشِرِ حَادِي عَشْرٍ صارَ أَجْرُ النَّبِيِّ ﷺ أَلْفَيْنِ وَثَمَانِيَةً وَأَرْبَعِينَ ، وهكذا كُلُّ ما زادَ واحِدًا يَتضاعَفُ ما كانَ قَبْلَهُ أَبَدًا إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وهذا أمرٌ لا يَحْضُرُهُ إِلا اللّهُ ، فَكَيْفَ إِذَا أُخِذَ مَعَ كَثْرَةِ الصَّحابةِ والتابعينَ والمُسلِمِينَ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنَ الصَّحابةِ يَحْصُلُ لَهُ بَعْدُ الأَجُورِ الَّذِي تَرْتَبَتْ عَلَى فِعْلِهِ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وَكُلُّ ما يَحْصُلُ لِجَمِيعِ الصَّحابةِ حاصِلٌ بِجَمَلَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَبِهِ يَظْهَرُ رُجْحانُ

السَّلْفُ عَلَى الْخَلْفِ ، وَأَنَّهُ كَلِمَا إِزْدَادِ الْخَلْفُ إِزْدَادُ أَجْرِ السَّلْفِ وَتَضَاعَفَ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَرَزَقَ التَّوْفِيقَ ، انْبَعَثَ هِمَّتُهُ إِلَى التَّعْلِيمِ ، وَرَغِبَ فِي نَشْرِ الْعِلْمِ ، لِيَتَضَاعَفَ أَجْرُهُ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَكْفَى عَنْ إِحْدَاثِ الْبِدَعِ وَالْمُظَالِمِ مِنَ الْمُكُوسِ (الضَّرَائِبِ) وَغَيْرِهَا ، فَإِنِهَا تُضَاعَفُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ بِالطَّرِيقِ الْمَذْكُورِ مَا دَامَ يَعْمَلُ بِهَا عَامِلٌ ، فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُسْلِمُ هَذَا الْمَعْنَى وَسَعَادَةَ الدَّلَالِ عَلَى الْخَيْرِ ، وَشَقَاوَةَ الدَّلَالِ عَلَى الشَّرِّ)) .

﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ . وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى مَعَاصِي اللَّهِ ، وَالتَّعَدَّى فِي حُقُوقِهِ ، وَظَلَمِ النَّاسِ . وَهَذَا نَهْيٌ إِلَهِيٌّ وَاضِحٌ عَنِ التَّعَاوُنِ عَلَى الدُّنُوبِ ، وَالتَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ . وَالْإِثْمُ تَرَكَ الْمَأْمُورِ ، وَالْعُدْوَانُ فِعْلُ الْمَحْظُورِ .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٤٠٠) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ، يَعْنِي : وَلَا يُعْنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ عَلَى الْإِثْمِ ﴾ ، يَعْنِي : عَلَى تَرَكَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ، يَقُولُ : وَلَا عَلَى أَنْ تَتَجَاوَزُوا مَا حَدَّ اللَّهُ لَكُمْ فِي دِينِكُمْ ، وَفَرَضَ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَفِي غَيْرِكُمْ)) . وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٩) : ((نَهَاهُمْ سُبْحَانَهُ عَنِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، فَالْإِثْمُ : كُلُّ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ يُوجِبُ إِثْمَ فَاعِلِهِ أَوْ قَائِلِهِ . وَالْعُدْوَانُ : التَّعَدَّى عَلَى النَّاسِ بِمَا فِيهِ ظُلْمٌ ، فَلَا يَبْقَى نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الْمُوجِبَاتِ لِلْإِثْمِ ، وَلَا نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ لِلنَّاسِ الَّذِينَ مِنْ جُمْلَتِهِمُ النَّفْسُ ، إِلَّا وَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذَا النَّهْيِ ، لِصِدْقِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ عَلَى كُلِّ مَا يُوجَدُ فِيهِ مَعْنَاهُمَا)) .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٧٠٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) .

مَنْ أَتَى بِطَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى أَصْلِ مِنَ الْأُصُولِ الدِّينِ ، أَوْ صَارَ بَاعِثًا وَسَبَبًا لِنَشْرِ أَمْرٍ ثَابِتٍ فِي الشَّرْعِ ، فَاقْتَدَى بِهِ غَيْرُهُ فِيهِ ، فَلَهُ ثَوَابُ الْعَمَلِ بِهَا ، وَثَوَابُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِ مَا سَنَّهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ ثَوَابِ الْعَامِلِينَ بِهَا شَيْءٌ ، قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ ، لِأَنَّهُ أَجْرٌ عَلَى تَسْبِيهِ فِي عَمَلِهِمْ ، وَلَا أَجْرٌ عَلَى عَمَلِهِمْ . وَمَنْ فَعَلَ فِعَالًا قَبِيحًا وَطَرِيقَةً غَيْرَ مَرْضِيَّةٍ ، لَا تَقُومُ عَلَى أَصْلِ مِنَ الْأُصُولِ الدِّينِ ، كَانَ عَلَيْهِ إِثْمُهَا ، وَإِثْمُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْءٌ . وَالحَدِيثُ يَحْتُ عَلَى الْبِدَاءِ بِالْخَيْرِ لِيُسْتَنَّ بِهِ ، وَيُحذَّرُ مِنَ الْبِدَاءِ بِالشَّرِّ ، خَوْفَ أَنْ يُسْتَنَّ بِهِ . وَأَيْضًا ، يُرْغَبُ فِي الْخَيْرِ الْمُتَكَرِّرِ أَجْرُهُ بِسَبَبِ الْاِقْتِدَاءِ ، وَيُحذَّرُ مِنَ الشَّرِّ الْمُتَكَرِّرِ إِثْمُهُ بِسَبَبِ الْاِقْتِدَاءِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٠٤) : ((مَن سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا) إِلَى آخِرِهِ ، فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ بِالْخَيْرَاتِ ، وَسَنُّ السُّنَنِ الْحَسَنَاتِ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ اخْتِرَاعِ الْأَبْطَالِ وَالْمُسْتَفْبَحَاتِ وفي هذا الحديث تَخْصِصُ قَوْلُهُ ﷺ : " كُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ ، وَكُلِّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهَ الْمُحَدَّثَاتِ الْبَاطِلَةَ ، وَالبِدْعَ الْمَذْمُومَةَ ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هَذَا فِي كِتَابِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، وَذَكَرْنَا هُنَا أَنَّ البِدْعَ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ : وَاجِبَةٌ ، وَمَنْدُوبَةٌ ، وَمُحَرَّمَةٌ ، وَمَكْرُوهَةٌ ، وَمُبَاحَةٌ)) .

وفي نَفْسِ الْمَرْجِعِ (١٦ / ٢٢٦) : ((الْحَثُّ عَلَى اسْتِحْبَابِ سَنِّ الْأُمُورِ الْحَسَنَةِ ، وَتَحْرِيمِ سَنِّ الْأُمُورِ السَّيِّئَةِ ، وَأَنَّ مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ كُلِّ مَن يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ كُلِّ مَن يَعْمَلُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ مَن دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجُورِ مُتَابِعِيهِ ، أَوْ إِلَى ضَلَالَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ آثَامِ تَابِعِيهِ ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ الْهُدًى وَالضَّلَالَةَ هُوَ الَّذِي ابْتَدَأَهُ أَمْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ ، وَسَوَاءً كَانَ ذَلِكَ تَعْلِيمَ عِلْمٍ أَوْ عِبَادَةَ أَوْ أَدَبًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٥٩) : ((أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ ، أَي : اتَّبَعَهُ عَلَى تِلْكَ الضَّلَالَةِ أَنَسَ (فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِ مَن اتَّبَعَهُ) عَلَى ذَلِكَ (وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا) فَإِنَّ مَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلِيهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَن عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبِعَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ أَيضًا ، أَي : اتَّبَعَهُ قَوْمٌ عَلَيْهَا (فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَجُورِ مَن اتَّبَعَهُ) مِنْهُمْ (وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا) فَإِنَّ مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قِيلَ : وَذَا شَمِلَ عُمُومَ الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ ، وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى نَدْبِ الدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى ضَلَالَةٍ أَوْ بِدْعَةٍ ، سَوَاءً كَانَ ابْتِدَاءُ ذَلِكَ أَوْ سُبْقَ بِهِ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] . الْمُجْتَمَعُ الْإِيمَانِيُّ قَوِيٌّ وَمُتَمَاسِكٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، يَتَنَاصَرُونَ وَيَتَعَاوَنُونَ وَيَتَعَاضِدُونَ ، قُلُوبُهُمْ مُتَّحِدَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّعَاطُفِ بِسَبَبِ إِيمَانِهِمْ ، وَهُمْ يَدُّ وَاحِدَةٌ . يَنْتَمُونَ إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَكَلِمَتِهِمْ وَاحِدَةٌ . تَجْمَعُهُمْ رَابِطَةُ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَرَابِطَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٦٨): ((قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ، أي: بعضهم يُوالي بعضًا، فَهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ، يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْكُفْرِ)) . يَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالتَّزَامِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ . وَالْمَعْرُوفُ كُلُّ مَا عَرَفَهُ الشَّرْعُ وَلَمْ يُنْكِرْهُ . وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ وَالضَّلَالِ وَالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . وَالْمُنْكَرُ مَا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ وَلَا يَعْرِفُهُ . وَيُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ ، وَيُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَيُسَاعِدُونَ النَّاسَ ، وَيُحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ . وَتَمَّ تَخْصِيصُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ بِالذِّكْرِ ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَالزَّكَاةَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْمَالِيَّةِ . وَيُطِيعُونَ اللَّهَ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ، وَيُطِيعُونَ رَسُولَهُ فِي سُنَّتِهِ ، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ .

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، وَيُؤَيِّدُهُمْ ، وَيَنْصِرُهُمْ ، وَهَذَا وَعْدٌ إِلَهِيٌّ وَقَعَ لَا مَحَالَةَ . وَ﴿ أُولَئِكَ ﴾ اسم إشارة للبعيد، يدل على غلُو مكانتهم الإيمانية ، وبعُد درجتهم في الفضل والشرف والمجد . والسَّيْنُ فِي ﴿ سَيَرْحَمُهُمْ ﴾ مُؤَكَّدَةٌ لِلْوُقُوعِ ، وَتَشِيرُ إِلَى وَجُودِ الرَّحْمَةِ حَتْمًا ، وَفِيهَا تَأْكِيدٌ لِلْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غَالِبٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَقَاهِرٌ لَهُ ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، وَلَا يُغَالِبُ ، وَلَا يُقْهَرُ . يُعْزِزُ أَوْلِيَاءَهُ ، وَيُذِلُّ أَعْدَاءَهُ ، وَقَادِرٌ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي نِصَابِهَا الصَّحِيحِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّةٌ عَنِ الْعَبَثِ وَالْفَوْضَى .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤١٥) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ : وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ، وَهُمْ الْمُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَأَيَاتِ كِتَابِهِ ، فَإِنَّ صِفَتَهُمْ : أَنَّ بَعْضَهُمْ أَنْصَارُ بَعْضٍ وَأَعْوَانُهُمْ ، ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، يَقُولُ : يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، يَقُولُ : وَيُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ ، يَقُولُ : وَيُعْطُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ أَهْلِهَا ، ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، فَيَأْتِمُرُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ ، ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ ، يَقُولُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هَذِهِ صِفَتُهُمُ الَّذِينَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، فَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّتَهُ ، لَا أَهْلَ النَّفَاقِ وَالتَّكْذِيبِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، النَّاهُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، الْآمِرُونَ بِالْمُنْكَرِ ، الْقَابِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عَنْ أَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ مِنَ أَمْوَالِهِمْ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ ، يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ ذُو عِزَّةٍ فِي انتِقَامِهِ مِمَّنْ انتَقَمَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَكُفْرِهِ بِهِ ، لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ مَانِعٌ ، وَلَا يَنْصِرُهُ مِنْهُ نَاصِرٌ ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي انتِقَامِهِ مِنْهُمْ ، وَفِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ)) .

وقال ابن عبد البر في التمهيد (١٩ / ٩٣) : ((والمؤمنون في الجملة ، هكذا يرث بعضهم بعضاً ، فلو أن رجلاً مات لا وارث له ، لكان ميراثه للمسلمين ، ولو جنى جنايةً ، لعقل عنه المسلمون _ قاموا بتأدية جنايته _ ، ثم تكون ولاية أقرب من ولاية ، وقربة أقرب من قرابة)) .
 وقال الحِصني في كفاية الأختار (١ / ٤٧٣) : ((لا يجوز أن يكون وليُّ المسلم كافرًا . قال الله تعالى: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ . فالكافر ليس بناصر لها لاختلاف الدين ، فلا يكون وليًّا ، وكذا أيضًا لا يجوز لمسلم أن يكون وليًّا لكافرة ، لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾ ، ففقط سحاحه وتعالى الموالاة بين المؤمنين والكافرين ، وهذا هو المذهب ، ويُؤخذ من الآية ولاية الكافر للكافرة)) .
 وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشدُّ بعضه بعضًا)) ، وشبَّك بين أصابعه ^{٥٦} .

إنَّ المؤمنين كيانًا واحد ، يسوده العدل والإخاء والرَّحمة والمحبَّة ، يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويساعد بعضهم بعضًا في الطاعات والمباحات ، ويستتر أحدهم على الآخر ولا يفضحه .

لقد بنى الإسلامُ مُجتمع المسلمين على أساس متين من الأخوة والتعاون فيما بينهم ، وهم إخوة في الدين ، فهذا يُنافي الحقد ، ويتعارض مع العداوة والبغضاء .
 إنَّ المؤمنين في تعاونهم ، وتماسك كلِّ فردٍ منهم بالآخر ، كالبنيان المرصوص الذي لا يقوى على البقاء إلا إذا تماسكت أجزاؤه لينةً لينةً ، فإذا تفككت سقط وانهار ، وشبَّك النبي ﷺ بين أصابعه ، إشارةً إلى تعاضد المؤمنين وتماسكهم وتعاونهم . وكما أن أصابع اليدين متعددة ، وترجع إلى أصل واحد ، ورجل واحد ، فكذلك المؤمنون وإن تعددت أشخاصهم ، فهم يرجعون إلى أصل واحد ، وتجمعهم أخوة الإيمان . وهذا التشبيك من النبي ﷺ في هذا الحديث كان لمصلحة وفائدة، فإنه لما شبه المؤمنين بالبنيان الذي يشدُّ بعضه بعضًا ، كان ذلك تشبيهًا بالقول، ثم أوضحه بالفعل ، فشبَّك أصابعه بعضهم بعضًا في بعض ، ليتأكد بذلك المثال الذي ضرَّبه لهم بقوله ، ويزداد بيانًا وظهورًا . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٩) : (([الحديث صريح في] تعظيم حقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد،

٥٦ متفق عليه. البخاري (٢ / ٨٦٣) برقم (٢٣١٤) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٩) برقم (٢٥٨٥) .

في غير إثم ولا مكروه . وفيه جواز التشبيه ، وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى الأفهام)) اهـ .
وقال المناوي في فيض القدير (٦ / ٢٥٢) : (((المؤمن للمؤمن) اللام فيه للجنس ، والمراد
بعض المؤمنين لبعض (كالبنيان) أي الحائط ، لا يتقوى في أمر دينه ودنياه إلا بمعرفة أخيه ، كما
أن بعض البنيان يقوى ببعضه (يشد بعضه بعضاً) بيان لوجه التشبيه ، وبعضاً منصوب بنزع
الخافض ، أو مفعول يشد . وتمتمته كما في البخاري ، ثم شبك بين أصابعه ، أي : يشد بعضهم
بعضاً مثل هذا الشد ، فوقع التشبيك تشبيهاً لتعاقد المؤمنين بعضهم ببعض ، كما أن البنيان
الممسك بعضهم ببعض يشد بعضهم بعضاً ، وذلك لأن أقوامهم لهم ركن ، وضعيفهم مستند لذلك
الركن القوي ، فإذا والاه قوي بما بباطنه ، ذكره الحرالي . وفيه تفضيل الاجتماع على الانفراد ،
ومدح الاتصال على الانفصال ، فإن البنيان إذا تفاعل بطل ، وإذا اتصل ثبت الانتفاع به بكل ما
يُراد منه . (تنبيه) قال الراغب : إنه لما صعب على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج
إليه إلا بمعاونة عدة له ، فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من زرع وطحن وخبز وصناعات آلتها ،
لصعب حصره ، فلذلك قيل : الإنسان مدني بالطبع ، ولا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه ، بل
يفتقر بعضهم لبعض في مصالح الدارين ، وعلى ذلك نبه بهذا الحديث)) .

١٦_ الإخاء

قال الله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخوة ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .^{٥٧}

واذكروا ما أنعم الله به عليكم يا معشر العرب من الاجتماع على الإسلام ، واتباع النبي ﷺ ،
فإن به زالت به العداوة والبغضاء والفرقة ، وكانت المحبة والألفة والنعاون . وقد كنتم في الجاهلية
(قبل الإسلام) أعداءً ألداءً ، فألف الله بين قلوبكم بالإسلام ، وجمعتكم على الإيمان ، فصرتكم

٥٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٣٣ ، ٤٣٤) : ((قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾
اختلفوا فيمن أريد بهذا الكلام على قولين : أحدهما أنهم مشركو العرب ، كان القوي يستبيح الضعيف ،
قاله الحسن وقتادة . والثاني الأوس والخزرج ، كان بينهم حرب شديدة ، قاله ابن إسحاق . والأعداء جمع
عدو . قال ابن فارس : وهو من عدا إذا ظلم . قوله تعالى : ﴿ فأصبحتم ﴾ ، أي صرتم . قال الزجاج : وأصل
الأخ في اللغة أنه الذي مقصده مقصد أخيه ، والعرب تقول : فلان يتوخى مسار فلان ، أي : ما يسره)) .

برحمة الله ونعمته (دينه الإسلام) إخوانًا مُتَحَابِّينَ فِي الدِّينِ ، وَمُجْتَمِعِينَ عَلَى الأُخُوَّةِ فِي اللّهِ تعالى ، وَمُتَّفِقِينَ عَلَى كَلِمَةِ الحَقِّ .

وقيل : كان الأوسُ والخزرجُ أخوينَ ، فَوَقَعَ بَيْنَ أولادِهِمَا العداوةُ ، وتطاولت الحروبُ مئةَ وعشرينَ سَنَةً ، حتى أطفأها اللهُ بالإسلام ، وألَّفَ بَيْنَهُم برسوله الكريم ﷺ .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٣٧٨) : ((واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم ، حين كنتم أعداءً في شرككم ، يقتل بعضكم بعضاً عَصِيَّةً فِي غَيْرِ طاعةِ اللهِ ، ولا طاعةِ رسوله ، فألَّفَ اللهُ بالإسلام بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَجَعَلَ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً ، تتواصلون بِاللُّفَةِ الإِسْلامِ ، واجتماعِ كَلِمَتِكُمْ عليه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥١٤) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ ، إلى آخِرِ الآية . وهذا السِّيَاقُ فِي شأنِ الأوسِ والخزرجِ ، فَإِنَّهُ قَدْ كانَ بَيْنَهُم حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الجاهليَّةِ ، وعداوةٌ شديدةٌ ، وضغائنٌ ، وإحنٌ (أحقاد) ودُخُولٌ (جَمْعُ ثَأر) ، طال بسببها قتالُهُم والوفائعُ بَيْنَهُم ، فلمَّا جاءَ اللهُ بالإسلام فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُم ، صاروا إخوانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلالِ اللهِ ، مُتواصلينَ فِي ذاتِ اللهِ ، مُتعاونينَ على البرِّ والتقوى)) .

فِي الآيةِ الشريفةِ تذكيرٌ للعربِ كيف كانوا فِي الجاهليةِ ، فقد قَصَّوا حياتَهُم فِي الحُرُوبِ فيما بَيْنَهُم ، والاقْتتالِ على أنْفِهِ الأسبابِ . وكانوا يعتمدون على العزْرِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ ، ضَمِنَ فَوْضَى عارمةً ، فلا وازعَ ديني ، ولا قِيمَ أخلاقيةِ رادعةٍ . لكنَّ اللهُ مَنْ عَلَيْهِم ، فنقلَهُم مِنَ العداوةِ والحقدِ فيما بَيْنَهُم إلى المَحَبَّةِ والأُلْفَةِ ، فصاروا إخوانًا على قلبِ رَجُلٍ واحدٍ . وكانوا على شَفِيرِ الهاويةِ سائرينَ إلى النارِ ، فأنقذَهُم اللهُ مِنْها بأن أرسَلَ إِلَيْهِم مُحَمَّدًا ﷺ خَيْرَ رُسُلِهِ ، وأنزَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ أعظمَ كُتُبِهِ ، ونَقَلَهِم مِنَ الجاهليَّةِ إلى الحَضارَةِ ، وأخرجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ، وأنقذَهُم مِنَ النارِ ، وجعلَهُم على طريقِ الجَنَّةِ .

و[عن زيد بن أسلم قال: مرَّ شَأْسُ بنِ قَيْسٍ ، وكان شيخًا قد عَسَا (كَبُرَ وَأَسَنَّ) فِي الجاهليةِ ، عظيمَ الكُفْرِ ، شديدَ الضُّغْنِ (الحِقْدِ) على المسلمين ، شديدَ الحَسَدِ لَهُم ، على نَفَرٍ مِنَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنَ الأوسِ والخزرجِ فِي مَجْلِسٍ قد جَمَعَهُم يتحدَّثون فِيهِ ، فَعَاظَهُ ما رأى مِنَ جَماعَتِهِم وألْفَتِهِم ، وصَلاحِ ذاتِ بَيْنِهِم على الإسلامِ ، بعد الذي كان بَيْنَهُم مِنَ العداوةِ فِي الجاهليَّةِ ، ... ، فأمرَ فَتَى شابًّا مِنَ يَهُودِ وكان معه ، فقال : اعمِدْ إِلَيْهِم ، فَاجلِسْ مَعَهُم ، واذكُرْهُم

يَوْمَ بُعَاثَ ، وما كان قبْلَه ، وأنشدْهم بعضَ ما كانوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ _ وكان يوم بُعَاثَ يَوْمًا اقْتَلَتْ فِيهِ الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ، وكان الظَّفَرُ فِيهِ لِلأَوْسِ عَلَى الخَزْرَجِ _ فَفَعَلَ فَتَكَلَّمَ القَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ فَتَنَارَعُوا وَتَفَاخَرُوا ، ... ، فانصَمَّتْ الْأَوْسُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَالخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، عَلَى دَعْوَاهُم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى جَاءَهُمْ فَقَالَ : ((يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ اللَّهُ اللَّهُ ، أَبَدَعُوا الجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى الإسلامِ ، وَأَكْرَمَكُم بِهِ ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمُ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ ، وَاسْتَنْقَذَكُم بِهِ مِنَ الكُفْرِ ، وَأَلْفَ بِهِ بَيْنَكُمُ ، تَرْجِعُونَ إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفْرًا ؟)) ، فَعَرَفَ القَوْمُ أَنَّهَا نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، فَأَلْقَوْا السَّلَاحَ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَبَكَوْا ، وَعَانَقَ الرَّجَالُ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ انصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ [٥٨ .

الأصابع اليهودية في التحريش بين الأوس والخزرج واضحة المعالم . واليهود يهدفون إلى السيطرة على المجتمعات عن طريق تمزيقها ، وبث روح الفرقة فيها ، فتتهار من الداخل ، ويظل اليهود هم أصحاب الكلمة العليا ، وأصحاب النفوذ والسلطة والسطوة . وسياستهم الشهيرة هي " فَرَّقْ تَسُدْ " . وقد كانت العداوة بين الأوس والخزرج في الجاهلية شديدة للغاية ، حيث خاضوا حُرُوبًا شَرِسَةً حَصَدَتِ الْأَخْضَرَ وَالْيَابِسَ . وَكَمَا يُقَالُ : مُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْعَرَ الشَّرِّ .

وقد روى الطبري في تفسيره (٣ / ٣٧٨) أَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَهُمَا اسْتَمَرَّتْ مِئَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَكَمْ تَخَمَدَ نَارُ الْفِتْنَةِ وَالْحَرْبِ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِمَجِيءِ الإسلامِ الَّذِي أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَنَزَعَ الْحَقْدَ مِنْ صُدُورِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ الإِلَهِيَّةِ . وَهَذَا تَسْجَلِي عَظَمَةُ الإسلامِ الَّذِي وَحَدَّ الصُّفُوفَ رَغْمَ تَارِيخِ الْعَدَاوَةِ الشَّدِيدِ وَالطَّوِيلِ ، وَقَضَى عَلَى الجَاهِلِيَّةِ ، وَنَقَلَ النَّاسَ إِلَى الْحَضَارَةِ رُوحًا وَمَادَّةً .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : ((يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِِي ؟ ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِِي ؟ ، وَكُنْتُمْ عَائِلَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِِي ؟)) [٥٩ .

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُذَكِّرُ الْأَنْصَارَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، فَقَدْ كَانُوا فِي ضَلَالَةِ الشَّرِّكَ هَائِمِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي مَتَاهَاتِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِلَا وَزْنٍ وَلَا حَضَارَةٍ ، فَهَدَاهُمُ اللَّهُ إِلَى الْحَقِّ بِأَنَّ

٥٨ رواه الطبري في تفسيره (٣ / ٣٧٠) . وانظر الدر المنثور للسيوطي (٢ / ٢٧٨ و ٢٧٩) .

٥٩ متفق عليه . البخاري (٤ / ١٥٧٤) برقم (٤٠٧٥) ، ومسلم (٢ / ٧٣٨) برقم (١٠٦١) .

أرسل إليهم صفوة خلقه مُحَمَّدًا ﷺ فأخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ، أي : إنَّ الله هداهم بالإيمان الذي أرسل به مُحَمَّدًا ﷺ . وكانوا مُتَفَرِّقِينَ مُتَنَاحِرِينَ مُتَقَاطِعِينَ ، يُحَارِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كما في حَرْبِ بُعَاثَ ، ولا يَجْتَمِعُونَ على أمر ، ولا يَتَّفِقُونَ على كلمة ، فَجَمَعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ، وَأَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ أُسْرَةً وَاحِدَةً مُتَمَاسِكَةً وَقَوِيَّةً ، يَسُودُهَا الْحُبُّ والاحترام والأخوة . وكانوا فُقَرَاءَ مُحْتَاجِينَ ، فأغناهم الله بالنبي ﷺ .

لقد حَرَّكَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمُ العواطفَ الإيمانية، وَذَكَّرَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْجَازَاتِ رَسُولِهِ ﷺ . فقد كانوا غارقين في الضلال ، فهداهم الله بأن أرسل إليهم خَيْرَ رُسُلِهِ ، وكانوا مُتَفَرِّقِينَ مُتَنَاحِرِينَ غارقين في حروب لا نهاية لها ، فجعلهم الله إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ ، وَأَزَالَ مِنْ قُلُوبِهِمُ الحِقْدَ وَالثُّرُقَةَ بأن أرسل إليهم النَّبِيَّ ﷺ هَادِيًا . وكانوا فقراء فجعلهم الله أغنياء بالنبي ﷺ ، لا يَحْتَاجُونَ إلى أحد .

وقال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا (حادثة قتل قابيل لهابيل) ، فَرَضَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَحَكَّمَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بَرِيئَةً ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، أَوْ قَتَلَهَا بِغَيْرِ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ (مثل الشُّرْكَ أَوْ قَطَعَ الطَّرِيقَ) فَكَأَنَّهُ قَتَلَ جَمِيعَ النَّاسِ ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ . وَمَنْ سَاهَمَ فِي الْإِبْقَاءِ عَلَى حَيَاةِ نَفْسٍ بَشَرِيَّةٍ ، وَأَنْقَذَهَا مِنَ الْهَلَاكِ ، كَالْقَتْلِ أَوْ الْغُرْقِ أَوْ الْحَرْقِ أَوْ الْهَدْمِ ، فَكَأَنَّهُ أَحْيَا جَمِيعَ النَّاسِ . وهذا هو المعنى المقصود . أَمَّا إِحْيَاءُ النَّفْسِ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ .

وهذا التشريع الإلهي العظيم يدلُّ على أَنَّ الاعْتِدَاءَ عَلَى النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ، هُوَ اعْتِدَاءٌ عَلَى جَمِيعِ النَّفُوسِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ ، فَالْكِيَانُ الْآدَمِيُّ كُلُّهُ لَا يَتَجَرَّأُ ، وَوَحْدَةً وَاحِدَةً لَا انْفِصَالَ فِيهَا . وَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مَهْمَا كَانَ دِينَهُ وَعَقِيدَتُهُ وَجِنْسُهُ وَعِرْقُهُ . وَقَتْلُ الْفَرْدِ هُوَ تَكْرِيسٌ لِقَتْلِ الْجَمَاعَةِ ، وَهَدْمُ لِلْمُنْجِزَاتِ الْحَضَارِيَّةِ ، وَتَدْمِيرُ لِمَعَالِمِ الْمَدِينَةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّهُ يَفْتَحُ الْبَابَ أَمَامَ الْأَحْقَادِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَثِقَافَةِ الْإِنْتِقَامِ ، وَالثَّارِ ، وَالْقَتْلِ ، وَالْإِبَادَةِ . وَإِذَا زَالَ الْجُزْءُ زَالَ الْكُلُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٦٥) : ((يقول تعالى : مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أَي : شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أَي : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْ قِصَاصٍ ، أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ، وَاسْتَحْلَقَهَا بِسَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ ، فَكَأَنَّمَا

قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ . ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أَي : حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ)) .

إِنَّ الْآيَةَ تُنْفَرُ مِنْ قَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ ، وَسَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ . وَجَرِيمَةُ الْقَتْلِ فِي غَايَةِ السُّوءِ وَالْقُبْحِ . وَقَتْلُ شَخْصٍ وَاحِدٍ وَقَتْلُ جَمِيعِ النَّاسِ سَوَاءٌ فِي نُزُولِ غَضَبِ اللَّهِ ، وَاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ . وَالشَّرِيعَةُ الْإِلَهِيَّةُ تُحَرِّمُ الْقَتْلَ إِلَّا فِي ثَلَاثِ حَالَاتٍ : كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ زِنَا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ قَتْلِ نَفْسٍ بَرِيئَةٍ .

وَقَالَ الْبِيضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣١٩) : ((﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بَغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أَي : بَغَيْرِ قَتْلِ نَفْسٍ يُوجِبُ الْإِقْتِصَاصَ ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَوْ بَغَيْرِ فَسَادٍ فِيهَا كَالشَّرْكِ أَوْ قَطْعِ الطَّرِيقِ ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ هَتَكَ حُرْمَةَ الدَّمَاءِ ، وَسَنَّ الْقَتْلَ ، وَجَرَأَ النَّاسَ عَلَيْهِ ، أَوْ مِنْ حَيْثُ أَنَّ قَتْلَ الْوَاحِدِ وَقَتْلَ الْجَمِيعِ سَوَاءٌ فِي اسْتِجْلَابِ غَضَبِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْعَذَابِ الْعَظِيمِ ، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ، أَي : وَمَنْ تَسَبَّبَ لِبَقَاءِ حَيَاتِهَا بَعْفُو أَوْ مَنَعَ عَنِ الْقَتْلِ ، أَوْ اسْتِنْقَازَ مِنْ بَعْضِ أَسْبَابِ الْهَلَكَةِ ، فَكَأَنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ بِالنَّاسِ جَمِيعًا . وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ تَعْظِيمُ قَتْلِ النَّفْسِ ، وَإِحْيَائِهَا فِي الْقُلُوبِ تَرْهِيبًا عَنِ التَّعَرُّضِ لَهَا ، وَتَرْغِيبًا فِي الْمُحَامَاةِ عَلَيْهَا)) .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ١٣٩) : ((وَخُصَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالذِّكْرِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَهُمْ أُمَّمٌ قَبْلَهُمْ كَانَتْ قَتْلَ النَّفْسِ فِيهِمْ مَحْظُورًا ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ أُمَّةٍ نَزَلَ الْوَعِيدُ عَلَيْهِمْ فِي قَتْلِ الْأَنْفُسِ مَكْتُوبًا ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَوْلًا مُطْلَقًا ، فَغَلَّظَ الْأَمْرَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْكِتَابِ بِحَسَبِ طُعْيَانِهِمْ وَسَفْكِهِمْ الدَّمَاءِ)) .

فِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَمَرُّوْا الْقَتْلَ ، وَمَارَسُوهُ بِكَثْرَةٍ ، وَاعْتَمَدُوا سَفْكَ الدَّمَاءِ مِنْهُجًا حَيَاتِيًّا ثَابِتًا وَرَاسِخًا ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَوْجِيهِهِمْ ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ ، وَتَحْذِيرِهِمْ ، وَتَنْبِيهِهِمْ ، وَرَدْعِهِمْ ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ خَطُورَةِ قَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ مَعْصُومِي الدَّمِ ، وَضَرُورَةِ الْإِبْتِعَادِ عَنِ سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ . وَجَاءَ التَّشْدِيدُ عَلَيْهِمْ ، وَتَخْصِيصُهُمْ بِالذِّكْرِ ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ جَرَائِمِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَعِنَادِهِمْ . وَالْآيَةُ تُشِيرُ إِلَى خُطُورَةِ الْقَتْلِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ ، وَأَنَّ الْكِيَانَ الْإِنْسَانِيَّ لَهُ احْتِرَامُهُ فِي الْمَنْظُورِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانَةُ الْإِعْتِبَارِيَّةُ ، إِذْ إِنَّ قَتْلَ الْفَرْدِ قَتْلٌ لِلْجَمَاعَةِ . وَهَذِهِ النُّظُرَةُ الشَّرْعِيَّةُ تَقُودُ إِلَى تَدْعِيمِ الْوَحْدَةِ الْجَمَاعِيَّةِ ، وَتَقْوِيَةِ الرُّوَاطِئِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ ، وَإِحَاطَةِ الْكِيَانَ الْإِنْسَانِيِّ بِسُورٍ وَاقٍ يَحْمِيهِ مِنْ عَثِّ الْعَابَثِينَ وَجَرَائِمِ الْفَاسِدِينَ .

وَكُلُّ إنسان معصوم الدم حتى يثبت العكس ، ولا يُهدَر دَم إنسان ولا يُراق إلا بأحكام الشريعة الإلهية . وهذه الحصانة الإلهية الممنوحة للإنسان تُشير إلى مركزيته في الأرض ، ودوره المحوري في إعمارها ، وأهميته في بناء الحضارة الإنسانية ، وأنه كائن محترم وشريف ومُكْرَم ، وله حُرمة مُعْتَبَرة ، ومكانة وجودية عظيمة ، ومنزلة اجتماعية رفيعة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٤٠ و ٣٤١ و ٣٤٢) : ((ومعنى ﴿ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أي : قَتَلَهَا ظُلْمًا ، وَلَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا ، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ فساد منسوق على نفس . المعنى : أو بغير فساد تستحق به القتل . وقيل : أراد بالفساد هاهنا الشرك . وفي معنى قوله : ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ خمسة أقوال : أحدها أن عليه إثم من قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، قاله الحسن والرَّجَاح . والثاني أنه يَصْلَى النار بقتل المسلم كما لو قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، قاله مجاهد وعطاء . وقال ابن قُتَيْبَةَ : يُعَذَّب كما يُعَذَّب قاتل الناس جميعًا . والثالث أنه يجب عليه من القصاص مثل ما لو قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، قاله ابن زيد . والرابع أن معنى الكلام ينبغي لجميع الناس أن يُعِينُوا وَلِيَّ المقتول حتى يقيده منه ، كما لو قَتَلَ أولياءهم جميعًا ، ذكره القاضي أبو يعلى . والخامس أن المعنى من قَتَلَ نَبِيًّا أو إمامًا عادلًا ، فكأنما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، رواه عكرمة عن ابن عباس . والقول بالعموم أصح . فإن قيل : إذا كان إثم قاتل الواحد كإثم من قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، دَلَّ هذا على أنه لا إثم عليه في قَتَلَ مَنْ يَقْتُلُهُ بعد قتل الواحد إلى أن يفنى الناس ، فالجواب أن المقدر الذي يستحقه قاتل الناس جميعًا معلوم عند الله محدود ، فالذي يقتل الواحد يلزمه ذلك الإثم المعلوم . والذي يقتل الاثنين يلزمه مثله ، وكلما زاد قتلاً زاده اللهُ إثمًا . ومثل هذا قوله : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمثالها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . فالحسنة معلوم عند الله مقدار ثوابها ، فعاملها يُعْطَى بِمِثْلِ ذلك عشر مرَّات ، وهذا الجواب عن سؤال سائل إن قال : إذا كان من أحيا نفسًا فله ثواب من أحيا الناس ، فما ثواب من أحيا الناس كُلَّهُمْ ؟ . هذا كُله منقول عن المُفسِّرين . والذي أراه أن التشبيه بالشيء تقريب منه ، لأنه لا يجوز أن يكون إثم قاتل شخصين كإثم قاتل شخص ، وإنما وقع التشبيه بـ " كأنما " لأن جميع الخلائق من شخص واحد ، فالمقتول يُتصوَّر منه نشر عدد الخلق كُلَّهُمْ . وفي قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ خمسة أقوال : أحدها استنقذها من هلكة ، رُوِيَ عن ابن مسعود ومجاهد . قال الحسن : من أحياها من غرق أو حرق أو هلاك ، وفي رواية عكرمة عن ابن عباس : " مَنْ شَدَّ عَضُدَ نَبِيٍّ أو إمام عادل ، فكأنما أحيا الناس جميعًا " . والثاني ترك قَتَلَ النَّفْسِ المُحَرَّمَةِ ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية . والثالث أن يَعْفُو

أولياء المقتول عن القصاص ، قاله الحسن وابن زيد وابن قتيبة. والرابع أن يزجر عن قتلها وينهى .
والخامس أن يعين الولي على استيفاء القصاص ، لأن في القصاص حياةً ، ذكرهما القاضي أبو يعلى .
وفي قوله : ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ قولان : أحدهما أنه أجر من أحيا الناس جميعاً ، قاله
الحسن وابن قتيبة . والثاني فعلى جميع الناس شكره ، كما لو أحياهم ، ذكره الماوردي .
إن بني إسرائيل غرقوا في القتل وسفك الدماء ، وتعاملوا مع الأنبياء الكرام بوقاحة وعناد ،
وتكبروا عليهم ، وأهانوهم ، وكذبوهم ، وقتلوهم . وقد اعتنق بنو إسرائيل القتل منهجاً حياتياً
وجودياً راسخاً لا رجعة عنه ، وارتكبوا أسوأ أنواع الجرائم ، واقترفوا الذنوب والآثام والموبقات .
لقد أرسل الله الأنبياء إلى بني إسرائيل لهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصواب ،
وإخراجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ، وإنقاذهم من النار ، وقيادتهم إلى
الجنة . فماذا كانت النتيجة ؟ . تعامل اليهود مع الأنبياء باحتقار وازدراء واستكبار ، وقتلوهم بدم
بارد ، بلا إثم ولا ذنب ولا جريمة ، ذون وازع ديني أو رادع أخلاقي ، وذون التفات إلى الشريعة ،
أو العلاقات الاجتماعية ، أو القيم الإنسانية .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] .
فإن تابوا عن الكفر ، وأقاموا الصلاة ، وأعطوا الزكاة ، فهم إخوانكم في دين الإسلام ، لهم
ما لكم ، وعليهم ما عليكم . أي إنهم إذا تركوا الكفر ، والنزمو شرائع الإسلام وأحكامه وفرائضه ،
ثبتت لهم أخوة الدين . وقد فرض الله الصلاة (أعظم أركان الإسلام العملية) والزكاة (أعظم
أركان الإسلام المالية) ، ولم يفرق بينهما .

وفي تفسير القرطبي (٧٦ / ٨) : ((قال ابن عباس : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة)) .
وقال الطبري في تفسيره (٣٢٨ / ٦) : ((يقول جل ثناؤه : فإن رجع هؤلاء المشركون الذين
أمرتكم أيها المؤمنون بقتلهم ، عن كفرهم وشركهم بالله ، إلى الإيمان به وبرسوله ، وأنبأوا إلى طاعته
﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ المكتوبة فأدوها بخدودها ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة أهلها ﴿ فإخوانكم في
الدين ﴾ ، يقول : فهم إخوانكم في الدين الذي أمركم الله به ، وهو الإسلام)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] .
إن الله يخرج من صدور المؤمنين الحقد الذي كان بينهم في الدنيا ، فتصبح قلوبهم صافية ،
لا شائبة فيها ، فلا يكره أحدهم الآخر ، ولا يحقد أحد على أحد ، ولا يكون بينهم إلا المودة .
والله يطهر قلوب أهل الجنة من الأحقاد والضغائن والكراهية .

إنَّ صاحب الحِجْد مُعَذَّب به ، ولا عذاب في الجَنَّة ، ويَكُونون في أحسن حال ، فَهَمَّ إخوان لا يَنْظر بعضهم إلى قَفَا بعض تَواصُلًا وتَحَابًُّا . إِنَّهُم مُتَقَابِلُونَ ، وذلك بسبب دَوْران الأَسِرَّة بهم . إنَّ صُدورهم نَقِيَّة طاهرة ، والمَكَان الذي يُوجَدون فيه (الجَنَّة) نَقِيٌّ طاهر .

وقال القرطبي في تفسيره (٣١ / ١٠) : ((قال ابن عباس : أوَّل ما يَدْخُل أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ تُعْرَضُ لَهُم عَيْنان ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ إحدَى العَيْنَيْنِ ، فَيُذْهِبُ اللَّهُ ما في قلوبهم مِنْ غِلِّ ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ العَيْنَ الأُخْرَى ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهَا ، فَتُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ ، وَتَصْفُو وُجُوهُهُمْ ، وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ نَضْرَةٌ النَّعِيمِ ، وَنَحْوَهُ عَنْ عَلِيٍّ رضي اللهُ عنه... . ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ ، أَي : لا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ ، تَواصُلًا وتَحَابًُّا ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِ . وَقِيلَ : الأَسِرَّةُ تُدَوِّرُ كَيْفَمَا شَاءُوا ، فلا يَرى أَحَدٌ قَفَا أَحَدٍ . وَقِيلَ : ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ ، قد أَقْبَلت عَلَيْهِم الأَزْواجُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِنَّ بِالْوُدِّ ... قال ابن عباس : على سُرُرٍ مُكَلَّلَةٍ باليَاقوتِ والزُّبرجدِ والدُّرِّ ، السَّرِيرِ ما بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى الجَابِيَّةِ ، وما بَيْنَ عَدَنَ إِلَى أَيْلَةَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٩٩ و ٢٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ ، فَيَمْنِ عُنْيَ بِهَذِهِ الآيَةِ أَرْبَعَةٌ أَقْوال : أَحَدُها أَهلُ بَدْرٍ . رَوَى الحَسَنُ عَنْ عَلِيٍّ رضي اللهُ عنه أَنه قال : فِينا وَاللَّهِ أَهلُ بَدْرٍ نَزَلَتْ : ﴿ وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ . وَروى عمرو ابن الشَّرِيدِ عَنْ عَلِيٍّ أَنه قال : إِنِّي لأَرْجُو أَن أَكُونَ أنا وَعُثْمانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قالَ اللَّهُ : ﴿ وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ . والثاني أَنَّهُم أَهلُ الأَحْقادِ مِنْ أَهلِ الجاهليةِ حينَ أسَلَمُوا . روى كَثِيرُ النَّوَّاءِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قال : نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيٍّ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، قلتُ لأَبِي جَعْفَرٍ : فَأَيُّ غِلٍّ هُوَ ؟ ، قال : غِلُّ الجاهليةِ ، كانَ بَيْنَ بَنِي هاشمَ وَبَنِي تَيْمٍ وَبَنِي عَدِيٍّ فِي الجاهليةِ شَيْءٌ ، فَلَمَّا أسَلَمَ هؤُلاءِ تَحَابُّوا ... والثالث أَنَّهُم عَشْرَةٌ مِنَ الصَّحابةِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وقاصٍ وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، قاله أَبُو صالحٍ . والرابع أَنها فِي صِفَةِ أَهلِ الجَنَّةِ إِذا دَخَلُوها)) .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٣٩٤) : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَعْنَا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ ، أَن أَبا سَعِيدِ الخُدْرِيَِّ رضي اللهُ عنه . قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : ((يَخْلُصُ المُؤْمِنونَ مِنَ النارِ ، فَيَحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظالِمِ كانتَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيا ، حَتَّى إِذا هُدُّبوا وَنُقِّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ)) .

إنَّ اللَّهَ يُنَجِّي المُؤْمِنينَ مِنَ النارِ ، لَكِنَّهُم لا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، فَالجَنَّةُ لا يَدْخُلُها إِلا الأَنْبياءُ مِنَ كُلِّ شائِبَةٍ ، وَلا يَفْقدُ المَلوْثونَ على دُخولِها . لذلك يُحْبَسونَ على جِسْرٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ مِنْ أَجْلِ

تطهيرهم بشكل كامل ، وهذه القنطرة (الجسر) تكملة للصراط الموجود على جهنم ، وليست صراطاً جديداً . وعلى هذه القنطرة تحدث عملية القصاص ، حيث يأخذ كل ذي حق حقه من الآخر ، وهي المظالم التي كانت بينهم في الحياة الدنيا ، وعندما تنتهي هذه العملية ، يكونون في قمة الطهارة والتقاء ، وعندئذ يؤذن لهم بدخول الجنة ، فالجنة النقية لا تستقبل إلا الأنقياء .

يوضح الحديث مشهداً عظيماً من مشاهد يوم القيامة الرهيب ، حيث يحبس المؤمنون بعد أن يتجاوزوا الصراط ، ويُنَجِّهِمُ اللهُ بفضلِهِ ورحمته من النار ، فتوقفهم الملائكة على قنطرة أو جسر بين الجنة والنار ، فيقتص المظلوم من ظالمه حقه الذي اعتدى عليه في الدنيا . وهذه المقاصة هي لقوم دون قوم ، وهم من لا تستغرق مظالمهم جميع حسناتهم ، لأنه لو استغرقت جميعها لكانوا ممن وجب لهم العذاب ، ولما جاز أن يقال فيهم إنهم قد خلصوا من النار . إنهم يتقاصون بالحسنات بعد خلاصهم من النار ، لأن أحداً لا يدخل الجنة لأحد عليهم تبعة . حتى إذا طهروا وتخلصوا من حقوق الناس ، أدخلوا الجنة بفضل الله ورحمته .

لقد حرم الله الظلم على نفسه ، وجعله محرماً بين عباده ، وتوعد الظالمين بالقصاص منهم والعذاب ، فإن أفلت الظالم في الدنيا بظلمه ، فلا مفر له يوم القيامة ولا ملجأ له من الله تعالى ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا سلطة ولا جاه ولا نفوذ .

والحديث يُحذِّرُ مِنَ الْمَظَالِمِ ، ويؤكد على أنه ما من حق إلا سيرجع لصاحبه يوم القيامة . وحقوق العباد لا تسقط بالتوبة ، فيجب _ بالإضافة إلى التوبة _ إعادتها إلى أصحابها ، أو طلب المسامحة منهم .

وقال القرطبي في التذكرة (١ / ٣٩٢) : ((معنى " يخلص المؤمنون من النار " أي يخلصون من الصراط المصروب على النار ، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال . قال مقاتل : إذا قطعوا جسر جهنم حيسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه : سلام عليكم ، بمعنى التحيّة ، طبتُم فادخلوها خالد بن)) .

وعن ربي بن حراش قال : إني لعند علي _ رضي الله عنه _ جالس ، إذ جاء ابن لطلحة ، فسلم على علي _ رضي الله عنه _ فرحب به ، فقال : تُرحب بي يا أمير المؤمنين وقد قتلت أبي وأخذت مالي ؟ ، قال : ((أمّا مالك فهو ذا معزول في بيت المال ، فأعد إلى مالك فخذهُ ، وأمّا قولك : قتلت أبي ، فإنني أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله _ عز وجل _ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا

في صدورهم من غلّ إخواناً على سررٍ متقابلين ﴿﴾))، فقال رجل من همدان : إنَّ الله أعدل من ذلك، فصاح عليه عليٌّ صبيحةً تداعى لها القصر، قال: ((فَمَنْ إِذَا إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ أَوْلَكَ ؟))^{٦٠} .
 طلحة هو طلحة بن عبّيد الله _ رضي الله عنه _ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وقد عظم عليه قتل عثمان _ رضي الله عنه _ ، واعتبر نفسه مقصراً في الدفاع عنه ، فخرج من أجل المطالبة بدم عثمان ، وقد قُتل في وقعة الجمل التي جرت بين عليٍّ وعائشة _ رضي الله عنهما _ بلا تخطيط . لذلك اعتبر ابن طلحة عليّاً مسؤولاً عن قتل أبيه . وهذا غير صحيح البتة^{٦١} .

وقال الذهبي في دُول الإسلام (٢٨ / ١): ((إنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمَ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ _ رضي الله عنهم _ نَدِمُوا وَعَظَمَ عَلَيْهِمْ قَتْلَهُ (يعني قتل عثمان رضي الله عنه) ، ورأوا أنّهم قد قصروا في نصرته ، فخرجوا على وجوههم قاصدين البصرة للطلب بدمه من غير أمر عليٍّ ، وذلك أنّ قتلة عثمان التّفوّا على عليٍّ ، وصاروا من رؤوس المأ ، وخاف هو من أن ينتقض الناس ، فسار بعسكر المدينة وبرؤوس قتلة عثمان إلى العراق ، فجرت بينه وبين عائشة وُقعة الجمل بلا علم ولا قصد ، والتحم القتال من الغوغاء ، وخرج الأمر عن عليٍّ وعن طلحة والزبير ، وقُتل من الفريقين نحو من عشرين ألفاً ، وقُتل طلحة والزبير)) .

وقال الإيجي في المواقف (٣ / ٦٤٣ و ٦٤٤) : ((يجب تعظيم الصحابة كلّهم ، والكف عن القدح فيهم ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى عظمهم ، وأثنى عليهم في غير موضع من كتابه ، كقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [التَّحْرِيم : ٨] . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ

٦٠ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٥) برقم (٣٣٤٨) وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

٦١ قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧ / ٢٤٨) عن طلحة بن عبّيد الله _ رضي الله عنه _ : ((فلما كان قضية عثمان ، اعتزل عنه ، فنسبته بعض الناس إلى تحامل فيه ، ولهذا لما حضر يوم الجمل واجتمع به عليٌّ فوعظه تأخّر ، فوقف في بعض الصُّفوف ، فجاءه سهم غرّب (لا يُعرف راميّه) ، فوقع في ركبته ، وقيل : في رقبته . والأول أشهر . وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس ، فجمح به حتى كاد يُلقيه ، وجعل يقول : إِيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، فأدرکه مؤلّی له فركب وراءه وأدخله البصرة ، فمات بدارٍ فيها ، ويُقال : إنّه مات بالمعركة ، وإنَّ عَلِيًّا لَمَّا دَارَ بَيْنَ الْقَتْلَى رَأَاهُ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ وَجْهِهِ التَّرَابَ ، وَقَالَ : رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ أبا محمّد ، يَعُزُّ عَلَيَّ أَنْ أَرَاكَ مَجْدُولًا تَحْتَ نَجْمِ السَّمَاءِ)) .

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴿ [الفتح: ٢٩] .
وقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] ، إلى غير ذلك
من الآيات الدالة على عِظَم قَدْرِهِمْ وَكِرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ . والرسول قد أَحَبَّهُمْ ، وأثنى عليهم في
أحاديث كثيرة مِنْهَا قَوْلُهُ : " خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ " ثُمَّ إِنَّ
مَنْ تَأَمَّلَ سِيرَتَهُمْ ، ووقف على مآثرهم وجَدَّهُمْ فِي الدِّينِ ، وبَدَّلَهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي نُصْرَةِ اللَّهِ
ورسوله ، لَمْ يَتَخَالَجْهُ شَكٌّ فِي عِظَمِ شَأْنِهِمْ ، وبراءتهم عَمَّا يَنْسُبُ إِلَيْهِمُ الْمُبْطِلُونَ مِنَ الْمَطَاعِنِ ،
وَمَنْعَهُ ذَلِكَ _ أَي تَيَقُّنُهُ بِحَالِهِمْ _ عَنِ الطَّعْنِ فِيهِمْ ، فرأى ذلك مُجَابِنًا لِلإِيمَانِ ، وَنَحْنُ لَا نُلَوِّثُ
كِتَابَنَا بِأَمْثَالِ ذَلِكَ ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي الْمَطُورَاتِ مَعَ التَّفْصِيْلِ عَنْهَا ، فارجع إليها إِنْ أَرَدْتَ الْوُقُوفَ
عَلَيْهَا . وَأَمَّا الْفِتْنُ وَالْخُرُوبُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ، فَالهِشَامِيَّةُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنْكَرُوا وَقُوعَهَا ، وَلَا شَكَّ
أَنَّهُ مُكَابِرَةٌ لِلتَّوَاتُرِ فِي قَتْلِ عُثْمَانَ وَوَقْعَةِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ . وَالْمُعْتَرِفُونَ بِوُقُوعِهَا مِنْهُمْ مَنْ سَكَتَ عَنِ
الْكَلَامِ فِيهَا بِتَخَطُّئِهِ أَوْ تَصْوِيبِ ، وَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ، فَإِنْ أَرَادُوا أَنَّهُ اشْتِغَالَ بِمَا لَا يَعْني ،
فَلَا بَأْسَ بِهِ ، إِذْ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ : تِلْكَ دِمَاءُ طَهَّرَ اللَّهُ عَنْهَا أَيْدِيَنَا ، فَلَنْطَهَّرَ عَنْهَا
أَلْسِنَتَنَا . وَإِنْ أَرَادُوا أَنَّا لَا نَعْلَمُ أَوْقَعَتْ أَمْ لَا ، فباطل ، لوقوعها قطعاً والذي عليه الجمهور من
الأئمة هو أَنَّ الْمُخْطِئَ قَتَلَهُ عُثْمَانُ وَمُحَارِبُو عَلِيٍّ ، لِأَنَّهُمَا إِمَامَانِ ، فَيَحْرُمُ الْقِتَالُ وَالْمُخَالَفَةُ قَطْعًا)) .
وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال : رأيتُ عَلِيًّا _ رضي اللهُ عنه _ بالخَوَزَنَقِ ٦٢ ، وَهُوَ عَلَى
سِرْبِهِ ، وَعِنْدَهُ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ ، فَقَالَ : ((إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَبُوكَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ _ عَزَّ
وَجَلَّ _ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾)) ٦٣ .
عُثْمَانُ هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ _ رضي اللهُ عنه _ وَقَدْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ _ رضي اللهُ
عنه _ سُوءٌ فَهَمَّ . وَذَهَبَتِ النَّوَاصِبُ إِلَى أَعْيُنِ الْعُرَبِ مِنْ هَذَا ، فَاتَّهَمُوا عَلِيًّا بِقَتْلِ عُثْمَانَ ، أَوْ الإِعَانَةَ
عَلَيْ قَتْلِهِ .

وَمَا هُوَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ _ رضي اللهُ عنه _ يَرْجُو أَنْ يَجْتَمِعَ مَعَ عُثْمَانَ وَطَلْحَةَ _ رضي اللهُ
عنه _ فِي الْجَنَّةِ ، وَهُمْ فِي قِمَّةِ الصَّفَاءِ وَالتَّقَاءِ ، صُدُورُهُمْ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْحِقْدِ وَالضَّغِينَةِ . وَالدُّنْيَا
فَانِيَّةٌ وَزَائِلَةٌ بِحُلُومِهَا وَمُرَّهَا . وَسَوْفَ يَجْمَعُ اللَّهُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَطَلْحَةَ فِي الْجَنَّةِ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ .

٦٢ في مختار الصحاح (١/١٩٦) : ((الخَوَزَنَقُ اسم قَصْرٍ بِالْعِرَاقِ ، بَنَاهُ النُّعْمَانُ الْأَكْبَرُ ، وَهُوَ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ)) .

٦٣ رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ١١٣) برقم (٤٥٦٣) ، وسكت عنه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الْحُجُرَات : ١٣] .^{٦٤}

الخطاب الإلهي لجميع البشر . يا أيها الناس ، إن الله المتصف بالقدرة المطلقة خلقكم من آدم وحواء ، وكلكم أبناء أب واحد وأم واحدة ، فلا تفاخر بينكم بالآباء ، ولا تفاضل بينكم في النسب ، أصلكم واحد ، والكل سوا ، وأنتم متساوون في النسب، كلُّكم لآدم ، وآدم من تراب . وهذا زجر عن التفاخر بالآباء والأجداد والحسب والنسب .

وقال الطبري في تفسيره (٣٩٧ / ١١) : ((يقول تعالى ذكره : يا أيها الناس إنا أنشأنا خلقكم من ماءٍ ذكرٍ من الرجال ، وماءٍ أنثى من النساء)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٩٥ / ٥) : ((قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ، هما آدم وحواء ، والمقصود أنهم متساوون ، لا تصالهم بنسب واحد ، وكونه يجمعهم أب واحد ، وأم واحدة ، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب . وقيل المعنى : أن كل واحد منكم من أب وأم ، فالكل سوا)) .

وقال الواحدي في الوجيز (١٠١٩ / ١) : ((أي : كلُّكم بنو أب واحد ، وأم واحدة ، فلا تفاضل بينكم في النسب)) .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ . الحكمة من وجود الشعوب والقبايل هي التعارف والتألف والتعاون ، وليس التناحر والعصبيات الجاهلية والتفاخر بالأحساب والأنساب ،

٦٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٧٣ / ٧) : ((قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ، في سبب نزلها ثلاثة أقوال : أحدها نزلت في ثابت بن قيس ، وقوله في الرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة، وقد ذكرناه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ [الْحُجُرَات : ١١] . والثاني أنه لما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالاً ، فصعد على ظهر الكعبة فأذن ، وأراد أن يدل المشركين بذلك ، فلما أذن قال عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي قبض أسيداً قبل اليوم، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا العراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو: إن يكره الله شيئاً يُعيرهُ . وقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئاً، فإني إن قلت شيئاً لتشهدن علي السماء، وتختيرن عني الأرض، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل . والثالث أن عبداً أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ ، ثم قبض فتولى غسله وتكفينه ودفنه ، فأثر ذلك عند الصحابة ، فنزلت هذه الآية ، قاله يزيد بن شجرة)) .

والاستعلاء بالباطل ، والتكبر على الناس ، فجميع الناس سواء من حيث نسبتهم إلى الطين ، لكنهم يتفاوتون في التقوى ، وهذا هو معيار التفاضل بينهم ، وما سواه لا يُعتمدُ به . ويظل التعاون هو الشعار المرفوع بين بني البشر بغض النظر عن اختلاف أديانهم وأجناسهم وأعراقهم .

لا يَقُولَنَّ امرؤُ أصلي فما أصلهُ مِنكُ وأصلُ النَّاسِ طين

جَعَلَ اللَّهُ النَّاسَ شُعُوبًا مُخْتَلِفَةً، وَقِبَائِلَ مُتَعَدِّدَةً، لِيَتَحَقَّقَ التَّعَارُفُ وَالتَّعَاوُنُ، لَا التَّنَاحُرَ وَالتَّنَازُعَ ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ نَسَبَهُ ، فَلَا يُنْسَبُ إِلَى غَيْرِ آبَائِهِ ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي قُرْبِ النَّسَبِ وَيُعَدَّهُ، يُقَالُ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ، مِنْ قَبِيلَةِ كَذَا . وَالْمَعْنَى : جَعَلَكُمْ اللَّهُ شُعُوبًا وَقِبَائِلَ مِنْ أَجْلِ التَّعَارُفِ لَا التَّنَافُخِ، لِأَنَّ الشَّرْفَ وَالْفَخْرَ فِي التَّقْوَى لَا النَّسَبِ .

وفي حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٣ / ٣٧٥) : ((والمعنى: إنَّ الحِكْمَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا جَعَلَكُمْ عَلَى شُعُوبٍ وَقِبَائِلٍ هِيَ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُكُمْ نَسَبَ بَعْضٍ ، وَلَا يُنْسَبُ إِلَى غَيْرِ آبَائِهِ ، لَا أَنْ تَتَفَاخَرَ بِالآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَالنَّسَبُ وَإِنْ كَانَ يُعْتَبَرُ عُرْفًا وَشَرَعًا ، حَتَّى لَا تُرَوِّجَ الشَّرِيفَةَ بِالنَّبِطِيِّ (الشَّخْصَ الَّذِي يَسْتَخْرِجُ الْمَاءَ مِنْ قَعْرِ الْبَيْرِ إِذَا حُفِرَتْ) ، إِلَّا أَنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِهِ عِنْدَ ظُهُورِ مَا هُوَ أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْهُ وَأَعَزُّ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى ، كَمَا لَا تَظْهَرُ الْكَوَاكِبُ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ)) .

وَالشُّعُوبُ (رُؤُوسُ الْقِبَائِلِ) جَمْعُ شَعْبٍ ، وَهُوَ الْحَيُّ الْعَظِيمُ ، مِثْلُ : مُضَرٍّ وَرَبِيعَةٍ ، وَالْقِبَائِلُ دُونَ الشُّعُوبِ كَبْكُرٍ مِنْ رَبِيعَةٍ ، وَتَمِيمٍ مِنْ مُضَرٍّ . وَسُمِّيتِ الشُّعُوبُ لِأَنَّ الْقِبَائِلَ تَشَعَّبَتْ مِنْهَا .

وفي صحيح البخاري (٣ / ١٢٨٧) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقِبَائِلَ ﴾ . قَالَ : ((الشُّعُوبُ الْقِبَائِلُ الْعِظَامُ ، وَالْقِبَائِلُ الْبُطُونُ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢١٩) : ((الشَّعْبُ : الْجَمْعُ الْعَظِيمُ الْمُتَنَسِّبُونَ إِلَى أَصْلِ وَاحِدٍ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الْقِبَائِلَ . وَالْقَبِيلَةُ تَجْمَعُ الْعِمَائِرَ ، وَالْعِمَارَةُ تَجْمَعُ الْبُطُونَ ، وَالْبَطْنُ تَجْمَعُ الْأَفْحَادَ ، وَالْفَخْدُ يَجْمَعُ الْفَصَائِلَ . فَخَزِيمَةُ شَعْبٍ ، وَكِنَانَةُ قَبِيلَةٍ ، وَقُرَيْشُ عِمَارَةٌ ، وَقُصَيُّ بَطْنٍ ، وَهَاشِمٌ فَخْدٌ ، وَعَبَّاسٌ فَصِيلَةٌ . وَقِيلَ : الشُّعُوبُ بُطُونُ الْعَجَمِ ، وَالْقِبَائِلُ بُطُونُ الْعَرَبِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٩٥) : ((قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الشَّعْبُ مَا تَشَعَّبَ مِنْ قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَالْجَمْعُ الشُّعُوبُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الشُّعُوبُ الْبَعِيدُ مِنَ النَّسَبِ ، وَالْقِبَائِلُ دُونَ ذَلِكَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : الشُّعُوبُ النَّسَبُ الْأَقْرَبُ . وَقِيلَ : إِنَّ الشُّعُوبَ عَرَبَ الْيَمَنِ مِنْ قَحْطَانَ ، وَالْقِبَائِلَ مِنْ رَبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ وَسَائِرِ عَدْنَانَ . وَقِيلَ : الشُّعُوبُ بُطُونُ الْعَجَمِ ، وَالْقِبَائِلُ بُطُونُ الْعَرَبِ .

وحكى أبو عبيد أنّ الشَّعبَ أكثرَ من القبيلة ، ثمَّ القبيلة ، ثمَّ العمارة ، ثمَّ البطن ، ثمَّ الفخذ ، ثمَّ الفصيلة ، ثمَّ العشيرة ، وممَّا يُؤيِّد ما قاله الجمهور من أنّ الشَّعبَ أكثرَ من القبيلة قول الشاعر:

قبائلٌ من شعوب ليس فيهم كريمة قد يُعدُّ ولا نجيب)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٢/١٦): ((خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى أَنْسَابًا وَأَصْهَارًا ، وَقِبَائِلَ وَشُعُوبًا ، وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْهَا التَّعَارُفَ ، وَجَعَلَ بِهَا التَّوَاصِلَ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي قَدَّرَهَا وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَا ، فَصَارَ كُلُّ أَحَدٍ يَحُوزُ نَسَبَهُ ، فَإِذَا نَفَاهُ رَجُلٌ عَنْهُ اسْتَوْجِبَ الْحَدَّ بِقَدْفِهِ ، مِثْلَ أَنْ يَنْفِيَهُ عَنِ رَهْطِهِ وَحَسَبِهِ ، بِقَوْلِهِ لِلْعَرَبِيِّ : يَا عَجْمِي ، وَلِلْعَجْمِيِّ : يَا عَرَبِي ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ بِهِ النَّفْيُ حَقِيقَةً)) .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . إنّ أكرم الناس وأشرفهم عند الله أتقاهم له ، الذين يُطيعونه ولا يعصونه . والتَّفَاضُلُ بَيْنَ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ بِالتَّقْوَى لَا الْأَنْسَابِ . وَمَنْ أَرَادَ الشَّرْفَ وَالْمَجْدَ وَالْعِزَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى ، بِامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ .

وقال الطبري في تفسيره (٣٩٧ / ١١) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ أَيْهَا النَّاسِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَشَدُّكُمْ اتِّقَاءً لَهُ بِإِدَاءِ فَرَائِضِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ، لَا أَعْظَمُكُمْ بَيْتًا ، وَلَا أَكْثَرُكُمْ عَشِيرَةً)) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ ؟ ، قَالَ : ((أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ))^{٦٥} .

كان الصَّحَابَةُ _ رضي الله عنهم _ حريصين على تحصيل أفضل المكارم وأحسن الأخلاق .

وكانوا يسألون النبي ﷺ عَنِ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، لِيَسْلُكُوا مَسَلِكَهُمْ ، وَيَعْرِفُوا قَدْرَهُمْ .

وفي هذا الحديث يسأل الصَّحَابَةُ _ رضي الله عنهم _ النبي ﷺ عَنِ أَكْرَمِ النَّاسِ ، أَي : أَكْثَرِهِمْ خَيْرًا وَأَعْظَمَهُمْ فَضْلًا ، فَأَجَابَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ : ((أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ)) ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ . وَالتَّقْوَى : التَّزَامُ أَوَامِرِ اللَّهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَمَنْ حَقَّقَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، كَانَ هُوَ الْمُتَّقِيَّ لِلَّهِ تَعَالَى . وَالنَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي التَّقْوَى . وَأَصْلُ الْكِرَامِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ . فَلَمَّا كَانَ الْمُتَّقِيَّ كَثِيرَ الْخَيْرِ وَالْفَوَائِدِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُ الْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ فِي الْآخِرَةِ ، كَانَ أَعَمَّ النَّاسِ كِرَمًا ، وَلَا كِرَمَ إِلَّا بِالتَّقْوَى . وَلَا عِبْرَةَ بِظَاهِرِ الصُّورِ ، فَرُبَّ حَقِيرٍ أَعْظَمَ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ وَأَرْفَعَ مَنْزِلَةً فِي الْآخِرَةِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ عَظَمَاءِ الدُّنْيَا . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٣٥ / ١٥) :

((أَخْبَرَ بِأَكْمَلِ الْكِرَمِ وَأَعَمَّهُ ، فَقَالَ : " أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ " ، أَصْلُ الْكِرَمِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ ، وَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًّا كَانَ كَثِيرَ الْخَيْرِ ، وَكَثِيرَ الْفَائِدَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَصَاحِبَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْآخِرَةِ)) .

٦٥ متفق عليه. البخاري (١٢٣٨ / ٣) برقم (٣٢٠٣) ، ومسلم (١٨٤٦ / ٤) برقم (٢٣٧٨) .

إنَّ المنهج الإسلامي واضح في تأسيس معيار التفاضل بين الناس وفق درجة التقوى ، لذلك ألقى العصبية القبليّة ، وذمّ العقلية الجاهلية في التفاخر بالأحساب والأنساب ، وصرف الجهود البشرية نحو تحقيق معنى التقوى ، الذي هو أشرف معنى ، والمقياس الحقيقي بين الناس ، أمّا المقاييس الظاهرية المعتمدة على حجم الثروة ، وقوة العشيرة ، فلا وزن لها عند التمهّص .

وهذا أدى إلى إخراج العرب من الجاهلية القائمة على التفاخر برابطة الدم ، المعتمدة على الرياء والمظاهر الخادعة ، إلى قيمة التقوى التي هي سر بين العبد وربّه ، لأنّ التقوى محلّها القلب ، ولا أحد يعرف ما في القلوب سوى خالقها ، وهكذا نرى أنّ الإخلاص لله قد حلّ مكان الرياء والتفاخر الدنيوي بالآباء الغابرين .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أنّ النبي ﷺ قال : ((أمّا بعد أيّها الناس ، فإنّ الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية . يا أيّها الناس ، إنّما الناس رجلان : برّ تقيّ كريم على ربّه ، وفاجر شقيّ هين على ربّه)) ، ثمّ تلا : ((يا أيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا)) ، حتى قرأ الآية ٦٦ .

أزال الله عنكم كبر الجاهلية، وفخرها بالآباء . والمفاضلة بين العباد عند الله تعالى ، إنّما تقوم على الإيمان والتقوى، وليس الحسب والنسب. وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَمُّ ﴾ . والحديث ينهى عن الكبر والتفاخر ، ويدعو إلى التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه .

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَلَا تَتْرِكِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى النَّسَبِ
فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وضع الكُفْر الشريفَ أبا لهبٍ

وفي تحفة الأحوذى عن رواية الترمذي (١٠ / ٣١٦ و ٣١٧) : ((إنّ الله أذهب) أي أزال ورفع (عبية الجاهلية) ... ، أي نخوتها وكبرها . قال الخطّابي : العبية الكبر والنخوة. ... (وفخرها) أي افتخار أهل الجاهلية في زمانهم (إنّما هو) أي المفتخر المتكبر بالآباء (مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ) . قال الخطّابي : معناه أنّ الناس رجلان مؤمن تقيّ ، فهو الخير الفاضل ، وإن لم يكن حسيباً في قومه ، وفاجر شقيّ فهو الدنيء ، وإن كان في أهله شريفاً رفيعاً . انتهى . وقيل: معناه إنّ المفتخر المتكبر إمّا مؤمن تقيّ ، فإذن لا ينبغي له أن يتكبر على أحد ، أو فاجر

٦٦ رواه ابن جبان في صحيحه (٩ / ١٣٧) . وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٥٢٧) : ((ورجاله ثقات)) .

شَقِيٌّ فَهُوَ ذَلِيلٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالذَّلِيلُ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْبِيرَ ، فَالتَّكْبِيرُ مَنْفِيٌّ بِكُلِّ حَالٍ (النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ) أَي : فَلَا يَلِيْقُ بِمَنْ أَسْأَلَهُ التُّرَابَ التَّخَوُّةَ وَالتَّجَبُّرَ ، أَوْ إِذَا كَانَ الْأَصْلُ وَاحِدًا ، فَالْكُلُّ إِخْوَةٌ ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّكْبِيرِ ، لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْأُمُورِ عَارِضَةٌ ، لَا أَسْلَ لَهَا حَقِيقَةً ، نِعَمَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَهِيَ مُبْهَمَةٌ ، فَالْخَوْفُ أَوْلَى لِلسَّالِكِ مِنَ الْإِشْتِغَالِ بِهَذِهِ الْمَسَائِلِ)) .
 وَصَدَقَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ إِذْ يَقُولُ :

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثِيلِ أَكْفَاءُ	أَبُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمَّمُ حَوَاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مُشَاكَلَةٌ	وَأَعْظَمُ خُلِقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ حَسَبٌ	يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ	عَلَى الْهُدَى لِمَنْ اسْتَهْدَى أَدْلَاءُ
وَقَدَّرَ كُلَّ أَمْرٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ	وَلِلرِّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ سِيْمَاءُ
وَصَدَّدَ كُلَّ أَمْرٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ	وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

والتَّقْوَى لَا تَنْفِي رَابِطَةَ الدَّمِّ . فَالْعَائِلَةُ لَهَا إِحْتِرَامُهَا فِي الْمَنْظُورِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَالتَّسَبُّبُ لَهُ إِعْتِبَارُهُ شَرْعًا وَعُرْفًا ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى حِسَابِ الشَّرِيعَةِ . فَالْعَرَبُ قِبَائِلٌ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى التَّمَسُّكِ الْأَسْرِيِّ ، وَالْوَحْدَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . لَكِنَّ الْإِسْلَامَ نَقَلَ مَفْهُومَ الْقَبِيلَةِ مِنَ الْعُنْصَرِيَّةِ وَالْكَبْرِ إِلَى مَفْهُومِ الْقُوَّةِ الْمَجْتَمَعِيَّةِ الْحَامِلَةِ لِرِسَالَةِ التَّوْحِيدِ . فَالْقَبِيلَةُ لَيْسَتْ دَوْلَةً دَاخِلَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي إِلَى النِّزَاعِ وَالتَّضَارِبِ فِي السُّلْطَاتِ فَيَتَمَرَّقُ الْمَجْتَمَعُ . وَلَيْسَتْ الْقَبِيلَةُ مَصْدَرًا لِلتَّشْرِيعِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ هُمَا مَصْدَرَا التَّشْرِيعِ . وَهَكَذَا وَضَعَ الْإِسْلَامُ حُدُودًا لِلْقَبِيلَةِ لئَلَّا تَتَجَاوَزَهَا فَتَقَعُ فِي الْمَحْظُورِ ، وَتَنْهَارَ التَّرَاكِبُ الْمَجْتَمَعِيَّةِ ، وَتَسْقُطَ إِنْسَانِيَّةُ الْأَفْرَادِ ، وَتَتَمَرَّقَ قُوَّةُ الْجَمَاعَةِ .
 وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ مُتَحَدِّثًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى : ((خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا ، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ ، فَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَيَحِبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ فَيَبْغُضِي أَبْغَضَهُمْ)) ٦٧ .

٦٧ رواه الطبراني (١٢ / ٤٥٥) برقم (١٣٦٥٠) ، وَحَسَنَهُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْأَمْثَالِ الْمُطْلَقَةِ (١ / ٦٨) .

هذا هو الاصطفاء الحقيقي ، والصفوة الاجتماعية التي اختارها الله تعالى ، ولم يَخترعها البشرُ بدافع نَفَاء العزق أو طَهارة النَّسب . فهذا اختيارٌ إلهيٌّ لا علاقة للبشر به .
والنبيُّ ﷺ صفوة الصفوة ، والذي تَنقَّلَ عَبْرَ الأنساب الشريفة الطاهرة المُختارة . ولا تَخْفَى مكانة العَرَب في هذا السِّياق ، وارتباطهم الوثيق بالنبيِّ ﷺ الذي خرج منهم . ومن أحبَّ العَرَبَ فذلك بسبب النبيِّ ﷺ ، واعترافاً بفضله وشرفه وتقديماً له على الجميع ، ومن أبغض العَرَبَ فَبُغْضُهُ مَرَجَعُهُ إلى بُغْضِ النبيِّ العربيِّ ﷺ . وهذا يَدْفَعُنَا إلى مَحَبَّةِ العرب وتقديمتهم ، والاعتراف بمكانتهم التي وَضَعَهُم اللهُ فِيهَا إِكْرَامًا لِلنبيِّ ﷺ ، وتشريفًا لهم على سائر الأمم .
إنَّ العروبة مُفضَّلة على غيرها من الأجناس ، فقد اختارَ اللهُ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ من العرب ، وجَعَلَ الْقُرْآنَ _ الرِّسَالَةَ الخالدة _ عربيًّا ، وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة على أفضلية العروبة على غيرها من الأعراق والأنساب .

وتفضيلُ العروبة هو تفضيل جنس ، وليس تفضيل أفراد ، فالعَجَمِيُّ الطائع خَيْرٌ من العربي العاصي . وتفضيلُ العروبة إنَّما هو اختيار من الله تعالى ، وقد تَظَهَّرَ حِكْمَتُهُ واضحة ، وقد لا تكون ظاهرة لنا ، إلا أنَّ في العروبة من الصِّفَات والخصائص ما يُشير إلى سبب هذا التفضيل .
وفي الحديث أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، وَأَحَبُّ العَرَبِ مِن قَلْبِكَ)) ٦٨ .

هذا أمرٌ نبويٌّ شريف بأن يُحِبَّ المرءُ العربَ حُبًّا صادقًا بقلبه ، لا بمُجرَّد اللسان .
وقال المُنَاوِي في فيض القدير (٣ / ٣٧٠) : ((من علامة صدق الحُبِّ حُبُّ كُلِّ ما يُنسَب إلى المَحْبُوب ، ... ، فالمَحَبَّةُ إِذَا قَوِيَتْ تَعَدَّتْ مِنَ المَحْبُوبِ إلى كُلِّ ما يَكْتَسِفُ بالمَحْبُوبِ ، ويُحِيطُ به ، ويتعلق بأسبابه ، ذلك وليس شِرْكَةً في حُبِّ اللهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَحَبَّ رَسولَ المَحْبُوبِ لِكَوْنِهِ رَسولَهُ ، وكلامه لِكَوْنِهِ كَلامه ، وَمَنْ يَنْتَمِي إليه لِكَوْنِهِ مِنْ حِزْبِهِ ، لَمْ يَجَاوِزْ حُبَّهُ إلى غَيْرِهِ ، بل هو كمال حُبِّه)) .
وقال الشعالبي في فقه اللغة (ص ١٨) : ((مَنْ أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى أَحَبَّ رَسولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ ، وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسولَ العربيَّ ، أَحَبَّ العَرَبَ ، وَمَنْ أَحَبَّ العَرَبَ ، أَحَبَّ العَرَبِيَّةَ ، التي بها نَزَلَ أَفْضَلُ الكُتُبِ على أَفْضَلِ العَجَمِ والعَرَبِ ، وَمَنْ أَحَبَّ العَرَبِيَّةَ ، عُنِيَ بِهَا ، وثابَرَ عَلَيْهَا ، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا ، وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ لِلإِسْلامِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلإِيمَانِ ، وَأَتَاهُ حُسْنُ سَرِيرَةٍ فِيهِ ، اعتقدَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَيْرُ الرُّسُلِ ، وَالإِسْلامُ خَيْرُ المِلَلِ ، والعَرَبُ خَيْرُ الأُمَّمِ ، والعَرَبِيَّةُ خَيْرُ اللُّغَاتِ والألسنة ، وَالإِقْبالُ

٦٨ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٦٨) برقم (٧٩٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

على تَفَهُمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ ، إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ ، وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ ، وَسَبَبُ إِصْلَاحِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ ، ثُمَّ هِيَ لِإِحْرَازِ الْفَضَائِلِ ، وَالِاحْتِوَاءِ عَلَى الْمُرُوءَةِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَنَاقِبِ ، كَالْيَتَّبُوعِ لِلْمَاءِ ، وَالزُّنْدِ لِلنَّارِ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْإِحَاطَةِ بِخَصَائِصِهَا وَالْوُقُوفِ عَلَى مَجَارِيهَا وَمَصَارِفِهَا وَالتَّبَحُّرِ فِي جَلَائِهَا وَدِقَائِقِهَا ، إِلَّا قُوَّةُ الْبَاقِينَ فِي مَعْرِفَةِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَزِيَادَةُ الْبَصِيرَةِ فِي إِثْبَاتِ التُّبُوءِ ، الَّتِي هِيَ عُمْدَةُ الْإِيمَانِ ، لَكَفَى بِهِمَا فَضْلاً يَحْسُنُ فِيهِمَا أَثَرُهُ ، وَيَطِيبُ فِي الدَّارَيْنِ ثَمَرُهُ ، فَكَيْفَ وَأَيْسَرَ مَا خَصَّهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَمَادِحِ يُكَلِّلُ أَقْلَامَ الْكُتَيْبَةِ ، وَيُتَعَبُ أَنْامِلَ الْحَسْبَةِ ، وَلِمَا شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَزَّ اسْمُهُ ، وَعَظَّمَهَا ، وَرَفَعَ خَطَرَهَا ، وَكَرَّمَهَا ، وَأَوْحَى بِهَا إِلَى خَيْرِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَ لِسَانَ أَمِينِهِ عَلَى وَحْيِهِ وَخُلَفَائِهِ فِي أَرْضِهِ ، وَأَرَادَ بِقَضَائِهَا وَدَوَامِهَا حَتَّى تَكُونَ فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ لِخِيَارِ عِبَادِهِ ، وَفِي تِلْكَ الْأَجَلَةِ لِسَاكِنِي جَنَّاتِهِ ، وَدَارِ ثَوَابِهِ ، قِيَّضَ لَهَا حَفْظَةً وَخَزَنَةً مِنْ خَوَاصِّهِ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ ، وَأَعْيَانَ الْفَضْلِ ، وَأَنْجُمِ الْأَرْضِ ، تَرَكَوا فِي خِدْمَتِهَا الشَّهَوَاتِ ، وَجَابُوا الْفَلَوَاتِ ، وَنَادَمُوا لِاقْتِنَائِهَا الدَّفَاتِرَ ، وَسَامَرُوا الْقِمَاطِرَ (جَمْعُ قِمَطْرٍ وَهُوَ مَا تُصَانُ فِيهِ الْكُتُبُ) وَالْمَحَابِرَ ، وَكَدُّوا فِي خَضِرِ لُغَاتِهَا طِبَاعَهُمْ ، وَأَسْهَرُوا فِي تَقْيِيدِ شَوَارِدِهَا أَجْفَانَهُمْ ، وَأَجَالُوا فِي نَظْمِ قَلَائِدِهَا أَفْكَارَهُمْ ، وَأَنْفَقُوا عَلَى تَخْلِيدِ كُتُبِهَا أَعْمَارَهُمْ ، فَعَظُمَتِ الْفَائِدَةُ ، وَعَمَّتِ الْمَصْلِحَةُ ، وَتَوَفَّرَتِ الْعَائِدَةُ ، وَكُلَّمَا بَدَأَتْ مَعَارِفُهَا تَتَنَكَّرُ ، أَوْ كَادَتْ مَعَالِمُهَا تَتَسَتَّرُ ، أَوْ عَرَضَ لَهَا مَا يُشْبِهُ الْفِتْرَةَ ، رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا الْكِرَّةَ ، فَأَهَبَ رَيْحَهَا ، وَنَفَقَ سُوقُهَا ، بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الدَّهْرِ ، أَدِيبِ ذِي صَدْرٍ رَحِيبٍ ، وَقَرِيبَةِ ثَاقِبَةٍ ، وَدِرَايَةِ صَائِبَةٍ ، وَنَفْسٍ سَامِيَةٍ ، وَهَمَّةٍ عَالِيَةٍ ، يُحِبُّ الْأَدَبَ ، وَيَتَعَصَّبُ لِلْعَرَبِيَّةِ ، فَيَجْمَعُ شَمْلَهَا ، وَيُكْرِمُ أَهْلَهَا ، وَيُحَرِّكُ الْخَوَاطِرَ السَّاكِنَةَ ، لِإِعَادَةِ رَوْنِقِهَا ، وَيَسْتَشِيرُ الْمَحَاسِنَ الْكَامِنَةَ فِي صَدُورِ الْمُتَحَلِّينَ بِهَا ، وَيَسْتَدْعِي التَّأَلِيفَاتِ الْبَارِعَةَ فِي تَجْدِيدِ مَا عَفَا (زَالٍ) مِنْ رُسُومِ طَرَائِفِهَا وَلَطَائِفِهَا)) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ ، مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، خَبِيرٌ بِسِرِّكُمْ وَعِلَانِيَتِكُمْ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَمْرٌ ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٣٩٧) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : إِنَّ اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ ذُو عِلْمٍ بِاتِّقَاكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَكْرَمِكُمْ عِنْدَهُ ، ذُو خَبْرَةٍ بِكُمْ وَبِمَصَالِحِكُمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِكُمْ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٧٧) عن الآية كاملة : ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا لِلنَّاسِ أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَهُمَا آدَمُ وَحَوَّاءُ ، وَجَعَلَهُمْ شُعُوبًا ، وَهِيَ أَعْمٌ مِنَ الْقَبَائِلِ ، وَبَعَدَ الْقَبَائِلُ مَرَاتِبَ أُخْرَى كَالْفَصَائِلِ وَالْعَشَائِرِ وَالْعِمَائِرِ وَالْأَفْخَاذِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالشُّعُوبِ بُطُونُ الْعَجَمِ ، وَبِالْقَبَائِلِ بُطُونُ الْعَرَبِ ، كَمَا أَنَّ الْأَسْبَاطَ بُطُونُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ،

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأموال الدينية ، وهي طاعة الله تعالى ، ومُتَابَعَةُ رَسُوْلِهِ ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النَّهْيِ عَنِ الْغَيْبَةِ واحتقار بعض الناس بَعْضًا ، مُنْبَهًا عَلَى تَسَاوِيهِمْ فِي الْبَشَرِيَّةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي : لِيَخْصُلَ التَّعَارُفُ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ يَرْجِعُ إِلَى قَبِيلَتِهِ . وقال مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، كَمَا يُقَالُ : فُلَانٌ بِنِ فُلَانٍ ، مِنْ كَذَا وَكَذَا ، أَي قَبِيلَةَ كَذَا وَكَذَا . وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : كَانَتْ حِمَيْرٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَخَالِفِهَا ، وَكَانَتْ عَرَبُ الْحِجَازِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى قَبَائِلِهَا . وقد قال أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عِيْسَى الثَّقَفِيِّ عَنْ يَزِيدَ مَوْلَى الْمُنْبَعَثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صَلَاةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ " . ثُمَّ قَالَ : غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، أَي : إِنَّمَا تَتَفَاضَلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقْوَى لَا بِالْأَحْسَابِ . وقد وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ ؟ ، قَالَ : " أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ " ، قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ . قَالَ : " فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ " ، قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسَأُكَ ، قَالَ : " فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ " ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : " فَخِيَارِكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارِكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَفَقَهُوا " (حَدِيثٌ آخَرَ) قَالَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدَّثَنَا عَمْرُو النَّاقِدُ حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، أَي : عَلِيمٌ بِكُمْ ، خَبِيرٌ بِأَمُورِكُمْ ، فِيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ الْكِفَاةَ فِي النِّكَاحِ لَا تُشْتَرَطُ ، وَلَا يُشْتَرَطُ سِوَى الدِّينِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وَذَهَبَ الْآخَرُونَ إِلَى أدلة مذكورة في كُتُبِ الْفِقْهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ فِي (كِتَابِ الْأَحْكَامِ) ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَقَدْ رَوَى الطَّبْرَانِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَقُولُ : أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ غَيْرُهُ : أَنَا أَوْلَى بِهِ مِنْكَ ، وَلِي مِنْهُ نِسْبَةٌ . . .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

هذه الآية تكذيبٌ لما قاله اليهود والنصارى إنَّه لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ غَيْرُهُمْ . ﴿ وقالوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة : ١١١] ٦٩ .

لقد فَضَحَ اللهُ غُرُورَهُمْ، وَأَزَالَ بَاطِلَهُمْ، وَكَذَّبَهُمْ . فَزَعَمَهُمْ بَاطِلٌ ، وَخَجَّتَهُمْ دَاحِضَةٌ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا . إِنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَخَدَهُ ، بَلَ شَرِيكَ وَلَا نِدَ ، وَأَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ ، وَاسْتَسَلَّمَ لِأَمْرِهِ ، وَخَصَّصَ لِحُكْمِهِ ، وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ مُصَدِّقٌ بِالْقُرْآنِ ، وَحَقَّقَ الشَّرْطَيْنِ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ : الْإِحْلَاصَ لِلَّهِ ، وَاتِّبَاعَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَآمَنَ وَصَدَّقَ بِالْقُرْآنِ ، فَهُوَ الَّذِي سَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَلَهُ ثَوَابٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ بِسَبَبِ عَمَلِهِ الصَّالِحِ ، وَأَجْرُهُ ثَابِتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، لَا يَضِيعُ وَلَا يَنْقُصُ ، وَهَذَا وَعْدُ اللَّهِ وَقَاطِعٌ لَا مَحَالَةَ . وَثَوَابُ عَمَلِهِ النِّجَاةِ مِنَ النَّارِ ، وَالْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا مَضَى مِمَّا يَتْرَكُونَهُ . لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكَوا وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا . لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ .

٦٩ أهلُ الكتابِ يَخْتَرِعُونَ الْأَمَانِي الكاذبة ، فَهَم يَخْدَعُونَ أَنْفُسَهُمْ فَيَعِيشُونَ فِي دُنْيَا الْخَيَالِ وَعَوَالِمِ الْأَحْلَامِ الَّتِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا . فَالْيَهُودُ قَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَالنَّصَارَى قَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا . لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَفْحَمَهُمْ وَفَضَحَ بَاطِلَهُمْ . فَهَذِهِ الْأَمَانِي الْوَاهِيَةُ لَا أُسَاسَ لَهَا مِنَ الصَّحَّةِ ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ يُقَدِّمُوا دَلِيلًا عَلَى كَلَامِهِمْ . فَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي زَعْمِهِمْ فَلْيُخَضِّرُوا الْبِرْهَانَ السَّاطِعَ ، وَلْيُقَدِّمُوا الْحُجَّةَ الْبَاهِرَةَ لِيَكُونَ مَوْقِفُهُمْ قَوِيًّا ، لَكِنْ هَذَا لَمْ يَحْدِثْ ، وَلَنْ يَحْدِثْ . فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَائِشُونَ فِي عَوَالِمِ الْأَحْلَامِ وَالْأَوْهَامِ بِلَا حُجَّةٍ مُعْتَبَرَةٍ ، وَهَذِهِ الْأَحْلَامُ سَتَتَّوَلُّوْنَ إِلَى كَوَائِبِيسَ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢١٤) : ((يُبَيِّنُ تَعَالَى — اغْتَرَّازَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِمَا هُمْ فِيهِ ، حَيْثُ ادَّعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهَا)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي الْمَحْجَابِ (١ / ٣٥٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ : نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ قَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى . أَيِ قَالَتِ الْيَهُودُ : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَقَالَتِ النَّصَارَى : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا)) .

والمقصود بالوجه الدين أو العمل .

والإسلام هو الاستسلام والخضوع لله تعالى ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه . والمسلم هو المستسلم لله بقلبه وجوارحه ، الخاضع لأوامر الله ونواهيه .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٥٤٠) : ((وأما قوله : ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ، فإنه يعني بـ " إسلام الوجه " التذلل لطاعته ، والإذعان لأمره . وأصل الإسلام الاستسلام ، لأنه من استسلمت لأمره ، وهو الخضوع لأمره ، وإنما سُمِّيَ " المسلم " مُسَلِّمًا بِخُضُوعِ جَوَارِحِهِ لَطَاعَةِ رَبِّهِ)) .
وتمَّ تخصيص " الوجه " بالذكر لأنه أكرم أعضاء الإنسان وأشرفها . وإذا خضع الوجه لله تعالى ، وهو مجمع الحُسن والجَمال والبهاء ، وأكرم أجزاء الإنسان ، وأعظمها ، فالأولى والأحرى أن تخضع باقي أجزاء الإنسان وأعضائه ، وهي الأقل شرفاً من الوجه ، ودونه في المنزلة والكرامة .
وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ٧٣) : ((وَخَصَّ الْوَجْهَ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ أَشْرَفَ مَا يُرَى مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْحَوَاسِ . وَفِيهِ يَظْهَرُ الْعِزُّ وَالذَّلُّ . وَالْعَرَبُ تُخْبِرُ بِالْوَجْهِ عَنِ جُمْلَةِ الشَّيْءِ . وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْوَجْهَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَقْصِدُ)) .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٥٤٠) : ((وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وقد قال قَبْلُ : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ ، لأن ﴿ مَنْ ﴾ التي في قَوْلِهِ : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ في لفظ واحد ومعنى جميع . فالتوحيد في قَوْلِهِ : ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ للفظ . والجمع في قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ للمعنى)) .

والجديز بالذكر أن هناك شَرْطَيْنِ لِقَبُولِ الْعَمَلِ : الْإِحْلَاصُ لِلَّهِ وَحَدَهُ ، وَاتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ . فيجب الالتزام بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالسَّيْرَ وَفَقَّ مِنْهَا جِهَةً وَشَرِيعَتَهُ ، وَتَحْوِيلَ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ إِلَى وَاقِعِ مَلْمُوسٍ . وَمَنْ خَالَفَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَمُخَالَفَتُهُ مَرْفُوضَةٌ ، وَمَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ ، كَأَنَّ مَنْ كَانَ .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣٤٣) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ أن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَمِلَ عَمَلًا لَمْ يَعْمَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَعَمَلُهُ (بِدْعَتُهُ) بَاطِلٌ ، وَمَرْدُودٌ ، وَلَا يُعْتَدُّ بِهِ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١٦) : ((وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه ﷺ ، فإنه صريح في رد كل البدع والمختراعات)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢١٤) : ((فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مُخْلِصُونَ فِيهِ لِلَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مُتَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ ، الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى

الناس كافة وأما إن كان العمل مُوافقاً للشريعة في الصُّورة الظاهرة، ولكن لم يُخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المُرائين والمُنافقين)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .
 أَحْسِنُوا في جميع أعمالكم وأخلاقكم ، وافعلوا الطاعات ، وابتعدوا عن المعاصي ، حتى يُحِبَّكُمْ اللهُ ، وتكونوا من أوليائه المُقرَّبين . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ، ويُثيبهم على إحسانهم .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٢٠٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ مَعْنَاهُ أَحْسِنُوا الْإِنْفَاقَ وَالثَّانِي أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ ، قَالَهُ عِكْرَمَةُ وَسُفْيَانُ وَالثَّلَاثُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَذُوا الْفَرَائِضَ ، رَوَاهُ سُفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ)) .
 وقال القرطبي في تفسيره (٤ / ٢٠٢) : ((قَالَ سَرِي السَّقَطِيُّ : الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ وَقْتُ الْإِمْكَانِ ، فَلَيْسَ كُلُّ وَقْتٍ يُمَكِّنُكَ الْإِحْسَانَ . قَالَ الشَّاعِرُ :

بَادِرٌ بِخَيْرٍ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا تَنْهَيًّا صَنَائِعَ الْإِحْسَانِ
 وَإِذَا أَمَكَّنْتَ فَبَادِرٌ إِلَيْهَا حَذَرًا مِنْ تَعَدُّرِ الْإِمْكَانِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء : ١٢٥] .^{٧٠}

هذه الآية تتضمن مديحاً إلهياً للإسلام والمسلمين. لقد فضَّلَ اللهُ الإسلامَ على سائر الأديان ، وفضَّلَ المسلمين على سائر الناس . والإسلامُ وحده هو الدين الحق ، والمسلمون أعظم الناس على الإطلاق. وهذا ليس غروراً أو تكبُّراً أو اتِّباعاً لخرافة نقاء العِرْق . إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَحَدَهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِلَا شَرِيكَ وَلَا نِدٍ ، وَيُنَزِّهُونَهُ عَنِ كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ وَصِفَةٍ مَذْمُومَةٍ .

٧٠ في الدر المنثور للسيوطي (٢ / ٦٩٤) : ((وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : دُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَحَرُوا ، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ : نَبَّيْنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ ، وَكُتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ ، وَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ . وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ ، وَنَبَّيْنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكُتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ﴾ الْآيَةَ . فَأَفْلَحَ اللَّهُ (أَيَّدَ وَأظْهَرَ) حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ)) .

والآية تحمل معنى الإنكار الكامل والاستبعاد التام لأن يكون أحد أحسن دِينًا وأهدى سبيلًا ،
مِمَّن فعل ذلك ، أو أن يكون مُساوياً له في الدَّرَجَة والمرتبة . لا أحد أحسن دِينًا وأهدى طريقًا
وأحکم مُنْهَجًا مِمَّن استسلم لله ، وانقاد لأمره ، وخضع له ، وتَوَجَّهَ إِلَيْهِ بالعبادة ، وأخلص له ،
وَصَدَّقَ بِبُيُوتِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ . وهو مُطِيعٌ لله تعالى مُجْتَنِبٌ لِتَوَاهِيهِ ، مُحَلِّلٌ حَلَالَهُ ، وَمُحَرِّمٌ حَرَامَهُ ،
آتٍ بالحسنات ، تاركٌ للسيئات .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٥٨) : ((وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾
أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ، لَا يَعْرِفُ لَهَا رَبًّا سِوَاهُ . وَقِيلَ : بِذَلِكَ وَجْهَهُ لَهُ فِي السُّجُودِ . وَفِي هَذَا الِاسْتِفْهَامِ
تَبْيِيهِ عَلَى أَنْ ذَلِكَ مَنْتَهَى مَا تَبْلُغُهُ الْقُوَّةُ الْبَشَرِيَّةُ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٨٠) :
((وَانْتَصَبَ ﴿ دِينًا ﴾ عَلَى الْبَيَانِ . ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ابْتِدَاءً وَخَبِرَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ ، أَي مُوَحَّدٌ ،
فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ ، لِأَنَّهُمْ تَرَكَوا الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ)) .
وَاتَّبَعَ الدِّينَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ ، بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ ،
وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ .

ومعنى ﴿ حَنِيفًا ﴾ مُسْلِمًا مُوَحَّدًا مُخْلِصًا ، مُسْتَقِيمًا عَلَى مَنَاجِ اللَّهِ ، وَثَابِتًا عَلَى شَرْعِهِ . وَهُوَ
المائلُ عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ، وهو الإسلام . ومِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .
وَمَنْ آمَنَ بِمِلَّةِ مُحَمَّدٍ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ دِينَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .
وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٤٠) : ((﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أَخْلَصَ
الْعَمَلَ لِرَبِّهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ فَعَمَلَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَي : اتَّبَعَ فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ
لَهُ ، وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ . وَهَذَا الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلُ عَامِلٍ بَدُونَهُمَا ،
أَي يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَيَصِحُّ
ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ . فَهَتَايَا هَذَا الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ ، فَهَتَايَا فَفَقَدَ الْإِخْلَاصَ
كَانَ مُنَافِقًا ، وَهَمَّ الَّذِينَ يُرَاوُونَ النَّاسَ ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا ، وَهَتَايَا فَجَمَعَهُمَا كَانَ
عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :
﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ، وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النَّحْلُ : ١٢٣] . وَالْحَنِيفُ هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشَّرْكِ قَصْدًا ، أَي :
تَارِكًا لَهُ عَنِ بَصِيرَةٍ ، وَمُقْبِلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّتِهِ ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌ ، وَلَا يُرَدُّهُ عَنْهُ رَادٌ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .
 إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَتْقِيَاءِ الَّذِي يَفْعَلُونَ الطَّاعَاتِ ، وَيَتَعَدُونَ عَنِ الْمَعَاصِي .
 وقد قال الله : ﴿ قَرِيبٌ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : قَرِيبَةٌ ، باعتبار المعنى لا اللفظ ، إذ إِنَّ الرَّحْمَةَ وَالْغُفْرَانَ
 وَالْعَفْوَ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٥١٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : إِنَّ ثَوَابَ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ
 الْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَرِيبٌ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ هُوَ رَحْمَتُهُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ
 يَصِيرُوا إِلَى ذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ كَرَامَتِهِ ، إِلَّا أَنْ تَفَارِقَ أَرْوَاحَهُمْ أَجْسَادَهُمْ)) .
 وقال الشَّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣١١) : ((قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
 هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبَةٌ مِنْ عِبَادِهِ الْمُحْسِنِينَ ، بِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ كَانَ
 إِحْسَانُهُمْ . وَفِي هَذَا تَرْغِيبٌ لِلْعِبَادِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَتَنْشِيطٌ لَهُمْ ، فَإِنَّ قُرْبَ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي يَكُونُ
 بِهَا الْفَوْزُ بِكُلِّ مَطْلَبٍ مَقْصُودٍ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ)) .

وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٣٨) : ((﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ :
 قَرِيبَةٌ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : الرَّحْمَةُ هَاهُنَا الثَّوَابُ ، فَرَجَعَ النَّعْتُ إِلَى الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ
 وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ : الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ يَسْتَوِي فِيهِمَا فِي اللَّغَةِ الْمَذْكُورِ وَالْمُؤَنَّثِ ، وَالوَاحِدُ وَالْجَمْعُ .
 قَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : الْقَرِيبُ فِي اللَّغَةِ يَكُونُ بِمَعْنَى الْقُرْبِ ، وَبِمَعْنَى الْمَسَافَةِ . تَقُولُ الْعَرَبُ :
 هَذِهِ امْرَأَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْكَ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى الْقَرَابَةِ ، وَقَرِيبٌ مِنْكَ إِذَا كَانَتْ بِمَعْنَى الْمَسَافَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .
 إِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ ، وَيَحْفَظُ أَجْرَهُمْ كَامِلًا ، وَلَا يُضَيِّعُهُ .
 وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥١٠) : ((يقول : إِنَّ اللَّهَ لَا يَدَعُ مُحْسِنًا مِنْ خَلْقِهِ أَحْسَنَ فِي
 عَمَلِهِ فَأَطَاعَهُ فِيمَا أَمَرَهُ ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ ، أَنْ يُجَازِيَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ ، وَيُثِيبَهُ عَلَى صَالِحِ عَمَلِهِ)) .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦] .

إِنَّ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ ، وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنَبُوا الْمَعَاصِي ، وَأَتَقَنُوا عِبَادَاتِهِمْ
 بِالْإِخْلَاصِ ، لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يَتَمَتَّعُونَ فِيهَا إِلَى الْأَبَدِ ، وَزِيَادَةٌ عَلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ الدَّائِمِ ، النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ
 اللَّهِ الْكَرِيمِ . وَهَذَا هُوَ الشَّرْفُ الْأَسْمَى ، وَالنَّعِيمُ الْأَكْمَلُ ، وَالْمَجْدُ الْأَعْلَى ، وَالْكَرَامَةُ الْعَظْمَى .
 وَتَنْكِيْرُ ﴿ زِيَادَةٌ ﴾ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ ، بِحَيْثُ لَا يُعْرَفُ قَدْرُهَا ، وَلَا يُحَاطَ بِحَقِيقَتِهَا . وَلَا يَغْشَى وُجُوهَهُمْ

غُبارِ وَسَوَادٍ ، وَلَا هَوَانَ وَصَعَارٍ ، كَمَا يَعْشَىٰ وَجُوهَ أَهْلِ النَّارِ . أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا بَاقُونَ إِلَى الْأَبَدِ ، يَسْتَمْتَعُونَ بِنِعْمِهَا الدَّائِمِ ، بِخِلَافِ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٤٥) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ لِمَنْ أَحْسَنَ الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ : الْحُسْنَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرَّحْمَنُ : ٦٠] . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هِيَ تَضْعِيفُ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ بِالْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا ، وَيَشْمَلُ مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُورِ ، وَالرِّضَا عَنْهُمْ ، وَمَا أَخْفَاهُ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ أَكْبَرُ مِنْ جَمِيعِ مَا أُعْطَوْهُ ، لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . وَقَدْ رُوِيَ تَفْسِيرُ الزِّيَادَةِ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَخَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانَ وَعَبْدَ اللَّهِ ابْنَ عَبَّاسٍ وَسَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَابِطٍ وَمُجَاهِدَ وَعِكْرَمَةَ وَعَامَرَ بْنَ سَعْدٍ وَعَطَاءَ وَالضَّحَّاكَ وَالْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ وَمُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَرَهُنَّ وَجُوهَهُمْ قَتَرًا ﴾ أَي : قَتَامَ (غُبَارَ) وَسَوَادَ فِي عَرَصَاتِ (سَاحَاتِ) الْمَحْشَرِ ، كَمَا يَعْتَرِي وَجُوهَ الْكَافِرَةِ الْفَجْرَةَ مِنَ الْقَتَرَةِ وَالْغَبَرَةِ ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ ، أَي : هَوَانَ وَصَعَارٍ ، أَي : لَا يَحْصُلُ لَهُمْ إِهَانَةٌ فِي الْبَاطِنِ ، وَلَا فِي الظَّاهِرِ ، بَلْ هُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ : ﴿ فَوْقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الْإِنْسَانُ : ١١] . أَي : نَضْرَةً فِي وَجُوهِهِمْ ، وَسُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، آمِينَ)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٤ / ٣٥٧) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالدَّرَقُطْنِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّالِكَايِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الرُّؤْيَةِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، قَالَ : " الَّذِينَ أَحْسَنُوا أَهْلَ التَّوْحِيدِ ، وَالْحُسْنَى الْجَنَّةُ ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ ")) .

وعن صهيب عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، قال : ((إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ نَادَى مُنَادٍ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزْكُمْوهُ . قَالُوا : أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا ، وَتُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ، وَتُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أُعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ))^{٧١} .

٧١ رواه الترمذي في سننه (٥ / ٢٨٦) . والحديث في صحيح مسلم (١ / ١٦٣) .

عندما يستقرُّ المؤمنون في الجنة ، يعتبرون أن هذا مُنتهى الأمل ، وأعظم غاية . فقد بيّض الله وجوههم ، ورَضِيَ عَنْهُمْ ، وأنقذهم من النار ، وأدخلهم الجنة . ولا يتصوّرون وجود شيء أفضل من هذا ، ولكنَّ الله الكريم، يتفضّل عليهم، ويكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه وتعالى . ولا يوجد أعظم من هذا الأمر ، ولا أحب إلى المؤمنين منه . والحسنى هي الجنة التي أدخلهم الله إياها، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم. وهذا يدلُّ على فضل الله على المؤمنين ، وإحسانه إليهم . إنَّ الجنة هي جزاء الله لعباده المؤمنين المُتّقين ، ومن رأى هَوْلَ المَحْشَرِ والقيامة ، ثمَّ فاز بالجنة ، فإنه يعلم مقدارَ نعمة الله وفضله عليه . ومع ذلك فإنَّ الله الكريم الرحيم يتكرّم على عباده ، ويزيدهم من نعمه وكرامته .

إذا دخل أهل الجنة الجنة ، واستقرُّوا فيها بإذن الله تعالى ، وذلك يوم القيامة ، نادى ملكٌ إنَّ لكم عند الله موعدٌ يريد أن يُحقِّقه ويُجزه لكم ، والله لا يُخلف الموعِدَ . يقول أهل الجنة : " ألم تُبيّض وجوهنا ، يُشيرون إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَبِإِذْنِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٧] . " ألم تُبيّض وجوهنا ، وتنجنا من النار ، وتدخلنا الجنة ؟ " ، فإنَّ الرضا عنهم وتبييض وجوههم ، وإنقاذهم من النار ، وإدخالهم الجنة ، كان مُنتهى أملهم ، فلا يتخيّلون وجود شيء أفضل من هذا ، ولكنَّ الله الكريم ، نعمه كثيرة ، وأفضاله لا تنتهي ، فيكشف الحجاب عن أعين الناظرين ، وحجابه الثور ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى الله تعالى .

والحسنى : هي الجنة التي أدخلهم الله إياها ، والزيادة : هي النظر إلى الله تعالى . ومصدق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة]. وقد بين الله أن جزاء المؤمنين أن تكون وجوههم حسنةً بهيئةً مشرقةً مُبتهجةً ، وأنهم يرون الله عياناً ، فيمتنعون بالنظر إلى الله تعالى .

وفي تحفة الأحوذى (٧ / ٢٢٦) : ((قوله : ﴿ للذين أحسنوا ﴾ ، أي : الذين أجادوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، وقربوها بالإخلاص ﴾ الحسنى ﴾ أي : المثوبة الحسنى وهي الجنة ﴿ وزيادة ﴾ أي : النظر لوجهه الكريم ، ونكرها لتفيد ضرباً من التّفخيم والتّعظيم ، بحيث لا يُعرف قدرها ولا يُكْتَنَنَ كُنْهَهَا (نادى مُنادٍ إن لكم عند الله موعداً) أي : بقِي شيء زائد ممّا وعدّه الله لكم من النعم . وفي رواية مسلم : " يقول الله تبارك وتعالى : تُريدون شيئاً أزيدكم؟ " (وإنجنا) بتشديد الجيم ويُخفّف (من النار) أي دخولها وخلودها . قال الطيبي : تقرير وتعجيب من أنه كيف يُمكن الزيادة على ما

أعطاهم الله تعالى من سعة فضله وكرمه (قالوا : بلى) كذا في التسخ الموجودة، قالوا بصيغة الجمع، والظاهر أن يكون قال بصيغة الأفراد لأن الضمير يرجع إلى مُناد (فيكشف الحجاب) وزاد مسلم: فينظرون إلى وجه الله . والظاهر أن المراد بالحجاب حجاب الثور الذي وقع في حديث أبي موسى عند مسلم ولفظه : " حجابُ الثور، لو كشفه لأحرقَت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " . قال الطيبي في شرح حديث أبي موسى هذا : إن فيه إشارة إلى أن حجابَه خلاف الحُجب المعهودة ، فهو مُحْتَجِب عن الخلق بأنوار عِزِّه وجلاله ، وأشعة عَظَمته وكبريائه ، وذلك هو الحِجَاب الذي تُدهش دُونه العُقُول ، وتُبْهت الأبصار ، وتتَحَيَّر البصائر ، فَلَوْ كَشَفَهُ فَتَجَلَّى لِمَا وراءه بحقائق الصفات، وعَظَمَة الذات، لَمْ يَبْقَ مَخْلُوق إِلَّا احترق ، ولا مَنْظور إِلَّا اضمحلَّ . وأصل الحِجَاب السُّتْر الحائل بين الرائي والمُرئي ، والمراد به هنا مَنع الأبصار من الرُؤية له بما دُكِرَ ، فقام ذلك المَنع مَقَامَ السُّتْرِ الحائل ، فعبر به عنه ، وقد ظَهَرَ مِنْ نُصُوص الكِتَاب والسُّنَّة أن الحالة المُشار إليها في هذا الحديث، هي في دار الدُّنيا المُعدَّة للِفناء، دُون دار الآخرة المُعدَّة للِبقاء ، والحِجَاب في هذا الحديث وغيره ، يَرْجِع إلى الخَلْق ، لِأَنَّهُمْ هُم المَحْجُوبُونَ عنه)) .

وقال الله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النَّحْل : ٣٠] . للمؤمنين الذين أطاعوا الله وابتعدوا عن معصيته في هذه الحياة الدنيا كرامة من الله تعالى ، ومُكافأة في الدنيا ، وما يَحْصُلُونَ عليه في الآخرة من ثواب الجَنَّة أفضل وأعظم من الدُّنيا لِفنائها ، وبقاء الآخرة ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ الجَنَّة .

وقال الطبري في تفسيره (٥٧٩ / ٧) : ((قَوْلُهُ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُهُ : للذين آمنوا بالله في هذه الدنيا ورسوله ، وأطاعوه فيها ، ودَعَوْا عِبَادَ اللَّهِ إِلَى الإِيمَانِ والعمل بما أمر الله به ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ، يقول : كرامة من الله ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، يقول: وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا ، وكرامة الله التي أعدها لهم فيها أعظم من كرامته التي عَجَّلَهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، يقول : وَلَنِعْمَ دَارُ الَّذِينَ خَافُوا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا ، فَاتَّقُوا عِقَابَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ ، وَتَجَنَّبِ مَعَاصِيَهُ ، دَارِ الْآخِرَةِ)) .

وقال البغوي في تفسيره (١٧ / ١) : ((﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ كرامة من الله . قال ابن عباس: هي تَضْعِيفُ الأجر إلى العَشْرِ . وقال الصَّحَّاحُ : هي النَّصْرُ والفَتْحُ . وقال مُجاهد: هي الرِّزْقُ الحَسَنُ ، ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ ﴾ ، أي: وَلَدَارُ الحَالِ الْآخِرَةِ ﴿ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، قال الحسن: هي الدنيا لأن أهل التَّقوى يتزودون فيها للآخرة. وقال أكثر المُفسِّرين: هي الجَنَّة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [التَّحَلُّ : ١٢٨] .
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا الْمَعَاصِي بِكُلِّ أَنْوَاعِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَمَعَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ ،
 يُعِينُهُمْ ، وَيَنْصُرُهُمْ ، وَيَحْفَظُهُمْ ، وَيُرْعَاهُمْ . وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْ مَعِيَّةِ اللَّهِ الْخَاصَّةِ . وَمَنْ كَانَ
 اللَّهُ مَعَهُ ، فَلَنْ يَضُرَّهُ أَحَدٌ ، وَلَنْ يُؤْذِيَهُ شَيْءٌ .

وقال الطبري في تفسيره (٦٦٦ / ٧) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ مَعَ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ اللَّهَ فِي مَحَارِمِهِ ، فَاجْتَنِبُوهَا ، وَخَافُوا عِقَابَهُ عَلَيْهَا ، فَأَحْجَمُوا عَنِ التَّقَدُّمِ عَلَيْهَا ،
 ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ، يَقُولُ : وَهُوَ مَعَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ رِعَايَةَ فَرَائِضِهِ ، وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِ ،
 وَلِزُومِ طَاعَتِهِ ، فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَحْسَنَتْكُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] .
 إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَقْوَالَكُمْ وَأَفْعَالَكُمْ ، وَالتَّزَمْتُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَاجْتَنَبْتُمْ نَوَاهِيهِ ، فَأَنْتُمْ تُفِيدُونَ
 أَنْفُسَكُمْ ، لِأَنَّ نَفْعَ إِحْسَانِكُمْ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ ، وَأَجْرُ عِبَادَتِكُمْ وَطَاعَاتِكُمْ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ . وَاللَّهُ لَا يَحْتَاجُ
 إِلَى طَاعَاتِ الْعِبَادِ ، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَإِحْسَانُ النَّاسِ لَا يَعُودُ
 بِالْفَائِدَةِ عَلَى خَالِقِهِمْ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَهُمْ يُسَاعِدُونَ أَنْفُسَهُمْ لِتَبَلُّغِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى ،
 وَالْحَصُولِ عَلَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ . فَهُمْ الْمُحْتَاجُونَ إِلَى إِحْسَانِهِمْ ، وَإِحْسَانِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ .

وعندما يكون المرء مُحْسِنًا ، قد انتشر الإحسانُ في أخلاقه وأقواله وأفعاله ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي
 مَحَبَّةِ اللَّهِ الَّذِي يَقُولُ : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وقال الطبري في تفسيره (٢٩ / ٨) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا قَضَى إِلَيْهِمْ فِي
 التَّوْرَةِ : ﴿ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَطَعْتُمُ اللَّهَ وَأَصْلَحْتُمْ أَمْرَكُمْ ، وَلَزِمْتُمْ أَمْرَهُ وَنَهَيْتُمْ
 ﴿ أَحْسَنْتُمْ ﴾ ، وَفَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ﴿ لِأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، لِأَنَّكُمْ إِنَّمَا تَنْفَعُونَ بِفِعْلِكُمْ مَا تَفْعَلُونَ مِنْ
 ذَلِكَ أَنْفُسَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنْكُمْ مِنْ بَغَاكُم سُوءًا ، وَيُنَمِّيْ لَكُمْ
 أَمْوَالَكُمْ ، وَيَزِيدُكُمْ إِلَى قُوَّتِكُمْ قُوَّةً . وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُثَبِّتُكُمْ بِهِ جَنَّاتِهِ)) .
 وَالآيَةُ عَامَّةٌ وَشَامِلَةٌ وَمُطْلَقَةٌ ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ ، وَلَيْسَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [
 الكهف : ٣٠] . إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ ،
 وَابْتَعَدُوا عَنِ الْمَعَاصِي ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ اتَّقَنَ عَمَلَهُ ، وَأَخْلَصَ فِيهِ ، سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ الْعَمَلُ
 صَغِيرًا أَمْ كَبِيرًا ، بَلْ يَزِيدُ الْأَجْرَ ، وَيَكْثُرُهُ ، وَيُجَازِيهِمْ خَيْرَ الْجَزَاءِ .

والآية ترغيب في فعل الطاعات ، وذُكر ما للمؤمنين من الأجر العظيم والثواب الجزيل .
وقال الطبري في تفسيره (٢٢٠ / ٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ،
وعملوا بطاعة الله ، وانتَهَوْا إِلَى أمرِهِ وَنَهَيْهِ ، إِنَّا لَا نُضِيعُ ثَوَابَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، فَأَطَاعَ اللَّهَ ،
وَاتَّبَعَ أَمْرَهُ وَنَهَيْهِ ، بَلْ نُجَازِيهِ بِطَاعَتِهِ وَعَمَلِهِ الْحَسَنِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج : ٣٧] .
وبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُحْسِنِينَ فِي عَمَلِهِمْ ، الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ،
وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ مُخْلِصِينَ لِلَّهِ ، سَائِرِينَ وَفَقَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ ، بِالسَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ .
وقال الطبري في تفسيره (١٥٩ / ٩) : ((يقول : وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي أَطَاعُوا اللَّهَ ،
فَأَحْسَنُوا طَاعَتَهُمْ إِيَّاهُ فِي الدُّنْيَا ، بِالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ)) .
وقال الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .
اعْبُدَ اللَّهَ ، وَالتَّزَمِ بِطَاعَتِهِ ، وَابْتَعِدْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِالنِّعَمِ الْكَثِيرَةِ . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ،
أَحْسِنِ بِطَاعَتِكَ لِلَّهِ وَشُكْرِكَ لَهُ ، كَمَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ بِالْإِنْعَامِ .
وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢٦٦ / ٤) : ((﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، أَي :
أَحْسِنُ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ ، كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا . وَقِيلَ : أَطَعِ اللَّهَ
وَاعْبُدْهُ كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ)) .
وفي حديث جبريل الشهير في صحيح مسلم (٣٦ / ١) أن النبي ﷺ عَرَّفَ الْإِحْسَانَ بِقَوْلِهِ :
((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)) .
هذا يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ آدَاءِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ ، وَضَرُورَةِ الْإِحْلَاصِ وَالخُشُوعِ .
وَإِذَا أَيْقَنَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ ، وَيَعْرِفُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ، كَانَ هَذَا دَافِعًا لَهُ إِلَى إِتْقَانِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ .
وفي الحديث تَوْجِيهِ وَتَنْبِيهِ وَإِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ .
الإِحْسَانُ هُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ عِبَادَةً مَنْ يَرَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَيَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِنَّكَ لَا تَسْتَبْقِي شَيْئًا
مِنَ الْخُضُوعِ وَالخُشُوعِ وَالْإِحْلَاصِ ، وَحِفْظِ الْقَلْبِ وَالْجَوَاحِرِ ، وَمُرَاعَاةِ الْآدَابِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مَا
دُمَّتْ فِي عِبَادَتِهِ .
ونَهَايَةُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ هُوَ أَنْ يَعْبُدَ الْمُؤْمِنُ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ بِقَلْبِهِ ، فَيَكُونُ مُسْتَحْضِرًا بِبَصِيرَتِهِ
وَفِكْرَتِهِ لِهَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْهُ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، انْتَقَلَ إِلَى مَقَامٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ عَلَى أَنَّ
اللَّهَ يَرَاهُ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٥٥١) عن حديث آخر : ((اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)
 وَمُحَالٌ أَنْ تَرَاهُ وَتَشْهَدَ مَعَهُ سِوَاهُ ، وَهَذَا يُسَمَّى مَقَامَ الْمَشَاهِدَةِ وَالْمُرَاقِبَةِ ، وَهُوَ أَنْ لَا يَلْتَفِتَ الْعَابِدُ
 فِي عِبَادَتِهِ بظَاهِرِهِ إِلَى مَا يُلْهِيه عَنِ مَقْصُودِهِ ، وَلَا يَشْتَغِلُ بَاطِنُهُ بِمَا يَشْغَلُهُ عَنِ مَشَاهِدَةِ مَعْبُودِهِ ،
 فَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا الْمَقَامُ هَبَّطَ إِلَى مَقَامِ الْمُرَاقِبَةِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)
 أَي أَنَّكَ بِمَرَأَى مِنْ رَبِّكَ ، لَا يَخْفَاهُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكَ . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَعْبُودَهُ مُشَاهِدٌ لِعِبَادَتِهِ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ
 تَرْبِيَةُ ظَاهِرِهِ بِالْخُشُوعِ ، وَبَاطِنِهِ بِالْإِحْلَاصِ وَالْحُضُورِ ، فَإِنَّهُ ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾
 [غَافِرٍ : ١٩] . وَفِيهِ حَثٌ عَلَى كِمَالِ الْإِحْلَاصِ ، وَلُزُومِ الْمُرَاقِبَةِ . قِيلَ : رَاوَدَ رَجُلٌ امْرَأَةً ،
 فَقَالَتْ : أَلَا تَسْتَحِي ، فَقَالَ : لَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ ، قَالَتْ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ مُكْوَكِبِهَا ؟ . وَقَالَ ابْنُ
 عَرَبِي : لَوْ لَمْ يُصِرَّكَ وَلَمْ يَسْمَعْكَ لَجَهَلٌ كَثِيرًا مِنْكَ ، وَنِسْبَةُ الْجَهْلِ إِلَيْهِ مُحَالٌ ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى
 نَفْيِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ عَنْهُ بِحَالٍ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] .

اللَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا ، وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ ، خَلَقًا وَمَلَكًا وَتَصَرُّفًا وَتَدْبِيرًا ،
 وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا نِد . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
 الْمُطْلَقَةِ ، وَمُلْكِهِ الْوَاسِعِ ، وَإِرَادَتِهِ الْنَافِذَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، وَيَجْزِيَ الْمُحْسِنَ بِالْجَنَّةِ ، بِسَبَبِ إِحْسَانِهِ وَأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ .
 أَي : إِنَّ اللَّهَ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا . وَالْمُحْسِنُ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَالْمُسِيءُ لَهُ النَّارُ .
 وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٥٢٥) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ مُلْكٌ ﴾ مَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿ مِنْ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ، ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
 أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ ، يَقُولُ : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ عَصَوْهُ مِنْ خَلْقِهِ ، فَأَسَاءُوا بِمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ ، فَيُثَبِّتُهُمْ بِهَا
 النَّارَ ، ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ، يَقُولُ : وَلِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَطَاعُوهُ فَأَحْسَنُوا بِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ
 فِي الدُّنْيَا بِالْحُسْنَى ، وَهِيَ الْجَنَّةُ ، فَيُثَبِّتُهُمْ بِهَا . وَقِيلَ : غَنِيٌّ بِذَلِكَ أَهْلُ الشَّرْكِ وَالْإِيمَانِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٧٥) : ((عِلْمُهُ بِالْفَرِيقَيْنِ أَدَّى إِلَى جَزَائِهِمْ
 بِاسْتِحْقَاقِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى مُجَازَاةِ الْفَرِيقَيْنِ إِذَا كَانَ وَاسِعَ الْمُلْكِ ، فَلِذَلِكَ أَخْبَرَ بِهِ فِي قَوْلِهِ :
 ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَ ﴿ أَسَاءُوا ﴾ بِمَعْنَى أَشْرَكُوا ،
 وَ ﴿ أَحْسَنُوا ﴾ بِمَعْنَى وَحَدُوا . وَالْحُسْنَى : الْجَنَّةُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرَّحْمَنُ : ٦٠] .
 لَيْسَ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا بَطَاعَةَ اللَّهِ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا . وَالْجَزَاءُ
 مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَأَطَاعَهُ ، فَقَدْ اسْتَحَقَّ الْإِكْرَامَ وَالْإِنْعَامَ .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٢٣) : ((قال الرَّجَاجُ : أي : ما جزاء مَنْ أَحْسَنَ
 فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ . وقال ابن عباس : هل جزاء مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
 وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَّا الْجَنَّةُ . وروى أنس بن مالك قَالَ : قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ هذه الآية ،
 وَقَالَ : " هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ " ، قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " فَإِنْ رَبِّكُمْ يَقُولُ : هَلْ
 جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ ؟ ")) .

١٨ _ الإيتار

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
 فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الْحَشْرُ : ٩] .

هؤلاء الأنصار الذين سَكَنُوا المَدِينَةَ (دار الهجرة) قبل المهاجرين ، يُحِبُّونَ المهاجرين ،
 وَيَقْدِمُونَ لَهُمْ كُلَّ أَشْكَالِ المَسَاعِدَةِ المعنوية والمادية . وقد شاركوهم في منازلهم وأموالهم . وهذا
 يدل على إيمانهم الراسخ ، ومكانتهم الشريفة ، وكرمهم العظيم ، وأنفسهم السَّامِيَّة ، وأصلهم الطَّيِّب .
 والآية تمدحُ الأنصارَ وتثني عليهم . والتَّبَوُّؤُ هُوَ التَّمَكُّنُ الشَّدِيدُ والاستقرار . والجديرُ بالذكرُ
 أَنَّ الأنصارَ آمَنُوا قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، فقد ظَهَرَ صِدْقُهُمْ ، واستَوَطَنُوا المَدِينَةَ ، وبنوا
 المساجدَ فيها ، وآثروا الإيمانَ . وليس المقصود أنهم آمَنوا قبل المهاجرين .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢١) : ((قال ابن وهب : سَمِعْتُ مالِكًا يَذْكَرُ فضلَ المَدِينَةِ
 على غَيْرِهَا مِنَ الآفاقِ ، فقال : إن المَدِينَةَ تَبَوَّأَتْ بِالْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ ، وَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْقُرَى
 افْتِيحَتْ بِالسَّيْفِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢١٢) : ((فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ ﴾
 يعني دارَ الهجرة ، وهي المَدِينَةُ . ﴿ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فيها تقديم وتأخير ، تقديره : والذين
 تَبَوَّؤُوا الدَّارَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أي : مِنْ قَبْلِ المهاجرين ، وَالْإِيمَانَ عَطَفَ على الدار في الظاهر لا في

المعنى ، لأن الإيمان ليس بمكان يُتَبَوَّأ ، وإنما تقديره : وآتَرُوا الإيمانَ . وإسلامُ المهاجرين قبل الأنصار ، وسكنى الأنصارِ المدينةَ قبل المهاجرين . وقيل : الكلام على ظاهره ، والمعنى : تَبَوَّؤُوا الدارَ والإيمانَ قبل الهجرة)) .

وقد مَدَحَ النبي ﷺ الأنصارَ في مواطن كثيرة. فقال ﷺ: ((الأنصارُ كَرِشي وَعَيْبتي ، والناسُ سَيَكْثُرُونَ وَيَقْلُونَ ، فَأَقْبَلُوا مِن مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَن مُسِيئِهِمْ)) ٧٢ .

إنَّ الأنصارَ خاصَّةُ النبي ﷺ وبطانتُهُ . وهذا الكلامُ المُوجِزُ دليلٌ على فصاحة النبي ﷺ ، وأنَّ الكلامَ قد جُمِعَ له جَمْعًا . وفي الحديث مُعْجِزَةٌ للنبي ﷺ ، حيث أَخْبَرَ أَنَّ الأنصارَ سَيَقْلُونَ بينما يَكْثُرُ غَيْرُهُمْ ٧٣ . وقد أوصى بهم النبي ﷺ خَيْرًا ، وذلك بأن يُقْبَلَ مِن مُحْسِنِهِمْ ، وَيُعْفَى عَن مُسِيئِهِمْ في غير الحُدُودِ وحقوقِ الناسِ . وهنا تَبَرَّزَ مكانةُ الأنصارِ وفضائلُهم ، وما كانوا لِيَنالُوا هذه الرُّتبةَ السَّامِيَةَ لَوْلَا حَمَلُهُم للإسلامِ ونُصرةِ النبي ﷺ .

كان النبي ﷺ يُوصِي أصحابَهُ بعضهم ببعض ، وَيَجْمَعُ فيما بينهم ، وَيَحْفَظُ حقَّ بعضهم على بعض . وقد أوصى ﷺ بالأنصارِ خَيْرًا ، وَهُم أهلُ المدينةِ وقتِ هجرةِ النبي ﷺ إليها .

والكَرِشُ : بمنزلةِ المَعْدَةِ للإنسانِ ، والعَيْبَةُ مُسْتَوْدَعُ التِّيَابِ . والمعنى : إنَّ الأنصارَ بِطانةُ النبي ﷺ وخاصَّتُهُ ، ومَوْضِعُ سِرِّهِ وأمانتهِ . وقد أدَّوا أمانةَ الدِّينِ ، فَهُم الذين آوُوا رسولَ الله ﷺ والمُهَاجِرِينَ ، وَبَدَّلُوا في سبيلِ اللهِ كُلَّ خَيْرٍ ، وَوَقَفُوا بِشُرُوطِ بَيْعَاتِهِم التي بايعوا عليها النبي ﷺ ، وَيَقِي الذي لهم مِن حُسْنِ الجِزَاءِ ، وإِعْظَامِ شَأْنِهِمْ ، وَعِرْفَانِ إِحْسَانِهِمْ ، والوفاءِ لهم على صَنِيعِهِمْ مِثْلَهُ ، فيجب أن يُسَدَّلَ فيهِم الخَيْرُ والإِكْرَامُ ، وأن يُعْفَى عَمَّن أساءَ مِنْهُم ، فيما دُونَ الحُدُودِ وحقوقِ العبادِ .

والحديثُ يُبَيِّنُ فضلَ الأنصارِ _ رضي اللهُ عنهم _ ، ومنزلتهم الرفيعةَ ، وقَدْرَهُم الشَّرِيفَ ، ودَوْرَهُم المُهِمَّ في نُصرةِ اللهِ ورسوله ﷺ .

٧٢ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٣٨٣) برقم (٣٥٩٠) ، ومسلم (٤ / ١٩٤٩) برقم (٢٥١٠) .
٧٣ قال الحافظ في الفتح (٧ / ١٢٢) : ((وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام ، وَهُم أضعافُ أضعافِ قبيلةِ الأنصارِ ، فمهما فُرضَ في الأنصارِ مِنَ الكثرةِ كالتناسلِ ، فُرضَ في كُلِّ طائفةٍ مِن أولئك ، فَهُم أَبَدًا بالنسبةِ إلى غيرهم قليل . وَجُمُتْ أَن يكونَ ﷺ اطَّلَعَ على أَحْمَ يَقْلُونَ مُطْلَعًا ، فَأَخْبَرَ بذلك ، فكان كما أَخْبَرَ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٦٨) : ((قال العلماء : معناه : جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم ، وأعتد بهم في أموري . قال الخطابي : ضربَ مثلاً بالكُرْشِ ، لأنه مُستقرّ غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه ، والعَيْبَةُ وعاء معروف أكبر من المِخْلَاة ، يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه ، ويصُونُها . ضربها مثلاً لأنهم أهل سرّه وخفيّ أحواله)) .

وعن عبد الله بن زيد عن النبي ﷺ قال : ((لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا أَوْ شِعْبًا ، لَسَلَكَتُ وادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا)) ٧٤ .

أراد النبي ﷺ تأليف قلوب الأنصار، وإعلاء شأنهم، ومدحهم بسبب إيمانهم وصبرهم وثباتهم. ولَوْلَا الهِجْرَةُ التي لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، لكان النبي ﷺ واحدًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، وقد رَضِيَ ﷺ لِنَفْسِهِ هذا الأمرَ بِلا حَرَجٍ . أي يتسمّى باسمهم، ويتنسب إليهم ، لكنّ الهِجْرَةَ أعلى وأشرف ، فلا يقدّر على تركها .

وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وادِيًا أَوْ شِعْبًا ، وهو الطريق في الجبل ، لتبعهم النبي ﷺ في طريقهم ، وترك الطريق الآخر الذي سلكه الناس ، وذلك لفضل الأنصار . والمعنى : لو اختار الناس أمرًا ، واختار الأنصار أمرًا آخر ، لاعتمد النبي ﷺ اختيار الأنصار .

والحديث يوضح جلاله رتبة الهجرة ، ومكانة الأنصار العظيمة ، فيجب احترام الأنصار ، وتقديرهم ، ومعرفة حقهم ، وعدم الإساءة إليهم بأي شكل .

وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٥١) : ((قال الخطابي : ... وكانت المدينة دارَ الأنصار ، والهجرة إليها أمرًا واجبًا ، أي : لَوْلَا أن النسبة الهجرية لا يسعني تركها ، لانتسبت إلى داركم . قال : وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمَّا كَانُوا أَحْوَالَهُ ، لَكُونُ أُمَّ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ مِنْهُمْ ، أَرَادَ أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْوِلَادَةِ لَوْلَا مَا مَنَعَ الْهَجْرَةَ . وقال ابن الجوزي : لَمْ يُرِدْ ﷺ تَغْيِيرَ نَسَبِهِ وَلَا مَحْوَ هِجْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُ لَوْلَا مَا سَبَقَ مِنْ كَوْنِهِ هَاجِرًا ، لَانْتَسَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِلَى نُصْرَةِ الدِّينِ . فالتقدير : لَوْلَا أن النسبة إلى الهجرة نسبة دينية لا يسع تركها لانتسبت إلى داركم . وقال القرطبي : معناه لتسميت باسمكم وانتسبت إليكم كما كانوا ينتسبون بالحلف ، لكنّ خصوصية الهجرة وتربيتها سبقت ، فمُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وهي أعلى وأشرف ، فلا تتبدل بغيرها . وقيل : معناه لَكُنْتُ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْعِدَادِ . وقيل : التقدير لَوْلَا أن ثواب الهجرة أعظم لاخترت أن يكون ثوابي ثواب

٧٤ متفق عليه. البخاري (٦ / ٢٦٤٦) برقم (٦٨١٨) ، ومسلم (٢ / ٧٣٨) برقم (١٠٦١) .

الأنصار، ولم يُرد ظاهر النَّسَبِ أصلاً. وقيل: لولا التزامي بشروط الهجرة، ومنها ترك الإقامة بمكة فوق ثلاث، لا اخترت أن أكون من الأنصار فيباح لي ذلك)) .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٨٥٤) : قال عُمرُ _ رضي الله عنه _ عند وفاته : ((أُوصي الخليفة بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ، وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل أن يُهاجر النبي ﷺ ، أن يقبل من مُحسنهم ، ويعفو عن مُسيئهم)) .
أثنى الله على المهاجرين والأنصار ، فبهم أقام الله دينه ، ونصر رسوله ، ورفع لواءه ، وعمم بهم نور الله في الناس . ولما علم عُمر بن الخطَّاب _ رضي الله عنه _ فضلهم ، وكان من المهاجرين الأولين ، أوصى بهم خيراً .

والحديثُ يُبين وصيةَ عُمر بن الخطَّاب _ رضي الله عنه _ بالمهاجرين والأنصار ، وهو على فراش الموت بعد الطعنة التي مات منها . لقد أوصى الخليفة الآتي بعده بالمهاجرين الأولين ، وهم الذين صلُّوا إلى القبلتين ، وقيل : إنَّهم الذين أدركوا بيعة الرضوان ، وقيل : هم من شهدوا بدرًا . أوصاه أن يعرف لهم حقهم ، وما قدموه لِنصرة الدين . وأوصاه أيضاً بالأنصار _ وهم أهل المدينة _ الذين لزموا واستقرُّوا في دار الهجرة ، وهي المدينة النبوية ، التي أظهر الله فيها الإسلام والإيمان ، فأوصى أن يقبل من مُحسنهم إحسانه ، ويعفو عن مُسيئهم ، وذلك فيما دون الحدود وحقوق العباد . وهي وصيةٌ قد أوصى بها النبي ﷺ ، كما في الصَّحيحين : " فأقبلوا من مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم " .

﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ . إنَّ الأنصار يُحِبُّونَ المهاجرين الذين تركوا ديارهم وانتقلوا إليهم ، ويؤاسونهم بأموالهم ، ويُسركونهم في مساكنهم . ولا يثقل عليهم هذا الأمر . وهذه المحبة تتجلى قولاً وفعلاً ، وليست مُجرّد شعارات للاستعراض والتعني بها. وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٣٩) :
((يُحِبُّونَ مَنْ تَرَكَ مَنْزِلَهُ ، وانتقل إليهم من غيرهم ، وعني بذلك الأنصار ، يُحِبُّونَ المهاجرين)) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ . لا يشعر الأنصارُ بالحسد والحقد والغِيظ تُجاه المهاجرين الذين فضلهم الله في الرتبة والشرف والذكر . وهم لا يحسدون المهاجرين على ما خصُّوا به من مال الفِئء . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢١٢) : ((﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ ، أي : حسداً وغيظاً ممَّا أُوتِيَ المهاجرون . وفيما أُوتوه قولان : أحدهما مال الفِئء ، قاله الحسن وأنَّ النبي ﷺ قَسَمَ أموال بني النضير بين المهاجرين ، ولم يُعط من الأنصار غير ثلاثة نفرٍ ، والثاني : الفضل والتَّقدُّم ، ذكره الماوردي)) .

وعن الزُّهري قال: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، تَنْطَفُ لِحَيْتِهِ مِنْ وُضُوئِهِ ، قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشَّمَالَ ، فَلَمَّا كَانَ الْعُدُ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّلَاثَ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا ، فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَحْيَيْتُ أَبِي (يعني خاصمتُهُ) فَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا أُدْخِلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ أَنَسُ : وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ ، فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَّ (استيقظ) وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - وَكَبَّرَ ، حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعُهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ، فَلَمَّا مَضَتِ الثَّلَاثُ لَيَالٍ ، وَكِدْتُ أَنْ أُحْتَقِرَ عَمَلَهُ ، قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ (يعني تباعد) نَمَّ ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : ((يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)) ، فَطَلَعْتُ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ آوِيََ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدِي بِهِ ، فَلَمْ أَرْكَ تَعْمَلْ كَثِيرَ عَمَلٍ ، فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ . قَالَ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي ، فَقَالَ : مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ ، غَيْرَ أَنِّي لَا أُجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا ، وَلَا أُحْسَدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ ، وَهِيَ الَّتِي لَا تُطِيقُ^{٧٥} .

هذا يدلُّ على أهمية سلامة الصدر، وضرورة ألاَّ يحمل المرءُ غيلاً أو حقدًا لأحدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُ عِنْدَمَا يَرَى نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ عِبَادَهُ ، لَا يَحْسُدُهُ عَلَيْهَا . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ الْعَظِيمَةُ تُوصِلُ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ ، لَكِنَّهَا صَعْبَةُ التَّطْبِيقِ وَالِاتِّزَامِ بِهَا عَلَى الدَّوَامِ . وَيَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ تَطْهِيرَ قَلْبِهِ مِنَ الشَّوَابِ ، فَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ .

﴿ وَيُؤْتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . يُعْطَى الْأَنْصَارُ الْمُهَاجِرِينَ أَمْوَالَهُمْ إِيثَارًا لَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ . وَهَذَا دَلِيلٌ أَنْ إِيثَارَهُمْ لَمْ يَكُنْ عَنْ غِنَى ، وَهَذَا

٧٥ رواه أحمد في مسنده (٣ / ١٦٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ١٥٠) : ((ورجال أحمد رجال الصحيح)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٣٢) : ((ورواه النسائي في اليوم واللييلة عن سُؤد ابن نصر ، عن ابن المبارك ، عن مَعْمَرِ بِهِ ، وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِينَ ، لَكِنْ رَوَاهُ عَقِيلٌ وَغَيْرُهُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ رَجُلٍ عَنِ أَنَسِ ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

قمة الإيثار. كما يُشير إلى قيمة التَّوَكُّل على الله، والاعتماد على كرمه، وأنَّ الرِّزْق محفوظ . وأيضاً، يدلُّ على أهمية الرُّهد في الدنيا ، وعدم التَّكَلُّبِ على خُطامها الزائل ، والتفاخرِ بالأموال والأولاد. وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٣٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، يعني : حَاجَةٌ ، أي : يُقَدِّمُونَ المَحَاوِجَ (المُحتاجين) على حاجة أنفسهم ، ويبدوون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٢٠/١): ((ويُقَدِّمُونَ المُهاجرين على أنفسهم، حتى إن كان عنده امرأتان ، نَزَلَ عن واحدة ، وزَوَّجها مِن أحدهم)) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال: أتى رَجُلٌ رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، أصابني الجَهْدُ (يعني المَشَقَّةُ مِنَ الجُوع) ، فأرسلَ إلى نِسائه ، فلم يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئاً ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((أَلَا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هذِهِ اللَّيْلَةَ يَرَحِمُهُ اللَّهُ ؟)) . فقام رَجُلٌ مِنَ الأنصار ، فقال : أنا يا رسولَ الله . فذهبَ إلى أهله ، فقال لامرأته : ضَيِّفِي رسولَ الله ﷺ ، لا تَدَخِرِيه شَيْئاً ، قالت : واللَّهِ ما عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَّةِ . قال : فإذا أَرَادَ الصَّبِيَّةُ العِشَاءَ ، فَتَوَمِّمِيه ، وَتَعَالِي فَاطِطِي السَّرَّاجَ ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ . فَفَعَلْتُ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رسولِ الله ﷺ ، فقال : ((لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، أَوْ ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ)) . فَأَنْزَلَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ٧٦ .

ذَهَبَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُطْعِمَهُ وَيُنْقِذَهُ مِنَ الجُوع ، لِعِلْمِهِ بِكَرَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ هُوَ قَائِدُ المُسْلِمِينَ ، وَالرَّاعِي الأَمِينُ لمصالح الرِّعِيَّةِ . وقد أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ إِطْعَامَهُ ، لَكِنَّ بَيُوتَهُ خَالِيَةٌ مِنَ الطَّعَامِ . وهذا يُشير إلى قَسْوَةِ العِيشِ التي يُعانيها النَّبِيُّ ﷺ هُوَ وَأَزْوَاجُهُ _ رضي الله عَنْهُنَّ _ ، فَلَمْ يَبْنِ مَجْدَهُ عَلَى سَرِقَةِ النَّاسِ ، وَالاسْتِيلاءِ عَلَى مَمْتَلِكَاتِهِمْ ، وَبِنَاءِ القُصُورِ عَلَى جَماعِهِمْ . وَلَمْ يَشْبِعْ عَلَى حِسَابِ جُوعِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَغْلِ مَكَانَتَهُ الاجْتِمَاعِيَّةَ الرِّفِيعَةَ لِتَكْدِيسِ الأَمْوَالِ ، وَزِيَادَةِ النِّفُودِ ، وَاسْتِعْبَادِ النَّاسِ ، وَالصُّعُودِ عَلَى ظُهُورِهِمْ . لقد عانى أَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَهُوَ النَّبِيُّ القَائِدُ المُؤَيَّدُ بِالوَحْيِ السَّمَاوِيِّ ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُمَطِّرَ عَلَيْهِ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَمَا لَدَّ وَطَابَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، لِأَنَّهُ قُدُوءٌ لِلنَّاسِ ، وَمِثْلُ أَعْلَى ، يَطْلُبُ الآخِرَةَ الباقِيَةَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا فانية .

٧٦ متفق عليه ، واللفظ للبخاري (٤ / ١٨٥٤) برقم (٤٦٠٧) . ومسلم (٣ / ١٦٢٤) برقم (٢٠٥٤) .

ولم يترك النبي ﷺ هذا الرجل يواجه مصيره وحيداً ، ولم يتركه فريسةً للجوع القاتل ، وإنما وجه أصحابه لضيافة الرجل وإطعامه . فقام رجلٌ من الأنصار ، واستجاب فوراً لطلب النبي ﷺ ، وبادر وسارع إلى فعل الخير رغم ضيق ذات اليد . ثم كانت قصته التي تدل على احترام ضيف النبي ﷺ وتقديره ، لأن احترام ضيف النبي ﷺ هو احترام للنبي شخصياً . كما ظهرت أعلى درجات الإيثار ، الذي كان سبباً لرضا الله تعالى المُطَّلَع على خفايا البيوت ، وأسرار القلوب .

والجدير بالذكر أن الصبيبة لم يكونوا جائعين بدرجة كبيرة ، وإنما الأمر على عادة الصبيبة في طلب الطعام . ولو كانوا جائعين ، لوجب إطعامهم وجوباً شرعياً . ولكان تركهم جوعاً أمراً مُحَرَّمًا شرعاً . وبما أن الله تعالى قد رضي عن الأنصاري وزوجته ، ورضي عن فعلهما ، فهذا دليل على أن الأمر في دائرة الطاعة لا المعصية .

والحديث يوضح أن من أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم ، وتميزوا بها على من سواهم ، خلق الإيثار ، وهو أكمل أنواع الجود ، وهو الإيثار بمحabb النفس من الأموال وغيرها ، وبذلها للغير مع الحاجة إليها ، بل مع الضرورة والخصاصة ، وهذا لا يكون إلا من خلق زكياً ، ومحبة لله مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها . ومن رزق الإيثار فقد وفق نفسه ، وبذلك يحصل الفلاح والفوز له في الدنيا والآخرة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٢) : ((هذا الحديث مشتمل على فوائد كثيرة : منها ما كان عليه النبي ﷺ وأهل بيته من الزهد في الدنيا ، والصبر على الجوع ، وضيق حال الدنيا . ومنها أنه ينبغي لكبير القوم أن يبدأ في مؤاساة الضيف ومن يطرفهم بنفسه ، فيؤاسيه من ماله أولاً بما يتيسر إن أمكنه ، ثم يطلب له على سبيل التعاون على البر والتقوى من أصحابه ، ومنها المؤاساة في حال الشدائد ، ومنها فضيلة إكرام الضيف وإيثاره . ومنها منقبة لهذا الأنصاري وامراته _ رضي الله عنهما _ ، ومنها الاحتيال في إكرام الضيف إذا كان يمتنع منه رفقاً بأهل المنزل ، لقوله : (أطفئي السراج وأريه أنا ناكل) [رواية مسلم] ، فإنه لو رأى قلة الطعام وأنهما لا يأكلان معه لامتنع من الأكل الضيفان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل ، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيبان من غير جوع يضربهم ، فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضربهم ترك الأكل ، لكان إطعامهم واجباً ، ويجب تقديمه على الضيافة . وقد أتى الله ورسوله ﷺ على هذا الرجل وامراته ، فدل على أنهما لم يتركا واجباً ، بل أحسنا وأجملنا _ رضي الله عنهما _ . وأما هو وامراته فآثرا على أنفسهما برضاهما ، مع حاجتهما وخصاصتهما ، فمدحهما الله تعالى ،

وَأَنْزَلَ فِيهِمَا : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، فِيهِ فَضِيلَةُ الْإِيثَارِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ .
وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى فَضِيلَةِ الْإِيثَارِ بِالطَّعَامِ وَنَحْوِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَحُضُوظِ النَّفُوسِ ، أَمَّا الْقُرْبَاتِ
فَالْأَفْضَلُ أَنْ لَا يُؤْتِرَ بِهَا ، لِأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا لِلَّهِ تَعَالَى)) .

﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^{٧٧} . مَنْ حَمَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبُخْلِ فَقَدْ أفلَحَ فِي
الدُّنْيَا ، وَفازَ بِالْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١٠٨٣) : ((﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ
نَفْسِهِ ﴾ ، مَنْ حَفِظَ مِنَ الْحِرْصِ الْمُهْلِكِ عَلَى الْمَالِ ، وَهُوَ حِرْصٌ يَحْمِلُهُ عَلَى إِسْكَاتِ الْمَالِ عَنِ
الْحَقُوقِ وَالْحَسَدِ ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ١٩٩٦) : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ : ((...) ، وَأَتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ،
وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ)) .

يَأْمُرُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحَذَرِ مِنَ الشُّحِّ ، وَالْإِبْتِعَادِ عَنْهُ ، وَهُوَ الْبُخْلُ بِأَدَاءِ الْحَقُوقِ ، وَالْحِرْصِ عَلَى
مَا لَيْسَ لَهُ . وَالشُّحُّ الشَّحِيحُ حَرِيصٌ عَلَى الْمَالِ بِشَكْلِ جَنُونِي ، وَهَذَا يَدْفَعُهُ إِلَى التَّفْكِيرِ بِكُلِّ
الْوَسَائِلِ لِلْحَصُولِ عَلَيْهِ وَتَخْزِينِهِ ، دُونَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ وَغَيْرِ الشَّرْعِيِّ . وَقَدْ يَحْمِلُهُ هَذَا
الْهَوَسُ الْمَادِي عَلَى ارتكابِ جَرَائِمِ الْقَتْلِ وَاسْتِحْلَالِ الْمَحَارِمِ ، مِنْ أَجْلِ تَنْفِيزِ أَحْلَامِهِ الْمُدْمَرَةِ ،
وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ الْقَاتِلَةِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي بَذْلِ الْمَالِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ الْمَحَبَّةَ وَالتَّوَصُّلَ وَالتَّعَاطُفَ ،
وَفِي الإِسْكَاتِ وَالشُّحِّ الْعِدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ وَالتَّقَاطُعَ ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى الشُّجَارِ ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ ،
وَاسْتِبَاحَةِ الْمَحَارِمِ مِنَ الْفُرُوجِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَفِي الْأَمْوَالِ ، وَغَيْرِهَا .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٦ / ١٣٤) : ((قَالَ الْقَاضِي : يُحْتَمَلُ أَنْ هَذَا
الْهَلَاكُ هُوَ الْهَلَاكُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكُ
الْآخِرَةِ ، وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ جَمَاعَةٌ : الشُّحُّ أَشَدُّ الْبُخْلِ ،

٧٧ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٨ / ٢١٥) : ((وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الشُّحِّ وَالْبُخْلِ ، هَلْ بَيْنَهُمَا
فَرْقٌ أَمْ لَا . فَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الشُّحُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ مَنَعُ الْفَضْلِ مِنَ الْمَالِ . وَقَالَ أَبُو سَلِيمَانَ الْخَطَّابِيُّ :
الشُّحُّ أَبْلَغُ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْبُخْلِ ، وَإِنَّمَا الشُّحُّ بِمَنْزِلَةِ الْجِنْسِ ، وَالْبُخْلُ بِمَنْزِلَةِ النَّوعِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الْبُخْلِ إِنَّمَا
هُوَ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ وَخَوَاصِّ الْأَشْيَاءِ ، وَالشُّحُّ عَامٌ فَهُوَ كَالْوَصْفِ لِلْإِنْسَانِ ، مِنْ قَبْلِ الطَّبَعِ وَالْجِلَّةِ ،
وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : الْبُخْلُ أَنْ يَصْنَعَ بِمَالِهِ ، وَالشُّحُّ أَنْ يَبْخَلَ بِمَالِهِ وَمَعْرُوفُهُ)) .

وأَبْلَغَ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْبُخْلِ . وَقِيلَ : هُوَ الْبُخْلُ مَعَ الْحِرْصِ . وَقِيلَ : الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ ، وَالشُّحُّ عَامٌ . وَقِيلَ : الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوفِ . وَقِيلَ : الشُّحُّ الْحِرْصُ عَلَى مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَالْبُخْلُ بِمَا عِنْدَهُ)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ١٣٤ و ١٣٥) : ((وَاتَّقُوا الشُّحَّ) الَّذِي هُوَ بُخْلٌ مَعَ حِرْصٍ ، أَوْ مَنَعٍ الْوَاجِبِ ، أَوْ الْبُخْلِ بِمَا فِي يَدِ الْغَيْرِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ ، وَالضَّمُّ أَفْصَحُ ، أَي : اللُّومُ ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ كَرِيحَةً حَرِيصَةً ، وَالْبُخْلُ أَعَمُّ ، فَقَدْ يَكُونُ بُخْلٌ وَلَا شُحَّ ثَمَّةً ، وَلَا يَنْعَكَسُ . قَالَ الطَّبِيُّ : فَالْبُخْلُ مُطْلَقٌ الْمَنَعِ ، وَالشُّحُّ الْمَنَعُ مَعَ ظُلْمٍ الشُّحُّ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ ، . . . ، وَالشُّحُّ أَعْظَمُ أَنْوَاعِهِ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَتَائِجِ حُبِّ الدُّنْيَا وَلِذَلِكَ ، وَمِنْ ثَمَّ وَجَّهَهُ بِقَوْلِهِ (فَإِنَّ الشُّحَّ) بِتَثْلِيثِ الشَّيْنِ (أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ) مِنَ الْأُمَّمِ (وَحَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ) أَي : أَسَالَوْهَا بِالْقُوَّةِ الْعَضِيَّةِ بُخْلًا بِالْمَالِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْإِسْتِنْتِارِ بِهِ (وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) أَي اسْتَبَاحُوا نِسَاءَهُمْ ، أَوْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَغَيْرِهَا ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِنْتِافِ ، فَإِنَّ اسْتِحْلَالَ الْمَحَارِمِ جَامِعٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ ، وَعَطَفَهُ عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ عَطْفٌ عَامٌ عَلَى خَاصٍ وَإِنَّمَا كَانَ الشُّحُّ سَبَبًا مَا ذُكِرَ لِأَنَّ فِي بَدْلِ الْمَالِ وَالْمُؤَاسَاةِ تَحَابًُّا وَتَوَاصُلًا ، وَفِي الْإِمْسَاكِ تَهَاجُرٌ وَتَقَاطُعٌ ، وَذَلِكَ يَجْرُ إِلَى تَشَاجُرٍ وَتَغَادُرٍ ، مِنْ سَفْكِ الدَّمَاءِ ، وَاسْتِبَاحَةِ الْمَحَارِمِ وَأَنَّهُ _ أَي الشُّحُّ _ يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى أَفْطَعِ الْمَفَاسِدِ ، حَيْثُ جَعَلَهُ حَامِلًا عَلَى سَفْكِ الدَّمَاءِ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأَفْعَالِ الذَّمِيمَةِ ، وَأَخْبَثَ الْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : الشُّحُّ مُسَابِقَةُ قَدْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ سَابَقَ قَدَرَ اللَّهِ سَبَقَ ، وَمُعَاَلَبَةُ اللَّهِ ، وَمَنْ غَالَبَ الْحَقَّ غُلِبَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرِيصَ يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ مَا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ ، فَعُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا الْحِرْمَانُ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْخُسْرَانُ)) .

وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وَإِنِّي أَمْرٌ مَا قَدَّرْتُ ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ يَدَيَّ شَيْءٌ ، وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَنِي هَذِهِ الْآيَةُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ((ذَكَرْتَ الْبُخْلَ ، وَيُسِّنُ الشَّيْءُ الْبُخْلُ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَيْسَ كَمَا قُلْتَ ، ذَلِكَ أَنْ تَعَمَدَ إِلَى مَالٍ غَيْرِكَ أَوْ مَالِ أَخِيكَ فَتَأْكُلَهُ)) ^{٧٨} .

٧٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣٢) برقم (٣٨١٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

اعتبر الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ البُخلَ ليس هو المقصود في الآية ، وإنما المقصود أكل أموال الناس بالباطل (أخذ أموالهم بالطُّرق غير المشروعة) . وهذا تفرُّيقٌ بين الشُّحِّ والبُخلِ .

وفي جمهرة خطب العرب (١ / ٢١٤) أن عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ قال في خطبة له : ((واعلموا أنَّ بعض الشُّحِّ _ يعني البُخلِ _ شُعْبَةٌ مِنَ النَّفَاقِ ، فَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) .

الشُّحُّ (البُخلُ) خَصْلَةٌ مَذْمُومَةٌ عند جميع الأمم . وقد كان العربُ يُعَيِّرُونَ البُخْلَاءَ ، فتصبح هذه الصِّفَةُ وصمةً عارٍ بين القبائل والأقوام . والبُخلُ يعكس ضعف اليقين ، وشِدَّةَ التعلُّقِ بِمَتَاعِ الدُّنْيَا الفاني وخطأها الزائل ، والرُّعْبَ مِنَ المُستقبل المجهول ، والخَوْفَ على الرِّزْقِ الذي تكفَّل اللهُ بِحِفْظِهِ . ورزقُ العبدِ لن يأخذه غَيْرُهُ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يطمئن ، ويأخذ بالأسباب ، ويتعدى عن القلق . الشُّحُّ أصلُ المعاصي ، وهو البُخلُ بأداء الحقوق والواجبات المائيَّة ، مع الحرص على ما ليس له ، وهو نوعٌ مِنَ الظُّلم . وقيل : البُخلُ يَصْلُحُ وَصْفُهُ لأشياءَ بَعِيْنَهَا ، أمَّا الشُّحُّ فهو عام ، فيكون مَثَلًا البُخلُ في المال ، والشُّحُّ في كُلِّ شيءٍ ، فيكون الشُّحُّ صِفَةً لازمةً للشخص ، بخلاف البُخلِ فيكون صِفَةً لبعض أفعال الشخص .

وقد أهلك الشُّحُّ الأمم السابقة ، وقضى عليها ، حيث حَمَلَهُمْ وَبَعَثَهُم الشُّحُّ والحرصُ على الدُّنْيَا على أن سَفَكُوا وأراقوا دِمَاءَهُمْ ، واستحلُّوا مَحَارِمَهُمْ ، أي : جميع ما حَرَّمَ اللهُ عليهم أو بَعْضَهُ ، كما حَرَّمَ اللهُ الشُّحُومَ على اليهود ، والصَّيْدَ يومَ النَّبِيِّ ، إلا أَنَّهُمْ استباحوا ما نُهِوا عنه . وقد يكون المراد باستحلال مَحَارِمِهِمْ ، أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا ما حَرَّمَ اللهُ مِنْ نِسَائِهِمْ حَلَالًا ، أي : فَعَلُوا بِهِنَّ الفاحشةَ .

١٩ _ القَرَى (إكرام الضيف)

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بالبَشْرَى قالوا سلامًا قالَ سلامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩] .

جاءت الملائكةُ الذين أرسلهم اللهُ لإهلاك قوم لوطٍ إبراهيمَ بالبشارةِ بالولد (إسحاق) _ عليهم الصلاة والسلام _ ، على صورة الضيوف . سلَّم الملائكةُ على إبراهيمَ سلامًا ، قال لهم إبراهيمُ ﷺ : سلامٌ عليكم . وقد رَدَّ عليهم التَّحِيَّةَ بأحسنٍ مِنْ تحيتهم ، لأنَّه جاء بها جُمْلَةً اسميَّةً ، وهي تدلُّ

على الثبات والاستمرار . فَمَا أَبْطَأَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَلَا تَأَخَّرَ فِي الْمَجِيءِ حَتَّى جَاءَ بِعِجْلٍ مَشْوِيٍّ ، لِأَنَّهُ ظَنَّ الْمَلَائِكَةَ ضَيُوفًا ، فَقَدْ جَاؤُوهُ عَلَى صُورَةِ غِلْمَانٍ يَمْتَازُونَ بِالْحُسْنِ وَالنَّظَافَةِ ، وَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَمَا قَدَّمَ لَهُمُ الطَّعَامَ ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ .

والعِجْلُ : وَكَلْدُ الْبَقْرَةِ ، وَالْحَنِيدُ : الْمَشْوِيُّ بِالْحِجَارَةِ الْمُحَمَّمَةِ . وَكَانَ مَالُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ الْبَقْرَ . وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ آدَابَ الضِّيَافَةِ مِنْ وُجُوهِ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ حَقَّقَ النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ صِفَةَ إِكْرَامِ الضَّيْفِ وَاقِعًا مَلْمُوسًا ، إِذْ إِنَّهُ ذَهَبَ سَرِيعًا لِاحْتِضَارِ الضِّيَافَةِ ، وَهِيَ عِجْلٌ مَشْوِيٌّ . وَقَدْ خَلَّدَ الْقُرْآنُ هَذِهِ اللَّحْظَةَ لِيُعْطِيَ لِلآخَرِينَ مِثَالًا وَاقِعِيًّا يُحْتَدَى لِإِكْرَامِ الضَّيْفِ وَتَقْدِيرِهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٩ / ٥٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى ﴾ هَذِهِ قِصَّةُ لُوطَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَكَانَتْ فُرَى لُوطَ بِنَوَاحِي الشَّامِ ، وَإِبْرَاهِيمَ بِيَلَادِ فِلَسْطِينَ ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِعَذَابِ قَوْمِ لُوطَ مَرُّوا بِإِبْرَاهِيمَ ، وَنَزَلُوا عِنْدَهُ ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ نَزَلَ عِنْدَهُ يُحْسِنُ قِرَاهُ ، وَكَانُوا مَرُّوا بِبِشْرَةِ إِبْرَاهِيمَ ، فَظَنُّهُمْ أَضْيَافًا ، وَهُمْ جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . الضَّحَاكُ : كَانُوا تِسْعَةَ ، السُّدِّيُّ : أَحَدُ عَشَرَ مَلَكًا عَلَى صُورَةِ الْغِلْمَانِ الْحَسَنِ الْوُجُوهِ ذُؤُودِ وَضَاءَةِ وَجَمَالِ بَارِعٍ ﴿ بِالْبَشْرَى ﴾ ، قِيلَ : بِالْوَلَدِ ، وَقِيلَ : بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطَ ، وَقِيلَ : بِشُرُوهِمْ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِ ، ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ، نُصِبَ بِوُقُوعِ الْفِعْلِ عَلَيْهِ ، كَمَا تَقُولُ : قَالُوا خَيْرًا ، وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ ﴿ قَالَ سَلَامًا ﴾ فِي رَفْعِهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : عَلَى إِضْمَارِ مُبْتَدَأٍ ، أَيُّ : هُوَ سَلَامٌ ، وَأَمْرِي سَلَامٌ . وَالْآخَرُ بِمَعْنَى : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، إِذَا جُعِلَ بِمَعْنَى التَّحِيَّةِ ، فَأُضْمِرَ النَّخْبِرَ ، وَجَازَ (سَلَامٌ) عَلَى التَّنْكِيرِ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ (أَنْ) بِمَعْنَى حَتَّى ، قَالَهُ كُتُبَاءُ النَّحْوِيِّينَ ، حَكَاهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ . التَّقْدِيرُ : فَمَا لَبِثَ حَتَّى جَاءَ ، وَ « حَنِيدٍ » مَشْوِيٍّ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمَشْوِيُّ بِحَرِّ الْحِجَارَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَمَسَّهُ النَّارُ ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِعِجْلٍ ، لِأَنَّ الْبَقْرَ كَانَتْ أَكْثَرَ أَمْوَالِهِ . فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَدَبِ الضَّيْفِ أَنْ يُعَجَّلَ قِرَاهُ ، فَيُقَدِّمَ الْمَوْجُودَ الْمُيسَّرَ فِي الْحَالِ ، ثُمَّ يُتَبِعُهُ بِغَيْرِهِ إِنْ كَانَ لَهُ جِدَّةٌ (ثَرْوَةٌ أَوْ مَقْدَرَةٌ) ، وَلَا يَتَكَلَّفُ مَا يُضِرُّ بِهِ . وَالضِّيَافَةُ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ خُلُقِ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ . وَإِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ مَنْ أَضَافَ وَليست بواجبة عند عامة أهل العلم لقوله ﷺ : " الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، وَجَانِزَتُهُ يَوْمَ وَلَيْلَةٍ ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ " ، وَالجَانِزَةُ الْعَطِيَّةُ وَالصَّلَّةُ الَّتِي أَصْلُهَا عَلَى التَّدْبِ قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : كَانَتْ ضِيَافَةُ إِبْرَاهِيمَ قَلِيلَةً ، فَشَكَرَهَا الْحَبِيبُ مِنَ الْحَبِيبِ ، وَهَذَا

حُكْمَ بِالظنِّ فِي مَوْضِعِ الْقَطْعِ ، وَبِالْقِيَاسِ فِي مَوْضِعِ التَّثَلُّلِ ، مِنْ أَيْنَ عَلِمَ أَنَّهُ قَلِيلٌ ؟! ، بَلْ قَدْ نَقَلَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا ثَلَاثَةً ، جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ ، وَعَجَّلَ لثَلَاثَةِ عَظِيمٍ ، فَمَا هَذَا التَّفْسِيرُ لِكِتَابِ اللَّهِ بِالرَّأْيِ ؟! ، هَذَا بِأَمَانَةِ اللَّهِ هُوَ التَّفْسِيرُ الْمَذْمُومُ ، فَاجْتَنِبُوهُ فَقَدْ عَلِمْتُمُوهُ)) .

وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ مِنَ الْآدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . وَهَذَا الْخُلُقُ الْكَرِيمُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، فَهُوَ يَعْكَسُ سُمُوَ الرُّوحِ ، وَعَظَمَةَ الْمُرُوءَةِ ، وَنُبْلَ الْأَخْلَاقِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((...) ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ)) ٧٩ .

مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِيْمَانًا كَامِلًا ، وَيُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِي إِلَيْهِ مَعَادُهُ ، وَفِيهِ مُجَازَاتُهُ بِعَمَلِهِ ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ . أَي : مَنْ التَزَمَ شُرَائِعَ الْإِسْلَامِ لَزِمَهُ إِكْرَامُ ضَيْفِهِ وَبِرُّهُ . وَهَذَا تَعْرِيفٌ بِحَقِّ الضَّيْفِ . وَإِكْرَامُ الضَّيْفِ يَكُونُ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ ، وَطَيِّبِ الْكَلَامِ ، وَالْإِطْعَامِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، بِمَا حَضَرَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، لِئَلَّا يُثْقَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَفْسِهِ ، وَبَعْدَ الثَّلَاثَةِ يُعَدُّ مِنَ الصَّدَقَةِ . وَقِيلَ : إِكْرَامُ الضَّيْفِ تَلَقِّيهِ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ ، وَتَعْجِيلِ قِرَاهِ ، وَالْقِيَامِ بِنَفْسِهِ فِي خِدْمَتِهِ .

وَقَدْ أَوْجَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الضَّيْفَةَ ، وَأَكْثَرَهُمْ عَلَى أَنَّهَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . وَيَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ إِكْرَامَ الضَّيْفِ عِبَادَةٌ ، سِوَاهُ كَانَ الضَّيْفُ غَنِيًّا أَمْ فَقِيرًا .

وَقَدْ ذَكَرَ الْيَوْمَ الْآخِرَ مَعَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، لِلتَّرْغِيبِ فِي تَحْصِيلِ الثَّوَابِ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعِقَابِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّحَلِّيَّ بِالْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، يَرِيدُ الْأُلْفَةَ وَالْمَوَدَّةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَإِكْرَامُ الضَّيْفِ عِلَامَةٌ عَلَى صِدْقِ الْإِيْمَانِ ، وَهُوَ نَتِيجَةٌ وَاقِعِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ لِمَا وَقَرَ فِي الصَّدْرِ مِنْ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ السَّمْحَةِ ، كَمَا أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى التَّمَاسِكِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَالتَّرَابُطِ الْإِنْسَانِيِّ فِي أَهْبَى صُورِهِ ، وَتَقْدِيرِ الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَوَضْعِهَا فِي مَكَانَتِهَا اللَّائِقَةِ ، وَحُسْنِ التَّعَامُلِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَانْتِشَارِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَالْإِبْتِعَادِ عَنِ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ كَالْبُخْلِ وَسُوءِ الْإِسْتِقْبَالِ . وَالضَّيْفُ لَهُ حُرْمَةٌ بِالْغَةِ فِي كُلِّ الْبَيْتَاتِ عِبْرَ الْأَطْوَارِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا شِيْمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

٧٩ متفق عليه. البخاري (٢٢٤٠ / ٥) برقم (٥٦٧٢) ، ومسلم (٦٨ / ١) برقم (٤٧) .

وقال النووي في شرح على صحيح مسلم (٢ / ١٨) : ((والصِّيَافَةُ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ ، وَخُلِقَ النَّبِيُّ وَالصَّالِحِينَ . وَقَدْ أَوْجَبَهَا اللَّيْثُ لَيْلَةً وَاحِدَةً ، ... ، وَعَامَّةُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَاخْتَلَفُوا هَلِ الصِّيَافَةُ عَلَى الْحَاضِرِ وَالْبَادِي أَمْ عَلَى الْبَادِي خَاصَّةً ، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَكَمِ إِلَى أَنَّهَا عَلَيْهِمَا . وَقَالَ مَالِكٌ وَسُحُنُونُ إِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْبُوَادِي ، لِأَنَّ الْمُسَافِرَ يَجِدُ فِي الْحَضَرِ الْمَنَازِلَ فِي الْفَنَاقِ ، وَمَوَاضِعَ النَّزُولِ ، وَمَا يُشْتَرَى مِنَ الْمَأْكَلِ فِي الْأَسْوَاقِ)) اهـ . وفي نفس المرجع (١٢ / ٣٠ و ٣١) : ((وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الصِّيَافَةِ ، وَأَنَّهَا مِنْ مُتَأَكِّدَاتِ الْإِسْلَامِ . ثُمَّ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَالْجُمْهُورُ هِيَ سُنَّةٌ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ . وَقَالَ اللَّيْثُ وَأَحْمَدُ : هِيَ وَاجِبَةٌ يَوْمًا وَلَيْلَةً . قَالَ أَحْمَدُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : هِيَ وَاجِبَةٌ يَوْمًا وَلَيْلَةً عَلَى أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَأَهْلِ الْقَرْيَةِ دُونَ أَهْلِ الْمُدُنِ . وَتَأْوَلُ الْجُمْهُورُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ وَأَشْبَاهَهَا عَلَى الْإِسْتِحْبَابِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَتَأَكُّدِ حَقِّ الصِّيْفِ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٦ / ٢٠٩ و ٢١٠) : (((وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَصَفَّهُ بِهِ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ أَيَّامِ الدُّنْيَا ، وَلِأَنَّهُ أُخِّرَ إِلَيْهِ الْحِسَابَ ، وَالْإِيمَانَ بِهِ تَصَدِيقٌ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَهْوَالِ (فَلْيُكْرِمْ صَبِيغَهُ) الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرَ بِطَلَاقَةِ الْوَجْهِ ، وَالْإِتْحَافَ ، وَالرِّيَّازَةَ)) .

٢٠ _ الْعِقَّةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

يُبَيِّنُ اللَّهُ أَنَّ النَّفَقَةَ وَالصَّدَقَةَ تَكُونُ لِفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ مَنَعَهُمُ الْجِهَادَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَعَايِشِهِمُ وَالتَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ . وَتَخْصِيصُهُمُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سِوَاهُمْ ، وَهُمْ أَهْلُ الصُّفَّةِ ، وَكَانُوا تَقْرِيبًا أَرْبَعِمِائَةَ رَجُلٍ . لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِيوت فِي الْمَدِينَةِ وَلَا عِشَائِرَ ، وَكَانُوا فِي الْمَسْجِدِ ، يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَالْعِبَادَةِ . وَكَانُوا يَخْرُجُونَ فِي كُلِّ سَرِيَّةٍ بَعَثَهَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَلَا يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا . وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ حَالَهُمْ لِلنَّاسِ كَيْ يُشْفِقُوا عَلَيْهِمْ وَيُسَاعِدُوهُمْ وَيَعْتَنُوا بِهِمْ ، وَيَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِمْ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣ / ٤٧) : ((أَصْحَابُ الصُّفَّةِ : هُمُ الْفُقَرَاءُ الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَأْوُونَ إِلَى مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَتْ لَهُمْ فِي آخِرِهِ صُفَّةٌ ، وَهُوَ مَكَانٌ مَنْقُوعٌ مِنَ الْمَسْجِدِ ، مُظَلَّلٌ عَلَيْهِ ، يَبْتَئُونَ فِيهِ . قَالَه إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ وَالْقَاضِي)) .

لا يَقْدِرُونَ عَلَى السَّفَرِ (الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ) لطلب المعاش ، لاشتغالهم بالجهاد والعبادة .
 وأيضاً ، الكُفْرُ يَعْمُ الْبِلَادَ ، وعداوة الكفار لهم تمنعهم من ممارسة التجارة والزراعة والبحث عن
 الرِّزْقِ ، كما أنهم ضعفاء لا يَمْلِكُونَ القدرة على العمل والكسب ، فَظَلُّوا فقراء مُحتاجين .
 يَظُنُّهُمْ الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تَعَفُّفِهِمْ فِي مَقَالِهِمْ وحالهم ، وعِزَّةِ أَنْفُسِهِمْ ، وعدم
 مد أيديهم للناس . لقد تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ تعالى ، وتركوا سُؤَالَ النَّاسِ ، وَرَضُوا بالقضاء والقَدَرِ .
 وَالتَّعَفُّفُ هو الإمساك عن الشَّيْءِ ، والتَّرفُّعُ عن طلبه ، والتَّنَزُّهُ عن السؤال .
 وعن أبي هُرَيْرَةَ _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ
 عَلَى النَّاسِ ، تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ ،
 وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَّصِدَّقُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ))^{٨٠} .
 لقد مَدَحَ اللَّهُ الْمُتَعَفِّفِينَ عن سُؤَالَ النَّاسِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَاجَتِهِمْ ، فقال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ
 الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ ، وَكَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ كَثْرَةَ السُّؤَالِ .
 والحديثُ يُوضِّحُ أَنَّ الْمِسْكِينَ الْحَقِيقِيِّ (الْكَامِلِ الْمَسْكِينَةَ) ، لَيْسَ مَنْ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْأَبْوَابِ ،
 وَيُؤْمَرُ عَلَى النَّاسِ بِسَأَلِهِمُ الصَّدَقَةَ ، وَيَكْفِيهِ مَا يَنَالُهُ مِنَ اللَّقْمَةِ أَوْ اللَّقْمَتَيْنِ ، أَوْ التَّمْرَةِ أَوْ التَّمْرَتَيْنِ ،
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَحْصِيلِ قُوَّتِهِ ، وَالحَصُولِ عَلَى الْمَالِ وَالطَّعَامِ . وَالتَّنْفِي فِي قَوْلِهِ : " لَيْسَ
 الْمِسْكِينُ " لَا يَعْنِي نَفْيَ أَصْلِ الْمَسْكِينَةِ عَنِ الطَّوَّافِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ نَفْيُ كَمَالِهَا . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي
 شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٧ / ١٢٩) : ((مَعْنَاهُ : الْمِسْكِينُ الْكَامِلُ الْمَسْكِينَةَ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ
 بِالصَّدَقَةِ ، وَأَحْوَجُ إِلَيْهَا ، لَيْسَ هُوَ هَذَا الطَّوَّافِ ، بَلْ هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ ،
 وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ . وَلَيْسَ مَعْنَاهُ نَفْيُ أَصْلِ الْمَسْكِينَةِ عَنِ الطَّوَّافِ ، بَلْ مَعْنَاهُ نَفْيُ كَمَالِ الْمَسْكِينَةِ)) .
 إِنَّ الْمِسْكِينَ الْحَقِيقِيِّ الْكَامِلِ الْمَسْكِينَةَ هُوَ الْمُحْتَاجُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ ، وَلَا يُظْهِرُ ذَلِكَ ،
 وَلَا أَحَدٌ يَنْتَبِهُ إِلَى وَضْعِهِ فَيُسَاعِدُهُ ، وَلَا يَعْرِفُ النَّاسُ حَاجَتَهُ فَيَتَّصِدَّقُونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى
 النَّاسِ طَالِبًا الْعَوْنِ وَالْمُسَاعَدَةَ وَالصَّدَقَةَ . وَهُوَ يَظْهَرُ بِمَظْهَرِ الْغَنِيِّ غَيْرِ الْمُحْتَاجِ ، بِسَبَبِ تَعَفُّفِهِ ،
 وَتَرْفُّعِهِ عَنِ طَلْبِ الْمُسَاعَدَةِ ، وَرَفْضِهِ لِسُؤَالَ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
 إِلْحَافًا ﴾ . إِنَّهُ عَزِيزِ النَّفْسِ ، وَكَرِيمِ الْأَصْلِ ، وَعَفِيفٌ ، وَمُسْتَتِرٌ ، لَا يَلْفِتُ الْأَنْظَارَ ، وَلَا يُثِيرُ الشَّفَقَةَ ،
 وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ ، وَلَا يَطُوفُ عَلَيْهِمْ طَلِبًا لِلْمَالِ أَوْ الطَّعَامِ . وَبِشَكْلِ عَامٍ ، إِنَّ وَضْعَ الْمِسْكِينِ أَفْضَلَ

٨٠ متفق عليه. البخاري (٢ / ٥٣٨) برقم (١٤٠٩) ، ومسلم (٢ / ٧١٩) برقم (١٠٣٩) .

من وضع الفقير ، وأحسن حالاً . فالمسكين الذي له شيء ، لكنّه لا يكفيه . أمّا الفقير فهو الذي لا شيء له . وفي الحديث الاستعفاف عن المسألة ، وفيه حُسْنُ الإرشاد لموضع الصدقة ، وتَحَرِّيِ وَضْعِ الصَّدَقَةِ فِي الْمُحْتَاجِ الْمُتَعَفِّفِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٦٠ و ٣٦١) : ((ليس المسكين) بكسر الميم ، وقد تُفْتَح ، أي : الكامل في المسكنة . قال في الكشاف: والمسكين الدائم السكون إلى الناس ، لأنه لا شيء له ... (الذي يطوف على الناس) يسألهم التصدق عليه (فتردّه اللقمة واللقمتان) وفي رواية : الأكلة والأكلتان ، بالضم (والثمرة والتمرتان) ، ... ، لأن المتردد على الأبواب قادر على تحصيل قوته ، وربما يقع له زيادة عليه ، فليس المراد نفي المسكنة عن الطواف ، بل نفي كمالها ، لإجماعهم على أن السائل الطواف المحتاج مسكين (ولكن المسكين) الكامل ، بتخفيف نون لكن ، فالمسكين مرفوع ، وبشدها فهو منصوب (الذي لا يجد غنى) بكسر العين مقصوراً ، أي : يساراً (يُغْنِيهِ) صفة له ، وهو قدر زائد على اليسار ، إذ لا يلزم من حصول اليسار الغنية _ الاستغناء _ به بحيث لا يحتاج لغيره (ولا يُفْطِنُ لَهُ) بضم الياء وفتح الطاء ، أي : لا يعلم بحاله (فيتصدق عليه) بضم الياء مبنياً للمجهول (ولا يقوم فيسأل الناس) برفع المضارع الواقع بعد الفاء في الموضعين عطفاً على المنفي المرفوع ، فينسحب النفي عليه ، أي : لا يُفْطِنُ لَهُ ، فلا يتصدق عليه ، ولا يقوم ، فلا يسأل الناس . وبالتنصب فيهما بأن مُضْمَرَةٌ ، ثُمَّ إِنَّ النَّفْيَ فِي قَوْلِهِ : " لا يجد " إلخ ، مُحْتَمِلٌ لِأَن يُرَادَ نَفْيَ أَصْلِ الْيَسَارِ ، أَوْ نَفْيَ الْمُقْبِلِ بِأَن يُغْنِيَهُ مَعَ وجود أصل اليسار . وعلى الثاني : ففيه أن المسكين من يقدر على مال أو كسب يقع موقعاً من حاجته ولا يكفيه ، فهو أحسن حالاً من الفقير ، وبه أخذ الجمهور ، وعكس قوم ، وسوى آخرون .))

﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ . تعرّفهم بصفتهم التي وجوههم ، والتي تظهر لأصحاب العقول والفراصة ودقة الملاحظة . وهذا يدل على أن السيماء لها اعتبار في الأحكام الشرعية . والسيما هي العلامة . وهي أثر الحاجة أو أثر السجود ، لأنهم كانوا معروفين بكثرة الصلاة والصيام . والجدير بالذكر أن وجوههم الذابلة ، وأجسامهم الضعيفة ، وملابسهم الرثة ، تدل على حاجتهم وسوء وضعهم .

﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ . لا يلحون في المسألة ، ولا يُصِرُّونَ عَلَى الطَلْبِ . والمعنى أنهم لا يسألون الناس البتة ، ولا يطلبون منهم بالمرّة ، لا سؤال إلحاح ولا سؤال غير إلحاح . أي : لا سؤال لهم أصلاً ، فلا يقع منهم إلحاف ، وهو الإلحاح . وبما أن الجاهل يظنهم أغنياء ، فهذا يعني أنهم لم يكونوا يسألون الناس البتة . ولو سألو الناس ، لُغِرَفَ أَنَّهُمْ مُحْتَاجُونَ غَيْرَ أَغْنِيَاءِ .

والإلحاف هو مُلازَمة المسؤُول حتى يُعْطِيَه . مأخوذ من اللحاف ، لاشتماله على وُجوه الطلب في المسألة ، كاشتمال اللحاف من التغطية . أي : إنَّ هذا السَّائل يُعْمُ الناسَ بسؤاله ، ويُلْحِفُهُمْ ، ويُحِيطُ بِهِمْ .

وعن أبي هُرَيْرَةَ _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((ليس المسكينُ الذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ ، ولا اللَّقْمَةُ ولا اللَّقْمَتَانِ ، إِنَّمَا المسكينُ الذي يَتَعَفَّفُ . واقْرؤُوا إن شِئْتُمْ _ يعني قَوْلُهُ : _ ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾)) ^{٨١} .

إنَّ المسكينَ المُستحقَّ للصدقةِ والرِّكاةِ ليس هو مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ ، وَيَرُدُّهُ وَيَكْفِيهِ ما يَنَالُهُ مِنَ اللَّقْمَةِ أو اللَّقْمَتَيْنِ ، وذلك لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تحصيل قُوتِهِ . وَإِنَّمَا المسكينُ الكَامِلُ الْمَسْكِنَةُ هو مَنْ لا يَجِدُ ما يَكْفِي حاجتَهُ بِأَكْمَلِهَا ، فَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ مالٌ ، وَلَكِنَّهُ لا يَكْفِيهِ ، وَيَتَعَفَّفُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَيَحْتَرِزُ مِنَ السُّؤَالِ ، وَيَمْتَنِعُ الْحَيَاءُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِحَالِهِ ، وَلا يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَالإِلْحَافُ فِي الْمَسْأَلَةِ الإِلْحَاحُ فِيهَا . وَالتَّفْئِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ لِنَفْيِ الْمَسْأَلَةِ ، أَي : لا يَسْأَلُونَ أَصْلًا ، فَهُمْ لا يَطُوفُونَ عَلَى النَّاسِ ، وَلا يَسْأَلُونَهُمْ ، وَلا يَفْطِنُ أَحَدٌ لِحَالِهِمْ .

ويبغى الاستعفاف عن المسألة ، وَتَحَرِّيَ وَضْعَ الصَّدَقَةِ فِيْمَنْ صِفَتَهُ التَّعَفُّفُ دُونَ الإِلْحَاحِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْمَالَ مِنْ فِتْنِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَصُونَ نَفْسَهُ عَنِ الْحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَيَحْتَرِزُ مِنْ أَنْ يَتَطَّلَعَ إِلَى ما فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَيَتَعَفَّفُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ما اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ (٩ / ٣) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ : سَرَّحْتَنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ ، فَأَتَيْتُهُ ، فَقَعَدْتُ . قَالَ : فَاسْتَقْبَلَنِي ، فَقَالَ : ((مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اسْتَعْفَى أَعْفَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيَمَةٌ أُوقِيَّةٌ ، فَقَدْ أَلْحَفَ)) ، قَالَ : فَقُلْتُ : نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ هِيَ خَيْرٌ مِنْ أُوقِيَّةٍ ، فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلِهِ .

حَتَّى الْإِسْلَامُ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْعَفَافِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنِ النَّاسِ ، وَأَلَّا يَسْأَلَهُمْ إِلا إِذَا كَانَ مُضْطَرًّا . إِنَّ أَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَدْ أَرْسَلَتْهُ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَيْ يَسْأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ ما لِحاجة كانت بِهِمْ ، أَي : يَطْلُبُ مِنْهُ مُسَاعَدَةً عاجلةً ، بِسَبَبِ ظُرُوفِهِمْ الصَّعْبَةِ ، وَأَحْوالِهِمْ المَعِيشِيَّةِ القَاسِيَةِ . فَلَمَّا اسْتَقْبَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَرَفَ ما يُرِيدُ ، فَحَثَّهُ عَلَى العِفَّةِ وَالِاسْتِكَفَاءِ بِاللَّهِ تَعَالَى . لَقَدْ قَدَّمَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِرشاداتٍ مُهِمَّةً ، وَقِوَاعِدَ أساسيةً ، وَمَبادئَ مركزيةً .

٨١ متفق عليه. البخاري (٤ / ١٦٥١) برقم (٤٢٦٥) ، ومسلم (٢ / ٧١٩) برقم (١٠٣٩) .

مَنْ أَظْهَرَ الْغِنَى عَنِ الْخَلْقِ ، وَلَمْ يَمُدَّ يَدَهُ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتَغْنَى بِاللَّهِ الْخَالِقَ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، جَعَلَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ الْغِنَى وَالْقَنَاعَةَ وَالْإِكْتِفَاءَ وَعَدَمَ الْحَاجَةَ ، وَالْغِنَى غِنَى النَّفْسِ . وَمَنْ امْتَنَعَ عَنِ السُّؤَالِ ، وَتَرَفَّعَ عَنْهُ ، جَعَلَهُ اللَّهُ عَفِيمًا ، وَحَفِظَ مَاءَ وَجْهِهِ ، وَسَدَّ حَاجَتَهُ ، وَمَنْ اسْتَكْفَى بِاللَّهِ ، وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنِ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ ، وَأَزَالَ قَلْقَهُ وَخَوْفَهُ ، وَبَثَّ فِي قَلْبِهِ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ وَالْيَقِينَ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالثَّقَّةَ بِاللَّهِ ، وَعَدَمَ الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَعَدَمَ الْقَلْقِ بِشَأْنِ الرَّزْقِ . وَمَنْ طَلَبَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُسَاعِدُوهُ بِالْمَالِ ، وَهُوَ يَمْلِكُ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا (أُوقِيَّةٌ) ، فَقَدْ أَلْحَفَ ، أَيْ : أَلْحَّ بِشِدَّةٍ فِي السُّؤَالِ ، وَهَذَا مَنَهِي عَنْهُ ، وَبَدَلُ عَلَى عَدَمِ رِضَاهُ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ . وَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي الْمَحْظُورِ ، وَنَالَ غَضَبَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَغَرِقَ فِي الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ النَّفْسِيِّ . وَقَدْ نَزِمَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ بِكَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَذَكَّرَ نَاقَتَهُ الْمُسَمَّاءَ الْيَاقُوتَةَ الَّتِي يَمْلِكُهَا ، فَوَجَدَ أَنْ ثَمَنَهَا أَكْبَرَ مِنْ أُوقِيَّةٍ ، أَيْ : أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ، فَرَجَعَ ، وَلَمْ يَطْلُبْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ ، وَفُوقًا عِنْدَ كَلَامِهِ ، وَالتَّرَامًا بِهِ ، وَلِنَلَا يَقَعُ فِي الْمُخَالَفَةِ الشَّرْعِيَّةِ .

وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ سَأَلَ الْمَخْلُوقَ شَيْئًا مِنَ الرَّزْقِ ، فَقَدْ أَذَلَّ نَفْسَهُ ، وَأَرَاقَ مَاءَ وَجْهِهِ ، وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الرَّزْقَ ، فَقَدْ صَارَ عَزِيزًا كَرِيمًا شَرِيفًا ، وَحَقَّقَ مُرَادَهُ ، وَبَلَغَ الْمُنَى وَالْغِنَى . وَاللَّهُ قَدْ يَرِزُقُهُ مِنَ الْمَالِ مَا يَسْتَغْنَى بِهِ عَنِ سُؤَالِ النَّاسِ ، وَبِالنَّالِيِّ يُصْبِحُ مُكْتَفِيًا غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى مَخْلُوقٍ . وَقَدْ يَرِزُقُهُ اللَّهُ الْقَنَاعَةَ ، وَالْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى . وَالْغِنَى غِنَى النَّفْسِ . وَالْمُؤْمِنُ فَكِيرٌ إِلَى اللَّهِ ، غِنِيٌّ بِهِ عَمَّنْ سِوَاهُ ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ افْتَقَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ . وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

إِنَّ الْغِنَى هُوَ الْغِنَى بِنَفْسِهِ وَلَوْ أَنَّهُ عَارِي الْمَنَاكِبِ حَافِي
مَا كُنْتُ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِي فَإِذَا قَنَعْتَ فَبَعْضُ شَيْءٍ كَافِي

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٥٨) : ((مَنْ اسْتَغْنَى) بِاللَّهِ عَمَّنْ سِوَاهُ (أَغْنَاهُ اللَّهُ) أَيْ : أَعْطَاهُ مَا يَسْتَغْنَى بِهِ عَنِ النَّاسِ ، وَيَخْلُقُ فِي قَلْبِهِ الْغِنَى ، فَإِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ (وَمَنْ اسْتَعْفَى) أَيْ امْتَنَعَ عَنِ السُّؤَالِ (أَعْفَاهُ اللَّهُ) بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ ، أَيْ : جَازَاهُ اللَّهُ عَلَى اسْتِعْفَاةِ بِصِيَانَةٍ وَجْهِهِ وَدَفْعِ فَاقَتِهِ _ يَعْنِي حَاجَتَهُ _ (وَمَنْ اسْتَكْفَى) بِاللَّهِ (كَفَاهُ اللَّهُ) مَا أَهَمَّهُ ، وَرَزَقَهُ الْقَنَاعَةَ . قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : لَمَّا كَانَ التَّعَفُّفُ يَقْتَضِي سُرَّ الْحَالِ عَنِ الْخَلْقِ ، وَإِظْهَارِ الْغِنَى عَنْهُمْ ، كَانَ صَاحِبُهُ مُعَامِلًا لِلَّهِ فِي الْبَاطِنِ ، فَيَقَعُ لَهُ الرُّبْحُ عَلَى قَدَرِ صِدْقِهِ فِي ذَلِكَ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : مَعْنَى قَوْلِهِ : " مَنْ اسْتَغْنَى أَعْفَاهُ اللَّهُ " ، يَعْنِي عَنِ السُّؤَالِ ، وَإِنْ لَمْ يُظْهِرِ الْإِسْتِعْفَاءَ عَنِ النَّاسِ ، لَكِنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ

شيئاً لم يتركه ، يملأ الله قلبه غنى بحيث لا يحتاج إلى سؤال . ومن دأوم على ذلك وأظهر الاستعفاف وتصبر ، ولو أُعطي لم يقبل ، فهو أرفع درجة ، والصبر جامع لمكارم الأخلاق . وقال ابن التين: معنى قوله : " أعفّه " ، إما يرزقه من المال ما يستغني به عن السؤال ، وإما أن يرزقه القناعة . وقال الحرالي: من ظن أن حاجته يسدها المال فليس براً ، إنما البر الذي أيقن أن حاجته إنما يسدها ربّه ببرّه الخفي ، وجوده الوفي (ومن سأل) الناس (وله قيمة أوقية) من الوفاية ، لأن المال مخزون مصنوع ، أو لأنه يقي الشخص من الضرورة ، ... (فقد ألحف) أي: سأل الناس إلحافاً تبرماً بما قسم له . [تنبيه] مقصود الحديث الإشارة إلى أن في طلب الرزق من باب المخلوق ذلاً وعناء . وفي طلبه من الخالق بلوغ المني والغنى . قال بعض العارفين: من استغنى بالله افتقر الناس إليه . فف باب الواحد، تُفتح لك الأبواب، واخضع لسبب واحد، تخضع لك الرقاب . هذا وربنا يقول : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ [الحجر : ٢١] ، فأين الذهاب والغنى غنى النفس من الحظوظ والأغراض لا غنى اليد بفاني الأعراض)) .

وفي نفس المرجع (٦ / ٥٦) : ((من استغف) أي: طلب العفة وهي الكف عن الحرام وعن السؤال (أعفّه الله) أي : جعله عفيفاً ، من الإعفاف ، وهو إعطاء العفة ، وهي الحفظ عن المناهي (ومن) ترقى من هذه المرتبة إلى ما هو أعلى منها ، و(استغنى) أي: أظهر الغنى عن الخلق (أغناه الله) أي : ملاً الله قلبه غنى ، لأن من تحمّل الخصاصة _ الحاجة _ ، وكنم الفقر فصبر ، علماً بأن الله القادر على كشفها ، كان ذلك تعرضاً لإزالتها عنه ، كالمعتز الذي يتعرض ولا يسأل ، وقد أمر الله بإعطاء المعتز ، فالله أولى أن يعطي من يتعرض لفضله)) .
وعن الزبير بن العوام _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره ، فيبيعها فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه))^{٨٢} .

لقد حارب الإسلام الفقر والبطالة والتسؤل ، وأمر القادر على العمل أن يجتهد في طلب الرزق والمعاش ، ولا ينام في بيته ، أو يظل تحت صدقات الناس وإحسانهم . والعمل مهما كان نوعه فهو أفضل من سؤال الناس ، ومدد اليد إليهم، وإراقة ماء الوجه أمامهم بكل ذل وخزي وعار . ومهما كان العمل صعباً وشاقاً ، فهو أفضل وأرحم من ذل السؤال ، والانكسار أمام الناس .

٨٢ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٢ / ٥٣٥) برقم (١٤٠٢) . ومسلم (٢ / ٧٢١) برقم (١٠٤٢) .

ولأنَّ يأخذ المرءُ حَبْلَهُ ، ويذهب إلى الغابة ، ويقتطع الحطب من الأشجار ، ويجمعه على ظَهْرِهِ ، ويحمّله إلى السُّوق ، ويبيعه ، أشرف وأفضل وأكرم وأرحم من مَد يده إلى الناس ، سواءً أَعْطَوْهُ أَمْ مَنَعُوهُ ، لأنَّهم إذا أَعْطَوْهُ مَنُوءًا عَلَيْهِ ، واعتبروا أنفسهم أعلى منه ، وأنَّهم أصحاب المُنزلة الرُفِيعَة ، وهو الذليل الحَقِير صاحب المِكانة الوَضِيعَة ، وهذا هو ثِقَل المِنَّة . وإن مَنَعُوهُ ، كَسَرُوا نَفْسَهُ ، وأهانوه ، وجرحوا مشاعرَهُ ، وهذا هو ذُلُّ الخِيبَة . ومعنى " فَيَكُفُّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ " : يَمْنَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَحْمِيهِ بِسَبَبِهَا مِنْ أَنْ يُرِيقَ مَاءَ وَجْهِهِ ، وَيُذِلَّ نَفْسَهُ بِالسُّؤَالِ وَمَدِّ الْيَدِ .

والحديثُ يُرَغِّبُ فِي السَّعْيِ وَالْعَمَلِ الْمَشْرُوعِ لَطَلْبِ الْمَعَاشِ وَكَسْبِ الرِّزْقِ ، بِشَرَفٍ وَكِرَامَةٍ وَعِزَّةٍ نَفْسٍ ، مَهْمَا كَانَ الْعَمَلُ صَعْبًا وَشَقًّا . وَكُلُّ عَمَلٍ مُبَاحٍ شَرْعًا فَهُوَ عَمَلٌ شَرِيفٌ ، بَغْضِ النَّظَرِ عَنْ مَرَدُودِهِ ، وَمَهْمَا كَانَتْ نَظَرَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ .

والجديرُ بالذِّكْرِ أَنَّ الْفَقِيرَ الْقَادِرَ عَلَى الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ لَا تَحِلُّ لَهُ الزَّكَاةُ .
 وَمَنْ كَسَبَ الْمَالَ الْحَلَالَ ، لِيُنْفِقَ عَلَى أُسْرَتِهِ وَأَوْلَادِهِ ، وَتَعَفَّفَ بِهِ عَنِ السُّؤَالِ ، فَهُوَ مَأْجُورٌ عَلَى فِعْلِهِ ، وَقَدْ أَحْسَنَ صُنْعًا بِأَنْ اخْتَارَ الطَّرِيقَ الشَّرْعِيَّ لِكَسْبِ الْمَالِ ، وَلَيْسَ التَّسْوُلُ أَوْ الْحِرَامُ .
 وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

ونقل الصخر من قمم الجبال
 يقول الناس : كسب فيه عارًا
 أخف علي من منن الرجال
 فقلت : العار في ذل السؤال

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ٢٥٧) : ((وَهَذَا حَثٌ عَلَى التَّعَفُّفِ ، وَتَفْضِيلِ الْكَسْبِ وَالسَّبَبِ عَلَى الْبِطَالَةِ ، وَجُمْهُورِ الْمُحَقِّقِينَ كَابِنِ جَرِيرٍ وَأَتْبَاعِهِ عَلَى أَنَّ السَّبَبَ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ ، حَيْثُ كَانَ الْإِعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ ، لَا عَلَى السَّبَبِ . فَإِنْ احتاج وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى كَسْبِ لَانِقِ جَازٍ ، بِشَرَطِ أَنْ لَا يُذِلَّ نَفْسَهُ ، وَلَا يُلِحَّ ، وَلَا يُؤْذِيَ الْمَسْئُولَ ، فَإِنْ قُدِّرَ شَرَطٌ مِنْهَا حُرْمًا اتِّفَاقًا)) .
 وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ _ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ وَالْمَسْأَلَةَ _ : ((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى)) ^{٨٣} .
 إِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ الَّتِي تُعْطَى ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ الَّتِي تَأْخُذُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ أَفْضَلَ مِنَ الْمُتَصَدَّقِ عَلَيْهِ ، وَأَعْظَمَ مِكانَةً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَكْثَرَ ثَوَابًا وَأَجْرًا . كَمَا

٨٣ متفق عليه. البخاري (٢ / ٥١٩) برقم (١٣٦٢) ، ومسلم (٢ / ٧١٧) برقم (١٠٣٣) .

يدلُّ على أنَّ الغنيَّ الذي يُؤدِّي حقوقَ ماله أفضل وأعظم من الفقير ، لأنَّ الإعطاء يكون عن غنى ولا يكون عن فقر . وفي الحديث دلالة على كراهة السؤال إلا للضرورة . والمقصود بالعلوُّ هو علوُّ الفضائل وكثرة الأجر .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٢٥) : ((وفي هذا الحديث الحث على الإنفاق في وجوه الطاعات ، وفيه دليل لمذهب الجمهور أنَّ اليد العليا هي المنفقة . وقال الخطَّابي : المتعقِّفة . وقال غيره : العليا الآخذة ، والسفلى المانعة ، حكاه القاضي ، والله أعلم . والمُرَاد بالعلوُّ علوُّ الفضل والمجد ونيل الثواب)) .

﴿ وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ . وما تصدَّقتم به ، وأنفقتموه في سبيل الله ، فهو محفوظ لكم عند الله ، والله لا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزىكم عليه خير الجزاء ، ويُثيبكم يوم القيامة ، حيث يكون المرءُ أحوج ما يكون للأجر والثواب . وهذا ترغيبٌ في الإنفاق ، خصوصاً على أهل الصِّفة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٢٧ _ ٣٢٩) : ((قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . لَمَّا حَثَّهم على الصَّدَقَاتِ وَالتَّقَاتِ ، ذَلَّهم على خَيْرٍ مَن تُصَدَّقَ عَلَيْهِ . وفي المُرَاد بِـ ﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا ﴾ أربعة أقوال : أحدها أنهم أهل الصِّفة ، حبسوا أنفسهم على طاعة الله ، ولم يكن لهم شيء ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني أنهم فقراء المهاجرين ، قاله مجاهد . والثالث أنهم قوم حبسوا أنفسهم على الغزو ، فلا يقدرُونَ على الاكتساب ، قاله قتادة . والرابع أنهم قوم أصابتهم جراحات مع النبي ﷺ ، فصاروا زَمَنِي (أصحاب الأمراض المزمنة التي لا يُرجى شفاؤها) ، قاله سعيد بن جبَّير ، واختاره الكِسائي ، وقال : أُحْصِرُوا مِنَ الْمَرَضِ ، ولو أراد الحبس ، لَقَالَ : حُصِرُوا . وإنما الإحصار من الخوف أو المرض ، والحصرُ الحبس . و﴿ في سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قولان : أحدهما أنه الجهاد ، والثاني الطاعة . وفي الضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ : قولان : أحدهما أنه الجهاد ، لم يُمكنهم لفقيرهم ، نُقِلَ عن ابن عباس . والثاني الكسْب ، قاله قتادة . وفي الذي منعهُم من ذلك ثلاثة أقوال : أحدها الفقر ، قاله ابن عباس . والثاني أمراضهم ، قاله ابن جبَّير وابن زيد . والثالث التزامهم بالجهاد ، قاله الزَّجاج . قوله تعالى : ﴿ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ ﴾ ... لم يُرد الجاهل الذي هو ضد العقل ، إنما أراد الجاهل الذي هو ضد الخبر ، فكأنه قال : يَحْسِبُهُمُ مَنْ لَا يَخْبِرُ أَمْرَهُمْ . وَالتَّعَقُّفُ تَرْكُ السُّؤَالِ . يُقَالُ : عَفَّ عَنِ الشَّيْءِ وَتَعَقَّفَ . وَالسِّيْمَا الْعَلَامَةُ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الشَّيْءُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ السِّمَةِ . وفي المُرَاد بِسِيْمَاهُم ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا

تَجْمَلُهُمْ ، قاله ابن عباس . والثاني خُشوعُهُمْ ، قاله مجاهد . والثالث أثر الفقر عليهم ، قاله السُّدي والربيع بن أنس . وهذا يدل على أن للسَّيِّمِ حُكْمًا يتعلّق بها . قال إمامنا أحمد في المَيِّت يُوجَد في دار الحرب ، ولا يُعرَف أمره ، يُنظَر إلى سِيَمَاهُ ، فإن كان عليه سِيَمَا الكُفْرَانِ مِنْ عَدَمِ الخِتَانِ حُكْمٌ لَهُ بِحُكْمِهِمْ ، فَلَمْ يُدْفَن في مقابر المسلمين ، وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ سِيَمَا المُسْلِمِينَ ، حُكْمٌ لَهُ بِحُكْمِهِمْ . وَأَمَّا الإِلْحَافُ فَهُوَ الإِلْحَاحُ . قال ابن قُتَيْبَةَ : يُقَالُ : أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، إِذَا أَلَحَّ . وقال الرَّجَّاحُ : معنى أَلْحَفَ شَمِلَ بِالمَسْأَلَةِ ، وَمِنْهُ اشتقاق اللِحاف ، لأنه يشمل الإنسان بالتغطية ، فإن قيل : فهل كانوا يَسْأَلُونَ غَيْرَ مُلْحَفِينَ ، فالجواب أن لا ، وإنما معنى الكلام أنه لم يكن منهم سؤال فيكون إلحاف . قال الفراء : ومثله أن تقول : قَلَمًا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ، وَلَعَلَّكَ لَمْ تَرَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا مِنْ أَشْبَاهِهِ ، فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَلَا غَيْرَ إِلْحَافٍ ، وَإِلَى نَحْوِ هَذَا ذَهَبَ الرَّجَّاحُ وَابْنُ الأَنْبَارِيِّ فِي آخِرِينَ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء : ٦] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ للغنيِّ بالإمساك . وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا مِنَ الأَوْصِيَاءِ (ؤلاة أموال اليتامى) ، فلا يَأْكُلُ مِنْ مالِ اليتيم شيئًا ، ولا يأخذ أَجْرًا على وصايته . يجب على الوصيِّ الغنيِّ أن يَسْتَعْفِفَ بِماله ، وَيَحْتَرِزَ مِنْ أَكْلِ مالِ اليتيم ، ولا يُصِيبُ مِنْهُ شيئًا . وبعبارة أُخْرَى ، إِذَا كَانَ وَلِيُّ اليتيم لَدَيْهِ ما يَسْتَعْفِفُ بِهِ عَنِ الأَخْذِ مِنْ مالِ اليتيم ، فلا يأخذ مِنْهُ شيئًا أَجْرَةً على قيامه بِشُؤْنِهِ . والعِفَّةُ : الامتناع عَمَّا لا يَحِلُّ ، ولا يَجِبُ فِعْلُهُ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢ / ١٤٦) : ((مَنْ كَانَ مِنَ الأَوْلِيَاءِ والأَوْصِيَاءِ غَنِيًّا فَلْيَتَنَزَّهْ عَنِ أَكْلِهَا _ يعني أَكَلَ أموال اليتامى _ ، وَلْيُقْنَعْ بِما آتاه اللهُ تعالى مِنَ الغِنَى والرِّزْقِ ، إِشْفَاقًا على اليتيم ، وإبقاءً على ماله)) .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٧٧٠) أَنَّ السَّيِّدَةَ عائِشَةَ _ رضي اللهُ عنها _ قالت عن هذه الآية : ((أَنْزَلَتْ فِي واليِ اليتيمِ الَّذي يُقِيمُ عَلَيْهِ ، وَيُصَلِّحُ فِي ماله)) .

لَمَّا كَانَ اليتيمُ لا يَسْتَطِيعُ تَدْبِيرَ شُؤْنِهِ ، شُرِعَ تَعْيِينُ وَلِيِّ عَلَيْهِ ، يَقومُ بتصرف أموره ، والعناية بأمواله . وأمر اللهُ وَلِيَّ اليتيمِ بِعدمِ إِضَاعَةِ أمواله . ومعنى " والي اليتيم " : الشخص الذي يلي أمره وَيَتَوَلَّاهُ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي ماله بِالْوَصِيَّةِ وَنَحْوِهَا . واليتيمُ : مَنْ ماتَ أبوه وَلَمْ يَبْلُغْ سنَّ التَّكْلِيفِ . وقد ذَكَرَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عائِشَةُ _ رضي اللهُ عنها _ أَنَّ هذه الآية نزلت في وَلِيِّ اليتيم ، الَّذي يُلَازِمُهُ ، وَيَرعى ماله ، وَيُحَافِظُ عَلَيْهِ . ومعنى الآية : إِذَا كَانَ وَلِيُّ اليتيمِ لَدَيْهِ ما يَسْتَعْفِفُ بِهِ عَنِ الأَخْذِ مِنْ مالِ اليتيمِ ، فلا يأخذ مِنْهُ شيئًا أَجْرَةً على قيامه بِشُؤْنِهِ ، وَلْيَتَعَفَّفْ عَنِ ذَلِكَ .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْجِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].
 أمر الله عَيْرَ القادر على الزواج بالاستعفاف . يجب على الذين لا يجدون تزويجًا أن يتعففوا ،
 ويجتهدوا في العِفَّةِ ، وقَمَعَ الشَّهْوَةَ ، ويبتعدوا عن الحرام ، حتى يَرْزُقَهُمُ اللَّهُ ويوسع عليهم ،
 ويسهل لهم أمرَ الزواج ، فيتمكّنوا من أداء مُتَطَلِّبَاتِ الزَّوْجِ مِنْ مَهْرٍ وَنَفَقَةٍ وتجهيز منزل ، ... إلخ .
 وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٤٢) : ((﴿ وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾ ،
 اسْتَعْفَى : طَلَبَ أَنْ يَكُونَ عَفِيفًا ، أَي : لِيَطْلُبَ الْعِفَّةَ عَنِ الزَّانَا وَالْحَرَامِ مَنْ لَا يَجِدُ نِكَاحًا ، أَي :
 سَبَبَ نِكَاحٍ ، وَهُوَ الْمَالُ . وَقِيلَ : التَّكَاحُ هُنَا مَا تُنَكِّحُ بِهِ الْمَرْأَةَ مِنَ الْمَهْرِ وَالتَّفَقُّةِ ، وَقِيْدُ
 سُبْحَانَهُ هَذَا التَّهْيِئَةُ بِتِلْكَ الْغَايَةِ ، وَهِيَ : ﴿ حَتَّى يُعْجِبَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، أَي : يَرْزُقُهُمْ رِزْقًا
 يَسْتَعْنُونَ بِهِ ، وَيَتِمَكَّنُونَ بِسَبَبِهِ مِنَ النِّكَاحِ)) .

والعبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجًا ومخرجًا . والصبر مفتاح الفرج . وعلى المرء أن
 يبتعد عن الحرام ، ويغضَّ بصره ، ولا يلاحق الشَّهَوَاتِ . وهذه التعاليم تُريح أعصابه ، وتُطفيئ نارَ
 الغريزة في داخله ، ولا تجعله كائنًا مُهَيَّبًا . فالبعيد عن العين بعيدٌ عن القلب . والنظرة المحرمة
 بريء إبليس ، وكم من نظرة فتكت بقلب صاحبها ، فأوردته المهالك . وكما قال الشاعر :

وكننت إذا أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
 رأيت الذي لا كُله أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرٌ

وقد أُرشدَ النبي ﷺ الشَّبَابَ غَيْرَ الْقَادِرِينَ عَلَى الزَّوْجِ إِلَى أَهْمِيَةِ الصِّيَامِ وَضُرُورَتِهِ ، لِأَنَّهُ قَاطِعٌ
 لِلشَّهْوَةِ ، وَوَقَايَةُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ ، فَقَالَ ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ
 فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَحْضُ لِلْبَصْرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))^{٨٤} .
 إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ، وَقَدْ رَاعَى فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ ، وَأَوْجَدَ الْمَسَالِكَ الصَّحِيحَةَ
 لِحَاجَاتِهِ ، وَالْعِلَاجَ لِمُشْكَلاتِهِ ، فَلَمْ يَطْلُبْ مِنَ الْمُسْلِمِ أَنْ يَكْتِبَ غَرَائِزَهُ وَشَهَوَاتِهِ . وَفِي الْوَقْتِ
 ذَاتِهِ لَمْ يُطْلَقْ لِشَهَوَاتِهِ الْعِنَانُ ، فَيُصْبِحَ كَالْبَهَائِمِ دُونَ حَسِيبٍ أَوْ رَقِيبٍ .
 لَقَدْ خَاطَبَ النَّبِيُّ ﷺ الشَّبَابَ ، لِأَنَّ الْعَالِمَ قُوَّةَ الشَّهْوَةِ فِي الشَّبَابِ ، وَهُمْ مَطْنَةُ الشَّهْوَةِ إِلَى
 النِّسَاءِ ، وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا غَالِبًا ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِنْ كِبَارِ السِّنِّ .

٨٤ متفق عليه. البخاري (١٩٥٠ / ٥) برقم (٤٧٧٩) ، ومسلم (١٠١٨ / ٢) برقم (١٤٠٠) .

مَنْ اسْتَطَاعَ الزَّوْجَ ، وَوَجَدَ كُلْفَتَهُ وَمُؤْنَتَهُ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَلَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّ التَّزْوُجَ أَشَدُّ عَوْنًا لِلْمَرْءِ عَلَى غَضِّ الْبَصْرِ ، وَأَدْفَعُ لِعَيْنِ الْمُتَزَوِّجِ عَنِ الْحَرَامِ ، وَأَشَدُّ إِحْصَانًا لِلْفَرْجِ ، أَي : أَحْفَظَ لِلْفَرْجِ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ .

وَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ شَابٍ يَمْلِكُ مَا يَقْدِرُ بِهِ عَلَى الزَّوْجِ ، ذَكَرَ لِأُمَّتِهِ عِلَاجَ ذَلِكَ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الصَّوْمِ ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ مُؤْنَةُ الزَّوْجِ ، فَلْيَلْزِمِ الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ مَانِعٌ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَمُقْتَرٌّ لَهَا ، وَقَاطِعٌ لِشَرِّهَا . وَمَنْ اعْتَادَ الصَّوْمَ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ ، فَشَهْوَةُ النِّكَاحِ تَابِعَةٌ لِشَهْوَةِ الْأَكْلِ ، فَإِنَّهُ يَقْوَى بِقُوَّتِهَا ، وَيَضْعَفُ بِضَعْفِهَا .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩ / ١٧٢ و ١٧٣) : ((قال أهل اللغة : المَعْشَرُ هُمُ الطَائِفَةُ ، ... والشبابُ جمع شاب ، والشاب عند أصحابنا هو مَنْ بَلَغَ وَلَمْ يُجَاوِزِ ثَلَاثِينَ سَنَةً ... واختلف العلماء في الْمُرَادِ بِالْبَاءِ هُنَا عَلَى قَوْلَيْنِ يَرْجِعَانِ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ ، أَصَحُّهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ مَعْنَاهَا اللُّغَوِي ، وَهُوَ الْجِمَاعُ ، فَتَقْدِيرُهُ : مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْجِمَاعَ لِقُدْرَتِهِ عَلَى مُؤْنِهِ وَهِيَ مُؤْنُ النِّكَاحِ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْجِمَاعَ لِعَجْزِهِ عَنِ مُؤْنِهِ ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ لِيُدْفَعَ شَهْوَتُهُ وَيَقْطَعَ شَرَّ مَنِيَّتِهِ كَمَا يَقْطَعُهُ الْوِجَاءُ _ الْوِجَاءُ فِي اللُّغَةِ : رَضُّ عُرُوقِ الْخُصْيَيْنِ حَتَّى تَزُولَ الشَّهْوَةُ ، فَيَكُونُ شَبِيهَا بِالْخِصَاءِ _ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَقَعَ الْخِطَابُ مَعَ الشُّبَّانِ الَّذِينَ هُمْ مَطْنَةٌ شَهْوَةُ النِّسَاءِ ، وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا غَالِبًا . وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا بِالْبَاءِ مُؤْنُ النِّكَاحِ ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ مَا يُلَازِمُهَا . وَتَقْدِيرُهُ : مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ مُؤْنَةَ النِّكَاحِ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْهَا فَلْيَصُمْ لِيُدْفَعَ شَهْوَتُهُ)) .

مَنْ اسْتَطَاعَ الْجِمَاعَ ، وَرَأَى نَفْسَهُ قَادِرًا عَلَى مُتَطَلِبَاتِهِ فَلْيَتَزَوَّجْ ، لِكَيْ يُطْفِئَ شَهْوَتَهُ ، وَيَحْمِي نَفْسَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ ، أَمَّا غَيْرُ الْقَادِرِ عَلَى الْجِمَاعِ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، لِأَنَّهُ قَاطِعٌ لِلشَّهْوَةِ ، مُطْفِئٌ لِنَارِ الْغَرِيزَةِ تَجَاهِ النِّسَاءِ .

وقال الحافظ في الفتح (٤ / ١١٩) : ((وَاسْتَشْكَلَ بِأَنَّ الصَّوْمَ يَرِيدُ فِي تَهْيِيجِ الْحَرَارَةِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُبَيِّرُ الشَّهْوَةَ ، لَكِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَقَعُ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ ، فَإِذَا تَمَادَى عَلَيْهِ وَاعْتَادَهُ ، سَكَنَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

إِنَّ الْمَرْءَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الزَّوْجِ ، عَلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ وَقْتَهُ فَرَاغَهُ بِالْأُمُورِ الْمُفِيدَةِ ، وَالْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ ، وَيُمَارِسَ الرِّيَاضَةَ ، لِكَيْ يُطْفِئَ نَارَ الشَّهْوَةِ الْجِنْسِيَّةِ الَّتِي لَا يَجِدُ طَرِيقًا شَرْعِيًّا لِتَفْرِيفِهَا . وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَحْرِصَ عَلَى الصَّوْمِ ، وَالِاتِّزَامِ بِالْعِفَّةِ وَالْأَخْلَاقِ النَّبِيلَةِ . وَكَمَا قِيلَ : نَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ ، شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥] .
 إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْأَطْهَارَ الشُّرَفَاءَ يَلْتَمِزُونَ أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَجْتَنِبُونَ مَا نَهَى عَنْهُ . وَهُمْ يَحْفَظُونَ
 فُرُوجَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِالشُّرْفِ وَالطَّهَارَةِ وَالْعِفَافِ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ ، فَلَا يَزْنُونَ ، وَلَا
 يَعْمَلُونَ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ ، وَلَا يَكْشِفُونَ الْعَوْرَاتِ . إِنَّهُمْ يَمْنَعُونَ فُرُوجَهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْحَرَامِ ،
 فَيَحْفَظُونَ عَلَيْهَا فِي وَجْهِ كُلِّ الْمُغْرَبَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ ، فَيَبْقُونَ أَنْقِيَاءَ أَطْهَارًا ، لَا يَلْوِثُونَ
 أَجْسَامَهُمْ بِالْحَرَامِ .

وَالْفَرْجُ يُطَلَّقُ عَلَى فَرْجِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ . وَحِفْظُ الفَرْجِ يَعْنِي التَّعَفُّفَ عَنِ الْحَرَامِ وَالْمَعَاصِي .
 وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٣ / ٦٧٨) : ((﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ، الفَرْجُ
 يُطَلَّقُ عَلَى فَرْجِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ . وَمَعْنَى حِفْظِهِمْ لَهَا أَنَّهُمْ مُمَسِّكُونَ لَهَا بِالْعِفَافِ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ .
 وَقِيلَ : وَالْمُرَادُ هُنَا الرَّجَالُ خَاصَّةً دُونَ النِّسَاءِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ ﴾ ، لِلْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَطَّأَهَا مَنْ تَمَلَّكَهَا)) .

وَفِي تُحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ (٦ / ١٢٠) : ((وَأَمَّا الفَرْجُ فَصَوْنُهُ مِنْ أَعْظَمِ مَرَاتِبِ الدِّينِ ، قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ، لِأَنَّ هَذِهِ الشَّهْوَةَ أَغْلِبَ الشَّهَوَاتِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَأَعْصَاهَا
 عَلَى الْعَقْلِ عِنْدَ الْهَيْجَانِ . وَمَنْ تَرَكَ الرِّئْيَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ الْقُدْرَةِ ، وَارْتِفَاعِ الْمَوَانِعِ ، وَتَيَسَّرِ
 الْأَسْبَابِ ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ صِدْقِ الشَّهْوَةِ ، وَصَلَ إِلَى دَرَجَةِ الصِّدِّيقِينَ)) .

وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، عَوْرَاتِنَا
 مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَدْرُ ؟ ، قَالَ : ((أَحْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ)) ، قُلْتُ :
 أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ قَوْمٌ بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ؟ ، قَالَ : ((إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلَا يَرِنَّهَا)) ،
 قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ خَالِيًا ، قَالَ : ((فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ)) ^{٨٥} .

سَأَلَ الصَّحَابِيُّ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَيْدَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ النَّبِيَّ ﷺ عَمَّا يَجُوزُ إِظْهَارَهُ مِنَ الْعَوْرَاتِ
 وَمَا لَا يَجُوزُ ، وَالْعَوْرَةُ هِيَ كُلُّ مَا يُسْتَحْيَا مِنْهُ إِذَا ظَهَرَ ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِضُرُورَةِ حِفْظِ الْعَوْرَةِ مِنَ
 التَّكْشُفِ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِهِ ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْظُرَ إِلَى كُلِّ جَسَدِهِ ، وَكَذَلِكَ مَا يَمْلِكُهُ مِنَ الْإِمَاءِ ،

٨٥ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ١٩٩) برقم (٧٣٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يدلُّ على أنَّ النَّكاحَ والمِلِك يُبيحان النَّظَرَ إلى السَّوآتَيْنِ مِنَ الجانِبَيْنِ . وسأل معاوية عن حالة القوم المُختلطين ، الذين لا يَقومون مِن مَوَضعِهِم ، فلا يُمكن سِتْر العورة على الوجه الأتم والأكمل في بعض الأحيان ، لِضيق الإزار ، أو لانحلاله لبعض الصُّرورة ، فكيف يتم سِتْر العورة ؟ ، وكيف يُحجبون مِن القوم ؟ . وأخبره النبي ﷺ بضرورة التَّحَرُّزِ قَدْر الاستطاعة مِن كَشْفِ العورة . وسأل معاوية عن حالة انفراد المرء وليس معه أحد من الناس ، كأنه يسأله قائلاً : هل له أن يتجرَّد مِن ملبسه ؟ ، فأخبره النبي ﷺ بأهمية سِتْر العورة طاعةً لله تعالى ، وطلبًا لِمَا يُحِبُّهُ ويُرضِيهِ ، فلا يقتصر الأمرُ بِسِتْرِ العورة عن الناس ، وليس المُراد الاستتار مِن الله ، فلا يُمكن الاستتار منه سبحانه وتعالى . ويُستثنى في كَشْفِ العورة : وَقْتُ قِضَاءِ الحَاجَةِ ، وَعِنْدَ العُغْسِلِ ، وَعِنْدَ الجَمَاعِ ، وللطَّيِّبِ عِنْدَ الحَاجَةِ ، وَنَحْوِ ذلك مِمَّا يُحتَاجُ إليه ، ويكون ذلك بِقَدْرِهِ لا يُزَادُ عليه .

والحديثُ يدلُّ على وُجوبِ سِتْرِ عورة الرُّجُلِ وعدمِ كَشْفِهَا إلا أمام زوجته أو ما مَلَكَتْ يَمِينُهُ . وهذا يُشير إلى قُوَّةِ منهج الانضباط الأخلاقيِّ في المجتمع الإسلامي المحروس بقوانين الشريعة التي حالت دون غرق الأفراد في الفوضى الجنسية، وانتشار الفواحش، وشيوع الأمراض التناسلية . والمجتمع الإسلاميُّ مجتمعٌ نظيف طاهر يضع الشَّهَوَاتِ في نِصَابِهَا الصَّحِيحِ ، ويُغْلِقُ كُلَّ الذرائع المُوصلة إلى الحرام . وفي الحلال ما يُعني عن الحرام . وحِفْظُ العورات هو الأساس لِتَجَنُّبِ الانسياق وراء العلاقات المُحرَّمة بين الذَّكَرِ والأنثى ، والضَّمانَةُ الأكيدة لحماية المجتمع من الكبت الجنسي والفوضى الأخلاقية والأمراض الجنسية الخطيرة . وهُنَا تتجلى أهمية الاتزان والتوازن ، والسَّيْرُ على الطريق المستقيم ، بلا انحراف عن الشريعة ، ولا تحايل على الحرام .

وقال المُنَاوي في فيض القدير (١ / ١٩٥ و ١٩٦) : (((احْفَظْ عَوْرَتَكَ) صُنْهَا عَنِ العُيُونِ ، لأنها خُلِقَتْ مِن آدَمَ مَسْتورة ، وقد كانت مستورة عن آدَمَ وَحَوَاءَ ، وَدَخَلَ الجَنَّةَ وَلَمْ يَعْلَمْ بِهَا ، حتى أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ، فانكشفت ، فَأَمْرًا بِسِتْرِهَا ... (إلا مِن زَوْجَتِكَ) بالثناء لُغَةً ، وبدونها جاء القرآن (أو مَا) أي : وإلا الأُمَّة التي (مَلَكَتْ يَمِينُكَ) وَحَلَّ لَكَ وَطُؤُهَا ، وَعَبَّرَ باليمين للغالب ، إذ كانوا يتصافحون بها عند العُقود . والخطابُ وإن كان لِمُفْرَدٍ ، لكن المُراد العموم لِمَنْ حَضَرَ وَغَابَ مِن جميع الأُمَّة بقريئة عموم السؤال . والمرأةُ تحفظ عورتها حتى مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهَا إلا مِن زَوْجِهَا . قال الطيبي : وَعَدَلَّ عن اسْتِثْنَاءِ إلى (احْفَظْ) لِئِدَلَّ السياق على الأمر بِسِتْرِهَا استحياءً عَمَّنْ ينبغي الاستحياء منه ، أي : مِن الله ، وَمِن خَلْقِهِ ، يُشير به معنى قولهِ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إلا على أزواجِهِمْ أو ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ، لأن عدم السِتْرِ يُؤدِّي إلى

الوقاحة ، وهي إلى الزنا ، وفيه أن للزوج النظر إلى فرج زوجته وحلقة دُبُرِها ، وأخذ بعضهم منه أنه يجب على الرجل تمكين حليلته من الاستمتاع به ، وردَّ بأن معنى قوله : " إلا من " إلى آخره ، أي: فهو أولى أن لا تحفظ عورتك منها ، وذلك لأن الحق في التمتع له لا لها ، فيلزمها تمكينه ولا عكس ... (إذا كان القوم) أي الجماعة (بعضهم في) ... (بعض) كأب وجد وابن وابنة أو المراد : المثل لمثله كرجل لرجل ، وأنثى لأنثى ، وعليه فالقوم اسم كان ، وبعضهم بدل منه ... (قال) أي رسول الله ﷺ : (إن استطعت أن لا يرينها أحد) ... اجتهد في حفظها ما استطعت ، وإن دعت ضرورة للكشف جاز بقدرها (قيل) أي قلت : يا رسول الله (إذا كان أحدنا خالياً) أي : في خلوة ، فما حكم ستر عورته حينئذ ؟ (قال) أي رسول الله ﷺ : (الله أحق) أي أوجب (أن يُستخيا منه من الناس) عن كشف العورة ، وهو تعالى وإن كان لا يحجبه شيء ويرى المستور كما يرى العاري ، لكن رعاية الأدب تقتضي الستر . قال العلاني وغيره : وهذا إشارة إلى مقام المراقبة ، فإن العبد إذا امتنع عن كشف عورته حياءً من الناس ، فالأن يستحي من ربه المطلع عليه في كل حال وكل وقت أولى ، والداعي إلى المراقبة أمور أعظمها الحياء . قيل : إن إبراهيم ابن أدهم صلي قاعداً ، ثم مدَّ رجله ، فهتف به هاتف : أهكذا تجالس الملوك ، فما مدَّها بعد أبداً . وقال الحكيم : من تعرَّى خالياً ولم يحتشم فهو عبد قلبه ، غافل عن الله ، لم يعلم بأن الله يرى علم اليقين ، ولذلك كان الصديق رضي الله تعالى عنه يُقنع رأسه عند دخوله الخلاء حياءً من الله تعالى ، وكان عثمان رضي الله تعالى عنه يغتسل في بيت مظلم حتى لا يرى عورة نفسه . قال الماوردي : ومن خصائص نبينا ﷺ أنه لم تر عورته قط ، ولو رآها أحد عمي ، وعدوا من خصائص هذه الأمة حرمة كشف العورة ، وكما يُؤمر بحفظ عورته يُؤمر بحفظ عورة غيره بترك النظر إليها . قال ابن جرير : إلا لعذر كحد يُقام عليه ، وعقوبة تدرأ . وظاهر الخبر وجوب ستر العورة في الخلوة لكن المفتى به عند الشافعية جواز كشفها فيها لأدنى عرض كتبريد وخوف غبار على نحو ثوب ، فينزل الخبر على ندب الستر في الخلوة ، لا وجوبه ، وممن وافقهم ابن جرير ، فأول الخبر في الآثار على الندب ، قال : لأن الله تعالى لا يعيب عنه شيء من خلقه عراة أو غير عراة .

وقال الله تعالى: ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾ [المؤمنون: ٦] .

المؤمنون الأطهار الشرفاء حافظون لفروجهم في كل الأحوال ، إلا من زوجاتهم أو إمائهم (السراري) ، فإنهم غير مؤاخذين ، ولا لوم عليهم ولا إثم . إنهم لا يقربون إلا زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم (الإماء المملوكات) .

وَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ . فَالزَّوْجَةُ وَالْأُمَّةُ ضِمْنَ دَائِرَةِ الْحَلَالِ . وَفِي الْحَلَالِ مَا يُغْنِي عَنِ الْحَرَامِ . وَمَنْ تَعَامَلَ مَعَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ وَلَا ذَنْبَ . وَالآيَةُ فِي الرَّجَالِ خَاصَّةٌ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ ، وَالْمَرْأَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَسْتَمْتَعَ بِفَرْجِ مَمْلُوكِهَا (الْعَبْدُ الَّذِي تَمْلِكُهُ) . وَالْجَدِيرُ بِالذَّكْرِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ مَا ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : " مَنْ " ، لِأَنَّ الْمَمْلُوكَ جَرَى مَجْرَى غَيْرِ الْعُقَلَاءِ ، لِذَلِكَ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٩٨ / ١٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ : أَيُّ مِنْ أَزْوَاجِهِمُ اللَّاتِي أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ لَا يُجَاوِزُونَ ، ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فِي مَوْضِعِ خَفْضِ مَعْطُوفَةٍ عَلَى ﴿ أَزْوَاجِهِمْ ﴾ ، وَ﴿ مَا ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ، وَهَذَا يَقْتَضِي تَحْرِيمَ الزَّانِي وَمَا قُلْنَا مِنْ الْأَسْتِمْنَاءِ وَنِكَاحِ الْمُتَمَتِّعِ ، لِأَنَّ الْمُتَمَتِّعَ بِهَا لَا تَجْرِي مَجْرَى الزَّوْجَاتِ ، لَا تَرِثُ ، وَلَا تُورِثُ ، وَلَا يَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ نِكَاحِهَا بِطَلَاقٍ يُسْتَأْنَفُ لَهَا ، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ بِانْقِضَاءِ الْمُدَّةِ الَّتِي عُقِدَتْ عَلَيْهَا وَصَارَتْ كَالْمُسْتَأْجَرَةِ . ابْنُ الْعَرَبِيِّ : إِنْ قُلْنَا إِنَّ نِكَاحَ الْمُتَمَتِّعِ جَائِزٌ فِيهِ زَوْجَةٌ إِلَى أَجْلِ أَنْ يَنْطَلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ الزَّوْجِيَّةِ ، وَإِنْ قُلْنَا بِالْحَقِّ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ مِنْ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعِ لَمَّا كَانَتْ زَوْجَةً ، فَلَمْ تَدْخُلْ فِي الْآيَةِ . قُلْتُ : وَفَائِدَةُ هَذَا الْخِلَافِ : هَلْ يَجِبُ الْحَدُّ وَلَا يَلْحَقُ الْوَلَدُ كَالزَّانِي الصَّرِيحِ أَوْ يُدْفَعُ الْحَدُّ لِلشُّبْهَةِ وَيَلْحَقُ الْوَلَدُ ، قَوْلَانِ لِأَصْحَابِنَا . وَقَدْ كَانَ لِلْمُتَمَتِّعِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ أَحْوَالٌ ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مُبَاحَةً ثُمَّ حَرَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَنَ خَيْبَرَ ، ثُمَّ حَلَّلَهَا فِي غَزَاةِ الْفَتْحِ ، ثُمَّ حَرَّمَهَا بَعْدَ ، قَالَهُ ابْنُ خُوَيْرِيمُنَدَادٍ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِ وَإِلَيْهِ أَشَارَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٤٦٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ ﴾ ، قَالَ الْفَرَّاءُ : ﴿ عَلَى ﴾ بِمَعْنَى : " مِنْ " . وَقَالَ الرَّجَّاجُ : الْمَعْنَى أَنَّهُمْ يُلَامُونَ فِي إِطْلَاقِ مَا حُظِرَ عَلَيْهِمْ وَأُمِرُوا بِحِفْظِهِ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُلَامُونَ)) .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤١٠) : ((فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ يَعْنِي : يَحْفَظُ فَرْجَهُ إِلَّا مِنْ امْرَأَتِهِ أَوْ أُمَّتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُلَامُ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا لَا يُلَامُ فِيهِمَا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِهِ أَدْنَى فِيهِ الشَّرْعُ ، دُونَ الْإِتْيَانِ فِي غَيْرِ الْمَأْتَى ، وَفِي حَالِ الْحَيْضِ وَالنَّفَّاسِ ، فَإِنَّهُ مَحْظُورٌ ، وَهُوَ عَلَى فِعْلِهِ مَلُومٌ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ : ٧] .

فَمَنْ أَرَادَ نِكَاحَ غَيْرِ الزَّوْجَاتِ وَالْإِمَاءِ (السَّرَّارِيِّ الْمَمْلُوكَاتِ) ، وَطَلَبَ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم ، لأنهم تجاوزوا إلى ما لا يحلُّ ، الخارجون من دائرة الحلال إلى دائرة الحرام ، الكاملون في الغدوان ، المُجَاوِزُونَ لِلْحَدِّ فِي الْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ .

وقال النَّسْفِي فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ١١٧) : ((فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)) ، طَلَبَ قِضَاءَ شَهْوَةِ
مِنْ غَيْرِ هَذَيْنِ ، « فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ » الْكَامِلُونَ فِي الْعُدْوَانِ)) .

وقال الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤١٠) : ((فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)) ، أَي : التَّمَسَّ وَطَلَبَ
سِوَى الْأَزْوَاجِ وَالْوَلَدِ الْمَمْلُوكَةِ ، « فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ » الظَّالِمُونَ الْمُتَجَاوِزُونَ مِنَ الْحَلَالِ إِلَى
الْحَرَامِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْاسْتِمْنَاءَ بِالْيَدِ حَرَامٌ ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ)) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَجَاوَزَ الزَّوْجَاتِ وَالْإِمَاءَ ، وَبَحَثَ عَنِ قِضَاءِ الشَّهْوَةِ الْجَنَسِيَّةِ بَعِيدًا عَنْهُنَّ ،
فَقَدْ خَالَفَ الشَّرْعَ ، وَاقْتَحَمَ الْحَرَامَ ، وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ ، لِأَنَّهُ وَضَعَ الْأَمْرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .

وَالْآيَةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى تَحْرِيمِ الْاسْتِمْنَاءِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ (الزَّوْجَاتِ وَالْإِمَاءِ) .

قال الشافعي في الأم (٥ / ١٣٧) : ((فلا يحلُّ العمل بالذَّكْرِ إلا في الزوجة أو في مِلكِ

اليَمِينِ ، وَلَا يَحِلُّ الْاسْتِمْنَاءُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ)) .

وَالْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعَةِ لِنَفْسِ السَّبَبِ .

وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال : سألتُ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ عَنْ مُتَمَتِّعَةِ النِّسَاءِ ؟ ، فَقَالَتْ :

((بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ)) ، وَقَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ : ((وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْوَاحِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا

عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ)) مَا زَوَّجَهُ اللَّهُ ، أَوْ
مِلْكِهِ ، فَقَدْ عَدَا)) ^{٨٦} .

مُتَمَتِّعَةُ النِّسَاءِ هِيَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ لِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ بِلَفْظِ التَّمَتُّعِ عَلَى مَبْلَغٍ مِنَ الْمَالِ . وَقَدْ كَانَ مُبَاحًا ،
ثُمَّ نُسِخَ ، وَحُرِّمَ تَحْرِيمًا أَبَدِيًّا ، وَأُعْلِقَ هَذَا الْبَابَ إِلَى الْأَبَدِ . فَهُوَ مُحَرَّمٌ بِالْإِجْمَاعِ ، فَالصَّحَابَةُ قَدْ
حَفِظُوا التَّحْرِيمَ وَعَمِلُوا بِهِ . وَلَا عِبْرَةَ بِمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ . وَمَنْ يَعْلَمُ حُجَّةً عَلَى مَنْ لَا يَعْلَمُ .

وَمَنْ طَلَبَ نِكَاحَ غَيْرِ الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِيِّ (مِلكِ الْيَمِينِ) ، فَقَدْ تَجَاوَزَ إِلَى الْحَرَامِ وَالْإِثْمِ .

وفي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (٦ / ٥٩) : ((قال الإمام الخَطَّابِيُّ فِي الْمَعَالِمِ : تَحْرِيمُ نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعَةِ

كَالْإِجْمَاعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مُبَاحًا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ حَرَّمَهُ فِي حُجَّةِ الْوُدَاعِ ،

فَلَمْ يَبْقَ الْيَوْمَ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا شَيْئًا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّوَاظِ . وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَتَأَوَّلُ فِي

إِبَاحَتِهِ لِلْمُضْطَّرِّ إِلَيْهِ بِطُولِ الْعَزِيَّةِ (الْعَزُوبِيَّةِ) ، وَقِلَّةِ الْيَسَارِ وَالْجِدَّةِ (قِلَّةِ الْمَالِ) ، ثُمَّ تَوَقَّفَ عَنْهُ ،

وَأَمْسَكَ عَنِ الْفَتْوَى بِهِ)) .

٨٦ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٢٧) برقم (٣٤٨٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] ^{٨٧} .

هذه الآية إرشادٌ إلهيٌّ عظيم إلى الآداب الرفيعة من غَضِّ الأَبْصَارِ ، وحَفْظِ الفُرُوجِ . والله يأمر عباده المؤمنين أن لا يَنْظُرُوا إلى الحَرَامِ ، وأن يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ مِنَ الحَرَامِ . وحَفْظِ الفُرُوجِ يَكُونُ بمنعه من الزَّنا ، وحِفْظه من النَّظَرِ إليه (عدم كَشْفِهِ حيث لا يَحِلُّ) .

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِاتِّبَاعِكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوتِكَ ، يَكْفُوا أَبْصَارَهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الأَجْنِبِيَّاتِ مِنْ غَيْرِ المَحَارِمِ ، فَإِنَّ النَّظْرَةَ تَرَعُ فِي القَلْبِ الشَّهْوَةَ ، وَالشَّهْوَةُ تُورِثُ الحُزْنَ الطَّوِيلَ والأَلَمَ العميقَ . وَكَمْ نَظْرَةٌ جَرَحَتْ قَلْبَ سَاحِبِهَا كَالسَّهْمِ . وَحَصَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالدُّكْرِ مَعَ تحريم النَّظَرِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، لِكُونَ قَطْعِ ذَرَائِعِ الزَّنا الَّتِي مِنْهَا النَّظَرُ هُمْ أَحَقُّ مِنْ غَيْرِهِمْ بِهَا ، وَأَوْلَى بِذَلِكَ مِمَّنْ سِوَاهُمْ . ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ ، وَيَصُونُوا فُرُوجَهُمْ عَنِ الزَّنا ، وَيَسْتَرُوهَا عَنِ أَنْ يَرَاهَا مَنْ لا تَحِلُّ لَهُ رُؤْيُهَا .

والجديرُ بالدُّكْرِ أَنَّ اللَّهَ قال : ﴿ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : وَيَحْفَظُوا مِنْ فُرُوجِهِمْ . وتقييدُ العَضِّ بِـ " مِنْ " التَّبَعِيضِيَّةُ دُونَ الحِفْظِ ، لِمَا فِي أمر النَّظَرِ مِنَ السَّعَةِ ، أَمَّا حِفْظُ الفُرُوجِ فَإِنَّهُ صَيِّقٌ لا سَعَةَ . وَقَدْ قَدَّمَ اللَّهُ غَضَّ الأَبْصَارِ عَلَى حِفْظِ الفُرُوجِ ، لِأَنَّ النَّظَرَ بَرِيدُ الزَّنا ، وَرائدُ الفُجُورِ ، وَهُوَ سببُ المَصائبِ ، وَمُقَدِّمَةٌ لِلوُقُوعِ فِي الحَظَرِ ، وَالبَلْوَى فِيهِ أَشَدُّ وَأَكْثَرُ ، وَمِنَ الصَّعْبِ الاحْتِرَاسُ مِنْهُ .

وَكُنْتَ إِذَا أُرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَنْعَبْتِكَ المَنَاظِرُ

رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

والبَصْرُ هُوَ البَابُ الرَّئِيسِيُّ للقَلْبِ ، لِذَلِكَ كَثُرَ السُّقُوطُ مِنْ جِهَتِهِ ، وَوَجِبَ التحذيرُ مِنْهُ ، والانتباهُ لخطره العَظِيمِ ، وَشَرُّهُ المُسْتَطِيرِ .

٨٧ في الدر المنثور للسيوطي (١٧٦ / ٦) : ((أخرج ابن مَرْدَوَيْهِ عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قال : مَرَّ رَجُلٌ عَلَى عهد رسولِ اللَّهِ ﷺ فِي طريقِ مِنَ طُرُقَاتِ المَدِينَةِ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى امْرَأَةٍ ، وَنظَرَتْ إِلَيْهِ ، فَوَسَّوسَ لهُمَا الشَّيْطَانُ أَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ أَحَدَهُمَا إِلَى الأَخرِ إِلا اعجابًا بِهِ ، فَبَيْنَمَا الرَّجُلُ يَمْشِي إِلَى جَنْبِ حائِطٍ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، إِذِ اسْتَقْبَلَهُ الحائِطُ أَي صَدَمَهُ الحائِطُ ، فَشَقَّ أَنْفَهُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لا أَغْسِلُ الدَّمَ حَتَّى آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأُعَلِّمَهُ امرِي ، فَأَتَاهُ ، فَفَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " هَذَا عُقُوبَةُ ذُنُوبِكَ " . وَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، (الآية)) .

والعينُ بريدُ القلب، والنظرُ إلى المحرّمات من شأنه فسح الطريق أمام الزنا. لذلك وجدنا الترابط في الآية القرآنية بين غَضِّ البَصَرِ وحِفْظِ الفَرْجِ ، فالْبَصْرُ ناقل الإحساس والشهوة إلى الفرج .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٠) : ((قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، في " مِنْ " قولان: أحدهما أَنَّهَا صِلَةٌ، والثاني أَنَّهَا أَصْل ، لأنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِالْغَضِّ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِالْغَضِّ عَمَّا لَا يَحِلُّ. وفي قوله: ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ قولان: أحدهما عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ، قاله الجمهور. والثاني عن أن تُرى، فهو أمر لهم بالاستتار، قاله أبو العالية وابن زيد)).
 ﴿ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ ﴾ ، أي: غَضُّ البَصَرِ وحِفْظُ الفَرْجِ خَيْرٌ لَهُمْ ، وأنفع لهم، وأتقى للدين ، وأطهر للقلوب لما فيه من البُعد عن الرِّيبة ، وأحفظ من الوقوع في الفُجور ، وأطيب من التلبُّس بهذه الدنيئة . وَمَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْرَثَهُ اللَّهُ نُورًا فِي بَصِيرَتِهِ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ . إِنَّ اللَّهَ رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أحوالِهِمْ ، فيجب عليهم أن يتَّقوا اللَّهَ في السِّرِّ والعلْنِ ، وأن يكونوا على حَذَرٍ في أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُجَازِبُهُمْ عَلَيْهَا .
 هذا ترغيب وترهيب، فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بأحوالِهِمْ، وَكَيْفَ يُجِيلُونَ أَبْصَارَهُمْ ، وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ، وما تُخْفِي الصُّدُورُ ، وإذا عَرَفُوا ذلك كانوا أتقياء وعلى حَذَرٍ في كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ ، وَاللَّهُ يُجَازِي الْمُحْسِنِينَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٣٠٢) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَبِكِ يَا مُحَمَّدٌ ﴾ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، يَقُولُ : يَكْفُؤُوا مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى مَا يَشْتَهَوْنَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، مِمَّا قَدْ نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ ، ﴿ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ أَنْ يَرَاهَا مَنْ لَا يَحِلُّ لَهُ رُؤْيُهَا بِلِبْسِ مَا يَسْتَرُهَا عَنْ أَبْصَارِهِمْ ، ﴿ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ ﴾ ، يَقُولُ : فَإِنَّ غَضَّهَا مِنَ النَّظَرِ عَمَّا لَا يَحِلُّ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، وَحِفْظُ الفَرْجِ عَنْ أَنْ يَظْهَرَ لِأَبْصَارِ النَّاطِرِينَ أَطْهَرَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأَفْضَلَ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ ذُو خَيْرَةٍ بِمَا تَصْنَعُونَ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ مِنْ غَضِّ أَبْصَارِكُمْ عَمَّا أَمَرَكُم بِالْغَضِّ عَنْهُ ، وَحِفْظِ فُرُوجِكُمْ عَنْ إِظْهَارِهَا لِمَنْ نَهَاكُمْ عَنْ إِظْهَارِهَا لَهُ)) .

إِنَّ النَّظَرَ سَبَبٌ لِفَسَادِ الْقَلْبِ ، وَالنَّظَرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ يَخْتَرِقُ الْقَلْبَ . وَغَضُّ البَصَرِ هُوَ كَفُّهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْعُهُ مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّهَوَاتِ . أَمَّا حِفْظُ الفَرْجِ فَيَتَحَقَّقُ بِمَنْعِهِ مِنَ الزَّانَا وَحِفْظِهِ مِنَ الْأَبْصَارِ ، وَذَلِكَ بِإِبْقَائِهِ مُسْتَوْرًا غَيْرَ مَكشُوفٍ . وهذه المنظومة الأخلاقية الشاملة تحمي الفرد والجماعة من العرق في مُستنقع الشهوانية الجنسية ، والضياح في متاهة الانحلال الأخلاقي .

وفي صحيح مسلم (٢٠٤٦ / ٤) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا ، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَالْعَيْنَانِ زَانَاهُمَا النَّظْرُ ، وَالْأُذُنَانِ زَانَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زَانَاهُ الْكَلَامُ ، وَالْيَدُ زَانَاهَا الْبَطْشُ ، وَالرَّجُلُ زَانَاهَا الْخَطَا ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ)) .

إنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى الْعَبْدِ فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُدْرِكُهُ وَمُصِيبُهُ، وَلَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِهِ ، وَمَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَهُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَهُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مُجْبِرًا عَلَيْهِ ، بَلْ بِاخْتِيَارِهِ . فَالْعَيْنَانِ زَانَاهُمَا النَّظْرُ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ النَّظْرَ إِلَيْهِ ، كَالنَّظَرِ إِلَى النِّسَاءِ الْأَجْنَبِيَّاتِ بِلَا ضَرُورَةٍ أَوْ حَاجَةٍ شَرْعِيَّةٍ . وَإِذَا نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ بِشَهْوَةٍ ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الزَّانَا ، وَهُوَ زَنَا الْعَيْنِ . وَالْأُذُنَانِ زَانَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ ، أَي : يَسْتَمِعُ الرَّجُلُ إِلَى كَلَامِ الْمَرْأَةِ وَيَتَلَذَّذُ بِصَوْتِهَا ، وَهَذَا زَنَا الْأُذُنِ . وَاللِّسَانُ زَانَاهُ الْكَلَامُ ، أَي : مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ الْحَدِيثِ مَعَ مَنْ يَحْرُمُ التَّلَذُّذُ بِالْحَدِيثِ مَعَهُ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ دَوَاعِي الزَّانَا وَمُقَدِّمَاتِهِ . وَالْيَدُ زَانَاهَا الْبَطْشُ ، أَي : الْعَمَلُ بِالْيَدِ مِنَ اللَّمَسِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَالرَّجُلُ زَانَاهَا الْخَطَا ، أَي : أَنْ يَمْشِيَ الرَّجُلُ إِلَى مَكَانِ الْفَوَاحِشِ مِثْلًا ، أَوْ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ امْرَأَةٍ فَيَمْشِي إِلَيْهَا ، أَوْ يَرَى امْرَأَةً فَيَتَّبِعُهَا ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الزَّانَا . وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، أَي : يَمِيلُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ ، وَهُوَ التَّعَلُّقُ بِالنِّسَاءِ ، وَهَذَا زَنَا الْقَلْبِ ، وَتَهْمُ النَّفْسُ بِفِعْلِ الْحَرَامِ ، وَتَتَلَذَّذُ بِالتَّفَكِيرِ فِيهِ ، وَالْفَرْجُ _ وَهُوَ الْعَضُوُّ وَالْجَارِحَةُ الَّتِي يُنْفَذُ بِهَا هَذَا الْفِعْلُ الْمُحْرَمُ _ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ بِفِعْلِ الزَّانَا أَوْ تَرْكِهِ . أَي إِنَّهُ إِذَا زَنَى بِالْفَرْجِ ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، فَقَدْ صَدَّقَ زَنَا هَذِهِ الْأَعْضَاءَ ، وَإِنْ لَمْ يَزِنْ بِفَرْجِهِ ، بَلْ سَلِمَ وَحَفِظَ نَفْسَهُ ، فَإِنَّ هَذَا يَكُونُ تَكْذِيبًا لِزَنَا هَذِهِ الْأَعْضَاءِ .

وَيَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِأَصْوَاتِ النِّسَاءِ ، أَوْ رُؤْيَيْهِنَّ ، أَوْ لَمْسِهِنَّ ، أَوْ السَّعْيِ إِلَيْهِنَّ ، أَوْ اشْتِهَائِهِنَّ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الزَّانَا . وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ الزَّانَا لَا يَخْتَصُّ بِالْفَرْجِ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَوْعَانِ : زَنَا الْفَرْجِ ، وَزَنَا الْجَوَارِحِ ، فَالْجَوَارِحُ كُلُّهَا تَزْنِي زَنَا يَأْتِمُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ ، وَلَكِنَّهُ أَقْلُ إِثْمًا مِنْ زَنَا الْفَرْجِ ، فَزَنَا الْعَيْنِ النَّظْرُ إِلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِشَهْوَةٍ ، وَزَنَا اللِّسَانِ التَّحَدُّثُ إِلَيْهَا بِشَهْوَةٍ ، وَيُقَاسُ عَلَى ذَلِكَ بِقِيَّةِ الْجَوَارِحِ . وَيَجِبُ عَدَمُ التَّسَاهُلِ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ ، لِأَنَّهَا دَوَاعِي الْكِبَائِرِ وَمُقَدِّمَاتُهَا .

وَدَوْرُ الْجَوَارِحِ خَطِيرٌ وَكَبِيرٌ فِي نَقْلِ الشَّهَوَاتِ إِلَى مَرَاكِزِ الْإِحْسَاسِ ، لِذَلِكَ يَتَوَزَّعُ الزَّانَا عَلَى هَذِهِ الْجَوَارِحِ ، وَالْفَرْجُ هُوَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَهُوَ مِعْيَارُ الْقَبُولِ أَوْ الرَّفْضِ ، فَإِنَّمَا أَنْ يَخْضَعَ لِزَنَا الْجَوَارِحِ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَرْفُضَهُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٢٠٦) : ((معنى الحديث أنّ ابن آدم قدّر عليه نصيب من الزنى ، فمنهم من يكون زناه حقيقياً يادخال الفرج في الفرج الحرام ، ومنهم من يكون زناه مجازاً بالنظر الحرام، أو الاستماع إلى الزنى ، وما يتعلق بتحصيله ، أو بالمس باليد ، بأن يمس أجنبيّة بيده ، أو يقبلها ، أو بالمشي بالرجل إلى الزنى ، أو النظر ، أو اللمس ، أو الحديث الحرام مع أجنبيّة ، ونحو ذلك ، أو بالفكر بالقلب ، فكل هذه أنواع من الزنى المجازي ، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه ، معناه أنّه قد يحقق الزنى بالفرج ، وقد لا يحقّقه بأن لا يولج الفرج في الفرج ، وإن قارب ذلك ، والله أعلم)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٥٤٩) : ((كتبت على ابن آدم) أي : قضى عليه ، وأثبت في اللوح المحفوظ ، وقيل : خلق له إرادة وعدة من الحواس وغيرها ، والأول هو المناسب لمعاني هذا الباب (نصيبه من الزنا) أي: مقدماته من التمني والتخطي لأجله ، والتكلم فيه طلباً أو حكاية أو استماعاً ، ونحوها (مدرك ذلك لا محالة فالعينان زانها النظر والأذنان زانها الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زانها البطش والرجل زانها الخطأ والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) أي: بالإتيان بما هو المقصود من ذلك ، أو بالتكفر ، أو بالكف عنه ، ولما كانت المقدمات من حيث كونها طلائع وأمارات تؤذن بوقوع ما هي وسيلة إليه ، تشابه المواعيد والأخبار عن الأمور المتوقعة ، سمى ترتب المقصود عليها الذي هو كالمدلول لها وعدم ترتبه صدقاً وكذباً)) .

وفي عون المعبود (٦ / ١٣٣ و ١٣٤) : ((إن الله كتب) أي : أثبت في اللوح المحفوظ (حظّه) أي: نصيبه (من الزنى) بالقصر على الأفصح . قال القاري : والمراد من الحظ مقدمات الزنى من التمني والتخطي والتكلم لأجله والنظر واللمس والتخلي . وقيل : أثبت فيه سببه ، وهو الشهوة والميل إلى النساء ، وخلق فيه العينين والقلب والفرج ، وهي التي تجد لذّة الزنى ، أو المعنى: قدر في الأزل أن يجري عليه الزنى في الجملة (أدرك) أي: أصاب ابن آدم ووجد (ذلك) أي ما كتبه الله وقدره وقضاه أو حظّه (لا محالة) بفتح الميم ويضم ، أي : لا بد له ، ولا فراق ، ولا احتيال منه ، فهو وقع البتة (فرنا العينين النظر) أي : حظها على قصد الشهوة فيما لا يحلّ له (وزنا اللسان المنطق) أي: التكلم على وجه الحرمة كالمواعدة (والنفس) أي: القلب ، كما في رواية عند مسلم ، ولعلّ النفس إذا طلبت تبعها القلب (تمنى) بحذف أحد التاءين (وتشتهي) لعله عدل عن سنن نهج السابق لإفادة التجدد ، أي : زنا النفس تمنّيها واشتهاؤها ووقوع الزنى

الحقيقي (والفرج يُصدق ذلك ويُكذبه) ، قال الطيبي : سَمَى هذه الأشياءَ باسم الرّنى ، لأنّها مُقدّمات له ، مُؤدّنة بِوقوعه ، ونَسَب التصديقَ والتكذيبَ إلى الفرج ، لأنّه مَنْشؤه ومكانه ، أي : يُصدّقه بالإتيان بما هو المُراد منه ، ويُكذّبه بالكف عنه . وقيل : معناه : إنْ فَعَلَ بالفرج ما هو المقصود من ذلك ، فقد صارَ الفرجُ مُصدّقًا لتلك الأعضاء ، وإنْ تَرَكَ ما هو المقصود من ذلك ، فقد صارَ الفرجُ مُكذّبًا . وقيل : معنى كَتَبَ أنّه أثبتَ عليه ذلك بأنْ خَلَقَ له الخَوَاصَّ التي يَجِدُ بها لَدّة ذلك الشيء ، وأعطاه القُوى التي بها يَقْدِرُ على ذلك الفِعْل ، فبالعينين وبمَا رَكَّبَ فِيهِمَا مِنَ القُوّة الباصرة تَجِدُ لَدّة النَّظَر ، وعلى هذا ، وليس المعنى أنّه ألجأه إليه ، وأجبره عليه ، بلْ رَكَّزَ فِي جِبَلْتِهِ خَلْقَهُ وَطَبْعَهُ _ حُبَّ الشَّهَوَاتِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ يَعْصِمُ مَنْ يَشَاءُ . وقيل : هذا ليس على عُمومه ، فَإِنَّ الخَوَاصَّ مَعْصُومُونَ عَنِ الرّنى وَمُقَدِّمَاتِهِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَبْقَى عَلَى عُمُومِهِ بِأَنْ يُقَالَ : كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ صُدُورَ نَفْسِ الرّنى ، فَمَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَنْهُ بِفَضْلِهِ ، صَدَرَ عَنْهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِهِ الظَّاهِرَةِ ، وَمَنْ عَصَمَهُ بِمَزِيدِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ عَنْ صُدُورِ مُقَدِّمَاتِهِ ، وَهُمْ خَوَاصَّ عِبَادِهِ ، صَدَرَ عَنْهُ لَا مَحَالَةَ بِمُقْتَضَى الْجِبَلَّةِ مُقَدِّمَاتِهِ الْبَاطِنَةِ ، وَهِيَ تَمَنَّى النَّفْسَ وَاشْتَهَاؤَهَا)) .

في صحيح مسلم (٣ / ١٦٩٩) : عن جرير بن عبد الله _ رضي الله عنه _ قال : ((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي)) .

سَدَّتْ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْمُطَهَّرَةُ كُلَّ الذَّرَائِعِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ ، لِذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ بِغَضِّ الْبَصَرِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْعَوْرَاتِ . وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابِيُّ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ ، أَي : الْبَغْتَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : النَّظْرَةُ الْأُولَى لِلْمَرْأَةِ الْأَجْبِيَّةِ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ وَيَبْتَئِدَ بِهِ ، وَأَلَّا يَنْظُرَ مَرَّةً ثَانِيَةً ، لِأَنَّ النَّظْرَةَ الْأُولَى إِذَا لَمْ تُكُنْ بِالْإِخْتِيَارِ فَهِيَ مَعْمُومَةٌ عَنْهَا ، فَإِنْ أَدَامَ النَّظْرَ أَثِمَ ، وَوَقَعَ فِي الْحَرَامِ .

وقد تقع العينان بَغْتَةً بدون قَصْدٍ عَلَى الْمَرْأَةِ الْأَجْبِيَّةِ ، فَعِنْدئذٍ يَصْرِفُ الْمَرْءُ نَظْرَهُ ، وَلَا يَتِمَادِي فِي التَّحْدِيقِ ، أَوْ النَّظَرِ بِشَهْوَةٍ . وَيَجِبُ غَضُّ الْأَبْصَارِ ، وَحِفْظُ الْأَعْيُنِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَجِلُّ ، فَإِنَّ النَّظْرَ رَائِدُ الشَّهْوَةِ ، وَمَبْدَأُ الْحَوَادِثِ مِنَ النَّظَرِ ، فَمَنْ أَطْلَقَ بَصَرَهُ أوردَهُ مَوَارِدَ الْهَلَاكِ .

وَعَضُّ الْبَصَرِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ يُورِثُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَلَذَّتَهُ ، الَّتِي هِيَ أَحْلَى وَأَطْيَبُ مِمَّا صَرَفَ بَصَرَهُ عَنْهُ ، وَتَرَكَهُ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَيُورِثُ نُورَ الْقَلْبِ ، وَصِحَّةَ الْفِرَاسَةِ ، بِخِلَافِ التَّعَلُّقِ بِالصُّورِ ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ فِسَادَ الْعَقْلِ ، وَعَمَى الْبَصِيرَةَ ، وَانْهِيَارَ الْقَلْبِ . وَفِي غَضِّ الْبَصَرِ تَطْهِيرَ الْقَلْبِ ، وَتَكْثِيرَ لَطَاعَةَ ، وَيُورِثُ قُوَّةَ الْقَلْبِ وَثَبَاتَهُ وَشَجَاعَتَهُ ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي هُرُوبِ الشَّيْطَانِ مِنْهُ .

والجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْ جِنْسِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، فَكَمَا أَمْسَكَ نُورَ بَصَرِهِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ ، أَطْلَقَ اللَّهُ نُورَ بَصِيرَتِهِ وَقَلْبِهِ ، فَرَأَى بِهِ مَا لَمْ يَرَهُ مَنْ أَطْلَقَ بَصَرَهُ ، وَلَمْ يَغُضَّهُ عَنِ الْمَحَارِمِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤ / ١٣٩) عن معنى " نَظَرَ الْفُجَاءَةَ " : ((أن يقع بَصَرُهُ عَلَى الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ ذَلِكَ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ فِي الْحَالِ ، فَإِنْ صَرَفَ فِي الْحَالِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ اسْتَدَامَ النَّظَرَ أَثِمَ قال القاضي : قال العلماء : وفي هذا حُجَّةٌ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْتُرَ وَجْهَهَا فِي طَرِيقِهَا ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ لَهَا ، وَيَجِبُ عَلَى الرَّجَالِ غَضُّ الْبَصَرِ عَنْهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، إِلَّا لِعَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ ، وَهُوَ حَالَةُ الشَّهَادَةِ ، وَالْمُدَاوَاةِ ، وَإِرَادَةُ حِطْبَتِهَا ، أَوْ شِرَاءِ الْجَارِيَةِ ، أَوْ الْمُعَامَلَةَ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَغَيْرِهِمَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُبَاحُ فِي جَمِيعِ هَذَا قَدْرُ الْحَاجَةِ دُونَ مَا زَادَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٥٣٠) : ((وَالغَضُّ عَنِ الْمَحَارِمِ يُوجِبُ خِلَافَةَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ ، وَمَنْ أَطْلَقَ لِحَظَاتِهِ دَامَتْ حَسْرَاتُهُ ، فَإِنَّ النَّظَرَ يُؤَلِّدُ الْمَحَبَّةَ فِي الْقَلْبِ ، ثُمَّ يَقْوَى ، فَتَصِيرُ صَبَابَةً _ حَرَارَةُ الشُّوقِ _ يَنْصَبُ إِلَيْهِ الْقَلْبُ بِكُلِّيَّتِهِ ، فَيَصِيرُ غَرَامًا يَلْزَمُ الْقَلْبَ كَلُزُومِ الْغَرِيمِ ، ثُمَّ يَقْوَى فَيَصِيرُ عِشْقًا ، وَهُوَ الْحُبُّ الْمُنْفِرُ ، ثُمَّ يَقْوَى فَيَصِيرُ شَغْفًا ، وَهُوَ الْحُبُّ الَّذِي وَصَلَ إِلَى شِعَافِ الْقَلْبِ وَدَوَاخِلِهِ ، ثُمَّ يَقْوَى فَيَصِيرُ تَتِيمًا ، وَالتَّيْمُ : التَّعْبُدُ ، فَيَصِيرُ الْمُتَيْمَ عَبْدًا إِلَى مَنْ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ هُوَ عَبْدًا لَهُ ، فَيَقَعُ الْقَلْبُ فِي الْأَسْرِ ، فَيَصِيرُ أَسِيرًا بَعْدَ مَا كَانَ أَمِيرًا ، وَمَسْجُورًا بَعْدَ مَا كَانَ طَلِيقًا . قِيلَ : وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ سِتْرَ وَجْهِهَا فِي الطَّرِيقِ ، وَعَلَى الرَّجَالِ غَضُّ الْبَصَرِ ، إِلَّا لِحَاجَةِ كَشْفِهَا وَتَطْبُوبِهَا وَمُعَامَلَةٍ)) .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٣٧٦) : عن سهل بن سعد _ رضي الله عنه _ عن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ)) .

مَنْ يَلْتَزِمُ بِأَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي عَلَى اللِّسَانِ ، وَهُوَ يَقَعُ بَيْنَ اللِّحْيَيْنِ ، وَهُمَا الْعِظْمَانِ فِي جَانِبَيْ الْقَمِّ ، فَيَجْتَنِبُ كُلَّ مَا حُرِّمَ فِعْلُهُ بِاللِّسَانِ ، كَالغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ ، وَالسَّبِّ وَالقَذْفِ ، وَمَا شَابَهَهُ ، وَيَفْعَلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ ، وَنَهْيٍ عَنِ مُنْكَرٍ ، وَكَذَلِكَ يَلْتَزِمُ بِحِفْظِ فَرْجِهِ الَّذِي بَيْنَ رِجْلَيْهِ ، كاجْتِنَابِ الرِّثَا وَفِعْلِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَتَرْكِ الْفَوَاحِشِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ ، فَيَكُونُ جَزَاءً مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ وَفَرَجَهُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْهُمَا يَنْتَظِرُهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَحُصَّ اللِّسَانُ وَالْفَرْجُ ، لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْبَلَاءِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا ، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهُمَا وُقِيَ
أَعْظَمَ الشَّرِّ ، وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ مَجْبُولٌ عَلَى شَهْوَةِ النَّسَاءِ ، فَكَذَلِكَ فِي اللِّسَانِ شَهْوَةُ الْكَلَامِ ،
فَبَعْضُ النَّاسِ يَتَلَدَّدُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ .

مَنْ يَحْفَظُ لِسَانَهُ وَفَرْجَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ سَتَكُونُ مَضمونَةً لَهُ ، لِأَنَّ هَذَيْنِ
الْعَضْوَيْنِ هُمَا مَصْدَرُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ عَلَى السَّوَاءِ . فَمَنْ اسْتَعْمَلَهُمَا فِي الْخَيْرِ ، سَارَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ
لَمْ يَحْفَظْهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ وَالْإِثْمِ ، فَسَوْفَ يَقْضِيَانِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا . وَهُوَ يَتَأَمَّرُ بِالْأَعْمَاءِ
الْإِنْسَانِيَةِ تَحَدُّدًا وَفَقَّ الْمَجَالِ الَّذِي تُسْتَعْمَدُ فِيهِ (الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ) .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ لِسَانَ الْإِنْسَانِ وَفَرْجَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ ، وَلطائفِ صُنْعِهِ الْبَدِيعَةِ ،
فَاللِّسَانُ مَعَ صِغَرِ جِزْمِهِ ، عَظِيمٌ طَاعَتُهُ وَجِزْمُهُ ، وَقَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، أَوْ دُخُولِ النَّارِ .
وَالْفَرْجُ هُوَ مَوْضِعُ الْحِفَاطِ عَلَى الشَّرْفِ وَالْأَعْرَاضِ وَالنَّسْلِ ، لِذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَهُمَا .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٢٤٣ و ٢٤٤) : ((مَنْ يَضْمَنُ) مِنَ الضَّمَانِ ، بِمَعْنَى
الْوَفَاءِ بِتَرْكِ الْمَعْصِيَةِ ، فَأُطْلِقَ الضَّمَانُ ، وَأَرَادَ لِأَزْمِهِ ، وَهُوَ أَداءُ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ (لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ)
بِفَتْحٍ فَسَكُونٌ ، هُمَا الْعَظْمَانِ بِجَانِبِي الْقَمِّ ، وَأَرَادَ بِمَا بَيْنَهُمَا اللِّسَانَ ، وَمَا يَتَأْتَى بِهِ التُّطْقُ وَغَيْرُهُ ،
فِي شَمْلِ سَائِرِ الْأَقْوَالِ وَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَسَائِرِ مَا يَتَأَدَّى بِالْقَمِّ مِنَ الْفِعْلِ ، وَالتُّطْقُ بِاللِّسَانِ أَصْلُ
كُلِّ مَطْلُوبٍ (وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ) أَي : الْفَرْجُ ، وَالْمَعْنَى : مَنْ أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي عَلَى لِسَانِهِ مِنَ التُّطْقِ
بِالْوَاجِبِ ، وَالصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْينُهُ ، وَأَدَّى الْحَقَّ الَّذِي عَلَى فَرْجِهِ مِنْ وَضْعِهِ فِي الْحَلَالِ ، وَكَفَّهَ عَنِ
الْحَرَامِ (أَضْمَنَ) بِالْجِزْمِ جَوَابُ الشَّرْطِ (لَهُ الْجَنَّةُ) أَي : دُخُولَهُ إِيَّاهَا . وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ شَهْوَةِ
الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ ، وَأَنَّهَا مُهْلِكَةٌ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى كَسْرِ شَهْوَتِهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ)) .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعَطَّرَتْ
فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ)) ^{٨٨} .

حَمَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْفَضَائِلَ ، وَحَثَّتْ عَلَيْهَا ، وَحَارَبَتْ كُلَّ صُورِ الْفَسَادِ وَأَسْبَابِهِ ، وَمَا
يُضِرُّ بِالْمُجْتَمَعِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى الْإِنْحِلَالِ الْأَخْلَاقِيِّ .

٨٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٣٠) برقم (٣٤٩٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال الحاكم
بعدهما ذَكَرَهُ : هَذَا حَدِيثٌ أَخْرَجَهُ الصَّغَائِرِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ ﴾ .

إذا وَصَعَتِ الْمَرْأَةُ الْعِطْرَ ، وَهُوَ الطَّيِّبُ الَّذِي يَظْهَرُ رِيحُهُ ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا ، فَمَرَّتْ بِمَجْلِسِ الرِّجَالِ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْمُوا رِيحَ عِطْرِهَا ، فَهِيَ زَانِيَةٌ ، أَي : مُتَعَرِّضَةٌ لِلزَّنا ، مُتَسَبِّبَةٌ فِيهِ ، حَيْثُ جَعَلَتْ الرِّجَالَ يُشْرِفُونَ لِلنَّظَرِ الْمُحْرَمِ إِلَيْهَا ، وَهُوَ زَنَا النَّظَرِ ، وَرُبَّمَا طَوَّرَ الْأَمْرَ بَعْدَهَا لِلزَّنا الْحَقِيقِيِّ . إِنَّهَا زَانِيَةٌ لِأَنَّهَا هَيَّجَتْ شَهْوَةَ الرِّجَالِ بِعِطْرِهَا ، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهَا . وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا فَقَدْ زَنِىَ بِعَيْنَيْهِ ، فَهِيَ سَبَبُ زَنِىِ الْعَيْنِ ، فَهِيَ آئِمَّةٌ .

وقال المناوي في فيض القدير (٢٧٦ / ١) : ((إذا اسْتَعْطَرَتِ الْمَرْأَةُ) استعملت العِطْرَ ، أَي : الطَّيِّبَ الظَّاهِرَ رِيحُهُ فِي بَدَنِهَا أَوْ مَلْبُوسِهَا (فَمَرَّتْ عَلَى الْقَوْمِ) الرِّجَالَ (لِيَجِدُوا) أَي : لِأَجْلِ أَنْ يَشْمُوا (رِيحَهَا) أَي : رِيحَ عِطْرِهَا (فَهِيَ زَانِيَةٌ) أَي : هِيَ بِسَبَبِ ذَلِكَ مُتَعَرِّضَةٌ لِلزَّنا ، سَاعِيَةٌ فِي أَسْبَابِهِ ، دَاعِيَةٌ إِلَى طِلَابِهِ ، فَسُمِّيَتْ لِذَلِكَ زَانِيَةً مَجَازًا ، وَمَجَامِعُ الرِّجَالِ قَلَمًا تَخْلُو مِنْ فِي قَلْبِهِ شِدَّةٌ سَبَقَ لَهَا سِيْمًا مَعَ التَّعَطُّرِ ، فَرُبَّمَا غَلَبَتْ الشَّهْوَةُ ، وَصَمَّمَ الْعَزْمَ ، فَوَقَعَ الزَّنا الْحَقِيقِيِّ ، وَمِثْلُ مُرُورِهَا بِالرِّجَالِ قُعودِهَا فِي طَرِيقِهِمْ لِيَمُرُّوا بِهَا)) اهـ . وَفِي نَفْسِ الْمَرْجِعِ (٣ / ١٤٧) : ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ) أَي : اسْتَعْمَلَتْ الْعِطْرَ ، أَي : الطَّيِّبَ ، يَعْنِي مَا يَظْهَرُ رِيحُهُ مِنْهُ (ثُمَّ خَرَجَتْ) مِنْ بَيْتِهَا (فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ) مِنَ الْأَجَانِبِ (لِيَجِدُوا رِيحَهَا) أَي بِقَصْدِ ذَلِكَ (فَهِيَ زَانِيَةٌ) أَي : كَالزَّانِيَةِ فِي حُصُولِ الْإِثْمِ ، وَإِنْ تَفَاوَتْ ، لِأَنَّ فَاعِلَ السَّبَبِ كِفَاعِلِ الْمُسَبَّبِ . قَالَ الطَّيِّبِيُّ : شَبَّهَ خُرُوجَهَا مِنْ بَيْتِهَا مُتَطَيِّبَةً مُهَيَّجَةً لِشَهْوَاتِ الرِّجَالِ الَّتِي هِيَ بِمَنْزِلَةِ رَائِدِ الزَّنا ، بِالزَّنا ، مُبَالَغَةً وَتَهْدِيدًا وَتَشْدِيدًا عَلَيْهَا (وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ) أَي : كُلُّ عَيْنٍ نَظَرَتْ إِلَى مُحْرَمٍ مِنْ امْرَأَةٍ أَوْ رَجُلٍ ، فَقَدْ حَصَلَ لَهَا حَظُّهَا مِنَ الزَّنا ، إِذْ هُوَ حَظُّهَا مِنْهُ . وَأَخَذَ بَعْضُ الْمَالِكِيَّةِ مِنَ الْحَدِيثِ حُرْمَةَ التَّلَدُّدِ بِشَمِّ طَيْبٍ أَجْنَبِيَّةٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا زَجَرَ الشَّرِيعَةَ عَمَّا يُضَارِعُهُ مُضَارَعَةً قَرِيبَةً ، وَقَدْ بَالِغَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ حَتَّى كَانَ ابْنُ عُمَرَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ يَنْهَى عَنِ الْقُعودِ بِمَحَلِّ امْرَأَةٍ قَامَتْ عَنْهُ حَتَّى يَبْرُدَ ، أَمَّا التَّطْيِيبُ وَالتَّزْيِينُ لِلزَّوْجِ فَمَطْلُوبٌ مَحْبُوبٌ . قَالَ بَعْضُ الْكُفْرَاءِ : تَزْيِينُ الْمَرْأَةِ وَتَطْيِيبُهَا لِزَوْجِهَا مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْمَحَبَّةِ وَالْأُلْفَةِ بَيْنَهُمَا ، وَعَدَمُ الْكِرَاهَةِ وَالتَّنْفَرَةِ ، لِأَنَّ الْعَيْنَ رَائِدُ الْقَلْبِ ، فَإِذَا اسْتَحْسَنْتُ مَنْظَرًا أَوْصَلْتُهُ إِلَى الْقَلْبِ ، فَحَصَلَتْ الْمَحَبَّةُ ، وَإِذَا نَظَرْتُ مَنْظَرًا بَشَعًا أَوْ مَا لَا يُعْجِبُهَا مِنْ زَيٍّْ أَوْ لِيَّاسٍ ، تُلْقِيهِ إِلَى الْقَلْبِ ، فَتَحْصُلُ الْكِرَاهَةُ وَالتَّنْفَرَةُ ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ وَصَايَا نِسَاءِ الْعَرَبِ لِبَعْضِهِنَّ إِيَّاكَ أَنْ تَقَعَ عَيْنُ زَوْجِكَ عَلَى شَيْءٍ لَا يَسْتَمْلِحُهُ أَوْ يَشْمُ مِنْكَ مَا يَسْتَقْبِحُهُ)) اهـ . وَفِي نَفْسِ الْمَرْجِعِ (٥ / ٢٧) : ((كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ) يَعْنِي : كُلُّ عَيْنٍ نَظَرَتْ إِلَى أَجْنَبِيَّةٍ عَنْ شَهْوَةٍ ، فَهِيَ زَانِيَةٌ ، أَي : أَكْثَرُ الْعُيُونِ لَا تَنْفَكُ مِنَ النَّظَرِ مُسْتَحْسِنًا ، وَذَلِكَ زَنَاها ، أَي : فَلْيَحْذَرُ مِنَ النَّظَرِ ،

ولا يدع أحد العصمة من هذا الخطر . فقد قال المصطفى ﷺ لعليّ مع جلالته: " يا عليّ ، لا تتبع النظرة النظرة " (والمرأة) في نسخة فالمرأة بالفاء (إذا استعظرت فمرت بالمجلس) فقد هيّجت شهوة الرجال بعطرها ، وحملتهم على النظر إليها ، فكل من ينظر إليها ، فقد زنى بعينه ، ويحصل لها إثم ، لأنها حملته على النظر إليها ، وشوّشت قلبه ، فإذن هي سبب زناه بالعين (فهي) أيضاً (زانية) وفي رواية : فهي كذا وكذا ، يعني زانية)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [التور : ٣١] .

وقل يا محمد للمؤمنات من أمتك يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه ، ويحفظن فروجهن بالتصون عن الزنا ، وسترها حتى لا يراها أحد . وكما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة بشهوة ، لا يحل للمرأة أن تنظر إلى الرجل بشهوة ، فإن علاقته بها كعلاقتها به ، وقصده منها كقصدها منه . لقد أمر الله النساء بما أمر به الرجال ، وقدم غض الأبصار على حفظ الفروج ، لأن النظر بريد الزنا ، وطريق الفساد ، ورائد القلب ، كما أن الحمى رائد الموت . وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

ألم تر أن العين للقلب رائدٌ فما تألف العينان فالقلب آلف

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٧٨) عن الآية: ((هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيره منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية، وفعل المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا _ والله أعلم _ أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثدة كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات ، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذواتهن ، فقالت أسماء: ما أقيح هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية ، فقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ، أي: عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ، قال سعيد بن جبیر : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ أن لا يراها أحد)) .

وقال الشوكاني فتح القدير (٤ / ٣٤) : ((« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » .
 خَصَّ سُبْحَانَهُ الْإِنَاثَ بِهَذَا الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقِ التَّأَكِيدِ لِدُخُولِهِنَّ تَحْتَ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ تَغْلِيْبًا ،
 كَمَا فِي سَائِرِ الْخِطَابَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ ، وَظَهَرَ التَّضْعِيفُ فِي يَغْضُضْنَ ، وَلَمْ يَظْهَرْ فِي يَغْضُوا ، لِأَنَّ لَامَ
 الْفِعْلِ مِنَ الْأَوَّلِ مُتَحَرِّكَةٌ ، وَمِنَ الثَّانِي سَاكِنَةٌ ، وَهُمَا فِي مَوْضِعِ جَزْمٍ جَوَابًا لِلْأَمْرِ ، وَبَدَأَ سُبْحَانَهُ
 بِالْعَضِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ قَبْلَ حِفْظِ الْفَرْجِ ، لِأَنَّ النَّظَرَ وَسِيلَةٌ إِلَى عَدَمِ حِفْظِ الْفَرْجِ ، وَالْوَسِيلَةُ مُقَدِّمَةٌ
 عَلَى الْمُتَوَسَّلِ إِلَيْهِ . وَمَعْنَى : « يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ » ، كَمَعْنَى : « يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » ،
 فَيَسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى تَحْرِيمِ نَظَرِ النِّسَاءِ إِلَى مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِنَّ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِنَّ حِفْظَ فُرُوجِهِنَّ عَلَى
 الْوَجْهِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي حِفْظِ الرِّجَالِ لِفُرُوجِهِمْ)) .

ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الرِّجَالِ الْأَجَانِبِ بِشَهْوَةٍ ، وَلَا بِغَيْرِ
 شَهْوَةٍ أَصْلًا . وَاحْتَجُّوا بِالْحَدِيثِ : عَنْ ابْنِ شِهَابٍ _ الزُّهْرِيِّ _ عَنْ نَبِيَّانَ ، مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، أَنَّهُ
 حَدَّثَهُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ حَدَّثَتْهُ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِيمُونَةَ ، قَالَتْ : فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ
 أُمِّ مَكْنُومٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أَمَرْنَا بِالْحِجَابِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((اخْتَجِبَا مِنْهُ)) ،
 فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا وَلَا يَعْرِفُنَا ؟ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((أَفَعَمِيَاوَانِ
 أَنْتُمَا ؟ ، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ ؟)) ^{٨٩} .

أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ زَوْجَتَيْهِ أَنْ تَحْتَجِبَا عَنِ الرِّجَالِ ، وَلَوْ كَانَ أَعْمَى ، لَكَرِيمٌ مَقَامَهُنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ .
 وَالْأَمْرُ لِنِسَائِهِ ﷺ أَمْرٌ لِنِسَاءِ أُمَّتِهِ . وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ مُرَاجَعَةِ الْمَرْأَةِ لَزَوْجِهَا .

٨٩ رواه الترمذي في سننه (٥/١٠٢) وقال: حسن صحيح، وأبو داود في سننه (٢/٤٦٢) وسكت عنه.
 وقد ضعَّف بعضُ العلماءِ هذا الحديثَ لجهالةِ نَبِيَّانَ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ ، وَصَحَّحَهُ
 آخِرُونَ رُبَّمَا لكَثْرَةِ طُرُقِهِ عَنْهُ . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (٣ / ٥٨) : ((أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ
 وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ)) اهـ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٠ / ٩٧) : ((وَهَذَا
 الْحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَلَا يُتَّقَتُ
 إِلَى قَدْحٍ مَن قَدَحَ فِيهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ مُعْتَمَدَةٍ)) اهـ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٩ / ٣٣٧) : ((وَهُوَ حَدِيثٌ
 أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ نَبِيَّانَ مَوْلَى أُمِّ سَلَمَةَ عَنْهَا ، وَإِسْنَادُهُ قَوِيٌّ ، وَأَكْثَرُ مَا غُلِّلَ بِهِ
 انْفِرَادَ الزُّهْرِيِّ بِالرِّوَايَةِ عَنْ نَبِيَّانَ ، وَلَيْسَتْ بِعِلَّةٍ قَادِحَةٍ ، فَإِنَّ مَنْ يَعْرِفُهُ الزُّهْرِيُّ وَيَصِفُهُ بِأَنَّهُ مُكَاتِبٌ أُمَّ
 سَلَمَةَ ، وَلَمْ يَجْرَحْهُ أَحَدٌ ، لَا تُرَدُّ رِوَايَتُهُ)) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٨ / ٥١) : ((قيل : فيه تحريم نظر المرأة إلى الأجنبي مُطلقاً ، وبعض خصه بحال خوف الفتنة عليها ، جمعاً بينه وبين قول عائشة : كنت أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم في المسجد . ومن أطلق التحريم قال : ذلك قبل آية الحجاب ، والأصح أنه يجوز نظر المرأة إلى الرجل فيما فوق السرة وتحت الركبة بلا شهوة . وهذا الحديث مَحْمُولٌ عَلَى الْوَرَعِ وَالتَّقْوَى . قال السيوطي رحمه الله : كان النظر إلى الحبشة عام فُؤدومهم سنة سبع ، ولعائشة يومئذ ست عشرة سنة ، وذلك بعد الحجاب ، فُيَسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى جَوَازِ نَظَرِ الْمَرْأَةِ إِلَى الرَّجُلِ . انتهى . وبدليل أنهن كُنَّ يَحْضُرْنَ الصَّلَاةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ نَظَرُهُنَّ إِلَى الرَّجَالِ ، فَلَوْ لَمْ يَجْزُ لَمْ يُؤْمَرَنَّ بِحَضُورِ الْمَسْجِدِ وَالْمُصَلَّى ، وَلَئِنَّهُ أُمِرَتْ النِّسَاءُ بِالْحِجَابِ عَنِ الرَّجَالِ ، وَلَمْ يُؤْمَرْ الرَّجَالُ بِالْحِجَابِ ، كَذَا فِي الْمِرْقَاةِ . وقال أبو داود في سننه بعد رواية حديث أم سلمة هذا ما لفظه : هذا لأزواج النبي ﷺ خاصة ، ألا ترى إلى اعتداد فاطمة بنت قيس عند ابن أم مكتوم . قد قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس : " اَعْتَدِي عِنْدِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ ثِيَابَكَ عِنْدَهُ " . انتهى . وقال الحافظ في التلخيص : هذا جمع حسن ، وبه جمع المندري في حواشيه ، واستحسنه شيخنا . انتهى . وقال في الفتح : الأمر بالاحتجاب من ابن مكتوم لِعَلِمِهِ لِكَوْنِ الْأَعْمَى مَظْنَةً أَنْ يَنْكَشِفَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَشْعُرُ بِهِ ، فَلَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ جَوَازِ النَّظَرِ مُطْلَقًا . قال : ويُؤَيِّدُ الْجَوَازِ اسْتِمْرَارَ الْعَمَلِ عَلَى جَوَازِ خُرُوجِ النِّسَاءِ إِلَى الْمَسَاجِدِ وَالْأَسْوَاقِ وَالْأَسْفَارِ مُنْتَقِبَاتٍ ، لئلا يَرَاهُنَّ الرَّجَالُ ، وَلَمْ يُؤْمَرْ الرَّجَالُ قَطُّ بِالِانْتِقَابِ لئلا يَرَاهُمُ النِّسَاءُ ، فَدَلَّ عَلَى مُغَايَرَةِ الْحُكْمِ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٩٦) : ((الصحيح الذي عليه جمهور العلماء وأكثر الصحابة أنه يحرم على المرأة النظر إلى الأجنبي ، كما يحرم عليه النظر إليها ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ، ولأن الفتنة مشتركة ، وكما يخاف الافتتان بها ، تخاف الافتتان به ، ويدل عليه من السنة حديث نهبان مولى أم سلمة وأما حديث فاطمة بنت قيس مع ابن أم مكتوم ، فليس فيه إذن لها في النظر إليه ، بل فيه أنها تأمن عنده من نظر غيرها ، وهي مأمورة بغض بصرها ، فيمكنها الاحتراز عن النظر بلا مشقة ، بخلاف مكثها في بيت أم شريك)) .

إن خوف الفتنة هو سبب تحريم نظر الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل . وهذا في المرأة أبلغ ، فإنها أشد شهوة ، وأقل عقلاً ، فتسارع إليها الفتنة أكثر من الرجل .

وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ نَظَرِ النِّسَاءِ إِلَى الْأَجَانِبِ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ ، فَعَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ قَالَتْ : ((وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ عَلَيَّ بَابَ حُجْرَتِي ، وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ بِحِزَابِهِمْ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَسْتُرُنِي بِرِدَائِهِ ، لِكَيْ أَنْظُرَ إِلَيَّ لَعِبِهِمْ ، ثُمَّ يَقُومُ مِنِّي أَجْلِبِي حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أَنْصَرِفُ)) ٩٠ .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّ زَوْجَتَهُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانَ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهَا مِثَالًا وَقُدْوَةً فِي حُسْنِ الْعِشْرَةِ ، وَعَلَّمَ أُمَّتَهُ كَثِيرًا مِنَ السُّنَنِ فِي مُرَاعَاةِ سِنِ الزَّوْجَةِ وَعَقْلِهَا ، وَتَلْبِيَةِ بَعْضِ حَاجَاتِهَا مِنَ الْمُبَاحَاتِ .

رَأَتِ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ النَّبِيَّ ﷺ وَاقِفًا يَوْمًا عَلَيَّ بَابِ حُجْرَتِهَا ، وَالْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ بِحِزَابِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ ، وَالْحَبَشَةُ هُمْ جِنْسٌ مِنْ أَجْنَاسِ السُّودَانِ ، وَكَانَ مِنْهُمْ الْعَبِيدُ وَالْخَدَمُ السُّودُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتُرُ عَائِشَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا _ بِثِيَابِهِ لِنَظَرِ إِلَى لَعِبِهِمْ ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ إِلَى جَانِبِهِ ﷺ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَتُشَاهِدُ أَلْعَابَهُمُ الْحَرِيَّةَ .
وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَجَمِيلِ مُعَاشَرَتِهِ لِأَهْلِهِ ، وَبَيِّنِ فَضْلَ عَائِشَةَ وَمَنْزِلَتِهَا الرَّفِيعَةَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ . وَفِي الْحَدِيثِ : مَشْرُوعِيَةُ اللَّعْبِ بِالرِّمَاحِ وَمَا يُشْبِهُهَا _ كَالْعِصِيِّ _ مَا لَمْ تَشْتَمَلْ عَلَى مُحَرَّمٍ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٦ / ١٨٤) : ((فِيهِ جَوَازُ اللَّعْبِ بِالرِّمَاحِ وَنَحْوِهِ مِنْ آيَاتِ الْحَرْبِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ مَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى الْجِهَادِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ ، وَفِيهِ جَوَازُ نَظَرِ النِّسَاءِ إِلَى لَعِبِ الرِّجَالِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى نَفْسِ الْبَدَنِ ، وَأَمَّا نَظَرُ الْمَرْأَةِ إِلَى وَجْهِ الرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ ، فَإِنْ كَانَ بِشَهْوَةٍ فَحَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ شَهْوَةٍ وَلَا مَخَافَةَ فِتْنَةٍ ، فَفِي جَوَازِهِ وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا ، أَصَحُّهُمَا تَحْرِيمُهُ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ _ لِرُؤُوسِهِنَّ _ : ((اِحْتَجِبَا مِنْهُ)) ، أَي : مِنْ ابْنِ أُمَّ مَكْتُومٍ ، ... ، _ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ _ . وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَقَالَ : هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ ، وَعَلَى هَذَا أَجَابُوا عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ بِجَوَابَيْنِ ، وَأَقْوَاهُمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا نَظَرٌ إِلَى وَجُوهِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَإِنَّمَا نَظَرَتْ إِلَى لَعِبِهِمْ وَحِزَابِهِمْ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ تَعَمُّدُ النَّظَرِ إِلَى الْبَدَنِ ، وَإِنْ وَقَعَ النَّظَرُ بِلَا قَصْدٍ صَرَفَتْهُ فِي الْحَالِ ، وَالثَّانِي : لَعَلَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ فِي تَحْرِيمِ النَّظَرِ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ صَغِيرَةً

٩٠ متفق عليه ، واللفظ لمسلم (٢ / ٦٠٧) برقم (٨٩٢) . والبخاري (١ / ١٧٣) برقم (٤٤٣) .

قبل بلوغها ، فلم تكن مكلفة على قول من يقول إن للصغير المراهق النظر ، والله أعلم . وفي هذا الحديث بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من الرأفة ، والرّحمة ، وحسن الخلق ، والمعاشرة بالمعروف مع الأهل والأزواج وغيرهم)) .

وقال الحافظ في الفتح (٣٣٦ / ٩) : ((في بعض طرقه _ يعني الحديث _ أنّ ذلك كان بعد قُدم وفد الحبشة ، وأنّ قُدمهم كان سنة سبع ، ولعائشة يومئذ ست عشرة سنة ، فكانت بالغة ، وكان ذلك بعد الحجاب)) .

وروى أبو داود في سننه (٤٦١ / ٢) عن ابن عباس : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية، فَنَسِخَ وَاسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية. وفي عون المعبود (١١٣/١١): ((فَنَسِخَ وَاسْتُثْنِيَ مِنْ ذَلِكَ) أي: المذكور، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية. والفعلان على البناء للمفعول ، ونائب فاعلهما هو قوله : ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الخ . ﴿ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ ، أي : اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكيهن ﴿ اللاتي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ الآية . وتَمَامُ الآية : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . والحاصل أنّ الآية الأولى بعمومها كانت شاملة للقواعد من النساء أيضًا، فلما نزلت الآية الثانية خَرَجْنَ مِنْ حُكْمِ الآية الأولى، فلهنَّ أن لا يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ . قال المُنْذَرِي : في إسناده علي بن الحسين بن واقد، وفيه مقال)) .

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ . لقد أكد الله الأمر للمؤمنات بغضّ الأبصار وحفظ الفُروج ، وزادهن في التّكليف على الرّجال بالتهني عن إبداء الزّينة إلا للمحارم ، أي : ولا يَكْشِفْنَ زِينتهن للأجانب إلا ما ظهر منها بالوجه والكفّين .

لا تُظْهِرُ النِّسَاءُ زِينتهنَّ للأجانب (غَيْرَ المَحَارِمِ) ، وذلك مُنْعًا لِلْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ ، وهذا يعني أيضًا حُرْمَةَ إِظْهَارِ مَوَاضِعِ الزِّينَةِ مِنْ أَجْسَامِهِنَّ . وَالزِّينَةُ الْمَنْهِيَّةُ عَنْ إِظْهَارِهَا هِيَ الزِّينَةُ الْخَفِيَّةُ ، وهي ما عدا الوجه والكفّين .

وقال البَغَوِي في تفسيره (٣٢ / ١) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ ، أي: لا يُظْهِرْنَ زِينتهن لِغَيْرِ مَحْرَمٍ ، وأراد بها الزّينة الْخَفِيَّةُ ، وهما زِينتان خَفِيَّةٌ وَظَاهِرَةٌ ، فَالْخَفِيَّةُ : مِثْلُ الْخَلْخَالِ وَالْخِصَابِ _ كَالْحِنَاءِ _ فِي الرَّجُلِ ، وَالسَّوَارِ فِي الْمِعْصَمِ ، وَالْفُرْطُ وَالْقَلَانِدُ ، فَلَا يَجُوزُ لَهَا إِظْهَارُهَا ، وَلَا لِلْأَجْنَبِيِّ النَّظَرَ إِلَيْهَا . وَالْمُرَادُ مِنَ الزِّينَةِ مَوْضِعِ الزِّينَةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ ، أَرَادَ بِهِ الزِّينَةَ الظَّاهِرَةَ . وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي اسْتَشْنَاهَا اللَّهُ تَعَالَى .

قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي : هو الوجه والكفان . وقال ابن مسعود : هي الثياب بدليل قوله تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وأراد بها الثياب . وقال الحسن : الوجه والثياب . وقال ابن عباس : الكحل والخاتم والخضاب في الكف . فما كان من الزينة الظاهرة ، جاز للرجل الأجنبي النظر إليه إذا لم يخف فتنه وشهوة ، فإن خاف شيئاً منها غص البصر ، وإنما رخص في هذا القدر أن تبيده المرأة من بدنها ، لأنه ليس بعورة ، وتؤمر بكشفه في الصلاة ، وسائر بدنها عورة يلزمها ستره)) .

والآية ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ استثناء ما يظهر من الزينة ، وهي الزينة الظاهرة (الوجه والكفان) ، وهذا التفسير هو المشهور عند الجمهور . وفي الغالب ، يظهر الوجه والكفان في العادات والعبادات والمعاملات . وبشكل عام ، يجب على المرأة أن تستر نفسها قدر المستطاع ، وتحرص على عدم إظهار مفاصلها ، خصوصاً في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفواحش والشهوات ، وارتفعت معدلات العنوسة ، وفتحت أبواب المحرمات على مصاريعها ، فصار الرنا أسهل من الزواج ، وصارت العلاقات بين الجنسين سهلة ومكشوفة . وعمت البلوى ، واختلط الخابل بالنايل ، في ظل عجز كثير من الشباب عن الزواج بسبب المغالاة في المهور ، وارتفاع تكاليف الزواج .

ولا بد من إنشاء صندوق وطني لتزويج الشباب ، ومساعدتهم على إنشاء أسر صالحة . والشهوة إن لم يتم تفرغها في المجال المباح (الزواج) ، فسوف تحرق المجتمع ، وتسبب كوارث نفسية ، وتصنع أزمات اجتماعية لا حصر لها .
والفضية _ بلا مبالغة _ قضية أمن قومي ، لأن الشباب هم العمود الفقري للأمة ، وحراس الحضارة . وإذا ضاعوا ضاع الوطن ، وانتهت الحضارة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٠٥) : ((واختلف الناس في قدر ذلك _ يعني قدر ما يظهر من الزينة _ ، فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب ، وزاد ابن جبير : الوجه . وقال سعيد بن جبير أيضاً وعطاء والأوزاعي : الوجه والكفان والثياب ، وقال ابن عباس وقتادة والمسنور ابن مخزومة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار ، ...)) .

وعن عبد الله _ رضي الله عنه _ : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ ، قال : ((لا خلخال ، ولا شنف ، وهو قرط يعلق في أعلى الأذن ، ولا قرط ، ولا قلادة ، إلا ما ظهر منها)) ، قال : ((الثياب))^{٩١} .

٩١ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٣١) برقم (٣٤٩٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

هذا يدلُّ على أنَّ عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ كان يرى وجوب تغطية المرأة لوجهها وكفِّها ، وسائر جسمها ، وأنَّ جسمها كُلُّه غورة بلا استثناء .
وعن عائشة _ رضي الله عنها _ : أنَّ أسماء بنت أبي بكرٍ دَخَلَتْ على رسول الله ﷺ ،
وعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِفاق ، فأعرضَ عنها رسولُ الله ﷺ ، وقال : ((يا أسماء ، إِنَّ المرأةَ إذا بَلَغَتْ
المَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أن يُرى مِنْها إلا هذا وهذا _ وأشار إلى وَجْهِه وكَفِّيه _)) ٩٢ .
على المرء أن يحتاط لِدِينِهِ ، ويحصر على عدم النظر إلى النساءِ بِشَهْوَةٍ أو بِدُونِ شَهْوَةٍ ،
فلا أحد يَعْرِفُ قَلْبَهُ عِنْدَ الْفِتَنِ . والعاقِلُ لا يُعْرِضُ نَفْسَهُ لِلْفِتَنِ . ومعلومٌ أنَّ فِتْنَةَ النِّسَاءِ قاسية
وشديدة للغاية لا يَسَلِّمُ مِنْها إلا الأولياءُ الأتقياءُ . فالرَّجُلُ مَجْبُولٌ على حُبِّ المرأة ، والميل إليها .
وهذا الأمرُ قد يَدْفَعُهُ إلى انتهاك المُحَرَّماتِ للظَّفَرِ بها ، وتحقيقِ شَهْوَتِهِ وشَهْوَتِهَا .
وعن أُسامَةَ بن زيد _ رضي الله عنهما _ : عن النبي ﷺ قال : ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضْرَّرَ
على الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)) ٩٣ .

لا أحد أقدر على فِتْنَةِ الرَّجُلِ وإغرائه وإغوائه مِنَ المرأةِ السُّوءِ ، لِقُوَّةِ تأثيرها عليه عاطفياً ،
وإذا كانت المرأةُ صالحةً أصلحت المجتمعَ ، أو زادتُه صلاحاً ، أو خَفَّفَتْ مِنْ فسادِهِ ، وإذا كانت
فسادةً أفسدت المجتمعَ والبيْتَ . والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ بِقُوَّةِ الدِّينِ والعزيمة والإرادة .
والنبيُّ ﷺ يُحذِّرُ أُمَّتَهُ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاءِ ، وَأَنَّهَا أَكْثَرُ الْفِتَنِ ضَرراً على الرَّجَالِ ، ووجهُ فِتْنَتِهِمْ أنَّ
المرأةَ إذا كانت زوجةً ، فَإِنَّهَا قد تُكَلِّفُ الرَّجُلَ مِنَ النَّفَقَةِ ما لا يُطِيقُ أحياناً ، فَتَشْغَلُهُ عَن طَلَبِ
أُمُورِ الدِّينِ ، وَتَحْمِلُهُ على التهاكُّك على طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَتَكُونُ فِتْنَتَهُمْ أحياناً بإغراءِ الرَّجَالِ وإمالتهم
عن الحقِّ إذا خَرَجْنَ واختَلَطْنَ بهم ، خُصُوصاً إذا كُنَّ سافراتٍ مُتَبَرِّجاتٍ ، مِمَّا قد يُؤدِّي إلى
الوقوعِ في الزَّنا بِدَرَجَاتِهِ ، فيجب على المؤمن الاعتصام بالله تعالى ، والرَّغْبَةُ إليه في النَّجاةِ مِنَ

٩٢ رواه أبو داود في سننه (٢ / ٤٦٠) ، وقال : ((هذا مُرْسَلٌ خالِد بن دُرَيْك ، لم يُدرك عائشة
_ رضي الله عنها _)) اه . وقال الزَّيْلَعِيُّ في نَصْبِ الرِّايَةِ (١ / ٢٤١) : ((قال ابن القَطَّانِ : ومع هذا
فخالِدٌ مجهول الحال . قال المُنْذَرِيُّ : وفيه أيضاً سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البَصْرِيُّ نزيل دمشق مؤلَّى
بني نَضْرٍ تكَلَّم فيه غير واحد . وقال ابن عَدِي في "الكامل" : هذا حديث لا أعلم رواه عَن قَتادةٍ غير
سعيد بن بشير ، وقال فيه مرَّةً : عن خالِد بن دُرَيْك عن أمِّ سَلَمَةَ بدل : عائشة ، انتهى كلامه)) .
٩٣ متفق عليه . البخاري (٥ / ١٩٥٩) برقم (٤٨٠٨) ، ومسلم (٤ / ٢٠٩٧) برقم (٢٧٤٠) .

ففتنتهن ، والسلامة من شرهن . وقال الحافظ في الفتح (١٣٨ / ٩) : ((وفي الحديث أَنَّ الفِتنَةَ بالنِّسَاءِ أَشدُّ مِنَ الفِتنَةِ بِغَيْرِهِنَّ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، فَجَعَلَهُنَّ مِنْ حُبِّ الشَّهَوَاتِ ، وَبَدَأَ بِهِنَّ قَبْلَ بَقِيَّةِ الْأَنْوَاعِ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُنَّ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ ، وَيَقَعُ فِي الْمَشَاهِدَةِ حُبُّ الرَّجُلِ وَلَدًّا مِنْ امْرَأَتِهِ الَّتِي هِيَ عِنْدَهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ وَلَدِهِ مِنْ غَيْرِهَا . وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ قِصَّةُ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ فِي الْهَبَةِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : النَّسَاءُ شَرُّ كُلِّهِنَّ ، وَأَشْرُّ مَا فِيهِنَّ عَدَمُ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُنَّ ، وَمَعَ أَنَّهَا نَاقِصَةُ الْعَقْلِ وَالذِّينِ تَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى تَعَاطِي مَا فِيهِ نَقْصُ الْعَقْلِ وَالذِّينِ ، كَشَغْلِهِ عَنِ طَلَبِ أُمُورِ الدِّينِ ، وَحَمَلِهِ عَلَى التَّهَالُكِ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ أَشَدُّ الْفَسَادِ)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٤٣٦ / ٥) : ((مَا تَرَكْتُ) فِي رِوَايَةِ مَا أَدْعَى (بَعْدِي فِتْنَةٌ أَضْرَّ) فِي رِوَايَةِ لِمُسْلِمٍ هِيَ أَضْرَّ (عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ) لِأَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَأْمُرُ زَوْجَهَا إِلَّا بِشَرِّ ، وَلَا تَحْتَهُ إِلَّا عَلَى شَرِّ ، وَأَقْلَ فِسَادِهَا أَنْ تُرَغِّبَهُ فِي الدُّنْيَا لِتِهَالِكِ فِيهَا ، وَأَيُّ فِسَادٍ أَضْرَّ مِنْ هَذَا ، مَعَ مَا هُنَالِكَ مِنْ مَظَنَّةِ الْمَيْلِ بِالْعِشْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فِتْنٍ وَبِلَايَا وَمَحَنٍ ، يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْحَصْرِ . قَالَ الْحَبْرُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : لَمْ يَكْفُرْ مَنْ كَفَرَ مِمَّنْ مَضَى إِلَّا مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ ، وَكُفِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ . وَأَرْسَلَ بَعْضُ الْخُلَفَاءِ إِلَى الْفُقَهَاءِ بِجَوَائِزٍ فَقَبِلُوهَا ، وَرَدَّهَا الْفُضَيْلُ ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : تَرُدُّ عَشْرَةَ آلَافٍ وَمَا عِنْدَنَا قُوَّةٌ يَوْمَنَا ؟ ، فَقَالَ : مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَقَوْمٍ لَهُمْ بَقْرَةٌ يَحْرَثُونَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا هَرِمَتْ ذَبَحُوهَا ، وَكَذَا أَنْتُمْ أَرَدْتُمْ ذَبْحِي عَلَى كِبَرِ سِنِّي . مُوتُوا جُوعًا قَبْلَ أَنْ تَذْبَحُوا فُضَيْلًا . وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ يَقُولُ _ وَقَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَمَانُونَ سَنَةً مِنْهَا خَمْسُونَ يُصَلِّي فِيهَا الصُّبْحَ بِوُضوءِ الْعِشَاءِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى قَدَمَيْهِ يُصَلِّي _ : مَا شَيْءٌ أَخَوْفَ عِنْدِي عَلَيَّ مِنَ النِّسَاءِ . وَقِيلَ : إِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا خُلِقَتْ الْمَرْأَةُ ، قَالَ : أَنْتِ نِصْفُ جُنْدِي ، وَأَنْتِ مَوْضِعُ سِرِّي ، وَأَنْتِ سَهْمِي الَّذِي أَرْمِي بِكَ فَلَا أُخْطِي أَبَدًا . وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ : " بَعْدِي " لِأَنَّ كَوْنَهُنَّ فِتْنَةٌ صَارَ بَعْدَهُ أَظْهَرَ وَأَشْهَرَ وَأَضْرَّ . قَالَ فِي الْمَطَامِحِ : فِيهِ أَنَّهُ يَحْدُثُ بَعْدَهُ فِتْنٌ كَثِيرَةٌ فَهُوَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ غَيْبٍ وَقَدْ وَقَعَ .

إِنَّ فِتْنَةَ النِّسَاءِ هِيَ الْإِمْتِحَانُ بِهِنَّ ، وَالْإِبْتِلَاءُ بِمَحَبَّتِهِنَّ ، وَيُسْتَعَاذُ مِنْ فِتْنَتِهِنَّ لِأَنَّهَا أَضْرُّ الْفِتَنِ وَأَعْظَمُ الْمَحَنِ . وَالرَّجُلُ يَمِيلُ إِلَيْهِنَّ ، وَيَقَعُ فِي الْحَرَامِ لِأَجْلِهِنَّ ، وَيَسْعَى لِلْقِتَالِ وَالْعِدَاوَةِ بِسَبَبِهِنَّ ، وَيُرْغَبُنَّهُ فِي الدُّنْيَا ، وَهَذَا فِسَادٌ عَظِيمٌ . وَالنِّسَاءُ حِبَائِلُ الشَّيْطَانِ ، أَي : مَصَائِدُهُ . وَالْمَرْأَةُ السُّوءُ عَلَى زَوْجِهَا كَالْحِمْلُ الثَّقِيلُ عَلَى الشَّيْخِ الْكَبِيرِ ، وَالْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ كَالتَّاجِ الْمُرْصَعِ بِالذَّهَبِ ، كُلَّمَا رَأَاهَا قَرَّتْ عَيْنُهُ بِرُؤَيْتِهَا .

والمراة الصالحة هي صاحبة الدين، العفيفة، الجميلة ظاهراً وباطناً، الصالحة للاستمتاع بها، التي إذا نظر إليها زوجها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا حصر أو غاب حفظته في نفسها وماله ومنزله، بحيث لا تخونه في نفسه، ولا في ماله.

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٤٦٥) : ((قال القاضي : المرأة الصالحة أنفع من الذهب ، فإن الذهب لا ينفع إلا بعد الذهاب ، وهي ما دامت معك رفيقتك، تنظر إليها تسرك، وتقضي إليها عند الحاجة وطرك، وتشاورها فيما يعن (يعرض) لك فتحفظ سرك ، وتستمد منها في حوائجك، فتطيع أمرك ، وإذا غبت تحامي مالك ، وترعى عيالك)) اهـ . وفي نفس المرجع (٢ / ٢٥٢) : ((ولو لم يكن لها - للزوجة الصالحة - إلا أنها تحفظ بذره، وتربي زرعها، فيحصل بسببها ولد يكون له وزيراً في حياته وخليفةً بعد وفاته لكفى)) .

وفي صحيح مسلم (٢ / ١٠٩٠) أن النبي ﷺ قال : ((الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)) . الدنيا متاع (ما ينتفع ويستمتع به الإنسان) ، وخير متاع الدنيا للرجل الزوجة صاحبة الدين ، التي يفرح بالنظر إليها، وبطاعتها له ، وهي عفيفة تحفظ نفسها إذا غاب عنها، وأمانة تحفظ ماله، فهي صالحة في دينها ونفسها ، ومصلحة لحال زوجها .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٥٤٨ و ٥٤٩) : ((الدنيا كلها متاع) هي مع دناءتها إلى فناء ، وإنما خلق ما فيها لأن يستمتع به مع حقايره أمداً قليلاً ، ثم ينقضي ، والمتاع ما ليس له بقاء (وخير متاعها المرأة الصالحة) قال الطيبي : المتاع من التمتع بالشيء ، وهو الانتفاع به ، وكل ما ينتفع به من عروض الدنيا متاع ، والظاهر أن المصطفى ﷺ أخبرنا بأن الاستمتاع الدنيوية كلها حقيرة ، ولا يؤبه بها ، وذلك أنه تعالى لما ذكر أصنافها وملاذها في آية : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ أتبعه بقوله : ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، ثم قال بعده : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ ﴾ ، اهـ . قال الحرالي : فيه إيماء إلى أنها أطيب حلال في الدنيا، أي : لأنه سبحانه زين الدنيا بسبعة أشياء ذكرها بقوله : ﴿ زَيْنَ النَّاسِ ﴾ الآية، وتلك السبعة هي ملاذها، وغاية آمال طلابها ، وأعمها زينة ، وأعظمها شهوة النساء ، لأنها تحفظ زوجها عن الحرام ، وتعينه على القيام بالأمر الدنيوية والدينية ، وكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهي محبوبة مرضية لله ، فصاحبها يلتذ بها من جهة تنعمه ، وفرة عينه بها ، ومن وجهة إيصالها له إلى مرضاة ربه ، وإيصاله إلى لذة أكمل منها . قال الطيبي : وقيد بالصالحة إيداناً بأنها شر المتاع لو لم تكن صالحة ، وقال الأكمل : المراد بالصالحة النقية المصلحة لحال زوجها في بيته ، المصلحة لأمره)) .

إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا أُرْسِلَ بَصَرَهُ، وَوَأَصَلَ النَّظَرَ إِلَى الشَّهَوَاتِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَبَ مِنْ كَثْرَةِ الْمَشَاهِدَاتِ
وَالْإِغْرَاءَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى نَيْلِهَا . فَالْعَيْنُ بَرِيدُ الْقَلْبِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعَيْنَ سَتُوصِلُ الْحَسْرَةَ
وَاللُّوْعَةَ إِلَى الْقَلْبِ . وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الْعَصِيبَةِ ، يَنْهَارُ مَسْتَوَى الصَّبْرِ ، وَتَضْعُفُ طَاقَةُ التَّحَمُّلِ
لدى الْإِنْسَانِ فَيَنْهَارُ . فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكْفُفَ بَصَرَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْبَعِيدُ عَنِ الْعَيْنِ بَعِيدٌ عَنِ
الْقَلْبِ ، وَبِالتَّالِي يُرِيحُ أَعْصَابَهُ ، وَلَا يُهَيِّجُ غَرَائِزَهُ . وَهَكَذَا يَتَحَرَّرُ مِنْ فُيُودِ الشَّهْوَةِ ، وَالشَّهْوَةُ إِذَا
سَيَّطَرَتْ عَلَى الْإِنْسَانِ ، جَعَلَتْهُ عَاجِزًا عَنِ التَّفَكِيرِ بِغَيْرِهَا ، وَهَذَا هُوَ الْفَخُّ الْقَاتِلُ .
وكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

نَعِمْتُ بِهَا عَيْنِي فَطَالَ عَذَابُهَا وَلكم عَذَابٌ قَدْ جَنَاهُ نَعِيمٌ
نَظَرْتُ فَأَقْصَدْتُ الْفُؤَادَ بِسَهْمِهَا ثُمَّ انْتَنَتْ نَحْوِي فَكِدْتُ أَهِيمٌ
وَبِلَاةٍ إِنْ نَظَرْتُ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقُوعِ السَّهَامِ وَتَرْغُوعِ أَلِيمِ

وقال ابن القيم في رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ (١ / ٩٧) : ((وَفِي غَضِّ الْبَصَرِ عِدَّةُ فَوَائِدَ : أَحَدُهَا
تَخْلِيصُ الْقَلْبِ مِنَ أَلَمِ الْحَسْرَةِ ، فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ نَظْرَهُ دَامَتْ حَسْرَتُهُ ، فَأَضْرَبُ شَيْءٌ عَلَى الْقَلْبِ
إِرْسَالَ الْبَصَرِ ، فَإِنَّهُ يُرِيهِ مَا يَشْتَدُّ طَلْبُهُ ، وَلَا صَبْرَ لَهُ عَنْهُ ، وَلَا وُضُوءَ لَهُ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ غَايَةُ أَلَمِهِ
وَعَذَابِهِ وَالنَّظْرَةُ تَفْعَلُ فِي الْقَلْبِ مَا يَفْعَلُ السَّهْمُ فِي الرَّمِيَّةِ ، فَإِنْ لَمْ تَقْتُلْهُ جَرَحَتْهُ ، وَهِيَ
بِمَنْزِلَةِ الشَّرَارَةِ مِنَ النَّارِ تُرْمَى فِي الْحَشِيشِ الْيَابِسِ ، فَإِنْ لَمْ تُحْرِقْهُ كُلَّهُ أَحْرَقَتْ بَعْضَهُ)) .
وَعَنْ حُدَيْفَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ
مَسْمُومَةٌ ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ ، أَثَابَهُ _ جَلٌّ وَعَزٌّ _ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ)) ٩٤ .
النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ قَاتِلٌ ، يَجِبُ إِبْعَادُهُ عَنِ الْقَلْبِ بِشَتَّى الْوَسَائِلِ ، لِأَنَّهُ إِذَا وَصَلَ إِلَى الْقَلْبِ ،
فَسَيَقْتُلُهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْتُلْهُ سَيَجْرَحُهُ . وَالْحَلُّ الْجَدْرِيُّ هُوَ غَضُّ الْبَصَرِ . وَمَنْ تَرَكَ هَذِهِ النَّظْرَةَ الْقَاتِلَةَ
خَوْفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَحُهُ إِيْمَانًا أَكْثَرَ حَلَاوَةً مِنْ حَلَاوَةِ الشَّهْوَةِ الْوَهْمِيَّةِ ، وَسَوْفَ
يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ لَا مَحَالَةَ .

٩٤ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤ / ٣٤٩) بِرَقْمِ (٧٨٧٥) وَصَحَّحَهُ . وَقَالَ الْعَجْلُونِيُّ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ
(٢ / ١٨٦٢) : ((رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَأَقْرَبَهُ الْعِرَاقِيُّ ، وَضَعَفَهُ الْمُنْذَرِيُّ عَنِ حُدَيْفَةَ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ١٣٢) : (...) ، وهذا السَّهْمُ يُسَدِّده إبليس نَحْو القلب ، ولا طريق إلى رَدِّه إلا الغَضُّ والانحراف عن جَهَةِ المَرَمَى ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَرْمِي هذا السَّهْمَ عَن قَوْسِ الصُّورَةِ ، فإذا لَمْ تَقِفْ في طريقها أخطأكَ السَّهْمُ ، وإن نَصَبْتَ قَلْبَكَ غَرَضًا أصابك ، وأن تُسَلِّيَ النَّفْسَ بالمُبَاحِ المَعْوُضِ عَنِ الحَرَامِ ، فالدَّوَاءُ الأوَّلُ يُشْبِهُ قَطْعَ العَلْفِ عَنِ الدَّابَّةِ الجَمُوحِ والكَلبِ الضَّاري ، لِإِضعافِ قُوَّتِهِمَا ، والثاني : كَتَغْيِيبِ الشَّعِيرِ عَنِ الدَّابَّةِ ، وأن تَتَفَكَّرَ في مَفسادِ قضاءِ هذا الوَطَرِ (الحَاجَةِ) ، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ جَنَّةَ ولا نارَ ، ففي مَفسادِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ ما يَصُدُّ عَن إجابةِ ذلكِ الدَّاعِي ، لكن عَيْنَ الهَوَى عَمِيَاءُ)) اهـ . وفي نَفْسِ المَرْجِعِ (٥ / ٤٩٦) : ((فَإِنَّ الإنسانَ خُلِقَ مَفْتُوحَ العَيْنِ ، عَمُولَ اللَّحَاطِ ، وَمِنَ شَأْنِ عَيْنِهِ أَنْ تَطْرَفَ ، فإذا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلى شَيْءٍ لَمْ يُؤَاخِذْ لَعَدَمِ العَمَلِ القَلْبِيِّ ، فإذا أَعْمَلَ بَصَرَهُ بَعْدَ فَإِنَّهُ أَعْمَلَهُ القَلْبُ . فالأوَّلُ مَرْفُوعٌ عَنهُ ، والثاني مُكَلَّفٌ بِهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُهُ عَلى مَحاسِنِها وَجَبَ العَظْمُ ، فإذا امْتَثَلَ الأَمْرَ فَقَدَ قَمَعَ نَفْسَهُ عَن شَهْوَتِها ، فَجُوزِي بِإِعطائِهِ نُورًا وَجَدَ بِهِ حَلاوَةَ العِبَادَةِ ، وذلك دَاعٍ إلى اِزديادِ مِئِها ، وَكَلَمًا اِزدادَ مِئِها في هَذِهِ الدَّارِ ، اِزدادَ رِفْعَةً في دارِ القَرارِ)) .

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ . الخُمُرُ جَمْعُ خِمَارٍ (غِطاءِ الرِّاسِ) ، وهو ما تُغَطِّي بِهِ المَرأةُ رَأْسَها . وَالجُيُوبُ جَمْعُ جَيْبٍ ، وهو فَتْحَةُ الثَّوبِ مِن أَعلى . والمعنى : وَلْيُلْقِينَ مَقانِعَهُنَّ (أَغْطِيَةَ الرِّاسِ) عَلى جُيُوبِهِنَّ لِيَسْتُرْنَ شَعورَهُنَّ ، وَأَعناقَهُنَّ ، وَصُدورَهُنَّ ، وَأَفْراطَهُنَّ . وَهَذِهِ الآيَةُ شِعَارُ النِّسَاءِ المُسْلِماتِ ، وَهُوِيَّةُ المَرأةِ المُسْلِمَةِ المُمَيَّزَةُ عَن غَيرِها ، وَهِيَ مُخالِفَةٌ لِمَا كانَتِ عَليه نِساءُ الجاهليَّةِ . وفي لَفْظِ الصَّرْبِ مُبالِغَةٌ في التَّسْتُرِ وَالصَّيْانَةِ .

ولا يَبْغِي التَّنَظُّرُ إلى الحِجَابِ كَقِطْعَةِ قُماشٍ ، أو إِجْراءِ روتيني ظاهري ، أو مُجَرَّدِ قُشُورِ خَارجِيَّةِ ، فَالحِجَابُ مَنظُومَةٌ دِينِيَّةٌ واجتِماعِيَّةٌ مُتكامِلَةٌ ، تَرْمِي إلى حِفْظِ العُورَاتِ ، وإِغلاقِ بابِ الشَّهْواتِ المُحَرَّمةِ ، وَسَدِّ الدَّرَائِعِ المُوصِلَةِ إلى الحَرَامِ ، وَبِناءِ المَجمِيعِ عَلى أُسُسِ الطَّهارةِ الرُوحِيَّةِ وَالْمادِيَّةِ ، وَمَنعِ الغَرائِزِ مِنَ التَّحَكُّمِ بِمَسارِ الإنسانِ وَمُصيرِهِ ، وَحِمايَةِ المَجمِيعِ مِنَ العَرَقِ في النِّزواتِ العابِرةِ ، وَالشَّهواتِ الرَخيصةِ ، وَالانحلالِ الأخلاقِي .

وفي تَفْسيرِ الجَلالِيْنَ (ص ٤٦٢) : ((﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، أَي : يَسْتُرْنَ الرُّؤُوسَ وَالْأَعناقَ وَالصُّدُورَ بِالْمَقانِعِ)) .

وقال ابن كَثِيرٍ في تَفْسيرِهِ (٣ / ٣٧٨) : ((قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يَعْنِي : المَقانِعِ ، يَعْمَلُ لَها صَنِيقَاتُ (زوايا) ضارِباتِ عَلى صُدُورِها ، لِتُوارِي ما تَحْتِها مِنَ صَدْرِها

وتراثها ، لِإِخَالَفَنَ شِعَارَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُنَّ لَمْ يَكُنَّ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ ، بَلْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ تَمُرُّ بَيْنَ الرِّجَالِ مُسْفِحَةً بِصَدْرِهَا ، لَا يُوَارِيهِ شَيْءٌ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ عُقُقَهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا وَأَقْرَطَةَ آذَانِهَا ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ فِي هَيْئَاتِهِنَّ وَأَحْوَالِهِنَّ)) .

وفي صحيح البخاري (١٧٨٢ / ٤) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : ((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُولَى ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ ، شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ ، فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)) .

الإسلامُ دِينُ السَّتْرِ وَالصِّيَانَةِ وَالْعَفَافِ ، وَقَدْ أَمَرَ بِسِتْرِ جَسَدِ الْمَرْأَةِ ، وَأَمَرَ بِالْحِجَابِ وَالتَّيَّابِ السَّابِغَةِ الَّتِي لَا تُظْهِرُ جَسَدَهَا ، وَلَا تُفَصِّلُ أَجْزَاءَهُ ، حِفْظًا لَهَا ، وَصِيَانَةً لِلْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ مِنْ آثَارِ التَّبَرُّجِ وَالتَّشْفُورِ الْخَطِيرَةِ الْمُهْلِكَةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ .

وفي هذا الحديثِ تُثْنِي أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ _ رضي الله عنها _ على المؤمناتِ السابغاتِ في الهِجْرَةِ ، فَتَرْحَمُ عَلَيْهِنَّ ، وَتَضْرِبُ بِهِنَّ الْمَثَلَ فِي سُرْعَةِ اسْتِجَابَتِهِنَّ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ النِّسَاءَ بِالْحِجَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ . ومعنى الآية: وعلى النساءِ المؤمناتِ أَنْ يَسْتَتِرْنَ رُؤُوسَهُنَّ وَأَعْنَاقَهُنَّ وَصُدُورَهُنَّ بِخُمُرِهِنَّ ، حَتَّى لَا يَطَّلِعَ أَحَدٌ مِنَ الْأَجَانِبِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَالْمُرُوطُ : أَكْسِيَّةٌ مُعْلَمَةٌ تَكُونُ مِنَ حَرِيرٍ ، وَتَكُونُ مِنْ صُوفٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا : الْإِزَارُ ، وَهُوَ الْمَلَاءَةُ الْخَاصَّةُ بِالنِّسَاءِ . وَقَدْ شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا ، أَي : اسْتَحْدَمْنَهَا لِغَطَاءِ رُؤُوسِهِنَّ وَوُجُوهِهِنَّ ، وَسَتَرِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ .

وفي الحديثِ : مَنْقِبَةُ الصَّحَابِيَّاتِ الْمُهَاجِرَاتِ الْأَوَائِلِ ، وَسُرْعَةُ اسْتِجَابَتِهِنَّ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وفيه : أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ لَا يَسْأَلُ عَنِ الْعِلَّةِ وَالسَّبَبِ فِي أَوَامِرِ الشَّرْعِ لِيَسْتَجِيبَ لَهَا ، بَلْ يُبَادِرُ بِالِاسْتِجَابَةِ ، وَإِنْ لَمْ تَطْهَرْ لَهُ الْعِلَّةُ وَالسَّبَبُ .

وقال الحافظ في الفتح (٤٩٠ / ٨) : ((قَوْلُهَا : " فَاخْتَمَرْنَ " أَي : غَطَّيْنَ وَوُجُوهُهُنَّ . وَصِفَةُ ذَلِكَ أَنْ تَضَعَ الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَتُرْمِيهِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ عَلَى الْعَاتِقِ الْأَيْسَرِ ، وَهُوَ التَّقْنَعُ . قَالَ الْفَرَّاءُ : كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُسَدِّلُ الْمَرْأَةُ خِمَارَهَا مِنْ وَرَائِهَا ، وَتَكْشِفُ مَا قُدَّامَهَا ، فَأَمَرْنَ بِالِاسْتِتَارِ . وَالْخِمَارُ لِلْمَرْأَةِ كَالْعِمَامَةِ لِلرَّجُلِ)) .

إِنَّ السَّابِغَاتِ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ كُنَّ مُلْتَمِزَاتٍ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ ، شَقَقْنَ مُرُوطَهُنَّ (وَالْمُرُوطُ جَمْعُ مِرْطٍ ، وَهُوَ الْإِزَارُ) ، وَغَطَّيْنَ بِهَا وَوُجُوهُهُنَّ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْاسْتِجَابَةِ الْفَوْرِيَّةِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَنْفِيذِهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ وَسُرْعَةٍ ، وَبِدُونِ أَدْنَى تَأْخِيرٍ .

وقد كانت المرأة في الجاهلية _ كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة _ تَمُرُّ بَيْنَ الرَّجَالِ مَكشوفةَ الصُّدْرِ ، باديةَ التَّحَرِّ ، حاسرةَ الدَّرَاعَيْنِ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَتْ مَفَاتِنَ جِسْمِهَا وَذَوَائِبَ شَعْرِهَا لِتُعْرِي الرَّجَالَ ، وَكُنَّ يَسْدِلْنَ الخُمُرَ مِنْ ورائهن ، فتبقى صُدُورُهُنَّ مَكشوفةً عاريةً ، فَأُمِرَّتِ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْ يُلْقِيَنَهَا مِنْ قُدَامِهِنَّ حَتَّى يُغَطِّيَنَّ صُدُورَهُنَّ ، وَيُدْفَعَنَّ عَنْهُنَّ شَرَّ الأَشْرَارِ .

٢٢_ الإعراض عن اللغو

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللِّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] .
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ البَاطِلِ ، وَاللَّهْوِ ، وَالمَعْصِيَةِ ، وَالكَذِبِ ، وَالشَّتْمِ ، وَالهَزْلِ ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، مُعْرِضُونَ .

وَاللِّغْوُ : البَاطِلُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الشَّرْكَ ، وَالمَعْصِيَةَ ، وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ .
وَقَالَ ابنُ الجَوَازِيِّ فِي زَادِ المَسِيرِ (٥ / ٤٦٠) : ((وَفِي المُرَادِ بِاللِّغْوِ هَاهُنَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا الشَّرْكَ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي البَاطِلُ ، رَوَاهُ ابنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ المَعْصِيَةُ ، قَالَه الحَسَنُ . وَالرَّابِعُ الكَذِبُ ، قَالَه السُّدِّيُّ . وَالخَامِسُ الشَّتْمُ وَالأَذَى الَّذِي كَانُوا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الكُفَّارِ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . قَالَ الرَّجَّاجُ : وَاللِّغْوُ كُلُّ لَعِبٍ وَلَهْوٍ ، وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ ، فَهِيَ مُطَرَّحَةٌ مُلْغَاةٌ ، فَالمَعْنَى : شَغَلَهُمُ الجِدُّ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ عَنِ اللِّغْوِ)) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٣ / ٦٧٨) : ((وَاللِّغْوُ ، قَالَ الرَّجَّاجُ : هُوَ كُلُّ بَاطِلٍ وَلَهْوٍ وَهَزْلٍ وَمَعْصِيَةٍ ، وَمَا لَا يُحْمَلُ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : إِنَّ اللِّغْوَ هُنَا الشَّرْكَ . وَقَالَ الحَسَنُ : إِنَّهُ المَعْصِيَةُ كُلُّهَا . وَمَعْنَى إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ : تَجَنُّبُهُمْ لَهُ ، وَعَدَمُ النِّفَاتِهِمْ إِلَيْهِ ، وَظَاهِرُهُ اتِّصَافُهُمْ بِصِفَةِ الإِعْرَاضِ عَنِ اللِّغْوِ فِي كُلِّ الأَوَاقَاتِ ، فَيَدْخُلُ وَقْتُ الصَّلَاةِ فِي ذَلِكَ ذُخُولًا أَوَّلِيًّا ، كَمَا تُفِيدُهُ الجُمْلَةُ الأَسْمِيَّةُ ، وَبِنَاءِ الحُكْمِ عَلَى الضَّمِيرِ)) .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللِّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] ٩٥ .

٩٥ قَالَ ابنُ الجَوَازِيِّ فِي زَادِ المَسِيرِ (٦ / ١١٠) : ((وَفِي المُرَادِ بِاللِّغْوِ هَاهُنَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا المَعْصِيَةُ ، قَالَه الحَسَنُ . وَالثَّانِي أَذَى المُشْرِكِينَ إِيَّاهُمْ ، قَالَه مجاهد . وَالثَّلَاثُ البَاطِلُ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالرَّابِعُ الشَّرْكَ ، قَالَه الضَّحَّاكُ . وَالخَامِسُ إِذَا ذَكَرُوا النِّكَاحَ كُنُّوا عَنْهُ ، قَالَه مجاهد . وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ : إِذَا ذَكَرُوا الفُرُوجَ كُنُّوا عَنْهَا . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا مَرُّوا حُلَمَاءَ ، قَالَه ابنُ السَّائِبِ . وَالثَّانِي مَرُّوا مُعْرِضِينَ عَنْهُ ، قَالَه مُقَاتِلٌ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ المَعْنَى إِذَا مَرُّوا بِاللِّغْوِ جَاوَزُوهُ ، قَالَه الفَرَّاءُ)) .

وإذا مرُّوا بمجالس اللُّهُو والباطل ، التي يُقال فيها الكلام القبيح ، مرُّوا مُعرضين مُكرِّمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس ، ويُكِّرون اللُّغو ، ولا يَقْبَلُون به ، ولا يَقْفُونَ عليه ، ولا يَخُوضون فيه ، وإنما يبتعدون عن الفواحش ، ويصفِّحون عن الدُّنُوب. لقد مرُّوا مُرورَ الكِرَام الذين لا يدخلون في الباطل . وقيل : من المُرور كَرِيمًا أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المُنكر .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ٤٢٠) : ((إنَّ الله أخبرَ عن هؤلاء المُؤمنين الذين مدَّحهم بأنهم إذا مرُّوا باللُّغو مرُّوا كِرَامًا ، واللُّغو في كلام العرب هو كُلُّ كلام أو فعل باطل ، لا حقيقة له ، ولا أصل ، أو ما يُستَقْبَح ، فسبُّ الإنسانِ الإنسانِ بالباطل الذي لا حقيقة له من اللُّغو ، وذكرُ النَّكاح بصريح اسمه ممَّا يُستَقْبَح في بعض الأماكن ، فهو من اللُّغو ، وكذلك تعظيم المُشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لِمَا عَظَّموه على نَحْو ما عَظَّموه ، وسَمَاع الغِنَاء ممَّا هو مُستَقْبَح في أهل الدِّين ، فَكُلُّ ذلك يدخل في معنى اللُّغو ، فلا وجه إذ كان كُلُّ ذلك يلزمه اسم اللُّغو أن يُقال : غيبي به بعض ذلك دون بعض ، إذ لم يكن ليُحْصِص ذلك دلالة من خبر أو عقل ، فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : وإذا مرُّوا بالباطل فَسَمِعُوهُ أو رَأَوْهُ ، مرُّوا كِرَامًا مُرورهم كِرَامًا في بعض ذلك بأن لا يسمِعوه ، وذلك كالغِناء . وفي بعض ذلك بأن يُعرضوا عنه ويصفِّحوا ، وذلك إذا أودوا بإسْماع القبيح من القَوْل . وفي بعضه بأن ينهَوْا عن ذلك ، وذلك بأن يروا من المُنكر ما يُغيِّر بالقول فيغيِّروه بالقول . وفي بعضه بأن يُضارِبُوا عليه بالسُّيوف، وذلك بأن يروا قَوْمًا يَقْطَعُونَ الطريقَ على قوم، فيستصرخهم المُراد ذلك منهم فيصرخونهم، وكُلُّ ذلك مُرورهم كِرَامًا)) .
والمؤمن يُعرض عن اللُّغو (كُلُّ كلام أو فعل باطل) ، ولا يسقط في استفزاز الجَهْلَة والأعداء، الذين يُلقون كلامهم يَمَنَةً وَيَسْرَةً دون التفكُّر في أبعاده ، فهم ينطلقون من الحَقْد والجَهْل والعناد وسوء الأخلاق . أمَّا المؤمن فينطلق من كرم النَّفْس وعُلُوِّ الهِمَّة وحسن الخُلُق ، فلا يخوض مع الجَهْلَة ، ولا يسقط في الفواحش . وهنا تنجلى ثقة المؤمن برَّبِّه وبنفسه ، فلا يُمكن استفزازه ، ولا إخراجَه عن طوره ، لأنَّه ثابت القلب وراسخ الجِسْم ، ينظر إلى عَوَاقب الأمور ، ولا يغرَق في اللحظة الآنيَّة ، ولا يقع في زُدود الأفعال الطائشة .

وقد قيل : القافلة تسيير والكلاب تَنبَح . وأيضًا : ما صرَّ السَّحَاب نُبَاح الكِلَاب .
وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القَصص : ٥٥] . وإذا سَمِعُوا الشَّتْم والأذى من الكُفَّار ، لم يلتفتوا إليه ، ولم يزدوا على أصحابه . وهم لا يُخالِطُونَ أهل اللُّغو ، ولا يُعاشرونهم . إنَّهم أَعْرَضُوا عن

اللُّغُو تَكْرُمًا وَتَنْزُهُا وَتَأْدُبًا بِآدَابِ الشَّرْعِ الحَنِيفِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٣٠) :
 ((قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ ، فيه ثلاثة أقوال : أحدها الأذى والسب ، قاله مُجاهد .
 والثاني الشُّرك ، قاله الصَّحَّاحُ . والثالث أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ آمَنُوا فَكَانُوا يَسْمَعُونَ مَا غَيَّرَ الْيَهُودُ
 مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ ، وَيُعْرِضُونَ عَنْهُ ، قاله ابن زيد)) .

وقالوا: لَنَا دِينُنَا ، وَلَكُمْ دِينُكُمْ . أَوْ: لَنَا طَرِيقُنَا ، وَلَكُمْ طَرِيقُكُمْ . أَوْ : لَنَا حِلْمُنَا ، وَلَكُمْ سَفْهُكُمْ .
 سَلِمْتُمْ مِنَّا لَا نُعَارِضُكُمْ بِالشَّتْمِ وَالْكَلَامِ الْقَبِيحِ . وهذا لَيْسَ سَلَامَ التَّحِيَّةِ ، وَإِنَّمَا سَلَامُ الْمُتَارِكَةِ .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٢٢) : ((أي: إِذَا سَفَهَ عَلَيْهِمْ سَفِيهَهُ ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ
 الْجَوَابَ عَنْهُ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بِمِثْلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ ، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ إِلَّا كَلَامٌ طَيِّبٌ)) .
 لَا نَطْلُبُ صُحْبَةَ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا نُرِيدُ مُخَالَطَتَهُمْ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٢٣٠) :
 ((وفي قوله : ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها لَا نَبْتَغِي دِينَ الْجَاهِلِينَ ، والثاني لَا
 نَطْلُبُ مُجَاوَرَتَهُمْ ، والثالث لَا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ جُهَّالًا)) .

لقد مَدَحَ اللَّهُ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْبَاطِلَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، فَلَا يَخُوضُونَ فِيهِ ،
 وَلَا يَشْتَرِكُونَ مَعَ أَهْلِ الْبَاطِلِ فِي جَهْلِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، بَلْ يَتَعَدُونَ عَنْهُمْ ، وَيُلْقُونَ سَلَامَ الْمُتَارِكَةِ لَا
 سَلَامَ التَّحِيَّةِ ، فِي إِشَارَةِ وَاضِحَةٍ إِلَى الْفِرَاقِ وَالْمُخَالَفَةِ فِي النَّهْجِ . وما إِعْرَاضُهُمْ عَنِ اللَّغْوِ إِلَّا
 دَلِيلٌ عَلَى تَمَسُّكِهِمْ بِالشَّرْعِ ، وَتُبْلِ أَحْلَاقِهِمْ ، وَتَرْفُعِهِمْ عَنِ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ .

وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢١٤) : ((﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ الْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ ﴿ أَعْرَضُوا
 عَنْهُ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْتَبُونَ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ : تَبَّا لَكُمْ ، تَرَكْتُمْ دِينَكُمْ ،
 فَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ ، وَلَا يَرُدُّونَ عَلَيْهِمْ ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ ، لَنَا دِينُنَا ، وَلَكُمْ دِينُكُمْ ،
 ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ سَلَامُ التَّحِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ سَلَامُ الْمُتَارِكَةِ ، مَعْنَاهُ : سَلِمْتُمْ مِنَّا لَا
 نُعَارِضُكُمْ بِالشَّتْمِ وَالْقَبِيحِ مِنَ الْقَوْلِ ، ﴿ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أَي : دِينَ الْجَاهِلِينَ ، يَعْنِي : لَا
 نُحِبُّ دِينَكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ . وَقِيلَ : لَا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالسَّفْهِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ
 يُؤْمَرَ الْمُسْلِمُونَ بِالْقِتَالِ)) .

٢٣_ الْقَصْدُ فِي الْمَشْيِ وَالْخَفِضِ مِنَ الصَّوْتِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾
 [لقمان : ١٩] . يَأْمُرُ اللَّهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْخُلُقِ الْكَرِيمِ . لِيَكُنْ مَشْيُكَ قَصْدًا بِلَا خِيَلَاءٍ وَلَا تَكْثِيرٍ ،
 وَتَوَسَّطٌ فِيهِ بَيْنَ الْإِبْطَاءِ وَالْإِسْرَاعِ ، وَالتَّرَمُّ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، وَاخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِذَا تَكَلَّمْتَ ،

ولا ترفعه بأكثر من الحاجة ، فهذا الفعل في غاية السوء ، ويؤذي السامع . والآية تُشير إلى أهمية القصد في المشي ، والخفض من الصوت ، وضرورة التحلي بهاتين الصفاتين الجميلتين . إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أوله زفير ، وآخره شهيق . والجدير بالذكر أن الله قال : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، ولم يقل : لأصوات الحمير . وإفراذ الصوت ، وإضافته إلى الجمع ، لأن المراد بيان حال صوت هذا الجنس من بين سائر الأجناس . وتشبيه الأشخاص الذي يرفعون أصواتهم بالحمير ، يدل على تحريم رفع الصوت ، ودمه أشد الدم ، والتنفير منه .

والإسلام دين وسطي بلا إفراط أو تفريط، وتتجلى هذه الوسطية في السلوك الإنساني. فلا بد من التواضع في المشي بدون سرعة أو خيلاء، والكلام بصوت معتدل مسموع بلا جعجعة أو صراخ أو همس غير مفهوم. وهنا تظهر أهمية الاقتصاد والاعتدال في الفعل والقول. وخير الأمور أوسطها. وقال البغوي في تفسيره (٢٨٩ / ١) : ((﴿ وأقصد في مشيك ﴾ ، أي : ليكن مشيك قصدا لا تحيلا ولا إسراعا . وقال عطاء : امش بالوقار والسكينة ، كقوله : ﴿ يمشون على الأرض هونا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . ﴿ وأغضض من صوتك ﴾ ، أنقص من صوتك . وقال مقاتل : اخفض من صوتك ﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ أقبح الأصوات ﴿ لصوت الحمير ﴾ ، أوله زفير ، وآخره شهيق ، وهما صوت أهل النار . وقال موسى بن أعين : سمعت سفيان الثوري يقول في قوله : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ . قال : صياح كل شيء تسبيح لله إلا الحمار . وقال جعفر الصادق في قوله : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ ، قال : هي العطسة القبيحة المنكرة. قال وهب: تكلم لقمان باثني عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس في كلامهم وقضايهم . وحكمه : قال خالد الربيعي : كان لقمان عبدا حبشيا فدفع مولاه إليه شاة وقال : ادبحها وائتني بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، ثم دفع إليه شاة أخرى وقال : ادبحها وائتني بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ، فسأله مولاه فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٢٣ / ٦) : ((﴿ إن أنكر الأصوات ﴾ ومعنى : ﴿ أنكر ﴾ أقبح . تقول : أتانا فلان بوجه منكرا ، أي: قبيح. وقال المبرّد : تأويله أن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وأنه داخل في باب الصوت المنكر . وقال ابن فتيبة : عرفه فبح رفع الأصوات في المخاطبة والملاحة بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية . قال ابن زيد : لو كان رفع الصوت خيرا ما جعله الله للحمير . وقال سفيان الثوري: صياح كل شيء تسبيح لله عز وجل إلا

الْحِمَارِ، فَإِنَّهُ يَنْهَقُ بِلا فائدة . فإن قيل: كيف قال: ﴿ لَصَوْتُ ﴾ ، ولم يُقَلْ : لأصوات الحمير .
الجواب أن لكل جنس صوتًا ، فكأنه قال : إن أنكِرَ أصوات الأجناس صوتُ هذا الجنس)) .
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: وتلا قول لقمان لابنه: ﴿ واقصِدْ في مَشِيكِ وَاغْضُضْ
من صَوْتِكَ ﴾ ، قال: ((كان رسولُ الله ﷺ إذا خَرَجَ مَشَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَخَلَوْا ظَهْرَهُ لِلْمَلَائِكَةِ)) ٩٦ .
شَرَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهَ ﷺ على كُلِّ وَجْهٍ ، وفي كُلِّ مَقَامٍ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وكان ﷺ إذا
خَرَجَ مُتَّجِّهًا إلى أَيِّ مَكَانٍ وَسارَ نَحْوَهُ ، مَشَى أَصْحَابُهُ أَمَامَهُ ، وَتَرَكُوا ظَهْرَهُ لِلْمَلَائِكَةِ ، لِأَنَّ
المَلَائِكَةَ يَحْرُسُونَهُ ، وَيَمَشُونُ خَلْفَهُ إِعْظَامًا لَهُ ، وَإِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .
وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسُوقُ أَصْحَابَهُ ، أَي : يُقَدِّمُهُمْ أَمَامَهُ ، وَيَمَشِي خَلْفَهُمْ تَوَاضُعًا ،
وَلَا يَدَعُ أَحَدًا يَمَشِي خَلْفَهُ ، أَي إِنَّهُ يَكُونُ مِنْ وَرَائِهِمْ كَالسَّائِقِ .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٧٦) : ((يُقَدِّمُهُمْ أَمَامَهُ ، وَيَمَشِي خَلْفَهُمْ ، كَأَنَّهُ يَسُوقُهُمْ
تَوَاضُعًا وَإِرْشَادًا إِلَى نَدْبِ مَشْيِ كَبِيرِ الْقَوْمِ وَرِاءَهُمْ ، وَلَا يَدَعُ أَحَدًا يَمَشِي خَلْفَهُ ، أَوْ لِيَخْتَبِرَ حَالَهُمْ
وَيَنْظُرَ إِلَيْهِمْ حَالَ تَصَرُّفِهِمْ فِي مَعَاشِهِمْ ، وَمُلاحَظَتِهِمْ لِإِحْوَانِهِمْ ، فَيُرِيَّ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّرْبِيَةَ ،
وَيُكَمِّلُ مَنْ يَحْتَاجُ التَّكْمِيلَ ، وَيُعَاقِبُ مَنْ يَلِيْقُ بِهِ الْمُعَاقِبَةَ ، وَيُؤَدِّبُ مَنْ يُنَاسِبُهُ التَّأْدِيبَ ، وَهَذَا
شَأْنُ الْمَوْلَى مَعَ رَعِيَّتِهِ ، أَوْ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَمَشِي خَلْفَ ظَهْرِهِ ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ)) .

٢٤ _ السَّكِينَةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾
[الرَّعْدُ: ٢٨] . إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ تَسْكُنُ قُلُوبُهُمْ ، وَتَسْتَأْنِسُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ . وَالْفِعْلُ الْمُضَارِعُ يَدُلُّ
عَلَى دَوَامِ الاطمئنان واستمرار السَّكِينَةِ . أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ وَحْدَهُ تَسْكُنُ وَتَسْتَأْنِسُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَلَا يَشْعُرُونَ بِقَلْقٍ وَلَا اضْطِرَابٍ مِنْ سُوءِ الْعِقَابِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٢٧) : ((والمعنى : يَهْدِي الَّذِينَ آمَنُوا ، وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ . فِي هَذَا الذِّكْرِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْقُرْآنُ ، وَالثَّانِي ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ .
وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الطَّمَأْنِينَةِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا الْحُبُّ لَهُ وَالْأُنْسُ بِهِ ، وَالثَّانِي السُّكُونُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ
شَكِّ ، بِخِلَافِ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ اشْمَازَتْ قُلُوبُهُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . قَالَ الرَّجَّاحُ :

٩٦ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٤٦) برقم (٣٥٤٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

" أَلَا " حرف تنبيه وابتداء . والمعنى : تطمئن القلوب التي هي قلوب المؤمنين ، لأنَّ الكافر غير مُطمئن القلب)) اه . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٢٨) : ((﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾) أنسًا به ، واعتمادًا عليه ، ورجاءً منه ، أو بِذِكْرِ رَحْمَتِهِ بعد القلق من خشيته ، أو بِذِكْرِ دَلَالَتِهِ الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه ، يعني : القرآن الذي هو أقوى المعجزات ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ تَسْكُنُ إِلَيْهِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ١١٦) : ((﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾) ، أي : تَسْكُنُ وَتَسْتَأْنِسُ بِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ، كِتَابُ الْوَعْدِ ، وَالتَّسْوِيحِ ، وَالتَّحْمِيدِ ، وَالتَّكْبِيرِ ، وَالتَّوْحِيدِ ، أَوْ بِسَمَاعِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ قال الرَّجَّاحُ : أي إذا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ آمَنُوا بِهِ غَيْرَ شَاكِينَ وقيل : تطمئن قلوبهم بتوحيد الله . وقيل : المراد بالذِّكْرُ هُنَا الطَّاعَةَ ، وَقِيلَ : بُوْعِدَ اللَّهُ . وَقِيلَ : بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ ، فَإِذَا حَلَفَ خَصَمُهُ بِاللَّهِ سَكَنَ قَلْبُهُ ، وَقِيلَ : بِذِكْرِ رَحْمَتِهِ ، وَقِيلَ : بِذِكْرِ دَلَالَتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وَحْدَهُ ذُونَ غَيْرِهِ ﴿ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ . والنظر في مخلوقات الله سبحانه ، وبدائع صنعه ، وإن كان يُفيد طمأنينة في الجملة ، لكن ليست كهذه الطمأنينة ، وكذلك النَّظَرُ فِي الْمُعْجَزَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يُطِيقُهَا الْبَشَرُ ، فَلَيْسَ إِفَادَتُهَا لِلطَّمَأْنِينَةِ كِإِفَادَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ، فَهَذَا وَجْهٌ مَا يُفِيدُهُ هَذَا التَّرْكِيبُ مِنَ الْقَصْرِ)) .

إنَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَهْدَأُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَسْتَأْنِسُ بِأَوَامِرِهِ ، وَيَنْبَغُ فِيهَا الطَّمَأْنِينَةُ وَالسَّكِينَةُ وَالثَّبَاتُ الْإِيمَانِي ، فَيُزُولُ كَدْرُ الْأُمُورِ الْمَعِيشِيَّةِ ، لِأَنَّ اللَّهَ رَزَّاقٌ ، وَيَتَلَاشَى الْخَوْفَ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتُخْتَفَى الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ وَالْإِكْتِثَابُ وَالْقَلْقُ ، وَتُصْبِحُ النَّظَرَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى الْأُمُورِ نَظَرَةً إِيمَانِيَّةً مَلِيئَةً بِالْهُدُوءِ وَالرَّاحَةِ ، كَالنَّظَرِ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَالْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ ، وَالْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، وَمَاهِيَّةِ الرَّزْقِ ، وَطَبِيعَةِ الْمُسْتَقْبَلِ الْإِنْسَانِي . وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مَلَكٌ لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَلَا شَيْءٌ يَقَعُ فِي مَلِكِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَإِرَادَةُ اللَّهِ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٧٤) : عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري _ رضي الله عنهما _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)) .

لَا تَجْلِسُ جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالِاسْتِغْفَارِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَدِرَاسَتِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، إِلَّا أَحَاطَتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ ، إِكْرَامًا وَتَشْرِيفًا لَهُمْ ، وَرِضًا بِحَالِهِمْ ، وَاسْتِمَاعًا لِيَذْكُرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَيْهِمْ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى ،

وعمَّتْهم رحمةُ الله ، وأحاطتْ بهم من كُلِّ جانب ، ونَزَلَتْ عليهم السَّكِينَةُ ، وهي شيءٌ يَقْدِفُه اللهُ في القلب ، فيورثه الصَّفَاءُ والنَّقَاءُ ، ويُذهب عنه الظُّلْمَةَ والسَّوَادَ والضَّيْقَ ، ويكون مع ذلك الطَّمَأْنِينَةَ والوَقَارَ ، فتطمئن قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، وتَهْنَأُ به ، ومن ثَمَّ يَكُونُ الذَّاكِرُ مُطْمَئِنًّا غَيْرَ قَلِقٍ ولا شَاكٍ ، راضِيًا بقضاء الله وقَدَرِه . وهذه السَّكِينَةُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، قال عنها : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفَتْحُ : ٤] . واللهُ يُبَاهِي بِهِمْ مَنْ عِنْدَهُ فِي الْمَالِ الْأَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ .

والحديثُ يُبَيِّنُ فَضْلَ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمَاعَةٍ ، وبيان ما يَكُونُ لَهُمْ مِنَ اللهِ حَالِ ذِكْرِهِمْ . إِنَّ ذِكْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَيْسَرِ الْعِبَادَاتِ ، ومع ذلك فهو من أعظمها أَجْرًا ، إذ يدلُّ على تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَذِكْرُ اللهِ لَيْسَ تَرْدِيدًا لِكَلَامِ دُونَ فَهْمٍ ، أو حَرَكَةً بِاللِّسَانِ لَا تَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ . إِنَّهُ اسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَتَدَبُّرُ ذِكْرِهِ الْمَجِيدِ حَتَّى يَتَشَرَّبَهُ الْقَلْبُ وَبَاقِي الْجَوَارِحِ ، فَالْقَلْبُ يَكُونُ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِ حُضُورِهِ ، وَلَيْسَ لَاهِيًّا فِي عَالَمِ آخِرٍ ، كَمَا أَنَّ الذِّكْرَ لَهُ جَانِبٌ تَطْبِيقِيٌّ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، فَالْإِسْلَامُ دِينٌ شَامِلٌ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالرُّوحِ وَالْمَادَةِ ، حَيْثُ تَتَرَسَّخُ الْأَفْكَارُ فِي الْكُتُبِ ، ثُمَّ يَتَمُّ تَطْبِيقُهَا وَاقِعًا مَلْمُوسًا .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ٤٩٤) : ((مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ) أَي : يَجْتَمِعُونَ لِذِكْرِهِ بِنَحْوِ تَسْبِيحٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَهْلِيلٍ وَتِلَاوَةِ وَعِلْمٍ شَرْعِيٍّ (إِلا حَقَّتْ) أَي أَحَاطَتْ (بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ) يَعْنِي دَارَتْ حَوْلَهُمْ (وَعَشِيَّتَهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ) أَي الْوَقَارُ وَالْخَشْيَةُ ، وَالذِّكْرُ سَبَبٌ لِذَلِكَ ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ . وَفِي الْمَشَارِقِ : السَّكِينَةُ شَيْءٌ كَالرِّيحِ ، أَوْ كَالهَوَاءِ ، أَوْ خَلَقَ لَهُ وَجْهٌ كَوَجْهِ إِنْسَانٍ أَوْ الرَّحْمَةُ أَوْ الْوَقَارُ (وَذَكَرَهُمُ اللهُ فَيَمُنُّ عِنْدَهُ) يَعْنِي : فِي الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْعِنْدِيَّةِ عِنْدِيَّةِ الْمَرْتَبَةِ . قَالَ الْمُظْهَرُ : الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَّةِ ، يَعْنِي : يُدِيرُونَ أَجْنَحَتَهُمْ حَوْلَ الذَّاكِرِينَ . وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ : لِلْإِسْتِعَانَةِ ، كَكَتَبْتُ بِالْقَلَمِ ، لِأَنَّ حَفَّهُمُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَى السَّمَاءِ إِنَّمَا يَسْتَقِيمُ بِوَسْطَةِ الْأَجْنَحَةِ . وَفِيهِ فَضْلٌ مَجَالِسِ الذِّكْرِ وَالذَّاكِرِينَ ، وَالاجْتِمَاعِ عَلَيْهِ ، وَمَحَبَّةِ الْمَلَائِكَةِ لِبَنِي آدَمَ . [تَنْبِيهِ] قَالَ فِي الْحِكْمِ : أَكْرَمَكَ ثَلَاثُ كَرَامَاتٍ : جَعَلَكَ ذَاكِرًا لَهُ ، وَلَوْلَا فَضْلُهُ لَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِجَرِيَانِ ذِكْرِهِ عَلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا بِهِ ، إِذْ حَقَّقَ نَسْبَتَهُ إِلَيْكَ ، وَجَعَلَكَ مَذْكُورًا عِنْدَهُ ، وَتَمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ)) .

وقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفَتْحُ : ٤] .

اللَّهُ جَعَلَ السُّكُونَ والطَّمَأِينَةَ وَالرَّاحَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، لِيَزِدَادُوا يَقِينًا مَعَ يَقِينِهِمْ ، وَتَصَدِّقًا مَعَ تَصَدِّقِهِمْ ، بِرُسُوحِ الْعَقِيدَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . أَي : لِيَزْدَادَ ثِقَتُهُمْ بِاللَّهِ ، وَتَصَدِّقَهُمْ بِشَرِيعَتِهِ الْمَعْصُومَةِ ، فَيُضَافُ إِلَى إِيْمَانِهِمْ زِيَادَةٌ فِي الْإِيْمَانِ وَالثَّبَاتِ . وَكُلَّمَا نَزَلَتْ فَرِيضَةٌ أَوْ شَرِيعَةٌ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ ، صَدَّقُوا بِهَا ، وَالتَزَمُوا بِهَا ، فَازْدَادُوا إِيْمَانًا ، وَقَوِيَ الْيَقِينُ فِي قُلُوبِهِمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٥ / ٤) : ((يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ ، أَي : جَعَلَ الطَّمَأِينَةَ ، قَالَه ابن عباس _ رضي الله عنهما _ ، وعنه : الرَّحْمَةُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : الْوَقَارُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ _ رضي الله عنهم _ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِذَلِكَ وَاسْتَقَرَّتْ ، زَادَهُمْ إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَا الْبُخَارِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ الْأَثْمَةِ عَلَى تَفَاضُلِ الْإِيْمَانِ فِي الْقُلُوبِ)) .

وقد فسَّرَ بعضُ الْعُلَمَاءِ السَّكِينَةَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ نُورًا وَقُوَّةً وَرُوحًا ، بِحَيْثُ يَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وَيَتَسَلَّى بِهِ الْحَزِينَ وَالضَّجْرُ ، فَيَحْدُثُ عِنْدَهَا الْقِيَامُ بِخِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ ، وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ ، وَمُلاطَفَةِ الْخَلْقِ ، وَمُرَاقِبَةِ الْحَقِّ ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَالِابْتِعَادَ عَنِ السَّخَطِ . وَقَالُوا : لَا تَنْزِلُ السَّكِينَةُ إِلَّا فِي قَلْبِ نَبِيٍّ أَوْ وَليٍّ .

وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩٨ / ١) : ((﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ الطَّمَأِينَةُ وَالْوَقَارُ ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لِئَلَّا تَنْزِعَ نُفُوسُهُمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ . قَالَ ابن عباس : كُلُّ سَكِينَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ طَّمَأِينَةٌ إِلَّا الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ . قَالَ ابن عباس : بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَلَمَّا صَدَّقُوهُ زَادَهُمُ الصَّلَاةُ ، ثُمَّ الزَّكَاةُ ، ثُمَّ الصِّيَامُ ، ثُمَّ الْحَجُّ ، ثُمَّ الْجِهَادُ ، حَتَّى أَكْمَلَ لَهُمْ دِينَهُمْ ، فَكُلَّمَا أَمُرُوا بِشَيْءٍ فَصَدَّقُوهُ ، أَزْدَادُوا تَصَدِّقًا إِلَى تَصَدِّقِهِمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : يَقِينًا مَعَ يَقِينِهِمْ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : هَذَا فِي أَمْرِ الْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)) .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٦٥ / ٥) : ((قَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أَي : السُّكُونَ وَالطَّمَأِينَةَ بِمَا يَسَّرَهُ لَهُمْ مِنَ الْفَتْحِ ، لِئَلَّا تَنْزِعَ نُفُوسُهُمْ لِمَا يَرِدُ عَلَيْهِمْ ، ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴾ ، أَي : لِيَزْدَادُوا بِسَبَبِ تِلْكَ السَّكِينَةِ إِيْمَانًا مُنْضَمًّا إِلَى إِيْمَانِهِمْ الْحَاصِلِ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : كُلَّمَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فَصَدَّقُوا بِهَا ، أَزْدَادُوا تَصَدِّقًا إِلَى تَصَدِّقِهِمْ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : خَشْيَةً مَعَ خَشْيَتِهِمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : يَقِينًا مَعَ يَقِينِهِمْ)) .

وعن عليٍّ _ رضي الله عنه _ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، قال :
((السَّكِينَةُ لَهَا وَجْهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ هِيَ بَعْدَ رِيحِ هَفَافَةٍ)) ٩٧ .

السَّكِينَةُ لَهَا هُوِيَّةٌ مُمَيَّزَةٌ ، وَلَهَا كِيَانٌ وَمَلَامِحٌ وَوَجْهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ ، ثُمَّ هِيَ بَعْدَ ذَلِكَ رِيحٌ طَيِّبَةٌ
سَاكِنَةٌ تَبْتُ الرِّاحَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَوِيًّا وَمَادِّيًّا ، وَتُرْسِّخُ فِي قَلْبِهِ مَعَانِي الطَّمَأْنِينَةِ وَالثَّبَاتِ ،
وَتَجْعَلُهُ خَلِيَّةً نَحْلُ دُؤُوبٍ ، يَعْمَلُ بِلَا كَلَلٍ أَوْ مَلَلٍ ، وَلَا يَسْتَسَلِمُ لِلْأَزْمَاتِ الْعَاصِفَةِ .

وَفِي صَحِيحِ الْبِخَارِيِّ (٣ / ١٠٤٣) عَنْ الْبِرَاءِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابَ بِيَاضَ بَطْنِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : ((لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ،
وَلَا تَصَدَّقْنَا ، وَلَا صَلَّيْنَا ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْنَا ، ...)) .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ / الْخَنْدَقِ (٥ هـ) يَحْمِلُ التُّرَابَ بِيَدِهِ الشَّرِيفَةَ مَعَ
الْمُسْلِمِينَ ، تَوَاضَعًا مِنْهُ ، وَتَرْغِيبًا لَصَحَابَتِهِ فِي الْأَجْرِ ، حَتَّى غَطَّى التُّرَابُ جِلْدَ بَطْنِهِ ﷺ . وَكَانَ عِنْدَ
نِقْلِهِ التُّرَابِ مِنَ الْخَنْدَقِ يُنْشِدُ بَعْضَ آيَاتِ مِنَ الشُّعْرِ قَالَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ .
وَمَعْنَاهَا : كَانَ هُدَانًا بِسَبَبِ هِدَايَةِ اللَّهِ لَنَا ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ وَخَدَهُ هُوَ الْمُتَّفَضِّلُ بِالْهِدَايَةِ ، لَوْعَفْنَا فِي
الضَّلَالِ ، وَلَا عَرَفْنَا الصَّدَقَةَ وَلَا الصَّلَاةَ ، فَاْمَنْحُنَا يَا رَبَّنَا الطَّمَأْنِينَةَ وَالِاسْتِقْرَارَ .

وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِنَصْرِهِ ، فَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَخَدَهُ ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ وَالْمَلَائِكَةَ ،
وَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذِهِ الْعَزْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الْفَتْحُ : ١٨] .

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ بَايَعُوكَ يَا مُحَمَّدٌ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ تَحْتَ ظِلِّ الشَّجَرَةِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ .
وَسُمِّيَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ لِنُزُولِ الْقُرْآنِ بِالرِّضَا عَمَّنْ بَايَعُوا فِيهَا . وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةَ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٧٣) : ((ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا نِيَّاتِهِمْ ، وَشَهِدُوا
بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ، فَقَالَ : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ أَي : رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمْ وَقَدْ تَلَّتْ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ، وَهِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ ، وَكَانَتْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَهَذِهِ الشَّجَرَةُ الْمَذْكُورَةُ هِيَ
شَجَرَةٌ كَانَتْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ ، وَقِيلَ : سِدْرَةٌ ، وَكَانَتْ الْبَيْعَةُ عَلَى أَنْ يُقَاتِلُوا قُرَيْشًا ، وَلَا يَفِرُّوا . وَرُوِيَ أَنَّهُ
بَايَعَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ وَالْقِصَّةُ مَبْسُوطَةٌ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالسِّيَرِ)) .

٩٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٩٩) برقم (٣٧١٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والتعبير بصيغة المضارع في الآية ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ، لاستحضار صورة المبايعة ، وجعلها ماثلة في الأذهان .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، فَعَلِمَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ عِنْدَ مُبَايَعَتِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى حَرْبِ الْأَعْدَاءِ . وَالْمَعْنَى : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٤٧) : ((فَعَلِمَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِكَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ مِنْ صِدْقِ النِّيَّةِ وَالْوَفَاءِ بِمَا يُبَايِعُونَكَ عَلَيْهِ ، وَالصَّبْرَ مَعَكَ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٣) : ((﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ يُبَايِعُونَكَ ﴾ . قَالَ الْفَرَاءُ : أَي عَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ . وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ : مِنَ الرَّضَى بِأَمْرِ الْبَيْعَةِ عَلَى أَنْ لَا يَفْرُوا . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : مِنْ كَرَاهَةِ الْبَيْعَةِ عَلَى الْمَوْتِ)) .

﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، رَزَقَهُمُ اللَّهُ الطَّمَأْنِينَةَ ، وَسُكُونَ النَّفْسِ عِنْدَ الْبَيْعَةِ ، وَتَلَجَّ الصَّدْرَ بِالنُّصْرَةِ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٣٤٧) : ((فَأَنْزَلَ الطَّمَأْنِينَةَ وَالنَّبَاتَ عَلَى مَا هُمْ مِنْ دِينِهِمْ ، وَحَسَّنَ بَصِيرَتَهُمْ ، بِالْحَقِّ الَّذِي هَدَاهُمْ اللَّهُ لَهُ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٣) : ((﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ رَضِيَ ﴾ . وَالسَّكِينَةُ : الطَّمَأْنِينَةُ ، وَسُكُونَ النَّفْسِ ، وَقِيلَ : الصَّبْرُ)) .

﴿ وَأَنَابَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴾ ، وَجَازَاهُمْ عَلَى بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ ، وَمَا فِيهَا مِنَ النَّصْرِ وَالْغَنَائِمِ ، زِيَادَةً عَلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ . وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٧٣) : ((هُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ عِنْدَ انصِرَافِهِمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى وَغَيْرُهُمَا . وَقِيلَ : فَتْحُ مَكَّةَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى)) . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٤٣) : ((وَهُوَ مَا أَجْرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الصَّلْحِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ ، وَمَا حَصَلَ بِذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِ الْمُسْتَمِرِّ الْمُتَّصِلِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ ، ثُمَّ سَائِرِ الْبِلَادِ وَالْأَقَالِيمِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْعِزِّ وَالنُّصْرِ وَالرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الْفَتْحُ : ٢٦] . دَخَلَ إِلَى قُلُوبِ الْكُفَّارِ الْأَنْفَةُ ، وَالْغَطْرَسَةُ ، وَالْكَرْبَاءُ بِالْبَاطِلِ ، وَالْعَصِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ . وَحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ تَمْنَعُ الْفِرْدَ مِنَ الْخُضُوعِ لِلْحَقِّ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٨) : ((وَالظَّرْفُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ ، أَي : اذْكُرْ وَقْتَهُ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ .

والْحَمِيَّةُ : الأَنْفَةُ ، يُقَالُ : فُلَانٌ ذُو حَمِيَّةٍ ، أَي : ذُو أَنْفَةٍ وَغَضَبٍ ، أَي : جَعَلُوهَا ثَابِتَةً رَاسِخَةً فِي قُلُوبِهِمْ . وَالْجَعْلُ بِمَعْنَى الْإِلْقَاءِ ، وَحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ بَدَلٌ مِنَ الْحَمِيَّةِ . قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ : قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ : قَدْ قَتَلُوا أَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَيَدْخُلُونَ عَلَيْنَا فِي مَنَازِلِنَا ، فَتَحَدَّثَتِ الْعَرَبُ أَنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْنَا عَلَى رِجْمِ أَنْفِنَا ، وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا يَدْخُلُونَهَا عَلَيْنَا ، فَهَذِهِ الْحَمِيَّةُ هِيَ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ . وَقَالَ الرَّهْرِيُّ : حَمِيَّتُهُمْ أَنْفَتُهُمْ مِنَ الْإِقْرَارِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالرَّسَالَةِ)) .

الْحَمِيَّةُ هِيَ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ وَالتَّكْبُرُ وَالرَّفْعَةُ الْمَمْقُوتَةُ ، وَهِيَ إِحْدَى الْخِصَالِ الرَّئِيسِيَّةِ لِحَقِيْقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهَذِهِ الْخِصْلَةُ الْمَذْمُومَةُ هِيَ حِجَابٌ يَمْنَعُ وُضُوءَ نُورِ الْحَقِّ إِلَى الْقَلْبِ ، وَبِالتَّالِيِ فَإِنَّ الْمَرْءَ يَسْقُطُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْهَوَى وَالْعَصْبِيَّةِ وَالتَّشَنُّجِ ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ كَائِنٍ عَاقِلٍ نَاضِحٍ إِلَى كَائِنٍ غَرِيزِيٍّ هَائِجٍ ، لَا يَضَعُ الْأُمُورَ فِي نَصَابِهَا الصَّحِيحِ ، وَلَا يُدْرِكُ أَهْمِيَّةَ الْعَقْلِ فِي تَصْحِيحِ الْمَسَارِ الْوَاقِعِي . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٢ / ٩٧٤) : ((وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ ، وَلَمْ يَقْرَأُوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ)) .

هَذِهِ الْعَطْرَسَةُ ، وَالتَّكْبُرُ عَلَى الْحَقِّ ، وَرَفْضُ الْإِيمَانِ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا ، كُلُّهَا قِيَمٌ جَاهِلِيَّةٌ شَكَلَتْ فِلْسَفَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . وَتَتَجَلَّى خُطُورَةُ الْحَمِيَّةِ فِي كَوْنِهَا مَانِعًا يَحُولُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْقُلُوبِ ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى انْحِرَافِ النَّاسِ عَنِ الْمَنْهَجِ الْإِيمَانِيِّ الْقَوِيمِ ، وَالرُّكُونِ إِلَى تَطَرُّفِهِمْ الْعَقَائِدِيِّ ، وَسُوءِ أَخْلَاقِهِمْ ، وَعَدَمِ مُوَازَنَتِهِمْ لِلْأُمُورِ . فَبِسَبَبِ اعْتِدَادِهِم بِالْأَعْمَى بِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَقْدِيسِهِمْ لِبَيْتِهِمُ الْقَائِمَةَ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ لِتَارِيخِهِمُ الْوُثْنِيِّ ، يَرْفُضُونَ طُوقَ النَّجَاةِ ، وَيُوَاصِلُونَ الْعَرَقَ ، غَيْرَ شَاعِرِينَ بِالْكَارِثَةِ الَّتِي تُحَاصِرُهُمْ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ .

وَقَالَ سَيِّدُ قُطْبٍ فِي الظَّلَالِ (٢٦ / ١١٥) : ((وَهَذِهِ الْحَمِيَّةُ إِنَّمَا هِيَ حَمِيَّةُ الْكِبَرِ وَالْفَخْرِ وَالبَطَرِ وَالتَّعَنُّتِ ، الْحَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةُ الَّتِي جَعَلْتَهُمْ يَقْفُونَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ ، يَمْنَعُونَهُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَيَحْبِسُونَ الْهَدْيَ الَّذِي سَاقَوْهُ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ الَّذِي يُنْحَرُ فِيهِ ، مُخَالَفِينَ بِذَلِكَ كُلَّ عُرْفٍ وَكُلَّ عَقِيدَةٍ ، كَمَا لَا تَقُولُ الْعَرَبُ : إِنَّ مُحَمَّدًا دَخَلَهَا عَلَيْهِمْ غُنُورًا . فَفِي سَبِيلِ هَذِهِ النَّعْرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ يَرْتَكِبُونَ هَذِهِ الْكَبِيرَةَ الْكَرِيهَةَ فِي كُلِّ عُرْفٍ وَدِينٍ ، وَيَنْتَهِكُونَ حُرْمَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي يَعِيشُونَ عَلَى حَسَابِ قَدَاسَتِهِ ، وَيَنْتَهِكُونَ حُرْمَةَ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ الَّتِي لَمْ تُنْتَهَكْ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ)) .

إِنَّ هَذِهِ الْحَمِيَّةَ الْإِثْمَةَ وُلِدَتْ مِنْ رِجْمِ الْاسْتِكْبَارِ وَازْدِرَاءِ الْحَقِّ ، وَوُلِدَتْ جِيلاً غَارِقًا فِي رَفْضِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ وَالحَقِيقَةِ الْحَاسِمَةِ ، إِذْ إِنَّ الْعُلُوَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَاحْتِقَارَ الْعُقُولِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ

البشرية، أدبًا إلى توليد قيم مُضادَّة للحق المُطلق . وقد كان المُشركون غارقين في حميَّة الجاهليَّة، وعقلية رفض الحق ، وعدم تقبُّله ، فلم يتعوَّدوا على الاعتراف بالذنب أو الخطأ ، والرُّجوع إلى الصواب، لأنَّ تربيتهم قائمة على العناد والمُكابرة ، وتقديم الأهواء الشخصية على الحقيقة بدون وجود منهج عقلائي مُستقيم يتعامل مع طبيعة السلوك الاجتماعي بكُلِّ حالاته الإيجابية والسلبية .

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . جعلَ اللهُ الطُّمَأْنِينَةَ والوَقَارَ في قلب

النبيِّ ﷺ وقلوبِ أصحابه، ولم تَلَحَقْهم العصبيةُ الجاهليَّةُ كما لَحِقَتْ المُشركين .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٨) : ((أَنْزَلَ الطُّمَأْنِينَةَ والوَقَارَ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى

المؤمنين، حيث لم يَدْخُلْهم ما دَخَلَ أَهْلَ الكُفْرِ مِنَ الحَمِيَّةِ . وقيل: تَبَّتْهُمُ عَلَى الرِّضَى والتَّسْلِيمِ)) .

﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ . اختارَ اللهُ للمؤمنين كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وكرَّمهم وشرفهم بها ، وهي

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ : لا إله إلا اللهُ . وهي التي يَتَّقِي العبدُ بها الشَّرْكَ . وَأُضِيفَتْ إِلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سببُهَا .

وعن عليٍّ _ رضي اللهُ عنه _ في قوله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ ، قال :

((لا إله إلا اللهُ ، واللهُ أكبر))^{٩٨} .

وشهادةُ التَّوْحِيدِ : لا إله إلا اللهُ ، تعني : لا معبود بحق إلا اللهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٤١ ، ٤٤٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ

التَّقْوَى ﴾ ، فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهُمَا لا إله إلا اللهُ ، قاله ابن عباس ومُجاهد وسعيد بن جبَّير

وعكرمة وقتادة والضَّحَّاك والسُّدي وابن زيد في آخرين . وقد رُوِيَ مرفوعًا إِلَى النبيِّ ﷺ ، فعلى

هذا يكون معنى " ألزمهم " : حَكَمَ لَهُمْ بِهَا ، وهي التي تَنْفِي الشَّرْكَ . والثاني لا إله إلا اللهُ واللهُ

أكبر، قاله ابن عمْر، وعن عليٍّ بن أبي طالب كالتَّقْوَى . والثالث لا إله إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريك له،

له المُلْكُ ، وله الحَمْدُ ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير ، قاله عطاء بن أبي رباح . والرابع لا إله إلا اللهُ

مُحَمَّدَ رَسُولَ اللهِ ، قاله عطاء الخُرْساني . والخامس بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قاله الرُّهري .

فعلى هذا يكون المعنى أَنَّهُ لَمَّا أَبَى المُشْرِكُونَ أَنْ يَكْتُبُوا هَذَا فِي كِتَابِ الصُّلْحِ ، أَلْزَمَهُ اللهُ المُؤْمِنِينَ ،

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنَ المُشْرِكِينَ ، وَكَانُوا أَهْلَهَا فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى)) .

﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ . وَكَانَ المُؤْمِنُونَ أَحَقَّ بِهَذِهِ الفَضِيلَةِ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ ، لِأَنَّ اللهُ

اخْتَارَهُمْ لِديْنِهِ وَصُحْبَةَ نَبِيِّهِ ﷺ .

٩٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٠٠) برقم (٣٧١٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٨) : ((وكان المؤمنون أحقَّ بهذه الكلمة من الكفار ، والمُستأهلين لها ذونهم ، لأنَّ الله سبحانه أهلهم لدينه ، وصُحبة رسوله ﷺ)) .
﴿ وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً ﴾ ، والله عالمٌ بمن هو أهل للفضل ، فيؤفقه للخير والحق .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٢٠٧) : ((فيعلم أهل كلِّ شيء ، ويُيسره له)) .
وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٤٧) : ((هو عليمٌ بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر)) .

٢٥_ الاعتدال في الأمور

قال الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البسط فتتعد ملوماً محسوراً ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

ولا تُمسِك يدك عن البذل والعطاء كلَّ الإمساك ، ولا تُضيق على نفسك وأهلك ، أي: لا تكن بخيلاً لا تُعطي أحداً شيئاً ، كأن يدك مقبوضة إلى عنقك لا تستطيع مدّها ، ولا تبسط بخير ، ولا تُفرط في العطاء والإنفاق ، فتعطي جميع ما عندك ، ولا يبقى في يدك شيء ، فتلوم نفسك على إذهب المال ، وتلومك الناس إذا سألوك فلم تُعطيهم . وبعبارة أخرى ، تصير ملوماً عند الله ، وعند الناس بالإسراف والتبذير وسوء التصرف ، وتصير مُنقطعاً ليس عندك شيء . والمحسور في الأصل : المُنقطع عن السير .

والآية تُؤسِّس للمنهج الوسطي في إنفاق المال ، وتسلط الصوِّء على ضرورة التوسُّط في العمل ، وتبيِّن أهميته الفائقة ، وتنهى عن البخل (التفریط) والإسراف (الإفراط) ، فكلاهما مذموم ، وخير الأمور أوسطها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٣) : ((يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش ، ذاماً للبخل ، ناهياً عن السرف : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ﴾ ، أي : لا تكن بخيلاً منوعاً لا تُعطي أحداً شيئاً ، كما قالت اليهود _ عليهم لعائن الله : يد الله مغلولة ، أي: نسبوه إلى البخل ، تعالى وتقدَّس الكريم الوهاب . وقوله : ﴿ ولا تبسطها كلَّ البسط ﴾ ، أي : ولا تُسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ، ﴿ فتتعد ملوماً محسوراً ﴾ ، وهذا من باب اللف والنشر ، أي : فتتعد إن بخلت ملوماً ، يلومك الناس ويذمُّونك ويستغنون عنك ، كما قال زهير ابن أبي سلمى في المُعلِّقة :

ومن كان ذا مال فيبخل بماله على قومه يُستغنون عنه ويُذمم

ومتى بَسَطَتْ يَدَكَ فوق طاقتك ، فَعَدَّتْ بلا شيء تُنْفِقُهُ ، فتكون كالحَسِيرِ ، وهو الدَّابَّةُ التي عَجَزَتْ عن السَّيْرِ ، فَوَقَفَتْ ضَعْفًا وَعَجْزًا ، فَإِنَّهَا تُسَمَّى الحَسِيرِ هكذا فَسَّرَ هذه الآية بأن المُراد هُنَا البُخْلُ والسَّرْفُ : ابن عباس والحسن وقتادة وابن جُرَيْج وابن زَيْد وغيرهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٩ / ٥ و ٣٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ . سبب نزولها أَنَّ غُلَامًا جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال : إِنَّ أُمِّي تَسْأَلُكَ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : " مَا عِنْدَنَا الْيَوْمَ شَيْءٌ " ، قَالَ : فَتَقُولُ لَكَ : أَكْسُنِي قَمِيصَكَ ، قَالَ : فَخَلَعَ قَمِيصَهُ فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَجَلَسَ فِي الْبَيْتِ حَاسِرًا ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن مسعود ، وروى جابر بن عبد الله نَحْوَ هذا فزاد فِيهِ : فَأَذَّنَ بِلَالٍ لِلصَّلَاةِ ، وَانْتَظَرُوهُ فَلَمْ يَخْرُجْ ، فَشَغَلَتْ قُلُوبَ الصَّحَابَةِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ ، فَرَأَوْهُ غُرِيَانًا ، فنزلت هذه الآية . والمعنى : لَا تُمَسِّكْ يَدَكَ عَنِ الْبِذْلِ كُلِّ الْإِمْسَاكِ ، حَتَّى كَانَتْهَا مَقْبُوضَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ، ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ فِي الْإِعْطَاءِ وَالتَّفَقُّةِ ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا ﴾ تَلُومَ نَفْسِكَ ، وَيَلُومَكَ النَّاسُ ، ﴿ مَحْسُورًا ﴾ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : تَحْسِرُكَ الْعَطِيَّةُ وَتَقْطَعُكَ ، كَمَا يَحْسِرُ السَّفَرُ البَعِيرَ ، فَيَقِي مُنْقَطِعًا بِهِ . قَالَ الرَّجَاجُ : المَحْسُورُ : الَّذِي قَدْ بَلَغَ الْعَايَةَ فِي التَّعَبِ وَالْإِعْيَاءِ ، فَالْمَعْنَى : فَتَقْعُدُ وَقَدْ بَلَغْتَ فِي الْحَمْلِ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَحَالَكَ حَتَّى صِرْتَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ حَسَرَ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَهَذَا الْخِطَابُ أُرِيدَ بِهِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدْخِرُ شَيْئًا لِعَدِّهِ ، وَكَانَ يَجُوعُ حَتَّى يَشُدَّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ ، وَقَدْ كَانَ كَثِيرًا مِنْ فَضْلَاءِ الصَّحَابَةِ يُنْفِقُونَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُونَ ، فَلَمْ يَنْهَهُمُ اللَّهُ لِصِحَّةِ يَقِينِهِمْ ، وَإِنَّمَا نَهَى مِنْ خِيفِ عَلَيْهِ التَّحْسِرُ عَلَى مَا خَرَجَ مِنْ يَدِهِ ، فَأَمَّا مَنْ وَثِقَ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ غَيْرُ مُرَادٍ بِالْآيَةِ)) .

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالمُتَصَدِّقِ مَثَلُ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، قَدْ اضْطَرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَكُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَتِهِ اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تُعْفَى أُنْزَرَهُ ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ انْقَبَضَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَى صَاحِبَتِهَا وَتَقَلَّصَتْ عَلَيْهِ ، وَانْضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، _ فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : _ فَيَجْتَهِدُ أَنْ يُوسِّعَهَا فَلَا تَتَّسِعُ)) ٩٩ .

الصَّدَقَةُ هِيَ الْمَالُ الْفَائِضُ عَنِ حَاجَةِ النَّفْسِ وَالْعِيَالِ ، الَّذِي يُخْرِجُهُ الْعَبْدُ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ وَمَجَالَاتِ الْخَيْرِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ ، وَأَفْضَلِ الطَّاعَاتِ ، وَسَبَبِ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
أَمَّا الْبُخْلُ (إِمْسَاكُ الْمَالِ) فَهُوَ سَبَبُ الشَّقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

٩٩ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٦٨) برقم (٢٧٦٠) ، ومسلم (٢ / ٧٠٨) برقم (١٠٢١) .

ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ ، حَيْثُ شَبَّهَهُمَا بِرَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مَنْسُوجَتَانِ مِنَ الْحَدِيدِ ، وَالْجُبَّةُ كَالْعَبَاءِ ، تُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ ، قَدْ أَلْجَأَتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، وَلَصِقَتْ بِهَا ، كَأَنَّهَا مَعْلُوقَةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمَا . وَالتَّرْفُوتَانِ عَظْمَانِ مُشْرِفَانِ فِي أَعْلَى الصَّدْرِ إِلَى جِهَةِ النَّحْرِ ، يَقَعَانِ بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قِصْرِ الْجُبَّةِ عَلَى الْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ . وَكُلَّمَا هَمَّ الْمُتَّصِدِّقُ بِإِخْرَاجِ صَدَقَتِهِ ، اتَّسَعَتِ الْجُبَّةُ ، وَطَالَتْ عَلَيْهِ ، وَغَطَّتْ جَسَدَهُ ، حَتَّى تَمْحُوَ خَطْوَاتِهِ الَّتِي يَخْطُوهَا ، وَهَذَا بَيَانٌ لِشِدَّةِ طَوْلِهَا عَلَى صَاحِبِهَا .

وقال الحافظ في الفتح (٣ / ٣٠٦) : ((والمعنى أَنَّ الصَّدَقَةَ تَسْتُرُ خَطَايَاهُ كَمَا يُغْطِّي الثُّوبُ الَّذِي يَجْرُ عَلَى الْأَرْضِ أَثَرَ صَاحِبِهِ إِذَا مَشَى بِمُرُورِ الذَّلِيلِ عَلَيْهِ)) .

وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَكُلَّمَا رَجَعَ عَنِ الصَّدَقَةِ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْجُبَّةُ ، وَانزَوَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَى صَاحِبَتِهَا ، وَالتَّصَقَّتْ بِجِلْدِهِ ، وَانضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، فَيُحَاوِلُ أَنْ يُوسِّعَهَا بِيَدِهِ ، وَهِيَ شَدِيدَةٌ مُحْكَمَةٌ ، لَا تَتَّسِعُ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْكَرِيمَ الْمُتَّصِدِّقَ تَبَسُّطُ نَفْسِهِ ، وَتَرْتَاحُ إِلَى الصَّدَقَةِ ، وَتَفْرَحُ بِهَا ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَتَضْيِيقُ نَفْسِهِ ، وَتَنْقِضُ مِنَ الصَّدَقَةِ .

وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ أَهْمِيَةَ الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَالْمُتَّصِدِّقُ كُلَّمَا بَسَطَ يَدَهُ بِالْخَيْرِ ، بَسَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَضْلَهُ ، وَأَسْعَى عَلَيْهِ النَّعْمَ الْعَظِيمَةَ ، وَأَغْرَقَهُ فِي الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، وَمَنَحَهُ أَعْضَاءَ مَا أَنْفَقَ . وَالْبَخِيلُ كُلَّمَا قَبَضَ يَدَهُ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، وَامْتَنَعَ عَنِ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ ، ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ حَيَاتَهُ بَوْرَةً لِلْبِئْسِ وَالْقَلْقِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْفَقْرِ .

وفي فتح الباري (٣/ ٣٠٦ و ٣٠٧) عن رواية أخرى للحديث: ((قال الخطابي وغيره : وهذا مَثَلُ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ ، فَشَبَّهَهُمَا بِرَجُلَيْنِ أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَلْبَسَ دِرْعًا يَسْتَتِرُ بِهِ مِنْ سِلَاحِ عَدُوِّهِ ، فَصَبَّهَا عَلَى رَأْسِهِ لِيَلْبَسَهَا ، وَالدَّرُوعُ أَوَّلُ مَا تَقَعُ عَلَى الصَّدْرِ وَالتَّنْدِيينِ إِلَى أَنْ يُدْخَلَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ فِي كُمَيْيْهَا ، فَجَعَلَ الْمُتَّصِدِّقُ كَمَنْ لَبَسَ دِرْعًا سَابِغَةً ، فَاسْتَرَسَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى سَتَرَتْ جَمِيعَ بَدَنِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " حَتَّى تَعْفُوَ أَثْرَهُ " ، أَي : تَسْتُرُ جَمِيعَ بَدَنِهِ . وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كَمَثَلِ رَجُلٍ غَلَّتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، كُلَّمَا أَرَادَ لُبْسَهَا اجْتَمَعَتْ فِي عُنُقِهِ ، فَلَزِمَتْ تَرْفُوتَهُ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " فَلَصَّتْ " ، أَي : تَضَامَّتْ وَاجْتَمَعَتْ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْجَوَادِ إِذَا هَمَّ بِالصَّدَقَةِ انْفَسَحَ لَهَا صَدْرُهُ ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ ، فَتَوَسَّعَتْ فِي الْإِنْفَاقِ . وَالْبَخِيلُ إِذَا حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالصَّدَقَةِ شَحَّتْ نَفْسُهُ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ ، وَانْقَبَضَتْ يَدَاهُ . ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وَقَالَ الْمُهَلَّبُ : الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَرُ الْمُتَّصِدِّقَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِخِلَافِ الْبَخِيلِ ، فَإِنَّهُ يَفْضُحُهُ . وَمَعْنَى تَعْفُوَ أَثْرَهُ : تَمْحُوَ خَطَايَاهُ . وَتَعَقَّبَهُ

عِيَاضُ بِأَنَّ الْخَبَرَ جَاءَ عَلَى التَّمْثِيلِ لَا عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْ كَائِنٍ. قَالَ وَقِيلَ: هُوَ تَمَثِيلٌ لِنَمَاءِ الْمَالِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْبُخْلُ بِضَدِّهِ. وَقِيلَ: تَمَثِيلٌ لِكثْرَةِ الْجُودِ وَالْبُخْلِ، وَأَنَّ الْمُعْطِيَ إِذَا أَعْطَى انبَسَطَتْ يَدَاهُ بِالْعَطَاءِ وَتَعَوَّدَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَمْسَكَ صَارَ ذَلِكَ عَادَةً. وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ: قَيَّدَ الْمُشَبَّهَ بِهِ بِالْحَدِيدِ إِعْلَامًا بِأَنَّ الْقَبْضَ وَالشَّدَّةَ مِنْ جِبَلَّةِ الْإِنْسَانِ، وَأَوْقَعَ الْمُتَصَدِّقَ مَوْقِعَ السَّخِيِّ لِكَوْنِهِ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ الْبُخْلِ، إِشْعَارًا بِأَنَّ السَّخَاءَ هُوَ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ وَنَدَبَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ لَا مَا يَتَعَانَاهُ الْمُسْرِفُونَ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] .

تُبْرَزُ الْآيَةُ أَهْمِيَّةَ التَّوَسُّطِ وَالْإِعْتِدَالِ بَيْنَ الْجَهْرِ بِالصَّلَاةِ وَالْمُخَافَةِ بِهَا .

وَلَا تَجْهَرُ يَا مُحَمَّدٌ بِالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاتِكَ حَتَّى تُسْمِعَ الْمَشْرِكِينَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُوهُمْ إِلَى شَتْمِ الْقُرْآنِ وَاللُّغُو فِيهِ ، وَالْقُرْآنُ مُقَدَّسٌ يَنْبَغِي تَنْزِيهِهِ عَنْ أَيِّ اعْتِدَاءٍ لَفْظِيٍّ عَلَيْهِ ، وَلَا تُخْفِضُ صَوْتَكَ فِي الْقِرَاءَةِ حَتَّى لَا تُسْمِعَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ خَلْفَكَ، وَلَتَكُنْ قِرَاءَتُكَ مُعْتَدَلَةً وَمُتَوَسِّطَةً بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ ، وَاسْلُكْ طَرِيقًا وَسَطًا بَيْنَهُمَا . وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا ، وَالْاِقْتِصَادُ فِي جَمِيعِ الْقَضَايَا مَطْلُوبٌ وَمَحْبُوبٌ وَمَرْغُوبٌ فِيهِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا ﴾ . قَالَ : نَزَلَتْ وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ ، كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَإِذَا سَمِعَهُ الْمَشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ ، أَيُّ: بِقِرَاءَتِكَ، فَيَسْمَعُ الْمَشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ. ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمْ ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ١٠٠ .

الْخِطَابُ الْإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ : لَا تَرْفَعُ صَوْتَكَ فِي الْقِرَاءَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَيَسْمَعُكَ الْمَشْرِكُونَ وَيُؤْذُونَكَ ، وَلَا تُسِرَّ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا تُسْمِعُ نَفْسَكَ وَلَا تُسْمِعُ مَنْ خَلْفَكَ ، يَعْنِي : لَا تُخْفِضُ صَوْتَكَ حَتَّى لَا تُسْمِعَ أُذُنَيْكَ ، وَاسْلُكْ طَرِيقًا وَسَطًا مُعْتَدَلًا بَيْنَ الْجَهْرِ (رَفْعِ الصَّوْتِ) وَالسَّرِّ (خَفِضِ الصَّوْتِ) .

وَهُنَا تَظْهَرُ أَهْمِيَّةُ التَّوَسُّطِ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ، فَالصَّوْتُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُعْتَدَلًا وَاضِحًا ، لَيْسَ عَالِيًا يَصِلُ إِلَى آذَانِ الْمَشْرِكِينَ فَيَعْتَدُونَ عَلَى الْقُرْآنِ بِالْفَاطِهَةِ الْقَبِيحَةِ، وَلَا خَافِتًا لَا يَصِلُ إِلَى آذَانِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَعْجِزُونَ عَنْ أَدَاءِ الصَّلَاةِ . بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الصَّوْتُ وَسَطًا ، بَلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ .

١٠٠ متفق عليه . البخاري (٤ / ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٥) ، ومسلم (١ / ٣٢٩) برقم (٤٤٦) .

إِنَّ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَاءَ ، أُصُولُهَا وَفُرُوعُهَا ، كُلُّهَا وَسَطٌ ، بِلَا إِفْرَاطٍ ، وَلَا تَغْرِيطٍ ، وَتُحْصَلُ جَمِيعُ الْمَصَالِحِ ، وَتَدْرَأُ جَمِيعُ الْمَفَاسِدِ .

نَزَلَتْ الْآيَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ ، فَكَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ ، فَإِذَا سَمِعَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ لَا يَرْفَعَ صَوْتَهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ السَّامِعُ ، فَيَسْمَعُ الْمُشْرِكُونَ ، فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، وَأَيْضًا ، لَا يُخْفِضُ صَوْتَهُ بِحَيْثُ لَا يُسْمَعُ أَصْحَابَهُ ، وَيَجِبُ أَنْ يَقْصِدَ طَرِيقًا وَسَطًا بَيْنَ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَةِ ، وَبِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِتَحْقِيقِ الْمَنْفَعَتَيْنِ مَعًا ، عَدَمَ الْإِخْلَالِ بِسَمَاعِ الْحَاضِرِينَ ، وَالاحْتِرَازِ عَنِ سَبِّ الْكَافِرِينَ لِلْقُرْآنِ عِنْدَ سَمَاعِهِ .

وفي الحديث : فضلُ ابنِ عباسٍ _ رضي اللهُ عنهما _ وعلمه بتفسير القرآن وأسباب نزوله .
وقال الحافظ في الفتح (٤٠٥ / ٨) : ((قوله : " نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُخْتَفٍ بِمَكَّةَ " ، يعني : في أول الإسلام . قوله : " رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ " . في رواية الطبري من وجه آخر عن ابن عباس : فكان إذا صلى بأصحابه وأسمع المشركين فأذوه . وفَسَّرَتْ روايةُ البابِ الأذى بقوله : سَبُّوا الْقُرْآنَ . وللطبري من وجه آخر عن سعيد بن جبير ، فقالوا له : لا تَجْهَرُ فُتُؤَذِي آلِهَتَنَا فَتَنْهَجُو إِلَهَكَ . ومن طريق داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : كان النبي ﷺ إذا جَهَرَ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ يُصَلِّي ، تَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَإِذَا خَفَضَ صَوْتَهُ لَمْ يَسْمَعْهُ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ قِرَاءَتَهُ ، فَتَنَزَّلَتْ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ ، أي : بقراءتك . وفي رواية الطبري : لا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ، أي : لا تُعْلِنُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ إِعْلَانًا شَدِيدًا فَيَسْمَعَكَ الْمُشْرِكُونَ فَيُؤْذُونَكَ ، وَلَا تُخَافُتْ بِهَا ، أي : لَا تُخْفِضُ صَوْتَكَ حَتَّى لَا تُسْمِعَ أُذُنَيْكَ ، ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ، أي : طَرِيقًا وَسَطًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١) : ((فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ فَتَنْزَلُ عَلَى سَبَبٍ ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ بِمَكَّةَ ، فَيَسُبُّ الْمُشْرِكُونَ الْقُرْآنَ ، وَمَنْ أَتَى بِهِ ، فَخَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ ، وَلَا تُخَافُتْ بِهَا عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا يَسْمَعُونَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ كَانَ يَجْهَرُ فِي التَّشْهَدِ ، وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي بِمَكَّةَ عِنْدَ الصُّفَا ، فَجَهَرَ بِالْقُرْآنِ فِي صَلَاةِ الْعَدَاةِ (الْفَجْرِ) ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَا تَفْتَرِ عَلَى اللَّهِ ، فَخَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ صَوْتَهُ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لِلْمُشْرِكِينَ : أَلَا تَرَوْنَ مَا فَعَلْتُ بِابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، رَدَدْتُهُ عَنْ قِرَاءَتِهِ ، فَتَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مَقَاتِلٌ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ

بصلاتك» ، فيه قولان: أحدهما أنها الصلاة الشرعية، ثم في المراد بالكلام ستة أقوال : أحدها : لا تجهر بقراءتك، ولا تُخافِ بها ، فكأنه نَهَى عن شِدَّة الجَهْر بالقراءة وشِدَّة المُخَافَةِ ، قاله ابن عباس. فعلى هذا في تسمية القراءة بالصلاة قولان ذكرهما ابن الأنباري : أحدهما أن يكون المعنى: فلا تجهر بقراءة صلاتك، والثاني أن القراءة بعض الصلاة، فنابت عنها، كما قيل لعيسى: كلمة الله ، لأنه بالكلمة كان . والثاني لا تُصَلِّ مُرَاءَةً للناس ولا تَدْعُهَا مَخَافَةَ الناس ، قاله ابن عباس أيضًا. والثالث لا تجهر بالتشهد في صلاتك ، رُوِيَ عن عائشة في رواية ، وبه قال ابن سيرين . والرابع لا تَجْهَرُ بِفِعْلِ صلاتك ظاهراً ، ولا تُخَافِتُ بها شديد الاستتار ، قاله عكرمة . والخامس لا تُحَسِّنُ علانيتها وتُسَيِّئُ سريرتها ، قاله الحسن . والسادس لا تجهر بصلاتك كُلِّهَا ، ولا تُخَافِتُ بجميعها ، فَاجْهَرُ في صلاة الليل ، وَخَافِتِ في صلاة النهار ، على ما أمرناك به ، ذكره القاضي أبو يعلى . والقول الثاني أن المراد بالصلاة الدعاء ، وهو قول عائشة وأبي هريرة ومجاهد . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ المُخَافَةِ الإخفاء . يُقَالُ : صَوَّتْ خَفِيتُ . ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي: اسلك بين الجهر والمخافة طريقًا .

وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. هؤلاء هم المؤمنون الصادقون ، حيث إنهم مُعْتَدِلُونَ في إنفاقهم ، يلتزمون بالمنهج الوسطي في العلاقات المالية . وهم لا يُنْفِقُونَ مَالَهُمْ في معصية الله وإن قَلَّ ، ولا يَمْنَعُونَ حَقَّ الله تعالى . والإسراف هو مُجَاوِزَةُ الحَدِّ في الإنفاق ، والتَّقْتِيرُ هو التَّقْصِيرُ عن الأمور الضرورية ، ومنع الواجب . وقيل : الإسراف هو الإنفاق في معصية الله وإن قَلَّ . والإقتار هو منع حق الله تعالى . إنهم لا يُجَاوِزُونَ حَدَّ الكَرَمِ ، فيصيرون مُبَدَّرِينَ ، ولا يُضَيِّقُونَ على أنفسهم وغيرهم ، فيصيرون بُخْلَاءً . إنهم يُنْفِقُونَ أموالهم باعتدال وتوازن بين الإسراف والإقتار: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ وَسَطًا عَدْلًا . سُمِّيَ به لاستقامة الطَّرْفَيْنِ . والقَوَامُ هو العَدْلُ بين الشَّيْئَيْنِ . وصدق القائل :

ولا تَعْلُ في شَيْءٍ مِنَ الأَمْرِ وَافْتَصِدْ كِلا طَرْفِي قَصْدِ الأَمْرِ ذَمِيمٌ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٤٣٣) : ((أي : لَيْسُوا بِمُبَدَّرِينَ في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بُخْلَاءَ على أهلهم فيُقَصِّرُونَ في حقهم فلا يَكْفُونَهُمْ ، بل عَدْلًا خِيَارًا ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا)) .

إنَّ الشَّرِيعَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَسَّسَتْ الْمَبْدَأَ الْأَصِيلَ فِي عِلْمِ الْاِقْتِصَادِ، وَهُوَ التَّوْازُنُ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ ، وَالِاعْتِدَالَ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ . فَالْإِنْفَاقُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِلَا إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ ، وَإِنَّمَا بِشَكْلِ مُعْتَدِلٍ لَا تَطْرُفُ فِيهِ إِلَى آيَةٍ جِهَةٍ . وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ الْحِفَافُ عَلَى سَيْرِ الْأُمُورِ دُونَ مَشْكَالَاتٍ غَيْرِ مُحْسُوبَةٍ .

وَالِاِقْتِصَادُ فِي الْإِنْفَاقِ هُوَ الضَّمَانَةُ الْأَكِيدَةُ لِلِاسْتِمْرَارِيَّةِ وَعَدَمِ تَعَطُّلِ الْمَشَارِيعِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحٌ مَعِيشَةٌ لِلنَّاسِ . كَمَا أَنَّ التَّوَسُّطَ فِي الْإِنْفَاقِ يَمْنَعُ حُدُوثَ مَفَاجِآتٍ غَيْرِ سَارَّةٍ ، لِأَنَّ الْأُمُورَ تَكُونُ مُحْسُوبَةً بِدِقَّةٍ مَعَ وُجُودِ هَامِشٍ لِحَالَاتِ الطَّوَارِئِ ، وَهَذَا يَحْوِلُ دُونَ ظُهُورِ صَدَمَاتٍ قَاتِلَةٍ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣ / ٧١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ﴾ . اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ . فَقَالَ التَّحَّاسُ : وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ أَنْ مَنْ أَنْفَقَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ الْإِسْرَافُ . وَمَنْ أَمْسَكَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الْإِقْتَارُ ، وَمَنْ أَنْفَقَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ الْقَوَامُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَنْ أَنْفَقَ مِائَةَ أَلْفٍ فِي حَقِّ فُلَيْسٍ بِسَرْفٍ ، وَمَنْ أَنْفَقَ دِرْهَمًا فِي غَيْرِ حَقِّهِ فَهُوَ سَرْفٌ ، وَمَنْ مَنَعَ مِنْ حَقِّ عَلَيْهِ ، فَقَدْ قَتَرَ . وَقَالَ مَجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُمَا وَالْوَجْهَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ التَّفَقُّةَ فِي مَعْصِيَةِ أَمْرِ حَظَرَتِ الشَّرِيعَةُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، وَكَذَلِكَ التَّعَدِّيُّ عَلَى مَالِ الْغَيْرِ ، وَهَؤُلَاءِ الْمَوْصُوفُونَ مُنْزَهُونَ عَنِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا التَّأْدِيبُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ فِي نَفَقَةِ الطَّاعَاتِ فِي الْمُبَاحَاتِ ، فَأَدَبَ الشَّرْعُ فِيهَا أَلَّا يُفْرِطَ الْإِنْسَانُ حَتَّى يُضَيِّعَ حَقًّا آخَرَ أَوْ عِيَالًا ، وَنَحْوَ هَذَا ، وَأَلَّا يُضَيِّقَ أَيْضًا وَيُقْتَرَّ حَتَّى يُجِيعَ الْعِيَالَ ، وَيُفْرِطَ فِي الشُّحِّ . وَالْحَسَنُ فِي ذَلِكَ هُوَ الْقَوَامُ ، أَيْ الْعَدْلُ . وَالْقَوَامُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ عِيَالِهِ وَحَالِهِ وَخِفَّةِ ظَهْرِهِ وَصَبْرِهِ وَجَلْدِهِ عَلَى الْكَسْبِ ، أَوْ ضِدِّ هَذِهِ الْخِصَالِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا ، وَلِهَذَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا بَكْرَ الصَّدِيقَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ وَسَطٌ بِنِسْبَةِ جَلْدِهِ وَصَبْرِهِ فِي الدِّينِ ، وَمَنَعَ غَيْرَهُ مِنْ ذَلِكَ . وَنَعَمْ مَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : هُوَ الَّذِي لَا يُجِيعُ وَلَا يُعْرِي ، وَلَا يُنْفِقُ نَفَقَةً يَقُولُ النَّاسُ : قَدْ أَسْرَفَ . وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ : هُمُ الَّذِينَ لَا يَلْبَسُونَ الثِّيَابَ لِجَمَالٍ ، وَلَا يَأْكُلُونَ طَعَامًا لِلذَّةِ ، وَقَالَ يَزِيدُ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ طَعَامًا لِلتَّنَعُّمِ وَاللَّذَّةِ ، وَلَا يَلْبَسُونَ ثِيَابًا لِلجَمَالِ ، وَلَكِنْ كَانُوا يُرِيدُونَ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَسُدُّ عَنْهُمْ الْجُوعَ ، وَيُقَوِّيَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ ، وَمِنَ اللَّبَاسِ مَا يَسْتُرُ عَوْرَاتِهِمْ ، وَيُكْنِئُهُمْ (يَحْفَظُهُمْ) مِنَ الْحَرِّ وَالْبُرْدِ . وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ حِينَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ : مَا نَفَقْتُكَ ؟ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : الْحَسَنَةَ بَيْنَ سَيِّئَتَيْنِ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ . وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : كَفَى بِالْمَرْءِ سَرْفًا أَلَّا يَشْتَهِيَ شَيْئًا إِلَّا اشْتَرَاهُ فَأَكَلَهُ)) .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ [البقرة : ٤٠] .

يَأْمُرُ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ ، فَيَتَفَكَّرُوا فِيهَا ، وَيَقُومُوا بِشُكْرِهَا . وَالنَّعْمُ الْإِلَهِيَّةُ لَا يُمْكِنُ إِحْصَاؤُهَا . وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ اخْتَارَ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَاهَمَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَالْعَرَقِ ، وَعَقَفَ عَنِ اتِّخَاذِ الْعِجْلِ إِلَيْهَا مِنْ دُونِهِ تَعَالَى ، وَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ ، وَاحْسَانًا إِلَيْهِمْ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٨٦) : ((يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وَكَانَ يَعْقُوبُ يُدْعَى إِسْرَائِيلَ ، بِمَعْنَى عَبْدِ اللَّهِ وَصَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَإِيلَ هُوَ اللَّهُ ، وَإِسْرَا هُوَ الْعَبْدُ . كَمَا قِيلَ : جَبْرِيلُ بِمَعْنَى عَبْدِ اللَّهِ)) .

وَقَدْ نَسَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِسْرَائِيلَ (يَعْقُوبَ ﷺ) كَمَا يُذَكِّرُهُمْ بِانْتِمَائِهِمْ إِلَيْهِ ، وَهُوَ النَّبِيُّ الطَّاهِرُ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتَفُوا أَثَرَهُ ، وَيَسِيرُوا عَلَى خُطَاهِ ، وَيَلْتَزِمُوا بِمَنْهَجِهِ ، فَهُوَ أَبُوهُمْ الصَّالِحُ . وَهَذَا التَّذْكِيرُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَفِّزَ هِمَّتَهُمْ نَحْوَ الْعَمَلِ . وَحِينَ يَتَذَكَّرُونَ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا تَقِيًّا نَقِيًّا صَالِحًا عَظِيمًا ، سَتَرْتَفَعُ مَعْنَوِيَاتُهُمْ ، وَيُقْبَلُوا عَلَى الْعَمَلِ وَالْإِنْجَازِ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ وَنَشَاطٍ وَحَيَوِيَّةٍ . كَمَا تَقُولُ لِشَخْصٍ : يَا ابْنَ الشَّرِيفِ ، قُمْ بِعَمَلِكَ . فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ الَّتِي تُذَكِّرُهُ بِأَصْلِهِ الْكَرِيمِ وَنَسَبِهِ الْعَظِيمِ ، سَتَكُونُ دَافِعًا لَهُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَاقْتِفَاءً آثَارَ مَنْ سَبَقَهُ فِي الْحَقِّ وَالْإِخْلَاصِ وَالتَّقْوَى ، وَالتَّزَامَ أَوْامِرِ اللَّهِ ، وَاجْتِنَابَ نَوَاهِيهِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٢١) : ((يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالذُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ _ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ _ ، وَمُهِيجًا لَهُمْ بِذِكْرِ آبَائِهِمْ إِسْرَائِيلَ ، وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ . وَتَقْدِيرُهُ : يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ ، كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ . كَمَا تَقُولُ : يَا ابْنَ الْكَرِيمِ افْعَلْ كَذَا ، يَا ابْنَ الشَّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالِ ، يَا ابْنَ الْعَالِمِ اطْلُبِ الْعِلْمَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ)) .

وَهَذَا الْأَسْلُوبُ الْقُرْآنِيُّ الرَّفِيعُ ، يَعْمَلُ عَلَى تَحْفِيزِ النَّاسِ ، وَدَفْعِهِمْ فِي طَرِيقِ الْعَمَلِ الدَّوَّوبِ ، وَرَفْعِ مَسْتَوَى الْجُهُودِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَبَثِّ الْإِيمَانِ فِي النَفُوسِ ، وَنَشْرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَتَفْعِيلِ دَوْرِ الْعَقْلِ فِي تَغْيِيرِ الْوَاقِعِ نَحْوَ الْأَفْضَلِ . وَالْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَتَذَكَّرُ أَصْلَهُ الرَّفِيعَ وَنَسَبَهُ الشَّرِيفَ ، وَتَجُولُ فِي خَاطِرِهِ أَعْمَالُ آبَائِهِ الْكَرَامِ الْعُظَمَاءِ ، سَوْفَ يَنْدَفِعُ بِاتِّجَاهِ التَّشْبُهَةِ بِهِمْ ، وَتَقْلِيدِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ . وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ الْاِفْتِخَارَ بِآبَائِهِ لِأَنَّهُمُ الْمَرْجِعِيَّةُ الَّتِي تَنْبَثِقُ مِنْهَا شَرِيعَةٌ وَجُودَةٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَتَوَاجِدُهُ عَلَى خَارِطَةِ الْبُنْيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لِلْمَجْتَمَعِ .

وصدق القائل :

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشْبُهَ بِالْكَرَامِ فَلَاحٌ

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كان الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوح ، وصالح ، وهود ، ولوط ، وشعيب ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ومحمد ، _ عليهم الصلاة و السلام _ . ولم يكن من الأنبياء من له اسمان إلا إسرائيل وعيسى ، فإسرائيل يعقوب ، وعيسى المسيح))^{١٠١} .

هذا الحديث يُشير إلى أن غالبية الأنبياء كانوا من بني إسرائيل ، وهذه نعمة إلهية كبرى ، كما تدلُّ على قسوة طباع بني إسرائيل الذين احتاجوا إلى هذا العدد الكبير من الأنبياء لغاية التوجيه والإرشاد والهداية . كما يدل على أن يعقوب اسم آخر لإسرائيل ، والمسيح اسم آخر لعيسى . وقد أمر الله بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم ، وذُكر النعمة يكون بالقلب واللسان معاً ، وهذا يستلزم شكر المُنعم ، واحترام النعمة وتقديرها ، وعدم جحدها ولا إهمالها ولا نسيانها^{١٠٢} . وشُكْر النعمة يكون بطاعة الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه . وتخصيص النعمة ببني إسرائيل ، لأنهم كانوا غارقين في نعم الله الكثيرة ، يتقلبون فيها من كلِّ الجوانب . ومع هذا ، كانوا أشدَّ الناس كُفراً وضلالاً وعصياناً وجحوداً للنعم ، وتمرداً على الله المُنعم عزَّ وجلَّ . والآية تُشير إلى أن بني إسرائيل قد نسوا النعم الإلهية ، وأهملوها ، واعتبروها أمراً عادياً روتينياً ، ولم يشكروا الله عليها .

١٠١ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٠٥) برقم (٣٤١٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٠٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٧٢ و ٧٣) : ((وفي المراد بهذه النعمة ثلاثة أقوال : أحدها أنها ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني أنها ما أنعم به على آباؤهم وأجدادهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون ، وأهلك عدوهم ، وأعطاهم التوراة ، ونحو ذلك ، قاله الحسن والزرَّاج . وإنما منَّ عليهم بما أعطى آباءهم ، لأن فخر الآباء فخر للأبناء ، وعار الآباء عار على الأبناء . والثالث أنها جمع نعمة على تصريف الأحوال . والمُراد من ذكرها شكرها ، إذ من لم يشكر فما ذكَّر)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٣٧٠) : ((قال أرباب المعاني : رَبَطَ سُبْحَانَهُ وتعالى بني إسرائيل بِذِكْرِ النعمة ، وأسقطه عن أمة محمد ﷺ ، ودعاهم إلى ذكره ، فقال : ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] ، ليكون نظراً للأمم من النعمة إلى المُنعم ، ونظراً أمة محمد ﷺ من المُنعم إلى النعمة)) .

وإضافة النعمة وإسنادها إلى ضمير الله تعالى : ﴿ نِعْمَتِي ﴾ ، لتشريفها ، وتعظيمها ، وضرورة شكر صاحبها ، وهو الله المُنْعِم المُنْفَضِّل على عباده ، الرحيم بهم ، المُحْسِن إليهم .
والله أحسن إلى بني إسرائيل ، ورزقهم ، ومنَّ عليهم بنعم كثيرة لا تُعدُّ ولا تُحصى ، منها :
أ _ تفجير الحجر لهم . ب _ إنزال المَن والسَّلوى عليهم . ج _ إنقاذهم من عبودية آل فرعون . د _ اختيار الأنبياء والرُّسل منهم . هـ _ إنزال الكتب عليهم . و _ العفو عن اتِّخاذهم العجل إلَّها لهم . ز _ فلق البحر . ح _ تظليل الغمام . وغير ذلك .
وقال الطبري في تفسيره (٢٨٦ / ١) : ((ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل _ جلَّ ذكْرُه _ اصطفاؤه منهم الرُّسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاده إيَّاهم ممَّا كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه ، إلى التمكين لهم في الأرض ، وتفجير عُيون الماء من الحجر ، وإطعام المَن والسَّلوى)) .

كُلُّ هذه النعم وغيرها تُشير إلى عظمة الرحمة الإلهية وسعتها . ولو أراد الله أن يُحاسب العباد بما اكتسبوه لأحرقهم نتيجة أفعالهم الشريفة ، ولكنه هو العفو الرحيم الذي يقبل التوبة ، ويعفو عن السيئات . والله تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، أمَّا العباد فهم أهل المعاصي والدُّنوب . ومع هذا ، يُنعم الله عليهم بكلِّ أنواع النعم ، رحمةً بهم ، وتفضُّلاً عليهم ، وإحساناً إليهم .
وقال البيضاوي في تفسيره (٣٠٧ / ١) : ((﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : بالتفكر فيها والقيام بشكرها . وتقييد النعمة بهم ، لأن الإنسان غيور حسود بالطبع ، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حمَّله الغيرة والحسد على الكُفران والسَّخَط ، وإن نظَرَ إلى ما أنعم الله به عليه حمَّله حُب النعمة على الرضى والشكر . وقيل : أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون ، والغرق ، ومن العفو عن اتخاذ العجل ، وعليهم من إدراك زمن مُحَمَّد ﷺ)) .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . وأوفوا بعهدي الذي عهدت إليكم في التوراة من اتباع النبي مُحَمَّد ﷺ ، وأطيعوني ، ولا تعصوني ، أوف بما ضمَّنت لكم من الثواب ، وهو نعيم الجنة . وقد أمرُوا بالوفاء بالعهد الإلهي المقدس ، وعدم نقضه . وهذا العهد هو الإيمان بالله والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه . وعهده تعالى أن يدخلهم الجنة . والله لا يُخلف العهد ، ولا ينكث بالوعد . وهذا الوفاء بالعهد الإلهي من شأنه أن يمنحهم شرف الدنيا ، ونعيم الآخرة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٢١ / ١) : ((﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . قال : بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم ، أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه ،

بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم ، التي كانت من إحداثكم . وقال آخرون : هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب . والمراد به مُحَمَّدٌ ﷺ . فَمَنْ اتَّبَعَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ ، وأدخله الجنة ، وجعل له أجرين . وقد أورد الرازي بِشَارَاتٍ كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بِمُحَمَّدٍ ﷺ . قال أبو العالية : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ . قال : عهده إلى عباده دين الإسلام ، وأن يتبعوه . وقال الضحَّاك عن ابن عباس : ﴿ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . قال : أرض عنكم ، وأدخلكم الجنة . وكذا قال السُّدي والضحَّاك وأبو العالية والربيع بن أنس)) .

إنَّ بني إسرائيل فيهم الحاكم والمحكوم، والعالم والجاهل. وعلمائهم هم الأحرار الذين يفهمون النصوص الدينية، وينشرونها بين الناس، ويشرحونها، ويُفَسِّرُونَهَا. والإنسان العادي لا يُقدِّر على استيعاب النصوص الدينية بشكل كامل ، فهذه العملية بحاجة إلى منهج علمي ، وقدرات ذهنية ، ومَلَكَاتٍ فكرية ، لا تتوفر إلا لدى العلماء بسبب دراساتهم الواسعة ، وتبحُّرهم في مجال العلوم الدينية ، وقضاء أعمارهم في الدراسة والتدريس . وهذه الخصائص غير متوفرة عند السَّواد الأعظم من الناس ، بسبب غرقهم في الحياة المادية الاستهلاكية ، وجمع حُطام الدنيا الفاني . لذلك ، كان العلماء وَرَثَةَ الأنبياء ، أي إنهم يسيرون على خُطى الأنبياء ، ويحملون دعوتهم إلى الناس ، ويُلغونها كاملةً ، بلا زيادة ولا نقصان . وإذا فسَدَ العلماء فسَدَ الناسُ . فالعلماء هم الرأس ، وإذا زال الرأس من الجسد ، مات الجسدُ . والمُلوكُ حُكَّامٌ على الناس ، والعلماءُ حُكَّامٌ على المُلوك ، كما أنَّ العلماء هم الدَّواءُ لِكُلِّ المُشكلات والأمراض ، وإذا فسَدَ الدَّواءُ فسَوَفَ تنتشر الأمراضُ بشكل كارثي ، ولن يتصدى لها أحد ، لذلك فإنَّ فسَادَ العالمِ هو فسَادُ العالمِ .

وصدق القائلُ :

وراعي الشاةِ يحمي الذئبَ عنها فكيفَ إذا الرُّعاة لها ذئاب

وصدق القائلُ :

يا معشرَ القراءِ يا ملحَ البلد ما يُصلِحُ الملحَ إذا الملحُ فسَدَ

واللهُ يُذكِّرهم بنعمه الجليلة التي أسبغها عليهم وعلى آبائهم ، وهذا التذكير من شأنه بعث التقوى في النفوس الطاهرة ، ومساعدة الإنسان على التفكير والتأمل والتَّروُّي في اتخاذ القرارات المصيرية . فقد نجَّاهم اللهُ من فِرْعَوْنَ الطاغية الذي أهلك الحرثَ والنَّسلَ ، وحفظَ أنفسهم من

القتل . ولا يوجد أكبر من حفظ النَّفْس وحمايتها من الهلاك . وَمَنْ أَدْرَكَ عَظَمَةَ النَّعْمِ الإلهية التي يراها بِأَمِّ عَيْنِهِ ، فلا بُدَّ أن يقوم بواجب شكر الله تعالى ، قَوْلًا وَفِعْلًا . وبالشُّكْرِ تَدْوَمُ النَّعْمُ . والشُّكْرُ لا يكون باللسان فقط ، بل أيضًا بجميع الجوارح .

والمطلوبُ هو الإيفاء بالعهد (وهو أحد أشكال شكر الله تعالى) . أي : اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ ، واللبنة الأخيرة في البناء النبويِّ المتماسك الذي جعله اللهُ على كوكب الأرض منارةً للحائرين ، ودليلاً للتائهين، وإنقاذاً للبشرية، وتخليصاً له مِنْ مَأْزِقِهَا الوجودي الحَرَجِ .
وإذا التزموا بالعهد الإلهيِّ الْمُقَدَّس ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيُكَافِئُهُمْ ، ويُوفِّي بعهدهم ، أي : إِنَّ اللَّهَ سَيُنْجِزُ لَهُمْ ما وعدهم بتصديقهم للنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ واتباعه ، بوضع ما عليهم من الأحمال الثقيلة، والتكاليف الشديدة (الآصار والأغلال) التي كانت عليهم عُقُوبَةً ، بسبب جهلهم ، وعنادهم ، وعَطْرَسْتَهُمْ ، وعدم امتثالهم للأوامر الإلهية .

ويأتي الترهيب بعد الترغيب : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ . خَافُونِي فِي نَقْضِ الْعَهْدِ ، واحرصوا على طاعتي وعدم معصيتي ، واحذروا مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِي . والأمرُ بالخوف يتضمَّن معنى التهديد .
وتقديم ضمير المُتَكَلِّمِ : ﴿ إِيَّايَ ﴾ لإفادة التخصيص ، وأنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هو الذي يستحق الخوف منه .

وعليهم أن يتذكروا ما نَزَلَ بِآبَائِهِمْ مِنْ نِعَمَاتٍ وَمَحَنٍ وَمَصَائِبٍ وَكَوَارِثٍ ، وعليهم أن يتَّعظُوا بما جرى لهم ، ولا يُكْرَرُوا نَفْسَ أَخْطَاءِ آبَائِهِمْ ، لِئَلَّا يَلْاقُوا نَفْسَ مَصِيرِهِمُ الْأَلِيمِ .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٠٧) : ((والآية مُتَضَمِّنَةٌ لِلوَعْدِ وَالوَعِيدِ ، دَالَّةٌ عَلَى وُجُوبِ الشُّكْرِ ، والوفاء بالعَهْدِ ، وأنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى)) .
وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٢١) : ((قال ابن عباس في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ أي : أُنْزِلُ بِكُمْ ما أَنْزَلْتُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ النَّقِمَاتِ ، التي قد عرفتم مِنْ الْمَسْخِ وَغَيْرِهِ . وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب . فدعاهم إليه بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ لعلهم يرجعون إلى الحق ، واتباع الرسول ﷺ ، والانتعاض بالقرآن وزواجه ، وامتثال أوامره ، وتصديق أخباره . واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (١ / ١٥٤) : ((وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ، قال : " للأخبار من اليهود ، اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ أي آلائي عندهم وعند آبائكم لِمَا كَانَ نَجَّاهُمْ بِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، ﴿ وَأَوْفُوا

بعهدي ﴿ الذي أخذتُ بأعناقكم للنبيِّ ﷺ إذ جاءكم ، ﴿ أوفِ بعهدكم ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقكم معه واتباعه ، بوضع ما كان عليهم من الإصر والأغلال ، ﴿ وإيَّايَ فارهبون ﴾ أن أنزلَ بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم من آباءكم من التَّيمَّات ")) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٤٧] .

فضَّل اللهُ بني إسرائيل على العالمين، فقد اختارَ من بينهم أنبياء ورُسلًا ، وأنزلَ عليهم الكُتُبَ، ومَنَحهم المَجدَ والمُلْكَ والسِّيادَةَ . وهذا التَّفضيلُ كان للآباء ، ومع هذا فهو شرفٌ ورفعةٌ للأبناء ، لأن شرف الأب شرف لابنه . واللهُ يُدكِّرهم بنعمه على آباءهم وأسلافهم ، وتفضيلهم على سائر الأمم من أهل زمانهم ، كي يشكروا اللهُ تعالى ، ويلتزموا بأوامره ، ويحجبتوا نواهيهِ . وهذا التَّفضيلُ يعني على عالم زمانهم . وهو من العام الذي أُريدَ به الخاص .

وللأسف ، لم يُقدِّرْ بنو إسرائيل النِّعمَ الإلهيةَ العظيمةَ ، ولم يعرفوا قيمةَ كُتُبهم ، ومكانةَ أنبيائهم ورُسلهم . ومن لم يشكر النِّعمَةَ سيفقدُها ، فالشُّكرُ هو الطريقةُ المثلى لتحسين النِّعمِ وحمايتها من الزوال ، وبالشُّكرِ تدوم النِّعمُ .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٣٠٢) : ((وهذا أيضًا مما ذكرهم جلَّ ثناؤه من آلائه ونعمه عندهم، ويعني بقوله : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أَنِّي فَضَّلْتُ أسلافكم ، فَتَسَبَّ نِعْمَهُ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ إِلَى أَنَّهَا نِعْمٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، إِذْ كَانَتْ مَآثِرُ الْآبَاءِ مَآثِرَ الْأَبْنَاءِ ، وَالنِّعْمُ عِنْدَ الْآبَاءِ نِعْمًا عِنْدَ الْأَبْنَاءِ ، لِكَوْنِ الْأَبْنَاءِ مِنَ الْآبَاءِ . وَأُخْرِجَ جَلَّ ذِكْرُهُ قَوْلَهُ : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ مَخْرَجَ الْعُمُومِ ، وَهُوَ يُرِيدُ بِهِ خُصُوصًا ، لِأَنَّ الْمَعْنَى : وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى عَالَمٍ مَنْ كُنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرِيهِ وَفِي زَمَانِهِ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة : ١١] ١٠٣ .

١٠٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٠٨ و٣٠٩) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أن رجلاً من (محارب) قال لِقَوْمِهِ : ألا أقتلُ لكم محمداً ، فقالوا : وكيف تقتله ؟ ، فقال : أقتلُ به . فأقبلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وسيفه في حجره، فأخذه وجعل يهزه ويهيمُ به، فَيَكْبِتُهُ اللهُ ، ثُمَّ قال : يا محمَّدُ ما تخافني؟ ، قال : " لا " . قال : لا تخافني وفي يدي السيفُ ؟ ، قال : " بئسَ معنى اللهُ منك " ، فأغمَدَ السيفَ ، فَتَزَلَّتْ هذه الآية ، رواه الحسن البصري عن جابر بن عبد الله . وفي بعض الألفاظ : فَسَقَطَ السيفُ مِنْ يَدِهِ . =

يا أيُّها المؤمنون الذين يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَيُصَدِّقُونَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، اذْكُرُوا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَنِعْمَتَهُ الْجَلِيلَةَ ، حَيْثُ حَمَاكُمْ مِنْ أَعْدَائِكُمْ ، وَحَفِظَكُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ . فَقَدْ حَاوَلَ قَوْمٌ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ وَيُؤْذِيَكُمْ ، فَمَنَعَهُمُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنَعَ أَيْدِيَهُمْ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكُمْ بِالشَّرِّ وَالضَّرْرِ وَالسُّوءِ . وَاتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَتَوَكُّلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ الْكَافِي وَالنَّاصِرُ وَالْقَادِرُ عَلَى جَلْبِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ. وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ : فَكَفَّهَا عَنْكُمْ. بَلْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾. لَقَدْ جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ وَهِيَ مُظْهِرٌ مَكَانَ الْمُضَمَّرِ ، لِرِيزَادَةِ التَّقْرِيرِ . وَالْمَعْنَى : إِنَّ اللَّهَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَمَنَعَهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكُمْ بِسُوءٍ بَعْدَ هَمِّهِمْ ، لَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ كَفَّهَا بَعْدَ أَنْ مَدُّوْهَا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ الْعِنَايَةِ ، وَتَمَامِ الرَّعَايَةِ ، وَالْحِفْظِ الْإِلَهِيِّ ، وَالْعِصْمَةِ الرَّبَّانِيَةِ ، فَقَدْ حَمَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ . وَعَادَ الْكَافِرُونَ بِالْفِشْلِ وَالخِزْيِ وَالْعَارِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٠٤) : ((﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْإِهْلَاكِ . يُقَالُ : بَسَطَ إِلَيْهِ يَدَهُ ، إِذَا بَطَشَ بِهِ . وَبَسَطَ إِلَيْهِ لِسَانَهُ ، إِذَا شَتَمَهُ . ﴾ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ مَنَعَهَا أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْكُمْ ، وَرَدَّ مَضَرَّتَهَا عَنْكُمْ ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فَإِنَّهُ الْكَافِي لِإِيصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٤٨٥) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَقْرَبُوا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَرِسَالَةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ﴾ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ اذْكُرُوا النِّعْمَةَ

=وفي لفظ آخر : فَمَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا وَلَا عَاقِبَهُ . وَاسْمُ هَذَا الرَّجُلِ عَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ مِنْ (مُحَارِبٍ خَصَصَهُ) . وَالثَّانِي أَنَّ الْيَهُودَ عَزَمُوا عَلَى الْفَتْكِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَفَاهُ اللَّهُ شَرَّهُمْ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : صَنَعُوا لَهُ طَعَامًا ، فَأَوْجَحِي إِلَيْهِ بِشَأْنِهِمْ ، فَلَمْ يَأْتِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ : خَرَجَ إِلَيْهِمْ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَّةٍ ، فَقَالُوا : اجْلِسْ حَتَّى نُعْطِيكَ ، فَجَلَسَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ، فَخَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَقَالُوا : لَنْ تَجِدُوا مُحَمَّدًا أَقْرَبَ مِنْهُ الْآنَ ، فَمَنْ يَظْهَرُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ ، فَيَطْرَحُ عَلَيْهِ صَخْرَةً ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جِحَاشٍ : أَنَا ، فَجَاءَ إِلَى رَحَى عَظِيمَةٍ لِيَطْرَحَهَا عَلَيْهِ ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ يَدَهُ ، وَجَاءَ جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ ، وَخَرَجَ . وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ بَنِي تَعْلَبَةَ وَبَنِي مُحَارِبٍ أَرَادُوا أَنْ يَفْتِكُوا بِالنَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ فِي عَرَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ السَّابِعَةِ ، فَقَالُوا : إِنَّ لَكُمْ صَلَاةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا وَقَعْنَا بِهِمْ ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْزَلَ صَلَاةَ الْخَوْفِ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ . وَالرَّابِعُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْيَهُودِ حِينَ ظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ)) .

التي أنعم الله بها عليكم ، فاشكروه عليها بالوفاء له بميثاقه الذي واثقكم به، والعقود التي عاقدتم نبيكم ﷺ عليها . ثم وصف نعمته التي أمرهم جل ثناؤه بالشكر عليها مع سائر نعمه ، فقال : هي كفته عنكم أيدي القوم الذين همؤا بالبطش بكم ، فصرفهم عنكم ، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم ... ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يقول : وإلى الله فليلق أمة أمورهم ويستسلم لقضائه ويتقى بنصرتة وعونه المقرؤون بوحداية الله ورسالة رسوله ، العاملون بأمره ونهيه ، فإن ذلك من كمال دينهم ، وتمام إيمانهم ، وأنهم إذا فعلوا ذلك كالأهم ورعاهم وحفظهم ممن أرادهم بسوء كما حفظكم ، ودافع عنكم أيها المؤمنون من اليهود الذين همؤا بما همؤا به من بسط أيديهم إليكم ، كلاءة (حفظاً) منه لكم ، إذ كنتم من أهل الإيمان به وبرسوله دون غيره ، فإن غيره لا يطبق دفع سوء أرادته بكم ربكم ، ولا اجتلاب نفع لكم لم يقضه لكم)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ﴾ [المائدة : ٢٠] .

اذكروا يا محمد إذ قال موسى لبي إسرائيل: يا قوم ، اذكروا نعمة الله عليكم، وإحسانه إليكم، واشكروه ، وأطيعوه ، ولا تعصوه. والآية تدل على صدق محمد ﷺ وصحة نبوته، لأنها إعلام بأمر غيبي لم يشهده محمد ﷺ، مما يدل على أن هذا كلام الله لا كلام محمد . وهذا يؤدّي إلى تحقّق اليهود من نبوة محمد ﷺ ورسالته. والله يبيّن أن آباء اليهود الموجودين في عصر محمد ﷺ، قد تمرّدوا على الله ، وأعرضوا عن أوامره، وأهملوا شكر نعمه الكثيرة، وعصوا موسى، ولم يستجيبوا له . وهذه تسليية للنبي محمد ﷺ ، ورفع لمعنوياته ، وتخفيف عنه . وكأنّ الله يقول : إن رفض اليهود أوامرك يا محمد ، وعصوك ، فقد رفض آباؤهم وأسلافهم أوامر موسى (وهو نبيهم صاحب التوراة وأعظم أنبياء بني إسرائيل) وعصوه ، فلا تنزعج يا محمد ، ولا تتضايق ، ولا تعبأ بهم ، ولا تأبه لهم ، فإن العصيان والعناد والتمرد والكفر والضلال من طبيعة اليهود .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٥٠٩) : ((وهذا أيضاً من الله تعريف لنبية ﷺ قديم تمادي هؤلاء اليهود في الغي ، ويعدّهم عن الحق ، وسوء اختيارهم لأنفسهم ، وشدة خلافهم لأنبيائهم ، ونطء إنابتهم إلى الرّشاد مع كثرة نعم الله عندهم ، وتتابع أياديه وآلائه عليهم ، مسلّياً بذلك نبية محمد ﷺ عمّا يحلّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم في ذات الله. يقول الله له ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم ، فإن الذهاب عن الله ، والبعد من الحق ، وما فيه لهم الحظ في الدنيا والآخرة ، من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوانلهم ، وتعرّ بما لاقى منهم أخوك موسى ﷺ)) .

﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ . جَعَلَ اللَّهُ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ يَأْتُونَهُمْ بِالْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، لَهْدَايَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى الْهُدَى ، وَالْأَخْذِ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَسَخَّرَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ خَدَمًا يَخْدُمُونَهُمْ ، وَيَسْهَرُونَ عَلَى رَاحَتِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكًا وَسَادَةً ، بَعْدَمَا كَانُوا خَدَمًا لِفِرْعَوْنَ ، وَعَبِيدًا لَهُ ، ذَوِي مَكَانَةٍ وَضِيعَةٍ حَقِيرَةٍ ، لَا يُعْبَأُ بِهِمْ ، وَلَا قِيَمَةٌ لَهُمْ .

لَقَدْ أَنْقَذَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ بِإِعْرَاقِهِ وَإِهْلَاكِهِ ، وَجَعَلَهُمْ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَسَادَةً يَمْلِكُونَ أَمْرَهُمْ ، وَلَا يَغْلِبُهُمْ وَلَا يَقْهَرُهُمْ أَحَدٌ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَمْلُوكِينَ لِفِرْعَوْنَ ، مَقْهُورِينَ تَحْتَ سُلْطَانِهِ ، خَاضِعِينَ لِحُكْمِهِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الرَّجُلَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَ لَهُ بَيْتٌ وَزَوْجَةٌ وَخَادِمٌ اعْتَبِرَ مَلِكًا ، وَعُدَّ مِنَ الْمُلُوكِ . وَأَكْثَرُ أُمَّةٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ ظَهَرَ فِيهَا أَنْبِيَاءٌ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ . فَمَاذَا يَرِيدُونَ أَكْثَرَ مِنَ التُّبُوءَةِ وَالْمُلْكِ ؟ ! . لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَشَرَّفَهُمْ بِكَثْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُلُوكِ . وَالْمُلُوكُ تَكَاثَرُوا فِيهِمْ تَكَاثُرَ الْأَنْبِيَاءِ . وَالْمُلْكَ شَرَفَ الدُّنْيَا ، وَالتُّبُوءَةُ شَرَفَ الدُّنْيَا الْآخِرَةِ . وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ ، بِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٥٠) : ((كَلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنِّ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، إِلَى مَنْ بَعْدِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانُوا ، لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ ، وَيُحَدِّثُونَ نِعْمَتَهُ ، حَتَّى خْتِمُوا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَنْسُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ ﷺ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٢ / ٣٢١ و ٣٢٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ فِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ السَّبْعُونَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ مُوسَى ، وَانْطَلَقُوا مَعَهُ إِلَى الْجَبَلِ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ أَنْبِيَاءَ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ السَّائِبِ وَمُقَاتِلٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى ، ذَكَرَهُ الْمَآوِرِيُّ . وَبِمَاذَا جَعَلَهُمْ مُلُوكًا ؟ . فِيهِ ثَمَانِيَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا بِالْمَنْ وَالسُّلُوبِ وَالْحَجَرِ . وَالثَّانِي بَأَنَّ جَعَلَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ زَوْجَةً وَخَادِمًا . وَالثَّلَاثُ بِالزَّوْجَةِ وَالْخَادِمِ وَالْبَيْتِ ، رُوِيَ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَهَذَا الثَّلَاثُ اخْتِيَارَ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ . وَالرَّابِعُ بِالْخَادِمِ وَالْبَيْتِ ، قَالَهُ عِكْرَمَةُ . وَالثَّلَاثُ بِتَمْلِيكِهِمُ الْخَدَمَ ، وَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ تَمَلَّكَ الْخَدَمَ . وَمَنْ اتَّخَذَ خَادِمًا فَهُوَ مَلِكٌ ، قَالَهُ قَتَادَةُ . وَالثَّلَاثُ بِكُؤُونِهِمْ أَحْرَارًا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ . وَالثَّلَاثُ بِالْمَنْزَلِ الْوَاسِعَةِ فِيهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ . وَالثَّمَانِيَةُ بَأَنَّ جَعَلَ لَهُمُ الْمُلْكَ وَالسُّلْطَانَ ، ذَكَرَهُ الْمَآوِرِيُّ)) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ : ((كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ،
كلما هلك نبي خلفه نبي)) ١٠٤ .

هذا يشير إلى كثرة الأنبياء في بني إسرائيل ، حيث كانت تسوسهم الأنبياء ، أي : يتولون
أمرهم ، ويرعون مصالحهم . ويقومون بشؤونهم ، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية . والسياسة :
القيام على الشيء بما يصلحه . وكان الأنبياء يتعاقبون عليهم ، فكلما مات نبي أرسل الله عز وجل
نبيًا آخر يخلف النبي السابق في القيام عليهم ، وتولي شؤونهم .
والأنبياء هم القادة ، ورأس النظام السياسي . وحقيقة السياسة لهم ، والملوك تبع ونواب لهم ،
وسائرون على خطاهم . والنبي هو القائد ، والملك نائبه ومُساعده .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٢٣١) : ((أي : يتولون أمرهم ، كما
تفعل الأمراء والولاة بالرعية . والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه . وفي هذا الحديث جواز
قول : هلك فلان ، إذا مات)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٤٩٧) : ((قوله : " تسوسهم الأنبياء " أي أنهم كانوا إذا ظهر
فيهم فساد ، بعث الله لهم نبيًا يقيم لهم أمرهم ، ويُرِي ما غيروا من أحكام التوراة . وفيه إشارة إلى
أنه لا بُدَّ للرعية من قائم بأمرها يحملها على الطريق الحسنة ، ويُصِف المظلوم من الظالم)) .
إن كثرة الأنبياء في بني إسرائيل ، ليس عبثًا ولا صدفة . فكثرة الأنبياء وتتابعهم يشير إلى
فساد بني إسرائيل وضلالهم ، وكثرة ذنوبهم ومعاصيهم . وعندما تكثر الأمراض يكثر الأطباء .
وحيث يكون الداء يظهر الدواء .

وهذا العدد الكبير من الأنبياء يشير إلى أن بني إسرائيل غارقون في مُستنقع الإثم والضلال .
وهذا يتطلب وجود المرشدين والمُنقِدين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهدايتهم إلى
الحق والصواب . والأنبياء أعظم المرشدين ، وأفضل المُنقِدين .

﴿ وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . هذا خطاب موسى ﷺ لبني إسرائيل . وأعطاكم الله
النعم الكثيرة ، وخصكم بقلق البحر ، وإغراق العدو ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ،
وكثرة الأنبياء ، وكثرة الملوك . والمراد عالم زمانهم . أي إن الله أتى بني إسرائيل ما لم يأت أحداً
من عالم ذلك الزمان . ولا شك أن شرف الآباء ومجدهم ، يعود على الأبناء بحسن السُمعة .

١٠٤ متفق عليه . البخاري (٣ / ١٢٧٣) برقم (٣٢٦٨) ، ومسلم (٣ / ١٤٧١) برقم (١٨٤٢) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٢٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . اختلفوا فيمن خُوطب بهذا على قولين : أحدهما أنهم قوم موسى ، وهذا مذهب ابن عباس ومجاهد . قال ابن عباس : ويعني بالعالمين الذين هم بين ظهرائهم ، وفي الذي آتاهم ثلاثة أقوال : أحدها المن والسلوى والحجر والعمام ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، وقال به . والثاني أنه الدار والخدام والزوجة ، رواه عطاء عن ابن عباس . قال ابن جرير : ما أُوتي أحد من النعم في زمان قوم موسى ما أُوتوا . والثالث كثرة الأنبياء فيهم ، ذكره الماوردي . والثاني أن الخطاب لأمة مُحَمَّد ﷺ . وهذا مذهب سعيد بن جبير وأبي مالك)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ جعل فيكم أنبياء ﴾ ، قال : جعل منكم أنبياء ، ﴿ وجعلكم ملوكا ﴾ ، قال : المرأة والخدام ، ﴿ وأتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ﴾ قال : الذين هم بين ظهرائهم يومئذ ١٠٥ .

إن وجود الزوجة التي تصنع الأسرة ، وتعني بالرجل والأولاد ، مع توفر خادم يقوم بالواجبات الموكولة إليه ، يجعل من الإنسان ملكًا . وهذا يعكس حياة الرفاهية بلا منغصات ولا عواقب . ومفهوم " الملك " لا يمكن حصره في رأس النظام السياسي ، لأن معناه يشتمل على أبعاد كثيرة ، وجوانب متعددة . وقد فضل الله بني إسرائيل على عالم زمانهم ، والواجب عليهم أن يشكروه .

وقال الله تعالى : ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ [الأعراف : ٦٩] . فاذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا ، وتفوزوا بسعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة . وبعبارة أخرى ، فاذكروا نعم الله عليكم لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٣٩٩) : ((فاذكروا آلاء الله ﴿ نعم الله عليكم ﴾ لعلكم تفلحون ﴾ ، كي تسعدوا وتبقوا في الجنة)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٣١٧) : ((لعلكم تفلحون ﴾ إن تذكرتم ذلك ، لأن الذكر للنعمة سبب باعث على شكرها ، ومن شكر فقد أفلح)) .

وقال الله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره وورثكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

١٠٥ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤١) برقم (٣٢١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ ، وَقَتَّ أَنْ كُنْتُمْ _ قبل الهجرة وفي ابتداء الإسلام _
قَلَّةً أَذِلَّةً ، يَسْتَضَعِفُكُمْ الْكُفَّارُ فِي أَرْضِ مَكَّةَ ، وَيُسَيِّئُونَ إِلَيْكُمْ ، وَيُؤْذُونَكُمْ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٠١) : ((﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾
أَرْضِ مَكَّةَ ، يَسْتَضَعِفُكُمْ فُرَيْشُ . وَالخِطَابُ لِلْمُهَاجِرِينَ . وَقِيلَ : لِلْعَرَبِ كَأَفَّةً ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَذِلَّةً
فِي أَيْدِي فَارِسٍ وَالرُّومِ)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٢١٨) : ((وَأَنْتُمْ قَلِيلٌ يَسْتَضَعِفُكُمْ
الْكُفَّارُ ، فَيَفْتِنُونَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، وَيَنَالُونَكُمْ بِالْمَكْرُوهِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَعْرَاضِكُمْ)) .
﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ ، تخافون المشركين أن يَحْتَطِفُوكُمْ بِالْقَتْلِ وَالسَّلْبِ ،
وَالخَطْفُ : الْأَخْذُ بِسُرْعَةٍ . وَقَالَ البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٤٦) : ((﴿ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ
النَّاسُ ﴾ ، يَذْهَبُ بِكُمْ النَّاسُ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٣) : ((وفي
المُرَادِ بِالنَّاسِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي فَارِسُ وَالرُّومُ ، قَالَهُ
وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَضَرُوا بَدْرًا وَالْمُسْلِمُونَ قَلِيلُونَ يَوْمَئِذٍ ، قَالَهُ قَتَادَةُ)) .
﴿ فَأَوَّاكُم ﴾ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَأْوَى تَحْتَصِّنُونَ بِهِ مِنْ أَعْدَائِكُمْ ، وَهُوَ الْمَدِينَةُ النَّبَوِيَّةُ .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٤٣٦) : ((﴿ فَأَوَّاكُم ﴾ ، جَعَلَ لَكُمْ مَأْوَى تَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ،
وَصَمَّكُمْ إِلَى الْأَنْصَارِ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ فَأَوَّاكُم ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا فَأَوَّاكُم إِلَى الْمَدِينَةِ بِالْهَجْرَةِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْأَكْثَرُونَ .
وَالثَّانِي جَعَلَ لَكُمْ مَأْوَى تَسْكُنُونَ فِيهِ آمِنِينَ ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرُذِيُّ)) .
﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ ، وَأَعَانَكُمْ اللَّهُ وَقَوَّامَكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ بِنَصْرِهِ الْعَظِيمِ حَتَّى هَزَمْتُمُ الْمُشْرِكِينَ .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٣) : ((وفي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ﴾ قَوْلَانٌ :
أَحَدُهُمَا قَوَّامَكُمْ بِالْمَلَايِكَةِ يَوْمَ بَدْرٍ ، قَالَهُ الْجُمْهُورُ . وَالثَّانِي عَضَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِهَا ، قَالَهُ
أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشْقِيُّ)) .
﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ ، وَمَنَحَكُمُ اللَّهُ الْغَنَائِمَ حَلَالًا طَيِّبَةً . وَكَانَتْ قَبْلَكُمْ مُحَرَّمَةً .
وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٤٦) : ((﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يَعْنِي : الْغَنَائِمَ أَحَلَّهَا لَكُمْ ،
وَلَمْ يُحَلِّهَا لِأَحَدٍ قَبْلَكُمْ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٣) : ((﴿ وَرَزَقَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا الْغَنَائِمُ الَّتِي أَحَلَّهَا لَهُمْ ، قَالَهُ السُّدِّيُّ . وَالثَّانِي أَنَّهَا الْخَيْرَاتُ
الَّتِي مَكَّنَهُمْ مِنْهَا ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرُذِيُّ)) .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، أَي : لِتَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ ، وَتُطِيعُوهُ ، وَلَا تَعْصُوهُ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٣٨) : ((لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) ، أي : إرادة أن تَشْكُرُوا هذه النعم التي أنعم بها عليكم)) .

لقد ذكّرهم الله بنعمه العظيمة ، فإنّهم كانوا قبل الإسلام قليلين أدلاء ، لا قيمة لهم ولا وزن ، وبعد الإسلام ، صاروا في غاية العزّة والرّفعة ، فيجب عليهم أن يشكروا الله على هذه النعم ، ويلتزموا أوامره ، ويجتنبوا نواهيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٩٧) : ((يُنَبِّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نِعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا قَلِيلِينَ ، فَكَثَّرَهُمْ ، وَمُسْتَضْعَفِينَ خَائِفِينَ فَقَوَّاهُمْ ، وَنَصَرَهُمْ ، وَفَقَّرَهُمْ ، وَفَرَّقَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاسْتَشْكَرَهُمْ فَطَاعُوهُ ، وَامْتَلَأُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ حَالُ مُقَامِهِمْ بِمَكَّةَ ، قَلِيلِينَ مُسْتَخْفِينَ مُضْطَهَدِينَ ، يَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ بِلَادِ اللَّهِ ، مِنْ مُشْرِكٍ وَمَجُوسِيٍّ وَرُومِيٍّ ، كُلِّهِمْ أَعْدَاءُ لَهُمْ لِقَلْتَهُمْ ، وَعَدِمَ قُوَّتَهُمْ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَوَاهُمُ إِلَيْهَا ، وَقِيضَ لَهُمْ أَهْلُهَا ، آوَا وَنَصَرُوا يَوْمَ بَدْرٍ وَغَيْرِهِ ، وَوَأَسَّوْا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَبَدَّلُوا مُهْجَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ . قَالَ قَتَادَةُ ابْنِ دِعَامَةَ السُّدُوسِيُّ _ رَحِمَهُ اللَّهُ _ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قَالَ : كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْعَرَبِ أَذَلَّ النَّاسِ ذُلًّا ، وَأَشَقَّاهُ عَيْشًا ، وَأَجْوَعَهُ بَطُونًا ، وَأَعْرَاهُ جُلُودًا ، وَأَبْيَنَهُ صَلَاحًا . مَنْ عَاشَ مِنْهُمْ عَاشَ شَقِيًّا ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ رُدِّيًّا فِي النَّارِ ، يُؤْكَلُونَ وَلَا يَأْكَلُونَ ، وَاللَّهُ مَا نَعْلَمُ قَبِيلًا مِنْ حَاضِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمِيذٍ كَانُوا أَشَرَّ مَنْزِلًا مِنْهُمْ حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، فَمَكَّنَ بِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَوَسَّعَ بِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَجَعَلَهُمْ بِهِ مُلُوكًا عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، وَبِالْإِسْلَامِ أَعْطَى اللَّهُ مَا رَأَيْتُمْ ، فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ مُنْعِمٌ يُحِبُّ الشُّكْرَ ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ فِي مَزِيدٍ مِنَ اللَّهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] .

يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقْتُمْ بَوْحَدَانِيَةَ اللَّهِ ، وَأَقْرَبْتُمْ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، اذْكُرُوا فَضْلَ اللَّهِ وَإِنْعَامَهُ عَلَيْكُمْ ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ، وَرَحْمَتَهُ بِكُمْ ، فِي وَقْتِ مَجِيءِ جُنُودِ الْأَحْزَابِ ، وَتَجَمُّعِهِمْ مِنْ أَجْلِ قِتَالِكُمْ .

وكان هذا عام الخندق (٥ هـ) ، حيث اجتمعت الأحزاب لقتال النبي ﷺ ، وهم قریش ، وغطفان ، ويهود قريظة والنضير ، حاصروا المسلمين أيام الخندق . لكن الله تعالى لا يتخلى عن رسوله ﷺ وصحابته _ رضي الله عنهم _ فأرسل على الأحزاب ريحًا شديدة ، وهي الصبا ، في ليلة شديدة البرد والظلمة ، ألقّت قُدُورَهُمْ ، وأطفأت النيران ، وقلعت الأوتاد ، ونزعت خيامهم ،

وماجت الخيلُ بعُضُها في بَعْض . والرَّيْحُ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهِيَ مَأْمُورَةٌ ، وَخَاضِعَةٌ لِأَمْرِ خَالِقِهَا . وَأَرْسَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لَمْ يُشَاهِدْهُمْ الصَّحَابَةُ ، لِزَلْزَلَةِ الْأَعْدَاءِ ، وَقَذْفِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ تُقَاتِلْ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ بَصِيرًا .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ((نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ)) ١٠٦ .

الصَّبَا هِيَ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ ، وَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ بِهَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، إِذْ أَرْسَلَهَا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مُظْلَمَةٍ عَلَى الْأَحْزَابِ الَّذِينَ تَجَمَّعُوا لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَكَلَبَتْ حَالَهُمْ رَأْسًا عَلَى عَقِبِ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ رُجُوعِهِمْ وَانْهَزَامِهِمْ . وَهَذِهِ مُعْجَزَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَفَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

وَالدَّبُورُ هِيَ الرِّيحُ الْغَرْبِيَّةُ ، وَبِهَا كَانَ هَلَاكُ عَادٍ (قَوْمِ النَّبِيِّ هُودٍ ﷺ) ، كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . سَلَطَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ ، فَأَهْلَكَتْهُمْ ، وَقَضَتْ عَلَيْهِمْ . وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ أَنْبِيََاءَهُ وَرُسُلَهُ بِمَا يُرِيدُ ، وَيَنْصُرُهُمْ بِمَا يَشَاءُ ، وَقَدْ خَصَّ بَعْضَ الْأَنْبِيََاءِ بِمُعْجَزَاتٍ حَسِيَّةٍ تَطْهَرُ لِهِدَايَةِ أَقْوَامِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ نُبُوتِهِمْ وَرِسَالَتِهِمْ .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى قِصَّةِ الْأَحْزَابِ الَّذِينَ هَزَمَهُمُ اللَّهُ بِالرِّيحِ ، وَإِمْدَادِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ زَلَزَلُوا الْأَعْدَاءَ ، وَقَذَفُوا فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، لَكَنَّهُمْ لَمْ يُقَاتِلُوا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٩٣ / ٨) : ((وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ يُقَوُّونَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُلْقُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالشَّيْثِ ، وَيُضْعِفُونَ الْكَافِرِينَ بِالتَّجْبِينِ لَهُمْ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ ، وَمِنْ غَيْرِ قِتَالٍ ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تُقَاتِلْ إِلَّا يَوْمَ بَدْرٍ)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٣ / ١٤١٤) أَنَّ حُدَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ ، وَأَخَذْتَنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ ، وَالْقُرُّ : الْبَرْدُ الْقَارِسُ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يُقَرِّقِرُ بِأَسْنَانِهِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٦٢٠) فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نِعْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَرْفِهِ أَعْدَاءَهُمْ ، وَهَزْمِهِ إِيَّاهُمْ عَامَ تَأَلَّبُوا عَلَيْهِمْ وَتَحَزَّبُوا ، وَذَلِكَ عَامَ الْخَنْدَقِ ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ مِنَ الْهَجْرَةِ عَلَى الصَّحِيحِ الْمَشْهُورِ . وَقَالَ مُوسَى ابْنُ عُقَيْبَةَ وَغَيْرُهُ : كَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ . وَكَانَ سَبَبُ قُدُومِ الْأَحْزَابِ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ أَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى خَيْبَرَ ، مِنْهُمْ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ ،

١٠٦ متفق عليه . البخاري (١ / ٣٥٠) برقم (٩٨٨) ، ومسلم (٢ / ٦١٧) برقم (٩٠٠) .

وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع ، خرجوا إلى مكة ، فاجتمعوا بأشراف قريش ، وألبوهم على حرب النبي ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم النصير والإعانة ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان ، فدعواهم فاستجابوا لهم أيضا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها ، وقائدها أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم ، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بيّنات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد ، ونزلت طائفة منهم أعالي أرض المدينة ... وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سعمائة ، فأسندوا ظهورهم إلى سلع (جبل) ، ووجههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم ، يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة ، وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حبي بن أخطب النصري ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعظم الخطب ، واشتد الأمر ، وضاق الحال ، ... ، ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبا من شهر ، إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري ، وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ، ركب ومعه فوارس ، فاقتحموا الخندق ، وحلصوا إلى ناحية المسلمين ، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه ، فيقال : إنه لم يبرز أحد ، فأمر عليا _ رضي الله عنه _ فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ، ثم قتله علي _ رضي الله عنه _ فكان علامة النصير . ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية ، حتى لم يبق لهم خيمة ، ولا شيء ، ولا ثوقد لهم نار ، ولا يقتر لهم قرار ، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارس فأرسلنا عليهم ريحا ﴾ ، قال مجاهد : وهي الصبا وقوله : ﴿ وجنودا لم تروها ﴾ ، هم الملائكة ، زلزلتهم وألقّت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إني ، فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٦٢) : ((وقوله : ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ ، يقول تعالى ذكره : وكان الله بأعمالكم يومئذ ، وذلك صبرهم على ما كانوا فيه من الجهد (المشقة)

والشدة وثباتهم لعدوهم وغير ذلك من أعمالهم ، بصيرا ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، يحصيه عليهم ليخزيهم عليه)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الرَّحْفُ : ١٢] . خَلَقَ اللَّهُ أَصْنَافَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَنْوَاعَهَا ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنَ السُّفُنِ تَرْكَبُونَ فِيهَا فِي الْبَحْرِ إِلَى حَيْثُ تُرِيدُونَ ، طَلَبًا لِلرِّزْقِ وَالْمَعَاشِ وَالتَّجَارَاتِ ، وَمِنَ الدَّوَابِّ كَالإِبِلِ وَالْحَيْلِ ، تَرْكَبُونَهَا فِي أَسْفَارِكُمْ وَرِحَالِكُمْ فِي الْبَرِّ . وَغَلَبَ الْمُتَعَدِّي بِنَفْسِهِ عَلَى الْمُتَعَدِّي بغيره ، فيقال : رَكِبْتُ الدَّابَّةَ ، وَرَكِبْتُ فِي السَّفِينَةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٥٧ / ٤) : ((قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ ، أَي : مِمَّا تُنَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ سَائِرِ الْأَصْنَافِ مِنْ نَبَاتٍ وَزُرُوعٍ وَثِمَارٍ وَأَزَاهِيرٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَمِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَصْنَافِهَا ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ ، أَي : السُّفُنِ ﴾ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أَي ذَلَّلَهَا لَكُمْ وَسَخَّرَهَا وَيَسَّرَهَا لِأَكْلِكُمْ لِحُومِهَا وَشَرِبِكُمْ أَلْبَانِهَا وَرُكُوبِكُمْ ظُهُورَهَا)) . وقال القرطبي في تفسيره (٥٨ / ١٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ ﴾ ، أَي : وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : أَي الْأَصْنَافَ كُلَّهَا . وَقَالَ الْحَسَنُ : الشَّتَاءُ وَالصَّيْفُ ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ . وَقِيلَ : أَزْوَاجَ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَقِيلَ : أَرَادَ أَزْوَاجَ النَّبَاتِ ، وَقِيلَ : مَا يَتَقَلَّبُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ ، وَنَفْعٍ وَضَرٍّ ، وَفَقْرٍ وَغِنَى ، وَصِحَّةٍ وَسَقَمٍ . قُلْتُ : وَهَذَا الْقَوْلُ يَعُمُّ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ، وَيَجْمَعُهَا بَعْمُومِهِ ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ السُّفُنِ ﴾ وَالْأَنْعَامِ ﴾ الإِبِلِ ﴾ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الرَّحْفُ : ١٣] .

لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ مَا تَرْكَبُونَ ، سَفِينَةٌ كَانَتْ أَوْ جَمَلًا ، وَتَتَذَكَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الْعَظِيمَةَ بِقُلُوبِكُمْ ، مُعْتَرِفِينَ بِهَا ، حَامِدِينَ وَشَاكِرِينَ عَلَيْهَا ، إِذَا رَكِبْتُمْ . وَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لَكُمْ الْمَرَاقِبَ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ رَحْمَةً بِكُمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْكُمْ ، وَتَفَضُّلاً عَلَيْكُمْ ، وَمِنْ أَجْلِ مَصَالِحِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ وَمَعَايِشِكُمْ . وَتَقُولُوا بِاللَّسْتِكُمْ عِنْدَ رُكُوبِكُمْ : تَنْزِيهًا لِلَّهِ الَّذِي ذَلَّلَ وَسَخَّرَ مَا رَكِبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ السُّفُنِ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا كُنَّا مُطَبِّقِينَ عَلَى رُكُوبِهِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَهُ لَنَا ، وَأَعَانَنَا عَلَيْهِ . أَي : لَوْلَا تَسْخِيرَ اللَّهِ لَنَا هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، وَلَا اسْتَطَعْنَا رُكُوبَهُ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٧٨٠ / ٤) : ((لَتَسْتَوْا عَلَى ظُهُورِهِ)) ... ، قال الفراء : أضاف الظهور إلى واحد ، لأن المراد ظهور هذا الجنس ، والاستواء الاستعلاء : أي لَتَسْتَعْلُوا على ظهور ما تَرَكْبُونَ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ ، ((ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)) ، أي : هذه النعمة التي أنعم بها عليكم من تسخير ذلك المركب في البحر والبر . وقال مقاتل والكلبي : هو أن يقول : الحمد لله الذي رزقني هذا وحملني عليه ، ((وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا)) أي : دَلَّلَ لَنَا هَذَا الْمَرْكَبَ ، قال قتادة : قد علمكم كيف تقولون إذا ركبتهم ، ومعنى : ((وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)) ، ما كُنَّا لَهُ مُطِيقِينَ ، وقال الأخفش وأبو عبيدة : مُقْرِنِينَ : ضَابِطِينَ . وقيل : مُمَاتِلِينَ لَهُ فِي الْقُوَّةِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : هُوَ قِرْنُ فُلَانٍ ، إِذَا كَانَ مِثْلَهُ فِي الْقُوَّةِ ، والمراد بالأنعام هنا الإبل خاصة ، وقيل : الإبل والبقر ، والأول أولى)) .

وفي حاشية شيخ زاده على البيضاوي (٢٩١ / ٣) : ((وليس المراد من ذكر النعمة تصوُّرها وإخطارها في البال ، بل المراد تذكُّر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مُستدعية لطاعته وشكره ، فَإِنَّ مَنْ تَفَكَّرَ فِي أَنَّ مَا يَرْكَبُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ ، أَكْثَرَ قُوَّةً وَأَكْبَرَ جُنَّةً مِنْ رَاكِبِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مُسَخَّرًا لِرَاكِبِهِ يَتِمَكَّنُ مِنْ تَصْرِيفِهِ إِلَى أَيِّ جَانِبٍ شَاءَ ، وَتَفَكَّرَ أَيْضًا فِي خَلْقِ الْبَحْرِ وَالرِّيْحِ ، وَفِي كَوْنِهِمَا مُسَخَّرَيْنِ لِلْإِنْسَانِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالْأَهْوَالِ ، اسْتَغْرَقَ فِي مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَكِبَرِيَّاتِهِ ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ الْاسْتِغْرَاقُ عَلَى أَنْ يَقُولَ مُتَعَجِّبًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ : ((سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)))) .

وقال الله تعالى : ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)) [الضحى : ١١] .

حدَّثَ النَّاسَ يَا مُحَمَّدُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ عَلَيْكَ . وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . وَأَعْظَمُهَا نِعْمَةُ الْقُرْآنِ . وَالتَّحْدِيثُ بِالنَّعْمِ هُوَ شُكْرٌ لِلَّهِ عَلَيْهَا ، كَمَا أَنَّ الْإِعْتِرَافَ بِهَا شُكْرٌ لِلَّهِ تَعَالَى . وَكِتْمَانُ النِّعْمَةِ هُوَ جُحُودٌ لَهَا ، وَعَدَمُ اعْتِرَافٍ بِفَضْلِ اللَّهِ الْمُنْعَمِ . انشُرْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ ، وَذَلِكَ بِالشُّكْرِ وَالشَّاءِ ، وَإِظْهَارِ آثَارِ النِّعْمَةِ وَأَحْكَامِهَا . وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِالنُّبُوَّةِ . وَالتَّحْدِيثُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ يَكُونُ بِتَبْلِيغِهَا كَامِلَةً بِأَسْلُوبٍ جَمِيلٍ وَجَدَّابٍ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٦٠ / ٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)) فِي النِّعْمَةِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهُمَا النُّبُوَّةُ . وَالثَّانِي الْقُرْآنُ . رُويَا عَنْ مَجَاهِدٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْخَيْرَاتِ ، وَهَذَا قَوْلُ مُقَاتِلٍ)) .

وقال عياض في الشفا (١ / ٣٣) : ((أمره بإظهار نعمته عليه ، وشكر ما شرفه بنشره ، وإشادة ذكره بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ الْحَدِيثِ بِهَا ، وَهَذَا خَاصٌّ لَهُ ، عَامٌّ لِأُمَّتِهِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((وقال مجاهد : يَعْنِي التُّبُّوَّةَ الَّتِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : الْقُرْآنُ . وَقَالَ لَيْثُ عَنْ رَجُلٍ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قَالَ : مَا عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ فَحَدِّثْ إِخْوَانَكَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : مَا جَاءَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ مِنَ التُّبُّوَّةِ ، فَحَدِّثْ بِهَا ، وَادْكُزْهَا ، وَادْعُ إِلَيْهَا)) .

والشُّكْرُ يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ قِيَمَةِ النِّعْمَةِ ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ لِمَعْرِفَةِ عَظَمَةِ اللَّهِ الْمُنْعِمِ ، لِأَنَّ النِّعْمَةَ تَدُلُّ عَلَى الْمُنْعِمِ ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمُؤَثِّرِ . وَالشُّكْرُ لَهُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ :

أ _ شُكْرُ اللِّسَانِ ، وَذَلِكَ بِالتَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ وَنَشْرُهَا ، وَالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ الْمُنْعِمِ الْمُتَفَضَّلِ .

ب _ شُكْرُ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، وَذَلِكَ بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ .

ج _ شُكْرُ الْقَلْبِ ، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ الْمُسْتَحِقُّ لِلشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ .

وقال الألويسي في رُوحِ المعاني (٣٠ / ١٦٤) : ((وَحَاصِلُ الْمَعْنَى أَنَّكَ كُنْتَ يَتِيمًا وَضَالًّا وَعَائِلًا ، فَأَوَّاكَ وَهَدَاكَ وَأَغْنَاكَ . فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ، فَلَا تَنْسَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الثَّلَاثِ ، وَاقْتَدِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَتَعَطَّفْ عَلَى الْيَتِيمِ ، وَتَرَحَّمْ عَلَى السَّائِلِ ، فَقَدْ ذُقْتَ الْيَتِيمَ وَالْفَقْرَ)) . وَقَدْ وَرَدَتْ أَهْمِيَّةُ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ فِي الدُّعَاءِ النَّبَوِيِّ ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : ((وَاجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمِكَ ، مُثْنِينَ بِهَا عَلَيْكَ ، قَابِلِينَ لَهَا ، وَأَتَمِّهَا عَلَيْنَا))^{١٠٧} .

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُعْظِمُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَيُحْمَدُهُ ، وَيَشْكُرُهُ عَلَى إِعْطَائِهِ وَفَضْلِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَيُثْنِي عَلَى اللَّهِ الشَّنَاءَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَ ، وَيَقْبَلُ نِعْمَةَ ، وَيُقَدِّرُهَا ، وَلَا يَجْحَدُهَا ، وَيَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُتِمَّهَا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَبِالشُّكْرِ تَدْوَمُ النِّعْمُ ، وَجَحْدُ النِّعْمِ يُؤَدِّي إِلَى زَوَالِهَا ، وَتَعْدِيْبِ أَصْحَابِهَا .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٢ / ١١٨) : ((سَأَلَ التَّوْفِيقَ لِذَوَامِ الشُّكْرِ ، لِأَنَّ الشُّكْرَ قَيْدُ النِّعْمِ . فِيهِ تَدْوَمُ وَتَبْقَى ، وَبِتَرْكِهِ تَزُولُ وَتَحُولُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعْدُ : ١١] . وَقَالَ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إِبْرَاهِيمَ : ٧] . فَالْحَقُّ تَقَدَّسَ إِذَا رَأَى عَبْدَهُ قَامَ بِحَقِّ نِعْمَتِهِ بِالذَّوَامِ عَلَى شُكْرِهَا مَنْ بِأُخْرَى رَأَى لَهَا أَهْلًا ، وَإِلَّا قَطَعَ عَنْ ذَلِكَ)) .

١٠٧ رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٣٩٧) برقم (٩٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ : ((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ . وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ)) ١٠٨ .

هذا الحديثُ سنده ضعيفٌ ، لكنَّ معناه صحيحٌ ، ويشتمل على فوائد شرعية كثيرة :
أ _ ضرورة الشُّكْرِ على الشَّيْءِ الصَّغِيرِ وعدم احتقاره ، لأنَّ الشُّكْرَ قضية مبدأ ، ولا تتعلق بحجم النِّعْمَةِ . وَمَنْ جَحَدَ النِّعْمَةَ الْقَلِيلَةَ ، فَسَوْفَ يَجْحَدُ النِّعْمَةَ الْكَبِيرَةَ . وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((فَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سَمْسِمَةً)) .

ب _ مَنْ جَحَدَ إِحْسَانَ النَّاسِ ، وَلَمْ يَعْتَرَفْ بِفَضْلِهِمْ وَإِنْعَامِهِمْ ، فَسَوْفَ يَجْحَدُ نِعْمَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَنْ يَعْتَرَفَ بِفَضْلِ خَالِقِهِ ، وَلَنْ يَشْكُرَهُ . فَمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ الْجُحُودُ ، سَيَطْلُجُ جَاحِدًا سَوَاءً فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ أَمْ تَعَامُلِهِ مَعَ اللَّهِ . وهذا يُشِيرُ إِلَى أَهْمِيَةِ شُكْرِ النَّاسِ ، وَالاعْتِرَافِ بِمَعْرُوفِهِمْ وَفَضْلِهِمْ .
وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((أَي : مَنْ كَانَ طَبْعُهُ وَعَادَتُهُ كُفْرَانُ نِعْمَةِ النَّاسِ ، وَتَرَكَ الشُّكْرَ لِمَعْرُوفِهِمْ ، كَانَ عَادَتُهُ كُفْرَانُ نِعْمِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الشُّكْرَ لَهُ . أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ شُكْرَ الْعَبْدِ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ ، إِذَا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَشْكُرُ إِحْسَانَ النَّاسِ ، وَيُنْكِرُ مَعْرُوفَهُمْ ، لَا تَتَّصِلُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ بِالْآخَرِ)) .

وعن أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ)) ١٠٩ .
مَنْ كَانَ مِنْ طَبْعِهِ وَعَادَتُهُ كُفْرَانُ نِعْمَةِ النَّاسِ ، وَتَرَكَ الشُّكْرَ لَهُمْ ، كَانَ مِنْ عَادَتِهِ وَطَبْعِهِ كُفْرٌ نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الشُّكْرَ لَهُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُعْتَادًا عَلَى الشُّكْرِ .
وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ شُكْرًا مِنْ عَبْدِهِ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، إِذَا كَانَ هَذَا الْعَبْدُ مِمَّنْ يَنْسَى الْمَعْرُوفَ الَّذِي قَدَّمَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَيَكْفُرُ نِعْمَتَهُمْ ، وَلَا يَشْكُرُهُمْ عَلَيْهَا ، وَذَلِكَ لِاتِّصَالِ الْأَمْرَيْنِ بَعْضُهُمَا .
وَالْحَدِيثُ يُحْضِرُ عَلَى الْوَفَاءِ ، وَحِفْظِ الْمَعْرُوفِ لِأَهْلِهِ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْض الْقَدِيرِ (٦ / ٢٢٤ و ٢٢٥) : ((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))
لأنَّه لَمْ يُطْعَمْ فِي امْتِنَالِ أَمْرِهِ بِشُكْرِ النَّاسِ الَّذِينَ هُمْ وَسَائِطُ فِي إِيْصَالِ نِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَالشُّكْرُ إِنَّمَا

١٠٨ رواه أحمد في مسنده (٢٧٨ / ٤). وقال الهيثمي في المجمع (٣٩٢ / ٥): ((رواه عبد الله بن أحمد والبيهقي والطبراني ، ورجاهما ثقات)) اه . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٦٧٤) : ((إسناده ضعيف)) .
١٠٩ رواه الترمذي في سننه (٤ / ٣٣٩) ، وقال : حسن صحيح .

يتم بمطاوعته ، فَمَنْ لَمْ يُطْعُهُ لَمْ يَكُنْ مُؤَدِّيًا شُكْرَهُ ، أَوْ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ مَعَ مَا يَرَى مِنْ حِرْصِهِمْ عَلَى حُبِّ الشَّاءِ عَلَى الْإِحْسَانِ ، فَأَوْلَى بَأَنْ يَتَهَاوَنَ فِي شُكْرِ مَنْ يَسْتَوْي عَلَيْهِ الشُّكْرَ وَالْكَفْرَانَ ، اِحْتِمَالَانِ لِلْبَيْضَاوِيِّ ، وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ . وَمَنْ تَمَّ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ ابْنُ الْعَرَبِيِّ حَيْثُ قَالَ : الشُّكْرُ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِخْبَارٌ عَنِ النَّعْمَةِ الْمُتَبَدِّأَةِ إِلَى الْمُخْبَرِ ، وَفَائِدَتُهُ صَرَفُ النَّعْمِ فِي الطَّاعَةِ ، وَإِلَّا فَذَلِكَ كُفْرَانٌ ، وَأَصْلُ النَّعْمِ مِنَ اللَّهِ ، وَالْحَلْقُ وَسَائِطُ وَأَسْبَابُ ، فَالْمُنْعِمُ حَقِيقَةً هُوَ اللَّهُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَلَهُ الشُّكْرُ ، فَالْحَمْدُ خَيْرٌ عَنِ جَلَالِهِ ، وَالشُّكْرُ خَيْرٌ عَنِ إِعْطَائِهِ وَأَفْضَالِهِ ، لَكِنَّهُ أَذِنَ فِي الشُّكْرِ لِلنَّاسِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَأْثِيرِ الْمَحَبَّةِ وَالْأُلْفَةِ)) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ ، فَلْيَجْزِ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ ، فَلْيُشْنِ بِهِ ، فَمَنْ أَتَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ)) ١١٠ .

مَنْ أَخَذَ عَطَاءً مِنْ أَحَدٍ ، فَوَجَدَ مَا يُكَافِي بِهِ مَنْ أَعْطَاهُ الْعَطَاءَ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُجَازِيَ مَنْ أَعْطَاهُ الْعَطَاءَ بِمَا وَجَدَ عِنْدَهُ كَمُكَافَأَةٍ لَهُ عَلَى الْعَطَاءِ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ أَخَذَ الْعَطَاءَ شَيْئًا يُكَافِي بِهِ مَنْ أَعْطَاهُ الْعَطَاءَ ، فَلْيُشْنِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ هَذَا الْعَطَاءِ ، وَهُوَ مِنَ الشَّاءِ وَالشُّكْرِ وَالْعِرْفَانِ بِهَذَا الْعَطَاءِ ، فَمَنْ شَكَرَ صَاحِبَ الْعَطَاءِ ، وَمَدَّحَهُ عَلَيْهِ ، وَأَتَى عَلَيْهِ خَيْرًا ، فَقَدْ اعْتَرَفَ لَهُ بِحَقِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ صَاحِبَ الْعَطَاءِ وَيَمْدَحْهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَعْتَرَفْ لَهُ بِحَقِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ .

إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْكَ شَخْصٌ ، وَأَسَدَى إِلَيْكَ مَعْرُوفًا ، وَكَانَ مَعَكَ مَالٌ ، فَادْفَعْ لَهُ مَالًا مُكَافِئًا لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَحُسْنِ صَنْيعِهِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَكَ مَالٌ ، فَامْدَحْهُ ، وَاشْكُرْهُ ، وَقُلْ لَهُ كَلَامًا طَيِّبًا . فَمَنْ أَتَى فَقَدْ شَكَرَ النَّعْمَةَ وَصَاحِبَهَا ، وَمَنْ سَكَتَ فَقَدْ جَحَدَ النَّعْمَةَ ، وَاحْتَقَرَ صَاحِبَهَا ، وَلَمْ يَعْتَرَفْ بِوُجُودِهِ وَلَا فَضْلِهِ . وَالْحَدِيثُ يَحْضُرُ عَلَى شُكْرِ صَانِعِ الْمَعْرُوفِ ، وَالاعْتِرَافِ بِالْفَضْلِ لِأَهْلِهِ ، وَالشَّاءِ عَلَيْهِمْ . وَقَالَ الْمُتَنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٧٥) : ((مَنْ أُعْطِيَ شَيْئًا فَوَجَدَ) أَي : مَنْ أُعْطِيَ حَقًّا فَلْيَكُنْ عَارِفًا بِحَقِّهِ ، فَإِنْ وَجَدَ مَالًا (فَلْيَجْزِ بِهِ) مُكَافِئًا عَلَى الصَّنِيعَةِ (وَمَنْ لَمْ يَجِدْ) مَالًا (فَلْيُشْنِ بِهِ) عَلَيْهِ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ كِتْمَانُ نِعْمَتِهِ (فَإِنْ أَتَى) عَلَيْهِ (بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ) عَلَى مَا أَعْطَاهُ (وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ) أَي : كَفَرَ نِعْمَتِهِ ، وَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ : الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ ، مَا شَكَرَ اللَّهُ عَبْدٌ لَمْ يَحْمَدْهُ . وَالْفَاءُ فِي وَجَدَ عَاطِفَةٌ عَلَى الشَّرْطِ ، وَفِي فَلْيَجْزِ بِهِ جَوَابِيَّةٌ ، وَفَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِحَرْفِ التَّرْتِيبِ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ مَنْ أُعْطِيَ لَا يُؤَخَّرُ الْجَزَاءَ عَنِ الْإِعْطَاءِ أَيَّمَا وَجَدَ الْيَسَارَ)) .

١١٠ رواه أبو داود في سننه (٢ / ٦٧١) ، والترمذي في سننه (٤ / ٣٧٩) ، وقال : حسن غريب .

ج _ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّمَا يَكُونُ بِإِشَاعَتِهَا وَنَشْرِهَا بَيْنَ النَّاسِ مَعَ تَعْظِيمِ اللَّهِ الْمُنْعِمِ وَالنَّشَاءِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ . وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ هُوَ اعْتِرَافٌ بِهَا ، وَتَقْدِيرٌ لَهَا ، وَتَعْظِيمٌ لِلْمُنْعِمِ ، لِذَلِكَ كَانَ التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرًا لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَالشُّكْرُ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ ، مَكَانَهَا الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ وَالْأَعْضَاءُ .

د _ تَرْكُ النِّعْمَةِ يَكُونُ بِإِخْفَانِهَا وَحَجْدِهَا وَعَدَمِ الاعْتِرَافِ بِوُجُودِهَا . وَهَذَا يَعْنِي رَفْضَ نِعْمَةِ اللَّهِ ، وَعَدَمِ الاعْتِرَافِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِنْعَامِهِ . وَهَذَا هُوَ سَبَبُ زَوَالِ النِّعَمِ .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٢٧٩) : ((" وَتَرْكُهَا كُفْرٌ " أَي سَتْرٌ وَتَغْطِيَةٌ لِمَا حَقُّهُ الْإِظْهَارُ وَالْإِذَاعَةُ . قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : ذَكَرَ النَّعَمُ يُورِثُ الْحُبَّ فِي اللَّهِ ، ثُمَّ هَذَا الْخَبْرُ مَوْضِعُهُ مَا لَمْ يَتَرْتَبْ عَلَى التَّحَدُّثِ بِهَا ضَرَرٌ كَحَسَدٍ ، وَإِلَّا فَالْكَتْمَانُ أَوْلَى ، كَمَا يُفِيدُهُ قَوْلُ الرَّمْخَشَرِيِّ : وَإِنَّمَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا إِذَا قَصَدَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ ، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ الْفِتْنَةَ ، وَإِلَّا فَالْسُّتْرُ أَفْضَلُ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا التَّشْبِيهُ بِأَهْلِ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ لَكُنْفَى)) .

هـ _ اجْتِمَاعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ رَحْمَةً لِلْجَمِيعِ ، وَسَعَادَةٌ ، وَهَنَاءٌ ، وَتَقَدُّمٌ سِيَاسِيٌّ ، وَازْدِهَارٌ اجْتِمَاعِيٌّ ، وَرِخَاءٌ اقْتِصَادِيٌّ . حَيْثُ يَتَعَاوَنُ الْمُسْلِمُونَ مَعًا ، وَيَبْنُونَ مَجْتَمَعَاتِهِمْ ، وَيَقْوِدُونَ مَسِيرَةَ النَّمِيَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لَا الشَّعَارَاتِيَّةِ ، وَيُطَوِّرُونَ بِلَادِهِمْ ، وَيُحَسِّنُونَ أَوْضَاعَ النَّاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ . لِذَلِكَ كَانَتْ الْجَمَاعَةُ بَرَكَةً وَرَحْمَةً . أَمَّا الْفُرْقَةُ وَالتَّسَاحُرُ وَاخْتِلَافُ الْكَلِمَةِ فَتُؤَدِّي إِلَى النِّزَاعَاتِ الْمُسَلِّحَةِ ، وَالْإِنْهِيَارِ الْقِصَادِي ، وَالتَّفْكَكِ الْاجْتِمَاعِي ، وَانْتِشَارِ الْقَتْلِ وَالْجَرِيمَةِ وَالْفَسَادِ وَالْخِرَابِ وَالْدِمَارِ الشَّامِلِ . وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٧٩) : ((أَي : اجْتِمَاعُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْتِظَامُ شَمْلِهِمْ زِيَادَةً خَيْرٍ وَأَجْرٍ . وَتَفَرُّقُهُمْ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَذَابٍ فِي الدُّنْيَا ، وَأَمْرٌ الْآخِرَةُ إِلَى اللَّهِ)) .

إِنَّ شُكْرَ النِّعْمَةِ يُؤَدِّي إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِهَا وَزِيَادَتِهَا ، وَحَجْدِهَا يُؤَدِّي إِلَى زَوَالِهَا ، أَوْ تَحْوُلِهَا إِلَى نِقْمَةٍ . وَدَائِمًا ، الْأَحْمَقُ يُحَوِّلُ النِّعْمَةَ إِلَى نِقْمَةٍ بِسُوءِ تَصَرُّفِهِ ، وَيَصِيرُ الْإِحْسَانَ وَالنَّعِيمَ هَالِكًا وَتَعَاسًا ، لِأَنَّ الْجَاهِلَ عَدُوُّ نَفْسِهِ ، يُدَمِّرُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَقْوُدُهَا إِلَى الْهَابِوِيَّةِ السَّحِيقَةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ تَظْهَرَ آثَارُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ ، فَإِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا ، ارْتَدَى ثِيَابًا جَمِيلَةً ، وَأَكَلَ طَعَامًا شَهِيًّا ، وَسَكَنَ فِي بَيْتٍ وَاسِعٍ وَمُرِيحٍ ، وَأَنْفَقَ وَتَصَدَّقَ . وَإِنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ عِلْمًا نَشَرَ عِلْمَهُ بَيْنَ النَّاسِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ . وَاللَّهُ أَعْطَى الْعَبْدَ النِّعْمَةَ كَيْ تَتَغَيَّرَ حَيَاتُهُ إِلَى الْأَفْضَلِ ، وَتَظْهَرَ آثَارُهَا عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ كَيْ يَكْتُمَهَا وَيَحْجِدَهَا ، وَيَظْهَرَ كَمْظَهَرَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ . وَإِظْهَارُ آثَارِ النِّعْمَةِ شُكْرٌ لِلَّهِ عَلَيْهَا . وَلِتُكُنَّ نَيْئُهُ امْتِثَالُ أَمْرِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ وَتَقْدِيرِ نِعْمَتِهِ ، وَلَيْسَ الرِّيَاءُ أَوْ السُّمْعَةُ أَوْ الْمُبَاهَاةُ أَوْ الْمُفَاخَرَةُ أَوْ الْغُرُورُ .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه : أنّ رسول الله ﷺ قال : ((كُلُّوا واشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا في غير سرفٍ ولا مَخِيلَةٍ ، إنّ الله تعالى يُحِبُّ أن يُرى أثرُ نِعْمته على عبده)) ١١١ .
 أباح الله للناس أن يأكلوا من الطيبات ، ويشربوا من الأشربة الحلال ، ويتصدقوا بأموالهم ،
 بدون سرفٍ (إسراف) وهو تجاوز الحد ، ولا مَخِيلَةٍ (تكبر) .

وهذا يدلُّ على أنّ الشريعة نظمت أمورَ الناس ، وحققت مصالحهم ، وجلبت لهم المنافع
 والفوائد ، ولم تجحّ لتضييق عليهم ، وإنما جاءت للتوسيع عليهم ، ورفع الحرج عنهم ، وعدم
 اضطرارهم إلى أضيق المسالك ، وقد سمحت بالتَّمَتُّع بملذات الحياة دون إفراط ولا تكبر ،
 لأنهما يُفسدان النَّفْسَ ، ويُحطمان الجسدَ ، ويُتلفان المالَ ، فتضيع دنيا العبد وآخرته . وهذا
 يدلُّ على أهمية الاعتدال والترشيد، وضرورة التَّحَكُّم بالشَّهَوَاتِ والمَلذَّاتِ ، وخيرُ الأمورِ أوسطها .
 ويجب على العبد أن يشكر الله على نِعَمه العظيمة ، وآلائه الجليلة ، وفَضله الكبير ، وذلك
 بإظهار نِعَمِ الله عليه مُقَرَّراً ومُعْتَرِفاً بها ، دون رياء ، ولا مَبَاهَاة ، ولا غرور ، ولا تكبر على الناس .
 وهذا يدلُّ على خطورة البُخْلِ وحرمان النَّفْسِ من الطيبات .

والله يُحِبُّ أن يُظهر العبد نِعَمَ الله عليه ، وفَضله عليه بما رزقه من مال أو جاه ، فيلبس ثياباً
 نظيفةً وجميلةً، تليق بحاله، لإظهار نِعمة الله عليه، بدون إسراف ولا تكبر. وهذا اعتراف بفضل الله،
 وشُكْرٌ له على نِعَمه ، واستعانة بها على طاعته . وعلى العبد أن يتخذ نِعَمَ الله طريقاً إلى جنته ،
 وليس وسيلةً لمراءاة الخلق ، والاستعلاء عليهم . ومن شُكْرِ النِّعَمِ إظهارها، ومن كُفْرانها كتمانها .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٤٦) : ((كُلُّوا واشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَابْسُوا في غير
 إسراف) أي مُجاوِزة حد (ولا مَخِيلَةٍ) كعظيمة ، بمعنى الخيلاء ، وهو التَّكْبُرُ ، وقيل : بوزن مَفْعَلَةٍ
 _ يعني مَخِيلَةٍ _ من اختال إذا تَكَبَّرَ . أي : بلا عجب ولا كِبَر ولَفْظُ رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ وابن
 ماجة : " كُلُّوا واشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا ما لم يُخالطه إسراف ولا مخيلة " ، وهذا الخبر جامع لفضائل
 تدبير المرء نفسه ، والإسراف يُضِرُّ بالجسد والمعيشة ، والخيلاء تُضِرُّ بالنفس ، حيث تُكسبها
 العُجْبَ ، وبالذُّنيا حيث تُكسب المَمْتَنَ من الناس ، وبالآخرة حيث تُكسب الإثم)) .

وفي نفس المرجع (٢ / ٢٩٣) : ((إنّ الله يُحِبُّ أن يُرى) بالبناء للمجهول (أثر نِعْمته)
 أي : إنعامه (على عبده) ، قيل : معنى يرى مزيد الشُّكْرِ لله تعالى ، العمل الصالح والثَّناء والدُّكْرُ

١١١ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ١٥٠) برقم (٧١٨٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

له بما هو أهله والعطف والترحم والإنفاق من فضل ما عنده في القرب ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ ، والخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، فيرى في أثر الجدة (الشروة) عليه زياً وإنفاقاً وشكراً ، هذا في نعمة الله ، أما في النعمة الدينية فبأن يرى على العبد نحو استعماله للعلم فيما أمر به ، وتهذيب الأخلاق ، ولين الجانب ، والجلم على السفيه ، وتعليم الجاهل ، ونشر العلم في أهله ، ووضعه في محلّه بتواضع ولين جانب في أبهة واحتشام ، وفي وفاة الأمور بالرّفق بالرعيّة ، وإقامة نواميس العدل فيهم ، ومعاملتهم بالإنصاف ، وترك الاعتساف ، إلى غير ذلك من سائر ما يجب عليهم ، ويترد ذلك في كل نعمة مع أنّ نعمة تعالى لا تحصى)) .

وفي نفس المرجع (٢ / ٢٩٨) : ((إنّ الله تعالى يحبُّ أن يرى) بضم الياء وفتحها ، فعلى الضمّ الرؤية تعود للناس ، وعلى الفتح تعود إلى الله ، لأنه يرى الأشياء على ما هي ، فيرى الموجود موجوداً ، والمعدوم معدوماً (أثر نعمته على عبده) لأنه سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده ، فإنه من الجمال الذي يحبه ، وذلك من شكره على نعمه ، وهو جمال باطن ، فيجب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة ، والجمال الباطن بالشكر عليه ، ولأجل محبته تعالى للجمال أنزل لعباده لباساً يجمّل ظواهرهم ، ويُفوّي تجمّل بواطنهم ، فهو يحب لعبده التجمّل حتى (في مأكله ومشربه) أي مأكوله ومشروبه حتى يرى أثر الجدة عليه ، وعلى من عليه مؤنته ، من زوجة وخادم وغيرهما ، قوياً وملبساً ومسكناً ، وغير ذلك ممّا يليق بأمثاله وأمثالهم عرفاً)) .

إنّ المسلم معتدل ووسطي في أفكاره وسلوكه ، ويعيد كل البعد عن الإفراط والتفريط ، وهو مُحافظ على صحته ونشاطه ، ويحرص على الأكل والشرب باعتدال وتوازن ، دون إسراف ، حتى يحمي نفسه من المشكلات الصحية ، ويحافظ على نفسه وجسده ، ويقدر على أداء الطاعات .

وفي نفس المرجع (٣ / ٢٧٩) : ((" فائدة " أخرج في الحلية عن وهب أنّ بعض الأنبياء عليه السلام سأل ربه عن سبب سلب بلعام بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال تعالى : إنه لم يشكرني يوماً على ما أعطيتّه ، ولو شكرني على ذلك مرّة واحدة لما سلّيتّه نعمتي)) .

و " بلعام بن باعوراء " من علماء بني إسرائيل ، أعطاه الله علم بعض كُتب الله ، لكنه كفر بها ، فسلب الله منه الكرامات ، وطردّه، وذمّه. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا ﴾ ، قال : ((هو بلعام بن باعوراء))^{١١٢} .

١١٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٥٥) برقم (٣٢٥٨) ، وصحّحه الذهبي .

قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. لا يمكن للإنسان أن يسير في طريق العبادة إلا بالصَّبْر على أداء الفرائض والسُنَنِ ، وتثبيت نَفْسِهِ على الطاعة ، ومنعها من الحرام ، وهذا لا يتأتى إلا بالاستعانة بالصَّبْر الذي قُدِّمَ ذِكْرُهُ على الصَّلَاةِ ، لأنَّ الصَّبْرَ هو مفتاح العبادات ، وبدونه لا يمكن أداء أيَّة عبادة .
وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : أنه جاءه نَعْيُ بعض أهله وهو في سَفَرٍ ، فصلى ركعتين ، ثُمَّ قال : ((فَعَلْنَا مَا أَمَرَ اللَّهُ ، استعينوا بالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)) ١١٣ .

هذا هو التطبيق العملي للأوامر الإلهية التي ليست شعاراتٍ على الورق . إنها منهاجٌ متكامل لصالح الفرد وإصلاح المجتمع ، فالصَّبْرُ إن لم يتحقق على أرض الواقع وعند الصَّدَمَاتِ ، فعندئذ يكون الفرد كالحمّار الذي يَحْمِلُ أسفارًا ، يَحْمِلُهَا على ظَهْرِهِ ، لكنّه لا يفهم ما فيها ، ولا يعمل بها . إنَّ حقيقة الصَّبْرِ تتجلّى في مَنع النَّفْسِ مِنْ شَهَوَاتِهَا الْمُحَرَّمَةِ ، وَرَفْضِ اتِّبَاعِ هَوَاهَا .
ومعنى الآية : استعينوا بالصَّبْرِ على طاعة الله ، وتطبيق أوامره ، واجتناب نَوَاهِيهِ ، وبإقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . والصلاة عبادة عظيمة شاقّة وثقيلة إلا على المؤمنين المتواضعين لله تعالى ، والمستسلمين لأحكام شريعته ، والمُصَدِّقِينَ بوعدِهِ ووَعِيدِهِ ، والذليلين أمام عَظَمَتِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ ، والخائفين من عذابه .

وقيل إنَّ المقصود بالصَّبْرِ في الآية هو الصَّوْمُ ، ومنه قيل لرمضان شهر الصَّبْرِ . ووفق هذا القول ، فإنَّ تخصيص الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ بِالذِّكْرِ لعلاقتيهما الوثيقة ، وتناسبهما الواضح ، فالصَّوْمُ يمنع الإنسان من الشَّهَوَاتِ ، وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا . وَالصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٤١٤) : ((قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ . اختلف المتأولون في عَوْدِ الضَّمِيرِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿وَإِنَّهَا﴾ ، فُقِيلَ : على الصلاة وَحَدَّهَا خاصة ، لأنها تكبر على النَّفْسِ ما لا يكبر الصَّوْمُ . وَالصَّبْرُ هُنَا : الصَّوْمُ ، فالصلاة فيها سَجْنُ النَّفْسِ ، وَالصَّوْمُ إِنَّمَا فِيهِ مَنعُ الشَّهْوَةِ ، فَلَيْسَ مِنْ مَنعِ شَهْوَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ شَهْوَتَيْنِ ، كَمَنْ مَنَعَ جَمِيعَ الشَّهَوَاتِ ، فالصائم إنما فيه مَنعُ شَهْوَةِ النِّسَاءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، ثم ينسبط في سائر الشَّهَوَاتِ مِنَ الْكَلَامِ وَالْمَشْيِ وَالنَّظَرِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مُلَاقَاةِ الْخَلْقِ ، فيتسلّى بتلك الأشياء عَمَّا مَنَعَ ، وَالْمُصَلِّي يَمْتَنَعُ مِنْ جَمِيعِ

١١٣ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٩٦) برقم (٣٠٦٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ذلك، فجوارحه كُلُّها مُقَيِّدة بالصلاة عن جميع الشَّهَوَاتِ ، وإذا كان ذلك ، كانت الصلاة أصعب على النَّفْسِ ، ومُكابِدتها أشد ، فلذلك قال : ﴿ وَإِنِهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ .
والصلاة خفيفةٌ على الخاشعين ، لأنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ تَعَالَى ، ومُتَعَلِّقُونَ بِالْجَزَاءِ وَالنَّعِيمِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ومُسْتَعْرِقُونَ فِي مُنَاجَاةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وهذه اللذة أَنْسَتْهُمْ شِدَّةَ الصَّلَاةِ وَتَعْبَهَا وَمَشَقَّتَهَا ، لذلك تَسْهُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ . وفي الصلاة تتجلى لَذَّةُ الْعِبَادَةِ ، ويتَّضَعُ الاستمتاع بالطاعة .
وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((... ، وَجُعِلَتْ فُرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ))^{١١٤} .
جُعِلَتْ سَعَادَةُ النَّبِيِّ ﷺ ومُتَعَتَهُ واستمتاعه في الصلاة ، لذلك ، فهو حريصٌ عليها ، لا يُريد مُفَارَقَتَهَا وَلَا الْخُرُوجَ مِنْهَا . وَالإِنْسَانُ حَرِيصٌ عَلَى مَا يُسْعِدُهُ ، وَيَتَمَسَّكُ بِهِ ، وَلَا يَحِبُّ تَرْكَهُ .
والحديثُ يُوضِّحُ عَظِيمَ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلصَّلَاةِ ، وَذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَا شَيْءَ يُسْعِدُهُ وَيُدْخِلُ عَلَيْهِ السُّرُورَ كَالصَّلَاةِ . وَفُرَّةٌ الْعَيْنُ يُعْبَرُ بِهَا عَنِ الْمَسْرَّةِ وَرُؤْيَا مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ . وَفِيهِ : بَيَانُ عَظَمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهَا يَنْبَغِي أَنْ تُكُونَ الْأَوْلَى عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ .
لقد صارت الصَّلَاةُ صِفَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَحَالًا لَهُ ، يَجِدُ فِيهَا فَرَحَهُ وَسَعَادَتَهُ وَلَذَّتَهُ وَنَعِيمَهُ وَهَنَاءَهُ .
والعبد يتقرب إلى الله بالصلاة ، لذلك يُعَظَّمُ قَدْرُهَا ، وَيَحْرِصُ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْحَرِصِ ، وَهِيَ مَحَلُّ الْقُرْبَةِ وَالْمُنَاجَاةِ ، وَلَا وَاسِطَةَ فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ، إِذْ إِنَّ الْعَبْدَ فِي الصَّلَاةِ يُكَلِّمُ اللَّهَ مُبَاشَرَةً .
وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٣٤٥) : ((وَلَا شَيْءَ أَقْرَ لِعَيْنِ الْعَبْدِ مِنَ الصَّلَاةِ ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ الْمَرْفُوعِ : " وَجُعِلَتْ فُرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " . أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ . وَمَنْ كَانَتْ فُرَّةٌ عَيْنِهِ فِي شَيْءٍ ، فَإِنَّهُ يَوَدُّ أَنْ لَا يَفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ ، لِأَنَّ فِيهِ نَعِيمَهُ ، وَبِهِ تَطْيِيبَ حَيَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ لِلْعَابِدِ بِالْمُصَابَرَةِ عَلَى النَّصَبِ (التَّعَبِ) ، فَإِنَّ السَّالِكَ عَرَضَ الْآفَاتِ وَالْفُتُورِ)) .

والجدُّ بِالذِّكْرِ أَنَّ الصَّلَاةَ تُورِثُ الْخُشُوعَ وَالتَّوَاضِعَ وَاللِّينَ، وَتَنْفِي الْكِبَرَ وَالتَّكْبَرَ وَالْعِنَادَ وَالغُرُورَ . وَالْخُشُوعُ هُوَ الْإِخْبَاتُ وَالتَّوَاضِعُ . وَالْخُشُوعُ مَكَانُهُ الْقَلْبُ ، وَتَظْهَرُ آثَارُهُ عَلَى الْجَوَارِحِ .
وَالصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ يُعِينَانِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ . وَتَمَّ تَخْصِيصُ الصَّلَاةِ بِالذِّكْرِ لِمَكَانَتِهَا الْعَظِيمَةِ ، وَمَنْزِلَتِهَا الرَّفِيعَةِ ، وَتَنْوِيهِهَا بِشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا وَعَظَمَتِهَا . وَالصَّلَاةُ تُمَثِّلُ أَعْظَمَ دَرَجَاتِ الصَّبْرِ ، لِأَنَّ جَوَارِحَ الْمُصَلِّيِّ وَأَعْضَاءَهُ وَحَوَاسِئَهُ ، كُلُّهَا مُقَيِّدَةٌ بِالصَّلَاةِ ، وَهَذَا سَبَبُ شِدَّةِ

١١٤ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٧٤) برقم (٢٦٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الصلاة ومشقتها ، فهي شديدة على النفس . ولا بُدَّ من بذل جهد كبير في مكابذتها وتحملها والصبر عليها . والصلاة هي عمود الدين ، وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين . والصلاة راحة المؤمن ، ومنبع السكينة والطمأنينة . والعبء أثناء الصلاة ، يكلم الله ، ويدعوه . وهي الصلة الوثيقة بين العبد وربّه . والشخص الذي لا يصلي ، قد قطع العلاقة بينه وبين الله تعالى . والنبي ﷺ كان إذا تضايق من أمرٍ ، أو أُصيب بالحزن والغمّ ، لجأ إلى الصلاة .
 عن حذيفة قال : كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى ١١٥ .

إن الصلاة صلة بين العبد وربّه ، وهي عبادة عظيمة فيها تصفؤ الروح من الكدر والمنغصات النفسية ، وفيها يقف العبد بين يدي الله ، ويدعوه لتفريغ همومه ، فهو وحده القادر على إزالة الهم والحزن وتسهيل الصعاب . وقد كان النبي ﷺ إذا أجزته أمرٌ ، أو أصابه بالهمّ ، لجأ إلى الصلاة ، سواء كانت فرضاً أم نافلةً ، لأن في الصلاة راحة وفرة عين له ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ ، وهذا من تعليم النبي ﷺ لأُمَّته ، فإنه يعلمنا حسن التوكل على الله ، واللجوء إليه في كل الأمور . وفي الحديث : الحث على اللجوء إلى الصلاة عند المصائب .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٥٢٧) : ((كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ فرغ إليها ، _ يعني الصلاة _ . والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى ، مطردة للداء ، موقية للقلب ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منورة للقلب ، مبيضة للوجه ، حافظة للنعمّة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة للشيطان ، مقرّبة من الرحمن . وبالجملة فلها تأثير عجيب في حفظ صحة القلب والبدن وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما ، سيما إذا وقّيت حقها من التكميل ، فما استدفعت أذى الدارين ، واستجلبت مصالحهما بمثلها ، وسرّها أنها صلة بين العبد وربّه ، وبقدر الوصلة يفتح الخير ، وتفاض النعم ، وتدفع النقم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٧٥ و ٧٦) في تفسير الآية : ((الأصل في الصبر الحبس ، فالصابر حابس لنفسه عن الجزع ، وسُمّي الصائم صابراً لحبسه نفسه عن الأكل ، والشرب ،

١١٥ رواه أبو داود في سننه (١ / ٤٢٠) برقم (١٣١٩) . وحسنه الحافظ في الفتح (٣ / ١٧٢) .
 وفي تاج العروس (١ / ٤٠٦) : ((حزبه الأمرُ يحزُّه حزناً : نابه ، أي : أصابه واشتدَّ عليه ، أو ضَعَطَهُ فحجاً ، وفي الحديث : " كان إذا حزبه أمرٌ صلى " ، أي : إذا نزل به مهمٌّ وأصابه غمٌّ)) .

والجماع، والمصبورة البهيمية تُتخذ غرضًا ، وقال مُجاهد : الصبر هاهنا الصوم. وفيما أمرُوا بالصبر عليه ثلاثة أقوال : أحدها أنه أداء الفرائض ، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني أنه ترك المعاصي، قاله قتادة. والثالث عدم الرئاسة ، وهو خطاب لأهل الكتابين . ووجه الاستعانة بالصلاة أنه يُتلى فيها ما يُرغَّب في الآخرة، ويُرهِد في الدنيا . قوله تعالى : ﴿ وَإِنهَا ﴾ في المُكَيِّ عنها ثلاثة أقوال : أحدها أنه الصلاة ، قاله ابن عباس والحسن ومُجاهد والجمهور . والثاني أنها الكعبة والقبلة، لأنه لما ذَكَر الصلاة ذَلَّت على القبلة ، ذَكَر الصَّحَّاح عن ابن عباس ، وبه قال مُقاتل . والثالث أنها الاستعانة ، لأنه لما قال : ﴿ وَاسْتَعِينُوا ﴾ ذَلَّ على الاستعانة ، ذَكَرهُ مُحَمَّد بن القاسم النَّحْوِي ((.

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥]. الخطابُ الإلهيُّ مُوجَّهٌ للصَّحابة رضي الله عنهم ، إنَّ الله سيبتليكم بشيءٍ من الخوف ، حيث تفتقدون الأمن ، وتفتقدون إلى الأمان ، والجوع حيث لا تجدون الطعام ، وتقلُّ الأموال في أيديكم، وتُنقص القوى البشرية (يقلُّ عدد الأنفس)، وتقل الثمرات حيث يضعف إنتاج الأشجار، أو لا تعود تُنتج ، ليعلم الله من يتبع النبي ﷺ ممن ينقلب على عقبيه. وبشِّر يا مُحَمَّد الصابرين على البلاء والشدائد والأزمات والمصائب والكوارث بأنَّ لهم نعيم الجنة في الآخرة مكافأة لهم. والآية تدل على أن الدنيا دار بلاء واختبار وامتحان ، نعيمها مشوب بالكدر، ونعومتها مختلطة بالخسونة، وفرحها ممزوج بالحزن، وسعادتها ضئيلة وزائلة. والدنيا شديدة الخطورة ، لأنها أكبر تجسيد لمبدأ " دَس السُّم في العسل " . ومن مآمنه يُؤتَى الحذر . وليس العجبُ ممن هلك كيف هلك ، إنَّما العجبُ ممن نجا كيف نجا . وصدق القائل :

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ

وَسَأَلَمْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

وقال الشاعر : حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي

بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مُخْبِرًا

طَبِعَتْ عَلَى كَدْرِ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طَبَاعِهَا

وقال المثنبي : أريدُ من زمني ذَا أن يُبلَّغني

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِبِ

فَمَا يُدِيمُ سُرُورَ مَا سُرِرْتَ بِهِ

ما لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

ما دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ

ولا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ

[المعنى العام : أطلب من الزمن استقامة الأحوال ، والزمن لا يبلغ هذا من نفسه ، لأنه دائم الثقل والتغير . وما دُمَّت حياً فلا تُبال بالزمن ولا تعبأ بأحداثه ومصائبه ، لأنها زائلة وغير باقية . والمسور لا يدوم فرحه وسروره، لأن بقاء الحال من المحال. والحزن على الغائب لا يزدده عليك].
 إنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَمْتَحِنُهُمْ بِالصَّائِبِ وَالْكُورِثِ لِيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى، مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْكَاذِبِينَ أَهْلِ الشُّكِّ وَالْارْتِيَابِ. وَالْبَلَاءُ تَارَةً يَكُونُ حَسَنًا، وَتَارَةً يَكُونُ سَيِّئًا. وامتحن الله للعباد لكشف مستوى إيمانهم ، وإظهارهم صادقين أم كاذبين ، بالحجّة الواقعية والبرهان العملي ، وهل يصبرون على الشدائد والكوارث ويستسلمون للقضاء أم ينهارون ويستخبطون ؟ . وليس ليَعْلَمَ اللهُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ . فَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، قَبْلَ وَقُوعِهِ ، وَأَثَاءَ وَقُوعِهِ ، وَبَعْدَ وَقُوعِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعِبَادِ وَإِيمَانُهُمْ وَامْتِحَانُهُمْ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا إِلَى إِيْمَانِهِمْ . وَإِيْمَانُ الْعَبْدِ يَعُودُ بِالنَّفْعِ عَلَى الْعَبْدِ، وَكُفْرُهُ يَعُودُ بِالضَّرْرِ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ لَا يَنْفَعُهُ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِ، وَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الْكَافِرِ . وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْبَلَاءِ اسْتَحَقَّ الثَّوَابَ ، وَمَنْ سَخِطَ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ صَبَرْتُمْ أُجِزْتُمْ وَأَمْرُ اللَّهِ نَافِذٌ ، وَإِنْ جَزَعْتُمْ أَثِمْتُمْ وَأَمْرُ اللَّهِ نَافِذٌ .

وَاللَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ وَيَخْتَبِرُهُمْ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ خَوْفِ الْعُدُوِّ فِي الْمَعَارِكِ، وَالْمَجَاعَةِ وَالْجَدْبِ وَالْفَحْطِ ، وَخَسَارَةِ بَعْضِ أَمْوَالِهِمْ بِسَبَبِ الْإِنْشَغَالِ بِقِتَالِ الْكَافِرِينَ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ بِسَبَبِ الْكُورِثِ الْمُهْلِكَةِ ، وَمَوْتِ أَقْرَابِهِمْ وَأَحْبَابِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، وَضَعْفِ إِنتَاجِ الْمَزَارِعِ وَالْبَسَاتِينِ. وَتَنْكِيرُ "شَيْءٍ" فِي الْآيَةِ لِلتَّقْلِيلِ، أَي : بِشَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ هَذِهِ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ. وَقَدْ قَلَّلَهُ اللهُ ، وَأَعْلَمَهُمْ بِقَلَّتِهِ ، لِيُرِيحَهُمْ ، وَيُطَمِّنَهُمْ ، وَيُخَفِّفَ عَنْهُمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ بِهِمْ، وَأَنَّ الْبَلَاءَ لِرَفْعِ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ لِتَدْمِيرِهِمْ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ قَبْلَ وَقُوعِهِ ، كِي يَسْتَعِدُّوا لَهُ ، وَيَأْخُذُوا الْحَيْطَةَ وَالْحَذَرَ، وَيُوطِنُوا عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَيُدْرِكُوا أَنَّهُ امْتِحَانٌ يَسِيرٌ لَهُ نَتِيجَةٌ رَائِعَةٌ . وَالدُّنْيَا قَائِمَةٌ عَلَى الْإِمْتِحَانَاتِ ، كَمَا أَنَّ الْمَدْرَسَةَ قَائِمَةٌ عَلَى الْإِمْتِحَانَاتِ .
 وَيَشْرُ الصَّابِرِينَ عَلَى الْمَصَائِبِ يَا مُحَمَّدٌ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالْأَجْلِ الْجَزِيلِ وَنَعِيمِ الْجَنَّةِ الدَّائِمِ .
 وَعَنْ أَنَسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى)) ١١٦ .

١١٦ متفق عليه. البخاري (٤٣٨ / ١) برقم (١٢٤٠) ، ومسلم (٦٣٧ / ٢) برقم (٩٢٦) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢٢٧/٦): ((معناه: الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقة فيه . وأصل الصدم الضرب في شيء صلب ، ثم استعمل مجازاً في كل مكروه حصل بعتة)).

الصَّبْرُ الحَقِيقِيُّ الكَامِلُ الذي يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الأَجْرَ العَظِيمَ لِعَظَمِ المَشَقَّةِ والأَلَمِ ، إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ تَلَقِّي خَبَرِ المُصِيبَةِ الذي يَصِدِّمُ القَلْبَ فَجَاءَةً . والقَلْبُ القَوِيُّ وَحْدَهُ قَادِرٌ عَلَى امْتِصَاصِ هَذِهِ الصَّدْمَةِ القَاسِيَةِ ، أَمَّا بَعْدُ أَنْ تَصِيرَ المُصِيبَةُ بَارِدَةً ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا الزَّمَنُ ، فَجَمِيعُ النَّاسِ يَصِيرُونَ ، حَتَّى إِنْهُمْ يَنْسَوْنَهَا . وَالصَّبْرُ عِنْدَ قُوَّةِ المُصِيبَةِ أَشَدُّ ، وَالثَّوَابُ عَلَيْهِ أَكْثَرُ . وَيَطُولُ الأَيَّامُ تُنْسَى المِصَانِبُ ، فَيَصِيرُ الصَّبْرُ طَبَعًا . وَالصَّبْرُ يَكُونُ فِي ذِرْوَةِ الحَدَثِ ، وَفِي قِمَّةِ المُصِيبَةِ الصَّادِمَةِ ، حِينَ تَأْتِي فَجَاءَةً ، فَهَذِهِ اللِّحْظَةُ يَتَجَلَّى فِيهَا الصَّبْرُ ، وَيَبْتُثُّ فِيهَا الصَّادِقُونَ . أَمَّا مَعَ مُرُورِ الوَقْتِ فَإِنَّ الصَّدْمَةَ مَهْمَا كَانَتْ قَوِيَّةً سَوْفَ تَذُبُلُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَرِحَلَةٍ تَفْقِدُ فِيهَا تَأْثِيرَهَا بِحُكْمِ مُضِيِّ الزَّمَانِ ، وَامْتِصَاصِ النَّاسِ لِلحَدَثِ ، وَنَسْيَانِهِ .

الصَّبْرُ المَحْمُودُ الذي يُؤَجَّرُ عَلَيْهِ العَبْدُ ، إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ صَدْمَةِ المُصِيبَةِ الأُولَى وَبِدَائِبَتِهَا ، لِأَنَّهُ هُوَ الذي يَشْتَقُّ وَيَعْظُمُ تَحْمَلُهُ وَمُجَاهَدَةَ النَّفْسِ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا بَعْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى وَمُرُورِ الأَيَّامِ ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَصِيرُ ، وَيَنْسَى المُصِيبَةَ .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢ / ١٦٩) : ((إِنَّمَا الصَّبْرُ الشَّاقُّ عَلَى النَّفْسِ الذي يَعْظُمُ الثَّوَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هُوَ عِنْدَ هُجُومِ المُصِيبَةِ وَحَرَاطَتِهَا ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ القَلْبِ ، وَتَثْبُتِهِ فِي مَقَامِ الصَّبْرِ ، وَأَمَّا إِذَا بَرَدَتْ حَرَارَةُ المُصِيبَةِ ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَصِيرُ إِذْ ذَاكَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ : يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَلْتَزِمَ عِنْدَ المُصِيبَةِ مَا لَا بُدَّ لِالأَحْمَقِ مِنْهُ بَعْدَ ثَلَاثِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ : لَمَّا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ صَارَ الصَّبْرُ عَيْشًا ، وَالصَّبْرُ صَبْرَانٌ : صَبْرٌ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَهَذَا مُجَاهِدٌ ، وَصَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ عَابِدٌ ، فَإِذَا صَبَرَ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَصَبَرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، أَوْرَثَهُ اللَّهُ الرِّضَا بِقَضَائِهِ . وَعِلَامَةُ الصَّبْرِ سُكُونُ القَلْبِ بِمَا وَرَدَ عَلَى النَّفْسِ مِنَ المَكْرُوهَاتِ وَالمَحْبُوبَاتِ . وَقَالَ الخَوَّاصُ : الصَّبْرُ الثَّبَاتُ عَلَى أَحْكَامِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَقَالَ رُوَيْمٌ : الصَّبْرُ تَرْكُ الشَّكْوَى . وَقَالَ ذُو النُّونِ المِصْرِيُّ : الصَّبْرُ هُوَ الاستِعَانَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ الأَسْتَاذُ أَبُو عَلِيٍّ : الصَّبْرُ حُدُّهُ أَلَّا تَعْتَرِضَ عَلَى التَّقْدِيرِ ، فَأَمَّا إِظْهَارُ البَلْوَى عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الشَّكْوَى ، فَلَا يُنَافِي الصَّبْرَ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٣٦٠) : ((إِنَّ الصَّبْرَ) أَي : المَحْمُودُ صَاحِبُهُ أَوْ الكَامِلُ مَا كَانَ (عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى) أَي الوَارِدِ عَلَى القَلْبِ غِيبَ المُصِيبَةِ _ بَعْدَهَا _ إِذْ لَفَجَأَتْهَا رَوْعَةٌ تُزَعِجُ القَلْبَ بِصَدْمَتِهَا ، فَإِنَّ صَبْرَ لِالصَّدْمَةِ الأُولَى انكسرت حَدَّتُهَا ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهَا ، فَهَانَ عَلَيْهِ استِدَامَةُ الصَّبْرِ ، وَأَمَّا إِذَا أُورِدَتْ بَعْدَ طُولِ الأَمَلِ فَقَدْ تَوَطَّنَ عَلَيْهَا ، وَيَطْبَعُهَا ، وَيَصِيرُ صَبْرُهُ كَالِاضْطِرَارِيِّ ، فَمَعْنَى الخَبَرِ كَمَا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : إِنَّ كُلَّ ذِي رَزِيَّةٍ (فَجِيعَةٍ) فَصَارَاهُ الصَّبْرَ ، لَكِنْ

إنما يُحَمَّد على صَبْرِهِ عندِ حِدَّةِ المُصِيبَةِ وحرارتها ، والصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ على مُفْتَضَى الشَّرْعِ ، وهو لفظ عام زُبْمًا خُولِفَ بين أسمائه بِحَسَبِ اختلافِ مَوَاقِعِهِ ، فَحَبْسُ النَّفْسِ لِمُصِيبَتِهِ يُسَمَّى صَبْرًا لا غَيْرَ ، ويُقَابِلُهُ الجَزَعُ . وَحَبْسُهَا في مُحَارَبَةٍ تُسَمَّى شِجَاعَةً ، ويُقَابِلُهُ الجُبْنُ . وفي إِمْسَاكِ عَن كَلَامٍ يُسَمَّى صَمْتًا وَكِتْمَانًا ، ويُقَابِلُهُ القَلَقُ ، وَهَكَذَا)) .

وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (١ / ١٦٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ أَي : وَلَنَخْتَبِرَنَّكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدَ ، وَاللَّامُ لِحُجُوبِ القَسَمِ ، تَقْدِيرُهُ : وَاللَّهُ لَنَبْلُوَنَّكُمْ . وَالإِتْلَاءُ مِنَ اللَّهِ لِإِظْهَارِ المُطِيعِ مِنَ العَاصِي ، لا لِيَعْلَمَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ ﴾ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ ﴾ ، قال ابن عَبَّاسٍ : يَعْني خَوْفُ العَدُوِّ ، ﴿ وَالجُوعِ ﴾ يَعْني القَحْطُ ، ﴿ وَنَقْصِ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ بِالخُسْرَانِ وَالهَلَاكِ ، ﴿ وَالأنْفُسِ ﴾ يَعْني بِالقَتْلِ وَالمَوْتِ ، وَقِيلَ : بِالمرضِ وَالشَّيْبِ ، ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ يَعْني الجَوَائِحَ فِي الثَّمَارِ . وَحِكْيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قال : الخَوْفُ خَوْفُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالجُوعُ صِيَامَ رَمَضَانَ ، وَنَقْصٌ مِنَ الأَمْوَالِ أداءُ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَالأنْفُسُ الأَمْرَاضُ ، وَالثَّمَرَاتُ مَوْتُ الأَوْلَادِ ، لِأَنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ ثَمْرَةٌ قَلْبُهُ)) .

وقال ابن الحَوْزِيِّ في زادِ المَسِيرِ (١ / ١٦٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ . قال الفَرَّاءُ : ﴿ مِنَ ﴾ تَدُلُّ على أَنَّ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا شَيْئًا مُضْمَرًا ، فَتَقْدِيرُهُ : بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الجُوعِ ، وَشَيْءٍ مِنَ نَقْصِ الأَمْوَالِ . وَفِي مَن أُرِيدَ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ خَاصَّةً ، قاله عطاءُ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَالثَّلَاثُ أَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ . قال كَعْبٌ : يَأْتِي على النَّاسِ زَمَانٌ لا تَحْمِلُ النَّحْلَةَ إِلا ثَمْرَةٌ . وَالرَّابِعُ أَنَّ الآيَةَ على عُمومِها . فَأَمَّا ﴿ الخَوْفِ ﴾ ، فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ : وَهُوَ الفَزَعُ فِي القِتالِ ﴿ وَالجُوعِ ﴾ المَجَاعَةُ الَّتِي أَصَابَتْ أَهْلَ مَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ ﴿ وَنَقْصِ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ ذَهَابُ أَمْوَالِهِمْ ﴿ وَالأنْفُسِ ﴾ بِالمَوْتِ ، وَالقَتْلِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ ، ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ ، لَمْ تُخْرِجْ كَمَا كَانَتْ تُخْرِجُ ، وَحكى أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ عَنِ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّ الخَوْفَ فِي الجِهَادِ ، وَالجُوعَ فِي فَرَضِ الصَّوْمِ ، وَنَقْصَ الأَمْوَالِ ما فُرِضَ فِيهَا مِنَ الزَّكَاةِ وَالحَجِّ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَالأنْفُسُ ما يَسْتَشْهَدُ مِنْهَا فِي القِتالِ ، وَالثَّمَرَاتُ ما فُرِضَ فِيهَا مِنَ الصَّدَقَاتِ ، ﴿ وَبَشَّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ على هَذِهِ البِلاويِّ بِالجَنَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنَّمَا أَخْبَرَهُمْ بِما سَيُصِيبُهُمْ لِيُوطِّنُوا أَنْفُسَهُمْ على الصَّبْرِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْعَدَ بِهِمْ مِنَ الجَزَعِ)) .

وَمَنْ صَبَرَ على البِلاءِ ، فَلَهُ البُشْرَى وَالفُوزُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ . وَرَفَعَ الدَّرَجَاتِ ، وَمَنْ سَخَطَ وَضَجَرَ فَقَدْ هَلَكَ وَخَسِرَ ، وَرَجَعَ خَائِبًا صِفْرَ اليَدَيْنِ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ . وَقَدَّرَ اللَّهُ نَافِذًا فِي كُلِّ الأَحْوالِ .

وصدق الشاعرُ : فالعِشُّ نَوْمٌ وَالْمَنِيَّةُ يَغْطَةُ وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خِيَالٌ سَارِي
وَالنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ أَوْ أَبَتْ مُنْقَادَةً بِأَزْمَةٍ الْأَقْدَارِ

روى الترمذي في سننه (٤ / ٦٠١) وحسنه : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا
أراد الله بعبد الخَيْرَ ، عَجَّلَ له العُقوبة في الدُّنيا ، وإذا أراد الله بعبد الشرِّ ، أمسك عنه بذنبه ،
حتَّى يُؤَافِي به يَوْمَ القيامة)) . وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : ((إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ
البلاء ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابتلاهم ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) .
إذا أَحَبَّ اللهُ العبدَ ، وفقه إلى الحق والخير والهدى ، وعَجَّلَ له عُقوبة ذُنُوبه في الدُّنيا ، كي
يُطَهَّرَه ، ويأتي يوم القيامة طاهرًا مِنَ الذُّنُوبِ ، ومُطَهَّرًا مِنَ الخطايا ، ونظيفًا ، بلا شوائب ولا آثام ،
ويُدخله الجنة بلا عذاب ولا عُقوبة . وإذا كَرِهَ اللهُ العبدَ ، خَذَلَه ، وقاده إلى الهلاك والشرِّ والخسران ،
ولم يُعاقبه بذنبه في الدُّنيا ، وتركه يَسْرَحُ وَيَمْرَحُ وَيَلْعَبُ فيها بلا حساب ولا عِقَاب ، حتى يأتي
يوم القيامة بذنبه ، مُجَلَّلًا بالآثم والخزي والعار ، وغارقًا في المعاصي والخطايا ، ويُعَذِّبُه في النار .
وَإِنَّ عِظَمَةَ الأجر مُرتبطة ومُتترنة مَعَ عِظَمِ البلاء وشِدَّتِه ، فإذا زاد البلاء زاد الأجرُ ، وإذا قلَّ
البلاء قلَّ الأجرُ ، جَزَاءً وَفَاقًا . فَمَنْ صَبَرَ على البلاء ، واستسلم للقضاء ، مُخْلِصًا لله تعالى ،
فله رضا الله ورضوانه وثوابه العظيم جزاءً لِرِضاه . وَمَنْ سَخِطَ ، وجَزِعَ ، وَتَمَرَّدَ على القضاء ، فله
السُّخْطُ ، وعليه الإثم ، وله عذابٌ شديد في الدُّنيا والآخرة . والمُرَاد بالحديث هو الحَث على
الصَّبْرِ بعد وَقُوعِ المُصيبة ونُزُولِ البلاء ، والحِصْصِ على التماسك وعدم الانهيار ، وليس تَمَنِّي
المُصيبة ، أو طلب البلاء . والعبدُ يَسْأَلُ اللهَ العَمُوَّ والعَافِيَةَ . وقال المباركفوري في تُحفة الأحوذِي
(٦٥ و ٦٦) : ((قَوْلُه : (إذا أراد الله بعبد الخَيْرِ عَجَّلَ) بالتشديد ، أي : أسرَع) له
العُقوبة) أي : الابتلاء بالمَكَارِه (في الدُّنيا) لِيُخْرِجَ مِنْهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ ، وَمَنْ فَعَلَ ذلك معه ،
فقد أعظم اللطف به والمِنَّة عليه . (أمسك) أي : أحرَّ (عنه) ما يَسْتَحِقُّه مِنَ العُقوبة (بِذَنْبِه)
أي : بسببه (حتى يُؤَافِي به يوم القيامة) أي : حتَّى يَأْتِيَ العبدُ بِذَنْبِه يوم القيامة . قال الطيبي :
يعني : لا يُجَازِيه بِذَنْبِه حتى يجيء في الآخرة مُتَوَقِّرًا الذُّنُوبِ وافيها ، فَيَسْتَوْفِي حَقَّهُ مِنَ العِقَابِ .
قَوْلُه : (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ) أي : كَثْرَتُه (مَعَ عِظَمِ البلاء) فَمَنْ ابتلاؤه أعظم فِجْرَاؤُه أعظم . (ابتلاهم)
أي : اختبرهم بالمِحْنِ والرِّزَايا (فَمَنْ رَضِيَ) بما ابتلاه به (فَلَهُ الرِّضَى) منه تعالى ، وَجَزِيلِ الثَّوَابِ
(وَمَنْ سَخِطَ) أي : كَرِهَ بلاءَ الله ، وفَزِعَ وَلَمْ يَرْضَ بِقِضَائِهِ (فَلَهُ السُّخْطُ) منه تعالى ، وأليم
العذاب . ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] . والمقصود الحَث على الصبر على

البلاء بعد وقوعه ، لا التَّريغيب في طلبه ، للنَّهْي عنه)) اهـ . وقال المُنَاوي في فيض القدير (١ / ٢٥٨) : ((إذا أَرَادَ اللهُ بَعْدَهُ الخَيْرَ) ... (عَجَلٌ) بالتشديد أَسْرَعُ (له العُقوبة) بِصَبِّ البلاء والمصائب عليه (في الدُّنْيَا) جَزَاءً لِمَا فَرَطَ مِنْهُ مِنَ الدُّنُوبِ ، فيخْرُجُ مِنْهَا ، وليس عليه ذَنْبٌ يُؤَافِي به يوم القيامة وَمَنْ فَعَلَ ذلك معه فقد أعظم اللطف به ، لأنَّ مَنْ حُوسِبَ بعمله عاجلاً في الدُّنْيَا خَفَّ جزاؤه عليه ، حتى يُكفَّرَ عنه بالشُّوكَةِ يُشَاكِهَا ، حتى بالقلم الذي يسقط من الكاتب ، فيُكفَّرَ عَنِ المؤمن بكل ما يَلْحَقُه في دُنْيَاهِ ، حتى يموت على طهارة من دَنْسِهِ ، وفراغ من جنابته ، كالذي يتعاهد ثَوْبَهُ وبدنه بالتنظيف ، قاله الحَرَّانِي . (وإذا أَرَادَ بَعْدَهُ الشَّرَّ) وفي رواية شَرًّا (أَمْسَكَ عَنْهُ بِدُنْبِهِ) أي : أَمْسَكَ عَنْهُ ما يَسْتَحِقُّه بسبب ذَنْبِهِ مِنَ العُقوبة في الدُّنْيَا (حتى يُؤَافِي به يوم القيامة) إنَّ لَمْ يُدْرِكْهُ العَفْوُ ، ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٧] . وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ الدُّنْيَا أَهْلًا لِعُقوبة أعدائه ، كما لَمْ يَرْضَها أَهْلًا لِمَثَابَةِ أَحِبَابِهِ قال العَزَّالِي : وَالذَّنْبُ عِبارة عَنْ كُلِّ ما هُوَ مُخَالَفٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ)) .

وفي نَفْسِ المَرْجِعِ (٢ / ٤٥٩) : ((إنَّ عِظَمَ الجِزَاءِ) أي كَثْرَتَهُ (مَعَ عِظَمِ البِلاءِ) ... فَمَنْ بَلَغَهُ عِظَمَ فَجْرَؤُهُ عِظَمَ ، (وإنَّ اللَّهَ تَعَالَى إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ) أي : اخْتَبَرَهُم بِالْمِحْنِ وَالرِّزَايَا ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ . قال لُقْمَانُ لابنِهِ: يا بُنَيَّ، الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ يُخْتَبَرانِ بِالنَّارِ ، وَالْمُؤْمِنُ يُخْتَبَرُ بِالْبِلاءِ (فَمَنْ رَضِيَ) قَضَاءً بما ابْتُلِيَ بِهِ (فَله الرِّضَى) مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَزِيلِ الثَّوَابِ (وَمَنْ سَخِطَ) أي كَرِهَ قَضَاءَ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَرْضَهُ (فَله السُّخْطُ) مِنْهُ تَعَالَى وَأَلِيمَ العِذابِ وَقَوْلُهُ : (وَمَنْ رَضِيَ فَله الرِّضَى) شَرطُ وَجْزَاءٍ ، فَهُمُ مِنْهُ أَنْ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى مَسْبُوقٍ بِرِضَى العَبْدِ ، وَمُحَالٌ أَنْ يَرْضَى العَبْدُ عَنِ اللَّهِ إِلَّا بَعْدَ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ ، كما قال : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البَيِّنَةِ : ٨] . وَمُحَالٌ أَنْ يَحْصُلَ رِضَى اللَّهِ ، وَلَا يَحْصُلُ رِضَى العَبْدِ فِي الآخِرَةِ ، فَعَنِ اللَّهِ الرِّضَى أَرْزَلًا وَأَبَدًا ، وَفِيهِ جُنُوحٌ إِلَى كِراهِةِ اخْتِيارِ الصِّحَّةِ عَلَى البِلاءِ ، وَالعَافِيَةِ عَلَى السَّقَمِ ، وَلَا يُنَافِيهِ ما مَرَّ وَيجيء مِنَ الأَمْرِ بِسؤالِ العَافِيَةِ ، وَأَنَّها أَفْضَلُ الدُّعاءِ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَرِهَهُ لِأَجْلِ الجِرائِمِ واقْتِرافِ العِظائمِ ، كَيْلًا يَلْقَوُا رَبَّهُمْ غَيْرَ مُطَهَّرِينَ مِنْ دَنْسِ الدُّنُوبِ ، فَالأَصْلَحُ لِمَنْ كَثُرَتْ خِطايَاهُ السُّكُوتُ وَالرِّضَى ، لِيَخْفَى . وَالتَّطَهِيرُ بِقَدْرِ التَّمْحِيصِ ، وَالأَجْرُ بِقَدْرِ الصَّبْرِ ، ذَكَرَهُ ابنُ جَرِيرٍ)) .

وفي صَحيحِ مُسْلِمٍ (٢ / ٦٣١) : عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّها قالَتْ : سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يَقولُ : ((ما مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ ، فيَقولُ ما أَمَرَ اللَّهُ : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللَّهُمَّ اجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْها ، إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْها)) .

كان النبي ﷺ يعلم أمته أن يسلموا أمرهم لله عز وجل عند نزول المصائب بهم ، وأن يلجئوا إلى حوله وقوته سبحانه وتعالى ، فهو المقدر ، وهو من عنده العوض .
 ما من مسلم تُصيبه مُصيبة عظيمة أو صغيرة ، في نفسه أو أهله ، أو ماله ، أو غير ذلك ، فيقول ما أمره الله به : إنا لله وإنا إليه راجعون^{١١٧} ، أي : إن أنفُسنا وجميع ما يُنسب إلينا لله مُلْكًا وخلقًا ، وإنا إليه راجعون في الآخرة ، ويكون هذا القول مُصاحِبًا للصبر وعدم الجزع .
 ثم يدعو صاحب المُصيبة فيقول : " اللهم أجرني " ، أي : أعطني الأجر والجزاء والثواب " في مُصيبي " ، " وأخلف لي خيرًا منها " ، أي : اجعل لي خلفًا مما فات عني في هذه المُصيبة خيرًا من الفائت فيها . ومن قال ذلك ، فإن جزاءه أن يُخلف الله عليه بأفضل مما فقده في مُصيبته تلك .
 والحديث يُوضِّح ضرورة الصبر على المصائب وعدم الجزع ، ويُبيِّن أهمية التوجه بالدعاء إلى الله في الشدائد والكوارث ، لأنَّ عنده العوض .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢٢٠ / ٦) : ((قوله ﷺ : " ما من مسلم تُصيبه مُصيبة ، فيقول ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون " . فيه فضيلة هذا القول ، وفيه دليل للمذهب المختار في الأصول أن المندوب مأمور به ، لأنه ﷺ مأمور به ، مع أن الآية الكريمة تقتضي نُدْبَهُ ، واجماع المسلمين مُنعقد عليه . قوله ﷺ : " أجرني في مُصيبي ، وأخلف لي خيرًا منها " ... ومعنى أجره الله : أعطاه أجره وجزاء صبره وهمه في مُصيبته . وقوله ﷺ : " وأخلف لي " قال أهل اللغة : يُقال لمن ذهب له مال ، أو ولد ، أو قريب ، أو شيء يتوقع حصول مثله : أخلف الله عليك ، أي ردَّ عليك مثله ، فإن ذهب ما لا يتوقع مثله ، بأن ذهب والد أو عم ، أو أخ لمن لا جد له ، ولا والد له ، قيل : خلف الله عليك ، بغير ألف ، أي : كان الله خليفةً منه عليك)) .

وإذا أصاب المؤمن مُصيبة ، فليتذكر مُصيبته بموت النبي ﷺ الذي يُمثل أعظم المصائب على الإطلاق ، فقد انقطع الوحي إلى الأبد ، واختفت النبوة من العالم ، لأن مُحَمَّدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء ، ولا نبي بعده ، كما ارتدت العرب عن الإسلام بعد موت النبي ﷺ .

١١٧ أمر الله هو ما ورد ضمن مدح الصابرين: ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] . وكلُّ خصلة ممدوحة في القرآن تتضمن الأمر بها ، وكلُّ خصلة مذمومة تتضمن النهي عنها . وبعد أن يسترجع المؤمن ، يطلب من الله أن يُعطيهِ الأجر وجزاء صبره ، وأن يُردَّ عليه أفضل مما أُخذ منه ، مثل : ذهاب مال ، أو موت ولد ، ... إلخ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢ / ١٧٠) : ((قال أبو سعيد : ما نَفَضْنَا أَيْدِينَا مِنَ الثَّرَابِ مِنْ قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا)) .
 وَصَدَقَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِذْ يَقُولُ :

أَصْبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ وَأَعْلَمْ أَنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
 أَوْ مَا تَرَى أَنَّ الْمَصَائِبَ جَمَّةٌ وَتَرَى الْمَنِيَّةَ لِلْعِبَادِ بِمَرَصِدِ
 مَنْ لَمْ يُصَبِّ مِمَّنْ تَرَى بِمُصِيبَةٍ ؟ هَذَا سَبِيلٌ لَسْتَ فِيهِ بِأَوْحِدِ
 فَإِذَا ذَكَرْتَ مُصِيبَةً تَسْأَلُوا بِهَا فَادْكُرْ مُصَابِكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدِ

والمؤمنُ مُتَّصِلٌ بِاللَّهِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ . وَهُوَ يَعْبُدُ خَالِقَهُ ، لِأَنَّهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُعْبَدَ ، لَا لِئَلَّا يَكْسِبَ دُنْيَوِيَّةً دَنِيَّةً ، أَوْ تَحْقِيقَ أَرْبَاحٍ مَالِيَّةٍ ، أَوْ تَحْصِيلَ مَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ . وَالْعِبَادَةُ الَّتِي هِيَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ غَيْرُ مُرْتَبِطَةٌ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ خَالِقَهُ تَعَالَى ، وَيَلْتَزِمَ أَوْامِرَهُ ، وَيَجْتَنِبَ نَوَاهِيَهُ ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا يَحْصُلُ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، خَيْرًا أَوْ شَرًّا . وَالْإِيمَانُ لَيْسَ بُورْصَةً يَتَحَدَّدُ شَكْلُهَا وَفَقُّ الرِّيحِ الدُّنْيَوِيِّ أَوْ الْخُسَارَةِ . إِنَّ الْإِيمَانَ نِظَامٌ مُتَكَامِلٌ لَا يَخْدِشُهُ مَتَاعُ الدُّنْيَا الزَّائِلِ ، كَمَا أَنَّ حُطَامَ الدُّنْيَا الْفَاقِي لَيْسَ حُجَّةً عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَلَا دَلِيلًا عَلَى الْإِيمَانِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٢٩٥) عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَصَابَتَهُ سَرَاءٌ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتَهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) .

الْمُؤْمِنُ فَطِنٌ مُتَمَاسِكٌ ، لَا يَهْتَرُ أَمَامَ الصَّعُوبَاتِ ، وَلَا يَسْتَسَلِمُ فِي وَجْهِ الْأَزْمَاتِ ، وَلَا يَنْهَارُ أَمَامَ التَّحْدِيَّاتِ الْجَسِيمَةِ . فَهُوَ شَخْصِيَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ وَوَاتِقَةٌ . إِنَّ أَصَابَتَهُ سَرَاءٌ لَمْ يَنْسَ شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، بَلْ يَلُودُ بِالشُّكْرِ الْحَارِسِ لِلنَّعْمِ ، وَبِالشُّكْرِ تَدْوِمِ النَّعْمِ ، وَهَذَا يَحْصُلُ عَلَى خَيْرِ عَظِيمٍ ، وَثَوَابٍ جَزِيلٍ ، وَأَجْرٍ كَبِيرٍ .

وَإِذَا أَصَابَتَهُ ضَرَاءٌ لَمْ يَسْخَطْ ، وَيُعَاتِبْ خَالِقَهُ تَعَالَى _ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الْجُهَّالِ وَالْعَوَامِ _ ، بَلْ يَسْتَعِينُ بِالصَّبْرِ ، فَتَتَحَوَّلُ الْمِحْنَةُ إِلَى مَنَحَةٍ ، وَتَصِيرُ الْمُصِيبَةُ نِعْمَةً عَظِيمَةً لِرَفْعِ الدَّرَجَاتِ ، وَتُصْبِحُ الشَّدَّةُ خَيْرًا لَهُ . وَالْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ إِلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ بِاعْتِبَارِهِمَا اخْتِبَارَيْنِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُمَكِّنُ النَّجَاحَ فِيهِمَا إِلَّا بِالشُّكْرِ عَلَى الرَّخَاءِ ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ . وَبِالتَّأَكِيدِ ، إِنَّ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ هُمَا الْجَنَاحَانِ اللَّذَانِ يَطِيرُ بِهِمَا الْمُؤْمِنُ إِلَى الْمَكَانَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ . وَهَكَذَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ رَابِحًا وَفَائِزًا فِي الْحَالَتَيْنِ . وَكُلُّ قِضَاءٍ لِلَّهِ لِلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ .

والمؤمن الحقيقي الكامل في إيمانه وتَفَوَاهِ وَأَخْلَاقِهِ مَحْفُوظٍ بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَلَى خَيْرِ عَظِيمٍ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ . إِنَّ أَصَابَتَهُ نِعْمَةً وَرِخَاءً وَكَثْرَةَ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ، شَكَرَ اللَّهَ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَاعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ ، وَأَطَاعَهُ ، وَابْتَعَدَ عَنِ مَعْصِيَتِهِ . وَإِنْ أَصَابَتَهُ مُصِيبَةٌ وَكَارِثَةٌ وَشِدَّةٌ ، صَبَرَ ، وَتَمَاسَكَ ، وَلَمْ يَجْزَعْ ، وَلَمْ يَسْخَطْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . بَلْ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ أَجْرٌ بِهِذِهِ الْمُصِيبَةِ . وَمَعْنَى الشُّكْرِ يَتَجَلَّى فِي التَّزَامِ أَمْرَ اللَّهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَعَدَمِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ بِنِعْمِ اللَّهِ . وَالمُؤْمِنُ يُسَخِّرُ كُلَّ طَاقَاتِهِ وَإِمْكَانِيَاتِهِ وَالتَّعَمُّمَ الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ لَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَلَيْسَ فِي المَجَالَاتِ المُحَرَّمَةِ . وَالشُّكْرُ الحَقِيقِيُّ يَكُونُ بِاللِّسَانِ وَالقَلْبِ وَالجَوَارِحِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّ يَحْمَدَ العَبْدُ رَبَّهُ تَعَالَى ، وَيَشْكُرُهُ ، وَيُطِيعُهُ ، وَلَا يَعْصِيَهُ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ القَدِيرِ (٤ / ٣٠٢) : ((عَجَبًا)) قَالَ الطَّيْبِيُّ : أَصْلُهُ أَعْجَبَ عَجَبًا ، فَعَدَلَ عَنِ الرَّفْعِ إِلَى النُّصْبِ لِلثَّبَاتِ ، كَقَوْلِكَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ ، (لِأَمْرِ المُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ) ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِلْكَافِرِينَ وَلَا لِلْمُنَافِقِينَ ، ثُمَّ بَيْنَ وَجْهَ العَجَبِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ أَصَابَتَهُ سَرَاءٌ) كَصِحَّةِ وَسَلَامَةِ وَمَالِ وَجَاهِ (شَكَرَ) اللَّهُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ ، (فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) فَإِنَّهُ يُكْتَبُ فِي دِيْوَانِ الشَّاكِرِينَ ، (وَإِنْ أَصَابَتَهُ ضَرَاءٌ) كَمُصِيبَةِ (صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) ، فَإِنَّهُ يَصِيرُ مِنَ أَحْزَابِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ أَتَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ المُنْبِئِينَ ، فَالعَبْدُ مَا دَامَ قَلَمَ التَّكْلِيفِ جَارِيًا عَلَيْهِ ، فَتَمَاهَجَ الخَيْرِ مَفْتُوحَةً بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَإِنَّهُ بَيْنَ نِعْمَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ شُكْرُ المُنْعَمِ بِهَا ، وَمُصِيبَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَلَيْهَا ، وَأَمْرٌ يُنْفِذُهُ ، وَنَهْيٌ يَجْتَنِبُهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَزِمَ لَهُ إِلَى المَمَاتِ)) .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ البِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِيقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالتَّيْبِينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالصُّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

لَيْسَ البِرُّ مَحْصُورًا فِي صَلَاةِ الإِنْسَانِ جِهَةً المَشْرِقِ أَوْ المَغْرِبِ . وَهَذَا زِدَ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ الَّذِينَ زَعَمُوا ذَلِكَ . وَالبِرُّ كُلُّ عَمَلٍ خَيْرٍ يَقُودُ صَاحِبَهُ إِلَى الجَنَّةِ . وَلَكِنَّ البِرَّ الصَّحِيحَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ وَالأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ البِرَّ نَفْسَ مَنْ آمَنَ لِلْمُبَالَغَةِ . ﴿ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى ﴾ . وَأَعْطَى المَالَ رَغْمَ مَحَبَّتِهِ لَهُ قَرَابَتِهِ ، فَهُمُ أَوْلَى بِالإِحْسَانِ وَالمَعْرُوفِ وَالمُصَدِّقَةِ .

وعن عبد الله ابن مسعود _ رضي الله عنه _ في قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ ، قال : ((يُعْطَى الرَّجُلُ وَهُوَ صَاحِبُ شَحِيحٍ ، يَأْمَلُ الْعَيْشَ ، وَيَخَافُ الْفَقْرَ)) ١١٨ .
يتصدَّق الرَّجُلُ وَيُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ صَاحِبُ شَحِيحٍ يَتَمَتَّعُ بِالصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ وَالنَّشَاطِ ، وَلَا يُعَانِي مِنْ أَيِّ مَرَضٍ يَقْطَعُ أَمَلَهُ فِي الْحَيَاةِ ، وَالَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الشُّحُّ ، وَهُوَ الْبُخْلُ مَعَ الْحِرْصِ .
يَطْمَعُ فِي الْغِنَى ، وَيَرْجُو امْتِلَاكَ الثَّرْوَةِ ، وَيَخَافُ مِنَ الْفَقْرِ ، وَيَحْسِبُ لَهُ حِسَابًا .

وعن سلمان بن عامر عن النبي ﷺ قال : ((الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحْمِ اثْنَانِ : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ)) ١١٩ .

الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ لَهَا أَجْرٌ التَّصَدَّقُ عَلَيْهِ (أَجْرٌ وَاحِدٌ) ، وَالصَّدَقَةُ عَلَى الْأَقْرَابِ الْفُقَرَاءُ لَهَا أَجْرٌ التَّصَدَّقُ عَلَيْهِ وَأَجْرٌ صِلَةِ الرَّحْمِ (يَعْنِي أَجْرَيْنِ) . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَةِ التَّكَافُلِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَدَلِ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا ، خُصُوصًا الْأَقْرَابِ ، وَضَرُورَةِ الْإِهْتِمَامِ بِذَوِي الْأَرْحَامِ ، وَأَنَّ التَّصَدَّقَ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ مِنَ التَّصَدَّقِ عَلَى غَيْرِهِمْ .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٢٣٧) : ((الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ) الْأَجْنَبِي (صَدَقَةٌ) فَقَطْ (وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحْمِ اثْنَانِ) أَي : صَدَقَتَانِ اثْنَانِ (صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ) فَهِيَ عَلَيْهِ أَفْضَلُ لِاجْتِمَاعِ الشَّيْئِينَ ، فَفِيهِ حَثٌ عَلَى الصَّدَقَةِ عَلَى الْأَقْرَابِ ، وَتَقْدِيمِهِمْ عَلَى الْأَبَاعِدِ ، لَكِنْ هَذَا غَالِبِي ، وَقَدْ يَقْتَضِي الْحَالُ الْعَكْسَ . وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ حَجَرٍ عَقِبَ الْخَبَرِ : لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَيْبَةُ ذِي الرَّحْمِ أَفْضَلُ مُطْلَقًا لِاحْتِمَالِ كَوْنِ الْمِسْكِينِ مُحْتَاجًا ، وَنَفْعُهُ بِذَلِكَ مُتَعَدِّيًا ، وَالْآخَرُ يَعْكُسُهُ)) .
﴿ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ . وَأَعْطَى الْمَالَ أَيْضًا لِلْيَتَامَى الَّذِينَ فَقَدُوا آبَاءَهُمْ ، وَالْمَسَاكِينَ الَّذِينَ لَا مَالَ لَهُمْ ، وَابْنَ السَّبِيلِ الْمُسَافِرَ الْمُتَقَطِّعَ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ .

﴿ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ . وَالَّذِينَ يَسْأَلُونَ الْمَعُونَةَ بِدَافِعِ الْحَاجَةِ ، وَفِي تَخْلِيصِ الْأَسْرَى وَالْأَرْقَاءِ بِالْفِدَاءِ . وَالْمُرَادُ بِالرَّقِيبَةِ النَّفْسُ ، وَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْجُزْءِ عَلَى الْكُلِّ .
﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ . وَآتَى بِأَهْمِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ : الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ .
وَالصَّلَاةُ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَالزَّكَاةُ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْمَالِيَّةِ .

١١٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٩٩) برقم (٣٠٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١١٩ رواه ابن جِبَّانِ فِي صَحِيحِهِ (٨ / ١٣٢) . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٥ / ٢١٩) : ((رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُرَيْمَةَ وَابْنُ جِبَّانِ)) .

﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ . والذي يلتزمون بالعهود، ويتمسكون بالوعود ، ويُنفذونها .
﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ . والصابرين على الشدائد والأزمات
والمصائب ، وحين القتال في سبيل الله .

وهو منصوب على الاختصاص لمدحهم والثناء عليهم . أي : أَخْصُ بِالذِّكْرِ الصَّابِرِينَ . وهذا
شرف عظيم لهم ، وتفضيل لهم على غيرهم .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في
إيمانهم ، وأولئك هم الكاملون في التقوى .

والفعلُ الماضي " صدقوا " لإفادة التحقيق ، وأنَّ ذلك وَقَعَ مِنْهُمْ واستقر . والجمله الاسميَّة
﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ تُشير إلى الثبوت وعدم التجدد ، وأنَّ التقوى صارت طَبْعًا وعادةً لهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢٨١) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى
بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ حَوَّلَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ
الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّمَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَأَمْتِثَالِ أَوَامِرِهِ ، وَالتَّوَجُّهُ حَيْثَمَا وَجَّهَ ، وَاتِّبَاعَ مَا شَرَعَ ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ ،
وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بِرٍ وَلَا طَاعَةَ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ
وَشَرَعِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية ، كما قال في الأضاحي والهدايا : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا
وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : لَيْسَ الْبِرُّ
أَنْ تُصَلُّوا وَلَا تَعْمَلُوا ، فَهَذَا حِينَ تَحْوَلُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَنَزَلَتِ الْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ
بِالْفَرَائِضِ وَالْعَمَلِ بِهَا . وَرُويَ عَنِ الصَّحَّاحِ وَمُقَاتِلِ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : كَانَتِ الْيَهُودُ تُقْبِلُ
قِبَلَ الْمَغْرِبِ ، وَكَانَتِ النَّصَارَى تُقْبِلُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ . يَقُولُ : هَذَا كَلَامُ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَتِهِ الْعَمَلُ . وَرُويَ عَنِ الْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ
ابْنِ أَنَسٍ مِثْلَهُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَا ثَبَّتَ فِي الْقُلُوبِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَالَ
الصَّحَّاحُ : وَلَكِنَّ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى أَنْ تُؤَدُّوا الْفَرَائِضَ عَلَى وُجُوهِهَا . وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية . قَالَ : هَذِهِ أَنْوَاعُ الْبِرِّ كُلُّهَا . وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فَإِنَّ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ
دَخَلَ فِي غُرَى الْإِسْلَامِ كُلِّهَا ، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْخَيْرِ كُلِّهَا ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ،
وَصَدَّقَ بِوُجُودِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَفَرَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وَالْكِتَابِ ﴾ ، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ

الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَافِهَا وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنْ الْكُتُبِ ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنُسِخَ بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَهُ ، وَآمَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدَ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، أَي : أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُحِبٌّ لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ . نَصَّ عَلَى ذَلِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ ، وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ ، وَهُمْ أَوْلَى مَنْ أُعْطِيَ مِنَ الصَّدَقَةِ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ هُمُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ وَقَدْ مَاتَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضَعْفَاءُ صِغَارِ دُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّكْسُبِ ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ ، فَيُعْطُونَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتَهُمْ وَخَلَّتْهُمْ . وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " لَيْسَ الْمَسْكِينُ بِهَذَا الطَّرَافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمَسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنَى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيُنْصَدِّقُ عَلَيْهِ " . ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ، وَهُوَ الْمُسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَعَتْ نَفَقَتَهُ ، فَيُعْطَى مَا يُوصِلُهُ إِلَى بَلَدِهِ ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفَرًا فِي طَاعَةٍ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الصَّيْفِ ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : ابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الصَّيْفُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالصَّحَّاحُ وَالزُّهْرِيُّ وَالرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطُونَ مِنَ الزُّكُوتِ وَالصَّدَقَاتِ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَا : حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ يَعْلَى بْنِ أَبِي يَحْيَى عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِيهَا _ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ " ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ . ﴿ وَفِي الرَّقَابِ ﴾ ، وَهُمْ الْمُكَاتِبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ أَي : وَأَتَمَّ أَعْمَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَطُمَأْنِينِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ ، وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَوِيَّةِ الرَّذِيلَةِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْمَالِ ، كَمَا قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ ، وَيَكُونُ الْمَذْكُورُ مِنْ إِعْطَاءِ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَالْأَصْنَافِ الْمَذْكُورِينَ إِنَّمَا هُوَ التَّطَوُّعُ وَالْبِرُّ وَالصَّلَاةُ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ ، أَي : فِي حَالِ الْفَقْرِ وَهُوَ الْبَأْسَاءُ ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ وَهُوَ الضَّرَّاءُ ، ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ،

أي : في حال القتال والتقاء الأعداء . وقاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحك وغيرهم، وإنما نصب ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ على المدح، والحث على الصبر في هذه الأحوال ، لشدته وصعوبته ، والله أعلم ، وهو المستعان وعليه التكلان ، وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ ، أي : هؤلاء الذين اتصفوا بهذا الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم ، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ لأنهم اتقوا المحارم، وفعلوا الطاعات)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

والله مع الصابرين بالحفظ والرعاية والتأييد ، ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٠١) : ((﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والمعونة)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (١ / ٢٤٣) : ((فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَعِيَّةَ نَصْرِهِ وَتَوْفِيقِهِ حَتْمًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا

وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

إذا أصاب المؤمنين ما يسرهم ويسعدهم من نصر وغنيمة ومجد وعز وخصب ورخاء ، ساء ذلك الكافرين . وإذا أصاب المؤمنين ما يضربهم ويحزنهم من قحط وهزيمة وشدّة ، فرح الكافرون بذلك . وهذا يدل على قسوة قلوبهم ، وحقدهم العميق ، وشدّة عداوتهم للمؤمنين ، حيث إنهم يتضايقون من كل خير يُصيب المؤمنين، ويفرحون بكل شر يُصيبهم . وهذا مُنتهى الحقد والعداوة . ومن كان هذا حاله ، فهو ليس أهلاً للثقة به ولا الاطمئنان إليه ، ولا اتّخاذه بطانةً . والمعنى : إن الكافرون وصلوا إلى أبعد نقطة في عداوتكم ، وبلغوا الغاية في كراهييتكم والحقد عليكم ، فلماذا تُوالونهم وتتخذونهم بطانةً لكم ؟ . يجب الابتعاد عنهم، وأخذ الحيلة والحذر في التعامل معهم .

وصدق القائل :

إِلَّا عَدَاوَةٌ مِّنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْتَجَى إِمَاتَتِهَا

فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةٌ عُقِدَتْ

والتعبيرُ بِالْمَسِّ فِي الْحَسَنَةِ ، وبالإصابة فِي السَّيِّئَةِ ، للدلالة عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ مَسِّ الْحَسَنَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَحْصُلُ بِهِ الْمَسَاءَةُ وَانزِعَاجُ الْكَافِرِينَ . وَالكَافِرُونَ لَا يَفْرَحُونَ إِلَّا بِإِصَابَةِ السَّيِّئَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٩٦) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ تَمَسُّسَكُمْ حَسَنَةٌ ﴾ ، أَي : تُصِيبُكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَغَنِيْمَةٌ تَنَالُونَهَا مِنْهُمْ ، وَتَتَابِعُ النَّاسَ فِي الدُّخُولِ فِي دِينِكُمْ ، وَخِصْبٌ فِي مَعَايِشِكُمْ ، ﴿ تَسُوْهُمُ ﴾ تُحْزِنُهُمْ ، ﴿ وَإِنْ تُصِيبُكُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ مَسَاءَةٌ يَخْفَاقُ سَرِيَّةً لَكُمْ ، أَوْ إِصَابَةٌ عَدُوِّكُمْ ، أَوْ اخْتِلَافٌ يَكُونُ بَيْنَكُمْ ، أَوْ جَدْبٌ ، أَوْ نَكْبَةٌ تُصِيبُكُمْ ، ﴿ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾)) .

وَالْحَلُّ يَكْمُنُ فِي الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى . وَهَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ قَادِرَتَانِ عَلَى حِمَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ضَرَرِ الْكَافِرِينَ وَأَذَاهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ أَرْشَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِهِمَا ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِمَا ، لِأَنَّهَا الْوَقَايَةُ الْفَعَالَةُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَضَرَرٍ وَسُوءٍ . وَمَنْ التَزَمَ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى قَوْلًا وَفِعْلًا ، كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ . وَهَذَا إِرْشَادٌ إِلَهِيٌّ إِلَى أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَى لِمُقَاوَمَةِ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَابَهَةِ مَكْرِهِمْ هِيَ الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى . وَإِنْ تَصَبَرُوا عَلَى أَذَاهُمْ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمَكْرِهِمْ ، وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ، وَحَرَكَاتِكُمْ وَسَكَنَاتِكُمْ ، وَظَاهِرِكُمْ وَبَاطِنِكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِيكُمْ مَكْرُهُمْ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٢٨) : ((يُرْشِدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ ، وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ)) .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِقُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، وَمُحِيطٌ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ . وَالْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَالْعِلْمُ الْإِلَهِيُّ مُحِيطٌ بِكُلِّ الْأَشْيَاءِ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ خُطْطَهُمُ الْمَاكِرَةَ ، وَتَدْبِيرَهُمُ الْخَبِيثَ ، وَيَعْرِفُ مَا يُدْبِرُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَذَى وَشَرٍّ . وَلَكِنَّ اللَّهَ حَافِظُ الْمُؤْمِنِينَ ، يَحْمِيهِمْ مِنَ الشَّرِّ ، وَسَوْفَ يُعَاقِبُ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٨٦) : ((﴿ إِنَّ تَمَسُّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوْهُمُ وَإِنْ تُصِيبُكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ ، بَيَانٌ لِتَنَاهِي عَدَاوَتِهِمْ إِلَى حَدِّ حَسَدُوا مَا نَالَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَمَنْفَعَةٍ ، وَشَمَتُوا بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ضَرَرٍ وَشِدَّةٍ . وَالْمَسُّ مُسْتَعَارٌ لِلْإِصَابَةِ . ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا ﴾ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ أَوْ عَلَى مَشَاقِ التَّكَالِيفِ ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ مُوَالَاتِهِمْ ، أَوْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْكُمْ ، ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَحِفْظِهِ الْمَوْعُودِ لِلصَّابِرِينَ وَالمُتَّقِينَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ فِي مَعْرَكَةٍ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَاتَلَ مَعَهُ عُلَمَاءُ أَتَقِيَاءَ وَعِبَادُ صَالِحُونَ ، أَوْ : جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ ١٢٠ ، فَمَا جَبُنُوا ، وَمَا عَجَزُوا لِمَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَنَالَهُمُ مِنَ الْجِرَاحِ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا ضَعُفَتْ قُوَاهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَمَا ذَلُّوا وَلَا خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ ، بَلْ صَبَرُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَطَاعَةَ النَّبِيِّ ، وَقِتَالَ الْعَدُوِّ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ عَلَى الشَّدَائِدِ ، الثَّابِتِينَ أَمَامَ الْمَصَائِبِ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَنْصِرُهُمْ ، وَيَرْفَعُ قَدْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَمْنَحُهُمُ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٧١ و ٤٧٢) : ((وفي معنى الرِّبِّيِّنَ خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمُ الْأُلُوفُ ، قَالَه ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ ، وَاخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ . وَالثَّانِي : الْجَمَاعَاتُ الْكَثِيرَةُ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرَمَةُ وَالصَّحَّاحُ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالرَّبِيعُ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُمُ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ ، وَاخْتَارَهُ الْبَيْرُزِيُّ وَالزَّجَّاجُ . وَالرَّابِعُ : أَنَّهُمُ الْآتِبَاعُ ، قَالَه ابْنُ زَيْدٍ . وَالخَامِسُ : أَنَّهُمُ الْمُتَأَلِّهُونَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، قَالَه ابْنُ فَارِسٍ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ الضَّعْفُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ قُتَيْبَةَ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الْعَجْزُ ، قَالَه قَتَادَةُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : وَالِاسْتِكَانَةُ الْخُشُوعُ وَالذُّلُّ ، وَمِنْهُ أُحِذَ الْمَسْكِينُ . وَفِي مَعْنَى الْكَلَامِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا فَمَا وَهَنُوا بِالْخَوْفِ ، وَمَا ضَعُفُوا بِنُقْصَانِ الْقُوَّةِ ، وَلَا اسْتَكَانُوا بِالْخُضُوعِ . وَالثَّانِي : فَمَا وَهَنُوا لِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ، وَلَا ضَعُفُوا عَنِ عَدُوِّهِمْ ، وَلَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

هَذَا الْخِطَابُ الْإِلَهِيُّ الْجَلِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَمَّتِهِ بِأَنَّهُ سَوْفَ يُصِيبُهُمْ بِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِالْمَصَائِبِ ، وَالْإِنْفَاقَاتِ الْوَاجِبَةِ ، وَسَائِرِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَمْوَالِ ، وَالِابْتِلَاءِ فِي الْأَنْفُسِ بِالْمَوْتِ وَالْأَمْرَاضِ ، وَقَفْدِ الْأَحْبَابِ ، وَالْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى .

١٢٠ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ لِلْهَيْثَمِيِّ (٧ / ٥١) : ((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ ، قَالَ : " أُلُوفٌ " . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ ، وَفِيهِ عَاصِمُ بْنُ بَهْدَلَةَ ، وَتَقَى النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَضَعَفَهُ جَمَاعَةٌ)) .

كما أنَّ المؤمنين سيتعرَّضون من قِبَل اليهود والنصارى والمُشركين لِعُنْفٍ لفظي يتضمَّن تكذيب الله تعالى ، والطعن في الإسلام والنبِيِّ ﷺ والمؤمنين . وهذا هو منهج الكافرين في اضطهاد المؤمنين لإيمانهم بالله تعالى ، وثباتهم على الحق ، وتمسُّكهم بالهُدى ، والتزامهم بالصواب . وأهل الكُفر يضطهدون المؤمنين بسبب عقيدتهم ، في محاولة يائسة منهم لتشكيك المؤمنين بدينهم ، والسَّعي إلى ارتدادهم عن الإسلام .

إنَّ الله سيمتحنكم أيها المؤمنون ويختبركم في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض . ويُمكن القول إنَّ الاختبار في الأموال بتكليف الإنفاق وما يُصيبها من آفات ، والاختبار في الأنفس بالجِّهاد والقَتْل والأسْر والجِراح والمخاوف والأمراض والمتاعب . وسينالكم من اليهود والنصارى والمُشركين (أعدائكم) الأذى الكثير ، من الكُفر بالله ، وهجاءِ النبيِّ ﷺ ، والطَّعن في دين الإسلام ، وإغراء الكافرين على المُسلمين .

وهذا إخبار من الله تعالى للمؤمنين بأنهم سيتعرَّضون لمشكلات وينالهم كوارث وأزمات ناتجة عن كراهية أعداء الله للإيمان ، وحقدهم على المؤمنين ، ونُفورهم من الحق والهُدى . أحبرهم الله بالمصائب والكوارث والأزمات قبل وقوعها ، ليؤطِّطوا أنفسهم على الصَّبر والتَّحمُّل ، ويستعدوا لمواجهتها بكلِّ ثبات ورباطة جأش ، حتى لا يُدمرهم خدوئها ، ولا يُرهقهم نُزولها . وقد أمر الله المؤمنين بالصَّبر عند وقوع ذلك ، لأنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بالمَكَارِهِ ، وإن تصبروا على المَكَارِهِ ، وتَتَّقُوا اللَّهَ في الأقوال والأفعال ، وتلتزموا بأوامره ، وتجتنبوا نَوَاهِيهِ ، فَتَطِيعُوهُ ، ولا تَعْصُوهُ ، فإنَّ ذلك الصَّبر والتَّقوى ممَّا عَزَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وأمرُكم بِهِ ، وبالغ فيه . والعزمُ في الأصل : ثبات الرأي على الشَّيء نحو إمضائه .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٥ / ٤) : ((هذا الخِطَاب للنبيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ . والمعنى : لِنُحْتَبِرُنَّ وَلِنُمْتَحِنَنَّ في أموالكم بالمصائب والأرزاء ، بالإنفاق في سبيل الله ، وسائر تكاليف الشَّرْع . والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بِذِكْرِ الأموال لكثرة المصائب بها ونزلت بسبب أنَّ أبا بكر _ رضي الله عنه _ سمع يهوديًا يقول : إنَّ الله فقير ونحن أغنياء ، ردًّا على القرآن واستخفافًا به حين أنزل الله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، فلطمه ، فشكاه إلى النبيِّ ﷺ ، فنزلت . قيل : إنَّ قائلها فِخاص اليهودي ، عن عكرمة . الزُّهري : هو كعب بن الأشرف ، نزلت بسببه ، وكان شاعرًا ، وكان يهجو النبيَّ ﷺ وأصحابه ، ويؤلِّب عليه كُفَّار قُرَيْش ، ويُشَبِّب بنساء المسلمين ، حتى بعثَ إليه رسولُ

اللَّهُ ﷺ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَأَصْحَابَهُ ، فقتله القنلة المشهورة في السَّيْرِ وصحيح الخبر . وقيل غير هذا . وكان ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ كَانَ بِهَا الْيَهُودَ وَالْمَشْرُكُونَ ، فَكَانَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَسْمَعُونَ أَدَى كَثِيرًا . وفي الصحيحين : [أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِابْنِ أَبِي ، وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حِمَارٍ ، فَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي : إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا ! ، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ ، فَمَنْ جَاءَكَ فَافْضُصْ عَلَيْهِ ، وَقَبِضْ عَلَى أَنْفِهِ لِئَلَّا يُصِيبَهُ غُبَارُ الْحِمَارِ ، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَاعْشِنَا فِي مَجَالِسِنَا ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ ، وَاسْتَبَّ الْمَشْرُكُونَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ ابْنِ أَبِي وَالْمُسْلِمُونَ ، وَمَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ يُسَكِّنُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ يَعُودُهُ وَهُوَ مَرِيضٌ ، فَقَالَ : " أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ فُلَانٌ ؟ " ، فَقَالَ سَعْدٌ : اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي نَزَلَ ، وَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهَ وَيُعْصَبُوهَ بِالْعِصَابَةِ _ يَعْنِي : يُسَوِّدُوهَ وَيُمَلِّكُوهَ _ ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ شَرِّقَ بِهِ ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ . فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ] . قِيلَ : هَذَا كَانَ قَبْلَ نَزُولِ الْقِتَالِ . وَنَدَبَ اللَّهُ عِبَادَةَ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَكَذَا فِي الْبُخَارِيِّ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ نَزُولِ الْقِتَالِ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْسُوحٍ ، فَإِنَّ الْجِدَالَ بِالْأَحْسَنِ وَالْمُدَارَاةَ أَبَدًا مَدْنُوبٌ إِلَيْهَا ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ يُوَادِعُ الْيَهُودَ ، وَيُدَارِيهِمْ ، وَيَصْفَحُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ، وَهَذَا بَيِّنٌ . وَمَعْنَى ﴿ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ شِدَّهَا وَصَلَابَتُهَا)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢ / ٣٩٦) : ((عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر بيئت المدراس ، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم . فقال أبو بكر : وَيْلَكَ يَا فَنِحَاصُ ! اتَّقِ اللَّهَ وَأَسْلِمْ ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ ، فَقَالَ فَنِحَاصُ : وَاللَّهِ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا بَنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ فَقْرٍ ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَفَقِيرٌ ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا ، وَإِنَّا عَنْهُ لِأَغْنِيَاءُ ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا عَنَّا مَا اسْتَقْرَضَ مِنَّا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبِكُمْ ، يَنْهَاكُمُ عَنِ الرَّبَا وَيُعْطِينَا ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا عَنَّا مَا أَعْطَانَا الرَّبَا . فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَضَرَبَ وَجْهَ فَنِحَاصٍ ضَرْبَةً شَدِيدَةً ، وَقَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ غُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، فَذَهَبَ فَنِحَاصٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، انظُرْ مَا صَنَعَ صَاحِبُكَ بِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ : " مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ " ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا : يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ، وَأَنَّهُمْ عَنْهُ أَغْنِيَاءُ ، فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ غَضِبْتُ لِلَّهِ مِمَّا قَالَ ، فَضَرَبْتُ وَجْهَهُ ، فَجَحَدَ فَنِحَاصُ ، فَقَالَ : مَا قُلْتُ ذَلِكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَا قَالَ فَنِحَاصُ تَصْدِيقًا

لأبي بكر : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ الآية، [آل عمران : ١٨١] . وَنَزَلَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَمَا بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْغَضَبِ : ﴿ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا ﴾ ((١٢١ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠) : ((قوله تعالى : ﴿ لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، في سبب نزولها خمسة أقوال : أحدها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَغَشِيَ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةً الدَّابَّةِ ، فَخَمَّرَ ابْنُ أَبِي أَنْفَةَ بَرْدَانَهُ ، وَقَالَ : لَا تُغَيِّرُوا عَلَيْنَا ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي بَكْرٍ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا ، وَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ : اغْشَيْنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ عُرْوَةُ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ كَانُوا يُؤْذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ أَشَدَّ الْأَذَى ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَا جَرَى بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَبَيْنَ فَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ ، وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَاخْتَارَهُ مُقَاتِلٌ . وَقَالَ عِكْرَمَةُ : نَزَلَتْ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ وَفَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ . وَالخَامِسُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ يُحَرِّضُ الْمَشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي شِعْرِهِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الزُّهْرِيِّ . قَالَ الرَّجَاجُ : وَمَعْنَى ﴿ لَتَبْلُوَنَّ ﴾ لَتُخْتَبَرَنَّ ، أَي : تُوَقَّعُ عَلَيْكُمْ الْمِحْنُ ، فَيَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ حَقًّا مِنْ غَيْرِهِ . وَالتُّونُ دَخَلَتْ مُؤَكَّدَةً مَعَ لَامِ الْقَسَمِ ، وَضُمَّتِ الْوَاوُ لِسُكُونِهَا ، وَسُكُونُ التُّونِ . وَفِي الْبَلَوَى فِي الْأَمْوَالِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا ذَهَابُهَا وَنُقْصَانُهَا ، وَالثَّانِي مَا فُرِضَ فِيهَا مِنَ الْحَقُوقِ . وَفِي الْبَلَوَى فِي الْأَنْفُسِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا الْمَصَائِبُ وَالْقَتْلُ ، وَالثَّانِي مَا فُرِضَ مِنَ الْعِبَادَاتِ . وَالثَّلَاثُ الْأَمْرُ بِالْمُصِيبَةِ بِالْأَقْرَابِ وَالْعَشَائِرِ . وَقَالَ عَطَاءٌ : هُمُ الْمُهَاجِرُونَ ، أَحَدُ الْمَشْرُوكُونَ أَمْوَالَهُمْ ، وَيَاعُوا رَبَاعَهُمْ ، وَعَدَّ بُوهُمُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا : مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، ﴿ وَإِنْ تَصَبَّرُوا ﴾ عَلَى الْأَذَى ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ اللَّهَ بِمُجَانِبَةِ مَعَاصِيهِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ ،

١٢١ قال الحافظ في الفتح (٨ / ٢٣١) : ((وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن ابن عباس أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وبين فَنَحَاصِ الْيَهُودِيِّ)) .

أي : ما يَعْرِضُ عليه لِظُهُورِ رُشْدِهِ . فَصَلِّ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى إِحْكَامِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الصَّبْرَ الْمَذْكُورَ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، اصْبِرُوا عَلَى صُعُوبَةِ الطَّاعَاتِ ، وَقَسُورَةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَنْ مُتَعَةِ الْمَعَاصِي وَلَذَّةِ الشَّهَوَاتِ ، وَغَالِبُوا أَعْدَاءَكُمْ الْكَافِرِينَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَهْوَالِ الْقِتَالِ وَشِدَائِدِ الْحُرُوبِ ، فَلَا يَكُونُوا أَشَدَّ صَبْرًا مِنْكُمْ ، وَأَقِيمُوا عَلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ بِالْحَرْبِ وَالْحُجَّةِ ، وَخَافُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ، وَاجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُ ، لَتَفُوزُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِ الْآخِرَةِ ، أَوْ لَتَفُوزُوا بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ ، وَتَنْجُوا مِنْ عَذَابِ النَّارِ .

وهذه الآيةُ وَصِيَّةُ إلهِيَّةِ شَامِلَةٍ وَجَامِعَةٍ ، شَمِلَتْ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعًا ، وَجَمَعَتْ الْإِنْتِصَارَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالْفَوْزَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ الدَّائِمِ .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٥٦) : ((قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ ، قَالَ الْحَسَنُ : اصْبِرُوا عَلَى دِينِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوهُ لَشِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ : اصْبِرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ . وَقَالَ الصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ : عَلَى أَمْرِ اللَّهِ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : عَلَى آدَاءِ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : عَلَى الْجِهَادِ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : عَلَى الْبَلَاءِ . وَصَابِرُوا ، يَعْنِي : الْكُفَّارَ ، وَرَابِطُوا ، يَعْنِي : الْمُسْرِكِينَ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَي دَاوَمُوا وَاتَّبَعُوا . وَالرِّبْطُ الشَّدُّ ، وَأَصْلُ الرِّبَاطِ أَنْ يَرْتَبِطَ هَؤُلَاءِ خِيُولَهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ خِيُولَهُمْ ، ثُمَّ قِيلَ ذَلِكَ لِكُلِّ مُقِيمٍ فِي ثَغْرِ يَدْفَعُ عَمَّنْ وَرَاءَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَرْكَبٌ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، قَالَ بَعْضُ أَرْبَابِ اللِّسَانِ : اصْبِرُوا عَلَى النِّعَمَاءِ ، وَصَابِرُوا عَلَى الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ ، وَرَابِطُوا فِي دَارِ الْأَعْدَاءِ ، وَاتَّقُوا إِلَهَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ)) .

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٣٦) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ عَلَى مَشَاقِ الطَّاعَاتِ ، وَمَا يُصِيبُكُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ ، ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ وَغَالِبُوا أَعْدَاءَ اللَّهِ بِالصَّبْرِ عَلَى شِدَائِدِ الْحَرْبِ ، وَأَعْدَى عَدُوِّكُمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى . وَتَخْصِيصِهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ مُطْلَقًا لِشِدَّتِهِ ، ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ أَبْدَانَكُمْ وَخِيُولَكُمْ فِي الثُّغُورِ مُتَرَصِّدِينَ لِلْغَزْوِ ، وَأَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، فَاتَّقُوهُ بِالتَّيَّبِ عَمَّا سِوَاهِ لِكَيْ تُفْلِحُوا غَايَةَ الْفَلَاحِ ، أَوْ وَاتَّقُوا الْقَبَائِحَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بِتَبِيلِ الْمَقَامَاتِ الثَّلَاثَةِ الْمُرْتَبَةِ الَّتِي هِيَ الصَّبْرُ عَلَى مَضَضِ الطَّاعَاتِ ، وَمُصَابِرَةِ

النفس في رفض العادات ، ومُرابطة السر على جناب الحق ، لترصد الواردات المُعبر عنها بالشرعية والطريقة والحقيقة)) .

وعن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ أنه بلغه أن أبا عبيدة خُصِرَ بالشَّامِ، وقد تألَّبَ عليه القومُ ، فكتب إليه عمر : سلامٌ عليك ، أما بعد ، فإنه ما ينزل بعد مؤمنٍ من منزلة شدة ، إلا يجعل الله له بعدها فرجًا ، ولن يغلب عسرٌ يُسرين ، و ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . قال : فكتب إليه أبو عبيدة : سلامٌ عليك ، وأما بعد ، فإن الله يقول في كتابه : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد ﴾ إلى آخرها . قال : فخرَجَ عمر بكتابه، فقعد على المنبر، فقراً على أهل المدينة ثم قال : يا أهل المدينة ، إنما يُعرض بكم أبو عبيدة أن ارغبوا في الجهاد^{١٢٢} .

الآية التي ذكرها عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ تحثُ على الصبر والمصابرة والثبات في ساحة الجهاد ، والالتزام بتقوى الله ، لأنها طريق النصر في الدنيا ، والنجاح في الآخرة . أما الآية التي ذكرها أبو عبيدة _ رضي الله عنه _ فمن شأنها تشجيع أهل المدينة على ترك الدنيا الفانية ، وعدم التمسك بشهواتها الباطلة وزخارفها الزائلة ، والانطلاق إلى الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، وبذل الأرواح في سبيله ، من أجل الحصول على نعيم الجنة الباقي . والعاقِلُ يُفضِّل نعيم الآخرة الباقي على حطام الدنيا الفاني .

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] . هذا قسَمٌ إلهيٌّ عظيمٌ مُؤكِّدٌ باللام أن الله يُثيب الصابرين على فعل الطاعات وترك المعاصي بأفضل الجزاء ، ويُعطيهم الأجر الكامل على أحسن أعمالهم في الدنيا ، مع التجاوز عن ذنوبهم وسيئاتهم . وهذا وعدٌ إلهيٌّ واقع لا محالة يوم القيامة ، بمنح عباده المؤمنين الصابرين أفضل الجزاء على أفضل العمل، ليكون الجزاء على أحسن العمل ذون سواه. وكلُّ ذلك بفضل الله تعالى . وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٧٥) : ((أي : لنَجْزِيَنَّهُمْ بسبب صبرهم على ما نالهم من مشاق التكاليف ، وجهاد الكافرين ، والصبر على ما ينالهم منهم من الإيذاء ، بأحسن ما كانوا يَعْمَلُونَ من الطاعات . قيل : وإنما خصَّ أحسن أعمالهم ، لأنَّ ما عداه وهو الحسن مُباح ، والجزاء إنما يكون على الطاعة . وقيل : المعنى : وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ بِجَزَاءٍ أَشْرَفٍ وَأَوْفَرَ مِنْ عَمَلِهِمْ)) .

١٢٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٢٩) برقم (٣١٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [التَّحَلُّ : ١٢٦] .

وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم وأساء إليكم واعتدى عليكم، فعاقبوه وعاملوه بالمثل ، بدون زيادة ولا نقصان ، ولا تعتدوا ، ولا تتجاوزوا الحد . وقد سمى الله الفعل الأول عقوبة ، والعقوبة هي الثانية ، لاندواج الكلام . وهذه الآية دعوة واضحة إلى العدل في العقوبة ، والالتزام بالحق ، والابتعاد عن التعدي .

ولئن صبرتم عن المجازاة والانتقام، وعفوتهم ، وتركتهم القصاص ، فهو خير لكم وأفضل ، وهذا حث على الصبر ، وتدب إليه، وترك عقوبة من أساء . ومع أن العقوبة مباحة إلا أن تركها أفضل . وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٦٦٣) : ((يقول تعالى ذكروه للمؤمنين : وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم ، فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة ، ولئن صبرتم عن عقوبته واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم ، ووكلتهم أمره إليه حتى يكون هو المتولي عقوبته ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ، يقول : للصبر عن عقوبته بذلك خير لأهل الصبر ، احتساباً وابتغاء ثواب الله ، لأن الله يعوضه من الذي أراد أن يناله بانتقامه من ظالمه على ظلمه إياه من لذة الانتصار ، وهو من قوله : ﴿ لَهُوَ ﴾ كناية عن الصبر وحسن ذلك ، وإن لم يكن ذكر قبل ذلك الصبر لدلالة قوله : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ عليه)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٩١) : ((﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ ، أي : أردتم المعاقبة ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ، أي : بمثل ما فعل بكم ، لا تُجَاوِزُوا ذَلِكَ . قال ابن جرير : أنزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة أن لا ينال من ظالمه إذا تمكن إلا مثل ظلامته ، لا يتعداها إلى غيرها ، وهذا صواب ، لأن الآية وإن قيل إن لها سبباً خاصاً كما سيأتي ، فالاعتبار بعموم اللفظ ، وعمومه يؤدّي هذا المعنى الذي ذكره . وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة ، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني ، وهو المجازي للمشاكلة ، وهي باب معروف وقع في كثير من الكتاب العزيز ، ثم حث سبحانه على العفو ، فقال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ، أي : لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، فالصبر خير لكم من الانتصاف . ووضع الصابرين موضع الصمير ثناء من الله عليهم ، بأنهم صابرون على الشدائد . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية مُحْكَمَةٌ ، لأنها واردة في الصبر عن المعاقبة ، والثناء على الصابرين على العموم . وقيل : هي منسوخة بآيات القتال ، ولا وجه لذلك)) .

إِنَّ الْعَدْلَ وَالْحَقَّ وَالْمُسَاوَاةَ مِنْ صَمِيمِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي جَاءَ لِإِنْقَادِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ .
وهنا تتجلى العدالة في القصاص ، والمُمَاثَلَةُ فِي الْعُقُوبَةِ بِلَا تَجَاوُزَ أَوْ طُغْيَانَ . وينبغي تطبيقُ الشَّرْعِ
بشكل صحيح ودقيق ، بِدُونِ الاستسلام للعواطف ، أَوْ فُورَةَ الْعَضَبِ ، أَوْ حُبِ الْإِنْتِقَامِ .
وَمَنْ ظَلِمَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ حَقَّهُ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ ، أَيْ يُعَاقِبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ دُونَ مُجَاوِزَةٍ
لِلْحُدِّ . وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ ، أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ
وَسِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فَمَثَلُوا بِهِمْ ، وَفِيهِمْ حَمْرَةَ . فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : لَنْ أُصِيبْنَا
يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنْزِيلِ عَلَيْنَا ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ ، أَنْزَلَ اللَّهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ الْآيَةَ ١٢٣ .

المُسلِمون مَحْكُومون بِمَنْهَجِ سَمَاوِيٍّ لَا يُمَكِّنُ تَجَاوِزَهُ ، فَهُمُ لَا يَتَحَرَّكُونَ بِدَافِعِ الثَّأْرِ أَوْ الْإِنْتِقَامِ
أَوْ الْأَهْوَاءِ الذَّاتِيَّةِ أَوْ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ ، بَلْ يَتَحَرَّكُونَ اسْتِنَادًا إِلَى تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ الْعَادِلَةِ فِي
تَعَامُلِهَا مَعَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ .

وَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ (٣ هـ) قُتِلَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ ، فِيهِمْ
حَمْرَةَ _ عَمِ النَّبِيِّ ﷺ _ ، فَمَثَلِ الْكَافِرُونَ بِجُنْثِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْمُثَلَّةُ هِيَ تَقْطِيعُ الْأَعْضَاءِ
وَتَشْوِيبُهَا ، كَقَطْعِ الْأَنْفِ وَالْأُذُنِ ، وَفَقْدِ الْعَيْنِ ، فَأَرَادَ الْأَنْصَارُ _ إِذَا أَوْفَعُوا بِالْكَافِرِينَ فِي قِتَالٍ
قَادِمٍ _ أَنْ يَزِيدُوا عَلَيْهِمْ فِي التَّمْثِيلِ بِجُنْثِهِمْ بِأَكْثَرِ مِمَّا فَعَلُوا فِي جُنْثِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُحُدٍ . فَلَمَّا
كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ (٨ هـ) ، أَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
وَلَنْ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ، أَيْ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تُعَاقِبُوا مَنْ ظَلَمَكُمْ وَاعْتَدَى عَلَيْكُمْ بِمِثْلِ مَا
فَعَلَ بِكُمْ ، وَإِنْ تَرَكْتُمْ عِقَابَهُمْ وَاحْتَسِبْتُمْ الْأَجْرَ عِنْدَ اللَّهِ فَهُوَ أَفْضَلُ وَخَيْرٌ لَكُمْ .

لَقَدْ أَرَادَ الْأَنْصَارُ أَنْ يَنْتَقِمُوا وَيَزِيدُوا عَلَى فِعْلِ الْكَافِرِينَ الشَّنِيعِ ثَأْرًا لِقِتَالِهِمْ ، لَكِنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ
لَهُمُ الطَّرِيقَ الْقَوِيمَ ، وَكَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الْحَالَاتِ بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ . وَالنَّبِيُّ ﷺ بُعِثَ رَحْمَةً
لِلْعَالَمِينَ ، وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ أَجْلِ الْقَتْلِ وَالْإِنْتِقَامِ وَالْإِبَادَةِ وَالتَّمْثِيلِ بِالْجُنْثِ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾
[التَّحُلُّ : ١٢٧] . وَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى مَا يِنَالُكَ مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهَذِهِ الْمَنْزِلَةُ
الرَّفِيعَةُ إِنَّمَا هِيَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِ وَتَشْبِيهِتِهِ ، وَهَذَا أَمْرٌ بِالْعَزِيمَةِ .

١٢٣ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٣٩١) بِرَقْمِ (٣٣٦٨) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٨١ / ٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ، تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا يُنال إلا بمشيئة الله وإعانتة وحُوله وقُوته)) .
 ولا تحزن على الكفار إذا كذبوك ، وأعرضوا عنك ، ولم يؤمنوا ، لحرصك على إيمانهم ، فإن الله قدر ذلك . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥٠٨ / ٤) : ((وفي قوله : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ قولان : أحدهما على كفار مكة إن لم يُسلموا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : ولا تحزن على قتلى أحد ، فإنهم أفضوا إلى رحمة الله ، ذكره علي بن أحمد النيسابوري)) .
 ولا يضيق صدرك بما يقولون من السّفه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ، ولا تهتم بمكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم . وقال ابن كثير في تفسيره (٧٨١ / ٢) : ((﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ ، أي : غم ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ ، أي : مما يُجهّدون أنفسهم في عداوتك ، وإبصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومُظهِرك ومُظْفِرُك بهم)) .

والآية تسليّة للنبي ﷺ . واصبر يا مُحَمَّد على أذى قومك لك ، وحرّبهم عليك . وهذا يُشير إلى أهمية الصبر في الأمور كُلّها ، خصوصاً في طريق الدعوة الشاق . وصبرك يا محمد لا ينبع من ذكائك ومهاراتك الشخصية، ومواهبك الذاتية . ما صبرك إلا بتوفيق الله وقوته وإعانتة ، فهو سبحانه الذي يُثبتك على الحق ، وأنت لا تُقدِر على تثبيت نفسك . ولا تحزن على المشركين بسبب كفرهم وتكذيبهم لك ، واتّهامك بأسوأ التّهّم ، وطعنهم في رسالتك. وهذا يدلُّ على شدّة حرص النبي ﷺ على إيمان قومه ، وإخلاصه التام في دعوتهم إلى الحق ، وهدايتهم إلى الصواب ، وحزنه عليهم بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم . وحزن النبي ﷺ ليس بسبب حرصه على مصلحته الشخصية ، وإنما بسبب حرصه على إيمان الناس ومصلحتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة . ولا يضيق صدرك بسبب كفرهم وعداوتهم وعنادهم والكيد لك ، والتخطيط للقضاء عليك ، وإنهاء دعوتك . فإن الله ناصرك عليهم ، ومؤيدك في مواجهتهم . ولن يقدرُوا على إلحاق الضرر بك ، فلا تقلق ، ولا تعبأ بهم ، ولا تأبه لهم ، ولا تهتم بمكرهم .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١١] .
 جرى الله المؤمنين بسبب صبرهم على أذى الكفار واستهزائهم بهم في الدنيا أحسن الجزاء ، أنهم هم الفائزون بنعيم الجنة الدائم . وقال الطبري في تفسيره (٢٥٠ / ٩) : ((إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ الْجَنَّةَ بِمَا صَبَرُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى إِذَاكُم بِهَا ، فِي أَنَّهُمُ الْيَوْمَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ وَالْكَرَامَةِ الْبَاقِيَةِ أَبَدًا ، بِمَا عَمِلُوا مِنْ صَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَقُوا فِي طَلَبِ رِضَايَ مِنَ الْمَكَارِهِ فِيهَا)) .

وقال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥].
 إنَّ المؤمنين الْمُتَّصِفِينَ بالأوصاف العظيمة والمُلتزمين بالأخلاق الحميدة ، ينالون الدَّرَجَاتِ
 العالية في الجَنَّةِ ، بسبب صَبْرهم على أمر الله وطاعته ، وَتَحْمَلهم لأذى الكُفَّار ، وَيُتَلَقَّوْنَ بِالتَّحِيَّةِ
 والسَّلَام من الملائكة الكرام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١١٢ / ٦) : ((قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ ،
 قال ابن عباس : يعني الجَنَّةِ . وقال غَيْرُهُ : العُرْفَةُ : كُلُّ بناءٍ عالٍ مُرتفع ، والمُرَادُ عُرْفُ الجَنَّةِ ،
 وهي مِنَ الرَّبْرِجِدِ والدُّرِّ واليَاقوتِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على دينهم ، وعلى أذى المشركين قوله
 تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ ، قال ابن عباس : يُحَيِّي بعضهم بعضًا بالسَّلام ، ويُرْسِل
 إليهم الرَّبُّ _ عَزَّ وَجَلَّ _ بالسَّلام . وقال مُقاتل : ﴿ تَحِيَّةً ﴾ يعني : السَّلَام ، ﴿ وَسَلَامًا ﴾ أي :
 سَلَّمَ اللهُ لَهُم أَمْرَهُمْ ، وتجاوزَ عنهم .

وقال الله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الرُّوم : ٦٠].
 فَاصْبِرْ يا مُحَمَّدُ على تكذيب قَوْمِكَ لَكَ ، وَبَلِّغِ الوَحْيَ الإلهيَّ بلا كَسَل ، ولا مَلَل ، فَإِنَّ وَعْدَ
 اللهُ لَكَ بالنصر والتمكين وإظهار دينك رَغْمَ أنوف المشركين ، واقعٌ لا مَحَالَةَ ، وكائنٌ لا شَكَّ فِيهِ .
 ولا يَحْمِلَنَّكَ المشركون الضَّالُّون على الخِيفَةِ والطَّيْشِ والجهل ، ولا تترك الصبر بسبب كُفْرهم
 وضلالهم وعنادهم .

وقال التَّسْفِي في تفسيره (٢٧٩ / ٣) : ((فَاصْبِرْ على أذاهم أو عداوتهم . ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ ﴾
 بُنِصرتك على أعدائك ، وإظهار دين الإسلام على كُلِّ دين ﴿ حَقٌّ ﴾ لا بُدَّ مِنْ إنجازهِ والوفاء به .
 ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أي : لا يَحْمِلَنَّكَ هؤلاء الذين لا يُوقِنون بالآخرة على الخِيفَةِ
 والعجلة في الدُّعاء عليهم بالعذاب ، أو لا يَحْمِلَنَّكَ على الخِيفَةِ والقلق جَزَعًا مِمَّا يَقولون ويفعلون ،
 فَإِنَّهُمْ ضَلَّالٌ شاكُّون ، لا يُسْتَبَدَعُ مِنْهُمْ ذَلِكَ)) .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٣٣١ / ٤) : ((أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ نَبِيَّهُ ﷺ بالصَّبْرِ ، مُعَلِّلاً
 لذلك بِحَقِّيَّةِ وَعْدِ اللهِ ، وعدم الخُلْفِ فِيهِ ، فقال : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما تَسْمَعُهُ مِنْهُمْ مِنَ الأذى ،
 وتَنْظُرُهُ مِنَ الأفعال الكُفْريَّةِ ، فَإِنَّ اللهُ قد وَعَدَكَ بالنصر عليهم ، وإعلاء حُجَّتِكَ ، وإظهار دَعْوَتِكَ ،
 ووَعْدُهُ حَقٌّ لا خُلْفَ فِيهِ ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أي : لا يَحْمِلَنَّكَ على الخِيفَةِ ،
 وَيَسْتَفِرَّنَّكَ عَن دِينِكَ وما أنتَ عليه ، الذين لا يُوقِنون بالله ، ولا يُصدِّقون أنبياءه ، ولا يُؤْمِنون
 بِكُتُبِهِ . وَالخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ)) .

وعن أبي يحيى ، قال : نادى رَجُلٌ مِنَ الغالين عَلِيًّا ، وهو في الصلاة صلاةَ الفجر ، فقال : ﴿ ولقد أوحى إِلَيْكَ وإلى الذينَ مِن قَبْلِكَ لئنَ أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرينَ ﴾ [الزُّمَرُ : ٦٥] . فأجابه عليٌّ وهو في الصلاة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾^{١٢٤} . هذا الحديث باطلٌ . ومعناه أَنَّ رَجُلًا مِنَ الخوارج نادى عَلِيًّا وهو في صلاة الفجر . والخوارجُ يُكْفَرُونَ عَلِيًّا _ رضي اللهُ عنه _ ، ويعتبرونه كافرًا خالدًا في جهنم ، لأنَّه لم يَحْكُم بما أنزل اللهُ _ حَسَبَ زعمهم وافتراءهم _ . وهذه تُهمة باطلة تُشير إلى غُلُوِّ الخوارج ومُرُوقهم من الدين . لذلك قرأ هذا الرَّجُلُ مِنَ الخوارج هذه الآية ، لأنَّه يعتبر عَلِيًّا كافرًا ، وبالتالي فعبادته فاسدة . وقد فهمَ عليٌّ مقصودَ الرَّجُل ، فَرَدَّ عليه بهذه الآية .

ويُطلان الحديث واضحٌ ، لأنَّ مَنْ فَعَلَ هذا في صلاته يُريد الجواب ، فصلاته باطلة ، لأنَّه أدخلَ في الصلاة عَمَلًا خارجًا عنها . وعليٌّ بن أبي طالب _ رضي اللهُ عنه _ هو الإمام الفقيه والعالم الكبير ، لا يقع في مُبطلات الصلاة عن جهلٍ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : ١٧] .

هذا كلام لقمان _ رضي اللهُ عنه _ لابنه : واصبِرْ على المصائب والكوارث والشدائد ، لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي إلى الحق ، لا بُدَّ أن يَناله من الناس الأذى .

وعلى المرء أن يتحلَّى بالصبر عند المصائب والأزمات والكوارث، لأنَّ المصيبة إذا وَقَعَتْ لا يُمكن تغييرها بالجزع والفضوى والسخط ، لكنَّ الصبر عليها يُحوِّلها من نِقمة إلى نعمة ، مع استحضار الأجر الإلهي للصابرين ، وتذكُّر أنَّ الدنيا سِجْنُ المؤمن ، وهي دار الامتحان والفتن لتمييز الصادق من الكاذب . وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢١٤) : ((﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ ، يقول : وَاصْبِرْ على ما أصابك من الناس في ذات الله ، إذا أنت أمرتهم بالمعروف ، ونهيتهم عن المنكر ، ولا يصدُّنَّكَ عن ذلك ما نالك منهم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٦٣) : ((قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ يَقْتَضِي حَصًّا على تغيير المنكر ، وإن نالك ضرر، فهو إشعار بأنَّ المُغَيِّر يُؤدِّي أحيانًا، وهذا القدر على جهة التدبُّب والقُوَّة في ذات الله ، وأمَّا على اللزوم فلا ... وقيل: أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمرض وغيرها، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عزَّ وجلَّ ، وهذا قول حسن لأنه يُعْمُ)) .

١٢٤ رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ١٥٨) برقم (٤٧٠٤) ، وحَدَّثَه الذهبي لِضعفه .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزُّمَرُ : ١٠] .
 إِنَّمَا يُعْطَى الصَّابِرُونَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبَلَاءِ ثَوَابَهُمْ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَلَا عَدَدٍ وَلَا وَزْنَ ، وَلَيْسَ عَلَى قَدْرِ
 أَعْمَالِهِمْ . أَي إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الصَّابِرِينَ عَلَى مَا لَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا ثَوَابَ صَبْرِهِمْ فِي الْآخِرَةِ
 وَافِيًا كَامِلًا بِدُونِ مُحَاسَبَةٍ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ عَطَاءً كَثِيرًا أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَسَّبَ ، وَأَعْظَمُ
 مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ .

وفي تفسير ابن كثير (٤ / ٦٣) : ((قال الأوزاعي : لَيْسَ يُوزَنُ لَهُمْ وَلَا يُكَالُ لَهُمْ ، إِنَّمَا
 يُعْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا . وقال ابن جريج : بَلَغَنِي أَنَّهُ لَا يُحَسَّبُ عَلَيْهِمْ ثَوَابُ عَمَلِهِمْ قَطُّ ، وَلَكِنْ يَزَادُونَ
 عَلَى ذَلِكَ . وقال السُّدِّي : ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، يَعْنِي : فِي الْجَنَّةِ)) .
 وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٦٤٥) : ((لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ مَا لِلْمُحْسِنِينَ إِذَا أَحْسَنُوا ،
 وَكَانَ لَا بُدَّ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَةِ ، وَعَلَى كَفِّ النَّفْسِ عَنِ الشَّهَوَاتِ ، أَشَارَ إِلَى
 فَضِيلَةِ الصَّبْرِ ، وَعَظِيمِ مِقْدَارِهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، أَي :
 يُؤَفِّيهِمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ صَبْرِهِمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، أَي : بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى حَصْرِهِ حَاصِرٌ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ
 حُسْبَانَهُ حَاسِبٌ . قَالَ عَطَاءٌ : بِمَا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ عَقْلٌ وَلَا وَصْفٌ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : أَجْرُهُمُ الْجَنَّةُ ،
 وَأَرْزَاقُهُمْ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ثَوَابَ الصَّابِرِينَ وَأَجْرَهُمْ لَا نِهَايَةَ لَهُ ،
 لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَدْخُلُ تَحْتَ الْحِسَابِ فَهُوَ مُتَنَاهٍ ، وَمَا كَانَ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحِسَابِ فَهُوَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ ،
 وَهَذِهِ فَضِيلَةُ عَظِيمَةٍ وَمَثْوِيَةٌ جَلِيلَةٌ ، تَقْتَضِي أَنَّ عَلَى كُلِّ رَاغِبٍ فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَطَامِعٍ فِيهَا عِنْدَهُ مِنَ
 الْخَيْرِ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَلَى الصَّبْرِ ، وَيَزِمَّ نَفْسَهُ بِزِمَامِهِ ، وَيُقَيِّدَهَا بِقَيْدِهِ ، فَإِنَّ الْجَزَعَ لَا يَزِدُّ قَضَاءً قَدْ نَزَلَ ،
 وَلَا يَجْلِبُ خَيْرًا قَدْ سُلِبَ ، وَلَا يَدْفَعُ مَكْرُوهًا قَدْ وَقَعَ ، وَإِذَا تَصَوَّرَ الْعَاقِلُ هَذَا حَقَّ تَصَوُّرِهِ ،
 وَتَعَقَّلَهُ حَقَّ تَعَقُّلِهِ عَلِمَ أَنَّ الصَّابِرَ عَلَى مَا نَزَلَ بِهِ ، قَدْ فَازَ بِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، وَظَفِرَ بِهَذَا الْجَزَاءِ
 الْخَطِيرِ . وَغَيْرُ الصَّابِرِ قَدْ نَزَلَ بِهِ الْقَضَاءُ شَاءَ أَمْ أَمَى ، وَمَعَ ذَلِكَ فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ مَا لَا يُقَادِرُ قَدْرَهُ ،
 وَلَا يُبَلِّغُ مَدَاهُ ، فَضَمَّ إِلَى مُصِيبَتِهِ مُصِيبَةً أُخْرَى ، وَلَمْ يَظْفَرْ بِغَيْرِ الْجَزَعِ ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

أرى الصَّبرَ محمودًا وعنه مَدَاهِبُ فكيفَ إذا ما لم يكن عنه مذهبُ
 هُنَاكَ يَحِقُّ الصَّبْرُ وَالصَّبْرُ وَاجِبٌ وما كان منه للضرورة أوجبُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ
 مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

فَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى أذى الْمُشْرِكِينَ لَكَ ، كَمَا صَبَرَ سَادَةُ الرُّسُلِ (إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَنُوحَ) عَلَى أذى الْكَافِرِينَ لَهُمْ . وَالآيَةُ تُثَبِّتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْحَقِّ ، وَتُرْشِدُهُ إِلَى التَّاسِّيِّ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِؤْلَاءِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى قِمَّةِ الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَالْقُوَّةِ فِي الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ وَالدَّعْوَةِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّرَائِعِ . وَمُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ أَوْلَهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ . وَكُلُّ الرُّسُلِ أَصْحَابُ عَزْمٍ وَاجْتِهَادٍ ، لَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ وَالرُّتْبَةِ وَالْمَكَانَةِ وَالْأَفْضَالِيَّةِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨٦) : ((﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ ، أَوْلُو الشِّيَاطِ وَالْجِدِّ مِنْهُمْ ، فَإِنَّكَ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ، وَ﴿ مِنْ ﴾ لِلتَّبِيحِ ، وَقِيلَ : لِلتَّبَعِضِ . وَ﴿ أَوْلُو الْعَزْمِ ﴾ مِنْهُمْ أَصْحَابُ الشَّرَائِعِ ، اجْتَهَدُوا فِي تَأْسِيسِهَا وَتَقْرِيرِهَا ، وَصَبَرُوا عَلَى تَحَمُّلِ مَشَاقِقِهَا ، وَمُعَادَاةِ الطَّاعِنِينَ فِيهَا ، وَمَشَاهِيرِهِمْ : نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَقِيلَ : الصَّابِرُونَ عَلَى بَلَاءِ اللَّهِ كَنُوحٍ ، صَبَرَ عَلَى أذى قَوْمِهِ ، كَانُوا يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغَشَى عَلَيْهِ ، وَإِبْرَاهِيمَ عَلَى النَّارِ ، وَذَبْحِ وَلَدِهِ ، وَالدَّبِيحِ عَلَى الذَّبْحِ ، وَيَعْقُوبَ عَلَى فَقْدِ الْوَلَدِ وَالْبَصَرَ ، وَيُوسُفَ عَلَى الْجُبِّ (الْبَيْتِ) وَالسَّجْنَ ، وَأَيُّوبَ عَلَى الضَّرِّ ، وَمُوسَى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : ﴿ إِنَّا لَمُنْذِرُونَكَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشُّعْرَاءُ] . وَدَاوُدَ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَعِيسَى لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ .))

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ . لَا تَدْعُ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى كِفَارِ قُرَيْشٍ بِتَعْجِيلِ الْعَذَابِ . وَالْمَعْنَى : اصْبِرْ يَا مُحَمَّدٌ ، وَلَا تَسْتَعْجِلِ الْعَذَابَ لِلْكَفَّارِ ، فَهُوَ نَازِلٌ بِهِمْ فِي وَقْتِهِ لَا مَحَالَةَ ، لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ وَلَا رَيْبَ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٣٠٢) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ، يَقُولُ : وَلَا تَسْتَعْجِلْ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ ، يَقُولُ : لَا تَعْجَلْ بِمَسْأَلَتِكَ رَبِّكَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ)) . وَفِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٣٩٣) : ((قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ ضَجَرَ بَعْضَ الضَّجَرِ ، وَأَحَبَّ أَنْ يَنْزَلَ الْعَذَابُ بِمَنْ أَبِي مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَمَرَ بِالصَّبْرِ)) .

وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُعَاجِلْ كُفَّارَ قُرَيْشٍ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ ، رَحْمَةً بِهِمْ ، وَرَجَاءً أَنْ يُؤْمِنُوا ، أَوْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤَحِّدُ اللَّهَ تَعَالَى . لِذَلِكَ أَعْطَاهُمُ الْفُرْصَةَ تَلْوُ الْفُرْصَةَ ، وَأَمْهَلَهُمْ وَلَمْ يُهْمَلَهُمْ . ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ . كَانَتْ الْكُفَّارَ يَوْمَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ رَأْيَ الْعَيْنِ (يُعَايِنُونَهُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَمْ يَلْبُثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً ، وَذَلِكَ لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ شِدَّةِ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَطَوْلِهِ . فَمِنْ هَوْلِ الْعَذَابِ ، يَنْسَوْنَ مُدَّةَ بَقَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَعْتَبِرُوهَا مُجَرَّدَ سَاعَةٍ عَابِرَةٍ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٣٩٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ ، أَي : مِنْ الْعَذَابِ ﴿ لَمْ يَلْبُثُوا ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ ، لِأَنَّ مَا مَضَى كَأَنَّهُ

لَمْ يَكُنْ ، وَإِنْ كَانَ طَوِيلًا . وَقِيلَ : لِأَنَّ مِقْدَارَ مُكْتَبِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ فِي جَنْبِ مُكْتَبِهِمْ فِي عَذَابِ الآخِرَةِ ، وَهَاهُنَا تَمَّ الْكَلَامُ)) .

﴿ بَلَاغٌ ﴾ . هَذَا الْقُرْآنُ إِذَا نَزَلَ وَبَلَاغٌ . أَي : تَبْلِيغٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٣٩٣) : ((وَفِي مَعْنَى وَصْفِ الْقُرْآنِ بِالْبَلَاغِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الْبَلَاغَ بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ . وَالثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهُ الْكِفَايَةُ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : مَا أَخْبَرْنَا بِهِ لَهُمْ فِيهِ كِفَايَةٌ وَعِنِّي . وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ وَجْهًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمَعْنَى : لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، ذَلِكَ لُبُّ بَلَاغٍ ، أَي ذَلِكَ بَلَاغٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِلَى آجَالِهِمْ)) .

﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ . لَا يَكُونُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ إِلَّا لِلْكَافِرِينَ ، الَّذِينَ رَفَضُوا أَوْامِرَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَخَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ ، وَعَرَفُوا فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ وَعِنَادَتِهِمْ ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ . وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَظْلِمْهُمْ ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَقَادُوا إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ . وَمِنْ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا الْمُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٧١) : ((﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ ﴾ بِالْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ ﴾ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ الْخَارِجُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . قَالَ الرَّجَّازُ : تَأْوِيلُهُ : لَا يُهْلِكُ مَعَ رَحْمَةِ اللَّهِ وَقَضَلِهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ، وَلِهَذَا قَالَ قَوْمٌ : مَا فِي الرَّجَاءِ لِرَحْمَةِ اللَّهِ آيَةٌ أَقْوَى مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطُّور : ٤٨] .

وَاصْبِرْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ عَلَيْكَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ، وَالتَّزَمِ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَبَلِّغِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَلَا تَعَبًا بِأَعْدَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِكَ ، يَرَاكَ وَيَسْمَعُكَ وَيَحْفَظُكَ ، وَيُحِيطُكَ بِالْعِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ ، وَيَعْصِمُكَ مِنْ أَدَى الْمُشْرِكِينَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُؤْذَوْكَ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ تُزِيلُ هُمُومَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ . فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُرَدِّدُوهَا دَائِمًا لِاسْتِحْضَارِ مَعِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ مَعَهُمْ ، يَرَاهُمْ ، وَيَسْمَعُهُمْ ، وَيَحْفَظُهُمْ مِنْ كُلِّ سُوءٍ .

وَالنُّونُ الثَّانِيَةُ فِي ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ تُفِيدُ الْجَمْعَ ، وَجَمْعَ الْعَيْنِ لِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْمُبَالَغَةَ بِكَثْرَةِ أَسْيَابِ الْحِفْظِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٤٩٩) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَامْضِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَبَلِّغْ رِسَالَاتِهِ ، ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : فَإِنَّكَ بِمَرَأَى مِنَّا ، وَنَرَى عَمَلَكَ ، وَنَحْنُ نَحُوطُكَ وَنَحْفَظُكَ ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ مَنْ أَرَادَكَ بِسُوءٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٦٠) : ((**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**)) ، أي: لِمَا يَحْكُمُ به عليك ، **﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾** . قال الزَّجَّاجُ : فَإِنَّكَ بِحَيْثُ نَزَاكَ وَنَحْفَظُكَ وَنَرَعَاكَ ، فلا يَصِلُونَ إلى مَكْرُوهِكَ . وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ مَعْنَى الصَّبْرِ نُسُخَ بَايَةِ السَّيْفِ ، ولا يَصِحُّ ، لِأَنَّهُ لا تَصَادُ)) .
وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (١ / ٣٩٤) : ((**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**)) إلى أن يقع بهم العذاب الذي حَكَمْنَا عَلَيْهِمْ ، **﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾** ١٢٥ ، أي: بِمَرَأَى مِنَّا . قال ابن عباس: نَرَى ما يُعْمَلُ بِكَ .
وقال الزَّجَّاجُ : إِنَّكَ بِحَيْثُ نَزَاكَ وَنَحْفَظُكَ ، فلا يَصِلُونَ إلى مَكْرُوهِكَ)) .
وقال اللهُ تعالى : **﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾** [المَعَارِجُ : ٥] .

فَاصْبِرْ يا مُحَمَّدُ على أذى المُشْرِكِينَ ، وتكذيبهم لَكَ ، واستعجالهم العذاب استبعادًا له ، واستمر في تبليغ رسالة رَبِّكَ ، فَإِنَّ اللهَ ناصِرُكَ ومُؤَيِّدُكَ . والآيةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وتَنْبِيهُتُ له .
والصَّبْرُ الجميلُ هو الذي لا يُخالِطُه استعجال ولا شَكَّ ولا ضَجْر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨ / ٢٤٧) : ((قَوْلُهُ تعالى : **﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾** أي : على أذى قومك . والصَّبْرُ الجميلُ : هو الذي لا جَزَعُ فيه ، ولا شَكْوَى لغير الله . وقيل : هُوَ أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرى مَنْ هُوَ ، والمعنى مُتقارب)) .
وقال اللهُ تعالى : **﴿ وَاصْبِرْ على ما يَقُولُونَ واهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾** [المُرْتَلِّ : ١٠] .

اصْبِرْ يا مُحَمَّدُ على أذى المُشْرِكِينَ (كُفَّار مَكَّة) وسُخْرِيَتِهِمْ وَشَتْمِهِمْ ، وأتَّهَامَاتِهِمُ الباطلة لَكَ (ساحر ، كاهن ، مجنون ، شاعر) ، ولا تَبْئَسْ مِنْ دَعْوَتِهِمْ ، ولا تَمْتَنِعْ عن إرشادهم ، ولا تَعْرَضْ لَهُمْ بأذى ولا شتيمة ، وجانِبْهُمْ بقلبك ، وقُمْ بِمُدَارَاتِهِمْ ، واترك أمرهم إلى الله ، فَإِنَّ اللهَ

١٢٥ في فتح الباري (١٣ / ٣٩٠) أَنَّ ابنَ المُنَيَّرِ قال : ((ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعين والوجه واليد ثلاثة أقوال : أحدها أنها صفات ذات أثبتها السَّمْعُ ، ولا يهتدي إليها العقل . والثاني أَنَّ العين كناية عن صفة البَصَرِ ، واليد كناية عن صفة القُدرة ، والوجه كناية عن صفة الوجود . والثالث إمرارها على ما جاءت مُفَوَّضًا مَعْنَاهَا إلى الله تعالى . وقال الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوْرْدِي في كتاب العقيدة له : أخبر اللهُ في كتابه وَتَبَّتْ عن رسوله الاستواء والتزول والنفس واليد والعين ، فلا يُتَصَرَّفُ فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذ لَوْلَا إخبار اللهُ ورسوله ما تَجَسَّرَ عقل أن يَحْمُومَ حَوْلَ ذلك الحِمَى . قال الطيبي : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح . وقال غَيْرُهُ : لَمْ يُنْقَلْ عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره)) .

كافيك ما أهَمَّكَ ، وناصرُكَ عَلَیْهِمْ . وكان هذا قبل الأمر بالقتال . وهذه الآية منسوخة بآية السَّيْف .
والهَجْرُ الجميلُ هو الذي لا جَزَعُ فِيهِ ولا عِتَاب . وفي الهَجْرُ الجميل تتجلى المَدَاراةُ ، واللينُ ،
وعدمُ الصَّدَام .

وفي صَفوة التفاسير (١٩ / ٥٨) : ((قال المُفسِّرون : ... ، وقد كان هذا قبل أن يُؤمَّر
بالقتال كما قال سُبْحانَه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام :
٦٨] . ثُمَّ أَمَرَ ﷺ بقتالهم وقتلهم . والحكمة في هذا أن المؤمنين كانوا بِمَكَّةَ قَلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ ،
فَأَمَرُوا بالصَّبْرِ والمُجاهدة الليلية ، حتى يُعَدُّوا أَنفُسَهُمْ بهذه التَّربية الرُّوحِيَّة على مُناجزة الأعداء ،
وحتى يَكْثُرَ عَدَدُهُمْ فَيَقْتُلُوا في وجه الطُّغْيَان ، أَمَّا قَبْلَ الوُصول إلى هذه المرحلة فينبغي الصَّبْرُ
والاقتصار على الدَّعوة باللسان)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ٤٤) : ((قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ ﴾ ، أي :
من الأذى والسَّبِّ والاستهزاء ، ولا تَجْرَعْ من قولهم ، ولا تَمْتنعِ من دُعائهم ، ﴿ واهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا ﴾ ، أي : لا تَعْرِضْ لَهُمْ ، ولا تَشْتَغَلْ بِمُكافأَتهم ، فإنَّ في ذلك تَرْكُ الدُّعاء إلى الله ،
وكان هذا قَبْلَ الأمر بالقتال ، ثُمَّ أَمَرَ بَعْدَ بقتالهم وقتلهم ، فَنَسَخَتْ آيَةُ القتال ما كان قَبْلها من
التَّركِ ، قاله قَنادَة وَغَيْرُهُ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المُنذِر : ٧] .

اصْبِرْ يا مُحَمَّد على طاعةِ اللهِ ، وأوامره ، ونَوَاهِيه ، وَمَشاقِّ التكاليف ، وأذى قَوْمِكَ ، وما
لَقِيَتْ مِنْ مَكروه ، ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ تعالى . وتقديم المَفْعول لإفادة الاختصاص .
وقال القرطبي في تفسيره (١٩ / ٦٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، أي : وَلِسَيِّدِكَ
وَمَالِكِكَ فَاصْبِرْ على أداء فرائضه وعبادته . وقال مُجاهد : على ما أُؤذيت . وقال ابن زيد :
حَمَلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا مُحارِبَةَ العَرَبِ والعِجَم ، فَاصْبِرْ عليه لله . وقيل : فَاصْبِرْ تحت مَوارد القضاء
لأجل الله تعالى . وقيل : فَاصْبِرْ على البَلْوَى ، لأنَّه يَمْتحن أوليائه وأصفياءه . وقيل : على أوامره
ونَوَاهِيه . وقيل : على فِرَاقِ الأهل والأوطان)) .

٢٨_ كَظَمَ الغَيْظَ

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الغَيْظَ ﴾ [آلِ عِمْران : ١٣٤] .

أثنى اللهُ تعالى على مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ ، واحتملَ الغَضَبَ في نَفْسِهِ ، وأمسَكَ عنه ، مُخْلِصًا لله ،
طالِبًا لِرِضاه .

مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ أَنَّهُمْ يُمَسِّكُونَ غَيْظَهُمْ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ . وَكَظَمَ الْغَيْظَ صِفَةً عَظِيمَةً لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنِ النَّبَلَاءِ ، فَهِيَ انْتِصَارُ الْخُلُقِ الرَّفِيعِ عَلَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ .
 إِنَّهَا حَبْسُ الْغَيْظِ وَكُتْمُهُ بِحَيْثُ يَعْجِزُ عَنِ تَهْيِيجِ النَّفْسِ وَقِيَادَتِهَا إِلَى الطَّيِّشِ وَالْإِنْتِقَامِ .
 وَالكَاطِمُونَ الْغَيْظَ يَكْتُمُونَ غَضَبَهُمْ ، فَلَا يَصِلُ أَثَرُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَيَحْتَسِبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَهُمْ رَوَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِئِيلِ الرِّضَا الْإِلَهِيِّ ، وَلَيْسَ نَيْلُ مَدِيحِ النَّاسِ ، وَهُنَا تَظْهَرُ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّحْتَمُلِ ، وَلَجْمِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَمَنْعِهَا مِنَ التَّهَوُّرِ وَالْإِنْطِلَاقِ بِلا حِسَابٍ أَوْ رَادِعٍ .
 قَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٣٧ / ٣) : ((يَعْنِي : وَالْجَارِعِينَ الْغَيْظَ عِنْدَ امْتِلَاءِ نَفْسِهِمْ مِنْهُ . يُقَالُ مِنْهُ : كَظَمَ فَلَانٌ غَيْظَهُ ، إِذْ تَجَرَّعَهُ ، فَحَفِظَ نَفْسَهُ مِنْ أَنْ تُمَضِّيَ مَا هِيَ قَادِرَةٌ عَلَى إِمضَائِهِ بِاسْتِمْكَانِهَا مِنْ غَاظِهَا ، وَانْتِصَارِهَا مِنْ ظَلَمِهَا . وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنْ كَظَمِ الْقَرْيَةِ ، يُقَالُ مِنْهُ : كَظَمْتُ الْقَرْيَةَ ، إِذَا مَلَأْتُهَا مَاءً)) .
 وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُفِذَهُ ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُخَيَّرَهُ فِي أَيِّ الْخُورِ شَاءَ)) ١٢٦ .
 يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ فَضْلَ مَنْ يَكْظِمُ غَيْظَهُ . مَنْ احْتَمَلَ الْغَضَبَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَمْسَكَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ ، وَقَادِرٌ عَلَى إِمضَاءِ غَضَبِهِ ، عَظَّمَهُ اللَّهُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَتَبَاهَى بِهِ ، وَشَهَّرَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، بِأَنَّهُ صَاحِبُ هَذِهِ الْخَصَلَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَهَرَ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا ، وَتَجَرَّعَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ ، ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى . وَاللَّهُ سَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ ، فَيَأْخُذُ مَا أَعْجَبَهُ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ . وَفِي هَذَا مِنَ الرَّفْعَةِ وَالْمَكَانَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .
 مَنْ يَكْتُمُ غَيْظَهُ ، وَيَتْرَكَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ وَحُبَّ الْإِنْتِقَامِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى التَّنْفِيزِ ، وَلَا يُرِيدُ بِهَذَا الْعَمَلِ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ سَيَلْقَى جَزَاءَ عَمَلِهِ فِي الْآخِرَةِ عِزًّا وَنَعِيمًا وَرِضْوَانًا ، فَقَدْ نَجَحَ فِي الْجَمَامِ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ التَّوَاقَةَ لِلْإِنْتِقَامِ ، وَكَبَحَ هَذِهِ الشَّهْوَةَ الْمُتَأَجِّجَةَ .
 وَهَذَا الْعَمَلُ الْعَظِيمُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الْأَتْقِيَاءُ الْحَابِسُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْإِسْتِجَابَةِ لِبَوَاعِثِ الْغَضَبِ ، وَتَنْفِيزُ مَا يَقْتَضِيهِ . وَالْكَظْمُ : حَبْسُ الشَّيْءِ عِنْدَ امْتِلَائِهِ ، وَالْغَيْظُ تَوْقُّدُ حَرَارَةِ الْقَلْبِ مِنَ الْغَضَبِ .

١٢٦ رواه الترمذي في سننه (٤/٦٥٦) برقم (٢٤٩٣)، وقال: ((هذا حديث حسن غريب)) . وذكر العراقي في تخريج الإحياء (٣/١١٧) أن الترمذي حسنه، وكذلك ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢/٣١٧) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٦ / ١٤٠) : ((قَوْلُهُ (مَنْ كَظَمَ غَيْظًا) أَي : اجْتَرَعَ غَضَبًا كَامِنًا فِيهِ . قَالَ فِي النِّهَايَةِ : كَظَمَ الْغَيْظَ تَجَرُّعَهُ ، وَاحْتِمَالَ سَبِيهِ ، وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ . انْتَهَى . (وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْفِذَهُ) ، أَي : يُمِضِيهِ (دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ) أَي : شَهَّرَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَتَبَاهَى بِهِ . وَيُقَالُ فِي حَقِّهِ : هَذَا الَّذِي صَدَّرَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْخَصْلَةُ الْعَظِيمَةُ (حَتَّى يُخَيَّرَهُ) أَي يَجْعَلُهُ مُخَيَّرًا (فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ) أَي : فِي أَحَدِ أَيَّهِنَّ شَاءَ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ إِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ الْمُنِيعَةَ ، وَإِيصَالِهِ الدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ . قَالَ الطَّيْبِيُّ : وَإِنَّمَا حُمِدَ الْكَظْمُ لِأَنَّهُ قَهَرَ لِلنَّفْسِ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ ، وَلِذَلِكَ مَدَحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، وَمَنْ نَهَى النَّفْسَ عَنِ هَوَاهِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ، وَالْحُورَ الْعَيْنِ جَزَاهُ . قَالَ الْقَارِي : وَهَذَا الشَّاءُ الْجَمِيلُ وَالْجَزَاءُ الْجَزِيلُ إِذَا تَرْتَّبَ عَلَى مُجَرَّدِ كَظْمِ الْغَيْظِ ، فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ الْعَفْوُ إِلَيْهِ ، أَوْ زَادَ بِالْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ؟) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((... ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيْمَانًا)) ١٢٧ .
 الْجُرْعَةُ : الْإِبْتِلَاعُ ، وَالتَّجَرُّعُ : شُرْبٌ فِي عَجَلَةٍ . مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَهُ ، أَي : أَعْلَاهَا وَأَكْبَرُهَا فِي الْأَجْرِ وَالشُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَعْظَمُهَا وَأَرْفَعُهَا دَرَجَةً ، مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ ، أَي : يَكْتُمُ غَيْظَهُ مِنْ أَحَدٍ ، وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مِنَ التَّشْفِيِّ ، وَلَا يَحْصُلُ هَذَا إِلَّا بِكَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، وَلَكِنَّهُ كَتَمَ غَيْظَهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ ، وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ ، لَا لِعَرَضٍ آخَرَ ، وَلَا لِعَجْزٍ عَنِ إِمْضَاءِ غَيْظِهِ . وَشَبَّهَ كَظْمَ الْغَيْظِ وَمُدَافَعَةَ النَّفْسِ عَلَيْهِ بِتَجَرُّعِ الْمَاءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، لِشِدَّةِ مُدَافَعَةِ النَّفْسِ عَلَى ذَلِكَ . وَيَكُونُ جَزَاؤُهُ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ إِنْفَازِ غَيْظِهِ .
 وَشَفَاءُ قَلْبِ الْعَبْدِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِيْمَانِ وَالتَّقْوَى ، وَلَيْسَ بِحُبِّ الثَّارِ وَالْإِنْتِقَامِ . وَالحَدِيثُ يَدْعُو إِلَى إِخْفَاءِ الْغَيْظِ وَإِنْ أَمْتَلَأَ مِنْهُ قَلْبُ الْعَبْدِ .

١٢٧ رواه أحمد في مسنده (١ / ٣٢٧) . وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٣٥) : ((انفراد به أحمد ، وإسناده حسن ليس فيه مجروح ، ومتمنه حسن)) اه . وقال السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمُنْتَوَّرِ (٢ / ٣١٧) : أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعْبِ بِسَنَدِ حَسَنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . اه . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (٤ / ٤٩) : ((وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ : " مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ ")) .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٤٧٦) : ((ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظٍ يكظمها عبداً ما كظمها عبداً إلا ملاً الله جوفه إيماناً) شبه جرع غيظه وردّه إلى باطنه بتجرع الماء، وهي أحب جرعة يتجرعها العبد، وأعظمها ثواباً وأرفعها درجة كحبس نفسه من التشنّي، ولا يحصل هذا الحب إلا بكونه قادراً على الانتقام ، ويكن غضبه لله بينة سلامة دينه ، ونيل ثوابه)) .
وفي المستطرف للأبشيهي (١ / ٤١٧) : ((وحكي عن جعفر الصادق _ رضي الله عنه _ أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه ، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه، فظن جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يا مولاي ، والكاظمين الغيظ ، قال : قد كظمت غيظي ، قال : والعافين عن الناس ، قال : لقد عفوت عنك ، قال : والله يحب المحسنين ، قال : اذهب فانت حرّ لوجه الله تعالى)) .

تتجلى الأخلاق الكريمة في أبهى صورها، فقد كظم الإمام جعفر الصادق غيظه وهو قادر على إنفاذه ، فموقفه نابع من القوة لا الضعف . ولا يخفى أن كظم الغيظ بحاجة إلى قوة روحية كبرى تستوعب الصدمات ، ولا تهتز أمام التحدّيات . وفي المرحلة الثانية جاء العفو تأكيداً على سمو الأخلاق ، ومساعدة الطبقات المتدنية في المجتمع . وفي المرحلة الثالثة كان الإحسان ، وقد تمثّل في إعتاق هذا الغلام لوجه الله تعالى .

إن الأخلاق النبيلة لا تصدّر إلا عن شخص قوي ، ولا تنبت إلا من موقف القوة لا العجز . وصاحب الأخلاق الحميدة هو شخص انتصر على شهواته ، واستطاع التحكم بأعصابه ، وضبط مشاعره، ولم يترك نفسه فريسة سهلة للغضب والثورة والتصرّفات الطائشة ، التي تؤدي إلى الندم، حين لا ينفع الندم .

٢٩ _ القسط

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .
أمر الله بالعدل ، وهي قيمة نبيلة عند كل الأمم على اختلاف معتقداتها ، لما فيها من حفظ حقوق الفرد والجماعة ، وتجذير الإنجازات الحضارية ، وتحقيق النهضة الشاملة ، والتنمية المستدامة ، والعدالة الاجتماعية ، والتكافل الإنساني في أبهى صوره .
وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦) : ((﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ، وهو الوسط من كل أمر ، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط)) .

ولا يُمكن للحضارات أن تقوم إلا على أساس العدل ، أما إن سَلَكَتْ طريقَ الظُّلمِ فهي تُقَامِرُ بمصيرها ، وتضع رِجْلَهَا على درب الانهيار الحتمي ، والنهاية الوخيمة . وكما قال الشاعر :

وَالْبَغْيُ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَحَيْمُ

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الْمُؤْتَمِنَاتُ : ٨] ١٢٨ .
لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ لِأَجْلِ دِينِكُمْ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ . لا يَمْنَعُكُمُ اللَّهُ مِنْ إِكْرَامِهِمْ ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، وَمُعَامَلَتِهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْتِرَامِ ، مَا دَامُوا لَمْ يُحَارِبُوكُمْ ، وَلَمْ يُؤْذُواكُمْ ، خُصُوصًا إِذَا كَانُوا مِنْ أَقَارِبِكُمْ وَأَرْحَامِكُمْ .
وهذه الآيةُ الكريمةُ رُخْصَةٌ فِي صِلَةِ الْكُفَّارِ غَيْرِ الْمُحَارِبِينَ ، وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ ، رَغْمَ انْقِطَاعِ الْمُوَالَاةِ مِنْهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٦٢) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، ﴿ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ . يقول : تعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم ، وبرِّكم بهم)) .

وعن عبد الله بن الزُّبَيْرِ _ رضي اللهُ عنه _ قال: قَدِمْتُ فُتَيْلَةَ بنت عبد العزَّى بنت أسعد من بني مالك بن حِجْلٍ على ابنتها أسماء بنت أبي بكر الصديق _ رضي اللهُ عنهما _ ، وكان أبو بكر

١٢٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٣٦ و ٢٣٧) : ((اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال : أحدها أنها في أسماء بنت أبي بكر ، وذلك أَنَّ أُمَّهَا فُتَيْلَةُ بنت عبد العزَّى قَدِمَتْ عَلَيْهَا الْمَدِينَةَ بِهَدَايَا فَلَمْ تَقْبَلْ هَدَايَاهَا ، وَلَمْ تُدْخِلْهَا مَنْزِلَهَا ، فَسَأَلَتْ لَهَا عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . فَأَمَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُدْخِلْهَا مَنْزِلَهَا ، وَتَقْبَلْ هَدِيَّتَهَا وَتُكْرِمَهَا وَتُحْسِنَ إِلَيْهَا ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ . وَالثَّانِي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خُرَازَةِ وَبَنِي مُدَلِّجٍ ، وَكَانُوا صَالِحُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يُقَاتِلُوهُ وَلَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَثَوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي خُرَازَةِ وَبَنِي الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَهْدٌ فَدَامُوا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ . وَالثَّلَاثُ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُمْ الْعَبَّاسُ ، قَالَ عَطِيَّةُ الْعَوْفِيُّ . وَالرَّابِعُ أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٥] ، قَالَ قَتَادَةُ . وَالْخَامِسُ نَزَلَتْ فِي النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ ، حَكَاهُ الرَّجَّاحُ)) .

طَلَّقَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَدِمَتْ عَلَى ابْنَتِهَا بِهَدَايَا : ضِبَابًا وَسَمْنًا وَأَقِطًا^{١٢٩} ، فَأَبَتْ أَسْمَاءُ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهَا وَتَقْبَلَ مِنْهَا وَتُدْخِلَهَا مَنْزِلَهَا ، حَتَّى أُرْسِلَتْ إِلَى عَائِشَةَ أَنْ سَلِيَ عَنْ هَذَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْبَرَتْهُ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْبَلَ هَدَايَاهَا ، وَتُدْخِلَهَا مَنْزِلَهَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾^{١٣٠} .

قَدِمَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَابِطَةً الدِّينِ عَلَى رَابِطَةِ الدَّمِّ ، فَرَفِضَتْ إِكْرَامَ أُمَّهَا الْكَافِرَةَ رَغِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْقَرَابَةِ ، خَوْفًا أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفِعْلُ طَعْنًا فِي الدِّينِ . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى تَقْوَاهَا . وَمِنْ تَقْوَاهَا كَذَلِكَ أَنَّهَا حَرَصَتْ عَلَى سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَخَذَتْ فِتْوَى نَبْوِيَّةً بِخُصُوصِ هَذَا الْأَمْرِ . وَمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنْ أَمَرَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَى أُمَّهَا وَالْبِرِّ بِهَا . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الرَّفِيعَةِ .

تَجِبُ رِعَايَةُ الْوَالِدَيْنِ وَبِرُّهُمَا وَاحْتِرَامُهُمَا ، حَتَّى لَوْ كَانَ كَافِرَيْنِ . وَاخْتِلَافُ الْعَقِيدَةِ لَا يُسْقِطُ حُقُوقَهُمَا . وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى رَحْمَةِ الْإِسْلَامِ بِالنَّاسِ - عَلَى اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ - ، وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ بِكُلِّ إِنصَافٍ وَعَدَالَةٍ . وَالصَّلَةُ وَالْبِرُّ مِنَ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ الْحَمِيدَةِ ، الَّتِي غَرَسَهَا فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَبَّاهُمْ عَلَيْهَا ، وَهِيَ تَشْمَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ ، خُصُوصًا مَنْ تَرَبَّطَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ رَوَابِطَ نَسَبٍ ، كَالْوَالِدَيْنِ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَقْرَابِ .

لَقَدْ قَدِمَتْ قُتَيْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ ، وَهِيَ مُشْرِكَةٌ ، عَلَى ابْنَتِهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، فَاسْتَفْتَتْ أَسْمَاءُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ أُمَّهَا رَاغِبَةٌ فِي بَرِّهَا ، وَالقُرْبِ مِنْهَا ، وَالتَّوَدُّدِ إِلَيْهَا ، لِأَنَّهَا ابْتَدَأَتْ أَسْمَاءَ بِالْهَدْيَةِ ، وَرَغِبَتْ مِنْهَا فِي الْمُكَافَأَةِ ، أَوْ رَاغِبَةٌ فِي شَيْءٍ تَأْخُذُهُ مِنْ ابْنَتِهَا أَسْمَاءَ ، فَهَلْ تَقْبَلُ مِنْهَا هَدَايَاهَا وَتُدْخِلُهَا مَنْزِلَهَا وَهِيَ لَا تَزَالُ عَلَى كُفْرِهَا؟ ، فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَقْبَلَ هَدَايَاهَا ، وَتُدْخِلَهَا مَنْزِلَهَا ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ كَافِرَةً . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ صِلَةِ الرَّحِمِ الْكَافِرَةِ . وَالحَدِيثُ يُثَبِّتُ فَضِيلَةَ لِلصَّحَابِيَّةِ الْجَلِيلَةِ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - حَيْثُ حَرَصَتْ عَلَى دِينِهَا بِطَلَبِ الْفِتْوَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٥ / ٢٣٤) : ((قَالَ الْخَطَّابِيُّ : فِيهِ أَنَّ الرَّحِمَ الْكَافِرَةَ تُوصَلُ مِنَ الْمَالِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا تُوصَلُ الْمُسْلِمَةُ . وَيُسْتَنْبِطُ مِنْهُ وُجُوبُ نَفَقَةِ الْأَبِ الْكَافِرِ وَالْأُمِّ الْكَافِرَةِ ، وَإِنْ كَانَ الْوَلَدُ مُسْلِمًا . اهـ)) وَتَحَرَّى أَسْمَاءُ فِي أَمْرِ دِينِهَا وَكَيْفِ لَا وَهِيَ بِنْتُ الصَّدِيقِ ، وَزَوْجُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

١٢٩ الصَّبَابُ (جَمْعُ صَب) . وَالْأَقِطُ هُوَ لَبَنٌ مُجَمَّفٌ يَابِسٌ يُطْبَخُ بِهِ .

١٣٠ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٢٧) بِرَقْمِ (٣٨٠٤) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

قال الله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .
 وَاللَّيْنُ يَا مُحَمَّدُ جَانِبُكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَارْتُقُ بِهِمْ ، وَلَا تَغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَتَكَبَّرْ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَامَلْ مَعَهُمْ
 بِتَوَاضِعٍ وَأَدَبٍ ، وَكُنْ رَحِيمًا بِهِمْ ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ . وَخَفِضْ الْجَنَاحَ كِنَايَةً عَنِ التَّوَاضِعِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ .
 وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٥٤٢) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَاللَّيْنُ لِمَنْ آمَنَ
 بِكَ وَاتَّبَعَكَ وَاتَّبَعَ كَلَامَكَ ، وَقَرَّبَهُمْ مِنْكَ ، وَلَا تَخْفُ بِهِمْ ، وَلَا تَغْلُظْ عَلَيْهِمْ . يَا مَرْءَ تَعَالَى ذِكْرَهُ
 بِالرَّفْقِ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَالْجَنَاحَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ : جَنَابُهُ ، وَالْجَنَاحَانِ : النَّاحِيَتَانِ)) .
 وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٢) : ((وَأَصْلُهُ : إِنَّ الطَّائِرَ إِذَا صَمَّ فَرَّخَهُ إِلَى نَفْسِهِ ،
 بَسَطَ جَنَاحَهُ ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَى الْفَرْخِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ وَصْفًا لِتَقْرِيبِ الْإِنْسَانِ أَتْبَاعِهِ . وَيُقَالُ : فُلَانٌ
 خَافِضُ الْجَنَاحِ ، أَوْ وَفُورٌ سَاكِنٌ . وَالْجَنَاحَانِ مِنْ ابْنِ آدَمَ جَانِبَاهُ)) .
 وفي صفوة التفاسير (٧ / ١٦) : ((الاستعارة التبعية في ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ،
 حَيْثُ شَبَّهَ الْإِنَانَةَ الْجَانِبَ بِخَفِضِ الْجَنَاحِ بِجَامِعِ الْعَطْفِ وَالرَّقَّةِ فِي كُلِّ . وَاسْتُعِيرَ اسْمَ الْمُشَبَّهِ بِهِ
 لِلْمُشَبَّهِ ، وَهَذَا مِنْ بَلِيغِ الْاسْتِعَارَاتِ ، لِأَنَّ الطَّائِرَ إِذَا كَفَّ عَنِ الطَّيْرَانِ خَفَضَ جَنَاحَيْهِ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

ولا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلًا مُسْتَكْبِرًا ، إِنَّكَ لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ بِكِبْرِكَ حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَهَا ، وَلَنْ
 تُطَاوِلَ الْجِبَالَ وَتُسَاوِيَهَا بِكِبْرِكَ . وَالآيَةُ تَنْهَى عَنِ التَّكَبُّرِ ، وَتُقَدِّمُ تَعْلِيلًا لِهَذَا النَّهْيِ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى
 تَهْكُومٍ وَتَقْرِيعٍ لِلْمُتَكَبِّرِينَ .

إِنَّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ضَعِيفٌ وَعَاجِزٌ وَضَائِلُ الْحَجْمِ ، فَكَيْفَ تَخْتَالُ وَتَتَكَبَّرُ ؟ . يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ
 قَدْرَكَ وَقِيَمَتَكَ الْحَقِيقِيَّةَ ، وَتَتَبَعِدَ عَنِ الْغُرُورِ وَالْخَيْلَاءِ وَالشُّكْرِ . وَلَا يَنْبَغِي لِلضَّعِيفِ الْعَاجِزِ أَنْ يَتَكَبَّرَ .
 وقال الطبري في تفسيره (٨ / ٨١) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلًا
 مُسْتَكْبِرًا ، ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ ، يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَقْطَعَ الْأَرْضَ بِاخْتِيَالِكَ ، كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ :
 وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ خَاوِيِ الْمُخْتَرَقِ . يَعْنِي بِالْمُخْتَرَقِ : الْمُقْطَعِ ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بِفَخْرِكَ ،
 وَكِبْرِكَ ، وَإِنَّمَا هَذَا نَهْيٌ مِنَ اللَّهِ عِبَادَهُ عَنِ الْكِبْرِ وَالْفَخْرِ وَالْخَيْلَاءِ . وَتُقَدِّمُ مِنْهُ إِلَيْهِمْ فِيهِ مَعْرِفَهُمْ
 بِذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَنَالُونَ بِكِبْرِهِمْ وَفَخْرِهِمْ شَيْئًا يَقْضُرُ عَنْهُ غَيْرُهُمْ)) .

إنَّ الإرشادَ القرآنيَّ أعلى من شأنِ التواضعِ والمشيِّ بوقارٍ وسكينةٍ . وذمَّت الشريعةُ المشيَّ في الأرضِ بتكبرٍ وخيلاءٍ ورياءٍ ، لما في ذلك من عدم تقديرٍ للنعمِ الإلهيةِ ، واحتقارٍ للناسِ ، وعدم احترامٍ لمشاعرهم ، ونشرِ سوءِ الأدبِ في الطريقِ . والمرءُ حينَ يتدكَّرُ أصله الطينيَّ البسيط ، ويتدكَّرُ أنه يذهب إلى الخلاءِ ليُخرجَ الفضلاتِ والأوساخَ ، سيُدرِكُ أن لا مجالَ للتكبرِ والاستعلاءِ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ .

وفي صحيح البخاري (١٢٨٥ / ٣) عن ابنِ عمرَ _ رضي اللهُ عنهما _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((بينما رجلٌ يجُرُّ إزاره من الخيلاءِ ، خُسِفَ به ، فهو يتجلجلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ)) .
يجب على الإنسان أن يُدرِكُ أنَّه حقيرٌ أمامَ عظمةِ اللهِ تعالى ، فلا يتكبرُ ولا يتبختر . بل يمشي بهدوءٍ وسكينةٍ مُستشعرًا الكبرياءَ الإلهيَّةَ . ومن عَرَفَ حَدَّه عليه أن يقفَ عنده . والتكبرُ صِفةٌ لله وحده ، ومن نازعه فيها استحقَّ العذابَ . والإنسانُ أوَّلُهُ نُطفةٌ مَدرَّةٌ ، وآخِرُهُ جيفةٌ قَدرَةٌ ، وبين يدي ذلك يحمل العذرةَ (الغائطُ) . ومن كان هذا وَضَعَهُ فلا ينبغي له أن يتكبرَ أو يمشي مُختالًا . وهذه الحالُ تُجبرُ الإنسانَ على التواضعِ ، وتُبَعِّده _ رَغْمَ أَنفِهِ _ عن الغرورِ والتكبرِ والخيلاءِ .
حرَّم اللهُ الجَنَّةَ على المُتَكَبِّرِينَ ، وذلك لأنَّها صِفةٌ لا ينبغي لأحدٍ أن يتَّصفَ بها ، فهي خاصَّةٌ باللهِ وحده لا شريكَ له ، ومن نازعه فيها وَجَبَ عليه عذابُ الآخرةِ ، وكان عُرْضَةً لعذابِ الدُّنيا .
ذَكَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ قد خَسَفَ الأرضَ بِرِجْلِ مَنْ كانَ يَجُرُّ إزاره ، وهو ثوبُه الذي يُوارِي نِصْفَهُ الأسفلِ ، مُختالًا بِنَفْسِهِ ، وهو التَّكَبُّرُ والتَّبَخُّرُ مع الإعجابِ بالنفسِ ، فهو يَغُوصُ في أعماقِ الأرضِ ، ويضطربُ في نُزولِهِ فيها ، وَسَيَطُلُّ كذلكَ فيها إلى يومِ القيامةِ ، وإنَّما فَعَلَ به ذلكَ تَدْرِيبًا ، لِيُدْومَ عليه العذابُ ، فَيَكُونَ أبلَغَ في نكايته وإهانته لِكِبْرِهِ . والجزءُ من جنسِ العملِ .
والتَّقْيِيدُ بِجَرِّ الإزارِ هُنَا خَرَجَ مَخْرَجَ الغالبِ ، ولكنَّ البَطْرَ والتَّبَخُّرَ مَدْمومان على كُلِّ حالٍ ، وَلَوْ مِمَّنْ شَمَّرَ ثَوْبَهُ . وفي الحديثِ : التَّحذِيرُ مِنَ التَّكَبُّرِ والخيلاءِ ، وفيه : بيانٌ تغليظِ الوعيدِ في جَرِّ الإزارِ اختياليًا . وقال المُنَاوِي في فيضِ القَدِيرِ (٤٣٨ / ٣) _ عن حديثِ آخَرَ _ : ((خَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكَم) قَبيلٌ : هو قارونُ (في حُلَّةٍ له يَخْتالُ فيها) مِنَ الاختيالِ ، وهو التَّكَبُّرُ في المَشْيِ ، ولا يكونُ إلا مع سَحَبِ الإزارِ ونَحْوِهِ ، فكأنَّ المُختالَ تَخَيَّلَ فَضِيلَةً في نَفْسِهِ على غَيْرِهِ ، فاخْتالَ مُتَكَبِّرًا بها في مَشْيِهِ على غَيْرِهِ (فَأَمَرَ اللهُ الأرضَ فأخذته) أي ابتلعته (فهو يتجلجلُ فيها إلى يومِ القيامةِ) أي : يَغُوصُ في الأرضِ ، ويضطربُ ، ويتحرَّكُ في نُزولِهِ فيها ، وهذا تحذيرٌ مِنَ الخيلاءِ ، وترهيبٌ مِنَ التَّكَبُّرِ)) .

والجدير بالذكر أن من قصَدَ بالملبوس الحَسَنَ إظهارَ نعمةِ الله عليه ، مُسْتَحْضِرًا لها ، شاكِرًا عليها، غيرَ مُحتَقِرٍ لِمَن لَيسَ له مثله ، لا يَضُرُّهُ ما لَيسَ مِنَ المَبَاحاتِ ، وَلَوْ كانَ في غايةِ التَّفَاسَةِ .
وفي صحيح مسلم (١ / ٩٣) عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : ((لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِنَ كِبَرٍ)) ، قال رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنًا ، قال : ((إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، الكِبَرُ بَطْرُ الحَقِّ ، وَغَمَطُ الناسِ)) .

إِنَّ اللَّهَ لا يَدْخُلُ العَبْدَ الجَنَّةَ إِذا كانَ في قلبه وَزَنُ ذَرَّةٍ مِنَ الكِبَرِ ، وهو التَّعَاطُفُ والمُباهاةُ على الناسِ . والذَّرَّةُ هي التَّمَلَّةُ الصَّغِيرَةُ . وهذا يدلُّ على خُطُورَةِ الكِبَرِ ، وَكَوْنُهُ مانِعًا مِنَ دُخُولِ الجَنَّةِ .
والنِّظَافَةُ والاعتناءُ بالمَظْهَرِ وارتداءُ الثيابِ الجميلةِ ، مِنَ الأُمُورِ المَرْغُوبَةِ ، ولا تُعَدُّ مِنَ الكِبَرِ ، وَاللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، ما دامَ لا يُؤَدِّي إلى الغرورِ والكِبَرِ والتَّرفُّعِ على الناسِ ، لأنَّهُ إظهارُ لِنِعْمَةِ اللَّهِ على العبدِ . وَاللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى آثارَ نِعْمَتِهِ على عِبدِهِ .

والكِبَرُ هو رُؤْيَةُ الحَقِّ باطلاً ، وإنكاره تَكْبِيرًا وتَجَبُّرًا وترَفُّعًا ، وعدمُ القَبُولِ به . وَغَمَطُ الناسِ يعني احتقارهم وازدراءهم ، والنظر إليهم نظرةً دُونِيَّةً . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٣٤٩) : ((" الكِبَرُ بَطْرُ الحَقِّ " هُوَ أَنْ يَجْعَلَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ حَقًّا مِنْ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ باطلاً . وقيل : هُوَ أَنْ يَتَجَبَّرَ عِنْدَ الحَقِّ فلا يراه حَقًّا . وقيل : هُوَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَنِ الحَقِّ فلا يَقْبَلُهُ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٩١ و ٩٢) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ في قلبه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِنَ كِبَرٍ " . فقد اِخْتَلَفَ في تَأْوِيلِهِ ، فَذَكَرَ الخَطَّابِيُّ فِيهِ وَجْهَيْنِ : أحدهما أَنَّ المُرَادَ التَّكْبِيرَ عَنِ الإِيمانِ فصاحبه لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أصلاً إِذا ماتَ عليه ، والثاني أَنَّهُ لا يَكُونُ في قلبه كِبَرٌ حالَ دُخُولِهِ الجَنَّةَ ، كما قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر: ٤٧] . وهذان التأويلان فيهما بُعْدٌ ، فَإِنَّ هَذَا الحَدِيثَ وردَ في سياقِ النَّهْيِ عَنِ الكِبَرِ المعروفِ ، وهو الارتفاعُ على الناسِ واحتقارهم ، وَدَفَعَ الحَقِّ ، فلا ينبغي أَنْ يُحْمَلَ على هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ المُخْرِجَيْنِ لَهُ عَنِ المَطْلُوبِ ، بَلِ الظَّاهِرُ ما اخْتارَهُ القَاضِي عِيَّاضُ وَغَيْرُهُ مِنَ المُحَقِّقِينَ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ دُونَ مُجَازَاةِ إِنْ جازاه . وقيل : هذا جَزَاؤُهُ لَوْ جازاه ، وقد يتكبرم بأنه لا يُجَازِيهِ ، بَلِ لا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ كُلُّ المُؤَحِّدِينَ الجَنَّةَ ، إِمَّا أَوَّلًا ، وإِمَّا ثانياً بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر ، الذين ماتوا مُصْرِبِينَ عَلَيْهَا . وقيل : لا يَدْخُلُها مَعَ المُتَّقِينَ أَوَّلَ وَهَلَّةٍ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٢٢٤) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ) لَهُ الجَمالُ المُطْلَقُ ، وَمَنْ أَحَقُّ بِالجَمالِ مِنْ كُلِّ جَمالٍ فِي الوجودِ مِنْ آثارِ صَنعَتِهِ ، فَلهِ جَمالُ الذاتِ ، وَجَمالُ الصِّفَاتِ ،

وجَمَالَ الأفعال ، ولَوَلا حِجَابِ الثُّورِ على وجهه لأحرقَتْ سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه من خَلْقِهِ (يُحِبُّ الجَمَالَ) أي التَّجَمُّلُ مِنكُمْ في الهَيْئَةِ ، أو في قِلَّةِ إظهارِ الحاجةِ لغيره ، وسِرِّ ذلك أَنَّهُ كامل في أسمائه وصفاته ، فله الكَمَالُ المُطْلَقُ مِن كُلِّ وجه ، ويُحِبُّ أسمائه وصفاته ، ويُحِبُّ ظُهُورَ آثارها في خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُ مِن لَوَازِمِ كَمَالِهِ ، وهو وَثْرٌ يُحِبُّ الوَثَرَ ، جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، عليم يُحِبُّ العُلَمَاءَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ ، قَوِيٌّ يُحِبُّ القَوِيَّ ، فالْمُؤْمِنُ القَوِيُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، حَيِّيٌّ يُحِبُّ أَهْلَ الحَيَاءِ والوفاء ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ ، صَدُوقٌ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ، مُحْسِنٌ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ، إلى غير ذلك)) .

وعن خولة بنت قيس _ رضي الله عنها _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: ((إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي المُطِيطَاءُ ، وَخَدَمَتْهُمُ فَارِسُ والرُّومُ ، سُلِّطَ بَعْضُهُم على بَعْضٍ)) ١٣١ .

في الحديث تحذيرٌ نبويٌّ من زينة الدنيا الفانية ، لأنها تُلهي عن الآخرة ، وَدَّمَ لِلتَّبِخْتُرِ والتَّكْبُرِ والإعجاب بالنفس ، وتنبه على أهمية التواضع والسكينة والتَّحَلِّيَ بالأخلاق الحميدة .

إِذَا مَشَتْ الأُمَّةُ المُحَمَّدِيَّةُ بَغْرورٍ وَتَبِخْتُرٍ وَتَكْبُرٍ وَخِيَلَاءٍ . والمُطِيطَاءُ : التَّبِخْتُرُ ومَدَّ اليَدَيْنِ في المَشْيِ . وهذه مِشْيَةٌ مَدمومة ، تدلُّ على الفساد الذي يظهر في الأُمَّة نتيجة كثرة النعم والأموال ، وَخَدَمَهُمُ الفُرسُ والرُّومُ بعد فتح بلادهم وَسَيَّ أولادهم ، فَإِنَّ النتيجة أَنَّ يُسَلِّطَ اللهُ شِرَارَ الأُمَّةِ مِنَ الظالمين والفاستقين على خِيَارِ الأُمَّةِ مِنَ الصالحين المُتَّقِينَ . وهذا يعني أَنَّ حُكْمَ الأُمَّةِ سيكون بأيدي الظالمين ، حيث يظلمون الصالحين ويُؤذونهم ، نتيجة الفساد الذي أصاب الأُمَّةَ .

وهذا الحديث من دلائل نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لأنه يشتمل على أمر غيبي ، وقد حَدَّثَ على أرض الواقع كما أخبر النبي ﷺ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالوا سلامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] .

هذه الآية تتضمن مَظْهَرَيْنِ لِخُصْنِ سُلُوكِ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمُ عِبَادُ الرَّحْمَنِ وَصَفُوتِهِ مِنْ خَلْقِهِ . المَظْهَرُ الأوَّلُ هو المَشْيُ على الأرض بوقار وسكينة بدون تكبر أو خيلاء . وهذه طبيعتهم بلا رياء أو تصنع . والمَظْهَرُ الثاني هو مُقَابَلَةُ الإساءة بالإحسان والعَفْوُ عَنِ الجُهَالِ ، ومُقَابَلَةُ كلامهم القبيح

١٣١ رواه ابن جبان في صحيحه (١٥ / ١١٢) برقم (٦٧١٦) ، والطبراني في الأوسط (١ / ٤٧)

برقم (١٣٢) بسند حسنه الهيثمي في المجمع (١٠ / ٤١١) .

بالكلام الطيب. والجدير بالذكر أن الإضافة في " عِبَادُ الرَّحْمَنِ " للتخصيص والتفضيل والتعظيم والتشريف والتفخيم. أي إنهم أولياء الله وصفوته من خلقه ، وإلا فالناس كلهم عباد الرحمن .
 إنَّ عباد الله المؤمنين الصالحين هم نُخبة المجتمع ، وسادة الناس ، وأشرافهم ، يمشون على الأرض يهدوء وتواضع وطمأنينة بدون استكبار ولا غرور ولا عَجرفة ولا سَعْي بالفساد والمعاصي ، ويتحمّلون تهاوة الجَهَّال وسفاهتهم وكلامهم السيئ ، ويصفحون عنهم ، ولا يَرُدُّون الإساءة بالإساءة ، وإنما يقولون لهم كلامًا جميلًا طيبًا يرفق ولين . وبعبارة أخرى ، إذا خاطبهم الجاهلون السفهاء بما يكرهونه ، قالوا لهم قَوْلًا لَيْتِنَا يَسْلُمُونَ فيه من الإثم ، وَيَنْجُونَ مِنْ أذَاهم وَشَرِّهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠١/٦): ((قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ ﴾ . وقال ابن قتيبة : إِنَّمَا نَسَبَهُمْ إِلَيْهِ لِاصْطِفَائِهِ إِيَّاهُمْ . وَمَعْنَى : ﴿ هَوْنًا ﴾ مَشْيًا رَوْنِدًا ، وَمِنْهُ يُقَالُ : أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا . وقال مُجاهد : يَمْشُونَ بِالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ ، ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ، أَي : سَدَادًا . وقال الحسن : لَا يَجْهَلُونَ عَلَى أَحَدٍ ، وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِمْ حَلِمُوا . وقال مقاتل ابن حِيَّان قَالُوا : سَلَامًا ، أَي قَوْلًا يَسْلُمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ . وهذه الآية مُحْكَمَةٌ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ ، وَزَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْكَفَّارِ : لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ غَيْرُ السَّلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَتْ بِآيَةِ السَّيْفِ)) .
 والنبي ﷺ كان قرآنًا يمشي بين الناس ، وكان يطبق الآيات على نفسه ، ويتمثلها في أدق تفاصيل حياته . وهو ﷺ سيّد المؤمنين الصالحين ، وكان القدوة العليا في التواضع والأدب والاحترام ، وكان المثل الأعلى في الوقار والسكينة والحلم والصفح والتسامح ، بدون ضعف ، ولا ذل ، ولا رياء ، ولا تصنع ، ولا ضغط من أحد .

وفي الحديث أن النبي ﷺ : ((إِذَا مَشَى تَكْفَأُ تَكْفُؤًا ، كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ)) ١٣٢ .
 إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْشِي بِوَقَارٍ وَسَكِينَةٍ بِلَا رِيَاءٍ وَلَا تَكْلُفٍ ، وَكَانَتْ مِشْيَتُهُ هَادِنَةً مُتَوَازِنَةً وَاثِقَةً ، بِلَا إِسْرَاعٍ وَلَا إِبطَاءٍ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا .

والمعنى المراد أن النبي ﷺ كان يمشي مشيًا قويًا ، ويرفع رجليه من الأرض رفعًا بائنًا ، لا كمن يمشي اختيالًا ويُقارب خطاه تنعمًا . وفي تحفة الأحوذى (٣٦١ / ٥) : ((إِذَا مَشَى يَتَكْفَأُ))
 أي يتمايل إلى قدام . وقيل: أي يرفع القدم من الأرض ثم يضعها ولا يمسح قدمه على الأرض

١٣٢ رواه الترمذي في سننه (٥ / ٥٩٨) برقم (٣٦٣٧) وصححه، والحاكم في المستدرک (٢ / ٦٦٢)
 برقم (٤١٩٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

كَمْشِي الْمُتَبَخِّرِ ، (كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ) أَي يَرْفَعُ رِجْلَهُ مِنْ قُوَّةِ وَجَلَادَةٍ ، وَالْأَشْبَهُ أَنْ تَكْفَأَ بِمَعْنَى صَبَّ الشَّيْءِ دَفْعَةً)) .

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْشِي بَاتِّزَانٍ وَتَوَاضِعٍ وَوَقَارٍ ، وَيَتَعَاطَلُ مَعَ النَّاسِ بِأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ ، وَيُسَامِحُ الْجَاهِلِينَ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ السُّفْهَاءِ ، وَيُقَابِلُ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٣٣) : ((هَذِهِ صِفَاتُ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ)) الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿ ، أَي : بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ مِنْ غَيْرِ جَبْرِيَّةٍ وَلَا اسْتِكْبَارٍ ... فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ يَمْشُونَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ ، وَلَا مَرَحٍ ، وَلَا أَشْرٍ ، وَلَا بَطْرٍ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَمْشُونَ كَالْمَرْضَى تَصْنَعًا وَرِيَاءً ، فَقَدْ كَانَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ﷺ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَكَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطَوَّى لَهُ ، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ السَّلَفِ الْمَشْيَ بِتَضَعُّفٍ وَتَصْنُوعٍ ، حَتَّى رُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ رَأَى شَابًّا يَمْشِي رُوَيْدًا ، فَقَالَ : " مَا بَالُكَ أَنْتَ مَرِيضٌ ؟ " ، قَالَ : لَا ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فَعَلَاهُ بِالذَّرَّةِ ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْهَوْنِ هُنَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ يَحْيَى ابْنِ الْمُخْتَارِ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ ﴾ الْآيَةَ ، قَالَ : إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ ذُلٌّ ، ذَلَّتْ مِنْهُمْ _ وَاللَّهُ _ الْأَسْمَاغُ وَالْأَبْصَارُ وَالْجَوَارِحُ ، حَتَّى تَحْسَبَهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَإِنَّهُمْ وَاللَّهِ أَصْحَاءٌ ، وَلَكِنْهُمْ دَخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَا لَمْ يَدْخُلْ غَيْرَهُمْ ، وَمَنْعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا عِلْمُهُمْ بِالْآخِرَةِ ، فَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ، أَمَّا وَاللَّهِ مَا أَحْزَنَتْهُمْ مَا أَحْزَنَ النَّاسَ ، وَلَا تَعَاظَمَ فِي نَفْسِهِمْ شَيْءٌ طَلَبُوا بِهِ الْجَنَّةَ ، وَلَكِنْ أَبْكَاهُمْ الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَعَرَّ بِعِزَاءِ اللَّهِ تَقَطَّعَ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ ، وَمَنْ لَمْ يَرَ لِلَّهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ ، فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ ، وَحَصَرَ عِزَابُهُ . ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أَي : إِذَا سَفِهَ عَلَيْهِمُ الْجُهَّالُ بِالْقَوْلِ السَّيِّئِ لَمْ يُقَابِلُوهُمْ عَلَيْهِ بِمِثْلِهِ ، بَلْ يَغْفُونَ وَيَصْفَحُونَ ، وَلَا يَقُولُونَ إِلَّا خَيْرًا ، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا تَزِيدُهُ شِدَّةُ الْجَاهِلِ عَلَيْهِ إِلَّا حِلْمًا)) اهـ . وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ :

يُخَاطِبُنِي السَّفِيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ فَأَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ لَهُ مُجِيبًا
يَزِيدُ سَفَاهَةً وَأَزِيدُ حِلْمًا كَعُودٍ زَادَهُ الْإِحْرَاقُ طِيْبًا

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلًّا مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [لُقْمَانُ : ١٨] .

وَلَا تُمِيلْ وَجْهَكَ عَنِ النَّاسِ احْتِقَارًا لَهُمْ ، وَلَا تُعْرِضْ عَنْهُمْ تَكْبُرًا ، وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مُتَبَخِّرًا مُتَكَبِّرًا . إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْمُتَكَبِّرَ الْمُعْجَبَ بِنَفْسِهِ ، الْمُفْتَخِرَ عَلَى غَيْرِهِ . وَهَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ .

والآية تُقدِّم درسًا بليغًا في التواضع ، واحترام الإنسان ، وحُسن التعامل مع الناس ، وأدب الحوار معهم . وكلُّ هذه المعاني الطيبة تعمل على تنقية المجتمع من الضغائن ، وشهوة الانتقام ، وعقلية الحقد والثأر . وكلُّ الناس أصلهم من التراب ، ومرجعهم إلى التراب ، فلا معنى للغرور والتكبر ، ولا فائدة من التناول على الآخرين .

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٨٨ / ٣) : ((قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ، يقول : لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس ، إذا كَلَّمْتَهُمْ أو كَلَّمْتُوك ، احتقارًا منك لهم ، واستكبارًا عليهم ، ولكن أَلِنْ جانِبَكَ ، وانسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ ، كما جاء في الحديث : " وَلَوْ أَنَّ تَلَقَى أَحَاك ووجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْبَسِطٌ ، وإيَّاكَ وإِسْبَالَ الإِزَارِ ، فإنها مِنَ المَخِيلَةِ ، والمَخِيلَةُ لا يُجِبُّهَا اللهُ " . قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ، يقول : لا تتكبر ، فتحقّر عباد الله ، وتُعرض عنهم بوجهك إذا كَلَّمْتُوك ، وكذا روى العوفي وعكرمة عنه . وقال مالك عن زيد ابن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ ، لا تتكلم وأنت مُعْرِضٌ ، وكذا زُوي عن مُجاهد وعكرمة ويزيد ابن الأصم وأبي الجوزاء وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم . وقال إبراهيم النخعي : يعني بذلك : التَّشْدِيقُ فِي الكَلَامِ . والصَّوَابُ القَوْلُ الأوَّلُ . قال ابن جرير : وأصلُ الصَّعْرِ داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تَلْفِتْ أعناقها عن رؤوسها ، فَشَبَّهَ بِهِ الرَّجُلُ المُتَكَبِّرَ ، وقوله : ﴿ وَلَا تَمَسَّ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ، أي : خِيَلًا مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا عَنِيدًا ، لا تَفْعَلُ ذَلِكَ يُغْضِكُ اللهُ ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، أي : مُخْتَالٍ مُعْجَبٍ فِي نَفْسِهِ ، فَخُورٍ ، أي : على غيره)) .

وقال أبو نؤاس : وما الناسُ إلا هَالِكٌ وابنُ هَالِكٍ وَذُو نَسَبٍ فِي الهَالِكِينَ عَرِيقٍ
إذا امْتَنَحَنَ الدُّنْيَا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ لَهُ عَن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

٣١_ الوفاء بالعهد

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠] .
وأوفوا بعهدى الذى عهدتُ إليكم فى التَّوراة مِن اتِّباعِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأطيعونى ، ولا تعصونى ، أوفٍ بما صَمِنْتُ لَكُمْ مِنَ الثَّوَابِ ، وهو نعيمِ الجَنَّةِ .
وقد أُمرُوا بالوفاء بالعهد الإلهيِّ المُقدَّس ، وعدم نَقْضِهِ . وهذا العهدُ هو الإيمان بالله والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه . وعهدُهُ تعالى أن يُدخلهم الجَنَّةَ . واللهُ لا يُخْلِفُ العَهْدَ ، ولا يَنْكُثُ بالوعد . وهذا الوفاء بالعهد الإلهيِّ من شأنه أن يَمْنَحَهُمْ شَرَفَ الدُّنْيَا ، ونعيمَ الآخرة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٢١) : ((وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)) . قال : بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم ، أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الآصار (الأثقال) والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم ، التي كانت من إحداثكم . وقال آخرون : هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب . والمراد به مُحَمَّدٌ ﷺ . فَمَنْ اتَّبَعَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذَنْبَهُ ، وأدخله الجنة ، وجعل له أجرين . وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بِمُحَمَّدٍ ﷺ . قال أبو العالية : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ . قال : عهده إلى عباده دين الإسلام ، وأن يتبعوه . وقال الضحَّاك عن ابن عباس : ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . قال : أرض عنكم ، وأدخلكم الجنة . وكذا قال السُّدي والضحَّاك وأبو العالية والربيع بن أنس)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠] ١٣٣ .

وقال اليهود : لَنْ نَدْخُلَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا قَلِيلَةً ، وَيَقْصِدُونَ أَيَّامَ النَّارِ عِبَادًا أَبَاؤُهُمْ فِيهَا الْعِجْلُ ، ثُمَّ يَزُولُ عَنْهَا الْعَذَابُ ، وَيَعْقِبُهُ النِّعَمُ ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِنكَارِ وَالتَّوْبِيخِ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ ، فإذا أعطاكم الله ميثاقاً بذلك فالله لا ينقض ميثاقه ، وإذا كان قد وعدكم بذلك ، فالله لا يخلف وعده ولا عهده ، وفيه دليل على أن الخلف في خبره مُحال . والعهد في هذا الموضع كالوعد ، وإنما سَمِيَ اللَّهُ خَبْرَهُ عَهْدًا ، لِأَنَّ خَبْرَهُ أَوْكَدُ

١٣٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٠٦ و ١٠٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ ، وَهُمْ الْيَهُودُ ، وَفِيمَا عَنَّا بِهَذِهِ الْأَيَّامِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرَمَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ . وَلِمَاذَا قَدَّرُوهُمَا بِأَرْبَعِينَ ؟ ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ قَالُوا بَيْنَ طَرَفَيْ جَهَنَّمَ مَسِيرَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَنَحْنُ نَقْطَعُ مَسِيرَةَ كُلِّ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ ، ثُمَّ يَنْقُضِي الْعَذَابُ ، وَتَهْلِكُ النَّارُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ قَالُوا : عَتَبَ عَلَيْنَا رَبُّنَا فِي أَمْرٍ ، فَأَقْسَمَ لِيُعَذِّبَنَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يُدْخِلُنَا الْجَنَّةَ ، فَلَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَحْلَةَ الْقَسَمِ ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ وَأَبِي الْعَالِيَةِ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا عِدَّةُ الْأَيَّامِ الَّتِي عَبَدُوا فِيهَا الْعِجْلُ ، قَالَ مُقَاتِلٌ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْأَيَّامَ الْمَعْدُودَةَ سَبْعَةٌ أَيَّامٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ ، وَالنَّاسُ يُعَذِّبُونَ لِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَنْقُطِعُ الْعَذَابُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ ، أَي : عَهْدٌ إِلَيْكُمْ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُكُمْ إِلَّا هَذَا الْمِقْدَارَ !)) .

مِنَ الْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ . أَمْ تَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ فَتَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ ، فَتَجْمَعُونَ بَيْنَ جَرِيمَةِ تَحْرِيفِ كَلَامِ اللَّهِ ، وَالكَذِبِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ؟ .

[ومن طريق ابن إسحاق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس : ((أن اليهود كانوا يقولون : هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نُعَذَّبُ بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا فِي النَّارِ ، وَإِنَّمَا هِيَ سَبْعَةُ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ)) ١٣٤] ١٣٥ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٤٢٤) : ((يَعْنِي بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا ﴾ الْيَهُودُ . يَقُولُ : وَقَالَتْ الْيَهُودُ : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ ﴾ ، يَعْنِي : لَنْ تُلَاقِي أَجْسَامَنَا النَّارَ وَلَنْ نَدْخُلَهَا ﴾ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ ، وَإِنَّمَا قِيلَ : ﴿ مَعْدُودَةً ﴾ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُبَيَّنًّا عَدْدُهَا فِي التَّنْزِيلِ ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَحْبَرَ عَنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَهُمْ عَارِفُونَ عَدَدَ الْأَيَّامِ الَّتِي يُوقَّتُونَهَا لِمُكْتَبِهِمْ فِي النَّارِ ، فَلِذَلِكَ تَرَكَ ذِكْرَ تَسْمِيَةِ عَدَدِ تِلْكَ الْأَيَّامِ ، وَسَمَّاهَا ﴿ مَعْدُودَةً ﴾ لِمَا وَصَفْنَا قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمَعْشَرِ الْيَهُودِ : ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ ، أَخَذْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ مِنْ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ مِيثَاقًا ، فَاللَّهُ لَا يَنْقُضُ مِيثَاقَهُ ، وَلَا يُبَدِّلُ وَعْدَهُ وَعَقْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلَ جَهْلًا وَجَرَاءَةً عَلَيْهِ ؟)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٦٧) : ((يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ ، أَي : بِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ ، فَهُوَ لَا يُخْلَفُ عَهْدُهُ ، وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى ، وَلَا كَانَ ، وَلِهَذَا أَتَى بِأَمِّ الَّتِي بِمَعْنَى بَلْ ، أَي : بَلْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

هذا مديحٌ إلهيٌّ عظيمٌ للذين يلتزمون بالعهود ، ويتمسكون بالوعود ، ويُنفذونها .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٨٥) : ((﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ

وَجَلَّ ، وَفِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ)) .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((... ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ)) ١٣٦ .

١٣٤ رواه الطبراني في الكبير (١١ / ٩٦) برقم (١١١٦٠) .

١٣٥ ذكره الحافظ في الفتح (١٠ / ٢٤٦) ، وقال : ((وهذا سند حسن)) .

١٣٦ رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٦٢) برقم (٤٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

حَفِظُ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ مِنَ الصِّفَاتِ الدَّاخِلَةِ فِي الْإِيمَانِ ، وَمِنْ سِمَاتِ الْمُؤْمِنِ .
 وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٤٣٥) : ((قوله : باب حُسْنِ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ) ، قال
 أبو عبيد : الْعَهْدُ هُنَا رِعَايَةُ الْحُرْمَةِ . وقال عِيَّاضُ : هو الاحتفاظ بالشيء والملازمة له . وقال
 الراغب : حَفِظَ الشَّيْءَ وَمُرَاعَاتَهُ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَعَهْدُ اللَّهِ تَارَةً يَكُونُ بِمَا رَكَزَهُ فِي الْعَقْلِ ، وَتَارَةً
 بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَتَارَةً بِمَا يَلْتَزِمُهُ الْمُكَلَّفُ ابْتِدَاءً كَالْتَنَذُرِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ
 عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ [التوبة : ٧٥] . وَأَمَّا لَفْظُ الْعَهْدِ فَيُطْلَقُ بِالِاشْتِرَاكِ بِإِزَاءِ مَعَانٍ أُخْرَى ، مِنْهَا: الرِّمَانُ ،
 وَالْمَكَانُ ، وَالْيَمِينُ ، وَالذَّمَّةُ ، وَالصَّحَّةُ ، وَالْمِيثَاقُ ، وَالْإِيمَانُ ، وَالنَّصِيحَةُ ، وَالْوَصِيَّةُ ، وَالْمَطْرُ .
 وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٤٦) : ((إِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ) أَي : الْوَفَاءَ وَالْحِفَاظَ
 _ يَعْنِي الذَّمَّةَ _ ، وَرِعَايَةَ الْحُرْمَةِ (مِنَ الْإِيمَانِ) أَي : مِنْ أَخْلَاقِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَمِنْ خَصَائِلِهِمْ ،
 أَوْ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَيَكْفِي الْمُؤَفِّي بِالْعَهْدِ مَدْحًا وَشَرَفًا قَوْلُ مَنْ عَلَتْ كَلِمَتُهُ : ﴿ وَالْمُؤَفُّونَ
 بَعَّهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦] .
 مَنْ أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَاتَّقَى اللَّهَ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ،
 وَيُكْرِمُهُمْ ، وَيَمْنَحُهُمُ السَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَالنَّعِيمَ الْأَبَدِيَّ فِي الْآخِرَةِ . وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ : يُحِبُّهُمْ ، وَإِنَّمَا
 قَالَ : ﴿ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ . وَوَضَعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ لِتَعْظِيمِهِمْ وَتَفْخِيمِ شَأْنِهِمْ وَرَفْعِ مَنْزِلَتِهِمْ .
 وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْيَهُودِ ، وَاللَّهُ يُرَدُّ عَلَيْهِمْ ، وَيَفْضَحُ بِاطْلَاهُمْ ، وَيَكْشِفُ انْحِرَافَهُمْ .
 وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٣١٨) : ((يَقُولُ : بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ الَّذِي عَاهَدَهُ فِي
 كِتَابِهِ ، فَأَمَّنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَصَدَّقَ بِهِ ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ مِنْ آدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى مَنْ أَيْتَمَنَهُ عَلَيْهَا ،
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ ، ﴿ وَاتَّقَى ﴾ . يَقُولُ : وَاتَّقَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ ، وَسَائِرِ
 مَعَاصِيهِ الَّتِي حَرَّمَهَا عَلَيْهِ ، فَاجْتَنَبَ ذَلِكَ مُرَاقِبَةً وَعَيْدَ اللَّهِ وَخَوْفَ عِقَابِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾
 يَعْنِي : فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَتَّقُونَهُ ، فَيُخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَيَحْذَرُونَ عَذَابَهُ ، فَيُجْتَنِبُونَ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ ،
 وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَيُطِيعُونَهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ . وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : هُوَ اتَّقَاءُ الشُّرْكَ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] .

الْخِطَابُ بِلَفْظِ الْإِيمَانِ لِمَدْحِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَكْرِيمِهِمْ ، وَتَشْرِيفِهِمْ ، وَإِعْلَاءِ شَأْنِهِمْ ، وَرَفْعِ قَدْرِهِمْ .
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِبُيُوتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَوْفُوا بِالْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي عَاهَدْتُمْ
 اللَّهَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَنْقُضُوهَا ، وَلَا تُخَالِفُوهَا ، وَلَا تُخُونُوا الْعُهُودَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ أَلْزَمْتُمْ

أنفسكم بها . يجب الالتزام بها ، وإتمامها بالوفاء ، وإكمالها بحسن الأداء ، ولا تنكثوها بعد توكيدها . والعقود جمع عقد ، وهو العهد الوثيق بين الإنسان وربّه ، وبين الإنسان والإنسان . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩) : ((قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ . اختلفوا في المخاطبين بهذا على قولين : أحدهما أنهم المؤمنون من أمتنا ، وهذا قول الجمهور . والثاني أنهم أهل الكتاب ، قاله ابن جريج . والعقود : العهود ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والضحاك والسدي والجماعة . وقال الزجاج : العقود أوكد العهود . واختلفوا في المراد بالعهود هاهنا على خمسة أقوال : أحدها أنها عهود الله التي أخذها على عباده فيما أحلّ وحرّم ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد . والثاني أنها عهود الذين كُتِبَ عليهم ، قاله الحسن . والثالث أنها عهود الجاهلية ، وهي الحلف الذي كان بينهم ، قاله قتادة . والرابع أنها العهود التي أخذها الله على أهل الكتاب من الإيمان بالنبيّ مُحَمَّد ﷺ ، قاله ابن جريج . وقد ذكرنا عنه أن الخطاب للكتابيين . والخامس أنها عقود الناس بينهم من بيع ونكاح أو عقد الإنسان على نفسه من نذر أو يمين ، وهذا قول ابن زيد)) .

وقال الله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واثقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴾ [المائدة : ٧] ١٣٧ .

واذكروا نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام، وعهده الذي عاهدكم عليه النبي ﷺ حين بايعتموه على السمع والطاعة في كل أمر ونهي، في اليسر والعسر والمنشط والمكره. من الواجب أن يذكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ، وهذا يجعلهم معظّمين لله تعالى، ومُعترفين بفضله، وراغبين في شكره.

١٣٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٣٠٦) : ((قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ يعني النعم كُتِبَ عليها . وفي هذا حث على الشكر . وفي الميثاق أربعة أقوال : أحدها أنه إقرار كل مؤمن بما آمن به ، قال ابن عباس : لما أنزل الله الكتاب وبعث الرسول فقالوا : آمنا ، ذكرهم ميثاقه الذي أقرّوا به على أنفسهم وأمرهم بالوفاء . والثاني أنه الميثاق الذي أخذه من بني آدم حين أخرجهم من ظهْره ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وابن زيد . والثالث أنه ما وثق على المؤمنين على لسان نبيّه عليه السلام من الأمر بالوفاء بما أقرّوا به من الإيمان ، روى هذا المعنى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . والرابع أنه الميثاق الذي أخذ من الصحابة على السمع والطاعة في بيعة العقبة وبيعة الرضوان ، ذكره بعض المفسرين . قوله تعالى : ﴿ واثقوا الله ﴾ قال مقاتل : اتفقوا في نقض الميثاق ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي بما فيها من إيمان وشك)) .

وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي مِيثَاقِهِ أَنْ تَنْقُضُوهُ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِخَفَايَا نُفُوسِكُمْ ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ، فَضْلاً عَنْ أَعْمَالِكُمُ الْوَاضِحَةِ ، وَمَنْ كَانَ يَعْلَمُ السِّرَّ ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنَّهُ يَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ .

وعن علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، يَعْنِي : حَيْثُ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ ، قَالُوا : آمَنَّا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَبِالْكِتَابِ ، وَأَقْرَبْنَا بِمَا فِي التَّوْرَةِ ، فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ مِيثَاقَهُ الَّذِي أَقْرَبُوا بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْوَفَاءِ بِهِ ١٣٨ .

قَالَ الْبَعْضُ : عَنَى بِهِ مِيثَاقَ اللَّهِ الَّذِي وَاتَّقَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ بَايَعُوهُ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَهُ فِيمَا أَحْبَبُوا وَكَرِهُوا ، وَالْعَمَلِ بِكُلِّ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَنَبِيَّهُ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٣) : ((يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي شَرَعِهِ لَهُمْ هَذَا الدِّينَ الْعَظِيمَ ، وَإِرْسَالَهُ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، فِي مُبَايَعَتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ ، وَمُنَاصَرَتِهِ ، وَمُؤَازَرَتِهِ ، وَالْقِيَامِ بِدِينِهِ ، وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْبَيْعَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ ، كَمَا قَالُوا : بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الْحَدِيدُ : ٨] . وَقِيلَ : هَذَا تَذَكُّارٌ لِلْيَهُودِ بِمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْعُهُودِ ، فِي مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالانْقِيَادِ لِشَرَعِهِ ، رَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقِيلَ : هُوَ تَذَكُّارٌ بِمَا أَخَذَ تَعَالَى مِنَ الْعَهْدِ عَلَى ذُرِّيَّةِ آدَمَ ، حِينَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الْأَعْرَافُ : ١٧٢] ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرَ ، وَهُوَ الْمَحْكِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيِّ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيزٌ عَلَى مُوَاطَّئَةِ التَّقْوَى ، فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَخْتَلِجُ فِي الصَّمَاتِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

١٣٨ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٢ / ٢٥٦) . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٧ / ٧٦) : ((رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ ابْنِ عَبَّاسٍ)) .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢].
ولقد أخذَ اللهُ عَهْدَ اليهودِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بأن يلتزموا بتعاليم التَّوْرَةِ ، ويعبدوا اللهَ وَحْدَهُ .
وهذا العَهْدُ الوثيقُ المُؤكَّدُ باليمينِ ، ينبغي تقديسه ، والالتزام به ، وعدم الانحراف عنه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٥) : ((لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَمَرَهُمُ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ ، وَذَكَرَهُمْ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، شَرَعَ يَبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِفَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِينَ : الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، فَلَمَّا نَقَضُوا عُهْدَهُ وَمَوَاقِفَهُ أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ ، وَطَرْدًا عَنْ بَابِهِ وَجَنَابِهِ ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ)) .

وَأَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُوسَى ﷺ أَنْ يَأْخُذَ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا - وَالنَّقِيبُ كَبِيرُ الْقَوْمِ الْقَائِمُ بِأَمْرِهِمُ الرَّاعِي لِمَصَالِحِهِمْ وَشُؤْنِهِمْ - مِنْ كُلِّ سِبْطٍ ، يَكُونُ شَاهِدًا عَلَى قَوْمِهِ ، وَكَفِيلًا عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، تَأْكِيدًا لَهُ ، وَتَدْقِيقًا وَتَوَثُّقًا عَلَيْهِمْ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ : وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ ، حَسَبَ مُفْتَضَلِي الظَّاهِرِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ ﴾ ، وَهَذَا الْإِلْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ ، تَعْظِيمًا لِهَذَا الشَّانِ .
وقد أُخِذَ المِيثَاقُ عَلَى الْيَهُودِ ، لَكِنِّهِمْ - لِلْأَسْفِ - خَانُوا أَمَانَةَ المِيثَاقِ ، وَلَمْ يَقُومُوا بِحَمَلِهِ وَتَطْبِيقِهِ عَلَى أَرْضِ الْوَقَاعِ .

وقال الزمخشري في الكشاف (١ / ٤٧٨) : ((لَمَّا اسْتَقَرَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِمِصْرَ ، بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّيْرِ إِلَى أَرِيحَا ، بِأَرْضِ الشَّامِ ، كَمَا يَسْكُنُهَا الْكَنْعَانِيُّونَ الْجَبَابِرَةُ ، وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي كَتَبْتُهَا لَكُمْ دَارًا وَقَرَارًا ، فَجَاهَدُوا مَنْ فِيهَا ، فَإِنِّي نَاصِرُكُمْ ، وَأَمَرَ مُوسَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبًا ، فَاخْتَارَ النَّقِيبَاءَ وَسَارَ بِهِمْ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ ، بَعَثَهُمْ يَتَجَسَّسُونَ الْأَخْبَارَ ، فَرَأَوْا قَوْمًا أَجْسَامُهُمْ عَظِيمَةٌ ، وَلَهُمْ قُوَّةٌ وَشَوْكَةٌ ، فَهَابُوهُمْ ، وَرَجَعُوا ، وَحَدَّثُوا قَوْمَهُمْ ، وَكَانَ مُوسَى قَدْ نَهَاهُمْ أَنْ يَتَحَدَّثُوا بِمَا يَرَوْنَ ، فَكَثُرُوا المِيثَاقَ ، وَتَحَدَّثُوا ، إِلَّا اثْنَيْنِ مِنْهُمْ)) .

إِنَّ المِيثَاقَ الإِلَهِيَّ يَتَطَلَّبُ التَّزَامًا حَقِيقِيًّا لَا صُورِيًّا . وَيَنْبَغِي الْوَفَاءُ بِعَهْدِ اللَّهِ الْوَثِيقِ ، وَتَنْفِيزُ مِيثَاقِهِ الْمُقَدَّسِ . وَهَذَا المِيثَاقُ لَهُ أَرْكَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِثْلُ مُسَانَدَةِ الْحَقِّ ، وَنَشْرِ الْحَقِيقَةِ ، وَتَعْمِيقِ جَذْوَرِ الْخَيْرِ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَنَشْرِ الْعَدَالَةِ بِكُلِّ أَشْكَالِهَا . وَرَفْضُ المِيثَاقِ الإِلَهِيِّ ، أَوْ التَّقْصِيرُ فِي حَمَلِهِ وَتَطْبِيقِهِ ، أَوْ الْإِلْتِفَافُ عَلَيْهِ وَالتَّحَايِلُ عَلَى أَرْكَانِهِ . كُلُّ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِهِ جَلْبُ الْغَضَبِ الإِلَهِيِّ ، وَالتَّطْرُدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَفَسَادُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَضِياعُ الْمَصِيرِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . قال أبو العالية : أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُمْ أَنْ يُخْلِصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَلَا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ . وقال مقاتل : أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ . وفي معنى النقيب ثلاثة أقوال : أحدها أنه الضميين ، قاله الحسن ، ومعناه أنه ضميين ليعرف أحوال من تحت يده ، ولا يجوز أن يكون ضمييناً عنهم بالوفاء ، لأن ذلك لا يصح ضمانه . وقال ابن قتيبة : هو الكفيل على القوم . والثاني أنه الشاهد ، قاله قتادة . وقال ابن فارس : النقيب شاهد القوم وضمينهم . والثالث الأمين ، قاله الربيع بن أنس واليزيدي . وهذه الأقوال تتقارب . قال الزجاج : النقيب في اللغة كالأمين والكفيل وإنما قيل : نقيب ، لأنه يعلم ذخيلة أمر القوم ، ويعرف مناقبهم ، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم . ونُقِلَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ مُوسَى وَقَوْمَهُ بِالسَّيْرِ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَكَانَ يَسْكُنُهَا الْجَبَّارُونَ ، فَقَالَ تَعَالَى : يَا مُوسَى ، اخْرُجْ إِلَيْهَا ، وَجَاهِدْ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَدُوِّ ، وَخُذْ مِنْ قَوْمِكَ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبًا ، يَكُونُ كَفِيلًا عَلَى قَوْمِهِ بِالْوَفَاءِ بِمَا أَمُرُوا بِهِ ، فَاخْتَارَ النَّقَبَاءُ . وفيما بُعِثُوا لَهُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ مُوسَى بَعَثَهُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَأْتُوهُ بِخَبَرِ الْجَبَّارِينَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ بُعِثُوا ضَمَنَاءَ عَلَى قَوْمِهِم بِالْوَفَاءِ بِمِيثَاقِهِمْ ، قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ إِسْحَاقَ . وَفِي نُبُوتِهِمْ قَوْلَانِ ، أَصَحُّهُمَا أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

أَوْفُوا بِكُلِّ عَهْدٍ عَاهَدَهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ . والمراد : ما عهد إلى عباده ، ووصاهم به ، وأوجه عليهم . وهذا يشمل الالتزام بأوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وتأدية أحكام الشرع في كل القضايا جُملةً وتفصيلاً . والإضافة في ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ للتشريف والتعظيم .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٣٩٣) : ((وإيفاء ذلك أن يُطِيعوه فيما أمرهم به ونهاهم ، وأن يَعْمَلُوا بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ ، وذلك هو الوفاء بعهد الله)) اه . وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ١٢٠) : ((﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عام في جميع ما عهد الله إلى عباده . ويُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ جَمِيعُ مَا انْعَقَدَ بَيْنَ إِنْسَانَيْنِ ، وَأُضِيفَ ذَلِكَ الْعَهْدُ إِلَى اللَّهِ ، حَيْثُ أَمَرَ بِحِفْظِهِ ، وَالْوَفَاءُ بِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَمِّينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

الذين عاهدتموهم من المشركين أيها المؤمنون ، فثبتوا على العهد ، ولم ينقصوكم من شروط العهد شيئاً ، ولم ينقضوه ، وفيه دليل على أنه كان من أهل العهد من نقض عهده ، ومنهم من

ثَبَّتَ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِنَقْضِ عَهْدٍ مَنْ نَقَضَ، وبالوفاء لِمَنْ لَمْ يَنْقُضْ إِلَى مُدَّتِهِ ١٣٩ .
وَلَمْ يُعَاوَنُوا عَلَيْكُمْ عَدُوًّا ، وَالْمُظَاهَرَةُ هِيَ الْمُعَاوَنَةُ ، فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ كَامِلًا وَتَامًا غَيْرَ نَاقِصٍ ،
إِلَى انْقِضَاءِ أَجْلِ عَهْدِهِمُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ اتَّقَاهُ بِطَاعَتِهِ ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ ،
وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ، وَالْوَفَاءِ بِعُهُودِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ
مِنَ التَّقْوَى .

وَالْقَاعِدَةُ الشَّرْعِيَّةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ هِيَ : مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ ،
بَشْرَطِ أَنْ لَا يَنْقُضَ عَهْدَهُ ، وَلَا يُعَاوَنِ الْأَعْدَاءَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَهَذَا الَّذِي يَتَمُّ الْوَفَاءَ لَهُ بِدِمَّتِهِ
وَعَهْدِهِ إِلَى مُدَّتِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ أَهْمِيَّةَ الْوَفَاءِ بِهِ .

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٢٩) : ((« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » اسْتِثْنَاءٌ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، أَوْ اسْتِدْرَاكٌ ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ أُمِرُوا بِنَبْذِ الْعَهْدِ إِلَى النَّاكِثِينَ : وَلَكِنِ الَّذِينَ
عَاهَدُوا مِنْهُمْ ، « ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا » مِنْ شُرُوطِ الْعَهْدِ ، وَلَمْ يَنْكُثُوهُ ، أَوْ لَمْ يَقْتُلُوا مِنْكُمْ ،
وَلَمْ يَضْرُوكُمْ قَطْ « وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا » مِنْ أَعْدَائِكُمْ « فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ »
إِلَى تَمَامِ مُدَّتِهِمْ ، وَلَا تُجْرُوهُمْ مَجْرَى النَّاكِثِينَ ، « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » تَعْلِيلٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ
إِتْمَامَ عَهْدِهِمْ مِنْ بَابِ التَّقْوَى)) .

وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمُنْتَوَرِ (٤ / ١٣٠) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ
— رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا — فِي قَوْلِهِ : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، قَالَ : هُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ
الَّذِينَ عَاهَدَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ رَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَكَانَ بَقِيَ مِنْ مُدَّتِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ
نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُوفِّيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ هَذَا إِلَى مُدَّتِهِمْ . وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ
مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ جَعْفَرٍ فِي قَوْلِهِ : « إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، قَالَ : هُمْ بَنُو حُزَيْمَةَ
ابْنِ عَامِرٍ مِنْ بَنِي بَكْرٍ بْنِ كِنَانَةَ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : « ثُمَّ
لَمْ يَنْقُضُواكُمْ شَيْئًا » الْآيَةَ . قَالَ : فَإِنَّ نَقْضَ الْمُشْرِكُونَ عَهْدَهُمْ ، وَظَاهَرُوا عَدُوًّا ، فَلَا عَهْدَ لَهُمْ ،
وَإِنْ أَوْفُوا بِعَهْدِهِمُ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْهِ ، فَقَدْ أُمِرَ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ ، وَيُقِيَّ بِهِ)) .

١٣٩ قَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٢) : ((وَهُمْ بَنُو ضَمْرَةَ حَيٍّ مِنْ كِنَانَةَ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ
بِإِتْمَامِ عَهْدِهِمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ، وَكَانَ قَدْ بَقِيَ مِنْ مُدَّتِهِمْ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ السَّبَبُ فِيهِ أَنْهُمْ لَمْ يَنْقُضُوا الْعَهْدَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

هذا بيان إلهي للحكمة من البراءة من عهود المشركين . كيف يكون للمشركين أمن وأمان عند الله وعند رسوله ﷺ وتترك لهم حرية الحركة والتصرف ؟ . لا عهد لهم ولا ذمة ولا أمن ولا أمان ، لأنهم خونة ، يضمرون الغدر ، ونكث العهد ، ويجب قتلهم أينما وجدوا ، فلا عصمة لدمائهم بسبب خيانتهم وغدرهم . والخائن خيانة عظيمة ليس له إلا القتل . وهذا ثابت في كل الشرائع السماوية والوضعية . وكل القوانين البشرية في دول العالم تحكم بالقتل على الخائن خيانة عظيمة مع الخزي والعار . والاستفهام في الآية للتعجب والإنكار والاستبعاد ، أي : كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله ورسوله ﷺ ؟ .

وقيل : المعنى : كيف يكون للمشركين عهد عند الله يأمنون به عذابه في الآخرة ؟ ، وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا ؟ .

والله عادل منصف بين حالة الاستثناء : لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد ، يعني يوم الحديبية ، وهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم ما داموا متمسكين به ، وقائمين بحقوقه كاملة . أي إن الله أمر بإتمام العهد لمن لم ينقض العهد منهم .

إذا التزموا بالوفاء بعهدكم ، فأوفوا بعهدهم . وبعبارة أخرى ، ما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء بعهدهم ، إن الله يحب الذين يتقونه، ويطيعونه، ولا يعصونه، ويلتزمون بالوفاء بالعهد ، ولا يخونون ، ولا يغيرون . والوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أفعال المتقين .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى أن الوفاء بالعهد والاستقامة عليه من أعمال المتقين ، فيكون تعليلاً للأمر بالاستقامة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٤٥) : ((قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾ ، أي : أمان ، ويتركون فيما هم فيه ، وهم مشركون بالله كافرون به ورسوله ﷺ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ ، يعني يوم الحديبية ، كما قال تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾ [الفتح : ٢٥] الآية . ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ ، أي : مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه ، وعاهدتموهم ، من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴾ [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون ، استمر العقد والهبة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت فريش العهد ،

ومالؤوا خلفاءهم ، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح الله عليه البلد الحرام ، ومكّنه من نواصبيهم ، ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم ، فسئوا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر ، يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يُقدّره ويفعله)) .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ ، هذا على وجه التعجب ، ومعناه جحد ، أي : لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله ، وهم يعدرون وينقضون العهد ، ثم استثنى ، فقال جلّ وعلا : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ . قال ابن عباس : هم قريش . وقال قتادة : هم أهل مكة الذين عاهدتهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية . قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ ﴾ أي : على العهد ﴿ فاستقيموا لهم ﴾ . فلم يستقيموا ، ونقضوا العهد ، وأعانوا بني بكر على خزاعة ، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر ، يختارون من أمرهم : إما أن يسلموا ، وإما أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا ، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر . قال السدي والكلبي وابن إسحاق : هم من قبائل بكر : بنو خزيمة ، وبنو مدلج ، وبنو ضمرة ، وبنو الدليل ، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية ، ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الدليل من بني بكر ، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة . وهذا القول أقرب إلى الصواب ، لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد ، وبعد فتح مكة ، فكيف يقول لشيء قد مضى : ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فاستقيموا لهم ﴾ ؟ ، وإنما هم الذين قال عز وجل : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُسُوكُمْ شَيْئًا ﴾ كما نقضتكم قريش ، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة خلفاء رسول الله ﷺ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾)) .

وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا يَتَّفِقُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [الرعد : ٢٠] . هذا مديح إلهي للذين يلتزمون بعهد الله ، ويؤفون به ، ويتمونه . وعهد الله هو ما وصاهم به ، ويشمل أوامره ونواهيته ، التي كلف الله به عباده ، أي : التزام جميع الفروض ، واجتناب جميع المعاصي . ولا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله ، وبينهم وبين العباد . وهو تعميم بعد تخصيص .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣ / ١١٢) : ((﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ ، أي : بما عَقَدُوهُ مِنَ الْعُهُودِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، أَوْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعِبَادِ ، ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ، الذي وثَّقوه على أنفسهم ، وأكَّدوه بالأيمان ونحوها ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، لأنَّه يدخل تحت الميثاق كُلُّ ما أوجبهُ العبدُ على نفسه كالتُّدُورِ ونحوها ، ويُحتملُ أن يكون الأمر بالعكس فيكون من التخصيص بعد التعميم على أن يُراد بالعهد جميع عُهُودِ اللَّهِ ، وهي أوامره ونَوَاهِيهِ التي وصَّى بها عباده ، ويدخل في ذلك الالتزامات التي يُلزم بها العبدُ نفسه، ويُراد بالميثاق: ما أخذهُ اللَّهُ على عباده حين أخرجهم من صُلبِ آدَمَ في عَالَمِ الدَّرِّ الْمَذْكُورِ في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢])) .

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١] ^{١٤٠} .

التَّزِمُوا بِالْعُهُودِ التي عاهدتم عليها النَّبِيُّ ﷺ ، أو النَّاسَ ، وقوموا بالوفاء بها تامةً ، وأدائها كاملةً . وهذا أمرٌ إلهيٌّ بالوفاء بالعُهُودِ والمواثيقِ والمحافظة على الأيمان المؤكَّدة . وكُلُّ عَهْدٍ يَحْسُنُ في الشريعة الوفاء به . ولا تَحْنُتُوا في الأيمان ولا تَنْقُضُوهَا بعد إحكام توثيقها بِذِكْرِ اللَّهِ تعالى . ونَقُضُ العَهْدِ أو اليمينِ إبطاله وعدم العمل بِمُقْتَضَاهُ ، وقد جعلتم اللَّهَ رقيبًا على أيمانكم ، وشاهدًا بالوفاء . أي : وقد جعلتم اللَّهَ شهيدًا على التزامكم بالعَهْدِ أو اليمينِ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِأَفْعَالِكُمْ ، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا . وهذا تهديد شديد لهم .

١٤٠ قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ ، اختلفوا فِيمَنْ نزلت على قَوْلَيْنِ : أحدهما : أنها نزلت في حَلْفِ أَهْلِ الجاهلية ، قاله مجاهد وقتادة . والثاني : أنها نزلت في الذين بايعوا رسولَ اللَّهِ ﷺ . قال المفسرون : العهد الذي يجب الوفاء به هو الذي يَحْسُنُ فِعْلُهُ ، فإذا عاهدَ العبدُ عليه ، وَجَبَ الوفاء به ، والوعد من العهد ، ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ، أي: بعد تغليظها وتشديدها بالعزم والعهد على اليمين ، بِخِلَافِ لَعْنِ اليمينِ ، وَوَكَّدْتُ الشَّيْءَ توكيدًا ، لغة أهل الحجاز . فَأَمَّا أَهْلُ بَجْدٍ ، فيقولون : أَكَّدْتَهُ تَأْكِيدًا . وقال الرَّجَّاحُ : يُقَالُ : وَكَّدْتُ الأَمْرَ ، وَأَكَّدْتُ ، لُغَتَانِ جَيِّدَتَانِ ، والأصل الواو ، والهمزة بَدَلٌ مِنْهَا . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ أي: بالوفاء ، وذلك أَنَّ مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ ، فَكَأَنَّهُ أَكْفَلَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ . وللمُفَسِّرِينَ في معنى ﴿ كَفِيلًا ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها شهيدًا ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : وكيلًا ، قاله مجاهد . والثالث : حفيظًا مُرَاعِيًا لِعَهْدِكُمْ ، قاله أبو سُلَيْمَانَ الدمشقي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٧) : ((« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ يعني البيعة لرسول الله ﷺ لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] . وقيل : كُلُّ أمرٍ يجب الوفاء به ، ولا يُلائمه قَوْلُهُ : « إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ ، وقيل : التُّدْوِر ، وقيل : الإيمان بالله ﷻ « وَلَا تَنْفُسُوا الْإِيمَانَ ﴾ ، أي : إيمان البيعة ، أو مُطْلَقُ الْإِيمَانِ « بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ بعد توثيقها بِذِكْرِ اللَّهِ تعالى ، ... « وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ شَاهِدًا بِتِلْكَ الْبَيْعَةِ ، فَإِنَّ الْكَفِيلَ مُرَاعٍ لِحَالِ الْمَكْفُولِ بِهِ ، رَقِيبٌ عَلَيْهِ ، « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ مِنْ نَقْضِ الْإِيمَانِ وَالْعُهُودِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٧٢) : ((« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ ، وظاهره العُموم في كُلِّ عهد يقع من الإنسان من غير فَرْقٍ بَيْنَ عهد البيعة وغيره ، وَخَصَّ هذا العهد المذكور في هذه الآية بعضُ المُفسِّرين بالعهد الكائن في بَيْعَةِ النَّبِيِّ ﷺ على الإسلام ، وهو خلاف ما يُفِيده العهد المُضَاف إلى اسم الله سبحانه من العُموم الشامل لجميع عُهود الله ، وَلَوْ فُرِضَ أَنَّ السَّبَبَ خاص بعهد من العُهُود ، لم يكن ذلك مُوجِبًا لِقُصْرِهِ على السبب ، فالاعتبار بعُموم اللفظ لا بِخُصُوصِ السبب . وفُسِّرَهُ بعضهم باليمين ، وهو مدفوع بِذِكْرِ الْوَفَاءِ بِالْإِيمَانِ بَعْدَهُ حيث قال سبحانه : « وَلَا تَنْفُسُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ، أي : بعد تشديدها وتغليظها وتوثيقها ، وليس المراد اختصاص النهي عن النَّقْضِ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ لا بِغَيْرِهَا مِمَّا لا تَأْكِيدَ فِيهِ ، فَإِنَّ تَحْرِيمَ النَّقْضِ يتناول الجميع ، ولكن في نقض اليمين المؤكدة من الإثم فوق الإثم الذي في نَقْضِ مَا لَمْ يُؤَكَّدَ مِنْهَا « وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ ، أي : شهيدًا ، وقيل : حافظًا ، وقيل : ضامنًا ، وقيل : رقيبًا ، لأنَّ الْكَفِيلَ يُرَاعِي حَالَ الْمَكْفُولِ بِهِ ، وقيل : إِنَّ تَوْكِيدَ الْيَمِينِ هُوَ حَلْفُ الْإِنْسَانِ عَلَى الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِرَارًا . وحكى القرطبي عن ابن عُمر أَنَّ التَّوْكِيدَ هُوَ أَنْ يَحْلِفَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنَّ حَلْفَ وَاحِدَةٍ فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ ، « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِحَسَبِ ذَلِكَ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ ، وفيه ترغيب وترهيب)) .

وقال الله تعالى : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [التَّحْلِ : ٩٢] .

ولا تَكُونُوا كَالَّذِي أَفْسَدَتْ مَا غَزَلَتْهُ مِنْ بَعْدِ إِبْرَامَ وَإِحْكَامَ لَهُ قِطْعًا وَأَجْزَاءً . وهذا مَثَلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِمَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ . وقد شَبَّهَتُ الْآيَةُ الَّذِي يَحْلِفُ وَيُعَاهِدُ وَيُؤَيِّمُ عَهْدَهُ ثُمَّ يَنْقُضُهُ بِالْمَرَّةِ تَغْزِيلَ غَزَلِهَا بِإِحْكَامٍ ثُمَّ تَحْلُلَهُ أَنْقَاصًا . وَالْآيَةُ تُؤَكِّدُ عَلَى وُجُوبِ الْوَفَاءِ ، وَتُحْرِمُ النَّقْضَ .

وقال الطبري في تفسيره (٦٣٧ / ٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ نَاهِيًا عِبَادَهُ عَنِ نَقْضِ الْإِيمَانِ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَآمِرًا بِوَفَاءِ الْعُهُودِ ، وَمُمَثِّلًا نَاقِضَ ذَلِكَ بِنَاقِضَةِ غَزَلِهَا مِنْ بَعْدِ إِبْرَامِهِ ، وَنَاكِثَهُ مِنْ بَعْدِ إِحْكَامِهِ : وَلَا تَكُونُوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي نَقْضِكُمْ أَيْمَانَكُمْ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَإِعْطَائِكُمُ اللَّهَ بِالْوَفَاءِ بِذَلِكَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ)) كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴿ ، يعني : من بعد إبرام)) .

تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ خِيَانَةً وَخُدَيْعَةً وَمَكْرًا تَخْدَعُونَ بِهَا النَّاسَ ، وَالِدَّخَلُ : مَا يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ ، وَلَيْسَ مِنْهُ ، لِلْفَسَادِ أَوْ الْخُدَيْعَةِ ، لِأَجْلِ أَنْ تَكُونَ جَمَاعَةٌ أَكْثَرُ عَدَدًا وَأَوْفَرُ مَالًا مِنْ غَيْرِهَا ، حَيْثُ كَانُوا يُحَالِفُونَ الْخُلَفَاءَ ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ وَأَغْنَى ، نَقَضُوا حِلْفَ أَوْلَئِكَ ، وَحَالَفُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً ، وَأَجَلُّ مَكَانَةً ، أَيِ إِنَّهُمْ طَلَبُوا الْعِزَّ بِنَقْضِ الْعَهْدِ بِأَنْ كَانَتْ أُمَّةٌ (جَمَاعَةٌ) أَكْثَرَ مِنْ أُمَّةٍ ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ .

والمعنى : لَا تَعْدِرُوا بِقَوْمٍ لِقَلَّتِهِمْ وَكَثْرَتِكُمْ ، أَوْ لِقَلَّتِكُمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَقَدْ أُعْطِيتُمُ الْإِيمَانَ الْمُؤَكَّدَةَ . وَقِيلَ : كَانَتْ قُرَيْشٌ إِذَا رَأَوْا قُوَّةً وَبِأَسَا فِي أَعْدَاءِ حُلَفَائِهِمْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ حُلَفَائِهِمْ ، وَحَالَفُوا أَعْدَاءَهُمْ . وَقِيلَ : هُوَ تَحْذِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْتَرِبُوا بِكَثْرَةِ قُرَيْشٍ وَسِعَةِ أَمْوَالِهِمْ فَيَنْقُضُوا بَيْعَةَ النَّبِيِّ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٧٠ / ٢) : ((﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ ، أَيِ : تَحَالِفُونَ لِلنَّاسِ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ لِيَطْمَئِنُوا إِلَيْكُمْ ، فَإِذَا أَمَكْنِكُمُ الْعَدْرُ بِهِمْ غَدَرْتُمْ ، فَهِيَ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ لِئِنَّهُ بِالْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى . إِذَا كَانَ قَدْ نَهَى عَنِ الْعَدْرِ وَالْحَالَةِ هَذِهِ ، فَلَأَنْ يَنْهَى عَنْهُ مَعَ التَّمَكُّنِ وَالْقُدْرَةِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى)) .

إِنَّمَا يَخْتَبِرُكُمْ اللَّهُ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ لِيَنْظُرَ الْمُطِيعَ مِنْكُمْ الْمُنتَهِيَّ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ مِنَ الْعَاصِي الْمُخَالِفِ أَمْرَهُ وَنَهْيِهِ وَالْعَاصِي ، وَلِيَجْزِيَ كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، حَيْثُ يُثِيبُ الْوَافِيَ ، وَيُعَذِّبُ النَّكَاثَ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢٧٣ / ٣) : ((﴿ وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ، فَيُوضِّحُ الْحَقَّ وَالْمُحَقِّينَ ، وَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ ، وَيُبَيِّنُ الْبَاطِلَ وَالْمُضِلِّينَ ، فَيُنزِلُ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ ، وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ ، وَالرُّكُوعِ إِلَى الْبَاطِلِ ، أَوْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٨٥ / ٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا ﴾ . قَالَ مُجَاهِدٌ : هَذَا فِعْلٌ نِسَاءً أَهْلُ نَجْدٍ ، تَنْقُضُ إِحْدَاهُنَّ حَبْلَهَا ، ثُمَّ تَنْفِثُهَا ، ثُمَّ تَخْلِطُهَا بِالصُّوفِ ، فَتَغْزِلُهَا . وَقَالَ مُقَاتَلٌ : هِيَ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ تُسَمَّى رَيْطَةَ بِنْتِ عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ ، كَانَتْ إِذَا غَزَلَتْ نَقَضَتْهَا . وَقَالَ ابْنُ السَّائِبِ : اسْمُهَا (رَائِطَةُ) . وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : اسْمُهَا رَيْطَةُ

بنت عمرو المرّية ، ولقبها الجعراء ، وهي من أهل مكة ، وكانت معروفة عند المخاطبين ، فعرفوها بوصفها ، ولم يكن لها نظير في فعلها ذلك ، كانت متناهية الحُمق ، تغزل الغزل من القطن أو الصوف فتُحَكِّمه ، ثم تأمر جاريتها بتقطيعه . وقال بعضهم : كانت تغزل هي وجواربها ثم تأمرهن أن ينقُضن ما غزلن ، فصرَبَهَا اللهُ مَثَلًا لناقضي العهد وفي المراد بالغزل قولان : أحدهما أنه الغزل المعروف ، سَوَاءٌ كان من قطن أو صوف أو شعر ، وهو قول الأكتيين . والثاني أنه الحبل ، قاله مُجاهد . وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ ، قال قتادة : من بعد إبرام ، وقوله : ﴿ أَنْكَائًا ﴾ ، أي : أنقاضًا . قال ابن قتيبة : الأنكاث ما نَقِضَ من غزل الشعر وغيره ، وواحدنا نَكَثَ . يقول : لا تُؤكِّدوا على أنفسكم الأيمان والعهود ثم تنقضوا ذلك ، وتحنثوا فيه ، فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثًا . قوله تعالى : ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أي : دَغَلًا ومَكْرًا وخديعةً ، وكلُّ شيء دَخَلَه عَيْبٌ فهو مدخول ، وفيه دَخَلٌ . قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ ، قال ابن قتيبة : لأن تكون أُمَّة ﴿ هِيَ أَرَبِي ﴾ ، أي : هي أغني ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ ، وقال الزَّجَّاج : المعنى : بأن تكون أُمَّة هي أكثر ، يُقَالُ : رَبَا الشيء يَرَبُو : إذا كَثُرَ . قال ابن الأنباري : قال اللغويون : (أَرَبِي) أَرَبِدٌ عَدَدًا . قال مُجاهد : كانوا يُحَالِفُونَ الحُلَفَاءَ فيجدون أكثر منهم وأعر ، فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك ، فنُهوا عن ذلك . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقيتكم وكثرتكم أو قاتتكم وكثرتهم وقد غررتموهم بالأيمان . قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللهُ بِهِ ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقوال : أحدها أنها ترجع إلى الكثرة ، قاله سعيد بن جبير وابن السائب ومقاتل ، فيكون المعنى : إنما يختبركم الله بالكثرة ، فإذا كان بين قومين عهد ، فكثُر أحدهما ، فلا ينبغي أن يُفسخ الذي بينه وبين الأقل ، فإن قيل : إذا كثرت عن الكثرة فهلاً قيل : بها ؟ ، فقد أجاب عنه ابن الأنباري بأن الكثرة ليس تأنيثها حقيقياً ، فحُمِلت على معنى التذكير ، كما حُمِلت الصيحة على معنى الصياح . والثاني أنها ترجع إلى العهد ، فإنه لدلالة الأيمان عليه يجري مجرى المظهر ، ذكره ابن الأنباري . والثالث أنها ترجع إلى الأمر بالوفاء ، ذكره بعض المفسرين)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنِ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ٩٤] .

ولا تجعلوا الأيمان خديعةً ومكراً تُعْرُونَ بها الناس ، فيسكنون إلى أيمانكم ويأمنون ثم تنقضونها ، لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية . والتكرار للتأكيد والمبالغة في تعظيم شأن العهود ، فتزِلَّ أقدامكم عن طريق الحق بعد رُسوخها فيه ، وتتحرفوا عن شرع الله تعالى وملة الإسلام بعد أن

كُنْتُمْ ثَابِتِينَ عَلَيْهَا ، وَتَهَلَّكُوا بَعْدَ مَا كُنْتُمْ آمِنِينَ . والعرب تقول لِكُلِّ مُبْتَلَى بَعْدَ عَافِيَةٍ ، أَوْ سَاقَطَ فِي وِرْطَةٍ بَعْدَ سَلَامَةٍ : زَلَّتْ قَدَمُهُ . والمُرَادُ أَقْدَامَهُمْ ، وَإِنَّمَا وَحَدَّ اللَّفْظُ وَنَكَرَهُ : ﴿ قَدَمٌ ﴾ ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ زَلَّ قَدَمٌ وَاحِدَةً عَظِيمَةً ، فَكَيْفَ بِأَقْدَامٍ كَثِيرَةٍ ؟ . وَذَوْقُ السُّوءِ فِي الدُّنْيَا هُوَ مَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٨٧) : ((قال مُقاتل : ناقض العهد يَزِلُّ فِي دِينِهِ كَمَا تَزِلُّ قَدَمُ الرَّجُلِ بَعْدَ الْاسْتِقَامَةِ . قال المُفسِّرون : وهذا نَهْيٌ لِلَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ وَنُصْرَةَ الدِّينِ عَنِ نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ ﴾ ، يَعْنِي : الْعُقُوبَةَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ إِذَا نَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، صَدُّوا النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ١٥٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ ، كَرَّرَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا ، ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مُبَالَغَةً فِي النَّهْيِ عَنْهُ ، لِعَظَمِ مَوْقِعِهِ فِي الدِّينِ ، وَتَرَدُّدِهِ فِي مُعَاشِرَاتِ النَّاسِ ، أَي : لَا تَعْقِدُوا الْأَيْمَانَ بِالْإِنطِوَاءِ عَلَى الْخَدِيعَةِ وَالْفَسَادِ ، فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، أَي : عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِلْمُسْتَقِيمِ الْحَالِ يَقَعُ فِي شَرِّ عَظِيمٍ ، وَيَسْقُطُ فِيهِ ، لِأَنَّ الْقَدَمَ إِذَا زَلَّتْ نَقَلَتْ الْإِنْسَانَ مِنْ حَالٍ خَيْرٍ إِلَى حَالٍ شَرٍّ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٧٢) : ((حَذَّرَ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَيْمَانِ دَخَلًا ، أَي : خَدِيعَةً وَمَكْرًا لِئَلَّا تَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ، مَثَلٌ لِمَنْ كَانَ عَلَى الْاسْتِقَامَةِ فَحَادَ عَنْهَا ، وَزَلَّ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَى بِسَبَبِ الْأَيْمَانِ الْحَانِثَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الصَّدِّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ، لِأَنَّ الْكَافِرَ إِذَا رَأَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ عَاهَدَهُ ثُمَّ غَدَرَ بِهِ ، لَمْ يَبْقَ لَهُ وَثُوقٌ بِالَّذِينَ ، فَانصَدَّ بِسَبَبِهِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ)) .
 وَيُصَيِّكُمُ الْعِقَابُ الدُّنْيَوِي الْعَاجِلُ (عَذَابُ اللَّهِ الَّذِي يُعَذِّبُ بِهِ أَهْلَ مَعَاصِيهِ فِي الدُّنْيَا) بِصَدِّكُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، أَوْ بِصَدِّكُمْ غَيْرَكُمْ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ يُسْتَنُّ بِكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ لَمْ يَدْخُلْ غَيْرُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، فَكَأَنَّهُمْ صَدُّوا عَنِ دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَرُوا النَّاسَ مِنَ اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ .
 وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : سَهَلْتُمْ طَرِيقَ نَقْضِ الْعَهْدِ عَلَى النَّاسِ بِنَقْضِكُمْ الْعَهْدَ ، وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ كَبِيرٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . وَهَذَا الْوَعِيدُ إِنَّمَا هُوَ فِي مَن نَقَضَ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّ مَن عَاهَدَهُ ثُمَّ نَقَضَ عَهْدَهُ خَرَجَ عَنِ الْإِيمَانِ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ يَتَحَدَّثُ عَنِ الَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَيْمَانَهُمْ دَخَلًا بَيْنَهُمْ أَنَّهُمْ صَادُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْكُفَّارِ ، لَا صِفَةُ الَّذِينَ يَتَّقِلُونَ بِالْحَلْفِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى قَوْمٍ . وَلَيْسَ فِي انْتِقَالِ قَوْمٍ تَحَالَفُوا مَعَ قَوْمٍ إِلَى آخِرِينَ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٧٤) : ((لَمَّا نَهَاہُمْ سُبْحَانَهُ عَنْ نَقْضِ مُطْلَقِ الْإِيمَانِ ، نَهَاہُمْ عَنْ نَقْضِ إِيْمَانٍ مَخْصُوصَةٍ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا إِيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ ﴾ ، وَهِيَ إِيْمَانُ الْبَيْعَةِ . قَالَ الْوَاحِدِيُّ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَهَذَا فِي نَهْيِ الدِّينِ بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَنُصْرَةِ الدِّينِ . وَاسْتَدْلُوا عَلَى هَذَا التَّخْصِيسِ بِمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَتَنَزَّلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مِنَ الْمُبَالَغَةِ ، وَبِمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَذَوَّقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ ﴾ ، لِأَنَّہُمْ إِذَا نَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، صَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ . وَعَلَى تَسْلِيمِ أَنَّ هَذِهِ الْإِيمَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هِيَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَالاعتبار بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ هَذَا تَكْرِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ لِقَصْدِ التَّأْكِيدِ وَالتَّقْرِيرِ ، وَمَعْنَى ﴿ فَتَنَزَّلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ ، فَتَنَزَّلَ قَدَمٌ مَنِ اتَّخَذَ يَمِينَهُ دَخَالًا عَنِ مَحَجَّةِ الْحَقِّ بَعْدَ ثُبُوتِهَا عَلَيْهَا وَرُسُوخِهَا فِيهَا . قِيلَ : وَأَفْرَدَ الْقَدَمَ لِلإِيدَانِ بَأَنَّ زَلَلَ قَدَمٌ وَاحِدَةً أَيْ قَدَمٌ كَانَتْ عَزَّتْ أَوْ هَانَتْ مَحْذُورٌ عَظِيمٌ ، فَكَيْفَ بِأَقْدَامِ كَثِيرَةٍ ؟ . وَهَذَا اسْتِعَارَةٌ لِلْمُسْتَقِيمِ الْحَالِ يَقَعُ فِي شَرِّ عَظِيمٍ ، وَيَسْقُطُ فِيهِ ، لِأَنَّ الْقَدَمَ إِذَا زَلَّتْ نَقَلَتْ الْإِنْسَانَ مِنْ حَالٍ خَيْرٍ إِلَى حَالٍ شَرٍّ ، وَيُقَالُ لِمَنْ أَخْطَأَ فِي شَيْءٍ : زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ ... ﴿ وَتَذَوَّقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ ﴾ ، أَيْ : تَذَوَّقُوا الْعَذَابَ السَّيِّئَ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا ، بِمَا صَدَدْتُمْ ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أَيْ : بِسَبَبِ صُدُودِكُمْ أَنْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، أَوْ بِسَبَبِ صَدِّكُمْ لِعَيْبَرِكُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّ مَنْ نَقَضَ الْبَيْعَةَ وَارْتَدَّ ، اقْتَدَى بِهِ غَيْرُهُ فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ فِعْلُهُ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ عَلَيْهِ وَزُرَّهَا وَوَزُرَّ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أَيْ : مُتَبَالِغٌ فِي الْعَظَمِ ، وَهُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِمَا قَبْلَهُ عَذَابُ الدُّنْيَا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٩٥] ١٤١ .

ولا تنقضوا عهد الله وعهد رسوله من أجل حطام الدنيا الفاني ، وإنما كان الثمن قليلاً وإن كثر ، لأنه زائل ، فهو قليل . ما عند الله من الأجر والثواب على الوفاء أعظم وأفضل من متاع

١٤١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٨٧) : ((﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ . قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضٍ ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا عِيدَانُ بْنُ أَشْوَعٍ وَهُوَ صَاحِبُ الْأَرْضِ ، وَلِلْآخَرِ امْرَأُ الْقَيْسِ وَهُوَ الْمُدَعَى عَلَيْهِ ، فَهَمَّ امْرَأُ الْقَيْسِ أَنْ يَحْلِفَ ، فَأَخْرَجَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَذَكَرَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ أَنَّ اسْمَ صَاحِبِ الْأَرْضِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدَانَ . وَقِيلَ : عِيدَانُ)) .

الدُّنْيَا العَاجِلِ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ . لَا تَنْفُضُوا عُهُودَكُمْ تَطْلُبُونَ بِنَقْضِهَا عَرَضًا يَسِيرًا مِنَ الدُّنْيَا ، إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى الوَفَاءِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ العَاجِلِ . وَلَوْ حَصَلَ الإِنْسَانُ عَلَى الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، لَكَانَ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرَ لَهُ . وَأَجْرُ اللَّهِ أَعْظَمُ لِمَنْ آمَنَ بِهِ ، وَرَجَاهُ ، وَحَفِظَ عَهْدَهُ رَجَاءً مَوْعُودَهُ .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٦٤٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَلَا تَنْفُضُوا عُهُودَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَعُقُودَكُمْ الَّتِي عَاقَدْتُمُوهَا مِنْ عَاقِدْتُمْ مُؤَكِّدِيهَا بِأَيْمَانِكُمْ ، تَطْلُبُونَ بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلًا ، وَلَكِنْ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِالْوَفَاءِ بِهِ ، يُشَبِّحُكُمْ اللَّهُ عَلَى الوَفَاءِ بِهِ ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ لَكُمْ عَلَى الوَفَاءِ بِذَلِكَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَضْلًا مَا بَيْنَ العَوَاصِيْنَ اللَّذِينَ أَحَدُهُمَا الثَّمَنُ القَلِيلُ الَّذِي تَشْتَرُونَ بِنَقْضِ عَهْدِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا ، وَالأَخْرَ الثَّوَابِ الجَزِيلِ فِي الآخِرَةِ عَلَى الوَفَاءِ بِهِ)) .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٣ / ٢٧٤) : ((نَهَاَهُمْ سُبْحَانَهُ عَنِ المَيْلِ إِلَى عَرَضِ الدُّنْيَا ، وَالرُّجُوعِ عَنِ العَهْدِ لِأَجْلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، أَي : لَا تَأْخُذُوا فِي مُقَابَلَةِ عَهْدِكُمْ عَرَضًا يَسِيرًا حَقِيرًا ، وَكُلُّ عَرَضٍ دُنْيَوِي وَإِنْ كَانَ فِي الصُّورَةِ كَثِيرًا ، فَهُوَ لِكَوْنِهِ ذَاهِبًا زَائِلًا يَسِيرًا ، وَلِهَذَا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تَقْلِيلِ عَرَضِ الدُّنْيَا خَيْرِيَّةً مَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ، أَي : مَا عِنْدَهُ مِنَ النَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالعَنَائِمِ وَالرِّزْقِ الوَاسِعِ ، وَمَا عِنْدَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ نَعِيمِ الجَنَّةِ الَّذِي لَا يَزُولُ وَلَا يَنْقُطُ ، هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، ثُمَّ عَلَّلَ التَّهَيُّيَ عَنْ أَنْ يَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أَي : إِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وأَوْفُوا بِالعُهُودِ مَعَ اللَّهِ وَمَعَ النَّاسِ . وَهَذَا أَمْرٌ إلهِيٌّ بِإِيْفَاءِ العَهْدِ وَالتَّامُّنِ بِهِ ، وَعَدَمِ نَقْضِهِ . وَهُوَ عَامٌ فِيْمَا بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ ، وَفِيْمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ . وَالعَهْدُ : كُلُّ مَا عُوِّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَنَهَى عَنْهُ . وَالعَهْدُ : كُلُّ مَا بَيْنَ العِبَادِ مِنَ المَوَائِقِ . أَي : الَّذِي تُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَالعُقُودِ الَّتِي تُعَامِلُونَهُمْ بِهَا . وَالعَبْدُ مَسْئُولٌ عَنِ العَهْدِ ، يَجِبُ أَنْ يُوفِيَ بِهِ ، وَلَا يُضَيِّعُهُ . وَالإِيْفَاءُ بِالعَهْدِ وَالْوَفَاءُ بِهِ هُوَ القِيَامُ بِمُقْتَضَاهُ وَالمُحَافَظَةُ عَلَيْهِ . وَاللَّهُ سَيَسْأَلُ نَاقِضَ العَهْدِ عَنِ فَعْلَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ العَهْدَ يُسْأَلُ تَبَكِّيًّا لِنَاقِضِهِ ، فَيُقَالُ : نَقِضْتَ ، كَمَا تُسْأَلُ المَوْوُودَةُ تَبَكِّيًّا لِوَأْتِئِهَا .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٢٤) : ((قال الزجاج : كُلُّ ما أَمَرَ اللَّهُ به ، وَنَهَى عنه ، فهو مِنَ العَهْد ، فَيَدْخُلُ فِي ذلك ما بَيْنَ العبدِ وَرَبِّه ، وما بَيْنَ العِبَادِ بَعْضُهُمُ البَعْضِ . والوفاءُ بالعَهْدِ هو القيامُ بِحِفْظِهِ على الوَجْهِ الشرعي والقانونِ المَرْضِي ، إلا إذا دَلَّ دليلٌ خاصٌ على جَوَازِ النَّقْضِ ، ﴿ إِنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولًا ﴾ ، أي : مَسْئُولًا عنه ، فالمَسْئُولُ هُنا : هو صاحبه ، وقيل : إِنَّ العَهْدَ يُسألُ تَبَكِّيًّا لِناقضِهِ)) .

وَنَقَضَ العَهْدَ خَصْلَةً مِنَ النِّفاقِ يَبغِي تَجَنُّبُها ، والابتعاد عنها ، فهي تَدُلُّ على نَفْسِيَّةِ مَرِيضَةٍ غارقةٍ في إِثمِها وَسُوءِ طِباعِها . وقد ذَكَرَ النبي ﷺ مِنْ صِفَاتِ المُنَافِقِ : ((إذا عَاهَدَ عَدَرَ))^{١٤٢} . إذا عَاهَدَ عَدَرَ ، أي إِنَّه إذا عَاهَدَ أَحَدًا عَدَرَ به ، وَتَرَكَ الوفاءَ بالعَهْدِ الذي عَاهَدَهُ عليه . وَخِيَانَةُ العَهْدِ مُؤَشِّرٌ على سُوءِ النِّيَّةِ ، وَسُوءِ التَّصَرُّفِ ، وتَدُلُّ على قلبٍ خبيثٍ عامرٍ بِالْحِقْدِ وعدمِ احترامِ المَوثِيقِ . وهذه الصِّفَاتُ لا يُمكنُ أَنْ تَتَوَفَّرَ في المؤمنِ ، لأنَّ المؤمنَ باطنه وظاهره ، كِلاهِما خَيْرٌ ، لا يَتَعَارِضانِ ، ولا يَتَنَاقِضانِ .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (١ / ٤٦٣ و ٤٦٤) : ((قال الحافظ ابن حَجَرٍ : النِّفاقُ لُغَةٌ مُخَالَفَةُ الباطنِ للظاهر ، فَإِنْ كانَ في اعتقادِ الإِيمانِ فهو نِفاقُ الكُفْرِ ، وإِلا نِفاقُ العَمَلِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ الفِعْلُ والتَّركُ ، وتفاوتِ مراتبِهِ (وَإِذا عَاهَدَ عَدَرَ) أي نَقَضَ العَهْدَ)) . وفي الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال : ((... ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رِسالِهِ إِلا سُلِّطَ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأَخَذُوا بَعْضَ ما كانَ في أَيْدِيهِمْ))^{١٤٣} .

إذا أَخَلُّوا بِالْعَهْدِ والمَوثِيقِ التي أَخَذَها اللَّهُ وَرِسالُهُ ﷺ عَلَيْهِمُ ، وَأَلْزَمُوا بالوفاءِ بِها ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، واستولى على أموالِهِمُ ومُمتلكاتِهِمُ وبِلاَدِهِمُ . وقَضِيَةُ " نَقْضِ العَهْدِ الإِلهِيِّ والعَهْدِ النَبَوِيِّ " مِنَ القَضايَا المُدْمِرَةِ التي تُؤَدِّي إِلى انتِكَاسَةِ كُبرى في النُّفُسِ البَشَرِيَّةِ ، وتَكُونُ العُقوبةُ هي تَسَلُّطُ الأعداءِ وَتَكالِبُهُمُ عَلَيْهِمُ ، وَسَيِّطَرَتِهِمُ على مُمتلكاتِهِمُ .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (٣ / ٤٥٢) عن حديثٍ آخَرَ : ((...) ما نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ) أي : ما عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ أَوْ ما عَاهَدُوا عَلَيْهِ قَوْمًا آخَرِينَ (إِلا سُلِّطَ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ) جَزاءً بما اجترحوهُ مِنْ نَقْضِ العَهْدِ المأمورِ بالوفاءِ به)) .

١٤٢ متفق عليه . البخاري (١ / ٢١) برقم (٣٤) ، ومسلم (١ / ٧٨) برقم (٥٨) .

١٤٣ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٥٨٢) برقم (٨٦٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] .
والذين يحفظون أماناتهم ، ويؤدونها إلى أهلها ، ولا يخونون ، ويحرصون على عهودهم
وعقودهم ، ويوفون بها ، ولا ينقضونها . والآية عامة وشاملة لكل الأمانات الدينية والدنيوية .
وهؤلاء المؤمنون الصادقون يحفظون ما ائتمنهم الله عليه من قول وفعل واعتقاد ، ويحفظون
ما ائتمنهم عليه الناس من ودائع وأمانات . ويجب على العبد أداء الأمانات بينه وبين الله ، وهي
العبادات والطاعات ، كالصلاة والصيام ، التي فرضها الله على العبد ، وأوجبها عليه . ويجب على
العبد أيضاً أداء الأمانات بينه وبين الناس ، كرزد الودائع ، والوفاء بوعودهم وعقودهم ،
وعدم خيانتها .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤١٠) : ((يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التي عاقدوا
الناس عليها ، يقومون بالوفاء بها . والأمانات تختلف فتكون بين الله تعالى وبين العبد كالصلاة
والصيام والعبادات التي أوجبها الله عليه ، وتكون بين العبيد كالودائع والصنائع ، فعلى العبد الوفاء
بجميعها)) .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤ / ٣٤١) : ((وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴾ ، جمع الأمانة من حيث إنها متنوعة في الأموال والأسرار ، وفيما بين العبد وربّه فيما أمره
به ، ونهاه عنه . والعهد كل ما تقلده الإنسان من قول أو فعل أو مؤدّة إذا كانت هذه الأشياء على
منهاج الشريعة فهو عهد ينبغي رعيه وحفظه)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٩٩) : ((الأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من
أمر دينه ودنياه قولاً وفعلًا ، وهذا يعمّ معاشرّة الناس ، والمواعيد ، وغير ذلك ، وغاية ذلك حفظه
والقيام به ، والأمانة أعمّ من العهد ، وكلّ عهد فهو أمانة فيما تقدّم فيه قول أو فعل أو معتقد)) .

إنّ المؤمنين الحقيقيين يرُدُّون الأمانات إلى أصحابها ، ويوفون بعهدهم ، مُبتعدين كل البعد
عن الخيانة والعدو ونقض العهد . إنهم يمتازون بالصدق والإخلاص والأمانة في معاملاتهم ،
فيصبحون_ بذلك_ محل ثقة الآخرين، ويفرضون احترامهم على الجميع ، لأن الصفات الأخلاقية
ملتصقة بالجوارح . والناس يحكمون على الإنسان تبعاً لأخلاقه الظاهرة التي لا يمكن إخفاؤها
مهما حاول التكلّف والتصنّع ، وتمثيل دور التقيّ المحسن ، وتقمُّص الصفات الحسنة .

وقد قيل : يُمكن أن تخدع كلّ الناس بعض الوقت ، وبعض الناس كلّ الوقت ، لكنك لن
تستطيع خداع كلّ الناس كلّ الوقت .

وطني الإنسان يظهر في حركاته وسكناته . والطبع غلب التطبع . ومن غير الممكن أن يتصنع الإنسان الصفات الحسنة في كل زمان ومكان ، فلا بد أن يكشف أمره ويتم فضحه _ عاجلاً أو آجلاً _ مهما كان بارعاً في التمثيل والتحايل ، وسوف يسقط قناعه ، ويظهر على حقيقته .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم^{١٤٤}

وينبغي على الإنسان أن يتحلى بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة ، لأنها تعكس شخصيته وخلفيته ، وتساهم في تحسين العلاقات التواصلية بين الناس ، ويبل قبولهم ورضاهم وثقتهم . كما أن الصفات الحميدة مُضادة تماماً لصفات المنافقين . عن أبي هريرة رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان))^{١٤٥} . هذه العلامات الثلاث هي من خصائص المنافقين وصفاتهم . فالكذب في الحديث يؤدي إلى قلب الحق باطلاً ، وتحويل الباطل إلى حق . وهذه الصفة القبيحة لها آثار مُدمرة في النسيج

١٤٤ قائل البيت هو الشاعر زهير بن أبي سلمى . ومعناه : ومهما كان للإنسان من خلق أو صفة أو طبع ، يظن أنه يخفى على الناس ، ولا يعلمونه ، عليم ، وكشيف ، وظاهر . أي إن الأخلاق واضحة لا تخفى ، والتكلف والتصنع والتخلق لا يبقى ولا يدوم .

١٤٥ متفق عليه . البخاري (١ / ٢١) برقم (٣٣) ، ومسلم (١ / ٧٨) برقم (٥٩) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ٤٦ و ٤٧) : ((هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مُشكِلاً من حيث إن هذه الخصال تُوجد في المسلم المُصدّق الذي ليس فيه شك . وقد أجمع العلماء على أن من كان مُصدّقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال ، لا يُحكّم عليه بكفر ، ولا هو مُنافق يخلد في النار ، فإن إخوة يوسف ﷺ جمعوا هذه الخصال ، وكذا وُجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله . وهذا الحديث ليس فيه _ بحمد الله تعالى _ إشكال ، ولكن اختلف العلماء في معناه . فالذي قاله المحققون والأكثر ، وهو الصحيح المختار ، أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ، ومُتخلق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو إظهار ما يُبطن خلافه ، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال ، ويكون نفاقه في حق من حدّته ووعدته وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه مُنافق في الإسلام فيظهره وهو يُبطن الكفر . ولم يُرد النبي ﷺ بهذا أنه مُنافق نفاق الكفار المُخَلدّين في الدرك الأسفل من النار)) .

الاجتماعي لأنها تعمل على تفتيته ، واخلط الأمور بشكل عبثي كارثي يقود إلى تضليل الناس ، وإطلاق الأحكام جزأفاً دون التثبت منها . وهنا تبرز الأوهام في المجتمع ، وتنتشر الإشاعات ، ويسود الشك بين الناس ، ويختفي اليقين في القيل والقال . ولا تحفى الأبعاد الكارثية لهذا الانهيار الاجتماعي المرعب .

ومن صفات المنافقين عدم الوفاء بالوعد، وهذه الصفة القبيحة تُزيل الثقة بين الناس ، فيصبح الجميع خائفين من بعضهم البعض، ولا يتقون بأنفسهم ومجتمعهم . وإذا انتهى التواصل الاجتماعي وتفككت الروابط الإنسانية فعندئذ تتحوّل القيم المجتمعية إلى كوابيس ، ويصبح كل فرد مُتربصاً بالآخر ، ويتحوّل المجتمع الإنساني إلى غابة، لا قانون لها سوى القوة والظلم والحقد والكراهية، والابتزاز ، والاستغلال ، والانتقام .

أما خيانة الأمانة فأية واضحة من آيات المنافق. وإذا عجز المرء عن حفظ الأمانة وتأديتها على أكمل صورة فهذا مؤشر على انهياره ، وسقوطه في مُستقع الابتزاز والغدر ، والاستحواذ على مُمتلكات الآخرين دون وجه حق، فيصبح المجتمع مكاناً للكراهية والحقد والانتقام، وتعم الفوضى، ويَزول التكافل الاجتماعي، فتتمزق الأواصر الإنسانية ، ويتحوّل الفرد إلى خنجر غدر في ظهر أخيه ، ويصير المجتمع جُزراً معزولة . الكلُّ يكره الكلُّ ، ويفقد المجتمع شرعية وجوده بسبب عجزه عن ترك بصمة إيجابية مؤثرة في تاريخ الأخلاق والحضارات، فيزول، ويصبح أثراً أثر عين .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٦٣) : ((آية المنافق) أي علامته (ثلاث) من الخِصال. أخبر عن آية بثلاث باعتبار إرادة الجنس، أي : كل واحد منها ، أو لأن مجموع الثلاث هو الآية. قال ابن حجر: ويرجح الأول رواية أبي عوانة بلفظ: علامات المنافق ثلاث، الأولى (إذا حَدَّثَ كَذَبَ) أي: أخبر بخلاف الواقع (و) الثانية (إذا وَعَدَ) أحداً بخير في المُستقبل (أَخْلَفَ) أي: جعل الوعد خلافًا بأن لا يفي به ، لكن لو كان عازماً على الوفاء فعرض مانع فلا إثم عليه ، ... ، (و) الثالثة (إذا ائْتَمَنَ) بصيغة المجهول ، أي : جعل أميناً ، ... ، (خَانَ) في أمانته ، أي : تصرف فيها على خلاف الشرع ، ونقص ما ائْتَمَنَ عليه ، ولم يؤدّه كما هو ، وصح عطف الوعد على ما قبله ، لأنّ إخلاف الوعد قد يكون بالفعل ، وهو غير الكذب الذي هو لازم التحديث ، فتعائيراً ، أو جعل الوعد حقيقة أخرى خارجة عن التحديث على وجه الادعاء لزيادة قبحه وخص هذه الثلاث لاشتمالها على المُخالفة في القول والفعل والنية التي هي أصول الديانات ، فنبه على فساد القول بالكذب ، وفساد الفعل بالخيانة ، وفساد النية بالخلف ، وليس

يَنْجِه عَلَيْهِ أَنْ يُقَالَ : هَذِهِ الْخِصَالُ قَدْ تُوْجِدُ فِي الْمُسْلِمِ ، وَالْإِجْمَاعُ عَلَى نَفْيِ نِفَاقِهِ الَّذِي يُصَيِّرُهُ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ ، لِأَنَّ اللَّامَ إِنْ كَانَتْ لِلْجِنْسِ فَهِيَ إِمَّا عَلَى مَنْهَجِ التَّشْبِيهِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ صَاحِبَهَا شَبِيهٌ بِالْمُنَافِقِ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِهِ فِي حَقِّ مَنْ حَدَّثَهُ وَوَعَدَهُ وَاتَّعَمَّنَهُ ، أَوْ الْإِنذَارِ وَالتَّخْوِيفِ أَوْ الْإِعْتِيَادِ وَالْإِضْطِرَارِ ، وَمَصِيرِهِ ذَيْدًا وَخُلْفًا ، كَمَا يُؤْذِنُ بِهِ حَذْفُ الْمَفْعُولِ مِنْ حَدَّثَ ، لِذَلَالَتِهِ عَلَى الْعُمُومِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا حَدَّثَ فِي كُلِّ شَيْءٍ كَذَبَ فِيهِ . وَإِنْ كَانَتْ لِلْعَهْدِ فَذَلِكَ فِي مُنَافِقِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ عُمُومًا ، حَدَّثُوا بِإِيمَانِهِمْ فَكَذَّبُوا ، وَوَعَدُوا فِي نَصْرِ الدِّينِ فَأَخْلَفُوا ، وَاتَّعَمَّنُوا فِي الْمَالِ فَخَانُوا ، أَوْ مُنَافِقِ خَاصٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُصْطَفَى ﷺ كَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ ، بَلْ يَسْتُرُ فَيَقُولُ : " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا " ، وَنَحْوَ ذَلِكَ . أَوْ يُقَالَ : التَّفَاقُ صَرْبَانٌ : شَرْعِيٌّ ، وَهُوَ إِبْطَانُ الْكُفْرِ وَإِظْهَارُ الْإِيمَانِ ، وَعُرْفِيٌّ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ سِرُّهُ خِلَافَ عِلَانِيَتِهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا . قَالَ الْكِرْمَانِيُّ وَتَبِعَهُ ابْنُ حَجْرٍ : وَأَحْسَنُ الْأَجْوِبَةِ حَمَلُهُ عَلَى التَّفَاقِ الْعَمَلِيِّ . حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْبَصْرَةِ حَجَّ ، فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ عَطَاءَ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ : مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ لَمْ أَتُحَرِّجْ أَنْ أَقُولَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ . فَقَالَ لَهُ عَطَاءٌ : إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ : عَطَاءُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ لَكَ : مَا تَقُولُ فِي إِخْوَةِ يُوْسُفَ ، إِذْ حَدَّثُوا فَكَذَّبُوا ، وَوَعَدُوا فَأَخْلَفُوا ، وَاتَّعَمَّنُوا فَخَانُوا ، أَكُنَّا مُنَافِقِينَ ؟ فَفَعَلَ ، فَسَرَّ الْحَسَنَ ، وَقَالَ : جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : إِذَا سَمِعْتُمْ مِنِّي حَدِيثًا فَاصْنَعُوا كَمَا صَنَعَ أَحْوَكُم ، حَدَّثُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ ، فَمَا كَانَ صَوَابًا فَحَسَنَ ، وَإِذَا كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَرُدُّوهُ عَلَيَّ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٧] .

أَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَهْدَهُمُ الْمُؤَكَّدَ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِالْحَقِّ ، وَيُقِيمُوا الدِّينَ ، وَيُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ السَّمَاءِ ، وَأَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَخَصَّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ بِالذِّكْرِ ، لِشَرَفِهِمْ وَقَضَائِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ الْعَظِيمَةَ ، وَلِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الشَّرَائِعِ وَالْكَتُبِ ، وَأُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . وَقَدَّمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِي الذِّكْرِ ، مَعَ أَنَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَآخِرِهِمْ زَمَانًا ، لِتَشْرِيفِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَبَيَانِ أَفْضَلِيَّتِهِ ، ثُمَّ رَتَّبَهُمْ بِحَسَبِ وُجُودِهِمْ ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَأَخَذَ اللَّهُ مِنْكَ يَا مُحَمَّدُ الْمِيثَاقَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَهَؤُلَاءِ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَسَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَمَشَاهِيرِهِمْ . وَأَخَذَ اللَّهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَهْدًا وَثِيْقًا عَظِيمًا شَدِيدًا عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا التَّزَمُوا بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ ، وَإِيصَالِ الرِّسَالَةِ إِلَى النَّاسِ .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخَذَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْعَهْدَ أَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحِدَةً فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ ، مُتَنَاصِرِينَ خَاضِعِينَ لِلْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ . وَالْأَنْبِيَاءُ كِيَانٌ وَاحِدٌ لَا يُمَكِّنُ تَفْتِيْتَهُ ، دِينَهُمْ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ ،

وشرائعهم مُتعدّدة ومُختلفة لاختلاف الزمان والمكان وطبيعة الناس . وكُلُّهم جاء بِتوحيد الله تعالى ، وكُلُّهم حَمَلُوا " لا إله إلا الله " ونَشَرُوها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦ / ٣٥٤ و ٣٥٥) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا ﴾ . المعنى : واذكر إذ أخذنا ﴿ مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي : عهدهم . وفيه قولان : أحدهما أَخَذَ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، قاله قنادة . والثاني أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَيَدْعُوا إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَيُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَأَنْ يَنْصَحُوا لِقَوْمِهِمْ ، قاله مُقاتل . وهذا الميثاق أَخَذَ مِنْهُمْ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ظَهْرِ آدَمَ كَالدَّرِّ . قال أَبِي بِن كَعْب : لَمَّا أَخَذَ مِيثَاقَ الْخَلْقِ خَصَّ النَّبِيِّينَ بِمِيثَاقٍ آخَرَ . فَإِنْ قِيلَ : لِمَ خَصَّ الْأَنْبِيَاءَ الْخَمْسَةَ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَى فَضْلِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ ، وَقَدَّمَ نَبِيَّنَا ﷺ بَيِّنًا لِفَضْلِهِ عَلَيْهِمْ . قال قنادة : كَانَ نَبِيَّنَا أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي : شَدِيدًا عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا حُمِّلُوا . وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْعَهْدَ الشَّدِيدَ : الْيَمِينَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)) .

وعن أَبِي بِن كَعْب _ رضي الله عنه _ : أَنَّ آدَمَ ﷺ نَظَرَ إِلَى نَبِيِّهِ ((فَرَأَى فِيهِمُ الْغِنَى وَالْفَقِيرَ ، وَحَسَنَ الصُّورَةَ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ : رَبِّ لَوْ سَوَّيْتَ بَيْنَ عِبَادِكَ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَشْكُرَ . وَرَأَى فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ مِثْلَ الشُّرُجِ ، وَخُصُّوا بِمِيثَاقٍ آخَرَ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمَنْ نُوْحِ ﴾ (الآية ١٤٦) .

هذا الميثاق الغليظ هو العهد الإلهي الذي لا يقبل التلاعب أو التجاوز . والأنبياء الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ ، باعتبارهم سادة البشرية ، هم الأقدر على حمل هذا العهد ، وتنفيذه على أرض الواقع كاملاً ، بلا زيادة ولا نقصان ، ولا إفراط ولا تفريط . والإيمان ليس قضية سهلة ، أو تحصيل حاصل ، إنه قضية مصيرية يتوقف عليها خلود الإنسان في الجنة أو النار .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب : ١٥] .

يجب الوفاء بعهد الله ، لأنَّ العبد مسؤول عنه يوم القيامة ، مُجَازِي عليه . وهذا تهديد أكيد ، ووعيد شديد .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٨٠) : ((﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ ، أي : مَسْئُولًا عنه ، وَمَطْلُوبًا صاحبه بالوفاء به ، وَمُجَازِي على ترك الوفاء به)) .

١٤٦ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٥٣) برقم (٣٢٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] .
 الحِطَابُ للناس كُلِّهِمْ : ألبسوا أجمل ثيابكم وأطهرها، واعتنوا بنظافتكم عند كلِّ صلاة أو طَواف .
 وهذه الآية توضح ضرورة أن يكون المؤمن في أحسن هيئة ، وأن يتزَيَّن بأجمل الثياب عند الصلاة أو الطواف . لذلك ، يُستحب التجمُّل والتزيُّن عند كلِّ صلاة ، خصوصاً صلاة الجمعة ، ويوم العيد ، والتَّطَيُّب ، واستخدام السَّوَاك ، وارتداء أجمل الثياب . وأفضل الثياب البِيَّاضُ .
 ومن السُّنَّة أن يكون الرَّجُل في أحسن هيئة للصلاة ، لأنَّ الصلاة مُنَاجَاةٌ لله تعالى ، فَيُستحب لها التزيُّن والتجمُّل والتعطر ، ويجب التطهُّر وستر العورة . والزينة لها أثرٌ بالغ في بعث الراحة النفسية ، كما أنها تُوفِّر الاستعدادَ الضروري للدخول في العبادة بِكُلِّ ثقة وطمأنينة وراحة .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١٧ / ١) : ((﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ ثِيَابَكُمْ لِمُؤَاوَاةِ عَوْرَتِكُمْ ﴾ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، لِطَوَافٍ أَوْ صَلَاةٍ . ومن السُّنَّة أن يأخذ الرَّجُلُ أحسنَ هيئة للصلاة . وفيه دليل على وُجوب ستر العورة في الصلاة)) .
 وإذا كان المرءُ يتزَيَّن بأبهى حُلَّة حين يذهب لمقابلة مسؤول كبير أو شخصية مهمة ، فما بالك حين يذهب إلى الصلاة ويقف بين يَدَي مَلِكِ المُلُوكِ ؟! . فعليه أن يكون في أجمل صورة وأبهى زينة . وَلِكُلِّ جوهرٍ نقيٍّ مظهرٌ رائعٌ ، كما أن فساد الصورة يُشير إلى فساد المضمون .
 وقال القرطبي في تفسيره (١٦٧ / ٧) : ((﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ هو خِطَابٌ لجميعِ العَالَمِ وإن كان المقصود بها مَنْ كان يَطُوفُ مِنَ العَرَبِ بِالْبَيْتِ عَرَبِيًّا ، فَإِنَّهُ عامٌ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ للصلاة ، لأنَّ العِبْرَةَ للعموم لا للسبب . وَمِنَ العُلَمَاءِ مَنْ أنكر أن يكون المراد به الطواف ، لأنَّ الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد ، والذي يَعُمُّ كُلَّ مَسْجِدٍ هو الصلاة ، وهذا قول مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ مقاصد الشريعة)) .
 والمؤمنُ يَتَزَيَّنُ لِرَبِّهِ تعالى مَلِكِ المُلُوكِ . وقد كان العربُ في الجاهلية يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً ، وهذا مُنافٍ لِلْفِطْرَةِ السَلِيمَةِ ، والأدب مع الله تعالى ، واحترام المساجد ، وستر العورات . ويتعارض بالكُلِّيَّة مع مبادئ الحضارة البشرية ، ومدنية الإنسان ، وسُمُوهُ ، ورُقِيَّتِهِ .
 والغُرِّيُّ إجراء بدائي يتصادم مع نُضوج الفكر البشري ، والتقدم الإنساني . والمؤمنُ ينبغي أن يَأْتِيَ إلى المسجد في أبهى حُلَّة . رائحته طَيِّبَةٌ ، وثيابه نظيفة . فهو كائنٌ مُتَمَيِّزٌ يَسْتَمِدُّ شَرَفَهُ مِنْ شَرَفِ المَكَانِ الذي يتوجه إليه (المسجد) . ولا بد أن يكون في هيئة حسنة ، لأنَّه سيقف بين يَدَي الله تعالى بِكُلِّ انضباط وخشوع . وهذا لا يتأتى إلا إذا جَهَّزَ نَفْسَهُ ظاهراً وباطناً .

وفي صحيح مسلم (٢٣٢٠ / ٤) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال: ((كانت المرأة تطوف بالبيت وهي غريانة ، فتقول: مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوُّافًا ؟ ^{٤٧} ، تجعله على فرجها ، وتقول : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾)) .
وقال الحافظ في الفتح (٤٦٥ / ١) : ((ونقل ابن حزم الاتفاقَ على أن المراد ستر العورة)) .
إنَّ الجاهليَّةَ هي الفترة التي كان الناسُ فيها على الشُّركِ قبل مجيء الإسلام ، وسُمِّيَتْ بها لكثرة جهالاتهم وضلالاتهم ، وقد جاء الإسلامُ باجتماع عادات الجاهليَّة المُنكرة والمخالفة لشرع الله تعالى . ومن تلك العادات المُنكرة أنَّهم كانوا يطوفون عُراءَ ، ويُرْمُونَ ثيابهم ، ويتركونها مُلقاةً على الأرض ، ولا يأخذونها أبدًا ، ويتركونها تُداس بالأرجل .

وكانت المرأة زَمَنَ الجاهليَّة تطوف بالكعبة وهي غريانة ، لَيْسَ عليها ثياب ، فَتَسْأَلُ : مَنْ يُعِيرُنِي تَطَوُّافًا ؟ ، وهو نُوبٌ تلبسه المرأة لتطوف به ، وكانت النساءُ من غير فريش يفعلن ذلك ، ويطلبن من نساء فريش إعطاءهنَّ ثيابًا للطواف فيها . وإذا لم تحصل المرأة على ثوب من نساء فريش ، طافت بالبيت غريانة . وتقول المرأة العارية حال طوافها : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ . والمعنى : إِنِّي لَا أَبْدِي عَوْرَتِي (فَرَجِي) بِقَصْدِ الْفَحْشَاءِ ، وَإِنَّمَا أَبْدِيهِ لِحَاجَةٍ، وهي ألا أطوف بثياب أذنبتُ فيها ، فلا أبيع لأحد أن ينظر إلى فرجي قَصْدًا أو يتمتع بها .
فأنزل الله قوله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، والمراد بذلك : أن يستروا عوراتهم عند المساجد ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الطَّوَّافُ وَالصَّلَاةُ وَالاعْتِكَافُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ سِتْرِ الْعَوْرَةِ فِي الطَّوَّافِ .

إنَّ أهل الجاهليَّة كانوا يَرْتَعُونَ في مآزق العُرْيِ وكشف العورات، خصوصًا في البيت الحرام . وهذا يدلُّ على جهلهم بالله تعالى، وفساد عقائدهم المُختلطة بالهوى والجهل والكفر، فأراد الله تعالى أن يُرشدهم إلى الأخلاق الرفيعة ، وستر العورات ، والالتزام بالهيئة الحسنة البعيدة كُلُّ البعد عن العُرْيِ ، والانحرافِ الأخلاقي .

١٤٧ قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨ / ١٦٢ و ١٦٣) : ((وهو نُوبٌ تلبسه المرأة تطوف به . وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراءَ ، ويُرْمُونَ ثيابهم، ويتركونها مُلقاةً على الأرض ، ولا يأخذونها أبدًا ، ويتركونها تُداس بالأرجل ، حتى تَبْلَى ، ويُسَمَّى اللقاء ، حتى جاء الإسلامُ ، فأمر الله تعالى بِسِتْرِ الْعَوْرَةِ ، فقال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾)) .

والحرصُ على الزينة عند الصلاة والطَّوافِ من شأنه أن يرتقيَ بإنسانية الإنسان، وينتشلها من مُستنقع الرذيلة والتَّعَرِّي . لقد نزلت الآيةُ في الذين كانوا يطوفون بالكعبةِ عُراءَ . والآيةُ دليلٌ واضح على وجوب ستر العورة في الصلاة ، فيجب على الناس ستر عوراتهم عند الصَّلاة والطَّوافِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧ / ١٦٧) : ((دَلَّت الآية على وجوب ستر العورة . وذهب جمهور أهل العلم إلى أنها فرض من فروض الصلاة . وقال الأبهري : هي فرض في الجملة ، وعلى الإنسان أن يسترها عن أعين الناس في الصلاة وغيرها)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٨٦ و ١٨٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ سبب نزولها أن ناسًا من الأعراب كانوا يطوفون بالبيت عُراءَ ، الرجال بالنهار، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تُعلّق على فَرْجها سُيُورًا (قطعة جلدية) ، وتقول : اليوم يبدو بعضه أو كُله ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه . فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : كانوا إذا حَجُّوا فأفاضوا من مِيٍّ ، لا يصلح لأحد منهم في دينه الذي اشترعوا أن يطوف في ثوبه فيلقيهما ، حتى يقضي طَوافه ، فنزلت هذه الآية . وقال الزُّهري : كانت العرب تطوف بالبيت عُراءَ إلا الخمس فريش وأحلافها ، فَمَن جاء من غيرهم وضع ثيابه ، وطاف في ثوبيِ أحمس ، فإن لم يجد من يُعيره من الخمس ألقى ثيابه وطاف عُريانا ، فإن طاف في ثياب نفسه جعلها حراما عليه إذا قضى الطواف ، فلذلك جاءت هذه الآية . وفي هذه الزينة قولان : أحدهما أنها الثياب ، ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه ورد في ستر العورة في الطَّواف ، قاله ابن عباس والحسن في جماعة ، والثاني أنه ورد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد والرحاج . والثالث أنه ورد في التزيين بأجمل الثياب في الجُمع والأعياد ، ذكره الماوردي . والثاني أن المراد بالزينة المُشط ، قاله أبو زرّين)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] .

يُخْرِجُونَ مِنَ الْإِحْرَامِ ، بِإِزَالَةِ وَسَخِهِمْ ، وَتَنْظِيفِ أَنْفُسِهِمْ ، وَذَلِكَ بِحَلْقِ الرَّأْسِ ، وَقَصِّ الشَّارِبِ وَالْأظْفَارِ ، وَتَنْفِيفِ الْإِنْطِ ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ ، وَارْتِدَاءِ الثَّوْبِ . وهذا يدلُّ على اعتناء الإسلام بالصِّحة والنِّظَافة والجَمَالِ . وَلِيُوفُوا مَا أَوْجَبَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ طَاعَةً لِلَّهِ مِنَ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ، وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ . وَلِيَطَّوَّفُوا حَوْلَ الْكَعْبَةِ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ، وَهُوَ مِنْ أَرْكَانِ الْحَجِّ ، وَيَكُونُ بِهَذَا الطَّوَافِ تَمَامَ التَّحَلُّلِ . وَالْبَيْتُ الْعَتِيقُ : الْقَدِيمُ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَوْ : لِأَنَّ اللَّهَ أَعْتَقَهُ مِنَ تَسَلُّطِ الْجَبَابِرَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . أَمَّا الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ التَّقْفِي فَإِنَّمَا قَصَدَ إِلَى إِخْرَاجِ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَلَمْ يَتَسَلَّطْ عَلَى الْكَعْبَةِ الْمُشْرِفَةَ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٨٠): ((**﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾** ، التَّفَثُ : الوَسْخ والقَدَارَة ، من طُول الشَّعْر والأظفار والشَّعَث ، تقول العرب لِمَنْ تَسْتَقْدِرُه : ما أَتَفَثَكَ ، أي : أوسخَكَ . والحاجُّ أشعث أغبر ، لم يَحْلِقْ شَعْرَه ، ولم يَقْلَمْ ظَفْرَه ، فقضاء التَّفَثُ : إزالة هذه الأشياء . **﴿ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾** ، أي : ليزيلوا أدرانهم ، والمُرَاد مِنْهُ الخُرُوج عن الإحرام بالحلق ، وقَص الشارب ، وتَنَفُّ الإبط ، والاستحداد ، وقَلَم الأظفار ، ولُبَس الثَّيَاب قوله تعالى : **﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾** ، قال مُجاهد : أرادَ نَذَرَ الحَجِّ والهِدْي ، وما يَنْذِرُ الإنسانُ مِنْ شيءٍ يكونُ في الحَجِّ ، أي : لِيَتِمُّوا بِقَضَائِهَا . وقيل : المُرَاد مِنْهُ الوَفَاء بما نذر على ظاهره . وقيل : أراد به الخُرُوجَ عَمَّا وَجَبَ عَلَيْهِ ، نَذَرَ أو لم يَنْذِر . والعرب تقول لِكُلِّ مَنْ خَرَجَ عن الواجبِ عَلَيْهِ : وَفَى بِنَذْرِهِ **﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾** ، أراد به الطَّوْفَ الواجبَ عَلَيْهِ ، وهو طَوَافُ الإفاضة يَوْمَ النَّحْرِ بَعْدَ الرَّمْيِ والحَلْق)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٤٢٦ و ٤٢٧): ((قوله تعالى : **﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ﴾** فيه أربعة أقوال . أحدها : حَلَقُ الرَّأْس ، وأخذ الشارب ، وتَنَفُّ الإبط ، وحَلَقُ العانة ، وقَص الأظفار ، والأخذ مِنَ العَارِضِينَ (عَارِضِي لِحَيْتِهِ) ، وَرَمْيِ الحِمَار ، والوُقُوفُ بِعَرَفَةَ ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثاني : مَنَاسِكَ الحَجِّ ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول ابن عُمر . والثالث : حَلَقُ الرَّأْس ، قاله مُجاهد . والرَّابِعُ : الشَّعْر ، والظَّفَر ، قاله عكرمة . والقول الأوَّلُ أصح ، لأنَّ التَّفَثُ : الوَسْخ ، والقَدَارَة مِنْ طُول الشَّعْر والأظفار والشَّعَث . وقضاؤه : نَقْضُه وإذها به . والحاجُّ مُعَبَّرٌ شَعِثَ لَمْ يَدَّهِن ، ولم يَسْتَحِدِّ ، فإذا قَضَى نُسْكَه ، وَخَرَجَ مِنْ إِحْرَامِهِ بالحلق ، والقَلَم ، وقَص الأظفار ، ولُبَس الثَّيَاب ، ونَحْو ذلك ، فهذا قِضَاءُ تَفَثِهِ . قال الرَّجَّاجُ : وأهل اللغة لا يَعْرِفُونَ التَّفَثَ إلا مِنَ التَّفْسِيرِ ، وكأنه الخُرُوجُ مِنَ الإحرامِ إلى الإحلال . قوله تعالى : **﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾** قال ابن عباس : هُوَ نَحْر ما نذروا مِنَ البُدن . وقال غَيْرُهُ : ما نذروا مِنْ أعمالِ البِرِّ في أَيَّامِ الحَجِّ ، فإنَّ الإنسانَ رُبَّمَا نَذَرَ أن يتصدَّقَ إن رَزَقَهُ اللهُ رُوبِيَةَ الكَعْبَةِ ، وقد يكونُ عليه نُذُورٌ مُطْلَقَةٌ ، فالأفضلُ أن يُؤدِّيَهَا بِمَكَّةَ . قوله تعالى : **﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾** ، هذا هو الطَّوْفُ الواجب ، لأنَّه أَمْرٌ به بعد الذَّبْحِ ، والذَّبْحُ إنَّما يكونُ في يومِ النَّحْرِ ، فدلَّ على أنَّه الطَّوْفُ المَفْرُوضُ . وفي تسمية البَيْتِ عَتِيقًا أربعة أقوال . أحدها : لأنَّ اللهَ تعالى أعتقه مِنَ الجَبَابرة . روى عبد الله ابن الرُّبَيْرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : " إنَّما سَمَى اللهُ البَيْتَ : العَتِيقَ ، لأنَّ اللهَ أعتقه مِنَ الجَبَابرة ، فلم يَظْهَرْ عَلَيْهِ جَبَّارٌ قَط " . وهذا قولُ مُجاهدٍ وقنادة . والثاني : أنَّ مَعْنَى العَتِيقِ : القديم ، قاله الحَسَنُ ،

وابن زيد . والثالث : لأنه لم يُملَك قط ، قاله مُجاهد في رواية وسُفيان بن عُيينة . والرابع : لأنه أُعْتِقَ مِنَ الْعَرَقِ زَمَانَ الطُّوفَانِ ، قاله ابن السائب)) .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المُنَدَّرُ : ٤] .

هذا الأمرُ الإلهيُّ يُشيرُ إلى أهمية الطهارة ، سواءً كان المقصود بالآية الطهارة الماديّة ، وهي تطهير الثياب مِنَ النَّجَاسَاتِ التي قد تَلْحَقُ بها ، أو الطهارة المعنوية ، كتطهير القلب أو الجِسم . وتقديم المفعول لإفادة الاختصاص . وفي الآية دليل على وجوب طهارة الثياب في الصلاة .
والمعنى اللغوي الظاهر من الآية هو تطهير الثياب الملبوسة . والأصلُ حَمَلُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى الْمَعْنَى الظاهر ، ولا يتم اللجوء إلى المَجَازِ إلا في حال ظُهور قَرِينَةٍ . وقال الشَّوكَانِي في فتح القدير (٥ / ٤٥٤) : ((﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، المُرادُ بها الثَّيَابُ الْمَلْبُوسَةُ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْنَى اللغوي . أمره اللهُ _ سُبْحَانَهُ _ بتطهير ثيابه ، وحفظها عن النَّجَاسَاتِ ، وإزالة ما وقع فيها مِنْهَا)) .
وِثْيَابِكَ فَطَهَّرَهَا يَا مُحَمَّدٌ مِنَ النَّجَاسَاتِ وَالْقَاذورات ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ نَظِيفٌ طَيِّبٌ طَاهِرٌ ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَحْمِلَ الْأوساخ . وقد كان المُشْرِكُونَ لَا يَتَطَهَّرُونَ ، فَأَمَرَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَتَطَهَّرَ ، وَأَنْ يُطَهِّرَ ثِيَابَهُ . وَهُنَاكَ عُلَمَاءُ فَسَّرُوا " الثَّيَابَ " فِي الْآيَةِ بِالْقَلْبِ ، وَالْمَعْنَى : وَقَلْبِكَ فَطَهِّرْ مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَعَاصِي ، أَوْ : لَا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ، وَلَا عَلَى عَدْرٍ ، فَإِنَّ الْعَادِرَ وَالْفَاجِرَ يُسَمَّى ذَنَسَ الثَّيَابِ .
وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ : _ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، قال : ((مِنَ الْإِثْمِ))^{١٤٨} .
والعربُ تقول : فُلَانٌ طَاهِرُ الثَّيَابِ أَوْ نَقِيُّ الثَّيَابِ ، يُرِيدُونَ وَصْفَهُ بِالنَّقَاءِ مِنَ الْعُيُوبِ وَالصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ ، وَتَقُولُ : فُلَانٌ ذَنَسَ الثَّيَابَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ ، وَالسَّبَبُ فِي حُسْنِ هَذِهِ الْكِنَايَةِ أَنَّ الثُّوبَ كَالشَّيْءِ الْمَلْزَمِ لِلْإِنْسَانِ ، فَلِهَذَا السَّبَبِ جَعَلُوا الثُّوبَ كِنَايَةً عَنِ الْإِنْسَانِ .
وَمَنْ فَسَّرَ " الثَّيَابَ " فِي الْآيَةِ بِالْقَلْبِ ، اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسَلِّيْ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
أَوْ يَقُولُ عَنْتَرَةَ :

فَشَكَّكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٤٠٠) : ((﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فيه ثمانية أقوال :
أحدها لا تلبسها على معصية ولا على عذر . قال غيلان بن سلمة الثَّقَفِيُّ : وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تُوبَ

١٤٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٥٠) برقم (٣٨٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فَاجِرٍ ... لَبِسْتُ وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ . روى هذا المعنى عكرمة عن ابن عباس . والثاني لا تَكُنْ ثِيَابَكَ مِنْ مَكْسَبِ غَيْرِ طَاهِرٍ ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا . والثالث طَهَّرْ نَفْسَكَ مِنَ الذَّنْبِ ، قاله مُجَاهِدٌ وَقِنَادَةُ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ عَنْتَرَةَ : فَشَكَكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ ... لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمٍ ، أَي : نَفْسَهُ ، وَهَذَا مَذْهَبُ ابْنِ قُتَيْبَةَ ، قَالَ : الْمَعْنَى : طَهَّرْ نَفْسَكَ مِنَ الذُّنُوبِ ، فَكُنِّي عَنْ الْجِسْمِ بِالثِّيَابِ ، لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ، قَالَتْ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ وَذَكَرَتْ إِبِلًا : رَمَوْهَا بِأَثْوَابِ خِفَافٍ فَلَا تَرَى... لَهَا شَيْبًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُتَنَفِّرًا ، أَي : رَكِبُوهَا فَرَمَوْهَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْعَفَافِ : إِزَارٌ ، لِأَنَّ الْعَفِيفَ كَأَنَّهُ اسْتَتَرَ لَمَّا عَفَى . وَالرَّابِعُ وَعَمَلُكَ فَاصْلِحْ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ . وَالْخَامِسُ خُلِّقَ فَحَسِّنْ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَالْقُرْظِيُّ . وَالسَّادِسُ وَثِيَابَكَ فَقَصِّرْ وَشَمِّرْ ، قَالَهُ طَاوُوسٌ . وَالسَّابِعُ قَلْبَكَ فَطَهِّرْ ، قَالَهُ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ : فَإِنْ يَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ ... فَسَلِّيْ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ ، أَي : قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ . وَالثَّامِنُ اغْسِلْ ثِيَابَكَ بِالْمَاءِ وَنَقِّهَا ، قَالَهُ ابْنُ سِيرِينَ وَابْنُ زَيْدٍ . وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ ، قَالَ فِي حَدِيثِهِ : ((بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِجَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ ، فَقُلْتُ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي)) ، فَذَثَرُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ] ١٤٩ .

الْمَلَكُ هُوَ جِبْرِيلُ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ ، وَهُوَ عَظِيمُ الْخَلْقَةِ ، ذُو هَيْبَةٍ تَخْلَعُ الْقُلُوبَ . وَعِنْدَمَا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أُصِيبَ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ ، وَفَزِعَ رَهِيْبٌ ، فَرَجَعَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : لُفُونِي فِي ثِيَابِي وَعَظُّونِي حَتَّى يَهْدَأَ وَيَذْهَبَ عَنْهُ الْخَوْفُ ، فَقامُوا بِتَغْطِيَتِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ .

أَمَرَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ بِالطَّهَارَةِ الْحَسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ . وَهَذَا الْأَمْرُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْأُمَّةِ . وَهَنَا تَنْجَلِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الَّذِينَ أَرَادَهُمْ أَنْقِيَاءَ أَصْفِيَاءَ بِلَا شَوَائِبَ ، يَدْخُلُونَ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ وَفَقَّ أَحْسَنَ صُورَةٍ ، قَلْبًا وَقَالِبًا . وَالطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَا مَكَانَ فِيهِ لِلنَّجَاسَاتِ وَالشَّوَائِبِ ، فَهُوَ طَرِيقُ نُورَانِي مُتَمَلِّئٌ بِالطَّهَارَةِ وَالتَّطَهُّرِ وَالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ . وَمَنْ اخْتَارَ أَنْ يَمْشِيَ فِيهِ ، عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ طَاهِرَ السَّرِيرَةِ ، وَطَاهِرَ الْبَدَنِ . يُهَاجِرُ إِلَى خَالِقِهِ تَعَالَى فِي أَحْسَنِ شَكْلِ وَصُورَةٍ ، وَأَنْقَى جَوْهَرٍ . ظَاهِرُهُ نَظِيفٌ وَطَاهِرٌ ، وَبَاطِنُهُ نَظِيفٌ وَطَاهِرٌ ، بِلَا تَعَارُضٍ وَلَا تَنَاقُضٍ . وَهَذِهِ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَهْوِزِيَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ .

١٤٩ متفق عليه . واللفظ للبخاري (٤ / ١٨٩٥) برقم (٤٦٧١) . ومسلم (١ / ١٤٣) برقم (١٦١) .

الفصل الثاني الأخلاق الذميمة

تمهيد

يتحدث هذا الفصل عن الأخلاق الذميمة ، ويبيّن خطورتها على الفرد والجماعة والمجتمع . ويحذّر من مساوئ الأخلاق ، والاعتماد على الرأي بلا مشورة ولا دراسة ولا تخطيط ، والفُضُول ، والاختيال والعُجب، والتكبر، والغرور . وهذه الصفات السيئة هي سبب العداوة والبغضاء والتزاعات. ويجب أن تكون حياة الفرد قائمة على الاتزان والموازنة بين القول والفعل ، فلا يحدث تناقض بينهما ، والابتعاد عن الجهر بالقول السيئ ، والامتناع عن التلقظ بالكلام القبيح ، ورفض اتباع الشهوات .

ومن الأخلاق الذميمة الكذب وسوء الظن والتجسس والغيبة والنميمة ، وهذه تؤدي تحطيم الفرد، وتمزيق المجتمع. كما أنّ الاستهزاء والسخرية والتنازع بالألقاب لها وقع سيئ ، وتأثير سلبي. والافتراء على الله ورسوله من أعظم الكبائر ، ويجب الابتعاد عنه ، وعدم الاقتراب منه . والغضب يُخرج الفرد عن طوره ، كما أنّ الأسى والحسرة على الماضي يُمزقان قلب الفرد ، وينزعان السعادة من حياته. والغيرة والجبن والبخل من الأخلاق التي ينفّر منها الناس، ويهزبون من أصحابها . والطمع والإسراف والتبذير والبطر والاستكبار والبغي من أخطر العوامل التي تنشر الفساد والإفساد في الأرض .

ولا يمكن تجاهل خطورة الخيانة ، فهي تُدمر الأحلام الفردية ، وتَقْضي على الطموحات الجماعية . كما أنّ نقض العهد من شأنه تفريق الناس ، وتشتيت كلمتهم . والغش والمكر يجعلان حياة الناس جحيمًا لا يُطاق ، بلا حاضر مُشرق ، ولا أمل في مُستقبل باهر . والرياء هو الشرك الأصغر ، والغل يُحرق القلب والنفس ، والحسد يأكل الحسنات كما تاكل النار الحطب ، وينشر الحقد بين الناس ، ويجعل الكراهية مُسيطرًا على حياتهم ومشاعرهم . وعلى الفرد أن يوصل الخير إلى جميع الناس ، ولا يمنع عنهم ، وهذا يؤدي إلى المحبة والوئام . والبغض يُفسد العلاقات الاجتماعية ، والغفلة تقود الفرد والجماعة إلى الانهيار ، وقساوة القلب تمنعه من استقبال الحق والهدى . والفجور والفسق والعلاقات الجنسية المحرمة من أسوأ الصفات التي تؤدي إلى حدوث فتنة في المجتمع ، ونشر الفواحش ، وإضعاف جبهته الداخلية، وجعله فريسة سهلة للأعداء ، كما تنشر الأمراض المعنوية والمادية بين الأفراد ، فيتساقطون بلا مُقاومة. وإذا سقط الأفراد سقطت الأسرة ، وإذا سقطت الأسرة سقط المجتمع ، وضاع إلى الأبد.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].
مَنْ يَفْعَلِ الشَّرَّ ، وَيَرْتَكِبِ الذَّنْبَ ، وَيَقْتَرِفِ الْإِثْمَ ، يُعَاقَبُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، وَلَا يَجِدُ أَحَدًا
يَحْمِيهِ مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ أَوْ يَحْفَظُهُ مِنْ عَذَابِهِ .

وَقَالَ الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٧٨٢) : ((قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ ، قِيلَ :
الْمُرَادُ بِالسُّوءِ الشَّرُّ ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ مَنْ عَمِلَ سُوءًا ، أَيْ سُوءَ كَانَ ، فَهُوَ
مَجْزِيٌّ بِهِ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ . وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا تَرَجُّفُ لَهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْوَعِيدِ
الشَّدِيدِ . وَقَدْ كَانَ لَهَا فِي صُدُورِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ نَزْوْلِهَا مَوْقِعٌ عَظِيمٌ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَجِدُ لَهُ ﴾
قَرَأَهُ الْجَمَاعَةُ بِالْجَزْمِ عَطْفًا عَلَى الْجَزَاءِ ، وَرَوَى ابْنُ بَكَّارٍ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ : " وَلَا يَجِدُ " بِالرَّفْعِ
اسْتِثْنَاءً ، أَيْ : لَيْسَ لِمَنْ يَعْمَلُ السُّوءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يُؤَالِيهِ ، وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُ)) .

إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ كِلَاهُمَا مَجْزِيٌّ بِعَمَلِهِ السُّوءِ _ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا _ ، وَمُجَازَاةُ الْكَافِرِ هِيَ
النَّارُ ، أَمَّا مُجَازَاةُ الْمُؤْمِنِ فَهِيَ مَصَائِبُ الدُّنْيَا مِثْلُ الْأَمْرَاضِ وَالشَّدَائِدِ .
وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ طَاهِرًا مُطَهَّرًا .
وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي يَأْتِي بِأَعْمَالِ سَيِّئَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، هُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَذَّبَهُ ،
وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَانَتْ شَدِيدَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِمَا فِيهَا مِنَ الْوَعِيدِ الْعَظِيمِ ، فَقَدْ أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ سَيُجَازَوْنَ
بِكُلِّ أَمْرٍ ، صَغِيرًا كَانَ أَمْ كَبِيرًا . وَبِالتَّالِي ، فَالتَّجَاةُ صَعْبَةٌ لِلْغَايَةِ ، وَالهَلَاكُ يَنْتَظِرُهُمْ . وَكَمَا قِيلَ :
لَيْسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ، بَلِ الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ١٩٩٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾
بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((قَارِنُوا وَسَدِّدُوا ، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ
الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ ، حَتَّى التَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا ، أَوْ الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا)) .

إِنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَطِيفٌ بِهِمْ ، يَرْحَمُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ
بِالْمُؤْمِنِينَ الْمُذْنِبِينَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ بَعْضَ مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي الدُّنْيَا .
وَعِنْدَمَا نَزَلَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ ، بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَمْرًا بَالِغَ
الشَّدَةِ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَلَى جِزَاءِ عَمَلِ السُّوءِ الَّذِي لَا يَخْلُو أَحَدٌ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ ، فَإِنَّ

الآية تنوعد كل من عمل سوءًا كبيرًا أو صغيرًا بالمجازاة عليه ، وفهموا أن ذلك لا يُغفر ، وهذا أمر عظيم ، فلما رأى النبي ﷺ خوفهم سكنهم ، وأرشدهم ، وبشرهم .

قارنوا : اقصِدوا أقرب الأمور فيما تُعبِدتم به ، ولا تغلوا ، ولا تُقصِّروا ، فخير الأمور الوسط ، وسدِّدوا : اقصِدوا الصواب والسداد في كل أمر ، ولا تتعمقوا ، فإنه لن يُشاد أحدكم هذا الدين إلا غلبه ، بل استبشروا بلطف الله تعالى ، فالمسلم إن حدثت له مُصيبة ، وصبر عليها ، فإن الله يُكفر بها ذنبًا من ذنوبه . حتى الشوكة إذا جرحَت المسلم ، فصبر على أذاها ووجعها احتسابًا لله تعالى دون تسخط ولا شكوى لأحد ، فإنها تكون كفارة له من الذنوب ، والله يُكفر بها من خطايا العبد تفضلاً وتكرماً منه على عبده المسلم . وهذا الأمر يدل على رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم ، وإحسانه إليهم . وهذا الحديث يُشير إلى فضيلة من فضائل الأمة المُحمَّدية الإسلامية ، وفيه تسلية بالغة وإعلام بأنه لا يُصيب العبد شيء إلا كفر الله عنه من خطاياها .

ومن حوسب في الدنيا ، خف عنه الحساب في الآخرة . وكلما ازدادت المصائب على الإنسان ، وصبر عليها ابتغاء وجه الله تعالى ، فإنه سيخرج من الدنيا نقيًا نظيفًا طاهرًا مُطهَّرًا ، لا ذنب عليه ، ولا إثم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٠) : ((قوله ﷺ : " قارنوا " ، أي : اقتصِدوا ، فلا تغلوا ، ولا تُقصِّروا ، بل تَوَسَّطوا ، " وسدِّدوا " أي : اقصِدوا السداد ، وهو الصواب . قوله ﷺ : " حتى النكبة يُنكبها " ، وهي مثل العثرة يَعثرها برجله ، وربما جرحت إصبعه ، وأصل النكب : الكب والقلب)) .

وقال الحافظ في الفتح (١ / ٩٥) عن رواية أخرى : ((قوله : " فسدِّدوا " أي : الرِّموا السداد ، وهو الصواب ، من غير إفراط ، ولا تفريط . قال أهل اللغة : السداد التوسط في العمل . قوله : " وقارنوا " ، أي إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل ، فاعملوا بما يُقرب منه)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٤٦٨) : ((قارنوا) أي اقصِدوا أقرب الأمور فيما تُعبِدتم به ولا تغلوا فيه ، ولا تُقصِّروا . وقيل : هو من قولهم : قارنت الرجل لاطفته بكلام حسن لطيف (وسدِّدوا) اقصِدوا السداد في كل أمر (ففي كل ما يُصاب به المسلم كفارة حتى النكبة يُنكبها أو الشوكة يُشاكها) قال العزالي : ولذلك سأل زيد بن ثابت ربه أن لا يزال محمومًا ، فلم يزل محمومًا ، ولم تُفارقهُ الحُمى حتى مات ، وكان في الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام : لا يكون عالمًا من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض عليه لما يرجوه من ذلك من كفارة خطاياها)) .

وعن أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ قال: قلت: يا رسول الله ، كيف الصلح بعد هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ؟ ، فكلُّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ. قال: ((غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أبا بكر ، _ قاله ثلاثاً _ ، يا أبا بكر ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ ؟ ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ ؟ ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟ ، أَلَسْتَ تُصَيِّبُكَ (الأولاء ؟))) ، قلتُ : نعم ، قال : ((فَهُوَ مَا تُجْزُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا)) ١٥٠ .

كيف صلح الآخرة والنجاة من عذابها ، أو : كيف صلح الدنيا على وجه يُؤدِّي إلى نجاة الآخرة ، أو كيف يتصف الإنسان بالصلاح ، بعد نزول قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ !؟ . ما من ذنب يفعلُه الإنسان إلا ويُحاسبه به الله عزَّ وجلَّ ، والخشية هنا من أبي بكر إنما هي من عذاب الآخرة الذي سيجتمع على المسلم بما كسب من السيئات. ولو أن كلَّ ذنب أخذنا الله به ، فكيف النجاة من عذاب الله عزَّ وجلَّ ؟ .

وقد وضَّح النبي ﷺ تفاصيل الموضوع. "أَلَسْتَ تَمْرُضُ ؟" فتصيبك الأوجاع والآلام ، " أَلَسْتَ تَحْزَنُ ؟" من الحزن وهو الذي يُصاحب المصائب ، " أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟" والنصب هو التعب والمشقة ، " أَلَسْتَ تُصَيِّبُكَ (الأولاء ؟)" وهي الشدة وضيق المعيشة . وقال أبو بكر إنه يُصيبه كلُّ هذه الأمور ، " فَهُوَ مَا تُجْزُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا " ، أي : إنَّ المسلم يُجَارَى بأعماله السيئة في الدنيا بالمصائب والكوارث ، حتى يخرج من الدنيا طاهرًا من الذنوب . والابتلاء في الدنيا يُكفِّر ذنوب المسلم ، ويحفظ له آخرته .

وقيل : إنها آية عامَّة للمسلم والكافر ، فَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، سواء كان مُسْلِمًا أم كافرًا . وقيل: هي عامَّة في حق المسلمين ، فكلُّ مَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، إلا أن يتوب قبل أن يموت . وقيل: هي في حق الكفار خاصةً بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ، وهذا هو الكافر ، وأما المؤمن فله وليٌّ ونصير .

إنَّ المسلم يُجَارَى بمعاصيه وأعماله السيئة في الدنيا بالمصائب والكوارث والشدائد ، حتى يخرج من الدنيا طاهرًا من الذنوب والآثام . والدنيا سجنُ الدنيا ، وهي مرحلة الامتحانات . والابتلاء الإلهي للمسلم في الدنيا ، يُكفِّر ذنوبه ، ويمحو خطاياها ، ويحفظ له آخرته . ولا ينال المسلم شيء يُؤلمه ، إلا كفر الله به عنه من ذنوبه وآثامه . وفي هذا الحديث تسليَّة بالغة وإعلامٌ بأنه لا ينال العبد شيءٌ إلا كفر الله به عنه من خطاياها .

١٥٠ رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٧٨) برقم (٤٤٥٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

قُلْ يَا مُحَمَّد : لا يتساوى الخبيث والطيب . وهذا حُكْم عام في نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ عِنْدَ اللَّهِ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَالْمُطِيعِ وَالْعَاصِي ، وَالجَيِّدِ وَالرَّدِيءِ . وَالخبيث والطيبُ عَامَّانِ وَشَامِلَانِ ، وَيَتَدْرَجُ تَحْتَهُمَا حَلَالُ الْمَالِ وَحَرَامُهُ ، وَصَالِحُ الْعَمَلِ وَفَاسِدُهُ ، وَجَيِّدُ النَّاسِ وَرَدِيئُهُمْ ، وَصَحِيحُ الْعُقَايِدِ وَفَاسِدُهَا ^{١٥١} . وَلَوْ أَعْجَبَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ كَثْرَةُ الْمَالِ وَزِينَةُ الدُّنْيَا ، فَالْعِبْرَةُ بِالْجُودَةِ وَالرِّدَاةُ دُونَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ، وَالْقَلِيلُ الْجَيِّدُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَثِيرِ الرَّدِيءِ . فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ بِامْتِنَالِ أَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، وَابْتِعَادُوا عَنِ الْحَرَامِ ، وَاتَّقُوا بِالْحَلَالِ ، كَيْ تُفْلِحُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَتَفُوزُوا بِرِضَا اللَّهِ وَنَعِيمِ الْجَنَّةِ الدَّائِمِ .

وقال الطبري في تفسيره (٨٠ / ٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : قُلْ يَا مُحَمَّد : لا يعتدل الرديء والجيد ، والصالح والطالح ، والمطيع والعاصي ، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ ، يقول : لا يعتدل العاصي والمطيع لله عند الله ، وَلَوْ كَثُرَ أَهْلُ الْمَعَاصِي فَعَجِبْتَ مِنْ كَثْرَتِهِمْ ، لِأَنَّ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِثَوَابِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ قَلُّوا دُونَ أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّ أَهْلَ مَعَاصِيهِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ الْخَائِبُونَ وَإِنْ كَثُرُوا . يقول تعالى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ : فَلَا تَعْجَبَنَّ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ يَعْصِي اللَّهَ فَيَمُوتُ ، وَلَا يُعَاجِلْهُ بِالْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ لِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ عِنْدَهُ دُونَهُمْ وهذا الكلام وإن كان مَخْرُجُهُ مَخْرَجَ الْخَطَابِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَالْمُرَادُ بِهِ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَاتَّقُوا اللَّهَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمْرَكُمْ وَنَهْيَكُمْ ، وَاحذروا أَنْ يَسْتَحُوذَ عَلَيْكُمْ الشَّيْطَانُ بِإِعْجَابِكُمْ كَثْرَةَ الْخَبِيثِ ، فَتَصِيرُوا مِنْهُمْ ، ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يعني بذلك أهل العقول والحجى الذين عَقَلُوا عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ ،

١٥١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٣٢ و ٤٣٣): ((قوله تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ . روى جابر بن عبد الله أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ الْخَمْرَ كَانَتْ تَجَارِي ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي ذَلِكَ الْمَالُ إِنْ عَمِلْتُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ " ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصَدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَفِي الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ . وَالثَّانِي الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ ، قَالَهُ السُّنْدِيُّ . وَالثَّلَاثُ الْمَطِيعُ وَالْعَاصِي . وَالرَّابِعُ الرَّدِيءُ وَالْجَيِّدُ ، ذَكَرَهُمَا الْمَاورِدِيُّ . وَمَعْنَى الْإِعْجَابِ هَاهُنَا السُّرُورُ بِمَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ)) .

وَعَرَفُوا مَوَاقِعَ حُجَجِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، يقول : اتَّقُوا اللَّهَ لِنُفْلِِحُوا ، أي : كي تَنَجِّحُوا في طَلَبِكُمْ ما عِنْدَهُ)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣٠٤) : ((قال الحَسَنُ : " الخَيْبُ والطَّيْبُ " : الحلال والحرام ، وقال السُّدي : المؤمن والكافر ، وقيل : المُطيع والعاصي ، وقيل : الرَّدِيءُ والجيد . وهذا على ضَرْبِ المِثَالِ . والصَّحِيحُ أنَّ اللفظَ عام في جميع الأُمُور ، يُتَصَوَّرُ في المكاسب والأعمال والناس والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخَيْبُ من هذا كُلِّهِ ، لا يُفْلِحُ ، ولا يُنَجِّبُ ، ولا تَحْسُنُ له عاقبة ، وإنْ كَثُرَ ، والطَّيْبُ وإنْ قَلَّ نافع جميل العاقبة فالخَيْبُ لا يُساوي الطَّيْبَ مِقْدَارًا ولا إنْفِاقًا ولا مِكانًا ولا ذهابًا ، فالطَّيْبُ جِهَةٌ اليمين ، والخَيْبُ يأخذ جِهَةَ الشَّمالِ ، والطَّيْبُ في الجَنَّةِ ، والخَيْبُ في النار ، وهذا بَيِّنٌ ، وحقيقة الاستواء الاستمرار في جِهَةٌ واحدة ، ومثله الاستقامة ، وضِدُّها الاعوجاج قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَيْبِ ﴾ ، قيل : الخِطابُ للنبيِّ ﷺ ، والمُرَادُ أُمَّتُهُ ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لا يُعَجِّبُهُ الخَيْبُ ، وقيل : المُرادُ به النبيُّ ﷺ نَفْسُهُ ، وإعجابه له أَنَّهُ صار عِنْدَهُ عَجَبًا مِمَّا يُشَاهِدُهُ مِنْ كَثْرَةِ الكُفَّارِ والمالِ الحرامِ ، وَقَوْلُهُ الْمُؤْمِنِينَ والمالِ الحلالِ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الألبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾)) .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٢ / ١١٧) : ((قيل : المُرادُ بالخَيْبِ والطَّيْبِ : الحرام والحلال ، وقيل : المؤمن والكافر ، وقيل : العاصي والمُطيع ، وقيل : الرَّدِيءُ والجيد ، والأوَّلَى أَنَّ الاعتبارَ بِعُمومِ اللفظِ ، فَيَشْمَلُ هذه المَذْكُوراتِ وَغَيْرَها مِمَّا يَتَّصِفُ بِوصفِ الخُبِّ والطَّيْبِ مِنَ الأشخاصِ والأعمالِ والأقوالِ ، فالخَيْبُ لا يُساوي الطَّيْبَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ . قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَيْبِ ﴾ ، قيل : الخِطابُ للنبيِّ ﷺ ، وقيل : لِكُلِّ مُخاطَبٍ يَصْلُحُ لِخِطابِهِ بهذا ، والمُرَادُ نَفْيُ الاستواءِ في كُلِّ الأحوالِ وَلَوْ في حالِ كَوْنِ الخَيْبِ مُعْجَبًا للرَّائي للكثرةِ التي فيه ، فإنَّ هذه الكثرةَ مع الخَيْبِ في حُكْمِ العَدَمِ ، لأنَّ خُبَّتِ الشَّيْءِ يُبْطِلُ فائدَتَهُ ، ويمحَقُ بَرَكَتَهُ ، ويذهبُ بِمَنْفَعَتِهِ)) .

إنَّ القليلَ الحلالِ النافعِ أَفضَلُ مِنَ الكثيرِ الحرامِ الضارِ . وفي الحديثِ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((... ، فإنَّ ما قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَاللهي)) ١٥٢ .

ما قَلَّ مِنَ المالِ وَكَفَى صاحِبَهُ بعد إِخراجِ الصَّدَقَةِ مِنْهُ ، أَفضَلُ مِمَّا كَثُرَ وَاللهي صاحِبَهُ عن التَّصَدُّقِ وَفَعَلَ الخَيْرِ . وقال المُنَاوي في فيض القدير (٥ / ٤٦١) : ((ما قَلَّ وَكَفَى) مِنَ الدُّنْيَا (خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَاللهي) هذا مِنْ طريقِ الإقتصادِ المَحْمُودِ الممدوحِ ، فينبغي للمرءِ أن يُقَلِّلَ

١٥٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٨٢) برقم (٣٦٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

أسباب الدنيا ما أمكن ، فإنَّ قليلها يُلهي عن كثير من الآخرة ، فالكثير يُلهي القلب عن الرّبِّ والآخرة بما يحدث له من الكِبَر والطُّغيان على الحقِّ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ (٧) قال بعضهم: خُذ من الدنيا ما شئتَ وخُذ من الهمِّ أضعافه. وسَمَّى الدنيا لَهْوًا لأنَّها تُلهي القلبَ عن كُلِّ خيرٍ، وتَلْهُو بِكُلِّ شرٍّ. وهذا الحديث قد عدّه العسكري وغيره من الحكَم والأمثال ((ورؤي عن النبي ﷺ : (...) ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ)) ١٥٣ .

إنَّ المال القليل الذي يقوم العبدُ بأداء حَقِّه وشُكْرِ الله عليه أفضل من المال الكثير الذي يَغرق فيه العبدُ ، ويُنسيه أداء حَقِّه ، ويُلهيه عن شُكْرِ الله تعالى .

٢_ الرأي الفطير (بلا تفكير)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

لا تُقَلِّ في شيء بما لا تعلم ، ولا تتبع ما لا يعينك ، بل تأكّد من كُلِّ أمر ، وتثبت من كُلِّ خبر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٥ / ٥) : ((وللمفسرين في المراد به أربعة أقوال : أحدها لا تَرْمِ أَحَدًا بما ليس لك به علم ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني لا تُقَلِّ رأيتَ ولم تر ، ولا سمعتَ ولم تسمع ، رواه عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس وبه قال قتادة . والثالث لا تُشركَ بالله شيئًا ، رواه عطاء أيضًا عن ابن عباس . والرابع لا تشهد بالزور ، قاله مُحَمَّد بن الحنفية)) .

إنَّ الله يسأل العبدَ يوم القيامة عن حَوَاسِّه : سَمْعُه ، وبصره ، وقلبه ، وعمّا اكتسبته جوارحه . أي : إنَّ الله يسأل العبادَ فيم استعملوا هذه الحَوَاس .

والآية تنهى عن القول بلا علم ، وإطلاق الأحكام بالظن ، وتأمُر بالتأكّد والتثبت واليقين ، والابتعاد عن الوهم والخيال . وفي الآية زَجْرٌ عن النَّظَرِ إلى ما لا يحلُّ ، والاستماع إلى ما يخرم ، والعزم على ما لا يجوز . وفيها دليل على أنَّ العبدَ مُؤَاخَذٌ بعزمه على المعصية .

١٥٣ رواه الطبراني في الكبير (٨ / ٢١٨) . وقال الهيثمي في الجمع (٧ / ١٠٧) : ((رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني ، وهو متروك)) اه . وقال العراقي في تخریج الإحياء (٣ / ٢٠٤) : ((أخرجه الطبراني بسند ضعيف)) اه . وضعفه السُّوطي في باب التَّقْوَل (١ / ١١٥) .

وقال البَغوي في تفسيره (١ / ٩٢) : ((إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)) ، قيل : معناه : يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده . وقيل : يسأل السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ عَمَّا فَعَلَهُ المرءُ . وقوله : ((كُلُّ أُولئِكَ)) ، أي : كُلُّ هذه الجوارح والأعضاء . وعلى القول الأول يرجع ((أُولئِكَ)) إلى أربابها _ يعني أصحابها _)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٤٥) : ((وَلَا تَقْفُ)) وَلَا تَتَّبِعْ)) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)) مَا لَمْ يَتَّعَلَّقْ بِهِ عِلْمُكَ تَقْلِيدًا أَوْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَاحْتَجَّ بِهِ مَنْ مَنَعَ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَجَوَابُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ هُوَ الِاعْتِقَادُ الرَّاجِحُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ سَنَدٍ ، سَوَاءً كَانَ قَطْعًا أَوْ ظَنًّا ، وَاسْتِعْمَالُهُ بِهَذَا الْمَعْنَى سَائِعٌ وَشَائِعٌ . وَقِيلَ : إِنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْعَقَائِدِ ، وَقِيلَ : بِالرَّمْيِ وَشَهَادَةِ الزُّورِ ((إِنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ)) ، أي : كُلُّ هذه الأعضاء ، فَأَجْرَاهَا مَجْرَى الْعُقُلَاءِ لَمَّا كَانَتْ مَسْئُولَةً عَنْ أَحْوَالِهَا ، شَاهِدَةٌ عَلَى صَاحِبِهَا ((كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)) فِي ثَلَاثَتِهَا ضَمِيرٌ كُلٌّ ، أَي : كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَسْئُولًا عَنْ نَفْسِهِ ، يَعْنِي عَمَّا فَعَلَ بِهِ صَاحِبُهُ)) .

٣_ الفُضُول

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْئُوكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)) [المائدة : ١٠١] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ : لَا تَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أُمُورٍ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِهَا ، إِن تَظْهَرُ لَكُمْ تَسْئُوكُمْ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ . وَالْمَعْنَى : لَا تَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَضَايَا وَمَسَائِلَ لَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا ، لِأَنَّهُ ﷺ إِذَا وَضَّحَهَا لَكُمْ تُسَبِّبُ لَكُمْ الْحَرَجَ وَالضِّيْقَ ، وَتَجْلِبُ لَكُمْ التَّعَبَ الشَّدِيدَ ، لِمَا فِيهَا مِنْ تَكَالِيفِ شَاقَّةٍ ، وَسَوْفَ تَنْدَمُونَ عَلَى السُّؤَالِ عَنْهَا .

لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْأَلَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ أُمُورٍ لَا تَعْنِيهِمْ ، أَوْ يَكْثُرُوا الْأَسْئَلَةَ بِمَا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ . فَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ كَامِلَةً مَعْصُومَةً قَدْ وَضَّحَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا لَمْ يَتِمَّ ذِكْرُهُ هُوَ رَحْمَةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ نِسْيَانًا أَوْ غَفْلَةً مِنَ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى _ ، فَيَجِبُ الِابْتِعَادُ عَنِ الْفُضُولِ الَّذِي يَدْفَعُ الْمَرْءَ إِلَى اخْتِرَاعِ أَسْئَلَةٍ بِلَا مَعْنَى وَلَا جَدْوَى . وَكُلُّ سُؤَالٍ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ شَرَائِعَ دِينِيَّةٍ أَوْ أَحْكَامَ فِقْهِيَّةٍ أَوْ مَصَالِحَ النَّاسِ ، فَهُوَ مَضْيِعَةٌ لِلْوَقْتِ وَالْجُهْدِ . وَالصَّمْتُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَلَامِ غَيْرِ النَّافِعِ . وَالْعَاقِلُ لَا يَضُرُّ نَفْسَهُ ، وَلَا يَفْعَلُ مَا يُزْعِجُهُ وَيُضَايِقُهُ .

وإن تَسألوا عن أشياء في زَمَن نُّزولِ الوَحْيِ ، يُنزلُ القرآنُ بإظهارها ، ومتى أظهرها ساءتكم لَمَّا فيها مِنَ التكاليفِ الشَّاقَّةِ ، فلا تَسألوا عنها^{١٥٤} .

عَفَا اللهُ عن مسألتكم السابقة مِمَّا كَرِهَهُ النبيُّ ﷺ ، التي لا ضَرورةَ لها ، ولا حَاجةَ بكم إلى بيانها ، وتجاوزَ عن عقوبتكم الأخرَوِيَّةِ . لقد نَهَاهم أن يَعُودوا إلى مِثْل ذلك ، وأخبرَ أَنَّهُ عَفَا عَمَّا فَعَلُوا ، فلا تَعُودوا إلى مِثْلِهَا .

واللَّهُ واسعُ المغفرةِ ، عظيمُ الحِلْمِ . تَفَضَّلْ عليكم ، وأحسنْ إليكم ، وعَفَا عَنكُمْ ، ولم يُعاجلكم بالعقوبةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١٤٣ / ٢) : ((قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ ، هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مِمَّا لا فائدة لهم في السؤال والتفتيح عنها ، لأنَّها إن أُظْهِرَتْ لهم تلك الأمور رُبَّمَا ساءت لهم ، وشقَّ عليهم سَماعُها وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ ، أي : وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نُهيئهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تُبَيِّنْ لكم ، ... ، ثُمَّ قال : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْهَا ﴾ ، أي : عَمَّا كان مِنكُمْ قَبْل ذلك ،

١٥٤ ((قال الإمام الشاطبي : الإكثارُ من الأسئلة مذموم ، وله مواضع نذكر منها عشرة : أحدها : السؤال عَمَّا لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : مَنْ أي ؟ . ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرَّجُل عن الحج : أَكُلَّ عام ؟ . ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ، ويدلُّ عليه : " دُرُوبِي ما تركتكم " . رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشراها ، كما جاء في التَّهْيِي عن الأغلوطات . خامسها : أن يسأل عن عِلَّة الحُكْم في التَّعَبُّدات كالسؤال عن قضاء الصَّوم للحائض دون الصَّلَاة . سادسها : أن يبلِّغ بالسؤال حدَّ التكلُّف والتعمُّق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لَوْحها ؟ . سابعها : أن يظهر من السؤال مُعارضة الكتاب والسُنَّة بالرأي ، ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟ . ثامنها : السؤال عن المُتَشابِحات ، ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء ، فقال : الاستواء معلوم ... إلخ . تاسعها : السؤال عَمَّا حصل بين السَّلَف ، وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كَفَّ اللهُ عنها يدي فلا أُلطِّحُ بها لساني . عاشرها : سؤال التَّعَنُّت والإفحام وطَلَب العَلْبَةِ في الحِصَام ، ففي الحديث : " أبغضُ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الحِصِمُ ")) [صَفوة التفاسير للصابوني (٥٠/٣) نقلًا عن محاسن التأويل للشمسي (٦/٢١٧٦) . وانظر الموضوع بالتفصيل في مصدره الأصلي : المُؤافَقات للشاطبي (٤ / ٣١٩ و ٣٢٠)] .

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ ، أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعلَّه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو توضيح ولكن إذا نزل القرآن بها مُجْمَلَةً فسألتم عن بيانها حينئذ ، تَبَيَّنَتْ لكم لاحتياجكم إليها ، ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مِمَّا عَفَا عَنْهُ فَاسْأَلُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ١١٨) : ((قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ ، أي : لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بالسؤال عنها ، ولا هي مِمَّا يَعْنِيكُمْ فِي أَمْرِ دِينِكُمْ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ فِي مَحَلِّ جَرِّ صِفَةٍ لِأَشْيَاءَ ، أَي: لا تسألوا عن أشياء مُتَّصِفَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ كَوْنِهَا إِذَا بَدَتْ لَكُمْ ، أَي: ظَهَرَتْ وَكُلَّفْتُمْ بِهَا سَاءَ تَكْمٍ . نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْ كَثْرَةِ مُسْأَلَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّ السُّؤَالَ عَمَّا لَا يَعْنِي وَلَا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِإِجَابِهِ عَلَى السَّائِلِ وَعَلَى غَيْرِهِ . قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ ، . . . ، لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن ، وذلك مع وجود رسول الله ﷺ بين أظهركم ، وتُزَوَّلُ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﴿ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ ، أي: تَظْهَرُ لَكُمْ بِمَا يُجِيبُ عَلَيْكُمْ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ، أَوْ يَنْزِلُ بِهِ الْوَحْيُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِلتَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ ، وَإِجَابَ مَا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا ، وَتَحْرِيمَ مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا ، بِخِلَافِ السُّؤَالَ عَنْهَا بَعْدَ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنَّهُ لَا إِجَابَ وَلَا تَحْرِيمَ يَتَسَبَّبُ عَنِ السُّؤَالَ . وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الشَّرْطِيَّةَ الثَّانِيَةَ فِيهَا إِبَاحَةَ السُّؤَالَ مَعَ وَجُودِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتُزَوَّلُ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ: إِنَّ الشَّرْطِيَّةَ الْأُولَى أَفَادَتْ عَدَمَ جَوَازِ السُّؤَالَ ، وَالثَّانِيَةَ أَفَادَتْ جَوَازَهُ ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَعْنَى : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ غَيْرِهَا مِمَّا مَسَّتْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ تُبَدَّ لَكُمْ بِجَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهَا ، وَجَعَلَ الضَّمِيرُ فِي ﴿ عَنْهَا ﴾ رَاجِعًا إِلَى أَشْيَاءَ غَيْرِ الْأَشْيَاءِ الْمَذْكُورَةِ قَوْلُهُ: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ ، أَي : عَمَّا سَلَفَ مِنْ مَسْأَلَتِكُمْ ، فَلَا تَعُودُوا إِلَى ذَلِكَ . وَقِيلَ الْمَعْنَى : إِنَّ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الَّتِي سَأَلْتُمْ عَنْهَا هِيَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ ، وَلَمْ يُوجِبْ عَلَيْكُمْ ، فَكَيْفَ تَتَسَبَّبُونَ بِالسُّؤَالَ لِإِجَابِ مَا هُوَ عَفْوٌ مِنَ اللَّهِ غَيْرَ لَازِمٍ ؟ ، وَضَمِيرُ ﴿ عَنْهَا ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى ، وَإِلَى أَشْيَاءَ عَلَى الثَّانِي ، عَلَى أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ صِفَةً ثَالِثَةً لِأَشْيَاءَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، لِأَنَّ الثَّانِيَّ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَسْئُولُ عَنْهُ قَدْ شَرَعَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ عَفَا عَنْهُ . وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْعَفْوَ بِمَعْنَى التَّرْكِ ، أَي : تَرَكَهَا اللَّهُ وَلَمْ يَذْكُرْهَا بِشَيْءٍ ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا ، وَهَذَا مَعْنَى صَحِيحٍ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ الْإِجَابَ الْبَاطِلَ ، ثُمَّ جَاءَ سُبْحَانَهُ بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي كَوْنِهِ غَفُورًا حَلِيمًا ، لِيُذَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعَاجِلُ مَنْ عَصَاهُ بِالْغَفْوَةِ ، لِكَثْرَةِ مَغْفِرَتِهِ وَسِعَةِ حِلْمِهِ

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : قال رجلٌ: يا نبيَّ الله ، من أبي ؟، قال: ((أبوك فلان)) . ونزلت ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾ الآية ١٥٥ .

سأل عبد الله بن خُذافة _ رضي الله عنه _ النبي ﷺ عن أبيه ، وقد كان يُطعن في نسبه ، فأخبره النبي ﷺ أن أباه خُذافة ، فنسبه إلى أبيه الذي يُعرف به بين الناس . وهذا السؤال كان يُمكن أن يتسبب في فضيحة للسائل وأهله لو كان ابن زنا .

وهذا الإخبار منه ﷺ كان وحيًا ، فالنبي ﷺ لا يعلم ما يُسأل عنه من المُغيَّبات إلا بإعلام الله تعالى . والحديث يُبين خطورة التَّنطُع والاسترسال في الأسئلة التي ليس لها فائدة ، ولا طائل منها .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((يا أيُّها الناس، إنَّ الله قد افترض عليكم الحجَّ)) ، فقام رجلٌ ، فقال : أَكَلَّ عَامٍ يا رسول الله ؟ ، فسكت عنه ، حتى أعادها ثلاث مرَّات ، قال : ((لو قلتُ : نَعَمْ ، لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ ما قُمْتُم بها، ذُرُونِي ما تَرَكْتُكُمْ ، فإنَّما هَلَكَ الذين قَبْلَكُمْ بكثرة سُؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نَهَيْتُكُمْ عن شيء فَاجْتَنِبُوهُ، وإذا أَمَرْتُكُمْ بشيء فَاتُوا مِنْهُ ما استطعتم)) . وذكر أن هذه الآية التي في المائدة نزلت في ذلك : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ ١٥٦ .

لقد أمر الشرعُ بفعل ما في الاستطاعة ، والاجتناب التام للنواهي الشرعية ، وأمر بالوقوف عند توجيهات الله ورسوله ﷺ ، وعدم تخطيها . والفُضُول الذي قاد إلى السؤال لم يكن في محله . فالنبي ﷺ يوضح الأمور التي بحاجة إلى توضيح ، ويُفصّلها ، وإذا سكت عن أمرٍ ما فلا يسكت جهلاً أو اعتباطاً ، بل لحكمة التيسير وعدم التشديد على أمته ، لكنَّ البعض يأبى إلا أن يتحرى الأسئلة بحثاً عن التشديد. وهذا حشرٌ للنفس الإنسانية في الزاوية، ودفع لها إلى الحرج والمشقة .

إنَّ الله أوجب على المؤمنين الحجَّ ، والتَّوجُّه إلى بيته الحرام ، والطَّواف حَوْلَهُ ، مع الإتيان بِكُلِّ الأركان بِحَسَبِ ما أوضحه الشرعُ ، فسأل رجلٌ : هلَ فَرَضَ اللهُ الحجَّ عَلَيْنَا في كُلِّ عامٍ ؟ . فلم يردَّ النبي ﷺ ، وسكتَ إعراضاً عن هذا السؤال الذي فيه تشديد ، حتَّى أعادَ الرَّجُلُ سؤاله ثلاث مرَّات . وقد بين النبي ﷺ أنه لو أجاب بـ " نَعَمْ " ، لأصبح الأمرُ فرضاً واجباً لازماً أن يحجَّ

١٥٥ متفق عليه . البخاري (٢٦٦٠ / ٦) برقم (٦٨٦٥) ، ومسلم (١٨٣٢ / ٤) برقم (٢٣٥٩) .

وقال الحافظ في الفتح (٣١٢ / ١) : ((تقدّم أنَّه عبد الله بن خُذافة)) .

١٥٦ رواه ابن جِبَّان (١٨ / ٩) برقم (٣٧٠٤) واللفظ له، وهو في صحيح مسلم (٩٧٥ / ٢) برقم (١٣٣٧) .

المُسلِمُ كُلَّ عامٍ ، وهذا فيه مِنَ المَشَقَّةِ والتَّعسيرِ ما يُخالفُ نَهَجَ الإسلامِ في التَّيسيرِ . وظاهرُ هذا الحديثِ يقتضي أن أمر افتراض الحَجِّ كُلِّ عامٍ كان مُفَوَّضًا إلى النبيِّ ﷺ ، حتَّى لو قال : نَعَمْ ، لَحَصَلَ ، وليس بِمُسْتَبَعَدٍ أن يأمر الله بالإطلاق ، ويُفَوَّضَ أمر التَّقْييدِ إلى النبيِّ ﷺ ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ للرجُلِ : " ذُرُونِي ما تَرَكْتُمْكُمْ " ، أي : اتركوني واتركوا سُؤالي إذا تُرَكْتُمْ وتَرَكْتُمُ الرَّدَّ عليكم ، وهذا كان إشارة إلى كراهة السُّؤالِ في النُّصوصِ المُطلَّقة ، والتفتيشِ عن قُيودِها ، بل يَنبغي العملُ بإطلاقها قَدْرَ الاستِطاعةِ حتَّى يَظهرَ فيها قَيْدٌ .

وقد هَلَكَتِ الأُممُ السَّابِقةُ بكثرةِ الأسئلةِ فيما لا يُفيدُ ممَّا يترتَّبُ عليه فَرَضُ أمورٍ شاقَّةٍ وصعبةٍ عليهم ، ولم يَسْتَطيعوا أداءها ، فَهَلَكُوا بالعِصيانِ . ويجب الابتعاد عن التَّواهي التي يَنهَى عنها النبيُّ ﷺ ويُلِّغُ المؤمنِينَ عن الله بها ، وعدم الاقترابِ مِنْها . ويَجِبُ فِعْلُ الأوامرِ ما تَسْتَطيعونه دونَ مَشَقَّةٍ ولا تَفْرِيطٍ ، فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها .

وهذا توجيهِ وتربيةٌ نَبَوِيَّةٌ للمُسلمين على طاعةِ الله ورسوله ﷺ قَدْرَ الاستِطاعةِ ، والانتِهاءِ عَمَّا نَهَى اللهُ عنه ، مع عدم التَّنَطُّعِ في الدِّينِ ، وكثرةِ التَّشَدُّقِ مع تَشقيقِ الكلامِ فيما لا يُفيدُ ، والنَّهْيِ عن كثرةِ السُّؤالِ عَمَّا لَمْ يَقَعْ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩ / ١٠١ و ١٠٢) : ((هذا الرَّجُلُ السَّائلُ هو الأقرع بن حابس ، كذا جاء مُبَيَّنًا في غير هذه الرواية . واختلف الأُصوليون في أنَّ الأمرَ هل يَقْتَضِي التَّكرارَ ، والصحيح عند أصحابنا لا يَقْتَضِيهِ ، والثاني : يَقْتَضِيهِ ، والثالث : يُتَوَقَّفُ فيما زادَ على مرَّةٍ على البَيانِ ، فلا يُحَكِّمُ باقتضائه ، ولا يَمْنَعُهُ . وهذا الحديثُ قد يَسْتدلُّ به مَنْ يقولُ بالتَّوَقُّفِ ، لأنَّه سأل فقال : أَكُلَّ عامٍ ؟ ، ولو كان مُطلَّقه يَقْتَضِي التَّكرارَ أو عَدَمَهُ لَمْ يَسألْ ، ولقال له النبيُّ ﷺ : لا حَاجَةَ إلى السُّؤالِ بل مُطلَّقه محمولٌ على كذا ، وقد يجيب الآخرون عنه بأنَّه سأل استظهارًا واحتياطًا . وقوله : " ذُرُونِي ما تَرَكْتُمْكُمْ " ظاهرٌ في أنَّه لا يَقْتَضِي التَّكرارَ . قال المَاورِدِيُّ : ويُحْتَمَلُ أنَّه إنَّما احتَمَلَ التَّكرارَ عنده من وجهٍ آخَرَ ، لأنَّ الحَجَّ في اللُغةِ قَصْدٌ فيه تَكَرُّرٌ ، فاحتَمَلَ عنده التَّكرارَ مِنْ جِهَةِ الاشتِقاقِ ، لا مِنْ مُطلَّقِ الأمرِ . قال : وقد تَعَلَّقَ بِما ذَكَرناهُ عن أهل اللُغةِ هاهُنا مَنْ قال بإيجابِ العُمرةِ ، وقال : لَمَّا كان قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] يَقْتَضِي تَكَرُّرَ قَصْدِ البَيْتِ بِحُكْمِ اللُغةِ والاشتِقاقِ ، وقد أجمَعوا على أنَّ الحَجَّ لا يَجِبُ إلا مرَّةً ، كانت العُودَةُ الأُخْرَى إلى البَيْتِ تَقْتَضِي كَوْنِها عُمرةً ، لأنَّه لا يجب قَصْدُهُ لِغَيْرِ حِجٍّ وعُمرةٍ بأصلِ الشَّرْعِ . وأمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " لو قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجَبَتْ " ، ففيه دليلٌ

للمذهب الصحيح أنه ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام ، ولا يُشترط في حُكمه أن يكون بوحي ، وقيل : يُشترط ، وهذا القائل يُجيب عن هذا الحديث بأنه لعله أُوحي إليه ذلك ، والله أعلم . قوله ﷺ : " ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ " دليل على أن الأصل عدم الوجوب ، وأنه لا حُكم قبل ورود الشَّرْع ، وهذا هو الصحيح عند مُحَقِّقِي الْأُصُولِيِّين ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . قوله ﷺ : " فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم " . هذا من قواعد الإسلام المهمة ، ومن جَوَامِعِ الْكَلِمِ التي أُعْطِيهَا ﷺ ، ويدخل فيها ما لا يُحصَى مِنَ الْأَحْكَامِ ، كالصلاة بأنواعها ، فإذا عَجَزَ عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي ، وإذا عَجَزَ عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل ، غَسَلَ الْمُمَكِّنَ وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لِعَسَلِ النَّجَاسَةِ فَعَلَ الْمُمَكِّنَ والمقصود التنبيه على أصل ذلك ، وهذا الحديث مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التَّغَابُنُ: ١٦] وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ " فهو على إطلاقه ، فإن وُجِدَ عُذْرٌ يُبِيحُهُ كَأَكْلِ الْمَيْتَةِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، أو شُرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْإِكْرَاهِ ، أو التلَفُظِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِذَا أُكْرِهَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فهذا ليس منهيًا عنه في هذا الحال ، والله أعلم . وأجمعت الأمة على أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة بأصل الشرع ، وقد تجب زيادة بالتدريج ، وكذا إذا أراد دخول الحرم لحاجة لا تُكْرَرُ كزيارة وتجارة ، على مذهب من أوجب الإحرام لذلك بحج أو عمرة . وقد سبقت المسألة في أول كتاب الحج ، والله أعلم .

وعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ : أن النبي ﷺ قال : ((إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرم فحرم من أجل مسألته))^{١٥٧} .
نهت الشريعة الإسلامية عن كثرة السؤال ، والابتداء بالسؤال عما لا يقع ، فربما يكون السؤال في وقت نزول الوحي والتشريع سبباً في تحريم شيء على المسلمين كان حلالاً ، فيلحقهم بتحريمه الحرج والمشقة .

إن أشد المسلمين وقوعاً في الذنب والإثم من سأل النبي ﷺ عن شيء لم يُحرم على المسلمين قبل سؤاله ، بل كان مسكوتاً عنه ، فحرم عليهم بسبب سؤاله هذا . وهذا في حق من سأل عبثاً وتكلفاً فيما لا حاجة به إليه ، كمسألة بني إسرائيل في شأن البقرة ، أما الذي يسأل سؤال حاجة وضرورة ، فهو مُطالِبٌ به ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا

١٥٧ متفق عليه . البخاري (٦ / ٢٦٥٨) برقم (٦٨٥٩) ، ومسلم (٤ / ١٨٣١) برقم (٢٣٥٨) .

تَعْلَمُونَ ﴿ [الأنبياء : ٧] . وأيضًا ، إنَّ التحذير والترهيب يختصُّ بزمن النبي ﷺ ، لكن بعد موت النبي ﷺ لا بأس أن يسأل الناس العلماء عن أمور دينهم ، لأنَّ التشريع قد انتهى وقتُه ، وليس هناك تحليل ولا تحريم .

والحديث يُبيِّن أنَّ الأصلَ في الأشياء الإباحةُ ، حتَّى يردَّ الشرعُ بخلاف ذلك ، وفيه : التحذير من الاختلاف وكثرة الأسئلة بلا ضرورة . والقضية ليست سهلةً ، فالمُسلم الذي يتحرَّى الأسئلة التي لم تتَّع ، ويبحث عن القضايا المسكوت عنها ، هو في دائرة الخطر ، فقد يسأل عن شيء لم يحرمَ فيأتي التحريم بسبب سؤاله ، فيكون قد ضيقَ على نفسه وعلى المسلمين ، فيكون الأعظم ذنبًا ، لأنَّه ارتكب جريمةً التشديد على نفسه والآخرين .

وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ٢٦٨) : ((قال الطيبي : فيه من المبالغة أنه جعله عظيمًا ، ثم فسره بقوله : " جرمًا " ليدلُّ على أنه نفسه جرم ، قال : وقوله : " في المسلمين " أي : في حقهم قال ابن بطال عن المهلب : ظاهر الحديث يتمسك به القدرية في أن الله يفعل شيئًا من أجل شيء ، وليس كذلك ، بل هو على كلِّ شيء قدير ، فهو فاعل السبب والمسبب ، كلُّ ذلك بتقديره ، ولكن الحديث محمول على التحذير مما ذكر ، فعظم جرم من فعل ذلك ، لكثرة الكارمين لفعله . وقال غيره : أهل السنة لا ينكرون إمكان التعليل ، وإنما ينكرون وجوبه ، فلا يمتنع أن يكون المقدر الشيء الفلاني تتعلق به الحرمة إن سئل عنه ، فقد سبق القضاء بذلك ، لا أن السؤال علةٌ للتحريم . وقال ابن التين : قيل : الجرم اللاحق به إلحاق المسلمين المصرة لسؤاله ، وهي منعهم التصرف فيما كان حلالًا قبل مسألته . وقال عياض : المراد بالجرم هنا الحدت على المسلمين لا الذي هو بمعنى الإثم المعاقب عليه ، لأنَّ السؤال كان مباحًا ، ولهذا قال : " سلوني " ، وتعقبه النووي ، فقال : هذا الجواب ضعيف ، بل باطل ، والصواب الذي قاله الخطابي والتميمي وغيرهما أن المراد بالجرم الإثم والذنب ، وحملوه على من سأل تكلفًا وتعنتًا فيما لا حاجة له به إليه ، وسبب تخصيصه ثبوت الأمر بالسؤال عما يحتاج إليه ، لقوله تعالى :

﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾ ، فمن سأل عن نازلة وقعت له لضرورته إليها ، فهو معذور ، فلا إثم عليه ، ولا عتب ، فكلُّ من الأمر بالسؤال والزجر عنه مخصوص بجهة غير الأخرى ، قال : ويؤخذ منه أن من عمل شيئًا أضرب به غيره كان آثمًا ، وسببك منه الكرمانى سؤالًا وجوابًا ، فقال : السؤال ليس بجريمة ، ولكن كانت فليس بكبيرة ، ولكن كانت فليس بأكبر الكبائر ، وجوابه أن السؤال عن الشيء بحيث يصير سببًا لتحريم شيء مباح هو أعظم الجرم ، لأنه صار سببًا لتضييق الأمر على

جميع المُكَلَّفِين ، فالقتل مَثَلًا كَبِيرَةً ، وَلَكِنْ مَضَرَّتْهُ رَاجِعَةٌ إِلَى الْمَقْتُولِ وَحَدَهُ ، أَوْ إِلَى مَنْ هُوَ مِنْهُ بِسَبِيلٍ ، بِخِلَافِ صُورَةِ الْمَسْأَلَةِ)) اهـ . وفي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٢ / ٢٣٦ و ٢٣٧) : (((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا) الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَالٌ . جُرْمًا مَعْنَاهُ أَنَّ أَعْظَمَ مَنْ أُجْرِمَ جُرْمًا كَائِنًا فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ (مَنْ سَأَلَ عَنْ أَمْرِ الْإِنِّحِ) اعْلَمَنَّ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ عَلَى نَوْعَيْنِ : أَحَدُهُمَا مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّيْبِينِ فِيمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ، وَذَلِكَ جَائِزٌ كَسُؤَالِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي أَمْرِ الْخَمْرِ حَتَّى حُرِّمَتْ بَعْدَ مَا كَانَتْ حَالًا ، لِأَنَّ الْحَاجَةَ دَعَتْ إِلَيْهِ . وَثَانِيَهُمَا مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّعَنُّتِ ، وَهُوَ السُّؤَالُ عَمَّا لَمْ يَقَعْ ، وَلَا دَعَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، فَسُكُوتُ النَّبِيِّ فِي مِثْلِ هَذَا عَنْ جَوَابِهِ رَدُّعٌ لِسَائِلِهِ ، وَإِنْ أَجَابَ عَنْهُ كَانَ تَغْلِيظًا لَهُ ، فَيَكُونُ بِسَبَبِهِ تَغْلِيظٌ عَلَى غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ لِتَعَدِّي جِنَابَتِهِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا كَذَلِكَ غَيْرِهِ ، كَذَا قَالَ ابْنُ الْمَلَكِ فِي الْمَبَارِقِ)) اهـ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٩ / ٤٦٢) : ((وَقَدْ اسْتَمَرَّ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ عَلَى كِرَاهَةِ السُّؤَالِ عَمَّا لَمْ يَقَعْ ، لَكِنْ عَمَلُ الْأَكْثَرِ عَلَى خِلَافِهِ ، فَلَا يُحْصَى مَا فَرَعَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ الْمَسَائِلِ قَبْلَ وَقُوعِهَا)) .

٤_ الاختيال والعجب

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النِّسَاءُ : ٣٦] .
 إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْمُتَكَبِّرَ فِي نَفْسِهِ الَّذِي لَا يَقُومُ بِحَقُوقِ اللَّهِ ، الْفَخُورَ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّعْمِ ، وَالْمُتَرَفِّعَ عَلَيْهِمْ ، حَيْثُ يَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ .
 وَالتَّعْرِيفُ فِي ﴿ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ يُشِيرُ إِلَى ذَمِّ الْكِبَرِ الْمُؤَدِّيِّ إِلَى احْتِقَارِ النَّاسِ .
 قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٥٦) : ((أَيُّ: مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ ، مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ)) .
 وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ١٧٦) : ((أَيُّ: مُتَكَبِّرًا يَأْتَفُ عَنْ أَقَارِبِهِ وَجِيرَانِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ ، فَخُورًا يَتَفَاخَرُ عَلَيْهِمْ)) .

وهذه النوعية من البشر موجودون في كلِّ زمان ومكان ، فالواحد يكون حَجْمُهُ الْحَقِيقِي كَالذُّبَابَةِ ، لَكِنَّهُ يَنْفُخُ نَفْسَهُ بِالْبَاطِلِ ، فَيَعْتَقِدُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ صَارَ أَسَدًا هَاصُورًا . وَفِي وَاقِعِ الْأَمْرِ إِنَّهُ عَبْدٌ يَرْتَدِي فِتْنَاعَ السَّيِّدِ فَيَخْدَعُ ذَاتَهُ ، لَكِنَّ حِيلَتَهُ لَا تَنْطَلِي عَلَى الْآخِرِينَ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ حَجْمَهُ الْحَقِيقِي . وَصَدَقَ الْقَائِلُ : كَالِهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحًا صَوْلَةَ الْأَسَدِ .

والقُوَّةُ الحقيقية تتجلى في التواضع ، والسَّير بهدوء ، والتَّأَمُّل في مخلوقات الله تعالى ، وعظيم صنعه ، واستحضار عَظَمَةِ الله ، وقيمة الفضل الإلهي الذي يَعْرِق فيه العباد .
 وَمَنْ أَدْرَكَ نِعَمَ اللَّهِ ، فَلَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ . أَمَّا الْاِحْتِيَالُ فَهُوَ مَظْهَرٌ سَلْبِي يَنْطَلِقُ مِنْ
 ضَعْفٍ دَاخِلِي ، وَجَوْهَرٍ فَاغٍ يَعْتَمِدُ عَلَى الشَّكْلَانِيَةِ بِسَبَبِ الْمَضْمُونِ الْفَاغِ . وَالْوَاثِقُ بِنَفْسِهِ لَا
 يَكُونُ إِلَّا مُتَوَاضِعًا لِيَنَّا حَسَنَ الْأَخْلَاقِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ١٧١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ ﴾ ، أَي : لَا يَرْضَى
 ﴿ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ، فَتَنَى سُبْحَانَهُ مَحَبَّتَهُ وَرِضَاهُ عَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ، أَي : لَا يُظْهِرُ عَلَيْهِ
 آثَارَ نِعَمِهِ فِي الْآخِرَةِ . وَفِي هَذَا ضَرْبٌ مِنَ التَّوَعُّدِ . وَالْمُخْتَالُ ذُو الْخِيَالِ ، أَي : الْكِبْرُ . وَالْفُخُورُ :
 الَّذِي يُعَدُّ مَنَاقِبَهُ كِبْرًا . وَالْفَخْرُ : الْبَذْخُ وَالتَّطَاوُلُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٨٠) : ((وَالْمُخْتَالُ : الْبَطْرُ فِي مِشِيَتِهِ ، وَالْفُخُورُ :
 الْمُفْتَخِرُ عَلَى النَّاسِ بِكِبْرِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الَّذِي يَعُدُّ مَا أُعْطِيَ ، وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ . وَقَالَ ابْنُ
 قُتَيْبَةَ : الْمُخْتَالُ : ذُو الْخِيَالِ وَالْكَبْرِ . وَقَالَ الرَّجَّاجُ : الْمُخْتَالُ : الصِّلَفُ التِّيَاهُ الْجَهُولُ)) .

والله تعالى قد حَجَبَ مَحَبَّتَهُ وَرِضَاهُ عَنِ الْمُخْتَالِ الْفُخُورِ ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَى خُطُورَةِ الْاِحْتِيَالِ
 وَالْفَخْرِ ، لِأَنَّهُمَا صِفَتَانِ _ إِذَا اجْتَمَعَتَا _ فِي إِنْسَانٍ ، فَإِنَّهُ سَيَتَحَوَّلُ إِلَى شَخْصٍ مَكْرُوهٍ هَائِمٍ عَلَى
 وَجْهِهِ دُونَ بُوصَلَةٍ . وَمِنَ الْأَصْنَافِ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى : ((الْمُخْتَالُ الْفُخُورُ)) ^{١٥٨} .

وَالْمُخْتَالُ الْفُخُورُ : الْمُتَكَبِّرُ الْمُتَغَطِّسُ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَى الْخَلْقِ بِلَا دَاعٍ وَلَا رَادِعٍ ، وَهَذَا
 الشَّخْصُ السَّيِّئُ يُبْغِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَيَكْرَهُهُ النَّاسُ ، وَهُوَ مَعْضُوبٌ عَلَيْهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾
 [النِّسَاءُ : ٤٩] .

الاستفهامُ لِلتَّعَجُّبِ . وَالآيَةُ تَعَجِيبٌ مِنْ حَالِ الْيَهُودِ . أَلَمْ يَبْلُغَكَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 يَمْدُحُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَيُبْرِّتُونَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، وَيُطَهَّرُونَهَا ، وَيَصِفُونَهَا بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى ؟ .
 وَقَدْ كَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَقَضَحَ بَاطِلَهُمْ وَكَشَفَ ضَلَالَهُمْ ، لَيْسَ الْأَمْرُ بِتَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ، بَلْ بِتَزْكِيَةِ اللَّهِ ،
 فَهُوَ الْعَالِمُ بِالسَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَبِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَالْمُحِيطُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ

١٥٨ رواه الحاكم في المستدرک من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - مرفوعاً (٢ / ٩٨) برقم (٢٤٤٦)
 وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وغوامضها ، وتركيبه الله هي المعتمة والمعتد بها دون تركية غيره ، والله يطهر من يشاء بالإيمان ،
 ويُقيمه من الذنوب والآثام ، ويجعله زاكياً نامياً في الصلاح ، وهؤلاء هم عبادة الله المؤمنون أهل
 التوحيد . وأصل التركية: نفي ما يستفح قولاً أو فعلاً. ولا ينقصون من ثواب أعمالهم قدر الفتييل ،
 وهو القشرة الرقيقة حول النواة ، وهو مثل اللقطة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٠٤ و ١٠٥) : ((قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 يُرْكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ سبب نزولها أن مَرَحَبَ بْنَ زَيْدٍ وَبَحْرِيَّ بْنَ عَوْنٍ ، وهما من اليهود ، أتيا النبي ﷺ
 بأطفالهما ، ومعهما طائفة من اليهود ، فقالوا : يا مُحَمَّدُ ، هل على هؤلاء من ذنب ؟ ، قال : " لا " ،
 قالوا : والله ما نحن إلا كهنتهم ، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كُفِّرَ عَنَّا بالليل ، وما من ذنب
 نعمله بالليل إلا كُفِّرَ عَنَّا بالنهار ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس . وفي قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾
 قولان : أحدهما أَلَمْ تُخْبِرْ ، قاله ابن قتيبة ، والثاني أَلَمْ تَعْلَمْ ، قاله الزجاج . وفي الذين يُرْكُونَ
 أنفسهم قولان : أحدهما اليهود ، على ما ذكرنا عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وقتادة ومقاتل ،
 والثاني أنهم اليهود والنصارى ، وبه قال الحسن وابن زيد ، ومعنى ﴿ يُرْكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ يرغمون
 أنهم أركياء ، يُقَالُ : رَكِيَ الشَّيْءُ ، إذا نَمَا في الصَّلاح . وفي الذي رَكُوا به أنفسهم أربعة أقوال :
 أحدها أنهم برؤوا أنفسهم من الذنوب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أن اليهود قالوا إن
 أبناءنا الذين ماتوا يُرْكُونَنَا عند الله ، ويشفعون لنا ، رواه عطية عن ابن عباس . والثالث أن اليهود
 كانوا يُقَدِّمُونَ صِيَانَتَهُمْ فِي الصَّلَاةِ فَيُؤْمِنُونَهُمْ يَرْعَمُونَ أَنَّهُمْ لَا ذُنُوبَ لَهُمْ ، هذا قول عكرمة ومجاهد
 وأبي مالك . والرابع أن اليهود والنصارى قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة : ١٨] .
 وقالوا : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة : ١١١] ، هذا قول الحسن
 وقتادة . قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، أي : يجعله زاكياً ، ولا يظلم الله أحداً مقدار
 فتيل . قال ابن جرير : وأصل (الفتييل) المفتول ، صُرِفَ عَنْ مَفْعُولٍ إِلَى فَعِيلٍ كَصَرِيْعٍ وَدَهِيْنٍ .
 وفي الفتييل قولان : أحدهما أنه ما يكون في شقِّ النواة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال
 مجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك وقتادة وعطية وابن زيد ومقاتل وأبو عبيدة وابن قتيبة والزجاج
 والثاني أنه ما يخرج بين الأصابع من الوسخ إذا دُلِكْنَ ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال
 سعيد بن جبير وأبو مالك والسدي والقرءاء)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٧٢٠) : ((قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾
 تعجب من حالهم ، وقد اتفق المفسرون على أن المراد اليهود ، واختلفوا في المعنى الذي رَكُوا به

أنفسهم ، فقال الحسن وقتادة : هو قولهم : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ ، وقولهم : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ ، وقال الضَّحَّاك : هو قولهم : لا ذُنُوبَ لَنَا ، ونحن كالأطفال ، وقيل : قولهم : إِنَّ آبَاءَهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُمْ ، وقيل : ثناء بعضهم على بعض . ومعنى التَّزْكِيَةِ : التطهير والتنزيه ، فلا يَبْعُدُ صِدْقُهَا عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ وَعَلَى غَيْرِهَا ، واللفظ يتناول كُلَّ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِحَقِّ أَوْ بِبَاطِلٍ مِنَ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ ، ويدخل في هذا التَّلَقُّبِ بِالألقابِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلتَّزْكِيَةِ كَمُحِبِّي الدِّينِ وَعِزِّ الدِّينِ وَنَحْوَهُمَا . قوله : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ، أي : ذلك إليه سُبْحَانَهُ ، فهو الْعَالِمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّزْكِيَةَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا ، فَلْيَدَعِ الْعِبَادَ تَزْكِيَةَ أَنْفُسِهِمْ وَيُقَوِّضُوا أَمْرَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَإِنَّ تَزْكِيَتَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُجَرَّدَ دَعَاوَى فَاسِدَةٍ تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَحَبَّةَ النَّفْسِ وَطَلَبَ الْعُلُوِّ وَالتَّرَفُّعِ وَالتَّفَاخُرِ ، ومثلُ هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴾ [النَّجْمُ : ٣٢] . قوله : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، أي : هؤلاء الْمُزَكُّونَ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿ فِتْيَالًا ﴾ وهو الْخِيطُ الَّذِي فِي نَوَاةِ التَّمْرِ ، وقيل : الْقِشْرَةُ الَّتِي حَوْلَ النَّوَاةِ ، وقيل : هو ما يَخْرُجُ بَيْنَ أَصْبَعَيْكَ أَوْ كَفَيْكَ مِنَ الْوَسْخِ إِذَا فَتَنَتْهُمَا ، فهو فَيْتِلٌ ، بمعنى مَفْتُولٌ ، والمُرَادُ هُنَا : الْكِنَايَةُ عَنِ الشَّيْءِ الْحَقِيرِ والمعنى : أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ يُعَاقِبُونَ عَلَى تَزْكِيَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَدْرِ هَذَا الذَّنْبِ ، وَلَا يُظْلَمُونَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّونَ . ويجوز أن يعود الضمير إلى ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : لَا يُظْلَمُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُزَكِّيهِمُ اللَّهُ فِتْيَالًا مِمَّا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ النَّوَابِ ((.

إِنَّ الْآيَةَ نَهَى إِلَهِيًّا عَنِ تَزْكِيَةِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ . ويدخل فيها كُلُّ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ ، وَوَصَفَهَا بِزَكَاةِ الْعَمَلِ ، وَزِيَادَةِ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى . ولا ينبغي للعبد أن يمدح ذاته ، وَيُزَكِّي نَفْسَهُ . بل عليه أن يحرص على التَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِهِ وَأَثَامِهِ ، وَيَسْتَغْلِبَ بِتَصْحِيحِ أَخْطَائِهِ وَانْحِرَافَاتِهِ ، وَإِزَالَةِ عُيُوبِهِ . وَالْإِنْسَانَ كِتْلَةً مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَخْطَاءِ وَالْعُيُوبِ .

وَمِنْ غَيْرِ الْمُفِيدِ أَنْ يَرَسُمَ الْعَبْدُ هَالَةً بَرَّاقَةً حَوْلَ شَخْصِيَّتِهِ ، فَالْعَبْرَةُ فِي الْجَوْهَرِ ، وَإِذَا كَانَ الْجَوْهَرُ نَقِيًّا ، فَسَوْفَ يَنْعَكِسُ عَلَى الْجَوَارِحِ ، وَنُورُ الدَّخْلِ يَفِيضُ عَلَى الْأَعْضَاءِ الْخَارِجِيَّةِ . وَتَزْكِيَةُ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ مَذْمُومَةٌ ، وَذَلِكَ يَكُونُ بِمَدْحِهَا وَالْإِشَادَةِ بِهَا وَوَصْفِهَا بِالتَّقْوَى وَالتَّوْبَةِ . وَاللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ بِوَاطِنِ الْأُمُورِ وَظَوَاهِرِهَا ، وَمُطَّلِعٌ عَلَى قُلُوبِهَا ، فَيَعْلَمُ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ ، وَيَعْلَمُ مَا وَرَاءَ الْمَظَاهِرِ وَالْأَشْكَالِ ، وَهَذِهِ الْمَآوِرَاتِيَّاتِ مَخْفِيَّةٌ عَنِ النَّاسِ ، لَكِنَّهَا لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ ، لِأَنَّ الْخَالِقَ أَعْلَمُ بِالمَخْلُوقِ مِنْ نَفْسِهِ .

وفي لُباب التَّقْوَى لِلسُّيُوطِي (١ / ٦٤) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت اليهودُ يُقدِّمون صبيانهم يُصلُّون بهم ، ويُقرَّبون فربانهم ، يزعمون أنَّهم لا خطايا لهم ولا ذُنُوب ، فأنزل اللهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾)) .

واليهودُ مشهورون بتزكية ذواتهم، وتقديم أنفسهم كشعب الله المُختار. وما تقديمهم لصبيانهم من أجل الصلاة إلا مُؤشِّر واضح على غرورهم ، وأمانيتهم ، ومدحهم لأنفسهم ، وتأسيس شرائعهم على الهوى والمصلحة النفعية المادية ، وليس وفق المنهج الإلهي الكامل . فهم يبتكرون شريعتهم الخاصَّة من بنات أفكارهم ، وذلك من أجل تحصيل المكاسب المادية والمناصب الرفيعة .

وفي صحيح مسلم (٣ / ١٦٨٧) أنَّ النبي ﷺ قال : ((لا تُزكُّوا أنفسكم ، اللهُ أعلمُ بأهل البرِّ منكم)) .

لا تمدحوا أنفسكم ، ولا تُعظِّموها ، ولا تصِفوها بالإيمان والطاعة والتَّقوى ، وتزكية المرء نفسه ثناؤه عليها ، اللهُ أعلمُ بأهل البرِّ منكم ، والبرُّ اسم لِكُلِّ فعلٍ مَرَضِي .

وعن أبي بكرٍ _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ النبي ﷺ قال : ((مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيُثَلِّ : أَحْسِبُ فَلَانًا ، وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ ، وَلَا أُزْكَي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا)) ١٥٩ .

إذا كان لا بُدَّ من المدح ، لأنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِ اقْتِضَاءً شَرْعِيًّا ، كَتَزْكِيَةِ الشَّاهِدِ مَثَلًا ، أو لا بُدَّ من الثَّنَاءِ عَلَيْهِ لمصلحة مشروعة أُخْرَى، فَلْيُثَلِّ : " أَحْسِبُ فَلَانًا ، وَاللَّهُ حَسِيْبُهُ ، وَلَا أُزْكَي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا " ، فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَصْفِهِ بِمَا يَعْلَمُ فِيهِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ الْمَوْجُودَةِ ، ويقول أثناء وَصْفِهِ لَهُ : أَحْسِبُهُ رَجُلًا عَدْلًا أَوْ صَالِحًا أَوْ كَرِيمًا مَثَلًا ، فلا يَقْطَعْ وَلَا يَجْزِمُ بِعَاقِبَةِ أَحَدٍ بِخَيْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ، لأنَّ اللهُ يَعْلَمُ سِرَّهُ ، وهو الذي يُجَازِيهِ ، إنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ ، وإنْ شَرًّا فَشَرٍّ ، وَلَا يَقُلُّ : أَتَيْقِنُ وَلَا أَتَحَقَّقُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ ، جَازِمًا بِهِ .

والحديثُ يُحَدِّثُ مِنْ وَصْفِ النَّاسِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ الْوَاصِفُ .

والذي يبدو للناس هو الأمور الظاهرية، ولا أحد يعرف حقائق الأمور سوى الله تعالى . ومدح الناس لبعضهم إنما يستند إلى مشاهد ظاهرية خارجية ، لكن الحقيقة المستترة وراء المظاهر ليس بوسع الناس أن يطلعوا عليها. فمن أراد مدح شخص فلا يجزم بصلاحه لأنه غير مُطَّلِع على قلبه ، بل يمثِّل التوجية النبوي في هذا السياق .

١٥٩ متفق عليه . البخاري (٢ / ٩٤٦) برقم (٢٥١٩) ، ومسلم (٤ / ٢٢٩٦) برقم (٣٠٠٠) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢٦ / ١٨) : ((باب النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ فِتْنَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ) ذَكَرَ مُسْلِمٌ فِي هَذَا الْبَابِ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ ، وَقَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الصَّحِيحِينَ بِالْمَدْحِ فِي الْوَجْهِ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَطَرِيقُ الْجَمْعِ بَيْنَهَا أَنَّ النَّهْيَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُجَازَفَةِ فِي الْمَدْحِ ، وَالزِّيَادَةَ فِي الْأَوْصَافِ ، أَوْ عَلَى مَنْ يُخَافُ عَلَيْهِ فِتْنَةٌ مِنْ إِعْجَابٍ وَنَحْوِهِ إِذَا سَمِعَ الْمَدْحَ ، وَأَمَّا مَنْ لَا يُخَافُ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِكَمَالِ تَقْوَاهُ ، وَرُسُوخِ عَقْلِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، فَلَا نَهْيَ فِي مَدْحِهِ فِي وَجْهِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُجَازَفَةٌ ، بَلْ إِنْ كَانَ يَحْصُلُ بِذَلِكَ مَصْلَحَةٌ كَنَشْطِهِ لِلْخَيْرِ ، وَالْإِزْدِيَادِ مِنْهُ ، أَوْ الدَّوَامِ عَلَيْهِ ، أَوْ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ ، كَانَ مُسْتَحَبًّا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وفي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٣ / ١١١) : ((لَا مَحَالَةَ) بَفَتْحِ الْمِيمِ ، أَي : لَا بُدَّ (فَلْيَقُلْ إِنِّي أَحْسِبُهُ) أَي : أَظُنُّهُ (كَمَا يُرِيدُ) أَي الْمَادِحِ (أَنْ يَقُولَ) فِي حَقِّ الْمَمْدُوحِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَدْحَ الَّذِي يُرِيدُ الْمَادِحُ أَنْ يَقُولَ فِي حَقِّ الْمَمْدُوحِ ، فَلَا يَقْطَعُ فِي حَقِّهِ ، بَلْ يَقُولُ إِنِّي أَظُنُّهُ كَذَا وَكَذَا . وَلَفْظُ الشَّيْخِينَ : إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ : أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسْبِيهِ اللَّهُ (لَا أَرْكَبُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى) أَي : لَا أَقْطَعُ عَلَى عَاقِبَتِهِ ، وَلَا عَلَى مَا فِي ضَمِيرِهِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مُعْيَبٌ عَنِّي ، وَلَكِنْ أَحْسِبُ وَأَظُنُّ لَوْجُودِ الظَّاهِرِ الْمُفْتَضِي لِدَلَالَتِهِ)) .

٥_ التَّكْبِيرُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وَأَذْكَرُ يَا مُحَمَّدَ لِقَوْمِكَ حِينَ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ سُجُودَ تَحِيَّةٍ وَتَعْظِيمٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ . وَقِيلَ : كَانَ ذَلِكَ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ ، يَدُلُّ عَلَى التَّوَاضِعِ ، وَلَمْ يَكُنْ وَضْعَ الْوَجْهِ عَلَى الْأَرْضِ . وَالْأَصَحُّ أَنَّهُ كَانَ سُجُودًا كَسُجُودِ الصَّلَاةِ ، أَي : بِوَضْعِ الْوَجْهِ عَلَى الْأَرْضِ .

وَصِبْغَةُ الْجَمْعِ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ لِلتَّعْظِيمِ ، فَاللَّهُ يُخْبِرُ عَنِ نَفْسِهِ بِفِعْلِ الْجَمَاعَةِ تَفْخِيمًا وَإِشَادَةً بِذِكْرِهِ . وَالسُّجُودُ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبِيلِ الْعِبَادَةِ ، وَلِغَيْرِهِ عَلَى وَجْهِ التَّكْرِمَةِ ، كَمَا سَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ لِآدَمَ ﷺ ، وَيَعْقُوبَ ﷺ وَأَبْنَاؤَهُ لِيُوسُفَ ﷺ . وَالسُّجُودُ كَانَ لِآدَمَ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَتَضَمَّنَ مَعْنَى الطَّاعَةَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ فَضِيلَةُ لِآدَمَ ﷺ عَظِيمَةٌ ، حَيْثُ أَسْجَدَ اللَّهُ لَهُ مَلَائِكَتَهُ . وَكَانَ سُجُودَ الْمَلَائِكَةِ لِآدَمَ تَكْرِيمًا لِآدَمَ ، وَطَاعَةَ لِلَّهِ لَا عِبَادَةَ لِآدَمَ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٦٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ وفي هؤلاء الملائكة قولان : أحدهما أنهم جميع الملائكة ، قاله السدي عن أشياخه . والثاني أنهم طائفة من الملائكة ، روي عن ابن عباس ، والأول أصح . والسجود في اللغة : التواضع والخضوع . وأنشدوا : ساجد المنخر ما يرفعه ... خاشع الطرف أصم المستمع . وفي صفة سجودهم لآدم قولان : أحدهما أنه على صفة سجود الصلاة ، وهو الأظهر . والثاني أنه الانحناء والميل المساوي للركوع)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١١٢) : ((وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ، امتنَّ بها على ذريته ، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم)) .
سجد الملائكة جميعاً لآدم إلا إبليس ، وهو أبو الجن كان مع الملائكة ، امتنع من السجود ، وتكبر عنه ، لاعتقاده أنه خير من آدم ، وأكبر سنًا ، وأقوى خلقًا ، وأن النار التي خلق منها إبليس أعظم من الطين الذي خلق منه آدم . ولما أبى إبليس أن يسجد لآدم ، أبلسه الله ، أي : آيسه من الخير كله ، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته .

والفاء في قوله : ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ تشير إلى أنهم سارعوا إلى الامتثال ، ولم يتبطلوا فيه .
وفي الآية إيجاز بالحذف ، أي : فسجدوا له ، وكذلك ﴿ أباي ﴾ مفعوله محذوف ، أي : أباي السجود .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٦٥) : ((قوله تعالى : ﴿ إِبْلِيسَ ﴾ ، في هذا الاستثناء قولان : أحدهما أنه استثناء من الجنس ، فهو على هذا القول من الملائكة ، قاله ابن مسعود في رواية ، وابن عباس . وقد روي عن ابن عباس أنه كان من الملائكة ، ثم مسخه الله تعالى شيطانًا . والثاني أنه من غير الجنس ، فهو من الجن ، قاله الحسن والرُّهري . قال ابن عباس : كان إبليس من خزائن الجنة ، وكان يُدير أمر السماء الدنيا . فإن قيل : كيف استثنى وليس من الجنس ؟ ، فالجواب : أنه أمر بالسجود معهم ، فاستثنى منهم ، لأنه لم يسجد ، وهذا كما تقول : أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي ، هذا قول الزجاج . وفي إبليس قولان : أحدهما اسم أعجمي ليس بمشتق ، ولذلك لا يُصرف ، هذا قول أبي عبيدة والزرَّاج وابن الأنباري . والثاني أنه مشتق من الإبلاس ، وهو : اليأس ، روي عن أبي صالح ، وذكره ابن قتيبة ، وقال : إنه لم يُصرف ، لأنه لا سمي له ، فاستثقل . قال شيخنا أبو منصور اللغوي : والأول أصح ، لأنه لو كان من الإبلاس لُصِّفَ ، ألا ترى أنك لو سميت رجلاً ياخريط وإجفيل ، لُصِّفَ في المعرفة)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٣٣٢) : ((قوله تعالى : ﴿ واستكبر ﴾ ، الاستكبار : الاستعظام ، فكأنه كره السُّجُودَ في حَقِّه ، واستعظمه في حَقِّ آدم ، فكان تَرْكُ السُّجُودِ لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته)) .

وكان إبليسُ في سابقِ عِلْمِ الله مِنَ الكافرين الذين وَجِبَتْ لَهُمُ الشَّقَاوَةُ ، أو : صار بامتناعه واستكباره من الكافرين ، حيث استقبح أمر الله بالسُّجُودِ لآدم ، اعتقاداً منه بأنه أفضل منه ، والأفضل لا ينبغي أن يخضع للمفضول .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٣٣٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وكان مِنَ الكافرين ﴾ ، قيل : (كان) هنا بمعنى صار . . . وقال ابنُ فُورَك : (كان) هنا بمعنى صار ، خطأ تَرُدُّهُ الأُصول . وقال جمهورُ المُتَأَوِّلين : المعنى أي : كان في عِلْمِ الله تعالى أنه سَيَكْفُرُ ، لأنَّ الكافرَ حقيقَةً والمؤمنَ حقيقَةً هو الذي قد عِلِمَ اللهُ مِنْهُ المُؤَافَاةَ . قُلْتُ : وهذا صحيح)) .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٢٦١) : ((وتأويل قوله : ﴿ أبا ﴾ ، يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك إبليس أنه امتنع من السُّجُودِ لآدم ، فلم يَسْجُدْ له ، واستكبر ، يعني بذلك أنه تَعَطَّمَ وَتَكَبَّرَ عَن طاعة الله في السُّجُودِ لآدم ، وهذا وإن كان من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ خَبَرًا عن إبليس ، فإنه تقريرٌ لِضُرْبَانِهِ مِنْ خَلْقِ اللهِ الذين يتكبرون عن الخُضُوعِ لأمر الله والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه ، والتسليم له فيما أوجبَ لبعضهم على بعض من الحق ، وكان ممن تكبر عن الخُضُوعِ لأمر الله والتدلل لطاعته والتسليم لقضائه فيما ألزمهم من حقوق غيرهم اليهود ، الذين كانوا بين ظَهْرَانِي مَهَاجِرِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وأحبارهم الذين كانوا برسول الله ﷺ وصفته عارفين ، وبأنه لله رسول عالمين، ثم استكبروا مع علمهم بذلك عن الإقرار بنبوته ، والإذعان لطاعته ، بغياً منهم له ، وحسداً ، فقرعهم الله بخبره عن إبليس الذي فعل في استكباره عن السُّجُودِ لآدم حسداً له وبغياً نظير فعلهم في التكبر عن الإذعان لمحمد نبي الله ﷺ ونبوته ، إذ جاءهم بالحق من عند ربهم حسداً وبغياً . ثم وصف إبليسَ بِمِثْلِ الذي وَصَفَ به الذين ضربه لهم مثلاً في الاستكبار والحسد والاستكاف عن الخُضُوعِ لَمَنْ أَمَرَهُ اللهُ بالخُضُوعِ له ، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وكان ﴾ يعني إبليس ﴿ مِنَ الكافرين ﴾ ، من الجاحدين نَعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأيديه عنده بخلافه عليه فيما أمره به من السُّجُودِ لآدم ، كما كَفَرَتِ اليهودُ نَعَمَ رَبِّهَا التي آتاها وآبائها قَبْلَ : من إطعام الله أسلافهم المَنِّ والسُّلُوى ، وإظلال العمام عليهم ، وما لا يُحصى من نِعَمِهِ التي كانت لهم ، خُصُوصًا ما خَصَّ الذين أدركوا مُحَمَّدًا ﷺ بإدراكهم إياه ، ومُشاهدتهم حُجَّةَ اللهِ عليهم ، فَجَحَدَتْ نُبُوتَهُ بَعْدَ عِلْمِهِمْ به ،

ومعرفتهم بنبوته ، حسداً وبعياً ، فنسبه الله جل ثناؤه إلى ﴿ الكافرين ﴾ ، فجعله من عداهم في الدين والملة ، وإن خالفهم في الجنس والنسبة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٧٢] ١٦٠ .

لن يتكبر المسيح الذي جعلته النصارى إلهًا أن يكون عبدًا ذليلاً لله ، وخاضعًا له . وهذا يُبطل ألوهية المسيح المزعومة ، لأن الإله الحق لا يكون عبدًا لأحد ، ولا خاضعًا لأحد . وأيضًا ، الملائكة الذين قربهم الله ، وشرفهم ، ورفع قدرهم ، لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لله تعالى .

وفي هذا دليل على وحدانية الله ، وأنه وحده الإله الحق المنفرد بالألوهية والرئوبية بلا شريك . والآية ترد على النصارى الذين اعتبروا المسيح إلهًا ، وابنًا لله ، وعبدوه . وترد على مُشركي العرب الذين اعتبروا الملائكة بنات الله ، وعبدوهم . ومن يتكبر عن عبادة الله ، فسيعتقهم يوم القيامة ، ويجمعهم للحساب والجزاء . وشرف عظيم للمسيح والأنبياء والملائكة أن يكون عبيدًا لله ، وهذا مُنتهى العز والمجد . والخزي والعار في عبودية غير الله تعالى . وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٣٧٦) : ((يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ ﴾ لَنْ يَأْتَفَ وَلَنْ يَسْتَكْبِرَ الْمَسِيحُ ﴾ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ ، يعني : من أن يكون عبدًا لله وأما قوله : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، فإنه يعني : ولن يستنكف أيضًا من الإقرار لله بالعبودية والإذعان له بذلك رُسُلُهُ الْمُقَرَّبُونَ الَّذِينَ قَرَّبَهُمُ اللَّهُ ، وَرَفَعَ مَنَازِلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ ، يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذَلِكَ : وَمَنْ يَتَعَطَّمُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَيَأْتَفُ مِنَ التَّدَلُّلِ وَالْخُضُوعِ لَهُ بِالطَّاعَةِ مِنَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ وَيَسْتَكْبِرُ عَنْ ذَلِكَ ، فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ ، يقول : فسيعتقهم يوم القيامة جميعًا فيجمعهم لموعدهم عنده)) .

١٦٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٦٢ و ٢٦٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ . سَبَبُ نَزْوِهَا أَنَّ وَفَدَ جُرَّانَ وَقَدُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، لِمَ تَدْكُرُ صَاحِبِنَا ؟ ، قَالَ : " وَمَنْ صَاحِبُكُمْ ؟ " ، قَالُوا : عَيْسَى ، قَالَ : " وَأَيُّ شَيْءٍ أَقُولُ لَهُ ؟ ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ " . قَالُوا : بَلْ هُوَ اللَّهُ ، فَقَالَ : " إِنَّهُ لَيْسَ بَعَارٍ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ " ، قَالُوا : بَلَى . فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ الرَّجَّاحُ : مَعْنَى يَسْتَنْكِفُ : يَأْتَفُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ)) .

وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَنْتَلِقَ إِلَى أَرْضِ النَّجَاشِيِّ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ، فَبَعَثُوا إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَعُغْمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَجَمَعُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا ، فَقَدِمْنَا ، وَقَدِمُوا عَلَى النَّجَاشِيِّ ، فَأَتَوْهُ بِهِدِيَّةً ، فَاقْبَلَهَا ، وَسَجَدُوا لَهُ ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : إِنَّ قَوْمًا مِنَّا رَغِبُوا عَن دِينِنَا ، وَهُمْ فِي أَرْضِكَ . فَقَالَ لَهُمُ النَّجَاشِيُّ : فِي أَرْضِي ؟ ، قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَبَعَثَ إِلَيْنَا . فَقَالَ لَنَا جَعْفَرُ : لَا يَتَكَلَّمُ مِنْكُمْ أَحَدٌ ، أَنَا خَطِيبُكُمْ الْيَوْمَ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِهِ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَنْ يَمِينِهِ ، وَعُغْمَارَةُ عَنْ يَسَارِهِ ، وَالْقَسِيسُونَ مِنَ الرَّهْبَانِ جُلُوسٌ سِمَاطَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو وَعُغْمَارَةُ : إِنَّهُمْ لَا يَسْجُدُونَ لَكَ ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ ، زَبَرْنَا مَن عِنْدَهُ مِنَ الْقَسِيسِينَ وَالرَّهْبَانِ ، اسْجُدُوا لِلْمَلِكِ . فَقَالَ جَعْفَرُ : لَا نَسْجُدُ إِلَّا لِلَّهِ ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : وَمَا ذَاكَ ؟ ، قَالَ : إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولَهُ ، وَهُوَ الرَّسُولُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَنُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَنُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَأَمَرْنَا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ . قَالَ : فَأَعْجَبَ النَّاسَ قَوْلُهُ ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمْرُو قَالَ لَهُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْمَلِكَ ، إِنَّهُمْ يُخَالِفُونَكَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ لَجَعْفَرُ : مَا يَقُولُ صَاحِبُكَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ ؟ . قَالَ : يَقُولُ فِيهِ اللَّهُ : هُوَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ، أَخْرَجَهُ مِنَ الْبُتُولِ الْعُدْرَاءِ ، لَمْ يَقْرَبْهَا بِشَرٍ . قَالَ : فَتَنَاوَلَ النَّجَاشِيُّ عُودًا مِنَ الْأَرْضِ ، فَفَرَعَهُ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْقَسِيسِينَ وَالرَّهْبَانِ ، مَا يَزِيدُ هَؤُلَاءِ عَلَى مَا يَقُولُونَ فِي ابْنِ مَرْيَمَ مَا يَزِنُ هَذِهِ ، مَرْحَبًا بِكُمْ ، وَبِمَنْ جِئْتُمْ مِنْ عِنْدِهِ ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ ، لَأَتَيْتُهُ حَتَّى أَحْمِلَ نَعْلَيْهِ ، ائْتُوا فِي أَرْضِي مَا شِئْتُمْ . وَأَمَرَ لَهُمْ بِطَعَامٍ وَكِسْوَةٍ ، وَقَالَ : رُدُّوا عَلَى هَٰذَيْنِ هَدِيَّتَهُمْ ١٦١ .

حاولت قُرَيْشٌ مُحَاصِرَةَ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَمَنْعِ انْتِشَارِهَا ، فَأَرْسَلَتْ اثْنَيْنِ مِنَ كُبَرَاءِ الدُّهَاءِ مَعَ الْهَدَايَا الَّتِي تُرْفِقُ الْقُلُوبَ ، وَتَجْذِبُ التُّفُوسَ ، فِي مُحَاوَلَةٍ لِاسْتِمَالَةِ النَّجَاشِيِّ ، وَدَفَعَهُ لِتَسْلِيمِ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَدْ سَجَدُوا لِلنَّجَاشِيِّ ، وَهُمْ مُعْتَادُونَ عَلَى السُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ،

١٦١ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٣٣٨) بِرَقْمِ (٣٢٠٨) ، وَقَالَ : ((هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يُجْرَاهُ ، وَإِنَّمَا خَرَّجْتَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ اقْتِدَاءً بِشَيْخِنَا أَبِي يَحْيَى الْخَطَّافِ ، فَإِنَّهُ خَرَّجَهُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾)) اهـ . وَقَالَ الذَّهَبِيُّ فِي التَّلْخِيصِ : ((عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمَ)) .

باعتبارهم مُشركين وثنيين لا دين لهم . وقد نَجَحَ جعفر بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ في عَرْضِ القضية بأسلوب جَذَاب ، وشرح العقائد الإسلامية بشكل واضح وجميل . وفي هذا دلالة واضحة على أهمية الدعاة المؤهلين علمياً وأخلاقياً للدفاع عن الإسلام والمسلمين .

ومن الواضح أن علماء النصارى كانوا على عِلْمٍ ومعرفة بالنبي مُحَمَّد ﷺ ، وأنه الذي بشر به النبي عيسى ﷺ . ولا شك أنهم كانوا يقرؤون عن صفة النبي مُحَمَّد في كتبهم الدينية . والقسيسون والرهبان لديهم علوم دينية ، ومعرفة باللغات ، ومُطَّلعون على الكتب والشرائع والتعاليم ، وليسوا أشخاصاً عاديين من عامة الشعب .

وموقف النجاشي _ رضي الله عنه _ كان رائعا ومُشرفاً ، فقد أعلن الحق بوضوح ، وأظهر الحقيقة مُدَوِّية أمام رجال الدين وحاشيته ورعيته ، ولم يخش انقلاب الناس عليه، أو فقدان عرشه، أو خسارة ملكه، فهو ليس شخصاً عادياً من عامة الشعب، وإنما هو ملك (رأس النظام السياسي وقمة الهرم الاجتماعي) . ولم يخف من اتهامه بالخروج على العقيدة والعادات والتقاليد والتراث، لأن الحق _ بالنسبة إليه _ أحق أن يتبع . وهذا الموقف النبيل يدل على التحرر من التقليد الأعمى وسطوة الجماهير ، كما يدل على الفكر الخلاق ، والتفكير البتاء ، ويُعد النظر ، وأتباع الأدلة والبراهين والحجج ، وتحليلها مع الاستنتاج ، والبحث عن الحق بإخلاص وتجرؤ ، وإبثار نعيم الآخرة الباقي على حطام الدنيا الفاني .

وقال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧٣] . فَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وَأَقْرَبُوا بِبُيُوتِ مُحَمَّد ﷺ، وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ، وَاجْتَنَبُوا الْمَعَاصِيَ، فَيُعْطِيهِمْ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ كَامِلًا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُفُوتَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِإِعْطَائِهِمْ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . وَأَمَّا الَّذِينَ تَعَطَّوْا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ فَسَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا مُوجِعًا، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ الْأَبَدِيِّ، بِسَبَبِ اسْتِنكَافِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَلِيًّا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَلَا نَصِيرًا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٨٧) : ((﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، أي: فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ... . وقد روى ابن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ بَقِيَّةٍ عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيِّ عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مَرْفُوعًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

﴿ فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، قال : " أَجُورُهُمْ : أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ " ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، قال : " الشَّفَاعَةَ فِيمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ مِمَّنْ صَنَعَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ فِي دُنْيَاهُمْ " . وهذا إسناد لا يثبت . وإذا رُوي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد ^{١٦٢} . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ ، أي : امتنعوا من طاعة الله وعبادته ، واستكبروا عن ذلك ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] ، أي : صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا مُمتنعين مُستكبرين)) .

وقال الطبري في تفسيره (٣٧٦ / ٤) : ((فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُقْرُونَ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، الْخَاضِعُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، الْمُتَدَلِّلُونَ لَهُ بِالْعُبُودِيَةِ ، وَالْعَامِلُونَ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَذَلِكَ : أَنْ يَرُدُّوا عَلَى رَبِّهِمْ ، قَدْ آمَنُوا بِهِ وَبِرُسُلِهِ ، وَعَمَلُوا بِمَا أْتَاهُمْ بِهِ رُسُلُهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ مِنْ فِعْلٍ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، وَاجْتَنَابَ مَا أَمَرَهُمْ بِاجْتِنَابِهِ ، ﴿ فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ ﴾ ، يَقُولُ : فَيُؤْتِيهِمْ جَزَاءَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَافِيًّا تَامًّا ، ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، يَعْنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ : وَيَزِيدُهُمْ عَلَى مَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ وَالثَّوَابِ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالزِّيَادَةِ ، مَا لَمْ يَعْرِفْهُمْ مَبْلَغُهُ ، وَلَمْ يَحُدَّ لَهُمْ مُنْتَهَاهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ مَنْ جَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ ، فَذَلِكَ هُوَ أَجْرُ كُلِّ عَامِلٍ عَلَى عَمَلِهِ الصَّالِحِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْمَحْدُودِ مَبْلَغُهُ ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ تَفْضُّلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي وَعَدَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْفِقَهُمْ ، فَلَا يَنْقُصُهُمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، هُوَ مَا حَدَّ مَبْلَغُهُ مِنَ الْعَشْرِ ، وَالزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ مَحْدُودِ مَبْلَغِهَا ، فَيَزِيدُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَشَاءُ لَا حَدَّ لِقَدْرِهِ يُوقِفُ عَلَيْهِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ : الزِّيَادَةُ إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ . وَقَالَ آخَرُونَ : إِلَى أَلْفَيْنِ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : وَأَمَّا الَّذِينَ تَعَطَّطُوا عَنِ الْإِقْرَارِ لِلَّهِ بِالْعُبُودَةِ وَالْإِذْعَانِ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ التَّدَلُّلِ لِأُلُوهِيَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَتَسْلِيمِ الرُّبُوبِيَةِ وَالْوَحْدَانِيَةِ لَهُ ، ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، يَعْنِي : عَذَابًا مُوجِعًا ، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

١٦٢ في مجمع الزوائد للهيتمي (٧٤/٧): ((عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ فَيُؤْفِقُهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، قال : " أَجُورُهُمْ : يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ، وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، الشَّفَاعَةَ لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ مِمَّنْ صَنَعَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ فِي الدُّنْيَا " . رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه إسماعيل ابن عبد الله الكِنْدِيُّ ، ضَعَفَهُ الذَّهَبِيُّ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : أَتَى بَخْرَ مُنْكَرَ ، وَبَقِيَّةَ رِجَالِهِ وَتَفَّعُوا)) .

يقول : ولا يجد المُستكفون من عبادته ، والمُستكبرون عنها ، إذا عذبهم اللهُ الأليم من عذابه سوى اللهُ لأنفسهم ولياً يُنجيهم من عذابه ويُقذهم منه ، ﴿ ولا نصيراً ﴾ ، يعني : ولا ناصرًا ينصُرهم فيستنقدهم من ربِّهم ، ويدفع عنهم بقوَّته ما أحلَّ بهم من نِقمته ، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم)) .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾

[الأعراف : ١٣] .

الخطابُ الإلهيُّ لإبليس : انزل من الجنة ، فما ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمرِي وتسكن دار كرامتي ، فهي مكان الطائع المُتواضع ، وليس العاصي المُتكبر ، فاخرج من الجنة ، إنك من الذليلين الحقيرين بترك الطاعة وعصيان الأمر . وهذا يدلُّ على أنَّ الجنة لا يسكنها مُتكبر عن أمر اللهُ تعالى ، وأنَّ التَّكَبُّر لا يليق بأهل الجنة ، وأنَّ من عصَى اللهُ فهو ذليل .

وإبليس لما أصابه الغرورُ وأظهر الاستكبار ، أذله اللهُ وأهانته ، والصَّغار لازم للاستكبار ، فمن تواضع لله رفعه ، ومن تكبر على الله وضعه . ومن تكبر فقد نازع الله في اسمه وصفته ، فالله هو المُتكبر ، ومن صفاته المقدَّسة التَّكَبُّر . والمُتكبر على الله له في الدنيا الدُّلُّ والصَّغار ، وفي الآخرة عذاب النار . والجديرُ بالدُّكر أنَّ الله طرد إبليس من الجنة وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/٢٧٣) : ((يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمرٍ قدري كوني: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، أي : بسبب عصيانك لأمرِي ، وخروجك عن طاعتي ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ ، قال كثير من المُفسِّرين : الضمير عائد إلى الجنة ، ويُحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزل التي هو فيها في الملكوت الأعلى ، ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾ ، أي : الذليلين الحقيرين ، مُعاملةً له بنقيض قصده ، ومُكافأةً لمُرادِه بضدّه)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٨٠) : ((وجُملة ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ ﴾ استنافية كالتي قَبَلها ، والفاء لترتيب الأمر بالهبوط على مُخالفته للأمر ، أي : اهبط من السماء التي هي محلُّ المُطيعين من الملائكة الذين لا يعصون اللهُ فيما أمرهم إلى الأرض ، التي هي مقرُّ من يعصي ويُطيع ، فإنَّ السماء لا تصلح لمن يتكبر ويعصي أمر رَبِّه مثلك ، ولهذا قال : ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ . ومن التفاسير الباطلة ما قيل إنَّ معنى ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ ، أي : اخرج من صورتك النارية التي افتخرت بها إلى صورة مظلمة مُشوَّهة . وقيل : المُراد هبوطه من الجنة ، وقيل : من زُمرَة الملائكة . وجُملة ﴿ فَاخْرُجْ ﴾ لتأكيد الأمر بالهبوط ، وجُملة ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاعِرِينَ ﴾ لتعليل

للأمر ، أي : إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الصَّغَارِ وَالْهَوَانِ عَلَى اللَّهِ ، وَعَلَى صَالِحِي عِبَادِهِ ، وَهَكَذَا كُنَّ مَنْ تَرَدَّى بِرِدَاءِ الْاِسْتِكْبَارِ ، عُوقِبَ بِلُبْسِ رِدَاءِ الْهَوَانِ وَالصَّغَارِ ، وَمَنْ لَبَسَ رِدَاءَ التَّوَاضِعِ ، أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَ التَّرَفُّعِ)) .

وفي تخريج الإحياء للعراقي (٣١ / ١) : ((حديث " مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ " . أَخْرَجَهُ الْخَطِيبُ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ ، وَقَالَ : غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ . وَلا يَنْبَغُ مَا جَاءَ نَحْوَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ)) .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٠١) عن أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ قال : ((... ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)) .

مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ بِأَنْ أَنْزَلَ نَفْسَهُ عَنْ مَرْتَبَةٍ يَسْتَحِقُّهَا لِرَجَاءِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَوَاضَعَ لِلَّهِ رِفْقًا وَعُبودِيَّةً فِي ائْتِمَارِ أَمْرِهِ ، وَالانْتِهَاءِ عَنْ نَهْيِهِ ، وَمُشَاهَدَتِهِ لِحَقَارَةِ النَّفْسِ ، وَنَفْيِ الْعُجْبِ عَنْهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بِتَوَاضِعِهِ مَنزِلَةً وَمَحَبَّةً وَهَيْبَةً ، وَيُعْلِي قَدْرَهُ ، وَيَرْفَعُ مَنزِلَتَهُ فِي الْآخِرَةِ ، بِأَنْ يَمُنِّحَهُ الدَّرَجَةَ الْعَالِيَةَ فِي الْجَنَّةِ .

والتَّوَاضُعُ هُوَ الْاِنْكِسَارُ وَالتَّذَلُّلُ ، وَنَقِيضُهُ : التَّكَبُّرُ وَالتَّرَفُّعُ .

وفي الحديث : بَيَانُ فَضْلِ التَّوَاضِعِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٤١) : ((فِيهِ أَيْضًا وَجْهَانٌ : أَحَدُهُمَا يَرْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُثَبِّتُ لَهُ بِتَوَاضِعِهِ فِي الْقُلُوبِ مَنزِلَةً ، وَيَرْفَعُهُ اللَّهُ عِنْدَ النَّاسِ ، وَيُجِلُّ مَكَانَهُ ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَرَفَعَهُ فِيهَا بِتَوَاضِعِهِ فِي الدُّنْيَا)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ١٠٨ و ١٠٩) : ((مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ) أَي لَأَجْلِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَوَاضَعَ حَقِيقِيًّا ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَطَاءِ اللَّهِ : مَا كَانَ نَاشِئًا عَنْ شُهُودِ عَظَمَةِ الْحَقِّ وَتَجَلَّى صِفَتِهِ ، فَالتَّوَاضِعُ لِلنَّاسِ مَعَ اِعْتِقَادِ عَظَمَةِ فِي النَّفْسِ وَاقْتِنَادِ ، لَيْسَ بِتَوَاضِعِ حَقِيقِيٍّ ، بَلْ هُوَ بِالتَّكَبُّرِ أَشْبَهَ (رَفَعَهُ اللَّهُ) لِأَنَّ مَنْ أَذَلَّ نَفْسَهُ لِلَّهِ ، فَقَدْ بَدَّلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ، فَيُجَازِيهِ اللَّهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَ . وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحَلِيَّةِ عَنْ ابْنِ سَوْدَةَ : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى ، أَتَدْرِي لِمَا اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ، قَالَ : لَا يَا رَبِّ ، قَالَ : لِأَنَّهُ لَمْ يَتَوَاضِعْ لِي أَحَدٌ قَطُّ تَوَاضَعَكَ . وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ : " وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ وَضَعَهُ اللَّهُ ، حَيْثُ يَجْعَلُهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ " . وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ تَفْسِيرُ الرِّفْعَةِ هُنَا بِأَنَّهُ يُصَيِّرُهُ فِي نَفْسِهِ صَغِيرًا ، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا ، وَقِيلَ : التَّوَاضِعُ لِلَّهِ أَنْ يَضَعَ نَفْسَهُ حَيْثُ وَضَعَهَا اللَّهُ مِنَ الْمُعْجَزِ وَذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ تَحْتَ أَمْرِهِ سُبْحَانَهُ بِالِامْتِنَالِ ، وَزَوَاجِرِهِ

بالانزجار ، وأحكامه بالتسليم للأقدار ، لِيَكُونَ عَبْدًا فِي كُلِّ حَالٍ ، فَيَرَفَعَهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، وَإِنْ تَعَدَّى طَوْرَهُ وَتَجَاوَزَ حَدَّهُ وَتَكَبَّرَ وَضَعَهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ. وقال الطيبي : في التواضع مصلحة الدارين ، فلو استعمله الناس في الدنيا زالت من بينهم الشُّحْنَاءُ ، واستراحوا من نَصَبِ الْمُبَاهَاةِ وَالْمُفَاخَرَةِ . وقضية صنيع المؤلف أن هذا هو الحديث بتمامه ، والأمر بخلافه ، بل بِقِيَّتِهِ عِنْدَ مُخْرَجِهِ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَقَالَ: انْتَعِشْ رَفَعَكَ اللَّهُ ، فهو في نَفْسِهِ صَغِيرٌ ، وفي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ خَفَضَهُ اللَّهُ. وقال آخر: خَفَضَكَ اللَّهُ، فهو في نَفْسِهِ كَبِيرٌ، وفي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرٌ، حتى يكون أهُونَ من كلب. اهـ (تَيْمَّة) قال ابن الحاج : قال بعض أهل التحقيق : مَنْ رَأَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْكَلْبِ ، فَالْكَلبُ خَيْرٌ مِنْهُ، قال: وهذا واضح، ألا ترى أن الكلب يُقَطَّعُ بِعَدَمِ دُخُولِهِ النَّارَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُكَلِّفِينَ قَدْ يَدْخُلُهَا ؟ فَالْكَلبُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ . قال : فَمَنْ أَرَادَ الرَّفْعَةَ فَلْيَتَوَاضَعْ لِلَّهِ، فَإِنَّ الرَّفْعَةَ لَا تَفْعُ إِلَّا بِقَدْرِ التُّزُولِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى أَسْفَلِ الشَّجَرَةِ صَعِدَ إِلَى أَعْلَاهَا كَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَهُ : مَا صَعِدَ بِكَ هَهُنَا وَأَنْتَ قَدْ نَزَلْتَ تَحْتَ أَصْلِهَا ؟ ، فقال لسان حاله : مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ)) ١٦٣ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٦] .

والذين كذبوا بآيات الله ، ورفضوا الإيمان بها ، وتكبروا عن الانقياد لها ، وترفقوا عن العمل بمقتضاها ، فمصيرهم هو عذاب النار الأبدي . إنَّهُمْ مَاكُتُونُ فِي النَّارِ ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا . وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ الْاسْتِكْبَارَ ، لِأَنَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ وَكَافِرٍ مُتَكَبِّرٌ .

١٦٣ قال المناوي مُعَلِّقًا فِي الْحَاشِيَةِ : ((قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ : رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ بِلَفْظٍ : " مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ " . قَالَ أَعْنِي الْعِرَاقِيُّ : وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ ، وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْثَدَةَ : " مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَقَالَ : انْتَعِشْ نَعَشَكَ اللَّهُ _ الْمَعْنَى : ارْتَفَعَ رَفَعَكَ اللَّهُ _ ، فَهُوَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ عَظِيمٌ ، وَفِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ " . قَالَ الْهَيْثَمِيُّ : رَجَاهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ . وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ : خَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَفَعَهُ بِلَفْظٍ : " مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَعْلَى عَلِيَيْنِ " . قَالَ : وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ ، بَلْ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْجَامِعِ بِلَفْظٍ : " مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ " ، هَكَذَا خَرَّجَاهُ مَعًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ ، فَالضَّرْبُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ صَفْحًا وَعَزْوُهُ إِلَى أَبِي نُعَيْمٍ وَحَدِّهِ مَعَ لَيْنِ سَنَدِهِ مِنَ الْعَجَبِ الْعَجَابِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٩٦) : ((﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ التي يَقْصُهَا عليهم رُسُلُنَا، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن إجابتها والعمل بما فيها ، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، لا يَخْرُجُونَ مِنْهَا بسبب كفرهم بتكذيب الآيات والرُّسُل)) .

وقال الله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

إنَّ الله سَيَمْنَعُ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ فَهْمِ آيَاتِهِ ، فلا يَتَفَكَّرُونَ فيها ، وَيُبْعِدُهُمْ عن دلائل قُدْرته ، فلا يَسْتَوْعِبُونَهَا ، وَيَحْجُبُهُمْ عَنِ البراهين والأدلة الدالَّة على وَحْدانية الله في الآفاق والأنفس ، فلا يُدْرِكُونَهَا ، وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الاعتبار بما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ، وَيَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ على تَكْبُرِهِمْ . والمعنى : سَيَجْعَلُ اللهُ الصَّرْفَ عَنِ الآياتِ عُقُوبَةً لِلْمُتَكَبِّرِينَ على تَكْبُرِهِمْ .

إنَّ الله سَيَمْنَعُ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ فَهْمِ آيَاتِهِ الباهرة ، وَيَحْجُبُهُمْ عَنِ نُورِ الهِدَايَةِ . سَيَمْنَعُهُمْ مِنْ اسْتِعَابِ كِتَابِهِ ، وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الإيمان . وهذه عُقُوبَةٌ إلهية شديدة لهم بسبب غُرُورِهِمْ وَتَكْبُرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَرَفْضِهِمْ للحق . وَالتَّكْبِيرُ حَاجِزٌ يَمْنَعُ الإِنْسَانَ مِنَ الوصولِ إِلَى الحقِّ والعِلْمِ والإيمان .

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْحَقَّ لَاجْتَهَدُوا فِي طلبه والبحث عنه من أجل تحصيله ، وَلَكِنْهُمْ اسْتَمْرَرُوا التَّغَابِي لا العباة ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ بِذَلِكَ يَزِدَادُونَ نُفُودًا ، وَيُحَقِّقُونَ مَصَالِحَهُم الشخصية ، وَيَحْصُلُونَ على مكاسب معنوية ومادية ، وَيُحَافِظُونَ على زَعَامَتِهِمْ وَرِئَاسَتِهِمْ وَالتَّغَابِي العوامِ وَالأَتْبَاعِ حَوْلَهُمْ .

لَقَدْ مَنَعَهُمُ اللهُ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ ، وَصَرَفَهُمْ عَنِ الإيمان ، مُجَازَةً على تَكْبُرِهِمْ . وَقَدْ عُوِّبُوا بِحِرْمَانِ الهِدَايَةِ لعنادهم للحق . واختلفَ العُلَمَاءُ فِي تفسِيرِ الآياتِ ، فَقِيلَ: هِيَ الْمُعْجِزَاتِ ، وَقِيلَ : الكُتُبُ المُنزَلَةُ ، وَقِيلَ : خَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ . وَصَرَفَهُمْ عَنْهَا أَنْ لا يَتَفَكَّرُوا فِيهَا ، وَلا يَعتَبِرُوا بِهَا . وَمَعْنَى الآياتِ يَشْمَلُ كُلَّ ذَلِكَ ١٦٤ .

١٦٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢٦٠ و ٢٦١) : ((وفي الآيات قولان : أحدهما أنها آيات الكُتُبِ المُنزَلَةِ ، ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها أمنعهم فهمها ، والثاني أمنعهم من الإيمان بها ، والثالث أصرفهم عن الاعتراض عليها بالإبطال . والثاني أنها آيات المخلوقات كالسماوات والأرض والشمس والقمر وغيرها ، فيكون المعنى : أصرفهم عن التَّفَكُّرِ والاعتبار بما خَلَقْتُ . وفي معنى ﴿ يَتَكَبَّرُونَ ﴾ قولان : أحدهما يَتَكَبَّرُونَ عَنِ الإيمانِ وَاتَّبَاعِ الرَّسُولِ . والثاني يُحَقِّقُونَ النَّاسَ وَيَرُونَ لَهُمُ الفِضْلَ عَلَيْهِمْ)) .

وفي الآية إنذارٌ شديد للمُخَاطَبِينَ مِنْ عاقبة الذين يُمَنَعون مِنْ فَهْم آياته الله ، ويُصِرُّون عنها ، لَتَكْبُرَهُمْ وَكُفْرَهُمْ بِهَا ، لِكَيْلَا يَكُونُوا مِثْلَهُمْ ، فَيَلْقُوا نَفْسَ مَصِيرِهِم السَّيِّئِ ، وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ .
 وقال الطبري في تفسيره (٦٠ / ٦) : ((إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ ، وَهِيَ أَدْلَتُهُ وَأَعْلَامُهُ عَلَى حَقِيقَةٍ مَا أَمَرَ بِهِ عِبَادَهُ وَفَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَاعَتِهِ فِي تَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِهِ ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكُلِّ مَوْجُودٍ مِنْ خَلْقِهِ فَمِنْ آيَاتِهِ ، وَالْقُرْآنِ أَيْضًا مِنْ آيَاتِهِ ، وَقَدْ عَمَّ بِالْخَبَرِ أَنَّهُ يَصْرِفُ عَنْ آيَاتِهِ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَهُمْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ، فَهُمْ عَنْ فَهْمِ جَمِيعِ آيَاتِهِ وَالاعْتِبَارِ وَالادِّكَارِ بِهَا مَصْرُوفُونَ ، لِأَنَّهُمْ لَوْ وَفَّقُوا لَفَهَّمْ بَعْضُ ذَلِكَ فَهَدُوا لِلاعْتِبَارِ بِهِ اتَّعَظُوا وَأَنَابُوا إِلَى الْحَقِّ ، وَذَلِكَ غَيْرَ كَائِنٍ مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُ جَلَّ تَنَاوُهُ قَالَ : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ، فَلَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣٢٩ / ٢) : ((يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، أَي : سَأَمْنَعُ فَهْمَ الْحُجَجِ وَالْأَدْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي ، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَي : كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصَّفِّ : ٥] . وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِّيًا وَلَا مُسْتَكْبِرًا . وَقَالَ آخَرُ : مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً ، بَقِيَ فِي ذَلِكَ الْجَهْلِ أَبَدًا . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، قَالَ : أَنْزَعَ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ ، وَأَصْرِفَهُمْ عَنْ آيَاتِي . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ . قُلْتُ : لَيْسَ هَذَا بِالْإِجْمَاعِ ، لِأَنَّ ابْنَ عُيَيْنَةَ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ هَذَا مُطْرَدٌ فِي حَقِّ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَحَدٍ وَاحِدٍ فِي هَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ . وَإِنْ يُشَاهِدُ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرُونَ كُلَّ آيَةٍ قُرْآنِيَةٍ مُنْزَلَةٍ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يُشَاهِدُوا كُلَّ مُعْجَزَةٍ إلهية ، لَا يُصَدِّقُوا بِهَا ، بِسَبَبِ تَكْبُرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَضَعْفِ عُقُولِهِمْ ، وَاتِّبَاعِهِمُ لِلهَوَى وَالْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَتَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى لِلآبَاءِ .

وقال الطبري في تفسيره (٦٠ / ٦) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَإِنْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَتَكْبُرَهُمْ فِيهَا بِغَيْرِ الْحَقِّ : تَجَبَّرَهُمْ فِيهَا ، وَاسْتَكْبَرَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْإِذْعَانَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، وَهُمْ لِلَّهِ عَبِيدٌ يَغْذُوهُمْ بِنِعْمَتِهِ ، وَيُرِيحُ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا . ﴾ كُلِّ آيَةٍ ﴾ ، يَقُولُ : كُلِّ حُجَّةٍ لِلَّهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ ، وَكُلِّ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّهُ لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ

خالصة دُونِ غَيْرِهِ . ﴿ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ ، يقول : لَا يُصَدِّقُوا بِتِلْكَ الْآيَةِ أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَا هِيَ فِيهِ حُجَّةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ سِحْرٌ وَكَذِبٌ)) .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ . وَإِنْ يُشَاهِدُوا طَرِيقَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا يَسْلُكُوهُ . أَيِ إِنَّهُمْ يَتَّحِبُّونَ طَرِيقَ النَّجَاةِ الَّذِي فِيهِ فَلَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَسَعَادَتُهُمْ فِي الْآخِرَةِ .
وقال الطبري في تفسيره (٦٠ / ٦) : ((يقول : وَإِنْ يَرَوْا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفَ صِفَتَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى وَالسَّادَاتِ الَّذِي إِنْ سَلَكَوهُ نَجَوْا مِنَ الْهَلَاكَةِ وَالْعَطْبِ ، وَصَارُوا إِلَى نَعِيمِ الْأَبَدِ ، لَا يَسْلُكُوهُ ، وَلَا يَتَّخِذُوهُ لِأَنفُسِهِمْ طَرِيقًا ، جَهْلًا مِنْهُمْ وَخَيْرَةً)) .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، وَإِنْ يُشَاهِدُوا طَرِيقَ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ يَسْلُكُوهُ .
إِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ مِنْهَجًا لَا مَحِيدَ عَنْهُ . وَقَدْ أَحْبَبَ اللَّهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ أَنََّّهُمْ يَتْرَكُونَ طَرِيقَ الْهُدَى ، وَيَتَّبِعُونَ طَرِيقَ الضَّلَالِ ، أَيِ : يَتَّخِذُونَ الْكُفْرَ دِينًا .

وقال الطبري في تفسيره (٦٠ / ٦) : ((يقول : وَإِنْ يَرَوْا طَرِيقَ الْهَلَاكِ الَّذِي إِنْ سَلَكَوهُ ضَلُّوا وَهَلَكُوا ﴾ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ ، يقول : يَسْلُكُوهُ وَيَجْعَلُوهُ لِأَنفُسِهِمْ طَرِيقًا لِصَرْفِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَنْ آيَاتِهِ ، وَطَبَعِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ، وَلَا يَنْجِحُونَ)) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ، ذَلِكَ الْانْحِرَافُ عَنْ هُدَى اللَّهِ وَشَرْعِهِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَانُوا عَنِ التَّفَكِيرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَالانْتِظَارِ بِهَا غَافِلِينَ سَاهِينَ .
وهذه الآياتُ الإلهيةُ فيها سعادتهم في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ غَفْلَةً عِنَادَ وَإِعْرَاضَ لَا غَفْلَةَ سَهْوٍ وَجَهْلٍ ، لِذَلِكَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا ، وَلَمْ يَتَعَبَّرُوا بِهَا .

وقال الطبري في تفسيره (٦٠ / ٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : صَرَفْنَاَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا أَنْ يَعْقِلُوا وَيَفْهَمُوا فَيَعْتَبَرُوا بِهَا وَيَذْكُرُوا فَيُنَبِّئُوا عِقَابَهُمْ مِمَّا لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِنَا ﴾ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾
يقول : وَكَانُوا عَنْ آيَاتِنَا وَأَدَلَّتْ الشَّاهِدَةُ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَمْرَانَهُمْ بِهِ وَنَهْيَانَهُمْ عَنْهُ ﴾ غَافِلِينَ ﴾ ، لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا ، لَا هِينَ عَنْهَا ، لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ حِينَئِذٍ قَوْلُ رَبِّنَا ، فَعُطِبُوا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

[الأعراف : ٢٠٦] .

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْأَطْهَارَ الَّذِينَ هُمْ بِالْقُرْبِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، خَاضِعُونَ لِلَّهِ ، لَا يَتَرَفَّعُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ، وَلَا يَتَكَبَّرُونَ عَنْهَا ، وَيُعْظَمُونَهُ وَيُتْرَهُونَهُ عَنْ كُلِّ النَّقَائِصِ ، وَلَا يَسْجُدُونَ إِلَّا لَهُ ، وَالسُّجُودُ أَشْرَفُ الْعِبَادَاتِ . إِنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِلَّهِ تَعَالَى ، يُؤَخِّدُونَ اللَّهَ ، وَلَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَعْصُونَ

مُطْلَقًا . وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ، ولذلك شرع السجود لقراءته . والملائكة مع منزلتهم العالية ودرجته الرفيعة يعبدون الله ، كأنه قيل : من هو أكبر منك أيها الإنسان لا يستكبر عن عبادة الله ، فكان مثلهم .

وقد ذكر الملائكة الأطهار في هذا السياق القرآني ، من أجل الاقتداء بهم في كثرة الطاعة والعبادة ، واتخاذهم قدوةً عليا . فالملائكة الذين هم أعظم من البشر ، يخضعون لله ، فحريٌّ بالإنسان الأدنى أن يقتدي بالملائكة أصحاب المنزلة العليا ، في الخضوع لله وعبادته .

والملائكة عند الله مكانة لا مكانا ، لأن الله منزّه عن المكان ، فالمكان مخلوق ، والله لا يحل في مخلوقاته ، ولا يحصر في مكان ولا جهة ولا حيّز ، فهو سبحانه أكبر من كل شيء . كان الله ، ولا مكان ، ولا زمان ، وهو الآن حيث كان ، وهو الآن كما كان ، يُغيّر ولا يتغيّر .

وهذه الآية آية سجدة . وفي هذا إشارة واضحة إلى ضرورة الاقتداء بالملائكة في طاعة الله ، والتواضع له ، والخضوع لأوامره ، والتذلل لعظمته ومجده وسلطانه والسجود له .

قال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٠٩) : ((إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ المراد بهم الملائكة ، قال القرطبي : بالإجماع . قال الزجاج : وقال : ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ والله عزَّ وجلَّ بكلِّ مكان ، لأنهم قريبون من رحمته ، وكلُّ قريب من رحمة الله عزَّ وجلَّ فهو عنده ، وقال غيره : لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله ، وقيل : إنهم رُسُلُ الله ، كما يُقال : عند الخليفة جيّش كثير ، وقيل : هذا على جهة التشريف والتكريم لهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣١٤ و ٣١٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ، يَعْنِي : الْمَلَائِكَةَ ، ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، أَي : لَا يَتَكَبَّرُونَ وَيَتَعَطَّمُونَ ﴾ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ . وفي هذه العبادة قولان : أحدهما الطاعة ، والثاني الصلاة والخضوع فيها . وفي قوله : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ قولان : أحدهما يُنَزِّهُونَهُ عَنِ السُّوءِ . والثاني يقولون : سبحان الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ ، أَي : يُصَلُّونَ . وقيل : سبب نزول هذه الآية أن كفّار مكة قالوا : أنسجد لِمَا تأمُرنا ؟ ، فنزلت هذه الآية تُخبر أن الملائكة ، وهم أكبر شأنا منكم ، لا يتكبرون عن عبادة الله)) .

وفي صحيح مسلم (١ / ٨٧) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ بِيكِي ، يَقُولُ : يَا وَيْلَهُ _ يَا وَيْلَهُ _ يَعْنِي يَا وَيْلَ الشَّيْطَانِ _ ، أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَأَمَرَتْ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ)) . والمقصود بالسجدة آية السجدة .

إِذَا قَرَأَ الْمُسْلِمُ الْقُرْآنَ ، وَوَصَلَ لِقِرَاءَةِ آيَةٍ فِيهَا سُجُودٌ ، فَسَجَدَ سُجُودَ تِلَاوَةٍ ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي عَلَى مَا فَازَ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنْ امْتِثَالِهِ بِالسُّجُودِ ، يَقُولُ : يَا وَيْلِي ، أَي : يَا حُزْنِي وَيَا هَلَاقِي ، وَهَذَا إِظْهَارٌ لِلنَّدَمِ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ عِصْيَانِ الشَّيْطَانِ لِلَّهِ ، وَعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِأَمْرِهِ ، بَيْنَمَا أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ ، فَلَهُ نَعِيمُ الْجَنَّةِ الْأَبَدِيِّ ، وَأَمَرَ الشَّيْطَانُ بِالسُّجُودِ فَفَرَّقَ ، فَاسْتَحَقَّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ لِعَدَمِ امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ فَضْلَ السُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٧١ / ٢) : ((وَقَوْلُهُ : " يَا وَيْلَهُ " هُوَ مِنْ آدَابِ الْكَلَامِ ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ فِي الْحِكَايَةِ عَنِ الْغَيْرِ مَا فِيهِ سُوءٌ ، وَاقْتَضَتْ الْحِكَايَةُ رُجُوعَ الضَّمِيرِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ ، صَرَفَ الْحَاكِي الضَّمِيرَ عَنِ نَفْسِهِ تَصَاوُفًا عَنْ صُورَةِ إِضَافَةِ السُّوءِ إِلَى نَفْسِهِ)) .

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٤١٥ و ٤١٦) : ((إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ (أَي آيَتَهَا) فَسَجَدَ) لِلتَّلَاوَةِ (اعْتَزَلَ) أَي : تَبَاعَدَ ، وَكُلُّ مَنْ عَدَلَ إِلَى جَانِبٍ فَهُوَ مُعْتَزِلٌ (الشَّيْطَانُ) إِبْلِيسُ قَالَ عَهْدِيَّةٌ (يَبْكِي يَقُولُ) حَالَانِ مِنْ فَاعِلٍ اعْتَزَلَ ، مُتْرَادِفَانِ أَوْ مُتَدَاخِلَانِ (يَا وَيْلَهُ) فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ : يَا وَيْلَتِي ، وَفِي أُخْرَى : يَا وَيْلِي ، وَفِي أُخْرَى : يَا وَيْلَنَا . وَأَلْفُهُ لِلنَّدْبَةِ وَالتَّفَجُّعِ ، أَي : يَا هَلَاقِي وَيَا حُزْنِي ، اخْضُرُّ فَهَذَا أَوَانُكَ . جَعَلَ الْوَيْلَ مُنَادَى لِكثْرَةِ حُزْنِهِ ، وَهُوَ لِمَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ الْفَطِيحِ (أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ) وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ جَوَابٌ عَنِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ (فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ) بِطَاعَتِهِ (وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِي النَّارُ) وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ بَدَلَ فَعَصَيْتُ فَأَبَيْتُ . وَفِيهِ بَيَانٌ فَضِيلَةُ السَّجْدَةِ ، وَدَلِيلٌ عَلَى كُفْرِ إِبْلِيسَ . قَالَ الْحَنْفِيَّةُ : وَوَجُوبُ سَجْدَةِ التَّلَاوَةِ ، لِأَنَّ الْحَكِيمَ إِذَا حَكَى عَنِ غَيْرِ الْحَكِيمِ كَلَامًا وَلَمْ يَتَعَقَّبْهُ بِالْإِنْكَارِ كَانَ دَلِيلَ صِحَّتِهِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : سُنَّةٌ . وَتَسْمِيَةُ هَذَا أَمْرًا مِنْ كَلَامِ إِبْلِيسَ ، وَكَوْنُ الْمُصْطَفَى ﷺ حَكَاهُ وَلَمْ يُنْكِرْهُ لَا يُجَدِّدُهُمْ ، فَقَدْ حَكَى غَيْرُهُ مِنْ كَلَامِ الْكُفَّارِ وَلَمْ يُبْطَلْهُ وَهُوَ بَاطِلٌ . قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَنِدَاءُ الْوَيْلِ لِلتَّحَسُّرِ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ وَخُصُولِ اللَّعْنِ وَالطَّرْدِ وَالْخَيْبَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَلِلْحَسَدِ عَلَى مَا حَصَلَ لِآدَمَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْكَرَامَةِ وَالْفَوْزِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣] . إِنَّ اللَّهَ يُغِيضُ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ ، وَالآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِمَا ، الرَّافِضِينَ لَهُمَا عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا ، وَيُعَاقِبُهُمْ ، وَلَا يَمْدَحُهُمْ ، وَلَا يُثَبِّتُهُمْ . وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، يَأْخُذُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِقِسْطِهِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٥٧٤) : ((يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْخَذَ ، وَيَخْلَعُوا مَا دُونَهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ . كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ

عون قال : حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ عَنْ رَجُلٍ أَنَّ الْحَسْنَ بْنَ عَلِيٍّ كَانَ يَجْلِسُ إِلَى الْمَسَاكِينِ ، ثُمَّ يَقُولُ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٨٨) : ((﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ، أي : لا يُبْغِضُهُمْ ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ عَلَيْهِمْ . وَعَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ مَرَّ بِمَسَاكِينٍ قَدِ قَدَّمُوا كِسْرًا بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَأْكُلُونَ ، فَقَالُوا : الْعِدَاءُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَنَزَلَ وَجَلَسَ مَعَهُمْ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ : قَدْ أَجْبَتَكُمْ فَأَجْبِيُونِي ، فَقَامُوا مَعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَأَطْعَمَهُمْ وَسَقَاهُمْ وَأَعْطَاهُمْ وَأَنْصَرَفُوا . قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَكُلُّ ذَنْبٍ يُمَكِّنُ التَّسْتُرَ مِنْهُ وَإِخْفَاؤُهُ إِلَّا الْكِبْرُ ، فَإِنَّهُ فِئْتَقُ يَلْزَمُهُ الْإِعْلَانُ ، وَهُوَ أَصْلُ الْعِصْيَانِ كُلِّهِ .))
وروى الترمذي في سننه (٤ / ٦٥٥) وصححه : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده :
عن النبي ﷺ قال : ((يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُؤْلَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْفَقُونَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ)) .

تَوَعَّدَ اللَّهُ الْمُتَكَبِّرِينَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَالْكِبْرُ صِفَةٌ مَذْمُومَةٌ ، ذَمَّهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَحَدَّرَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ .
يَحْشَرُ اللَّهُ الْمُتَكَبِّرِينَ - وَالْكِبْرُ : إنكارُ الحقِّ وتحقيرُ الناسِ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ ، وَهُمْ فِي حَجْمِ النَّمْلِ الصَّغِيرِ ، عَلَى صُورِ الرِّجَالِ فِي هَيْئَتِهِمْ ، وَلَكِنْ حَجْمُهُمْ حَجْمُ النَّمْلِ فِي الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ ، تَنَالَهُمُ الْمَهَانَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، بَأَنَّ يَطَّأَهُمُ النَّاسُ وَيَدُوسُوا عَلَيْهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ ، وَذَلِكَ الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَكَبَّرُوا وَأَرَادُوا الْعِزَّةَ وَالْعُلُوَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ ، وَصَغَّرَ شَأْنَهُمْ ، وَحَقَّرَ أَمْرَهُمْ ، فَعُومِلُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا . فَتَسْوِقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِأَمْرِ رَبِّهَا إِلَى مَكَانٍ مُظْلِمٍ ضَيِّقٍ مُعَدٍّ لِلْحَبْسِ فِي جَهَنَّمَ ، أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُتَكَبِّرِينَ ، يُسَمَّى هَذَا السِّجْنَ بُؤْلَسَ ، قِيلَ : هُوَ مِنَ الْإِبْلَاسِ بِمَعْنَى الْيَأْسِ . وَلَعَلَّ هَذَا السِّجْنَ إِنَّمَا سُمِّيَ بِهِ ، لِأَنَّ الدَّخَالَ فِيهِ يَأْسُ مِنَ الْخَلَاصِ وَالنَّجَاةِ . تَأْتِي مِنْ فَوْقِهِمْ وَتُحِيطُ بِهِمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، جَمْعُ نَارٍ ، وَأَضْيَفَ إِلَيْهَا لَفْظُ نَارٍ ، لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْإِحْرَاقِ وَشِدَّةِ الْحَرِّ . وَقِيلَ : إِنَّهَا أَصْلُ نِيرَانِ الْعَالَمِ . تَسْقِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ بِأَمْرِ رَبِّهَا مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ، وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ دَمٍ وَقَيْحٍ وَصَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَهَذِهِ الْعُصَارَةُ تُسَمَّى طِينَةَ الْخَبَالِ ، أَيْ : الْفَسَادُ الَّذِي يَفْسُدُ بِهِ الْبَدَنُ .

وفي الحديث : ذَمُّ الْكِبْرِ وَالْمُتَكَبِّرِينَ ، وَبَيَانُ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ ، وَفِيهِ : تَعَدُّدُ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ فِي النَّارِ ، أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٧ / ١٦٢) : ((قوله :) يُحشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أمثال الدَّر) أي في الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ (في صُورِ الرِّجَالِ) أي مِن جِهَةِ وُجُوهِهِمْ ، أَوْ مِن حَيْثِيَّةِ
هَيْئَتِهِمْ مِن انتصابِ الْقَامَةِ (يَغشَاهُمُ الدُّلُّ) أي يَأْتِيهِمْ (مِن كُلِّ مَكَانٍ) أي مِن كُلِّ جَانِبٍ .
والمعنى أَنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي غَايَةِ مِنَ الْمَذَلَّةِ وَالنَّقِيسَةِ ، يَطَّاهِمُ أَهْلُ الْحَشْرِ بِأَرْجُلِهِمْ مِن هَوَانِهِمْ عَلَى
اللَّهِ . وفي النهاية: الدَّرُ النَّمْلُ الْأَحْمَرُ الصَّغِيرُ ، وَاحِدُهَا دَرَّةٌ (يُسَاقُونَ) بضم القاف أي يُسْحَبُونَ
وَيُجْرَوْنَ (إِلَى سِجْنٍ) أي مَكَانٍ حَبْسٍ مُظْلِمٍ مُضَيِّقٍ مُنْقَطِعٍ فِيهِ عَن غَيْرِهِ (يُسَمَّى) أي ذَلِكَ
السِّجْنُ (بولس) قال في المجمع : هو بفتح باء وسكون واو وفتح لام . وقال في القاموس :
بولس بضم الباء وفتح اللام : سِجْنٌ جَهَنَّمُ . وقال الحافظ المُنْذِرِيُّ : هو بِضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ وَسُكُونِ
الواو وفتح اللام ، انتهى (تَعْلُوهُمْ) أي تُحِيطُ بِهِمْ وَتَغْشَاهُمُ كَالْمَاءِ يَعْلوُ الْغَرِيقُ (نار الأنيار) قال
في النهاية : لَمْ أَجِدْهُ مَشْرُوحًا ، وَلَكِنْ هَكَذَا يُرْوَى ، فَإِنَّ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ :
نار النيران ، فجمع النار على أنيار ، وأصلها أنوار ، لأنَّها من الواو ، كما جاء في ريب وعبد أرياح
وأعياد ، وهما من الواو . انتهى . قيل : إِنَّمَا جَمَعَ نَارَ عَلَى أَنْيَارٍ وَهُوَ وَاوِي لِنَلَا يَشْتَبِهَ بِجَمْعِ النَّوْرِ .
قال القاضي : وإضافة النار إليها للمبالغة ، كأن هذه النار لِقَرْطِ إِحْرَاقِهَا وَشِدَّةِ حَرِّهَا تَفْعَلُ بِسَائِرِ
النيران ما تفعل النار بغيرها . انتهى . قال القاري : أَوْ لِأَنَّهَا أَصْلُ نيرانِ الْعَالَمِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي
يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ [الأعلى : ١٢] ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ : " نَارِكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِّنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِّنْ نَّارِ
جَهَنَّمَ " ، عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْبَيْضاوي . انتهى (وَيُسْقَوْنَ) بصيغة المجهول (مِن عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ)
بضم العين المُهْمَلَةِ ، وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّدِيدِ وَالْقَيْحِ وَالذَّمِّ (طِينَةِ الْخَبَالِ) بِالْجَرِّ بَدَلٍ مِنْ
عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ ، وَالْخَبَالُ بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الْفَسَادُ ، وَيَكُونُ فِي الْأَفْعَالِ
وَالْأَبْدَانِ وَالْعُقُولِ . قَوْلُهُ (هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ) وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ كَمَا فِي التَّرغِيبِ ، وَأَخْرَجَ عَبْدُ اللَّهِ
ابن أحمد في زوائد الرُّهْدِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " يُجَاءُ بِالْجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ رِجَالًا فِي
صُورِ الدَّرِّ يَطَّاهِمُ النَّاسُ مِنْ هَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ بِهِمْ إِلَى نَارِ الْأَنْيَارِ " .
قيل : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا نَارُ الْأَنْيَارِ ؟ ، قَالَ : " عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ " ، ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الْبَدْوَرِ
السَّافِرَةِ فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ . (تَنْبِيهِ) حَمَلَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ ﷺ : " يُحشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ
الدَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ " عَلَى الْمَجَازِ . قَالَ التُّورِيشِيُّ : يُحْمَلُ ذَلِكَ عَلَى الْمَجَازِ دُونَ الْحَقِيقَةِ .
أي : أَذْلَاءُ مُهَانِينَ يَطَّاهِمُ النَّاسُ بِأَرْجُلِهِمْ ، وَإِنَّمَا مَنَعَنَا عَلَى الْقَوْلِ بِظَاهِرِهِ مَا أَخْبَرَنَا بِهِ الصَّادِقُ
المَصْدُوقُ ﷺ أَنَّ الْأَجْسَادَ تُعَادُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُحشَرُونَ غُرْلًا يُعَادُ

منهم ما انفصلَ عَنْهُمْ مِنَ الثَّقَلَةِ ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله : " يَعْشَاهُمْ الدُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ " . قال الأشرف : إنما قال : " فِي صُورِ الرِّجَالِ " بَعْدَ قَوْلِهِ : " أَمْثَالُ الدَّرِّ " قَطْعًا مِنْهُ حَمْلُ قَوْلِهِ : " أَمْثَالُ الدَّرِّ " عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَدَفْعًا لَوْهَمٍ مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ الْمُتَكَبِّرَ لَا يُحْشَرُ فِي صُورَةِ الْإِنْسَانِ ، وَتَحْقِيقًا لِإِعَادَةِ الْأَجْسَادِ الْمَعْدُومَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ . وَقَالَ الْمُظْهِرُ : يَعْنِي صُورَهُمْ صُورَةَ الْإِنْسَانِ وَجُسَّتِهِمْ كَجُسَّةِ الدَّرِّ فِي الصَّغَرِ . قَالَ الطَّيْبِيُّ : لَفْظُ الْحَدِيثِ يُسَاعِدُ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّ قَوْلَهُ : " أَمْثَالُ الدَّرِّ " تَشْبِيهُ لَهُمْ بِالذَّرِّ ، وَلَا بُدَّ مِنْ بَيَانِ وَجْهِ الشَّبْهِ ، لِأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَجْهُ الشَّبْهِ الصَّغَرُ فِي الْجُنَّةِ ، وَأَنْ يَكُونَ الْحَقَارَةُ وَالصَّغَارُ ، فَقَوْلُهُ : " فِي صُورِ الرِّجَالِ " بَيَانٌ لِلْوَجْهِ وَدَفْعٌ وَهَمٍ مَنْ يَتَوَهَّمُ خِلَافَهُ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ الْأَجْسَادَ تُعَادُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ ، فَلَيْسَ فِيهِ أَنْ لَا تُعَادُ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ الْأَصْلِيَّةُ فِي مِثْلِ الدَّرِّ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ الْخِلَافُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأُصُولِيِّينَ . وَعَلَى هَذِهِ الْحَقَارَةُ مَلْزُومٌ هَذَا التَّرْكِيبُ ، فَلَا يُنَافِي إِرَادَةَ الْجُنَّةِ مَعَ الْحَقَارَةِ . قُلْتُ : الظاهر هو الحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَلَا مُخَالَفَةَ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَادَ تُعَادُ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ حَتَّى إِنَّهُمْ يُحْشَرُونَ غُرْلًا . قَالَ الْقَارِي : التَّحْقِيقُ أَنَّ اللَّهَ يُعِيدُهُمْ عِنْدَ إِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ عَلَى أَكْمَلِ صُورِهِمْ ، وَجَمَعَ أَجْزَائِهِمْ الْمَعْدُومَةَ ، تَحْقِيقًا لَوْصِفِ الْإِعَادَةِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ ، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ فِي مَوْقِفِ الْجَزَاءِ عَلَى الصُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ إِهَانَةً وَتَذْلِيلًا لَهُمْ جَزَاءً وَفَاقًا ، أَوْ يَتَصَاغَرُونَ مِنَ الْهَيْبَةِ الْإِلَهِيَّةِ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ إِلَى مَوْضِعِ الْحِسَابِ ، وَظُهُورِ أَثَرِ الْعُقُوبَةِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي لَوْ وُضِعَتْ عَلَى الْجِبَالِ لَصَارَتْ هَبَاءً مَنثورًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القَصَص : ٨٣] .

الإشارة للتَّعْظِيمِ . أَي : تِلْكَ الْجُنَّةُ الْعَالِيَةُ ذَاتِ الْمَكَانَةِ الْمُقَدَّسَةِ لَيْسَتْ فِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ ، بَلْ يَحْصُلُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الظُّلْمَ وَالِاسْتِكْبَارَ فِي الْأَرْضِ وَلَا الْفَسَادَ . أَي إِنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ تَكْبِيرًا وَتَجَبُّرًا وَتَعْظُمًا ، وَلَا عَمَلًا بِالْمَعَاصِي . وَذِكْرُ الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ نَكِيرَتَيْنِ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، يَدُلُّ عَلَى شُمُولِهِمَا وَعُمُومِهِمَا مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ وَلَا تَحْدِيدٍ . وَلَا شَكَّ أَنَّ عُلُوًّا مَكَانَةَ الْجُنَّةِ يُرَغِّبُ النَّاسَ فِي الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ نَيْلِهَا ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِنِعْمَتِهَا الدَّائِمِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/٢٤٨) : ((قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ يعني : الْجُنَّةُ ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ . وفيه خمسة أقوال : أحدها أَنَّهُ الْبَغْيُ ، قَالَهُ سَعِيدُ ابْنِ جُبَيْرٍ . وَالثَّانِي الشَّرْفُ وَالْعِزُّ ، قَالَهُ الْحَسَنُ . وَالثَّلَاثُ الظُّلْمُ ، قَالَهُ الصَّحَّاحُ . وَالرَّابِعُ الشَّرْكُ ، قَالَهُ

يحيى بن سَلام . والخامس الاستكبار عن الإيمان ، قاله مقاتل. قوله تعالى: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ فيه قولان: أحدهما العمل بالمعاصي، قاله عكرمة. والثاني الدعاء إلى غير عبادة الله، قاله ابن السائب. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، والعاقبة المحمودة للذين اتَّقوا عَذَابَ اللَّهِ بِأداء الطاعات ، وترك المعاصي. وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ١١٤): ((وقوله : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَالْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ اتَّقَوْا مَعَاصِيَ اللَّهِ ، وَأَدُّوا فَرَائِضَهُ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٢٦٨) : ((﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ ، أي : الْجَنَّةُ . والإشارة إليها لِقَصْدِ التعظيم لها، والتفخيم لشأنها ، كأنه قال : تِلْكَ التي سَمِعْتَ بِخَيْرِهَا وَبَلَعَكَ شَأْنُهَا ﴿ نَجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : رِفْعَةً وَتَكْبِيرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي : عَمَلًا بِمَعَاصِيَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِيهَا . وَذِكْرُ الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ مُنْكَرَيْنِ فِي حَيْزِ النَّفْيِ ، يَدُلُّ عَلَى شُمُولِهِمَا لِكُلِّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عُلُوٌّ وَأَنَّهُ فَسَادٌ ، مِنْ غَيْرِ تَخْصِيسِ بِنَوْعٍ خَاصٍ ، أَمَّا الْفَسَادُ فَظَاهِرٌ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ شَيْءٌ مِنْهُ كَائِنًا مَا كَانَ ، وَأَمَّا الْعُلُوُّ فَالْمَمْنُوعُ مِنْهُ مَا كَانَ عَلَى طَرِيقِ التَّكْبِيرِ عَلَى الْغَيْرِ ، وَالتَّطَاوُلُ عَلَى النَّاسِ ، وَليْسَ مِنْهُ طَلَبُ الْعُلُوِّ فِي الْحَقِّ ، وَالرِّئَاسَةِ فِي الدِّينِ ، وَلَا مَحَبَّةَ اللَّبَاسِ الْحَسَنِ ، وَالمَرْكُوبِ الْحَسَنِ ، وَالمَنْزِلِ الْحَسَنِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [ص : ٧٣] .

فَسَجَدَ جميعُ الملائكة لآدم ﷺ إكرامًا واحترامًا ، وامتنانًا لأمر الله ، وتعظيمًا له . وفي الآية تأكيدٌ بِمُؤَكِّدَيْنِ ، فقد أَكَّده أَوَّلًا بلفظ " كُلُّ " للإحاطة ، ثُمَّ بلفظ " أَجْمَعُونَ " للاجتماع . وهذا يدلُّ على أَنَّ جميعَ الملائكة سَجَدُوا بلا استثناء في وقت واحد ، مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٦٠٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : فَلَمَّا سَوَى اللَّهُ خَلْقَ ذَلِكَ الْبَشَرِ ، وَهُوَ آدَمُ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، سَجَدَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٦٣٢) : ((﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ ﴾ في الكلام حذف تدلُّ عليه الفاء ، والتقدير : فَخَلَقَهُ ، فَسَوَّاهُ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، فَسَجَدَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ كُلُّهُمْ ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُمْ سَجَدُوا جَمِيعًا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى السُّجُودِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، فَالْأَوَّلُ لِقَصْدِ الإِحاطَةِ ، وَالثَّانِي لِقَصْدِ الْجَمْعِ . قَالَ فِي الْكَشَافِ : فَأَفَادَا مَعًا أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، مَا بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا سَجَدَ ، وَأَنَّهُمْ سَجَدُوا جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَوْقَاتٍ . وَقِيلَ إِنَّهُ أَكَّدَ بِتَأْكِيدَيْنِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْمِيمِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص : ٧٤] .
 إِلا إِبْلِيسَ ، وهو أَبُو الْجِنِّ ، كان بين الملائكة ، اسْتَكْبَرَ عن طاعة الله ، وَرَفَضَ السُّجُودَ لِآدَمَ ،
 وكان في عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، أَوْ : وصارَ مِنَ الْكَافِرِينَ باستنكاره أمر الله واستكباره عن طاعته .
 وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٦٠٥) : ((﴿إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ ، يقول : غير إِبْلِيسَ ،
 فَإِنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ ، اسْتَكْبَرَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ تَعْظُمًا وَتَكْبِيرًا ، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ، يقول : وكان
 يَتَعَظَّمُهُ ذَلِكَ ، وَتَكْبَرَهُ عَلَى رَبِّهِ وَمَعْصِيَتِهِ أَمْرَهُ ، مِمَّنْ كَفَرَ فِي عِلْمِ اللَّهِ السَّابِقِ ، فَجَحَدَ رُبُوبِيَّتَهُ ،
 وَأَنْكَرَ مَا عَلَيْهِ الْإِقْرَارُ لَهُ بِهِ مِنَ الْإِذْعَانِ لَهُ بِالطَّاعَةِ . كما حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ قَالَ : قال أبو بكر في
 ﴿إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ، قال ابن عباس : كان في عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
 الْعَالِينَ﴾ [ص : ٧٥] .

قال الله لإِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ وَخَالَفَ أَمْرَهُ : ما الذي صَرَفَكَ وَصَدَّكَ عَنِ السُّجُودِ لِمَا
 خَلَقْتَهُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةِ أَبِ وَأُمِّ ؟ . أي : تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ بَدَائِي ، وهذا تشريف لآدم ، وتكريم له ،
 فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَتَوَلَّى اللَّهُ خَلْقَهُ دُونَ غَيْرِهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥ / ٢٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ ، أي :
 صَرَفَكَ وَصَدَّكَ ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ ، أي : عَنِ أَنْ تَسْجُدَ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ ، أَضَافَ خَلْقَهُ إِلَى
 نَفْسِهِ تَكْرِيمًا لَهُ ، وَإِنْ كَانَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا كَمَا أَضَافَ إِلَى نَفْسِهِ الرُّوحَ وَالْبَيْتَ وَالنَّاقَةَ
 وَالْمَسَاجِدَ ، فَخَاطَبَ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَهُ فِي تَعَامُلِهِمْ ، فَإِنَّ الرَّئِيسَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ لَا يُبَاشِرُ شَيْئًا
 بِيَدِهِ إِلا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْظَامِ وَالتَّكْرُمِ ، فَذَكَرُ الْيَدَ هُنَا بِمَعْنَى هَذَا . قال مُجَاهِدٌ : الْيَدُ هَاهُنَا بِمَعْنَى
 التَّأَكِيدِ وَالصَّلَةِ ، مَجَازَهُ لِمَا خَلَقْتُ أَنَا ، كَقَوْلِهِ : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحْمَنِ : ٢٧] ، أي :
 يَبْقَى رَبُّكَ . وَقِيلَ : التَّشْبِيهِ فِي الْيَدِ فِي خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِمَعْنَى النِّعْمَةِ وَالقُوَّةِ
 وَالقُدْرَةِ ، وَإِنَّمَا هُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ تَعَالَى ، وَقِيلَ : أَرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةَ ، يُقَالُ : مَا لِي بِهَذَا
 الْأَمْرِ يَدٌ ، وَمَا لِي بِالْحِمْلِ التَّقِيلِ يَدَانِ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْخَلْقَ لَا يَقَعُ إِلا بِالْقُدْرَةِ بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَالَ
 الشَّاعِرُ : تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ
 وَقِيلَ : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ ، لِمَا خَلَقْتُ بِغَيْرِ وَاسْطَةِ)) .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ . أَسْتَكْبَرْتَ الْآنَ عَنِ السُّجُودِ أَمْ كُنْتَ قَدِيمًا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ
 عَلَى رَبِّكَ ؟ . وهذا استفهام للتوبيخ والتفريع لامتناعه عن السُّجُودِ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٠٢) : ((أستكبرت بنفسك حتى أبيت السجود أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت عن السجود لكونك منهم ؟)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٥٥) : ((قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)) ، خلقتة بنفسه من غير توسط كآب وأم ، والتثنية لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم ، أو بأنه الذي تشبث به في تركه ، وهو لا يصلح مانعا ، إذ للسيد أن يستخدم بعض عبده لبعض سيما وله مزيد اختصاص .
﴿ أستكبرت أم كنت من العالين ﴾ تكبرت من غير استحقاق أو كنت ممن علا واستحق التَّفُوقُ ؟ .
وقيل : استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المُستكبرين ؟)) .

وقال الله تعالى : ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين ﴾ [ص : ٧٦] .

قال إبليس : أنا أعظم من آدم وأشرف وأفضل ، لأنني مخلوق من النار ، وآدم مخلوق من الطين ، فكيف يسجد الأعلى للأدنى ، والفاضل للمفضول ؟^{١٦٥} .

والآية دليل على أن إبليس من الجن ، لأن الملائكة خلِقُوا مِنَ النُّورِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٥٧) : ((فامثل الملائكة كلهم ذلك _ يعني السجود لآدم _ سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا . كان من الجن ، فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه ، فاستكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من

١٦٥ قال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٧٢) : ((وقول إبليس لعنه الله : ﴿ أنا خير منه ﴾ [الأعراف: ١٢] من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة ، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟ . ثم بين أنه خير منه بأنه خُلِقَ مِنَ نارٍ ، والنار أشرف مما خلقت منه وهو الطين ، فنظر العين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه . وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص قوله تعالى : ﴿ فقعدوا له ساجدين ﴾ ، فشدد من بين الملائكة لترك السجود ، فهذا أبلس من الرحمة ، أي : وأيس من الرحمة فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا، فإن الطين من شأنه الرزانة ، والحلم، والأناة، والتثبت. والطين محل النبات ، والتُّمو ، والزيادة، والإصلاح . والنار من شأنها الإحراق ، والطيش ، والسرعة ، ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع ، والإنابة ، والاستكانة ، والانقياد، والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف ، وطلب التوبة والمغفرة)) .

نار، وآدم خُلِقَ مِنْ طِينٍ، والنار خَيْرٌ مِنَ الطينِ فِي زَعْمِهِ، وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله تعالى ، وكَفَرَ بذلك، فأبعده اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وأرغمَ أَنْفَهُ، وطَرَدَهُ عن باب رحمته ومَحَلِّ أَنْبَسِهِ وَخَضْرَةَ قُدْسِهِ، وَسَمَّاهُ إبليسَ إعلَامًا له بأنه قد أبلَسَ مِنَ الرحمة، وأنزله من السماء مَذْمُومًا مَدْحُورًا إِلَى الأرض)) .
 وقال الشُّوكَانِي فِي فتح القدير (٤ / ٦٣٣) : ((وَجُمْلَةٌ ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ ، جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ . ادَّعَى اللّٰعِينُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ، وَفِي ضِمْنِ كَلَامِهِ هَذَا: أَنَّ سُجُودَ الْفَاعِلِ لِلْمَفْضُولِ لَا يَحْسُنُ ، ثُمَّ عَلَّلَ مَا ادَّعَاهُ مِنْ كَوْنِهِ خَيْرًا مِنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، وَفِي زَعْمِهِ أَنَّ عُنْصَرَ النَّارِ أَشْرَفُ مِنْ عُنْصَرِ الطِّينِ ، وَذَهَبَ عَنْهُ أَنَّ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْخَادِمِ لِعُنْصَرِ الطِّينِ إِنْ اِحْتِيَجَ إِلَيْهَا اسْتُدْعِيَتْ ، كَمَا يُسْتَدْعَى الْخَادِمُ ، وَإِنْ اسْتُعِينِي عَنْهَا طُرِدَتْ . وَأَيْضًا فَالطِّينُ يَسْتَوْلِي عَلَى النَّارِ فَيُطْفِئُهَا ، وَأَيْضًا فَهِيَ لَا تَوْجِدُ إِلَّا بِمَا أَصْلُهُ مِنْ عُنْصَرِ الْأَرْضِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَقَدْ شَرَّفَ آدَمَ بِشَرَفٍ ، وَكَرَّمَ بِكَرَامَةٍ لَا يُؤَاوِيهَا شَيْءٌ مِنْ شَرَفِ الْعُنْصَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَالْجَوَاهِرُ فِي أَنْفُسِهَا مُتَجَانِسَةٌ ، وَإِنَّمَا تَشْرَفُ بِعَارِضٍ مِنْ عَوَارِضِهَا)) .

استنقص إبليسُ آدمَ ﷺ باعتبار النوع والأصل، وفضل النارَ على الطينِ ، وهذا جهلٌ منه ، ففاسَ مع وجود النَّصِّ ، فأخطأ القياسَ . ولقد أخطأ إبليسُ اللعينُ حيث حصَّ الفضلَ بما من جهة المادة والعنصر ، وغاب عنه ما من جهة الفاعل .

لقد سَنَّ إبليسُ التَّكْبِيرَ ، واعتمد على عقله القاصر ورأيه المُجَرَّدَ فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْيِيحِ . وَقَدَّمَ إبليسُ تَبْرِيرَهُ الْوَاهِي ، فَقَالَ : خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ، وَخَلَقْتَ آدَمَ مِنْ طِينٍ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ النَّارَ أَعْظَمُ مِنَ الطِّينِ ، وَعُنْصَرُ إبليسِ أَرْقَى وَأَفْضَلُ مِنْ عُنْصَرِ آدَمَ . وَقَدْ انْحَصَرَ تَفْكِيرُ إبليسِ الْخَبِيثِ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى وُجُوبِ تَنْفِيذِ أَمْرِ اللَّهِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ . وَالشَّرِيفُ مَنْ شَرَّفَهُ اللَّهُ ، وَالْفَاعِلُ مَنْ نَفَذَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ ارْتَكَبَ إبليسُ الْخَطَأَ الْقَاتِلَ حِينَ قَاسَ بِعَقْلِهِ الْقَاصِرِ مَعَ وُجُودِ الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ بِمُطَلَقِهِ بِلَا قَرِينَةٍ .

وَحَفِيَّ عَلَى إبليسِ أَنَّ الطِّينَ أَفْضَلُ مِنَ النَّارِ ، وَعُنْصَرُ آدَمَ أَعْظَمُ وَأَرْقَى مِنْ عُنْصَرِ إبليسِ . فَمَنْ طَبَعَ الطِّينَ الْهُدُوءَ وَالرَّزَانَةَ ، وَمَنْ طَبَعَ النَّارَ الطَّيْشَ وَالْإِلْتِهَابَ . وَالطِّينُ سَبَبُ الْإِنْبَاتِ وَالْإِبْجَادِ ، وَالنَّارُ سَبَبُ الْإِعْدَامِ وَالْإِهْلَاكِ . وَالطِّينُ سَبَبُ جَمْعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالنَّارُ سَبَبُ تَفْرِيقِهَا . كَانِ يَجِبُ عَلَى إبليسِ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَهِيَ أَفْضَلُ مِنَ الْقِيَاسِ ، فَعَصَى اللَّهَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ بِرَأْيِهِ، وَالْقِيَاسُ الْمُخَالَفُ لِلنَّصِّ بَاطِلٌ وَمَرْدُودٌ، وَقِيَاسُ إبليسِ عِنَادٌ لِلْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ ، وَتَكْبَرٌ عَلَيْهِ.

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٦٠٦) : ((قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ)) ، يقول جَلَّ ثَنَاؤُهُ : قال إبليسُ لِرَبِّهِ : فعلتُ ذلكَ فلمَ أَسْجُدُ للذي أمرتني بالسُّجودِ له ، لأنِّي خيرٌ منه ، وكُنْتُ خَيْرًا لَأَنَّكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الطِّينَ وَتُحْرِقُهَا ، فَالنَّارُ خَيْرٌ مِنْهُ ، يقول : لِمَ أفعل ذلكَ استكبارًا عليك ، ولا لأنِّي كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ ، وَلَكِنِّي فَعَلْتُهُ مِنْ أَجْلِ أَنِّي أَشْرَفُ مِنْهُ ، وَهَذَا تَقْرِيعٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَبَوَا الْإِنْقِيَادَ لَهُ وَاتَّبَعُوا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ اسْتِكْبَارًا عَنْ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حِينَ قَالُوا : ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنَا الدُّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [ص : ٨] ، و ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٣] ، فَفَصَّ عَلَيْهِمُ تَعَالَى ذِكْرَهُ قِصَّةَ إِبْلِيسَ ، وَاهْلَاكِهِ بِاسْتِكْبَارِهِ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ بِدَعْوَاهُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ خَلِقَ مِنْ نَارٍ ، وَخَلِقَ آدَمَ مِنْ طِينٍ ، حَتَّى صَارَ شَيْطَانًا رَجِيمًا ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ لَعْنَتُهُ ، مُحَذِّرُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَحِقُّوا بِاسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ حَسَدًا وَتَعْظُمًا ، مِنَ اللَّعْنِ وَالسَّنْخَطِ مَا اسْتَحَقَّهُ إِبْلِيسُ بِتَكْبَرِهِ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ)) .

وفي تفسير البغوي (١ / ٢١٦) : ((قال ابن عباس : أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ ، فَأَخْطَأَ الْقِيَاسَ ، فَمَنْ قَاسَ الدِّينَ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِهِ ، قَرَنَهُ اللَّهُ مَعَ إِبْلِيسَ)) .

وعن ابن سيرين قال: ((أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ، وَمَا عُيِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقْيَاسِ))^{١٦٦} .
كُلُّ مَنْ يَقِيَسُ أُمُورَ الدِّينِ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ دُونَ عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ ، فَسَلَفُهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ إِبْلِيسُ الَّذِي أَعْرَضَ عَنِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِسَبَبِ لَوْثَةٍ فِي عَقْلِهِ الْمَحْدُودِ . فَيَنْبَغِي لِلْمَرْءِ قَبْلَ إِصْدَارِهِ لِلْأَحْكَامِ أَنْ يَتَشَبَّهَ ، وَيُنْبِيْ أَفْكَارَهُ عَلَى قَاعِدَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ صُلْبَةٍ ، فَيَسْعَى إِلَى الْحَقِّ جَاهِدًا ، بِإِلْهَامِ ذَاتِيَّةٍ ، وَلَا مِصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ . وَلَا يُمَكِّنُ الْوَصُولَ إِلَى الْحَقِّ إِلَّا عَبْرَ سُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، فَالغَايَةُ الصَّالِحَةُ لَا بُدَ لَهَا مِنْ طَرِيقِ صَالِحٍ . وَمَا بُنِيَ عَلَى بَاطِلٍ فَهُوَ بَاطِلٌ .

وقال الله تعالى: ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الرُّم: ٧٢] .
قِيلَ لِلْكَفَّارِ : ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ لِتَتَعَذَّبُوا فِيهَا ، مَا كَثُرَ فِيهَا أَبَدًا ، لَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا ، وَلَا زَوَالَ لَكُمْ عَنْهَا ، فَبِئْسَ مَأْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ جَهَنَّمَ . وَقَدْ قَادَهُمْ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ السَّيِّئَةِ وَالْعَاقِبَةُ الْوَحِيمَةُ تَكْبُرُهُمْ فِي الدُّنْيَا عَنِ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ ، وَرَفْضِهِمْ اتِّبَاعَ الْحَقِّ .
وفي الآية إبهام للقائل لتحويل ما يُقال لهم .

١٦٦ رواه الطبري في تفسيره (٥ / ٤٣٨) بسند صحَّحه ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٧٢) .

وقال الطبري في تفسيره (٣٢ / ١١) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : فَتَقُولُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا حِينُذُ : ﴿ اَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ السَّبْعَةَ عَلَى قَدَرٍ مَنَازِلِكُمْ فِيهَا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ، يقول : ما كُنْتُمْ فِيهَا ، لَا يَنْقَلِبُونَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ، ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ، يقول : فَبِئْسَ مَسْكَنَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَلَى اللَّهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُوحِّدُوهُ وَيُفَرِّدُوا لَهُ الْأُلُوهَةَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا ﴾ [غافر : ٣٥] .

إِنَّ اللَّهَ يَخْتِمُ بِالضَّلَالِ عَلَى قُلُوبِ جَمِيعِ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ ، الْمُتَجَبِّرِينَ عَلَى الْعِبَادَةِ ، حَتَّى لَا يَقْبَلُوا الرَّشَادَ ، وَلَا يَقْبَلُوا الْحَقَّ . وَالْقَلْبُ هُوَ مَحَلُّ التَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ وَمَرْكَزُهُمَا وَمَنْبِعُهُمَا ، وَهُوَ مَلِكُ الْأَعْضَاءِ ، وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا . وَجَمِيعُ الْأَعْضَاءِ تَابِعَةٌ لِلْقَلْبِ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ . وَمَتَى فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَتِ الْأَعْضَاءُ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْقَلْبُ تَكَبَّرَ صَاحِبُهُ ، وَبِالْعَكْسِ .

وقال الطبري في تفسيره (٥٩ / ١١) : ((يَقُولُ : كَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُوحِّدَهُ وَيُصَدِّقَ رُسُلَهُ ، جَبَّارًا : يَعْنِي مُتَعَطِّمًا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ)) .

وفي فتح الباري (٤٨٩ / ١٠) : ((قَالَ الْغَزَالِيُّ : الْكِبْرُ عَلَى قِسْمَيْنِ ، فَإِنْ ظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ يُقَالُ : تَكَبَّرَ ، وَإِلَّا قِيلَ فِي نَفْسِهِ : كَبُرَ . وَالْأَصْلُ هُوَ الَّذِي فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ الْاسْتِرْوَاحُ إِلَى رُؤْيَةِ النَّفْسِ ، وَالْكِبْرُ يَسْتَدْعِي مُتَكَبِّرًا عَلَيْهِ يَرَى نَفْسَهُ فَوْقَهُ ، وَمُتَكَبِّرًا بِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

يُوجِّهُ اللَّهُ عِبَادَهُ إِلَى أَنْ يَدْعُوهُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ . وَقَدْ تَكَفَّلَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . ادْعُونِي وَاطْلُبُوا مِنِّي ، أُعْطِكُمْ مُرَادَكُمْ وَحَاجَاتِكُمْ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْكُمْ . وَالآيَةُ وَعِدَّةٌ لِلأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْإِجَابَةِ عِنْدَ الدَّعَاءِ بِلا واسطة ، وَهَذَا مِنْ خُصُوصِيَّاتِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَيَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِهَا الْجَلِيلَةِ ، وَمَنْزِلَتِهَا الشَّرِيفَةِ . فِي حِينِ أَنْ الأُمَّةَ السَّابِقَةَ كَانَتْ تَطْلُبُ مِنْ أَنْبِيَائِهَا أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ لَهَا فِي حَوَائِجِهَا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣٤ / ٧) : ((قَوْلُهُ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : وَحَدُونِي وَاعْبُدُونِي أُثْبِتْكُمْ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي : سَلُونِي أُعْطِكُمْ ، قَالَه السُّدِّيُّ)) .
إِنَّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ ، كَمَا كَانُوا مُمْتَنِعِينَ مُسْتَكْبِرِينَ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٠٩) : ((وهذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم جليل ، حيث توعد من ترك طلب الخير منه ، واستدفاع الشر به ، بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة العظيمة ، فإيا عباد الله وجهوا رغباتكم ، وعولوا في كل طلباتكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التعويل عليه ، وكفل لكم الإجابة به بإعطاء الطلبة ، فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ومملكه الواسع ما يحتاجه من أمور الدنيا والدين)) .

وعن النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ))، ثُمَّ قَرَأَ: ((رَبُّكُمْ اذْعُونِي اَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))^{١٦٧} .
الدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي حَثَّ عَلَيْهَا الشَّرْعُ ، وَرَغَّبَ فِيهَا ، وَفِيهَا يَكُونُ الْعَبْدُ قَرِيبًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَفِي الدُّعَاءِ يَقِفُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ سَائِلًا حَاجَتَهُ ، مُتَوَسِّلًا إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ ، مُثَبِّتًا عَلَيْهِ بِلِسَانِهِ ، لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى .

إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، لِأَنَّهُ تَوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ ، وَإِعْرَاضٍ عَنِ الْمَخْلُوقِينَ . وَالْعَبْدُ فِي دُعَائِهِ لِلَّهِ يَكُونُ مُعْتَرِفًا بِكَمَالِ رَبُّوبِيَّتِهِ وَأُلُوْهِيَّتِهِ ، وَيَكُونُ مُقْبِلًا عَلَى اللَّهِ ، مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِهِ ، يَدْعُوهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، لَا يَدْعُو أَحَدًا غَيْرَهُ مِنْ نَبِيِّ أَوْ وَلِيِّ ، مُسْتَعِينًا بِهِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وقد أمر الله بدُعائه ، مما يدلُّ على أنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَمَنْ تَرَكَهَا فَهُوَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ . وَمَعْنَى : « اذْعُونِي » اَعْبُدُونِي ، وَقِيلَ : اَسْأَلُونِي ، لِأَنَّ الدُّعَاءَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ دُعَاءَ عِبَادَةٍ ، وَهُوَ الشُّنَاءُ عَلَى اللَّهِ بِصِفَاتِهِ الْعَظِيمَةِ وَأَسْمَائِهِ الْمُقَدَّسَةِ ، أَوْ دُعَاءَ مَسْأَلَةٍ ، وَهِيَ سُؤَالُ الْعَبْدِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَتَهُ ، وَطَلْبُ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ . « اَسْتَجِبْ لَكُمْ » : أَثْبِتْكُمْ عَلَى عِبَادَتِكُمْ ، وَأَعْطِكُمْ مَا تَسْأَلُونَ . « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي » ، أَي : يَكُونُونَ مُتَكَبِّرِينَ عَنْ عِبَادَتِي وَدُعَائِي ، « سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » ، أَي : يَكُونُونَ جَزَاءَهُمْ أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ النَّارَ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ ، جَزَاءَ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنْ دُعَاءِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ .

وفي الحديث : الحثُّ على الدُّعَاءِ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ جَزَاءَ الْاسْتِكْبَارِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ .

١٦٧ رواه الترمذي في سننه (٥ / ٣٧٤) برقم (٣٢٤٧) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

وفي عون المعبود (٢٤٧ / ٤) : (((الدعاء هو العبادة) أي : هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تُسمى عبادة لدلالته على الإقبال على الله ، والإعراض عمّا سواه ، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه، قائمًا بوجوب العبودية، مُعترفًا بحق الربوبية، عالمًا بنعمة الإيجاد، طالبًا لمدد الإمداد على وفق المُراد وتوفيق الإسعاد ، كذا في المِرْقاة . وقال الشيخ في اللمعات : الخَصْر للمُبَالِغَة، وقراءة الآية تعليل بأنه مأمور به فيكون عبادة، أفله أن يكون مُستحبة، وآخر الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، والمُرَاد بِعِبَادَتِي هو الدعاء، ولُحُوق الوعيد يُنظر إلى الوجوب، لكن التحقيق أن الدعاء ليس بواجب، والوعيد إنما هو على الاستكبار. انتهى (﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾) قيل: استدل بالآية على أن الدعاء عبادة، لأنه مأمور به، والمأمور به عبادة. وقال القاضي: استشهد بالآية لدلالته على أن المقصود يترتب عليه ترتيب الجزاء على الشرط ، والمُسَبَّب على السبب، ويكون أتم العبادات ، وقال الطيبي رحمه الله: يُمكن أن تُحمَل العبادة على المعنى اللغوي ، وهو غاية التذلل والافتقار والاستكانة ، وما شَرِعت العبادة إلا للخُضوع للبارئ ، وإظهار الافتقار إليه ، وينصُر هذا التأويل ما بعد الآية المُشْتَلِوَة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، حيث عبّر عن عدم الافتقار والتذلل بالاستكبار ، ووَضَعَ عِبَادَتِي مَوْضِع دُعَائِي ، وجَعَلَ جَزَاءَ ذَلِكَ الاستكبار الهَوَان والصَّغَار)) .

وقال المناوي في فيض القدير (١٢ / ٣) : (((إِنَّهُ) أي الشَّان (مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ تَعَالَى) أي يَطْلُبُ مِنْ فَضْلِهِ (يَغْضَبُ عَلَيْهِ) لأنه إمَّا قَانَط ، وإمَّا مُتَكَبِّر ، وكُلُّ واحدٍ مِنَ الْأُمْرَيْنِ مُوجِبُ الغضب . قال بعضُ المُفسِّرين في قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، أي : عَنْ دُعَائِي ، فهو سُبْحَانَهُ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ ، وَأَنْ يُلْحَقَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ يُغْضِبْهُ ، وَالْمَبْغُوضُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ . قال ابن القَيِّم : هذا يدلُّ على أَنَّ رِضَاهُ فِي مَسْأَلَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَإِذَا رَضِيَ الرَّبُّ تَعَالَى فَكُلُّ خَيْرٍ فِي رِضَاهُ ، كَمَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ وَمُصِيبَةٍ فِي غَضَبِهِ . والدُّعَاءُ عِبَادَةٌ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، فهو تَعَالَى يَغْضِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ ، كَمَا أَنَّ الْأَدْمِيَّ يَغْضِبُ عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُ

اللَّهُ يَغْضِبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْلَهُ وبنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضِبُ

فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ ، وَسُحْقًا لِمَنْ عَلِقَ بِالْأَثَرِ ، وَأَبْعَدَ عَنِ الْعَيْنِ . قال الحلبي : وإذا كان هكذا، فما ينبغي لأحد أن يُخْلِى يَوْمًا وَلَيْلَةً مِنَ الدُّعَاءِ ، لِأَنَّ الزَّمَانَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ، وما وراءهما تَكَرُّارٌ ، فإذا كان ترك الدعاء أصلًا يُوجِبُ الغضب ، فأدنى ما في تركه يوم وليلة أن يكون مكروهًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فاليوم نُجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

في يوم القيامة (يوم الجزاء) تتألمون أيها الكفار عذاب اللذ والجزى والعار والهوان ، بسبب تكبركم في الدنيا عن الإيمان بالله وعبادته ، وبسبب خروجكم عن طاعة الله ، وارتكاب المعاصي . لقد جعل الله السبب في عذابهم أمرين : التكبر عن اتباع الحق ، والعمل بمعاصي الله تعالى ، وهذا شأن الكفار على مدار التاريخ ، فإنهم يجمعون بينهما .

وقال الطبري في تفسيره (٢٨٨ / ١١) : ((يقول تعالى ذكره : يُقَالُ لَهُمْ : ﴿ فاليوم ﴾ أيها الكافرون الذين أذهبوا طيباتكم في حياتهم الدنيا ﴿ نُجْزُونَ ﴾ أي : تُثَابُونَ ﴿ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ ، يعني عذاب الهوان ، وذلك عذاب النار الذي يُهينهم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، يقول : بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على ربكم ، فتأبون أن تخلصوا له العباداة ، وأن تُدعوا لأمره ونهيه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ، أي : بغير ما أباح لكم ربكم وأذن لكم به ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ ، يقول : بما كنتم فيها تُخالِفون طاعته فتعصونه)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٠٢ / ٤) : ((فَجُوزُوا مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، فَكَمَا مَتَّعُوا أَنْفُسَهُمْ ، واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي ، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة ، والمنازل في الدركات المُفْطِعة ، أجازنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله)) .

٦_ الغرور

قال الله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

هذا تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة . وأيضاً ، ترهيد في العمل للدنيا ، وترغيب في العمل للآخرة .

ليست الدنيا إلا دار فانية . وشهواتها ولذاتها وزينتها زائلة . وهذا يدل على أن الدنيا حقيرة وضئيلة فانية ، ليس لها وزن ولا قيمة . والحياة الدنيا وزخارفها وهم قاتل ، وخديعة بصرية ، لا حقيقة لها عند التمهيص ، ولا صحة لها عند الاختبار . والشهوات الدنيوية متاع زائل ذاهب إلى الفناء ، لكن زخارف الدنيا تغر الإنسان وتخدعه ، وتُمَيِّيه بطول البقاء ، ولكن لا مجال للبقاء في دار الفناء . وصدق الشاعر: إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

ومعنى ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ مُتَعَةٌ يَتَمَتَّعُ بِهَا الْعَبْدُ قَلِيلًا ثُمَّ تَفْنَى ، وَالدُّنْيَا تَخْدَعُ مَنْ تَعَلَّقَ بِهَا ، وَاسْتِكَانَ إِلَيْهَا . وَحُطَامُ الدُّنْيَا الزَّائِلُ يَغُرُّ الْإِنْسَانَ بِمَا يُمَنِّيهِ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ ، وَهُوَ يَنْقَطِعُ عَنْ قَرِيبٍ . وَالنَّاسُ يَغْرِقُونَ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي ، وَيَبْحَثُونَ عَنِ اللَّذَّةِ الْوَهْمِيَّةِ ، وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّ هَذَا هُوَ طَرِيقُ الْأَلَمِ ، وَسَبَبُ الْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ . فَيَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَعَدَمُ الرُّكُونِ إِلَيْهَا ، فَإِنَّمَا هِيَ مُتَعَةٌ مُؤَقَّتَةٌ وَزَائِلَةٌ ، يَسْتَمْتَعُ بِهَا النَّاسُ مُدَّةً قَصِيرَةً ، ثُمَّ يَرْحَلُونَ عَنْهَا بَعْدَ قَلِيلٍ . وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا مَزْرَعَةَ الْآخِرَةِ ، وَيَأْخُذَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا اسْتَطَاعَ ، كَمَا يَجِدُ النِّعَمَ الْبَاقِيَةَ فِي الْآخِرَةِ . وَمَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ فَقَدْ هَلَكَ ، وَمَنْ طَلَبَ بِالدُّنْيَا الْآخِرَةَ فَقَدْ نَجَا .

وَالْغُرُورُ (بِالضَّمَّةِ): الْبَاطِلُ وَالْغُرُورُ (بِالْفَتْحَةِ): الشَّيْطَانُ ، يَغُرُّ النَّاسَ بِالتَّمَنِّيَةِ وَالْمَوَاعِيدِ الْكَاذِبَةِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٨٨ / ٤) : ((﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ، أَي : تَغُرُّ الْمُؤْمِنَ وَتَخْدَعُهُ ، فَيُظَنُّ طُولَ الْبَقَاءِ ، وَهِيَ فَانِيَةٌ . وَالْمَتَاعُ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيُنْتَفَعُ ، كَالْفَأْسِ وَالْقِدْرِ وَالْقَصْعَةِ ، ثُمَّ يَزُولُ ، وَلَا يَبْقَى مِلْكُهُ ، قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ . قَالَ الْحَسَنُ : كَحُضْرَةِ النَّبَاتِ ، وَلُعْبِ النَّبَاتِ ، لَا حَاصِلَ لَهُ . وَقَالَ قَتَادَةُ : هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ تُوشِكُ أَنْ تَضْمَحَلَّ بِأَهْلِهَا ، فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَا اسْتَطَاعَ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥١٨ / ١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ ، يُرِيدُ أَنَّ الْعَيْشَ فِيهَا يَغُرُّ الْإِنْسَانَ بِمَا يُمَنِّيهِ مِنْ طُولِ الْبَقَاءِ ، وَسَيَنْقَطِعُ عَنْ قَرِيبٍ . قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هِيَ مَتَاعُ الْغُرُورِ لِمَنْ لَمْ يَشْتَغَلْ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا مَنْ يَشْتَغَلُ بِطَلَبِ الْآخِرَةِ ، فَهِيَ لَهُ مَتَاعٌ بَلَغَ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا)) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾)) ١٦٨ .

إِنَّ الْمَكَانَ فِي الْجَنَّةِ الَّذِي يُسَاوِي الْمَوْضِعَ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِ السَّوْطُ _ مَعَ صِغَرِهِ _ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِي الْجَنَّةِ _ وَإِنْ صَغُرَ فِي التَّمَثِيلِ لَنَا ، وَلَيْسَ فِيهَا صَغِيرٌ _ هُوَ أَدْوَمٌ وَأَبْقَى مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ، وَالِدَائِمُ الْبَاقِيُ أَعْظَمُ مِنَ الْمُنْقَطِعِ الْفَانِي . وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ حَقَارَةَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ .

١٦٨ رواه الحاكم في المستدرک (٣٢٧ / ٢) برقم (٣١٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إِنَّ الْجَنَّةَ بَاقِيَةٌ ، وَفِيهَا الْخُلُودُ بِلَا مَوْتٍ ، أَمَّا الدُّنْيَا فَرِائِلَةٌ مَهْمَا طَالَتْ . وَلَوْ كَانَتْ الْآخِرَةُ مِنْ حديد ، وَالدُّنْيَا مِنْ ذَهَبٍ ، لاختارَ العاقلُ الآخِرَةَ ، لِأَنَّ الحديدَ الباقيَ خَيْرٌ مِنَ الذهبِ الفاني ، فَمَا بِالكَ وَالْجَنَّةِ هِيَ النعيمُ الأبدِيُّ ، وَالدُّنْيَا هِيَ الوهمُ الزائلُ ؟ ! .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ القَدِيرِ (٢٤٧/٦) : ((مَوْضِعَ سَوَاطِ فِي الْجَنَّةِ) خُصَّ السَّوْطُ بِالذِّكْرِ ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الرَّاكِبِ إِذَا أَرَادَ التَّنْزُولَ فِي مَنْزِلٍ أَنْ يُلْقِيَ سَوَاطِهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ مُعْلَمًا بِذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُهُ لِئَلَّا يَسْبِقَهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ (خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) لِأَنَّ الْجَنَّةَ مَعَ نَعِيمِهَا لَا انْقِضَاءَ لَهَا ، وَالدُّنْيَا مَعَ مَا فِيهَا فَانِيَةٌ ، وَهَذَا فِي مَحَلِّ سَوَاطِ ، فَمَا الظَّنُّ بِأَعْلَى مَا فِيهَا ، وَهُوَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ الَّذِي يُنْسِي فِي لَدُنْهِ كُلَّ نَعِيمٍ ؟ ، ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) ﴾ [سُورَةُ الْقِيَامَةِ] .)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢١٩٣ / ٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ _ وَأَشَارَ يَحْيَى (أحد الرُّوَاةِ) بِالسَّبَابَةِ _ فِي اليَمِّ ، فَلْيَنْظُرْ بِمِ يَرْجِعُ ؟)) . الْقَسَمُ النَّبَوِيُّ تَأْكِيدٌ لِلْحُكْمِ ، وَمُبَالَغَةٌ فِي التَّحْقِيقِ . إِنَّ الدُّنْيَا هَيْئَةً عِنْدَ اللَّهِ وَضِعِيلَةٌ ، وَلَا تَعْدِلُ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَلَا تُسَاوِي شَيْئًا بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ . وَالدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَامْتِحَانٍ ، وَلَيْسَ عُمُرُ الْإِنْسَانِ الْحَقِيقِيِّ ، فَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ .

مَا الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ فِي قِصَرِ مُدَّتِهَا وَفَنَاءِ لَدَاتِهَا ، وَدَوَامِ الْآخِرَةِ وَدَوَامِ لَدَاتِهَا وَنَعِيمِهَا ، إِلَّا كِنِسْبَةِ الْمَاءِ الَّذِي يَلْقَى بِالْإِصْبَعِ إِلَى بَاقِيِ الْبَحْرِ . وَلَوْ أَدْخَلَ الْعَبْدُ إِصْبَعَهُ فِي الْبَحْرِ ، لَا يَلْقَى بِإِصْبَعِهِ سِوَى مَاءٍ قَلِيلٍ ، وَالْمَاءُ الْعَالِقُ بِالْإِصْبَعِ يُمَثِّلُ الدُّنْيَا ، وَالْبَحْرُ يُمَثِّلُ الْآخِرَةَ ، وَلَا مَجَالَ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَفَاهَةِ الدُّنْيَا وَحَقَارَتِهَا .

وَهَذَا التَّمْثِيلُ لِلتَّقْرِيبِ إِلَى الْأَفْهَامِ ، وَإِلَّا فَالْآخِرَةُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنَ الْبَحْرِ ، لِأَنَّ الْبَحْرَ مَهْمَا كَانَ وَاسِعًا ، فَإِنَّهُ مُتَنَاهٍ ، وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ بَاقٍ غَيْرُ مُتَنَاهٍ ، وَنَعِيمُ الْجَنَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْكَافِرِينَ . وَقَالَ المُنَاوِي فِي فَيْضِ القَدِيرِ (٣٥٩ / ٦) : ((وَاللَّهِ) أَقْسَمُ تَقْوِيَةً لِلْحُكْمِ ، وَتَأْكِيدًا لَهُ ، (مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ) أَي : فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ (إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ) زَادَ فِي مُسْلِمٍ السَّبَابَةَ (هَذِهِ) وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ ، وَقِيلَ : بِالْإِبْهَامِ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَشَارَ بِكُلِّ مِنْهُمَا مَرَّةً (فِي اليَمِّ) الْبَحْرُ (فَلْيَنْظُرْ) نَظَرَ اعْتِبَارٍ وَتَأْمُلٍ (بِمِ يَرْجِعُ) وَضَعَهُ مَوْضِعَ قَوْلِهِ : فَلَا يَرْجِعُ بِشَيْءٍ ، اسْتِحْضَارًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ بِأَنَّ يَسْتَحْضِرُ مُشَاهَدَةَ السَّمْعِ ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالتَّأْمُلِ وَالتَّفَكُّرِ هَلْ يَرْجِعُ بِشَيْءٍ أَمْ لَا ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ تَقْرِيْبِيٌّ ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الْمُنَاسِبَةُ بَيْنَ الْمُتَنَاهِي وَغَيْرِهِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا بِالنَّسْبَةِ لِنَعِيمِ

الآخرة في المقدار كذلك، أو ما الدنيا في قصر مدتها وفناء لذتها بالنسبة للآخرة في دوام نعيمها، إلا كسببة الماء الذي يعلق بالأصابع إلى باقي البحر)) .

وصدق القائل :

وَدَارُ الْفَنَاءِ وَدَارُ الْغَيْرِ	هِيَ الدَّارُ دَارُ الْأَذَى وَالْقَدَى
لَمِثَّ وَلَمْ تَفْضِ مِنْهَا الْوَطْرَ	فَلَوْ نَلْتَهَا بِحَدَافِيرِهَا
وَطُولِ الْخُلُودِ عَلَيْهِ ضَرَرٌ	أَيَا مَنْ يُؤْمَلُ طُولَ الْخُلُودِ
فَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ الْكِبَرِ	إِذَا أَنْتِ شَبِتَ وَبَانَ الشَّبَابُ

وقال الله تعالى : ﴿ يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .
يعدُّ الشَّيْطَانُ أوليائه أن لهم السعادة في الدنيا وطول العُمر ، ويُؤْمِنُهُم بِالْأَكَاذِيبِ كتحقيق الرغبات في الدنيا ، وأن لا بعث ولا جنة ولا نار . وما يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا بَاطِلًا .
والآية إخبار عن الواقع، فإن الشَّيْطَانُ يعدُّ أوليائه المواعيد الباطلة ، ويُؤْمِنُهُم الْأَمَانِي الْوَهْمِيَّةَ ، بأنَّهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وهو كاذب في ذلك . وما يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ بما يُوقِعُهُ فِي حَوَاطِرِهِم مِّنَ الْوَسَاوِسِ الْفَارِعَةِ إِلَّا بَاطِلًا ، يَغُرُّهُمْ بِهِ ، وَيُظْهِرُ لَهُمْ فِيهِ النَّفْعَ ، هُوَ ضَرَرٌ مَخْضُ .
وقال القرطبي في تفسيره (٣٧٦ / ٥) : ((قوله تعالى : ﴿ يَعِدُّهُمْ ﴾ ، المعنى : يَعِدُّهُمْ أَبَاطِيلَهُ وَتُرْهَاتِهِ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ ، وَأَنْ لَا بَعْثَ ، وَلَا عِقَابَ ، وَيُؤْمِنُهُمُ الْفَقْرَ حَتَّى لَا يُنْفِقُوا فِي الْخَيْرِ ، ﴾ وَيُؤْمِنُهُمْ ﴾ كذلك ، ﴿ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ ، أي : خديعة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيت له ظاهرًا تُحِبُّهُ ، وفيه باطن مكروه أو مجهول ، والشَّيْطَانُ غُرُورٌ ، لِأَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى مَحَابِّ النَّفْسِ ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَسُوءُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] .

الخطابُ الإلهيُّ للناسِ كَافَّةً . إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ لَكُمْ بِالْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَقَعٌ لَا مَحَالَهَ ، وَحَقٌّ ثَابِتٌ لَا خُلْفَ فِيهِ ، وَهَذَا هُوَ وَعْدُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا يُلْهِكُمْ خَطَأُ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَزِينَتُهَا الْفَانِيَّةُ وَنَعِيمُهَا الْوَهْمِيُّ وَالتَّمَتُّعُ بِهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ وَالسَّعْيِ لَهَا ، أَي : لَا تَتَلَهَّؤْا عَنْ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ بِهَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ . وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ الْمُبَالِغُ فِي الْخِدَاعِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ ، وَيُؤْمِنِيكُمْ بِالْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي . وَالْمَعْنَى : وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الشَّيْطَانُ ،

فيقول لكم _ وأنتم غارقون في الذنوب والمعاصي _ : إِنَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ لِفَضْلِكُمْ ، أَوْ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ لَكُمْ ، أَوْ إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ إِيْمَانِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ وَلَا إِلَى طَاعَتِكُمْ ، فَاسْتَمْتِعُوا بِلَذَّةِ الْمَعَاصِي فِي الدُّنْيَا ، وَعِيشُوا حَيَاتِكُمْ بِالطُّوْلِ وَالْعَرَضِ . وهذه هي الأعياب الشَّيْطَانِ التي تدلُّ على خُبثه ومكره ، وتكشف خطورته . وينبغي للعبد أن يُقَلِّلَ الدُّخُولَ فِي أَسْبَابِ الدُّنْيَا .

والأحمقُ الهَالِكُ هو الذي يعمل بالمعاصي ، ويصِرُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ . وَالذَّنْبُ بِهَذَا التَّمَنِّيِّ وَالتَّوَقُّعِ كَتَنَاوُلِ السُّمِّ اعْتِمَادًا عَلَى دَفْعِ الطَّبِيعَةِ . وَالْعَاقِلُ لَا يُدَمِّرُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ . وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٣٩٥) : ((قَوْلُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْمُكْذِبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ إِيَّاكُمْ بِأَسْهٍ عَلَى إِصْرَارِكُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِهِ ، وَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتَحْذِيرِكُمْ نُزُولِ سَطْوَتِهِ بِكُمْ عَلَى ذَلِكَ حَقٍّ ، فَأَيُّقُنُوا بِذَلِكَ ، وَبَادِرُوا حُلُولَ عُقُوبَتِكُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْإِيْمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، ﴿ فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ، يَقُولُ : فَلَا يَغُرَّتْكُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَرِيَاسَتِكُمْ الَّتِي تَتَرَأْسُونَ بِهَا فِي ضَعْفَانِكُمْ فِيهَا عَنِ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ وَالْإِيْمَانِ ، ﴿ وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، يَقُولُ : وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ بِاللَّهِ الشَّيْطَانُ فَيُمْنِيَكُمْ الْأَمَانِيَّ ، وَيَعِدْكُمْ مِنَ اللَّهِ الْعِدَاتِ الْكَاذِبَةَ ، وَيَحْمِلْكُمْ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى كُفْرِكُمْ بِاللَّهِ)) .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْبَغْثَ وَالْحِسَابَ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِرِيْبَتِهَا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَالتَّزْوُدِ لِلْآخِرَةِ ، وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِحِلْمِ اللَّهِ وَإِمَاهِلِهِ الشَّيْطَانُ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغُرَّ . وَقِيلَ لِلشَّيْطَانِ : غَرُورٌ ، لِأَنَّهُ يَغُرُّ كَثِيرًا . وَالغُرُورُ (بفتح الغين) : الشَّيْطَانُ ، وَالغُرُورُ (بِضَمِّهَا) : الْبَاطِلُ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٢٨٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هَذَا وَعَظٌ لِلْمُكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ بَعْدَ إِضْحَاحِ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِهِ : إِنَّ الْبَغْثَ وَالتَّوَابَ وَالْعِقَابَ حَقٌّ . ﴿ فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : غُرُورُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَنْ يَشْتَغَلَ الْإِنْسَانُ بِنَعِيمِهَا وَلَذَاتِهَا عَنِ عَمَلِ الْآخِرَةِ حَتَّى يَقُولَ : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ ، قَالَ ابْنُ السَّكِّيتِ وَأَبُو حَاتِمٍ : الْغُرُورُ الشَّيْطَانُ)) .

وفي كتاب دَمِ الدُّنْيَا (١ / ٧٣) : ((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَالِحِ بْنِ مُسْلِمِ الْعَجَلِيِّ أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ : أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ خَطَبَ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأُوْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحَدَه لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ

بالهدى ودين الحق ليُريح به عِلَّتْكُمْ ، وَلِيُوقِظَ به غفلتكم ، واعلموا أنكم مَيِّتُونَ ومبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ، ومُحْزَوْنَ بها ، فلا تُغْرَتِكُمْ الحياةُ الدُّنيا ، فإنها دار بالبلاء مَحْفُوفَةٌ ، وبالفناء مَعْرُوفَةٌ ، وبالغدر موصوفة ، وكلُّ ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دُولٌ وسِجَالٌ ، لا تَدُومُ أحوالها ، وَلَنْ يَسْلَمَ مِنْ شَرِّهَا نَزَالُها ، بَيْنَا أهلها منها في رِخَاءٍ وسُرور ، إذا هُم منها في بلاء وغرور ، أحوال مُختلفة ، وتآزات مُتفرقة ، العيش فيها مَدموم ، والرِّخَاءُ فيها لا يَدُومُ ، وإنما أهلها فيها أغراض مُستهدفة ترميهم بِسَهَامِها ، وتَقْصِمُهُم بِحِمَامِها ، وكلُّ حَتْفُهُ فيها ، وحَطُّهُ منها موفور)) .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [الحديد : ١٤] .
وخذعتكم الأمانِيُّ الباطلة بِسَعَةِ رحمة الله ومغفرته ، حتى جاءكم الموتُ ، وخذَعكم الشَّيْطَانُ الخبيثُ بِحِلْمِ الله وإمهاله ، وأنَّ الله عَفُوٌّ كَرِيمٌ لا يُعَذِّبُكُمْ . لقد خَدَعَكُمْ بِاللَّهِ الشَّيْطَانُ ، فأطمعكم بالنَّجاةِ مِنْ عُقوبته ، والسَّلَامَةِ مِنْ عَذابه . والغرور : الشَّيْطَانُ ، لأنَّه يَغُرُّ وَيُخَدَعُ الْإِنْسَانَ .
وقال القرطبي في تفسيره (١٧ / ٢١١) : ((﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ ﴾ ، أي : الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يَتَمَنُّونَهُ مِنْ ضَعْفِ الْمُؤْمِنِينَ ، ونزول الدوائر بهم . وقال قتادة : الأمانِيُّ هنا خَدَعُ الشَّيْطَانِ . وقيل : الدُّنيا ، قاله عبد الله بن عباس . وقال أبو سِنان : هُوَ قَوْلُهُمْ سَيَغْفِرُ لَنَا . وقال بلال بن سعد : ذِكْرُكَ حَسَنَاتِكَ وَنَسِيانِكَ سَيِّئَاتِكَ غِرَّةٌ . ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي الْمَوْتَ . وقيل : نُصْرَةُ نَبِيِّهِ ﷺ . وقال قتادة : إلقاءهم في النار . ﴿ وَغَرَّكُمْ ﴾ أي : خَدَعَكُمْ ﴿ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أي : الشَّيْطَانُ ، قاله عكرمة . وقيل : الدُّنيا ، قاله الضَّحَّاكُ . وقال بعضُ العُلَمَاءِ : إِنَّ لِلْبَاقِي بِالْمَاضِي مُعْتَبِرًا ، وللآخِرِ بِالْأَوَّلِ مُزْدَجِرًا ، والسعيدُ مَنْ لا يَغْتَرُّ بِالطَّمَعِ ، ولا يَزْكُنُ إِلَى الْخُدَعِ ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمَتِيَّةَ نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ ، وَمَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ نَسِيَ الْعَمَلَ ، وَغَفَلَ عَنِ الْأَجَلِ . وجاء (الْغُرُورُ) على لفظ المُبَالَغَةِ للكثرة)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [الملوك : ٢٠] .

ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَأَنَّها تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ ، إلا في جَهْلٍ عظيم ، وضلال واضح ، وقد خدعتهم الشَّيَاطِينُ بأن لا عذاب ولا حساب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٢٣) : ((﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ، وذلك أَنَّ الشَّيْطَانَ يَغُرُّهُمْ ، فيقول إِنَّ الْعَذَابَ لا يَنْزِلُ بِكُمْ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦] .

الاستفهامُ للتوبيخ والإنكار . يا ابن آدم ، أيُّ شيء خَدَعَكَ بِرَبِّكَ الْعَظِيمِ حَتَّى عَصَيْتَهُ ؟ .

يا ابن آدم ، كيف تجرأت على مخالفة أمر الله ، وقابلت إحسانه إليك بالعصيان ، وقد أحسن إليك ، وتفضل عليك ، وأسع عليك نعمه ظاهرة وباطنة ؟ .
يا ابن آدم ، ما خدعك وسؤل لك حتى أضعت ما أوجب الله عليك ؟ . ما الذي أمتك من عقاب الله وهو كريم متجاوز إذ لم يعاقبك عاجلاً ؟ .

وقال بعضهم : ذكر صفة الكرم هاهنا دون سائر صفاته ، كأنه لئن عبده الجواب ليقول : غرني كرم الكريم . وهذا وهم وخطأ ، لأن الآية تشتمل على تهديد واضح لا إرشاد إلى الجواب . وإنما أتى باسمه ﴿ الكريم ﴾ لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكرم بالذنوب والمعاصي والقبايح . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٦٠) : ((يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ، أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه ؟ . وذكر ﴿ الكريم ﴾ للمبالغة في المنع عن الاغترار ، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم ، وتسوية الموالى والمُعادي والمطيع والمعاصي ، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام والإشعار بما به يغره الشيطان ؟ ، فإنه يقول له : أفعَل ما شئت فرتك كريم ، لا يُعذَّب أحدًا ، ولا يُعاجل بالعقوبة . والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجِدَّ في طاعته ، لا الانهماك في عصيانه اغترارًا بكرمه)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٥٥٨) : ((يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ هذا خطاب الكفار : أي ما الذي غرك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم ، الذي تفضل عليك في الدنيا بأكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلاً فاهماً ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها؟ قال قتادة: غره شيطانه المُسلط عليه . وقال الحسن: غره شيطانه الحبيث . وقيل : حُمقه وجهله ، وقيل : غره عفو الله إذا لم يعاجله بالعقوبة أول مرة ، كذا قال مقاتل)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٨ / ٤٣٩) : ((أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ، فقال : غره والله جهله)) .

في الآية سؤال عن سبب اغترار العبد بخالقه تعالى ، حتى اقترف المعاصي ، وغرق في الذنوب ، وقابل الإحسان الإلهي بالمعصية وعدم الشكر . فما الذي جرأ الإنسان على ارتكاب الآثام ، والاستعانة بالنعم الإلهية على معصية الله المنعم سبحانه وتعالى ؟ .

وذكر اسم الله ﴿ الكريم ﴾ والتعرض لعنوان كرمه عز وجل ، للدلالة على أن كرم الله المطلق ليس دافعاً إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي ، وليس مما يصلح أن يكون سبباً لاغترار العبد ، حيث

يُعويبه الشيطان ، ويقول له : أَفْعَلْ ما شِئْتَ ، فَإِنَّ رَبَّكَ كَرِيمٌ ، قد تَفَضَّلَ عليك في الدنيا ، وَسَيَفْعَلُ مثله في الآخرة ، وهذا قياس باطل ، وأُمنِيَّةٌ فارغة . بَلْ إِنَّ كَرَمَ اللَّهِ الْمُطْلَقَ يُوجِبُ على العبدِ المُبالِغَةَ في الإقبال على الإيمان والطاعة والابتعاد عن المعاصي . كأنه قيل : ما حَمَلَكَ أَيُّها الإنسانُ على عصيان رَبِّكَ الموصوف بالكرم الذي يُوجب عليك طاعته وعدم عصيانه ؟ .

وهذا تهديد وتوبيخ للإنسان ، فاللَّهُ الكريم صاحب النعم الجزيلة والمواهب الكثيرة لا يُقابِلُ إحسانه بالمعاصي واقتراف الآثام . واللَّهُ لا يحتاج أَحَدًا يُحسِنُ إليه ، لأنَّه الغنيُّ عن العالمين ، وطاعة العبد لِنَفْسِهِ ، ومَعْصِيَتِهِ تَرْتَدُّ سَلْبًا عَلَيْهِ . واللَّهُ لا تَنْفَعُهُ الطاعة ، ولا تَضُرُّهُ المَعْصِيَةُ ، وهو المُستغني بذاته عن كُلِّ شيء ، لا يحتاج إلى شيء ، وكُلُّ شيءٍ يَحْتَاجُ إليه .

وعن عبد الله بن عُكَيْمٍ قال : سَمِعْتُ عبدَ اللَّهِ بن مسعود في هذا المَسْجِدِ يبدأ بالميمين قبل الكلام فقال : ((ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا أَنْ رَبَّهُ سَيَخْلُو بِهِ ، كما يَخْلُو أَحَدُكُمْ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فيقول : ابنَ آدَمَ ، ما عَزَّكَ بِي ؟ ابنَ آدَمَ ما عَزَّكَ بِي ؟ ابنَ آدَمَ ما عَزَّكَ بِي ؟ ابنَ آدَمَ ما عَزَّكَ بِي ؟ ابنَ آدَمَ ما عَزَّكَ بِي ؟ ابنَ آدَمَ ما عَزَّكَ بِي ؟)) ١٦٩ .

يجب على العبد أن يلتزم بأوامر الله ، وَيَجْتَنِبُ نَوَاهِيَهُ ، وَيَحْرِصُ على طاعته وعدم معصيته ، مع ضرورة استغلال أوقاته ومواهبه وقدراته في نشر الخير ودعم الحق ، وَقَمْعِ الشَّرِّ ومُحَارَبَةِ الباطل .

وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (١ / ٣٥٥) : ((يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)) ، ما خَدَعَكَ وَسَوَّلَ لَكَ الْبَاطِلَ حَتَّى أَضَعْتَ ما وَجَبَ عَلَيْكَ ؟ . والمعنى : ماذا أَمَّنَكَ مِنْ عَذَابِهِ ؟ .

قال عطاء : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقال الكلبي ومقاتل : نزلت في الأسود بن شريق ، ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَلَمْ يُعَاقِبْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ ، يقول : ما الذي عَزَّكَ بِرَبِّكَ

الكريم المُتَجَاوِزِ عَنكَ إِذْ لَمْ يُعَاقِبْكَ عَاجِلًا بِكُفْرِكَ ؟ . قال قتادة : عَزَّهُ عَدُوُّهُ الْمُسَلِّطُ عَلَيْهِ ، يعني الشيطان . قال مقاتل : عَزَّهُ عَفْوُ اللَّهِ حِينَ لَمْ يُعَاقِبْهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ . وقال السُّدِّيُّ : عَزَّهُ رِفْقُ اللَّهِ بِهِ .

وقال ابن مسعود : ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيَخْلُو اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فيقول : يا ابنَ آدَمَ ، ما عَزَّكَ

١٦٩ رواه الطبراني في الكبير (٩ / ١٨٢) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٦٢٨) : ((رواه الطبراني

في الكبير موقوفًا ، وروى بَعْضُهُ مرفوعًا في الأوسط : عَبْدِي ما عَزَّكَ بِي ؟ ماذا أجبَتِ المُرسَلينَ ؟ .

ورجال الكبير رجال الصحيح غير شريك بن عبد الله ، وهو ثقة ، وفيه ضَعْفٌ ، ورجال الأوسط فيهم

شريك أيضًا ، وإسحاق بن عبد الله التَّمِيمِيُّ ، ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح)) .

بي ؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ . وقيل للفضيل ابن عياض : لو أقامك الله يوم القيامة ، فقال : يا فضيل ، ما غرّك برّبك الكريم ؟ ماذا كنت تقول ؟ قال : أقول : غرّني سُتُورُكَ المُرْحَاة . وقال يحيى بن معاذ : لو أقامني بين يديه فقال : ما غرّك بي ؟ فأقول : غرّني بك برّك بي سألنا وأنفا . وقال أبو بكر الورّاق : لو قال لي : ما غرّك برّبك الكريم ؟ لقلْتُ : غرّني كرمُ الكريم . قال بعض أهل الإشارة : إنّما قال : ﴿ برّبك الكريم ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لَقَّنه الإجابة حتى يقول : غرّني كرمُ الكريم)) .

٧_ المُخَاصِمَة وَالمُنَازَعَة

قال الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلّوا بها إلى الحُكَّامِ لتأكلوا فَرِيْقًا مِنْ أموالِ النَّاسِ بالإثمِ وأنتم تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ولا يأكل بعضكم مال بعض بالحرام ، كالسَّرِقَة والقِمَار والخِيَانَة ، وغير ذلك . وأكل المال بالباطل يعني أكله من غير الوجه الذي أباحه الله تعالى . وقد جعل الله آكل مال أخيه بالباطل كآكل مال نفسه بالباطل . وهذا دليل على أنّ المؤمنين إخوة، وأنّ المجتمع الإسلاميّ كُتلة واحدة . ولا تلقوا بالأموال رِشْوَةً إلى الحُكَّامِ لتقتطعوا حقًا لغيركم ، ويُعينوكم على أخذ أموال الناس بالباطل ، والاستحواذ عليها بالحرام ، وأنتم تَعْلَمُونَ أنّكم مُبْطَلُونَ بأكل الحرام ، وأنّه لا يحل لكم ذلك . وبعبارة أخرى، وأنتم تتعمّدون أكل ذلك بالإثم على قَصْدٍ مِنْكُمْ إلى ما حرّم الله عليكم منه . وهذا أشدُّ لِعِقَابِهِمْ ، وأعظم لِحُرْمِهِمْ . ولا شك أنّ ارتكاب المعصية مع العلم بها أسوأ وأقبح .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٣٠٥) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرّجُل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بيّنة ، فيجحد المال ، ويُخَاصِم إلى الحُكَّامِ ، وهو يعرف أنّ الحق عليه ، وهو يعلم أنّه آثم آكل الحرام . وكذا زوي عن مُجاهد وسعيد بن جبّير وعكرمة والحسن وقتادة والسّدي ومقاتل بن حيّان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : لا تُخَاصِمُ وأنّت تعلم أنّك ظالم)) .

والآية تنهى عن أكل أموال الناس بالوسائل المحرّمة التي ترفضها الشريعة ، وتنهى كذلك عن تقديم الحُجَج الباطلة للحُكَّامِ ، والتحايل عليهم من أجل الاستيلاء على أموال الناس بالإثم ، وذلك بشهادة الزور أو بالإيمان الكاذبة ، أو تقديم الرّشْوَة للحُكَّامِ لكي يحكموا بغير الحق ، ويسهل عندئذ أكل المال بالباطل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ١٩٤ و ١٩٥) : ((قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ . سبب نزولها: أن امرؤ القيس بن عابس، وعبدان الحضرمي، اختصما في أرض، وكان عبدان هو الطالب، ولا بينة له، فأراد امرؤ القيس أن يحلف ، فقرأ عليه النبي ﷺ: ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ [آل عمران : ٧٧] ، فكَرِهَ أن يحلف ، ولم يُخصِم في الأرض، فنزلت هذه الآية، هذا قول جماعة منهم سعيد ابن جبير، ومعنى الآية : لا يأكل بعضكم أموال بعض قال القاضي أبو يعلى : والباطل على وجهين : أحدهما : أن يأخذه بغير طيب نفس من مالكة، كالسرقة والغصب والخيانة، والثاني أن يأخذه بغير طيب نفسه ، كالقمار والغناء وثمن الخمر . وقال الزجاج : الباطل الظلم . ﴿ وتدلوا ﴾ ، أصله في اللغة ، من أدليت الدلو إذا أرسلتها لتملأها، ودلوتها: إذا أخرجتها. ومعنى أدلى فلان بحجته: أرسلها، وأتى بها على صحة. فمعنى الكلام تعملون على ما يوجبه إدلاء الحجّة، وتخونون في الأمانة، وأنتم تعلمون أن الحجّة عليكم في الباطن . وفيها ﴿ بها ﴾ قولان: أحدهما أنها ترجع إلى الأموال، كأنه قال: لا تصنعوا ببعضها جوراً الحُكَّام. والثاني أنها ترجع إلى الخصومة، فإن قيل: كيف أعاد ذكر الأكل فقال: ﴿ ولا تأكلوا ﴾ ، ﴿ لتأكلوا ﴾ ، فالجواب أنه وصل اللفظة الأولى بالباطل ، والثانية بالإثم ، فأعادها للزيادة في المعنى ، ذكره ابن الأنباري ((.

وعن أم سلمة _ رضي الله عنها _ أن رسول الله ﷺ قال : ((إنكم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم ألحنّ بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها)) ١٧٠ .

دلّت الآية وهذا الحديث على أن حكم الحاكم أو القاضي لا يُغيّر حقيقة الشيء ، ولا يحلّ حراماً ، ولا يُحرّم حلالاً . والحكم مُلزم في الظاهر ، فإن وافق الظاهر الباطن ، فلا مشكلة ، وإن خالفه فللحاكم أجره ، وعلى الظالم إثم .

وهذا الحديث يُشير بوضوح إلى أن النبي ﷺ له أن يحكم باجتهاده ، كما أنه يحكم على الظاهر ، ولا يعرف بواطن الأمور إلا إذا أطلعه الله عليها .

وقد يكون الشخص ألحنّ بحجته ، يعني أكثر فصاحة ببيان وجهة نظره ، وعرض أدلته ، وإظهار أن الحق له ، وقد يكون ظالمًا خائناً مُحتملاً ، لكنّه يملك أسلوباً جَدًّا ، ولديه قدرات

١٧٠ متفق عليه . البخاري (٢ / ٩٥٢) برقم (٢٥٣٤) ، ومسلم (٣ / ١٣٣٧) برقم (١٧١٣) .

لُعوية على إلباسِ الباطلِ ثوبِ الحقِّ. والنبيُّ ﷺ يحكم حسب الظاهر، ووفق الأدلة المعروضة عليه، ولا يعلم الغيب إلا إذا أطلعه الله عليه . فإن حكم النبي ﷺ للشخص بظاهرٍ يخالف الباطن ، فهو حرام يقوده إلى النار . وفي الحديث دلالة واضحة على أن القاضي يحكم بالظاهر ، ووفق الأدلة المعروضة أمامه ، ولا ذنب عليه في هذا الحكم ، وأيُّه خيانة إنما يتحملها الشخص الخائن ، فعليه الذنب والإثم ، أما القاضي فله الأجر والثواب .

والنبيُّ ﷺ بشرٌ ، لا يعلم الغيب ، ولا يعرف أسرار الناس وما في قلوبهم وضمايرهم وبواطنهم، وإنما يحكم بما شرعه الله من البيّنة والشهود ، ويقضي وفق الظاهر حسب الأدلة الموجودة بين يديه . ويجب على صاحب البيّنة أن تكون بيّنته صحيحة ، وليست كذباً وزوراً . ويجب على صاحب اليمين ألا يحلف على غير الحق في الخصومات والنزاعات . والبيّنة الزور لا تحلُّ للشخص الحرام، وكذلك اليمين الكاذبة لا تحلُّ له الحرام. والحقُّ يظلُّ حقاً ، والباطل يظلُّ باطلاً. وفي تفسير ابن كثير (١ / ٣٠٥) : ((قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحلُّ لك حراماً ، ولا يحق لك باطلاً ، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى، وتشهد به الشهود. والقاضي بشرٌ يُخطئ ويصيب ، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة ، فيقضي على المُبطل للمُحق بأجود ممَّا قضى به للمُبطل على المُحق في الدنيا)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٥) : ((قوله ﷺ : (إنما أنا بشرٌ) _ رواية أخرى _ معناه التنبيه على حالة البشرية ، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً إلا أن يُطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك ، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم ، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر ، والله يتولّى السرائر ، فيحكم بالبيّنة وباليمين ونحو ذلك من أحكام الظاهر ، مع إمكان كونه في الباطن خلاف ذلك ، ولكنه إنما كلف الحكم بالظاهر ولو شاء الله تعالى لأطلعه ﷺ على باطن أمر الخصمين ، فحكم بيقين نفسه من غير حاجة إلى شهادة أو يمين ، لكن لما أمر الله تعالى أمته باتباعه والافتداء بأقواله وأفعاله وأحكامه ، أجرى له حكمهم في عدم الاطلاع على باطن الأمور، ليكون حكم الأمة في ذلك حكمه، فأجرى الله تعالى أحكامه على الظاهر الذي يستوي فيه هو وغيره، ليصح الاقتداء به ، وتطيب نفوس العباد للالتقاء بالأحكام الظاهرة ، من غير نظر إلى الباطن ، والله أعلم . فإن قيل : هذا الحديث ظاهره أنه قد يقع منه ﷺ في الظاهر مخالفة للباطن ، وقد اتفق الأصوليون على أنه ﷺ لا يقتر على خطأ في الأحكام ، فالجواب أنه لا تعارض بين الحديث وقاعدة الأصوليين، لأن مراد الأصوليين فيما حكم

فيه باجتهاده، فهل يجوز أن يقع فيه خطأ ؟ ، فيه خلاف ، الأكثرون على جوازه ، ومنهم من منعه ، فالذين جَوَّزوه قالوا : لا يُقَرُّ على إمضائه ، بل يُعَلِّمُه اللهُ تعالى به ، ويتداركه . وأمَّا الذي في الحديث فمعناه: إذا حَكَمَ بِغَيْرِ اجْتِهَادِ كَالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ ، فهذا إذا وقع منه ما يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ بَاطِنَهُ ، لا يُسَمَّى الحُكْمَ خطأ ، بل الحُكْمَ صحيح ، بناءً على ما استقرَّ به التَّكْلِيفُ ، وهو وُجُوبُ العمل بشاهدين مثلاً ، فإن كانا شاهدي زور ، أو نحو ذلك ، فالتَّقْصِيرُ مِنْهُمَا ، ومَنْ سَاعَدَهُمَا ، وأمَّا الحُكْمُ فلا حيلة له في ذلك ، ولا عَيْبٌ عليه بسببه ، بخلاف ما إذا أخطأ في الاجتهاد، فإن هذا الذي حَكَمَ به ليس هو حُكْمُ الشَّرْعِ ، والله أعلم . وفي هذا الحديث دلالة لمذهب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجماهير علماء الإسلام ، وفقهاء الأمصار من الصحابة والتابعين ، فمن بعدهم ، أن حُكْمَ الحاكم لا يُحِيلُ الباطنَ ، ولا يُجِلُّ حراماً ، فإذا شَهِدَ شاهداً زوراً لإنسان بمال ، فَحَكَمَ به الحاكم ، لم يحل للمحكوم له ذلك المال ، وَلَوْ شَهِدَا عَلَيْهِ بِقَتْلِ ، لم يحل للولي قتلُه مع علمه بكذبهما ، وإن شَهِدَا بالزور أنه طلق امرأته ، لم يحل لمن علم بكذبهما أن يتزوجها بعد حُكْمِ القاضي بالطلاق)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

الخطابُ الإلهي للمؤمنين . ولقد صدقكم اللهُ وَعَدَهُ بالنصر والظفر ، أي : وفي اللهُ لكم ما وَعَدَكُمْ به من النصر على عدوكم ، إذ تَقْتُلُونَ المشركين يوم أُحُدٍ وَتَحْصُدُونَهُمْ بِسُيُوفِكُمْ حَصْدًا ، يَعْلَمُ اللهُ وإرادته ، حَتَّى إِذَا جُنْتُمْ عَنْ قِتَالِ عَدُوِّكُمْ وَضَعْفَ رَأْيِكُمْ ، أو ملتم إلى الغنيمة ، فإنَّ الحِرْصَ مِنْ ضَعْفِ الْعَقْلِ ، واختلفتم في أمر المُقَامِ فِي الْجَبَلِ ، يعني : قول بعضهم : ما مُقَامَنَا وقد انهزم الكافرون ؟ ، وقول بعضهم : لا نُجَاوِزُ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ . وهذا الاختلاف كان بين الرُّمَاءِ الذين كانوا عند المركز . وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ بترك المركز بعد أن كان النَّصْرُ حَلِيفِكُمْ . لقد عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ اللهُ مَا تُحِبُّونَ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ وَانْهَازِ الْعَدُوِّ . مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْغَنِيمَةَ ، وهم الذين تركوا الجبلَ ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ثَوَابَ اللهِ تعالى ، وهم الذين ثَبَتُوا فِي مَرَكِزِهِمْ ، مُحَافِظَةً عَلَى أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ رَدَّكُمْ اللهُ بِالْهَزِيمَةِ عَنِ الْكُفَّارِ لِيَمْتَحِنَ إِيْمَانَكُمْ ، فَيَتَبَيَّنَ الصَّابِرُ مِنَ الْجَزَاعِ ، وَالْمُخْلِصُ مِنَ الْمُنَافِقِ . وَاللَّهُ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ النَّصْرَ بِأُحُدٍ ، فَنَصَرَهُمْ ، فَلَمَّا خَالَفُوا وَطَلَبُوا الْغَنِيمَةَ هَرَبُوا . ولقد عفا اللهُ عن ذُنُوبِكُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَصَفَحَ عَنْكُمْ مَعَ الْعِصْيَانِ تَفْضُّلاً ، وَلَمَّا عَلِمَ مِنْ نَدْمِكُمْ

على المُخَالَفَةِ ، فَلَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ ، وَالخِطَابَ لِجَمِيعِ الْمُنْهَزِمِينَ ، وَقِيلَ :
لِلرُّمَاءِ فَقَطْ . وَاللَّهُ ذُو مَنٍّ وَنِعْمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ .
والتَّنْكِيرُ فِي ﴿ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : عَلَيْهِمْ . وَالإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ لِلتَّشْرِيفِ ، وَالإِشْعَارُ بِعِلَّةِ الْحُكْمِ .
وَقَالَ البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١١٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ . قَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ القُرْظِيِّ : لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أُحُدٍ ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ مَا
أَصَابَهُمْ ، قَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا هَذَا ؟ ، وَقَدْ وَعَدَنَا اللَّهُ النَّصْرَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :
﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْإِبْتِدَاءِ ،
﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ أُحُدًا خَلْفَ ظَهْرِهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْمَدِينَةَ ،
وَجَعَلَ عَيْنَيْنِ ، وَهُوَ جَبَلٌ ، عَنِ يَسَارِهِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الرُّمَاءَ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ ، وَقَالَ
لَهُمْ : " ائْتُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تُشْرِكُونَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا " .
وَأَقْبَلَ الْمُشْرِكُونَ فَأَخَذُوا فِي الْقِتَالِ ، فَجَعَلَ الرُّمَاءُ يَرشُقُونَ خَيْلَ الْمُشْرِكِينَ بِالنَّبْلِ ، وَالْمُسْلِمُونَ
يَضْرِبُونَهُمْ بِالسُّيُوفِ ، حَتَّى وَلَّوْا هَارِبِينَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ ، أَي :
تَقْتُلُونَهُمْ قِتَالًا ذَرِيعًا بِقِضَاءِ اللَّهِ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْحَسُّ : هُوَ الْإِسْتِنْسَالُ بِالْقِتْلِ . ﴿ حَتَّى إِذَا
فَشِلْتُمْ ﴾ ، أَي : إِنْ جَبُنْتُمْ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : فَلَمَّا فَشِلْتُمْ ، ﴿ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ﴾ ، ... ،
يَعْنِي : حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ تَنَارَعْتُمْ ، وَقِيلَ : فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : حَتَّى إِذَا تَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ
فَشِلْتُمْ ، وَمَعْنَى التَّنَارُعِ الْإِخْتِلَافُ . وَكَانَ إِخْتِلَافُهُمْ أَنَّ الرُّمَاءَ اخْتَلَفُوا حِينَ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ
بَعْضُهُمْ : انْهَزَمَ الْقَوْمُ فَمَا مَقَامَنَا ؟ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْغَنِيمَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تُجَاوِزُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
وَتَبَتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ فِي نَفَرٍ يَسِيرُ دُونَ الْعَشْرَةِ . فَلَمَّا رَأَى خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَعِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي
جَهْلٍ ذَلِكَ حَمَلُوا عَلَى الرُّمَاءِ ، فَقَتَلُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ وَأَصْحَابَهُ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَحَالَتِ الرِّيحُ ، فَصَارَتْ ذُبُورًا بَعْدَ مَا كَانَتْ صَبَاً ، وَانْتَقَضَتْ صُفُوفُ الْمُسْلِمِينَ وَاخْتَلَطُوا فَجَعَلُوا
يَقْتُلُونَ عَلَى غَيْرِ شِعَارٍ ، يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا يَشْعُرُونَ مِنَ الدَّهْشِ ، وَنَادَى إِبْلِيسُ أَنَّ مُحَمَّدًا
قَدْ قُتِلَ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الْهَزِيمَةِ لِلْمُسْلِمِينَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَصَيْتُمْ ﴾ يَعْنِي : الرَّسُولَ ﷺ ،
وَخَالَفْتُمْ أَمْرَهُ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ ﴾ اللَّهُ ﴿ مَا تُحِبُّونَ ﴾ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ ،
﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ تَرَكَوا الْمَرْكَزَ وَأَقْبَلُوا عَلَى النَّهْبِ ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾
يَعْنِي : الَّذِينَ تَبَتُّوا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ حَتَّى قُتِلُوا . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : مَا شَعَرْتُ أَنَّ أَحَدًا

من أصحاب النبي ﷺ يُريد الدنيا حتى كان يوم أُحد ، ونزلت هذه الآية . ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ ،
 أي : رَدُّكُمْ عَنْهُمْ بالهزيمة ﴿ لِيَتَلِيَكُمْ ﴾ لِيَمْتَحِنَكُمْ ، وقيل : لِيُنزِلَ الْبَلَاءَ عَلَيْكُمْ ، ﴿ وَلَقَدْ عَفَا
 عَنْكُمْ ﴾ فَلَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ وَالْمُخَالَفَةِ ، ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
 وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٠٢) : ((﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يَتَفَضَّلُ
 عَلَيْهِم بِالْعَفْوِ ، أَوْ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا ، سِوَاءِ أَدِيلَ لَهُمْ أَوْ عَلَيْهِمْ ، _ يَعْنِي : سِوَاءِ أَنْتَصَرُوا أَوْ هُزِمُوا _
 إِذِ الْإِبْتِلَاءِ أَيْضًا رَحْمَةً)) .

لقد دار القتال الشديد وانهزم المشركون أولاً ، وناوهم يَبْكِينَ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ حِينَ قَتَلَ
 الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ أَوَّلَ النَّهَارِ . وَالْحَسُّ هُوَ الْقَتْلُ الْمُسْتَأْصِلُ . فَتَمَّ قَتْلُ الْمُشْرِكِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ
 تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ . وَوَعَدُ اللَّهِ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ ، لَا يَتَخَلَّفُ ، وَلَا يَتَأَخَّرُ . ثُمَّ حَصَلَ الْمُنْعَطَفُ الْحَرَجِ
 الَّذِي غَيَّرَ مَسَارَ الْمَعْرَكَةِ ، فَعَصِيَانُ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ الْمُتَمَثِّلُ فِي تَرْكِ الرُّمَاءِ لِلجَبَلِ كَانَ الصَّرِيَّةَ الْقَاضِيَةَ
 الَّتِي أَدْخَلَتْ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَزِيمَةِ . فَبَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَذُوا يَجْمَعُونَ الْغَنَائِمَ ،
 فَلَمَّا رَأَى الرُّمَاءُ ذَلِكَ تَرَكَوا الْجَبَلَ مِنْ أَجْلِ الْخُصُولِ عَلَى نَصِيهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ . وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى
 الْجَبَلِ إِلَّا قَائِدُ الرُّمَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ مَعَ عِدَّةٍ يَسِيرٍ ، وَقَدْ ذَكَرَهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ . وَرَأَى خَالِدُ
 ابْنُ الْوَلِيدِ الْمَشْهَدَ _ وَقَدْ كَانَ مُشْرِكًا يَوْمَئِذٍ _ فَاسْتَعْلَ لِحِظَةَ فِرَاقِ الْجَبَلِ مِنَ الرُّمَاءِ فَالْتَفَّ عَلَى
 الْمُسْلِمِينَ ففاجأهم ، وَعَمَّتِ الْفَوْضَى فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ وَدَاخِلِهِمُ الرُّعْبُ ، وَازْدَادَ فِيهِمُ الْقَتْلُ .
 وَقَدْ رَدَّهُمُ اللَّهُ بِالْهَزِيمَةِ عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ أَجْلِ اخْتِبَارِهِمْ وَامْتِحَانِهِمْ . فَهَذِهِ الْهَزِيمَةُ هِيَ امْتِحَانٌ
 لِلْمُؤْمِنِينَ لِبَيَانِ دَرَجَةِ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلِحِظَاتٍ مُؤَلِّمَةً لِأَخَذِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ . وَجَاءَ الْعَفْوُ
 الْإِلَهِيُّ عَنِ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاللَّهُ عَظِيمُ الْفَضْلِ كَثِيرُ الْإِحْسَانِ ، وَلَا حُدُودَ لِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ((مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
 يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَتْ فِيْنَا يَوْمَ أُحُدٍ : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾)) ١٧١ .

الصَّحَابَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ لَيْسُوا مَلَائِكَةً . إِنَّهُمْ نُحْبَةُ بَشَرِيَّةٍ ، وَمَهْمَا قَدَمُوا مِنْ تَضَحِيَّاتٍ
 فَهُمْ بَشَرٌ تَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْوَالُ الْبَشَرِ مِنْ حُبِّ الْآخِرَةِ وَحُبِّ الدُّنْيَا ، وَالْقُوَّةُ وَالضَّعْفُ ، وَالشَّجَاعَةُ
 وَالْخَوْفُ ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الصَّحَابَةَ طَبَقَاتٌ ، وَيَتَفَاوَتُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّضَحِيَّةِ وَخِدْمَةِ الدِّينِ .

١٧١ رواه الطبراني في الأوسط (٢ / ١٠٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٥١) : رجاله ثقات . اهـ .

وقال العراقي في تحريج الإحياء (٤ / ١٠٢) : ((أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ)) .

والمقصود بالذين يريدون الدنيا هم الرماة الذين خالفوا الأمر النبوي طمعا في الدنيا (الغنائم)، وهذا أدى إلى حدوث الهزيمة بعد النصر الباهر أول النهار . وفي الآية مدح للذين ثبتوا على الجبل ، فقد شهد الله لهم بأنهم يريدون الآخرة (الأجر الإلهي) .

وأخرج الطبري في تفسيره (٣ / ٤٦٨) عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴾ قال : ((وكيف عفا عنهم وقد قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ، وقُتِلَ عَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وكُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ، وشُحَّ في وجهه ؟ ... قال الله عزَّ وجلَّ: قَدْ عَفَوْتُ عَنْكُمْ إِذْ عَصَيْتُمُونِي أَنْ لَا أَكُونَ اسْتَأْصَلْتَكُمْ ... هؤلاء مع رسول الله ﷺ في سبيل الله ، غضاب لله ، يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ ، نُهَوُّوا عَنْ شَيْءٍ فَصَنَعُوهُ ، فوالله ما تُرِكُوا حتى غُمُّوا بهذا الغمِّ ، فأفسقُ الفاسقين اليوم يتجرثم كلُّ كبيرة ، ويركب كلُّ داهية ، ويسحب عليها ثيابه ، ويَزْعُمُ أن لا بأسَ عليه !! فَسَوْفَ يَعْلَمُ)) .

لا مجال للظعن في الصحابة الذين خالفوا الأمر النبوي، وفارقوا الجبل ، فقد خرجوا إلى المعركة للجهاد في سبيل الله تعالى صادقين يحملون أرواحهم على أكفهم ، وقد ارتكبوا إنمًا تحت إغراء الغنائم ، ودفَعُوا ثَمَنَ ذَلِكَ ، وعفا الله عنهم . والصحابة ليسوا معصومين ، ولم يطلب منهم أحدٌ أن يكونوا كالملائكة ، فرَضِيَ اللهُ عنهم. والمعصوم من عصمه الله، والكمال لله وحده . وعن ابن عباس أنه قال : ما نصرَ النبي ﷺ في موطنٍ كما نصرَ يومَ أُحُدٍ ، قال : فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، يقول في يومِ أُحُدٍ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّونَهُمْ بِأُذُنِهِ ﴾ ، يقول ابن عباس : والحسُّ القتل . ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وإنما عفا بهذا الرماة ، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضعٍ ثم قال : ((احمُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقُتِلْ فَلَا تَنْصُرُونَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَمِمْنَا فَلَا تُشْرِكُونَا)) ، فلَمَّا غَمِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وأباحوا عسكرَ المشركين ، انكشفَ الرماةُ جميعًا ، فدخلوا في العسكرَ ينتهبون ، وقد التقتْ صُفُوفُ أصحابِ النبي ﷺ ، فهُمُ هَكَذَا ، وشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدَيْهِ ، والتبسوا ، فلَمَّا أَحَلَّ الرماةُ تِلْكَ الْخَلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا ، دَخَلَ الْخَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، والتبسوا ، وقُتِلَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ ، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أولُ النَّهَارِ ، حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لُؤَاءِ الْمَشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ ، وَلَمْ يَبْلُغُوا حَيْثُ يَقُولُ النَّاسُ الْغَابَ ، إِنَّمَا كَانَ تَحْتَ الْمِهْرَاسِ _ الْحَجَرِ الْعَظِيمِ _ ، وصاح الشيطان : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ، فَلَمْ يَشْكُوا

فيه أنه حق ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشْكُ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ ، فَعَرَفْنَاهُ بِتَكْفُفِهِ إِذَا مَشَى ، قَالَ : فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يُصِبنَا مَا أَصَابَنَا ، قَالَ : فَرَقِي نَحُونَا ، وَهُوَ يَقُولُ : ((اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ)) ، قَالَ : وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى : ((اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَغْلُونَا)) ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا ، قَالَ : فَمَكَثَ سَاعَةً ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٍ يَصِيحُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ : اَعْلُ هُبَلُ ، اَعْلُ هُبَلُ ، يَعْنِي آلِهَتَهُ ، أَيَنْ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ أَيَنْ ابْنُ أَبِي فُحَافَةَ أَيَنْ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ ، فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أُجِيبُهُ ؟ ، قَالَ : ((بَلَى)) ، فَلَمَّا قَالَ : اَعْلُ هُبَلُ ، قَالَ عُمَرُ : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانٍ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، إِنَّهُ يَوْمَ الصَّمْتِ ، فَعَادَ فَقَالَ : أَيَنْ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ أَيَنْ ابْنُ أَبِي فُحَافَةَ أَيَنْ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ ، وَهَذَا أَنَا ذَا عُمَرَ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانٍ : يَوْمَ يَوْمٍ ، بَدُرُ الْأَيَّامِ دُوْلُ ، وَالْحَرْبُ سِجَالُ ، فَقَالَ عُمَرُ : لَا سَوَاءَ ، قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ ، وَقَتَلَاكُمْ فِي النَّارِ ، قَالَ : إِنَّكُمْ لَتَزْعُمُونَ ذَلِكَ ، لَقَدْ حَبَبْنَا إِذَا وَحَسِرْنَا ، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانٍ : أَمَا إِنَّكُمْ سَوْفَ تَجِدُونَ فِي قِتَالِكُمْ مُثَلَّةً ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِ سُرَاتِنَا ، ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ نَكْرَهُهُ ١٧٢ .

تتجلى حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي عَقْلِيَّةِ أَبِي سُفْيَانٍ حِينَ رَفَضَ الْاِعْتِذَارَ عَنِ التَّمْثِيلِ بِجِثِّ قَتْلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ هُنَاكَ مُثَلَّةً ، لَكِنَّهَا لَمْ تَصْدُرْ عَنِ رَأْيِ سُرَاةِ الْمَشْرِكِينَ _ أَشْرَافِهِمْ _ ، وَمَعَ هَذَا فَلَنْ يَكْرَهُ الْمَشْرِكُونَ عَمَلِيَّةَ التَّمْثِيلِ بِالْجِثِّ ، وَهَذَا اِنْعَكَاسٌ لِلْحَمِيَّةِ ، حَيْثُ أَخَذَتْهُ الْعِرَّةُ بِالْإِثْمِ ، وَسَانَدَ قَوْمَهُ فِي إِثْمِهِمْ تَعْصُبًا لِلشَّرْكِ وَالْقَبِيلَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمْ يَعْتَذِرْ عَنِ فِعْلِ ذَلِكَ . وَفِي يَوْمٍ أُخْدِ اتَّضَحَتْ _ عِنْدَ الْمَشْرِكِينَ _ مَعَالِمُ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالتَّكْبُرُ ، وَرَفْضُ الْاِذْعَانِ لِلْحَقِّ الْمُتَجَسِّدِ فِي الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَقَدْ بَدَأَ ذَلِكَ وَاضِحًا عَلَى سَيْدِ قُرَيْشٍ ، وَزَعِيمِ الْمَشْرِكِينَ _ آنَذَاكَ _ ، أَبِي سُفْيَانِ بْنِ حَزْبٍ . وَكَانَ الْمَشْرِكُونَ يُسَمُّونَ النَّبِيَّ ﷺ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ . وَأَبُو كَبْشَةَ أَحَدُ أَجْدَادِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قَبْلِ أُمَّهِ . وَالْعَرَبُ إِذَا أَرَادُوا اِنْتِقَاصَ أَحَدٍ ، فَإِنَّهُمْ يَنْسُبُونَهُ إِلَى

١٧٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٢٤) برقم (٣١٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (٧ / ٣٥٢) : ((قال ابن إسحاق : حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ قَالَ : خَرَجَتْ هِنْدُ وَالنَّسْوَةُ مِنْهَا يُمْتَلَنُ بِالْقَتْلَى ، يَجْدَعْنَ (يَقَطْعْنَ) الْاِذَانَ وَالْاَنْفَ (جَمْعُ اَنْفٍ) ، حَتَّى اتَّخَذَتْ هِنْدُ مِنْ ذَلِكَ حُرْمًا وَقَلَائِدًا ، وَأَعْطَتْ حُرْمَتَهَا وَقَلَائِدَهَا ، أَيِ اللّاتِي كُنَّ عَلَيْهَا لَوْحَشِي جَزَاءً لَهُ عَلَى قَتْلِ حِمْرَةَ ، وَبَقَرَتْ عَنْ كَيْدِ حِمْرَةَ فَلَاطَتْهَا ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُسَيِّغَهَا فَلَقَطَتْهَا)) .

جَدَّ غامض . وقد كان المُشركون يُطلقون على النبي ﷺ هذا الاسم عداوةً له ، وانتقاصًا من قدره الشريف . فقد نسبوه إلى نسب له غير نَسَبِ المَشهور ، فهم لا يستطيعون الطَّعن في نَسَبِهِ المَعروف ، وهو الشَّريفُ القُرشيُّ الهاشميُّ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ١١٠) عن أبي كَبْشَةَ : ((فَقِيلَ : هُوَ رَجُلٌ مِنْ خُرَاعةِ كان يَغْبُدُ الشَّعْرَى ، وَلَمْ يُوافِقْه أحدٌ من العرب في عبادتها ، فَشَبَّهوا النبي ﷺ به لِمُخالفتِهِ إِيَّاهُمْ في دينِهِمْ ، كما خالفَهُم أبو كَبْشَةَ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

يا أَيُّها الَّذِينَ صَدَّقُوا بَوْحَدانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِنَبِوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وذلك بالترام أوامرهما ، واجتناب نَوَاهِيهما . وَأَطِيعُوا الوُلاةَ والحُكَّامَ المُتمسِّكين بالشريعة فيما أمروكم به من طاعة الله ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . والآية دليل على وجوب طاعة الحُكَّام ما داموا على الحق ، أمَّا إذا خالفوه فلا طاعة لهم . فإن اختلفتم في أمر من الأمور ، فاختركموا إلى القرآن ، والرَّسُولِ أثناء حياته ، وبعد موته إلى سُنَّتِهِ . إن كُنتُمْ تُصدِّقون بالله واليوم الآخر حقًّا . إنَّ الرُّجوعَ إلى القرآن والسُنَّةِ والنحاكمِ إِلَيْهِما خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الاختلافِ والتنازُعِ ، واتِّباعِ الأهواء والآراء الشخصية ، وأجمل عاقبةً وأفضل مآلاً وأحسن جزاءً .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١١٥ - ١١٨) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، في سبب نزولها قولان : أحدهما أَنَّها نزلت في عبد الله ابن خُذافة بن قيس السَّهَمي إِذ بعثه النبي ﷺ في سَرِيَّةٍ ، أخرجته البخاري ومسلم من حديث ابن عباس . والثاني أَنَّ عَمَّارَ بن ياسر كان مع خالد بن الوليد في سَرِيَّةٍ ، فهرب القوم ، ودخل رجل منهم على عَمَّارَ ، فقال : إِنِّي قد أسلمتُ ، هل ينفعني أو أذهب كما ذهب قومي ؟ ، قال عَمَّارُ : أَقِمَّ فَأنتَ آمِنٌ ، فرجع الرَّجُلُ وأقام ، فجاء خالد فأخذ الرَّجُلَ ، فقال عَمَّارُ إِنِّي قد آمَنْتُهُ وإنَّه قد أسلمَ . قال : أَنَجِّيرُ عليَّ وأنا الأمير؟ ، فتنازعا وقديما على رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، طاعة الرسول في حياته امتثال أمره واجتناب نهيه ، وبعد مماته اتِّباع سُنَّتِهِ . وفي أولي الأمر أربعة أقوال : أحدها أَنهم الأُمراء ، قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية يزيد بن أسلم والسُّدي ومقاتل . والثاني أَنهم العُلَماء ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن

عباس، وهو قول جابر بن عبد الله والحسن وأبي العالية وعطاء والتخعي والضحاك ، ورواه خصيف عن مجاهد. والثالث أنهم أصحاب النبي ﷺ ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال بكر ابن عبد الله المزني . والرابع أنهم أبو بكر وعمر ، وهذا قول عكرمة . قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ، قال الزجاج : معناه اختلفتم ، وقال كلُّ فريق : القول قولي . واشتقاق الْمُنَازَعَةِ : أَنَّ كُلَّ واحدٍ يَنْتَزِعُ الْحُجَّةَ . قوله تعالى : ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ، في كيفية هذا الرد قولان : أحدهما أَنَّ رَدَّهُ إِلَى اللَّهِ رَدُّهُ إِلَى كِتَابِهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى النَّبِيِّ رَدُّهُ إِلَى سُنَّتِهِ ، هذا قول مجاهد وقتادة والجُمهور . قال القاضي أبو يعلى : وهذا الرد يكون من وجهين : أحدهما إلى المنصوص عليه باسمه ومعناه ، والثاني : الرد إليهما من جهة الدلالة عليه ، واعتباره من طريق القياس والنظائر . والقول الثاني أَنَّ رَدَّهُ إِلَى اللَّهِ ورسوله أن يقول مَنْ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ : اللَّهُ ورسوله أعلم ، ذكره قوم منهم الزجاج . وفي المراد بالتأويل أربعة أقوال : أحدها أَنَّهُ الْجَزَاءُ وَالثَّوَابُ ، وهو قول مجاهد وقتادة ، والثاني أَنَّهُ الْعَاقِبَةُ ، وهو قول السُّدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج ، والثالث أَنَّهُ التَّصْدِيقُ قاله ابن زيد في رواية، والرابع أَنَّ معناه رَدُّكُمْ إِلَيْهِ إِلَى اللَّهِ ورسوله أحسن من تأويلكم ، ذكره الزجاج . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ، قال : ((نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ)) ١٧٣ .

نزلت هذه الآية الكريمة في الصحابيِّ عبد الله بن حُدَافَةَ _ رضي الله عنه _ ، إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ أَمِيرًا عَلَيْهَا ، وفي الطريق غَضِبَ فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يُوقِدُوا نَارًا ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا ، فَرَفَضَ الْبَعْضُ ، وَهَمَّ الْبَعْضُ بِاللَّدْخُولِ ، فنزلت فيهم الآية . وكان قصده هو حثُّ أتباعه على طاعته ، والتقيُّد بأوامره ، فهو قائد السريَّة ، والمسؤول عنها .

إِنَّ أَهْلَ السَّرِيَّةِ تَنَازَعُوا فِي امْتِنَالِ مَا أَمَرَهُمُ الْأَمِيرُ بِهِ ، فالذين همُّوا أَنْ يُطِيعُوهُ وَقَفُّوا عِنْدَ امْتِنَالِ الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ ، والذين امتنعوا عارضين عندهم الأمر بالفرار من النار ، فناسب أن ينزل في ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع ، وهو رَدُّ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ ، أي : إِنَّ أَمْرَهُمُ الْأَمِيرُ بِأَمْرٍ فَلْيَنْظُرُوا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ طَاعَةً امْتَنَلُوا أَمْرَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً لَمْ يُطِيعُوهُ فِي مَعْصِيَةٍ ، والتزموا طاعته فيما سوى ذلك .

وأولو الأمر : الولاةُ والأمرَاءُ أصحابُ الطاعة والائتمار .

١٧٣ متفق عليه. البخاري (٤ / ١٦٧٤) برقم (٤٣٠٨) ، ومسلم (٣ / ١٤٦٥) برقم (١٨٣٤) .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ من أصول الشريعة : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . ويدخل تحت هذا الأصل كلُّ من أمر بطاعة أحد ، فالابن عليه طاعة والديه في غير معصية ، وأفراد الرعية يجب عليهم طاعة ولاة أمورهم في غير معصية .

وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ١٢٣) : ((وقد قيل : إنه لم يقصد دخولهم النار حقيقة ، وإنما أشار لهم بذلك إلى أن طاعة الأمير واجبة ، ومن ترك الواجب دخل النار ، فإذا شق عليكم دخول هذه النار ، فكيف بالنار الكبرى ، وكأن قصده أنه لو رأى منهم الجِدَّ في وُلوجها لمعهم)) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٢٢٣) : ((قال العلماء : المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء . هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم . وقيل : هم العلماء . وقيل : الأمراء والعلماء . وأما من قال : الصحابة خاصة فقط فقد أخطأ)) .

وروى الدارمي في سننه (٨٣ / ١) عن عطاء : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ، قال : ((أولو العلم والفقهاء ، وطاعة الرسول أتباع الكتاب والسنة)) . هذا يبين أهمية العلماء ودورهم المركزي ، إذ إن أمرهم يُنفذ على الحكام ، ويخضعون له . وكما قيل : الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك .

وقال النعالي في تفسيره (١ / ٣٨٥) : ((والصحيح عندي أنهم الأمراء والعلماء ، أما الأمراء ، فلأن الأمر منهم ، والحكم إليهم ، وأما العلماء فلأن سؤالهم متعين على الخلق ، وجوابهم لازم ، وامتنال فتواهم واجب)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الأنفال : ٤٣] .
اذكُر يا مُحَمَّد حين أراك الله في المنام أعداءك المشركين قلة ، لاحتقروهم وتجتروا عليهم ، فأخبرت به أصحابك فسروا ، حتى قويت نفوسهم ، وتشجعوا على حربهم . وكان ذلك تشيئاً لهم ، وتشجيعاً على عدوهم . ولو أراك الله عدوك كثيراً ، لجبن أصحابك ، ولم يقدروا على حربهم .
ومن محاسن القرآن الكريم وعظمة التعبير القرآني ودقته أنه لم يُسند الفشل إلى النبي ﷺ ، لأنه معصوم ، بل قال : ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ ، إشارة إلى أصحابه .

ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتال المشركين ، وتشئت كلمتكم ، وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار ، ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ، وعصمكم من المخالفة فيما

بينكم . وقد أتمَّ اللهُ لهم أمرهم حتى نصرهم على عدوهم ، إنَّ اللهَ عليم بما في القلوب ، يعلم ما سيكون فيها من الجرأة والجبن والصبر والجزع ، وما يُغيِّر أحوالها .

وقال البغوي في تفسيره (٣٦٣ / ١) : ((قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ ﴾ يُريك يا مُحَمَّدُ المشركين ﴿ فِي مَنَامِكَ ﴾ ، أي : نَوْمِكَ . وقال الحسن : في منامك ، أي : في عينك ، لأنَّ العين موضع النوم ﴿ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ لَجَبْتُمْ ﴿ وَلَتَنَارَعْتُمْ ﴾ أي : اختلفتم ﴿ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي : في الإحجام والإقدام ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ ، أي : سَلَّمَكُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْفَشْلِ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، قال ابن عباس : عَلِمَ ما في صدوركم من الحُبِّ لله عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٦٣ / ٣) : ((قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ ، فيه قولان : أحدهما أنَّ نبيَّ الله ﷺ رأى عسكرَ المشركين في المنام قبل لقائهم في قلة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . قال مُجاهد : لما أُخْبِرَ أصحابه بأنَّه رآهم في المنام قليلاً ، كان ذلك تشبيهاً لهم والثاني إذ يُريكهم اللهُ بعينك التي تنام بها ، قاله الحسن . قال الرَّجَّاج : وكثير من النحويين يذهبون إلى هذا المذهب ، ومعناه عندهم : إذ يُريكهم اللهُ في موضع منامك ، أي : بعينك ، ثمَّ حذَفَ الموضع ، وأقامَ المنام مقامه . قوله تعالى : ﴿ لَفَشِلْتُمْ ﴾ ، أي : لَجَبْتُمْ ، وتأخَّرْتُمْ عن حربهم . وقال مُجاهد : لَفَشِلَ أصحابك ، ولَرَأَوْا ذلك في وجهك . قوله تعالى : ﴿ وَلَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ، أي : لاختلفتم في حربهم ، فكان ذلك من دواعي هزيمتكم ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ من المخالفة والفشل)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وأطيعوا أيُّها المؤمنون اللهُ ورسوله في جميع الأقوال والأفعال والأوامر والنواهي ، ولا تُخالفوا أمرهما في شيء . وقال البيضاوي في تفسيره (١١٢ / ١) : ((﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم ببدْر أو أحد)) .

ولا تختلفوا فيما بينكم باختلاف الآراء ، فَتَضَعُفُوا وَتَجْبُنُوا عَنْ لِقَاءِ عَدُوِّكُمْ ، وتذهب قوتكم وبأسكم ونصركم ودولتكم . وقال البغوي في تفسيره (٣٦٤ / ١) : ((قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ لا تختلفوا ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ ، أي : تَجْبِنُوا وَتَضَعُفُوا ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قال مُجاهد : نُصْرَتِكُمْ ، وقال السُّدي : جَرَاءُ تَكْمِ وَجَدُّكُمْ _ سُلْطَانِكُمْ _ وقال مُقاتِل بن حَيَّان : حِدَّتْكُمْ . وقال النَّضْر بن شَمِيل : قُوتُكُمْ . وقال الأَخْفَش : دَوْلَتِكُمْ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٤٥٨) : ((أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِيمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَيْهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّنَازُعِ ، وَهُوَ الْاِخْتِلَافُ فِي الرَّأْيِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَتَسَبَّبُ عَنْهُ الْفَسَلُ ، وَهُوَ الْجُبْنَ فِي الْحَرْبِ)) .

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . وَاصْبِرُوا عَلَى الْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ وَشِدَائِدِ الْحَرْبِ وَأَهْوَالِهَا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٢٧) : ((أَمَرَ بِالصَّبْرِ ، وَهُوَ مَحْمُودٌ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ ، وَخَاصَّةً مَوْطِنِ الْحَرْبِ)) .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ التَّنَازُعَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي الْآيَةِ ، يَتَعَلَّقُ بِشُؤْنِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، أَوْ بِأَصُولِ الدِّينِ كَالْتَوْحِيدِ وَالتَّبَوُّةِ وَالبَعْثِ . أَمَّا التَّنَازُعُ فِي الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ فَهُوَ تَنَازُعٌ جَائِزٌ ، لِأَنَّ فِيهِ إِعْمَالُ الْعُقُولِ . وَالْعُقُولُ تَتَفَاوَتُ وَتَخْتَلِفُ ، وَلَا يَزَالُ الْمُسْلِمُونَ مُخْتَلِفِينَ فِي الْأَحْكَامِ الْفَقْهِيَّةِ ، مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى الْأَصُولِ . وَقَالَ السُّبْكِيُّ فِي الْإِبْهَاجِ (٣ / ١٨) : ((... فَلَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ نَهَى عَنِ التَّنَازُعِ الْآيَةُ إِنَّمَا وَرَدَتْ فِي مَصَالِحِ الْحُرُوبِ لِقَرِينَةِ قَوْلِهِ : ﴿ فَتَفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، أَوْ أَنَّهَا مَحْمُولَةٌ عَلَى التَّنَازُعِ فِيمَا يَتَعَيَّنُ فِيهِ الْحَقُّ كَمَسَائِلِ الْأَصُولِ ، وَأَمَّا التَّنَازُعُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ فَجَائِزٌ ، لِمَا رُوِيَ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : " اِخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ " ١٧٤ . فَيُحْمَلُ الْحَدِيثُ عَلَى مَا عَدَا ذَلِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْحَدِيثَ الْمُشَارَ إِلَيْهِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَلَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى سِنْدٍ)) .

لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . وَالطَّاعَةُ هِيَ الْخُضُوعُ لِلشَّرْعِ أَمْرًا وَنَهْيًا . وَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ جَمْعُ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْعُ تَفَرُّقِهِمْ . وَالْآيَةُ تُحذِّرُ مِنَ التَّنَازُعِ ، لِأَنَّ فِيهِ الْهَلَاكَ الْحَتْمِيَّ ، وَيُؤَدِّي إِلَى الضَّعْفِ وَالْجُبْنِ . وَالرِّيحُ هِيَ الْقُوَّةُ وَالتَّصَرُّ ، وَكِتَابَةُ عَنْ نَفَاذِ الْأَمْرِ وَجَرِيَانِهِ عَلَى الْمُرَادِ . وَالْعَرَبُ تَقُولُ : هَبَّتْ رِيحُ فُلَانٍ ، إِذَا سَارَتْ أُمُورُهُ كَمَا يُرِيدُ وَيَشْتَهِي .

إِذَا هَبَّتْ رِيَاخُكَ فَاعْتَبِمِهَا	فَعُقْبِي كُلَّ خَافِقَةٍ سَكُونُ
وَإِنْ دَرَّتْ نِيَاقُكَ فَاحْتَلِبِهَا	فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ
وَلَا تَغْفَلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا	فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١١٢) : ((وَالرِّيحُ مُسْتَعَارَةٌ لِلدَّوْلَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَمْشِي فِي أَمْرِهَا وَنَفَاذِهِ ، مُشَبَّهَةً بِهَا فِي هُبُوبِهَا وَنُفُودِهَا)) .

١٧٤ قال الحافظ العراقي في تخریج الإحياء (١ / ٢٠) : ((ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي رِسَالَتِهِ الْأَشْعَرِيَّةِ تَعْلِيْقًا ، وَأَسْنَدَهُ فِي الْمُدْخَلِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِلَفْظِ " اِخْتِلَافُ أَصْحَابِي لَكُمْ رَحْمَةٌ " ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ)) .

وبعض العلماء حَمَلَ معنى الرِّيح في الآية على الحقيقة ، وقالوا إِنَّ النَّصْرَ لا يَكُونُ إلا بِرِيحٍ يَبْعَثُهَا اللهُ تعالى ، وَتَضْرِبُ وُجُوهَ الكُفَّارِ . وفي الحديث أَنَّ النبي ﷺ قال: ((نَصْرْتُ بالصَّبَا ، وَأَهْلَكْتُ عَادًا بالدَّبُورِ)) [سبق تخريجه] . والصَّبَا هي الرِّيحُ الشرقية ، أما الدَّبُورُ فهي الرِّيحُ الغربية . وفي هذا الحديث إشارة إلى قصة الأحزاب الذين هزمهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالرِّيحِ ، وإمداد المؤمنين بالملائكة الذين زلزلوا الأعداء ، وألقوا في قلوبهم الرُّعبَ ، لكنهم لم يُقاتِلُوا .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٦٥) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ وفيه أربعة أقوال : أحدها تَذْهَبُ شِدَّتُكُمْ ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وقال السُّدي : حَدَّثَكُمْ وَجَدُّكُمْ . وقال الرَّجَّاحُ : صَوْلَتْكُمْ وَقَوَّتْكُمْ . والثاني يَذْهَبُ نَصْرُكُمْ ، قاله مُجاهد وَقَتَادَةَ . والثالث تنقطع دَوْلَتُكُمْ ، قاله أبو عبيدة ، وقال ابن قُتَيْبَةَ : يُقَالُ : هَبَّتْ لَهُ رِيحُ النَّصْرِ إِذَا كَانَتْ لَهُ الدَّوْلَةُ ، وَيُقَالُ : لَهُ الرِّيحُ اليَوْمَ ، أي الدَّوْلَةُ . والرابع إِنَّهَا رِيحٌ حَقِيقَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ نَصْرٌ قَطُّ إلا بِرِيحٍ يَبْعَثُهَا اللهُ ، فَتَضْرِبُ وُجُوهَ العَدُوِّ وهذا قول ابن زيد ومقاتل)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤١٧) : ((وقد كان للصَّحابة _ رضي اللهُ عنهم _ في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم اللهُ ورسوله به ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يَكُنْ لأحدٍ مِنَ الأُمَمِ والقُرُونِ قَبْلَهُمْ ، ولا يَكُونُ لأحدٍ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ بِرَكَّةِ الرِّسُولِ ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فَتَحُوا القُلُوبَ والأقاليمَ شرقًا وغربًا في المَدَّةِ اليسيرة مع قَلَّةِ عَدَدِهِم بالنَّسْبَةِ إلى جيوش سائر الأقاليم مِنَ الرُّومِ والفُرسِ والثُرُكِ والصَّقَالِبَةِ والبَرْبَرِ والخُبُوشِ وأصنافِ السُّودانِ والقَبْطِ وطوائفِ بني آدم ، قَهَرُوا الجميعَ حتى عَلَتْ كَلِمَةُ اللهُ ، وَظَهَرَ دِينُهُ على سائر الأديان ، وَامْتَدَّتْ المَمَالِكُ الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سَنَةً ، فَرضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم أجمعين ، وَحَشَرْنَا في زَمْرَتِهِمْ ، إِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ)) .

٨_ القَوْلُ يُخَالِفُ الفِعْلَ

قال اللهُ تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . يأمرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ . أي إِنَّ كَلَامَهُمْ يَتَعَارَضُ مع واقع حالهم . وهذا الانقسام في الشخصية يُؤدِّي إلى ضياع البوصلة الإنسانية، وتحوُّل الفرد إلى كيان مُفْرَغٍ مِنَ المعنى ، وتُصبحُ الكَلِماتُ مُجَرَّدَ شِعَارَاتِ رِنَانَةٍ ، لا تنعكس على السلوك البشريِّ والحياة العامَّةِ . وهذه الآفَةُ موجودة في كلِّ العُصور ، وتكْمُنُ خطورتها في انشغال المجتمع بالكلام دون العمل ، واختفاء العِلْمِ في حِبرِ الكُتُبِ دون القُدرة على الاستفادة منه على أرض الواقع . والنهضة

الاجتماعية في شتى المجالات لا تحصل إلا بالعمل بالعلم النافع ، أي تحويل العلم إلى واقع ملموس ، وتحويل النظريات الفكرية إلى تطبيقات في الحياة المعاشة ، تُساهم في رفع مستوى الإنسان روحياً ومادياً ، وجعل المجتمع أكثر إشراقاً وتقدماً . والعلم المجرد من العمل يفقد إلى غياب الثقة بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد والجماعة ، فيتحول المجتمع إلى جزر متباعدة بلا هوية ولا رابط بينها ، مشغولة بالجدال العقيم ، ومحرومة من العمل المفيد . والمحك الحقيقي هو العمل، لأن الكلام سهل لا يحتاج إلى جهود جبارة وخطط تنموية وبرامج إصلاح ومشاريع تطوير ، ولكن التطبيق العملي على أرض الواقع في غاية الصعوبة ومُنتهى التعقيد .

وَعَبَّرَ تَقِيٌّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى طَيْبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ

والاستفهام في الآية: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ معناه التوبيخ والتقريع. والخطابُ الإلهي لليهود. كيف تأمرُونَ الناسَ بالخير والحق والطاعة والإيمان بمُحمَّد ﷺ ، وأنتم ثابتون على الشر ، ومُتمسِّكون بالباطل، ومُلازمون للمعصية ، ومُكذِّبون بمُحمَّد ﷺ ، وتتركون أنفسكم فلا تأمرونها بذلك ، وأنتم تقرؤون وتدرسون التوراة وفيها صِفة مُحمَّد ﷺ ، وتعلّمون ما فيها من الوعيد على مُخالفةِ القَوْلِ الفِعْلِ . أفلا تعقلون أنه حق فتتبعونه؟! . وكلُّ طاعة لله تُسمى بِرًا . وقد كان الرَّجُل من اليهود يقول لقرينه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر مُحمَّد ﷺ : اثبت على دينه ، فإن أمره حق ، وقوله صدق. وفي الدر المنثور للسُّيوطي (١ / ١٥٦) : وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال : ((نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة ، كان الرَّجُل منهم يقول لصدِّيقه ولذوي قرابته ولَمَن بَيْنَهُم رِضَاع من المسلمين : اثبت على الدِّين الذي أنت عليه ، وما يأمرُك به هذا الرَّجُل _ يعنون به مُحمَّدًا _ ، فإن أمره حق ، وكانوا يأمرُونَ الناسَ بذلك ، ولا يفعلونه)) .

وَصَفَّتِ التَّقَى حَتَّى كَأَنَّكَ ذُو تَقَى وَرِيحُ الخَطَايَا مِنْ ثِيَابِكَ تَسْطَعُ

وقال الطبري في تفسيره (١ / ٢٩٦) : ((عن ابن عباس : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . أي : تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوَّة والعهد من التوراة ، وتتركون أنفسكم . أي : وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي ، وتنقضون ميثاقي، وتجحِّدون ما تعلّمون من كتابي... . عن ابن عباس في قوله: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ﴾ . يقول : تأمرون الناس بالدخول في دين مُحمَّد ﷺ وغير ذلك ممَّا أمرتُم به من إقام الصلاة ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وقال الطبري _ : تأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه؟ ، فهل تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم؟ مُعيرهم بذلك ، ومُقبِّحًا لهم قبيح ما

أَتُوا بِهِ . ومعنى نسيانهم أنفسهم... تركوا طاعة الله فتركهم الله من ثوابه يعني بقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تفقهون وتفهمون فُبِحَ ما تَأْتُونَ مِنْ معصيتكم رَبِّكُمْ التي تأمرون الناس بخلافها ، وَتَنْهَوْنَهُمْ عَنْ رُكُوبِهَا ، وأنتم رابوها ، وأنتم تَعْلَمُونَ أَنَّ الذي عليكم من حق الله وطاعته واتباع مُحَمَّدٍ وَالْإِيمَانَ بِهِ وبما جاء به ، مثل الذي على مَنْ تأمرونه باتباعه ؟ عن ابن عباس : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول : أفلا تفهمون ؟ . ينهاهم عن هذا الخلق القبيح . قال أبو جعفر _ الطبري _ : هذا يدل على صحَّة ما قلنا من أمر أحرار يهود بني إسرائيل غيَّرههم باتباع مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأنهم كانوا يقولون : هو مبعوث إلى غيرنا)) اه . وما أجمل قول أبي الأسود الدُّؤلي :

يا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرَهُ	هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى	كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ
وَأَرَاكَ تُصَلِّحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا	أَبْدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَقِيمٌ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ	عَارٌّ عَلَيَّ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
أَبْدًا بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ غِيَّهَا	فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى	بِالْعِلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْنَابُهُ فِي النَّارِ ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ ، فيقولون : أَيُّ فُلَانٍ ، مَا سَأَلْنَاكَ ؟ ، أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ ، قال : كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيَهُ ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيَهُ)) ١٧٥ .

يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَخْرُجُ أَمْعَاؤُهُ مِنْ بَطْنِهِ خُرُوجًا سَرِيعًا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَشِدَّةِ الْعَذَابِ ، فَيَدُورُ بِأَمْعَاؤِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فِي النَّارِ كَدُّورَانَ الْحِمَارِ حَوْلَ رَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ حَوْلَهُ ، فَيَسْأَلُونَهُ عَنْ سَبَبِ الْعَذَابِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَقَدْ كَانَ فِي الدُّنْيَا يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَفْعَلُهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَفْعَلُهُ .

يُوضِّحُ الْحَدِيثُ خُطُورَةَ عَدَمِ تَطَابُقِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ . وَهَذَا السَّنَاقُضُ الصَّارِخُ يُؤَدِّي إِلَى عَوَاقِبِ وَخِيْمَةٍ . فِي الدُّنْيَا يَغْدُو الْفَرْدُ مُنْفَصِمَ الشَّخْصِيَّةِ ، لَا يَشْعُرُ بِحِلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَتَطْبِيقَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْفَرْدَ ضَائِعًا فِي مَتَاهَةِ الْقَلْقِ وَالْحَيْرَةِ وَعَدَمِ الْاسْتِمْتَاعِ بِالْحَيَاةِ .

١٧٥ متفق عليه. البخاري (١١٩١ / ٣) برقم (٣٠٩٤) ، ومسلم (٤ / ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٩) .

وفي الآخرة سوف يُلاقى جزاء سيئاته، فقد كان يُرشد الآخرين إلى المعروف، وهو يغوص في المنكر . ومثله كمثل إنسان يُرشد الآخرين إلى الطريق الآمن ، ويقع هو في الحفرة .
والحديث يُحْمِلُ وعيدًا شديدًا وتخويفًا رهيبًا لكل شخص يُخالف قَوْلُهُ فِعْلُهُ. وعلى الإنسان أن لا يُكذِّبَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ، ولا يُكثِّرَ حُجَجَ اللَّهِ عَلَيْهِ، ويجب أن يسعى جاهدًا لتطهير نفسه من الذنوب والآثام . وفي نفس الوقت، يُرشد الآخرين إلى طريق الإيمان والعبادات والطاعات . والمسلم مِرْآة أخيه ، وهو قُوِيٌّ بإخوانه . وإذا ارتكب ذنبًا أو اقترف مُنْكَرًا ، فليرجع إلى الله بالتوبة الصادقة .
وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصَّف : ٢] ١٧٦ .
يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِبُيُوتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِمَ تَقُولُونَ كَلِمًا بِلَا تَطْبِيقِ عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، وَلَا تُصَدِّقُونَ قَوْلَكُمْ بِالْعَمَلِ . وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّوْبِخِ وَالتَّقْرِيعِ .
أنكر الله عليهم أن يقولوا القَوْلَ ولا يُجاوزُ ألسنتهم ، وهذا تناقض صارخ بين القَوْلِ والفِعْلِ . وهذا الاختلاف بين الكلام والواقع ينعكس سلبًا على نَفْسِيَّةِ المرء ، ويؤدِّي إلى الشُّعُورِ بِالذَّنْبِ وعدم الرِّضَا عن الذات ، فتنشأ حربٌ بين الإنسان وذاته بسبب التناقض في حياته ، وهكذا ينهار السلام الداخلي في ذات المرء ، وتصيح حياته كوايس مُتناقضات يقتل بعضها بعضًا ، فيغرق في متاهةٍ لا ضوء في آخرها .

١٧٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٤٩ و ٢٥٠) : ((قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ في سبب نزولها خمسة أقوال: أحدها ما روى أبو سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قَعَدْنَا نَقْرًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فقلنا: لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلُنَا. . . . والثاني أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَجِيءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فيقول : فعلت كذا وكذا ، وما فعل ، فنزلت : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وكذلك قال الضَّحَّاك : كان الرَّجُلُ يقول : قاتلتُ ، ولم يُقَاتِلْ ، وطعنْتُ ، ولم يطعن ، وصبرتُ ، ولم يصبر ، فنزلت هذه الآية . والثالث أَنَّ ناسًا من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يُفْرَضَ الجهاد : لَوِدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى دَلَّنَا عَلَى أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا نَزَلَ الْجِهَادَ كَرِهَهُ ناس من المؤمنين ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والرابع أَنَّ صُهَيْبًا قَتَلَ رَجُلًا يَوْمَ بَدْرٍ ، فجاء رجل فادَّعى أَنَّهُ قَتَلَهُ ، وأخذ سَلْبَهُ ، فقال صُهَيْب : أنا قتلته يا رسول الله ، فأمره أن يَدْفَعَ سَلْبَهُ إِلَى صُهَيْب ، ونزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن المسيَّب عن صُهَيْب . والخامس أَنَّ المنافقين كانوا يقولون للنبيِّ وأصحابه : لَوْ قَدْ خَرَجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ وَنَصَرْنَاكُمْ ، فَلَمَّا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ نَكَّضُوا عَنْهُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن زيد)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٥٨) : ((قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، إنكار على مَنْ يَعِدُ وَعَدًا ، أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ ، ولهذا استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَنْ ذهب من علماء السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْوَعْدِ مُطْلَقًا ، سواءً تَرَتَّبَ عَلَيْهِ عَزْمُ الْمَوْعُودِ أَمْ لَا . واحتجُّوا أيضًا مِنَ السُّنَّةِ بما ثبت في الصحيحين أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : " آيَةُ الْمَنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ " وذهب الجمهور إِلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ مُطْلَقًا ، وَحَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ تَمَنَّوْا فَرِيضَةَ الْجِهَادِ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا فُرِضَ نَكَلَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ _ يعني : نَكَصَ عَنْهُ _)) .

وعن عبد الله بن سَلام _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((قَعَدْنَا نَقَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقُلْنَا : لَوْ نَعْلَمُ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَمَلْنَا)) ^{١٧٧} . وهذا سبب نزول الآية .

جَلَسَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورِ الدِّينِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ الْعِلْمَ ، وَقَالُوا إِنَّهُمْ لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ لَفَعَلُوهُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ ، وَرَغْبَةً فِي رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ .

والمُسْلِمُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَقْوَالُهُ مُطَابِقَةً لِعَمَلِهِ ، وَعَمَلُهُ مَوْجُودًا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ ، وَلَيْسَ شِعَارًا مَرْفُوعًا فَحَسْبُ . وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى عَدَمِ حَدُوثِ انْفِصَالِ بَيْنِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ لِئَلَّا يَتَحَوَّلَ إِلَى بُوقِ أَجْوَفٍ لَا مِصْدَاقِيَّةَ لِكَلَامِهِ ، فَيَخْسِرَ احْتِرَامَهُ لِنَفْسِهِ واحْتِرَامَ الْآخِرِينَ لَهُ ، وَيُصْبِحَ مَذْمُومًا عِنْدَ النَّاسِ ، وَعِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . وَالْإِيْمَانُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَصْدِيقِ الْقَوْلِ بِالْعَمَلِ ، وَالْعَالِمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْعَامِلُ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ .

٩_ الجَهْرُ بِالسُّوءِ

قال اللهُ تَعَالَى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

[النِّسَاءُ : ١٤٨] .

لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يُعْلَنَ الْعَبْدُ بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ مَسَاوِيٍّ غَيْرِهِ وَصِفَاتِهِ الْقَبِيحَةِ ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدًا عَلَى أَحَدٍ ، إِلَّا الْمَظْلُومَ الَّذِي اعْتَدَى عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْبَارُ عَنْ ظُلْمِ ظَالِمِهِ ، وَذِكْرُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ السُّوءِ ، أَوْ الدُّعَاءُ عَلَيْهِ . وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا لِشَكْوَى الْمَظْلُومِ ، عَلِيمًا بِظُلْمِ الظَّالِمِ . وَهَذَا تَحْذِيرٌ لِلظَّالِمِ حَتَّى يَتْرِكَ الظُّلْمَ ، وَلِلْمَظْلُومِ حَتَّى لَا يَتَجَاوَزَ حَدَّهُ فِي الْإِنْتِصَارِ ، فَلْيُثَلِّحِ الْحَقَّ ، وَلَا يَتَعَدَّ مَا أُبِيحَ لَهُ .

١٧٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٤٨) برقم (٢٨٩٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والجديرُ بالدُّكر أنَّ الله لا يُحبُّ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ، ولا غَيْرَ الجَهْرِ، ولكنَّ الجَهْرَ أسوأ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٣٦ - ٢٣٩) : ((لا يُحبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ)) ، في سبب نُزولها قولان: أحدهما أنَّ ضَيْفًا تَصَيَّفَ قَوْمًا ، فأساؤوا قِرَاه فاشتكاهم ، فنزلت هذه الآية رُخصة في أن يَشْكُوا ، قاله مُجاهد . والثاني أنَّ رَجُلًا نالَ مِن أبي بَكْر الصِّديق ، والنبيِّ ﷺ حاضر ، فَسَكَتَ عنه أبو بَكْرٍ مِرارًا ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِ ، فَقَامَ النبيُّ ﷺ ، فقال أبو بَكْرٍ : يا رسول الله، شَتَمَنِي فَلَمْ تَقُلْ لَهُ شَيْئًا، حَتَّى إِذَا رَدَدْتُ عَلَيْهِ قُمْتُ؟! ، فقال : " إِنْ مَلَكَكَ كَانَ يُجِيبُ عَنكَ ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ ، ذَهَبَ الْمَلَكُ ، وجاءَ الشَّيْطَانُ " . فنزلت هذه الآية ، هذا قول مُقاتل . واختلفَ الثُّرَاء في قِراءة ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ، فقرأَ الجمهور بضم الظاء وكسر اللام ، وقرأَ عبد الله ابن عمرو والحسن وابن المُسيَّب وأبو رجاء وسعيد بن جُبَيْر وقَتادة والضَّحَّاك وزيد ابن أسلم بفتحهما. فعلى قِراءة الجمهور في معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها إلا أن يدعوا المظلوم على من ظلمه، فإن الله قد أرخص له، قاله ابن عباس. والثاني إلا أن ينتصر المظلوم من ظالمه ، قاله الحسن والسُّدي. والثالث إلا أن يُخبر المظلوم بظلم من ظلمه، رواه ابن أبي نَجِيح عن مُجاهد. وروى ابن جُرَيْج عنه قال: إلا أن يجهر الصَّيْفُ بِذَمِّ مَنْ لَمْ يُضَيِّفْهُ. فأما قِراءة من فَتَحَ الظاء، فقال ثعلب: هي مردودة على قوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] إلا من ظلم. وذكر الرَّجَّاح فيها قولين: أحدهما أن المعنى إلا أن الظالم يجهر بالسُّوءِ ظَلْمًا . والثاني إلا أن تجهروا بالسُّوءِ للظالم، فعلى هذا تكون (إلا) في هذا المكان استثناءً مُنْقَطِعًا، ومعناها: لكن المظلوم يجوز له أن يجهر لظالمه بالسُّوءِ ، ولكن الظالم قد يجهر له بالسُّوءِ ، فاجهروا له بالسُّوءِ. وقال ابن زَيْد: إلا من ظلم، أي: أقام على التَّفَاق، فَيُجْهَرُ له بالسُّوءِ حَتَّى يَنْزِعَ. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا﴾ ، أي: لِمَا تَجْهَرُونَ بِهِ مِنْ سُوءِ القَوْلِ ﴿عَلِيمًا﴾ بِمَا تُخْفُونَ. وقيل: سَمِيعًا لِقَوْلِ المَظْلُومِ عَلِيمًا بما في قلبه، فَلَيَتَّقِ اللهُ ولا يَقُلْ إلا الحق. وقال الحسن: مَنْ ظَلَمَ، فقد رَخَّصَ له أن يدعوا على ظالمه من غير أن يعتدي ، مثل أن يقول : اللهم أعني عليه ، اللهم استخرج لي حقي، اللهم خل بينه وبين ما يريد .

١٠- اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران : ١٤] .

هذا بيانٌ إلهيٌّ عظيم ، وإخبارٌ عن اغترار الناس بشَهَوَاتِ الحياة الدُّنيا وحُطَامِهَا الفاني . والآيةُ تُوضِّحُ حَقَارَةَ شَأْنِ الحُطُوطِ الدُّنيويةِ بأصنافِهَا ، وتَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الرُّهْدِ فِيهَا ، وتُوجِّهُ رَغَبَاتِهِمْ إِلَى مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وهو نعيمِ الجَنَّةِ الدائم . وفي ضِمْنِ الآيَةِ تَوْبِيخٌ ، والشَهَوَاتُ مَذْمُومَةٌ ، وَاتِّبَاعُهَا مُدْمِرٌ ، وَطَاعَتُهَا مُهْلِكَةٌ ، وَالنَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ لَا تَشْبَعُ .

حُسْنٌ وَرُغْبٌ لِنَفُوسِ النَّاسِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حُبُّ الشَهَوَاتِ (أَنْوَاعِ الْمَلذَّاتِ وَالْمُتَعِ) ، وَالْمِيلُ إِلَيْهَا . وَاللَّهُ هُوَ الْمُزَيِّنُ ، زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَهَوَاتِ ابْتِلَاءً وَاخْتِبَارًا لَهُمْ . وَالشَهَوَاتُ جَمْعُ شَهْوَةٍ ، وَهِيَ مَا تَدْعُو النَّفْسَ إِلَيْهِ . وَتَمَّ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُشْتَهِيَّاتِ بِالشَهَوَاتِ مُبَالَغَةً فِي كَوْنِهَا مُشْتَهَاةً ، مَرغُوبًا فِيهَا ، كَأَنَّهَا نَفْسُ الشَهَوَاتِ ، أَوْ تَحْقِيرًا لَهَا ، فَإِنَّ الشَهْوَةَ مُسْتَرْدَلَةٌ مَذْمُومَةٌ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْبِهَائِمِ .

وَالْإِنْسَانُ مَجْبُولٌ عَلَى حُبِّ الشَهَوَاتِ ، وَالشَهْوَةُ إِنَّمَا تُنَالُ بِالْمَالِ وَالْعُمُرِ ، وَالنَّفْسُ مَعْدِنُ الشَهَوَاتِ ، وَأَمَانِيَّتُهَا لَا تَنْقَطِعُ ، وَهِيَ دَائِمًا فَقِيرَةٌ لِتَرَائِمِ الشَهَوَاتِ عَلَيْهَا ، وَالْخَوْفُ مِنْ ضِيَاعِهَا . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٤) : ((﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَهَوَاتِ ﴾ أَي : الْمُشْتَهِيَّاتِ ، سَمَّاهَا شَهَوَاتٌ مُبَالَغَةً وَإِيمَاءً عَلَى أَنَّهُمْ انْهَمَكُوا فِي مَحَبَّتِهَا حَتَّى أَحْبَبُوا شَهْوَتَهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ ﴾ [ص : ٣٢] ، وَالْمُزَيِّنُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْأَفْعَالِ وَالِدُّوَاعِي ، وَلَعَلَّهُ زَيْنٌ ابْتِلَاءً ، أَوْ لِأَنَّهُ يَكُونُ وَسِيلَةً إِلَى السَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ يَرْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى ، أَوْ لِأَنَّهُ مِنْ أَسْبَابِ التَّعْيِشِ وَبَقَاءِ النَّوْعِ . وَقِيلَ : الشَّيْطَانُ ، فَإِنَّ الْآيَةَ فِي مَعْرُضِ الدَّمِ)) . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَهَوَاتِ)) ١٧٨ .

إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَحْصُلُ عَلَى الْجَنَّةِ إِلَّا بَعْدَ نَجَاحِهِ فِي الْاِخْتِبَارَاتِ ، وَصَبْرِهِ عَلَى الْمَصَائِبِ . وَالْجَنَّةُ غَالِيَةٌ ، وَكُلُّ غَايَةٍ نَبِيلَةٌ يَكُونُ الطَّرِيقُ إِلَيْهَا صَعْبًا ، وَبِحَاجَةٍ إِلَى جُهُودِ جَبَّارَةٍ ، وَتَعَبٍ شَدِيدٍ . وَطَّرِيقُهَا إِلَى النَّارِ سَهْلٌ وَبَسِيطٌ ، وَمُزَيِّنٌ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ، وَمَلِيءٌ بِالشَهَوَاتِ وَالنَّزَوَاتِ . وَالرُّشُوبُ فِي الْاِمْتِحَانِ سَهْلٌ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى دَرَسَةٍ . لَكِنَّ النِّجَاحَ يَحْتَاجُ إِلَى تَعَبٍ وَجُهْدٍ وَإِنْجَازٍ . وَالْمَكَارِهِ هِيَ الْمَشَاقُّ الَّتِي تَسْتَلْزِمُهَا الْعِبَادَاتُ وَالطَّاعَاتُ ، وَتَرْكُ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالْحَرَامِ . وَسُمِّيَتْ مَكَارِهِ لِمَشَقَّتِهَا وَصُعُوبَتِهَا . وَالشَهَوَاتُ هِيَ الْمَلذَّاتُ الْمُحَرَّمَةُ الَّتِي مَنَعَ الشَّرْعُ مِنْ تَعَاطِئِهَا وَالتَّعَامُلِ

١٧٨ متفق عليه، واللفظ لمسلم (٤ / ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٢) . والبخاري (٥ / ٢٣٧٩) برقم (٦١٢٢) .

معها ، والتي قد تُؤدِّي إلى ترك الواجبات ، أو الوقوع في المُحرِّمات . كما أن الإكثار من المُباحات قد يُؤدِّي إلى الحرام. ولا يصل العبدُ إلى عذاب النار إلا بتعاطي الشَّهَوَاتِ ، ولا يصل إلى نعيم الجنَّة إلا بارتكاب المشقَّة وتجاوز الصعوبات . والجنَّة والنارُ محجوبتان ، ومن هتَكَ الحِجَابَ افتحم . والحديثُ يدلُّ على فصاحة النبي ﷺ وبلاغته ، حيث أُوتِيَ جوامع الكَلِمِ ، ودِقَّة التعبير، ورُوعة التَّمثيل. وقد دَمَّ الشَّهَوَاتِ، وحذَّرَ مِنْهَا، مهما كانت جميلةً وبرَّاقةً ومُحبِّبةً إلى النُّفوسِ، لأنَّ الشَّهَوَاتِ طريقُ النار . وفي الوقت ذاته ، حضَّ على العبادات والطاعات ، وإن كانت شاقَّةً ومُتعبَةً ، وكرهتْهَا النُّفوسِ ، لأن المَكَارِهَ طريق الجنَّة . والغايةُ الجميلةُ تُنسي العبدَ مشقَّةَ الطريق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ١٦٥) : ((قال العلماء : هذا من بديع الكلام ، وفصيحه ، وجوامعه ، التي أُوتِيهَا ﷺ من التَّمثيل الحَسَنِ ، ومعناه : لا يُوصِلُ الجنَّةَ إلا بارتكاب المَكَارِهَ ، والنارَ بالشَّهَوَاتِ . وكذلك هُما محجوبتان بهما ، فَمَنْ هتَكَ الحِجَابَ ، وَصَلَ إلى المَحجُوبِ ، فَهتَكَ حِجَابَ الجنَّةِ باقتحام المَكَارِهَ ، وهتَكَ حِجَابَ النارِ بارتكاب الشَّهَوَاتِ . فأَمَّا المَكَارِهَ فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات ، والمُؤاظَبَةُ عليها ، والصَّبْرُ على مَشاقِّهَا ، وكَظْمُ الغَيْظِ، والعَفْوُ، والحِلْمُ ، والصَّدَقَةُ ، والإحسان إلى المُسيءِ ، والصَّبْرُ عن الشَّهَوَاتِ، ونَحْوُ ذلك . وأَمَّا الشَّهَوَاتِ التي النارُ مَحفُوفَةٌ بها ، فالظاهر أنها الشَّهَوَاتِ المُحرِّمةُ كالخمر والزنا ، والنظر إلى الأجنبيَّة ، والغيبية ، واستعمال المَلاهي ، ونَحْوُ ذلك . وأَمَّا الشَّهَوَاتِ المُباحة فلا تَدْخُلُ في هذه ، لكن يُكره الإكثار مِنْهَا مخافة أن يَجُرَّ إلى المُحرِّمة ، أو يُقَسِّيَ القلبَ ، أو يَشغَلَ عن الطاعات ، أو يُخَوِّجَ إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا لِلصَّرْفِ فيها ، ونَحْوُ ذلك)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٣٨٨ و ٣٨٩) : ((حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكَارِهَ) أي : أحاطت بنواحيها ، جمع مَكْرَهَةٍ ، وهي ما يَكْرَهُهُ المرءُ وَيَشقُّ عَلَيْهِ مِنَ القيامِ بحقوق العبادَةِ على وَجْهِهَا ، كإسباغ الطُّهْرِ في الشِّتَاءِ ، وَتَجْرُعُ الصَّبْرِ على المصائب . قال القرطبي : وأصلُ الحَقِّ الدائر بالشَّيْءِ المُحيط به الذي لا يتوصَّلُ إليه إلا بعد أن يتخطَّى غَيْرَهُ ، فَمَثَلُ المُصْطَفَى ﷺ المَكَارِهَ والشَّهَوَاتِ بذلك ، فالجنَّةُ لا تُنالُ إلا بقطع مَفَاوِزِ المَكَارِهَ ، والصبر عليها ، والنار لا يُنجَى مِنْهَا إلا بِقَطْمِ النَّفْسِ عن مطلوباتها . قال ابن حجر : وهذا من جوامع كَلِمِ المُصْطَفَى ﷺ وبديع بلاغته في دَمِّ الشَّهَوَاتِ ، وإن مالت إليها النُّفوسُ ، والحَثُّ على الطاعات ، وإن كَرِهَتْهَا وشَقَّتْ عَلَيْهَا (وَحُفَّتِ) في رواية : حُجِبَتْ في المَوْضِعَيْنِ (النارُ بالشَّهَوَاتِ) وهي كُلُّ ما يُوافق النَّفْسَ ويُلانِمها ، وتدعو إليه ، ذَكَرَهُ القُرْطُبِيُّ ، بأن أُطِيفَتْ بها مِنْ جوانبها ، وهذا تمثيل حَسَنٌ ، معناه :

يُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ بَارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ مِنَ الْجَهْدِ _ الْمَشَقَّةِ _ فِي الطَّاعَةِ ، وَالصَّبْرِ عَنِ الشَّهْوَةِ ، كَمَا يُوصِلُ الْمَحْجُوبَ عَنِ الشَّيْءِ إِلَيْهِ بِهَيْتِكَ حِجَابِهِ ، وَيُوصِلُ إِلَى النَّارِ بَارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ . وَمِنَ الْمَكَارِهِ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ بِأَنْوَاعِهَا ، فَكُلُّ مَا صَبِرَ عَلَى وَاحِدَةٍ قَطَعَ حِجَابًا مِنْ حُجُبِ الْجَنَّةِ ، وَلَا يَزَالُ يَقْطَعُ حُجُبَهَا حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا مُفَارَقَةُ رُوحِهِ بَدَنَهُ ، فَيُقَالُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) ﴾ الْآيَةَ . قَالَ الْعَزَالِيُّ : بَيَّنَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ طَرِيقَ الْجَنَّةِ وَعَمْرٌ ، وَسَبِيلَ صَعْبٌ ، كَثِيرَ الْعَقَبَاتِ ، شَدِيدَ الْمَشَقَّاتِ ، بَعِيدَ الْمَسَافَاتِ ، عَظِيمَ الْآفَاتِ ، كَثِيرَ الْعَوَاقِقِ وَالْمَوَانِعِ ، خَفِيَّ الْمَهَالِكِ وَالْقَوَاطِعِ ، غَزِيرَ الْأَعْدَاءِ وَالْقَطَّاعِ ، غَزِيرَ الْأَتْبَاعِ وَالْأَشْيَاعِ ، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ)) .

﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . بَدَأَ بِالنِّسَاءِ ، لِكَثْرَةِ الْمَيْلِ إِلَيْهِنَّ ، وَلِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهِنَّ أَشَدَّ ، وَالِاسْتِمْتَاعَ بِهِنَّ أَكْثَرَ ، وَلِأَنَّهِنَّ أَعْظَمَ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ ، وَأَوْثَقَ مَصَائِدِهِ . وَالْمَرْأَةُ خُلِقَتْ مِنَ الرَّجُلِ ، فَهَمَّتْهَا فِي الرَّجُلِ ، وَالرَّجُلُ خُلِقَ فِيهِ الشَّهْوَةُ ، وَجُعِلَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ سَكَنًا ، فَغَيْرَ مَأْمُونٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩ / ٤) : ((بَدَأَ بِهِنَّ لِكَثْرَةِ تَشَوُّفِ النَّفُوسِ إِلَيْهِنَّ ، لِأَنَّهِنَّ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ ، وَفِتْنَةُ الرَّجَالِ فَفِتْنَةُ النِّسَاءِ أَشَدُّ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ . وَيُقَالُ : فِي النِّسَاءِ فِتْنَتَانِ ، وَفِي الْأَوْلَادِ فِتْنَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَأَمَّا اللَّتَانِ فِي النِّسَاءِ فِإِحْدَاهُمَا أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى قَطْعِ الرَّحْمِ ، لِأَنَّ الْمَرْأَةَ تَأْمُرُ زَوْجَهَا بِقَطْعِهِ مِنَ الْأُمَّهَاتِ وَالْأَخْوَاتِ ، وَالثَّانِيَةُ يُبْتَلَى بِجَمْعِ الْمَالِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَأَمَّا النَّوْنُ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ فِيهِمْ وَاحِدَةٌ ، وَهُوَ مَا ابْتُلِيَ بِجَمْعِ الْمَالِ لِأَجْلِهِمْ)) .

وَالخَوْفُ مِنَ النِّسَاءِ أَكْثَرُ مِنَ الخَوْفِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النِّسَاءُ : ٧٦] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ﴾ [يُوسُفُ : ٢٨] ، وَهَذَا يُوضِّحُ عَظَمَةَ كَيْدِ النِّسَاءِ ، وَشِدَّةَ الْفِتْنَةِ بِهِنَّ ، وَكَثْرَةَ تَحَايِلِهِنَّ ، وَصُعُوبَةَ التَّخَلُّصِ مِنْ إِغْرَائِهِنَّ وَإِعْوَانِهِنَّ ، وَأَيْضًا ، الشَّيْطَانُ يُوسُوسُ مُسَارِقَةً ، وَالنِّسَاءُ يُوَاجِهْنَ بِهِ الرَّجَالَ .

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)) [سَبِقَ تَخْرِيجُهُ وَتَفْسِيرُهُ] . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٦٨ / ١) : ((فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِهِنَّ الْإِعْفَافَ ، وَكَثْرَةَ الْأَوْلَادِ ، فَهَذَا مَطْلُوبٌ ، مَرْغُوبٌ فِيهِ ، مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ ، كَمَا وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالرَّغْبِ فِي التَّزْوِيجِ ، وَالِاسْتِكْتَارِ مِنْهُ)) .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ)) [سَبِقَ تَخْرِيجُهُ وَتَفْسِيرُهُ] .

وفي صحيح البخاري (١٩٥١ / ٥) عن سعيد بن جبير قال : قال لي ابن عباس : ((هل تزوجت ؟)) ، قلت : لا ، قال : ((فتزوج ، فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء)) .

حَثَّ النبي ﷺ على الزَّوْجِ ، ورَغِبَ فيه ، وَمَنَعَ كُلَّ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِ العُزُوفِ عَنِ الزَّوْجِ والرَّهْبَنِيةِ ، وَمَنَعَ تَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي الزَّوْجِ وَغَيْرِهِ . إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ الَّذِي يَجِبُ الاقْتِدَاءُ بِهِ ، وَأَتْبَاعُ سُنَّتِهِ ، كَانَ أَكْثَرَ أُمَّتِهِ نِسَاءً ، لِأَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ لَهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعِ زَوَاجَاتٍ ، فَقَدْ مَاتَ ﷺ وَهُوَ لَهُ تِسْعَ زَوَاجَاتٍ ، وَلَمْ يُشْرَعْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ إِلَّا الْجَمْعُ بَيْنَ أَرْبَعِ زَوَاجَاتٍ فَقَطْ . وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ أَنَّ خَيْرَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ مَنْ كَانَ أَكْثَرَ نِسَاءً مِنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَتَسَاوَى مَعَهُ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ . وَفِي الْحَدِيثِ : الْحَثُّ عَلَى الزَّوْجِ لِمَنْ مَلَكَ مُؤَنَّتَهُ وَتَرَكَ الرَّهْبَانِيَّةَ ، وَالْحَثُّ عَلَى الزَّوْجِ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ امْرَأَةٍ لِمَنْ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ .

وقال الحافظ في الفتح (٩ / ١١٤ و ١١٥) : ((قيل : المعنى : خير أمة محمد من كان أكثر نساء من غيره ممن يتساوى معه فيما عدا ذلك من الفضائل ، والذي يظهر أن مراد ابن عباس بالخير النبي ﷺ ، وبالأمّة أخصاء أصحابه ، وكأنّه أشار إلى أنّ ترك التزويج مرجوح ، إذ لو كان راجحاً ما آثر النبي ﷺ غيره ، وكان مع كونه أخشى الناس لله ، وأعلمهم به ، يُكثِرُ التزويجَ لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطّلع عليها الرجال ، ولاظهار المعجزة البالغة في خرق العادة ، لكونه كان لا يجد ما يشبع به من الثّوّت غالباً ، وإنّ وجد كان يُؤثّر بأكثره ، وبصوم كثيراً ، وبوَأَصِلَ ، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة ، ولا يُطَاقُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ قُوَّةِ الْبَدَنِ ، وَقُوَّةِ الْبَدَنِ تَابِعَةٌ لِمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمُقَوِّياتِ مِنْ مَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ ، وَهِيَ عِنْدَهُ نَادِرَةٌ ، أَوْ مَعْدُومَةٌ ، وَوَقَعَ فِي الشَّفَاءِ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَمْدَحُ بِكَثْرَةِ التَّكَاحِ لِذِلَالَتِهِ عَلَى الرُّجُولِيَّةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَلَمْ تَشْغَلْهُ كَثْرَتُهُنَّ عَنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ ، بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ عِبَادَةً لِتَحْصِينِهَا ، وَقِيَامِهِ بِحَقُوقِهَا ، وَاسْتِيسَابَةِ لَهَا ، وَهَدَايَتِهِ إِيَّاهُنَّ ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِالتَّحْصِينِ قَصْرَ طَرْفِهَا عَلَيْهِ ، فَلَا يَتَطَلَّعَنَّ إِلَى غَيْرِهِ ، بِخِلَافِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّ الْعَفِيفَةَ تَطَّلَعُ بِالطَّبَعِ الْبَشَرِيِّ إِلَى التَّزْوِيجِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَصْفُ اللَّائِقُ بِهَا . وَالَّذِي تَحَصَّلَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْحِكْمَةِ فِي اسْتِكْثَارِهِ مِنَ النِّسَاءِ عَشْرَةَ أَوْجِهَ : أَحَدُهَا أَنْ يَكْثُرَ مَنْ يُشَاهِدُ أَحْوَالَ الْبَاطِنَةِ ، فَيَنْتَفِي عِنْدَ مَا يَظُنُّ بِهِ الْمَشْرُوكُونَ مِنْ أَنَّهُ سَاحِرٌ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . ثَانِيهَا لِيَتَشَرَّفَ بِهِ قِبَالَ الْعَرَبِ بِمُصَاهَرَتِهِ فِيهِمْ . ثَالِثُهَا لِلزِّيَادَةِ فِي تَأْلُفِهِمْ لِذَلِكَ . رَابِعُهَا لِلزِّيَادَةِ فِي التَّكْلِيفِ ، حَيْثُ كَلَّفَ أَنْ لَا يَشْغَلَهُ مَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْهُنَّ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّبْلِيغِ . خَامِسُهَا لِتَكْثُرِ عَشِيرَتِهِ مِنْ جِهَةِ نِسَائِهِ ، فَتَزَادَ أَعْوَانُهُ عَلَى مَنْ يُحَارِبُهُ . سَادِسُهَا نَقْلُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَا يَطَّلَعُ

عليها الرجال ، لأنَّ أكثر ما يقع مع الزَّوجة مِمَّا شأنه أن يَحْتَفِي مِثْلُهُ . سابعها الاطِّلاع على مَحَاسِن أخلاقه الباطنة، فقد تزَّوج أُمَّ حَبِيبَةَ وأبوها إذ ذاك يُعَادِيهِ ، وَصَفِيَّةَ بعد قَتْل أبيها وَعَمَّهَا وَزَوْجَهَا ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ أَكْمَل الخُلُقِ فِي خُلُقِهِ لَنَفَزَنَ مِنْهُ ، بل الذي وقع أَنَّهُ كان أَحَبَّ إِلَيْهِنَّ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِهِنَّ . ثامنها ما تَقَدَّمَ مَبْسُوطًا مِنْ خَرْقِ العَادَةِ لَهُ فِي كَثْرَةِ الجِمَاعِ مَعَ التَّقَلُّلِ مِنَ المَأْكُولِ وَالمَشْرُوبِ وَكثْرَةِ الصِّيَامِ وَالمِوَالِ ، وَقَدْ أَمَرَ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُؤْنِ التَّكَاحِ بِالصَّوْمِ ، وَأشارَ إِلَى أَنَّ كَثْرَتَهُ تَكْسِرُ شَهْوَتَهُ ، فَانخَرَقَتْ هَذِهِ العَادَةُ فِي حَقِّهِ ﷺ . تاسعها وعاشرها ما تَقَدَّمَ نَقَلَهُ عَن صاحِبِ الشِّفَاءِ مِنْ تَحْصِينِهِنَّ وَالمِوَالِ بِحَقْوَقِهِنَّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

﴿ وَالبَيْنِ ﴾ . بعد النِّسَاءِ ذِكْرُ ما يَتَوَلَّدُ مِنْهُنَّ ، يَعْنِي البَيْنِ ، وَتَنَى بِالبَيْنِ لِأَنَّهِنَّ تَمَرَاتِ القُلُوبِ ، وَفِرَّةُ الأَعْيُنِ ، وَخَصَّ البَيْنِ ذُونَ البِنَاتِ ، لِأَنَّ النَّاسَ يُحِبُّونَ البَيْنِ أَكْثَرَ ، وَكثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَكْرَهُونَ البِنَاتِ . وَتَمَّ تَقْدِيمُ البَيْنِ عَلَى الأَمْوَالِ ، لِأَنَّ حُبَّ الإِنْسَانِ لَوْلَدِهِ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِمَالِهِ .
وَصَدَقَ القَائِلُ :

وإنَّما أولادنا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لا مَتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ العَمَضِ

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٦٨) : ((وَحُبُّ البَيْنِ تَارَةٌ يَكُونُ لِلتَّفَاخِرِ وَالمُزِينَةِ ، فَهُوَ داخِلٌ فِي هَذَا ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدَّه لا شَرِيكَ لَهُ ، فَهَذَا مُحَمَّدٌ مَمْدُوحٌ)) .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : ((تَزَوَّجُوا الوُدُودَ الوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَّمَ)) ١٧٩ .
الزَّوْجُ سُنَّةُ الأنبياءِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالمِوَالِ _ ، وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ ، وَدَعَا إِلَيْهِ ، لِأَنَّ بِهِ تَكْثِيرًا لَعَدَدِ المُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ .

أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالزَّوْجِ مِنَ الوُدُودِ ، وَهِيَ الَّتِي تُحِبُّ زَوْجَهَا مَحَبَّةً شَدِيدَةً ، الوُلُودُ كَثِيرَةُ الوِلَادَةِ ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى قَرِيبَاتِهَا كَأُمَّهَا وَأَخْتِهَا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُفَاخِرٌ بِعَدَدِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ الأُمَّمِ السَّابِقَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ . أَي : مُفَاخِرٌ بِسَبِّبِكُمْ سَائِرِ الأُمَّمِ لِكثْرَةِ اتِّبَاعِي . وَالحديثُ يُرَغِّبُ فِي الزَّوْجِ مِنَ الوُدُودِ الوُلُودِ ، لِما فِي ذَلِكَ مِنْ نَفْعٍ عَظِيمٍ يَعُودُ عَلَى الزَّوْجِ وَالأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ .

١٧٩ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٧٦) برقم (٢٦٨٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي عون المعبود (٦ / ٣٣) : ((تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ) أي التي تُحِبُّ زَوْجَهَا (الْوُلُودَ) أي التي تُكْثِرُ وِلَادَتَهَا . وَقَبِدَ يَهْدِينِ لِأَنَّ الْوُلُودَ إِذَا لَمْ تَكُنْ وَدُودًا لَمْ يَزَعْجَبِ الزَّوْجُ فِيهَا ، وَالْوُدُودُ إِذَا لَمْ تَكُنْ وُلُودًا لَمْ يَحْصُلِ الْمَطْلُوبُ ، وَهُوَ تَكْثِيرُ الْأُمَّةِ بِكثْرَةِ التَّوَالِدِ ، وَيُعْرَفُ هَذَانِ الْوَصْفَانِ فِي الْأَبْكَارِ مِنْ أَقْرَابِهِنَّ إِذِ الْغَالِبُ سِرَايَةَ طِبَاعِ الْأَقْرَابِ بَعْضَهُنَّ إِلَى بَعْضٍ)) اهـ . وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٢٤٢) : (((تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ) الْمُتَحَبِّبَةُ لِزَوْجِهَا بِتَخَوُّهِ تَلَطَّفُ فِي الْخِطَابِ ، وَكثْرَةُ خِدْمَةِ ، وَأَدَبُ وَبَشَاشَةُ (الْوُلُودِ) وَيُعْرَفُ فِي الْبِكْرِ بِأَقْرَابِهَا فَلَا تَعَارُضُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُدْبِ نِكَاحِ الْبِكْرِ . قَالَ أَبُو زُرْعَةَ : وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْوُلُودِ كَثْرَةُ الْأَوْلَادِ بَلْ مَنْ هِيَ فِي مَطْنَةِ الْوِلَادَةِ وَهِيَ الشَّابَّةُ دُونَ الْعَجُوزِ الَّذِي انْقَطَعَ نَسْلُهَا ، فَالصَّفَتَانِ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ (فَأَنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ) أَي أَعْلَبُ بِكُمْ الْأُمَّةُ السَّابِقَةُ فِي الْكثْرَةِ وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِتَزْوِجِ الْوُدُودِ الْوُلُودِ ، وَإِنَّمَا أَتَى بِقَيْدَيْنِ لِأَنَّ الْوُدُودَ إِذَا لَمْ تَكُنْ وُلُودًا لَا يَزَعْجَبُ الرَّجُلُ فِيهَا ، وَالْوُلُودُ غَيْرُ الْوُدُودِ لَا تُحْصَلُ الْمَقْصُودُ)) .

﴿ وَالْقِنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ . والأموال الكثيرة المجمعمة المكندسة المدخرة بإحكام وإتقان ، مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْمَالُ مَحْبُوبٌ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَقِّقُ بِهِ غَالِبَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَرْتَكِبُ الْأَخْطَارَ فِي تَحْصِيلِهِ . وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ أَصْلُ السَّعَامِلِ ، لِذَلِكَ خُصَّ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمَا . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٦٨) : ((وَحُبُّ الْمَالِ تَارَةً يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالخِيَلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، فَهَذَا مَذْمُومٌ ، وَتَارَةً يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَانِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مَحْمُودٌ شَرَعًا . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَارِ الْقِنَاطِرِ عَلَى أَقْوَالٍ ، وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْجَزِيلُ ، كَمَا قَالَ الصَّحَّاحُ وَغَيْرُهُ)) . وَقَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٤٤) : ((سُمِّيَ ذَهَبًا لِسُرْعَةِ ذَهَابِهِ بِالْإِنْفَاقِ ، وَفِضَّةً لِأَنَّهَا تَنْفَرِقُ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْفِضُّ : التَّفْرِيقُ)) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿ وَالْقِنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ﴾ ، قال : ((الْقِنَاطِرُ أَلْفَا أُوقِيَّةٌ)) ١٨٠ .

١٨٠ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ١٩٤) برقم (٢٧٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وفي فيض القدير (٤ / ٥٤٠) : ((الْقِنَاطِرُ أَلْفَا أُوقِيَّةٌ) بِالْفِ التَّشْنِيَةِ . قَالَ فِي الْكَشَافِ : الْقِنَاطِرُ الْمَالُ الْعَظِيمُ ، مِنْ قَنْطَرْتِ الشَّيْءِ إِذَا رَفَعْتَهُ ، وَمِنْهُ الْقَنْطَرَةُ لِأَنَّهُ مَشِيدٌ قَالَ النَّوَوِيُّ : وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَاللُّغَةَ عَلَى أَنَّ الْأُوقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا)) .

﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ . وَالْخَيْلُ الْأَصِيلَةُ الْحَسَانُ . وَالْخَيْلُ سُمِّيَتْ بِهِ لِاخْتِيَالِهَا فِي مَشْيِهَا .
 وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٤) : ((﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ ، الْخَيْلُ جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ
 لَفْظِهِ ، وَاحِدُهَا فَرَسٌ ، كَالْقَوْمِ وَالنِّسَاءِ وَنَحْوَهُمَا . ﴿ الْمُسَوَّمَةُ ﴾ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ الْمُطَهَّمَةُ
 الْحَسَانُ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : تَسْوِيمُهَا حُسْنُهَا . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هِيَ الرَّاعِيَةُ . . .)) .
 وَعَنْ عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ :
 الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ))^{١٨١} .

الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُوَ ذِرْوَةٌ سَنَامِ الْإِسْلَامِ ، وَفِيهِ تُبَدَّلُ الْأَمْوَالُ وَالْأَنْفُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
 وَأَجْرُهُ عَظِيمٌ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخَيْلَ رَمْزًا لِلْعِتَادِ وَالْقُوَّةِ فِي الْحُرُوبِ وَالْجِهَادِ ، وَإِذَا أَعَدَّهَا صَاحِبُهَا
 لِمِثْلِ هَذِهِ الْغَايَةِ النَّبِيلَةِ ، نَالَ بِهَا الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا ، وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ فِي الْآخِرَةِ .
 وَالْخَيْلُ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْجِهَادِ وَالْعَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُلَازِمٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ (الْأَجْرُ وَالْمَغْنَمُ) ،
 وَهَذَا الْخَيْرُ يَظَلُّ مُلَازِمًا لِأَهْلِ الْجِهَادِ لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا ، وَفِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ الْجِهَادَ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 لَا يَنْقَطِعُ . وَخَصَّ النَّوَاصِي بِالذِّكْرِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ : فَلَانٌ مُبَارَكٌ النَّاصِيَّةُ ، فَيَكُنِّي بِهَا عَنِ الْإِنْسَانِ .
 وَلِلْعَبْدِ الْأَجْرُ كُلَّمَا أَكَلَتْ الْخَيْلُ أَوْ شَرِبَتْ أَوْ مَشَتْ أَوْ حَتَّى بِالثِّ كَتَبَ اللَّهُ لِصَاحِبِهَا أَجْرًا .
 وَأَمَّا الْغَنِيمَةُ فَتَكُونُ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَأَخَذِ أَمْوَالِهِمْ .

وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ فَضْلَ الْخَيْلِ ، وَمَا يَكُونُ فِي نَوَاصِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ ، إِذَا كَانَ اتَّخَاذُهَا
 فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٣ / ١٦ ، ١٧) : ((وَالْمُرَادُ
 بِالنَّاصِيَّةِ هُنَا الشَّعْرُ الْمُسْتَرَسِلُ عَلَى الْجَبْهَةِ . قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ : قَالُوا : وَكُنِّي بِالنَّاصِيَّةِ عَنِ
 جَمِيعِ ذَاتِ الْفَرَسِ . يُقَالُ : فَلَانٌ مُبَارَكٌ النَّاصِيَّةُ ، وَمُبَارَكُ الْغُرَّةِ ، أَي : الذَّاتِ . وَفِي هَذِهِ
 الْأَحَادِيثِ اسْتِحْبَابُ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، وَاقْتِنَانُهَا لِلْعَزْوِ ، وَقِتَالُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَأَنَّ فَضْلَهَا وَخَيْرَهَا وَالْجِهَادُ
 بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ : " الشُّؤْمُ قَدْ يَكُونُ فِي الْفَرَسِ " ، فَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُ الْخَيْلِ
 الْمُعَدَّةَ لِلْعَزْوِ وَنَحْوِهِ ، أَوْ أَنَّ الْخَيْرَ وَالشُّؤْمَ يَجْتَمِعَانِ فِيهَا ، فَإِنَّهُ فَسَّرَ الْخَيْرَ بِالْأَجْرِ وَالْمَغْنَمِ ، وَلَا
 يَمْتَنِعُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ الْفَرَسُ مِمَّا يُنْتَشَاءُ بِهِ)) .

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٥١١ و ٥١٢) : ((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى
 يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْأَجْرُ) بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : الْخَيْرِ ، أَوْ هُوَ خَيْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ أَي هُوَ الْأَجْرُ (وَالْمَغْنَمُ)

١٨١ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٤٨) برقم (٢٦٩٧) ، ومسلم (٣ / ١٤٩٣) برقم (١٨٧٣) .

قال الطيبي : يُحْتَمَلُ كَوْنُ الْخَيْرِ الْمَفْسَّرِ بِهِمَا اسْتِعَارَةً لِظُهُورِهِ وَمُتْلَازِمَتِهِ ، وَخَصَّ النَّاصِيَةَ لِرِفْعَةِ قَدْرِهَا ، فَكَأَنَّهُ شَبَّهَ لِظُهُورِهِ بِشَيْءٍ مَحْسُوسٍ مَعْقُودٍ عَلَى مَحَلِّ مُرْتَفِعٍ ، فَانْسَبَ الْخَيْرَ إِلَى لَازِمِ الْمَشَبَّهِ ، وَذَكَرَ النَّاصِيَةَ تَجْرِيدًا لِلِاسْتِعَارَةِ . اهـ . لكن ذهب جدِّي الأعلى مِنْ جِهَةِ الْأُمِّ الْحَافِظِ الرَّيِّنِ الْعِرَاقِيِّ إِلَى أَنَّهُ أَمْرٌ خَاصٌ بِنَاصِيَتِهَا بِدَلِيلِ النَّهْيِ عَنْ قَصِّهَا)) .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٦٨٠) : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ ، هِيَ لِرَجُلٍ وَرِزٌّ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ . فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وَرِزٌّ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَهِيَ لَهُ وَرِزٌّ ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا وَلَا رِقَابِهَا ، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدُ أَرْوَاطِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ)) .

المالُ نِعْمَةٌ أَعَمَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْإِنْسَانِ ، وَالْخَيْلُ مِنْ أَنْفَسِ الْأَمْوَالِ ، وَأَعَزُّهَا عِنْدَ أَصْحَابِهَا . وَأَصْحَابُهَا فِي الْجَزَاءِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : الْأَوَّلُ _ " هِيَ لِرَجُلٍ وَرِزٌّ " : جَالِبَةٌ لِلذَّنْبِ وَالْإِثْمِ ، وَهُوَ الَّذِي أَمْسَكَهَا وَرَبَّأَهَا لِلْفَخْرِ بَيْنَ النَّاسِ بِكَثْرَتِهَا وَقِيمَتِهَا وَهَيْئَتِهَا وَرُكُوبِهَا ، وَرَبَّمَا كَانَتْ لِلْمُعَادَاةِ وَالْحَرْبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَهَذِهِ جَالِبَةٌ لِلْإِثْمِ لِصَاحِبِهَا . وَالثَّانِي _ " هِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ " : تَسْتُرُهُ وَتُعْنِيهِ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ ، وَهُوَ الَّذِي رَبَطَهَا وَرَبَّأَهَا وَنَمَّأَهَا فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ ، كَأَنُّ يُتَاجَرُ فِيهَا أَوْ يَسْتُخْدَمُهَا فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِ أَرْضِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يُخْرِجْهَا لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَحَرْبِ الْأَعْدَاءِ ، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا ، بَلْ أَدَّى الْحَقُوقَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْهِ فِيهَا ، وَأَخْرَجَ رِزْقَ رِقَابِهَا ، وَلَا زَكَاةَ فِي الْخَيْلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مُعَدَّةً لِلتَّجَارَةِ . فَهِيَ لِذَلِكَ سَاتِرَةٌ لِفَقْرِهِ وَحَالِهِ . وَالثَّالِثُ _ " هِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ " : جَالِبَةٌ لِصَاحِبِهَا الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَفَهَا عَلَى خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَشَرَ الْإِسْلَامَ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَمِنْ حِفْظِهَا لَهَا أَنَّهَا " فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ " : فِي حَدَائِقٍ وَبَسَاتِينٍ تَرَعَى وَتَأْكَلُ فِيهَا ، فَكُلَّمَا أَكَلَتْ أَوْ شَرِبَتْ مِنَ الْحَدِيقَةِ أَوْ الْبُسْتَانِ ، إِلَّا كُتِبَ لَهُ أَجْرٌ وَثَوَابٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُتِبَ لَهُ حَسَنَاتٌ بَعْدَ مَا أَخْرَجَتْهُ مِنْ فَضْلَاتِ طَعَامِهَا ، وَالرَّوْثُ : رَجِيعُ الْحَيَوَانَاتِ مِنَ الْفَضْلَاتِ وَالْمُخْلَفَاتِ الْخَارِجَةِ مِنْ بَطُونِهَا ، وَهَذَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي احْتِسَابِ الثَّوَابِ ، لِأَنَّهُ إِذَا كُتِبَ بَعْدَ الْأَرْوَاطِ وَالْأَبْوَالِ حَسَنَاتٌ ، فَكَيْفَ بغيرها !؟ .

تَتَضَحُّ أَهْمِيَةُ النَّبِيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ ، فَرَبِطُ الْخَيْلِ قَدْ يَقُودُ إِلَى الْحَسَنَاتِ ، وَقَدْ يَقُودُ إِلَى السَّيِّئَاتِ . وَالْمُهْمُ هُوَ طَرِيقُ الْأَجْرِ ، وَهَذَا يَتَأْتَى بِرِبْطِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اسْتِعْدَادًا لِلْجِهَادِ ، وَالِاعْتِنَاءُ بِهَا لِكَيْ

تُساهم في نُصرة جيش المسلمين . وعندئذ تكون الخيلُ بابًا للحَسَنَات مفتوحًا على مِصْرَاعِيهِ .
والخَيْلُ مِنَ الأَدْوَاتِ الفَعَّالَةِ فِي الجِهَادِ ، وَهِيَ تُسْتَحْدَمُ فِي أَغْرَاضٍ مُتَعَدِّدَةٍ لخدمَةِ الجِيشِ .
فَالخَيْلُ الَّتِي تُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَهَا مَكَانَةٌ طَيِّبَةٌ فِي مَنْظُومَةِ القُوَّةِ الَّتِي يَتَطَلَّبُهَا الجِهَادُ . مَعَ الانْتِبَاهِ
إِلَى ضَرُورَةِ الِاعْتِنَاءِ بِهَا، وَالإِنْفَاقِ عَلَيْهَا ، وَتَغْذِيَتِهَا جَيِّدًا ، وَعِلاجِهَا فِي حَالِ المَرَضِ .

إِنَّ اقْتِنَاءَ الخَيْلِ وَتَخْصِيصَهَا لِلغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ العِبَادَاتِ الَّتِي يُؤَجَّرُ المَرْءُ عَلَى فِعْلِهَا ،
لأنَّهُ أَرَادَ بِهَذَا العَمَلِ المُسَاهِمَةَ الفَعَّالَةَ فِي الجِهَادِ لِإِعْلَاءِ رَايَةِ التَّوْحِيدِ . وَبِالتَّأَكِيدِ ، فَالْأَخْذُ
بِالأسْبَابِ المَادِيَةِ مِنَ صَمِيمِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمِن تَمَامِ المَعْرِفَةِ بِالسُّنَنِ الكَوْنِيَةِ والقَوَانِينِ
الوُجُودِيَةِ . وَلَا بُدَّ مِنْ إِكْرَامِ الخَيْلِ عِنْدَ أَصْحَابِهَا ، لِمَا لاقْتِنَائُهَا لِلرِّبَاطِ وَالْحَرْبِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ
فَضْلٍ عَظِيمٍ وَأَهْمِيَةِ كَبِيرَةٍ .

وَمَنْ اسْتَعْمَلَ الخَيْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَانَتْ لَهُ نَجَاحًا وَفَلاحًا يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَسَيَرَى الخَيْرَ
بِسَبَبِهَا، لأنَّهُ سَخَّرَهَا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَنَشْرِ دِينِهِ، وَهَزِيمَةِ أَعْدَائِهِ . وَمَنْ اسْتَعْمَلَ الخَيْلَ فِي
مَعْصِيَةِ حَصَلٍ لَهُ الإِثْمِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ فِي التَّمْهِيدِ (١٤ / ٩٦) : ((عَنِ ابْنِ عُمرَ أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " الخَيْلُ
فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ " . فِي هَذَا الحَدِيثِ الحَضُّ عَلَى اِكْتِسَابِ الخَيْلِ ، وَتَفْضِيلِهَا عَلَى
سَائِرِ الدَّوَابِّ ، لأنَّهُ ﷺ لَمْ يَأْتِ عَنْهُ فِي غَيْرِهَا مِثْلُ هَذَا القَوْلِ ، وَبِذَلِكَ تَعْظِيمٌ مِنْهُ لَشَأْنِهَا، وَحَضُّ
عَلَى اِكْتِسَابِهَا ، وَنَدْبٌ إِلَى ارْتِبَاطِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، عُدَّةٌ لِلقَاءِ العَدُوِّ، إِذْ هِيَ أَقْوَى الآلَاتِ فِي
جِهَادِهِ ، فَهَذِهِ الخَيْلُ المُعَدَّةُ لِلجِهَادِ هِيَ الَّتِي فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ مُعَدَّةً لِلفِتَنِ وَقَتْلِ
المُسْلِمِينَ وَسَلْبِهِمْ، وَتَفْرِيقِ جَمْعِهِمْ ، وَتَشْرِيدِهِمْ عَنِ أَوطَانِهِمْ ، فَبِئْسَ خَيْلُ الشَّيْطَانِ، وَأَرْبابُهَا حَزْبُهُ،
وَفِي مِثْلِهَا _ وَاللَّهُ أَعْلَمُ _ وَرَدَّ أَنَّ اِكْتِسَابَهَا وَزَّرَ عَلَى صَاحِبِهَا ، لأنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْهُ أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ
وِزْرًا لِمَنْ لَمْ يَرْتَبِطْهَا وَيُجَاهِدْ عَلَيْهَا ، وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَهَا فِخْرًا وَمُنَاوَأَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَأَذَى لَهُمْ ، وَعَوْنًا
عَلَيْهِمْ، ... ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمَعْلُومٌ أَنَّ نَدْبَهُ إِلَى اِكْتِسَابِهَا مِنْ أَجْلِ جِهَادِ العَدُوِّ عَلَيْهَا ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ بِأَنَّ الجِهَادَ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ تَحْتَ رَايَةِ كَلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنَ
الأُمَّةِ بِهَذَا الحَدِيثِ ، لأنَّهُ قَالَ فِيهِ : " إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ " ، وَلَا وَجْهَ لِذَلِكَ إِلاَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
لأنَّهُ قَدْ وَرَدَ الدَّمُ فِيمَنْ ارْتَبَطَ بِهَا وَاحْتَبَسَهَا رِيَاءً وَفِخْرًا وَنَوَاءً _ مُعَادَاةً _ لِأَهْلِ الإِسْلامِ)) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((الخَيْلُ ثَلَاثَةٌ : فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ ، وَفَرَسٌ
لِلْإِنْسَانِ ، وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ ، فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبَطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَعَلَفَهُ وَرَوَّضَهُ وَبَوَّأَهُ

_ وَذَكَرَ مَا شَاءَ اللَّهُ _ ، وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ فَالَّذِي يُقَامِرُ أَوْ يُرَاهِنُ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ ، فَالْفَرَسُ يَرْتَبِطُهَا الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا ، فَهِيَ تَسْتُرُ مِنْ فَقْرٍ ((١٨٢ .

الْحَيْلُ حَيَوَانٌ أَلِيفٌ ، وَفِيهِ مِسْحَةٌ مِنْ فَنَاحِمَةٍ وَجَمَالٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَهْمِيَّتَهَا ، كَمَا بَيَّنَّ كَيْفِيَّةَ اقْتِنَائِهَا ، لِتَكُونَ أَجْرًا لِصَاحِبِهَا ، وَتَكُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى .

الْحَيْلُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ فِي حُكْمِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، " فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ " : مُعَدَّةٌ لِلْعَمَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمُرَادِهِ ، " وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ " : حَظُّهَا مَقْصُورٌ عَلَى نَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا ، لَا أَجْرَ لَهُ ، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، " وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ " : وَهُوَ الَّذِي يُسْتَعْتَمَدُ فِي مَعْصِيَةٍ ، وَسُمِّيَ فَرَسَ الشَّيْطَانِ ، لِأَنَّهُ مِمَّا يُعْجِبُهُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ ، وَكَفَى بِهِ إِثْمًا . ثُمَّ فَصَّلَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْوَالَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ . فَفَرَسُ الرَّحْمَنِ _ وَالْإِضَافَةُ لِلتَّشْرِيفِ _ : الْمَوْقُوفُ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، فَطَعَامُهُ وَفَضْلَاتُهُ فِي كِفَّةِ حَسَنَاتٍ مَنْ ارْتَبَطَ بِهِ ، تَكُونُ أَجْرًا لَهُ ، وَهَذَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي احْتِسَابِ الثَّوَابِ ، لِأَنَّهُ إِذَا اعْتَبَرَ مَا تَسْتَقْدِرُهُ النَّفْسُ ، وَتَنْفِرُ عَنْهُ الطَّبَاعُ ، فَكَيْفَ بَعِيرُهَا !؟ . وَفَرَسُ الشَّيْطَانِ هُوَ الَّذِي يُقَامِرُ عَلَيْهِ أَوْ يُرَاهِنُ عَلَيْهِ ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ . وَفَرَسُ الْإِنْسَانِ هِيَ الَّتِي يَطْلُبُ بِهَا النَّتَاجَ ، فَهِيَ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَقْرِ ، لِارْتِفَاقِهِ بِهَا بِالْبَيْعِ وَالْمُتَاجَرَةِ .

وَوَجْهُ الْحَضَرِ فِي الثَّلَاثَةِ أَنَّ الَّذِي يَقْتَنِي الْحَيْلَ ، إِنَّمَا يَقْتَنِيهَا لِرُكُوبِ أَوْ تِجَارَةِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا إِذَا أَنْ تَقْتَرْنَ بِهِ طَاعَةٌ ، فَهُوَ طَاعَةٌ ، أَوْ تَقْتَرْنَ بِهِ مَعْصِيَةٌ ، فَهُوَ مَعْصِيَةٌ .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٥١٢ و ٥١٣) : (((الْحَيْلُ ثَلَاثَةٌ فَفَرَسٌ لِلرَّحْمَنِ وَفَرَسٌ لِلشَّيْطَانِ وَفَرَسٌ لِلْإِنْسَانِ) فِيهِ جَوَازُ السَّجْعِ إِذَا كَانَ بِغَيْرِ تَكْلُفٍ (فَأَمَّا فَرَسُ الرَّحْمَنِ فَالَّذِي يُرْبِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أَي : لِلجِهَادِ عَلَيْهِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ (فَعَلْفُهُ وَرَوْتُهُ وَيَوْلُهُ فِي مِيزَانِهِ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي كِفَّةِ الْحَسَنَاتِ . فَإِنَّ قِيلَ : فَمَا بَالُ الرُّوثِ وَالْحَسَنَاتِ وَهِيَ مِنَ النَّجَاسَاتِ ، قُلْنَا : إِذَا رَعَتِ الدَّابَّةُ شَبَعَتْ ، وَمِنْ تَمَامِ شَبَعِهَا طَرِحَ الْفَضْلَةَ ، فَلَمَّا كَانَتْ مِنْ مَنَافِعِهَا كُتِبَ لَهُ أَجْرُهَا ، وَلَا نِزَاعَ فِي نَجَاسَتِهَا ، فَإِنَّ دَمَ الشَّهِيدِ نَجَسٌ ، وَرِيحُهُ رِيحُ الْمِسْكِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ إِذَا نَوَى بِالْفَرَسِ الْجِهَادَ يَكُونُ بَوْلُهُ وَرَوْتُهُ طَاهِرًا ، فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً ظَاهِرًا (وَأَمَّا فَرَسُ الشَّيْطَانِ) أَي :

١٨٢ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (١ / ٣٩٥) بِرَقْمِ (٣٧٥٦) . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (٥ / ٤٧٥) : ((رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ ، فَإِنَّ كَانَ الْقَاسِمُ بْنُ حَسَّانَ سَمِعَ مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، فَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ)) . وَرَوَاهُ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٢ / ١٦٦) : ((رَوَاهُ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ)) .

إبليس (فالذي يُفَامِرُ أو يُرَاهِنُ) بالبناء للمجهول (عَلَيْهِ) على رُسُومِ الجاهليَّةِ وطرائقهم ، وذلك أن يتواضعا بينهما جَعْلًا يستحقه السابق منهما ، كذا ذَكَرَهُ الزمخشري (وَأَمَّا فَرَسُ الْإِنْسَانِ فَالْفَرَسُ يَرْتَبِطُ الْإِنْسَانُ يَلْتَمِسُ بَطْنَهَا) أي يَطْلُبُ ما فِي بَطْنِهَا يعني النَّتَاجَ، وفي رواية: يَسْتَبْطِئُهَا ، والاستبْطِئُ: استخراج الماء فاستُعِيرَ لإخراج النَّسْلِ (فهي) لهذا الثالث (سِتْرٌ مِنْ فَقْرٍ) أي تَحْوُلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَقْرِ بارتفاقه بئمن نتاجها ، كَمَا يَحْوُلُ السِّتْرُ بَيْنَ الشَّيْءِ وَبَيْنَ النَّاطِرِينَ . وقد أخرج أبو داود وغيره عن أنس أنه لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل)) .
وعن أبي ذرِّ الغفاري رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : ((مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدِّنُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِدَعْوَتَيْنِ ، يَقُولُ : اللَّهُمَّ كَمَا حَوَّلْتَنِي ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ))^{١٨٣} .
جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَيْلِ خَيْرًا كَثِيرًا ، فهي مِنْ أَدْوَاتِ الْجِهَادِ فِي قُرُونٍ سَابِقَةٍ عَدِيدَةٍ ، ولا تزال كعامل مُساعد في التدريب .

" مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ " ، الْمُرَادُ مِنَ الْفَرَسِ : الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى مِنَ الْخَيْلِ ، إِلَّا يُلْهِمُهُ اللَّهُ الدُّعَاءَ بِدَعْوَتَيْنِ . " اللَّهُمَّ كَمَا حَوَّلْتَنِي " : اللَّهُمَّ كَمَا صَيَّرْتَنِي فِي مَلِكِهِ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَجَعَلْتَنِي لَهُ " فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ " ، أي : بَأَنْ يَكُونَ أَحَبَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ مَالِهِ ، لِأَنَّ الْفَرَسَ ضِمْنَ الْأَمْوَالِ ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّعْوَةُ الْأُولَى ، " وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ " : بَأَنْ تَقْذِفَ حُبِّي فِي قَلْبِهِ ، فَأَكُونَ أَحَبَّ أَهْلِهِ ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّعْوَةُ الثَّانِيَّةُ . وفي الحديث : الْفَضْلُ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الْفَرَسُ عُمُومًا ، وَالْعَرَبِيُّ مِنْهُ خُصُوصًا . وفيه : أَنَّ الْحَيَوَانَاتَ يَحْصُلُ مِنْهَا الدُّعَاءُ .

﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ ، وَالْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالغَنَمَ ، فَمِنْهَا الْمَرْكَبُ وَالْمَطْعَمُ وَالرِّبْنَةُ . وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٤ / ١) : ((﴿ وَالْأَنْعَامُ ﴾ ، جَمْعُ النَّعَمِ وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ ، جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ)) .
﴿ وَالْحَرْثُ ﴾ ، وَالزَّرْعَ وَالغِرَاسَ ، لِأَنَّ فِيهِ تَحْصِيلَ أَقْوَاتِهِمْ . وقال ابن كثير فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٦٨) : ((﴿ وَالْحَرْثُ ﴾ يَعْنِي الْأَرْضَ الْمُتَّخِذَةَ لِلغِرَاسِ وَالزَّرْعَةِ)) اهـ . وقال القُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩ / ٤) : ((قَالَ الْعُلَمَاءُ : ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ مِنَ الْمَالِ ، كُلُّ نَوْعٍ مِنَ الْمَالِ يَتَمَوَّلُ بِهِ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ ، أَمَّا الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ فَيَتَمَوَّلُ بِهَا الشُّجَّارُ ، وَأَمَّا الْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ فَيَتَمَوَّلُ بِهَا الْمُلُوكُ ، وَأَمَّا الْأَغْنَامُ فَيَتَمَوَّلُ بِهَا أَهْلُ الْبَوَادِي ، وَأَمَّا الْحَرْثُ فَيَتَمَوَّلُ بِهَا أَهْلُ الرِّسَاتِيْقِ _ السَّوَادِ وَالْقُرَى _ فَتَكُونُ فِتْنَةً كُلِّ صِنْفٍ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَتَمَوَّلُ ، فَأَمَّا النِّسَاءُ وَالْبُنُونَ فَفِتْنَةٌ لِلْجَمِيعِ)) .

١٨٣ رواه الحاكم في المستدرک (١٠١ / ٢) برقم (٢٤٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ))^{١٨٤}.

المُسلِمُ إذا قامَ بعملٍ نافعٍ أو فعلٍ صالحٍ ، فإنه يحصلُ على الأجر والثواب من الله تعالى . وما من مُسلمٍ يغرسُ غرسًا أو يزرعُ زرعًا ، فيتعدى نفعُ هذا الزرع ، فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ ، إلا كان له أجرٌ بذلك . والبهيمةُ : كلُّ ذاتٍ أربَعٍ من دَوَابِ البَحْرِ والبَرِّ . وكلُّ حيوانٍ لا يُمَيِّزُ فهو بهيمةٌ ، والجمْعُ بهائمٌ .

وإنما حصَّ المسلم بالذِّكر ، لأنه ينوي عند الغرسِ _ غالبًا _ أن يتقوى المسلمون بِشَمَرِ ذلك الغرسِ على عبادة الله تعالى ، ولأن المسلم هو الذي يحصلُ له ثوابٌ ، وأمَّا الكافر فلا يحصلُ له بما يفعله من الخيرات والصالحات أجرٌ ، ولكن يُثاب عليها في الدنيا ، بالمال والولد والطعام والشراب والنعمّة ، ونحو ذلك ، وقد عجلت طيباته في حياته الدنيا . وأمَّا في الآخرة فلا يُكتب له منها شيءٌ من الحسنات ، لأنَّ الكفر مُحِيطٌ لجميع الحسنات ، ولا يتفَع معه عمل صالح . وإن كان الكفار يتفاوتون في عذاب جهنم ، بحسب جرائمهم في الدنيا ، مع خلودهم جميعًا في النار إلى أبد الأبد .

والحديثُ يبيِّن فضلَ الزراعةِ والعملِ بالحِثِّ ، ويخصُّ على عمارة الأرض ليعيش الإنسان بنفسه ، أو من يأتي بعده ممن يُوجر فيه .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٢١٣) : ((_ في هذا الحديث _ فضيلة الغرسِ وفضيلة الزرع ، وأنَّ أجرَ فاعلي ذلك مُستمر ما دام الغراس والزرع وما تولد منه إلى يوم القيامة . وقد اختلف العلماء في أطيِّب المكاسب وأفضلها ، فقيل : التَّجَارَة ، وقيل : الصَّنعة باليد ، وقيل : الزراعة ، وهو الصحيح . وقد بسطتُ إيضاحه في آخر باب الأطعمة من شرح المُهدَّب . وفي هذه الأحاديث _ ذكرها النووي في كتابه _ أيضًا أنَّ الثَّواب والأجر في الآخرة مُختص بالمُسلمين ، وأنَّ الإنسان يُثاب على ما سُرقَ من ماله أو أتلفته دابةٌ أو طائرٌ ونحوهما)) . وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٤٩٦) : ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا) أي مزروعًا (أو يغرسُ غرسًا) بالفتح يعني مغروسًا شجرًا أو للتنويع ، لأنَّ الزرع غير الغرس ، وخرج الكافر فلا يُثاب في الآخرة على شيءٍ ممَّا سيجيء ، ونقل عياض فيه الإجماع . وأمَّا خبرٌ : ما من رجلٍ ، وخبرٌ :

١٨٤ متفق عليه . البخاري (٢ / ٨١٧) برقم (٢١٩٥) ، ومسلم (٣ / ١١٨٩) برقم (١٥٥٣) .

ما من عبء ، فمحمول على ما هنا ، والمراد بالمسلم الجنس فيشمل المرأة (فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) أي يجعل لزارعه وغارسه ثواب، سواءً تصدق بالمأكول أو لا . قال المظهر : والقصد أنه بأي سبب يؤكل مال الرجل يحصل له الثواب . وقال الطيبي : الرواية برفع صدقة على أن كانت تامة ، ونكر مُسَلِّمًا وأوقعه في سياق التني ، وزاد " من " الاستغرافية ، وخصَّ الغرسَ بالشجر ، وعمَّ الحيوانَ ، ليدلُّ على سبيل الكناية الإيمانية على أن أيَّ مسلمٍ كان حُرًّا أم عبدًا ، مُطيعًا أو عاصيًا، يعمل أيَّ عملٍ من المباح يتنفع بما عمله أيَّ حيوان كان ، يرجع نفعه إليه ، ويثاب عليه . وفيه حث على اقتناء الصياع ، وفعله كثير من السلف خلافًا لمانعه وفيه أن المتسبب في الخير له أجر العامل به ، هبه من أعمال البرِّ ، أو من مصالح الدنيا ، وذلك يتناول من غرسٍ لنفقتة أو عياله ، وإن لم ينو ثوابه ، ولا يُختص بمباشرة الغرس أو الرزق ، بل يشمل من استأجر لعمله)) .

وعن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال : ((خَيْرُ مَالِ الْمَرْءِ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ))^{١٨٥} .
أفضل مال العبد مهرة مأمورة ، وهي كثيرة التناج والنسل ، أو سكة مأبورة ، والسكة : النخل المصطف ، والمأبورة : الملقحة .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٤٩١) : ((خَيْرُ مَالِ الْمَرْءِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ) أي : كثيرة التناج ، يُقال : أمرهم الله فأمرؤا ، أي : كثروا ، وبه استدل على أنه لو حلف لا مال له وله خيل حنت ، وقال أبو حنيفة : لا (أو سكة مأبورة) أي : طريقة مصطفة من النخل مؤبرة ، ومنه قيل للزقاق سكة ، والتأبير تليح النخل)) .

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية . والإنسان يتمتع بخطام الدنيا الزائل ثم يذهب ولا يبقى . والدنيا إذا لم تترك الإنسان ، فهو سيركها .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ١٩٨) : ((فَكُنِّي يَقُولُهُ : ﴿ ذَلِكَ ﴾ عن جميعهم ، وهذا يدل على أن " ذلك " يشتمل على الأشياء الكثيرة المختلفة المعاني ، ويكنى به عن جميع ذلك . وأما قوله : ﴿ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، فإنه خبر من الله عن أن ذلك كله مما يستمتع به في الدنيا أهلها أحياء ، فيتبلغون به فيها ، ويجعلونه وصلة في معاشهم ، وسببًا لقضاء شهواتهم التي زين لهم

١٨٥ رواه أحمد في مسنده (٣ / ٤٦٨) . وقال المحقق : إسناده ضعيف . وقال الهيثمي في الجمع (٥ /

٤٧٠) : ((رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد ثقات)) .

حُبُّهَا فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ دُونَ أَنْ تَكُونَ عُدَّةً لِمَعَادِهِمْ، وَقُرْبَةً لَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ، إِلَّا مَا أَسْأَلِكَ فِي سَبِيلِهِ، وَأَنْفَقَ مِنْهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ)) .

﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالثَّوَابِ . وَفِي تَفْسِيرِ الْجَلَالِينَ (١ / ٦٤) : ((الْمَرْجِعُ ، وَهُوَ الْجَنَّةُ ، فَيَنْبَغِي الرِّغْبَةُ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ)) .

وَمَعْنَى الْآيَةِ: تَقْلِيلُ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرُهَا وَالتَّزْهِيدُ فِيهَا، وَالتَّرْغِيبُ فِي حُسْنِ الْمَرْجِعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ. وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْإِبْتِعَادَ عَنِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، وَالتَّفَكِيرَ بِالذَّاتِ الْحَقِيقِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ. وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ النِّسَاءَ وَالبَنِينَ وَالذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَالحَيْلَ وَالأَنْعَامَ وَالحَرْثَ ، قَدْ تَحَسَّنَ نِيَّةُ الْعَبْدِ بِالتَّابَسِ بِهَا ، فَيُنَابَ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الدَّمُ يَعودُ إِلَى سُوءِ القَصْدِ فِيهَا وَبِهَا .

١١ _ الكَذِبُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

فِي قُلُوبِ المُنَافِقِينَ مَرَضٌ، وَهُوَ الاعتقادُ الفاسدُ وَرَفْضُ الإيمانِ وَتَكْذِيبُ النَّبِيِّ ﷺ وَالشُّكُّ فِيهِ. وَمَرَضُ القَلْبِ يَعْنِي المَرَضُ فِي الدِّينِ ، وَليس المَرَضُ فِي الأَجْسَادِ . وَأَصْلُ المَرَضِ الضَّعْفُ ، وَسُمِّيَ الشُّكُّ فِي الدِّينِ مَرَضًا، لِأَنَّهُ يُضْعِفُ الدِّينَ ، كَمَا يُضْعِفُ المَرَضُ الجَسَدَ. وَالشُّكُّ تَرَدَّدٌ بَيْنَ الأَمْرَيْنِ، وَالمَنَافِقُ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الإيمانِ وَالكُفْرِ، وَالمَرِيضُ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الحَيَاةِ وَالمَوْتِ. وَتَنْكِيرُ ﴿ مَرَضٌ ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَرَضٌ غَامِضٌ وَمُبْهَمٌ، وَليس كالأَمْرَاضِ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ. إِنَّهُ مَرَضٌ خَفِيٌّ وَمُسْتَتِرٌ ، وَمِنْ نَوْعِ خَاصٍ .

وَسُوءُ العَقِيدَةِ وَالنِّفَاقِ وَالشُّكِّ وَالحَسَدِ ، كُلُّهَا أَمْرَاضٌ تُصِيبُ القَلْبَ ، وَتُفْسِدُهُ ، وَتَمْنَعُ الإِنْسَانَ مِنْ اِكْتِسَابِ الفَضَائِلِ ، وَتَقُودُهُ إِلَى الأَلَمِ وَالحَسْرَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَعَذَابِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ . وَالإِنْسَانُ المُصَابُ بِهَذِهِ الأَمْرَاضِ يَحْتَرِقُ مِنَ الدَّخْلِ ، وَيُهْلِكُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَيَقْضِي عَلَيْهَا . فِي قُلُوبِ المُنَافِقِينَ وَهُمْ وَنِفَاقٌ وَشُكٌّ وَحِيْرَةٌ وَحَسَدٌ وَعَدَاوَةٌ وَعَقَائِدُ باطِلَةٌ ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ شُكًّا وَحِيْرَةً وَضِياعًا بِسَبَبِ سُوءِ نِيَّتِهِمْ وَفَسَادِ عَقِيدَتِهِمْ . وَهَذِهِ عُقُوبَةُ إلهِيَّةٌ لَهُمْ . إِنَّهُمْ يَغْرَقُونَ فِي مُسْتَنْقَعِ أَفْكَارِهِمُ الدَّنِيئَةِ، وَيَضِيعُونَ فِي مَتَاهَةِ الأَوْهَامِ وَالشُّكُوكِ. وَلَمْ يَسْعَوْا إِلَى طَلَبِ الحَقِّ، وَالبَحْثِ عَنِ الصَّوَابِ ، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ زَادَهُمْ نِفَاقًا إِلَى نِفَاقِهِمْ ، وَرَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ ، وَشُكًّا إِلَى شُكِّهِمْ، وَضَلَالًا إِلَى ضَلَالَتِهِمْ. وَأَيَّاتُ القُرْآنِ كَانَتْ تَنْزِلُ بِشَكْلِ مُتَتَابِعٍ ، وَكَلِمَا نَزَلَتْ آيَةٌ كَفَرُوا بِهَا ،

فازدادوا كُفْرًا ونفاقًا . وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَهَدَاهُمْ ، وَلَكِنْ طَغَى عَلَى قُلُوبِهِمْ ، لَعَلَّمَهُ أَنْ التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهيبَ وَالبِشَارَةَ وَالنَّذَارَةَ وَالتَّذْكَيرَ وَالمَوَاعِظَ ، لَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ ، وَلَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا شَيْئًا .

لقد كان المُنافِقون يَحْتَرِقون بحسدهم للنبي ﷺ ، فقد فقدوا زعامتهم ورياستهم ونُفُوذهم ، أمَّا النبي ﷺ فيزداد قُوَّةً ومكانةً ، وتنتشر دَعْوَتُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، ويكثر أصحابه وأتباعه . لقد جحدوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بسبب حقدهم الدفين ، وحسدهم المُتَجَدَّر ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِحَّةِ مَا يَجْحَدُونَ .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ٢٤٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ابتداءً وخبر ، والمرض عبارة مُستعارة للفساد الذي في عقائدكم ، وذلك إمَّا أَنْ يَكُونَ شَكًّا وَنِفَاقًا ، وَإِمَّا جَحْدًا وَتَكْذِيبًا . والمعنى : قلوبهم مرضى لِخُلُوقِهَا عَنِ الْعِصْمَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّأْيِيدِ . قال ابن فارس اللغوي : المَرَضُ كُلُّ مَا خَرَجَ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنِ حُدِّ الصَّحَّةِ مِنْ عِلَّةٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فِي أَمْرٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ . قيل : هو دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ ، وَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ : زَادَهُمُ اللَّهُ شَكًّا وَنِفَاقًا جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَضَعْفًا عَنِ الْإِنْتِصَارِ ، وَعَجْزًا عَنِ الْقُدْرَةِ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَالتَّرْدِ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ شَرَّ خَلْقِ اللَّهِ . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم ، أي فزادهم الله مرضًا إلى مرضهم ، كما قال في آية أُخْرَى : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ . وقال أرباب المعاني : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي بِسُكُونِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَحُبِّهِمْ لَهَا ، وَغَفْلَتِهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهَا . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي وَكَلَّمَهُمْ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَجَمَعَ عَلَيْهِمْ هُمُومَ الدُّنْيَا ، فَلَمْ يَتَفَرَّغُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَى اهْتِمَامِ بِالذِّينِ . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بما يفنى عمَّا يبقى . وقال الجُنَيْدُ : عَلَّلَ الْقُلُوبَ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى ، كَمَا أَنَّ عَلَّلَ الْجَوَارِحَ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، " أَلِيمٌ " فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مَعْنَاهُ مُؤَلِّمٌ ، أَيْ : مُوَجِّعٌ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، " مَا " مُصْدَرِيَّةٌ ، أَيْ : بِتَكْذِيبِهِمْ الرَّسْلَ ، وَرَدَّهُمْ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِهِ)) اهـ . وقال أبو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٢) : ((فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ إِنْخِ ، حِينَئِذٍ اسْتِثْنَاهُ تَعْلِيلِي لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ [البقرة : ٩] إِنْخِ . كَأَنَّهُ قِيلَ : مَا لَهُمْ يُخَادِعُونَ وَيُدَاهِنُونَ ، وَلَيْمَ لَا يُجَاهِرُونَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ ؟ . فَقِيلَ : فِي قُلُوبِهِمْ ضَعْفٌ مُضَاعَفٌ . هَذِهِ حَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا)) .

ولهم في الآخرة عذابٌ شديدٌ ومؤلِّمٌ ومُوجِّعٌ ، ويصل الوجع إلى قلوبهم بسبب شدته ، وذلك نتيجة كذبهم على الله تعالى ، ورفضهم لكلامه ، وتكذيبهم للنبي ﷺ . والكذب هو الإخبار عن الشَّيْءِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦٦) : ((﴿ في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضًا ﴾ المرض حقيقةً فيما يعرض للبدن، فيُخرجه عن الاعتدال الخاص به ، ويوجب الخلل في أفعاله، ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخلُّ بكمالها، كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحُب المعاصي ، لأنها مانعة من نيل الفضائل، أو مُؤدِّية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآية الكريمة تحتملها، فإن قلوبهم كانت مُتألِّمة تحرُّقًا على ما فات عنهم من الرِّياسة ، وحسدًا على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ، واستعلاء شأنه يومًا فيومًا. وزاد اللهُ غمَّهم بما زاد في إعلاء أمره ، وإشادة ذكره . ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومُعادية النبي ﷺ ونحوها، فزاد اللهُ سبحانه وتعالى ذلك بالطبع ، أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي ، وتضاعف النصر ، وكان إسناد الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه مُسبَّب من فعله ، وإسنادها إلى السُّورة في قوله تعالى : ﴿ فزادتهم رجسًا ﴾ [التوبة : ١٢٥] لكونها سببًا . ويُحتمل أن يُراد بالمرض ما تداخل قلوبهم من الجبن والخور حين شاهدوا شوكة المسلمين ، وإمداد الله تعالى لهم بالملائكة ، وقذف الرُّعب في قلوبهم ، وبزيادته تضعيفه بما زاد لرسول الله ﷺ ، نُصرةً على الأعداء ، وتبسيطًا في البلاد) .

والنبيُّ ﷺ ليسَ ساذجًا ولا مُغفلاً . إنَّه إنسان كامل ومُتكامل ، وشديد الذكاء ، ونبيُّ مؤيَّد بوحي السماء . لقد أعلمه اللهُ بأسماء كثير من المنافقين ، فكان النبيُّ ﷺ يعرفهم بأعيانهم ، وأنهم مُنافقون كُفَّار . ومع هذا ، لم يقتلهم لتحقيق المصالح والمنافع ، وتأليف القلوب عليه ، لئلا تنفر عنه . وقد أجرى عليهم أحكام الإسلام على الظاهر . ومنهج النبيِّ ﷺ في التعامل مع المنافقين واضح ومنطقي، ويتجلى في قوله ﷺ : ((لا يتحدثُ الناسُ أنَّ مُحَمَّدًا يقتل أصحابه))^{١٨٦}

لا يتحدثُ مَنْ لا يعرفُ المُنافقين أنَّ النبيَّ ﷺ يقتل المُسلمين ، فيرفض الناسُ الدُّخولَ في الإسلام بسبب ذلك ، وهذه سياسة عظيمة ، وحزْم وافر ، لأنَّ الناسَ يرون الظاهر ، والظاهر أنَّ المُنافقين كانوا من المُسلمين ، ومن أصحاب النبيِّ ﷺ . وفي الحديث : مُراعاةُ النظر للعامة على النظر للخاصة ، والتحذيرُ من كُلِّ عملٍ فيه تنفير الناس عن الدُّخول في الإسلام . ولو قام النبيُّ ﷺ بقتل المُنافقين ، فإنَّ هذا الأمر سيؤثر سلبًا على الدُّعوة الإسلامية، وسيهزُّب الكثيرون من الإسلام ، أو يخرجون منه ، لأنَّ الظاهر أمامهم أنَّ مُحَمَّدًا يقتل أصحابه ،

١٨٦ متفق عليه . البخاري (٤ / ١٨٦١) برقم (٤٦٢٢) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤) .

ويتخلص من أتباعه ، ويقوم بعملية تصفية حسابات داخلية . وهم بالتأكيد لا يُدركون حكمة قتلهم ، وأنهم مُنافقون كُفار ، وطابور خامس في قلب المجتمع الإسلامي . وهكذا يتضح بُعد نظر النبي ﷺ ، وإدراكه لعواقب الأمور ، والتفكير بشكل سليم وواضح وبعيد المدى . وهذه هي صفات القائد الحقيقي والزعيم العاقل الواعي .

وقد كان صحابة النبي ﷺ أصحاب إيمان قويّ، وقد حفظهم الله من فساد المنافقين وإفسادهم، لذلك لم يتأثر الصحابة - رضي الله عنهم - بهم . أمّا الآن ، فإنّ المنافقين والزنادقة قادرين على إفساد العوام والجهال ، والتلاعب بهم ، وهدم عقائدهم . لذلك يجب التصدي لهم بكلّ حزم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٩) : ((فيه - في الحديث - ما كان عليه ﷺ من الحلم ، وفيه ترك بعض الأمور المختارة ، والصبر على بعض المفساد ، خوفاً من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم منه . وكان ﷺ يتألف الناس ، ويصبر على جفاء الأعراب والمنافقين وغيرهم لتقوى شوكة المسلمين ، وتتم دعوة الإسلام ، ويتمكن الإيمان من قلوب المؤلفة ، ويرغب غيرهم في الإسلام ، وكان يعطيهم الأموال الجزيلة لذلك ، ولم يقتل المنافقين لهذا المعنى ، ولإظهارهم الإسلام ، وقد أمر بالحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولأنهم كانوا معدودين في أصحابه ﷺ ، ويُجاهدون معه ، إمّا حمية ، وإمّا لطلب دنيا ، أو عصبية لمن معه من عشائريهم . قال القاضي : واختلف العلماء هل بقي حكم الإغضاء عنهم وترك قتالهم ، أو نسخ ذلك عند ظهور الإسلام ونزول قوله تعالى : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، وأنها ناسخة لما قبلها ، وقيل قول ثالث أنه إنما كان العفو عنهم ما لم يظهرُوا نفاقهم ، فإذا أظهرُوهُ قُتِلُوا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٤] . هذا الخطاب الإلهي للنبي ﷺ . انظر يا مُحَمَّد كيف كذب هؤلاء المشركون عبادة الأصنام والأوثان على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام الله الذي يعلم السر والعلانية . لقد أنكروا ما وقع منهم في الدنيا من الشرك وعبادة الأصنام واتخاذ الآلهة الباطلة أمام الله علام الغيوب الذي يعلم كل شيء . لقد كذبوا على أنفسهم باعتذارهم بالباطل ، والتبرؤ من الشرك . والآية لتعجيب النبي ﷺ من كذبهم الواضح ، واضطراب حالهم ، وتناقض دعوهم .

والنظر في الآية هو نظر القلب ، وليس نظر العين . أي : نظر الاعتبار . وفارقتهم الأصنام والأوثان والأنداد والآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ، وانقطعت العلاقة بين المشركين وآلهتهم الباطلة ، وحدثت القطيعة الكاملة بين الطرفين . وزال وذهب ما

كانوا يَرْجونه من شفاعة الأصنام، وغاب عنهم ما كانوا يفترون إلهيته وشفاعته، وذهب افتراؤهم في الدنيا وكذبهم على الله ، وبطلت عقيدتهم الفاسدة في ذلك اليوم الرهيب . لقد كانوا يعتقدون أن الأصنام تُقربهم إلى الله ، وتشفع لهم عنده . وقد تلاشى هذا الزعم ، وزالت أوهامهم ، واتضح الحقيقة الصادمة أمام أعينهم ، وأسقط في أيديهم ، ووقعوا في الحيرة والدهشة والذُّهول .
والجدير بالذكر أن وجود الفعل الماضي ﴿ كَذَبُوا ﴾ مع أن الموقف لم يقع في الدنيا ، وإنما سيقع في يوم القيامة، يُفيد تحقيق الفعل وإثباته ، والتأكيد عليه ، ووقوعه لا محالة . لذلك استعمل الماضي في موضع المستقبل .

وقال الطبري في تفسيره (١٦٦ / ٥) : ((يقول تعالى ذِكْرهُ لَنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : انظُرْ يَا مُحَمَّدُ، فَأَعْلَمْ كَيْفَ كَذَبَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْعَادِلُونَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ فِي الْآخِرَةِ ، عِنْدَ لِقَاءِ اللَّهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِقِيلِهِمْ : " وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ " ، واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلقون في الدنيا من الكذب والفرية . ومعنى النظر في هذا الموضع النظر بالقلب لا النظر بالبصر ، وإنما معناه : تبين ، فأعلم كيف كذبوا في الآخرة . وقال : ﴿ كَذَبُوا ﴾ ، ومعناه : يكذبون ، لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها صار كالشيء الذي قد كان ووجد . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ، يقول : وفارقهم الأنداد والأصنام ، وتبرؤوا منها ، فسلكوا غير سبيلها، لأنها هلكت ، وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتزاءً ، ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قيلهم فيها على الله ، وعبادتهم إياها ، وإشراكهم إياها في سلطان الله ، فضلت عنهم ، وعوقب عابدها بفريتهم . ومعنى الضلال الأخذ على غير الهدى . وقد ذُكر أن هؤلاء المشركين يقولون هذا القول عند معاينتهم سعة رحمة الله يومئذ)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٨ / ٣) : ((قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، أي : باعتذارهم بالباطل . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ذهب ما كانوا يدعون ويختلقون من أن الأصنام شركاء لله ، وشفعاؤهم في الآخرة)) .
وقال الله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٧] .

جعل الله عاقبة أمرهم هي النفاق، وعاقبتهم بنفاق قلوبهم، وحرمتهم من التوبة إلى يوم القيامة ، ومنعتهم من الإيمان، وحجبه عنهم، عقوبة لهم على سوء أفعالهم، وفساد قلوبهم، وجزاء لإخلافهم العهد ، وكذبهم في الوعد . والنفاق في القلب كُفر ، أما النفاق في الأعمال فهو معصية كبيرة . فأعقبهم الله بسبب بُخلهم ومنعتهم للصدقات ، وإعراضهم عن الإيمان والطاعات ، نفاقاً راسخاً

وَمُتَمَكِّنًا مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ اللَّهَ بِالْمَوْتِ ، أَوْ يَلْقَوْنَ جَزَاءَ بُخْلِهِمْ ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٧٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ ، أَي : صَيَّرَ عَاقِبَةً أَمْرَهُمُ النَّفَاقَ . وَفِي الضَّمِيرِ فِي ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ ، فَالْمَعْنَى : جَازَاهُمُ اللَّهُ بِالنَّفَاقِ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ . وَالثَّانِي أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الْبُخْلِ ، فَالْمَعْنَى : أَعْقَبَهُمْ بِبُخْلِهِمْ بِمَا نَدَرُوا نِفَاقًا ، قَالَهُ الْحَسَنُ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٩٤) : ((وَقِيلَ : ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أَي : يَلْقَوْنَ اللَّهَ . وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَاتَ مُنَافِقًا ، وَهُوَ يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْمُنْزَلُ فِيهِ ثَعْلَبَةً بِنِهَايَةِ حَاطِبِ بْنِ حَاطِبٍ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ : " وَمَا يُدْرِيكَ ؟ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فَقَالَ : اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " . وَثَعْلَبَةُ بِنُ حَاطِبِ بْنِ حَاطِبٍ حَضَرَ بَدْرًا وَشَهِدَهَا)) .

﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، أَي : بِسَبَبِ نَكْثِهِمْ لِعَهْدِهِمْ مَعَ اللَّهِ ، وَإِخْلَافِهِمْ لِلْوَعْدِ الَّذِي قَطَعُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ التَّصَدُّقُ وَالصَّلَاحُ وَالتَّقْوَى . وَكَذِبُهُمْ يَتَّضِحُ فِي نَقْضِهِمُ الْعَهْدِ ، وَعَدَمِ الْوَفَاءِ بِمَا التَّزَمُوهُ . وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى الْكُذْبِ فِي كُلِّ حَالَتِهِمْ . وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ خُلْفَ الْوَعْدِ هُوَ ثُلُثُ النَّفَاقِ . وَأَيْضًا خُلْفُ الْوَعْدِ عِبَارَةٌ عَنِ الْكُذْبِ مَعًا . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٥٥٩) : ((وَالبَاءُ فِي ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ لِلْسَّبَبِيَّةِ ، أَي : بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمْ لِمَا وَعَدُوهُ مِنَ التَّصَدُّقِ وَالصَّلَاحِ ، وَكَذَلِكَ الْبَاءُ فِي ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أَي : وَبِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٦٠) : ((﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَي : فَجَعَلَ اللَّهُ عَاقِبَةً فِعْلُهُمْ ذَلِكَ نِفَاقًا ، وَسُوءَ اعْتِقَادٍ فِي قُلُوبِهِمْ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْبُخْلِ ، وَالمَعْنَى : فَأَوْرَثَهُمُ الْبُخْلُ نِفَاقًا مُتَمَكِّنًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، يَلْقَوْنَ اللَّهَ بِالْمَوْتِ أَوْ يَلْقَوْنَ عَمَلَهُمْ ، أَي : جَزَاءَهُ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ ، بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمْ مَا وَعَدُوهُ مِنَ التَّصَدُّقِ وَالصَّلَاحِ ، ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، وَبِكُذُوبِهِمْ كَاضِبِينَ فِيهِ ، فَإِنَّ خُلْفَ الْوَعْدِ مُتَضَمِّنٌ لِلْكَذْبِ مُسْتَقْبِحٌ مِنَ الْوَجْهِينِ أَوْ الْمَقَالِ مُطْلَقًا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥] .

إِنَّ الْكُذْبَ عَلَى اللَّهِ جَرِيمَةٌ شَنِيعَةٌ ، لَا يَفْعَلُهَا إِلَّا الْكُفَّارُ الْأَشْرَارُ الَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ ، الْمَعْرُوفُونَ بِالْكَذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالصَّلَالِ . وَهُمْ لَا يَخَافُونَ عِقَابًا عَلَى كَذِبِهِمْ ،

ولا يرجون ثوابًا على صدقهم. أمّا المؤمنون الذين صدّقوا بوحداية الله ونُبُوَّة مُحَمَّد ﷺ فلا يُمكن أن يكذبوا على الله ويكذبوا بآياته . وأولئك الجاحدون لآيات الله ، هم الكاملون في الكذب ، المُختصُّون به . والكذبُ وَصْفٌ مُلتصِقٌ بهم ، وعادة من عاداتهم القبيحة . ولا يوجد فعل أسوأ من الكذب على الله ، والتكذيب بآياته ، فهو أعظم الكذب على الإطلاق وأقبحه .

وهذه الآية تُرهب من الكذب ، وتُخوِّف منه ، وتزجر عنه ، لأنها حصرت الكذب بمن لا يؤمن بآيات الله تعالى . وهذا من أبلغ الزجر عن الكذب . والجدير بالذكر أن اسم الإشارة ﴿ أولئك ﴾ للبعيد ، للدلالة على بعدهم في الكفر والضلال ، وسوء حالهم .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٦٥٠) : ((أخبر تعالى ذكره المشركين الذين قالوا للنبي ﷺ : إنما أنت مُفترٍ ، أنهم هم أهل الفرية والكذب لا نبيُّ الله ﷻ والمؤمنون به ، ويرأ من ذلك نبيّه ﷺ وأصحابه ، فقال : إنما يتخرص الكذب ويتقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وأعلامه ، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابًا ، ولا يخافون على الكذب عقابًا ، فهم أهل الإفك وافتراء الكذب ، لا من كان راجيًا من الله على الصدق الثواب الجزيل ، وحاتفًا على الكذب العقاب الأليم . وقوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ . يقول : والذين لا يؤمنون بآيات الله هم أهل الكذب لا المؤمنون)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ٤٥) : ((فإن قيل : قد قال : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون ﴾ ، فما معنى قوله : ﴿ وأولئك هم الكاذبون ﴾ ؟ . قيل : ﴿ إنما يفترى الكذب ﴾ إخبار عن فعلهم ، و ﴿ هم الكاذبون ﴾ نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره : كذبت وأنت كاذب ، أي : كذبت في هذا القول ، ومن عادتك الكذب)) .
وقال الله تعالى : ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ [الحج : ٣٠] .

وابتعدوا عن الكذب والبهتان والباطل . ولا شك أن قول الكذب شامل لشهادة الزور . وسُمِّي زورًا ، لأنه مائل عن الحق . والمراد هنا قول الزور على العموم ، وأعظمه الشرك بالله بأي لفظ كان . وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٥٢) : ((والزور : الباطل والكذب ، وسُمِّي زورًا لأنه أميل عن الحق وكل ما عدا الحق فهو كذب وباطل هذه الآية تضمنت الوعيد على الشهادة بالزور . وينبغي للحاكم إذا عثر على الشاهد بالزور أن يعزّره وينادي عليه ليُعرف لئلا يعتر بشهادته أحد . ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب ، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرز فيها لم تُقبل لأنه لا سبيل إلى علم حاله في التوبة ، إذ لا يستطيع أن يفعل من القربات أكثر مما هو عليه ، وإن كان دون ذلك فشمّر في العبادة وزادت حاله في التقي فُبلت شهادته)) .

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : ((أكبر الكبائر : الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَوْلُ الزُّورِ ، _ أَوْ قَالَ : وشَهَادَةُ الزُّورِ _)) ١٨٧ .

اعتبر النبي ﷺ أن قول الزُّور من أكبر الكبائر وأعظم الذُّنُوب ، والزُّور : الباطل ، ويشمَل الكَذِبَ في القَوْل والشَّهادَات وغيرها . وفي الحديث تنبيه على استقباح قول الزُّور ، والتنفير منه ، خصوصًا أن كثيرًا من الناس يَسْتَحْفُونَ به ، ويهُون عليهم أمره . لذلك قرَّنه النبي ﷺ بالإِشْرَاق بِاللَّهِ ، وقتل النَّفْسِ ، وعُقُوق الْوَالِدَيْنِ . ويجب الابتعاد عن هذه الكبائر التي تُورد صاحبها المَهَالِكُ .

وقال المناوي في فيض القدير (٧٧ / ٢) : ((أكبر الكبائر الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ) يعني الكُفْر . وآثر لفظ الإِشْرَاق لِغَلَبَتِهِ في العُرْفِ (وقتل النَّفْسِ) المُحْتَرَمَةُ بِغَيْرِ حَقِّ (وعُقُوق الْوَالِدَيْنِ) أَوْ أَحَدِهِمَا ، بِقَطْعِ صِلَتِهِمَا ، أَوْ مُخَالَفَتِهِمَا في غَيْرِ مَعْصِيَةٍ . قال ابن العربي : جَعَلَ بِرَّ الْأَصْلِ ثَانِي التَّوْحِيدِ ، كَمَا جَعَلَهُ في ضِمْنِ حَقِّ اللَّهِ في حديث : " رَضِيَ الرَّبُّ في رِضَى الْوَالِدِ " وناهيك بذلك (وشَهَادَةُ الزُّورِ) أي : الشَّهادَةُ بِالكَذِبِ يُتَوَصَّلُ بِهَا إلى باطل ، وإن قَلَّ ، وظاهر التركيب يقتضي حَصْرَ الكبائر فيها ، وليس بِمُرَاد ، بَلْ ذَكَرَ الْأَرْبَعَةَ مِنْ قَبِيلِ ذِكْرِ الْبَعْضِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ كَمَا سَبَقَ . وَالْكَفْرُ أَكْبَرُ مُطْلَقًا ، ثُمَّ الْقَتْلُ ، وَالْبَاقِي عَلَى مَعْنَى مِنْ)) .

وعن خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكِ الْأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ ، فَلَمَّا انصَرَفَ قَامَ قائمًا ، فَقَالَ : ((عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ بِالشَّرْكِ بِاللَّهِ)) ثلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ تلا هذه الآية : ((﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾)) ، إلى آخر الآية ١٨٨ .

الكَذِبُ وَقَوْلُ الزُّورِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَمِنْ أَسْوَأِ الصِّفَاتِ ، الَّتِي نَهَى عَنْهَا الشَّرْعُ الْحَنِيفُ ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوبَتَهَا ، وَحَدَّرَ مِنْهَا . وشَهَادَةُ الزُّورِ هِيَ الشَّهادَةُ الْكَاذِبَةُ الْمُخَالَفَةُ لِلْوَقْعِ ، وَهِيَ مِنَ الْكِبَائِرِ ، لِأَنَّهَا تَجْمَعُ بَيْنَ الْكَذِبِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْبَحِ الْخِصَالِ ، وَبَيْنَ التَّسْبُوبِ فِي إِضَاعَةِ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ . وَجَعَلَتِ الشَّهادَةُ الْكَاذِبَةُ مُمَائِلَةً لِلإِشْرَاقِ بِاللَّهِ فِي الْإِثْمِ ، لِأَنَّ الشَّرْكَ كَذِبٌ

١٨٧ متفق عليه . البخاري (٢٥١٩ / ٦) برقم (٦٤٧٧) ، ومسلم (٩١ / ١) برقم (٨٨) .

١٨٨ رواه الترمذي في سننه (٥٤٧ / ٤) ، وقال : ((هذا عندي أصح ، وخُرَيْمِ بْنِ فَاتِكِ لَهُ صُحْبَةٌ ، وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثَ ، وَهُوَ مَشْهُورٌ)) اهـ . وروى الطبراني في الكبير (١٠٩ / ٩) : ((عن عبد الله _ يعني ابن مسعود _ قال : عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الشَّرْكَ بِاللَّهِ . وَقَرَأَ ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾)) .

وقال الهيثمي في المجمع (٣٦٣ / ٤) : ((إسناده حسن)) .

على الله بما لا يجوز ، وشهادة الزور كذب على العبد بما لا يجوز، وكلاهما غير واقع في الواقع .
وقد قالها النبي ﷺ ثلاثاً ، للتأكيد على شناعة شهادة الزور الكاذبة ، وللمبالغة في الوعيد عليها .
وقول الزور : هو قول الكذب الشامل لشهادة الزور ، والمراد : اجتنبوا الزور كله ، ولا تقربوا
شيئاً منه ، لتماديه في القبح والسوء .

وقيل : جعلت شهادة الزور الكاذبة مُقَابِلَةً للإشراك بالله ، ومساوية له في الإثم ، لأنَّ الشُّرك
من باب الزور ، فإنَّ المُشرك زاعم أنَّ الوثن يحق له العبادة . وقيل : لأنَّه يقع بِشهادة الزور الظُّلم
والفساد في الأرض ، وهو عَدِيل للشُّرك الذي هو ظُلم عظيم .
والحديث يُبَيِّن أنَّ مُرَاعَاةَ حَقِّ العبادة مُعَادِلَةٌ لِحَقِّ الله تعالى ، وَيَحْتُ على الصِّدْق ، وَيُحَدِّرُ
من قول الزور ، فهو من كبائر الذُّنوب .

وقال المناوي في فيض القدير (١٥٤ / ٤) عن سبب دُخُول شاهد الزور النار : ((لِجُرْأَتِهِ
على الله ، حيث أَدَمَّ على ما شَدَّدَ التَّهْيِي عنه ، حيث قَرَنَهُ بالشُّرك الذي هو أَقْبَح أنواع الكُفْرِ
فقال : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] ، فَأَعْظَم بِشَيْءٍ هو
عَدْلُ الشُّرك . قال ابن العربي : شَهَادَةُ الزُّورِ كَبِيرَةٌ عَظْمَى ، وَمُصِيبَةٌ فِي الْإِسْلَامِ كَبْرَى ، لَمْ تَحْدُثْ
حتى مات الخُلَفَاءُ الثلاثة ، وَضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا ، فَاسْتَظَلَّ بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ ، وَتَقَوَّلُوا على الله
ورسوله ما لَمْ يَكُنْ ، وَقَدَّ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ فِي الْحَدِيثِ الْإِسْرَاقَ بِاللَّهِ ، وَتَوَعَّدَ عَلَيْهِمَا رَسُولُهُ ،
حتى قال الصَّحْبُ : لَيْتَهُ سَكَتَ . وقد جَعَلَهَا عَدْلُ الْقَتْلِ فِي حَدِيثٍ ، لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بِهَا الْقَتْلُ
الذي يَغْيِرُ حَقَّ ، وَيَكُونُ بِهَا الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ عَدِيلٌ لِلشُّركِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزُّمَر : ٣] .
إنَّ الله لَا يُوقِّقُ لِلهُدَى ، وَلَا يُرْشِدُ لِلْحَقِّ ، مَنْ كَانَ كَاذِبًا على رَبِّهِ ، مُبَالِغًا فِي كُفْرِهِ . وَمَنْ سَبَقَ
له الْقَضَاءُ بِالْكَفْرِ لَمْ يَهْتَدِ لِلدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٩ / ٤) : ((أي : لَا يُرْشِدُ إِلَى الْهَدَايَةِ مَنْ قَصَدَهُ الْكَذِبُ
والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه)) .

وقال النَّسْفِي في تفسيره (٤٧ / ٤) : ((أي : لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يَخْتَارُ الْكُفْرَ ،
يَعْنِي : لَا يُوقِّقُهُ لِلهُدَى وَلَا يُعِينُهُ وَقَتَّ اخْتِيَارَهُ الْكُفْرَ ، وَلَكِنَّهُ يَخْتَلُّهُ)) .

واللهُ يَحْجُبُ هِدَايَتَهُ عَنِ الْكَاذِبِ الْكَفَّارِ ، لِأَنَّ الْكَذِبَ وَالْكَفْرَ جَعَلَا مِنْ قَلْبِهِ بَيْئَةً مَوْبُوءَةً
قَدْرَةً ، وَنُورُ اللَّهِ لَا يَهْبِطُ فِي قَلْبِ نَجِسٍ .

والكاذب الكفار فاقد البصيرة ، غير قابل للاهتمام ، لتغييره الفطرة الأصلية ، بالغرق في الضلال ، والتتمادى في الباطل .

والكذب حين يلتصق بالإنسان يصبح صفة لازمة له ، وهويته تدل عليه . وهو خلق ذميم يعكس انهيار القيم الإنسانية ، واضطراب الشخصية ، وضيق المعنى في الحياة الاجتماعية .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٦٢) : ((قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، أي : لا يرشد ﴿ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ في قوله : إِنَّ الْآلِهَةَ تَشْفَعُ ﴿ كَفَّارًا ﴾ ، أي : كافر باتخاذها آلهة . وهذا إخبار عمّن سبق عليه القضاء بحرمان الهداية)) .

١٢_ سوء الظن

قال الله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .
إن المنافقين الذين تبوءوا العقائد الجاهلية يظنون بالله تعالى ظنونا سيئة . وهذه الظنون تتم إعادة إنتاجها في كل العصور من قبل أهل الشكوك ، وأصحاب العقائد الزائغة ، الذين يحاولون ترويجها ونشرها في المجتمعات البشرية ، من أجل التحكّم بمسارها ومصيرها .
لقد كانوا يظنون أن أمر مُحَمَّد ﷺ مُضْمَحَل ، وأنه لا ينصر ، كظن أهل الجاهلية ، وهم الكفار . أي إنهم يظنون بالله غير الظن الحق الذي يجب أن يُظن به . ولا يكون الظن السيئ بالله تعالى إلا من أهل الشرك الجاهلين .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٤) : ((وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهرُوا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الرب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة)) .

وسوء الظن بالله عز وجل يُشير إلى نفسية مريضة تفتقد إلى الهداية الربانية . وقد كان أهل الجاهلية غارقين في سوء الظن ، إذ إنهم كانوا يظنون أن أمر النبي ﷺ باطل ، وأنه لا ينصر ، ولا تقوم للإسلام قائمة . وهذا الظن السيئ قضى عليهم ، وأوردهم المهالك .

وكُلُّ فرد مُتزعزع العقيدة غير ثابت الوجدان ، سوف يسقط حتماً في ظن الجاهلية ، ويعرق في الشكوك والشبهات . إذ إن فساد العقيدة يُضعف الجبهة الداخلية في الذات البشرية ، مما يؤدي إلى الارتباك عند الشدائد ، والسقوط السريع أمام الأزمات ، والانهيار التام عند الفتن . وهذا بالتأكيد يقتل الروح المعنوية للفرد والجماعة ، ويقود إلى تشتيت الجهود المجتمعية ، وتفارقة

الصف الإنساني ، وبث اليأس والقنوط والانكسار في الحياة الاجتماعية . وهذه هي الضربة القاضية التي تُنهى تماسك المجتمع، وتجعله هَشًّا أمام العواصف والأزمات، بلا مُقاومة ولا مُمانعة . وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٥٨٩) : ((**يَطْتُونُ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ**)) ، هذه الجملة في محلّ نصب على الحال ، أي : **يَطْتُونُ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ** الذي يجب أن يُظنَّ به ، وظن الجاهليّة بدل منه ، وهو الظن المُختص بِمِلَّةِ الجاهليّة ، أو ظن أهل الجاهلية ، وهو ظنُّهم أن أمر النبي ﷺ باطل ، وأنه لا يُنصر ، ولا يتم ما دعا إليه من دين الحق)) .

وهنا يبرز الفرق الواضح بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام. فأهل الجاهلية غاطسون في سوء الظن بالله تعالى ، وينظرون إلى شريعته الخالدة على أنها أضغاث أحلام سُرعان ما تذهب أدراج الرياح . أمّا أهل الإسلام فهم يُحسِنون الظنَّ بالله تعالى ، ويعرفون حقَّ المعرفة أن الشريعة ظاهرة ومنصورة ، وأن أمر النبي ﷺ حق لا جدال فيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤٨١) : ((قوله تعالى : **يَطْتُونُ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ**)) ، فيه أربعة أقوال : أحدها أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدًا وأصحابه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني أنهم كذبوا بالقدر ، رواه الضحّاك عن ابن عباس . والثالث أنهم ظنوا أن محمدًا قد قُتِلَ ، قاله مقاتل . والرابع ظنوا أن أمر النبي ﷺ مُضمحل ، قاله الزجاج . قوله تعالى : **﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾** ، قال ابن عباس : أي كظنَّ الجاهليّة)) .

وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٢٠٥) : عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : ((لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله _ عزَّ وجلَّ _)) .

لا ينبغي أن يموت المؤمنُ وهو قانط من رحمة الله تعالى ، بل يجب عليه أن يُحسِنَ الظنَّ بالله ، ويرجو ذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله وعفوه ، وما وعد به أهل التوحيد ، وذلك لئلا يغلب عليه الخوف حينئذ ، فيغلب عليه اليأس والقنوط فيهلك . ومن حُسِنَ ظنُّ المؤمن بالله تعالى أن يعمل الطاعات ، ويجتنب المعاصي ، ويرجو الأجر والثواب من الله تعالى . والحديثُ يُحذّر من اليأس من رحمة الله تعالى ، والقنوط من كرمه وعفوه ، ويحثُّ على الرجاء عند الخاتمة (نهاية مسيرة الإنسان على هذه الأرض) ، ويحثُّ على العمل الصالح المُفضي إلى حُسِنِ الظن . ويجب على المرء أن يظن أن الله سيّرحمه ويعفوه عنه . والمُسْلِمُ مُتفائل ، يرجو الله ، ويخاف ذنوبه ، وينبغي أن يلتزم الرجاء عند نهاية حياته ، فالله أكرم الأكرمين .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧ / ٢٠٩ و ٢١٠) : ((قال العلماء : هذا تحذير من القنوط ، وحث على الرجاء عند الخاتمة قال العلماء : معنى حُسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه . قالوا : وفي حالة الصَّحة يكون خائفًا راجيًا ، ويكونان سَوَاء . وقيل : يكون الخوف أرجح ، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه ، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح ، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال ، وقد تعدد ذلك أو مُعظمه في هذا الحال ، فاستُحبَّ إحسان الظن المُتصَّمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له)) .
والله عزَّ وجلَّ بِالْعِزِّ وَالْمَغْفِرَةِ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ . وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَتِهِ فِيهِ ظَنٌّ سَيِّئٌ لَا يَلِيْقُ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّاتِقَ أَنْ مَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ لَا يُخَيِّبُهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ ، وَلَا يَطْرُدُهُ .
وعند لحظة الوفاة ، يجب على العبد أن يُغلب الرجاء على الخوف ، لأنَّ الأمور حُسمتْ ، وعلى وَشَكِّ النِّهَايَةِ . والإفراط في الخوف في تلك اللحظة قد يُؤدِّي إلى اليأس والقنوط ، ولا بُدَّ مِنْ حُسْنِ الظنِّ بِاللَّهِ ، وتعظيم الرجاء .

وفي عون المعبود (٨ / ٢٦٥) : ((فالتَّهْيُّ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ عَنِ الْمَوْتِ وَلَيْسَ إِلَيْهِ ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ ، لَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ عَنِ حَالَةٍ يَنْقَطِعُ عِنْدَهَا الرَّجَاءُ لِسُوءِ الْعَمَلِ ، كَمَا يُصَادِفُهُ الْمَوْتُ عَلَيْهَا ، قَالَ عَلِيُّ الْقَارِي . وقال في مِرْقَاة الصُّعُودِ زَادَ بِنَ أَبِي الدُّنْيَا فِي حُسْنِ الظنِّ ، فَإِنَّ قَوْلًا قَدْ أَرَادَهُمْ سُوءَ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ ، ... قَالَ الْخَطَّابِيُّ : إِنَّمَا يُحَسِّنُ الظنَّ بِاللَّهِ مَنْ حَسَنَ عَمَلَهُ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَحْسِنُوا أَعْمَالَكُمْ يَحْسِنُ ظَنُّكُمْ بِاللَّهِ ، فَمَنْ سَاءَ عَمَلُهُ سَاءَ ظَنُّهُ ، وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا حُسْنُ الظنِّ بِاللَّهِ مِنْ نَاحِيَةِ جِهَةِ الرَّجَاءِ وَتَأْمِيلِ الْعَفْوِ . وقال الرافعي في تاريخ قزوين : يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ التَّرغِيبُ فِي التَّوْبَةِ ، وَالخُرُوجِ مِنَ الْمَظَالِمِ ، فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ حَسَنَ ظَنُّهُ ، وَرَجَا الرَّحْمَةَ . وقال النووي في شرح المُهَدَّبِ : معنى تحسين الظن بالله تعالى أن يظن أن الله تعالى يرحمه ، ويرجو ذلك بتدبير الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله تعالى وعفوه ، وما وعد به أهل التوحيد ، وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة ، كما قال سبحانه وتعالى في الحديث الصحيح : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي " ، هَذَا هُوَ الصَّوَابُ فِي مَعْنَى الْحَدِيثِ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَهُ جُمُهور العلماء . وَشَدَّ الْخَطَّابِيُّ فَذَكَرَ تَأْوِيلًا آخَرَ أَنْ مَعْنَاهُ : أَحْسِنُوا أَعْمَالَكُمْ حَتَّى يَحْسِنَ ظَنُّكُمْ بِرَبِّكُمْ ، فَمَنْ حَسَنَ عَمَلُهُ حَسَنَ ظَنُّهُ ، وَمَنْ سَاءَ عَمَلُهُ سَاءَ ظَنُّهُ ، وَهَذَا تَأْوِيلٌ بَاطِلٌ ، نَبَّهْتُ عَلَيْهِ لِئَلَّا يُعْتَرَّ بِهِ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٦ / ٤٥٥) : ((لا يُمَوِّتَنَّ) بِنُونِ التَّوَكُّيدِ (أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحَسِّنُ الظنَّ بِاللَّهِ) أَي : لَا يُمَوِّتَنَّ أَحَدُكُمْ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَهِيَ

حُسْنُ الظنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى ، بِأَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَعْفُو عَنْهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا حَضَرَ أَجَلُهُ وَأَتَتْ رِحْلَتَهُ ، لَمْ يَبْقَ لِيَخْوَفَهُ مَعْنَى ، بَلْ يُؤَدِّي إِلَى الْقُنُوطِ ، وَهُوَ تَضْيِيقٌ لِمَجَارِي الرَّحْمَةِ وَالْإِفْضَالِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ مِنْ الْكِبَائِرِ الْقَلْبِيَّةِ ، فَحُسْنُ الظنِّ وَعَظْمُ الرَّجَاءِ أَحْسَنُ مَا تَزَوَّدَهُ الْمُؤْمِنُ لِقُدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ . قَالَ الطَّيْبِيُّ : نَهَى أَنْ يَمُوتُوا عَلَى غَيْرِ حَالَةِ حُسْنِ الظنِّ ، وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَقْدُورٍ ، بَلِ الْمُرَادُ الْأَمْرُ بِحُسْنِ الظنِّ لِيُؤَافِيَ الْمَوْتَ ، وَهُوَ عَلَيْهِ . اهـ . وَنَظِيرُهُ : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٠٢] ، وَهَذَا قَالَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِنِثْلَاثٍ . وَالتَّهْيِئَةُ وَإِنْ وَقَعَ عَنِ الْمَوْتِ ، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ ، إِذْ هُوَ غَيْرُ مَقْدُورٍ ، بَلِ الْمُرَادُ التَّهْيِئَةُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ ، بَلْ عَنِ تَرْكِ الْخُشُوعِ ، وَأَفَادَ الْحَثُّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُفْضِي إِلَى حُسْنِ الظنِّ ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى تَأْمِيلِ الْعَفْوِ ، وَتَحْقِيقِ الرَّجَاءِ فِي رُوحِ اللَّهِ تَعَالَى _ يَعْنِي رَحْمَتَهُ _ .

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١١ / ٣٠١) : ((قَوْلُهُ بَابِ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ) أَيِ اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ ، فَلَا يَقْطَعُ النَّظَرَ فِي الرَّجَاءِ عَنِ الْخَوْفِ ، وَلَا فِي الْخَوْفِ عَنِ الرَّجَاءِ ، لِئَلَّا يُفْضِيَ فِي الْأَوَّلِ إِلَى الْمَكْرِ ، وَفِي الثَّانِي إِلَى الْقُنُوطِ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا مَذْمُومٌ ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ الرَّجَاءِ أَنْ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ ، فَلْيُحْسِنِ ظَنَّهُ بِاللَّهِ ، وَيَرْجُو أَنْ يَمْحُوَ عَنْهُ ذَنْبَهُ ، وَكَذَا مَنْ وَقَعَ مِنْهُ طَاعَةٌ يَرْجُو قَبُولَهَا . وَأَمَّا مَنْ انْهَمَكَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ رَاجِيًا عَدَمَ الْمُواخَاذَةِ بِغَيْرِ نَدَمٍ وَلَا إِقْلَاعٍ ، فَهَذَا فِي غُرُورٍ . وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي عُثْمَانَ الْجِيزِيِّ : مِنْ عِلَامَةِ السَّعَادَةِ أَنْ تُطِيعَ وَتَخَافَ أَنْ لَا تُقْبَلَ ، وَمِنْ عِلَامَةِ الشَّقَاءِ أَنْ تَعْصِيَ وَتَرْجُو أَنْ تَنْجُو وَهَذَا كُلُّهُ مُتَّفَقٌ عَلَى اسْتِحْبَابِهِ فِي حَالَةِ الصَّحَّةِ . وَقِيلَ : الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ فِي الصَّحَّةِ أَكْثَرَ ، وَفِي الْمَرَضِ عَكْسَهُ ، وَأَمَّا عِنْدَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْمَوْتِ ، فَاسْتَحَبَّ قَوْمٌ الْاِقْتِصَارَ عَلَى الرَّجَاءِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلِأَنَّ الْمَحْذُورَ مِنْ تَرْكِ الْخَوْفِ قَدْ تَعَدَّرَ ، فَيَتَعَيَّنُ حُسْنُ الظنِّ بِاللَّهِ بِرَجَاءِ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ : " لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ " وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يُهْمَلُ جَانِبُ الْخَوْفِ أَصْلًا بِحَيْثُ يَجْزَمُ بِأَنَّهُ آمِنٌ . وَيُؤَيِّدُهُ مَا أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُ : " كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ " ، فَقَالَ : أَرْجُو اللَّهَ وَأَخَافُ ذُنُوبِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو ، وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ " .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((قَالَ اللَّهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي

بِي)) ١٨٩ .

١٨٩ متفق عليه . البخاري (٦ / ٢٧٢٥) برقم (٧٠٦٦) ، ومسلم (٤ / ٢٠٩٩) برقم (٢٦٧٥) .

إِنْ ظَنَّ الْعَبْدُ بِاللَّهِ خَيْرًا فَقَدْ نَجَا ، وَإِنْ ظَنَّ بِاللَّهِ سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ . وَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ
يَكُونُ بِفِعْلٍ مَا يُوجِبُ فَضْلَ اللَّهِ وَرَحَاءَهُ ، فَيَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ ، وَيُحْسِنُ الظَّنَّ بِأَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهُ .
وَيَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ وَجَزَاؤُهُ مِنْ جِنْسِ مَا يَظُنُّهُ الْعَبْدُ فِي اللَّهِ ثَوَابًا أَوْ عِقَابًا، خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَمَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ
أَمْرًا عَظِيمًا وَجَدَهُ ، وَأَعْطَاهُ اللَّهَ إِيَّاهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ ،
وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ كَالْجِبَالِ .أَمَّا أَنْ يُحْسِنَ الظَّنَّ وَهُوَ لَا يَعْمَلُ ، فَهَذَا مِنْ بَابِ التَّمَنِّيِّ عَلَى اللَّهِ ،
وَمَنْ أَتَيْعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ ، فَهُوَ عَاجِزٌ وَضَائِعٌ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٧ / ٢) : ((قال القاضي : قيل : مَعْنَاهُ بِالْفُقْرَانِ لَهُ
إِذَا اسْتَغْفَرَ ، وَالْقَبُولُ إِذَا تَابَ ، وَالْإِجَابَةُ إِذَا دَعَا ، وَالْكَفَايَةُ إِذَا طَلَبَ الْكَفَايَةَ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ
الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ ، وَهَذَا أَصَحُّ)) .

وَإِنْ ظَنَّ الْعَبْدُ بِاللَّهِ أَنَّهُ يَعْفُو عَنْهُ وَيَغْفِرُ لَهُ ، فَلَهُ ذَلِكَ ، وَإِنْ ظَنَّ الْعَبْدُ الْعُقُوبَةَ وَالْعَذَابَ
فَكَذَلِكَ ، وَلَا يَرْجُو اللَّهَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا يُجَازِي . وَاللَّهُ سَيَعْمَلُ بَعْدَهُ مَا ظَنَّ أَنَّهُ عَامِلُهُ بِهِ .
وفي هذا إشارة بليغة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف .

وفي ثُحْفَةِ الْأَحْوِذِيِّ (٧ / ٥٣) : ((قَوْلُهُ (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بِي) أَي : أَنَا أُعَامِلُهُ عَلَى
حَسَبِ ظَنِّي بِهِ ، وَأَفْعَلُ بِهِ مَا يَتَوَقَّعُهُ مِنِّي مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ . وَالْمُرَادُ الْحَثُّ عَلَى تَغْلِيْبِ الرَّجَاءِ عَلَى
الْخَوْفِ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالظَّنِّ الْيَقِينَ . وَالْمَعْنَى : أَنَا عِنْدَ يَقِينِهِ بِي وَعِلْمِهِ
بِأَنَّ مَصِيرَهُ إِلَيَّ ، وَحِسَابَهُ عَلَيَّ ، وَأَنَّ مَا قَضَيْتُ بِهِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، لَا مَرَدَ لَهُ)) .

وَإِنْ ظَنَّ الْعَبْدُ بِاللَّهِ الْعَفْوَ فَلَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ ظَنَّ الْعُقُوبَةَ فَكَذَلِكَ . وَكَذَلِكَ إِذَا اعْتَمَدَ عَلَى اللَّهِ
فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يُعَامِلُهُ اللَّهُ بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ التَّوَكُّلِ وَالاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى .
وَإِنْ ظَنَّ الْعَبْدُ بِاللَّهِ خَيْرًا فَخَيْرٍ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ . وَإِنْ ظَنَّ أَنْ يُسَامِحَهُ سَامِحَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ أَنْ
يُعَاقِبَهُ عَاقِبَهُ ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَلَّا يَظُنَّ بِاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا كَمَا يَرَى الْخَيْرَ . وَهَذَا أَصْلُ عَظِيمٍ فِي
حُسْنِ الرَّجَاءِ فِي اللَّهِ ، وَجَمِيلِ الظَّنِّ بِهِ . وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَّقِيَ بِاللَّهِ ، وَيُحْسِنَ الظَّنَّ بِهِ ،
فَيَرْجُو اللَّهَ ، وَيَخْشَى ذُنُوبَهُ ، وَيُصَدِّقَ بِشَكْلِ كَامِلٍ بِالْعَفْوِ الْإِلَهِيِّ ، وَيَكُونُ مُتَأَكِّدًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ
اللَّهِ تَعَالَى ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، وَرَحْمَتُهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . وَاللَّهُ لَا
تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ . وَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ مُرْتَبِطٌ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ ،
وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي . وَمَنْ حَسَنَ عَمَلُهُ حَسَنَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ ، وَمَنْ سَاءَ عَمَلُهُ سَاءَ ظَنُّهُ بِاللَّهِ . وَحُسْنُ
الظَّنِّ بِاللَّهِ إِنَّمَا هُوَ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ ، وَتَوَقُّعُ الْمَغْفِرَةِ وَالتَّوْبَةِ ، وَالتَّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، وَالفَوْزُ بِالْجَنَّةِ .

وسَعَةُ الرَّحْمَةِ الإلهية لا تَعْنِي أن يُسْرِفَ العبدُ في المعاصي ، أو يَسْتَهينَ بالدُّنُوبِ والآثامِ ، فعلى العبد أن يتذكَّرَ عَظَمَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لا حَجْمَ المَعْصِيَةِ أو أثرها . وإذا وَقَعَ العبدُ في الإثمِ ، فإنَّ بابَ التوبة مفتوح ، ولا يُوجدُ عاقلٌ يَنْقُطُ مِن رَحْمَةِ اللَّهِ تعالى .

وما أجمل قول البوصيري :

يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَفْسِمُهَا
إنَّ الكِبائِرَ في العُفْرانِ كاللَمَمِ
تأتي على حَسَبِ العِصيانِ في القَسَمِ

وقال الحافظ في الفتح (١٣ / ٣٨٥ و ٣٨٦) : ((قَوْلُهُ : " يَقولُ اللَّهُ تعالى : أنا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بي " أي قادر على أن أعمل به ما ظنُّنِّي عامل به . وقال الكرمانى : وفي السِّياقِ إشارة إلى ترجيح جانب الرِّجاءِ على الخَوْفِ ، وكأنَّه أَخَذَهُ مِن جِهَةِ التَّسْوِيَةِ ، فإنَّ العاقل إذا سمع ذلك لا يَعدِلُ إلى ظنِّ إيقاع الوعيد ، وهو جانب الخَوْفِ ، لأنَّه لا يَخْتارُه لِنَفْسِهِ ، بل يَعدِلُ إلى ظنِّ وُقوع الوعد ، وهو جانب الرِّجاءِ . وهو كما قال أهل التحقيق مُقَيَّدُ بالمُحْتَضَرِ وأما قبل ذلك ففي الأوَّلِ أقوال ثالثها الاعتدال . وقال القُرطبي في المُفَهِّمِ : قيل معنى " ظنُّ عِبْدِي بي " ، ظنُّ الإجابة عِنْدَ الدُّعاءِ ، وظنُّ القَبولِ عِنْدَ التَّوبَةِ ، وظنُّ المَغْفِرَةِ عِنْدَ الاستغفار ، وظنُّ المُجازاةِ عِنْدَ فِعْلِ العِبادةِ بشروطها ، تَمَسُّكًا بصادق وَعَدِهِ . قال : ويؤيِّدُهُ قَوْلُهُ في الحديث الآخر : " ادْعُوا اللَّهَ وَأَنتُمْ مُوقِنُونَ بالإجابة " . قال : ولذلك يَبْغِي لِلْمَرْءِ أن يَجْتَهِدَ في القِيامِ بما عليه مُوقِنًا بأنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهُ وَيَغْفِرُ لَهُ ، لأنَّه وَعَدَ بِذلك ، وهو لا يُخَلِّفُ المِيعادَ ، فإنَّ اعتقادَ أو ظنَّ أن اللَّهَ لا يَقْبَلُها ، وأنها لا تَنْفَعُهُ ، فهذا هو اليأس مِن رَحْمَةِ اللَّهِ ، وهو مِن الكِبائِرِ ، وَمَن مات على ذلك وَكَلَّ إلى ما ظنَّ ، كما في بعض طُرُقِ الحديث المذكور : " فَلْيُظَنَّ بي عِبْدِي ما شاء " . قال : وأما ظنُّ المَغْفِرَةِ مع الإصرار _ يعني على الدُّنْبِ _ فذلك مَحْضُ الجَهْلِ والغِرَّةِ ، وهو يَجُرُّ إلى مَذْهَبِ المُرْجئةِ)) .

وقال المُنْاوي في فيض القدير (٢ / ٣١٢) : (((إنَّ اللَّهَ تعالى يقول : أنا عِنْدَ ظَنِّ عِبْدِي بي) أي : أعامله على حَسَبِ ظَنِّه ، وأفعل به ما يَتَوَقَّعُه مِنِّي ، فَلْيُحْسِنِ رِجاءَهُ ، أو أنا قادر على أن أعمل به ما ظنُّنِّي أعامله به ، فالمراد الحَثُّ على تَغْلِيْبِ الرِّجاءِ على الخَوْفِ والظنِّ على بابهِ ، ذَكَرَهُ الفاضلي . قال : ويُمكنُ تفسيره بالعِلْمِ ، والمعنى : أنا عِنْدَ يَقِينِهِ بي وَعِلْمِهِ بأنَّ مَصيرَهُ إليَّ ، وَحِسابَهُ عليَّ ، وأنَّ ما قَضَيْتُ مِن خَيْرٍ وَشَرٍّ فلا مَرَدَ لَهُ ، لا مُعْطِي لِمَا مَنَعْتُ ، ولا رادًّا لِمَا أُعْطِيتُ ، أي : إذا تَمَكَّنَ العبدُ في مَقامِ التَّوْحِيدِ ، وَرَسَخَ في مَقامِ الإيمانِ ، والوُثُوقِ به سُبْحانَهُ وتعالى ،

قَرَّبَ مِنْهُ ، وَرَفَعَ دُونَهُ الْحِجَابَ ، بحيث إذا دعاه أجاب ، وإذا سأله استجاب ، إلى هنا كلامه .
 وَجَزَمَ بعضُ المتأخرين بثاني احتماليه فقال : معناه عند يقينه بي ، فالاعتماد عليّ والثوق بوعدي
 والرَّهبة من وعيدي والرَّغبة فيما عندي ، أعطيه إذا سألتني ، وأستجيب له إذا دعاني ، كُلُّ ذلك
 على حَسَبِ ظَنِّهِ وَقُوَّةِ يَقِينِهِ (إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ) أي : إِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا أَفْعَلْ بِهِ
 خَيْرًا ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا أَفْعَلْ بِهِ شَرًّا . قال ابن القيم: وأعظم الذُّنُوبِ عند الله تعالى إساءة الظَّنِّ به ،
 فَإِنَّ مَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِهِ ، ظَنَّ بِهِ خِلَافَ كَمَالِهِ الأقدس ، وَظَنَّ بِهِ مَا يُناقِضُ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ)) .

وفي نفس المرجع (٤ / ٤٩٠) : ((قال الله تعالى : أنا عند ظنِّ عبدي بي فليظنَّ بي ما
 شاء) أي : أنا قادر على أن أعمل به ما ظنَّ أنني أعمله ، أو أنا عند علمه وإيمانه بما وعدت من
 قبول حسناته ، والعفو عن زلاته ، وإجابة دعواته عاجلاً وآجلاً ، أو المراد : أنا عند أمله ورجائه .
 قال في المطامح : هذا أصل عظيم في حُسن الرجاء في الله ، وجميل الظن به ، وليس لنا وسيلة
 إليه إلا ذلك . قالوا : والأفضل للمريض أن يكون رجائه أغلب . قال القرطبي : وقد كانوا
 يستحبون تلقين المحتضر محاسن عمله ليحسن ظنه بربه قال في الحكيم : لا يعظم
 الذنب عند الحاكم عظمة ثقتك من حُسن الظن بالله ، فإن من عرف ربه استصغر في جنب
 كرمه ذنبه ، لا صغيرة إذا قابلك عدله ، ولا كبيرة إذا واجهك فضله)) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠ / ٢٣٤ و ٢٣٥) : ((قال الربيع وغيره عن الشافعي ،
 قال : دخلنا على أبي نؤاس في اليوم الذي مات فيه ، وهو يجود بنفسه ، فقلنا : ما أعددت لهذا
 اليوم ؟ ، فأنشأ يقول :

تَعَاظَمَنِي ذُنُوبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ	بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمًا
وَمَا زِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ	تَجُودُ وَتَعْفُو مِنِّي وَتَكْرُمًا
وَلَوْلَاكَ لَمْ يَقْدِرْ لِإِبْلِيسَ عَابِدٌ	وَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَى صَفِيكَ آدَمًا

رواه ابن عساکر . وروى أنهم وجدوا عند رأسه زقعة مكتوباً فيها بخطه :

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً	فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
أَدْعُوكَ رَبِّي كَمَا أَمَرْتَ تَصْرَعًا	فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ	فَمَنْ الَّذِي يَرْجُو الْمُسِيءُ الْمُجْرِمُ
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا	وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ

وقد كان نَفْسُ خَاتَمِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا ، فأوصى أن يُجْعَلَ فِي فَمِهِ إِذَا غَسَلُوهُ ، ففعلوا به ذلك ، ولَمَّا مَاتَ لَمْ يَجِدُوا لَهُ مِنَ الْمَالِ سِوَى ثَلَاثِمِائَةِ دِرْهَمٍ وَثِيَابِهِ وَأَثَابِهِ وقد رآه بعض أصحابه فِي الْمَنَامِ ، فقال له : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ ، فقال : عَفَّرَ لِي بِأَيِّاتِ قُلْتُهَا فِي التَّرْجِسِ :

تَفَكَّرَ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَأَنْظُرَ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ بِأَبْصَارِ هِيَ الذَّهَبِ السَّيِّكُ
عَلَى قُضْبِ الرَّبْرِجِدِ شَاهِدَاتٌ بَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ١٩٠ .))

وروى ابن حبان في صحيحه (١٦ / ١٤٥) عن أبي طلحة قال : ((غَشِينَا النَّعَاسُ ، وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ بَدْرٍ . فَكُنْتُ فِيمَنْ غَشِيَهُ النَّعَاسُ يَوْمَئِذٍ ، فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي ، وَآخُذَهُ وَيَسْقُطُ وَآخُذَهُ . وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، أَجَبْنُ قَوْمٌ وَأَذُلُّهُ لِلْحَقِّ ، يَطْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، أَهْلُ شَكٍّ وَرِيبةٍ فِي أَمْرِ اللَّهِ)) .

إذا حَدَثَ لِلإِنْسَانِ مَا يُسَبِّبُ لَهُ الْفَزَعُ ، أَوْ الْخَوْفُ ، أَوْ عَدَمُ الْإِسْتِقْرَارِ ، تَسَبَّبَ ذَلِكَ فِي حَدُوثِ أَرْقٍ وَقِلَّةِ نَوْمٍ ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى تَزَايُدِ الْمَشَقَّةِ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ النَّعَاسَ أَمَنَةً لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرْبِهِمْ ضِدَّ الْكُفَّارِ ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَنِعْمَتِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ . نَزَلَ عَلَى الصَّحَابَةِ النَّعَاسُ ، وَهُمْ فِي مَوَاضِعِهِمْ وَأَمَاكِنِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ . وَالْمَصَافُ (جَمْعُ مَصَفٍ) : وَهُوَ مَوْضِعُ الْحَرْبِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الصُّفُوفُ . وَأَبُو طَلْحَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ كَانَ فِيمَنْ يَغْلِبُهُ النَّعَاسُ وَالنَّوْمُ ، فَجَعَلَ سَيْفُهُ يَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ وَيَأْخُذُهُ وَيَسْقُطُ وَيَأْخُذُهُ . وَهَذَا إِشَارَةٌ وَبَيَانٌ لِمَا كَانَ بِهِ مِنْ حِرْصٍ وَاجْتِهَادٍ فِي طَرْدِ النَّوْمِ ، وَالْقِيَامِ بِمَهَامِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا النَّوْمَ وَالنَّعَاسَ أَمَنَةٌ وَطَمَآنِينَةٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ .

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ (أَهْلَ الْيَقِينِ) وَاثِقُونَ بِاللَّهِ ، وَجَازِمُونَ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ ﷺ . أَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَمَشْغُولُونَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ جَبَنَاءُ ، يُسَيِّطِرُ عَلَى قُلُوبِهِمُ الْخَوْفُ وَالذُّعْرُ ، يَرْفُضُونَ الْحَقَّ ، وَلَا يَنْصُرُونَهُ . يَطْنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلِهَذَا لَمْ يَغْشَهُمُ النَّعَاسُ ، لِأَنَّهُمْ مُسْتَعْرِقُونَ فِي

١٩٠ لُجَيْنٍ : فِضَّةٌ . وَالسَّيِّكُ : الْمَسْبُوكُ ، أَيْ : الْمُدَاب . وَالْمَعْنَى : أَنَّ التَّرْجِسَ بِأَوْرَاقِهِ الْبَيْضِ الْمُسْتَدِيرَةِ ، وَمَا فِي وَسْطِهِ مِنَ الْكُرَاتِ الذَّهَبِيَّةِ ، يُشْبِهُ عُيُونًا مِنْ ذَهَبٍ ، تُحِيطُ بِهَا إِطَارٌ مِنْ فِضَّةٍ . وَقُضْبُ الرَّبْرِجِدِ : عَلَى قَوَائِمِ خُضْرٍ مِثْلِ الرَّبْرِجِدِ .

هَمَّ أَنفُسَهُمْ ، فَلَا تَنْزِلَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ ، لِأَنَّهَا أَمْرٌ قَلْبِي رُوحَانِي ، لَا يَتَلَوَّثُ بِهِمْ وَيَنْفَاقُهُمْ ، بَلْ يَنْزِلُ عَلَى الْقُلُوبِ الْوَائِقَةِ بِاللَّهِ وَالْمُتَيَقِّنَةِ بِنَصْرِهِ . وَاللَّهُ يُبَيِّنُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَقِنِينَ بِمَعِيَّتِهِ وَنَصْرِهِ فِي أَشَدِّ الْمَوَاقِفِ ، وَنَصْرُ اللَّهِ وَأَمْنُهُ لَا يَطُولُ قُلُوبَ الْمُنَافِقِينَ .

وَالجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ حَرَكَةَ التَّفَاقُقِ قَدْ بَدَأَتْ وَظَهَرَتْ بَعْدَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ ، لَمَّا ظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَزَادَتْ قُوَّتُهُمْ ، فَاضْطُرَّ الَّذِينَ كَانُوا يَكْرَهُونَ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ مَعَ إِبْطَانِهِمْ لِلْكَافِرِ جُبْنًا وَخِدَاعًا .

إِنَّ سُوءَ الظَّنِّ هُوَ صِفَةُ أَصْحَابِ الشُّكُوكِ وَالْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ ، الْعَاجِزِينَ عَنِ الثِّبَاتِ فِي سَاعَةِ الشَّدَّةِ ، لِأَنَّهُمْ يَفْتَقِدُونَ إِلَى الثِّقَّةِ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ . وَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي حَيَاتِهِ وَعِنْدَ مَوْتِهِ ، وَيَرْجُو الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ ، وَيَتَّقِ بِالمَغْفِرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ .

وَالْقَلْبُ مُتَعَلِّقٌ بِمَا أُودِعَ فِيهِ . فَإِنَّ زَرْعَ الْمَرْءِ فِيهِ شَكًّا وَرَيْبَةً ، حَصَدَ تَخَاذُلًا مَا بَعْدَهُ تَخَاذُلًا . وَإِنْ زَرْعَ فِيهِ يَقِينًا رَاسِحًا حَصَدَ كُلَّ خَيْرٍ . وَلَا يَخْفَى أَنَّ الشَّكَّ آفَةٌ كُلُّ قَلْبٍ ، إِذْ إِنَّهُ يَقُومُ بِزَعْرَعَةِ الْإِيمَانِ الْقَلْبِيِّ ، وَامْتِنَاصِهِ تَدْرِيجِيًّا إِلَى أَنْ يُصْبِحَ الْقَلْبُ مَنْكُوسًا ، وَالْفِطْرَةَ مُلَوَّنَةً . وَهَذَا مَا حَصَلَ لِلْكَثِيرِينَ طَوَالَ فَنَرَاتِ التَّارِيخِ الْمُتَعَاقِبَةِ . وَالْقَلْبُ مَلِكُ الْأَعْضَاءِ ، وَإِذَا فَسَدَ ، فَسَدَ الْمَرْءُ وَهَلَكَ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ١١٦] .

مَا يَتَّبِعُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِ الدِّينِ إِلَّا الظَّنَّ الَّذِي لَا أَصْلَ لَهُ . يَسِيرُونَ وَرَاءَ أَهْوَائِهِمْ ، وَيُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ، وَمَا هُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَكْذِبُونَ . يَتَّبِعُونَ مَا اسْتَحْسَنَتْهُ عُقُولُهُمْ ، إِمَّا تَقْلِيدًا ، كَظَنِّهِمْ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ، أَوْ مَا ابْتَدَعُوهُ بِرَأْيِهِمُ الْفَاسِدِ مِنَ الْعَقَائِدِ الزَّائِفَةِ . وَدِيئُهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ ظَنٌّ وَهَوَى لَمْ يَأْخُذُوهُ عَنِ عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ ، وَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي ظُنُونٍ كَاذِبَةٍ وَأَوْهَامٍ بَاطِلَةٍ .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٤٦) : ((﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾) ، وَهُوَ ظَنُّهُمْ أَنَّ آبَاءَهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ ، أَوْ جَهَالَتِهِمْ وَآرَاؤُهُمُ الْفَاسِدَةَ ، فَإِنَّ الظَّنَّ يُطْلَقُ عَلَى مَا يُقَابِلُ الْعِلْمَ ، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ، يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا يَنْسُبُونَ إِلَيْهِ ، كَاتِّخَاذِ الْوَلَدِ ، وَجَعْلِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَصُلَّةِ إِلَيْهِ ، وَتَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ ، وَتَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ ، أَوْ يُقَدَّرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ، وَحَقِيقَتُهُ مَا يُقَالُ عَنْ ظَنٍّ وَتَحْمِينٍ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يُونُسُ: ٣٦] . هَذَا إِبْطَالٌ لِدَعْوَاهُمْ فِيمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ ، وَعَبَدُوا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ .

وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في اعتقادهم ألوهية الأصنام وأنها تشفع ، إلا تخميناً وحدثاً بلا دليل ولا برهان ولا بصيرة ولا حجة ، وإنما هو توهم وتخيل ، وتقليد للآباء ، وذلك لا يجدي نفعاً ، ولا يُغني عنهم شيئاً ، ولا يدفع عنهم عذاب الله تعالى . إن ظنهم بأن الأصنام آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئاً ، وظنهم أنها تشفع لهم لا يُغني عنهم . وأراد بالأكثر جميع من يقول ذلك ، والمقصود هم الزعماء والرؤساء ، وأما أتباعهم الجهال والعوام فيتبعونهم تقليداً .

والاعتقاد المبني على الأوهام الباطلة والخرافات الفاسدة ظن كاذب بعيد عن اليقين والعلم ، وليس الظن كاليقين ، ولا يقوم مقام الحق . وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكتفى بالظن في العقائد . والله عالم بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على أتباعهم الظن ، وإعراضهم عن البرهان .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٥٦١) : ((يقول تعالى ذكره : وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ظناً ، يقول : إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته ، بل هم منه في شك وريبة)) إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً ، يقول : إن الشك لا يُغني من اليقين شيئاً ، ولا يقوم في شيء مقامه ، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين ، ((إن الله عليهم بما يفعلون)) ، يقول تعالى ذكره : إن الله ذو علم بما يفعل هؤلاء المشركون من أتباعهم الظن ، وتكذيبهم الحق اليقين ، وهو لهم بالمرصاد ، حيث لا يُغني عنهم ظنهم من الله شيئاً)) اه . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٩٨) : ((وما يتبع أكثرهم)) فيما يعتقدونه ((إلا ظناً)) مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة ، كقياس الغائب على الشاهد ، والخالق على المخلوق ، بأدنى مشاركة موهومة ، والمراد بالأكثر الجميع ، أو من ينتمي منهم إلى تمييز ونظر ، ولا يرضى بالتقليد الصّرف (البحث) ((إن الظن لا يُغني من الحق)) من العلم والاعتقاد الحق ((شيئاً)) من الإغناء ، ويجوز أن يكون مفعولاً به ، و ((من الحق)) حالاً منه . وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب ، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز ، ((إن الله عليهم بما يفعلون)) وعيد على أتباعهم للظن ، وإعراضهم عن البرهان)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٤٤) : ((بين سبحانه ما هؤلاء عليه في أمر دينهم ، وعلى أي شيء بنوه ، وبأي شيء أتبعوا هذا الدين الباطل ، وهو الشرك ، فقال :)) وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً . والمعنى : ما يتبع هؤلاء المشركون في إشراكهم بالله ، وجعلهم له أنداداً إلا مجرد الظن والتخمين والحدث ، ولم يكن ذلك عن بصيرة ، بل ظن من ظن من سلفهم أن هذه المعبودات تُقربهم إلى الله ، وأنها تشفع لهم ، ولم يكن ظنهم هذا لمُستند قط ،

بَلْ مُجْرَدٌ خَيَالٌ مُخْتَلٌ ، وَحَدْسٌ بَاطِلٌ . وَلَعَلَّ تَنْكِيرَ الظَّنِّ هُنَا لِلتَّحْقِيرِ ، أَي : إِلا ظَنًّا ضَعِيفًا لَا يَسْتَنْدُ إِلَى مَا تَسْتَنْدُ إِلَيْهِ سَائِرُ الظُّنُونِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْآيَةِ إِنَّهُ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِقْرَارِ بِهِ إِلا ظَنًّا ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى . ثُمَّ أَخْبَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ مُجْرَدَ الظنِّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ إِنَّمَا يُبْنَى عَلَى الْعِلْمِ ، وَبِهِ يَتَّضِحُ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَالظَّنُّ لَا يَقُومُ مَقَامَ الْعِلْمِ ، وَلَا يُدْرِكُ بِهِ الْحَقَّ ، وَلَا يُغْنِي عَنِ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ مِنَ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ الصَّادِرَةِ لَا عَن بُرْهَانٍ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الْحُجُرَاتُ : ١٢] . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ابْتَعِدُوا عَنِ إِسَاءَةِ الظنِّ بِالنَّاسِ ، وَهُوَ أَنْ يَظُنَّ السُّوءَ بِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، أَمَّا الْفَاسِقُونَ فَلَا إِثْمَ فِيهِ وَفَقَّ مَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ . وَالتَّعْبِيرُ بِالْكَثِيرِ ، كَمَا يَحْتَاظُ الْعَبْدُ فِي كُلِّ ظَنٍّ ، وَلَا يُسَارِعُ فِيهِ ، بَلْ يَتَفَكَّرُ وَيَتَأَمَّلُ وَيَتَحَقَّقُ .

يَجِبُ الْإِتْعَادُ عَنِ سُوءِ الظَّنِّ ، وَإِلْقَاءُ التُّهْمِ بِلا أدلة ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَظُنَّ الْمُؤْمِنُ بِإِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِينَ سُوءًا ، فَإِنَّ الظَّنَّ عَلَى بَاطِلٍ ، وَغَيْرِ مُحَقِّقٍ ، وَبَعِيدٍ عَنِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ . وَلَمْ يَقُلْ : اجْتَنِبُوا الظَّنَّ كُلَّهُ ، لِأَنَّ مِنَ الظَّنِّ مَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ كَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يَظُنَّ الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا خَيْرًا .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٧١) : ((يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ ، وَهُوَ التُّهْمَةُ وَالتَّخَوُّنُ لِلْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ ، لِأَنَّ بَعْضَ ذَلِكَ يَكُونُ إِثْمًا مَحْضًا ، فَلْيَتَجَنَّبْ كَثِيرًا مِنْهُ احتياطًا . وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ إِلا خَيْرًا ، وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمِلًا)) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٩٢) : ((﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ، الظَّنُّ هُنَا : هُوَ مُجْرَدُ التُّهْمَةِ الَّتِي لَا سَبَبَ لَهَا ، كَمَا يَتَّبِعُ غَيْرَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَوَاحِشِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ مَا يَقْتَضِي ذَلِكَ ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِاجْتِنَابِ الْكَثِيرِ ، لِيَفْحَصَ الْمُؤْمِنُ عَنِ كُلِّ ظَنٍّ يَظُنُّهُ ، حَتَّى يَعْلَمَ وَجْهَهُ ، لِأَنَّ مِنَ الظَّنِّ مَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الظَّنِّ ، كَالْقِيَّاسِ وَخَيْرِ الْوَاحِدِ وَذِلَالَةِ الْعُمُومِ ، وَلَكِنْ هَذَا الظنُّ الَّذِي يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ قَدْ قَوِيَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجُوهِ الْمُوجِبَةِ لِلْعَمَلِ بِهِ ، فَارْتَفَعَ عَنِ الشَّكِّ وَالتُّهْمَةِ . قَالَ الرَّجَّازُ : هُوَ أَنْ يَظُنَّ بِأَهْلِ الْخَيْرِ سُوءًا ، فَأَمَّا أَهْلُ السُّوءِ وَالْفُسُوقِ فَلَنَا أَنْ نَظُنَّ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُمْ . قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ وَمُقَاتِلُ ابْنِ حَيَّانَ : هُوَ أَنْ يَظُنَّ بِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ سُوءًا ، وَلَا بِأَسْ بِهَ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ ، فَإِنْ تَكَلَّمَ بِذَلِكَ الظَّنِّ وَأَبْدَاهُ

أَنَّم . وحكى القرطبي عن أكثر العلماء : أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز ، وأنه لا حَرَجَ في الظن القبيح بمن ظاهره القبيح)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٦٩) : ((قوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ، قال ابن عباس : نهى الله تعالى المؤمن أن يظنَّ بالمؤمن شرًّا . وقال سعيد بن جبير : هو الرجل يسمع من أخيه كلامًا لا يريد به سوءًا ، أو يدخل مدخلًا لا يريد به سوءًا ، فيراه أخوه المسلم فيظنُّ به سوءًا . وقال الزجاج : هو أن يظنَّ بأهل الخير سوءًا ، فأما أهل السوء والفسق ، فلنا أن نظنَّ بهم مثل الذي ظهرَ منهم . قال القاضي أبو يعلى : هذه الآية تدل على أنه لم يَنْه عن جميع الظنِّ ، والظنُّ على أربعة أضرب : محظور ، وأمور به ، ومباح ، ومندوب إليه . فأما المحظور فهو سوء الظن بالله تعالى ، والواجب حُسن الظن بالله ، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة محظور ، وأما الظن المأمور به ، فهو ما لم يُنصَّب عليه دليل يُوصل إلى العلم به ، وقد تُعَبِّدنا بتنفيذ الحكم فيه ، والاقتصار على غالب الظن ، وإجراء الحكم عليه واجب ، وذلك نحو ما تُعَبِّدنا به من قبول شهادة العُدول ، وتحرِّي القبلة ، وتقويم المُستَهلكات ، وأروش (دِيَات) الجنائيات التي لم يرد بمقاديرها توقيف ، فهذا وما كان من نظائره قد تُعَبِّدنا فيه بأحكام غالب الظنون ، فأما الظنُّ المُباح فكالشك في الصلاة إذا كان إمامًا ، أمره النبي ﷺ بالتحرِّي ، والعمل على ما يغلب في ظنِّه ، وإن فعَله كان مُباحًا ، وإن عدَل عنه إلى البناء على اليقين كان جائزًا . وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " إذا ظننتم فلا تحقُّقوا " . وهذا من الظن الذي يعرض في قلب الإنسان في أخيه فيما يُوجب الرِّيبة ، فلا ينبغي له أن يحقِّقه . وأما الظن المندوب إليه ، فهو إحسان الظن بالأخ المسلم ، يُندب إليه ، ويُتاب عليه ، فأما ما روي في الحديث : " احتسبوا من الناس بسوء الظن " ، فالمراد الاحتراس بحفظ المال ، مثل أن يقول : إن تركتُ بابي مفتوحًا خَشِيتُ السَّرَّاق)) .

﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، إِنَّ سُوءَ الظَّنِّ بِأهل الخير والصَّلاح ذَنْبٌ يستحق العقوبة . وقال العلماء : هو ما تكلم به مِمَّا ظنَّه من السوء بأخيه المسلم ، فإن لم يتكلم به فلا بأس . وذهب بعضهم إلى أنه يَأْتِم بِنَفْسِ ذلك الظنِّ ، وإن لم ينطق به .

وَمَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِالصَّالِحِينَ ، دَلَّ عَلَى انحرافه وفساده ، كما قال الشاعر :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِهِ

وإذا كان بعضُ الظَّنِّ إثمًا ، فإنَّ بعضه حَسَنٌ في العبادة والتعامل مع الناس . وقد جاء التَّعَبُّدُ بالظَّنِّ في كثيرٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، بَلْ في أكثرها .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٣٩٣) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، يَقُولُ : إِنَّ ظَنَّ الْمُؤْمِنِ بِالْمُؤْمِنِ الشَّرُّ لَا الْخَيْرَ إِثْمٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاهُ عَنْهُ ، فَفَعَلُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ إِثْمٌ)) .
وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ)) ١٩١ .

حَدَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الظَّنِّ ، وَهُوَ تُهْمَةٌ تَقَعُ فِي الْقَلْبِ بِلَا دَلِيلٍ ، يَعْنِي سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ ، وَالْحَدِيثُ بِمَا لَمْ يُتَيَقَّنْ مِنَ الْأَخْبَارِ . وَبَيَّنَّ ﷺ أَنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ فِي الْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِهِ ، لِأَنَّ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ يُوصَفُ بِهِمَا الْقَوْلُ لَا الظَّنُّ ، أَوْ : إِنَّ الْكَذِبَ يَقَعُ فِي الظَّنِّ أَكْثَرَ مِنْ وَقُوعِهِ فِي الْكَلَامِ .
وقيل: المراد بأكذب الحديث: حديث النفس، لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان. وقيل :
إنَّ إثم هذا الكذب أزيد من إثم الحديث الكاذب ، أَوْ إِنَّ الْمَظْنُونَاتِ يَقَعُ الْكَذِبُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنَ الْمَجْزُومَاتِ . وَمَعَ أَنَّ تَغْلِيْبَ سُوءِ الظَّنِّ حَرَامٌ ، إِلَّا أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَيْسًا فَطِنًا وَلَا يَتَّخِذَ .
والشريعة الإسلامية حَثَّتْ عَلَى الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَوَطُّدِ الْأُخُوَّةِ وَالِاجْتِمَاعِ بَيْنَهُمْ ، وَنَهَتْ عَنْ كُلِّ مَا يَدْعُو إِلَى الْفُرْقَةِ وَالتَّبَاغُضِ وَالعِدَاوَةِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠) : ((قَوْلُهُ ﷺ : (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) الْمُرَادُ التَّنْهِي عَنْ ظَنِّ السُّوءِ . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : هُوَ تَحْقِيقُ الظَّنِّ وَتَصْدِيقُهُ دُونَ مَا يَهْجَسُ فِي النَّفْسِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُمْلِكُ . وَمُرَادُ الْخَطَّابِيِّ أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنَ الظَّنِّ مَا يَسْتَمِرُّ صَاحِبِهِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَقِرُّ فِي قَلْبِهِ ، دُونَ مَا يَعْرِضُ فِي الْقَلْبِ وَلَا يَسْتَقِرُّ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ ، كَمَا سَبَقَ فِي حَدِيثٍ : " تَجَاوَزَ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا تَحَدَّثَتْ بِهِ الْأُمَّةُ مَا لَمْ يَتَكَلَّمْ أَوْ تَعْمَلْ " ، وَسَبَقَ تَأْوِيلُهُ عَلَى الْخَوَاطِرِ الَّتِي لَا تَسْتَقِرُّ . وَنَقَلَ الْقَاضِي عَنْ سُفْيَانَ أَنَّهُ قَالَ : الظَّنُّ الَّذِي يَأْتِمُّ بِهِ هُوَ مَا ظَنَّنَهُ وَتَكَلَّمَ بِهِ ، فَإِنَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ لَمْ يَأْتِمُّ . قَالَ : وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ الْحُكْمَ فِي الشَّرْعِ بِظَّنِّ مُجَرَّدٍ مِنْ غَيْرِ بِنَاءٍ عَلَى أَصْلِ وَلَا نَظَرَ وَاسْتِدْلَالَ ، وَهَذَا ضَعِيفٌ أَوْ بَاطِلٌ ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ)) .
وفي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٣ / ١٧٧) : ((وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَرْكُ الْعَمَلِ بِالظَّنِّ الَّذِي تُنَاطُ بِهِ الْأَحْكَامُ غَالِبًا ، بَلِ الْمُرَادُ تَرْكُ تَحْقِيقِ الظَّنِّ الَّذِي يَضُرُّ بِالْمَظْنُونِ بِهِ (أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) أَي : حَدِيثٌ

١٩١ متفق عليه. واللفظ للبخاري (٦ / ٢٤٧٤) برقم (٦٣٤٥). ومسلم (٤ / ١٩٨٥) برقم (٢٥٦٣).

النَّفْس، لأنَّه يكون بإلقاء الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ . ووصف الظن بالحديث مَجَازٌ فَإِنَّه نَاشِئٌ عَنْهُ)) اهـ . وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ١٢٢ و ١٢٣) : (((إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ) أَي : احذروا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، واحذروا سُوءَ الظَّنِّ بِمَنْ لَا يُسَاءُ الظَّنُّ بِهِ مِنَ الْعُدُولِ ، وَالظَّنُّ تَهْمَةٌ تَقَعُ فِي الْقَلْبِ بِلَا دَلِيلٍ . قَالَ الْعَزَالِي : وَهُوَ حَرَامٌ كَسُوءِ الْقَوْلِ ، لَكِنْ لَسْتُ أَعْنِي بِهِ إِلَّا عَقْدَ الْقَلْبِ ، وَحُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ بِالسُّوءِ ، أَمَّا الْخَوَاطِرُ وَحَدِيثُ النَّفْسِ ، فَعَفْوٌ ، بَلِ الشَّكُّ عَفْوٌ أَيْضًا ، فَالْمَنْهِيُّ عَنْهُ أَنْ تَظُنَّ ، وَالظَّنُّ عِبَارَةٌ عَمَّا تَرَكَّنَ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَسَبَبُ تَحْرِيمِهِ أَنْ أُسْرِرَ الْقُلُوبَ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا عِلْمُ الْغُيُوبِ ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَعْتَقِدَ فِي غَيْرِكَ سُوءًا ، إِلَّا إِذَا انْكَشَفَ لَكَ بَعْيَانٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا تَعْتَقِدُ إِلَّا مَا عَلِمْتَهُ وَشَاهَدْتَهُ ، فَمَا لَمْ تُشَاهِدْهُ وَلَمْ تَسْمَعْهُ ، ثُمَّ وَقَعَ فِي قَلْبِكَ ، فَإِنَّمَا الشَّيْطَانُ يُلْقِيهِ إِلَيْكَ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُكْذِبَهُ ، فَإِنَّهُ أَفْسَقَ الْفُسَاقُ ، انْتَهَى . وَقَالَ الْعَارِفُ زُرُّوقٌ : إِنَّمَا يَنْشَأُ الظَّنُّ الْخَبِيثُ عَنِ الْقَلْبِ الْخَبِيثِ ، لَا فِي جَانِبِ الْحَقِّ ، وَلَا فِي جَانِبِ الْخَلْقِ ، كَمَا قِيلَ :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِهِ
وَعَادَى مُجِيبِهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمًا

(فَإِنَّ الظَّنَّ) أَقَامَ الْمُظْهَرُ مَقَامَ الْمُضْمَرِ ، إِذَ الْقِيَاسُ : فَإِنَّهُ ، لِرِيبَادَةِ تَمَكُّنِ الْمُسْتَنْدِ إِليه فِي ذِكْرِ السَّامِعِ حَتَّى عَلَى الْاجْتِنَابِ (أَكْذَبَ الْحَدِيثَ) أَي حَدِيثَ النَّفْسِ ، لِأَنَّهُ يَكُونُ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَاسْتَشْكَلَ تَسْمِيَةَ الظَّنِّ حَدِيثًا ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ الْمُرَادَ عَدَمَ مُطَابَقَتِهِ الْوَاقِعَ قَوْلًا أَوْ غَيْرِهِ ، أَوْ مَا يَنْشَأُ عَنِ الظَّنِّ ، فَوَصَفَ الظَّنُّ بِهِ مَجَازًا . قَالَ الْعَزَالِي : مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، وَمَنْ حَكَمَ بِشَيْءٍ عَلَى غَيْرِهِ بِالظَّنِّ بَعَثَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى أَنْ يَطُولَ فِيهِ اللَّسَانُ بِالْغَيْبِ ، فَيَهْلِكُ ، أَوْ يُقْصِرَ فِي الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِ ، أَوْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِحْتِقَارِ ، وَيَرَى نَفْسَهُ خَيْرًا مِنْهُ ، وَكُلَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ ، وَلِذَلِكَ مَنَعَ الشَّرْعُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلتُّهْمِ . تَنْبِيهُ : قَالَ الرَّاعِبُ : الظَّنُّ إِصَابَةٌ بِضَرْبٍ مِنَ الْأَمَارَةِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْأَمَارَةُ مُتْرَدِّدَةً بَيْنَ يَقِينٍ وَشَكٍّ ، فَيَقْرَبُ تَارَةً مِنْ طَرَفِ الْيَقِينِ ، وَتَارَةً مِنْ طَرَفِ الشَّكِّ ، صَارَ تَفْسِيرُ أَهْلِ اللُّغَةِ مُبْهَمًا ، وَالظَّنُّ مَتَى كَانَ عَنِ أَمَارَةٍ قَوِيَّةٍ فَإِنَّهُ يُمَدَّحٌ ، وَمَتَى كَانَ عَنِ تَخْمِينٍ لَمْ يُعْتَمَدْ وَدُمَّ بِهِ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ .

وَفِي تَحْفَةِ الْأَحْوَدِيِّ (٦ / ١٠٥ و ١٠٦) : ((قَوْلُهُ (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ) أَي : اتَّقُوا سُوءَ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ﴾ ، وَهُوَ مَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ دُونَ مَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ) وَهُوَ أَنْ يَظُنَّ وَيَتَكَلَّمَ (إِثْمٌ) فَلَا تَجَسَّسُوا ، أَوْ

أَحْذَرُوا اتَّبَاعَ الظَّنِّ فِي أَمْرِ الدِّينِ الَّذِي مَبْنَاهُ عَلَى الْيَقِينِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ، قَالَ الْقَاضِي : هُوَ تَحْذِيرٌ عَنِ الظَّنِّ فِيمَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ ، أَوْ التَّحَدُّثُ بِهِ عِنْدَ الْاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ ، أَوْ عَمَّا يَظُنُّ كَذِبَهُ . انْتَهَى . أَوْ : اجْتَنِبُوا الظَّنَّ فِي التَّحْدِيثِ وَالْإِخْبَارِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : " فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ " . وَيُقَوِّيه حَدِيثٌ : " كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ " . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ التَّحْذِيرَ عَنِ الظَّنِّ بِسُوءِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَفِيمَا يَجِبُ فِيهِ الْقَطْعُ مِنَ الْإِعْتِقَادِيَّاتِ (فَإِنَّ الظَّنَّ) أَقَامَ الْمُظْهَرُ مَقَامَ الْمُضْمَرِّ حَتَّى عَلَى تَجَنُّبِهِ (أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) أَي حَدِيثِ النَّفْسِ ، لِأَنَّهُ يَلْقَاءُ الشَّيْطَانَ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ . قَالَ فِي الْمَجْمَعِ : مَعْنَى كَوْنِ الظَّنِّ أَكْذَبَ الْحَدِيثِ مَعَ أَنَّ الْكُذْبَ خِلَافَ الْوَاقِعِ فَلَا يَقْبَلُ النَّقْصَ وَضِدَّهُ ، أَنَّ الظَّنَّ أَكْثَرَ كَذِبًا ، أَوْ أَنَّ إِثْمَ هَذَا الْكُذْبِ أَزِيدُ مِنْ إِثْمِ الْحَدِيثِ الْكَاذِبِ ، أَوْ أَنَّ الْمَظْنُونَاتِ يَقَعُ الْكُذْبُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنَ الْمَجْزُومَاتِ . انْتَهَى . قَالَ الْحَافِظُ : وَقَدْ اسْتَشْكَلْتُ تَسْمِيَةَ الظَّنِّ حَدِيثًا ، وَأَجِيبُ بِأَنَّ الْمُرَادَ عَدَمَ مُطَابَقَةِ الْوَاقِعِ ، سَوَاءً كَانَ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَا يَنْشَأُ عَنِ الظَّنِّ ، فَوَصَفَ الظَّنَّ بِهِ مَجَازًا)) .

١٣_ التَّجَسُّسُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الْحُجُرَاتِ : ١٢] .

وَلَا تَبْحَثُوا عَنْ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تُفْتَشُوا عَنْ غُيُوبِهِمْ ، وَلَا تَكْشِفُوا أَسْرَارَهُمْ ، وَأَقْنَعُوا بِالظَّاهِرِ الْحَسَنَ ، وَدَعُوا مَا سَتَرَ اللَّهُ تَعَالَى . وَالتَّجَسُّسُ يُطَلَّقُ غَالِبًا فِي الشَّرِّ .
وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦ / ٢٨٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَقَعُ لَهُ خَاطِرُ التُّهْمَةِ ابْتِدَاءً ، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَجَسَّسَ خَبَرَ ذَلِكَ ، وَيَبْحَثُ عَنْهُ ، وَيَتَبَصَّرَ ، وَيَسْتَمِعَ لِتَحْقِيقِ مَا وَقَعَ لَهُ مِنْ تِلْكَ التُّهْمَةِ ، فَهِيَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : وَالَّذِي يَمَيِّزُ الظَّنُونَ الَّتِي يَجِبُ اجْتِنَابُهَا عَمَّا سِوَاهَا ، أَنَّ كُلَّ الْمَظْنُونِ بِهِ مِمَّنْ شُوهِدَ مِنْهُ السُّتْرُ وَالصَّلَاحُ وَأُؤِنِسَتْ مِنْهُ الْأَمَانَةُ فِي الظَّاهِرِ ، فَظَنَّ الْفَسَادَ بِهِ وَالْخِيَانَةَ مُحَرَّمٌ ، بِخِلَافِ مَنْ اشتهره النَّاسُ بِتَعَاطِي الرَّيْبِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِالْخِيَانَةِ)) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٩٢) : ((لَمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِاجْتِنَابِ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ نَهَاهُمْ عَنِ التَّجَسُّسِ ، فَقَالَ : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، التَّجَسُّسُ : الْبَحْثُ عَمَّا يَنْكُتُ مِنْ غُيُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَعَوْرَاتِهِمْ ، نَهَاهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْبَحْثِ عَنْ مَعَايِبِ النَّاسِ وَمِثَالِهِمْ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٧١) : ((قال المُفسِّرون : التَّجَسُّسُ البَحْثُ عَن عَيْبِ المُسْلِمِينَ وَعُورَاتِهِمْ ، فالمعنى : لا يَبْحِثُ أَحَدُكُمْ عَن عَيْبِ أَخِيهِ ، لِيَطَّلِعَ عَلَيْهِ إِذْ سَتَرَهُ اللَّهُ . وقيل لابن مسعود : هذا الوليد بن عُقْبَةَ ، تَقَطَّرَ لِحِيته خَمْرًا ، فقال : إِنَّا نُهَيِّنَا عَن التَّجَسُّسِ ، فَإِن يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذُهُ بِهِ)) .

وعن عبد الرحمن بن عوف: أَنَّهُ حَرَسَ لَيْلَةً مَعَ عُمرِ بْنِ الخَطَّابِ _ رضي اللهُ عنه _ بالمدينة، فَبَيْنَمَا هُم يَمشُونَ شَبَّ لَهُم سِرَاجٌ فِي بَيْتٍ ، فانطلقوا يُؤْمُونَهُ ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهُ إِذَا بابٌ مُجَافٌ _ مُعَلَّقٌ _ على قَوْمٍ لَهُمْ فِيهِ أَصواتٌ مُرتَفِعة ، فقال عُمر _ رضي اللهُ عنه _ وأخذ بيد عبد الرحمن: أَتَدْرِي بَيْتٌ مِنْ هَذَا ؟ ، قال : لا ، قال : هَذَا بَيْتُ رَيْبِعةَ بِنِ أُمَيَّةَ بِنِ خَلْفٍ ، وَهُمُ الْآنَ شُرْبٌ ، فما ترى؟ ، فقال عبد الرحمن: أرى قد أَتَيْتُنَا ما نَهَى اللَّهُ عَنْهُ ، نَهَانَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فقال : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ، فقد تَجَسَّسْنَا ، فانصرف عُمرُ عَنْهُمْ وتركهم^{١٩٢} .

الأمرُ بالمعروف ، والتَّهْيِيبُ عَنِ المُنْكَرِ ، لا يَتَعَلَّقانِ بالأحداثِ الجاريةِ خَلْفَ الأبوابِ المُعَلَّقةِ ، وإِنَّمَا يَتَعَلَّقانِ بالأُمورِ المكشوفةِ الظاهرةِ للناسِ . ولا يجوزُ البَحْثُ عَن أسرارِ الناسِ وأعمالِهِمْ فِي بيوتِهِمْ ، فهذا تَجَسُّسٌ ، وقد نَهَى اللَّهُ عَنْهُ . والحديثُ يُوضِّحُ المنزلةَ الرفيعةَ لِعُمرِ بْنِ الخَطَّابِ وَعبدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ _ رضي اللهُ عَنْهُمَا _ فقد كانا يَحْرُسُانِ بالمدينةِ ، لِحمايتِها وَحِفْظِ أَهلِها مِنَ الشُّرورِ والأخطارِ . وقد عَرَفَنا أَنَّ هُنَاكَ قَوْمًا يَشْرَبُونَ الخَمَرَ فِي أَحَدِ البُيوتِ ، ولكنَّهُمْ لَمْ يَكُونوا مُجاهرينَ بِهذهِ المعصيةِ . وقد التزم الصَّحَابِيُّانِ بِالآيةِ : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ، وقاما بتطبيقها فِي الواقعِ .

١٤ _ استراق السمع

قال اللهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحِجْر : ١٨] .
حَفِظَ اللَّهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ لَعِينٍ قَدْ رَجَمَهُ اللَّهُ وَطَرَدَهُ ، إِلا مَنْ اخْتَلَسَ شَيْئًا مِنْ أَخبارِ السَّماءِ وَخَطَفَهُ ، فَإِنَّ شَهَابًا ظاهِرًا لِلناسِ (شُعْلةٌ مِنَ النارِ ساطِعةٌ) يَلْحَقُهُ ، وَيُدْرِكُهُ ، وَيُحْرِقُهُ .
وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٩٩) : ((يَقولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَحَفِظْنَا السَّماءَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ لَعِينٍ قَدْ رَجَمَهُ اللَّهُ وَلَعَنَهُ ، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ ، يَقولُ : لَكِنْ قَدْ يَسْتَرِقُ مِنَ الشَّيْطانِ السَّمْعَ مِمَّا يَحْدُثُ فِي السَّماءِ بَعْضُها ، فَيَتَّبِعُهُ شَهَابٌ مِنَ النارِ مُبِينٌ ، يَبِينُ أَثرُهُ فِيهِ ، إِما يَأْخِبالَهُ وَإِفسادَهُ أو يَأْحرقُهُ)) .

١٩٢ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٤١٩) برقم (٨١٣٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٣٩٠) : ((قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي : اختطف ما سمعه من كلام الملائكة . قال ابن فارس : استرق السَّمْع : إذا سَمِعَ مُسْتَخْفِيًا ، ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ ، أي : لَحِقَهُ ﴿شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ . قال ابن قتيبة : كَوَّكَبَ مُضِيءٌ . وقيل : " مُبِينٌ " بمعنى ظاهر يراه أهل الأرض ، وإنما يَسْتَرِقُ الشَّيْطَانُ ما يكون من أخبار الأرض ، فأما وَحْيُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فقد صانه عَنْهُمْ . واختلَفُوا ، هل يُقْتَلُ الشَّهَابُ أم لا ؟ ، على قَوْلَيْنِ : أحدهما أَنَّهُ يُحْرِقُ ، وَيَخْبِلُ (يُفْسِدُ) ، ولا يُقْتَلُ ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني أَنَّهُ يُقْتَلُ ، قاله الحسن . فعلى هذا القَوْل : هل يُقْتَلُ الشَّيْطَانُ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَ بما سَمِعَ ؟ ، فيه قَوْلان : أحدهما أَنَّهُ يُقْتَلُ قَبْلَ ذلك ، فعلى هذا لا تَصِلُ أخبارُ السماءِ إلى غير الأنبياء . قال ابن عباس : ولذلك انقطعت الكِهَانَةُ . والثاني أَنَّهُ يُقْتَلُ بعد إلقائه ما سَمِعَ إلى غيرِهِ مِنَ الجِنِّ ، ولذلك يَعُودُونَ إلى الاستراق ، وَلَوْ لَمْ يَصِلَ لَقَطَعُوا الاستراق)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٢٢) : ((فَمَنْ تَمَرَّدَ وَتَقَدَّمَ مِنْهُمْ لاسْتِرَاقِ السَّمْعِ ، جاءه شهابٌ مُبِينٌ فأتلفه ، فَرُبَّمَا يكون قد ألقى الكَلِمَةَ التي سَمِعَهَا قبل أن يدركه الشَّهَابُ إلى الذي هو دُونَهُ ، فيأخذها الآخر ، ويأتي بها إلى وليِّه ، كما جاء مُصَرِّحًا به في الصحيح)) .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٧٣٦) أن النبي ﷺ قال : ((إذا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ، ضَرَبَتْ المَلائِكَةُ بأجنحتها خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَالسَّلْسِلَةِ عَلَى صَفْوَانَ ، قال عليٌّ : وقال غيرهُ : صَفْوَانَ يَنْفُذُهُمْ ذلك _ ، فإذا فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، قالوا : ماذا قال رَبُّكُمْ ؟ ، قالوا : لِلَّذِي قال : الحَقُّ ، وهو العليُّ الكبير ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُو السَّمْعِ ، ومُسْتَرِقُو السَّمْعِ هكذا واحد فوق الآخر ، ووَصَفَ سُفْيَانُ بيده ، وفرَّجَ بين أصابع يده اليمنى ، نَصَبَهَا بَعْضُها فوق بعض _ فَرُبَّمَا أدرك الشَّهَابُ المُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بها إلى صاحبه فيُحْرِقُها ، ورُبَّمَا لَمْ يَدْرِكْها حتى يَرْمِيَ بها الذي يليه ، إلى الذي هو أسفلُ منه ، حتى يُلْقوها إلى الأرض ، _ ورُبَّمَا قال سُفْيَانُ : حَتَّى تَنْتَهِيَ إلى الأرض ، _ فَتَلْقَى على فَمِ السَّاحِرِ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مائةَ كَذْبَةٍ ، فَيُصَدِّقُ ، فيقولون : أَلَمْ يُخْبِرْنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا ، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا ؟ ، للكَلِمَةِ التي سَمِعَتْ مِنَ السماءِ)) .

إذا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ وَقَدَّرَهُ فِي السماءِ ، أي : بأمرٍ مِنْ أُمُورِ الخَلْقِ ، ضَرَبَتْ المَلائِكَةُ بأجنحتها مُنْقَادِينَ طائعين لِقَوْلِ اللَّهِ تعالى ، ويكون القَوْلُ المُسْموعُ يُشْبِهُ صَوْتَ وَقَعِ السَّلْسِلَةِ على صَفْوَانَ ، وهو الحَجَرُ الأملس ، يَنْفُذُ اللَّهُ ما أَمَرَ به ، وقضى إلى ملائكته ، فإذا أُزِيلَ الخَوْفُ عن قُلُوبِهِمْ ، فسألت المَلائِكَةُ بعضها بعضًا : ماذا قال رَبُّكُمْ ؟ ، فيقول المُقَرَّبُونَ مِنَ المَلائِكَةِ _ كَجِبْرِيلَ

وميكائيل عليهما السلام _ مُجيبين : قَالَ اللَّهُ الْقَوْلَ الْحَقَّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الَّذِي لَهُ الْعُلُوُّ الْمَطْلُوقُ ، الكبير : العظيم الذي كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ ، وَلَا شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ . وَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْمَعُ مُسْتَرْقُو السَّمْعِ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ ذَلِكَ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَالْمُسْتَرْقِ : الْمُسْتَمِعُ مُخْتَفِيًا كَمَا يَفْعَلُ السَّارِقُ . وَوَصَفَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ _ أَحَدَ رِوَاةِ الْحَدِيثِ _ كَيْفِيَةَ الْمُسْتَمِعِينَ بِأَنَّهُمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَفَرَجَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدِهِ الْيُمْنَى ، نَصَبَهَا بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ . فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ النَّاقِبُ الْمُسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَهَا إِلَى صَاحِبِهِ ، فَيُحْرِقُهُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ الشَّهَابُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ ، ثُمَّ إِلَى الَّذِي هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَرْضِ ، فَتَلْقَى الْكَلِمَةَ عَلَى فَمِ السَّاحِرِ مِنْ أَتْبَاعِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ ، وَهُوَ الْمُنْجَمُ ، فَيَكْذِبُ مَعَ تِلْكَ الْكَلِمَةِ الْحَقِّ مِائَةَ كَذِبَةٍ ، فَرُبَّمَا يُصَادَفُ وَفُوقُ بَعْضِ الصَّدَقِ فِي كَذِبَاتِهِ ، فَيَقُولُ السَّامِعُونَ الَّذِينَ سَمِعُوا مِنْهُ : أَلَمْ يُخْبِرْنَا السَّاحِرُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يَكُونُ كَذَا وَكَذَا ، كِنَايَةً عَنِ الْخُرَافَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا السَّاحِرُ ، فَوَجَدْنَا الْخَبَرَ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ حَقًّا ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ ، جَعَلُوا كُلَّ أَخْبَارِهِ حَقًّا . وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ عَمَلِيَةَ اسْتِرْاقِ الشَّيَاطِينِ السَّمْعَ حَتَّى يَلْبَسُوا عَلَى النَّاسِ أَفْعَالَهُمْ ، وَيُبَيِّنُ كَذِبَ الْكُهَّانِ ، فَلَا يَجُوزُ الْأَعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ فِيمَا يُخْبِرُونَ بِهِ . وَكُلُّ مَا يَتَعَاطَاهُ الْمُنْجَمُونَ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ عِلْمًا يَقِينًا ، إِنَّمَا هُوَ رَجْمٌ بِظَنٍّ ، وَتَخْمِينٌ بِوَهْمٍ ، الْإِصَابَةُ فِيهِ نَادِرَةٌ ، وَالْخَطَأُ وَالْكَذِبُ فِيهِمْ غَالِبٌ .

١٥ _ الْغَيْبَةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [الْحُجُرَاتُ : ١٢] .

وَلَا يَذْكُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي غَيْبَتِهِ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ وَيُحْزِنُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ ذَلِكَ الشَّيْءُ . وَالْغَيْبَةُ هِيَ الذِّكْرُ بِالْغَيْبِ فِي ظَهْرِ الْغَيْبِ . وَفِي الْآيَةِ نَهْيٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حُرْمَتِهَا .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٤٤) : ((وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ ، يَقُولُ : لَا يَتَنَاوَلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِظَهْرِ الْغَيْبِ بِمَا يَسُوؤُهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٠٠١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ ؟)) ، قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ((ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)) . قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ ؟ . قَالَ : ((إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ)) .

بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ مَعْنَى الْغَيْبَةِ ، وَهِيَ ذِكْرُ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ بِمَا لَوْ سَمِعَهُ لَكَرِهَهُ . وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ مِنَ الْعَيْبِ وَالْمَنْقِصَةِ ، فَهَذِهِ غَيْبَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ ، فَقَدْ بَهْتَهُ ، أَي : قُلْتَ عَلَيْهِ

البُهتان ، وهو كذب عظيم يُبْهَت فيه مَنْ يُقَال في حَقِّه . والحديثُ يَنْهَى عن الغيبة والبُهتان ، والغيبة مُحَرَّمَةٌ بالإجماع، ولكن تُباح لغرض شرعيّ ، وهذه حالة استثنائية .

إنَّ الغيبة هي التكلُّم عن إنسان حال غيابه بما يكرهه لَوْ سَمِعَهُ ، وكان ما يقوله صِدْقًا (التكلُّم بما فيه) ، فإن كان ما يقوله كَذِبًا كَانَ بُهْتَانًا (التكلُّم بما ليس فيه) ، وكلاهما من الكبائر .

والغيبة من أسوأ الذُّنُوب ، وأكثرها انتشارًا في الناس ، ولا يَنْجُو منها إلا القليل من الناس . وعِبَارَةٌ " ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ " عامَّةٌ وشاملةٌ لكلِّ شيءٍ يكرهه الإنسان .

وقد يكون المسلم صَادِقًا في وَصْفِ أخيه ، لكنه يُعْتَبَرُ مُغْتَابًا إذا ذَكَرَهُ بما يكرهه . وإغلاقُ باب الغيبة من شأنه بناء مجتمع متماسك لا مكان للحقد فيه . وعلى المرء أن يشتغل بإصلاح غيوبه قبل أن ينظر إلى غيوب الناس، وأن يكون مُدَافِعًا عَنِ عِرْضِ أخيه المسلم ضد الكلام القبيح، والحاضرون في مجلس الغيبة كُلُّهم آثمون ، سِوَاءِ المُتَحَدِّثِ والمُسْتَمِعِ .

وتُباح الغيبة ضمن شروط مُحدَّدة شرعًا ، لا مجال للتَّحَايِلِ عليها، أو التلاعب بها ، فيجوز للمرء أن يتظلم إلى الحاكم أو القاضي ، ويذكر مظلّمته واسم الظالم ، ويُعدِّد الأفعال القبيحة التي قام بها ضده ، وذلك من أجل تحصيل حقوقه ، وردع الظالم ، وإشاعة العدل في المجتمع . وتُباح الغيبة ضمن منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا رأى المرء مُنْكَرًا يَصْدُرُ من شخص ، فعليه تغيير ذلك ، أو يلجأ إلى مَنْ يملك القُدْرَةَ ، فيُخْبِرُهُ بالفِعْلِ المُنْكَرِ وصاحبه ، من أجل رُدِّعِهِ ، وإعادته إلى طريق الصواب .

والغيبة مسموحة في مجال الاستفتاء . فعندما يذهب الإنسان إلى المُفتي ، فله أن يقول : ظَلَمْتَنِي فُلَانٌ ، أَوْ سَرَقَنِي ، أَوْ اعْتَدَى عَلَيَّ . ولا بأس بتعيين الشخص باسمه ، وذُكْرُ ما قام به من أعمال سيئة . ومن المجالات التي يُسَمَحُ فيها بالغيبة ، بل تُصَبِحُ الغيبة واجبًا، مجال تحذير المسلمين من الأخطار والشُرُورِ . فأَيُّ شخصٍ يقوم بعمل قبيح ، فينبغي تحذير المسلمين منه ، ومن أفعاله ، خَوْفًا من إفسادهم أَوْ إلحاق الضَّرَرِ بهم . كما أنَّ المُجَاهِرَ بالفِسْقِ ، والذي يَقُومُ بالآثام جَهَارًا نَهَارًا ، تجوز غيبته بما يُجَاهِرُ به فقط . وهناك أشخاص لا يُمكن معرفتهم إلا بالألقاب ، سيئةً، مثل: الأحول، الأعرج، القصير، فيجوز استخدام هذه الألقاب للتعريف بهم لا الإساءة لهم، أو انتقاصهم ، أو تشويه سمعتهم . وفي هذه الحالة تجوز الغيبة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٤٢ و ١٤٣) : ((يُقَالُ: بَهْتَهُ، بفتح الهاء مُخَفَّفَةً، قُلْتُ فِيهِ البُهْتَانَ، وهو الباطل. والغيبة ذُكْرُ الإنسان في غيبته بما يكرهه، وأصل البُهْتِ أن

يُقَالُ له الباطل في وَجْهه، وهُمَا حَرَامَان، لكن تُبَاحُ الغِيبَةِ لغرض شرعيّ ، وذلك لِسِتَّةِ أسباب ،
أحدها: التَّظَلُّمُ ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السُّلْطَان والقاضي وغيرهما ، مِمَّنْ له ولاية أو قُدْرَة
على إنصافه من ظالمه ، فيقول : ظَلَمَنِي فُلَان ، أو فَعَلَ بي كَذَا . الثاني : الاستغاثة على تغيير
المُنْكَر ، ورد العاصي إلى الصَّوَاب ، فيقول لِمَنْ يَرِجُو قُدْرَتَه : فُلَان يَعْمل كَذَا، فَارْجُره عنه ، ونَحْو
ذلك . الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمُفتي : ظَلَمَنِي فُلَان أو أَبِي أو أَخِي أو زَوْجِي بكذا ، فهل له
ذلك ؟ ، وما طريقي في الخِلاص منه ودَفْع ظَلْمه عَنِّي ؟ ، ونَحْو ذلك، فهذا جائز للحاجة،
والأجود أن يَقُول في رَجُل أو زَوْج أو والد وولد كان من أمره كذا ، ومع ذلك فالتعيين جائز
الرابع : تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه ، منها جرح المجروحين من الرِّوَاة والشُّهُود
والمُصَنِّفِينَ ، وذلك جائز بالإجماع ، بل واجب صَوْنًا للشريعة ، ومنها الإخبار بَعِيْه عند المُشَاوَرَة
في مُوَاصلته ، ومنها إذا رأيت مَنْ يَشْتري شيئًا مَعِيًّا أو عَبْدًا سَارِقًا أو زَانِيًّا أو شَارِبًا أو نَحْو ذلك ،
تذكره للمُشْتري إذا لم يَعْلَمْه ، نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد . ومنها إذا رأيت مُتَّفَقًا يتردد
إلى فاسق أو مُبتدع يأخذ عنه عِلْمًا ، وَخَفْت عليه ضَرَرَه ، فعليك نصيحته ببيان حاله قاصدًا
النصيحة ، ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وَجْهها ، لعدم أهليته ، أو لفسقه ، فَيذكره لِمَنْ
له عليه ولاية ليستدل به على حاله ، فلا يَغْتَر به ، ويلزم الاستقامة . الخامس : أن يكون مُجَاهِرًا
بفسقه أو بدعته ، كالحَمْر ، ومُصَادَرَة الناس ، وَجَبَاية المُكُوس (الصَّرَائِب التي يأخذها الوَلَاة) ،
وتَوَلَّى الأمور الباطلة ، فيجوز ذِكره بما يُجَاهِر به ، ولا يَجُوز بغيره إلا بسبب آخر . السادس :
التعريف ، فإذا كان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونَحْوها
جَارَ تعريفه به ، وَيَحْرَمُ ذِكره به تَنْقِصًا ، وَلَوْ أَمَكَنَ التعريف بغيره كان أَوْلَى ، واللَّهُ أعلم)) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٦ / ٥٣ / ٥٤) : ((قَوْلُه : (قال: قيل: يا رسول الله
ما الغيبة ؟) بكسر الغين المُعْجَمَة (قال: ذِكْرُكَ) أي : أَيُّهَا المُخَاطَبُ خَطَابًا عَامًّا (أخاك) أي :
المُسلِم (بِمَا يَكْرَهُ) أي: بِمَا لَوْ سَمِعَهُ لَكَرِهَهُ . قال التَّوَوِي : اعْلَمْ أَنَّ الغِيبَةَ من أقبح القبائح ،
وأكثرها انتشارًا في الناس ، حَتَّى لا يَسَلَمَ منها إلا القليل من الناس ، وَذِكْرُكَ أخاك بما يَكْرَهُ عام ،
سَوَاءً كان في بَدَنه ، أو دِينه ، أو دُنْيَاه ، أو نَفْسِه ، أو خَلْقِه ، أو مالِه ، أو ولده ، أو والده ، أو
رَوْجِه ، أو خادمه ، أو تَوْبِه ، أو مَشْيِه ، وحركته ، وبشاشته ، وعُبُوسته ، وطَلَاقته ، أو غير ذلك
مِمَّا يَتعلَّق به ، سَوَاءً ذَكَرته بلفظك ، أو كتابك ، أو رَمَزْت ، أو أَشْرَنت إليه بِعَيْنِكَ ، أو يَدِكَ ، أو
رَأْسِكَ ، ونَحْو ذلك ، وضابطه أن كُلَّ ما أَفْهَمْتَ به غَيْرَكَ نَقْصَانًا مُسَلِمًا ، فهو غيبة مُحْرَمَة ، ومن

ذلك المُحَاكَاةُ بِأَنْ يَمْشِيَ مُتَعَرِّجًا ، أَوْ مُطَاطًا ، أَوْ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْهَيْئَاتِ ، مُرِيدًا حِكَايَةَ هَيْئَةِ مَنْ يَنْقُصُهُ بِذَلِكَ (قَالَ : أَرَأَيْتَ) أَي : أَخْبِرْنِي (إِنْ كَانَ فِيهِ) أَي فِي الْأَخ (مَا أَقُولُ) مِنْ الْمَنْقُصَةِ ، وَالْمَعْنَى : أَيْكُونُ حِينَئِذٍ ذَكَرَهُ بِهَا أَيْضًا غَيْبَةً كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ عُمُومِ ذِكْرِهِ بِمَا يَكْرَهُ (قَالَ : إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ) أَي مِنَ الْعَيْبِ (فَقَدْ اعْتَبْتَهُ) أَي : لَا مَعْنَى لِلْغَيْبَةِ إِلَّا هَذَا ، وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْمَنْقُصَةُ فِيهِ (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ) بَفَتْحِ الْهَاءِ الْمُخَفَّفَةِ وَتَشْدِيدِ النَّوْءِ ، عَلَى الْخِطَابِ ، أَي : قُلْتَ عَلَيْهِ الْبُهْتَانَ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَظِيمٌ يُبْهَتُ فِيهِ مَنْ يُقَالُ فِي حَقِّهِ) .

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ، تَصْوِيرٌ لِشِنَاعَةِ الْغَيْبَةِ وَقُبْحِهَا . هَلْ يَحِبُّ الْوَاحِدُ مِنْكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ وَهُوَ مَيْتٌ ؟ ، ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ ، إِنَّ اغْتِيَابَهُ فِي حَيَاتِهِ مِثْلَ أَكْلِ لَحْمِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، لَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ ، فَكَمَا تَكْرَهُونَ أَكْلَ لَحْمِهِ وَهُوَ مَيْتٌ طَبْعًا ، فَكِرَهُوا الْغَيْبَةَ (ذَكَرَهُ بِسُوءٍ) شَرْعًا . وَهَذَا تَأْكِيدٌ لِتَحْرِيمِ الْغَيْبَةِ ، لِأَنَّ أَكْلَ لَحْمِ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، وَالنَّفُوسُ لَا تَقْبَلُهُ وَلَا تَسْتَسِيغُهُ طَبْعًا ، فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْغَيْبَةُ بِمَنْزِلَتِهِ فِي الْقُبْحِ وَالشَّنَاعَةِ . وَكَمَا تَكْرَهُونَ أَكْلَ لَحْمِ الْمُسْلِمِ وَهُوَ مَيْتٌ ، فَلَا تَدْكُرُوهُ بِسُوءٍ وَهُوَ غَائِبٌ . وَمَنْ انْتَقَصَ مُسْلِمًا فِي حُضُورِهِ كَأَنَّمَا أَكَلَ لَحْمَهُ حَيًّا ، وَمَنْ ذَكَرَهُ بِسُوءٍ فِي غِيَابِهِ كَأَنَّمَا أَكَلَ لَحْمَهُ مَيْتًا .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦ / ٢٨٢) : ((مِثْلُ اللَّهِ الْغَيْبَةُ بِأَكْلِ الْمَيْتَةِ ، لِأَنَّ الْمَيْتَ لَا يَعْلَمُ بِأَكْلِ لَحْمِهِ ، كَمَا أَنَّ الْحَيَّ لَا يَعْلَمُ بِغَيْبَةِ مَنْ اغْتَابَهُ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّمَا ضَرَبَ اللَّهُ هَذَا الْمَثَلَ لِلْغَيْبَةِ ، لِأَنَّ أَكْلَ لَحْمِ الْمَيْتِ حَرَامٌ مُسْتَقْدَرٌ ، وَكَذَا الْغَيْبَةُ حَرَامٌ فِي الدِّينِ ، وَقَبِيحٌ فِي النَّفُوسِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كَمَا يَمْتَنَعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَمْتَنَعَ مِنْ غَيْبَتِهِ حَيًّا . وَاسْتُعْمِلَ أَكْلُ اللَّحْمِ مَكَانَ الْغَيْبَةِ ، لِأَنَّ عَادَةَ الْعَرَبِ بِذَلِكَ جَارِيَةٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا)) .

وَعَنْ أَبِي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبَهُ ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)) ١٩٣ .

١٩٣ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٢ / ٦٨٦) . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ فِي تَخْرِيجِ الْإِحْيَاءِ (٢ / ١٥٩) : ((أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرَزَةَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، وَلِلتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمرٍ وَحَسَنَهُ)) .

أَمَرَ الْإِسْلَامُ بِالتَّحَلِّيِّ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَحِفْظِ الْأَعْرَاضِ مِنَ الْإِنْتِهَاكِ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا ، لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى نَشْرِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . وَالْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ ، وَصَدَقَهُ اللِّسَانُ ، وَظَهَرَ عَلَى الْجَوَارِحِ ، وَالْمُعْتَابُ مَوْمن بِلِسَانِهِ ، وَلَمْ يَسْتَقِرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ ، إِذْ إِنَّ اسْتِقْرَارَ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ يَمْنَعُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ ، وَمِنْ ضَمْنِهَا الْغِيْبَةُ ، وَهِيَ مِنَ الْكِبَائِرِ .

لَا تَذْكُرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي غَيْبَتِهِمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ وَيُحْزِنُهُمْ ، وَلَا تَبْحَثُوا عَنْ أَخْطَائِهِمْ وَسَقَطَاتِهِمْ ، وَلَا تَكْشِفُوا مَا يَسْتُرُونَهُ عَنِ النَّاسِ مِنَ الْغُيُوبِ وَالْقَبَائِحِ ، وَمَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَعُيُوبَهُمْ ، يُسَخِّرِ اللَّهُ لَهُ مَنْ يَتَّبِعُ عَوْرَتَهُ وَعَيْبَهُ ، وَيَفْضَحُهُ ، حَتَّى لَوْ كَانَ مُخْتَبِئًا فِي بَيْتِهِ ، وَشَاعِرًا بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَبَعِيدًا عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ . وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

وَالْحَدِيثُ يُحَدِّثُ مِنَ الْغِيْبَةِ وَتَتَّبِعُ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ . وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِي الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى خَطَرَةِ كَشْفِ الْعَوْرَاتِ وَالْغُيُوبِ ، وَنَشْرِ الْفَاحِشَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَدَمِ الدِّفَاعِ عَنْ أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ . وَهَذَا الْأَمْرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمُسْلِمِ الْمُتَلْتَمِزِ بِأَحْكَامِ الدِّينِ ، أَمَّا الْفَاسِقُ فَيَجِبُ الْحَدْرُ مِنْهُ ، وَالتَّحْذِيرُ عَنْهُ .

وَفِي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٣ / ١٥٣) : ((يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ)) فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ غِيْبَةَ الْمُسْلِمِ مِنْ شِعَارِ الْمُنَافِقِ لَا الْمُؤْمِنِ (وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ) أَي : لَا تَجَسَّسُوا عُيُوبَهُمْ وَمَسَاوِيَهُمْ (فَإِنَّهُ) أَي الشَّانُ (يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ) ذَكَرَهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ ، أَي : يَكْشِفُ عُيُوبَهُ ، وَهَذَا فِي الْآخِرَةِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : يُجَازِيهِ بِسُوءِ صَنِيعِهِ (يَفْضَحُهُ) مِنْ فَضَحَ كَمَنَعَ ، أَي : يَكْشِفُ مَسَاوِيَهُ (فِي بَيْتِهِ) أَي : وَلَوْ كَانَ فِي بَيْتِهِ مَخْفِيًّا مِنَ النَّاسِ)) .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ . وَخَافُوا اللَّهَ ، وَاحْذَرُوا عَذَابَهُ الشَّدِيدَ ، بِامْتِنَالِ أَوَامِرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَثِيرُ التَّوْبَةِ ، يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ ، يَرْحَمُ مَنْ رَجَعَ إِلَيْهِ . وَهَذِهِ دَعْوَةٌ إِلَهِيَّةٌ كَرِيمَةٌ إِلَى التَّوْبَةِ قُوْرًا بِلَا تَأْخِيرٍ ، وَعَدَمِ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ . وَاللَّهُ يَقْبَلُ كُلَّ تَائِبٍ ، مَهْمَا كَانَتْ ذُنُوبُهُ هَائِلَةً وَمَعَاصِيَهُ كَثِيرَةً ، وَيَجْعَلُهُ كَمَنْ لَمْ يُذْنِبْ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٣٩٣) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : فَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا النَّاسُ ، فَخَافُوا عَقُوبَتَهُ بِانْتِهَائِكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، مِنْ ظَنِّ أَحَدِكُمْ بِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ ظَنًّا سُوْءًا ، وَتَتَّبِعُ عَوْرَاتِهِ ، وَالتَّجَسُّسَ عَمَّا سَتَرَ عَنْهُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَاعْتِيَابَهُ بِمَا يَكْرَهُهُ ، تُرِيدُونَ بِهِ شَيْئَهُ وَعَيْبَهُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَهَاكُمْ عَنْهَا رَبُّكُمْ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ ، يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ رَاجِعٌ لِعَبْدِهِ إِلَى مَا يُحِبُّهُ ، إِذَا رَجَعَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ إِلَى مَا يُحِبُّهُ مِنْهُ ، رَحِيمٌ بِهِ بِأَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى ذَنْبٍ أَذْنَبَهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ مِنْهُ)) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [التَّوْبَةُ : ٤٧] .

هذه تسليية للنبي ﷺ وللمؤمنين عن تَخَلُّفِ الْمُنَافِقِينَ . وَالْخَبَالُ : الفساد والتَّيْمِيَّة وإيقاع الاختلاف والإشاعات والأخبار الكاذبة . والتَّيْمِيَّةُ : نقلُ كَلامِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الْإِفْسَادِ ، وهي من كِبائرِ الدُّنُوبِ .

لَوْ خَرَجَ الْمُنَافِقُونَ مَعَكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا شَرًّا وَفَسَادًا بِتَخْذِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا فُسْدًا عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ، لِأَنَّهُمْ خَائِفُونَ فَاشِلُونَ ، وَلَا سُرْعُوا بِالتَّيْمِيَّةِ فِي إِفْسَادِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ . وَالْإِيضَاعُ : سُرْعَةُ السَّيْرِ . وَقَدْ شَبَّهَ سُرْعَةَ إِفْسَادِهِمْ ذَاتِ الْبَيْنِ بِالتَّيْمِيَّةِ بِسُرْعَةِ سَيْرِ الرَّكَّابِ . يَطْلُبُونَ لَكُمْ الْفِتْنَةَ بِالْقَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَكُمْ وَتَفْرِيقِ كَلِمَتِكُمْ حَتَّى تَقْعُوا فِي التَّرَاجُعِ . يُرِيدُونَ أَنْ يَفْتِنُوكُمْ بِإِيقَاعِ الْخِلَافِ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، أَوْ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِكُمْ . وَفِيكُمْ ضَعْفَاءُ قُلُوبٍ يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ وَيُطِيعُونَهُمْ ، أَوْ نَمَامُونَ يَسْمَعُونَ حَدِيثَكُمْ لِلنَّقْلِ إِلَيْهِمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنَافِقِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ خَلْقِهِ وَعَلَانِيَتِهِمْ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِمَا يَخْدُثُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَوْ خَرَجُوا مَعَكُمْ ، فَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةَ أَنْ لَا يَخْرُجُوا مَعَكُمْ ، وَكَرِهَ انْبِعَاطَهُمْ مَعَكُمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٧٥) : ((بَيْنَ تَعَالَى وَجْهَ كَرَاهِيَّتِهِ لِخُرُوجِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، أَي : لِأَنَّهُمْ جُبْنَاءُ مَخْذُولُونَ ، ﴿ وَلَا أُضْعَفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أَي : وَلَا سُرْعُوا السَّيْرَ وَالْمَشْيَ بَيْنَكُمْ بِالتَّيْمِيَّةِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْفِتْنَةِ ﴾ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ، أَي : مُطِيعُونَ لَهُمْ ، وَمُسْتَحْسِنُونَ لِحَدِيثِهِمْ وَكَلَامِهِمْ ، يَسْتَنْصِحُونَهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ حَالَهُمْ ، فَيُؤَدِّي إِلَى وَقُوعِ شَرِّ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَفَسَادِ كَبِيرٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ وَابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ، أَي : عُيُونَ يَسْمَعُونَ لَهُمُ الْأَخْبَارَ وَيَنْقُلُونَهَا إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا لَا يَبْقَى لَهُ اخْتِصَاصٌ بِخُرُوجِهِمْ مَعَهُمْ ، بَلْ هَذَا عَامٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرَ فِي الْمُنَاسَبَةِ بِالسِّيَاقِ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : كَانَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا فِيمَا بَلَغَنِي مِنَ ذَوِي الشَّرْفِ ، مِنْهُمْ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ، وَالْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا فِي قَوْمِهِمْ ، فَتَبَّطَهُمُ اللَّهُ لِعَلِمِهِ بِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ فَيُفْسِدُوا عَلَيْهِ جُنْدَهُ ، وَكَانَ فِي جُنْدِهِ قَوْمٌ أَهْلُ مَحَبَّةٍ لَهُمْ وَطَاعَةٍ فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ لِشَرَفِهِمْ فِيهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عِلْمِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ، فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ ، وَمَا يَكُونُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، فَأَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ كَيْفَ يَكُونُ لَوْ خَرَجُوا ، وَمَعَ هَذَا مَا خَرَجُوا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٤٧ و ٤٤٨) : ((قال الرَّجَّاحُ : ثُمَّ أَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَ كَرِهَ خُرُوجَهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، وَالْخَبَالُ : الْفَسَادُ وَذَهَابُ الشَّيْءِ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْخَبَالُ : الشَّرُّ . فَإِنْ قِيلَ : كَأَنَّ الصَّحَابَةَ كَانَ فِيهَا خَبَالٌ حَتَّى قِيلَ : ﴿ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ ، وَالْمَعْنَى : مَا زَادُوكُمْ قُوَّةً ، لَكِنْ أَوْفَعُوا بَيْنَكُمْ خَبَالًا . وَقِيلَ : سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا خَرَجَ ، ضَرَبَ عَسْكَرَهُ عَلَى ثِيَابِ الْوَدَاعِ ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي فَضْرَبَ عَسْكَرَهُ عَلَى أَسْفَلِ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَخَلَّفَ ابْنُ أَبِي فَيْمَنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُضِعُوا خِلَالَكُمْ ﴾ قَالَ الْفَرَاءُ : الْإِيضَاعُ : السَّيْرُ بَيْنَ الْقَوْمِ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لِأَسْرَعُوا بَيْنَكُمْ ، وَأَصْلُهُ مِنَ التَّخَلُّلِ . قَالَ الرَّجَّاحُ : يُقَالُ : أَوْضَعْتَ فِي السَّيْرِ : أَسْرَعْتَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ ﴾ ، قَالَ الْفَرَاءُ : يَبْغُونَهَا لَكُمْ . وَفِي الْفِتْنَةِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا الْكُفْرُ ، قَالَهُ الصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلُ ابْنِ قُتَيْبَةَ . وَالثَّانِي تَفْرِيقُ الْجَمَاعَةِ وَشَتَاتِ الْكَلِمَةِ . قَالَ الْحَسَنُ : لِأَوْضِعُوا خِلَالَكُمْ بِالتَّمِيمَةِ لِإِفْسَادِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا عُيُونَ يَنْقُلُونَ إِلَيْهِمْ أَخْبَارَكُمْ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّانِي مَنْ يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَيُطِيعُهُمْ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ إِسْحَاقَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [الْقَلَمُ : ١١] . ذَمَّ اللَّهُ الْمُغْتَابَ الَّذِي يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ بِالطَّعْنِ وَالْعَيْبِ ، الَّذِي يَمْشِي بِالتَّمِيمَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَنْقُلُ حَدِيثَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لِإِفْسَادِ بَيْنِهِمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٣٣٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْمُغْتَابُ ، وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : هُوَ الْعِيَابُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ، أَي : يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ بِالتَّمِيمَةِ ، وَهُوَ نَقْلُ الْكَلَامِ السَّيِّئِ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ لِيُفْسِدَ بَيْنَهُمْ)) .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٠١) أَنَّ حَدِيثَهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ)) .

النَّمَامُ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ حَدِيثَ شَخْصٍ ، فَيَنْقُلُهُ إِلَى غَيْرِهِ ، بِقَصْدِ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمَا ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَرَامٌ ، فَهُوَ فَاسِقٌ عَاصٍ ، لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَتَّى يُعَاقَبَ عَلَى جَرِيمَتِهِ هَذِهِ بِالنَّارِ ، إِلَّا أَنْ يَغْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَوْ يَتُوبَ مِنْ جَرِيمَتِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّمِيمَةَ ظَاهِرَةٌ عُذْوَانِيَّةٌ خَطِيرَةٌ تُفَكِّكُ

المُجْتَمَع ، وَتَقَطَّعَ الْعِلَاقَاتِ ، وَهِيَ وَلِيدَةُ الْحَقِّدِ وَالْحَسَدِ ، وَلِهَذَا كَانَ التَّمَامُ بَغِيضًا إِلَى نُفُوسِ الْعُقَلَاءِ ، مَنْبُودًا عِنْدَهُمْ ، لَا يَرْتَاحُونَ إِلَيْهِ . وَالحَدِيثُ يُبَيِّنُ أَنَّ التَّمِيمَةَ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَمُحَرَّمَةٌ تَحْرِيمًا غَلِيظًا ، لِأَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ لَا يَتَرْتَّبُ إِلَّا عَلَى ارْتِكَابِ كَبِيرَةٍ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ١١٢ و ١١٣) : ((قال العلماء : التَّمِيمَةُ نقل كلام الناس بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ عَلَى جِهَةِ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ . قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْإِحْيَاءِ : أَعْلَمُ أَنَّ التَّمِيمَةَ إِنَّمَا تُطَلَّقُ فِي الْأَكْثَرِ عَلَى مَنْ يُنْمُ قَوْلَ الْغَيْرِ إِلَى الْمَقُولِ فِيهِ ، كَمَا تَقُولُ : فَلَانَ يَتَكَلَّمُ فِيكَ بِكَذَا . قال : وليست التَّمِيمَةُ مَخْصُوصَةٌ بِهَذَا ، بَلْ حُدَّ التَّمِيمَةُ كَشْفُ مَا يُكْرَهُ كَشْفُهُ ، سَوَاءً كَرِهَهُ الْمَنْقُولُ عَنْهُ ، أَوْ الْمَنْقُولُ إِلَيْهِ ، أَوْ ثَالِثٌ ، وَسَوَاءً كَانَ الْكَشْفُ بِالْكِتَابَةِ أَوْ بِالرَّمْزِ أَوْ بِالْإِيْمَاءِ ، فَحَقِيقَةُ التَّمِيمَةِ إِفْشَاءُ السِّرِّ ، وَهَتَكَ السِّتْرِ عَمَّا يُكْرَهُ كَشْفُهُ ، فَلَوْ رَأَى يُخْفِي مَا لَا لِنَفْسِهِ ، فَذَكَرَهُ ، فَهُوَ نَمِيمَةٌ . قال : وَكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إِلَيْهِ نَمِيمَةٌ وَقِيلَ لَهُ : فَلَانَ يَقُولُ فِيكَ أَوْ يَفْعَلُ فِيكَ كَذَا ، فَعَلَيْهِ سِتَّةُ أُمُورٍ : الْأَوَّلُ أَنْ لَا يُصَدِّقَهُ ، لِأَنَّ التَّمَامَ فَاسِقٌ ، الثَّانِي أَنْ يَنْهَاهُ عَنِ ذَلِكَ وَيَنْصَحَهُ وَيُقَبِّحُ لَهُ فِعْلَهُ ، الثَّالِثُ أَنْ يُبْغِضَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، الرَّابِعُ أَنْ لَا يَظُنَّ بِأَخِيهِ الْغَائِبِ السُّوءَ ، الْخَامِسُ أَنْ لَا يَحْمِلَهُ مَا حَكَى لَهُ عَلَى التَّجَسُّسِ وَالْبَحْثِ عَنِ ذَلِكَ ، السَّادِسُ أَنْ لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا نَهَى التَّمَامَ عَنْهُ ، فَلَا يَحْكِي نَمِيمَتَهُ عَنْهُ ، فيقول : فَلَانَ حَكَى كَذَا فيصير به نَمَامًا ، وَيَكُونُ آتِيًا مَا نَهَى عَنْهُ ، هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَكُلُّ هَذَا الْمَذْكُورِ فِي التَّمِيمَةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَصْلِحَةٌ شَرْعِيَّةٌ ، فَإِنْ دَعَتْ حَاجَةً إِلَيْهَا فَلَا مَنَعَ مِنْهَا ، وَذَلِكَ كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُ أَنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ الْقَتْلَ بِهِ أَوْ بِأَهْلِهِ أَوْ بِمَالِهِ ، أَوْ أَخْبَرَ الْإِمَامَ أَوْ مَنْ لَهُ وِلَايَةٌ أَنَّ إِنْسَانًا يَفْعَلُ كَذَا ، وَيَسْعَى بِمَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ ، وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الْوِلَايَةِ الْكَشْفُ عَنِ ذَلِكَ وَإِزَالَتَهُ ، فَكُلُّ هَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ ، وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ وَاجِبًا ، وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبًّا ، عَلَى حَسَبِ الْمَوَاطِنِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

١٧_ البُهتان

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

[النِّسَاءُ : ١١٢] .

وَمَنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا صَغِيرًا أَوْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ، ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ ذَنْبًا كَبِيرًا أَوْ مَقْصُودٍ . أَوْ : الْخَطِيئَةُ ذَنْبٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ، وَالْإِثْمُ ذَنْبٌ فِي مَظَالِمِ النَّاسِ . ثُمَّ يَسْبُ إِثْمَهُ إِلَى شَخْصٍ بَرِيءٍ ، وَيَتَّهَمُهُ بِهِ ، فَقَدْ تَحَمَّلَ كَذِبًا عَظِيمًا بِرَمِيهِ الْبَرِيءِ وَذَنْبًا وَاضِحًا . وَالذُّنُوبُ ثَقُلَ فِيهَا كَالْمَحْمُولَاتِ .

وقال النَّسْفِي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٤٧ و ٢٤٨) : ((هَذَا لِأَنَّهُ بِكَسْبِ الْإِثْمِ آثِمٌ ، وَبِرَمِي الْبَرِيءِ بَاهِتٌ ، فَهُوَ جَامِعٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَالْبُهْتَانِ كَذِبٌ يَبْهَتُ مَنْ قِيلَ عَلَيْهِ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ)) .
 وَقَالَ الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٧٧٤) : ((﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ﴾ ، قِيلَ : هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، كَرَّرَ لِلتَّأْكِيدِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : إِنَّ الْخَطِيئَةَ تَكُونُ عَنْ عَمْدٍ ، وَعَنْ غَيْرِ عَمْدٍ ، وَالْإِثْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ . وَقِيلَ : الْخَطِيئَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَالْإِثْمُ الْكَبِيرَةُ . قَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِينًا ﴾ تَوْحِيدَ الصَّمِيرِ لِكَوْنِ الْعَطْفِ بَأْوٍ ، أَوْ لِغَلْبِ الْإِثْمِ عَلَى الْخَطِيئَةِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْكَسْبِ . قَوْلُهُ : ﴿ فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ ، لَمَّا كَانَتِ الذُّنُوبُ لَازِمَةً لِفَاعِلِهَا ، كَانَتْ كَالثَّقَلِ الَّذِي يُحْمَلُ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ٥٨] ١٩٤ .

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ الْمُقَرَّبِينَ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِينَ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بِأَيِّ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الْأَذَى ، قَوْلًا أَوْ فِعْلًا ، بِغَيْرِ ذَنْبٍ ارْتَكَبُوهُ ، وَلَا جَرِيمَةَ اقْتَرَفُوهَا ، وَلَا جِنَايَةَ فَعَلُوهَا ، فَقَدْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ظَلْمًا كَبِيرًا ، وَحَمَلُوا كَذِبًا عَظِيمًا ، وَإِثْمًا ظَاهِرًا .
 وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ أَطْلَقَ إِيْذَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَقَيَّدَ إِيْذَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ : ﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ ، لِأَنَّ إِيْذَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَاطِلٌ وَبِدُونِ وَجْهِ حَقِّ دَائِمًا وَأَبَدًا ، أَمَّا إِيْذَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، فَمِنْهُ حَقٌّ كَالْحَدِّ وَالتَّعْزِيرِ ، وَمِنْهُ بَاطِلٌ . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ غَيْرَ مَعْصُومِينَ وَلَا كَامِلِينَ .

١٩٤ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦ / ٤٢١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَأَى جَارِيَةً مُتَبَرِّجَةً ، فَضَرَبَهَا ، وَكَفَّ مَا رَأَى مِنْ زِينَتِهَا ، فَذَهَبَتْ إِلَى أَهْلِهَا تَشْكُو ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ فَأَذَوْهُ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الرُّنَاةِ الَّذِينَ كَانُوا يَمْشُونَ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ يَتَّبِعُونَ النِّسَاءَ إِذَا بَرَزْنَ بِاللَّيْلِ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِنَّ ، فَيَرَوْنَ الْمَرْأَةَ فَيَدْنُونَ مِنْهَا فَيَغْمِزُونَهَا ، وَإِنَّمَا كَانُوا يُؤْذُونَ الْإِمَاءَ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ تَكُنِ الْأُمَّةُ تُعْرِفُ مِنَ الْحُرَّةِ فَشَكَّوْنَ ذَلِكَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ الشُّدِّي . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَنْ تَكَلَّمَ فِي عَائِشَةَ وَصَفَوْنَ بِنِ الْمَعْطَلِّ بِالْإِفْكَ ، قَالَهُ الضُّحَّاكُ . وَالرَّابِعُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمَنَافِقِينَ آذَوْا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . قَالَ الْمَفْسِّرُونَ : وَمَعْنَى الْآيَةِ : يَرْمُونَكَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٣٠) : ((ثُمَّ لَمَّا فَرَعَ مِنَ الدَّمِ لِمَنْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، ذَكَرَ الأَذِيَّةَ لِصَالِحِي عِبَادِهِ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ بوجه من وجوه الأذى ، مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، وَمَعْنَى : ﴿ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِسَبَبِ فِعْلِهِمْ ، يُوجِبُ عَلَيْهِمُ الأَذِيَّةَ ، وَيَسْتَحِقُّونَهَا بِهِ . فَأَمَّا الأَذِيَّةُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ بِمَا كَسَبَهُ ، مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهِ حَدًّا أَوْ تَعْزِيرًا أَوْ نَحْوَهُمَا ، فَذَلِكَ حَقٌّ أَثْبَتَهُ الشَّرْعُ ، وَأَمَرْنَا اللَّهَ بِهِ ، وَنَدَبْنَا إِلَيْهِ ، وَهَكَذَا إِذَا وَقَعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْإِبْتِدَاءُ بِشْتَمِ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ أَوْ ضُرِّ ، فَإِنَّ الْقِصَاصَ مِنَ الْفَاعِلِ لَيْسَ مِنَ الأَذِيَّةِ الْمُحَرَّمَةِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ ، مَا لَمْ يُجَاوِزْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّا لَهُؤْلَاءِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ، فَقَالَ : ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ ، أَي : ظَاهِرًا وَاضِحًا لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ مِنَ الْبُهْتَانِ وَالْإِثْمِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٦٨٣) : ((وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ ، أَي : يَنْسُبُونَ إِلَيْهِمْ مَا هُمْ بِرَأَى مِنْهُ لَمْ يَعْمَلُوهُ وَلَمْ يَفْعَلُوهُ ، ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ . وَهَذَا هُوَ الْبُهْتَانُ الْكَبِيرُ أَنْ يُحْكِيَ أَوْ يُنْقَلُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْعَيْبِ وَالتَّنْقِصِ لَهُمْ ، وَمِنْ أَكْثَرِ مَنْ يَدْخُلُ فِي هَذَا الْوَعِيدِ الْكُفْرَةَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ الرَّافِضَةَ الَّذِينَ يَتَنَقَّضُونَ الصَّحَابَةَ ، وَيَعْيُونَهُمْ بِمَا قَدْ بَرَّاهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَيَصِفُونَهُمْ بِنَقِيضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدْحِهِمْ ، وَهؤْلَاءِ الْجَهْلَةَ الْأَغْيَاءَ يَسُبُّونَهُمْ وَيَتَقَصُّونَهُمْ ، وَيَذْكُرُونَ عَنْهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَا فَعَلُوهُ أَبَدًا ، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْكَسِرُ الْقُلُوبِ ، يَذْمُونَ الْمَمْدُوحِينَ ، وَيَمْدَحُونَ الْمَذْمُومِينَ)) .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : ((تَذْرُونَ أَرْزَى الرِّئَا عِنْدَ اللَّهِ ؟)) ، قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : ((فَإِنَّ أَرْزَى الرِّئَا عِنْدَ اللَّهِ اسْتِحْلَالُ عِرْضِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) ، ثُمَّ قَرَأَ : ((﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾)) ١٩٥ .

الإسلام دين الأخلاق الحسنة ، وقد أمر بحفظ الأعراض من أن تنتهك بالقول أو الفعل ، لأنه مما يورث العداوة والبغضاء بين المسلمين .

إن أشد أنواع الرِّئَا وأفحشها ، وأكثره سوءًا ، وأعظمه إثمًا ، هو الوقوع في عرض المسلم بالقول أو الفعل ، واحتقاره والتترفع عليه ، والوقيعة فيه بالغيبة وسيئ القول ، بغير حق ولا سبب

١٩٥ رواه أبو يعلى في مسنده (٨ / ١٤٥) . قال الهيثمي في الجمع (٨ / ١٧٤) : ((رجاله رجال الصحيح)) .

شرعيٌّ يُبيح ذلك . والحديثُ يُحذّر من الوقوع في أعراض الناس ، والإساءة إليهم بأيّ شكلٍ من الأشكال ، ويدلُّ على أنّ حصائد الألسنة تُؤدّي إلى الهلاك وعذاب النار الشديد .
 إنّ أسوأ أنواع الرّثا وأشدها ذنبًا وإثمًا وقُبْحًا ، اعتقاد أنّ عرض المسلم حلال مُباح . والمُراد هو الخوض في عرض المسلم ، والتكلّم فيه دون وجه حق . والمتكلّم في عرض المسلم كأنه مُستحلّ له . لذلك تمّ إطلاق لفظ الاستحلال عليه . وهذا قُدْف واضح وصريح .
 والحديثُ يُحذّر بِشِدَّة من الوقوع في أعراض الناس ، ويبيّن أن حصائد الألسن من أعظم الأسباب التي تدفع الناس إلى عذاب النار الشديد .

١٨ _ الهمز واللمز

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] .
 هذه من صفات المنافقين . إنهم يطعنون في المؤمنين المتصدّقين ، ويعيبونهم ، فإذا تصدّق المؤمن بمال كثير ، قالوا إنّهُ يتصدّق رياءً وسُمةً ، وإذا تصدّق بمال قليل ، قالوا إنّ الله غنيٌّ عن صدّقه . والمعنى : إنّ المنافقين يعيبون المتطوّعين الأغنياء من المؤمنين ببذل الصّدقات ، ويعيبون أيضًا الذين لا يجدون إلا شيئًا قليلًا هو حاصل ما يقدرّون عليه .
 وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٩٣) : ((وهذا أيضًا من صفات المنافقين ، لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدّقون يسلمون منهم . إنّ جاء أحد منهم بمال جزيل ، قالوا : هذا مُراءٍ . وإنّ جاء بشيء يسير ، قالوا : إنّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا)) .
 وقد ذمّ الله هؤلاء المنافقين الذين يعيبون تصرّف المؤمنين دون وجه حق ، وفضّحهم ، وكشّف باطلهم . ومعنى ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الذين يتصدّقون ويتبرّعون من تلقاء أنفسهم من غير أن يجب عليهم . إنهم يفعلون ذلك طلبًا لرضا الله وتقرّبًا إليه . ولكنهم لم يسلموا من السنة المنافقين .
 لقد كان المنافقون يعيبون المتبرّعين من المؤمنين في الصّدقات ، ويطعنون فيهم ، اتّباعًا لأهوائهم ، وحسدًا لهم ، وحقْدًا عليهم ، وكرهًا للإسلام والمسلمين ، والذين لا يجدون إلا طاقتهم . حيث إنهم يتبرّعون وفق إمكاناتهم وقدرتهم وطاقتهم . والجهد (بالضم) الطاقة ، والجهد (بالفتح) المشقّة . فيستهزئون بهم لقلّة المال الذي تصدّقوا به ، وهذا هو جهد المُقل .

وقد جازاهم الله على سُخْرِيَتِهِم بِالْمُؤْمِنِينَ بِأَن سَخِرَ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ يَاهَانَتِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ، وَصَارُوا إِلَى النَّارِ . وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُشَاكَلَةِ (الْمُقَابَلَةُ فِي الْأَلْفَاظِ) ١٩٦ .

وَالْفِعْلَانِ الْمُضَارِعَانِ: ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾، ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ يُشِيرَانِ إِلَى التَّجَدُّدِ وَالتَّكْرُّرِ وَالِاسْتِمْرَارِيَّةِ . أَيْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الطَّعْنِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَالتَّقْلِيلِ مِنْ شَأْنِهِمْ مِنْهَجًا حَيَاتِيًّا وَفِلْسَفَةً لَا مَحِيدَ عَنْهَا . وَالْمُنَافِقُونَ مُسْتَمِرُونَ فِي ضَلَالِهِمْ ، وَدَائِمُونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَرُدُّعُهُمْ رَادِعٌ . وَلِهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمُسْتَمِرٌّ وَدَائِمٌ وَمُوجِعٌ وَمُؤْلِمٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ . وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٨٧) : ((﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التَّنْوِينُ لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّفْخِيمِ ، وَإِيرَادِ الْجُمْلَةِ اسْمِيَّةً لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْاسْتِمْرَارِ)) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٤٩٣) : ((وَقَوْلُهُ : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . هَذَا مِنْ بَابِ الْمُقَابَلَةِ عَلَى سُوءِ صَنِيعِهِمْ ، وَاسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ، فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةً مِمَّنْ سَخِرَ مِنْهُمْ ، انْتِصَارًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَعَدَّ لِلْمُنَافِقِينَ فِي الْآخِرَةِ عَذَابًا أَلِيمًا ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ)) .

وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ٤٧٤) : ((﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ يَعْيُونَ وَيَغْتَابُونَ ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ الْمُتَطَوِّعِينَ الْمُتَنَفِّلِينَ ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَجَاءَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ ، وَبَعْضُهُمْ _ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ _ بِالْقَلِيلِ ، فَاجْتَابَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَقَالُوا : مَنْ أَكْثَرَ رِيَاءً ، وَمَنْ أَقَلَّ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ نَفْسَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ . ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ ، وَهُوَ الْقَلِيلُ الَّذِي يَتَعَيَّشُ بِهِ ، ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، جَازَاهُمْ سُخْرِيَتِهِمْ حَيْثُ صَارُوا إِلَى النَّارِ)) .

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا أَمَرْنَا بِالصَّدَقَةِ ، كُنَّا نَتَحَامَلُ ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنَصْفِ صَاعٍ ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرٍ مِنْهُ ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ إِنَّ اللَّهَ لَغَيْبِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَذَا ، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخِرُ إِلَّا رِيَاءً . فَانزَلَتْ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الْآيَةَ ١٩٧ .

١٩٦ قَالَ ابْنُ حِجَّةَ الْحَمَوِيُّ فِي خِزَانَةِ الْأَدَبِ (٢ / ٢٥٢) : ((الْمُشَاكَلَةُ فِي اللُّغَةِ هِيَ الْمُمَاتَلَةُ . وَالَّذِي تَحَرَّرَ فِي الْمُصْطَلَحِ عِنْدَ عُلَمَاءِ هَذَا الْفَنِّ أَنَّ الْمُشَاكَلَةَ هِيَ ذِكْرُ الشَّيْءِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِوُقُوعِهِ فِي صُحْبَتِهِ)) .
١٩٧ مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ . الْبُخَارِيُّ (٤ / ١٧١٤) بِرَقْمِ (٤٣٩١) ، وَمُسْلِمٌ (٢ / ٧٠٦) بِرَقْمِ (١٠١٨) .

كان الصحابةُ _ رضي الله عنهم _ سُرعان ما يستجيبون لأوامر الله ورسوله ﷺ ، ويتكلف كلُّ فردٍ منهم ما يستطيع بذله وإنفاقه .

لَمَّا أُمِرَ الْمُسْلِمُونَ بِالصَّدَقَةِ كَانُوا يَتَكَلَّفُونَ الْحَمْلَ عَلَى ظُهُورِهِمْ بِالْأَجْرَةِ لِيَكْتَسِبُوا مَا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ ، وَهَذَا وَصَفٌ لِحَالِهِمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالشَّدَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ _ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ _ بِنِصْفِ صَاعٍ مِنْ تَمْرٍ ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ آخَرٌ بِأَكْثَرٍ مِنْهُ ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : إِنَّ اللَّهَ لَعَنِي عَنْ صَدَقَةِ الْأَوَّلِ الْفَقِيرِ ، أَمَّا الثَّانِي فَمَا تَصَدَّقَ إِلَّا رِيَاءً ! ، وَقَدْ كَذَبُوا . لَقَدْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُتَطَوِّعًا ، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ تَكْذِيبًا لَهُمْ .

ويجب على العبد أن يتقرب إلى الله بجُهدِهِ وطاقته ، وبحسب قدرته واستطاعته ، ولا يلتفت إلى طعن المنافقين ، فَمِنْ صِفَاتِهِمُ الْعَيْبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْزُهُمْ ، وَاللِّتِمَامُ بِتَقْدِيمِ الصَّدَقَةِ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ ، وَعَدَمُ احْتِقَارِ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ مَهْمَا كَانَ قَلِيلًا .

والحديثُ يدلُّ على إخلاص الصحابة ، وتضحياتهم ، وتواضعهم ، وحرصهم على الخير ، واستعمالهم أنفسهم في المِهْنِ وَالخِدْمَةِ ، ويدلُّ كذلك على خُبث المنافقين وسوء أفعالهم .
والصَّحَابَةُ عِنْدَمَا أُمِرُوا بِالصَّدَقَةِ ، كَانُوا يَحْمِلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ بِالْأَجْرَةِ ، وَيَتَكَلَّفُونَ الْحَمْلَ عَلَى مَشَقَّةٍ ، وَيَتَصَدَّقُونَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْرَةِ ، أَوْ يَتَصَدَّقُونَ بِهَا كُلِّهَا ، فِي حِينٍ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا غَيْرَ الطَّعْنِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ . وَهَذَا يُوضِّحُ الْفَرْقَ الْجَوْهَرِيَّ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ١٠٥) : ((باب الحمل بأجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل) . قوله (كُنَّا نُحَامِلُ) وفي الرواية الثانية : كُنَّا نُحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا . معناه : نَحْمِلُ عَلَى ظُهُورِنَا بِالْأَجْرَةِ ، وَنَتَصَدَّقُ مِنْ تِلْكَ الْأَجْرَةِ ، أَوْ نَتَصَدَّقُ بِهَا كُلِّهَا . ففيه التحريض على الاعتناء بالصدقة ، وأنه إذا لم يكن له مال يتوصل إلى تحصيل ما يتصدق به ، مِنْ حَمْلِ بِالْأَجْرَةِ ، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُبَاحَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧] .
وقُلْ يَا مُحَمَّدُ : رَبِّ ، أَلْتَجَى إِلَيْكَ ، وَأَحْتَمِي وَأَعْتَصِمُ بِكَ مِنْ إِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ وَوَسْوَاسِهِمُ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . وَهَذَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ عَظِيمٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، لِأَنَّهُمْ فِي غَايَةِ الْخُطُورَةِ ، وَلَا يُمَكِّنُ خِدَاعَهُمْ ، أَوْ التَّحَايِلَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ إِخْضَاعَهُمْ لِلْحَقِّ وَالهُدَى .
والطريقة الوحيدة لمواجهة الشياطين هي الالتجاء إلى الله ، والتوكل عليه ، والاستعاذة به منهم .
وَهَمَزَاتُ الشَّيَاطِينِ : نَزَغَاتُهُمْ وَخَطَرَاتُهُمْ وَوَسْوَاسُهُمْ وَالْقَائِمَةُ الْفِتْنَةُ وَالْعَقَائِدُ الْفَاسِدَةُ فِي الْقَلْبِ .

وقال البَغوي في تفسيره (١ / ٤٢٨) : ((« وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ » ، أي: أَمْتَعُ وَأَعْتَصِمُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » . قال ابن عباس: نَزَعَاتِهِمْ . وقال الحَسَنُ : وَسَاوَسَهُمْ . وقال مُجَاهِدُ : نَفَحَهُمْ وَنَفَثَهُمْ . وقال أهل المعاني: دَفَعَهُمْ بِالْإِعْوَاءِ إِلَى الْمَعَاصِي ، وَأَصْلُ الْهَمْزِ : شِدَّةُ الدَّفْعِ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ١٣٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : « مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » ، الْهَمْزَاتُ هِيَ جَمْعُ هَمْزَةٍ ، وَالْهَمْزُ فِي اللُّغَةِ النَّخْسُ وَالدَّفْعُ ، يُقَالُ : هَمَزَهُ وَهَمَزَهُ وَنَخَسَهُ دَفَعَهُ . قَالَ اللَّيْثُ : الْهَمْزُ كَلَامٌ مِنْ وَرَاءِ الْقَفَا ، وَاللَّمزُ مُوَاجَهَةٌ ، وَالشَّيْطَانُ يُوسُوسُ فِيهِمْ فِي وَسْوَاسِهِ فِي صَدْرِ ابْنِ آدَمَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » ، أَي: نَزَعَاتِ الشَّيَاطِينِ الشَّاغِلَةِ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَفِي الْحَدِيثِ : " كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ هَمْزِ الشَّيْطَانِ وَلَمْزِهِ وَهَمْسِهِ " . قَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ : إِذَا أَسْرَّ الْكَلَامَ وَأَخْفَاهُ فَذَلِكَ الْهَمْسُ مِنَ الْكَلَامِ ، وَسُمِّيَ الْأَسَدُ هَمْوسًا ، لِأَنَّهُ يَمْشِي بِخِفَّةٍ ، فَلَا يُسْمَعُ صَوْتُ وَطْئِهِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالتَّعَوُّذِ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي هَمَزَاتِهِ ، وَهِيَ سَوْرَاتُ الْغَضَبِ الَّتِي لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَكَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَانَتْ تُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْكُفَّارِ ، فَتَقَعُ الْمُحَادَّةُ ، فَلِذَلِكَ اتَّصَلَتْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَالتَّرَعَاتُ وَسَوْرَاتُ الْغَضَبِ الْوَارِدَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ هِيَ الْمُتَعَوَّذُ مِنْهَا فِي الْآيَةِ)) اهـ . وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٢ / ٤٠٥) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الْفَرَعِ كَلِمَاتٍ : ((أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ ، وَشَرِّ عِبَادِهِ ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنْ يَحْضُرُونَ)) .

يُعَلِّمُ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ هَذَا الدُّعَاءَ الْجَلِيلَ لِإِبْعَادِ الْفَرَعِ (الْخَوْفِ) عَنْهُمْ . وَمَعْنَاهُ : أَلْتَجِيءُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْتَصِمُ بِهِ ، وَأَحْتَمِي بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، وَأَسْتَجِيرُ بِآيَاتِ كُتُبِهِ ، الْكَامِلَةَ فِي فَضْلِهَا وَبِرَكَّتِهَا وَنَفْعِهَا ، الْمُنَزَّهَةَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ ، مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ، وَمِنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ وَذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ ، وَمِنْ وَسَاوَسِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَحْضُرَ الشَّيَاطِينُ فِي عِبَادَتِي وَطَاعَتِي ، فَيُفْسِدُوهَا عَلَيَّ ، أَوْ أَنْ يَحْضُرُوا فِي أَيِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِي ، وَشَأْنٍ مِنْ شَأُونِي .

وَفِي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٠ / ٢٧٥) : (((مِنْ الْفَرَعِ) بَفَتْحِ الْفَاءِ وَالرَّايِ أَيِ الْخَوْفِ (التَّامَّةِ) بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَمَاعَةُ (مِنْ غَضَبِهِ) أَيِ إِرَادَةِ انْتِقَامِهِ ، وَزَادَ فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ : وَعَقَابِهِ ، (وَشَرِّ عِبَادِهِ) وَهُوَ أَخْصَ مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ (وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) أَيِ وَسَاوَسِهِمْ ، وَأَصْلُ الْهَمْزِ الطَّعْنُ . قَالَ الْجَزْرِيُّ: أَيِ خَطَرَاتِهَا الَّتِي يُخْطِرُهَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ (وَأَنْ يَحْضُرُونَ) بِحَذْفِ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ ، اِكْتِفَاءً بِكُسْرِ نُونِ الْوَقَايَةِ ، وَضَمِيرِ الْجَمْعِ الْمَذْكَرِ فِيهِ لِلشَّيَاطِينِ ، وَهُوَ مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ (٩٨) »)) .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٢٨٨) : (...) ، (أَعُوذُ) أي أَعْتَصِمُ (بكلمات الله)
كُتِبَهُ الْمُنزَلَةُ عَلَى رُؤْسِهِ أَوْ صِفَاتِهِ ، وقد جاءت الاستعاذة بها في حَبْرٍ : أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ ،
والتأنيث للتعظيم (التَّائِمَةُ) الخالية عن التناقض والاختلاف (مِنْ غَضَبِهِ) سَخَطِهِ عَلَى مَنْ عَصَاهُ
وإعراضه عنه (وَعِقَابِهِ) عُقُوبَتِهِ (وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ) مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَغَيْرِهِمْ (وَمِنْ هَمَزَاتِ
الشَّيَاطِينِ) نَزَعَاتِهِمْ وَوَسَاوِسِهِمْ . وَأَصْلُ الْهَمْزِ الْحَثُّ ، وَمِنْهُ هَمَزَ الْفَرَسَ بِالْمِهْمَازِ لِيُعْدُوَ ، وَشَبَّهَ
حَثَّ الشَّيَاطِينِ عَلَى الْإِثْمِ يَهْمِزُ الرَّاصَةَ الدَّوَابَّ عَلَى الْمَشْيِ ، وَجَمَعُهَا بِاعْتِبَارِ الْمَرَّاتِ ، أَوْ لِتَنْوُوعِ
الْوَسْوَاسِ ، أَوْ لِتَعَدُّدِ الشَّيَاطِينِ (وَأَنْ يَحْضُرُونَ) أَي : يَحُومُونَ حَوْلِي فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِي ، لِأَنَّهُمْ
إِنَّمَا يَحْضُرُونَ بِسُوءٍ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةً ﴾ [الهمزة : ١] .

عذابٌ شديدٌ وهلاكٌ أكيدٌ لِكُلِّ مُغْتَابٍ لِلنَّاسِ ، يَعْيِبُهُمْ ، وَيَطْعَنُ فِيهِمْ . وهذا هو الجزاء
المُستَحَقُّ لِكُلِّ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ ، وَيُرَاقِبُونَهُمْ مِنْ أَجْلِ الْإِنْتِقَاصِ مِنْ قُدْرَتِهِمْ ،
وَالصَّاقِ الْعُيُوبِ بِهِمْ . وهذا العملُ القبيحُ مِنْ شَأْنِهِ تَدْمِيرُ الْمُجْتَمَعِ ، وَتَلْوِثُ سَمْعَةِ الْأَفْرَادِ وَتَصْنِيفُهُمْ
فِي خَانَةِ الشُّبُهَةِ وَالسُّوءِ ، وَعِنْدُنَا تَفَكُّكُ الْجَمَاعَةِ ، وَتَعَجُّزُ عَنِ الْجَمَاعِ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .
وقد جازَ الْإِبْتِدَاءُ بِالتَّكْرِيرِ (وَيَلِّ) لِأَنَّهُ دُعَاءٌ .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٧٠١) : ((وَالْمَعْنَى : حِزْبِي أَوْ عَذَابٌ أَوْ هَلَكَةٌ أَوْ وَادٍ
فِي جَهَنَّمَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةٍ)) .

وعن أبي سعيد الخُدْرِي _ رضي اللهُ عنه _ : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةٍ ﴾ ، قال : ((الْوَيْلُ وَادٍ
فِي جَهَنَّمَ ، يَهْوِي فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ خَرِيفًا ، قَبْلَ أَنْ يُفْرَغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ)) ^{١٩٨} .
وَالْوَيْلُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسْقُطُ فِيهِ الْكَافِرُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَبْلَ أَنْ يُنْهَيِيَ اللَّهُ حِسَابَ النَّاسِ ، وَهَذَا
يَدُلُّ عَلَى خُطُورَةِ هَذَا الْوَادِي الْمُخِيفِ ، وَشِدَّةِ الْعَذَابِ فِيهِ . وَهَذَا الْحَدِيثُ لَهُ حُكْمُ الْمَرْفُوعِ ،
لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الْعَبِيَّ لَا يَكُونُ رَأْيًا ذَاتِيًّا أَوْ تَفْسِيرًا شَخْصِيًّا .

وَالجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ (هُمْزَةً وَلَمْزَةً) صِيغَةُ مُبَالِغَةٍ . وَبِنَاءِ (فُعْلَةٌ) يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا عَادَةٌ مُسْتَمْرَةٌ .
وقال البَغَوِي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٢٩) : ((وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : نَزَلَتْ
فِي الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقِ بْنِ وَهْبِ الثَّقَفِيِّ ، كَانَ يَقَعُ فِي النَّاسِ وَيَغْتَابُهُمْ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ :

١٩٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٨٣) برقم (٣٩٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ما زِلْنَا نَسْمَعُ أَنَّ سُورَةَ الْهُمَزَةِ نَزَلَتْ فِي أُمِّيَّةِ بْنِ خَلْفِ الْجَمْحِيِّ . وَقَالَ مُقَاتِلُ : نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ ابْنِ الْمُغْبِرَةِ ، كَانَ يَغْتَابُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ وَرَائِهِ ، وَيَطْعَنُ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ عَامَّةٌ فِي حَقِّ كُلِّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ)) .

وقال السُّيوطي في لُبَابِ التَّقْوِيلِ (١ / ٢٣٤) : ((وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ : كَانَ أُمِّيَّةُ بْنُ خَلْفٍ إِذَا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَمَزَهُ وَلَمَزَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ﴾ ، السُّورَةَ كُلِّهَا)) .

وهذه الآيةُ شاملةٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، لِأَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . وَكُلُّ مُغْتَابٍ طَاعِنٍ فِي النَّاسِ قَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ . وَإِذَا كَانَ السَّبَبُ خَاصًّا ، فَالْوَعِيدُ عَامٌ وَشَامِلٌ لِكُلِّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/٢٢٧ و٢٢٨): ((قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ﴾ اختلفوا في الهمزة واللمزة ، هل هما بمعنى واحد أم مختلفان ؟ ، على قولين : أحدهما أنهما مختلفان ، ثم فيهما سبعة أقوال : أحدها أن الهمزة الممغتاب ، واللمزة العيَّاب ، قاله ابن عباس . والثاني أن الهمزة الذي يهيمز الإنسان في وجهه ، واللمزة يلمزه إذا أدبر عنه ، قاله الحسن وعطاء وأبو العالية . والثالث أن الهمزة الطعان في الناس ، واللمزة الطعان في أنساب الناس ، قاله مجاهد . والرابع أن الهمزة بالعين ، واللمزة باللسان ، قاله قتادة . والخامس أن الهمزة الذي يهيمز الناس بيده ويضربهم ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ، قاله ابن زيد . والسادس أن الهمزة الذي يهيمز بلسانه ، واللمزة الذي يلمز بعينه ، قاله سفيان الثوري . والسابع أن الهمزة الممغتاب ، واللمزة الطاعن على الإنسان في وجهه ، قاله مقاتل . والقول الثاني أن الهمزة العيَّاب الطعان ، واللمزة مثله ، وأصل الهمز واللمز : الدفع ، قاله ابن فتيبة ، وكذلك قال الزجاج : الهمزة اللمزة الذي يغتتاب الناس ويغضُّهم _ ينتقص من قدرهم _)) .

١٩ _ إشاعة الأخبار الكاذبة

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .
وَلَا تَجْلِسُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ تُهَدِّدُونَ مَنْ آمَنَ بِالْعَذَابِ وَالْقَتْلِ وَتُخَوِّفُونَهُ . وَقَدْ أَفْرَدَ الْفِعْلُ " تُوعِدُونَ " وَأَخْلَاهُ مِنَ الْمَفْعُولِ ، وَلَمْ يَقُلْ : تُوعِدُونَ بِكَذَا . وَالْعَرَبُ إِذَا أَخْلَتَ هَذَا الْفِعْلُ مِنَ الْمَفْعُولِ لَمْ يَدُلْ

إلا على شر . وتصرفون عن دين الله (الإسلام) المؤمنين، وتريدون أن تكون الطريق مُعْجَزةً غير مُستقيمة ، لئلا تمنعهم من سلوكها ، بمعنى تصويرهم أن دين الله مُنْحَرَفٌ وغير مُستقيم ، لأنه لا يتمشى مع مصالحهم الشخصية وأهوائهم الفاسدة ، واذكروا إذ كنتم قليلين مُستضعفين فأصبحتم كثيرين أعزة ، أي: إن الله كثركم بعد القلة ، وأعزكم بعد الذلّة، فاشكروا الله على نعمته العظيمة ، وانظروا ما حلّ بالأمة السابقة بسبب تكذيب رُسُلهم ، لقد انتقم الله منهم ، وأهلكهم ، وجعلهم أئرا إثر عين ، فأعتبروا بهم ، واتّعظوا بحالهم ، والعاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ . وهذا تهديد شديد لهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٩ / ١) : ((﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ بِكُلِّ طريق من طُرُق الدِّين كالشَّيْطَان ، وصِرَاطِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا لَكِنَّهُ يَتَشَعَّبُ إِلَى مَعَارِفٍ وَحُدُودٍ وَأَحْكَامٍ ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْا أَحَدًا يَسْعَى فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَنَعُوهُ . وَقِيلَ : كَانُوا يَجْلِسُونَ عَلَى الْمَرَاصِدِ ، فيقولون لِمَنْ يُرِيدُ شُعْبًا : إِنَّهُ كَذَّابٌ ، فَلَا يَفْتِنَنَّكَ عَنْ دِينِكَ ، وَيُوعِدُونَ لِمَنْ آمَنَ بِهِ ، وَقِيلَ : كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ، ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي الَّذِي قَعَدُوا عَلَيْهِ ، فَوَضَعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ بَيَانًا لِكُلِّ صِرَاطٍ ، وَدَلَالَةً عَلَى عِظَمِ مَا يَصُدُّونَ عَنْهُ ، وَتَقْيِيحًا لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ ، أَوْ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ . ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ ، أَيْ : بِاللَّهِ ، أَوْ بِكُلِّ صِرَاطٍ عَلَى الْأَوَّلِ ، ... ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ ، وَتَطْلُبُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ عِوَجًا بِالْقَاءِ الشُّبْهِ ، أَوْ وَصَفَهَا لِلنَّاسِ أَنَّهَا مُعْجَزةٌ ، ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا ﴾ عَدَدَكُمْ أَوْ عُدَدَكُمْ ، ﴿ فَكَثَّرَكُمُ ﴾ بِالْبِرْكَةِ فِي النَّسْلِ أَوْ الْمَالِ ، ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ مِنَ الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ ، فَاعْتَبِرُوا بِهِمْ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣٢٧ / ٢) : ((قوله : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ الصِّرَاطُ : الطَّرِيقُ ، أَيْ : لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ طريق تُوعِدُونَ النَّاسَ بِالْعَذَابِ . قِيلَ : كَانُوا يَقْعُدُونَ فِي الطَّرِيقَاتِ الْمُفْضِيَّةِ إِلَى شُعْبٍ ، فَيَتَوَعَّدُونَ مَنْ أَرَادَ الْمَجِيءَ إِلَيْهِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ كَذَّابٌ ، فَلَا تَذْهَبْ إِلَيْهِ ، كَمَا كَانَتْ قَرِيشٌ تَفْعَلُهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ الْقُعُودُ عَلَى طُرُقِ الدِّينِ ، وَمَنْعٌ مِنَ أَرَادِ سُلُوكِهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْقُعُودُ عَلَى الطَّرِيقِ حَقِيقَةً ، وَيُؤَيِّدُهُ ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالآيَةِ النَّهْيُ عَنِ قَطْعِ الطَّرِيقِ ، وَأَخْذِ السَّلْبِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا عَشَّارِينَ يَأْخُذُونَ الْجَبَايَةَ فِي الطَّرِيقِ مِنَ أَمْوَالِ النَّاسِ ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُهَا إِلَى الصَّوَابِ ، مَعَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ النَّهْيِ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ ، وَجُمْلَةٌ " تُوعِدُونَ " فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ ، وَكَذَلِكَ مَا عُطِفَ عَلَيْهَا ، أَيْ : لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ طريق مُوعِدِينَ لِأَهْلِهِ ، صَادِّينَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ،

بِأَعْيُنِهَا عِوَجًا ، وَالْمُرَادُ بِالصِّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ : صَدَّ النَّاسُ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي قَعَدُوا عَلَيْهِ ، وَمَنْعَهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى شُعَيْبٍ ، فَإِنَّ سُلُوكَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ السَّبِيلِ لِلْوُصُولِ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ هُوَ سُلُوكُ سَبِيلِ اللَّهِ . وَ « مَنْ آمَنَ بِهِ » مَفْعُولٌ « تَصَدُّونَ » ، وَالصَّمِيرُ فِي « آمَنَ بِهِ » يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ ، أَوْ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ إِلَى كُلِّ صِرَاطٍ ، أَوْ إِلَى شُعَيْبٍ . « وَتَبَغُّونَهَا عِوَجًا » ، أَي : تَطْلُبُونَ سَبِيلَ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ مُعْوَجَّةً غَيْرَ مُسْتَقِيمَةٍ « وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ » أَي : وَقَدْ كُنْتُمْ « قَلِيلًا » عَدَدِكُمْ ، « فَكَثُرْتُمْ » بِالنَّسْلِ . وَقِيلَ : كُنْتُمْ فُقَرَاءً فَأَغْنَاكُمْ « وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَهْلَكَهُمْ ، وَأَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَاتِ مَا ذَهَبَ بِهِمْ ، وَمَحَا أَثْرَهُمْ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » [الْأَحْزَابُ : ٦٠] ١٩٩ .

لَئِن لَّمْ يَتْرَكَ الْمُنَافِقُونَ _ الَّذِي يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُطَيَّبُونَ الْكُفْرَ _ نِفَاقَهُمْ ، وَالرُّنَاةُ _ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ضَعْفٌ إِيْمَانٍ أَوْ فُجُورٌ _ فُجُورَهُمْ ، وَالْمُرْجِفُونَ الَّذِي يَنْشُرُونَ الْأَخْبَارَ الْكَاذِبَةَ ، لِجَلْبَابَةِ الْأَفْكَارِ ، وَتَمْزِيقِ صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ نَاسًا مِنْهُمْ كَانُوا إِذَا خَرَجَتْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ يُوقِعُونَ فِي النَّاسِ أَنَّهُمْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا بِالْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ ، فَيَكْسِرُونَ بِذَلِكَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَاحِشَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُفْشُونَ الْأَخْبَارَ ، لِنَسَلْطَنَتِكَ عَلَيْهِمْ يَا مُحَمَّدُ بِأَنْ نَأْمُرَكَ بِقِتَالِهِمْ ، _ وَقَدْ أُغْرِيَ بِهِمْ وَأَمَرَ بِقِتَالِهِمْ فِيمَا بَعْدَ _ ، ثُمَّ لَا يُسَاكِنُونَكَ فِي الْمَدِينَةِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا . أَي : لَا يُجَاوِرُونَكَ بَعْدَ الْإِغْرَاءِ ، لِأَنَّكَ تَنْفِيهِمْ بِالْإِخَافَةِ وَالْقَتْلِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَلَاءُ عَنِ الْوَطَنِ أَعْظَمَ مِنْ جَمِيعِ مَا أَصَابُوا بِهِ عَطْفَ ب « ثُمَّ » لِبُعْدِ حَالِهِ عَنِ حَالِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ .
 وَالآيَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى وَعِيدٍ شَدِيدٍ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَوَعْدٍ مِنَ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخْرِجَ أَعْدَاءَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَيَنْفِيَهُمْ عَلَى يَدِهِ ، إِظْهَارًا لِقُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ .

وَالْمُرْجِفُونَ هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَجَاءَ « الْمُرْجِفُونَ » بَعْدَ « الْمُنَافِقُونَ » مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ . حَيْثُ عَمَّمَ ، ثُمَّ خَصَّصَ ، زِيَادَةً فِي التَّقْيِيحِ وَالتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ .

١٩٩ قَالَ النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣١٥ وَ ٣١٦) : ((لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ عَنِ عِدَاوَتِهِمْ وَكَيْدِهِمْ ، وَالْفَسَقَةَ عَنْ فُجُورِهِمْ ، وَالْمُرْجِفُونَ عَمَّا يُؤَلَّفُونَ مِنْ أَخْبَارِ الشُّؤْمِ ، لِنَأْمُرَنَّكَ بِأَنْ تَفْعَلَ الْأَفْعَالَ الَّتِي تَسُوُّوهُمْ ، ثُمَّ بِأَنْ تَضَطَّرَّهُمْ إِلَى طَلَبِ الْجَلَاءِ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَإِلَى أَنْ لَا يُسَاكِنُونَكَ فِيهَا إِلَّا زَمَانًا قَلِيلًا رَيْثَمَا يَرْتَحِلُونَ ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ إِغْرَاءً ، وَهُوَ التَّحْرِيشُ ، عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٨٦) : ((لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ)) عَنْ نِفَاقِهِمْ)) والذين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)) ضَعْفَ إِيمَانٍ وَقَلَّةَ ثَبَاتٍ عَلَيْهِ ، أَوْ فُجُورٍ عَنِ تَزَلُّلِهِمْ فِي الدِّينِ ، أَوْ فُجُورِهِمْ ، وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ)) يُرْجَفُونَ أَخْبَارَ الشُّوءِ عَنِ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ وَنَحْوَهَا مِنْ إِرْجَافِهِمْ ، وَأَصْلُهُ التَّحْرِيكُ مِنَ الرَّجْفَةِ ، وَهِيَ الزَّلْزَلَةُ ، سُمِّيَ بِهِ الْإِخْبَارُ الْكَاذِبُ لِكَوْنِهِ مُتَزَلِّلاً غَيْرَ ثَابِتٍ ،)) لَنْغَرِيَّتِكَ بِهِمْ)) لِتَأْمُرَتِكَ بِقِتَالِهِمْ وَإِجْلَانِهِمْ أَوْ مَا يَضْطَرُّهُمْ إِلَى طَلَبِ الْجَلَاءِ)) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ)) عَطْفَ عَلَى)) لَنْغَرِيَّتِكَ)) ، وَ)) ثُمَّ)) لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْجَلَاءَ وَمُقَارَقَةَ جَوَارِ الرَّسُولِ أَعْظَمَ مَا يُصِيبُهُمْ)) فِيهَا)) فِي الْمَدِينَةِ)) إِلَّا قَلِيلاً)) زَمَانًا ، أَوْ جَوَارًا قَلِيلاً)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٤٣٣) : ((تَوَعَّدَ سُبْحَانَهُ أَهْلَ النَّفَاقِ وَالْإِرْجَافِ ، فَقَالَ :)) لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ)) عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النَّفَاقِ ،)) وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)) أَي : شَكَّ وَرَيْبَةً عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الاضطراب ،)) وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ)) عَمَّا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِرْجَافِ بِذِكْرِ الْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِتَوْهِينِ جَانِبِ الْمُسْلِمِينَ ، وَظُهُورِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِمْ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَهْلُ التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ لِشَيْءٍ وَاحِدٍ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ النَّفَاقِ ، وَمَرَضِ الْقُلُوبِ ، وَالْإِرْجَافِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ : الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُمُ الزُّنَاةُ . وَالْإِرْجَافُ فِي اللُّغَةِ : إِشَاعَةُ الْكُذِبِ وَالْبَاطِلِ . يُقَالُ : أَرْجَفَ بِكَذَا ، إِذَا أَخْبَرَ بِهِ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَةٍ ، لِكَوْنِهِ خَبْرًا مُتَزَلِّلاً غَيْرَ ثَابِتٍ ، مِنَ الرَّجْفَةِ ، وَهِيَ الزَّلْزَلَةُ وَذَلِكَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُرْجِفِينَ كَانُوا يُخْبِرُونَ عَنِ سَرَايَا الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ هُزِمُوا ، وَتَارَةً بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا ، وَتَارَةً بِأَنَّهُمْ غَلِبُوا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا تَنَكَّسَ لَهُ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأَخْبَارِ ، فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ :)) لَنْغَرِيَّتِكَ بِهِمْ)) ، أَي : لِنَسَلْطَنَتِكَ عَلَيْهِمْ فَتَسْتَأْصِلُهُمْ بِالْقَتْلِ وَالتَّشْرِيدِ بِأَمْرِنَا لَكَ بِذَلِكَ)) .

٢٠_ لَعْنُ الْقَوْلِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :)) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)) [البقرة : ٢٢٥] .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِمَا يَسْقِي إِلَيْهِ اللِّسَانَ مِنَ الْحَلْفِ بِاللَّهِ بِذُنُوبٍ قَصْدَ الْحَلْفِ ، كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ : بَلَى وَاللَّهِ ، لَا وَاللَّهِ ، لَا يَقْصِدُ الْيَمِينَ ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَا كُفْرَةَ . وَاللَّغْوُ هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ . وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا قَصَدْتُمْ إِلَيْهِ وَعَقَدْتُمْ الْقَلْبَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَيْمَانِ إِذَا حَشْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، يَتَجَاوَزُ عَنِ اللَّغْوِ فِي الْأَيْمَانِ ، حَلِيمٌ إِذْ لَمْ يَجْعَلْ فِي الْيَمِينِ اللَّغْوِ الْكُفْرَةَ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٥١٢ / ١) : ((﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، اللغو : الساقط الذي لا يُعْتَدُ به من كلام غيره ، ولغو اليمين ما لا عقْد معه ، كما سبق به اللسان ، أو تكلم به جاهلاً لمعناه ، كقول العرب : لا والله ، وبلى والله ، لمجرد التأكيد لقوله ، ﴿ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ، والمعنى : لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِعُقُوبَةٍ وَلَا كَفَّارَةٍ بِمَا لَا قَصْدَ مَعَهُ ، ولكن يُؤَاخِذُكُمُ بِهِمَا ، أو بأحدهما ، بما قصَدْتُم من الأيمان ، وواطأت فيها قلوبُكم ألسنتكم . وقال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجلُ بناءً على ظنّه الكاذب ، والمعنى : لا يُعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يُعاقبكم بما تعمَّدتم الكذب فيه ، ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ حيث لم يُؤَاخِذْ بِاللَّغْوِ ، ﴿ حَلِيمٌ ﴾ حيث لم يَعَجَلْ بِالْمُؤَاخِذَةِ عَلَى يَمِينِ الْجِدِّ تَرْبُصًا لِلتَّوْبَةِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٥٤ / ١ و ٢٥٥ و ٢٥٦) : ((قوله تعالى: ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ ، قال الزجاج : اللغو في كلام العرب : ما أطرح ولم يُعقد عليه أمر ، ويُسمَّى ما لا يُعْتَدُ به لغواً وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال : أحدها أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف ، ثم يتبين له أنه بخلافه . وإلى هذا المعنى ذهب أبو هريرة وابن عباس والحسن وعطاء والشعبي وابن جبير ومجاهد وقتادة والسدي عن أشياخه ومالك ومقاتل . والثاني أنه : لا والله ، وبلى والله ، من غير قصد لعقد اليمين ، وهو قول عائشة وطاووس وعروة والنخعي والشافعي ، واستدل أرباب هذا القول بقوله تعالى : ﴿ ولكن يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ، وكسب القلب : عقده وقصده ، وهذان القولان منقولان عن الإمام أحمد . روى عنه ابنه عبد الله أنه قال : اللغو عندي أن يحلف على اليمين ، يرى أنها كذلك ، ولا كفارة . والرجل يحلف ولا يُعقد قلبه على شيء ، فلا كفارة . والثالث أنه يمين الرجل وهو غضبان ، رواه طاووس عن ابن عباس . والرابع أنه حلف الرجل على معصية ، فليحنت ، وليكفر ، ولا إثم عليه ، قاله سعيد بن جبيرة . والخامس أن يحلف الرجل على شيء ، ثم ينساه ، قاله النخعي . وقول عائشة أصح الجميع . قال حنبل : سئل أحمد عن اللغو ، فقال : الرجل يحلف فيقول : لا والله ، وبلى والله ، لا يريد عقْد اليمين ، فإذا عقْد على اليمين لزمته الكفارة قوله تعالى : ﴿ ولكن يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، قال مجاهد : أي : ما عقَدْت عليه قلوبكم ، و " الحليم " ذو الصَّفْح ، الذي لا يستفزّه غضب فيعجل ، ولا يستخفه جهل جاهل مع قدرته على العقوبة . قال أبو سليمان الخطابي : ولا يستحق اسم الحليم من سامح مع العجز عن المجازاة ، إنما الحليم الصَّفُوح مع القدرة ، المُتأنِّي الذي لا يعجل بالعقوبة فصل . الأيمان على ضربين ، ماضٍ

ومستقبل . فالماضي على صَرِيحَيْن : يمين مُحَرَّمَة ، وهي : اليمين الكاذبة، وهي أن يقول: والله ما فَعَلْتُ ، وقد فَعَلَ ، أو : لقد فَعَلْتُ ، وما فَعَلَ . ويمين مُبَاخَة ، وهي أن يكون صادقاً في قوله : ما فَعَلْتُ ، أو : لقد فَعَلْتُ . والمستقبل على خمسة أقسام . أحدها يمين عَقْدُهَا طاعة ، والمُقَام عليها طاعة ، وحَلُّهَا مَعْصِيَة ، مثل أن يَخْلِف : لأَصَلِّيَنَّ الخَمْسَ ، ولأَصُومَنَّ رَمَضَانَ ، أو : لا شَرِيئْتُ الخَمْرَ . والثاني عَقْدُهَا مَعْصِيَة ، والمُقَام عليها مَعْصِيَة ، وحَلُّهَا طاعة ، وهي عَكْسُ الأوَّلَى . والثالث يمين عَقْدُهَا طاعة ، والمُقَام عَلَيْهَا طاعة ، وحَلُّهَا مَكْرُوه ، مثل أن يَخْلِف : لَيَفْعَلَنَّ النوافلَ مِنَ العِبَادَاتِ . والرابع يمين عَقْدُهَا مَكْرُوه ، والمُقَام عَلَيْهَا مَكْرُوه ، وحَلُّهَا طاعة ، وهي عَكْسُ التي قَبْلَهَا . والخامس يمين عَقْدُهَا مُبَاخ ، والمُقَام عَلَيْهَا مُبَاخ ، وحَلُّهَا مُبَاخ ، مثل أن يَخْلِف : لا دَخَلْتُ بَلَدًا فِيهِ مَنْ يَظْلِمُ النَّاسَ ، وَلا سَلَكَتُ طَرِيقًا مَخُوفًا ، وَنَحُو ذَلِكَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ [المائدة : ٨٩] .

لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِمَا يَسِيْقُ إِلَيْهِ اللِّسَانُ مِنَ الحَلْفِ بِاللَّهِ بِدُونِ قَصْدِ الحَلْفِ ، كَقَوْلِ أَحَدِكُمْ : بلى والله ، لا والله ، لا يَقْصِدُ اليمينَ ، فلا إثم عليه ولا كَفَّارَة . واللغو هو الكلام الذي لا يُعْتَدُّ بِهِ . ولكن يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا حَلَفْتُمْ عَنْ قَصْدِ .

وكَفَّارَة اليمين إذا حَسَنْتُمْ فِيهِ _ والكَفَّارَة : الفَعْلَة التي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُكْفِّرَ الخَطِيئَة ، أي : تَسْتُرْهَا _ أَنْ تُطْعِمُوا عَشْرَةَ مَسَاكِينَ مِنَ الطَّعَامِ الوَسْطِ الذي تُطْعَمُونَ مِنْهُ أَهْلِيكُمْ ، أَوْ كِسْوَةَ المَسَاكِينِ ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ ثَوْبٍ يَسْتُرُ البَدَنَ ، أَوْ إِعْتِاقَ عَبْدٍ مَمْلُوكٍ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى . والحانثُ باليمين الذي لَزِمَتْهُ الكَفَّارَة مُخَيَّرٌ ، إِنْ شَاءَ أَطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ ، وَإِنْ شَاءَ كَسَاهُمْ ، وَإِنْ شَاءَ أَعْتَقَ رَقَبَةً .

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شَيْئًا مِنَ الأُمُورِ المَذْكُورَةِ ، فَكَفَّارَتُهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . هذه كَفَّارَة اليمين الشَّرْعِيَة عِنْدَ الحَنْثِ ، واحفظوا أيمانكم من الامتهان والابتدال ، ولا تَخْلِفُوا إِلَّا لِلضَّرُورَةِ ، وَلا تَحْنُتُوا ، وَإِذَا حَسَنْتُمْ فَلَا تَتْرُكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ .

مِثْلُ ذَلِكَ التَّبَيِّنُ بِيْنِ اللَّهِ لَكُمْ الأَحْكَامَ الشَّرْعِيَة ، وَيُوضِّحُهَا بِلا لَبْسٍ وَلا غُمُوضٍ ، كَي تَشْكُرُوهُ عَلَى هِدَايَتِهِ وَتُوفِيقِهِ لَكُمْ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٦٠) : ((لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ)) ، هو ما يبدو من المرء بلا قصد ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ : لا والله ، ويلي والله ، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه . وقيل : الحلف على ما يظن أنه كذلك ، ولم يكن ، وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ بما وثقتم الأيمانَ عليه بالقصد والتّية ، والمعنى : ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم ، أو بنكث ما عقدتم ، فحذف للعلم به ﴿ فَكْفَارَتُهُ ﴾ ، فكفارة نكثه ، أي : الفعلة التي تذهب إثمه وتستره . واستدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث ، وهو عندنا _ يعني الشافعية _ ، خلافاً للحنفية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ " . ﴿ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ ، من أفصده في النوع والقدر ، وهو مُدٌّ لِكُلِّ مَسْكِينٍ عِنْدَنَا ، ونصف صاع عند الحنفية ﴿ أَهْلِيكُمْ ﴾ ، ... ، وهو جمع أهل ، كالليالي في جمع ليل ، والأراضي في جمع أرض ، وقيل : هو جمع أهلاة ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ عطف على إطعام ، أو من أوسط إن جعل بدلاً ، وهو توب يعطي العورة ، وقيل : توب جامع قميص أو رداء أو إزار ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ، أو إعتاق إنسان . وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه في الأيمان قياساً على كفارة القتل . ومعنى (أو) إيجاب إحدى الخصال الثلاث مُطلقاً ، وتخيير المُكفّر في التّعيين ، ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ ، أي واحدة منها ، ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ ، فكفارته صيام ثلاثة أيام ، وشرط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع ، لأنه فرئ ((ثلاثة أيام متتابعات)) ، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبت كتاباً ولم تُرو سنة ، ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي المذكور ﴿ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ وَحَنَثْتُمْ ، ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ بأن تَضُنُّوا بها ، ولا تبدلوا لكل أمر ، أو بأن تَبَرُّوا فيها ما استطعتم ، ولم يفت بها خير ، أو بأن تكفروها إذا حنثتم ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك البيان ، ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أعلام شرائعه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمة التعليم أو نعمة الواجب شكرها ، فإن مثل هذا التبيين يُسهّل لكم المخرج منه . .

٢١_ اللَّعْبُ وَاللَّهُوُ

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٥٧] .

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوحداية الله ، وأقروا بنبوة مُحَمَّد ﷺ ، لا تتخذوا أعداء الإسلام الذين يسخرون من دينكم ، ويستهنون به ، من اليهود والنصارى وسائر الكفار ، أولياء لكم ، تحبونهم وتوادونهم ، وهم أعداء لكم ، يكرهونكم ويغضونكم . ومن اتخذ دينكم سُخريةً ، فيجب بغضه ومعاداته ، وعدم مُصادقته ولا موالاته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٨٥) : ((قوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً ﴾ ، سب نزلها أن رفاعَةَ بن زيد بن الثابت ، وسويد بن الحارث ، كانا قد أظهرَا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس)) . والنهي عن موالاة المستهزئين بالدين يعمُّ كلَّ من حصل منه ذلك ، من أهل الكتاب والمُشركين وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام . وقد رتب النهي عن موالاتهم على سُخريتهم بالدين واستهزائهم به ، وتبنيها على أن من هذا شأنه بعيد عن الموالاة ، جدير بالمعاداة والبغضاء .

وذكر الكتاب في الآية : ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ ، لبيان شدَّة ضلال اليهود والنصارى ، وسوء فعلهم ، فإنَّ إتيان الكتاب ينبغي أن يكون دافعاً لهم لتعظيم الدين ، ومانعاً لهم من الاستهزاء به . والإسلام يدعو إلى الإيمان بموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ وتعظيمهما ، كما أنَّ القرآن مُصدِّق للتوراة والإنجيل . وتخصيص الكفار بالذكر ، وهم المُشركون ، لتضاعف كفرهم . واتقوا الله في موالاة الكفار ، إن كنتم مؤمنين حقاً ، وهذا على سبيل التهييج . والإيمان الحق يأبى موالاة أعداء الدين . وقيل : إن كنتم مؤمنين بوعد الله ووعده .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ١٠٠) في تفسير الآية كاملة : ((هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله ، من الكتابيين والمُشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهي شرائع الإسلام المُطهَّرة المُحكَّمة ، المُشمِّلة على كلِّ خير دنيوي وأخروي ، يتخذونها هزواً يستهزئون بها ، ولعباً يعتقدون أنَّها نوع من اللعب ، في نظرهم الفاسد وفكرهم البارد ، كما قال القائل :

وكم من غائبٍ قولاً صحيحاً
وأفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى : ﴿ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار ﴾ ، (من) ههنا لبيان الجنس
تقديره : ولا ، ﴿ والكفار أولياء ﴾ ، أي : لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء ، والمُرَاد بالكفار ههنا المُشركون وقوله : ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ، أي : اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ، إن كنتم مؤمنين بشرع الله ، الذي اتخذ هؤلاء هزواً ولعباً)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ٥٨] .

إذا أذنتُم إلى الصلاة ودَعَوْتُم إليها، سَخِرَ اليهود والنصارى والمشركون منها، واستهزؤوا بكم. إنهم يتضحكون ويتغامزون فيما بينهم ، ويعرقون في السَّفَه والطَّيْش والمُجُون تجهيلاً للمؤمنين وسُخْرِيَةً مِنْهُمْ ، ومن أذانهم وصلاتهم . وهذا يدلُّ على جهلهم بالله وكُرههم للحق ، وحسداهم للمؤمنين ، وعدم معرفتهم بشريعة الله ومعنى عبادته . لذلك اعتمدوا مبدأ الاستهزاء بأحكام الشريعة ، والسُّخْرِيَّة من الدِّين . وفي هذا دلالة واضحة على كُفرهم وضلالهم وشَقَاوتهم .

وكان الكُفَّارُ إذا سَمِعُوا الأذانَ إلى الصلاة سَخِرُوا واستهزؤوا ، وإذا شاهدوا المسلمين يركعون ويسجدون ضَحِكُوا ولَعِبُوا. والصَّلَاةُ أعظمُ الأعمال وأفضل العبادات لو كانوا يفهمون أو يعقلون ، ولكن عُقولهم محصورة في مصالح الدُّنيا، ومنافعهم الشخصية، ولا يفهمون حكمة الأذان والصلاة، ولا يعرفون معنى العبادات وأهميتها. ونَفَى العقل عنهم، لأنهم لم يستفيدوا منه في أمر دينهم ، ولم يَنتفعوا به لفهم المُراد الإلهيِّ ، ووجود عُقولهم كَعَدَمِهِ ، فكأنَّهم بلا عُقول أصلاً .

إنَّ السَّفَه يُؤدِّي إلى الجَهْل بالحق ، والسُّخْرِيَّة مِنْهُ ، والاستهزاء به ، والعقل يَمْنَع مِنْهُ . والسُّخْرِيَّة والاستهزاء واللعب مِنْ خصائص الجاهلين الطائشين السُّفَهَاء ، أمَّا العُقلاء فإنَّ عُقولهم تَمْنَعُهُمْ مِنَ القَبائح والأُمور السَّيِّئَةِ . وهؤلاء الكُفَّار الضَّالُّون لا يَعْقِلُونَ ما لهم في إجابة الصَّلَاة لَوْ أجابوا إليها ، وما عليهم في استهزائهم بها ، وأيضاً ، لا يَعْقِلُونَ مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وسُرَاتِعِهِ ، وهذه صِفَات أتباع الشَّيْطَان . والآية تدلُّ بوضوح على شرعية الأذان ، وثبوتها بِنَصِّ الْقُرْآن . كما تدلُّ على أن المُستهزئ بالأذان أو الصَّلَاة ، هو عَدُوٌّ أَحْمَق ، ينبغي إيقافه عن حَدِّهِ ، وعدم مَحَبَّتِهِ ، ولا مُوالاتِهِ . والإيمان الحقيقي يَرِفُضُ مُوالاتَةَ أعداء الدِّين .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٢ / ٧٩) : ((والتَّدَاء : الدُّعَاء برفع الصَّوْت))
والضَّمِيرُ فِي ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ لِلصَّلَاةِ ، أَي : اتَّخَذُوا صَلَاتِكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا . وقيل : الضَّمِيرُ لِلْمُنَادَاةِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِنَادِيَتِكُمْ . قيل : وليس في كتاب الله تعالى ذِكْرُ الأذانِ إلا في هذا المَوْضِعِ ، وأمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْجُمُعَةِ : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ [الْجُمُعَةُ : ٩] ، فهو خاص بِبِنْدَاءِ الْجُمُعَةِ . وقد اختلف أهل العِلْمِ فِي كَوْنِ الأذانِ واجِبًا ، أو غَيْرِ واجِبٍ ، وفي ألفاظه، وهو مبسوط في مَوَاطِنِهِ . قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، أَي : ذلك بسبب أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ، لِأَنَّ الْهُزُؤَ وَاللَّعِبَ شَأْنُ أَهْلِ السَّفَهِ وَالخِفَّةِ وَالطَّيْشِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٨٥ و ٣٨٦) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ في سبب نزلها قولان: أحدهما أن مُنادي رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها ، قالت اليهود : قاموا لا قاموا ، صلُّوا لا صلُّوا ، على سبيل الاستهزاء والضحك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب . والثاني أن الكفار لما سمعوا الأذان حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك ، وقالوا : يا مُحَمَّد لقد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم الخالية ، فإن كنت تدعي النبوة فقد خالفت في هذا الأذان الأنبياء قبلك ، فما أقيح هذا الصوت وأسمج هذا الأمر ! ، فنزلت هذه الآية ، ذكره بعض المفسرين . وقال السدي : كان رجل من النَّصارى بالمدينة إذا سمع المُنادي يُنادي : أشهد أن مُحَمَّدًا رسولُ الله ، قال : حرق الكاذب ، فدخلت خادمة ذات ليلة بنار وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة ، فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله . والمناداة هي الأذان ، واتخاذهم إيَّها هزواً تضاحكهم وتغامزهم . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ما لهم في إجابة الصلاة ، وما عليهم في استهزائهم بها)) .

إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ مُنَزَّهٌ عن السُّخرية والاستهزاء واللعب ، والمُسْتَهزِئُ إِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ ، وَيُدَمِّرُ حَيَاتَهُ ، وَيَقْضِي عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ ، وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ أَضْحُوكَةً فِي الدُّنْيَا ، وَمَصِيرَهُ عَذَابَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَمَا ضَرَّ السَّحَابَ نُبَاحُ الْكِلَابِ . وَالْقَافِلَةُ تَسِيرُ وَالْكِلَابُ تَنَسَّحُ . وَلَنْ تَصِلَ أَبَدًا إِلَى وَجْهِكَ إِذَا تَوَقَّعْتَ لِتُلْقِي حَجْرًا عَلَى كُلِّ كَلْبٍ يَنْسَحُ . وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

لَوْ كُلُّ كَلْبٍ عَوَى أَلْقَمْتَهُ حَجْرًا
لَأَصْبَحَ الصَّخْرُ مِثْقَالًا بِدِينَارٍ ٢٠٠

وقال الله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهُوٌّ وللدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٢] .

يُوضِحُ اللهُ حَالِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَتَهَا لِكَيْ لَا يَغْتَرَّ بِهَا الْإِنْسَانُ ، وَلَا يَنْخَدِعَ بِهَا. الدُّنْيَا وَهْمٌ وَبَاطِلٌ ، مُدَّتْهَا قَصِيرَةٌ ، وَمُتَعَتِّهَا زَائِلَةٌ . وَهِيَ تَفْنَى وَتَنْقَضِي كَاللَّعِبِ وَاللَّهُوِّ ، وَتَكُونُ لَذَّةً فَانِيَةً عَنِ الْقَرِيبِ . وَبِمَا أَنَّ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ وَزَائِلَةٌ لَا طَائِلَ لَهَا ، أَشْبَهَتْ اللَّعِبَ وَاللَّهُوَّ الَّذِي لَا طَائِلَ لَهُ إِذَا انْقَضَى .

٢٠٠ الشاعر يُعَبِّرُ إِحْيَاءً عَنِ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ الْمُتَرَبِّصِينَ بِهِ ، وَهُوَ لَا يَرَى أَنَّ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَزِدَّ عَلَيْهِمْ ، فَهُوَ يُشَبِّهُهُمْ بِالْكِلَابِ ، وَيُصِفُ هَجَمَاتِهِمْ بِأَنَّهَا الْعَوَاءُ ، فَلَوْ أَرَادَ أَنْ يَزِدَّ عَلَى كُلِّ عَوَاءٍ لَمَّا بَقِيَ مِنَ الْحِجَارَةِ (التي يطرد بها الكلاب) إلا القليل الأقل ، وبهذا يرتفع سِعْرُ الصَّخْرِ أَوْ الْحِجْرِ ، حَسَبَ قَانُونِ الْعَرَضِ وَالطَّلَبِ .

وَجَعَلَ الدُّنْيَا نَفْسَ اللَّعْبِ وَاللَّهُوَ تَشْبِيهُ بَلِيغٌ وَدَقِيقٌ لِلْمُبَالَغَةِ . وَأَعْمَالُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هِيَ لَعِبٌ وَلَهُوَ ، لِأَنَّهَا بَلَا فَائِدَةَ وَلَا مَنفَعَةَ ، وَتُلْهِى النَّاسَ وَتَشْغَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الْمُفِيدَةُ وَالنَّافِعَةُ وَالْبَاقِيَةُ، الَّتِي تَجْلِبُ الْمَنفَعَةَ الدَّائِمَةَ وَاللَّذَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ . وَاللَّعِبُ : تَرَكُ مَا يَنْفَعُ بِمَا لَا يَنْفَعُ ، وَاللَّهُوُ : الْمَيْلُ عَنِ الْجِدِّ إِلَى الْهَزْلِ . وَكُلُّ مَا أَشْغَلَكَ فَقَدْ أَلْهَاكَ .

وَالْآخِرَةُ (الْجَنَّةُ) الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى النِّعَمِ الْأَبَدِيِّ وَالْمُنْتَعَةِ الدَّائِمَةِ وَاللَّذَّةِ الْمُسْتَمْرَةِ ، خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ ، وَيَتَّقُونَهُ بِامْتِنَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ، مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَنَّ الْآخِرَةَ أَعْظَمُ وَأَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا ؟ . وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ .

وَسُمِّيَتْ آخِرَةً لِتَأْخُرِهَا عَنِ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ هِيَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ الشَّرْكَ وَالْمَعَاصِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ذَلِكَ ؟ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَيْسَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُتَّقِينَ فَهُوَ لَعِبٌ وَلَهُوَ . وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الطَّاعَةَ وَمَا يُعِينُ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا هِيَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٧٩ / ٥) : ((يَقُولُ _ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى _ : مَا بَاغِي لَدَاتِ الْحَيَاةِ الَّتِي أُذْنِيَتْ لَكُمْ، وَفَرَّبَتْ مِنْكُمْ فِي دَارِكُمْ هَذِهِ وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا فِيهَا وَالْمُتَلَذِّذُ بِهَا وَالْمُنَافِسُ عَلَيْهَا، إِلَّا فِي لَعِبٍ وَلَهُوَ ، لِأَنَّهَا عَمَّا قَلِيلٍ تَزُولُ عَنِ الْمُسْتَمْتِعِ بِهَا ، وَالْمُتَلَذِّذِ فِيهَا بِمَلَادُهَا ، أَوْ تَأْتِيهِ الْأَيَّامُ بِفَجَائِعِهَا وَصُرُوفِهَا ، فَتَمُرُّ عَلَيْهِ ، وَتُكَدَّرُ ، كَاللَّعِبِ اللَّاهِي الَّذِي يَسْرِعُ اضْمِحْلَالُ لَهُوِهِ وَلَعِبِهِ عَنْهُ ، ثُمَّ يَعْقُبُهُ مِنْهُ نَدَمًا ، وَيُورِثُهُ مِنْهُ تَرَحًّا . يَقُولُ : لَا تَعْتَرُوا أَيُّهَا النَّاسُ بِهَا ، فَإِنَّ الْمُعْتَرَّ بِهَا عَمَّا قَلِيلٍ يَنْدَمُ ، ﴾ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، يَقُولُ : وَلِلْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ بِالصَّالِحِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَبْقَى مَنَافِعُهَا لِأَهْلِهَا ، وَيَدُومُ سُرُورُ أَهْلِهَا فِيهَا ، خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الَّتِي تَفْنَى وَشَبِيكًا ، فَلَا يَبْقَى لِعَمَالِهَا فِيهَا سُرُورٌ ، وَلَا يَدُومُ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ . ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، يَقُولُ : لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَيَتَّقُونَهُ بِطَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى رِضَاةِ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يَقُولُ : أَفَلَا يَعْقِلُ هَؤُلَاءِ الْمُكذِّبُونَ بِالْبَعْثِ حَقِيقَةَ مَا نُخَيِّرُهُمْ بِهِ مِنْ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ، وَهُمْ يَرَوْنَ مَنْ يُخْتَرَمُ مِنْهُمْ ، وَمَنْ يَهْلِكُ فَيَمُوتُ ، وَمَنْ تَنُوبُهُ فِيهَا النَّوَابِغُ ، وَتُصِيبُهُ الْمَصَائِبُ ، وَتُفْجِعُهُ الْفَجَائِعُ؟ فَفِي ذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَ مُدَكَّرٌ وَمُزْدَجَّرٌ عَنِ الرُّكُونِ إِلَيْهَا ، وَاسْتِعْبَادِ النَّفْسِ لَهَا، وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ لَهَا مُدَبَّرًا وَمُصَرَّفًا يَلْزَمُ الْخَلْقَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لَهُ بِغَيْرِ إِشْرَاقٍ شَيْءٍ سِوَاهُ مَعَهُ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٦ و ٢٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ ، فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي سُرْعَةِ انْقِطَاعِهَا وَقِصَرِ عُمْرِهَا إِلَّا كَالشَّيْءِ يَلْعَبُ بِهِ . وَالثَّانِي وَمَا أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْعَمَلُ لَهَا ، إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ ، فَأَمَّا فِعْلُ الْخَيْرِ فَهُوَ مِنْ

عَمَلِ الآخِرَةِ ، لا مِنَ الدُّنْيَا . والثالث وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو ، لاشتغالهم عمَّا أمرُوا به ، واللعب : ما لا يُجدي نفعًا . قوله تعالى : ﴿ وَلِلدَّارِ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، اللام لام القسم ، والدار الآخرة : الجنة ، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فَيَعْمَلُونَ لها) .

وقال القرطبي في تفسيره (٣٧٩ / ٦) : ((فيه مسألتان : الأولى _ قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهُوٌ ﴾ ، أي : لِقَصْرِ مُدَّتِهَا ، كما قال :

ألا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ نَائِمٍ وما خَيْرٌ عَيْشٍ لا يَكُونُ بِدَائِمٍ
تَأْمَلُ إِذَا مَا نَلْتَ لَذَّةً فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلا كَحَالِمٍ

وقال آخر :

فَاعْمَلْ عَلَى مَهَلٍ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَاكْدَحْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
فَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضَى وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ قَدْ كَانَ

وقيل : المعنى : مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِعِبِّ وَلَهُوٍ ، أي : الذي يَشْتَهُونَهُ فِي الدُّنْيَا لا عاقبة له ، فهو بِمَنْزِلَةِ اللُّعْبِ وَاللَّهُوِ . وَنَظَرَ سُلَيْمَانُ بن عبد المَلِكِ فِي المِرْآةِ ، فَقَالَ : أَنَا المَلِكُ الشَّابُّ ،

فَقَالَتْ لَهُ جَارِيَةٌ لَهُ : أَنْتَ نِعْمَ المَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لا بَقَاءَ لِلإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيما بَدَأَ لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ كَانَ فِي النّاسِ غَيْرَ أَنْكَ فاني

وقيل : معنى ﴿ لِعِبِّ وَلَهُوٌ ﴾ باطلٌ وَغُرُورٌ ، كما قال : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا مَتَاعُ العُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] الثانية _ لَيْسَ مِنَ اللُّهُوِ واللُّعْبِ ما كان مِنَ أُمُورِ الآخِرَةِ ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ اللُّعْبِ ما لا يُنْتَفَعُ بِهِ ، وَاللُّهُوُ : ما يُلْتَهَى بِهِ . وما كان مُرَادًا لِلآخِرَةِ خَارِجَ عَنهُمَا ، وَذَمَّ رَجُلٌ الدُّنْيَا عِنْدَ عَلِيِّ بن أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ فَقَالَ عَلِيٌّ : الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَّقَهَا ، وَدَارُ نِجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنَى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا . وقال محمود الوراق :

لا تُتْبِعِ الدُّنْيَا وَأَيَّامَهَا ذَمًّا وَإِنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَةُ
مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا أَنْ بِهَا تُسْتَدْرَكُ الآخِرَةُ

.... . وقال الشاعر :

تَسَمَّعُ مِنَ الأَيَّامِ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا فَإِنَّكَ مِنْهَا بَيْنَ نَاهِ وَآمِرِ
إِذَا أَبَقْتَ الدُّنْيَا عَلَى المَرءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَ مِنْ شَيْءٍ فَلَيْسَ بِضَائِرِ
وَلَنْ تَعْدِلَ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلا وَزْنَ زَفٍّ مِنْ جَنَاحِ لِطَائِرِ
فَمَا رَضِيَ الدُّنْيَا ثَوَابًا لِمُؤْمِنٍ وَلا رَضِيَ الدُّنْيَا جَزَاءً لِكَافِرِ

وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر ، لأنه يُزَجِّجها في غُرور وباطل ، فأما حياة المؤمن فَتَنْطوي على أعمال صالحة ، فلا تكون لَهْوًا وَلَعِبًا . قوله تعالى : ﴿ وَلِلدَّارِ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، أي : الجَنَّةُ لبقائها ، وَسُمِّيَتْ آخِرَةً ، لِتَأخُّرِهَا عَنَّا ، وَالدُّنْيَا لِدُنُوِّهَا مِنَّا ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أي : الشَّرِكُ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قُرئَ بالياء والتاء ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ أَنَّ الأَمْرَ هَكَذَا فَيَزْهَدُوا فِي الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وفي تفسير الثعالبي (١ / ٥١٥) : ((قال عبد الحق في (العاقبة) : اعْلَمْ _ رَحِمَكَ اللَّهُ _ أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا هُوَ سَبَبُ طُولِ الأَمَلِ ، وَالإِكْبَابُ عَلَيْهَا يَمْنَعُ مِنَ الفِكْرَةِ فِي الخُرُوجِ عَنهَا ، وَالجَهْلُ بِغَوَائِلِهَا _ مَصَائِبِهَا _ يَحْمِلُ عَلَى الإِرَادَةِ لَهَا ، وَالإِزْدِيَادُ مِنْهَا ، لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَحَبَّ الكَوْنَ مَعَهُ ، وَالإِزْدِيَادُ مِنْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَشغُوفًا بِالدُّنْيَا مُجِبًّا لَهَا قَدْ خَدَعْتَهُ بِزُخْرُفِهَا وَأَمَلْتَهُ بِرُؤُوتِهَا ، كَيْفَ يُحِبُّ مُفَارَقَتَهَا ، أَوْ يُحِبُّ مُزَايَلَتَهَا ؟ ، هَذَا أَمْرٌ لَمْ تَجْرِ العَادَةُ بِهِ ، وَلَا حُدُوثًا عَنْهُ ، بَلْ نَجِدُ مَنْ كَانَ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ أَعْمَى عَنِ طَرِيقِ الخَيْرِ ، أَصَمَّ عَنِ دَاعِي الرُّشْدِ ، أَفَنَ الرَّأْيِ ، سَيِّئَ النِّظَرِ ، ضَعِيفَ الإِيمَانِ ، لَمْ تَتْرُكْ لَهُ الدُّنْيَا مَا يَسْمَعُ بِهِ ، وَلَا مَا يَرَى ، إِنَّمَا دِينُهُ وَشُغْلُهُ وَحَدِيثُهُ دُنْيَاهُ ، لَهَا يَنْظُرُ ، وَلَهَا يَسْمَعُ ، قَدْ مَلَأَتْ عَيْنَهُ وَقَلْبَهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَاعْلَمْ أَنَّ أَهْلَ القُبُورِ إِنَّمَا يَنْدُمُونَ عَلَى مَا يَتْرُكُونَ ، وَيَفْرَحُونَ بِمَا يُقَدِّمُونَ ، فَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ القُبُورِ يَنْدُمُونَ ، أَهْلُ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَفْتَنُونَ)) .

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [الأنعام: ٧٠] . الخِطَابُ الإِلَهِيُّ لِلنَّبِيِّ ﷺ : وَاتْرُكْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَ اللَّهِ (الإسلام) لَعِبًا عَابِرًا وَلَهْوًا بَاطِلًا ، وَسَخَرُوا مِنَ الدِّينِ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ ، وَكَذَّبُوا آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَلَاعَبُوا عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَاسْتَهَانُوا بِطَاعَتِهِ ، وَأَهْمَلُوا عِبَادَتَهُ . وَكَانَ الواجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعْظَمُوا الدِّينَ ، وَيَحْتَرَمُوا ، وَيَلْتَمِزُوا بِأوامره وَنَوَاهِيهِ . دَعُّهُمْ يَا مُحَمَّدُ ، وَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَلَا تَعَبًا بِهِمْ ، وَلَا تَأْتِبَهُ لَهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ بِشَأْنِهِمْ ، وَلَا تُبَالِ بِكُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ ، وَأَمْهَلِهِمْ قَلِيلًا ، فَإِنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ . وَاللَّهُوُ : مَا يُشغِلُ الإنسانَ مِنْ هَوَى أَوْ طَرَبٍ . وَخَدَعْتَهُمْ هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا الفَانِيَةُ الزَّائِلَةُ ، حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّهَا البَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ ، وَلَا تَوْجِدُ حَيَاةً بَعْدَهَا . لَقَدْ عَرَفُوا فِي شَهَوَاتِهِمُ الوَضِيعَةَ ، وَأَمَانِيَهُمُ البَاطِلَةَ ، وَأَطْمَأَنَّنُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَكَنُوا إِلَيْهَا ، وَأَنْكَرُوا البَعْثَ ، وَجَحَدُوا وُجُودَ الدَّارِ الآخِرَةِ . كُلُّ تَفْكِيرِهِمْ مَحْصُورٌ فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ . وَقَدْ اغْتَرُّوا بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَطُولِ إِمهالِ اللَّهِ لَهُمْ ، وَحِلْمِهِ عَلَيْهِمْ ، وَثَقَّتْهُمُ الوَهْمِيَّةُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَنِعِيمِهِ وَمَغْفِرَتِهِ . وَهَذِهِ الأَمَانِيُّ الكَاذِبَةُ قَادَتْهُمْ إِلَى الهَلَاكِ وَالعَذَابِ . وَحَتَّى لَوْ لَمْ تَتْرُكْ الدُّنْيَا ، فَأَنْتَ سَوْفَ تَتْرُكُهَا . وَعَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَتَذَكَّرَ المَوْتَ وَمَا بَعْدَهُ ، وَيُرَكِّزُ فِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ البَاقِيَةَ ،

ولا يغتر بزخارف الحياة الدنيا الفانية . وعُمُرُ الإنسانِ مَهْمَا طال ، لا بُدَّ له من نهاية، وسوف يَرَحُلُ من هذه الدنيا الزائلة، إلى الدار الآخرة الباقية، فإِذَا نعيم أبدي في الجنة ، أو عذاب أبدي في النار . ولا يُوجد حل وسط . والآية للوعيد والتهديد . ولا يُوجد فيها نَسْخ ، لأنها تَحْمِلُ خَبْرًا ، والأخبار لا نَسْخ فيها . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤١٩) : ((﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أي : بَنَوْا أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى التَّشَهِّي ، وَتَدَيَّنُوا بِمَا لَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِنَفْعٍ عَاجِلًا أَوْ آجَلًا ، كَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِ ، أَوْ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الَّذِي كَلَّفُوهُ لَعِبًا وَلَهْوًا ، حَيْثُ سَخَرُوا بِهِ ، أَوْ جَعَلُوا عِبَادَتَهُمُ الَّذِي جُعِلَ مِيقَاتُ عِبَادَتِهِمْ زَمَانًا لَهُمْ وَلَعِبٌ . والمعنى: أَعْرَضَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُبَالُ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ . ويجوز أن يكون تهديدًا لهم)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٦٤) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ . فِيهِمْ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنََّّهُمُ الْكُفَّارُ ، وَالثَّانِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . وَفِي اتَّخَذَهُمْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ اسْتَهْزَأَهُمُ بآيَاتِ اللَّهِ إِذَا سَمِعُوهَا . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ دَانُوا بِمَا اسْتَهْوَوْا كَمَا يَلْهُونَ بِمَا يَشْتَهُونَ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُمْ يُحَافِظُونَ عَلَى دِينِهِمْ إِذَا اسْتَهْوَوْا كَمَا يَلْهُونَ إِذَا اسْتَهْوَوْا . قَالَ الْفَرَّاءُ : وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ إِلَّا وَلَهُمْ عِيدٌ ، فَهَمُ يَلْهُونَ فِي أَعْيَادِهِمْ إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّ أَعْيَادَهُمْ صَلَاةٌ وَتَكْبِيرٌ وَبِرٌّ وَخَيْرٌ . وَلِعُلَمَاءِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ فِي هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْآيَةِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّهْدِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر: ١١] . فَعَلِيَ هَذَا هُوَ مُحْكَمٌ ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ مُجَاهِدٌ . وَالثَّانِي أَنَّهُ اقْتَضَى الْمُسَامَحَةَ لَهُمْ ، وَالْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ ، ثُمَّ نُسِخَ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] .

إِنَّ الدُّنْيَا وَهْمٌ وَبَاطِلٌ وَغُرُورٌ ، يَسْتَمِرُّ لِمُدَّةٍ قَلِيلَةٍ ، ثُمَّ يَنْقُضِي وَيَقْنِي وَيَزُولُ . وَالْآيَةُ تُخْبِرُ عَنِ حَقَارَةِ الدُّنْيَا ، وَزَوَالِهَا ، وَانْقِضَائِهَا ، وَأَنَّهَا لَا دَوَامَ لَهَا . وَغَايَةُ مَا فِيهَا لَهْوٌ وَلَعِبٌ . وَالدُّنْيَا وَضِيعَةٌ لَا تَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ . وَالدُّنْيَا مِثْلُ الشَّيْءِ الَّذِي يَلْعَبُ بِهِ الصَّبِيَّانُ ، يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، وَيَفْرَحُونَ بِهِ مُدَّةً قَصِيرَةً ، ثُمَّ يَتَفَرَّقُونَ مُتَعَبِينَ ، وَيَذْهَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى بَيْتِهِ . وَالدُّنْيَا إِنْ بَقِيَتْ لَكَ ، لَمْ تَبْقَ لَهَا . وَالْجَنَّةُ هِيَ دَارُ الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ الْحَقِيقَةِ ، الَّتِي لَا مَوْتَ فِيهَا ، وَلَا زَوَالَ لَهَا ، وَلَا مُشْكَلَاتٍ تَشُوبُهَا ، كَمَا تَشُوبُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَلَوْ عَلِمُوا لِأَذْرِكُوا فَنَاءَ الدُّنْيَا وَبَقَاءَ الْآخِرَةِ ، وَاخْتَارُوا الْبَاقِيَ عَلَى الْفَانِي ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا الزَّوَالَ عَلَى الْخُلُودِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ

وَعُرُورِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَقَصَرَ نَظَرَهُمْ وَإِنِّهَمَاكِهِمْ فِي الشَّهَوَاتِ ، الَّتِي أَعَمَّتْ بَصَائِرَهُمْ . وَسُمِّيَتْ الدُّنْيَا لَهَوًا وَلَعِبًا ، لِأَنَّهَا فَانِيَةٌ وَزَائِلَةٌ . وَأَصْلُ الدُّنْيَا عَدَمُ الْحَيَاةِ ، وَالْحَيَاةُ فِيهَا عَارِضَةٌ سَرِيعَةُ الزَّوَالِ ، أَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ الْحَيَوَانُ ، أَي : الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ الْبَاقِيَةُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي لَا تَفْنَى وَلَا تَزُولُ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣ / ٣٢٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ ، أَي : شَيْءٌ يُلْهَى بِهِ وَيُلْعَبُ ، أَي : لَيْسَ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ الْأَعْيَاءَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَهُوَ يَضْمَحِلُّ وَيَزُولُ ، كَاللَّعِبِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَلَا ثَبَاتَ . قَالَ بَعْضُهُمْ : الدُّنْيَا إِنْ بَقِيَتْ لَكَ لَمْ تَبْقَ لَهَا ، وَأَنْشَدَ :

تَرُوحُ لَنَا الدُّنْيَا بِغَيْرِ الَّذِي عَدَّتْ	وَتَحَدَّثُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ
وَتَجْرِي اللَّيَالِي بِاجْتِمَاعِ وَفُرْقَةٍ	وَتَطْلُعُ فِيهَا أَنْجُمٌ وَتَغُورُ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّهْرَ بَاقٍ سُرُورُهُ	فَدَاكَ مُحَالٌ لَا يَدُومُ سُرُورُ
عَفَا اللَّهُ عَمَّنْ صَيَّرَ لَهُمْ وَاحِدًا	وَأَيَّقَنَ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قُلْتُ : وَهَذَا كُلُّهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْمَلْبَسِ الزَّائِدِ عَلَى الصَّرُورِيِّ الَّذِي بِهِ قِيَامُ الْعَيْشِ ، وَالقُوَّةِ عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا لِلَّهِ فَهُوَ مِنَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَبْقَى ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرَّحْمَنُ : ٢٧] ، أَي : مَا ابْتَغَى بِهِ ثَوَابَهُ وَرِضَاهُ ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ ، أَي : دَارُ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَلَا مَوْتَ فِيهَا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّهَا كَذَلِكَ)) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٣٠١) : ((أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى تَحْقِيرِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهَا مِنْ جِنْسِ اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ ، وَأَنَّ الدَّارَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هِيَ دَارُ الْآخِرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ ، مِنْ جِنْسِ مَا يُلْهَوُ بِهِ الصَّبِيَّانِ ، وَيَلْعَبُونَ بِهِ ، ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ ، قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ : إِنَّ الْحَيَوَانَ الْحَيَاةَ . قَالَ الْوَاحِدِيُّ : وَهُوَ قَوْلُ جَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ ، ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْحَيَوَانَ هُنَا الْحَيَاةُ ، وَأَنَّهُ مَصْدَرٌ بِمَنْزِلَةِ الْحَيَاةِ ... وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ دَارُ الْحَيَوَانَ ، أَوْ ذَاتُ الْحَيَوَانَ ، أَي : دَارُ الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ ، الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَلَا يُنْغَصِّهَا مَوْتُ ، وَلَا مَرَضٌ ، وَلَا هَمٌّ ، وَلَا غَمٌّ ، ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ لَمَا آثَرُوا عَلَيْهَا الدَّارَ الْفَانِيَةَ الْمُنْغَصَّةَ)) .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ٢٠١ .

وإذا رأى المنافقون المؤمنين واجتمعوا بهم ، أظهرُوا لهم الإيمانَ والمُوالاةَ نفاقًا وخذاعًا . أي إنَّ المنافقين إذا لَقُوا المهاجرين والأنصارَ ، قالوا : آمَنَّا كمايمانكم ، لإيهاهم أَنَّهُمْ مَعَهُمْ ، وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم (أهل الضلال والنفاق) ، قالوا لهم : نحن على دينكم ، ومُسانِدُونَ لكم ضد من خالفكم ، وإنما نستَهزئُ بأصحاب مُحَمَّدٍ ونَسخرُ منهم بإظهار الإيمان .

وقال التَّنسفي في تفسيره (١ / ٢٠) : ((وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية ، وشياطينهم بالاسمية مُحَقَّقة بـ (إن) ، لأنَّهم في خطابهم مع المؤمنين في ادِّعاء حدوث الإيمان مِنْهُمْ ، لا في ادِّعاء أَنَّهُمْ أُوحديون في الإيمان ، إمَّا لأنَّ أَنفُسَهُمْ لا تُساعدُهُم عليه ، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومُحرِّك ، وإمَّا لأنَّه لا يَروِج عنهم لَو قالوه على لفظ التأكيد والمبالغة ، وكيف يَطْمَعُونَ في رَواجِه وهم بين ظَهْراني المهاجرين والأنصار ؟ . وإمَّا خطابهم مع إخوانهم فقد كان عن رغبة ، وقد كان مُتَقَبَّلًا مِنْهُمْ ، رائجًا عَنْهُمْ ، فكان مَطْنَةً للتحقيق ، ومِثْنَةً (علامة) للتأكيد)) .

وقَوْلُ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ رَفُضٌ للإسلام ، ورَدٌ له ، لأنَّ المُسْتَهْزِئَ بِالشَّيْءِ والمُسْتَحْفَ بِهِ ، مُنْكَرٌ له ، وَغَيْرٌ مؤمن به . والاستهزاء : السُّخْرِيَّةُ والاستخفاف .

لقد بيَّنت الآية الكريمة حالَ الْمُنَافِقِينَ ، وفضحتهم ، وكشفت باطلهم ، فقد كانوا يُظهِرون الإيمانَ للمؤمنين ، ويُظهِرون الكُفْرَ في خَلْواتِهِمْ . والنبي ﷺ ليسَ سَادِجًا ولا مُعَقَّلًا ، ولكِنَّه كان

٢٠١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٤) : ((اختلفوا فيمن نزلت على قَوْلَيْنِ : أحدهما أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه ، قاله ابن عباس . والثاني أنها نزلت في المنافقين وغيرهم من أهل الكتاب الذين كانوا يُظهِرون للنبي ﷺ من الإيمان ما يَلْمُؤُونَ رؤسائِهِمْ بِضِدِّهِ ، قاله الحسن . فأما التفسير ، في (إلى) بمعنى (مع) والشياطين : جَمْعُ شَيْطَانٍ ، قال الخليل : كُلُّ مُتَمَرِّدٍ عند العرب شَيْطَانٌ وفي المُراد بشياطينهم ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّهُمْ رُؤُوسُهُمْ في الكُفْرِ ، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن والسُّدي ، والثاني إخوانهم من المشركين ، قاله أبو العالية ومجاهد ، والثالث كَهْتَمُهُمْ ، قاله الضَّحَّاك والكلبي . قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، فيه قولان : أحدهما أَنَّهُمْ أرادوا : إِنَّا مَعَكُمْ على دينكم ، والثاني إِنَّا مَعَكُمْ على النَّصْرَةِ والمُعَاوَدَةِ)) .

يُعرض عنهم ، ويتركهم في غمرة الاشتباه ، مَخَافَةَ أَنْ يتحدّث الناسُ عنه أَنَّهُ يَقْتُلُ أصحابه . وهذه سياسة حكيمة تدلُّ على ذكاء النبي ﷺ ، ويُعدُّ نَظْرَهُ ، وتقديره الدقيق لعواقب الأمور .

وقال ابن كثير في تفسيره (٨٠ / ١) : ((يقول تعالى : وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا : آمَنَّا ، وَأُظْهِرُوا لَهُمْ الْإِيمَانَ وَالْمُؤَالَاةَ وَالْمُصَافَاةَ غُرُورًا مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَنِفَاقًا وَمُصَانَعَةً وَتَقِيَّةً ، وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِي مَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَعْنَمٍ ، ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : إِذَا انصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ، فَضَمَّنَ (خَلَوْا) مَعْنَى انصَرَفُوا ، لِتَعْدِيته يَأَلِي ، لِيَدُلَّ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضْمَرِّ ، وَالْفِعْلِ الْمَلْفُوظِ بِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : (إِلَى) هُنَا بِمَعْنَى (مَعَ) ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ ، وَعَلَيْهِ يَدُورُ كَلَامُ ابْنِ جَرِيرٍ . وَقَالَ السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ : (خَلَوْا) يَعْنِي : مَضَوْا ، وَ(شَيَاطِينِهِمْ) سَادَتُهُمْ وَكِبْرَاؤُهُمْ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرُؤُوسِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَشَيَاطِينُ كُلِّ شَيْءٍ مَرَدَّتُهُ ، وَيَكُونُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَي : إِنَّا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، أَي : إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ ، وَنَلْعَبُ بِهِمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالُوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ سَاخِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكَذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٥] .
قال الله رَدًّا عَلَيْهِمْ ، وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ : اللَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ ، وَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ ، وَيُعَاقِبُهُمْ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَيُجَازِيهِمْ أَحْكَامَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِدْرَاجَهُمْ بِالْإِمْهَالِ ، وَالزِّيَادَةَ فِي النَّعْمِ عَلَى التَّمَادِي فِي الطُّغْيَانِ ، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَيَاهَانْتُهُمْ وَإِذْلَالَهُمْ وَتَعْذِيْبَهُمْ مَعْنَوِيًّا وَمَادِيًّا .
وقد سَمَّى اللَّهُ الْعُقُوبَةَ بِاسْمِ الذَّنْبِ ، أَي إِنَّهُ سُبْحَانَهُ سَمَّى الْجَزَاءَ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ اسْتَهْزَاءً بِطَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ ، وَهِيَ الْإِتِّفَاقُ فِي اللَّفْظِ مَعَ الْإِخْتِلَافِ فِي الْمَعْنَى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١٧٨ / ١) : ((وَإِنَّمَا اسْتُوْنَفَ بِهِ ، وَلَمْ يَعْطِفْ ، لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى مُجَازَاتِهِمْ ، وَلَمْ يُحَوِّجِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنْ يُعَارِضُوهُمْ ، وَأَنَّ اسْتَهْزَاءَهُمْ لَا يُؤْتِيهِ بِهِ فِي مُقَابَلَةِ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَقُلْ : اللَّهُ مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ لِطَبَاقِ قَوْلِهِمْ إِيْمَاءً بِأَنَّ اسْتَهْزَاءَهُ يَخْدُثُ حَالًا فَحَالًا ، وَيَتَجَدَّدُ حِينَ بَعْدَ حِينَ ، وَهَكَذَا كَانَتْ نِكَايَاتُ اللَّهِ فِيهِمْ)) .

وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٧٠ / ١) : ((فَرَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، أَي : يُنْزِلُ بِهِمُ الْهَوَانَ وَالْحَقَارَةَ ، وَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ ، وَيَسْتَخْفِ بِهِمْ ، انْتِصَافًا مِنْهُمْ لِعِبَادِهِ

المؤمنين ، وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاءً مع كونه عقوبةً ومكافأةً مُشاكلةً . وقد كانت العربُ إذا وصَّعتُ لفظاً يازاء لفظ جواباً له وجزاءً ، ذكَّرتُه بِمِثْلِ ذلك اللفظ ، وإن كان مُخالفًا له في معناه وإنما قال : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، لأنه يُفيد التَّجَدُّدَ وَقْتًا بعد وقت ، وهو أشدُّ عَلَيْهِمْ ، وأنكأ لِقُلُوبِهِمْ ، وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت ، المُستفاد من الجُملة الاسميَّة ، لِمَا هو محسوس من أنَّ العُقوبة الحادثة وَقْتًا بعد وقت ، والمُتجدِّدة حينًا بعد حين ، أشد على مَنْ وَقَعَتْ عليه من العذاب الدائم المُستمر ، لأنَّه يَأْلُفُه ، ويُوَطِّنُ نَفْسَه عَلَيْهِ)) .

وَيُمَهِّلُهُمُ اللَّهَ وَيَتْرَكُهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، يَتَخَبَّطُونَ وَيَتَرَدَّدُونَ حَيَارَى ، لا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنَ الكُفْرِ ، ولا يَجِدُونَ مَخْرَجًا مِنْهُ ، لأنَّ اللَّهَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وأَعْمَى بَصَائِرَهُمْ ، فلا يُصِرُّونَ طريقَ الحقِّ ، ولا يَهْتَدُونَ إلى سبيل الصواب .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٥ و ٣٦) : ((قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ، اختلف العلماء في المراد باستهزاء الله بهم على تسعة أقوال : أحدها أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُمْ باب من الجنة وهم في النار ، فيُسْرِعُونَ إليه فيُعْلَقُ ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُمْ باب آخر ، فيُسْرِعُونَ فيُعْلَقُ ، فيضحك منهم المؤمنون ، رُوِيَ عن ابن عباس . والثاني أَنَّهُ إذا كان يوم القيامة جمَدَت النار لهم ، كما تجمَد الإهالة في القدر ، فيمشون فتتخسف بهم ، رُوِيَ عن الحسن البصري . والثالث أَنَّ الاستهزاء بهم إذا ضُربَ بينهم وبين المؤمنين يسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ، فييقون في الظلمة ، فيقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد : ١٣] ، قاله مقاتل . والرابع أَنَّ المراد به يُجازيهم على استهزائهم ، فقُوبِلَ اللفظ بِمِثْلِهِ لفظًا ، وإن خالفه معنًى ، فهو كقولهِ تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] . وقال عمرو بن كلثوم : ألا لا يَجْهَلُنَّ أَحَدًا عَلَيْنَا ... فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الجاهلينا . أراد : فتعاقبه بأغلظ من عقوبته . والخامس أَنَّ الاستهزاء من الله التخطفة لهم والتجهيل ، فمعناه : اللَّهُ يُحْطِئُ فَعْلَهُمْ ، وَيُجْهَلُهُمْ في الإقامة على كُفْرِهِمْ . والسادس أَنَّ استهزاه : استدراجه إيَّاهم . والسابع أَنَّهُ يَقَاعُ استهزائهم بهم ، ورد خداعهم ومكرهم عليهم ، ذكَّرَ هذه الأقوال مُحَمَّد بن القاسم الأنباري . والثامن أَنَّ الاستهزاء بهم أن يُقال لأحدهم في النار ، وهو في غاية الدُّلِّ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العزيزُ الكريمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] ، ذكَّره شيخنا في كتابه . والتاسع أَنَّهُ لَمَّا أَظْهَرُوا مِنْ أحكام إسلامهم في الدُّنيا خلافَ ما أُبْطِنَ لَهُمْ في الآخرة ، كان كالاستهزاء بهم . قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، فيه أربعة أقوال :

أحدها يُمْكِنُ لهم ، قاله ابن مسعود . والثاني يُمْلِي لهم ، قاله ابن عباس . والثالث يَرِيدُهُم ، قاله مُجاهد . والرابع يُمَهِّلُهُم ، قاله الرَّجَّاح . والطُّغْيَانُ : الزَّيَادَةُ عَلَى الْقَدْرِ ، وَالخُرُوجُ عَنِ حَيْزِ الاعتدال في الكثرة. يُقَالُ: طَغَى الْبَحْرُ: إِذَا هَاجَتْ أَمْوَالُهُ ، وَطَغَى السَّيْلُ : إِذَا جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ . وفي المُرَاد بِطُغْيَانِهِمْ قَوْلَانُ : أَحدهما أَنَّهُ كُفَّرَهُمْ ، قاله الجُمهور . والثاني أَنَّهُ عَتُّوهُمْ وَتَكَبَّرَهُمْ، قاله ابن قُتَيْبَةَ . وَيَعْمَهُونَ (بِمَعْنَى يَتَحَيَّرُونَ وقال ابن قُتَيْبَةَ: (يَعْمَهُونَ) يَرِكِبُونَ رُؤُوسَهُمْ فَلَا يُبْصِرُونَ)) .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوَقَّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : ٢١٢] ٢٠٢ .

زَيْنَتْ لِلْكَافِرِينَ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا وَنَعِيمُهَا الْفَانِي وَمُتَعْتِهَا الزَّائِلَةُ وَلَدَّتْهَا الْمُؤَقَّتَةُ حَتَّى نَسُوا الْآخِرَةَ ، فَهُمْ لَا يُرِيدُونَ غَيْرَ الدُّنْيَا ، وَهِيَ هِمَّتُهُمْ وَغَايَتُهُمْ . لَقَدْ حُسِّنَتْ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ ، وَسَبَطَ عَشْفُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى تَهَالَكُوا عَلَيْهَا ، وَتَهَافَتُوا عَلَى حُطَامِهَا النَّافِ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْآخِرَةِ ، وَهِيَ دَارُ الْخُلُودِ الْبَاقِيَةِ الدَّائِمَةِ .

وَالْمُزَيِّنُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، إِذْ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ فَاعِلُهُ . وَالتَّزْيِينُ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ وَالْإِبْجَادُ مُسْتَبَدٌّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالشَّيْطَانُ مُزَيِّنٌ بِالْعَرَضِ . وَالتَّزْيِينُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ الْجَمِيلَةَ وَالْمَنَاظِرَ الرَّائِعَةَ ، فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهَا بِأَكْثَرٍ مِنْ قَدْرِهَا ، فَأَعْجَبْتَهُمْ . وَالْأَنْفُسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ . وَالدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانٍ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا مِنْ أَجْلِ اخْتِبَارِ النَّاسِ ، وَالْمُؤْمِنُ يَجْعَلُ الدُّنْيَا وَسِيلَةً لِلْآخِرَةِ ، فَيَنْجَحُ فِي الْاِخْتِبَارِ ، وَالْكَافِرُ يَجْعَلُ الدُّنْيَا غَايَتَهُ ، وَيُعْرِضُ عَنِ الْآخِرَةِ ، فَيَسْقُطُ فِي الْاِخْتِبَارِ .

تَوْضِیحُ الْآيَةِ عَمَلِيَّةٌ تَزْيِينُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَضُوا بِهَا ، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا ، وَغَرِقُوا فِي الشَّهَوَاتِ ، وَخَرَصُوا عَلَى الْأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَالرَّعَامَةِ وَالرَّئَاسَةِ وَالشُّهْرَةِ وَالسُّلْطَةَ وَالنُّفُوزَ . وَحُصَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ مَعَ كَوْنِ الدُّنْيَا مُزَيِّنَةً لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، لِأَنَّ الْكَافِرَ افْتَنَّ بِهَذَا التَّزْيِينِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَالْمُؤْمِنُ لَمْ يَفْتَنَّ ، وَإِنَّمَا مَلَأَ الدُّنْيَا بِالْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْآخِرَةِ .

٢٠٢ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٢٢٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ فِي نَزْوِلِهَا ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحدها أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ ، قاله ابن عباس . والثاني نَزَلَتْ فِي عُلَمَاءِ الْيَهُودِ ، قاله عطاء . والثالث فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، قاله مُقَاتِلٌ . قال الرَّجَّاحُ : وَإِنَّمَا جَارَ فِي (زَيْنَ) لَفْظِ التَّذْكِيرِ لِأَنَّ تَأْنِيثَ الْحَيَاةِ لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ ، إِذْ مَعْنَى الْحَيَاةِ وَمَعْنَى الْعَيْشِ وَاحِدٌ)) .

وإيراد التزيين بصيغة الماضي : ﴿ زَيَّنَ ﴾ لِكَوْنِهِ مَفْرُوعًا مِنْهُ ، رَاسِخًا فِي طَبِيعَتِهِمْ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ : ﴿ وَيَسْخَرُونَ ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ السُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ ، لِأَنَّ صِبْغَةَ الْمُضَارِعِ تُفِيدُ الدَّوَامَ وَالتَّجَدُّدَ وَالاسْتِمْرَارَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٣ / ٣٠) : ((والمزَّين هو خالقها ومُخْتَرِعُهَا ، وخالق الكُفْر ، وَيَزَيِّنُهَا أَيضًا الشَّيْطَانُ بِوَسْوَستِهِ وَإِغْوَانِهِ . وَخُصَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لِقَبُولِهِمُ التَّزْيِينَ جُمْلَةً ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الآخِرَةِ بِسَبَبِهَا . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُغُوا الخَلْقَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، فَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى سُنَنِ الشَّرْعِ لَمْ تَفْتِنَهُمُ الرِّبَاةُ ، وَالكُفَّارُ تَمَلَّكَتْهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ غَيْرَهَا . وَقَدْ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قُدِمَ عَلَيْهِ بِالْمَالِ : اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَ لَنَا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٢٢٨) : ((وَإِلَى مَنْ يُضَافُ هَذَا التَّزْيِينَ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يُضَافُ إِلَى اللَّهِ وَالثَّانِي أَنَّهُ يُضَافُ إِلَى الشَّيْطَانِ ، زُوي عن الحَسَنِ . قَالَ شَيْخُنَا عَلِي بن عُبيدِ اللَّهِ : وَالتَّزْيِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ التَّرْكِيبُ الطَّبِيعِيُّ ، فَإِنَّهُ وَضَعَ فِي الطَّبَائِعِ مَحَبَّةَ المَحْبُوبِ لِصُورَةٍ فِيهِ تَزَيَّنَتْ لِلنَّفْسِ ، وَذَلِكَ مِنْ صُنْعِهِ . وَتَزْيِينُ الشَّيْطَانِ بِإِذْكَارِ مَا وَقَعَ مِنْ إِغْوَالِهِ مِمَّا مِثْلُهُ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ لِزِينَتِهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُزَيِّنُ بِالْوَضْعِ ، وَالشَّيْطَانُ يُزَيِّنُ بِالِإِذْكَارِ)) .

وَالكَافِرُونَ مَعَ ذَلِكَ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ ، وَيَرْمُونَهُمْ بِالْجَهْلِ وَقِلَّةِ العَقْلِ ، لِتَرْكِهِمُ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الآخِرَةِ . إِنَّ الكَافِرِينَ يُعْظَمُونَ الدُّنْيَا ، وَيَحْرُصُونَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ _ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ _ بَدَائِيَتُهُمْ وَنَهَائِيَتُهُمْ ، وَلَا شَيْءَ بَعْدَهَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ لِفَقْرِهِمْ ، وَطَلْبِهِمُ الآخِرَةَ ، وَلِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيَا كَرُؤَسَاءِ الكُفْرِ وَرُؤَسَاءِ الضَّلَالِ .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ القَدِيرِ (١ / ٣٢٤) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، هَذِهِ الجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصَبٍ عَلَى الحَالِ ، أَي : وَالحَالُ أَنَّ أَوْلَئِكَ الكُفَّارَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا لِكَوْنِهِمْ فُقَرَاءَ ، لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَحَظِّ رُؤَسَاءِ الكُفْرِ وَأَسَاطِينِ الضَّلَالِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ عَرَضَ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ هُوَ الأَمْرُ الَّذِي يَكُونُ مَنْ نَالَهُ سَعِيدًا رَابِحًا ، وَمَنْ حُرِمَهُ شَقِيًّا خَاسِرًا . وَقَدْ كَانَ غَالِبُ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ ذَاكَ فُقَرَاءَ لِاسْتِغْثَالِهِمْ بِالعِبَادَةِ ، وَأَمْرِ الآخِرَةِ ، وَعَدَمِ التَّفَاتِهِمْ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٢٢٨) : ((وَمَا السَّبَبُ فِي سُخْرِيَةِ الكُفَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ ، فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ سَخَرُوا مِنْهُمْ لِلْفَقْرِ . وَالثَّانِي لِتَصْدِيقِهِمْ بِالآخِرَةِ . وَالثَّلَاثُ لِاتِّبَاعِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ . وَقِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يُوهِمُونَهُمْ أَنَّكُمْ عَلَى الحَقِّ سُخْرِيَةٌ مِنْهُمْ بِهِمْ)) .

وقال الله تعالى رَدًّا عليهم : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: والمؤمنون الْمُتَّقُونَ لِلَّهِ الَّذِينَ فَعَلُوا الطَّاعَاتِ ، واجتنبوا المعاصي ، فوق أولئك الكافرين يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً ، لأنَّهُمْ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَهُمْ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ . والمؤمنون فِي أَوْجِ الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَفِي أَعْلَى دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ ، وَالكَافِرُونَ فِي حَضِيضِ الدُّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَفِي أَخْفَضِ دَرَكَاتِ النَّارِ . وَلَا مُقَارَنَةَ بَيْنَ الْجَنَّةِ الْعَالِيَةِ وَالنَّارِ الْهَابِيَةِ ٢٠٣ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٢٢٨) : ((وَفِي مَعْنَى كَوْنِهِمْ (فَوْقَهُمْ) ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْلِهِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِلِّيِّينَ ، وَالْكَافِرِينَ فِي سَجِّينَ . وَالثَّانِي أَنَّ حُجَجَ الْمُؤْمِنِينَ فَوْقَ شَبْهِ الْكَافِرِينَ ، فَهُمْ الْمَنْصُورُونَ . وَالثَّالِثُ فِي أَنَّ نَعِيمَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ فَوْقَ نَعِيمِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا)) .

واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ رِزْقًا وَاسِعًا بِلَا ضَيْقٍ ، وَيُعْطِيهِ عَطَاءً كَثِيرًا جَزِيلًا بِلَا حَصْرٍ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُوسِّعُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مُؤْمِنًا كَانَ أَمْ كَافِرًا ، عَلَى حَسَبِ الْحِكْمَةِ وَالْمَشِيئَةِ . وَيُوسِّعُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا اسْتِدْرَاجًا تَارَةً ، وَابْتِلَاءً تَارَةً أُخْرَى . وَالتَّوَسُّعُ عَلَى الْكَافِرِينَ مِنَ اللَّهِ لِحِكْمَةٍ إلهِيَّةٍ عَظِيمَةٍ ، وَهِيَ اسْتِدْرَاجُهُمْ بِالنَّعْمَةِ ، وَلَوْ كَانَتْ كِرَامَةً لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَحَقَّ بِهَا مِنَ الْكَافِرِينَ . وَلَيْسَ فِي التَّوَسُّعِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَدْ رَضِيَ عَنْهُ . وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَلَا أَحَدٌ يُحَاسِبُهُ ، وَلَا يُعَقِّبُ عَلَى حُكْمِهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُنْفِقُ بَعْدَ ، فَفَضْلُهُ كُلُّهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَالَّذِي بِحِسَابٍ مَا كَانَ عَلَى عَمَلٍ قَدَّمَهُ الْعَبْدُ .

٢٠٣ قال الثعالبي في تفسيره (١ / ١٦٢) : ((فَإِنَّ تَشَوُّفَتْ نَفْسُكَ أُيُّهَا الْأَخِ إِلَى هَذِهِ الْفَوْقِيَّةِ ، وَتَبَلَّغَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ الْعَلِيَّةَ ، فَارْتَفَضْ دُنْيَاكَ الدُّنْيَا ، وَارْتَهَدْ فِيهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، لِتَسَلَّمَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَبَلِيَّةٍ ، وَاقْتَدِ فِي ذَلِكَ بِخَيْرِ الْبَرِّيَّةِ . قَالَ عِيَّاضُ فِي (شِفَاهِ) : فَانظُرْ رَحِمَكَ اللَّهُ سِيرَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَخُلُقَهُ فِي الْمَالِ بَجْدِهِ قَدْ أُوتِيَ خَزَائِنَ الْأَرْضِ ، [وَمِفْتَاحَ الْبِلَادِ ، وَأُحِلَّتْ لَهُ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيِّ قَبْلِهِ ، وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ بِلَادَ الْحِجَازِ وَالْيَمَنَ ، وَجَمِيعَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَمَا دَانِي ذَلِكَ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ] ، وَجُحَيْثَ إِلَيْهِ الْأَخْمَاسَ ، [وَصَدَقَاتِهَا مَا لَا يُحِيطُ لِلْمَمْلُوكِ إِلَّا بِعَظْمِهِ] ، وَهَادِيَةَ جَمَاعَةِ مِنَ الْمَمْلُوكِ ، فَمَا اسْتَأْثَرَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَمْسَكَ دِرْهَمًا مِنْهُ ، بَلْ صَرَفَهُ مَصَارِفَهُ ، وَأَعْنَى بِهِ غَيْرَهُ ، وَقَوَّى بِهِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَاتَ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ فِي نَفَقَةِ عِيَالِهِ ، وَاقْتَصَرَ مِنْ نَفَقَتِهِ وَمَلْبَسِهِ عَلَى مَا تَدْعُوهُ ضَرُورَتُهُ إِلَيْهِ ، وَرَهَدَ فِيهَا سِوَاهُ ، فَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْبَسُ مَا وَجَدَ ، فَيَلْبَسُ فِي الْغَالِبِ الشَّمْلَةَ ، وَالْكَسَاءَ الْخَشِينَ ، وَالْبُرْدَ الْغَلِيظَ)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢ / ٣٤٦): ((يَعْنِي جَلَّ ثَنَاهُ بِذَلِكَ : زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا حُبُّ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْعَاجِلَةِ اللَّذَاتِ ، فَهُمْ يَبْتَغُونَ فِيهَا الْمُكَاتَّرَةَ وَالْمُفَاخِرَةَ ، وَيَطْلُبُونَ فِيهَا الرِّيَاسَاتِ وَالْمُبَاهَاةَ ، وَيَسْتَكْبِرُونَ عَنِ اتِّبَاعِكَ يَا مُحَمَّدَ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ عِنْدِي تَعْظُمًا مِنْهُمْ عَلَى مَنْ صَدَّقَكَ وَاتَّبَعَكَ ، وَيَسْخَرُونَ بِمَنْ تَبِعَكَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ بِكَ ، فِي تَرْكِهِمُ الْمُكَاتَّرَةَ ، وَالْمُفَاخِرَةَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا مِنَ الرِّيَاشِ وَالْأَمْوَالِ بَطْلِبِ الرِّيَاسَاتِ ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلِبِهِمْ مَا عِنْدِي بِرَفْضِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ زِينَتِهَا ، وَالَّذِينَ عَمِلُوا لِي وَأَقْبَلُوا عَلَى طَاعَتِي ، وَرَفَضُوا لِدَاتِ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، اتَّبَاعًا لَكَ ، وَطَلَبًا لِمَا عِنْدِي ، وَاتَّقَاءً مِنْهُمْ بِأَدَاءِ فَرَائِضِي ، وَتَجَنُّبِ مَعَاصِيِي ، فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِإِدْخَالِ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّةَ ، وَإِدْخَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا النَّارَ . وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلِ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ . ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ : حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ قَالَ : حَدَّثَنِي حَجَّاجٌ عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ قَوْلَهُ : ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، قَالَ : الْكُفَّارُ يَبْتَغُونَ الدُّنْيَا وَيَطْلُبُونَهَا ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فِي طَلِبِهِمُ الْآخِرَةَ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : لَا أَحْسَبُهُ إِلَّا عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : قَالُوا : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا كَمَا يَقُولُ ، لَاتَّبَعَهُ أَشْرَافُنَا وَسَادَاتُنَا ، وَاللَّهِ مَا اتَّبَعَهُ إِلَّا أَهْلُ الْحَاجَةِ مِثْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ . حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قَالَ : فَوْقَهُمْ فِي الْجَنَّةِ . الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، وَيَعْنِي بِذَلِكَ : وَاللَّهُ يُعْطِي الَّذِينَ اتَّقَوْا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نِعْمِهِ وَكَرَامَاتِهِ وَجَزِيلِ عَطَايَاهُ ، بِغَيْرِ مُحَاسَبَةٍ مِنْهُ لَهُمْ عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَتِهِ . فَإِنَّ لَنَا قَائِلًا : وَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ مِنَ الْمَدْحِ؟ قِيلَ : الْمَعْنَى الَّذِي فِيهِ مِنَ الْمَدْحِ الْخَبَرُ عَنْ أَنَّهُ غَيْرُ خَائِفٍ نَفَادِ خَزَائِنِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى حِسَابٍ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، إِذْ كَانَ الْحِسَابُ مِنَ الْمُعْطِيِ إِنَّمَا يَكُونُ لِيَعْلَمَ قَدْرَ الْعَطَاءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ مُلْكِهِ إِلَى غَيْرِهِ ، لِئَلَّا يَنْتَجِزَ فِي عَطَايَاهُ إِلَى مَا يُجْحِفُ بِهِ ، فَرُبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَيْرُ خَائِفٍ نَفَادِ خَزَائِنِهِ ، وَلَا انْتِقَاصِ شَيْءٍ مِنْ مُلْكِهِ بِعَطَائِهِ مَا يُعْطِي عِبَادَهُ ، فَيَحْتَاجُ إِلَى حِسَابٍ مَا يُعْطِي ، وَإِحْصَاءٍ مَا يُبْقِي ، فَذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (١ / ٢٢٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ رِزْقًا وَاسِعًا غَيْرَ ضَيِّقٍ . وَالثَّانِي يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِلَا مُحَاسَبَةٍ فِي الْآخِرَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ

والكافرين في جهنم جميعاً ﴿ [النساء : ١٤٠] ٢٠٤ . هذه الآية تُوضِّح أهمية الابتعاد عن المُستهزئين بالدين من المنافقين والكافرين ، وضرورة عدم الجلوس معهم أثناء خوضهم في الدين بالباطل ، وسُخريتهم واستهزائهم . وفي الآية دلالة على أنَّ القرآن المنزَّل على النبي ﷺ ، وإنَّ حُوطبَ به خاصَّةً ، مُنزَّل على الأمة المُحمَّدية الإسلامية .

نزَّل اللهُ عليكم أيُّها المؤمنون في القرآن أن إذا سمعتم الكُفْرَ بآيات الله ، والسُّخريَّة منها ، والاستهزاء بها ، فلا تجلسوا مع الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله ، حتى يتحدَّثوا بحديث آخر ، ويتركوا الخوض في القرآن بالباطل . والخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مُحقِّقٍ ومُناقٍ ، لأنَّه إذا أظهر الإيمان فقد وجب عليه أن يلتزم بأوامر القرآن الكريم .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٠١) : ((وقال الضَّحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما : دخل في هذه الآية كلُّ مُحدث في الدين ، وكلُّ مُبتدع إلى يوم القيامة)) .

إنَّكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكُفْرِ . وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٩٦) : ((قوله تعالى : ﴿ فلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي: غير الكُفْرِ ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ فدلَّ بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر ، لأنَّ من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم ، والرضا بالكُفْرِ كُفْرٌ . قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ فكلُّ من جلس في مجلس معصية ولم يُنكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء . وينبغي أن يُنكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية ، وعمَلُوا بها ، فإنَّ لم يَقْدِرْ على التَّكبير عليهم ، فينبغي أن يَقُومَ عَنْهُمْ ، حتى لا يَكُونَ من أهل هذه الآية)) .

٢٠٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٢٨ و ٢٢٩) : ((قال المفسرون : الذي نزل عليهم في التَّهْيِ عن مجالستهم قوله في [الأنعام : ٦٨] : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ . وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود ، فيسخرُّون من القرآن ، ويكذبون به ، فنهى الله المسلمين عن مجالستهم . وآيات الله : هي القرآن . والمعنى : إذا سمعتم الكُفْرَ بآيات الله ، والاستهزاء بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يأخذوا في حديث غير الكُفْرِ والاستهزاء ، إنَّكم إن جالستمهم على ما هم عليه من ذلك ، فأنتم مثلهم . وفي ماذا تقع المماثلة فيه قولان : أحدهما في العِصيان ، والثاني في الرِّضى بحالهم ، لأنَّ مُجالس الكافر غير كافر . وقد نُبِّهت الآية على التحذير من مُجالسة العِصاة . قال إبراهيم النَّخعي : إنَّ الرَّجُلَ لِيَجْلِسَ فِي الْمَجْلِسِ فَيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ ، فَيُرْضَى اللهُ بِهَا ، فَتُصِيبُهُ الرَّحْمَةُ ، فَتَعْمُ مِنْ حَوْلِهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَجْلِسَ فِي الْمَجْلِسِ فَيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ ، فَيُسْخِطُ اللهُ بِهَا ، فَيُصِيبُهُ السَّخَطُ ، فَيَعْمُ مِنْ حَوْلِهِ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢٦٨ / ١) : ((**﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾** في الإثم ، لأنكم قادرون على الإعراض عَنْهُمْ ، والإنكار عليهم ، أو الكُفْرُ إن رَضِيتُمْ بذلك ، أو لأنَّ الذين يُقَاعِدُونَ الخائضين في القرآن من الأَحْبَارِ كانوا مُنَافِقِينَ)) اهـ . وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (٣٠١ / ١) : ((**﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾** أي : إن قَعَدْتُمْ عِنْدَهُمْ وَهُمْ يَخُوضُونَ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ ، وَرَضِيتُمْ بِهِ ، فَأَنْتُمْ كُفَّارٌ مِثْلُهُمْ ، وَإِنْ خَاضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، فَلَا بَأْسَ بِالْقُعُودِ مَعَهُمْ مَعَ الْكَرَاهَةِ)) .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، لِأَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ . أَيِ إِنَّهُمْ كَمَا اجْتَمَعُوا عَلَى الْاسْتِهْزَاءِ بِالآيَاتِ ، يَجْتَمِعُونَ فِي جَهَنَّمَ عَلَى الْعَذَابِ . وَكَمَا أَشْرَكُوهُمْ فِي الْكُفْرِ ، كَذَلِكَ يُشَارِكُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا ، وَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ . وَهَذَا وَعِيدٌ إِلَهِيٌّ شَدِيدٌ لِلتَّحْذِيرِ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ . وَتَقْدِيمُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ لِتَشْدِيدِ الْوَعِيدِ عَلَى الْمُخَاطَبِينَ .

لَقَدْ خَاطَبَتِ الْآيَةُ : **﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾** الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ ، سَوَاءً كَانُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا أَمْ مُنَافِقِينَ . وَكُلُّ شَخْصٍ يَرْضَى بِالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، وَهُوَ لَا يُحْرِكُ سَاكِنًا ، وَإِنَّمَا يَكْتَفِي بِالِاسْتِمَاعِ وَالْإِقْرَارِ ، يُعْتَبَرُ مُشَارِكًا فِي الْمَعْصِيَةِ وَالْإِثْمِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، وَهُوَ كَافِرٌ مِثْلُهُمْ . وَمَنْ لَمْ يَنْتَعِدْ عَنْهُمْ ، فَقَدْ رَضِيَ بِعَمَلِهِمُ الْخَيْثُ ، وَالرِّضَا بِالْكَفْرِ كُفْرٌ ، وَالرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ . وَإِنْ عَجَزَ عَنِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، أَوْ كَشَفَ بَاطِلَهُمْ ، أَوْ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْإِنْسِحَابُ وَعَدَمُ الْقُعُودِ مَعَهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا الْمَوْضِعَ ، وَيَبْتَغُوا مِنَ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا . وَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَجْلِسُونَ إِلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ ، فَيَسْتَخْرُونَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . وَبِشَكْلِ عَامٍ ، كُلُّ مَنْ يَجْلِسُ فِي مَكَانٍ عَلَيْهِ أَنْ يُنْكَرَ آيَةٌ مَعْصِيَةٌ تَظْهَرُ فِيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، فَعَلِيهِ الْإِنْسِحَابُ مِنَ الْمَجْلِسِ ، وَمُغَادَرَتُهُ فَوْرًا . فَالْمُسْلِمُ لَيْسَ إِمَّعَةً ، بَلْ هُوَ ذَكِيٌّ وَفَطِنٌ وَمُمَيِّزٌ يَقُولُهُ وَفَعَلَهُ .

وقال الطبري في تفسيره (٣٢٨ / ٤) : ((**﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾** ، يَقُولُ : أَخْبَرَ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْكُفَّارَ أَنْصَارًا وَأَوْلِيَاءَ ، بَعْدَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ ، **﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ﴾** ، يَعْنِي : بَعْدَمَا عَلِمُوا نَهْيَ اللَّهِ عَنِ مُجَالَسَةِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِحُجَجِ اللَّهِ ، وَآيِ كِتَابِهِ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ، **﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ﴾** ، يَعْنِي يَقُولُهُ : **﴿ يَخُوضُوا ﴾** يَتَحَدَّثُوا حَدِيثًا غَيْرَهُ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . وَقَوْلُهُ : **﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾** ، يَعْنِي : وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ إِنْ جَالَسْتُمْ مَنْ يَكْفُرُ

بآيات الله ، ويستهزئ بها ، وأنتم تسمعون ، فأنتم مثله ، يعني : فأنتم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال مثلهم في فعلهم ، لأنكم قد عصيتهم الله بجلوسكم معهم ، وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، كما عصوه باستهزائهم بآيات الله ، فقد أتيتهم من معصية الله نحو الذي أتوه منها ، فأنتم إذا مثلهم في ركبكم معصية الله ، وإتيانكم ما نهاكم الله عنه . وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم . وينحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأولوا منهم هذه الآية ، إنه مراد بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ ، يقول : إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ فِي الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ ، فَمَوْفَّقٌ بَيْنَهُمْ فِي عِقَابِهِ فِي جَهَنَّمَ ، وَأَلِيمٌ عَذَابِهِ ، كَمَا اتَّفَقُوا فِي الدُّنْيَا فَاجْتَمَعُوا عَلَى عَدَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَوَازَرُوا عَلَى التَّخْذِيلِ عَنِ دِينِ اللَّهِ ، وَعَنِ الَّذِي ارْتَضَاهُ ، وَأَمَرَ بِهِ أَهْلُهُ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٧٩٤) : ((﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ ، الْخِطَابَ لِجَمِيعٍ مَنْ أَظْهَرَ الْإِيمَانَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ ، لِأَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِيمَانَ فَقَدْ لَزِمَهُ أَنْ يُمَثَلَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ . وَقِيلَ : إِنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ فَقَطْ ، كَمَا يُعْطِيهِ التَّشْدِيدُ وَالتَّوْبِيخُ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، وَالْكِتَابُ : هُوَ الْقُرْآنُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ حَالَانِ : أَي إِذَا سَمِعْتُمْ الْكُفْرَ وَالِاسْتَهْزَاءَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، فَأَوْقَعَ السَّمَاعَ عَلَى الْآيَاتِ ، وَالْمُرَادُ سَمَاعُ الْكُفْرِ وَالِاسْتَهْزَاءِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ ، أَي : أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْكُمْ عِنْدَ هَذَا السَّمَاعِ لِلْكُفْرِ ، وَالِاسْتَهْزَاءِ بِآيَاتِ اللَّهِ ، لَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ ، حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ حَدِيثِ الْكُفْرِ وَالِاسْتَهْزَاءِ بِهَا . وَالَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الْأَنْعَامُ : ٦٨] . وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الدَّخَالِينَ فِي الْإِسْلَامِ يَقْعُدُونَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودَ حَالَ سُخْرِيَتِهِمْ بِالْقُرْآنِ ، وَاسْتَهْزَأُوا بِهِمْ ، فَتَنَّهُوا عَنْ ذَلِكَ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بِاعْتِبَارِ عُمُومِ لَفْظِهَا الَّذِي هُوَ الْمُعْتَبَرُ دُونَ خُصُوصِ السَّبَبِ ، دَلِيلٌ عَلَى اجْتِنَابِ كُلِّ مَوْقِفٍ يَخُوضُ فِيهِ أَهْلُهُ بِمَا يُفِيدُ التَّنَقُّصَ وَالِاسْتَهْزَاءَ لِلأَدْلَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ أَسْرَاءِ التَّقْلِيدِ الَّذِينَ اسْتَبَدَلُوا آرَاءَ الرِّجَالِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِيهِمْ سِوَى قَوْلِ إِمَامٍ مَذْهَبِنَا كَذَا ، وَقَالَ فُلَانٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ بِكَذَا . وَإِذَا سَمِعُوا مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بِآيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ ، أَوْ بِحَدِيثِ نَبَوِيٍّ ، سَخِرُوا مِنْهُ ، وَلَمْ يَرَفَعُوا إِلَى مَا قَالَهُ رَأْسًا ، وَلَا بَالُوا بِهِ بِالْأَلَةِ ، وَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بِأَمْرِ فَطِيحٍ ، وَخَطْبٍ شَنِيعٍ ،

وخالف مذهب إمامهم الذي نزلوه منزلة معلم الشرائع ، بل بالغوا في ذلك حتى جعلوا رأيهم الفائل _ الضعيف _ واجتهاده الذي هو عن منهج الحق مائل ، مُقدِّماً على الله ، وعلى كتابه ، وعلى رسوله ، فإننا لله وإننا إليه راجعون ، ما صنعت هذه المذاهب بأهلها ، والأئمة الذين انتسب هؤلاء المُقلِّدة إليهم برآء من فعلهم ، فإنهم قد صرَّحوا في مؤلفاتهم بالنهي عن تقليدهم اللهم انفعنا بما علمتنا ، واجعلنا من المُقتدين بالكتاب والسنة ، وباعد بيننا وبين آراء الرجال المنيئة على شفا جُزْفِ هارٍ يا مُجيب السائلين . قوله : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ تعليل للنهي ، أي : إنكم إن فعلتم ذلك ، ولم تنتهوا ، فأنتم مثلهم في الكفر . قيل : وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبهة بحكم الظاهر ، كما في قول القائل : وكلُّ قرين بالمُقارن يقتدي . وهذه الآية مُحكمة عند جميع أهل العلم قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ هذا تعليل لكونهم مثلهم في الكفر . قيل : وهم القاعدون والمقعود إليهم عند من جعل الخطاب موجَّهاً إلى المُنافقين)) .

إنَّ الطيور على أشكالها تَفَع ، فالصالح يجذب إلى الصالح ، والفاقد يجذب إلى الفاسد . ولا يُمكن تجاهل دور المجلس في توجيه دفة الحديث ، وقيادة المجلس إلى القِمة أو الهاوية . لذلك على المرء أن يختار جلساءه بعناية فائقة ، فهم صورته الحقيقية ، وسوف يسحبونه معهم إلى رضا الله أو غضبه ، فالصاحبُ صاحبٌ . والعقلُ الجمعيُّ أشدُّ تأثيراً من العقل الفردي . وعن جابر _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((...)) ، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يجلس على مائدة يُدارُ عليها الخمر)) ٢٠٥ .

من كان يُؤمن بالله الذي خلقه إيماناً كاملاً ، اعتقاداً وعملاً ، قولاً وفِعلاً ، ويُؤمن باليوم الآخر الذي إليه معاده _ وهذا أسلوب ترغيب وترهيب للنهي عن فعل سيئ _ ، فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر ، حتَّى لو كان لا يشرب ، لأنَّه لو جلس عليها وغيره يشرب الخمر ، لوجب عليه أن ينهاهم ، فإذا جلس ولم ينههم لا يكون مؤمناً كاملاً . وذلك لأنَّ الإيمان بالله أساس الإيمان ، وذكرُ اليوم الآخر مع الإيمان بالله للتذكير بالمعاد ، والتذكير بالثواب والعقاب في اليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء ، وهو هنا من باب الترهيب والتحذير من تلك الأعمال ، لئلا يُعذب ويُعاقب عليها في اليوم الآخر . والحديثُ يحثُّ على الابتعاد عن المنكرات ومواطنِ الشبهات .

٢٠٥ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٣٢٠) برقم (٧٧٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا الشخص لا عُذر له في الجلوس على مائدة يُدار عليها الخمر، حَتَّى لَوْ لَمْ يَشْرَبْ مَعَهُمْ .
 إِذْ إِنَّ وُجُودَهُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ هُوَ إِقْرَارٌ مِنْهُ عَلَى الْمُنْكَرِ ، وَرِضَا بِهِ . وَهَذَا تَبَرُّزٌ خَطُورَةٌ أَنْ يَكُونَ
 الشَّخْصُ جُزْءًا مِنْ مَنْظُومَةِ الْبَاطِلِ ، حَتَّى لَوْ لَمْ يُشَارِكْ فِي صِنَاعَتِهِ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ
 (٢١١ / ٦) : ((وَإِنْ لَمْ يَشْرَبْ مَعَهُمْ ، لِأَنَّهُ تَقْرِيرٌ عَلَى الْمُنْكَرِ)) .

وروى الإمام أحمد في كتابه الأشربة (١ / ١١) أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَتَى
 بِقَوْمٍ أَخَذُوا عَلَى شَرَابٍ ، فِيهِمْ رَجُلٌ صَائِمٌ ، فَجَلَدَهُمْ وَجَلَدَهُ مَعَهُمْ ، قَالُوا : إِنَّهُ صَائِمٌ ، قَالَ : ((لِمَ
 جَلَسَ مَعَهُمْ ؟)) .

إِنَّ جُلُوسَهُ مَعَهُمْ هُوَ إِدَانَةٌ لَهُ ، حَتَّى لَوْ لَمْ يُشَارِكْهُمْ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ ، فَعَمَلِيَّةُ الْجُلُوسِ بِحَدِّ
 ذَاتِهَا هِيَ مُشَارَكَةٌ لَهُمْ بِالشُّرْبِ . وَكُلُّهُمْ شُرَكَاءُ فِي الْجَرِيمَةِ ، وَهُوَ مِثْلُهُمْ ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ .
 وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٣٩٦) : ((وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 أَنَّهُ أَخَذَ قَوْمًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ ، فَقِيلَ لَهُ عَنْ أَحَدِ الْحَاضِرِينَ : إِنَّهُ صَائِمٌ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْأَدَبَ ،
 وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ ، أَي : إِنَّ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ ، وَلِهَذَا يُؤَاخِذُ الْفَاعِلُ
 وَالرَّاضِيَ بِعُقُوبَةِ الْمَعَاصِي حَتَّى يَهْلِكُوا بِأَجْمَعِهِمْ ، وَهَذِهِ الْمُمَاثَلَةُ لَيْسَتْ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ ،
 وَلَكِنَّهُ إِذَا شُبِّهَ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ مِنَ الْمُقَارَنَةِ ، كَمَا قَالَ : فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي . وَإِذَا ثَبَّتَ
 تَجَنَّبَ أَصْحَابُ الْمَعَاصِي كَمَا بَيَّنَّا ، فَتَجَنَّبَ أَهْلَ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ أَوْلَى)) .

وهكذا تتضح أهمية الجليس ، وخطورة المجالس . والقضية ليست مُعاملة اجتماعية ، أو
 حفلة عائلية ، أو وسيلة لِمَلءِ وقت الفراغ . إنها قضية دينية شديدة الأهمية ، تترتب عليها أحكام
 شرعية . والأمر يصل إلى الكُفْر في بعض الأحيان .

عن أبي موسى الأشعري _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : ((مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ
 وَالسُّوءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِذَا أُخِذَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا
 أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ إِذَا أُخِذَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً))^{٢٠٦} .
 يَضْرِبُ النَّبِيُّ ﷺ مِثَالَيْنِ لِصِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ ، وَهُمَا الْجَلِيسُ الصَّالِحُ وَالْجَلِيسُ السُّوءُ ،
 لِيُقَرَّبَ الْمَعَانِي إِلَى الْأَذْهَانِ ، وَيُبَيِّنَ ضَرُورَةَ التَّزَامِ الْخَيْرِ ، وَالِابْتِعَادَ عَنِ الشَّرِّ .

٢٠٦ متفق عليه . البخاري (٥ / ٢١٠٤) برقم (٥٢١٤) ، ومسلم (٤ / ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٨) .

المثال الأول للجلس الصالح ، والجلس هو الذي يُجالس غيره من الناس ، والصالح هو من يدلُّ جلسه على الله ، وما يُقرب إليه من قول أو عمل . والجلس الصالح مثل صاحب المسك ، لن تفقد منه أحد أمرين : إما أن تشتري من مسكه وعطوره ، أو تجد وتشم من ريحه الطيبة ، وكذلك المجلس الصالح ، إما أن تأخذ من خيرا ، وتنفع به ، أو أن تجد من مجالسته زوفاً وطيباً .

والمثال الثاني للجلس السوء ، وهو من يُجالس غيره ، ويصده عن سبيل الله تعالى ، وما يُقرب إليه من قول أو عمل ، فشبهه النبي ﷺ بناfox الكبير (كير الحداد) ، وهو زق أو جلد غليظ تُنفخ به النار . فنافخ الكبير هذا إما أن يحرق بدنك أو ثيابك من شره المتطاير ، أو تجد من مجالسته ريحا خبيثة ، فيجلب لك كربا وضيقا ، وتشم منه ما يؤذيك ، وهكذا المجلس السوء ، إما أن تطالك شرور أفعاله ، فتشاركه أوزاره ، وتحترق بناها ، وإما أن ترى القبيح وسوء الفعل أمامك ، فتندم لمصاحبة ومجالسة من هذا حاله .

والحديث يُحثُّ على مجالسة أهل الطاعة والصلاح ، ومصاحبة الصالحين ومجالستهم من صفات الأخيار ، وهو طريق لنيل السعادة في الدارين ، ويحثُّ على مجانبة الفاسدين وأصحاب الخلق السيئ ، ومصاحبة الأشرار الطالحين من صفات ضعاف النفوس ، وطريق للصياع والخسران .

إن المجلس الصالح كحامل المسك ، إما أن يعطيك شيئا من المسك (يُحذيك) ، أو تشتري منه ، أو تشم رائحة طيبة تُنعش رُوحك وتُفويك . وهذا يعني أنك رابح في كلِّ الحالات . أمَّا المجلس السوء فهو كنافخ الكبير (ما يُنفخ به الحداد في النار) ، إما أن يحرق ثيابك بالنار ، أو تبعث منه رائحة خبيثة تؤذيك . وهذا يعني أنك خاسر في كلِّ الحالات . والحديث يُرغب في مجالسة الصالحين الذي يُساعدون الإنسان في أمر دينه ودنياه ، ويُحذرون من مجالسة الفاسدين الذي يُعيدون المرء عن دينه ، ويُفسدون دنياه . وفيه دليل واضح على طهارة المسك وجواز بيعه ^{٢٠٧} .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٧٨) : ((وفيه فضيلة مجالسة الصالحين ، وأهل الخير ، والمزوءة ، ومكارم الاخلاق ، والورع ، والعلم ، والأدب ، والنهي عن مجالسة أهل الشر ، وأهل البدع ، ومن يفتاب الناس ، أو يكثر فجزه وبطالته ، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة)) .

٢٠٧ قال الحافظ في الفتح (٤ / ٣٢٤) : ((وفيه جواز بيع المسك والحكم بطهارته ، لأنه ﷺ مدحه ورغب فيه ، ففيه الرد على من كرهه ، وهو منقول عن الحسن البصري وعطاء وغيرهما ، ثم انقرض هذا الخلاف ، واستقر الإجماع على طهارة المسك وجواز بيعه)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٤) : ((إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ) أَي وَإِنْ لَمْ يَكُن صَاحِبَهُ (وَنَافِخِ الْكَبِيرِ فَحَامِلِ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُجَدِّبَكَ) بِجِيمٍ وَذَالٍ مَعْجَمَةٍ أَي يُعْطِيكَ (وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً) أَي أَنْتَ إِنْ لَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ بِحَاجَتِكَ جَمِيعًا لَمْ تَعْدَمْ وَاحِدَةً مِنْهَا ، إِمَّا الْإِعْطَاءَ ، وَإِمَّا الشِّرَاءَ ، وَإِمَّا الْاِقْتِبَاسَ لِلرَّائِحَةِ ، وَكَذَا يُقَالُ فِي قَوْلِهِ (وَنَافِخِ الْكَبِيرِ) بَعْكَسُ ذَلِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ (إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ تِيَابَكَ) بِمَا تَطَايَرُ مِنْ شَرَارِ الْكَبِيرِ (وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ) مِنْهُ (رِيحًا خَبِيثَةً) وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ التَّهْيِئَةُ عَنِ الْمُجَالَسَةِ مَنْ تُؤْذِي مُجَالَسَتَهُ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا ، وَالتَّرغِيبُ فِي مُجَالَسَةِ مَنْ تَنْفَعُ مُجَالَسَتُهُ فِيهِمَا ، وَفِيهِ إِبْدَانُ بَطْهَارَةِ الْمِسْكِ ، وَحَلِّ بَيْعِهِ ، وَضَرْبِ الْمَثَلِ وَالْعَمَلِ فِي الْحُكْمِ بِالْأَشْيَاءِ وَالنِّظَائِرِ ، وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ :

تَجَنَّبَ قَرِينَ السَّوِّءِ وَاصْرَمَ حِبَالَهُ	فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَالزُّمَّ حَبِيبَ الصَّدِّقِ وَاتْرُكْ مِرَاءَهُ	تَنْلَ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تَمَارِهِ
وَمَنْ يَزْرَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ	يَجِدُهُ وَرَاءَ الْبَحْرِ أَوْ فِي قَرَارِهِ
وَلِلَّهِ فِي عَرْضِ السَّمَاوَاتِ جَنَّةٌ	وَلَكِنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ)) .

وَفِي نَفْسِ الْمَرْجِعِ (٥ / ٥٠٦) : ((قَالَ الرَّاعِبُ : نَبَّهَ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَيَّ أَنَّ حَقَّ الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَرَّى بِغَايَةِ جُهْدِهِ مُصَاحَبَةَ الْأَخْيَارِ وَمُجَالَسَتَهُمْ ، فَهِيَ قَدْ تَجَعَلَ الشَّرِيرَ خَيْرًا ، كَمَا أَنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ قَدْ تَجَعَلَ الْخَيْرَ شَرِيرًا . قَالَ الْحُكَمَاءُ : مَنْ صَحَبَ خَيْرًا أَصَابَ بَرَكَتَهُ ، فَجَلِيسُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا يَشْقَى ، وَإِنْ كَانَ كَلْبًا كَكَلْبِ أَهْلِ الْكَهْفِ ، وَلِهَذَا أَوْصَتِ الْحُكَمَاءُ الْأَحْدَاثَ بِالْبُعْدِ عَنِ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ . قَالَ عَلِيٌّ _ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ _ : لَا تَصْحَبِ الْفَاجِرَ ، فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ ، وَيُودِّ لَوْ أَنَّكَ مِثْلُهُ . وَقَالُوا : إِيَّاكَ وَمُجَالَسَةَ الْأَشْرَارِ ، فَإِنَّ طَبْعَكَ يَسْرِقُ مِنْهُمْ ، وَأَنْتَ لَا تَدْرِي ، وَلَيْسَ إِعْدَاءُ الْجَلِيسِ جَلِيسِهِ بِمَقَالِهِ وَفِعَالِهِ فَقَطْ ، بَلْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَالنَّظْرُ فِي الصُّورِ يُورِثُ فِي النَّفْسِ أَخْلَاقًا مُنَاسِبَةً لِخُلُقِ الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ ، فَإِنْ مَن دَامَتْ رُؤْيَتُهُ لِلْمَسْرُورِ سُرٌّ ، أَوْ لِلْمَحْزُونِ حَزَنٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْإِنْسَانِ فَقَطْ ، بَلْ فِي الْحَيَوَانَ وَالنباتِ ، فَالْجَمَلُ الصَّعْبُ يَصِيرُ ذُلُولًا بِمُقَارَنَةِ الْجَمَلِ الذَّلُولِ ، وَالذَّلُولُ قَدْ يَنْقَلِبُ صَعْبًا بِمُقَارَنَةِ الصَّعَابِ . وَالرَّيْحَانَةُ الْغَضَّةُ تَذُبُّ بِمُجَاوَرَةِ الذَّابِلَةِ ، وَلِهَذَا يَلْتَقِطُ أَهْلُ الْفِلاحَةِ الرَّمَمَ عَنِ الزَّرْعِ لِئَلَّا تُفْسِدَها . وَمِنَ الْمَشَاهِدِ أَنَّ الْمَاءَ وَالْهَوَاءَ يَفْسُدَانِ بِمُجَاوَرَةِ الْجَيْفَةِ ، فَمَا الظَّنُّ بِالنَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي مَوْضِعُهَا لِقَبُولِ صُورِ الْأَشْيَاءِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا ؟ ، فَقَدْ قِيلَ : سُمِّيَ الْإِنْسُ لِأَنَّهُ يَأْتِسُ بِمَا يَرَاهُ خَيْرًا أَوْ شَرًّا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] ٢٠٨ .

إنَّ جَحَدَ الكَافِرِينَ نُبُوتَكَ يَا مُحَمَّدَ ، وَسَخِرُوا مِنْكَ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَقَدْ اسْتَهْزَأَ الكَافِرُونَ مِنَ الْأُمَّةِ السَّابِقَةِ بِأَنْبِيَائِهِمُ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، فَجَاءَتْهُمْ الْعُقُوبَةُ الشَّدِيدَةُ ، وَأَصَابَهُمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ جَزَاءً سُخْرِيَتِهِمْ وَاسْتَهْزَائِهِمْ ، وَقَدْ أَهْلَكُوا بِسَبَبِ اسْتَهْزَائِهِمْ بِالْحَقِّ . وَفِي هَذَا الْإِخْبَارِ تَهْدِيدٌ لِلْكَفَّارِ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٥٣ / ٥) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُسَلِّيًا عَنْهُ بُوَعِيدِهِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ عُقُوبَةً مَا يَلْقَى مِنْهُمْ مِنْ أذىِ الْاسْتَهْزَاءِ بِهِ ، وَالِاسْتِخْفَافِ فِي ذَاتِ اللَّهِ : هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ مَا أَنْتَ لِأَقِ مِنْ هَوْلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِكَ ، الْمُسْتَحْفِيفِينَ بِحَقِّكَ فِيَّ وَفِي طَاعَتِي ، وَأَمُضٍ لِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى تَوْحِيدِي ، وَالِإِقْرَارِ بِي ، وَالِإِذْعَانِ لِطَاعَتِي ، فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَادَوْا فِي عَيْبِهِمْ ، وَأَصْرَوْا عَلَى الْمُقَامِ عَلَى كُفْرِهِمْ نَسَلْتُكَ بِهِمْ سَبِيلَ أَسْلَافِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، مِنْ تَعْجِيلِ النَّقْمَةِ لَهُمْ ، وَحُلُولِ الْمَثَلَاتِ (الْعُقُوبَاتِ) بِهِمْ ، فَقَدْ اسْتَهْزَأَتْ أُمَّةٌ مِنْ قَبْلِكَ بِرُسُلٍ أَرْسَلْتُهُمْ إِلَيْهِمْ بِمِثْلِ الَّذِي أَرْسَلْتُكَ بِهِ إِلَى قَوْمِكَ ، وَفَعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلَ قَوْمُكَ بِكَ ، ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، يَعْنِي بِقَوْلِهِ : ﴿ فَحَاقَ ﴾ فَتَزَلَّ وَأَحَاطَ بِالَّذِينَ هَزَبُوا مِنْ رُسُلِهِمْ ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، يَقُولُ : الْعَذَابُ الَّذِي كَانُوا يَهْزِؤُونَ بِهِ ، وَيُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ واقِعًا بِهِمْ عَلَى مَا أَنْذَرْتَهُمْ رُسُلُهُمْ)) .

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ في تكذيب مَنْ كَذَبَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، وَوَعْدٌ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ بِالنَّصْرِ ، وَالتَّمْكِينِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ ، أَي : الْعَاقِبَةِ الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَبَتْ لِلرُّوحِ الْمَعْنُويَةِ الْعَالِيَةِ فِي الْمَنْهَجِيَةِ النَّبَوِيَّةِ الدَّعْوِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الْاسْتِمْرَارِ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ، كَمَا فَعَلَ الرُّسُلُ السَّابِقُونَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا الْاسْتَهْزَاءَ وَالْأذىَ وَالتَّضْيِيقَ ، فَلَمْ يَبْأَسُوا ، وَلَمْ يُفْصِرُوا فِي حَمْلِ الدَّعْوَةِ بِكُلِّ اقْتِدَارٍ . وَالْخِطَابُ الْقُرْآنِيُّ قَدَّمَ صُورَةً بَصْرِيَّةً واقِعِيَّةً لِثَبَاتِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ ، مِنْ أَجْلِ زِيَادَةِ التَّأثيرِ الْإِيجَابِيِّ الْواقِعِيِّ _ لَا الْمِثَالِي الْخِيَالِيِّ _ فِي النَّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ . وَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ هُمْ بِنَاءِ إِيمَانِي وَاحِدٍ وَمُتَماسِكٍ . وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ جَاءُوا بِإِلَهٍ إِلَّا اللَّهَ .

٢٠٨ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا ﴾ ، أَي : أَحَاطَ . قَالَ الرَّجَّاحُ : الْحَيْقُ فِي اللُّغَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهِ فِعْلِهِ قَالَ السُّدِّيُّ : وَقَعَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي اسْتَهْزَؤُوا بِهِ)) .

وفي سيرة ابن كثير (٢ / ٨٣) : ((قال ابن إسحاق: ومَرَّ رسولُ الله ﷺ _فيما بَلَغَا_ بالوليد ابن المُغيرة وأُمَيَّة بن خَلْف وأبي جَهْل بن هشام ، فَهَمَزُوهُ ، واستهزؤا بِهِ ، فغاضه ذلك ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى في ذلك من أمرهم : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾)) .

والآية تُخَفِّفُ عن النبي ﷺ ، وتُرفِعُ معنوياته ، وتَشُدُّ مِنْ أَرْزِهِ ، فَهُوَ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِالرُّسُلِ ، وتُقَوِّي النَّبِيَّ ﷺ في مُوَاجَهَةِ الكَافِرِينَ ، والتَّصَدِي لِهِمْ ، وإفحامهم ، ورَدْعِهِمْ ، وتُهَيِّئُ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنَ الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ والسُّخْرِيَةِ والاستهزاء . وفي الآية تهديدٌ شديدٌ للكفار ، ووَعِيدٌ لَهُمْ ، وتَحْطِيمٌ لِعِنَادِهِمْ وَجَبْرٌ وَتَهْمٌ ، وَكَسْرٌ لِمَعْنَوِيَاتِهِمْ .

والجديرُ بالذِّكْرُ أَنْ تَنْكِيْرُ " رُسُلٌ " في قَوْلِهِ تعالى : ﴿ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ ﴾ لِلتَّفْخِيمِ والتَّكْثِيرِ . كما أَنَّ " حَاقَ " مَخْصُوصَةٌ فِي الشَّرِّ ، والمعنى : نَزَلَ وَأَحَاطَ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يَخَذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحَدَّرُونَ ﴾ [التَّوْبَةِ : ٦٤] ٢٠٩ .

يَخْشَى الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سُورَةٌ تُخْبِرُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ .

٢٠٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٦٣ و ٤٦٤) : ((قَوْلُهُ تعالى : ﴿ يَخَذِرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فِي سَبَبِ نَزُولِهَا ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَعْيِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيَقُولُونَ : عَسَى اللَّهُ أَنْ لَا يُفْشِي سِرَّنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مجاهد . والثاني أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ : لَوَدِدْتُ أَيَّ جُلْدُتْ مِائَةَ جِلْدَةٍ وَلَا يَنْزِلُ فِيْنَا شَيْءٌ يَفْضَحُنَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه السُّدِّي . والثالث أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَقَفُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ عِنْدَ مَرْجَعِهِ مِنْ تَبُوكَ لِيَفْتِكُوا بِهِ ، فَأَخْبَرَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه ابن كَيْسَانَ . وفي قَوْلِهِ : ﴿ يَخَذِرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حَالِهِمْ ، قَالَه الحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ . والثاني أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ بِالْحَدَرِ ، فَتَقْدِيرُهُ : لِيَخَذِرَ الْمُنَافِقُونَ ، قَالَه الرَّجَّاحُ . قال ابن الانباري : والعربُ زُبَّما أَخْرَجَتْ الأَمْرَ عَلَى لَفْظِ الخَبَرِ ، فيقولون : يَزْحَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنَ ، وَيُعَدِّبُ الكَافِرَ ، يُرِيدُونَ : لِيَزْحَمَ وَلِيُعَدِّبَ ، فَيُسْقِطُونَ اللَّامَ ، وَيُجْرُونَهُ بِجَرِّ الخَبَرِ فِي الرَّفْعِ ، وَهُمْ لَا يَنْوُونَ إِلا الدُّعَاءَ ، والدُّعَاءُ مُضَارِعٌ لِلأَمْرِ . قَوْلُهُ تعالى : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ هَذَا وَعِيدٌ خَرَجَ مَخْرَجَ الأَمْرِ تَهْدِيدًا . وفي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحَدَّرُونَ ﴾ وَجْهَانٌ : أَحَدُهُمَا مُظْهَرٌ مَا تُسِرُّونَ ، والثاني نَاصِرٌ مَنْ تَحَدَّلُونَ ، ذَكَرَهُمَا المَاورِدِيُّ)) .

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ : اسْتَهْزِئُوا بِدِينِ اللَّهِ كَمَا تَشْتَهُونَ ، وهذا أمر وعيد وتهديد ، إِنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ مَا تُخْفُونَ وَتَحْذَرُونَ ظُهُورَهُ مِنَ النَّفَاقِ . أَي إِنَّ اللَّهَ سَيُنزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ .
 وقال النعالبي في تفسيره (٢ / ١٣٩) : ((وقد فَعَلَ ذلك تبارك وتعالى في سُورَةِ بَرَاءةٍ _ يَعْنِي سُورَةَ التَّوْبَةِ _ ، فَهِيَ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ ، لِأَنَّهَا فَضَحَتْ الْمُنَافِقِينَ)) .

وقد كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَحْذَرُونَ أَنْ يَفْضَحَهُمُ اللَّهُ بِالْوَحْيِ فِيهِمْ ، وَفِي اسْتَهْزَائِهِمْ بِالْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : وَدِدْتُ أَنِّي قَدِمْتُ فَجَلِدْتُ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ فِيْنَا شَيْءٌ يَفْضَحُنَا .
 وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٥٤٨) : ((قَوْلُهُ : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ ، قِيلَ : هُوَ خَبَرٌ ، وَلَيْسَ بِأَمْرٍ . وَقَالَ الرَّجَّاحُ : مَعْنَاهُ : لِيَحْذَرَ . فَالْمَعْنَى عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَحْذَرُونَ نُزُولَ الْقُرْآنِ فِيهِمْ ، وَعَلَى الثَّانِي : الْأَمْرُ لَهُمْ بِأَنْ يَحْذَرُوا ذَلِكَ
 وَمَعْنَى ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ ، عَلَى أَنَّ الصَّمِيرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الصَّمِيرَ لِلْمُنَافِقِينَ ، أَي : فِي شَأْنِهِمْ ﴿ تَنْبِئُهُمْ ﴾ أَي : الْمُنَافِقِينَ ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ مِمَّا يُسِرُّونَهُ فَضْلًا عَمَّا يُظْهِرُونَهُ ، وَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَالِمِينَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَالْمُرَادُ مِنْ إِنْبَاءِ السُّورَةِ لَهُمْ إِطْلَاعُهُمْ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمُوا بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ . ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِأَنْ يُجِيبَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ هُوَ أَمْرٌ تَهْدِيدِيٌّ ، أَي : أَفْعَلُوا اسْتَهْزَاءً ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ مِنْ ظُهُورِهِ حَتَّى يَطَّلِعَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ ، إِمَّا بِانزَالِ سُورَةٍ ، أَوْ بِإِخْبَارِ رَسُولِهِ بِذَلِكَ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ)) .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التَّوْبَةِ : ٦٥] .

وَلَكِنْ سَأَلْتِ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ عَنْ اسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ وَالْقُرْآنِ ، وَعَمَّا قَالُوا مِنَ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ ، فِي حَقِّكَ ، وَفِي حَقِّ الْإِسْلَامِ ، لَيَقُولُنَّ لَكَ مُعْتَذِرِينَ : مَا كُنَّا جَادِّينَ ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَمْرُحُ لِلتَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ ، وَنَلْعَبُ فِي الْحَدِيثِ لِنَقْطِعَ بِهِ الطَّرِيقَ ، وَلَمْ نَقْصِدْ ذَلِكَ . قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ : أَتَسْتَهْزِئُونَ بِدِينِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ؟ . وَالِاسْتَهْزَاءُ لَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى اسْتَهْزَائِهِمْ بِمَنْ لَا يَصِحُّ الْاسْتَهْزَاءُ بِهِ ، وَالزَّامَا لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَقَطْعًا لِعُدْرِهِمُ الْبَاطِلِ . وَلَا تَعَبًا بِاعْتِزَالِهِمُ الْكَاذِبِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِيهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِدَّ وَالْهَزْلَ فِي الْكُفْرِ ، كِلَاهِمَا كُفْرٌ ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى هَذَا .
 وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الْآيَةُ . وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ وَقِتَادَةُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، اثْنَانِ يَسْتَهْزِئَانِ بِالْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ ، وَالثَّلَاثُ

يضحك . قيل : كانوا يقولون : إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَغْلِبُ الرُّومَ ، ويفتح مدائنهم ، ما أبعدَه من ذلك ! . وقيل : كانوا يقولون : إِنَّ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَزَلَ فِي أَصْحَابِنَا الْمُقِيمِينَ بِالْمَدِينَةِ قُرْآنَ ، وإنما هُوَ قَوْلُهُ وكلامه ، فأطاعَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ على ذلك ، فقال : " احْبِسُوا عَلَيَّ الرُّكْبَ " ، فدعاهم ، وقال لهم : " قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا " ، فقالوا : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، أي : كُنَّا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الرُّكْبُ لقطع الطريق بالحديث واللعب . قال عُمَرُ : فلقد رأيتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبيِ يَشْتَدُّ قُدَامَ رسولِ اللهِ ﷺ ، والحجارةُ تَنكُبُهُ ، وهو يقول : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، ورسولُ اللهِ ﷺ يقول : " أباالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ " ، ما يلتفت إليه ، ولا يزيد عليه . قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي : قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ أباالله وآياته ﴾ كتابه ﴿ ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٥٤٨) : ((قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ، أي : وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ عَمَّا قَالُوهُ مِنَ الطَّعْنِ فِي الدِّينِ ، وَتَلَبَّ الْمُؤْمِنِينَ ، بعد أن يَبْلُغَ إليه ذلك ، وَيُطْلِعَكَ اللهُ عَلَيْهِ ، لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، وَلَمْ نَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ ، وَلَا أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُمْ ، فقال : ﴿ قُلْ أباالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ ، والاستفهام للتقرير والتوبيخ ، وأثبت وقوع ذلك منهم ، ولم يعبأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم ، حيث جعل المُسْتَهْزَأَ به ، والباء لِحرفِ النَّفْيِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بعد وقوع الاستهزاء وثبوته .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٦] .

كشَفَ اللهُ أمرهم ، وَفَضَحَ حالهم . لَا تُقَدِّمُوا الأَعْدَارَ ، وَلَا تَشْتَغِلُوا بها ، فَإِنَّهَا باطلة ومعلومة الكذب ، وَلَنْ تَنْفَعَكُمْ بشيء ، فقد أظهرتم الكُفْرَ بإيذاءِ النبي ﷺ والطعن فيه ، بعد إظهاركم الإيمان . أي : إنكم قد جحدتم الحَقَّ بقولكم ما قُلْتُمْ فِي النبي ﷺ ، والمؤمنين به ، بعد تصديقكم به ، وإقراركم به . وهذا يدلُّ على أَنَّ الجِدَّ واللَّعِبَ فِي إظهار كلمة الكُفْرِ سَوَاءٌ .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٨٢) : ((قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ على جهة التوبيخ ، كأنه يقول : لَا تَفْعَلُوا مَا لَا يَنْفَعُ . ثُمَّ حَكَمَ عَلَيْهِم بِالْكَفْرِ ، وعدم الاعتذار من الدُّنْبِ)) .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٧٠) : ((فَإِنْ قِيلَ : كيف قال : ﴿ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ وهم لم يكونوا مؤمنين ؟ . قيل : معناه : أظهرتم الكُفْرَ بعدما أظهرتم الإيمان)) .

إِنْ يَعْفُ اللَّهُ عَنْ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لِإِخْلَاصِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ ، يُعَذِّبُ فَرِيقًا آخَرَ ، لِأَنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى النَّفَاقِ وَالِاسْتِهْزَاءِ . أَي : لَا يُعْفَى عَنْ جَمِيعِكُمْ ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَذَابِ بَعْضِكُمْ . وَالْمَعْنَى : نُعَذِّبُ طَائِفَةً مِنْهُمْ بِاِكْتِسَابِهِمُ الْجُرْمَ ، وَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ ، وَطَعْنُهُمْ فِي النَّبِيِّ ﷺ . وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُجْرِمِينَ مُصْرِّينَ عَلَى النَّفَاقِ وَالِإِجْرَامِ غَيْرِ تَائِبِينَ مِنْهُ . وَتُونُ الْعِظَمَةِ فِي ﴿ نَعْفُ ﴾ وَ ﴿ نُعَذِّبُ ﴾ ، لِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِظْهَارِ قُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةَ عَلَى الْعَفْوِ وَالتَّعْذِيبِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٦٦) : ((وَالْمَعْنَى : إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ بِالتَّوْفِيقِ لِلتَّوْبَةِ ، نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِتَرْكِ التَّوْبَةِ . وَقِيلَ : الطَّائِفَتَانِ هَاهُنَا ثَلَاثَةٌ ، فَاسْتِهْزَأُ اثْنَانِ ، وَضَحِكَ وَاحِدٌ . ثُمَّ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ مَا سَمِعَ . وَقَدْ ذَكَرْنَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَسْمَاءَ الثَّلَاثَةِ ، وَأَنَّ الضَّاحِكَ اسْمُهُ الْجَهَّيرُ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ مَخْشِيُّ بِنِ خُمَيْرٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : الطَّائِفَةُ الْوَاحِدُ فَمَا فَوْقَهُ . وَقَالَ الرَّجَّاحُ : أَصْلُ الطَّائِفَةِ فِي اللُّغَةِ الْجَمَاعَةُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِلوَاحِدِ طَائِفَةٌ ، يُرَادُ بِهِ نَفْسُ طَائِفَةٍ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إِذَا أُرِيدَ بِالطَّائِفَةِ الْوَاحِدِ ، كَانَ أَصْلُهَا طَائِفًا ، عَلَى مِثَالِ : قَائِمٍ وَقَاعِدٍ ، فَتَدْخُلُ الْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ ، كَمَا يُقَالُ : رَوَايَةٌ عَلَّامَةٌ نَسَابَةٌ . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ مَا فُرِعَ مِنْ تَنْزِيلِ (بِرَاءة) حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ لَنْ يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا سَيَّنَزَلَ فِيهِ شَيْءٌ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٥٤٩) : ((لا تَعْتَذِرُوا ﴾ نَهْيًا لَهُمْ عَنِ الْاِسْتِهْزَاءِ بِالِاعْتِذَارَاتِ الْبَاطِلَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْهُمْ . وَقَدْ نَقَلَ الْوَاحِدِيُّ عَنْ أئِمَّةِ اللُّغَةِ أَنَّ مَعْنَى الْاِعْتِذَارِ : مَحْوُ أَثَرِ الدَّنْبِ وَقَطْعُهُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : اِعْتَذَرَ الْمَنْزَلُ : إِذَا دَرَسَ ، وَاعْتَذَرَتِ الْمِيَاهُ : إِذَا انْقَطَعَتْ ، ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أَي : أَظْهَرْتُمْ الْكُفْرَ بِمَا وَقَعَ مِنْكُمْ مِنَ الْاِسْتِهْزَاءِ الْمَذْكُورِ ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أَي : بَعْدَ إِظْهَارِكُمُ الْإِيمَانَ مَعَ كَوْنِكُمْ تُبْطِنُونَ الْكُفْرَ ، ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ ، وَهُمْ مَنْ أَخْلَصَ الْإِيمَانَ ، وَتَرَكَ النَّفَاقَ ، وَتَابَ عَنْهُ . قَالَ الرَّجَّاحُ : الطَّائِفَةُ فِي اللُّغَةِ الْجَمَاعَةُ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَيُطْلَقُ لَفْظُ الْجَمْعِ عَلَى الْوَاحِدِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، ﴿ نُعَذِّبُ طَائِفَةً ﴾ بِسَبَبِ أَنََّّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ، مُصْرِّينَ عَلَى النَّفَاقِ ، لَمْ يَتُوبُوا مِنْهُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَرًّا عَلَّمَهُ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هُود : ٣٨] .

هذه حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الدَّهْنِ ، وَأَخَذِ الْعِبْرَ وَالذُّرُوسَ مِنْهَا . صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ السَّفِينَةَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبْرَاءِ قَوْمِهِ ، هَزَبُوا مِنْهُ ، وَضَحِكُوا ، وَقَالُوا لَهُ : صِرْتَ نَجَارًا بَعْدَمَا كُنْتَ نَبِيًّا وَتَعْمَلُ السَّفِينَةَ فِي الْبَرِّ ؟ ! .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠٣ / ٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَلَأ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ ، فيه قولان : أحدهما أَنَّهُمْ رَأَوْهُ يَبْنِي السَّفِينَةَ ، وما رَأَوْا سَفِينَةً قَطْ ، فكانوا يَسْخَرُونَ ، ويقولون : صِرَتْ بعد التَّبْوَةِ نَجَارًا ، وهذا قول ابن إسحاق . والثاني أَنَّهُمْ قالوا له : ما تصنع ؟ ، فقال : أَبْنِي بَيْتًا يَمْشِي على الماء ، فَسَخِرُوا مِنْ قَوْلِهِ ، وهذا قول مقاتل)) .

رَدَّ عليهم النبي ﷺ قائلاً: إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا بِسَبَبِ عَمَلِنَا لِسَفِينَةِ الْيَوْمِ ، فَإِنَّا سَنَسْخَرُ مِنْكُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عِنْدَمَا تَعْرِفُونَ ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالسُّخْرِيَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ . وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد . وقيل : إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا الْيَوْمَ ، فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ كَمَا تَسَخَرُونَ مِنَّا فِي الدُّنْيَا ٢١٠ .

والآية تُبَيِّنُ أَنَّ مَنْ يَضْحَكُ أَحْيَرًا يَضْحَكُ كَثِيرًا ، وَالْعِبْرَةُ بِالْخَوَاتِيمِ .

وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (١٧٤ / ١) : ((فإذا قيل : كيف تجوز السُّخْرِيَةُ مِنَ النَّبِيِّ ؟ قيل : هذا على ازدواج الكلام ، يَعْنِي إِنْ تَسْتَجْهَلُونِي فَإِنِّي أَسْتَجْهَلُكُمْ إِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِكُمْ . وقيل : معناه : إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَسَتَرُونَ عَاقِبَةَ سُخْرِيَتِكُمْ)) .

وقال الشَّوْكَانِيُّ في فتح القدير (٧١٨ / ٢) : ((﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ ، أي : وَطَفِقَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ ، أَوْ : وَأَخَذَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ . وقيل: هو حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضار الصُّورَةِ . وَجُمْلَةٌ ﴿ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَلَأ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ : أَي اسْتَهْزَؤُوا بِهِ لِعَمَلِهِ السَّفِينَةَ . قال الأَخْفَشُ وَالْكَسَائِيُّ : يُقَالُ : سَخِرْتُ بِهِ وَمِنْهُ . وفي وجه سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ يَعْمَلُ السَّفِينَةَ ، فيقولون : يا نُوحُ ، صِرْتَ بعد التَّبْوَةِ نَجَارًا . والثاني : أَنَّهُمْ لَمَّا شَاهَدُوهُ يَعْمَلُ السَّفِينَةَ ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا : يا نُوحُ ما تَصْنَعُ ؟ ، قال : أمشي بها على الماء ، فَعَجِبُوا مِنْ قَوْلِهِ ، وَسَخِرُوا بِهِ ، ثُمَّ أَجَابَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴾ ، وهذا الكلام مُسْتَأْنَفٌ على تقدير سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ ،

٢١٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١٠٣ / ٤) : ((وفي قوله : ﴿ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ خمسة أقوال : أحدها إِنْ تَسَخَرُوا مِنْ قَوْلِنَا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْ غَفْلَتِكُمْ . والثاني إِنْ تَسَخَرُوا مِنْ فِعْلِنَا عِنْدَ بِنَاءِ السَّفِينَةِ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ عِنْدَ الْغَرَقِ ، ذَكَرَهُ الْمَفْسَّرُونَ . والثالث إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، قاله ابن جرير . والرابع إِنْ تَسْتَجْهَلُونَا فَإِنَّا نَسْتَجْهَلُكُمْ ، قاله الرَّجَّاجُ . والخامس إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْتَنْصِرُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ ، فَسَمَى هَذَا سُخْرِيَةً لِتَيَقُّقِ اللَّفْظَانِ... هذا قول ابن الأثيري. قال ابن عباس: لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سَخِرُوا مِنْهُ، وإنما مياه البحار بَقِيَّةُ الطوفان)) .

والمعنى : إن تَسَخَّرُوا مِنَّا بسبب عملنا للسَّفينة اليوم ، فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ غَدًا عِنْدَ الْغَرَقِ . وَمَعْنَى السُّخْرِيَّةُ هُنَا : الاستجهاال ، أي : إن تستجهلوننا فَإِنَّا نستجهلكم كما تستجهلون . واستجهاالهم باعتبار إظهاره لهم ومُشافهتهم ، وإلا فَهَمَّ عِنْدَهُ جُهَالٌ قَبْلَ هَذَا وبعده . والتشبيه في قوله : ﴿ كَمَا تَسَخَّرُونَ ﴾ لِمَجْرَدِ التَّحْقُقِ وَالْوُقُوعِ ، أَوْ التَّجَدُّدِ وَالتَّكْرُرِ . والمعنى : إِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ سُخْرِيَّةً مُتَحَقِّقَةً وَاقِعَةً كَمَا تَسَخَّرُونَ مِنَّا كَذَلِكَ ، أَوْ مُتَجَدِّدَةً مُتَكَرِّرَةً كَمَا تَسَخَّرُونَ مِنَّا كَذَلِكَ . وقيل : معناه : نَسَخَّرُ مِنْكُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ سُخْرِيَّةً مِثْلَ سُخْرِيَّتِكُمْ إِذَا وَقَعَ عَلَيْكُمُ الْغَرَقُ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنَّ حَالَهُمْ إِذْ ذَاكَ لَا تَنَاسِبُ السُّخْرِيَّةَ ، إِذْ هُمْ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ عَنْهَا)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرَّعْدُ : ٣٢] ٢١١ .

هذه الآية تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَخْفِيفٌ عَنْهُ ، وَرَفْعٌ لِمَعْنَوِيَّاتِهِ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْكَافِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . لَا تَحْزَنُ يَا مُحَمَّدٌ بِسَبَبِ تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ ، وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ . فَقَدْ اسْتَهْزَأَ الْكَافِرُونَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ، وَأَوْدُوا وَكُذِّبُوا ، وَلَسْتَ أَوَّلَ رَسُولٍ يُكذِّبُهُ قَوْمُهُ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ ، وَيَطْعَنُونَ فِي رِسَالَتِهِ . فَابْتِئَتْ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَا تَتَأَلَمُ ، وَلَا تَتَضَاقِقُ . وَلَكَ فِي الرُّسُلِ السَّابِقِينَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . وَتَنْكِيْرٌ " رُسُلٌ " لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّكْثِيرِ . يَعْنِي : وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِ عِظَامٍ وَكَثِيرِينَ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدٌ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٧٣ / ٩) : ((فَأَمَلَيْتُ الْكَافِرِينَ مُدَّةً لِيُؤْمِنَ مَنْ كَانَ فِي عِلْمِي أَنَّهُ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا حَقَّ الْقَضَاءُ أَخَذْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ، أَي : فَكَيْفَ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتُ بِهِمْ ، فَكَذَلِكَ أَصْنَعُ بِمُشْرِكِي قَوْمِكَ)) .

أَطَالَ اللَّهُ لَهُمُ الْمُدَّةَ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ وَتَأْجِيلِ الْعَذَابِ ، كَيْ يَتَمَادَوْا فِي الْمَعَاصِي ، وَيَغْرَقُوا فِي الدُّنُوبِ ، وَالْإِمْلَاءِ : الْإِمْهَالُ . ثُمَّ أَخَذَهُمُ بِالْعُقُوبَةِ ، حَيْثُ عَاقَبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ ، وَفِي الْآخِرَةِ

٢١١ قَالَ أَبُو السَّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٤ / ٥) : ((وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمَّا لَقِيَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ التَّكْذِيبِ ، وَالِاقْتِرَاحِ عَلَى طَرِيقَةِ الاسْتَهْزَاءِ بِهِ ، وَوَعِيدٌ لَهُمْ . وَالْمَعْنَى إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مُخْتَصِّصًا بِكَ ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ مُطَّرَدٌ ، قَدْ فُعِلَ ذَلِكَ بِرُسُلٍ كَثِيرَةٍ كَانَتْ مِنْ قَبْلِكَ ، فَأَمَلَيْتُ الَّذِينَ فَعَلُوهُ بِهِمْ . وَالْعُدُولُ فِي الصَّلَةِ إِلَى وَصْفِ الْكُفْرِ ، لَيْسَ لِأَنَّ الْمُؤْمَلِيَّ لَهُمْ غَيْرُ الْمُسْتَهْزِئِينَ ، بَلْ لِإِرَادَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ ، أَي فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَعَ اسْتَهْزَائِهِمْ فَقَطْ . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ ، أَي : عِقَابِي إِيَّاهُمْ . وَفِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَنَاهِي كَيْفِيَّتِهِ فِي الشَّدَّةِ وَالْفُطَاعَةِ مَا لَا يَخْفَى)) .

بالنار . وكما صَنَعَ اللَّهُ بِمَنْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِ الْكِرَامَ ، كذلك يَصْنَعُ بِمُشْرِكِي قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدٌ . والعذابُ يجيء في الوقت المُحَدَّد ، وللهُ الحِكْمَةُ البالغة ، والخجَّةُ الدامغة .
وقد أمهلَ اللهُ الأَقْوَامَ الكافرة ، وأعطاهم الفُرْصَةَ تَلَوَّ الفُرْصَةَ ، ولم يعاجلهم بالعقوبة ، ومنَحَهُم النِّعَمَ الكَثِيرَةَ ، كالأموال والأولاد والرِّحَاءَ الاجتماعي والاقتصادي ، فاعْتَرُوا بالنعيم، والراحة، والرِّفَاهِيَّةِ ، وكثرة الأموال والأولاد ، فأخذهم اللهُ بالعذاب الشديد ، ومسحهم من الوجود ، وجعلهم أثراً إثرَ عَيْنٍ . لقد عَذَّبَهُم في الدنيا ، ويَنتظرهم عذابٌ أشد في الآخرة ، وهو عذاب النار . فكيف كان العقابُ الإلهيُّ لهم على الكُفْرِ والتكذيب ؟ . والاستفهامُ للتوبيخ والتهديد ، وفيه وعيد شديد .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٣٩١) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : يا مُحَمَّدُ ، إن يستهزئ هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيباً منهم ما جئتهم به ، فأصبر على أذاهم لك ، وامض لأمر ربك في إنذارهم والإعذار إليهم ، فلقد استهزأت أمم من قبلك قد خلت فمضت برسلي ، فأطلت لهم في المهل ، ومددت لهم في الأجل ، ثم أحللت بهم عذابي ونقمتي حين تمادوا في غيهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم ، ألم أذقهم أليم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولي الألباب ؟ . والإملاء في كلام العرب : الإطالة)) .
وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْ)) ٢١٢ .

إنَّ الله يُمهِّلُ الظالمَ حتى يتمادى في ظلِّمه ، فلا يُعاقبه فوراً ، حتى إذا أخذه لم يُطْلَقْهُ ، ولم يَنْفَلتْ مِنْهُ ، ولا يُخَلِّصْهُ ، لكثرة مظالمه إن كان مُشْرِكًا ، أو لم يُخَلِّصْهُ مُدَّةً طويلةً إن كان مؤمناً . وعقوبةُ اللهِ شديدة ، وعذابه مُوجِع لا يُطاق ، ولا يُمكن تَحَمُّلُهُ . وفي هذا تحذير عظيم من الظلم ، بالكُفْرِ أو بغيره ، لِنَفْسِهِ أو لغيره .

وفي الحديث تسليَّةٌ للمظلوم في الحال ، ووعيدٌ للظالم لئلا يَغْتَرَّ بالإمهال .
ولا ينبغي للعبد أن يَغْتَرَّ بِحِلْمِ اللهِ عليه ، فقد يكون ما عليه من الأمن في المعصية والظلم لِنَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، إنما هو استدراج من الله تعالى له ، حتى إذا سبق الكتابُ أَخَذَهُ اللهُ بما قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ ، فلا يجد له من دونه ولياً ولا نصيراً .

٢١٢ متفق عليه . البخاري (٤ / ١٧٢٦) برقم (٤٤٠٩) ، ومسلم (٤ / ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الظَّالِمَ فُرْصًا زمنية عديدة ، فيُطِيلُ له في المُدَّة ، ويُمَهِّلُهُ ولا يُهْمِلُهُ ، وإذا أخذه لَمْ يُطْلِقْهُ ، لأنَّ أَخَذَهُ _ سُبْحَانَهُ وتعالى _ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظالِمًا يَزِدَادُ تَكْبِيرًا وَعَطْرَسَةً ونُفُودًا وَسَطْوَةً ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَسْتَدْرِجُهُ . والعاقِلُ مَنْ يقرأ حركة التاريخ جَيِّدًا ، ويتعظُّ بِغَيْرِهِ ، فالقويُّ لا يظلُّ قَوِيًّا حتى النهاية ، والضعيفُ لَنْ يبقَى ضعيفًا للأبد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٧) : ((معنى " يُمَلِّي " : يُمهِّلُ ويؤخِّرُ ويُطِيلُ له في المُدَّة ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الملوَّة ، وهي المُدَّة والزَّمان ، بضم الميم وكسرهما وفتحها . ومعنى " لَمْ يُفْلِتْهُ " لَمْ يُطْلِقْهُ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٢٦٤) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيُمَلِّي) بفتح اللام الأُولَى ، أي : لِيُمهِّلُ ، والإملاءُ : الإمهال والتأخير وإطالة العُمُر (للظالم) زيادة في استدراجه لِيُطَوِّلَ عُمُرَهُ وَيَكْثُرَ ظُلْمُهُ فَيَزِدَادُ عِقَابُهُ ﴿ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِنَّمَا ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، فإمهاله عَيْنُ عِقَابِهِ (حتى إذا أَخَذَهُ) أي : أَنْزَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ (لَمْ يُفْلِتْهُ) أي : لَمْ يُفْلِتْ مِنْهُ ، أَوْ لَمْ يُفْلِتْهُ مِنْهُ أَحَدٌ ، أي : لَمْ يُخَلِّصْهُ أَبَدًا ، بَلْ يُهْلِكُهُ لكثرة ظُلْمِهِ بالشَّرْكَ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَمْ يُخَلِّصْهُ مُدَّةً طَوِيلَةً بِقَدْرِ جِنَايَتِهِ . وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : معنى " لَمْ يُفْلِتْهُ " : لَمْ يُؤَخِّرْهُ ، تَعَقَّبَهُ ابن حجر بأنه يُفْهَمُ أَنَّ الظالم إذا صَرَفَ عَنِ مَنْصِبِهِ أَوْ أَهْمِينِ ، لا يَعُودُ إِلَى غَيْرِهِ ، والمُشَاهِدُ فِي بَعْضِهِمْ بِخِلَافِهِ ، فَالْأُولَى جَعَلَهُ غَالِبِيًّا مِنَ الإفلات ، وَهُوَ خُرُوجٌ مِنَ مَضِيقٍ وفيه تسلية للمظلوم ، ووعيد للظالم ، وَأَنَّهُ لا يَغْتَرُّ بِالْإِمهَالِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِإِهْمَالٍ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الحجر : ١١] .
وما جاءهم رسول إلا سَخِرُوا مِنْهُ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ . والمعنى : كَمَا فَعَلَ بِكَ هؤُلاءِ المُشْرِكُونَ يا مُحَمَّدُ ، فَكَذَلِكَ فُعِلَ بِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ ، فلا تَحْزَنْ ، ولا تَتَأَلَّمْ ، ولا تنزعج .
كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ كَانَتْ إِذَا جَاءَهَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ ، تُكذِّبُهُ وَتَسْتَهْزِئُ بِهِ وَتَسْخَرُ مِنْهُ ، كما يفعل كفار مكة مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ . والآيةُ تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ وَتَعْزِيَةٌ . وَتُخَفِّفُ عَنْهُ ، وَتُرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ .
لا تتضايقُ يا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِ قَوْمِكَ لَكَ وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ ، فَقَدْ كَذَّبَتِ الْأُمَّمُ السَّابِقَةُ رُسُلَهَا ، وَاسْتَهْزَأَتْ بِهِمْ . وَكُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَكَ يا مُحَمَّدُ كَانَ مُبْتَلَى بِقَوْمِهِ كَمَا ابْتُلِيتَ .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٤٩٤) : ((يقول : وما يأتي شيعَ الأولين من رسول من الله ، يُرْسَلُهُ إِلَيْهِمْ بِالْإِذْعَانِ إِلَى تَوْحِيدِهِ ، وَالْإِذْعَانُ بَطَاعَتُهُ ، إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . يقول : إِلاَّ كَانُوا يَسْخَرُونَ بِالرُّسُولِ الَّذِي يُرْسَلُهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، عُنْتًا مِنْهُمْ ، وَتَمَرَّدًا عَلَى رَبِّهِمْ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] .

إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَكَ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْكَ ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِدَعْوَتِكَ ، فَلَا تَغْبَأْ بِهِمْ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ ، وَاَمْضِ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبَلِّغِ الْوَحْيَ الْإِلَهِيَّ ، وَلَا تَخَشَّ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، فَهُوَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ . وَالْآيَةُ تُثَبِّتُ قَلْبَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَرْفَعُ مَعْنَوِيَّاتِهِ .
ادْعُ إِلَى رَبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ ، وَبِكُلِّ ثِقَةٍ ، وَلَا تَخَفْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ أَدَى الْكَافِرِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ .

وهؤلاء المستهزون كانوا خمسة من أشراف قريش ، وزعماء أهل مكة ، وكانوا يملكون المال والسلطة والقوة . وقد قتلهم الله تعالى ، وأهلكهم ، وأزاحهم من طريق النبي ﷺ . وهؤلاء هم : الوليد بن المغيرة . العاص بن وائل . الأسود بن المطلب . الأسود بن عبد يغوث . الحارث بن قيس .
وقد سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جِبْرِيلَ _ عَلَيْهِ السَّلَامُ _ حَتَّى قَتَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَفَى اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ شَرَّهُمْ ، وَأَرَاخَهُ مِنْ أَدَاهُمْ . وَقَدْ كَانُوا شَدِيدِي الْأَذَى لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَيَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي التَّخْطِيطِ لِمُحَارَبَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْهُ . وَقَدْ تَضَاقَقَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ ، وَعَانَى مِنْهُمْ أَشَدَّ الْمُعَانَاةِ . وَقَدْ أَرَاخَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٠٦) : ((مَعَ كَوْنِهِمْ كَانُوا مِنْ أَكْبَرِ الْكَفَّارِ ، وَأَهْلِ الشُّوْكَةِ فِيهِمْ ، فَإِذَا كَفَّاهُ اللَّهُ أَمْرَهُمْ بِقَمْعِهِمْ وَتَدْمِيرِهِمْ ، كَفَّاهُ أَمْرٌ مِنْهُ هُوَ دُونَهُمْ بِالْأَوْلَى)) .
وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٢٢) : ((ذَكَرَ مَا أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِهِ وَكَفَى رَسُولَهُ ﷺ أَمْرَهُمْ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : أَتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَالْمُسْتَهْزِئُونَ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ ، فَمَرَّ الْوَلِيدُ ابْنُ الْمَغِيرَةِ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ ، كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ . قَالَ : قَدْ كُفِّيتَ . وَأَوْمَأَ إِلَى سَاقِ الْوَلِيدِ ، فَمَرَّ الْوَلِيدُ بِرَجُلٍ يَرِيشُ نَبْلًا لَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ شَطِيبَةٌ مِنْ نَبْلِ بَازَارِهِ ، فَامْتَنَعَهُ الْكَبِيرُ أَنْ يُطَاطِئَ رَأْسَهُ لِيَنْزِعَهَا ، وَجَعَلَتْ تَضْرِبُ سَاقَهُ ، فَامْرَضَ وَمَاتَ . وَقِيلَ : تَعَلَّقَ سَهْمٌ بِتَوْبِهِ ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَقَطَعَهُ فَمَاتَ . وَمَرَّ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا يَا مُحَمَّدُ ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَأَشَارَ إِلَى أَحْمَصِ رِجْلِهِ ، وَقَالَ : قَدْ كُفِّيتَ ، فَدَخَلَتْ شَوْكَةٌ فِي أَحْمَصِهِ ، فَانْتَفَخَتْ رِجْلُهُ وَمَاتَ . وَمَرَّ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَلِّبِ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، قَالَ : عَبْدُ سَوْءٍ ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنَيْهِ فَعَمِيَ وَهَلَكَ . وَقِيلَ : جَعَلَ يَنْطَحُ بِرَأْسِهِ الشَّجَرَ ، وَيَضْرِبُ وَجْهَهُ بِالشُّوْكَ ، فَاسْتَفَاتَ بِغَلَامِهِ ، فَقَالَ : لَا أَرَى أَحَدًا يَصْنَعُ بِكَ هَذَا غَيْرَ نَفْسِكَ فَمَاتَ ، وَهُوَ يَقُولُ : قَتَلَنِي رَبُّ مُحَمَّدٍ . وَمَرَّ الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثٍ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : كَيْفَ تَجِدُ هَذَا ؟ ، فَقَالَ : بِئْسَ عَبْدُ اللَّهِ ،

فقال : قد كُفِّيتَ ، وأشار إلى بطنه ، فَسَقَى بَطْنَهُ فَمَاتَ ، وقيل : أصابَ عَيْنَهُ شَوْكٌ ، فسالت حَدَقَتَاهُ ، وقيل : خَرَجَ عَن أَهْلِهِ فَأَصَابَهُ السَّمُومُ ، فَاسْوَدَّ حَتَّى عَادَ حَبَشِيًّا ، فَلَمَّا أَتَى أَهْلَهُ لَمْ يَعْرِفُوهُ ، فَأَغْلَقُوا دُونَهُ الْأَبْوَابَ حَتَّى مَاتَ . ومَرَّ بِهِ الْحَارِثُ بْنُ قَيْسٍ ، فقال : كيف تجد هذا ؟ ، قال : عَبْدٌ سَوَاءٌ ، فَأَوْمَأَ إِلَى رَأْسِهِ ، وقال : قد كُفِّيتَ ، فانتفخَ رَأْسُهُ فَمَاتَ . وقيل : أصابه العطشُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَشْرَبُ الْمَاءَ حَتَّى انْقَدَّ بَطْنُهُ)) .

وعن أنس بن مالك قال: مرَّ النبي ﷺ على أناسٍ بِمَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَغْمِزُونَ فِي فَمِّهِ، ويقولون: هذا الذي يزعمُ أنه نبيٌّ ، ومعه جبريلُ ، فغمزَ جبريلُ بإصبعه، فوقعَ مِثْلُ الظُّفْرِ فِي أجسادهم، فصارت قُرُوحًا حَتَّى نَتْنُوا ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ٢١٣ . إِنَّ اللَّهَ يُنْهَلِ وَلَا يُهْمِلُ ، وَالْعَذَابُ سَيَّئِي فِي مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ ، وَلَا أَحَدٌ يُفْلِتُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَسْتَطِيعُ إِنْسَانٌ الْهَرَبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا قُدْرَةَ لِمَخْلُوقٍ مَعَ قُدْرَةِ الْخَالِقِ .

وقالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التَّحْلِ: ٣٤] . أصابَ الْكَافِرِينَ عُقُوبَاتٌ كُفِّرُهُمْ ، وَجَزَاءٌ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ ، أَي : جَزَاءٌ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ ، عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ ، أَوْ تَسْمِيَةِ الْجَزَاءِ بِاسْمِهَا . وفي زاد المسير (٤ / ٤٤٤) : ((قال ابن عباس : جَزَاءٌ مَا عَمِلُوا مِنَ الشَّرِّ)) .

وأحاطَ وَنَزَلَ بِهِمْ جَزَاءٌ سُخْرِيَتُهُمْ وَاسْتَهْزِئَتُهُمْ ، وهو عذاب النار الشديد . وَالْحَقِيقُ : مَا يَشْتَمَلُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ مَكْرُوهٍ فَعِلُهُ ، وَالْحَقِيقُ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الشَّرِّ .

وقال الطبري في تفسيره (٧ / ٥٨١) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : فَأَصَابَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَعَلُوا مِنَ الْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ فِعْلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا ، يَعْنِي : عُقُوبَاتِ ذُنُوبِهِمْ ، وَنَقَمِ مَعَاصِيهِمْ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا ، ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، يقول : وَحَلَّ بِهِمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ مِنْهُ وَيَسْتَحْرُونَ عِنْدَ إِنْذَارِهِمْ ذَلِكَ رُسُلَ اللَّهِ ، وَنَزَلَ ذَلِكَ بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ)) .

وقالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [يس :

[٣٠] .

٢١٣ رواه الطبراني في الأوسط (٧ / ١٥٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٣٣) : ((فيه يزيد ابن دَرَّهَمَ ، ضَعَّفَهُ ابْنُ مَعِينٍ ، وَوَثَّقَهُ الْفَلَّاسُ)) .

يا أسفًا على هؤلاء الكافرين الذين كذبوا رُسُلَ اللَّهِ، وأنكروا آياته، ويا حسرةً عليهم . لقد استَهزؤوا بالرُّسُلِ، فَتَحَسَّرُوا عِنْدَ الْعُقُوبَةِ. وفي الآية تعريفٌ بِكُفَّارِ فُرَيْشٍ حَيْثُ كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ .
يا حَسْرَةً مِنَ الْعِبَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَنْدَمًا وَتَلَهُفًا فِي تَكْذِيبِهِمْ لِرُسُلِ اللَّهِ وَاسْتَهْزَائِهِمْ بِهِمْ .
وَالْحَسْرَةُ : شِدَّةُ النَّدَمِ وَالتَّأَلُّمِ . وَنِدَاؤُهَا مَجَازٌ ، أَي : هَذَا أَوَانُكَ يَا حَسْرَةَ فَتَعَالَى وَاحْضُرِي ،
وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى ، تَعَالَى يَا حَسْرَةَ ، فَهَذِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي حَقَّقَهَا أَنْ تَحْضُرِي فِيهَا . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُمْ
يَسْتَحْقِقُونَ أَنْ يُتَحَسَّرَ عَلَيْهِمْ لِمَا أَصَابَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ ،
قَالَ الْفَرَّاءُ : الْمَعْنَى : يَا لَهَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ . وَقَالَ الرَّجَّاجُ : الْحَسْرَةُ أَنْ يَرْكَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ
شِدَّةِ النَّدَمِ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ حَتَّى يَبْقَى قَلْبُهُ حَسِيرًا . وَفِي الْمُتَحَسَّرِ عَلَى الْعِبَادِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ
يَتَحَسَّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ . قَالَ مُجَاهِدٌ وَالرَّجَّاجُ : اسْتَهْزَأُوهُمْ بِالرُّسُلِ كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ،
وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : لَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ ، قَالُوا : يَا حَسْرَتَنَا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، كَيْفَ لَنَا بِهِمْ الْآنَ حَتَّى
نُؤْمِنَ . وَالثَّانِي أَنَّهُ تَحَسَّرَ الْمَلَائِكَةُ عَلَى الْعِبَادِ فِي تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ، قَالَهُ الصَّحَّاحُ)) .

ما جاءهم رَسُولٌ إِلَّا كَذَّبُوهُ ، وَسَخَرُوا مِنْهُ ، وَاسْتَهْزَأُوا بِهِ ، وَهَذَا سَبَبُ التَّحَسُّرِ عَلَيْهِمْ . وَهَذِهِ
هِيَ عَادَةُ الْمُجْرِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

إِنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَتَحَسَّرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ يُتَحَسَّرَ عَلَيْهِمْ . يَا لَهَا مِنْ حَسْرَةٍ وَخِيبةٍ عَلَى هَؤُلَاءِ
الْكَافِرِينَ الْمُكْذِبِينَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْمَحْرُومِينَ ، حَيْثُ بَدَّلُوا الْإِيمَانَ بِالْكَفْرِ ، وَالسَّعَادَةَ بِالشَّقَاوَةِ .
وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٤٣١) : ((﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ تَعَالَى ، فَهَذِهِ مِنَ
الْأَحْوَالِ الَّتِي مِنْ حَقِّهَا أَنْ تَحْضُرِي فِيهَا ، وَهِيَ مَا دَلَّ عَلَيْهَا ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، فَإِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُنُوطِ بِنُصْحِهِمْ خَيْرَ الدَّارَيْنِ أَحِقَّاءُ بِأَنْ
يَتَحَسَّرُوا عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ تَلَهُفَ عَلَى حَالِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ (الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) .
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَحَسَّرًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ لِتَعْظِيمِ مَا جَنَّوْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ [الصَّافَّاتُ : ١٢] .

بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِنْكَارِهِمُ لِلْبَعْثِ ، مَعَ رُؤْيَتِهِمْ آثَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ، وَدَلَائِلِ
عَظَمَتِهِ الْوَاضِحَةِ ، وَيَسْخَرُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ مِنْ تَعَجُّبِكَ وَتَقْرِيرِكَ لِلْبَعْثِ . أَي : أَنْتَ تَعْجَبُ مِنْهُمْ ،
وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْكَ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٧ / ٤٩) : ((وَفِي مَا عَجَبَ مِنْهُ قَوْلَانِ :
أَحَدُهُمَا : مِنَ الْكُفَّارِ إِذْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْقُرْآنِ ، وَالثَّانِي : إِذْ كَفَرُوا بِالْبَعْثِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧ / ٤) : ((قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ، أَي : بَلْ عَجِبْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَيْتِ ، وَأَنْتَ مُوقِنٌ مُصَدِّقٌ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ الْعَجِيبِ ، وَهُوَ إِعَادَةُ الْأَجْسَامِ بَعْدَ فَنَائِهَا ، وَهُمْ بِخِلَافِ أَمْرِكَ ، مِنْ شِدَّةِ تَكْذِيبِهِمْ يَسْخَرُونَ مِمَّا تَقُولُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٣] .

وَإِذَا أُعْظُوا بِالْقُرْآنِ لَا يَتَّعِظُونَ بِهِ ، وَإِذَا ذُكِّرَ لَهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الْبَيْتِ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ لَجْهَلِهِمْ وَقِلَّةِ فِكْرِهِمْ . وَهَذَا هُوَ ذَأْبُهُمُ الْمُسْتَمِرُّ ، وَعَادَتُهُمْ الدَّائِمَةُ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٤٧٧) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَإِذَا ذُكِّرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ حُجَجَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَعْتَبَرُوا وَيَتَفَكَّرُوا ، فَيُنِيبُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، ﴿ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ، يَقُولُ : لَا يَنْتَفِعُونَ بِالتَّذْكِيرِ فَيَتَذَكَّرُوا)) اهـ . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٥٥٣) : ((﴿ وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ ، أَي : وَإِذَا أُعْظُوا بِمَوْعِظَةٍ مِنْ مَوْاعِظِ اللَّهِ ، أَوْ مَوْاعِظِ رَسُولِهِ ، لَا يَذْكُرُونَ ، أَي : لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا ، وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا فِيهَا . قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ : أَي إِذَا ذُكِّرَ لَهُمْ مَا حَلَّ بِالْمُكْذِبِينَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُمْ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يَتَذَبَّرُوا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ [الصَّافَّات : ١٤] .

وَإِذَا رَأَوْا آيَةً عَظِيمَةً أَوْ مُعْجِزَةً بَاهِرَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ ، يَسْخَرُونَ مِنْهَا ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ، وَيَقُولُونَ إِنَّهَا سِحْرٌ ، أَوْ يَسْتَدْعِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَسْخَرَ مِنْهَا ، أَوْ يَطَّيْنُونَ أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ سُخْرِيَّةٌ . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ وَاضِحَةٌ إِلَى تَمَادِيهِمْ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٤٧٧) : ((يَقُولُ : وَإِذَا رَأَوْا حُجَّةً مِنْ حُجَجِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَذَلَالَةً عَلَى نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، يَسْتَسْخِرُونَ ، يَقُولُ : يَسْخَرُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٨) : ((﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ مُعْجِزَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الْقَائِلِ بِهِ ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ يُبَالِغُونَ فِي السُّخْرِيَّةِ ، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ سِحْرٌ ، أَوْ يَسْتَدْعِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهَا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ [الْحُجُرَات : ١١] .

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ أَنْ يَسْخَرَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ . وَالسُّخْرِيَّةُ : الْإِسْتِهْزَاءُ . وَتَحْرَمُ السُّخْرِيَّةُ بِالنَّاسِ وَاحْتِقَارِهِمْ وَالْإِسْتِهْزَاءَ بِهِمْ . وَاخْتِيَارُ الْجَمْعِ ، لِأَنَّ السُّخْرِيَّةَ تَغْلِبُ فِي الْمَجَامِعِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُ لِلآيَةِ : لَا يَطَّعْنَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوحداية الله ، وأقرُّوا بنبوَّة مُحَمَّد ﷺ ، لا يَسْخَرُ رِجَالٌ مِنْ رِجَالٍ ، عَسَى أَنْ يَكُونَ الْمَسْخُورُ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا مِنَ السَّاحِرِينَ بِهِمْ . وهذا تعليلٌ لِلنَّهْيِ عَنِ السُّخْرِيَّةِ . ولأنَّ لفظ " قَوْمٌ " خاصٌّ بِالرِّجَالِ ، أُفْرِدَ النِّسَاءَ بِالذَّكْرِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ ، وَلَا يَسْخَرُ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ، عَسَى أَنْ يَكُنَّ الْمَسْخُورُ بِهِنَّ خَيْرًا مِنَ السَّاحِرَاتِ مِنْهُنَّ . وقيل : أُفْرِدَ النِّسَاءَ بِالذَّكْرِ ، لِأَنَّ السُّخْرِيَّةَ مِنْهُنَّ أَكْثَرُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٢١٧ / ١) : ((لا يَسْخَرُ بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْ بَعْضٍ ، إِذْ قَدْ يَكُونُ الْمَسْخُورُ مِنْهُ خَيْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ السَّاحِرِ . وَالْقَوْمُ مُخْتَصٌّ بِالرِّجَالِ)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٥٦٣ / ٧) : ((أُخْرِجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُقَاتِلٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ ، قَالَ : نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ اسْتَهْزَؤُوا مِنْ بِلَالٍ وَسَلْمَانَ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ وَصُهَيْبٍ وَابْنِ فَهْرَةَ وَسَلَمَةَ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ)) .
نَهَى اللَّهُ عَنِ السُّخْرِيَّةِ ، وَاحْتِقَارِ النَّاسِ ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ ذُوئِيَّةٍ ، وَاعْتِبَارِهِمْ بَشْرًا مِنَ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ . وَقَدْ يَكُونُ الْمَسْخُورُ مِنْهُ أَكْبَرًا وَأَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ السَّاحِرِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٦٥ / ٧ و ٤٦٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ ، هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْبَابٍ ، فَأَمَّا أَوَّلُهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ ، فَنَزَلَتْ عَلَى سَبَبٍ ، وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ جَاءَ يَوْمًا يُرِيدُ الدُّنُوَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ بِهِ صَمَمٌ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ : افْسَحْ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : قَدْ أَصَبْتَ مَجْلِسًا ، فَجَلَسَ مُغَضَّبًا ، ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ : مَنْ أَنْتَ ؟ ، قَالَ : أَنَا فُلَانٌ ، فَقَالَ ثَابِتٌ : أَنْتَ ابْنُ فُلَانَةَ !! ، فَذَكَرَ أَمَّا لَهُ كَانَ يُعَيَّرُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَغْضَى الرَّجُلُ ، وَنَكَسَ رَأْسَهُ ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّ وَفْدَ تَمِيمٍ اسْتَهْزَؤُوا بِفُقَرَاءِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَوْا مِنْ رَثَاةِ حَالِهِمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ الصُّحَّاحُ وَمُقَاتِلٌ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ ﴾ ، فَنَزَلَتْ عَلَى سَبَبٍ ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ نِسَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَيَّرْنَ أُمَّ سَلَمَةَ بِالْقَصْرِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ، وَرَوَّعَ مُقَاتِلٌ أَنَّ عَائِشَةَ اسْتَهْزَأَتْ مِنْ قِصْرِ أُمَّ سَلَمَةَ . وَالثَّانِي أَنَّ امْرَأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَخِرَتَا مِنْ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتْ أُمَّ سَلَمَةَ قَدْ خَرَجَتْ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ رَبَطَتْ أَحَدَ طَرْفَيْ جِلْبَابِهَا عَلَى حَقْوِهَا ، وَأَرْخَتِ الطَّرْفَ الْآخَرَ خَلْفَهَا وَلَا تَعْلَمُ ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا لِلْآخَرَى : انظري ما خَلَفَ أُمَّ سَلَمَةَ كَأَنَّهُ لِسَانُ كَلْبٍ ، قَالَ أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ ابْنِ

أَخْطَبَ أَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : إِنْ النِّسَاءُ يُعَيِّرُنِي وَيَقْلُنَ : يَا يَهُودِيَّةَ بِنْتَ يَهُودِيَّيْنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " هَلَّا قُلْتِ إِنَّ أَبِي هَارُونَ ، وَإِنَّ عَمِّي مُوسَى ، وَإِنَّ زَوْجِي مُحَمَّدٌ " ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، رَوَاهُ عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ)) .

فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٠٢٤) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((رُبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ)) .

رُبَّمَا يَكُونُ الرَّجُلُ أَشْعَثَ ، وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ شَعْرُ رَأْسِهِ مُتَفَرِّقًا ، غَيْرَ مَدْهُونَ ، وَمَدْفُوعًا بِالْأَبْوَابِ ، لَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ ، فَهُوَ مَحْجُوبٌ وَمَطْرُودٌ عَنْ مَجَالِسِهِمْ لِحَقَارَتِهِ وَضَعْفِهِ فِي نَظَرِهِمْ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَوْ حَلَفَ أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ كَذَا أَوْ لَا يَفْعَلُهُ ، لِأَجَابِ اللَّهُ رَغْبَتَهُ وَدُعَاةَهُ ، وَلَا يُحَيِّبُ أَمَلَهُ ، لِفَضْلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا بَيَانٌ لِعِظَمِ وَقَدْرِ هَذَا الرَّجُلِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَهَذَا مِنَ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ لِلنَّاسِ ، حَتَّى لَا يَحْتَقِرُوا بَعْضَ الضُّعَفَاءِ ، وَكَيْ يَنْتَبِهَ النَّاسُ إِلَى أَنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ فِي التَّقْوَى ، وَالتَّقْوَى مَحَلُّهَا الْقَلْبُ ، وَلَيْسَ الثِّيَابُ أَوْ الْمَالُ أَوْ الْجَاهُ أَوْ الْحَسَبُ وَالتَّنَسُّبُ . وَالمَظَاهِرُ لَيْسَتْ مِعْيَارًا حَقِيقِيًّا لِمَعْرِفَةِ الْأَتْقِيَاءِ وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ لَدَى عَامَّةِ النَّاسِ ، فَكثِيرًا مَا تَكُونُ عِنَايَةُ اللَّهِ عِنْدَ الْخَامِلِينَ ، وَالمَدَارُ التَّقْوَى ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَامُ ﴾ [الْحُجُرَاتُ : ١٣] .

وَالْحَدِيثُ يُبَيِّنُ فَضْلَ اللَّهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ الطَّائِعِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَيَمْدَحُ التَّوَادِعَ وَالْخُمُولَ وَالتَّذَلُّلَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَالْحَضُّ عَلَيْهِ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٦ / ١٧٤ و ١٧٥) : ((الْأَشْعَثُ (الْمَلْبَدُ الشَّعْرُ الْمُغْبَرُ ، غَيْرَ مَدْهُونَ ، وَلَا مُرْجَلٌ _ غَيْرَ مَمْشُوطٍ _ ، وَ (مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ) أَي لَا قَدْرَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ ، فَهُمْ يَدْفَعُونَهُ عَنْ أَبْوَابِهِمْ ، وَيَطْرُدُونَهُ عَنْهُمْ احْتِقَارًا لَهُ (لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) أَي : لَوْ حَلَفَ عَلَى وَقُوعِ شَيْءٍ ، أَوْ قَعَهُ اللَّهُ إِكْرَامًا لَهُ ، بِإِجَابَةِ سُؤَالِهِ ، وَصِيَانَتِهِ مِنَ الْحِنْتِ فِي يَمِينِهِ ، وَهَذَا لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا عِنْدَ النَّاسِ . وَقِيلَ : مَعْنَى الْقَسَمِ هُنَا الدُّعَاءُ ، وَإِبْرَاهُ إِجَابَتُهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

رُبَّ شَخْصٍ مُتَلَبِّدٍ الشَّعْرَ مُغْبَرَهُ ، لَا يَدَهْنُهُ ، وَلَا يُكْتَرُ غَسَلُهُ ، وَمَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ ، لَا يُؤَدِّنُ لَهُ ، بَلْ يُحَجَّبُ وَيُطْرَدُ لِحَقَارَتِهِ عِنْدَ النَّاسِ ، لَوْ حَلَفَ يَمِينًا طَمَعًا فِي كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى بِإِبْرَاهِهِ . وَقِيلَ : لَوْ دَعَا لِأَجَابِهِ . وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ . قَدْ يَكُونُ الشَّخْصُ لَا يُهْتَمُّ لِأَمْرِهِ ، وَلَا يُعْبَأُ بِهِ ، يَحْتَقِرُهُ النَّاسُ ، وَلَا يُعِيرُونَهُ اِهْتِمَامًا ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً ذُؤِيبِيَّةً ، لَوْ حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ لَحَقَّقَهُ اللَّهُ إِكْرَامًا لِهَذَا الشَّخْصِ الَّذِي لَهُ مَكَانَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى رَغْمَ مَكَانَتِهِ الْوَضِيعَةِ عِنْدَ النَّاسِ .

وقال المُنَاوِي فِي فِيضِ الْقَدِيرِ (٤ / ١٤ و ١٥) : (((رُبُّ) (أَشَعَثَ) أَي تَائِرِ الشَّعْرِ مُغْبِرُهُ ، قَدْ أَخَذَ فِيهِ الْجَهْدُ _ الْمَشَقَّةُ _ حَتَّى أَصَابَهُ الشَّعَثُ وَغَلَبَتْهُ الْعَبْرَةُ . قَالَ الْقَاضِي : الْأَشَعَثُ الْمُغْبِرُ الرَّأْسِ الْمُتَفَرِّقُ الشَّعْرَ ، وَأَصْلُ التَّرَكِيبِ هُوَ التَّفْرِيقُ وَالِانْتِشَارُ (مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ) أَي يُدْفَعُ عِنْدَ إِرَادَتِهِ الدُّخُولُ عَلَى الْأَعْيَانِ ، وَالْحُضُورُ فِي الْمَحَافِلِ ، إِمَّا بِاللِّسَانِ أَوْ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ احْتِقَارًا لَهُ ، فَلَا يُتْرَكُ أَنْ يَلِجَ الْبَابَ فَضْلًا أَنْ يُقْعَدَ مَعَهُمْ وَيَجْلِسَ بَيْنَهُمْ (لَوْ أَقْسَمَ) حَلَفَ (عَلَى اللَّهِ) لِيَفْعَلَ شَيْئًا (لِأَبْرَهُ) أَي أَبَرَّ قَسَمَهُ ، وَأَوْفَعَ مَطْلُوبَهُ ، إِكْرَامًا لَهُ ، وَصَوْنًا لِيَمِينِهِ عَنِ الْحِنْتِ ، لِعِظَمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ ، أَوْ مَعْنَى الْقَسَمِ الدُّعَاءِ ، وَإِبْرَازِهِ إِجَابَتَهُ ، وَرُبُّ هُنَا لِلتَّقْلِيلِ . قَالَ فِي الْمُغْنِيِّ : وَليست هي للتقليل دائمًا خِلافًا لِلأَكْثَرِ ، وَلَا لِلتَّكْثِيرِ دَائِمًا خِلافًا لِابْنِ دَرَسْتَوَيْهِ ، وَجَمَعَ بَلَّ لِلتَّكْثِيرِ كَثِيرًا ، وَلِلتَّقْلِيلِ قَلِيلًا . إِنَّمَا قَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ ذَلِكَ لِیُبَيِّنَ مَرَاتِبَ الشَّعَثِ الْغُبْرِ الْأَصْفِيَاءِ الْأَتْقِيَاءِ ، وَيُرْعَبُكَ فِي طَلَبِ مَا طَلَبُوا ، وَيُنَشِّطُكَ تَقْدِيمَ مَا قَدَّمُوا ، وَيُثَبِّطُكَ عَنِ الطَّمَعِ الْفَارِغِ وَالرَّجَاءِ الْكَاذِبِ ، وَيُعَلِّمُكَ أَنَّ الرِّيَّةَ إِنَّمَا هِيَ بِلِبَاسِ التَّقْوَى . [تَنْبِيهِ] قَالَ فِي الْمِنِّ : مِنْ الْأَخْفِيَاءِ الشَّعَثُ مِنْ يُجَابُ دُعَاؤُهُ كُلَّمَا دَعَا ، حَتَّى إِنْ بَعْضُ السُّوقَةِ كَانَ كُلُّ مَنْ دَعَا عَلَيْهِ مَاتَ لَوْقَتِهِ ، وَأَرَادَ جِمَاعَ زَوْجَتِهِ ، فَقَالَتْ : الْأَوْلَادُ مُتَيَقِّظُونَ ، فَقَالَ : أَمَاتَهُمُ اللَّهُ ، فَكَانُوا سَبْعَةً ، فَصَلُّوا عَلَيْهِمْ بُكْرَةَ النَّهَارِ ، فَبَلَغَ الْبُرْهَانَ الْمُتَوَلَّى فَاحْضَرَهُ ، وَقَالَ : أَمَاتَكَ اللَّهُ فَمَاتَ ، وَقَالَ : لَوْ بَقِيَ لَأَمَاتَ خَلْقًا كَثِيرًا (رُبُّ أَشَعَثَ) أَي جَعَدَ الرَّأْسَ (أَعْبَرَ) أَي : غَيَّرَ الْعِبَارَ لَوْنَهُ لِطَوْلِ سَفَرِهِ فِي طَاعَةِ ، كَحَجِّ ، وَجِهَادِ ، وَزِيَارَةِ رَحِمِ ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ (ذِي طَمْرَيْنِ) تَشْبِيهُ طَمْرٍ ، وَهُوَ الثُّوبُ الْخَلْقُ (يَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ) أَي تَرْجِعُ وَتَعُضُّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ احْتِقَارًا لَهُ ، وَاسْتِهَانَةً بِهِ . يُقَالُ : نَبَا السَّيْفُ عَنِ الصَّرْبِ ، إِذَا رَجَعَ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ ، وَنَبَا الطَّبَّعُ عَنِ الشَّيْءِ ، نَفَرَ فَلَمْ يَقْبَلْهُ (لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ) أَي : لَوْ سَأَلَ اللَّهُ ، وَأَقْسَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ لَفَعَلَ ، وَلَمْ يُحْيِبْ دَعْوَتَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْكَسَارَ وَرِثَاةَ الْحَالِ وَالْهَيْئَةَ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ الْإِجَابَةِ ، وَمِنْ ثَمَّ نُدِبَ _ اسْتَحْبَبَ _ ذَلِكَ فِي الْاسْتِسْقَاءِ . قَالَ الْحَسَنُ : احْتَرَقَتْ أَحْصَااصُ _ وَهِيَ الْبُيُوتُ الَّتِي تُعْمَلُ مِنَ الْقَصَبِ _ بِالْبَصْرَةِ ، إِلَّا حُصَّ وَسَطُهَا ، فَقِيلَ لِصَاحِبِهَا : مَا لِحُصِّكَ لَمْ تَحْتَرِقْ ؟ ، قَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَى رَبِّي أَنْ لَا يُحْرِقَهُ . وَرَأَى أَبُو حَفْصٍ رَجُلًا مَدْهُوشًا ، فَقَالَ : مَا لَكَ ؟ ، قَالَ : ضَلَّ حِمَارِي وَلَا أَمْلِكُ غَيْرَهُ ، فَوَقَفَ أَبُو حَفْصٍ ، وَقَالَ : لَا أَخْطُو خُطْوَةً مَا لَمْ تَرُدَّ حِمَارَهُ ، فَظَهَرَ حِمَارُهُ فَوْرًا . قَالَ الْعَزَالِيُّ : وَهَذَا يَجْرِي لِذَوِي الْأَنْسِ ، وَلَيْسَ لغيرِهِمُ التَّشْبِيهُ بِهِمْ . وَقَالَ الْخُنَيْدُ : أَهْلُ الْأَنْسِ يَقُولُونَ فِي خَلْوَتِهِمْ أَشْيَاءَ هِيَ كُفْرٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ ، وَفِيهِ أَنَّ الْعَبْرَةَ بِالْقُلُوبِ وَالْأَدْيَانَ ، لَا بِاللِّبَاسِ وَالْمَتَاعِ وَالْأَبْدَانَ)) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الْحُجُرَات : ١١] .

وَلَا يَعْيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَلَا يَدْعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلِقَبِ سَيِّئٍ يَكْرَهُهُ . وَالتَّبَرُّ مُخْتَصٌّ بِاللِقَبِ السَّيِّئِ عُرْفًا . وَ ﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَحْدَةِ الْمُسْلِمِينَ وَتَمَاسِكِ الْمُسْتَجْمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . بَيِّنُ أَنَّ يُسَمَّى الْإِنْسَانَ فَاسِقًا بَعْدَمَا صَارَ مُؤْمِنًا ، أَوْ : إِنَّ اللَّمَزَ (الطَّعْنَ وَالسُّخْرِيَّةَ) وَالتَّنَابُزَ بِالْأَلْقَابِ فِسْقٌ ، وَبَيِّنُ ذَلِكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ التَّنَابُزَ بِالْأَلْقَابِ وَالْإِيمَانَ ضِدَّانَ لَا يَلْتَقِيَانِ ، وَنَقِيضَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ . وَمَنْ لَمْ يَتُبْ عَنِ اللَّمَزِ وَالتَّنَابُزِ بِالْأَلْقَابِ (وَمَنْ لَمْ يَتُبْ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بِتَعْرِيفِ أَنْفُسِهِمْ لِلْعَذَابِ الشَّدِيدِ . وَقَدْ ظَلَمُوا مَنْ لَقَّبُوهُ بِالْأَلْقَابِ السَّيِّئَةِ ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا لَزِمَهُمْ مِنَ الْإِثْمِ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، قَالَ : ((لَا يَطْعَنُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)) .^{٢١٤}

وَلَا يَعْتَبُّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَا يَسْخَرُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَلَا يُعْبَهُ ، وَلَا يَطْعَنُ فِيهِ بِالْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١١ / ٣٨٩) : ((فَجَعَلَ اللَّامُزَ أَخَاهُ لَامِرًا نَفْسَهُ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ فِيمَا يَلْزَمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْ تَحْسِينِ أَمْرِهِ ، وَطَلَبِ صِلَاخِهِ ، وَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ)) .
وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٢٧٠) : ((قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ بَيِّنُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أَي : بَيِّنُ الصِّفَةِ وَالْأَسْمُ الْفُسُوقُ ، وَهُوَ التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَنَاعَتُونَ ، بَعْدَمَا دَخَلْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَعَقَلْتُمُوهُ)) .

أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَهْدِفُونَ مِنْ وَرَاءِ نَشْرِ الْأَلْقَابِ الْمَكْرُوهَةِ إِلَى تَدْمِيرِ الرُّوحِ الْمَعْنُويَةِ لَدَى الْخُصُومِ ، وَالانْتِقَاصِ مِنْهُمْ ، وَتَحْجِيمِهِمْ ، أَوْ إِهَانَةِ قِبَائِلِهِمْ ، فِي ظِلِّ الصَّرَاحِ بَيْنَ الْقِبَائِلِ الْمَفْتُوحِ عَلَى كُلِّ الْإِحْتِمَالَاتِ . وَالْأَلْقَابُ كَانَتْ سِلَاحًا لِتَدْمِيرِ الْآخَرِينَ ، وَإِلْصَاقِ الْعَارِ بِهِمْ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوِّ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ الْمُتَأَجَّجَةِ نَتِيجَةَ النَّزَاعَاتِ الْمُسْتَمْرَةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ .

٢١٤ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٠٣) بِرَقْمِ (٣٧٢٣) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

واللقب كالاسم يلتصق بالإنسان في حياته ، وبعد مماته ، فإذا كان قبيحاً وسيئاً غداً وصمةً عاراً أبدية لا يمكن محوها . ولا يقف التأثير السلبي عند صاحب اللقب ، بل يتعدى إلى أسرته ، وقبيلته ، ومحيطة الاجتماعي ، مما يسبب مشكلاتٍ معنوية ومادية لا حصر لها . وفي هذا دلالةً على شراسة الحرب الفكرية في الجاهلية ، واستخدام كلِّ الوسائل القذرة ، باعتبار أن الغاية تُبرِّر الوسيلة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٤٦٦ - ٤٦٩) : ((وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ، فنزلت على سبب ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أن رسول الله ﷺ قدِم المدينة ، ولهم ألقاب يُدعون بها ، فجعل الرجل يدعو الرجل بلقبه ، فقيل له : يا رسول الله ، إنهم يكرهون هذا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ، قاله أبو جبير بن الصَّحَّاح . والثاني أن أبا ذر كان بينه وبين رجل مُنازعة ، فقال له : الرجل : يا ابن اليهودية ، فنزلت : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ، قاله الحسن . والثالث أن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله ابن أبي حذرد الأسلمي كلام ، فقال له : يا أعرابي ، فقال له عبد الله : يا يهودي ، فنزلت فيهما : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ، قاله مقاتل (و. تلمزوا) بمعنى تعيبوا ، والمراد بالأنفس هاهنا الإخوان ، والمعنى : لا تعيبوا إخوانكم من المسلمين ، لأنهم كأنفسكم . والتنازير التفاعل من التَبَر ، وهو مصدر ، والتَبَر الاسم ، والألقاب جمع لَقَب ، وهو اسم يُدعى به الإنسان سِوَى الاسم الذي سُمِّيَ به وللمفسِّرين في المُراد بهذه الألقاب أربعة أقوال : أحدها تغيير التائب بسِّيئات قد كان عملها ، رواه عطية العوفي عن ابن عباس . والثاني أنه تسميته بعد إسلامه بدينه قبل الإسلام ، كقوله لليهودي إذا أسلم : يا يهودي ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، وبه قال الحسن وسعيد بن جببر وعطاء الخراساني والقرظي . والثالث أنه قول الرجل للرجل : يا كافر ، يا منافق ، قاله عكرمة . والرابع أنه تسميته بالأعمال السيئة ، كقوله : يا زاني ، يا سارق ، يا فاسق ، قاله ابن زيد . قال أهل العلم : والمراد بهذه الألقاب ما يكرهه المُنادى به ، أو يُعدُّ ذمًّا له ، فأما الألقاب التي تُكسب حمداً ، وتكون صدقاً ، فلا تُكره ، كما قيل لأبي بكر: عتيق ، ولعمر: فاروق ، ولعثمان: ذو الثورين ، ولعلي: أبو تراب ، ولخالد: سيف الله ، ونحو ذلك . وقوله : ﴿ يسس الاسمُ الفسوق ﴾ ، أي : تسميته فاسقاً أو كافراً وقد آمن ، ﴿ ومن لم يتب ﴾ من التنازير ، ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ، وفيه قولان : أحدهما الضارون لأنفسهم بمعصيتهم ، قاله ابن عباس . والثاني هم أظلم من الذين قالوا لهم ذلك ، قاله ابن زيد) .

وقال أبو جَبيرة بن الصَّحَّاح : فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَنِي سَلَمَةَ ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ
الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ ، قال : قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ ،
أَوْ ثَلَاثَةٌ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((يَا فُلَان)) ، فيقولون : مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُ يَغْضَبُ
مِنْ هَذَا الْاسْمِ ، فَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ٢١٥ .

يُخْبِرُ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلَ أَبُو جَبِيرَةَ بْنِ الصَّحَّاحِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي بَنِي سَلَمَةَ ، وَمَعْنَاهَا :
وَلَا تَدْعُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا بِأَبْغَضِ الْأَسْمَاءِ إِلَيْكُمْ ﴿ بِالْأَلْقَابِ ﴾ ، أَي : بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي تُلَقَّبُونَ بِهَا
بَعْضَكُمْ ، بِئْسَ فَعَلْتُمْ هَذِهِ وَفُسُوقُكُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ .

وَعِنْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، كَانَ لِكُلِّ شَخْصٍ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ ، فَإِذَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ
أَحَدًا نَادَاهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمِعَ الْقَوْمَ يُنَادُونَهُ بِهِ ، فَقَالَ : " يَا فُلَان " ، فَيُنَبِّهُ الْقَوْمَ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يُنَادِي
عَلَى هَذَا الشَّخْصِ بِهَذَا الْاسْمِ ، لِأَنَّهُ يَكْرَهُهُ ، وَيَغْضَبُ إِذَا نُودِيَ بِهِ . وَمَعْنَى " مَهْ " : أَكْفُفْ ،
فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ، أَي : امْتَنَعُوا عَنِ مُنَادَاةِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
بِأَسْمَاءٍ سَيِّئَةٍ مَكْرُوهَةٍ لَا تُحِبُّونَهَا ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَةِ الْإِتِّزَامِ بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ ، وَحُسْنِ
التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ . وَهَذَا لَيْسَ غَرِيبًا ، إِذْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بُعِثَ لِيُتِمَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَلِذَلِكَ أَهْتَمَّ
اهْتِمَامًا كَبِيرًا بِالْجَانِبِ الْأَخْلَاقِيِّ تَسْمِيمًا لِمَكَارِمِهِ .

وَفِي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (١٣ / ٢٠٥ و ٢٠٦) : ((قَالَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ : الْعَلَمُ إِذَا كَانَ يُكُونُ مُشْعِرًا
بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ ، وَهُوَ اللَّقَبُ ، وَإِنَّمَا أَنْ لَا يَكُونَ ، فَإِنَّمَا يُصَدَّرُ بِأَبٍ أَوْ ابْنٍ وَهُوَ الْكُنْيَةُ أَوَّلًا وَهُوَ الْاسْمُ .
(فِي بَنِي سَلَمَةَ) بَدَلٌ مِنْ فِينَا (﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾) أَي : لَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلِقَبِّ
يَكْرَهُهُ (﴿ بِئْسَ الْاسْمُ ﴾) أَي : الْمَذْكُورُ قَبْلَ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَاللَّمَزِ وَالْتَنَابُرِ (﴿ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾)
بَدَلٌ مِنَ الْاسْمِ (وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ) الْوَائِلُ لِلْحَالِ (إِلَّا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ) أَوْ لِلتَّنَوُّعِ (يَقُولُ : يَا
فُلَان) أَي بِأَحَدِ أَسْمَائِهِ (فيقولون : مَهْ) بَفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْهَاءِ ، أَي أَكْفُفْ)) .

وَفِي تُحْفَةِ الْأَحْوَذِيِّ (٩ / ١٠٩) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ، أَي : لَا يَدْعُو
بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلِقَبِّ يَكْرَهُهُ ، وَالتَّنَابُرُ التَّفَاعُلُ مِنَ التَّنَبُّرِ بِالتَّسْكِينِ وَهُوَ الْمَصْدَرُ ، وَالتَّنَبُّرُ بِالتَّحْرِيكِ

٢١٥ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ (٢ / ٧٠٩) ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤ / ٣١٤) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .
وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْأَثَرِ (٥ / ١٧) : ((التَّنَابُرُ : التَّدَاعِي بِالْأَلْقَابِ . وَالتَّنَبُّرُ بِالتَّحْرِيكِ :
الَلْقَبُ ، وَكَأَنَّهُ يَكْثُرُ فِيمَا كَانَ دَمًا)) .

اللقب مُطْلَقًا ، أي : حَسَنًا كان أو قَبِيحًا ، خُصَّ في العُرْفِ بالقبيح ، والجَمْعُ أُنْبَاز ، والألقاب جَمْعُ لَقَب ، وهو اسم غير الذي سُمِّيَ به الإنسان ، والمُرَاد لَقَبُ السَّوْءِ ، والتَّنَابُزُ بالألقاب أن يُلقَّب بعضهم بعضًا والتداعي بها)) .

إنَّ التَّنَابُزَ بالألقاب هو دُعَاءُ الإنسان صاحبه بما يكرهه من اسم أو صِفَةٍ ، وهو معصيةٌ كبيرةٌ تُمَثِّلُ خطرًا حقيقيًّا على الوحدة الاجتماعية ، ولا يجوزُ مُناداةُ الأشخاص بالألقاب التي يكرهونها ، وتُسبِّبُ لهم إحراجًا وألمًا ، فهذا يُؤدِّي إلى جرح مشاعرهم ، وإهانتهم ، وإضعافِ ثقتهم بأنفسهم ، وانتشارِ الحُقدِ والعداوةِ والبغضاءِ وحُبِ الانتقامِ بين الناس ، ممَّا يصنعُ مُجتمعَ الكراهيةِ وانعدامِ الانسجامِ . ويجوزُ مُناداتهم بالألقاب الجميلة التي يُحِبُّونها ، والتي تحملُ مَعَانٍ طَيِّبَةً ، فقد قيل لأبي بكر عتيق ، ولعمَرَ بن الخطَّابِ فاروق ، ولعثمان بن عفَّان ذُو النُّورَيْنِ ، ولعليِّ بن أبي طالب أبو ثراب .

٢٤_ الافتراء على الله ورسوله

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ افترى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٩٤] .

فَمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، مِنْ بَعْدِ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، وَظُهُورِ الْبَيِّنَةِ ، وَاتِّضَاحِ الدَّلِيلِ ، فَأُولَئِكَ الْمُعْتَدُونَ الْمُعَانِدُونَ الْمُكَابِرُونَ الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٦٦) : ((﴿ فَمَنْ افترى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ ائْتَدَعَهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا لَزِمَتْهُمْ الْحُجَّةُ ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الَّذِينَ لَا يُنْصِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيُكَابِرُونَ الْحَقَّ بَعْدَمَا وَضَحَ لَهُمْ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ٥٠] . هذا تعجيب للنبي ﷺ مِنْ كَذِبِ أَهْلِ الْكِتَابِ (اليهود والنصارى) وافتراءهم . انظُرْ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ يَخْتَلِفُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ فِي تَرْكِيتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ، وادَّعَائِهِمْ بِأَنْبَاءِ اللَّهِ وَأَحْبَاؤِهِ ، وَكَفَى بِهَذَا الْاِفْتِرَاءِ ذَنْبًا وَاضِحًا وَجُرْمًا عَظِيمًا . أَي : وَحَسْبُهُمْ بِقِيلِهِمُ الْكَذِبَ إِثْمًا وَاضِحًا ، يَتَبَيَّنُ كَذِبُهُمْ لِسَامِعِيهِ . وَالآيَةُ تُوضِّحُ سُوءَ حَالِهِمْ ، وَكَمَالَ فِطَاعَتِهَا .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٢٣٨) : ((عَجَبَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ فِي قَوْلِهِمْ : نَحْنُ أَنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ . وَقِيلَ : تَرْكِيتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ . وَرَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ لَنَا ذُنُوبٌ إِلَّا كَذُوبٌ أَبْنَانًا يَوْمَ تُؤَلَّدُ . وَالْاِفْتِرَاءُ : الْاِخْتِلَاقُ .

ومنه : افتري فلان على فلان ، أي : رماه بما ليس فيه . وفَرَيْتُ الشَّيْءَ قَطَعْتُهُ ، ﴿ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴾ ، نُصِبَ عَلَى الْبَيَانِ ، والمعنى : تعظيمُ الذَّنْبِ وَذُمَّهُ . والعرب تستعمل مثل ذلك في المدح والذم)) .

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ التَّعَجُّبَ بلفظ الأمر ﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ ﴾ ، وإقامة ﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ مقامَ الماضي ، للدلالة على الدوام والاستمرار .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

لا أحد أظلم ممن كذب على الله تعالى ، فنسب إليه تحريم ما لم يُحرِّم ، بلا دليل ولا برهان ، والمراد كبراء المشركين المُفَرِّزُونَ لذلك ، ليصدُّ الناس عن سبيل الله تعالى . وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٤٩) : ((لا أحد أظلم ممن افتري على الله كذبًا ، فحرَّم شيئًا لم يُحرِّمه الله ، ونسب ذلك إليه افتراءً عليه ، كما فعله كبراء المشركين . واللام في ﴿ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ للعلَّة ، أي : لأجل أن يضلَّ الناسَ بجهل ، وهو مُتعلِّقٌ بـ ﴿ افترى ﴾)) .

إنَّ الله لا يُوفِّقُ للحق والهدى والصواب من كذب على الله ، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحرِّم كُفْرًا بالله ، وجُحُودًا لِنُبُوءَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ . وهو عُموم في كُلِّ ظالم . وقد بينت الآية أنهم كذبوا إذ قالوا ما لم يَقُمْ عليه دليل . وقال النَّسْفِيُّ في تفسيره (١ / ٣٥٠) : ((﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، أي : الذين في علمه أنهم يُخْتَمُونَ على الكُفْرِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .^{٢١٦}

هذا خطابٌ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ ، حيث كانوا يُحرِّمون ما شاؤوا ، ويُحلِّلون ما شاؤوا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥٥٤) : ((قال ابن عباس ، ومُجاهد ، والضَّحَّاك ، وقَتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم : نزلت إنكارًا على المشركين فيما كانوا يُحلِّلون ويُحرِّمون من البحائر والسوائب والوصائل)) .

٢١٦ قال القرطبي في تفسيره (٨ / ٣١٧) : ((استدللَّ بهذه الآية من نفى القياس ، وهذا بعيد ، فإنَّ القياس دليل الله تعالى ، فيكون التحليل والتحريم من الله تعالى عند وجود دلالة نصَّبها الله تعالى على الحكم ، فإنَّ خالف في كَوْنِ القياس دليلًا لله تعالى ، فهو خروج عن هذا الغرض ، ورجوع إلى غيره)) .

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : أَخْبِرُونِي عَمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الرِّزْقِ ، فَحَرَمْتُمْ بَعْضَهُ (وهو حلال) كَالْبَحِيرَةِ وَأَمْثَالِهَا ، وَحَلَلْتُمْ بَعْضَهُ (وهو حرام) كَالْمَيْتَةِ وَأَمْثَالِهَا .

وقد عَبَّرَ اللَّهُ عَنِ الْخَلْقِ بِالْإِنْزَالِ ، لِأَنَّ الَّذِي فِي الْأَرْضِ مِنَ الرِّزْقِ إِنَّمَا هُوَ بِمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنَ الْمَطَرِ . وقال البيضاوي في تفسيره (٢٠٤ / ١) : ((جَعَلَ الرِّزْقَ مُنْزَلًا ، لِأَنَّهُ مُقَدَّرٌ فِي السَّمَاءِ ، مُحْصَلٌ بِأَسْبَابِ مِنْهَا)) .

قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ : هَلْ سَمَحَ اللَّهُ لَكُمْ بِالتَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ، فَأَنْتُمْ مُلتَزِمُونَ بِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ ، أَمْ أَنْكُمْ تَقُولُونَ الْبَاطِلَ وَتَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ؟ .

وتكريرُ " قُلْ " في الآية للتأكيد ، والاستفهامُ للإنكار ، وفيها تقرير لافترائهم على الله تعالى . وفي الآية إنكارٌ شديد على مَنْ حَرَّمَ الْحَلَالَ ، وَحَلَّلَ الْحَرَامَ ، بِالرَّأْيِ وَالْهَوَى ، بلا دليل ولا حُجَّة . وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٣٣ / ٢) : ((وَالآيَةُ زَاجِرَةٌ عَنِ التَّجَوُّزِ فِيمَا يُسْأَلُ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَبَاعِثَةٌ عَلَى وُجُوبِ الْإِحْتِيَاظِ فِيهِ ، وَأَنْ لَا يَقُولَ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ جَائِزٍ أَوْ غَيْرِ جَائِزٍ ، إِلَّا بَعْدَ إِيقَانٍ وَإِتْقَانٍ ، وَإِلَّا فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى الدِّيَانِ)) .

وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٦٥٨ / ٢) : ((أَشَارَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إِلْحَ ، إِلَى طَرِيقِ فِي إِثْبَاتِ التُّبُوءَةِ ، وَتَقْرِيرِ ذَلِكَ مَا حَاصِلُهُ أَنْكُمْ تَحْكُمُونَ بِتَحْلِيلِ الْبَعْضِ ، وَتَحْرِيمِ الْبَعْضِ ، فَإِنْ كَانَ بِمُجَرَّدِ التَّشْهِي وَالْهَوَى ، فَهُوَ مَهْجُورٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ ، مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ لِاعْتِقَادِكُمْ أَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ فِيكُمْ وَفِيمَا رَزَقَكُمْ ، فَلَا تَعْرِفُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِطَرِيقِ مُوَصِّلَةٍ إِلَى اللَّهِ ، وَلَا طَرِيقَ يَتَبَيَّنُ بِهَا الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَى عِبَادِهِ . وَمَعْنَى ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : أَخْبِرُونِي وَالْمَعْنَى : أَخْبِرُونِي الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ مِنَ الرِّزْقِ ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالَ ، أَلَلَّهُ أَدْنَى لَكُمْ فِي تَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ؟ . . . فَمِنْ فِي ﴿ مِنْهُ ﴾ لِلتَّبَعِيضِ ، وَالتَّقْدِيرِ : فَجَعَلْتُمْ بَعْضَهُ حَرَامًا ، وَجَعَلْتُمْ بَعْضَهُ حَلَالَ ، وَذَلِكَ كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْأَنْعَامِ حَسَبًا سَبَقَ حِكَايَةَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، وَمَعْنَى إِنْزَالِ الرِّزْقِ : كَوْنُ الْمَطَرِ يَنْزِلُ مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ ، وَكَذَلِكَ يَقْضِي الْأَمْرَ فِي أَرْزَاقِ الْعِبَادِ فِي السَّمَاءِ ، عَلَى مَا قَدْ ثَبَتَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مِنْ ذِكْرِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، لِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِ . . . قِيلَ : وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْهَمْزَةُ فِي ﴿ أَلَلَّهُ أَدْنَى لَكُمْ ﴾ لِلإِنْكَارِ ، وَ ﴿ أَمْ ﴾ مُنْقَطِعَةٌ ، بِمَعْنَى : بَلْ أَتَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَإِظْهَارُ الْاسْمِ الشَّرِيفِ وَتَقْدِيمُهُ عَلَى الْفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى كِمَالِ الْإِفْتِرَاءِ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ مَا يَصُكُّ مَسَامِعَ الْمُتَصَدِّقِينَ لِلإِفْتِنَاءِ لِعِبَادِ اللَّهِ فِي شَرِيعَتِهِ ، بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَالجَوَازِ وَعَدَمِهِ ، مَعَ كَوْنِهِمْ مِنَ الْمُقْلِدِينَ الَّذِينَ

لا يَعْقِلُونَ حُجَجَ اللَّهِ ، ولا يَفْهَمُونَهَا ، ولا يَدْرُونَ ما هي . وَمَبْلُغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ الْحِكَايَةَ لِقَوْلِ قَائِلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ قَلَّدُوهُ فِي دِينِهِمْ ، وَجَعَلُوهُ شَارِعًا مُسْتَقِيلًا ، ما عَمِلَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ الْمَعْمُولُ بِهِ عِنْدَهُمْ ، وما لَمْ يَبْلُغْهُ أَوْ بَلَغَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ حَقًّا فَهَمْهُ ، أَوْ فَهَمَهُ وَأَخْطَأَ الصَّوَابَ فِي اجْتِهَادِهِ وَتَرْجِيحِهِ ، فهو فِي حُكْمِ الْمَنْسُوخِ عِنْدَهُمْ ، الْمَرْفُوعِ حُكْمِهِ عَنِ الْعِبَادِ ، مَعَ كَوْنِ مَنْ قَلَّدُوهُ مُتَعَبِّدًا بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ ، كما هُمْ مُتَعَبِّدُونَ بِهَا ، وَمَحْكُومًا عَلَيْهِ بِأَحْكَامِهَا ، كما هُمْ مَحْكُومٌ عَلَيْهِمْ بِهَا . وقد اجْتَهَدَ رَأْيَهُ ، وأَدَّى ما عَلَيْهِ ، وَفَارَزَ بِأَجْرَيْنِ مَعَ الْإِصَابَةِ ، وَأَجْرَ مَعَ الْخَطَا . إِنَّمَا الشَّانُ فِي جَعْلِهِمْ لِرَأْيِهِ الَّذِي أَخْطَأَ فِيهِ شَرِيعَةً مُسْتَقِلَّةً ، وَدَلِيلًا مَعْمُولًا بِهِ . وقد أَخْطَؤُوا فِي هَذَا خَطًّا بَيِّنًا ، وَغَلَطُوا غَلَطًا فَاحِشًا ، فَإِنَّ التَّرْخِصَ لِلْمُجْتَهِدِ فِي اجْتِهَادِ رَأْيِهِ يَخْصُهُ وَخَدَهُ ، ولا قَائِلٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْمُعْتَدِّ بِأَقْوَالِهِمْ أَنَّهُ يَجُوزُ لِغَيْرِهِ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ تَقْلِيدًا لَهُ ، وَاقْتِدَاءً بِهِ . وما جَاءَ بِهِ الْمُقَلِّدَةُ فِي تَقْوَمِ هَذَا الْبَاطِلِ ، فهو مِنَ الْجَهْلِ الْعَاطِلِ . اللَّهُمَّ كما رَزَقْتَنَا مِنَ الْعِلْمِ ما نُمَيِّرُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَارْزُقْنَا مِنَ الْإِنْصَافِ ما نَنْظُرُ عِنْدَهُ بِما هُوَ الْحَقُّ عِنْدَكَ يا وَاهِبَ الْخَيْرِ)) .

وعن أَبِي سَعْدٍ مَوْلَى أَبِي أُسَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ وَقَدْ أَهْلَ مِصْرَ قَدْ أَقْبَلُوا ، فَاسْتَقْبَلَهُمْ ، فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ . قَالَ : وَكَرِهَ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ . قَالَ : فَاتَّوَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : ادْعُ بِالْمُصْحَفِ ، وَافْتَحِ السَّابِعَةَ ، وَكَانُوا يُسْمُونَ سُورَةَ يُونُسَ السَّابِعَةَ ، فَقَرَأَهَا حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ، فَقَالُوا لَهُ : قِفْ ، أَرَأَيْتَ ما حَمَيْتَ مِنَ الْحَمَى ، أَللَّهُ أَذِنَ لَكَ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرِي ؟ ، قَالَ : فَقَالَ : ((امْضِ . نَزَلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا ، فَأَمَّا الْحَمَى فَإِنَّ عُمَرَ حَمَى حَمَى قَبْلِي لِإِبِلِ الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا وُلِّيتُ وَزَادَتْ إِبِلُ الصَّدَقَةِ ، فَزِدْتُ فِي الْحَمَى لِمَا زَادَ فِي الصَّدَقَةِ)) ٢١٧ .

مِنَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أَثَارَهَا الْبَعْضُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ زَادَ فِي الْحَمَى لِتَفْسِيهِ ، وَمِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَصْلَحَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَمَنْفَعَتِهِ الْذَاتِيَّةِ . وَهَذِهِ تَهْمَةٌ بَاطِلَةٌ ، تَهْدَفُ إِلَى تَأْلِيْبِ الرَّأْيِ الْعَامِ ضِدَّ عُثْمَانَ ، وَالطَّعْنَ فِيهِ ، وَإِقْنَاعِ الْجُهَّالِ وَالرَّعَاعِ بِضَرُورَةِ التَّخَلُّصِ مِنْهُ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٥ / ٤٤) : ((وَالْمُرَادُ بِالْحَمَى مَنْعُ الرَّغْيِ فِي أَرْضٍ مَخْصُوصَةٍ مِنَ الْمُبَاحَاتِ ، فَيَجْعَلُهَا الْإِمَامُ مَخْصُوصَةً بِرَغْيِ بَهَائِمِ الصَّدَقَةِ مَثَلًا)) .

٢١٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٩) برقم (٣٣٠٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ أَوَّلَ مَنْ حَمَى الْحِمَى، فَقَدْ حَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَانًا يُسَمَّى " النَّقِيعَ ". وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَمَى النَّقِيعَ لِخَيْلِ الْمُسْلِمِينَ ٢١٨ .
وهذا الاعتراضُ على عُثْمَانَ إنما هو في الحقيقة اعتراض على أمر مشروع في الإسلام .
وعُثْمَانُ شَخْصِيًّا دَافِعٌ عَنِ نَفْسِهِ ، وَوَضَّحَ الْقَضِيَّةَ لِوَفْدِ أَهْلِ مِصْرَ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ حَمَى الْحِمَى قَبْلَ عُثْمَانَ لِإِبْلِ الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ الْخِلَافَةَ ، وَزَادَتْ إِبْلُ الصَّدَقَةِ ، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ زِيَادَةِ رُقْعَةِ الْحِمَى حَتَّى تَتَسَّعَ لِإِبْلِ الصَّدَقَةِ ، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ عُثْمَانُ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٦٠] .

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، اعْتِمَادًا عَلَى أَهْوَائِهِمْ وَمِصَالِحِهِمْ دُونَ دَلِيلِ نَفْلِيٍّ وَلَا حُجَّةٍ عَقْلِيَّةٍ ، فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ (يَوْمِ الْجَزَاءِ بِالْإِحْسَانِ وَالْإِسَاءَةِ) ؟ .
مَا ظَنُّهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِاللَّهِ وَقَدْ كَذَبُوا عَلَيْهِ ؟ . فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ : مَا ظَنُّهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَاعِلٌ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكَذِبِهِمْ ؟ . هَلْ يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُمْ وَلَا يُعَاقِبُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ ، لَا ، بَلْ سَيُعَذِّبُهُمْ فِي النَّارِ ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدٌ لِلْمُفْتَرِينَ . وَقَالَ الشَّعَالِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ١٨٣) : ((عَظَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ جُزْمَ الْإِفْتِرَاءِ ، أَيِ ظَنُّهُمْ فِي غَايَةِ الرَّدَاءِ بِحَسَبِ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ)) .
وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٥٧٢) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَمَا ظَنُّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، فَيُضَيِّفُونَ إِلَيْهِ تَحْرِيمَ مَا لَمْ يُحَرِّمَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَقْوَاتِ ، الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لَهُمْ غِذَاءً أَنَّ اللَّهَ فَاعِلٌ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِكَذِبِهِمْ وَفَرِيتِهِمْ عَلَيْهِ ؟ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ يَصْفَحُ عَنْهُمْ وَيَغْفِرُ لَهُمْ ؟ ، كَلَّا ، بَلْ يُصَلِّبُهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)) .

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ عَلَى الْعِبَادِ ، بِإِمهَالِهِمْ وَتَأخِيرِهِمْ وَالْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ ، فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْعَقْلِ ، وَهَدَاهُمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنزَالِ الْكُتُبِ ، وَتَعْلِيمِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَمَنْحِهِمُ الْفُرْصَةَ تَلْوِ الْفُرْصَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعَذَابِ . وَقِيلَ : أَرَادَ أَهْلَ مَكَّةَ حِينَ جَعَلَهُمْ فِي حَرَمِ آمِنٍ .
ذَكَرَ اللَّهُ الْفَضْلَ عَلَى النَّاسِ فِي إِمهَالِهِمْ وَعَدَمِ مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ مَعَ الْإِفْتِرَاءِ وَالْعِصْيَانِ .
وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِمهَالُ دَاعِيَةً لَهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ . وَالْآيَةُ تَعْمُّ جَمِيعَ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى .

٢١٨ رواه ابن جِبَّانٍ فِي صَحِيحِهِ (١٠ / ٥٣٨) بِرَقْمِ (٤٦٨٣) .

وَقَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (١ / ١٩٨) : ((وَقَوْلُهُ " حَمَى النَّقِيعَ " هُوَ وَادٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ عِشْرُونَ فَرَسًا)) .

وقال الطبري في تفسيره (٥٧٢ / ٦) : ((إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ)) ، يقول : إِنَّ اللَّهَ لَذُو تَفَضُّلٍ عَلَى خَلْقِهِ ، بتركه مُعَاجَلَةً مَنْ افترى عَلَيْهِ الكَذِبَ بالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وإمهاله إِيَّاهُ إِلَى وُرُودِهِ عَلَيْهِ فِي القِيَامَةِ)) .

ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ ، وَلَا فِي تَأْخِيرِ العَذَابِ عَنْهُمْ ، بَلْ يُنْكِرُونَهَا وَيَكْفُرُونَ ، أَي إِنَّهُمْ لَا يُؤْخِدُونَ وَلَا يُطِيعُونَ . وقال الطبري في تفسيره (٥٧٢ / ٦) : ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ)) ، يقول : ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَهُ عَلَى تَفَضُّلِهِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، وَبِغَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ نِعْمِهِ)) .

وقال الشَّوكَانِي فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٦٥٩ / ٢) : ((وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ)) ، أَي : أَيُّ شَيْءٍ ظَنُّهُمْ فِي هَذَا اليَوْمِ ، وَمَا يَصْنَعُ بِهِمْ فِيهِ ؟ ، وَهَذِهِ الجُمْلَةُ الاسْتِفْهَامِيَّةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِتَعْظِيمِ الوَعِيدِ لَهُمْ غَيْرِ دَاخِلَةٍ تَحْتَ القَوْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ ، بَلْ مُبْتَدَأَةٌ مَسْوُوقَةٌ لِبَيَانِ مَا سَيَحُلُّ بِهِمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ . « يَوْمَ القِيَامَةِ » مَنْصُوبٌ بِالظَّنِّ ، وَدَكَّرَ الكَذِبَ بَعْدَ الْإِفْتِرَاءِ ، مَعَ أَنَّ الْإِفْتِرَاءَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذِبًا ، لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » ، يَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » اللَّهُ عَلَى نِعْمِهِ الْوَاصِلَةِ إِلَيْهِمْ مِنْهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ، وَطَرْفَةٍ مِنَ الطَّرْفَاتِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٥٤٤ / ٢) : ((وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ، أَوْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ بِمَجْرَدِ الآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ الَّتِي لَا مُسْتَنَدَ لَهَا ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَقَالَ : « وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ يَوْمَ القِيَامَةِ » ، أَي : مَا ظَنُّهُمْ أَنْ يَصْنَعَ بِهِمْ يَوْمَ مَرْجِعِهِمْ إِلَيْنَا يَوْمَ القِيَامَةِ . وَقَوْلُهُ : « إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ » . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فِي تَرْكِهِ مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا (قُلْتُ) : وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ مِمَّا خَلَقَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ أَوْ دِينِهِمْ ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » ، بَلْ يُحَرِّمُونَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَيَجْعَلُونَ بَعْضًا حَلَالًا ، وَبَعْضًا حَرَامًا . وَهَذَا قَدْ وَقَعَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا شَرَعُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ فِي دِينِهِمْ)) .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ » [يُونُسُ : ٦٩] .
إِنَّ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ ، فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَبِأَيِّ شَكْلِ مِنَ الْأَشْكَالِ ، وَبِأَيِّ صُورَةٍ مِنَ الصُّورِ ، لَا يَنْجِحُونَ ، وَلَا يَسْعُدُونَ ، وَلَا يَنْجُونَ مِنَ النَّارِ ، وَلَا يَفُوزُونَ بِالْجَنَّةِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٦٧) : ((﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ، أي : كُلُّ مُفْتَرٍ هَذَا شَأْنُهُ وَذَكَرَ الْكَذِبَ مَعَ الْاِفْتِرَاءِ لِلتَّأْكِيدِ وَالْمَعْنَى : أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ عَلَى رَبِّهِمْ لَا يَفُوزُونَ بِمَطْلَبِ مِنَ الْمَطْلَبِ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السَّجْدَةُ : ٣] .

بَلْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ (كُفَّارٌ قَرِيشِ) : اخْتَلَقَ مُحَمَّدُ الْقُرْآنَ وَاِفْتَرَاهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ؟ ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخٌ . إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَزْعُمُونَ ، بَلْ هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ ، وَالْكَلَامُ الصِّدْقُ الْمُنَزَّلُ مِنْ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ .

وَإِضَافَةُ اسْمِ الرَّبِّ إِلَى ضَمِيرِ النَّبِيِّ ﷺ : ﴿ رَبِّكَ ﴾ تَشْرِيفًا لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ .
 وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٢٩) : ((قَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ بِاللَّهِ : اخْتَلَقَ هَذَا الْكِتَابَ مُحَمَّدٌ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَتَكْذَبَهُ . وَ (أَمْ) هَذِهِ تَقْرِيرٌ ثُمَّ أَكْذَبَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، فَقَالَ : مَا هُوَ كَمَا تَزْعُمُونَ وَتَقُولُونَ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ)) .

أَنْكَرَ الْمُشْرِكُونَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَكِنَّ اللَّهَ رَدَّ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَبَتْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَنَفَى عَنْهُ الشُّكَّ وَالرَّيْبَ ، وَبَيَّنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ تَنْزِيلِهِ . أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، لِتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا مَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ قَبْلَكَ ٢١٩ ، وَهُمْ أَهْلُ الْفِتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ، عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .
 وَقَدْ جَاءَ الرُّسُلُ قَبْلَ ذَلِكَ كِابِرَاهِيمَ وَهُودَ وَصَالِحَ ، وَلَكِنْ لَمَّا طَالَتِ الْفِتْرَةُ عَلَى هَؤُلَاءِ ، أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ ، لِتُنذِرَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ ، وَيُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَيَقْطَعَ أَعْدَارَهُمْ ، كَيْ يَهْتَدُوا إِلَى الْحَقِّ ، وَيُؤْمِنُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ . أَي : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِإِنْدَارِكِ إِيَّاهُمْ يَا مُحَمَّدُ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٢٩) : ((أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ _ يَا مُحَمَّدُ _ لِتُنذِرَ قَوْمًا بِأَسْلِ اللَّهِ وَسَطْوَتِهِ ، أَنْ يَخْلَّ بِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ ، ﴿ مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، يَقُولُ : لَمْ يَأْتِ هَؤُلَاءِ

٢١٩ قال القرطبي في تفسيره (١٤ / ٧٩) : ((﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ . قال قتادة : يَعْنِي قُرَيْشًا ، كَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لَمْ يَأْتَهُمْ نَذِيرٌ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْقَوْمِ أَهْلُ الْفِتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ ، عَلَيْهِمَا الصَّلَامُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ . وَقِيلَ : كَانَتْ الْحُجَّةُ ثَابِتَةً لِلَّهِ حَلًّا وَعَزًّا عَلَيْهِمْ بِإِنْدَارِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرُّسُلِ ، وَإِنْ لَمْ يَرَوْا رَسُولًا)) .

الْقَوْمَ الَّذِينَ أَرْسَلْتُكَ يَا مُحَمَّدٌ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ قَوْمُهُ مِنْ قُرَيْشٍ ، نَذِيرٌ يُنذِرُهُمْ بِأَسْرِ اللَّهِ عَلَى كُفْرِهِمْ قَبْلَكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ، يَقُولُ : لِيَتَّبِعُوا سَبِيلَ الْحَقِّ ، فَيَعْرِفُوهُ ، وَيُؤْمِنُوا بِهِ . ((.
لقد كانت قُرَيْشٌ أَصْلَ النَّاسِ ، وَفِي أَمْسِ الْحَاجَةِ إِلَى الْهِدَايَةِ يَارِسَالَ الرَّسُولِ ، وَتَنْزِيلِ الْكِتَابِ ،
حَيْثُ لَمْ يُبْعَثْ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ . مَا أَتَى قُرَيْشًا مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِ إِنْذَارِكِ يَا مُحَمَّدُ ، أَوْ مِنْ قَبْلِ زَمَانِكَ .
والتَّرْجِي فِي ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ مُعْتَبَرٌ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَي : لِيُنذِرَهُمْ رَاجِعًا لِاهْتِدَائِهِمْ ، أَوْ
لِرَجَاءِ اهْتِدَائِهِمْ .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٣٥٢) : ((و " أَمْ " فِي ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءُ ﴾ هِيَ الْمُتَقَطِّعَةُ الَّتِي بِمَعْنَى : بَلْ ، وَالْهَمْزَةُ ، أَي : بَلْ يَقُولُونَ هُوَ مُفْتَرَى ، فَأَضْرَبَ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ إِلَى مَا هُوَ مُعْتَقَدُ الْكُفَّارِ مَعَ الْاسْتِفْهَامِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَمَعْنَى ﴿ افْتِرَاءُ ﴾ افْتَعَلَهُ وَاحْتَلَفَهُ ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ مُعْتَقَدِهِمْ إِلَى بَيَانِ مَا هُوَ الْحَقُّ فِي شَأْنِ الْكِتَابِ ، فَقَالَ : ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، فَكَذَّبَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي دَعْوَى الْإِفْتِرَاءِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ الْعِلَّةَ الَّتِي كَانَ التَّنْزِيلُ لِأَجْلِهَا ، فَقَالَ : ﴿ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، وَهُمْ الْعَرَبُ ، وَكَانُوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لَمْ يَأْتِهِمْ رَسُولٌ . وَقِيلَ : قُرَيْشٌ خَاصَّةٌ . وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ مَحْذُوفٌ ، أَي : لِيُنذِرَ قَوْمًا الْعِقَابَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ رَجَاءً أَنْ يَهْتَدُوا ، أَوْ كَيْ يَهْتَدُوا)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشُّورَى : ٢٤] .
بَلْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ (كُفَّارِ قُرَيْشٍ) إِنَّ مُحَمَّدًا اخْتَلَقَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ بِنِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ ؟ .
وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمُشْرِكِينَ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ الْبَاطِلِ ، فَقَدْ اعْتَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، وَمَنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ مَعَ الْمَخْلُوقِينَ ، فَلَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ الْخَالِقِ .
لَوْ افْتَرَى مُحَمَّدٌ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ ، لَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ ، فَأَنْسَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَسَلَبَهُ مِنْ صَدْرِهِ . وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ مُفْتَرِيًا ، وَاللَّهُ يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ ، وَمُسَيِّطِرٌ عَلَيْهِ ، وَقَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِهِ ، فَلَا يَعْقِلُ ، وَلَا يَنْطِقُ ، وَلَا يَسْتَمِرُّ كَذِبُهُ ؟ . لَمْ يَكْذِبْ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى اللَّهِ ، لِذَلِكَ أَيَّدَهُ وَوَقَّعَهُ وَرَعَاهُ .

وقال أبو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٣٠ و ٣١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ، اسْتِشْهَادٌ عَلَى بَطْلَانِ مَا قَالُوا بَيَانٌ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَوْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَنْعَهُ مِنْ ذَلِكَ قَطْعًا ، وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ دَعْوَى كَوْنِ الْقُرْآنِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ تَعَالَى قَوْلٌ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشَاءُ صُدُورَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، بَلْ يَشَاءُ عَدَمَ صُدُورِهِ عَنْهُ ، وَمِنْ ضَرُورَتِهِ مَنْعُهُ عَنْهُ قَطْعًا ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ : لَوْ كَانَ افْتِرَاءً

عليه تعالى لَشَاءَ عَدَمَ صُدُورِهِ عَنْكَ ، وَإِنْ يَشَأْ ذَلِكَ يَخْتِمَ عَلَى قَلْبِكَ ، بِحَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِكَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ ، وَلَمْ تَنْطِقْ بِحَرْفٍ مِنْ حُرُوفِهِ ، وَحَيْثُ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ تَوَاتَرَ الْوَحْيُ حِينَئِذِينَ ، تَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى)) .

وَالآيَةُ ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمَ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عَنِ مِثْلِهِ ، وَبَيَانٌ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ كَانَ مَخْتَوِمًا عَلَى قَلْبِهِ ، جَاهِلًا بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ صَادِقًا أَمِينًا ذَا بَصِيرَةٍ وَمَعْرِفَةٍ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَالْإِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ ، وَأَسْوَأِ الذُّنُوبِ ، وَهُوَ كُفْرٌ وَاضِحٌ ، وَضَلَالٌ عَظِيمٌ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٧٦١) : ((﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ، " أَمْ " هِيَ الْمُنْقَطِعَةُ ، أَيْ : بَلْ يَقُولُونَ : افْتَرَى مُحَمَّدٌ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِدَعْوَى التُّبُوَّةِ ، وَالْإِنْكَارُ لِلتَّوْبِيخِ . وَمَعْنَى افْتِرَاءِ الْكَذِبِ : اخْتِلَافُهُ . ثُمَّ أَجَابَ سُبْحَانَهُ عَنْ قَوْلِهِمْ هَذَا ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ ، أَيْ : لَوْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَشَاءَ عَدَمَ صُدُورِهِ مِنْهُ ، وَخَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ ، بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ شَيْءٌ مِمَّا كَذَبَ فِيهِ ، كَمَا تَزْعُمُونَ . قَالَ قَتَادَةُ : يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ ، فَيُنْسِيكَ الْقُرْآنَ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَوْ افْتَرَى عَلَيْهِ لَفَعَلَ بِهِ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ : إِنْ يَشَأْ يَرْبِطُ عَلَى قَلْبِكَ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهِمُ ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ قَلْبُكَ مَشَقَّةً مِنْ قَوْلِهِمْ . وَقِيلَ : الْخِطَابُ لَهُ ، وَالْمُرَادُ بِالْكَفَّارِ : أَيْ : إِنْ يَشَأْ يَخْتِمُ عَلَى قُلُوبِ الْكَفَّارِ ، وَيُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ ، ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : لَوْ حَدَّثْتَنِي نَفْسُكَ أَنْ تَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، لَطَبَعَ عَلَى قَلْبِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِي عَلَى الْكَذِبِ إِلَّا مَنْ كَانَ مَطْبُوعًا عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [الأحقاف : ٨] . بَلْ يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ (كُفَّارٌ قُرَيْشِي) : اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَافْتَرَاهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ؟ . وَهَذَا إِنْكَارٌ تَوْبِيخِيٌّ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُمَّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَمْ يُعْرِفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ . فَكَيْفَ سَيَأْتِي بِهَذَا الْقُرْآنِ الْمُعْجَزِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى أَحْبَابِ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ ؟ ! . وَمَعْلُومٌ كَذَلِكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ ، فَمِنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَتْرَكَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَأَيْضًا ، آيَاتُ الْقُرْآنِ تَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ ، وَلَا تَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَوْ تَحْقِيقِ مَصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ لَهُ . وَهَنَّاكَ آيَاتُ تَعَابَتِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَكْشِفُ بَعْضَ الْأُمُورِ الشَّخْصِيَّةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ هُوَ مُؤَلَّفَ الْقُرْآنِ لَأَخْفَى هَذِهِ الْقَضَايَا عَنِ النَّاسِ .

قُلْ يَا مُحَمَّدٌ _ على سبيل الفرض والتقدير _ : إن افترت القرآن ، ثم نسبتُهُ إلى الله تعالى ، فالله حسبي في ذلك ، وهو الذي يعاقبني على الافتراء عليه ، ولا يمهلني ، ولا تقدرُونَ على حمايتي من عذابه الشديد ، فكيف أفتره من أجلكم وأعرض لعقاب الله وعذابه ؟!

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٩٧) : ((أي: لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني وليس كذلك، لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرني منه)) . إن افترى محمدُ القرآن ، ثم نسبه إلى الله تعالى، فلا يستطيع المشركون حمايته من عذاب الله ، فكيف يعرض نفسه للعذاب الإلهي من أجلهم وهم عاجزون عن حمايته ؟! . ولا يوجد مخلوق يستطيع أن يرد العقوبة الإلهية ، ولا يقدر أحدٌ على حماية نفسه من غضب الله تعالى ، فكيف يخمي الآخريين ؟! . والآية تحمل تهديدًا أكيدًا ، ووعيدًا شديدًا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦ / ١٥٨) : ((قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ الميم صلة ، التقدير: أيقولون: افتراه، أي: تقوله محمد، وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرًا . ومعنى الهمزة في ﴿ أم ﴾ الإنكار والتعجب . كأنه قال : دَع هذا ، واسمَع قولهم المُستَنكر المَقضي منه العجب . وذلك أن محمدًا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتره على الله ، ولو قدرَ عليه دون أمة العرب ، لكانت قدرته عليه مُعجزةً لخرقها العادة ، وإذا كانت مُعجزةً كان تصديقًا من الله له ، والحكيم لا يصدق الكاذب ، فلا يكون مُفتريًا ، والصمير للحق ، والمراد به الآيات ، ﴿ قُلْ إِنْ افترتُهُ ﴾ على سبيل الفرض ، ﴿ فلا تملكون لي من الله شيئًا ﴾ ، أي : لا تقدرُونَ على أن تردوا عني عذاب الله ، فكيف أفترى على الله لأجلكم)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [الصَّف : ٧] ٢٢٠ .

استفهام بمعنى النفي . أي : لا أحد أشد ظلماً ممن يكذب على الله تعالى ، ويجعل له أنداداً وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ، والله لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجرًا ظالمًا . أي : إن الله لا يهدي من كان في حكمه أنه يُحتم له بالصلاة .

٢٢٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢٥٣) : ((﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى على الله الكذب ﴾ ، وفيهم قولان : أحدهما أنهم اليهود ، قاله مقاتل . والثاني النصارى ، حين قالوا : عيسى ابن الله ، قاله أبو سليمان الدمشقي)) .

وأَيُّ الناس أشدَّ ظُلْمًا مِمَّنْ يُدْعَى إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدُّنيا ونعيم الآخرة ، فَيَجْعَل مَكَانَ إجابته إليه افتراء الكَذِبِ على الله ، بِقَوْلِهِ لِكَلِمَةِ الْمُقَدَّسِ الذي هو دُعَاءُ عِبَادِهِ إلى الحق : هذا سِحْرٌ ، والسِّحْرُ كَذِبٌ وَتَمْوِيهِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (٣٣٣ / ١) : ((﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ ، أي : لا أحد أظلم مِمَّنْ يُدْعَى إلى الإسلام الظاهر حَقِّيته ، المُقتضي له خير الدَّارَيْنِ ، فَيَضَعُ موضع إجابته الافتراء على الله ، بتكذيب رسوله _ يَعْنِي : النَّبِيَّ عِيسَى ﷺ _ ، وتسمية آياته سِحْرًا ، فَإِنَّهُ يَعْمُ إثباتَ المنفي ، وَنَفِي الثابت ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يُرْشِدُهُمْ إلى ما فيه فلاحهم)) .

وقال الشَّوكَانِي في فتح القدير (٣٠٩ / ٥) : ((﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ ، أي : لا أحد أكثر ظُلْمًا مِنْهُ ، حَيْثُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، والحال أَنَّهُ يُدْعَى إلى دين الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَحَقُّهُ أَنْ لَا يَفْتَرِيَ عَلَى غَيْرِهِ الْكَذِبَ ، فكيف يفتريه على رَبِّهِ ؟ ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، هذه الجملة مُفْرَّغَةٌ لِمَضْمُونِ ما قَبْلُهَا ، والمعنى : لا يَهْدِي مَنْ اتَّصَفَ بِالظُّلْمِ ، والمذكورون مِنْ جُمْلَتِهِمْ)) .

٢٥ _ حُب انتشار الفاحشة

قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] .

إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ تَتَشَرَّعَ الْفَاحِشَةُ (الفِعْلُ القَبِيحُ الْمُفْرِطُ فِي التَّبَحُّحِ) ، والمُرَادُ بِهَا الزُّنَا ، فِي الْمُؤْمِنِينَ الْأَطْهَارِ الشُّرَفَاءِ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلِّمٌ وَمُوجِعٌ فِي الدُّنْيَا بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ ، إِذَا مَاتُوا مُصْرَبِينَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتُوبُوا .

وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى الْمُتَنَافِقِينَ ، وَعَذَابُهُمُ الْأَلِيمُ فِي الدُّنْيَا الْحُدُودُ ، وَفِي الْآخِرَةِ النَّارُ . وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ قَازِفٍ ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ وَلَيْسَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢٢ / ٦) : ((هَدَّدَ اللَّهُ الْقَازِفِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ ، أي : يُحِبُّونَ أَنْ يَفْشَوْا الْقَذْفَ بِالْفَاحِشَةِ ، وَهِيَ الزُّنَا ، ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، يَعْنِي : الْجَلْدُ ، ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ عَذَابُ النَّارِ . وَرَوَتْ عَمْرَةَ عَنْ

عائشة قالت : لَمَّا نَزَلَ عُذْرِي ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ ، وَتَلَا الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ ، فَضْرِبُوا حَدَّهُمْ . وَرَوَى أَبُو صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي ، وَمُسْطَاحَ بْنَ أَثَاثَةَ ، وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ ، وَحَمْنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ ، فَأَمَّا الثَّلَاثَةُ فَتَابُوا ، وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ فَمَاتَ مُنَافِقًا . وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يُنْكِرُ صِحَّةَ هَذَا ، وَيَقُولُ : لَمْ يَضْرِبْ أَحَدًا)) .
 وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ يَعْنِي : مَنْ قَدَفَ عَائِشَةَ ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ ، يَعْنِي : أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهِرُوا الرِّئَا ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يَعْنِي : صَفْوَانَ وَعَائِشَةَ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَعْنِي : وَجِيع ، ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ، فَكَانَ عَذَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِي الدُّنْيَا الْحَدَّ ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ٢٢١ .

وقال الطبري في تفسيره (٢٨٧ / ٩) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَدْبِعَ الرَّئَا فِي الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُظْهِرُوا ذَلِكَ فِيهِمْ ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، يَقُولُ : لَهُمْ عَذَابٌ وَجِيعٌ فِي الدُّنْيَا بِالْحَدِّ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ حَدًّا لِرَأْمِي الْمُحْصَنَاتِ وَالْمُحْصَنِينَ ، إِذَا رَمَوْهُمْ بِذَلِكَ ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، إِنَّ مَاتَ مُصِرًّا عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ تَائِبٍ)) .

٢٦_ الغضب

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧] ٢٢٢ .
 هَذَا مَدِيحٌ إِلَهِيٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ إِذَا غَضِبُوا عَلَى أَحَدٍ مِمَّنْ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يَحْلُمُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ ، وَيَكْظُمُونَ الْغَيْظَ ، وَيَغْفِرُونَ لِمَنْ أَجْرَمَ بِحَقِّهِمْ ، وَيَصْنَفُحُونَ عَنْ عُقُوبَتِهِ ، وَيَتَجَاوَزُونَ عَنْهُ .

٢٢١ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١٤٦ / ٢٣) . وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي الْمَجْمَعِ (١٨٤ / ٧) : ((وَرُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ قَتَادَةَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ ، وَرُوِيَ بَعْضُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ بِإِسْنَادَيْنِ ، رِجَالُ أَحَدِهِمَا ثِقَاتٌ)) .

٢٢٢ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٢ / ١٦) : ((قِيلَ : نَزَلَتْ فِي عُمَرَ حِينَ شَتِمَ بِمَكَّةَ ، وَقِيلَ : فِي أَبِي بَكْرٍ حِينَ لَامَهُ النَّاسُ عَلَى إِنْفَاقِ مَالِهِ كُلِّهِ ، وَحِينَ شَتِمَ ، فَحَلَّمَ . وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : اجْتَمَعَ لِأَبِي بَكْرٍ مَالٌ مَرَّةً ، فَتَصَدَّقَ بِهِ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ ، فَلَامَهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَخَطَّاهُ الْكَافِرُونَ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : شَتَمَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَبَا بَكْرٍ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ شَيْئًا ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . وَهَذِهِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، يُشْفِقُونَ عَلَى ظَالِمِهِمْ ، وَيَصْنَفُحُونَ لِمَنْ جَهِلَ عَلَيْهِمْ يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى وَعَفْوَهُ وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ :

إِنِّي عَفَوْتُ لظالمي ظلمي وَوَهَبْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
 مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ)) .

أي : إِنَّ سَجِيَّتَهُمْ تَفْتَضِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ عَنِ النَّاسِ ، وَلَيْسَتْ سَجِيَّتُهُمْ قَهْرَ النَّاسِ وَإِخْضَاعَهُمْ وَإِذْلَالَهُمْ وَالْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ . ومعنى الآية : أَنَّهُمْ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ طَلَبًا لِثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَبِنَاءِ ﴿ يَغْفِرُونَ ﴾ عَلَى ضَمِيرِهِمْ خَبْرًا ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنََّّهُمُ الْأَخْصَاءُ بِالْمَغْفِرَةِ حَالَ الْغَضَبِ .
وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٧٦٩) : ((﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ، أَي :
يَتَجَاوَزُونَ عَنِ الدَّنْبِ الَّذِي أَغْضَبَهُمْ ، وَيَكْظُمُونَ الْغَيْظَ ، وَيَحْلُمُونَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُمْ ، وَخُصَّ
الْغَضَبُ بِالْغُفْرَانِ ، لِأَنَّ اسْتِيْلَاءَهُ عَلَى طَبِيعِ الْإِنْسَانِ وَغَلَبَتِهِ عَلَيْهِ شَدِيدَةٌ ، فَلَا يَغْفِرُ عِنْدَ سُورَةِ
الْغَضَبِ _ يَعْنِي حَدِيثَهُ _ إِلَّا مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ، وَخَصَّهُ بِمَرْيَةِ الْحِلْمِ)) .

وقال الصَّوَابِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى الْجَلَالِينِ (٤ / ٤٠) : ((مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ التَّجَاوُزُ وَالْحِلْمُ
عِنْدَ حُصُولِ الْغَضَبِ ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْحِلْمُ غَيْرَ مُخَلِّ بِالْمُرُوءَةِ ، وَلَا وَاجِبًا كَمَا إِذَا
انْتَهَكْتَ حُرْمَاتُ اللَّهِ ، فَالْوَاجِبُ حِينَئِذٍ الْغَضَبُ لَا الْحِلْمُ ، وَعَلَيْهِ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ : " مَنْ اسْتَعْصَبَ
وَلَمْ يَغْضَبْ فَهُوَ حِمَارٌ " . وقال الشاعر : " وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ ")) .

وفي صحيح البخاري (٥ / ٢٢٦٧) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ :
أَوْصِنِي ، قَالَ : ((لَا تَغْضَبْ)) ، فَرَدَّدَ مَرَارًا ، قَالَ : ((لَا تَغْضَبْ)) .

طَلَبَ الصَّحَابِيُّ جَارِيَةً بِنِ قُدَامَةَ _ رضي الله عنه _ الوصية من النبي ﷺ ، فأوصاه بعدم الغضب ،
وهو مَحْمُولٌ عَلَى الْغَضَبِ الْمَذْمُومِ . وقيل : لعلَّ السائل كان غَضُوبًا ، وكان النبي ﷺ يَنْصَحُ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنْ أَصْحَابِهِ بِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ وَيَحْتَاجُهُ ، فَلِهَذَا اقْتَصَرَ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُ عَلَى تَرْكِ الْغَضَبِ . وقيل : مَعْنَاهُ :
اجْتَنِبْ أَسْبَابَ الْغَضَبِ ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِمَا يَجْلِبُهُ ، وَأَمَّا الْغَضَبُ نَفْسُهُ فَلَا يَتَأْتَى النَّهْيُ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ
طَبِيعِي لَا يَزُولُ مِنَ الْجِبَلَةِ . وقيل : مَعْنَاهُ : لَا تَغْضَبْ ، لِأَنَّ أَعْظَمَ مَا يَنْشَأُ عَنْهُ الْغَضَبُ الْكَبِيرُ ،
لِكَوْنِهِ يَقَعُ عِنْدَ مُخَالَفَةِ أَمْرٍ يُرِيدُهُ ، فَيَحْمِلُهُ الْكَبِيرُ عَلَى الْغَضَبِ ، فَالَّذِي يَتَوَاضَعُ حَتَّى تَذْهَبَ عَنْهُ
عِزَّةُ النَّفْسِ يَسْلَمُ مِنْ شَرِّ الْغَضَبِ . وقيل : مَعْنَاهُ : لَا تَفْعَلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ الْغَضَبُ . وقد جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ
فِي قَوْلِهِ : " لَا تَغْضَبْ " خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، لِأَنَّ الْغَضَبَ يُؤْوِلُ إِلَى التَّقَاطُعِ ، وَمَنْعِ الرَّفْقِ ،
وَقَدْ يُؤْوِلُ إِلَى إِيْدَاءِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ . وَرَدَّدَ الرَّجُلُ طَلَبَ الْوَصِيَّةِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَرَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُ ﷺ
فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى " لَا تَغْضَبْ " مَعَ تَكَرُّرِهِ الطَّلَبِ . وَهَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى عِظَمِ مَفْسَدَةِ الْغَضَبِ ،
وَمَا يَنْشَأُ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْغَضَبَ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ .

وَالْغَضَبُ غَرِيزَةٌ رَجَبُهَا اللَّهُ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ تَغْيِيرٌ يَحْصُلُ عِنْدَ قَوْرَانِ دَمِ الْقَلْبِ ،
لِيَحْصُلَ عَنْهُ التَّشَفُّيُّ فِي الصَّدْرِ ، وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَبْدئِهِ وَأَثَرِهِ ، وَمِنْ تَمَّ كَانَ مِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُودٌ ،

وما هو مذموم ، فَمَنْ كَانَ غَضَبُهُ فِي الْحَقِّ ، وَلَا يَجْرُهُ لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ ، فَهُوَ غَضَبٌ مَحْمُودٌ ، وَمَنْ كَانَ غَضَبًا فِي الْبَاطِلِ ، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ التَّحَكُّمَ فِي غَضَبِهِ إِذَا غَضِبَ ، وَيَجْرُهُ الْغَضَبُ لِتَجَاوُزِ الْحَدِّ ، وَإِفْسَادِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، فَهَذَا غَضَبٌ مَذْمُومٌ .

وقال العيني في عمدة القاري (٢٢ / ١٦٤) : ((إِنَّمَا قَالَ : " لَا تَغْضَبْ " لِأَنَّهُ كَانَ مُكَاشِفًا بِأَوَاضَاعِ الْخُلُقِ ، فَيَأْمُرُهُمْ بِمَا هُوَ الْأَوْلَىٰ بِهِمْ ، وَلِعَلَّ الرَّجُلَ كَانَ غَضُوبًا ، فَوَصَّاهُ بِتَرْكِهِ . وَقَالَ الْبِيضاوي: لَعَلَّهُ لَمَّا رَأَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الْمَفاسِدِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ شَهْوَتِهِ وَغَضَبِهِ ، وَالشَّهْوَةُ مَكْسُورَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَىٰ مَا يَقْتَضِيهِ الْغَضَبُ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ الرَّجُلُ الْإِرْشَادَ إِلَىٰ مَا يُتَوَسَّلُ بِهِ إِلَى التَّحَرُّزِ عَنِ الْقَبَائِحِ ، وَعَنِ الْغَضَبِ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ ضَرَرًا ، وَأَكْثَرُ وَزْرًا ، وَأَنَّهُ إِذَا مَلَكَهَا كَانَ قَهَرًا أَقْوَىٰ أَعْدَائِهِ ، أَمَرَهُ بِهَا . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَى " لَا تَغْضَبْ " : لَا تَتَعَرَّضْ لِأَسْبَابِ الْغَضَبِ ، وَلِلْأُمُورِ الَّتِي تَجَلِّبُ الْغَضَبَ ، إِذْ نَفْسُ الْغَضَبِ مَطْبُوعٌ فِي الْإِنْسَانِ ، لَا يُمَكِّنُ إِخْرَاجَهُ مِنْ جِلْبَتِهِ ، أَوْ مَعْنَاهُ : لَا تَفْعَلْ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ الْغَضَبُ ، وَيَحْمِلُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ)) .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٤١٣) : (((لَا تَغْضَبْ) أَي: لَا تَفْعَلْ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى الْغَضَبِ ، أَوْ لَا تَفْعَلْ بِمُقْتَضَاهُ ، بَلْ جَاهِدِ النَّفْسَ عَلَى تَرْكِ تَنْفِيذِهِ ، وَالْعَمَلُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ ، فَإِذَا مَلَكَ الْإِنْسَانَ كَانَ فِي أَسْرِهِ ، وَتَحْتَ أَمْرِهِ فَمَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ غَضَبُهُ ، وَجَاهَدَ نَفْسَهُ ، انْدَفَعَ عَنْهُ شَرُّ غَضَبِهِ ، وَرُبَّمَا سَكَنَ عَاجِلًا ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ، وَمَنْ غَضِبَ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا يَغْضَبُ عَلَى رَبِّهِ ، فَقَالَ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ : الْغَضَبُ نِسْيَانُ الْعُبُودِيَّةِ ، لِأَنَّ صِفَةَ الْعَبْدِ الدَّلَّةُ وَالْإِنْكَسَارُ وَالصَّغَارُ وَالْإِضْطِرَارُ ، وَمَنْ هَذَا حَالُهُ ، كَيْفَ يَلِيقُ بِهِ الْغَضَبُ ؟ ، وَكَفَى الْمَغْضُوبَ عُقُوبَةً فِي الدُّنْيَا الْإِحْتِرَاقُ بِنَارِ نَفْسِهِ ، وَفِي الْآخِرَىٰ إِبْطَالُ حَسَنَاتِهِ)) .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أنها قالت: ((...)) ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فانتقم لله بها)) ٢٢٣ .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَافًا عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ وَمَحَارِمِهِ ، وَيَغْضَبُ لِلَّهِ أَشَدَّ الْغَضَبِ حَتَّى يُزَالَ الْحَرَامُ ، فَكَانَ ﷺ يُوَارِزُ بَيْنَ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْعِبَادِ ، وَبَيْنَ مَا يَكُونُ حَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى . وَكَانَ مِنْ حُسْنِ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُسَامِحُ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ ﷺ يَنْتَقِمُ وَيَبْطِشُ بِأَحَدٍ ، إِلَّا إِذَا انْتَهَكَتْ حُرْمَاتُ اللَّهِ بِالتَّعَدِّيِّ عَلَيْهَا ، وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَشَدَّ النَّاسِ انْتِقَامًا لِلأَخْذِ بِحَقِّ اللَّهِ .

٢٢٣ متفق عليه . البخاري (٣ / ١٣٠٦) برقم (٣٣٦٧) ، ومسلم (٤ / ١٨١٣) برقم (٢٣٢٧) .

وفي هذا إرشادُ المُسلمين إلى أن يَكُون سبيلُ حياتهم على التيسير ، والمسامحة ، والبُعدِ عن التَشَدُّدِ المُبالغ فيه ، مع الوقوفِ عند حُرْمَاتِ اللَّهِ وحُدُوده ، فلا تُرتكَبِ المَعاصي والدُّنُوب ، ولا يُنتَهَك حَقُّ اللَّهِ في المُجتمع المُسلم ، فإذا حَدَثَ ذلك وَجَبَ على المُسلمِ العَضْبُ لِلَّهِ مُقْتَدِيًا بالنبي ﷺ ، مع مُراعاةِ وَضْعِ الأُمُورِ في نصابِها الصحيح ، وأن يَكُونِ العَضْبُ في محله ، ولا يتجاوزهُ إلى أكثرِ منه ، حتى لا يُفْسِدَ مِنْ حَيْثُ أَرَادَ الإِصْلَاحَ .

والحديثُ يدلُّ على أن الحِلْمَ ليس محمودًا مُطلقًا ، ولا بُدَّ مِنَ الشَّدَّةِ والعَضْبِ أحيانًا .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨٤/١٥): ((وانتهاك حُرْمَةِ اللَّهِ تعالى هو ارتكاب ما حَرَّمَهُ . قَوْلُهَا (إِنْ أَنْتَهَكْتَ حُرْمَةَ اللَّهِ) استثناء مُنْقَطِعٌ ، معناه: لكن إذا انْتَهَكْتَ حُرْمَةَ اللَّهِ انتصرَ اللَّهُ تعالى ، وانتقمَ مِنْ مَنْ ارتكَبَ ذلك . في هذا الحديثُ الحَثُّ على العَفْوِ والحِلْمِ واحتمالِ الأذى ، والانتصارِ لِلدِّينِ اللَّهُ تعالى مِنْ فَعَلٍ مُحَرَّمًا أَوْ نَحْوَهُ ، وفيه أَنَّهُ يُسْتَنْحَبُ لِلأئِمَّةِ والقُضَاةِ وسائرِ ولاةِ الأُمُورِ التَّحَلُّقُ بهذا الخُلُقِ الكَرِيمِ فلا يَنْتَقِمَ لِنَفْسِهِ ، ولا يُهْمِلُ حَقَّ اللَّهِ تعالى . قال القاضي عِيَّاضُ: وقد أجمعَ العُلَمَاءُ على أنَّ القاضي لا يَقْضِي لِنَفْسِهِ ولا لِمَنْ لا يَجُوزُ شَهَادَتُهُ له)) .

٢٧_ الأسي على ما فات

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : ١٥٣] .
جازاكم اللَّهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ أُحُدٍ عَمَّا بِالْهَزِيمَةِ ، بسببِ عَمَلِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ الَّتِي تَرْجُونَ ، وَلَا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ . وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَمَرَّنُوا عَلَى الثَّبَاتِ وَالصُّمُودِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ ، فَلَا تَحْزَنُوا فِيهَا بَعْدَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَلَا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْمَضَارِّ .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٥٨٧) : ((هَذَا الْغَمُّ بَعْدَ الْغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَلَا مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ ، تَمْرِينًا لَكُمْ عَلَى الْمَصَائِبِ ، وَتَدْرِيبًا لِاحْتِمَالِ الشَّدَائِدِ)) .
وقال البِيضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٠٣) : ((لِتَتَمَرَّنُوا عَلَى الصَّبْرِ فِي الشَّدَائِدِ ، فَلَا تَحْزَنُوا فِيهَا بَعْدَ عَلَى نَفْعِ فَائِتٍ ، وَلَا ضَرِّ لَاحِقٍ)) .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الْحَدِيدِ : ٢٣] .
اخْتَبَرَكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِالْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ ، لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يُقَدِّرْ لَكُمْ ، وَلَوْ قُدِّرَ لَكُمْ لَمْ يُفْتِكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ لَا يَدُومُ

لكم ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُّقَدَّرٌ فِي الْأَزْلِ هَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ فَوَاتُهُ يَفُوتُ ، وَمَا قُدِّرَ إِيْتِيَانُهُ يَأْتِي ، لَا يَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَ ، وَلَا يَفْرَحُ بِمَا هُوَ آتٍ . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ مَا قُدِّرَ لَا بُدَّ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ قَلَّ فَرَحُهُ وَحُزْنُهُ .

ومعنى الآية : لِكَيْلَا تَحْزَنُوا حُزْنًا يُطْغِيكُمْ ، وَلَا تَبْتَطِرُوا بِالْفَرَحِ ، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَا يُصِيبُكُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مَكْتُوبٌ ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقِضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ . وَقَدْ قِيلَ : مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدَرِ هَانَتْ عَلَيْهِ الْمَصَائِبُ . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَفْرَحُ وَيَحْزَنُ ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ الْفَرَحَ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى السَّرِّاءِ ، وَيَجْعَلَ الْحُزْنَ صَبْرًا عَلَى الصَّرِّاءِ ٢٢٤ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٦٨٦) : ((يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ : مَا أَصَابَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي أَمْوَالِكُمْ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ، إِلَّا فِي كِتَابٍ قَدْ كُتِبَ ذَلِكَ فِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَخْلُقَ نَفُوسَكُمْ ، ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ ، يَقُولُ : لِكَيْلَا تَحْزَنُوا ﴿ عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمْ تُدْرِكُوهُ مِنْهَا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ مِنْهَا)) اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٤٠٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، أَي : أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا ، لِتَعَلَّمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ ، وَمَا أَخْطَاكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ، لِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ ، ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أَي : جَاءَكُمْ ، وَتَفْسِيرُ ﴿ آتَاكُمْ ﴾ أَي : أَعْطَاكُمْ ، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ ، أَي : لَا تَفْخَرُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِسَعْيِكُمْ وَلَا كَدِّكُمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَنْ قَدَرِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ لَكُمْ ، فَلَا تَتَّخِذُوا نِعَمَ اللَّهِ أَشْرًا وَبَطْرًا تَفْخَرُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ)) اهـ . وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٢٤٩) : ((﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ ، أَي : اخْتَبِرْنَاكُمْ بِذَلِكَ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ مِنْهَا ، أَي : أَعْطَاكُمْ مِنْهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ ، وَكُلُّ زَائِلٍ عَنْ قَرِيبٍ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَحَ بِحُصُولِهِ ، وَلَا يُحْزَنَ عَلَى فَوَاتِهِ ، وَمَعَ أَنَّ الْكُلَّ بِقِضَاءِ اللَّهِ

٢٢٤ قال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٢ / ١٣٣) : ((قَالَ الْعَزَلِيُّ : لَا شِدَّةَ إِلَّا فِي جَنْبِهَا نِعَمَ لِلَّهِ ، فَلْيَلْزِمِ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ عَلَى تِلْكَ النِّعَمِ الْمُفْتَرَنَةِ بِهَا. قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: مَا ابْتُلِيَتْ بِبَيْلِيَّةٍ (مُصِيبَةٍ) إِلَّا كَانَ لِلَّهِ عَلَيَّ فِيهَا أَرْبَعُ نِعَمٍ ، إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي دِينِي ، وَإِذْ لَمْ أُحْرَمِ الرِّضَا ، وَإِذْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَ ، وَإِذْ رَحَوْتُ الثَّوَابَ عَلَيْهَا. وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ : شِدَائِدُ الدُّنْيَا مِمَّا يَلْزِمُ الْعَبْدَ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا نِعَمٌ بِالْحَقِيقَةِ ، بِدَلِيلِ أَنَّهَا تَعْرِضُ الْعَبْدَ لِمَنَافِعٍ عَظِيمَةٍ ، وَمَثُوبَاتٍ جَزِيلَةٍ ، وَأَغْرَاضٍ كَرِيمَةٍ ، تَتَلَاشَى فِي جَنْبِهَا شِدَائِدٌ)) .

وقَدْرَهُ ، فَلَنْ يَعْدُوَ امْرَأً مَا كُتِبَ لَهُ . وما كَانَ حُصُولُهُ كائِنًا لَا مَحَالَةَ ، فَلَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلْفَرَحِ بِحُصُولِهِ ، وَلَا لِلْحُزْنِ عَلَى فَوْتِهِ . وَقِيلَ : وَالْحُزْنُ وَالْفَرَحُ الْمَنْهِيَّ عَنْهُمَا هُمَا اللَّذَانِ يَتَعَدَّى فِيهِمَا إِلَى مَا لَا يَجُوزُ ، وَإِلَّا فَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ يَحْزَنُ وَيَفْرَحُ)) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، قَالَ : ((أَلَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْزَنُ وَيَفْرَحُ ، وَلَكِنْ مَنْ جَعَلَ الْمُصِيبَةَ صَبْرًا ، وَجَعَلَ الْفَرَحَ شُكْرًا)) ٢٢٥ .

كُلُّ شَخْصٍ يَحْزَنُ وَيَفْرَحُ ، فَهُوَ إِنْسَانٌ لَهُ مَشَاعِرٌ وَأَحَاسِيسٌ ، وَتَتَأَثَّرُ حَالَتُهُ النَّفْسِيَّةُ بِالْأَخْبَارِ الَّتِي يَسْمَعُهَا ، وَالْأَحْدَاثَ الْيَوْمِيَّةَ ، وَعِنَاصِرِ بَيْتَتِهِ الْمُحِيطَةَ بِهِ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ طَلَبًا لِرِضَا اللَّهِ ، فَيَخْضُلُ عَلَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ عِنْدَ الْفَرَحِ بِنِعْمَةِ الْعَظِيمَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى ، فَيُنَالُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَغْلِ الْمُؤْمِنُ أَحْزَانَهُ وَأَفْرَاحَهُ .

٢٨_ الْجُبْنِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْيُحْيِيَّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] ٢٢٦ .

نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ التَّشْبِيهِ بِالْمُنَافِقِينَ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَا تَكُونُوا كَالْمُنَافِقِينَ ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ ، وَأَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ فِي النَّفَاقِ وَالْكَفْرِ ، إِذَا سَافَرُوا فَمَاتُوا وَهَلَكُوا ، أَوْ كَانُوا غُزَاةً (جَمْعُ غَازٍ) فَقُتِلُوا : لَوْ أَقَامُوا عِنْدَنَا وَلَمْ يَخْرُجُوا لَمَّا مَاتُوا وَلَا قُتِلُوا ، تَكْذِيبًا مِنْهُمْ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَلِقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ ، أَي : لَا تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ . قَالُوا ذَلِكَ لِيَصِيرَ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ حَسْرَةً (نَدَامَةً)

٢٢٥ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٢ / ٥٢١) بِرَقْمِ (٣٧٨٩) وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ .

٢٢٦ قَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٢٨٩) : ((وَهَذَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَرْغِيبٌ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى قِتَالِهِمْ ، وَإِخْرَاجِ هَيْبَتِهِمْ مِنْ صُدُورِهِمْ ، وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ ، وَكَثُرَ عَدَدُ أَعْدَائِهِمْ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَإِعْلَامٌ مِنْهُمْ أَنَّ الْإِمَامَةَ وَالْإِحْيَاءَ بِيَدِهِ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ أَحَدٌ وَلَا يُقْتَلُ إِلَّا بَعْدَ فَنَاءِ أَجَلِهِ الَّذِي كُتِبَ لَهُ ، وَنَهْيٌ مِنْهُمْ إِذْ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يَجْرِعُوا لِمَوْتِ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ أَوْ قَتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي حَرْبِ الْمُشْرِكِينَ)) .

في نفوسهم على موتاهم . والله يحيي ويميت ، أي : يقدر على أن يحيي من يخرج إلى القتال ، ويميت من أقام في أهله . وهو سبحانه يعجل ما يشاء ويؤخر ما يشاء من آجالهم بقدرته ، وليس تحزُّرُ الإنسانِ يمنعه من إتيان أجله ، ولا يمنع الموتُ فُعوداً ولا اختباءً ، والموتُ واقعٌ لا محالة ، وكائنٌ لا بُدَّ منه . والآيةُ ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ردُّ لقولهم ، أي إنَّ الله هو المؤثِّرُ في الحياة والممات ، والمسيطرُ عليهما ، وليس الإقامة والسفر . والله قد يحيي المسافرَ والغازي ، ويميت المقيمَ والقاعد . والله مطلعٌ على أعمال العباد ، فيجازيهم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وهذا تهديد للمؤمنين أن يشابهوا المنافقين أو يماثلوهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٥٦) : ((ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم ﴾ ، أي : عن إخوانهم ﴿ إذا ضربوا في الأرض ﴾ ، أي : سافروا للتجارة ونحوها ، ﴿ أو كانوا غزى ﴾ ، أي : كانوا في الغزو ، ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي : في البلد ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي : ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي : خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ، ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم ، ثم قال تعالى رداً عليهم : ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ ، أي : بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ، ولا يموت أحد ، إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزداد في عمر أحد ، ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره ، ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ، أي : علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٥٩٢) : ((قوله : ﴿ لا تكونوا كالذين كفروا ﴾ هم المنافقون قوله : ﴿ وقالوا لإخوانهم ﴾ في النفاق ، أو في النسب ، أي : قالوا لأجلهم : ﴿ إذا ضربوا في الأرض ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة أو نحوها . قيل : إن (إذا) هنا المفيدة لمعنى الاستقبال ، بمعنى (إذ) المفيدة لمعنى الماضي . وقيل : هي على معناها ، والمراد هنا حكاية الحال الماضية . وقال الزجاج : (إذا) هنا تنوب عن ما مضى من الزمان ، وما يستقبل ، ﴿ أو كانوا غزى ﴾ جمع غاز ، كراعى وزرع ، وغائب وغيب ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ قالوا ﴾ ، أي : قالوا ذلك ، واعتقدوه ، ليكون حسرة في قلوبهم ، والمراد أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة ، أو متعلقة بقوله : ﴿ لا تكونوا ﴾ أي : لا تكونوا مثلهم في اعتقاد ذلك ، ليجعله الله حسرة في قلوبهم فقط دون قلوبكم . وقيل : المعنى لا تلتفتوا

إليهم ، ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة في قلوبهم . وقيل : المراد : حسرة في قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزي والندامة، ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فيه رد على قولهم، أي: ذلك بيد الله سبحانه ، يصنع ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فيحیی من يريد ، ويمیت من يريد ، من غير أن يكون للسفر أو العزو أثر في ذلك)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٢] ٢٢٧ .

الخطاب لجماعة المؤمنين ، والمراد هم المنافقون ، وعبر عنهم بـ ﴿ مِنْكُمْ ﴾ لأنهم في الظاهر في عداد المؤمنين . أي إنهم جعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم ، وباعتبار الظاهر . لقد أظهروا كلمة التوحيد، فدخلوا تحت حكم المؤمنين في الظاهر، ولكنهم في الباطن منافقون كافرون . وإن منكم لمن ليتأخرن ويتأقلن ويتخلفن عن الجهاد (القتال) ، فإن أصابكم قتل أو هزيمة ، قال ذلك المنافق : قد تفضل الله علي بالفعود ، فلم أحضر الحرب معهم ، فيصيني ما أصابهم . وهذا لا يقوله إلا منافق ، ولا يمكن أن يقوله مؤمن ، خصوصاً في ذلك الزمن الكريم ، وفي ظل وجود النبي ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم ، وهم الجيل الذهبي الذي حمل الإسلام ونشره . إن المنافقين يعتبرون الشهادة في سبيل الله مصيبةً، وفق اعتقادهم الباطل ونظرهم الفاسد ، والشهادة _ في الحقيقة _ نعمة عظيمة من الله تعالى ، لأنها الطريق إلى نيل رضا الله ، والحصول على أعلى درجات الجنة .

وقال الطبري في تفسيره (١٦٨ / ٤) : ((هذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين ، نعتهم لنبيه ﷺ وأصحابه ، ووصفهم بصفتهم ، فقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ، يعني : من عداكم وقومكم ، ومن يتشبه بكم ، ويظهر أنه من أهل دعوتكم ومائتكم ، وهو منافق ، يبطئ من أطاعه

٢٢٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١٣٠ / ٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ﴾ ، اختلّفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما أنها في المنافقين كعبد الله بن أبي وأصحابه ، كانوا يتشاقلون عن الجهاد ، فإن لقيت السريّة نكبةً ، قال من أبطأ منهم : لقد أنعم الله عليّ . وإن لقوا غنيمَةً قال : يا ليتني كنت معهم ، هذا قول ابن عباس وابن جرير . والثاني أنها نزلت في المسلمين الذين قلت غلومهم بأحكام الدين ، فتبطلوا لقلّة العلم لا لضعف الدين ، ذكره الماوردي وغيره . فعلى الأول تكون إضافتهم إلى المؤمنين بقوله : ﴿ مِنْكُمْ ﴾ لموضع نطقهم بالإسلام ، وجريان أحكامه عليهم . وعلى الثاني تكون الإضافة حقيقةً)) .

مِنْكُمْ عَنِ جِهَادِ عَدُوِّكُمْ وَقِتَالِهِمْ إِذَا أَنْتُمْ نَفَرْتُمْ إِلَيْهِمْ ، ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ ، يَقُولُ : فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ هَزِيمَةٌ ، أَوْ نَالَكُمْ قَتْلٌ أَوْ جِرَاحٌ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ ، فَيُصِيبُنِي جِرَاحٌ ، أَوْ أَلَمٌ ، أَوْ قَتْلٌ . وَسِرَّهُ تَخَلُّفُهُ عَنْكُمْ سَمَاتَةً بِكُمْ ، لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الشُّكِّ فِي وَعْدِ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا نَالَهُمْ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ ، وَفِي وَعِيدِهِ ، فَهُوَ غَيْرُ رَاجٍ ثَوَابًا ، وَلَا خَائِفٍ عِقَابًا)) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٩٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ ﴾ ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : ﴿ لَيَبْطِئَنَّ ﴾ ، أَي : لَيَتَخَلَّفَنَّ عَنِ الْجِهَادِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَبْطِئُ هُوَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُبْطِئُ غَيْرَهُ عَنِ الْجِهَادِ ، كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُوفٍ _ قَبَّحَهُ اللَّهُ _ يَفْعَلُ ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ ، وَيُبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ جُرَيْجٍ وَابْنِ جَرِيرٍ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ : ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ ، أَي : قَتْلٌ وَشَهَادَةٌ وَغَلْبٌ الْعَدُوِّ لَكُمْ ، لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ ، أَي : إِذْ لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ وَقَعَةَ الْقِتَالِ . يَعُدُّ ذَلِكَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ ﴾ [الْأَنْفَالُ : ١٥] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرَبُوا بِبُيُوتَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، إِذَا لَقِيتُمْ أَعْدَاءَكُمْ الْكُفَّارَ فِي الْقِتَالِ مُجْتَمِعِينَ كَأَنَّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ يَزْحَفُونَ ، وَالتَّزْحَفُ : التَّدَانِي وَالتَّقَارُبُ ، فَلَا تَهْزَمُوا أَمَامَهُمْ ، فَإِنَّ الْمُنْهَزِمَ يُؤَلَّى دُبْرَهُ ، بَلْ اثْبُتُوا وَاصْبِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَالآيَةُ تَنْهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْهَزَمُوا أَمَامَ الْكُفَّارِ ، وَقَدْ اسْتَعَدَّ الْفَرِيقَانِ لِلْقِتَالِ . وَهَذَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٣٣٣) : ((يَقُولُ اللَّهُ : إِذَا تَدَانَيْتُمْ وَتَعَايَنْتُمْ ، فَلَا تَقْرَبُوا عَنْهُمْ ، وَلَا تُعْطَوْهُمْ أَدْبَارَكُمْ . حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حِينَ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ وَقِتَالَ الْكُفَّارِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : وَالْأُدْبَارُ جَمْعُ دُبْرٍ . وَالْعِبَارَةُ بِالْأُدْبُرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُتَمَكِّنَةٌ الْفَصَاحَةِ ، لِأَنَّهَا بَشَعَةٌ عَلَى الْفَارِّ ، دَائِمَةٌ لَهُ . أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَيُّوْلِي الْمُؤْمِنُونَ أَمَامَ الْكُفَّارِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُقَيَّدٌ بِالشَّرْطِ الْمَنْصُوصَةِ فِي مِثْلِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِذَا لَقِيتَ فِتْنَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِتْنَةٌ هِيَ ضِعْفُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَالْفَرَضُ أَلَّا يَقْرَبُوا أَمَامَهُمْ ، فَصَمَّ فَرٌّ مِنْ اثْنَيْنِ فَهُوَ فَارٌّ مِنَ الرَّحْفِ ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، فَلَيْسَ بِفَارٍّ مِنَ الرَّحْفِ ، وَلَا يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ الْوَعِيدُ . وَالْفَرَارُ كَبِيرَةٌ مُؤَبَّقَةٌ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ ،

وإجماع الأكثر من الأئمة . وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في الواضحة : إِنَّهُ يُرَاعَى الضَّعْفُ وَالْقُوَّةُ وَالْعُدَّةُ ، فيجوز على قولهم أن يَفَرَّ مائة فارس من مائة فارس ، إذا عَلِمُوا أَنَّ ما عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ ضِعْفٌ ما عِنْدَهُمْ ، وَأَمَّا على قَوْلِ الْجُمْهُورِ فلا يَجِلُّ فِرَارُ مائة إِلا مِمَّا زاد على المائتين ، فَمَهْمَا كان في مُقَابَلَةِ مُسْلِمٍ أَكْثَرُ مِنَ اثْنَيْنِ ، فَيَجُوزُ الانْهِزَامُ ، وَالصَّبْرُ أَحْسَنُ . وقد وَقَفَ جَيْشُ مُؤْتَةَ وَهُمُ ثَلَاثَةُ آلَافٍ في مُقَابَلَةِ مائتي أَلْفٍ ، مِنْهُمْ مائة أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ ، ومائة أَلْفٍ مِنَ المُسْتَعْرَبِيَّةِ مِنْ لَحْمٍ وَجُدَامٍ . قُلْتُ : وَوَقَعَ في تاريخ فتح الأندلس أَنَّ طارقاً مَوْلى مُوسَى بنِ نُصَيْرٍ سارَ في أَلْفٍ وَسبعِمائة رَجُلٍ إلى الأندلس ، وذلك في رَجَبِ سنة ثلاثٍ وتسعين مِنَ الهِجْرَةِ ، فالتقى وَمَلِكُ الأندلس لُدْرِيْقُ ، وكان في سَبْعِينَ أَلْفٍ عِنان ، فَزَحَفَ إليه طارق ، وصَبَرَ له ، فَهَزَمَ اللهُ الطاغيةَ لُدْرِيْقُ ، وكان الفَتْحُ . قال ابن وَهْبٍ : سمعتُ مالِكاً يُسألُ عَنِ القَوْمِ يَلْقَوْنَ العَدُوَّ ، أو يَكُونُونَ في مَحْرَسٍ _ مَوْضِعِ جِراسَةِ _ يَحْرُسُونَ ، فيأتِيهِمُ العَدُوُّ وَهُمُ يَسِيرُ ، أَيَقَاتِلُونَ أو يَنْصَرِفُونَ فيؤذِنُونَ أَصْحابَهُمْ ؟ ، قال : إن كانوا يَقْوُونَ على قِتالِهِمْ قاتَلُوهُمْ ، وإِلا انصَرَفُوا إلى أَصْحابِهِمْ فَآذَنُوهُمْ . واختلفَ الناسُ هَلِ الفِرارُ يَوْمَ الرِّحْفِ مَخْصُوصٌ بيَوْمِ بَدْرٍ أم عامٌ في الرُّخُوفِ كُلِّها إلى يَوْمِ القِيامَةِ ؟ ، فَرَوَى عن أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ أَنَّ ذلكَ مَخْصُوصٌ بيَوْمِ بَدْرٍ ، وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبي حبيب والضحاك ، وبه قال أبو حنيفة . وأنَّ ذلكَ خاصٌّ بأهلِ بَدْرٍ ، فَلَمَّ يَكُنْ لَهُمْ أن يَنْحازُوا ، وَلَوْ انْحازُوا لَانْحازُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ في الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مُسْلِمُونَ غَيْرُهُمْ ، ولا لِلْمُسْلِمِينَ فِتْنَةٌ إِلا النَّبِيُّ ﷺ ، فأما بعد ذلكَ فَإِنَّ بَعْضَهُمْ فِتْنَةٌ لِبَعْضٍ . قال الكيا : وهذا فيه نظر ، لأنَّه كان بالمدينة خَلَقَ كثيرٌ مِنَ الأَنْصارِ لَمْ يَأْمُرْهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالخُرُوجِ ، وَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ قِتالٌ ، وَإِنَّمَا ظَنُّوا أَنَّها العِيرُ ، فَخَرَجَ رَسولُ اللهِ ﷺ فيمَنْ خَفَّ مَعَهُ . ويُروى عن ابن عباس وسائر العلماء أَنَّ الآيةَ باقيةَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، اِحتِجَّ الأَوْلُونَ بما دَكَّرْنَا ، وبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ [الأنفال : ١٦] ، فقالوا : هو إشارةٌ إلى يَوْمِ بَدْرٍ ، وَأَنَّهُ نَسَخَ حُكْمَ الآيةِ بِآيةِ الضَّعْفِ ، وَبَقِيَ حُكْمُ الفِرارِ مِنَ الرِّحْفِ لَيْسَ بِكَبيرةٍ ، وقد فَرَّ النَّاسُ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَعَفَا اللهُ عَنْهُمْ ، وقال اللهُ فيهِمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] ، وَلَمْ يَقَعْ على ذلكَ تَعنيفٌ . وقال الجُمهورُ مِنَ العُلَماءِ : إِنَّمَا ذلكَ إِشارةٌ إلى يَوْمِ الرِّحْفِ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذا لَقِيتُمْ ﴾ . وَحُكْمُ الآيةِ باقٍ إلى يَوْمِ القِيامَةِ بِشَرطِ الضَّعْفِ الَّذِي بَيَّنَّهُ اللهُ تَعَالَى في آيةِ أُخْرَى ، وليس في الآيةِ نَسْخٌ . والدليلُ عليه أَنَّ الآيةَ نزلتْ بعدَ القِتالِ وانقضاءِ الحَرْبِ وَذهابِ اليَوْمِ بما فيه . وإلى هذا ذهبَ مالِكٌ والشافعي وأكثَرُ العُلَماءِ . وفي صحيحِ مُسْلِمٍ عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال :

" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ _ وَفِيهِ _ وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ " ٢٢٨ . وهذا نص في المسألة ، وأما يوم أخذ فإنما فرّ الناس من أكثر من ضعفهم ، ومع ذلك عتفوا . وأما يوم حنين فكذلك من فرّ إنما انكشف عن الكثرة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

ومن يؤل الكفار يوم لقائهم وحربهم ظهره منهزمًا ، إلا منعطفًا يخيل إلى عدوه أنه منهزم ليخدعه ويكرّ عليه ، وهذا من مكائد الحرب ، والحرب خدعة ، أو منضمًا إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ، فقد رجع بسخط عظيم ، والمعنى : من ينهزم ويفر من الرحف ، فقد استحق غضب الله إلا المتحرّف والمتحيز . ومقرّهُ ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنّم ، وبئس المرجع هي ، وهذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف . وقد قادّه فراره إلى ما هو أشدّ بلاءًا ممّا فرّ منه ، وأعظم عقوبة . وقد اشتملت هذه الآية على هذا الوعيد الشديد لمن يفرّ عن الرحف . وفي ذلك دلالة واضحة على أنه من كباير الذنوب المهلكة .

والآية مُحْكَمَةٌ عَامَّةٌ غَيْرُ خَاصَّةٍ ، وَالْفِرَارُ مِنَ الرَّحْفِ مُحَرَّمٌ ، وَيُؤَيَّدُ هَذَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَرْبِ فِي يَوْمِ بَدْرٍ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٣٧) : ((﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرُهُ ﴾ ظَهَرَهُ ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أَي : مُنْعَطِفًا يُرِي مِنْ نَفْسِهِ الْإِنْهَازَ ، وَقَصْدُهُ طَلَبُ الْعِرَّةِ (الْعَقْلَةِ) وَهُوَ يُرِيدُ الْكِرَّةَ ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ أَي : مُنْضَمًّا صَائِرًا إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُرِيدُ الْعَوْدَ إِلَى الْقِتَالِ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : النَّهْيُ عَنِ الْإِنْهَازِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالتَّوَلَّى عَنْهُمْ إِلَّا عَلَى نِيَّةِ التَّحَرُّفِ لِلْقِتَالِ ، وَالانْضِمَامِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِيَسْتَعِينَ بِهِمْ ، وَيَعُودُونَ إِلَى الْقِتَالِ ، فَمَنْ وَلَّى ظَهْرَهُ لَا عَلَى هَذِهِ النِّيَّةِ لِحَقِّهِ الْوَعِيدِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾)) .

٢٢٨ الْمُوبِقَاتِ : هِيَ الذُّنُوبُ الْمُهِلِكَاتِ . وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تُهْلِكُ صَاحِبَهَا ، بِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ عِقَابِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَدُخُولِ النَّارِ ، وَاسْتِحْقَاقِ عَذَابِهَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الْمُوبِقَاتِ السَّبْعِ ، وَأَمَرَهُمْ بِاجْتِنَابِهَا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ وَإِحْلَاصِهِ فِي الدَّعْوَةِ ، وَرَحْمَتِهِ بِأُمَّتِهِ ، وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهَا ، وَتَقَدَّمَ التُّصْحُّحُ لَهَا . وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ : هُوَ الْهَرُوبُ مِنْ سَاحَةِ الْقِتَالِ أَمَامَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَعِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ أَوْ الْبُغَاةِ ، إِلَّا مَنْ فَرَّ لِيَخْدَعَ الْعَدُوَّ وَيَكْرُرَ ، أَوْ فَرَّ مِنَ الْعَدُوِّ إِلَى فِتْنَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسَاعِدُهُمْ وَيَسَاعِدُونَهُ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ ﴾ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ١٩٩) : ((وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَكَذَّبَ بَاءَ بَعْضِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ، يقول : فقد رَجَعَ بغضب من الله ، ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ ، يقول : وَمَصِيرُهُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ فِي مَعَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمُ ، ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، يقول : وَبِئْسَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْمَصِيرُ)) .
والقاعدةُ الثابتةُ هي أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ (التَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ) مُحَرَّمٌ شَرْعًا ، وَمِنْ كِبَائِرِ الدُّنُوبِ الْمُهْلِكَةِ ، لَكِنْ هُنَاكَ اسْتِثْنَاءٌ . الْحَالَةُ الْأُولَى الْاسْتِثْنَائِيَّةُ : هِيَ التَّحَرُّفُ لِقِتَالِ ، أَيْ : مَنْ يَفِرُّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ كَتُخْدَعَةٍ حَرِيَّةٍ حَتَّى يَسْتَدْرَجَ الْعَدُوَّ ، وَيَكُرِّرَ عَلَيْهِ ، وَيُهَاجِمَهُ . وَالثَّانِيَّةُ : التَّحْيِزُ لِفِتْنَةٍ ، أَيْ : الْهُرُوبُ مِنْ وَجْهِ الْعَدُوِّ إِلَى فِئَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُسَاعِدُهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٨٩) : ((يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا عَلَى الْفِرَارِ مِنَ الرَّحْفِ بِالنَّارِ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ﴾ ، أَيْ : تَقَارَبْتُمْ مِنْهُمْ وَدَنَوْتُمْ إِلَيْهِمْ ، ﴿ فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴾ ، أَيْ : تَفَرُّوا وَتَرَكُوا أَصْحَابَكُمْ ، ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ ، أَيْ : يَفِرُّ بَيْنَ يَدَيْ قَرْنِهِ — مَثِيلِهِ وَنَظِيرِهِ — مَكِيدَةً ، لِيُرِيَهُ أَنَّهُ قَدْ خَافَ مِنْهُ ، فَيَتْبَعُهُ ، ثُمَّ يَكُرُّ عَلَيْهِ ، فَيَقْتُلُهُ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ . نَصَّ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ أَنَّ يَتَقَدَّمَ عَنْ أَصْحَابِهِ لِيَرَى غِرَّةَ — غَفْلَةَ — مِنَ الْعَدُوِّ ، فَيُصَيِّبُهَا ، ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ ، أَيْ : فَرَّ مِنْ هَاهُنَا إِلَى فِئَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يُعَاوَنُهُمْ ، وَيُعَاوَنُونَهُ ، فَيَجُوزُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى لَوْ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ ، فَفَرَّ إِلَى أَمِيرِهِ ، أَوْ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ ، دَخَلَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ)) .
وعن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — : فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ ﴾ ، قَالَ : ((نَزَلَتْ فِيْنَا يَوْمَ بَدْرٍ)) ٢٢٩ .

هذه الآية وإن كانت نزلت يوم بدر ، فحُكْمُهَا عام شامل في تحريم الفِرَارِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ . وَالعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (٧ / ٣٣٥) : ((قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : لَا تَجُوزُ شَهَادَةُ مَنْ فَرَّ مِنَ الرَّحْفِ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُمُ الْفِرَارُ ، وَإِنْ فَرَّ إِمَامُهُمْ ، لِقَوْلِهِ — عَزَّ وَجَلَّ — : ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرَهُ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : وَيَجُوزُ الْفِرَارُ مِنْ أَكْثَرِ مَنْ ضَعْفُهُمْ ، وَهَذَا مَا لَمْ يَبْلُغْ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ، فَإِنْ بَلَغَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا لَمْ يَحِلَّ لَهُمُ الْفِرَارُ ، وَإِنْ زَادَ عَدَدَ الْمَشْرِكِينَ عَلَى الضَّعْفِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : " وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلِيلَةٍ " ٢٣٠)) .

٢٢٩ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٥٧) برقم (٣٢٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .
٢٣٠ رواه ابن جِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (١١ / ١٧) ، وَالحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١ / ٦١١) وَصَحَّحَهُ . وَقَالَ =

وقال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَاِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيْطَةٌ بِالْكَافِرِيْنَ ﴾ [التوبة : ٤٩] ٢٣١ .

مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ مَنْ يَقُوْلُ لَكَ يَا مُحَمَّدٌ : اَسْمَحْ لِيْ فِي الْفُعُوْدِ وَالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ ، وَلَا تَبْتَلِيْنِيْ بِرُؤْيَا نِسَاءِ الرُّوْمِ (بَنِي الْاَصْفَرِ) ، فَاِنِّيْ عَاشِقٌ لِلنِّسَاءِ وَمُغْرَمٌ بِهِنَّ ، وَلَا اَصْبِرُ عَنْهُنَّ . وَاِذَا خَرَجْتُ لِلْجِهَادِ وَرَايْتُهُنَّ وَقَعْتُ فِي الْاِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلٰى وُجُوْدِ قَرَارِ مُسَبِّقِ بالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ ، سِوَاةِ اِذْنِ لَهُ النَّبِيِّ ﷺ اَمْ لَمْ يَأْذَنْ .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧٢ / ٤) : ((يُرِيدُ اِنِّيْ مُتَخَلِّفٌ لَا مَحَالَةَ اِذْنَتْ اَوْ لَمْ تَأْذَنْ ، فَاِذْنٌ لِيْ حَتٰى لَا اَقْعُ فِي الْمَعْصِيَةِ بِالمُخَالَفَةِ ، اَوْ لَا تُلْقِنِيْ فِي الْهَلٰكَةِ ، فَاِنِّيْ اِنْ خَرَجْتُ مَعَكَ ، هَلَكْتُ مَالِي وَعِيَالِي ، لَعْدَمِ مَنْ يَقُوْمُ بِمَصَالِحِهِمْ)) .

وقد كان هذا المُنَافِقِ (الجَدُّ بن قَيْسِ) كَاذِبًا فِي دَعْوَاهِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ اَيَّةٌ مُشْكَلَةٌ غَيْرَ التَّفَاقِ . وَقَدْ اَرَادَ التَّهَرُّبَ مِنَ الْجِهَادِ . اَلَا فِي الْاِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ سَقَطُوا بِتَخَلُّفِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالْاِعْرَاضِ عَنِ الْجِهَادِ . لَقَدْ وَقَعُوا فِي الْفِتْنَةِ الْكُبْرٰى ، وَهِيَ التَّفَاقُ وَالتَّخَلُّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

=المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيْرِ (٤٧٤ / ٣) : ((لِأَنَّ ذَلِكَ فِي حَدِّ الْكَثْرَةِ مِنْ اَقْوٰى الْاَعْدَادِ ، فَلَنْ يُؤْتٰى مِنْ قَلَّةٍ ، كَعَدَدِ حُنَيْنٍ ، كَانُوا كَذَلِكِ ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، لِاِعْجَابِهِمْ بِهَا ، فَاِنَّهُ فَتَحَ مَكَّةَ فِي عَشْرَةِ اَلْفِ ، وَتَوَجَّهَ لِحُنَيْنٍ بِزِيَادَةِ اَلْفَيْنِ ، فَاُتُوا مِنْ جِهَةِ الْاِعْجَابِ)) .

٢٣١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٤٩ / ٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالٰى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ سَبَبُ نَزُوْلِهَا اَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ لِلْجَدِّ بن قَيْسِ : " يَا جَدُّ ، هَلْ لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي الْاَصْفَرِ _ يَعْنِي قِتَالَ الرُّوْمِ بِالسِّيْفِ _ ، لَعَلَّكَ اَنْ تَعْتَمَّ بَعْضَ بَنَاتِ الْاَصْفَرِ " . فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ، ائْذَنْ لِي فَاُقِيْمَ ، وَلَا تُفْتِنِّيْ بِبَنَاتِ الْاَصْفَرِ . فَاَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ : " قَدْ اِذْنْتُ لَكَ " ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْاٰيَةُ ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ تَعَالٰى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي الْمُنَافِقِيْنَ . ﴿ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ اَي : فِي الْفُعُوْدِ عَنِ الْجِهَادِ ، وَهُوَ الْجَدُّ بن قَيْسِ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُفْتِنِّيْ ﴾ اَرْبَعَةُ اَقْوَالٍ : اَحَدُهَا لَا تُفْتِنِّيْ بِالنِّسَاءِ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّانِي لَا تُكْسِبُنِي الْاِثْمَ بِاَمْرِكَ اِيَّايْ بِالْخُرُوْجِ ، وَهُوَ غَيْرُ مُتَيَسِّرٍ لِي ، فَاَنْتُمْ بِالمُخَالَفَةِ ، قَالَهُ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَالرَّجَّاحُ قَوْلُهُ تَعَالٰى : ﴿ اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ اَرْبَعَةُ اَقْوَالٍ : اَحَدُهَا اَنَّهَا الْكُفْرُ ، قَالَهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي الْحَرْجُ ، قَالَهُ عَلِيُّ بن أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ الْاِثْمُ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَالرَّجَّاحُ . وَالرَّابِعُ الْعَذَابُ فِي جَهَنَّمَ ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٧٦) : ((يقول تعالى: وَمِنَ الْمُنافِقِينَ مَن يَقُولُ لَكَ: يَا مُحَمَّدُ ﴿ ائذْنِ لِي ﴾ فِي الْقُعُودِ ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ بِالْخُرُوجِ مَعَكَ بِسَبَبِ الْجَوَارِي مِنْ نِسَاءِ الرُّومِ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ نَزَلَتْ هَذِهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائذْنِ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ الْآيَةُ . أَي : إِنْ كَانَ إِنَّمَا يَخْشَى مِنْ نِسَاءِ بَنِي الْأَصْفَرِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِهِ ، فَمَا سَقَطَ فِيهِ مِنَ الْفِتْنَةِ بِتَخَلُّفِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَالرَّغْبَةِ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِهِ أَعْظَمَ . وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِ وَاحِدٍ ، أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ ، وَقَدْ كَانَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ هَذَا مِنْ أَشْرَافِ بَنِي سَلَمَةَ)) .

أَلَا إِنَّهُمْ قَدْ وَقَعُوا فِي الْكُفْرِ بِنِفَاقِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ . وَالتَّعْبِيرُ بِالسُّقُوطِ يَدُلُّ عَلَى وَقُوعِهِمْ فِي الْهَاطِيَةِ السَّحِيقَةِ ، وَتَرَدِّيهِمْ فِي ذَرَكَاتِ الْهَلَاكِ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٤٣) : ((﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ ، أَي : فِي الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَقَعُوا ، وَهِيَ النَّفَاقُ وَالتَّخَلُّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ)) .

وَإِنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ الْأَبَدِيِّ ، وَجَهَنَّمَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَجَامِعَةٌ لَهُمْ ، لَا مَحِيصَ لَهُمْ عِنْدَهَا ، وَلَا مَفْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا . وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْإِفْلَاتِ مِنْ عَذَابِهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ .

وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ١٤٣) : ((﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، أَي : مَسِيرَهُمْ إِلَى النَّارِ ، فَهِيَ تُحَدِّقُ بِهِمْ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٤٧٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، أَي : لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا ، وَلَا مَحِيصَ ، وَلَا مَهْرَبَ)) . وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِهِمْ ، بَلْ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، وَوَضَعَ الْمُظْهَرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ فِي الْآيَةِ ، لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمُ بِالْكَفْرِ ، وَفَضْلِهِمْ ، وَوَصْمِهِمْ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ . وَالْجُمْلَةُ الْأَسْمِيَّةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الثِّبَاتِ وَالِاسْتِمْرَارِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٥٣٤) : ((والمعنى: أَنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ بِالْخُرُوجِ أَوْ بِتَرْكِ الْإِذْنِ لَهُمْ يَقَعُونَ فِي الْفِتْنَةِ، وَهُمْ بِهَذَا التَّخَلُّفِ سَقَطُوا فِي الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ . وَفِي التَّعْبِيرِ بِالسُّقُوطِ مَا يُشْعِرُ بِأَنَّهُمْ وَقَعُوا فِيهَا وَقُوعَ مَنْ يَهْوِي مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلَ، وَذَلِكَ أَشَدَّ مِنْ مُجَرَّدِ الدُّخُولِ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، أَي : مُشْتَمِلَةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ ، لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَخْلَصًا ، وَلَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ)) .

وعن ابن عباس قال: لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ لِلْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ : ((يَا جَدُّ بْنُ قَيْسٍ ، مَا تَقُولُ فِي مُجَاهَدَةِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؟)) ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَمْرٌ صَاحِبُ

نِسَاء ، ومتى أرى نِسَاءَ بني الأصغرِ أَفْتِنَ ، فَأَنْدَنَ لِي فِي الْجُلُوسِ ، وَلَا تَفْتِنِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ ٢٣٢ .

المُنافِقون قَوْمٌ جُبْناء ، يَحْتَلِقون الأعداءَ للهِروبِ مِنَ المِعارِكِ والحُرُوبِ ، لِأَنَّ الشُّكَّ يُسيطرُ على قُلُوبِهِم ، التي تَخلو مِنَ اليقينِ ، والتصديقِ بوعدِ اللَّهِ ووعيدِهِ . والمُنافِقُ الجَدُّ بنِ قَيْسِ قَدَمِ نَفْسِهِ على أَنَّهُ ضعيفُ أمامِ شَهوةِ النِّسَاءِ ، حُصُوصًا أمامَ نِسَاءِ الرُّومِ المَعروفاتِ بِالجمالِ الباهرِ ، واتَّخَذَ هذا العُذرَ الواهي والحُجَّةَ الداحضةَ ذريعةً للتَّهَرُّبِ مِنْ نَصرةِ الحَقِّ ، ومُقاومةِ الباطلِ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٦] . وَيُقَسِّمُ المُنافِقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ مِثْلَكُمْ ، وعلى دِينِكُمْ ، وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ لِكُفْرِ قُلُوبِهِم ، وَلَكِنَّهُمْ يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَنْ تَقْتُلُوهُمْ كما تَقْتُلُونَ المُشْرِكِينَ ، فَيُظْهِرُونَ الإسلامَ تَقِيَّةً ، وَيُؤَيِّدُونَهُ بِالإيمانِ الفاجرةِ . والآيةُ تُبيِّنُ أَنَّ مِنَ صِفَاتِ المُنافِقِينَ السَّيئةَ الحَلْفَ بأنَّهُم مُؤْمِنُونَ . وهذا يدلُّ على جُبْنِهِم ، وَجَزَعِهِم ، وفَزَعِهِم ، وهَلَعِهِم .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٩١) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَيَخْلِفُ بِاللَّهِ لَكُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ هؤُلاءِ المُنافِقُونَ كَذِبًا وباطلاً خَوْفًا مِنْكُمْ ﴾ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ في الدِّينِ والمِلَّةِ . يقولُ اللَّهُ تعالى مُكَدِّبًا لَهُمْ : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ ، أَي : لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ومِلَّتِكُمْ ، بَلْ هُمْ أَهْلُ شَكِّ وَنِفَاقٍ ، ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ، يقولُ : وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَخَافُونَكُمْ ، فَهُمْ خَوْفًا مِنْكُمْ يقولونَ بِالسنتِهِم : إِنَّا مِنْكُمْ ، لِيَأْمَنُوا فِيكُمْ فلا يُقْتَلُوا)) .

وقال الشُّوكاني في تفسيره (٢ / ٥٣٨) : ((ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحانَهُ نَوْعًا آخَرَ مِنَ قَبائِحِ المُنافِقِينَ ، فقال : ﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ ، أَي : مِنْ جُمْلَتِكُمْ في دِينِ الإسلامِ ، والانقيادِ لرسولِ اللَّهِ ﷺ وَلِكِتابِ اللَّهِ سُبْحانَهُ ، ﴿ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ في ذلك ، إِلا بِمُجَرَّدِ ظواهرِهِمْ دُونَ بواطنِهِمْ ﴾ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ، أَي : يَخَافُونَ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ ما نَزَلَ بِالْمُشْرِكِينَ مِنَ القَتْلِ والسَّيِّئِ ، فَيُظْهِرُونَ لَكُمْ الإسلامَ تَقِيَّةً مِنْهُمْ لا عن حَقِيقَةٍ)) .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التَّوْبَةُ: ٥٧] . لَوْ يَجِدُ المُنافِقُونَ حِصْنًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ، أَوْ سَرادِيبَ يَخْتَفُونَ فِيها ، أَوْ مَكَانًا

٢٣٢ رواه الطبراني في الكبير (١٢ / ١٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٠٥) : ((رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه يحيى الحِمَّاني ، وهو ضعيف)) .

يَدْخُلُونَ فِيهِ ، وَلَوْ ضَيِّقًا ، لِأَسْرَعُوا إِلَيْهِ إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُثْبِتُهُ اللَّجَامُ . أَي: لِأَدْبَرُوا إِلَيْهِ هَرَبًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ يُسْرِعُونَ فِي إِبَاءِ وَنُفُورٍ ، لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ . وَمَعْنَى الْآيَةِ: لَوْ أَمَكْنَهُمُ الْفِرَارَ مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ لَفَرُّوا وَلَمْ يَقِيمُوا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ يَجِدُونَ مَخْلَصًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمَهْرَبًا لَفَارَقُوهُمْ .

والمُرَاد مِنَ الْآيَةِ تَنْبِيهِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَوْ اسْتَطَاعُوا الْهَرُوبَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ فِي أَسْوَأِ الْأَمَكْنَةِ وَأَخْفَرِ الْمَوَاضِعِ لَفَعَلُوا، لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ لَكُمْ، فَلَا تَعْتَرُوا بِأَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ أَنْتُمْ وَمَعَكُمْ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢ / ٤٧٨) : ((﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ ، أَي: حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ ، وَحِرْزًا يَتَحَرَّزُونَ بِهِ ، ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ ، وَهِيَ النَّيِّ فِي الْجِبَالِ ، ﴿ أَوْ مُدْخَلًا ﴾ ، وَهُوَ السَّرْبُ فِي الْأَرْضِ وَالتَّفَقُّ . قَالَ ذَلِكَ فِي الثَّلَاثَةِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ . ﴿ لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ ، أَي: يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنْتَهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ، وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامٌ ، وَلِهَذَا لَا يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَخُزْنٍ وَغَمٍّ ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرِ وَرِفْعَةٍ ، فَلِهَذَا كَلَّمَا سُرَّ الْمُسْلِمُونَ سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، فَهُمْ يَوَدُّونَ أَنْ لَا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوْلَا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾)) .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٣٩٢) : ((وَإِنَّمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا قَامُوا بَيْنَ أَظْهُرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ ، وَلَمَّا هُمُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي قَوْمِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَفِي دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ وَفِرَاقِهِ ، فَصَانَعُوا الْقَوْمَ بِالتَّفَاقِ ، وَدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ بِالْكَفْرِ ، وَدَعَوَى الْإِيمَانِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ مَا فِيهَا مِنَ الْبُغْضِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَالعَدَاوَةِ لَهُمْ ، فَقَالَ اللَّهُ وَاصِفَهُمْ بِمَا فِي صَمَاتِهِمْ : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ الْآيَةَ)) .

٢٩_ البُخْلُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] ٢٣٣ .

٢٣٣ قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ (٨ / ٢٣٠) : ((قَالَ الْوَاحِدِيُّ : أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَانِعِي الرِّكَاتِ ، وَفِي صِحَّةِ هَذَا التَّنْقِيلِ نَظَرٌ . فَقَدْ قِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ، قَالَ ابْنُ =

ولا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ وَبُخْلَهُ يَنْفَاقُهُ يَنْفَعُهُ وَيُفِيدُهُ ، وَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ ، بَلْ هُوَ مَضْرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دُنْيَاهُ وَدِينِهِ . وَالْبُخْلُ شَرٌّ لَهُمْ لِأَنَّ أَمْوَالَهُمْ سَتْرُودٌ عَنْهُمْ ، وَيَبْقَى عَلَيْهِمْ وَبَالَ الْبُخْلِ ، وَهُمْ بِذَلِكَ يَسْتَحِقُّونَ عَذَابَ اللَّهِ . سَيَجْعَلُ اللَّهُ مَا بَخَلَ بِهِ الْبَخِيلُ (مَا مَنَعَهُ مِنَ الزَّكَاةِ) حَيَّةً فِي عُنُقِهِ تُطَوِّفُهُ وَتَنْهَشُهُ مِنْ فَوْقِهِ إِلَى قَدَمِهِ ، عُقُوبَةٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

واللهُ هو الباقي الدائم ، وجميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه . وتبقى الأملاك والأموال لله تعالى ، ولا مالك لها إلا الله تعالى . إنه سبحانه هو الحي الباقي بعد فناء خلقه وزوال ملكهم عما كانوا يملكون ، فلا يبقى وارث لها إلا هو سبحانه ، وإذا كان الأمر كذلك فلم يبخل مالكو الأموال بما أمرهم الله تعالى من الإنفاق وأداء الحقوق المتعلقة بها ؟!

والله مُطَّلِعٌ عَلَى أَعْمَالِ عِبَادِهِ ، يُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ .
وفي الآية تحريضٌ على بذل المال في سبيل الله ، وبيانٌ للوعيد الشديد لمن يبخل بماله .
إنَّ جَمْعَ الْبَخِيلِ لِلْمَالِ ، وَعَدَمَ تَأْذِيَةِ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ ، عَمَلِيَّةٌ خَاسِرَةٌ لَا تَعُودُ بِالنَّفْعِ وَلَا الْفَائِدَةِ ، بَلْ سَتَكُونُ عَلَيْهِ مَضْرَّةً فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ . وَالْبَخِيلُ حَارِسٌ نِعْمَتِهِ ، وَخَازِنٌ لَوْرَثَتِهِ ، فَهُوَ يَجْمَعُ الْمَالَ لَوْرَثَتِهِ حَارِمًا نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُ عَنْ مَالِهِ ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ . وَالْبَخِيلُ يَعِيشُ حَيَاةَ الْفُقَرَاءِ ، وَيُحَاسِبُ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٥٧٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ ، أَي : لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالَ يَنْفَعُهُ ، بَلْ هُوَ مَضْرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ ، وَرَبِّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ بَخَلُوا بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ أَنْ يُسَيِّئُوهَا ، رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَإِنْ دَخَلَ هَذَا فِي مَعْنَاهُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذَا أَوْلَى بِالذُّخُولِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، أَي : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلْنَاكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَاقْدَمُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، أَي : بِنِيَّاتِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ)) .

= جُرْحِيحٌ ، وَاخْتَارَهُ الرَّجَّاحُ ، وَقِيلَ : فَيَمَنْ يَبْخُلُ بِالنَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ ، وَقِيلَ : عَلَى الْعِيَالِ وَذِي الرَّجْحِ الْحَتَّاجِ ، نَعَمُ الْأَوَّلُ هُوَ الرَّاجِحُ ، وَإِلَيْهِ أُشَارَ الْبُخَّارِيُّ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥١٢ و ٥١٣) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ ، اختلفوا فيمن نزلت على قولين : أحدهما أنها نزلت في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم ، وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ، وابن عباس في رواية أبي صالح ، والشعبي ومجاهد ، وفي رواية السدي في آخرين . والثاني أنها في الأحرار الذين كتموا صفة النبي ﷺ ونُبوتَه ، رواه عطية عن ابن عباس ، وابن جريج عن مجاهد ، واختاره الزجاج . قال الفراء : ومعنى الكلام : لا يحسبن الباخلون البخل هو خيرًا لهم ، فاكتفى بذكر " يبخلون " من البخل ، كما تقول : قديم فلان ، فسرت به ، أي : سرتت بقدمه والذي آتاهم الله على قول من قال : البخل بالزكاة ، هو المال . وعلى قول من قال : البخل بذكر صفة النبي ﷺ هو العلم . قوله تعالى : ﴿ هُوَ ﴾ إشارة إلى البخل ، وليس مذكورًا ، ولكنه مدلول عليه بـ ﴿ يبخلون ﴾ . وفي معنى تطويقهم به أربعة أقوال : أحدها أنه يجعل كالحية يطوق بها الإنسان ، ... ، وهذا مذهب ابن مسعود ومقاتل . والثاني أنه يجعل طوقًا من نار ، رواه منصور عن مجاهد ، وإبراهيم . والثالث أن معنى تطويقهم به : تكليفهم أن يأتوا به ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد . والرابع أن معناه يلزم أعناقهم إثمَه ، قاله ابن قتيبة . قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، قال ابن عباس : يموت أهل السماوات وأهل الأرض ، ويبقى رب العالمين . قال الزجاج : حوَّطب القوم بما يعقلون ، لأنهم يجعلون ما رجع إلى الإنسان ميراثًا إذا كان ملكًا له . وقال ابن الأباري : معنى الميراث : انفراد الرجل بما كان لا ينفرد به ، فلما مات الخلق ، وانفرد عز وجل ، صار ذلك له وراثته .))

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فكلما هم المتصدق بصدقته اتسعت عليه حتى تُعْفَى أثره ، وكلما هم البخيل بالصدقة انقبضت كل حلقة إلى صاحبها وتقلصت عليه ، وانضمت يده إلى تراقيه _ فسمع النبي ﷺ يقول : _ فيجتهد أن يوسعها فلا تتسع)) [سبق تخريجه] .

الكريم المتصدق إذا هم بالصدقة انشرحت نفسه ، وامتدت يده بالعطاء دون تردد . أمَّا البخيل إذا هم بالصدقة فإن نفسه تنقبض ، ويتضيق نفسيًا ، ولا تطاوعه يده على الإنفاق . وهنا تبرز أهمية انتصار المرء على هواه وشهواته وطموحاته ، وصموده في وجه غريزة حب التملك ، وعشق المال . والصدقة هي المال الفائض عن حاجة النفس والعيال ، الذي يُخرجه العبد في وجوه البر ومجالات الخير ، وهي من أعظم العبادات ، وأفضل الطاعات ، وسبب السعادة في الدنيا والآخرة . أمَّا البخل (إمساك المال) فهو سبب الشقاء في الدنيا والآخرة .

صَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلًا لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ ، حَيْثُ شَبَّهَهُمَا بِرَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مَسْجُوتَانِ مِنَ الْحَدِيدِ ، وَالْجُبَّةُ كَالْعَبَاءِ ، تُلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ ، قَدْ أَلْجَأَتْ أَيْدِيَهُمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، وَلَصِقَتْ بِهَا ، كَأَنَّهَا مَعْلُولَةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمَا . وَالتَّرْفُوتَانِ عَظْمَانِ مُشْرِفَانِ فِي أَعْلَى الصَّدْرِ إِلَى جِهَةِ النَّحْرِ ، يَقَعَانِ بَيْنَ ثَغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى قِصْرِ الْجُبَّةِ عَلَى الْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ . وَكُلَّمَا هَمَّ الْمُتَّصِدِّقُ بِإِخْرَاجِ صَدَقَتِهِ ، اتَّسَعَتِ الْجُبَّةُ ، وَطَالَتْ عَلَيْهِ ، وَغَطَّتْ جَسَدَهُ ، حَتَّى تَمْحُوَ خُطْوَاتِهِ الَّتِي يَخْطُوهَا ، وَهَذَا بَيَانٌ لِشِدَّةِ طَوْلِهَا عَلَى صَاحِبِهَا .

وقال الحافظ في الفتح (٣ / ٣٠٦) : ((والمعنى أَنَّ الصَّدَقَةَ تَسْتُرُ خَطَايَاهُ كَمَا يُغْطِّي الثَّوْبُ الَّذِي يَجْرُ عَلَى الْأَرْضِ أَثَرَ صَاحِبِهِ إِذَا مَشَى بِمُرُورِ الذَّلِيلِ عَلَيْهِ)) .

وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَكُلَّمَا رَجَعَ عَنِ الصَّدَقَةِ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْجُبَّةُ ، وَانزَوَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ إِلَى صَاحِبَتِهَا ، وَالتَّصَقَّتْ بِجِلْدِهِ ، وَانضَمَّتْ يَدَاهُ إِلَى تَرَاقِيهِ ، فَيُحَاوِلُ أَنْ يُوسِّعَهَا بِيَدِهِ ، وَهِيَ شَدِيدَةٌ مُحْكَمَةٌ ، لَا تَتَّسِعُ . وَالْمَعْنَى أَنَّ الْكَرِيمَ الْمُتَّصِدِّقَ تَبْسِطُ نَفْسِهِ ، وَتَرْتَاحُ إِلَى الصَّدَقَةِ ، وَتَفْرَحُ بِهَا ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَتَضْيِقُ نَفْسُهُ ، وَتَنْقُبُضُ مِنَ الصَّدَقَةِ .

وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ أَهْمِيَةَ الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْمُتَّصِدِّقُ كُلَّمَا بَسَطَ يَدَهُ بِالْخَيْرِ ، بَسَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَضْلَهُ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ النِّعَمَ الْعَظِيمَةَ ، وَأَغْرَقَهُ فِي الْبَرَكَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، وَمَنَحَهُ أَعْضَاءَ مَا أَنْفَقَ . وَالْبَخِيلُ كُلَّمَا قَبَضَ يَدَهُ ، وَأَمْسَكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، وَامْتَنَعَ عَنِ الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ ، ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ حَيَاتَهُ بَوْرَةً لِلْبِئْسِ وَالْقَلْقِ وَالْخَوْفِ مِنَ الْفَقْرِ .

وفي فتح الباري (٣ / ٣٠٦ و ٣٠٧) عن رواية أُخْرَى لِلْحَدِيثِ : ((قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ : وَهَذَا مَثَلٌ صَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِلْبَخِيلِ وَالْمُتَّصِدِّقِ ، فَشَبَّهَهُمَا بِرَجُلَيْنِ أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَلْبَسَ دِرْعًا يَسْتَتِرُ بِهِ مِنْ سِلَاحِ عَدُوِّهِ ، فَصَبَّهَا عَلَى رَأْسِهِ لِيَلْبَسَهَا ، وَالْأُذُنُ أَوَّلُ مَا تَقَعُ عَلَى الصَّدْرِ وَالتَّيْدَيْنِ إِلَى أَنْ يُدْخَلَ الْإِنْسَانُ يَدَيْهِ فِي كُمَيْهَا ، فَجَعَلَ الْمُنْفِقُ كَمَنْ لَبَسَ دِرْعًا سَابِغَةً ، فَاسْتَرَسَلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى سَتَرَتْ جَمِيعَ بَدَنِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " حَتَّى تَعْفُوَ أَثْرَهُ " ، أَي : تَسْتُرُ جَمِيعَ بَدَنِهِ . وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كَمَثَلِ رَجُلٍ غُلَّتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، كُلَّمَا أَرَادَ لِيَلْبَسَهَا اجْتَمَعَتْ فِي عُنُقِهِ ، فَلَرِمَتْ تَرَافُوتَهُ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : " قَلَصَتْ " ، أَي : تَضَامَّتْ وَاجْتَمَعَتْ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْجَوَادِ إِذَا هَمَّ بِالصَّدَقَةِ انْفَسَحَ لَهَا صَدْرُهُ ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ ، فَتَوَسَّعَتْ فِي الْإِنْفَاقِ . وَالْبَخِيلُ إِذَا حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالصَّدَقَةِ شَحَّتْ نَفْسُهُ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ ، وَانْقَبَضَتْ يَدَاهُ . ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وَقَالَ الْمُهَلَّبُ : الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ يَسْتُرُ الْمُنْفِقَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِخِلَافِ الْبَخِيلِ ،

فإنه يفضحه . ومعنى تَعَفُو أثره : تَمَحُو خطاياها . وَتَعَقَّبَهُ عِيَاضُ بَأْنِ الْخَبْرِ جَاءَ عَلَى التَّمْثِيلِ لَا عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْ كَائِنٍ . قَالَ : وَقِيلَ : هُوَ تَمْثِيلٌ لِنَمَاءِ الْمَالِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْبُخْلُ بِضِدِّهِ. وَقِيلَ: تَمْثِيلٌ لِكَثْرَةِ الْجُودِ وَالْبُخْلِ، وَأَنَّ الْمُعْطَى إِذَا أُعْطِيَ انبَسَطَتْ يَدَاهُ بِالْعَطَاءِ وَتَعَوَّدَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَمْسَكَ صَارَ ذَلِكَ عَادَةً. وَقَالَ الطَّبِيُّ: قَبِدَ الْمُشَبَّهُ بِهِ بِالْحَدِيدِ إِعْلَامًا بِأَنَّ الْقَبْضَ وَالشَّدَّةَ مِنْ جِبَلَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَوْقَعَ الْمُتَصَدِّقَ مَوْقِعَ السَّخِيِّ لِكَوْنِهِ جَعَلَهُ فِي مُقَابَلَةِ الْبَخِيلِ، إِشْعَارًا بِأَنَّ السَّخَاءَ هُوَ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّارِعُ وَنَدَبَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِنْفَاقِ لَا مَا يَتَعَانَاهُ الْمُسْرِفُونَ)) .

وفي صحيح البخاري (٤ / ١٦٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مَثَّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ ، لَهُ زَبَيْتَانِ ، يُطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ _ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ _ يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ ، أَنَا كَنْزُكَ)) . ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا ، بَلَغَ النَّصَابَ الشَّرْعِيَّ الَّذِي تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ، فَلَمْ يُخْرِجْ زَكَاتَهُ ، مَثَّلَ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ ثُعْبَانٍ سَامٍ ، أَبْيَضِ الرَّأْسِ ، وَهُوَ مِنْ أخطرِ الثُّعْبَانِ ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَثُرَ سُمُّ الثُّعْبَانِ ابْيَضَّ رَأْسُهُ ، وَلِهَذَا الثُّعْبَانُ فَوْقَ عَيْنَيْهِ نُقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ ، فَيَصِيرُ الثُّعْبَانُ طَوَاقًا حَوْلَ عُنُقِهِ ، ثُمَّ يَمْسِكُ هَذَا الثُّعْبَانُ بِجَانِبِي فَمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ ، وَيَعْضُضُهُمَا ، وَيُفْرِغُ سُمَّهُ فِيهِمَا ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَنَا مَالُكَ _ وَقَدْ جَمَعَهُ وَحَرَسَهُ _ ، أَنَا كَنْزُكَ _ وَقَدْ حَفِظْتَهُ وَحَمَاهُ _ . وَهَذَا تَوْبِيخٌ شَدِيدٌ ، وَتَعْذِيبٌ مَعْنَوِي ، إِضَافَةٌ إِلَى التَّعْذِيبِ الْجَسَدِيِّ .

عَدَمُ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ يَقُودُ الْعَبْدَ إِلَى الْهَلَاكِ ، حَيْثُ يَصِيرُ مَالُهُ حَيَّةً ذَكَرًا بَلَ شَعْرٍ عَلَى الرَّأْسِ مِنْ كَثْرَةِ السُّمِّ . وَالزَّبَيْتَانِ هُمَا نَابَانِ يَخْرُجَانِ مِنْ فَمِهِ ، أَوْ نُقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ فَوْقَ عَيْنَيْهِ ، فَيَطَوِّفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَأْخُذُ بِشِدْقَيْهِ (الْعَظْمَيْنِ النَّاتِيَيْنِ تَحْتَ الْأُذُنَيْنِ) عُنُقِيَّةً وَعَدَابًا لَهُ ، وَيَقُولُ مُقَرَّعًا لَهُ : أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَيُؤَدِّ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا ، فَسَتَكُونُ نِقْمَةً وَوَبَالًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ تَقُودُهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ .

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِزَكَاتِ أَمْوَالِهِمْ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ، بَلْ هُوَ مَضْرَّةٌ لَهُمْ ، سَيُطَوِّفُونَ مَا بَخَلُوا بِزَكَاتِهِ مِنَ الْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِأَنْ يُجْعَلَ حَيَّةً فِي عُنُقِهِ تَنْهَشُهُ ، وَاللَّهُ يَرِثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَعْدَ فَنَاءِ أَهْلِهَا ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِأَعْمَالِ خَلْقِهِ ، وَسَيُجَازِيهِمْ بِهَا .

وقال الحافظ في الفتح (٣ / ٢٧٠) : ((قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْأَقْرَعُ مِنَ الْحَيَّاتِ الَّذِي ابْيَضَّ رَأْسُهُ مِنَ السُّمِّ ، وَمِنَ النَّاسِ الَّذِي لَا شَعْرَ بِرَأْسِهِ . قَوْلُهُ : (لَهُ زَبَيْتَانِ) تَشْبِيهُ زَبَيْبَةٍ ، ... ، وَهُمَا

الرَّيْدَتَانِ اللَّتَانِ فِي الشُّدْقَيْنِ ، يُقَالُ : تَكَلَّمَ حَتَّى رَيْدَ شِدْقَاهُ ، أَي : خَرَجَ الرَّيْدُ مِنْهُمَا ، وَقِيلَ : هُمَا التُّكَّتَانِ السُّودَاوَانِ فَوْقَ عَيْنَيْهِ ، وَقِيلَ : نُقْطَتَانِ يَكْتَسِفَانِ فَاهُ ، وَقِيلَ : هُمَا فِي حَلْقِهِ بِمَنْزِلَةِ رَنْمَتَيِ الْعَنْزِ ، وَقِيلَ : لَحْمَتَانِ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلُ الْقَرْنَيْنِ ، وَقِيلَ : نَابَانِ يَخْرُجَانِ مِنْ فِيهِ . قَوْلُهُ : (يَطْوُقُهُ) بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِ الْوَاوِ الثَّقِيلَةِ ، أَي : يَصِيرُ لَهُ ذَلِكَ التُّعْبَانِ طَوْقًا قَوْلُهُ : (بِلَهْزِمَتَيْهِ) ، . . . ، هُمَا الْعِظْمَانِ النَّاتِيَتَانِ فِي اللَّحْيَيْنِ تَحْتَ الْأُذُنَيْنِ ، وَفِي الْجَامِعِ : هُمَا لَحْمُ الْحَدِيدَيْنِ الَّذِي يَتَحَرَّكُ إِذَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ . قَوْلُهُ : (ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ) ، وَفَائِدَةُ هَذَا الْقَوْلِ الْحَسْرَةُ وَالزِّيَادَةُ فِي التَّعْذِيبِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ ، وَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّهَكُّمِ وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ يُصَيِّرُ نَفْسَ الْمَالِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ)) .

وقال عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : « سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، قال : ((تُعْبَانٌ لَهُ زَبَيْبَتَانِ يَنْهَشُهُ فِي قَبْرِهِ ، وَيَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ الَّذِي بَخِلْتَ بِهِ)) ٢٣٤ . هذه عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ لِمَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ ، حَيْثُ يَصِيرُ الْمَالُ الَّذِي بَخَلَ بِهِ تُعْبَانًا رَهِيْبًا يَلْدَعُهُ فِي قَبْرِهِ ، وَيُؤَيِّسُهُ .

وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] ٢٣٥ .

٢٣٤ رواه الحاكم في المستدرک (٣٢٦/٢) برقم (٣١٦٩)، وقال الذهبي: ((على شرط البخاري ومسلم)).
٢٣٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٨١ و ٨٢) : ((قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ ذَكَرَ الْمَفْسُورُونَ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، فَأَمَّا سَبَبُ نَزْوِهَا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ كَرْدَمُ بْنُ زَيْدٍ (خَلِيفَ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ) وَأَسَامَةُ بْنُ حَبِيبٍ، وَنَافِعُ بْنُ أَبِي نَافِعٍ، وَبَجْرِي بْنُ عَمْرٍو، وَحَيِّيُّ بْنُ أَخْطَبٍ، وَرِفَاعَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ التَّابُوتِ، يَأْتُونَ رِجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا يُجَالِطُونَهُمْ، وَيَتَتَّصِحُونَ لَهُمْ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: لَا تُنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكُمْ الْفَقْرَ فِي ذَهَابِهَا، وَلَا تُسَارِعُوا فِي النَّفَقَةِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا يَكُونُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَفِي الَّذِي بَخَلُوا بِهِ، وَأَمَرُوا النَّاسَ بِالْبُخْلِ بِهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْمَالُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ إِظْهَارُ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتُبُوَّتِهِ ، قَالَه مَجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَفِي الَّذِي آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَحْمَ الْيَهُودِ ، أُوتُوا عِلْمَ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَكْتَمُوهُ ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَالثَّانِي أَحْمَ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ بَخَلُوا بِهَا ، وَكْتَمُوا الْغِنَى ، ذَكَرَهُ الْمَاوَدِيُّ فِي آخِرِينَ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ ، قَالَ الرَّجَّاحُ : مَعْنَاهُ : جَعَلْنَا ذَلِكَ عَذَابًا لَهُمْ ، أَي : مُثَبَّتًا لَهُمْ)) .

إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الَّذِينَ يَمْنَعُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَأْمُرُونَ غَيْرَهُمْ
 بِعَدَمِ الْإِنْفَاقِ . أَيِ إِنَّهُمْ يَبْخُلُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَبِمَا فِي أَيْدِي غَيْرِهِمْ ، وَهَذَا أَسْوَأُ مَرَاتِبِ الْبُخْلِ ،
 وَيَدُلُّ عَلَى ذَنَاءَةِ النَّفْسِ وَحَقَارَتِهَا . وَالآيَةُ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْيَهُودِ ، كَانُوا يَأْمُرُونَ الْأَنْصَارَ بِعَدَمِ
 إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ فِي الْجِهَادِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَمَعَ هَذَا فَلَايَةُ عَامَّةٍ ، وَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ ، وَلَيْسَ
 بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٧٠٢) : ((وَالْبُخْلُ الْمَذْمُومُ فِي الشَّرْعِ هُوَ الْامْتِنَاعُ مِنَ
 آدَاءِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ . وَهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ضَمُّوا إِلَى مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الْبُخْلِ الَّذِي هُوَ
 أَشْرُ حِصَالِ الشَّرِّ مَا هُوَ أَقْبَحُ مِنْهُ ، وَأَدْلُ عَلَى سُقُوطِ نَفْسِ فَاعِلِهِ ، وَبُلُوغِهِ فِي الرَّذَالَةِ إِلَى غَايَتِهَا ،
 وَهُوَ أَنَّهُمْ مَعَ بُخْلِهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ ، وَكُتْمِهِمْ لِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾
 كَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ جُودِ غَيْرِهِمْ بِمَالِهِ حَرَجًا وَمَضَاضَةً _ وَالْمَضَضُ : وَجَعُ الْمُصِيبَةِ _ ،
 فَلَا كَثْرَ فِي عِبَادِهِ مِنْ أَمْثَالِكُمْ . هَذِهِ أَمْوَالِكُمْ قَدْ بَخَلْتُمْ بِهَا لِكُونِكُمْ تَطْتُونَ انْتِقَاصَهَا بِإِخْرَاجِ بَعْضِهَا
 فِي مَوَاضِعِهِ ، فَمَا بِالْكُمِ بِخَلْتُمْ بِأَمْوَالِ غَيْرِكُمْ ؟ ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَلْحَقُكُمْ فِي ذَلِكَ ضَرَرٌ ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا
 غَايَةَ اللَّؤْمِ وَنَهَايَةَ الْحُمُقِ وَالرَّفَاقَةِ _ يَعْنِي : الْحُمُقُ _ ، وَقُبْحُ الطَّبَاعِ ، وَسُوءُ الْاِخْتِيَارِ)) .

وَيُخْفُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَالْمَالِ وَالغِنَى ، وَيُخْفُونَ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ، وَقَدْ هَيَّأَ اللَّهُ
 لِلْجَاحِدِينَ نِعْمَتَهُ عَذَابًا مُؤَلِّمًا فِي النَّارِ ، يُخْزِيهِمْ وَيُذَلِّلُهُمْ وَيُهِينُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، كَمَا أَهَانُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
 فِي الدُّنْيَا ، وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ . وَالتَّوَعُّدُ بِالْعَذَابِ الْمُهِينِ لَهُمْ يَدُلُّ عَلَى ارْتِبَاطِ الْعَذَابِ
 بِالْإِهَانَةِ وَالدُّلِّ ، وَاقْتِرَانِهِ بِالخِزْيِ وَالْعَارِ ، وَهُوَ أَشَدُّ تَأْثِيرًا وَأَكْثَرُ صُعُوبَةً عَلَى الشَّخْصِ الْمُعَذَّبِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٦٠) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذَمًّا لِلَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ أَنْ
 يُنْفِقُوهَا فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقْرَابِ ، وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ،
 وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْحَارِ الْجُنْبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجُنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ
 الْأَرْقَاءِ ، وَلَا يَدْفَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ
 مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، فَالْبُخْلُ جُحُودٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ ، لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ ، وَلَا تَبِينُ ، لَا فِي مَأْكَلِهِ ،
 وَلَا فِي مَلْبَسِهِ ، وَلَا فِي إِعْطَانِهِ وَبَذْلِهِ وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
 مُهِينًا ﴾ ، وَالْكَفْرُ هُوَ السُّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ ، فَالْبُخْلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَيَكْتُمُهَا ، وَيَجْحَدُهَا ، فَهُوَ
 كَافِرٌ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى بُخْلِ الْيَهُودِ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِي
 عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكُتْمَانِهِمْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

رواه ابن إسحاق عن مُحَمَّد بن أَبِي مُحَمَّد، عَن عِكْرَمَة أَوْ سَعِيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، وقاله مُجاهد وغير واحد. ولا شكَّ أَنَّ الآيةَ مُحْتَمَلَة لذلك، والظاهر أَنَّ السِّيَاقَ فِي البُخْلِ بِالْمَالِ، وَإِنْ كَانَ البُخْلُ بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى الْأَقْرَابِ وَالصُّعْفَاءِ)) .

لَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ لَا يُخْرِجُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَبْذُلُونَهَا فِي طَاعَتِهِ، وَيَأْمُرُونَ غَيْرَهُمْ بِعَدَمِ الْإِنْفَاقِ . لَمْ يَكْتَفُوا بِعَدَمِ الْإِنْفَاقِ ، بَلْ أَيْضًا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ . إِنَّهُمْ يَبْخُلُونَ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَبِمَا فِي أَيْدِي غَيْرِهِمْ . إِنَّهُمْ ضَالُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَمُضِلُّونَ لِغَيْرِهِمْ فِي آنٍ مَعًا ، وَهَذَا مُنْتَهَى الضَّلَالِ وَالانْحِطَاطِ الْأَخْلَاقِي ، وَيَدُلُّ عَلَى فَسَادِ قُلُوبِهِمْ ، وَسُوءِ طِبَاعِهِمْ ، وَخِسَّةِ أَنْفُسِهِمْ .

نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ ، وَهُمْ مَشْهُورُونَ بِالْبُخْلِ ، وَعِبَادَةُ الْمَالِ وَتَقْدِيسُهُ . وَمَعَ هَذَا ، فَالآيَةُ عَامَّةٌ وَشَامِلَةٌ . وَالعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ ، وَلَيْسَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ . وَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ يَأْمُرُونَ الْأَنْصَارَ بِعَدَمِ إِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَ يُخَوِّفُونَهُمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ .

وَمَنْ أَنْفَقَ فَإِنَّمَا يُنْفِقُ لِنَفْسِهِ ، فَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ ، لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ ، فَهُوَ مَالِكُهُمْ وَمَالِكُهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَالِكٌ لِمَا مَلَكَهُمْ .

وَالْبُخْلُ الْمَدْمُومُ وَالْمُحَرَّمُ شَرْعًا : هُوَ عَدَمُ آدَاءِ حَقِّ اللَّهِ فِي الْمَالِ ، أَيْ : الْاِمْتِنَاعُ مِنْ آدَاءِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ فِي مَالِهِ . وَالْبُخْلُ مِنْ أَسْوَأِ الصِّفَاتِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْخِسَّةِ وَالنَّدَالَةِ وَالذَّنَاءَةِ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢١٣ / ١) : ((الْبُخْلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : مَنَعَ السَّائِلَ مِنْ فَضْلٍ مَا لَدَيْهِ . وَفِي الشَّرْعِ : مَنَعَ الْوَاجِبِ)) .

يُخْفُونَ آثَارَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيَجْحَدُونَهَا ، وَلَا يُظْهِرُونَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَالِ وَالْغِنَى . أَيْ إِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَا تَظْهَرُ فِي مَا كَلَّمَهُمْ، وَمَلَبَسَهُمْ، وَمُعَامَلَاتِهِمْ الْيَوْمِيَّةَ، وَعِلَاقَاتِهِمْ الْجَمَاعِيَّةَ . وَاللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ، فَهَذَا اعْتِرَافٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَشُكْرٌ لَهُ عَلَيْهَا . وَمِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ إِظْهَارُهَا وَإِسْنَادُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((... ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ))

[سبق تخريجه] .

وَيُخْفُونَ صِفَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ، وَيَكْتُمُونَ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ بِشَأْنِهِ . إِنَّهُمْ يُخْفُونَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا الْفَضْلُ يَتَجَلَّى فِي الْغِنَى وَالْعِلْمِ ، لِذَلِكَ كَانُوا جَدِيرِينَ بِالْحَزْبِ وَالْعَارِ ، وَمُسْتَحْقِينَ لِلْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

هِيَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ نِعْمَهُ، وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِهَا ، عَذَابًا أَلِيمًا شَدِيدًا يُخْزِبُهُمْ وَيُذَلُّهُمْ .
وَالْكَفْرُ هُوَ السُّتْرُ وَالنَّغْطِيَّةُ . وَالْكَافِرُ سَتَرَ نِعَمَ اللَّهِ وَأَخْفَاهَا وَجَحَدَهَا وَلَمْ يُظْهِرْهَا ، وَلَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ
عَلَيْهَا ، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعَمِ اللَّهِ ، مُهِينٌ لَهَا . لِذَلِكَ كَانَ جَزَاؤُهُ عَذَابَ النَّارِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُذَلُّهُ وَيُخْزِبُهُ
وَيُهِينُهُ ، كَمَا أَهَانَ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ، وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .
وَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ، لِلتَّسْجِيلِ عَلَيْهِمُ بِالْكَفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَبَيَانَ أَنَّ مَنْ كَتَمَ نِعَمَ اللَّهِ
وَجَحَدَهَا ، فَهُوَ كَافِرٌ لَهَا ، وَمُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُهِينُهُ كَمَا أَهَانَ نِعَمَ اللَّهِ وَاحْتَقَرَهَا .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٨٧) : ((﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ . وَضَعُ
الظَّاهِرِ فِيهِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، إِشْعَارًا بِأَنَّ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَمَنْ كَانَ كَافِرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ
فَلَهُ عَذَابٌ يُهِينُهُ ، كَمَا أَهَانَ النِّعْمَةَ بِالْبُخْلِ وَالْإِحْفَاءِ . وَالآيَةُ نَزَلَتْ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا
يَقُولُونَ لِلْأَنْصَارِ تَنْصِيحًا : لَا تُنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، فَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكُمْ الْفَقْرَ . وَقِيلَ : فِي الَّذِينَ كَتَمُوا
صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ)) .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((وَأَيُّ ذَاةٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ ؟)) ٢٣٦ .
أَيُّ عَيْبٍ أَفْبَحُ مِنْ أَنْ يُصَابَ الْإِنْسَانُ بِصِفَةِ الْبُخْلِ؟. وَالْبُخْلُ طَبَعٌ أَوْ خُلُقٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ
ذَاةً لِشِدَّةِ قُبْحِهِ وَشَنَاعَتِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَسْوَأِ الْخِصَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ . وَالْعَرَبُ تُعَيِّرُ الشَّخْصَ بِالْبُخْلِ .
وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٣٦٠) : ((أَيُّ عَيْبٍ أَفْبَحُ مِنْهُ ؟ ، وَأَيُّ مَرَضٍ أَعْظَمُ مِنْهُ ؟ ،
لَا شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ ، لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الْإِنْفَاقَ خَشِيئَةَ الْإِمْلَاقِ (الْإِفْتِقَارِ) لَمْ يُصَدِّقِ الشَّارِعَ (وَهُوَ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) ، فَهُوَ ذَاةٌ مُؤَلِّمٌ لِمَالِكِهِ فِي الْعُقْبَى ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤَلِّمًا فِي الدُّنْيَا ، فَتَشْبِيهِهِ
بِالدَّاءِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ مُفْسِدًا لِلدِّينِ ، مُورِثًا لَهُ سُوءَ الشَّنَاءِ ، كَمَا أَنَّ الدَّاءَ يُؤْوِلُ إِلَى طُولِ الضَّنَى
(الْمَرَضِ) وَشِدَّةِ الْعَنَاءِ ، وَمَنْ تَمَّ عَدُّ بَعْضِهِمْ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النِّسَاءُ : ١٢٨] .
جَبِلَتْ الْأَنْفُسُ عَلَى الشُّحِّ، وَهُوَ شِدَّةُ الْبُخْلِ مَعَ الْحِرْصِ . وَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ مَطْبُوعَةٌ عَلَى الشُّحِّ،
لَا تَنْفَصِلُ عَنْهُ أَبَدًا ، وَجُعِلَ الشُّحُّ حَاضِرًا لَهَا ، لَا يَغِيْبُ عَنْهَا أَبَدًا ، وَلَا تَنْفَكُ عَنْهُ . وَالآيَةُ تُوَضِّحُ
أَنَّ الشُّحَّ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَشْحَ بِحُكْمِ خَلْقَتِهِ وَجِبِلَّتِهِ .

٢٣٦ رواه الحاكم في المستدرک (٣ / ٢٤٢) برقم (٤٩٦٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الشوكاني فتح القدير (٧٨٦ / ١) : ((قوله : ﴿ وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ إخبار منه سبحانه بأن الشُّحَّ في كُلِّ واحدٍ منهما ، بَلَّ في كُلِّ الأنفُسِ الإنسانية كائن ، وأنه جُعِلَ كأنه حاضر لها ، لا يَغيب عنها بحالٍ من الأحوال ، وأنَّ ذلك بِحُكْمِ الجِبِلَّةِ والطبيعة ، فالرَّجُلُ يَشْحُ بما يَلْزَمه للمرأة من حُسْنِ العِشْرَةِ ، وحُسْنِ النَّفَقَةِ ، ونَحْوِهَا ، والمرأةُ تَشْحُ على الرَّجُلِ بحقوقها اللازمة للزَّوْجِ ، فلا تَتْرُكُ له شيئاً منها . وشُحُّ الأنفُسِ : بخلها بما يَلْزَمها ، أو يَحْسُنُ فِعْلُهُ بوجهٍ من الوجوه ، ومنه : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] ٢٣٧ .

مَنْ حَمَاهُ اللهُ مِنَ الْبُخْلِ فَقَدْ أَفْلَحَ فِي الدُّنْيَا ، وفازَ بالجنة يوم القيامة . وقال الواحدي في الوجيز (١٠٨٣ / ١) : ((﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ ﴾ ، مَنْ حَفِظَ مِنَ الْحِرْصِ الْمُهْلِكَ عَلَى الْمَالِ ، وهو حِرْصٌ يَحْمِلُهُ عَلَى إِسْكَاتِ الْمَالِ عَنِ الْحَقُوقِ وَالْحَسَدِ ، ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾)) . وفي صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٦) : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه : أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : ((... ، وَأَتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ)) .

يأمر النبي ﷺ بالحدَرِ مِنَ الشُّحِّ ، والابتعاد عنه ، وهو البُخْلُ بأداء الحُقُوقِ ، والحِرْصِ عَلَى ما لَيْسَ لَهُ . والشَّخْصُ الشَّحِيحُ حَرِيصٌ عَلَى الْمَالِ بِشَكْلِ جَنُونِي ، وهذا يَدْفَعُهُ إِلَى التَّفْكِيرِ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ لِلْحَصُولِ عَلَيْهِ وَتَخْزِينِهِ ، دون التَّمْيِيزِ بَيْنِ الطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ وَغَيْرِ الشَّرْعِيِّ . وقد يَحْمِلُهُ هَذَا الْهَوَسُ الْمَادِي عَلَى ارتكاب جرائم القتل واستحلال المحارم ، من أجل تنفيذ أحلامه المدمرة ، وتحقيق طموحاته القاتلة . ولا شَكَّ أَنَّ فِي بَذْلِ الْمَالِ وَمُسَاعَدَةِ النَّاسِ الْمَحَبَّةَ وَالتَّوَاصَلَ وَالتَّعَاوُفَ ، وَأَنَّ فِي الإِمْسَاكِ الشُّحَّ الْعِدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ وَالتَّقَاطِعَ ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى الشَّجَارِ ، وَسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَاسْتِبَاحَةِ الْمَحَارِمِ مِنَ الْفُرُوجِ وَالْأَعْرَاضِ ، وَالاسْتِيْلَاءِ عَلَى الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

٢٣٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٢١٥) : ((وقد اختلف العلماء في الشُّحِّ والبُخْلِ ، هل بينهما فرق أم لا . فقال ابن جرير : الشُّحُّ في كلام العرب هو مَنَعُ الْفَضْلِ مِنَ الْمَالِ . وقال أبو سليمان الخطَّابي : الشُّحُّ أَبْلَغُ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْبُخْلِ ، وإنما الشُّحُّ بِمَنْزِلَةِ الْجِنْسِ ، وَالبُخْلُ بِمَنْزِلَةِ النَّوْعِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ فِي الْبُخْلِ إِنَّمَا هُوَ فِي أَفْرَادِ الْأَمْوَالِ وَخَوَاصِّ الْأَشْيَاءِ ، وَالشُّحُّ عَامٌ فَهُوَ كَالْوَصْفِ لِلْإِنْسَانِ ، مِنْ قِبَلِ الطَّبَعِ وَالْجِبِلَّةِ ، وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : الْبُخْلُ أَنْ يَضُرَّ بِمَالِهِ ، وَالشُّحُّ أَنْ يَبْخَلَ بِمَالِهِ وَمَعْرُوفُهُ)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٤) : ((قال القاضي : يُحْتَمَلُ أَنْ هَذَا الْهَلَاكُ هُوَ الْهَلَاكُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ . وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكُ الْآخِرَةِ ، وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرَ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ جَمَاعَةٌ : الشُّحُّ أَشَدُّ الْبُخْلِ ، وَأَبْلَغُ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْبُخْلِ . وَقِيلَ : هُوَ الْبُخْلُ مَعَ الْحِرْصِ . وَقِيلَ : الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ ، وَالشُّحُّ عَامٌ . وَقِيلَ : الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوفِ . وَقِيلَ : الشُّحُّ الْحِرْصُ عَلَى مَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَالْبُخْلُ بِمَا عِنْدَهُ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ١٣٤ و ١٣٥) : ((وَاتَّقُوا الشُّحَّ) الَّذِي هُوَ بُخْلٌ مَعَ حِرْصٍ ، أَوْ مَنَعٍ الْوَاجِبِ ، أَوْ الْبُخْلِ بِمَا فِي يَدِ الْغَيْرِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ ، وَالضَّمُّ أَفْصَحُ ، أَي : اللُّومُ ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ كَزِيْرَةً حَرِيصَةً ، وَالْبُخْلُ أَعْمٌ ، فَقَدْ يَكُونُ بُخْلٌ وَلَا شُّحُّ نَمَّةً ، وَلَا يَنْعَكْسُ . قَالَ الطَّيْبِيُّ : فَالْبُخْلُ مُطْلَقُ الْمَنَعِ ، وَالشُّحُّ الْمَنَعُ مَعَ ظُلْمٍ الشُّحُّ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ ، . . . ، وَالشُّحُّ أَعْظَمُ أَنْوَاعِهِ ، لِأَنَّهُ مِنْ نَتَائِجِ حُبِّ الدُّنْيَا وَلَدَاتِهَا ، وَمِنْ نَمٍّ وَجْهَهُ يَقُولُهُ (فَإِنَّ الشُّحَّ) بِتَثْلِيثِ الشَّيْنِ (أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ) مِنَ الْأُمَّمِ (وَحَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ) أَي : أَسْأَلُوهَا بِالْقُوَّةِ الْعَضِيَّةِ بُخْلًا بِالْمَالِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْاِسْتِثْنَاءِ بِهِ (وَاسْتَحْلُوا مَحَارِمَهُمْ) أَي اسْتَبَاحُوا نِسَاءَهُمْ ، أَوْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَغَيْرِهَا ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ الْاِسْتِثْنَاءِ ، فَإِنَّ اسْتِحْلَالَ الْمَحَارِمِ جَامِعٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ ، وَعَطْفُهُ عَلَى سَفْكَ الدِّمَاءِ عَطْفٌ عَامٌ عَلَى خَاصٍ وَإِنَّمَا كَانَ الشُّحُّ سَبَبًا مَا ذُكِرَ لِأَنَّ فِي بَدَلِ الْمَالِ وَالْمُؤَاسَاةِ تَحَابُّبًا وَتَوَاصُلًا ، وَفِي الْاِمْسَاكِ تَهَاجُرًا وَتَقَاطُعًا ، وَذَلِكَ يَجْرُ إِلَى تَشَاجُرٍ وَتَعَادُرٍ ، مِنْ سَفْكَ الدِّمَاءِ ، وَاسْتِبَاحَةِ الْمَحَارِمِ وَأَنَّهُ _ أَي الشُّحُّ _ يُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى أَفْطَعِ الْمَفَاسِدِ ، حَيْثُ جَعَلَهُ حَامِلًا عَلَى سَفْكَ الدِّمَاءِ ، الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْأَفْعَالِ الذَّمِيمَةِ ، وَأَخْبَثُ الْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ : الشُّحُّ مُسَابِقَةُ قَدْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ سَابَقَ قَدَرَ اللَّهِ سَبَقَ ، وَمُغَالَبَةُ اللَّهِ ، وَمَنْ غَالَبَ الْحَقَّ غُلِبَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَرِيصَ يُرِيدُ أَنْ يَنَالَ مَا لَمْ يَقْدِرْ لَهُ ، فَعُقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا الْحَرَمَانُ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْخُسْرَانُ)) اهـ . وَعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ فَسَأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وَإِنِّي أَمْرٌ مَا قَدَرْتُ ، وَلَا يَخْرُجُ مِنْ يَدَيَّ شَيْءٌ ، وَقَدْ حَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَنِي هَذِهِ الْآيَةُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : ((ذَكَرْتُ الْبُخْلَ ، وَبَسَسَ الشَّيْءُ الْبُخْلُ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، فَلَيْسَ كَمَا قُلْتَ ، ذَلِكَ أَنْ تَعَمَدَ إِلَى مَالٍ غَيْرِكَ أَوْ مَالٍ أَخِيكَ فَتَأْكُلَهُ)) [سَبَقَ تَخْرِيجُهُ] .

اعتبر الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ البُخلَ ليس هو المقصود في الآية ، وإنما المقصود أكل أموال الناس بالباطل (أخذ أموالهم بالطُّرق غير المشروعة) . وهذا تفرُّيقٌ بين الشُّحِّ والبُخلِ .

وفي جمهرة خطب العرب (١ / ٢١٤) أن عُمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ قال في خطبة له : ((واعلموا أنَّ بعض الشُّحِّ _ يعني البُخلِ _ شُعبَةٌ مِنَ النَّفاقِ ، فأنفقوا خَيْرًا لأنفسكم ، ومن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ ، فأولئك هم المفلحون)) .

الشُّحُّ (البُخلُ) خِصْلَةٌ مَذمومة عند جميع الأمم . وقد كان العربُ يُعَيِّرُونَ البُخْلَاءَ ، فتصبح هذه الصِّفةُ وصمةً عارٍ بين القبائل والأقوام . والبُخلُ يعكس ضعف اليقين ، وشِدَّةَ التعلُّقِ بِمَتَاعِ الدُّنيا الفاني وخطأها الزائل ، والرُّعْبَ مِنَ المُستقبل المجهول ، والخَوْفَ على الرِّزْقِ الذي تكفَّل اللهُ بِحِفْظِهِ . ورزقُ العبدِ لن يأخذه غَيْرُهُ ، فَعَلَيْهِ أن يطمئن ، ويأخذ بالأسباب ، ويتعدى عن القلق . الشُّحُّ أصلُ المعاصي ، وهو البُخلُ بأداء الحقوق والواجبات المائيَّة ، مع الحرص على ما ليس له ، وهو نوعٌ مِنَ الظُّلمِ . وقيل : البُخلُ يَصْلُحُ وَصْفُهُ لأشياءَ بَعِيْنها ، أمَّا الشُّحُّ فهو عام ، فيكون مَثَلًا البُخلُ في المال ، والشُّحُّ في كُلِّ شيءٍ ، فيكون الشُّحُّ صِفةً لازمةً للشخص ، بخلاف البُخلِ فيكون صِفةً لبعض أفعال الشخص .

وقد أهلك الشُّحُّ الأمم السابقة ، وقضى عليهم ، حيث حَمَلَهُمْ وَبَعَثَهُم الشُّحُّ والحرصُ على الدُّنيا على أن سَفَكُوا وأراقوا دِمَاءَ بعض ، واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ، أي : جميع ما حَرَّمَ اللهُ عليهم أو بَعْضَهُ ، كما حَرَّمَ اللهُ الشُّحُومَ على اليهود ، والصَّيْدَ يومَ النَّسَبِ ، إلا أنَّهم استباحوا ما نُهِوا عنه . وقد يكون المراد باستحلال مَحَارِمِهِمْ ، أنَّهم اتَّخَذُوا ما حَرَّمَ اللهُ مِنْ نِسَائِهِمْ حَلَالًا ، أي : فَعَلُوا بِهِنَّ الفاحشةَ .

وعن عبد الله بن عمرو قال : خَطَبَ رسولُ اللهِ ﷺ ، فقال : ((إِيَّاكُمْ والشُّحُّ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالشُّحِّ ، أَمَرَهُمُ بالبُخْلِ فَبِخَلُوا ، وَأَمَرَهُمُ بالقَطِيعَةَ فَفَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمُ بالفُجُورَ فَفَجَرُوا))^{٢٣٨} .

٢٣٨ رواه أبو داود في سننه (١ / ٥٣٠) برقم (١٦٩٨) . ودَكَرَ العراقي في تخرُّج الإحياء (٣ / ١٩٣) أنَّ هذا الحديث رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن جِبَّانَ والحاكم وصحَّحه . وفي عَوْنِ المعبود (٥ / ٧٩) : ((والحديث صحَّحه الحاكم ، وأقرَّوه ، واللهُ أعلمُ . قال المنذري : وأخرجه النسائي)) اهـ . وقال المُناوي في فيض القدير (٣ / ١٢٥) : ((قال الحاكم : صحيح ، وأقرَّه الذهبي)) .

يُحَدِّرُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشُّحِّ ، وَهُوَ أَشَدُّ الْبُخْلِ ، فَسَبَبُ هَلَاكِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ عِنْدَمَا تَمَلَّكَهُمُ الشُّحُّ ، لِأَنَّهُ تَسَبَّبَ لَهُمْ فِي فُسُوقٍ عَظِيمٍ ، أَمَرَهُمُ الشُّحُّ بِالْبُخْلِ بِالْأَمْوَالِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، وَفَبَجَلُوا ، وَأَمَرَهُمُ الشُّحُّ بِقَطِيعَةِ الرَّجْمِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، فَفَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمُ الشُّحُّ بِالْفُجُورِ ، وَهُوَ الْعِصْيَانُ وَالْفِسْقُ وَالْغُرُقُ فِي الْمَعَاصِي ، أَوْ هُوَ الرِّئَا ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، فَفَجَرُوا ، فَكَانَ بَدَايَةُ هَلَاكِهِمْ هُوَ الِاسْتِجَابَةُ لِلشُّحِّ وَعَدَمُ مُقَاوَمَتِهِ ، فَأَهْلَكَهُمْ ، وَقَضَى عَلَيْهِمْ . وَالشُّحُّ أَصْلُ الْمَعَاصِي ، لِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، فَحَصَرَ الْفَلَاحَ عَلَيْهِمْ .

وَفِي عَوْنِ الْمَعْبُودِ (٧٩ / ٥) : ((فَقَالَ : يَاكُمْ وَالشُّحُّ) قَالَ الْخَطَّابِيُّ : الشُّحُّ أُنْبَغُ فِي الْمَنْعِ مِنَ الْبُخْلِ ، وَإِنَّمَا الشُّحُّ بِمَنْزِلَةِ الْجِنْسِ ، وَالْبُخْلُ بِمَنْزِلَةِ النَّوْعِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ : الْبُخْلُ إِنَّمَا هُوَ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ وَخَوَاصِ الْأَشْيَاءِ ، وَالشُّحُّ عَامٌ هُوَ كَالْوَصْفِ لِلْإِنْسَانِ مِنْ قَبْلِ الطَّبَعِ وَالجِبِلَّةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْبُخْلُ أَنْ يَضُنَّ بِمَالِهِ وَبِمَعْرُوفِهِ ، وَالشُّحُّ أَنْ يَبْخُلَ بِمَالِهِ . انْتَهَى . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : الشُّحُّ أَشَدُّ الْبُخْلِ ، وَهُوَ أَنْبَغُ فِي الْمَنْعِ مِنَ الْبُخْلِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْبُخْلُ مَعَ الْحِرْصِ ، وَقِيلَ : الْبُخْلُ فِي أَفْرَادِ الْأُمُورِ وَآحَادِهَا ، وَالشُّحُّ عَامٌ . وَقِيلَ : الْبُخْلُ بِالْمَالِ ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوفِ ، وَالاسْمُ الشُّحُّ قَالَ الْخَطَّابِيُّ : وَالْفُجُورُ هَاهُنَا الْكَذِبُ . وَأَصْلُ الْفُجُورِ الْمَيْلُ وَالانْحِرَافُ عَنِ الصِّدْقِ . وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ فَاجِرٌ ، وَقَدْ فَجَرَ أَي انْحَرَفَ عَنِ الصِّدْقِ) .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١٢٥ / ٣) : ((يَاكُمْ وَالشُّحُّ) الَّذِي هُوَ قَلَّةُ الْإِفْضَالِ بِالْمَالِ ، فَهُوَ فِي الْمَالِ خَاصَّةٌ ، أَوْ عَامٌ زِدِيفُ الْبُخْلِ أَوْ أَشَدُّ وَإِذَا صَحِبَهُ حِرْصٌ أَوْ مَنْعٌ الْوَاجِبُ أَوْ أَكَلَ مَالَ الْغَيْرِ أَوْ الْعَمَلَ بِالْمَعَاصِي (فَإِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) مِنَ الْأُمَّمِ (بِالشُّحِّ) كَيْفَ وَهُوَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ (أَمَرَهُمُ بِالْبُخْلِ فَبَجَلُوا) بِكَسْرِ الْخَاءِ (وَأَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ) لِلرَّجْمِ (فَفَقَطَعُوا) وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَ اللَّهُ عَنْهُ رَحْمَتَهُ وَإِفْضَالَه (وَأَمَرَهُمُ بِالْفُجُورِ) أَي : الْمَيْلَ عَنِ الْقَصْدِ وَالسَّدَادِ وَالانْبِعَاطِ فِي الْمَعَاصِي (فَفَجَرُوا) أَي أَمَرَهُمُ بِالرِّئَا فَرَزَنُوا . وَالْحَاصِلُ أَنَّ الشُّحَّ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِه يُخَالِفُ الْإِيمَانَ ﴿ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ [الْأَحْزَابُ : ١٩] . وَمِنْ ثَمَّ وَرَدَ : لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبٍ أَبَدًا . قَالَ الْمَاورِدِيُّ : وَيَنْشَأُ عَنِ الشُّحِّ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ وَإِنْ كَانَتْ ذَرِيعَةً إِلَى كُلِّ مَذْمُومٍ أَرْبَعَةٌ أَخْلَاقٌ نَاهِيكَ بِهَا دَمًا : الْحِرْصُ وَالشَّرُّ وَسُوءُ الظَّنِّ وَمَنْعُ الْحُقُوقِ . فَالْحِرْصُ شِدَّةُ الْكُدْحِ وَالْجَهْدِ _ الْمَشَقَّةِ _ فِي الطَّلَبِ ، وَالشَّرُّ اسْتِقْلَالُ الْكِفَايَةِ وَالِاسْتِكْثَارُ بِغَيْرِ حَاجَةٍ ، وَهَذَا فَرَقَ مَا بَيْنَ الْحِرْصِ وَالشَّرِّ . وَسُوءُ الظَّنِّ عَدَمُ الثَّقَةِ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا ، وَالخَاتِمَةُ مَنْعُ الْحُقُوقِ ، لِأَنَّ نَفْسَ الْبَخِيلِ لَا تَسْمَحُ بِفِرَاقِ مَحْبُوبِهَا ، وَلَا تَنْقَادُ إِلَى تَرْكِ مَطْلُوبِهَا ، وَلَا تُدْعِنُ

للحَقِّ ، ولا تُجِيب إلى إنصاف . وإذا آل الشُّحُّ إلى ما وُصِفَ مِنْ هذه الأخلاق المذمومة ، والشِّيمِ اللثيمة ، لَمْ يَبْقَ مَعَهُ خَيْرٌ مَوْجُودٍ ، ولا صلاح مأمول)) .
 وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

والذين يَجْمَعُونَ الأموال ، ويحفظون الثَّرَوَات ، ولا يُؤدُّون حَقَّ اللَّهِ مِنْهَا ، أي : لا يُخْرِجون زَكَاتَهَا ، فأخبرهم أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا مُوجِعًا فِي الآخِرَةِ ، وهو عذاب النار .

و(يَكْنِزُونَ) مِنَ الكَنْزِ ، وهو كُلُّ شَيْءٍ مَجْمُوعٍ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، فِي بَطْنِ الأَرْضِ أَوْ عَلَى ظَهْرِهَا .
 أمَّا الكَنْزُ _ شرعًا _ فهو كُلُّ مالٍ لَمْ تُخْرَجْ زَكَاتُهُ . أمَّا المال الذي أُخْرِجَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٢٨ و ٤٢٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ ، اخْتَلَفُوا فِيْمَنْ نَزَلَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ عَامَّةً فِي أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ ، قاله أَبُو ذَرٍّ وَالضَّحَّاكُ . والثاني أَنَّهَا خَاصَّةٌ فِي أَهْلِ الكِتَابِ ، قاله مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ . والثالث أَنَّهَا فِي الْمُسْلِمِينَ ، قاله ابن عباس والسُّدِّي . وفي الكَنْزِ المُسْتَحَقُّ عَلَيْهِ هَذَا الوَعِيدُ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ لَمْ تُؤدَّ زَكَاتُهُ ، قال ابن عُمر : كُلُّ مالٍ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ ، وَإِنْ كانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ ، فَلَيْسَ بِكَنْزٍ ، وَكُلُّ مالٍ لا تُؤدَّى زَكَاتُهُ ، فهو كَنْزٌ ، وَإِنْ كانَ ظاهِرًا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، وَإِلَى هَذَا المَعْنَى ذهب الجمهور ، فعلى هذا مَعْنَى الإنفاق إخراج الزكاة . والثاني أَنَّهُ ما زادَ عَلَى أربعة آلاف ، رُوِيَ عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قال : أربعة آلاف نَفَقَةٌ ، وما فَوْقَها كَنْزٌ . والثالث ما فَضَّلَ عَنِ الحَاجَةِ ، وكانَ يَجِبُ عَلَيْهِمُ إِخْرَاجُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الإِسْلامِ ، ثُمَّ نَسَخَ بِالزَّكَاةِ . فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ قال : ﴿ يُنْفِقُونَهَا ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ شَيْئِينَ ؟ ، فعنه جوابان : أَحَدُهُما أَنَّ المَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى الكُنُوزِ والأموال . والثاني أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الفِضَّةِ ، وَخُدِفَ الذَّهَبُ ، لِأَنَّهُ داخِلٌ فِي الفِضَّةِ ، قال الشاعر :
 نَحْنُ بِما عِندنا وَأَنْتَ بِما ... عِندَكَ راضٍ والرَّأيُ مُخْتَلَفٌ . يُريدُ : نَحْنُ بِما عِندنا راضون ، وَأَنْتَ بِما عِندَكَ راضٍ ، ذَكَرَ القَوْلَيْنِ الرَّجَاحَ)) .

والجدير بالذكر أنَّ الآية : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، قد قَرَنَتْ بَيْنَ الكانِزِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَبَيْنَ المُرتَشِينَ مِنَ أَهْلِ الكِتَابِ ، تَغْلِيظًا عَلَى الكانِزِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ ، وَلِيَبَيِّنَ أَنَّ مَنْ يَأْكُلُ المَالَ الحَرَامَ مِنَ اليَهُودِ والنصارى ، وَمَنْ لا يُخْرِجُ زَكَاةَ مالِهِ مِنَ المُسْلِمِينَ سِوَاءَ فِي اسْتِحْقاكِ البِشْارَةِ بِعَذابِ النارِ المُؤَلِّمِ .

والآية : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على طريقة التَّهَكُّم ، لأنَّ حقيقة التَّبَشِير هو الإخبار بما يَسُرُّ وَيَنْفَع ، أمَّا التَّبَشِير بالعذاب فيدلُّ بوضوح على التَّهَكُّم .
وفي سنن ابن ماجه (١ / ٥٦٩) أن ابن عمر قال : ((ما أبالي لو كان لي أخذ ذهبًا ، أعلمُ عدده ، وأزكّيه ، وأعملُ فيه بطاعة الله عزَّ وجلَّ)) .

وفي صحيح البخاري (٢ / ٥٠٩) : عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال أعرابيٌّ : أخبرني قول الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . قال ابن عمر _ رضي الله عنهما _ : ((مَنْ كَنَزَهَا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا ، فَوَيْلٌ لَهُ ، إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنَزَلَ الزَّكَاةُ ، فَلَمَّا أَنْزَلَتْ جَعَلَهَا اللَّهُ طَهْرًا لِلْأَمْوَالِ)) .

المال زينة الحياة الدنيا ، وقد بيّن النبي ﷺ الحقوق الواجبة على مَنْ مَلَكَ مَالًا وافرًا ، من الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَةِ ، وبيّن ما له من الفضل والأجر على ذلك ، كما بيّن عقوبة مانع هذه الحقوق .
ومن أذى زكاة ماله ، وعمل فيه بطاعة الله ، فإن هذا المال يُبارك الله فيه ، ويكون طريقًا للعبد إلى نعيم الجنة الأبدية . والمشكلة ليست في المال والذهب والفضة ، وإنما في الشخص الذي لا يُؤدِّي حقَّ الله فيها . والمال سلاح ضروري ومهم ، ونعم المال الصالح للعبد الصالح .

بيّن عبد الله بن عمر _ رضي الله عنهما _ أن المراد بالآية هم الذين يجمعون الذهب والفضة ويكنزونهما ، ولم يؤدوا حقَّ الله فيهما من الزكاة والصدقة ، ولم يفقهوا في سبيل الله تعالى ، فبشّرهم بعذاب موجه لهم يوم القيامة . وكان ذلك قبل أن تُفرض الزكاة ، وكان الله حذر الأغنياء أولًا من إمساك الأموال وكنزها وادّخار الثروات ، وعدم إنفاقها في الطاعات ، فلما فرضت الزكاة بعد الهجرة في السنة الثانية ، جعل الله الزكاة والصدقات تطهيرًا للأموال التي يملكها الأغنياء ، وحصنًا لها ، تحفظها وتحميها ، وتنقيه لهم من البخل ومساوي الأخلاق . وأصبح ما زاد عن الزكاة حلالًا طيبًا لمالكة ، يتصرف به كما يريد .

وسياق الحديث يشعر أن كنز الذهب والفضة كان مُحَرَّمًا على الإطلاق ، ثم نسيخ ذلك بفرض الزكاة . وحين نزلت الزكاة بمقادير مُحدّدة ، صارت تطهيرًا للأموال ، وصيانة لها . والزكاة هي حارسه للمال تصونه من التلّف ، وتحميها من الضياع ، وتقود صاحبها إلى رضا الله تعالى .

والكنز هو كل مال لم يتم إخراج زكاته . وجريمته عدم إخراج الزكاة تُعرض صاحبها للغضب الإلهي الشديد ، والعذاب في الآخرة . والحريصون على الذهب والفضة يحرسونها بالأظافر والأسنان ، ولا يؤدّون حقَّ الله فيهما ، سيموتون ، ويتركون أموالهم _ رَغْمًا عنهم _ لورثتهم ،

يقتسمونها ، ويتمتعون بها . إنَّهُمْ يَحْرُسُونَ الْأَمْوَالَ لِلْآخِرِينَ فَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا ، وَهُمْ الَّذِينَ سَوْفَ يُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا ، ويكون مصيرهم إلى عذاب النار الشديد ، وهذا يدلُّ على عمى البصيرة .
 وقال الحافظ في الفتح (٢٧٣ / ٣) : ((قوله : " إنما كان هذا قبل أن تُنزلَ الزكاة " ، هذا مُشعرٌ بأنَّ الوعيد على الاكتناز ، وهو حبس ما فضلَ عن الحاجة عن المُواساة به ، كان في أول الإسلام ، ثُمَّ نُسِخَ ذلك بِفَرْضِ الزكاة ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ الْفُتُوحَ ، وَفُتِّرَتْ نُصُوبُ الزكاة ، فعلى هذا المراد بنزول الزكاة بيان نُصُوبِها ومقاديرها ، لا إنزال أصلها ، واللَّهُ أَعْلَمُ)) .
 وعن ثوبان قال : لَمَّا أَنْزَلَتْ ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : قَدْ نَزَلَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ مَا نَزَلَ ، فَلَوْ أَنَّا عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ اتَّخَذْنَاهُ ، فَقَالَ : ((أَفْضَلُهُ لِسَانًا ذَاكِرًا ، وَقَلْبًا شَاكِرًا ، وَزَوْجَةً مُؤْمِنَةً تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ)) ٢٣٩ .

كان الصحابة _ رضي الله عنهم _ حريصين على سؤال النبي ﷺ عما ينفعهم في دنياهم ، وينالون به الأجر والدَّرَجَاتِ الْعُلْيَا فِي الْجَنَّةِ . وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ كُنْزِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وعدم إنفاقهما في طاعة الله تعالى ، سأل الصحابة ما الذي يكون صحيحًا وحسنًا أن يدخر ليكون عونًا عند الحوائج . وقد بين النبي ﷺ أن أفضل شيء وأنفعه : لسان ذاكِرٍ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَحْمَدُهُ وَيَسْتَغْفِرُهُ وَيَمْدَحُهُ ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ : قَلْبٌ يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَى نِعَمِهِ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ : تكون له عونًا على طاعة الله تعالى ، وتذكره بالعبادات والطاعات ، وتمنعه من الذُّنُوبِ وَالْمُحَرَّمَاتِ ، وتُوقِرُّ لَهُ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ .

وخصت هذه الأشياء المذكورة في الإجابة ، لأنه لا شيء للرجل أنفع منها ، وهي أمور مطلوبة عنده ، ونفعها دائم ، ونفع الأموال زائل .

وهذا الجواب يدلُّ على حكمة النبي ﷺ ، ويُعَدُّ نَظْرَهُ . ويجب على كل مؤمن أن يتعلَّق بنعيم الآخرة الباقي ، فيسأل عما ينفعه ، ولا يجعل قلبه محصورًا في متاع الدنيا الفاني . وأموال الدنيا كُلُّهَا لَا تَخْلُو عَنْ شَرٍّ . وفي فيض القدير (٣٥٠ / ٥) : ((قال حجة الإسلام : فَأَمَرَ بِاقتناء القلب الشاكر وما معه بدلًا من المال)) .

٢٣٩ رواه أحمد في مسنده (٢٧٨ / ٥) واللفظ له ، والترمذي في سننه (٢٧٧ / ٥) وحسنه ، وابن ماجه في سننه (٥٩٦ / ١) .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذى (٨ / ٣٩٠) : ((قوله : (فقال بعض أصحابه : أنزلت في الذهب والفضة) أي هذه الآية ، وعرفنا حكمهما ومدمتهما ، (لو علمنا) لو للتمني (أي المال خير) مبتدأ وخبر ، والجمله سدت مسد المفعولين لعلمنا تعليقا (فتتخذة) منصوب بإضمار أن بعد الفاء ، جوابا للتمني . قيل : السؤال وإن كان من تعيين المال ظاهرا ، لكنهم أرادوا ما ينتفع به عند تراكم الحوائج ، فذلك أجاب عنه بما أجاب ، ففيه شائبة عن الجواب عن أسلوب الحكيم (فقال : أفضله) أي أفضل المال أو أفضل ما يتخذه الإنسان قتيبة (لسان ذاك) أي بتمجيد الله تعالى وتقديسه وتسيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده وتلاوة القرآن (وقلب شاكرا) أي على إناعمه وإحسانه (وزوجة مؤمنة تُعينه على إيمانه) أي على دينه ، بأن تُذكره الصلاة والصوم وغيرهما من العبادات ، وتمنعه من الرنى وسائر المحرمات)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فُدُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٥] .

يَوْمَ يُوقَدُ عَلَى الْكُنُوزِ (الذهب والفضة التي لا تُنفق في سبيل الله) في نار جهنم ، شديدة الحرارة ، فحرق بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . وخصت هذه المواضع بالذكر لأن الخيل عندما يرى الفقير قادمًا ، يقطب جبهته ، فإذا جاءه عرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان أدار له ظهره . ويُقال لهم توبيخًا وتهكمًا : هذا ما كنزتموه وأدخرتموه لأنفسكم ، لتستفيدوا منه ، وتتفعدوا به ، فذوقوا وبالَه ، وسوء عاقبته . لقد قادهم منع حق الله في أموالهم إلى عذاب النار الشديد .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٤٣٠) : ((قوله تعالى : ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ فيه محذوف تقديره : ويُقال لهم : هذا ما كنزتم لأنفسكم ، ﴿ فذوقوا ما كنزتم ﴾ ، أي : عذاب ذلك . فإن قيل : لِمَ خصَّ الجباه والجنوب والظهور من بقية البدن ، فالجواب أن هذه المواضع مُحَوَّفة ، فيصل الحرُّ إلى أجوافها ، بخلاف اليد والرجل . وكان أبو ذر يقول : بشر الكنازين بكِّي في الجباه ، وكِّي في الجنوب ، وكِّي في الظهر ، حتى يلتقي الحرُّ في أجوافهم . وجواب آخر ، وهو أن الغني إذا رأى الفقير انقبض ، وإذا ضمَّه وإياه مجلس أزرَّ عنه ، وولاه ظهره ، قاله أبو بكر الوراق)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٤٣) : ((﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ، أي : يَوْمَ تُوقَدُ النار ذات حمي شديد عليها . وأصله تُحْمَى بالنار ، فجعل الإحماء للنار مُبَالَغَةً ، ثم حذفت النار ، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود ، فانتقل من صيغة التأنيث

إلى صيغة التذكير، وإنما قال: ﴿ عَلِيَّهَا ﴾ ، والمذكور شيئان، لأنَّ المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة، كما قال علي رضي الله تعالى عنه : أربعة آلاف وما دونها نفقة ، وما فوقها كنز . . . ﴿ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ، لأنَّ جَمْعَهُمْ وإمساكهم إيَّاه كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعُّم بالمطاعم الشهيَّة والملابس البهيَّة ، أو لأنَّهم أزرُّوا (مالوا) عن السائل ، وأعرَضُوا عنه ، وولَّوهُ ظُهُورَهُمْ ، أو لأنَّها أشرف الأعضاء الظاهرة ، فإنَّها المُشتملة على الأعضاء الرئيسية ، التي هي الدَّمَاع والقلْب والكَيْد ، أو لأنَّها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن وماخيره وجنبايه ، ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ على إرادة القول ﴿ لأنفسكم ﴾ لمنفعتها ، وكان عَيْن مَضْرَبَتِهَا، وسبب تعذيبها ، ﴿ فذوقوا ما كنتم تكذبون ﴾ ، أي : وبإل كنزكم ، أو ما تكذبونه .

وفي صحيح مسلم (٢ / ٦٨٠) عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدِّي منها حقَّها ، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتَّى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله ، إمَّا إلى الجنة، وإمَّا إلى النار)) .
مَنْ كَانَ يَمْلِكُ مَالًا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ، وَيَكْنِزُهَا ، وَلَا يُخْرِجُ الزَّكَاةَ ، فَإِنَّ هَذَا الْمَالَ يُحَوَّلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صَفَائِحٍ مِنْ حَدِيدٍ ، أَوْ مِنْ نَفْسِ الْمَعْدِنِ الَّذِي يَكْنِزُهُ ، وَيُسَخَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَتُوضَعُ عَلَى جَسَدِهِ ، وَكُلَّمَا خَفَّتْ سُخُونَتُهَا وَبَرَدَتْ ، أُعِيدَتْ تُسَخِّنُهَا ، حَتَّى تُصْبِحَ شَدِيدَةَ الْحَرَارَةِ ، وَيُعَذَّبُ طِيلَةَ مُدَّةِ يَوْمِ الْحِسَابِ (يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيَعْرِفُ مَصِيرَهُ ، إمَّا أَنْ يُعَامِلَهُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يُعَامِلَهُ بِعَدْلِهِ فَيُدْخِلَهُ النَّارَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ٦٤) : ((هذا الحديث صريح في وجوب الزكاة في الذهب والفضة ، ولا خلاف فيه)) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [التوبة : ٧٦] .
فلَمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَغْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، مَنْعُوا حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ ، وَبَخِلُوا بِالْإِنْفَاقِ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَهُمْ قَوْمٌ عَادَتُهُمُ الْإِعْرَاضُ عَنِ الطَّاعَةِ ، وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهِ . أَوْ : تَوَلَّوْا بِإِجْرَامِهِمْ ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ بِقُلُوبِهِمْ . لَمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ، وَأَعْطَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ الْمَالِ ، بَخِلُوا بِهِ ، وَمَنْعُوا حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَتَصَدَّقُوا ، وَلَمْ يُنْفِقُوا مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَنَكَّثُوا عَهْدَهُمْ مَعَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَلْتَمِزُوا بِهِ ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَاتِ وَإِخْرَاجِ الصَّدَقَاتِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْ عَهْدِهِمْ ، وَهُمْ مُصْرِطُونَ عَلَى الْإِعْرَاضِ ، وَالْإِعْرَاضُ هُوَ دَيْدُنُهُمْ وَعَادَتُهُمْ وَطَرِيقَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٥٥٩) : ((﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ، أي : لَمَّا أعطاهم ما طَلَبُوا مِنَ الرَّزْقِ بَخِلُوا بِهِ ، أي : بما آتاهم مِنْ فَضْلِهِ ، فَلَمَّ يَتَصَدَّقُوا بشيءٍ مِنْهُ كَمَا حَلَفُوا بِهِ ، ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ ، أي : أَعْرَضُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وإِخْرَاجِ صَدَقَاتِ مَا أعطاهم اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، والحَالُ أَنَّهُمْ ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ فِي جميع الأوقات قَبْلَ أَنْ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مَا أعطاهم مِنَ الرَّزْقِ وَبَعْدَهُ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٩٢) عن الآيات ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ من سُورَةِ التَّوْبَةِ : ((يَقُولُ تَعَالَى : وَمِنَ الْمُتَنَفِّسِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ لِنِ اَعْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لِيَصَّدَّقَنَّ مِنْ مَالِهِ ، وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فما وَفَى بِمَا قَالَ ، ولا صَدَقَ فِيما ادَّعَى ، فأَعْقَبَهُمْ هَذَا الصَّنِيعُ نِفَاقًا سَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ ، إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، عِيادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ)) .

وقال اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنُّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] ٢٤٠ .

لَوْ كَانَ النَّاسُ يَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رِزْقِ اللَّهِ وَنِعْمِهِ الَّتِي تَفَضَّلَ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ ، لَبَخِلُوا بِهَا ، وَاِمْتَنَعُوا عَنِ الْإِنْفَاقِ خَوْفًا مِنْ نَفَادِهَا ، وَلَمَّا أَطْعَمُوا أَحَدًا شَيْئًا . أَي إِنَّهُمْ يَمْتَنَعُونَ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْخَزَائِنَ لَا تَفْرُغُ وَلَا تَنْفَدُ أَبَدًا ، لِأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعِ النَّاسِ وَسَجَايَاهُمْ . وَكَانَ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا مُبَالِغًا فِي الْبُخْلِ ، وَمُمْسِكًا عَنِ الْإِنْفَاقِ ، لِأَنَّ حَيَاتِهِ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَاجَةِ ، وَالْتِمَسْكَ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَانْتِظَارِ الْعَوَظِ بِمَا يَبْدُلُهُ . وَفِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَفْنَى ، فَهُوَ لَوْ مَلَكَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ ، لِأَمْسَكَ خَشْيَةَ الْفَقْرِ . وَالْإِنْسَانُ مَجْبُولٌ عَلَى الْبُخْلِ وَالْإِمْسَاكِ عَنِ الْإِنْفَاقِ . فَحُبُّ الْمَادَّةِ وَالتَّلَقُّ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَحُطَامِهَا الزَّائِلِ يُسَيِّطِرَانِ عَلَى تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ . كَمَا أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْفَقْرِ يُمَثِّلُ هَاجِسًا حَيَاتِيًّا لَهُ ، وَيُطَارِدُهُ كَالْكَابُوسِ ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفَقْرِ هُوَ عَيْنُ الْفَقْرِ .

٢٤٠ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥ / ٩١ و ٩٢) : ((وفي هذه الخزائن قولان : أحدهما خزائن الأرزاق ، والثاني خزائن النعم ، فيخرج في الرحمة قولان : أحدهما الرزق ، والثاني النعمة ، وتحرير الكلام : لَوْ مَلَكَتُمْ مَا يَمْلِكُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَمْسَكْتُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْفَاقَةِ (الْحَاجَةِ) ، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ ﴾ يعني الكافر ﴿ قَتُورًا ﴾ أي بخيلًا مُمسِكًا وقال الماوردي : لَوْ مَلَكَ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ خَزَائِنِ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا جَادَ كَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ يُمْسِكَ مِنْهُ لِنَفَقَتِهِ وَمَنْفَعَتِهِ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ يَخَافُ الْفَقْرَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهُ فِي جُودِهِ عَنِ الْحَالِئِينَ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٢٩١) : ((قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ ، أي : خزائن الأرزاق ، وقيل : خزائن النعم ، وهذا أعم ، ﴿ إِذَا لَأْمَسْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ مِنَ الْبُخْلِ وقيل : المعنى : لَوْ مَلَكَ أَحَدُ الْمَخْلُوقِينَ خَزَائِنَ اللَّهِ لَمَا جَادَ بِهَا كَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَمْرَيْنِ : أحدهما : أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُمَسِكَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ وَمَا يَعُودُ بِمَنْفَعَتِهِ . الثاني : أَنَّهُ يَخَافُ الْفَقْرَ وَيَخْشَى الْعَدَمَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَعَالَى فِي جُودِهِ عَنِ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ . وَالْإِنْفَاقُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى الْفَقْرِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أَي : بَخِيلًا مُضَيِّقًا واختلف في هذه الآية على قَوْلَيْنِ : أحدهما : أَنَّهُا نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً ، قَالَ الْحَسَنُ . والثاني : أَنَّهُا عَامَّةٌ ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَذَكَرَهُ الْمَوَارِدِيُّ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٦٩) : ((﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ خزائن رزقه ، وسائر نعمه ﴿ إِذَا لَأْمَسْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ لَبَحَلْتُمْ مَخَافَةَ النَّفَادِ بِالْإِنْفَاقِ ، إِذْ لَا أَحَدٌ إِلَّا وَيَخْتَارُ لِنَفْسِهِ ، وَلَوْ آثَرَ غَيْرَهُ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّمَا يُؤَثِّرُهُ لِعَوَضِ يَفُوقِهِ ، فَهُوَ إِذْ بَخِيلٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى جُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ ، هَذَا وَإِنِ الْبُخْلَاءُ أَغْلَبَ فِيهِمْ ﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ بَخِيلًا ، لِأَنَّ بِنَاءَ أَمْرِهِ عَلَى الْحَاجَةِ وَالضَّنَّةِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَمُلاحِظَةِ الْعَوَاضِ فِيهَا يَبْدُلُهُ)) .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [مُحَمَّدٌ : ٣٨] .

يا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ لِلْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَعْنِي مَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ، وَقَدْ كَلَّفْتُمْ مَا تُطَبِّقُونَ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ بِمَا فَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، وَيُمْسِكُ عَنِ بَدْلِ الْمَالِ ، وَمَنْ يَبْخُلْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا يَنْفَعُهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَيَضُرُّهَا أَشَدَّ الضَّرَرِ ، لِأَنَّهُ يَمْنَعُهَا الْأَجْرَ وَالتَّوَابَ . وَنَفْعُ الْإِنْفَاقِ وَضُرُّ الْبُخْلِ عَائِدَانِ إِلَى الْعَبْدِ ، وَاللَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ . وَاللَّهُ الْغَنِيُّ عَنْكُمْ وَعَنْ أَمْوَالِكُمْ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ ، وَمُحْتَاجُونَ إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ . وَاللَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ فَقِيرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا . وَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ فَهُوَ لِحَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ ، وَيُحَقِّقُ مَصْلَحَتَكُمْ وَمَنْفَعَتَكُمْ ، فَإِنْ امْتَسَلْتُمْ لِأَمْرِ اللَّهِ ، فَالْنَفْعُ لَكُمْ ، حَيْثُ تَنَالُونَ رِضَا اللَّهِ وَأَجْرَهُ الْعَظِيمَ ، وَإِنْ أَعْرَضْتُمْ فَالضَّرَرُ عَلَيْكُمْ ، حَيْثُ تَسْتَحِقُّونَ غَضَبَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ . وَإِنْ تَعَرَّضُوا عَنْ طَاعَتِهِ وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ ، يُخْلِفُ مَكَانَكُمْ قَوْمًا آخَرِينَ ، أَطْوَعُ لِلَّهِ مِنْكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ، بَلْ خَيْرًا مِنْكُمْ . أَي : لَا يَكُونُونَ مِثْلَكُمْ فِي

البُخْلُ عَنِ الْإِنْفَاقِ ، بَلْ يَكُونُونَ كُرْمَاءَ أَسْخِيَاءَ ، يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَا يَكُونُونَ مِثْلَكُمْ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، بَلْ يَكُونُونَ مُطِيعِينَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَهُمْ الْفُرْسُ . وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطَبِيِّ (١٦ / ٢١٩) : ((قَالَ الْمُحَاسِبِيُّ : فَلَا أَحَدَ بَعْدَ الْعَرَبِ مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْأَعَاجِمِ أَحْسَنَ دِينًا وَلَا كَانَتْ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ إِلَّا الْفُرْسُ)) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ جَادَ سَادَ ، وَأَنْ مَنَعَ الْمَوْجُودَ سُوءَ ظَنٍّ بِالْمَعْبُودِ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٦١) : ((« هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » أَي: هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي الْجِهَادِ وَفِي طَرِيقِ الْخَيْرِ « فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ » بِمَا يُطَلَبُ مِنْهُ ، وَيُدْعَى إِلَيْهِ ، مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِذَا كَانَ مِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَالِ ، فَكَيْفَ لَا تَبْخُلُونَ بِالكَثِيرِ وَهُوَ جَمِيعُ الْأَمْوَالِ ؟ . ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ ضَرَرَ الْبُخْلِ عَائِدٌ عَلَى النَّفْسِ ، فَقَالَ : « وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ » ، أَي : يَمْنَعُهَا الْأَجْرَ وَالنَّوَابِ بِبُخْلِهِ « وَاللَّهُ الْغَنِيُّ » الْمَطْلُوقُ الْمُتَنَزَّهُ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى أَمْوَالِكُمْ « وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ » إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَجُمْلَةٍ « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » وَالْمَعْنَى : وَإِنْ تَعَرَّضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا آخَرِينَ يَكُونُونَ مَكَانَكُمْ هُمْ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » فِي التَّوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى . قَالَ عِكْرَمَةُ : هُمْ فَارِسُ وَالرُّومِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هُمْ الْعَجَمُ . وَقَالَ شُرَيْحُ بْنُ عُبَيْدٍ : هُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ . وَقِيلَ الْأَنْصَارُ . وَقِيلَ : الْمَلَائِكَةُ ^{٢٤١} . وَقِيلَ : التَّابِعُونَ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ سَائِرِ النَّاسِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْمَعْنَى : « ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » فِي الْبُخْلِ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)) .

وَفِي صَحِيحِ ابْنِ جَبَّانَ (١٦ / ٦٢) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » [مُحَمَّدٌ : ٣٨] ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِنْ تَوَلَّيْنَا اسْتَبْدَلُوا بِنَا ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا ؟ ، فَضَرَبَ عَلَيَّ فِخْذِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ، ثُمَّ قَالَ : ((هَذَا وَقَوْمُهُ ، لَوْ كَانَ الدِّينُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسٍ)) .

مَعْنَى الْآيَةِ : إِنْ تَتَوَلَّوْا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ يَسْتَبْدِلْ بِكُمْ مَنْ يَكُونُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ سَأَلَ الصَّحَابَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ النَّبِيُّ ﷺ : مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ " إِنْ تَوَلَّيْنَا " ، أَي : إِنْ نَحْنُ قَصَرْنَا وَخَالَفْنَا وَأَعْرَضْنَا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، " اسْتَبْدَلُوا بِنَا " ، أَي : يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ آخَرِينَ

٢٤١ هذا القول فيها بُعد ، لأنه لا يُقال للملائكة قوم ، إنما يُقال ذلك للآدميين .

يَنْصُرُونَ دِينَهُ ، وَيُعَظِّمُونَهُ ، " ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَنَا " ، أَي : يَكُونُوا خَيْرًا مِنَّا ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَيْحِذِ الصَّحَابِيِّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ ، لِلإِشَارَةِ لَهُ ، وَالإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَقَوْمَهُ الْفُرسَ ، وَأَنَّ الدِّينَ لَوْ كَانَ عِنْدَ الثُّرَيَّا (النَّجْمِ الْمَعْرُوفِ) ، لِأَخْذِهِ وَحَصَلَّهُ رِجَالٌ مِنْ فَارسَ ، وَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَى حِرْصِهِمْ ، وَشِدَّةِ مَا يَبْذُلُونَهُ لِخِدْمَةِ هَذَا الدِّينِ .

وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ وَالْوَعِيدَ ، وَإِنْ كَانَ لِلصَّحَابَةِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ ، إِلَّا أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ سَيَخْلُقُهُمْ وَيَأْتِي بَعْدَهُمْ ، مِمَّنْ قَدْ يَجُوزُ تَوَلِّيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَكُونُ بِتَوَلِّيهِ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْوَعِيدِ ، وَيَكُونُ حَرِيًّا بِوُقُوعِهِ بِهِ ، لِأَنَّ الصَّحَابَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ هُمْ خَيْرَتُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ ، وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ ، مَا لَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَعَهُ فِي الدُّنْيَا التَّوَلَّى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ . وَفِي الْحَدِيثِ : فَضَلُّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِهِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ ائْتَمَلَ طَاعَةَ اللَّهِ وَنُصْرَةَ دِينِهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، فَازَ وَرَبِحَ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَتَوَلَّى ، فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ .

وَقَالَ الْمُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ٣٢٢ و ٣٢٣) : ((لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا) نَجْمِ مَعْرُوفٍ (لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارسَ) ، وَأَشَارَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَقَالَ فِي مُعْجَمِ الْبُلْدَانِ : الْعَرَبُ إِذَا ذَكَرَتِ الْمَشْرِقَ كُلَّهُ قَالُوا : فَارسَ ، فَعَنَى فِي الْحَدِيثِ أَهْلَ خُرَّاسَانَ ، لِأَنَّكَ إِذَا طَلَبْتَ مِصْدَاقَ الْحَدِيثِ فِي فَارسَ لَمْ تَجِدْهُ لِأَوْلَى وَلَا آخِرًا ، وَتَجِدُ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَفْسَهَا فِي أَهْلِ خُرَّاسَانَ ، دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ رَغْبَةً ، وَمِنْهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالتَّبَلَاءُ وَالمُحَدِّثُونَ وَالمُتَعَدِّدُونَ ، وَإِذَا حَرَزَتْ المُحَدِّثِينَ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ وَجَدْتَ نِصْفَهُمْ مِنْ خُرَّاسَانَ ، وَجُلَّ رِوَاةِ الرِّجَالِ مِنْهَا ، وَأَمَّا أَهْلُ فَارسَ فَكُنَّا رِجَالًا لَمْ يَبْقَ لَهُمْ بَقِيَّةٌ بِذِكْرِ وَلَا شَرَفٍ (لَوْ كَانَ الْعِلْمُ مُعَلَّقًا بِالثُّرَيَّا لَتَنَاوَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَبْنَاءِ فَارسَ) فِيهِ كَالَّذِي قَبْلَهُ فَضِيلَةٌ لَهُمْ ، وَتَنْبِيهُ عَلَى غُلُوِّ هِمَمِهِمْ . قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ : وَقَدْ بَيَّنَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَنَحْوِهِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِالأَسْمَاءِ الَّتِي حَمَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَذَمَّهَا ، كَالْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ ، وَالمُؤْمِنِ وَالكَافِرِ ، وَالبَرِّ وَالفَاجِرِ . وَقَدْ جَاءَ الْكِتَابُ بِمَدْحِ بَعْضِ الأَعَاجِمِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ [الْجُمُعَةُ] . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أَنَّهُمْ مِنْ أَبْنَاءِ فَارسَ . وَرُوِيَتْ آثَارٌ كَثِيرَةٌ فِي فَضَائِلِ رِجَالِ فَارسَ كَالْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ وَعِكْرَمَةَ إِلَى أَنْ وَجِدَ مَعَهُمْ مِنَ الْمُبَرِّزِينَ فِي الدِّينِ وَالعِلْمِ حَتَّى صَارُوا أَفْضَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ . وَالفَضْلُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ اتِّبَاعُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا مِنَ الْإِيمَانِ وَالعِلْمِ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ فِيهِ أَمْكَنَ كَانَ أَفْضَلَ .))

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ((السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ)) ٢٤٢ .

الكرِيمُ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ النَّاسِ ، وَكَرَمُهُ يُقَرِّبُهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَيُبعدُهُ عَنِ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ وَمِنَ النَّاسِ ، وَيُخَلُّهُ يُقَرِّبُهُ إِلَى النَّارِ . وَكَرَمُ الرَّجُلِ يُحِبِّبُهُ إِلَى أَصْدَادِهِ وَأَعْدَائِهِ ، وَيُخَلُّهُ يُعْضُّهُ إِلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ . وَالكَرِيمُ يُفُوزُ بِرِضَا اللَّهِ وَحُبِّهِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ جَاهِلًا ، بَلَّ إِنَّهُ يَصِيرُ بِسَبَبِ كَرَمِهِ أَحَبًّا إِلَى اللَّهِ مِنَ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ ، فَالْجَاهِلُ الْكَرِيمُ يَسْتَجِيبُ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي ، بِخِلَافِ الْعَابِدِ الْبَخِيلِ .

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٤ / ١٣٨ و ١٣٩) : ((السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ) أَي : مِنْ رَحْمَتِهِ وَتَوَابِهِ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ قُرْبَ الْمَسَافَةِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْهُ ، إِذْ لَا يَخْلُ الْجِهَاتِ ، وَلَا يَنْزِلُ الْأَمَاكِنَ ، وَلَا تَكْتَفِيهِ الْأَقْطَارُ (قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ) أَي مِنْ مَحَبَّتِهِمْ فَالْمُرَادُ قُرْبَ الْمَوَدَّةِ (قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ) لِسَعْيِهِ فِيمَا يُدْنِيهِ مِنْهَا وَسُلُوكِهِ طَرِيقَهَا فَالْمُرَادُ هُنَا قُرْبَ الْمَسَافَةِ ، وَذَلِكَ جَائِزٌ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ، وَقُرْبُهُ مِنْهَا بَرَفْعِ الْحِجَابِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، وَبُعْدُهُ عَنْهَا كَثْرَةُ الْحُجُبِ ، فَإِذَا قَلَّتْ الْحُجُبُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الشَّيْءِ ، قَلَّتْ مَسَافَتُهُ . أَنْشُدْ بَعْضَهُمْ :

يَقُولُونَ لِي دَارُ الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ وَأَنْتَ كَتِيبٌ إِنَّ ذَا لَعَجِيبُ
فَقُلْتُ وَمَا تُغْنِي دِيَارٌ قَرِيبَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبُ

... (بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ) أَي مِنْ رَحْمَتِهِ (بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ) . وَقَالَ الْغَزَالِيُّ : وَالْبُخْلُ ثَمَرَةُ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَالسَّخَاءُ ثَمَرَةُ الرُّهْدِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَى الثَّمَرَةِ ثَنَاءٌ عَلَى الْمُثْمَرِ لَا مَحَالَةَ ، وَالسَّخَاءُ يَنْشَأُ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ وَالثَّقَّةِ بِوَعْدِ اللَّهِ وَضَمَانِهِ لِلرِّزْقِ ، وَهَذِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةِ التَّوْحِيدِ ، الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْحَدِيثُ ، وَالْبُخْلُ يَنْشَأُ مِنَ الشَّرْكَ

٢٤٢ رواه الترمذي في سننه (٤/٣٤٢)، وقال: ((حديث غريب)). وقال الهيثمي في الجمع (٣/٣١٥): ((رواه الطبراني في الأوسط وفيه سعيد بن محمد الوزراق وهو ضعيف)) اهـ. وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٤ / ١٣٨) : ((... سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْوَزْرَاقِ ، قَالَ الذَّهَبِيُّ : ضَعِيفٌ ، وَتَبِعَهُ الْهَيْثَمِيُّ ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ جِبَّانَ : الْحَدِيثُ غَرِيبٌ . وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ : تَفَرَّدَ بِهِ سَعِيدُ الْوَزْرَاقِ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ، أَه . لَكِنْ هَذَا لَا يُوجِبُ الْحُكْمَ بِوَضْعِهِ كَمَا ظَنَّهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ)) .

وهو الوقوف مع الأسباب ، والشك في الوعد . قال الطيبي : التعريف في السخي والبخيل للعهد الذهني ، وهو ما عُرفَ شرعاً أنّ السخي من هو ، والبخيل من هو ، وذلك أنّ من أدى الزكاة ، فقد امتثل أمر الله ، وعظمه ، وأظهر الشفقة على خلقه ، وواساهم بماله ، فهو قريب من الله ، وقريب من الناس ، فلا تكون منزلته إلا الجنة ، ومن لم يكن كذلك فبالعكس ، ولذلك كان جاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل ، كما قال : (ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل) فحولف ليُفيد أنّ الجاهل غير العابد السخي أحب إلى الله من العابد العالم البخيل ، فبها لها من حسنة عظمت على عبيّن عظيمين ، وبها لها من سيئة حطت حسنتين خطيرتين ، على أنّ الجاهل السخي سريع الانقياد إلى ما يُؤمر به من نحو تعلم ، وإلى ما يُنهى عنه ، بخلاف العالم البخيل .

__ تنبيه __ قال الراغب : من شرف السخاء والجود أنّ الله قرّن اسمه بالإيمان ، ووَصَفَ أهله بالفلاح ، والفلاح أجمع لسعادة الدارين ، وحقّ للجود أن يقترن بالإيمان ، فلا شيء أخص منه به ، ولا أشدّ مُجانسة له ، فمن صفة المؤمن انشراح الصدر : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وهما من صفة الجواد والبخيل ، لأنّ الجواد يُوصف بسعة الصدر ، والبخيل بضيقة . اهـ . ومن أحسن ما قيل فيه :

تراه إذا ما جنته مُتهللاً كأنك تُعطيه الذي أنت سائله

__ وصدق الشاعر __ :

تعوّد بسط الكفّ حتى لو أنه أراد انقباضاً لم تُطعمه أنامله

ولو لم يكن في كفه غير روجه لجاد بها فليتيق الله سائله

__ تنبيه __ قال ابن العربي : قوله : " ولجاهل سخي " إلخ . مُشكِل يُباعد الحديث عن الصحة مُباعدة كثيرة ، وعلى حاله فيُحتمل أنّ معناه أنّ الجهل قسمان : جهل بما لا بُدّ من معرفته في عمله واعتقاده ، وجهل بما يعود نفعه على الناس من العلم ، فأما المُختص به فعابد بخيل خير منه ، وأما الخارج عنه فجاهل سخي خير منه ، لأنّ الجهل والعلم يعود إلى الاعتقاد ، والسخاء والبخل إلى العمل ، وعقوبة ذنب الاعتقاد أشدّ من ذنب العمل)) .

وقال ابن حبان في روضة العقلاء (١ / ٢٣٥) : ((فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى من حطام هذه الدنيا الفانية ، وعلم زوالها عنه ، وانقلابها إلى غيره ، وأنّه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدّم من الأعمال الصالحة ، أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله ، والقيام بالواجب في أسبابه ، مُبتغياً بذلك الثواب في العقبى ، والدُّكر الجميل في الدنيا ، إذ السخاء محبة ومحمدة ،

كما أنَّ البخل مَذَمَّةٌ وَمَبْعَصَةٌ ، ولا خَيْرَ في المال إلا مع الجود ، كما لا خَيْرَ في المنطق إلا مع المَخْبِرِ (الجَوْهَرِ) . ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري :

الجودُ مَكْرَمَةٌ والبخلُ مَبْعَصَةٌ لا يَسْتَوِي البخلُ عِنْدَ اللَّهِ والجودُ
والفقرُ فِيهِ شُحُوصٌ والغِنَى دَعَةٌ والناسُ فِي المَالِ مَرْزُوقٌ وَمَحْدُودٌ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ [النجم : ٣٣] ٢٤٣ .
أفرايتَ يا مُحَمَّدُ هذا الفاجرَ الأثيمَ الذي أَعْرَضَ عن الإيمانِ ، وَاتَّبَعَ الحَقَّ والهُدَى ، وَتَوَلَّى
عَن الخَيْرِ ؟ .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٥٣٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : أفرايتَ يا مُحَمَّدُ الذي أدبرَ
عن الإيمانِ باللهِ ، وأَعْرَضَ عنه وعن دينه)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ [النجم : ٣٤] .
وأعطى صاحبه الذي عيَّره قليلاً من المال المشروط (المُسَمَّى) ، ثُمَّ مَنَعَ الباقي ، وَبَخَلَ به .
وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ١٦١) : ((﴿ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ ، أي أعطى
عطاءً قليلاً ، أو أعطى شيئاً قليلاً ، وَقَطَعَ ذلك ، وأمسك عنه . وأصلُ (أكْدَى) من الكُدْيَةِ ،
وهي الصَّلابَةُ . يُقَالُ لِمَنْ حَفَرَ بئراً ، ثُمَّ بَلَغَ فِيهَا إلى حَجَرٍ لا يَتَهَيَّأُ له فِيهِ حَفْرٌ : قد أكْدَى ، ثُمَّ
استعملته العرب لِمَنْ أعطى فَلَمْ يُتِمِّمْ ، وَلِمَنْ طَلَبَ شيئاً فَلَمْ يَبْلُغْ آخِرَه)) .

٢٤٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ٧٧ و ٧٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ ،
اِخْتَلَفُوا فِيْمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الوليد بن المُغِيرَةَ ، وكان قد تَبِعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ على
دينه ، فَعَيَّرَه بعضُ المشركين ، وقال : تَرَكْتَ دِينَ الأَشْيَاحِ وَضَلَلْتَهُمْ ؟ ، قال : إِيَّيَّيْ حَشِيبُ عَذَابِ اللَّهِ ،
فَضَمِنَ له إنْ هو أعطاه شيئاً من ماله ، وَرَجَعَ إلى شِرْكِهِ ، أن يتحملَ عنه عَذَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَفَعَلَ ،
فأعطاه بعضَ الذي ضَمِنَ له ، ثُمَّ بَخَلَ وَمَنَعَه ، فَنَزَلَتْ هذه الآية ، قاله مُجاهدُ وابن زَيْدٍ . والثاني أَنَّهُ
النَّضْرُ بن الحارث ، أعطى بعضَ الفقراء المسلمين خَمْسَ قلائصَ — خَمْسَ نُوقِ شَابَّةٍ — ، حتى ارتدَّ عَن
إسلامه ، وَضَمِنَ له أن يَحْمِلَ عنه إثمَه ، قاله الصَّحَّاحُ . والثالث أَنَّهُ أبو جَهْلٍ ، وذلك أَنَّهُ قال : واللَّهِ ما
يأمرنا محمد إلا بمكارم الأخلاق ، قاله محمد بن كَعْبِ القُرظي . والرابع أَنَّهُ العاص بن وائل السَّهْمِي ،
وكان رُبَّمَا وافق رسولَ اللَّهِ ﷺ فِي بعضِ الأُمُورِ ، قاله السُّدي)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المَعَارِج : ١٨] .

هذا وعيدٌ شديد لمن جمع المال ، فأمسكه في وعائه ، وبخل به ، ولم يؤدِّ حقَّ الله منه .
وقال الطبري في تفسيره (٢٣٣ / ١٢) : ((قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ ، يقول : وجمع مالا ،
فجعل في وعاء ، ومنع حقَّ الله منه ، فلم يُزكِّ ، ولم يُنفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه)) .
وقال ابن كثير في تفسيره (٥٤١ / ٤) : ((﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ ، أي : جمع المال بعضه
على بعض فأوعاه ، أي : أوكاه ، ومنع حقَّ الله منه ، من الواجب عليه في النَّفَقَات ، ومن إخراج
الزكاة وكان عبد الله بن عُكَيْم لا يربط له كيسا ، ويقول : سمعتُ الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ
فَأَوْعَى ﴾ . وقال الحسن البصري : يا ابن آدم ، سمعتُ وعيد الله ، ثم أوعيت الدنيا . وقال قتادة
في قوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ ، قال : كان جموعا قومًا للخبث)) .

وعن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنهما _ أنها جاءت إلى النبي ﷺ ، فقال : ((لا تُوعي
فيُوعي الله عليك)) ٢٤٤ .

كان النبي ﷺ يُرشد أُمَّتَه إلى معالي الأمور من الأقوال والأفعال ، وكان يعظ الناس بحسب
حاجتهم . وقد جاءت أسماء بنت أبي بكر الصديق _ رضي الله عنهما _ إلى النبي ﷺ تسأله عن
الصدقة ، فقال لها : " لا تُوعي " ، من وعيت الشيء ، إذا حفظته أو جعلته في وعاء ، والمعنى :
لا تدخري المال وتُمسكي عن إنفاقه في سبيل الله تعالى ، والتصدق منه ، فيكون ذلك سببا أن
يمنع الله عنك بركته وزيادته ونمائه . وبعبارة أخرى ، لا تُمسكي المال في الوعاء ، فيُمسك الله
فضله وتوابعه عنك . والجدير بالذكر أن الصدقة تُنمي المال ، وأن السخاء يفتح أبواب الرزق ،
وأن البخل بالصدقة _ لا سيما الواجبة _ يؤدي إلى إتلاف المال .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١٩ / ٧) : ((معناه : الحث على التَّفَقَّة في
الطاعة ، والنهي عن الإمساك والبخل ، وعن ادِّخار المال في الوعاء)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٦١ / ٣) : ((...) ، (ولا تُوعي) أي : لا تحفظي فضل
مالك في الوعاء ، وهو الظرف ، أو لا تجمعي شيئا في الوعاء ، وتدخريه بخلا به (فيُوعي الله
عليك) أي : يمنع عنك مزيد نعمته . عبَّر عن منع الله بالإيعاء لِشَاكِل قَوْلِهِ : " لا تُوعي " ،
فإسنادُ الإيعاء إليه تعالى للمُشَاكَلَة _ وهي الاتِّفَاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى _)) .

٢٤٤ متفق عليه . البخاري (٥٢٠ / ٢) برقم (١٣٦٧) ، ومسلم (٧١٣ / ٢) برقم (١٠٢٩) .

وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ [الهمزة : ٢] .
هذا ذم لمن جمع مالا كثيرا ، وأحصى عدده ، وحافظ عليه لكيلا ينقص ، ولم ينفقه في
سبيل الله ، ولم يؤد حق الله فيه .

والتنكير في ﴿ جَمَعَ مَالًا ﴾ ، أي : مالا كثيرا لا يكاد يحصى .
وقال القرطبي في تفسيره (٢٠ / ١٧١) : ((قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ ،
أي : أعدّه _ زعم _ لتوائب الدهر وقيل : أحصى عدده ، قاله السدي . وقال الصحاك :
أي : أعد ماله لمن يرثه من أولاده . وقيل : أي : فأخر بعده وكثرته ، والمقصود الذم على إمساك
المال عن سبيل الطاعة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ [الهمزة : ٣] .
يظن هذا الجاهل الغافل أن ماله الذي جمعه وأحصاه وبخله ينافقه في سبيل الله ، سيجعله
خالدا في الدنيا ، ويثقيه حيا لا يموت . أي إنه يظن ماله مانعا له من الموت ، فهو يعمل عمل من
لا يظن أنه يموت .

لقد أعمت كثرة المال بصيرته ، وأطالت أمله ، حتى أصبح لفرط غفلته ، وطول أمله ، يظن
أن المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت . وفي هذا إشارة بليغة إلى أن العمل الصالح في الدنيا هو
الذي أخلد صاحبه في الآخرة (الحياة الأبدية) ، أي : نعيم الجنة الدائم ، أما المال فهو متعة
فانية ، وعرض زائل ، ليس بخالد ، ولا بمخلد أحدا .
والله لم يقل : يحسب أنه أخلده ، وإنما قال : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ، والإظهار في
موضع الإضمار للتقرير والتفريع .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٥٢٨) : ((﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ، تركه خالدا في
الدنيا ، فأحبه كما يحب الخلود ، أو حب المال أغفله عن الموت ، أو طول أمله ، حتى حسب
أنه مخلد ، فعمل عمل من لا يظن الموت ، وفيه تعريض بأن المخلد هو السعي للآخرة)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٥ / ٧٠٢) : ((وجملة ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾
مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ، أي : يعمل عمل من يظن
أن ماله يتركه حيا مخلدا لا يموت . وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد في عمره . والإظهار في
موضع الإضمار للتفريع والتوبيخ . وقيل : هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذي يخلد صاحبه في
الحياة الأبدية لا المال)) .

٣٠_ المَنُّ والأذى في الصَّدَقَاتِ

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] ٢٤٥ .

هذا مَدْحٌ إلهيٌّ عظيمٌ للذين يُنْفِقُونَ أموالهم في طاعة الله، مُخْلِصِينَ له، طالبِينَ رِضاه، وَلَا يَمُنُّونَ على مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ ، وهو أَنْ يَعْتَدَّ على مَنْ سَاعَدَهُ ، وَيُؤَيِّدَهُ أَنَّهُ أَوْجَبَ عَلَيْهِ حَقًّا له ، وَكَقَوْلِهِ: قد أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ، وَجَبَرْتُ حَالَكَ. ويجب على العبد إذا قَدَّمَ مَعْرُوفًا أَوْ صَدَقَةً أَنْ يَنْسَاهَا. ﴿ وَلَا أَدَى ﴾ كَذِكْرِ إِنْفَاقِهِ عَلَيْهِ عِنْدَ غَيْرِهِ فَيُؤَيِّدُهُ .

الْمَنُّ : هُوَ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ ، بِتَكْذِيرِهِ بِالصَّدَقَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ لِيَرَى لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِ . والأذى : إِشَاعَةُ تَصَدُّقِهِ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ ، أَوْ بَطْوَالِهِ عَلَيْهِ بِسَبَبِ صَدَقَتِهِ .

وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٢٥) : ((﴿ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا ﴾ ، وَهُوَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ بِعَطَائِهِ ، فَيَقُولُ : أَعْطَيْتُكَ كَذَا ، وَيَعُدُّ نِعْمَةً عَلَيْهِ فَيَكْذُرُهَا ، ﴿ وَلَا أَدَى ﴾ هُوَ أَنْ يُعَيِّرَهُ ، فَيَقُولُ : إِلَى كَمْ تَسْأَلُ وَكَمْ تُؤْذِنِي ؟ ، وَقِيلَ : مِنَ الْأَذَى هُوَ أَنْ يَذْكَرَ إِنْفَاقَهُ عَلَيْهِ عِنْدَ مَنْ لَا يُحِبُّ

٢٤٥ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣١٦ و ٣١٧) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، قَالَ ابْنُ السَّائِبِ وَمُقَاتِلٌ : نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَمَانَ فِي نَفَقَتِهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَشِرَائِهِ بِمِرْ رُومَةَ ، رَكِيَّةً — بَعْضُهَا بِمِرْ — بِالْمَدِينَةِ ، تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَفِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ حِينَ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَكَانَتْ نِصْفَ مَالِهِ . وَأَمَّا الْمَرُءُ فَفِيهِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَلْمَنُ عَلَى الْفَقِيرِ ، وَمِثْلُ أَنْ يَقُولَ : قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَتَعَشَّتُكَ ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَالثَّانِي أَنَّهُ أَلْمَنُ عَلَى اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ ، يُؤَيِّدُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ مَدَحَهُمْ بِتَرْكِ الْمَنِّ ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَنِّ ، فَالْجَوَابُ أَنَّهُ يُقَالُ : مَنْ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ ، إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَهَذَا الْمَدْحُ . قَالَ الشَّاعِرُ : فَمُنِّي عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ فَإِنَّمَا ... كَلَامُكَ يَا قُوتُ وَدُرُّ مَنْظَمٍ . أَرَادَ بِالْمَنِّ : الْإِنْعَامَ . وَأَمَّا الْوَجْهُ الْمَذْمُومُ فَهُوَ أَنْ يُقَالَ : مَنْ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ ، إِذَا اسْتَعْظَمَ مَا أَعْطَاهُ ، وَافْتَخَرَ بِذَلِكَ . قَالَ الشَّاعِرُ فِي ذَلِكَ : أَنْلَتَ قَلِيلًا ثُمَّ أَسْرَعَتْ مِنْهُ ... فَتَنِيْلُكَ مِمَّنْ كَذَاكَ قَلِيلٌ . ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ . وَفِي الْأَذَى قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مُوَاجَهَةٌ الْفَقِيرِ بِمَا يُؤْذِيهِ ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ لَهُ : أَنْتَ أَبَدًا فَاقِيرٌ ، وَقَدْ ثَلِيْتُ بِكَ ، وَأَرَا حِنِيَّ اللَّهِ مِنْكَ . وَالثَّانِي : أَنْ يُخْبِرَ بِإِحْسَانِهِ إِلَى الْفَقِيرِ مَنْ يَكْرَهُ الْفَقِيرَ إِطْلَاعَهُ عَلَى ذَلِكَ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ يُؤْذِي الْفَقِيرَ ، وَلَيْسَ مِنْ صِفَةِ الْمُخْلِصِينَ فِي الصَّدَقَةِ . وَلَقَدْ حُدِّثْنَا عَنْ حَسَّانِ ابْنِ أَبِي سِنَانَ أَنَّهُ كَانَ يَشْتَرِي أَهْلَ بَيْتِ الرَّجُلِ وَعِيَالَهُ ، ثُمَّ يُعْتَقُهُمْ جَمِيعًا ، وَلَا يَتَعَرَّفُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ هُوَ)) .

وُفُوْفَه عَلَيْهِ . وقال سُفْيَان : ﴿ مَنَّا وَلَا أَدَى ﴾ هو أن يقول : قد أَعْطَيْتَكَ وَأَعْطَيْتُ فَمَا شَكَرْتَ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان أبي يقول : إذا أَعْطَيْتَ رَجُلًا شَيْئًا ورَأَيْتَ أَنَّ سَلَامَكَ يُثْقَلُ عَلَيْهِ ، فَكُفَّ سَلَامَكَ عَنْهُ ، فَحَظَرَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمَنَّ بِالصَّنِيعَةِ ، وَاخْتَصَّ بِهِ صِفَةً لِنَفْسِهِ ، لِأَنَّهُ مِنَ الْعِبَادِ تَعْيِيرٌ وَتَكْدِيرٌ ، وَمِنَ اللَّهِ إِفْضَالٌ وَتَذْكَيرٌ)) .

لهم ثوابٌ إنفاقهم وأجرٌ ما قَدَّموا مِنَ الطَّاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . ولا يُصِيبُهُمْ خَوْفٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنَ نَعِيمِ الدُّنْيَا . أو : لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ نُقْصَانِ الْأَجْرِ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ مِنْ قُوَّتِهِ ، أو : لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بِقَوَاتِ الثَّوَابِ . وهذا فضلٌ عظيمٌ وشرفٌ كبيرٌ للثَّقَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وفيه دلالةٌ لِمَنْ فَضَّلَ الْغَنَى عَلَى الْفَقْرِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٢٥) : ((يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِهِ ، ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَنَّا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ ، فَلَا يَمُنُّونَ بِهِ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَمُنُّونَ بِهِ لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ . وقوله : ﴿ وَلَا أَدَى ﴾ ، أي : لا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا ، يُحِطُّونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ، أي : ثوابهم على الله ، لا على أَحَدٍ سِوَاهِ ، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ، أي : فيما يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، أي : على ما خَلَّفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَهْرَهَاتِهَا ، لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ)) .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٤٢٩) : ((قَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ الْإِنْفَاقِ ، أَي : هُوَ إِنْفَاقُ الَّذِي يُنْفِقُونَ ﴾ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَدَى ﴾ . وَالْمَنُّ هُوَ ذِكْرُ النَّعْمَةِ عَلَى مَعْنَى التَّعْدِيدِ لَهَا ، وَالتَّقْرِيعُ بِهَا . وَقِيلَ : الْمَنُّ : التَّحَدُّثُ بِمَا أُعْطِيَ حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ الْمُعْطَى فَيُؤْذِيهِ ، وَالْمَنُّ مِنَ الْكِبَائِرِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَالْأَدَى : السَّبُّ وَالتَّطَاوُلُ وَالتَّشْكِي . قَالَ فِي الْكَشَافِ : وَمَعْنَى ﴿ ثُمَّ ﴾ إِظْهَارُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْإِنْفَاقِ وَتَرْكِ الْمَنِّ وَالْأَدَى ، وَإِنْ تَرَكَهُمَا خَيْرٌ مِنَ نَفْسِ الْإِنْفَاقِ ، كَمَا جَعَلَ الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى الْإِيمَانِ خَيْرًا مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فَصَّلَتْ : ٣٠] ، انْتَهَى . وَقَدَّمَ الْمَنَّ عَلَى الْأَدَى لِكَثْرَةِ وَقُوعِهِ ، وَوَسَطَ كَلِمَةَ ﴿ لَا ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شُمُولِ النَّفْيِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فِيهِ تَأْكِيدٌ وَتَشْرِيفٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ ظَاهِرُهُ نَفْيُ الْخَوْفِ عَنْهُمْ فِي الدَّارَيْنِ لِمَا تُفِيدُهُ التَّكْرَةُ الْوَاقِعَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ مِنَ الشُّمُولِ ، وَكَذَلِكَ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يُفِيدُ دَوَامَ انْتِفَاءِ الْحُزْنِ عَنْهُمْ)) .

وقال الله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَدَ جَمِيلٌ لِلسَّائِلِ وَدُعَاءٌ لِمُسْلِمٍ، وَسَتْرٌ عَلَى إِحْسَانِهِ وَسُوءُ حَالَتِهِ، أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ مِنْ صَدَقَةٍ يَدْفَعُهَا إِلَيْهِ، وَيَتْبَعُهَا أَدَى كَالْمَنْ وَالْفَضِيحَةُ وَالتَّعْيِيرُ ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ خَلْقِهِ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى صَدَقَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهَا لِمَصْلَحَتِهِمْ ، وَكَيْ يُشَبِّهَهُمْ عَلَيْهَا ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ . يَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ، وَلَا يُعَاجِلُهُمُ بِالْعُقُوبَةِ بِسَبَبِ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ . وَهَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٣ / ٦٤) : ((يَعْني تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ قَوْلٌ جَمِيلٌ وَدُعَاءٌ الرَّجُلِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ يَعْنِي : وَسْتَرٌ مِنْهُ عَلَيْهِ لِمَا عَلِمَ مِنْ خَلْتِهِ (حَاجَتِهِ وَفَقْرِهِ) وَسُوءِ حَالَتِهِ ، ﴿ خَيْرٌ ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ﴿ مِنْ صَدَقَةٍ ﴾ يَتَصَدَّقُهَا عَلَيْهِ ﴿ يَتْبَعُهَا أَدَى ﴾ يَعْنِي : يَشْتَكِيهِ عَلَيْهَا وَيُؤْذِيهِ بِسَبَبِهَا عَنِ الصَّحَّاحِ : _ ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى ﴾ يَقُولُ : أَنْ يُمَسِكَ مَالَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُنْفِقَ مَالَهُ ثُمَّ يُتْبِعَهُ مِنْهُ أَدَى . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ فَإِنَّهُ يَعْنِي : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عَمَّا يَتَصَدَّقُونَ بِهِ ، ﴿ حَلِيمٌ ﴾ حِينَ لَا يُعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَنْ يَمْتَنُّ بِصَدَقَتِهِ مِنْكُمْ ، وَيُؤْذِي فِيهَا مَنْ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ)) .

وفي صحيح مسلم (١ / ١٠٢) عن أبي ذرٍّ عن النبي ﷺ قال : ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة : المَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مِنْهُ ، ...)) .

المَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مِنْهُ بِهِ عَلَى مَنْ أَعْطَاهُ ، بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، لَا يُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَلَامًا يَسُرُّهُ ، اسْتِهَانَةٌ بِهِ ، وَغَضَبًا عَلَيْهِ ، وَهَذِهِ عَقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ لَهُ بِسَبَبِ ذَنْبِهِ الْعَظِيمِ . وَأَيْضًا ، لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ ، وَإِنَّمَا يُعْرَضُ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ شَخْصٌ سَيِّئُ الْخُلُقِ ، وَغَارِقٌ فِي الدَّنَاءَةِ وَالْحَسَنَةِ ، وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْأَدَبِ وَاحْتِرَامِ النَّاسِ . فَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَعْظَمَ مِنَ الْمُعْطَى لَهُ ، وَأَنَّهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ ، لِذَلِكَ يَمْتَنُّ عَلَيْهِ ، وَيُعَيِّرُهُ ، وَيُؤْذِيهِ .

إِنَّ الْمَنْ فِي الْعَطِيَّةِ هُوَ التَّفَاضُلُ وَالتَّعَالِي عَلَى الْآخِذِ ، فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُنْفِقِ الْاِمْتِنَانُ عَلَى الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ ، سِوَاءً بَقَلْبِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ ، كَأَنْ يُخَيِّرَهُ بِأَنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِمَنْحِهِ شَيْئًا ، وَأَنَّهُ مَدِينٌ لَهُ لِقَاءَ مَعْرُوفِهِ ، وَلَا يَقُولُ أَوْ يَفْعَلُ أَيْضًا مَكْرُوهًا لِلْمُنْفِقِ عَلَيْهِ يُنَافِي مَا قَدَّمَهُ لَهُ مِنْ إِحْسَانٍ ، فَذَلِكَ مَحْظُورٌ ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَكْبِيرِ الْمُنْفِقِ وَاسْتِعْلَانِهِ ، وَاسْتِعْبَادِ الْمُنْفِقِ عَلَيْهِ ، وَكَسْرِ قَلْبِهِ وَإِذْلَالِهِ ، بَلْ عَلَى الْمُعْطَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَنْ يَشْهَدَ دَائِمًا أَنَّ الْمُنْفِقَ وَالْمُنْعَمَ حَقِيقَةٌ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَفَكَّرَ أَيْضًا فِي أَنْ أَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ بِأَضْعَافٍ مَا أُعْطِيَ ، فَأَيُّ حَقِّ بَقِيَ لَهُ عَلَى الْآخِذِ الْمُحْتَاجِ حَتَّى يَمْتَنُّ عَلَيْهِ ، أَوْ يُؤْذِيَهُ بِصَنَائِعِ مَعْرُوفِهِ ؟ ! .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢ / ١١٦): ((قيل : معنى " لا يُكَلِّمُهُمْ " ، أي : لا يُكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ أَهْلِ الْخَيْرَاتِ وَيَظْهَرُ الرَّضَى ، بَلْ بِكَلَامِ أَهْلِ السَّخَطِ وَالْغَضَبِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ . وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ : لا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا يَنْفَعُهُمْ وَيَسْرُّهُمْ . وَقِيلَ : لا يُرْسَلُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّحِيَّةِ)) .

وفي عون المعبود (١١ / ٩٨) : ((قال الخطابي في المعالم : المَنَّانُ يُتَأَوَّلُ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا مِنَ الْمِنَّةِ ، وَهِيَ إِنْ وَقَعَتْ فِي الصَّدَقَةِ أَبْطَلتْ الْأَجْرَ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْمَعْرُوفِ كَدَّرَتْ الصَّنِيعَةَ وَأَفْسَدَتْهَا . وَالْوَجْهَ الْآخَرَ أَنْ يُرَادَ بِالْمَنَّانِ النَّقْصَ ، يُرِيدُ النَّقْصَ مِنَ الْحَقِّ وَالْخِيَانَةَ فِي الْوَزْنِ وَالْكَيْلِ وَنَحْوَهُمَا . وَمِنْ هَذَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ [الْقَلَمُ : ٣] ، أَي : غَيْرَ مَنْقُوصٍ . قَالُوا : وَمِنْ ذَلِكَ يُسَمَّى الْمُؤْتِ مَنْوُنًا ، لِأَنَّهُ يُنْقِصُ الْأَعْدَادَ ، وَيَقْطَعُ الْأَعْمَارَ)) .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((... وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ))^{٢٤٦} .
مِنِ الصَّدَقَاتِ : الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ ، سَوَاءً كَانَتْ طَّيِّبَةً فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، كَالتَّسْبِيحِ ، وَالتَّكْبِيرِ ، وَالتَّهْلِيلِ ، أَوْ فِي حَقِّ النَّاسِ ، كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ .

وَمَحَبَّةُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ فِطْرَةٌ مَغْرُوسَةٌ فِي النَّاسِ . وَالتُّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا .
وَمَا أَنَّ الْمَالَ يُسْعِدُ الْإِنْسَانَ وَيُفْرِحُهُ ، فَكَذَلِكَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ . وَهَذَا وَجْهُ الشَّبَهِ بَيْنَ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ وَالصَّدَقَةِ ، فَكَلِمَاتُهُمَا تَبْعَتَانِ فِي النَّفْسِ الْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ وَالْأَمَلِ . وَفِي فَتْحِ الْبَارِي (١٠ / ٤٤٩) : ((قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ : وَجْهٌ كَوْنُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ صَدَقَةً ، أَنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ يَفْرِحُ بِهِ قَلْبُ الَّذِي يُعْطَاهُ ، وَيُذْهِبُ مَا فِي قَلْبِهِ ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ ، فَاشْتَبَهَا مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الْبَقَرَةُ : ٢٦٤] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ، وَأَقْرُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لَا تُخْطِئُوا ثَوَابَ صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ (وَهُوَ أَنْ يَمَنَّ بِمَا أُعْطِيَ) وَالْأَذَى (وَهُوَ أَنْ يُؤَيِّخَ الْمُعْطَى الْمُعْطَى لَهُ) ، كَالْمُنَافِقِ الْمُرَائِي الَّذِي يُبْطِلُ إِفْئَاقَهُ بِالرِّيَاءِ ، حَيْثُ إِنَّهُ يُنْفِقُ مَالَهُ رِيَاءً وَسَمْعَةً لِيَرَوْا نَفَقَتَهُ ، وَيَقُولُوا إِنَّهُ مُؤْمِنٌ كَرِيمٌ . وَلَا يُصَدِّقُ بِلِقَاءِ اللَّهِ لِيَرْجُوَ ثَوَابًا أَوْ يَخْشَى عِقَابًا ، أَي إِنَّهُ لَا يُرِيدُ يَانْفَاقَهُ رِضًا لِلَّهِ وَلَا ثَوَابَ الْآخِرَةِ .

٢٤٦ متفق عليه. البخاري (٣ / ١٠٩٠) برقم (٢٨٢٧) ، ومسلم (٢ / ٦٩٩) برقم (١٠٠٩) .

وقال البغوي في تفسيره (٣٢٦ / ١) : ((يُريد أنَّ الرِّياءَ يُبطل الصَّدَقَةَ ، ولا تكون النَّفَقَةُ مَعَ الرِّياءِ من فِعْلِ المؤمنِ ، وهذا للمُنَافِقِينَ ، لأنَّ الكافر مُعَلِنٌ بِكُفْرِهِ غَيْرِ مُرَائٍ)) .
 والمَنْ والأذى يُبطلان الصَّدَقَاتِ ، فلا يَقْبَلُها اللهُ عَقُوبَةً للعبد على سُوءِ أخلاقه، وعدم قيامه بحق العبادة ، واعتدائه على الناس بدون وجه حق ، وإيذائه لمشاعرهم ، وعدم احترام الأُخُوَّةِ الإنسانية . ويجب على العبد الإخلاصُ لله في أقواله وأفعاله . وقال العلماء : إنَّ الصَّدَقَةَ التي يَعْلَمُ اللهُ من صاحبها أنَّه يَمُنُّ أو يُؤذِي بها فَإِنَّها لا تُقْبَلُ .

مَثَلُ ذلك المُنَافِقِ المُرَائِي بِانفِاقِهِ كَمَثَلِ الحَجَرِ الأَمْلَسِ ، الذي عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ ، يَظُنُّهُ الشخصُ أرضًا طَيِّبَةً مُنْبِتَةً ، فإذا أصابه مَطَرٌ شديدٌ ، أذهب عنه التُّرَابَ ، فَتَرَكَه بَرَّاقًا أَمْلَسَ ، لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ ولا الغبار . كذلك هذا المُنَافِقِ المُرَائِي يَظُنُّ الناسُ أنَّ له أَعْمالًا صالحةً ، فإذا كانَ يَوْمَ القِيامَةِ اصْطَحَلَتْ وَذَهَبَتْ . في الظاهر أنَّ لهؤلاءِ أَعْمالًا كما يرى التُّرَابُ على هذا الصَّفْوَانِ ، فإذا كانَ يَوْمَ القِيامَةِ بَطَلَ كُلُّهُ ، لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ خالصًا لله _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، كما أَذهب الوابلُ ما على الصَّفْوَانِ مِنَ التُّرَابِ فَتَرَكَه صَلْدًا . لا يَجِدُونَ لنفقتهم ثوابًا في الآخرة ، ولا يَتَنَفَعُونَ بشيءٍ منها أصلًا ، وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ للمُرَائِي بِنَفَقَتِهِ ، لا يَقْدِرُ يَوْمَ القِيامَةِ على ثَوَابِ شَيْءٍ مِمَّا أَنْفَقَ .

واللهُ لا يَهْدِي الكافرين إلى طريق الخَيْرِ والرِّشَادِ . وفيه إشارة إلى أنَّ الرِّياءَ والمَنْ والأذى على الإنفاق من صفات الكافرين ، ويجب على المؤمن أن يَتَعَدَّ عَنْ هذه الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ .
 وقال الواحدي في الوجيز (١٨٧ / ١) : ((« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ » ، أَي : ثَوَابَهَا « بِالْمَنْ » وهو أن يَمُنَّ بما أُعْطِيَ ، « والأذى » وهو أن يُؤَيِّخَ المُعْطِي المُعْطَى له ، « كالذي يُنْفِقُ » ، أَي : كإبطاله رِياءَ الناسِ ، وهو المُنَافِقِ يُعْطِي لِيُوهِمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ « فَمَثَلُهُ » أَي : مَثَلُ هذا المُنَافِقِ « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ » وهو الحَجَرِ الأَمْلَسِ ، « عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ » مَطَرٌ شديدٌ « فَتَرَكَه صَلْدًا » بَرَّاقًا أَمْلَسَ . وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى للمُنَافِقِ والمُنَافِقِ ، يَعْنِي : إنَّ الناسَ يَرَوْنَ في الظاهر أنَّ لهؤلاءِ أَعْمالًا كما يرى التُّرَابُ على هذا الحَجَرِ ، فإذا كانَ يَوْمَ القِيامَةِ اصْطَحَلَّ كُلُّهُ وَبَطَلَ ، كما أَذهب الوابلُ ما كان على الصَّفْوَانِ ، فلا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على ذلك التُّرَابِ ، كذلك هؤلاء إذا قَدِمُوا على رَبِّهِمْ لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا ، وهو قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ : « لا يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ » ، أَي : على ثَوَابِ شَيْءٍ « مِمَّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكافرين » لا يَجْعَلُ جَزَاءَهُمْ على كُفْرِهِمْ أن يَهْدِيَهُمْ)) .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٢] ٢٤٧
 لا تَتَمَنَّوْا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ، مِنَ الْمَالِ وَالجَّاهِ ... إلخ ،
 وما حَصَّ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا أَوْ الدِّينِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ وَالبَغْضَاءِ .

٢٤٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٦٨ و ٦٩ و ٧٠) : ((قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَعْزُو الرِّجَالُ ، وَلَا نَعْزُو ، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه مجاهد. والثاني أَنَّ النَّسَاءَ قُلْنَ: وَدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَنَا الْعَزْوَ ، فَنُصِيبُ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُصِيبُ الرِّجَالَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه عكرمة. والثالث أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] . قال الرِّجَالُ: إِنَّا لَنَرْجُو أَنْ نُفْضَلَ عَلَى النَّسَاءِ بِحَسَنَاتِنَا كَمَا فَضَّلْنَا عَلَيْهِنَّ فِي الْمِيرَاثِ . وقالت النَّسَاءُ: إِنَّا لَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْوِزْرُ عَلَيْنَا نِصْفَ مَا عَلَى الرِّجَالِ ، كَمَا لَنَا الْمِيرَاثُ عَلَى النِّصْفِ مِنْ نَصِيبِهِمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، قَالَه قَتَادَةُ وَالسُّدِّي . وفي معنى هَذَا التَّمَنِّيِّ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَتَمَنَّى الرَّجُلُ مَالَ غَيْرِهِ ، قَالَه ابن عباس وعطاء. والثاني أَنْ يَتَمَنَّى النَّسَاءُ أَنْ يَكُنَّ رِجَالًا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أُمَّ سَلَمَةَ أَنَّهُمَا قَالَتْ: يَا لَيْتَنَا كُنَّا رِجَالًا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وللتَّمَنِّيِّ وَجُوهٌ. أَحَدُهَا أَنْ يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ أَنْ يَحْضُلَ لَهُ مَالٌ غَيْرُهُ، وَيُزُولَ عَنِ الْغَيْرِ، فَهَذَا الْحَسَدُ. والثاني أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ مَا لِعَیْرِهِ وَلَا يُحِبُّ زَوَالَهُ عَنِ الْغَيْرِ، فَهَذَا هُوَ الْعِظَّةُ ، وَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ نَيْلُ ذَلِكَ مُصْلِحَةً فِي حَقِّ الْمُتَمَنِّيِّ . قال الحسن : لَا تَمَنَّ مَالَ فُلَانٍ ، وَلَا مَالَ فُلَانٍ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ هَلَاكَهُ فِي ذَلِكَ الْمَالِ ؟ . والثالث أَنْ تَتَمَنَّى الْمَرْأَةُ أَنْ تَكُونَ رِجَالًا ، وَنَحْوَ هَذَا مِمَّا لَا يَقَعُ ، فَلْيَعْلَمْ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ ، فَلْيَرْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَلِتَكُنْ أَمَانِيَّتُهُ الزِّيَادَةُ مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ . قوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ ، فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْاِكْتِسَابِ الْمِيرَاثَ ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَكْرَمَةَ . والثاني أَنَّهُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، فَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَرْأَةَ تُثَابُ كَثُوبَ الرَّجُلِ ، وَتَأْتَمُّ كِإِثْمِهِ ، هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ وَابْنِ السَّائِبِ وَمُقَاتِلِ . واحتجَّ على صحته أبو سليمان الدمشقي بأن الميراث لا يَحْضُلُ بِالاِكْتِسَابِ ، وبأنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ لِأَجْلِ التَّمَنِّيِّ وَالْفَضْلِ . قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وفي الْمُرَادِ بِالْفَضْلِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّ الْفَضْلَ الطَّاعَةَ ، قَالَه سعيد بن جبیر ومجاهد والسُّدِّي . والثاني أَنَّهُ الرِّزْقُ ، قَالَه ابن السَّائِبِ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : سَأَلُوا اللَّهَ مَا تَتَمَنَّوْنَهُ مِنَ النِّعَمِ ، وَلَا تَتَمَنَّوْا مَالَ غَيْرِكُمْ)) .

نَهَاهُمْ اللَّهُ عَنِ الطَّمَعِ وَالْحَسَدِ وَتَمَنَّى مَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ ،
لأنَّ التفضيل قِسْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ، صادرة عن حِكْمَةٍ وَتَدْبِيرٍ وَعِلْمٍ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ . ويجب على كُلِّ عَبْدٍ
أَنْ يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ ، وَلَا يَحْسُدُ الْآخَرِينَ عَلَى مَوَاهِبِهِمْ وَامْتِيَازَاتِهِمْ وَحُطُوظِهِمْ . وَالْحَسَدُ
تَمَنَّى النِّعْمَةِ مَعَ زَوَالِهَا عَنْ صَاحِبِهَا ، وَهُوَ حَرَامٌ ، وَالغِبْطَةُ تَمَنَّى مِثْلَ نِعْمَةِ الْغَيْرِ دُونَ زَوَالِهَا عَنْ
صَاحِبِهَا ، وَهُوَ جَائِزٌ .

لِلرِّجَالِ ثَوَابٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا مِنَ الْجِهَادِ ، وَلِلنِّسَاءِ ثَوَابٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ حِفْظِ فُرُوجِهِنَّ ،
وَطَاعَةِ أَزْوَاجِهِنَّ . وَكُلُّ لَهُ جَزَاءٌ عَمَلِهِ ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَاللَّهُ يُجَازِي الْمُحْسِنَ
بِإِحْسَانِهِ ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٠٤) : ((فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ التَّمَنَّى
لِمَا فِيهِ مِنْ دَوَاعِي الْحَسَدِ ، وَالْحَسَدُ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا ، وَيَتَمَنَّاهَا لِنَفْسِهِ ، وَهُوَ
حَرَامٌ ، وَالغِبْطَةُ أَنْ يَتَمَنَّى لِنَفْسِهِ مِثْلَ مَا لَصَاحِبِهَا ، وَهُوَ جَائِزٌ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : لَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ مَالَ أَخِيهِ
وَلَا امْرَأَتَهُ وَلَا خَادِمَهُ ، وَلَكِنْ لِيَقُولَ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي مِثْلَهُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ كَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ)) .
وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ يُعْطِكُمْ ، فَإِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَّابٌ ، وَخَزَائِنُهُ لَا تَنْفَدُ . وَلَمْ يَأْمُرِ اللَّهُ بِالسَّأَلِ إِلَّا
لِيُعْطِيَ . وَالْأَمْرُ فِي الْآيَةِ : ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ سُؤَالِ اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ : اللَّهُ يُغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يُغْضَبُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، لِذَلِكَ جَعَلَ النَّاسَ طَبَقَاتٍ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ .
وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٦٤٨) : ((أَيُّ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا ،
وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيُفْقِرُهُ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقِيضُهُ لِأَعْمَالِهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ
فَيَخْذُلُهُ عَنِ تَعَاطِي الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ)) .

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٨٠) : ((وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾
مِنَ الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، كَالْجَاهِ وَالْمَالِ ، فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، وَالْمُقْتَضِي لِلْمَنْعِ كَوْنُهُ ذَرِيعَةً إِلَى التَّحَاسُدِ
وَالتَّعَادِي ، مُعْرِبَةً عَنِ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ ، وَأَنَّهُ تَشَنُّهُ لِحُصُولِ الشَّيْءِ لَهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ ،
وَهُوَ مَذْمُومٌ ، لِأَنَّهُ تَمَنَّى مَا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ مُعَارَضَةً لِحِكْمَةِ الْقَدَرِ ، وَتَمَنَّى مَا قُدِّرَ لَهُ بِكَسْبِ بَطَالَةٍ
وَتَضْيِيعِ حَظٍّ ، وَتَمَنَّى مَا قُدِّرَ لَهُ بِغَيْرِ كَسْبٍ صَاحِبٍ وَمُحَالٍ ، ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ
نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ ، بَيَانٌ لِدَلَالَةِ : أَيُّ : لِكُلِّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فَضْلٌ وَنَصِيبٌ ، بِسَبَبِ مَا
اكتسب ، وَمِنْ أَجْلِهِ ، فَاطْلُبُوا الْفَضْلَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَمَلِ ، لَا بِالْحَسَدِ وَالتَّمَنَّى وَقِيلَ :
الْمُرَادُ نَصِيبَ الْمِيرَاثِ وَتَفْضِيلَ الْوَرَثَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ فِيهِ ، وَجَعَلَ مَا قَسَمَ لِكُلِّ مِنْهُمْ عَلَى

حَسَبَ مَا عُرِفَ مِنْ حَالِهِ الْمُوجِبَةِ لِلزِّيَادَةِ وَالتَّقْصُ كَالْمُكْتَسِبِ لَهُ ، ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ،
 أَي : لَا تَتَمَنَّوْا مَا لِلنَّاسِ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِثْلَهُ مِنْ خَزَائِنِهِ الَّتِي لَا تَنْفَدُ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَنْهِيَّ
 عَنْهُ هُوَ الْحَسَدُ ، أَوْ : لَا تَتَمَنَّوْا وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ بِمَا يُقَرِّبُهُ وَيَسُوِّقُهُ إِلَيْكُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ ، فَهُوَ يَعْلَمُ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَيُقْضَى عَنْ عِلْمٍ وَتَبْيَانٍ .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ
 جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْحَجْرُ : ٨٨] ٢٤٨ .

اسْتَعْنِ يَا مُحَمَّدٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ الْمَوْجُودِ فِي أَيْدِي الْأَغْيَاءِ
 مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَإِنَّ زُخْرَفَ الدُّنْيَا فَانِيَةٌ ، وَيَنْتَظِرُهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .
 وَالْقُرْآنُ هُوَ النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ ، أَمَّا حُطَامُ الدُّنْيَا فَهُوَ لَذَاتٌ زَائِلَةٌ ، وَمُتَعَةٌ فَانِيَةٌ ، وَعَرَضٌ لَا يَدُومُ .
 وَاللَّهُ يُذَكِّرُ النَّبِيَّ ﷺ بِنِعْمَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي لَا تُعَادِلُهَا نِعْمَةٌ ، وَيَنْهَاهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي .
 وَالْمَعْنَى : اسْتَعْنِ يَا مُحَمَّدٌ بِالْقُرْآنِ عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ زُخْرَفٍ بَرَّاقَةٍ ، وَشَهَوَاتٍ فَانِيَةٍ .
 لَا تَلْتَفِتْ يَا مُحَمَّدٌ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَصْنَافًا (أَزْوَاجًا) مِنَ الْكُفَّارِ ، مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ
 وَالْمَسَاكِينِ وَنَعِيمِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ . وَاللَّهُ يَنْهَى النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَمُنَافَسَةِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا .
 وَقَدْ حَظَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى الدُّنْيَا رَغْبَةً فِيهَا . وَيَجِبُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَسْتَعْنِيَ بِالْقُرْآنِ عَنِ
 جَمِيعِ زِينَةِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٠٣) : ((أَي : لَا تَطْمَحْ بِبَصْرِكَ
 إِلَى زُخْرَفِ الدُّنْيَا طُمُوحَ رَغْبَةٍ فِيهَا ، وَتَمَنَّ لَهَا . وَالْأَزْوَاجُ الْأَصْنَافُ ، قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَقَالَ
 الْجَوْهَرِيُّ : الْأَزْوَاجُ الْقُرْنَاءُ . قَالَ الْوَاحِدِيُّ : إِنَّمَا يَكُونُ مَادًّا عَيْنَيْهِ إِلَى الشَّيْءِ إِذَا أَدَامَ النَّظَرَ نَحْوَهُ ،
 وَإِدَامَةُ النَّظَرِ إِلَيْهِ تَدُلُّ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ وَتَمَنِّيِهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَحْسُدَنَّ أَحَدًا عَلَى
 مَا أُوتِيَ مِنَ الدُّنْيَا . وَرُدَّ بِأَنَّ الْحَسَدَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا)) .

٢٤٨ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٤ / ٤١٦ و ٤١٧) : ((نَهَاهُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الدُّنْيَا ، لِيَسْتَعْنِيَ بِمَا
 آتَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَنِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ أَي : أَصْنَافًا مِنْ
 الْيَهُودِ وَالْمَشْرِكِينَ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ نَهَاهُ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا
 لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ، وَالثَّانِي لَا تَحْزَنْ بِمَا أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَخَفِضْ
 جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أَي : أَلِنْ جَانِحَيْكَ لَهُمْ . وَخَفِضُ الْجَنَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ السُّكُونِ ، وَتَرْكِ التَّصَعُّبِ
 وَالْإِبَاءِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ارْتَفَقَ بِهِمْ ، وَلَا تَغْلُظْ عَلَيْهِمْ)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٢) : ((يُقال : إنه وَافَى سَبَعَ قَوَافِلٍ مِنْ بُصْرَى وَأُذْرَعَاتٍ مُؤَضِعِينَ بِالشَّامِ لِيَهُودِ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، فِيهَا الْبَرْزُ (نوع من الثياب) ، وَالطَّيْبُ ، وَالجَوْهَرُ ، وَأَمْتَعَةُ الْبَحْرِ . فَقَالَ الْمَسْلُومُونَ : لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ لَنَا لَتَقَوَّيْنَا بِهَا ، وَأَنْفَقْنَاهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ [الْحَجَرُ : ٨٧] ، أَي : فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الْقَوَافِلِ السَّبْعِ ، فَلَا تَمُدَّنَّ أَعْيُنَكُمْ إِلَيْهَا ، وَإِلَى هَذَا صَارَ ابْنُ عُيَيْنَةَ)) .

وقال الغزالي في المُستصفى (١ / ٢٠٤) : ((وَأَمَّا صِغَةُ التَّنْهِي ، وَهُوَ قَوْلُهُ : لَا تَفْعَلْ ، فَقَدْ تَكُونُ لِلتَّحْرِيمِ وَاللِّكْرَاهِيَةِ وَالتَّحْقِيرِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾)) .

وفي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٧٥) : ((قَالَ الْغَزَالِيُّ : كُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ حَقًّا لَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ نَظْرَةً بِالِاسْتِحْلَاءِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا رَغْبَةٌ ، وَلِيَلْزَمَ الشُّكْرَ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ الْكِرَامَةُ الْعُظْمَى)) .

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ . وَلَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ، أَوْ : لَا تَغْتَمِ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا ، وَلَا تَتَمَنَّأَنَّ أَمْوَالَهُمْ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا . فَاللَّهُ لَمَّا مَنَّ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْقُرْآنِ ، نَهَاهُ عَنِ الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٢) : ((أَي : وَلَا تَحْزَنْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : لَا تَحْزَنْ عَلَى مَا مَتُّعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَلَكَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلُ مِنْهُ . وَقِيلَ : لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ إِنْ صَارُوا إِلَى الْعَذَابِ ، فَهُمْ أَهْلُ الْعَذَابِ)) .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَأَلِنْ جَانِبَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَتَكَبَّرْ عَلَيْهِمْ ، وَتَعَامَلْ مَعَهُمْ بِتَوَاضِعٍ وَأَدَبٍ ، وَكُنْ رَحِيمًا بِهِمْ ، عَطُوفًا عَلَيْهِمْ . وَخَفِضْ الْجَنَاحَ كِنَايَةً عَنِ التَّوَاضِعِ وَلِينِ الْجَانِبِ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠ / ٥٢) : ((وَأَصْلُهُ : إِنَّ الطَّائِرَ إِذَا صَمَّ فَرَّخَهُ إِلَى نَفْسِهِ ، بَسَطَ جَنَاحَهُ ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَى الْفَرْخِ . فَجُعِلَ ذَلِكَ وَصْفًا لِتَقْرِيبِ الْإِنْسَانِ أَتْبَاعِهِ . وَيُقَالُ : فُلَانٌ خَافِضُ الْجَنَاحِ ، أَي : وَفُورٌ سَاكِنٌ . وَالْجَنَاحَانِ مِنَ ابْنِ آدَمَ جَانِبَاهُ)) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : ((مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَقَدْ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوحَى إِلَيْهِ . لَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَجِدَ مَعَ مَنْ وَجَدَ ، وَلَا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ ، وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى)) ^{٢٤٩} .

٢٤٩ رواه الحاكم في المستدرک (١ / ٧٣٨) برقم (٢٠٢٨) وصحَّحه .

تَتَضَحُّ فضيلته القرآن العظيمة . فَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَحَفِظَهُ ، وَأَصْبَحَ فِي صَدْرِهِ مَحْفُوظًا ، فَقَدْ جَمَعَ النَّبُوَّةَ فِي صَدْرِهِ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ ، أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَنْ اعْتَنَى بِالْقُرْآنِ قِرَاءَةً وَحِفْظًا صَارَ شَبِيهًا بِالنَّبِيِّ ﷺ ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيًّا ، وَلَا يُوحَى إِلَيْهِ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ . وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ أَنْ يَغْضَبَ مَعَ مَنْ غَضِبَ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ثَابِتَ الْقَلْبِ وَالْأَرْكَانِ ، لَا يَهْتَزُّ أَمَامَ الصَّعُوبَاتِ وَلَا يَنْهَارُ . وَلَا يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ كَالْجَاهِلِينَ ، لِأَنَّ الْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ فِي الْقَلْبِ ، وَسَوَادٌ فِي الصَّدْرِ ، وَصَاحِبُ الْقُرْآنِ فِي قَلْبِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعْظَمَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ يَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ . وَاللَّهُ تَعَالَى إِذَا مَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ بِنِعْمَةٍ الدَّيْنِ ، فَلْيَحْذَرُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى حُطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَيَتَمَنَّاهُ وَيَشْتَهِيهِ ، فَالِدَّيْنُ هُوَ الْكِرَامَةُ الْمُقَدَّسَةُ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْقُصُورِ .

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَدًا أُعْطِيَ أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ ، فَقَدْ عَظَّمَ حُطَامَ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةَ ، وَصَغَّرَ كَلَامَ اللَّهِ الْعَظِيمِ . فَالْقُرْآنُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَلَا تُوجَدُ مُقَارَنَةٌ بَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٢٧٥) : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((انظروا إلى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ)) .

انظروا إلى مَنْ هُوَ أَقْلُ مِنْكُمْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْكُمْ ، فَإِنَّ هَذَا النَّظْرَ أَحَقُّ أَنْ لَا تَحْتَقِرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ نَظْرَ الْإِنْسَانِ إِلَى مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ ، يُؤَدِّي إِلَى اسْتِحْقَارِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ مِنَ النَّعْمِ ، فَيَسْتَقِلُّ النَّعْمَةَ ، وَيُعْرِضُ عَنِ الشُّكْرِ ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَصْبِرُ عَلَى الْمَقْدُورِ فَلَا يَسْخَطُ ، وَهُوَ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ ، فَالرِّضَا أَمْرٌ آخِرٌ ، وَقَدْ يُؤَدِّيهِ ذَلِكَ إِلَى كُفْرَانِ النَّعْمَةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ النَّعْمِ ، فَيَكْفُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَإِذَا أَعْرَضَ عَنِ التَّأَمُّلِ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَمَا وَسَّعَ عَلَيْهِمْ ، هَانَ عَلَيْهِ مَا هَمَّهُ ، وَاسْتَكْتَرَ مَا أُوتِيَ ، وَإِذَا نَظَرَ بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ ، فَالْمُكْتَبَرُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا هَمُّ الْإِكْتِنَارِ وَحِفْظِ الْمَالِ ، وَالدُّنْيَا سَرِيعَةٌ الزَّوَالِ ، وَإِذَا تَحَوَّلَ الْمَالُ وَضَاعَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُعْبَطُونَ عَلَى ذَلِكَ ، بَلْ إِنَّهُمْ يُرْحَمُونَ ، وَيُرْتَوَى لَهُمْ .

وَفِي الْحَدِيثِ : بَيَانُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مُدَاوِبًا لِلْقُلُوبِ ، فَعَلَّمَهَا كَيْفَ تَصْنَعُ ، وَوَصَفَ لَهَا الدَّوَاءَ ، وَإِرْشَادًا إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ مَالًا فَقَطْ ، وَأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَى اسْتِشْعَارِ النَّعْمِ كَثْرَةَ التَّأَمُّلِ فِيهَا ، وَالنَّظْرَ فِي حَالِ مَنْ هُمْ أَقْلٌ حَالًا مِنْكَ . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْقَنَاعَةَ مِنَ أَجَلِّ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهِيَ عَلَامَةٌ عَلَى الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، كَمَا أَنَّهَا تُهَوِّنُ صُعُوبَةَ الْحَيَاةِ ، وَتُخَفِّفُ مَصَائِبَهَا .

في أمور الدين ، يجب على العبد أن ينظر إلى من هو أعلى منه . وهم العلماء العاملون والعباد الأتقياء ، ويحاول جاهداً أن يتشبه بهم ، ويسير على خطاهم . أما في أمور الدنيا، فليُنظر إلى من هم دونه ، كالفقراء والمساكين والمنبوذين والضُعفاء ، فعندئذٍ سيُعرف نعمة الله عليه ، ويُقدِّرها ، ويُعظِّمها ، فالله فضله عليهم في المال والمسكن والملبس . ولا ينظر إلى من هم فوقه ، كالمُلوك والأُمراء والأثرياء . فعندئذٍ، سيحتقر نعمة الله التي هو فيها، ويستصغرها . وقد يذهب إلى الكُفر _ والعياذ بالله _ فيعتقد أن الله ظلمه ، وأعطى الآخرين . وقد يطعن في حكمة الله ، فيقول إن الله أعطى الكافرين والفساقين والعصاة ، وحرَمَ المؤمنين الصالحين . والإنسان بطبيعته طماعٌ وغيورٌ وحسودٌ ، حين يرى من هو أعلى منه ، فإنه يشعر بالغيرة والحسد والسخط ، ويتمنى أن يكون مكانه ، وهذا الأمر يجعله رافضاً للنعم الإلهية التي هو فيها ، وحاقدًا على الناس ، وكارهاً للمجتمع . وهذا الإنسان ينبغي أن يدرك أن الدنيا حقيرة يُعطيها الله للمؤمن والكافر على السواء ، وليست دليلاً على محبة الله للعبد . أما الدين ، فإنه النعمة العظمى ، لا يُعطيها الله إلا لمن أحبّه . والتفاوت الحقيقي بين الناس إنما هو في الدين والتقوى ، وليس في الأموال والأولاد والحسب والنسب .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨ / ٩٧) : ((معنى أجدر : أحق ، وتزدروا : تحقروا . قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن الإنسان إذا رأى من فضّل عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك ، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى ، وحرص على الزيادة ليحقق بذلك أو يُقاربه ، هذا هو الموجود في غالب الناس . وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ، ظهرت له نعمة الله تعالى عليه ، فشكرها ، وتواضع ، وفعل فيه الخير)) . وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٥٩ و ٦٠) : ((انظروا إلى من هو أسفل منكم) أي: في أمور الدنيا ، أي: الأحق والأولى ذلك (ولا تنظروا إلى من هو فوقكم) فيها (فهو أجدر) أي: فالنظر إلى من هو أسفل لا إلى من هو فوق حقيق (أن لا تزدروا) أي بأن لا تحتقروا (نعمة الله عليكم) فإن المرء إذا نظر إلى من فضّل عليه في الدنيا ، طمحت له نفسه ، واستصغر ما عنده من نعم الله ، وحرص على الزيادة ليحققه أو يُقاربه ، وإذا نظر للدون شكر النعمة ، وتواضع وحمد . قال الغزالي : وعجب للمرء كيف لا يساوي دُنياه بدينه ، أليس إذا لامته نفسه فارقها يعتذر إليها بأن من الفساق كثرة ، فينظر أبداً في الدين إلى من هو دونه ، لا لمن فوقه ، أفلا يكون في الدنيا كذلك ؟ . وقال الحكيم : لا يزال الإنسان يترقى في درجات النظر علواً علواً

كُلَّمَا نَالَ دَرَجَةً سَمَا بِهِ حِرْصُهُ إِلَى النَّظَرِ إِلَى مَا فَوْقَهَا ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى مَنْ دُونَهُ فِي دَرَجَاتِ الدِّينِ اعْتَرَاهُ الْعَجَبُ ، فَأَعْجَبَ بِنَفْسِهِ ، فَطَالَ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ عَلَى الْخَلْقِ ، وَاسْتَطَالَ ، فَرَمَى بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْعُلُوِّ ، فَلَا يَبْقَى مِنْهُ عُضْوٌ إِلَّا انْكَسَرَ وَتَبَدَّدَ ، وَكَذَا دَرَجَاتِ الدُّنْيَا إِذَا رُمِيَ بِبَصَرِهِ إِلَى مَنْ دُونَهُ ، تَكَبَّرَ عَلَيْهِ ، فَتَاهُ عَلَى اللَّهِ بِكِبَرِهِ ، وَتَجَبَّرَ عَلَى عِبَادِهِ ، فَخَسِرَ دِينَهُ ، وَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْحَدِيثَ مَحْمُودُ الْوَرَّاقِ ، فَقَالَ :

لا تَنْظُرَنَّ إِلَى ذَوِي الْمَالِ الْمُؤْتَلِّ وَالرِّيَاشِ
فَتَظَلَّ مَوْصُولَ النَّهَارِ بِحَسْرَةٍ قَلِقَ الْفَرَّاشِ
وَانظُرْ إِلَى مَنْ كَانَ مِثْلَكَ أَوْ نَظِيرَكَ فِي الْمَعَاشِ
تَفْنَعُ بِعَيْشِ كَيْفَ كَانَ وَتَرْضَ مِنْهُ بَانْتِعَاشٍ ((.

وفي فيض القدير (٢ / ٧٣) : ((قال ابن عون: صَحِبْتُ الْأَغْنِيَاءَ فَلَمْ أَرُ أَحَدًا أَكْثَرَ هَمًّا مِنِّي . أَرَى ذَابَّةً خَيْرًا مِنْ ذَابْتِي ، وَثَوْبًا خَيْرًا مِنْ ثَوْبِي . وَصَحِبْتُ الْفُقَرَاءَ فَاسْتَرَحْتُ وَمِنْ مَفَاسِدِ مُخَالَطَةِ الْأَغْنِيَاءِ الْإِسْتِكْنَارُ مِنَ الدُّنْيَا ، وَالتَّشَبُّهُ بِهِمْ فِي جَمْعِ الْخَطَامِ ، وَالإِسْتِغَالُ بِذَلِكَ عَنْ عِبَادَةِ الرَّبِّ الْمَالِكِ)) .

إِنَّ الْغِنَى أَشَدُّ خُطُورَةً مِنَ الْفَقْرِ ، لِأَنَّ ضَرَرَ الْغِنَى يُصِيبُ الدِّينَ غَالِبًا ، أَمَا ضَرَرُ الْفَقْرِ فَيُصِيبُ الدُّنْيَا غَالِبًا . وَالغِنَى يُحَاسِبُ عَلَى مَالِهِ ، مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَأَيْنَ أَنْفَقَهُ . أَمَا الْفَقِيرُ ، فَلَيْسَ لَدَيْهِ مَالٌ كَيْ يُحَاسِبَ عَلَيْهِ . وَمَعَ هَذَا نَقُولُ إِنَّ الْمَالَ ضَرُورِيٌّ ، وَهُوَ الْعَمُودُ الْفَقْرِيُّ لِلِاِقْتِصَادِ ، وَهُوَ الَّذِي يُحَرِّكُ الْمُجْتَمَعَ . وَلَكِنْ ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَالُ فِي الْيَدِ لَا الْقَلْبِ ، وَأَنْ يُكْتَسَبَ بِشَكْلِ شَرْعِيٍّ ، وَلَا يُصْبِحَ الْإِنْسَانُ خَادِمًا لِلْمَالِ ، بَلْ يَكُونَ الْمَالُ خَادِمًا لِلْحَقِّ وَمَشَارِيعِ الْخَيْرِ فِي الْمُجْتَمَعَ . فَالْمَالُ وَسِيلَةٌ لِنَشْرِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ وَالْأَمَلِ فِي الْمُجْتَمَعَ ، وَلَيْسَ غَايَةً وَلَا مَقْصُودًا لِدَاثِهِ .

وعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنَ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَرَبِيبَتِهَا)) ٢٥٠ .

بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَخَافُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ حُسْنِ الدُّنْيَا وَجَمَالِهَا ، وَمَا يُفْتَحُ عَلَيْهِمْ مِنْ زَهْرَتِهَا ، يَعْنِي : خَيْرِهَا ، وَيَقْصِدُ بِهِ الْمَالَ . وَشَبَّهَ مَا سَيُفْتَحُ مِنَ الدُّنْيَا بِالزَّهْرَةِ ، لِأَنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّبُولِ ، وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا سَرِيعَةُ التَّغْيِيرِ وَالْأُقُولِ .

٢٥٠ متفق عليه . البخاري (٢ / ٥٣٢) برقم (١٣٩٦) ، ومسلم (٢ / ٧٢٧) برقم (١٠٥٢) .

شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَضَى بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا دَارَ ابْتِلَاءٍ وَابْتِحَارٍ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَغْتَرُّ بِزِينَتِهَا ، وَيَتَنَافَسُ عَلَيْهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ حَقِيقَتَهَا ، فَيَزْهَدُ فِيهَا ، وَيَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ .
 وَقَدْ وَضَّحَ النَّبِيُّ ﷺ الْخَطَرَ الْحَقِيقِيَّ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَحَدَّرَ مِنْهُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَمَانَتِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى إِنْقَاذِ أُمَّتِهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ . فَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ أَنَانِيًّا وَلَا كَاتِمًا لِلْحَقِّ .
 بَلْ أَدَّى أَمَانَةَ التَّبْلِيغِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ ، وَقَدَّمَ النَّصِيحَةَ الصَّادِقَةَ لِأُمَّتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ عِلْمًا وَلَا وَحِيًّا .
 وَهَذَا الْخَطَرُ كَمَا وَضَّحَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ أَنْ تَفْتَحَ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ ، فَيَنْتَشِرُ حُسْنُهَا وَبِهْجَتِهَا ، وَيَكْثُرَ الْمَالُ ، وَيَزْدَادَ نَعِيمُهَا . وَفِي الْحَدِيثِ تَحْذِيرٌ وَاضِحٌ مِنَ الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا ، وَالْمُنَافَاخَةِ بِهَا ، وَالْمُنَافَسَةِ عَلَى جَمْعِ حُطَامِهَا ، وَالْعُرْقُ فِي زَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا الْفَانِيَةِ . وَزَهْرَةُ الدُّنْيَا : نَعِيمُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَخُطُوطُهَا . شَبَّهَتْ بِزَهْرَةِ الرَّوْضَةِ . وَخَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ نَابِعٌ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّ الدُّنْيَا سَوْفَ تَفْتَحُ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَتَزْدَادُ الْأَمْوَالَ ، وَيَنْتَشِرُ الْغِنَى ، وَهَذَا مِنْ أَعْلَامِ التُّبُوءَةِ ، حَيْثُ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَوَقَعَ كَمَا قَالَ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ .

وَفِي فَتْحِ الْبَارِي (١١ / ٢٤٥) : ((قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ : فِيهِ أَنَّ زَهْرَةَ الدُّنْيَا يَبْغِي لِمَنْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهَا ، وَشَرِّ فِتْنَتِهَا ، فَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَى زُخْرُفِهَا ، وَلَا يُنَافِسُ غَيْرَهَا فِيهَا . وَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَفْضَلُ مِنَ الْغِنَى ، لِأَنَّ فِتْنَةَ الدُّنْيَا مَقْرُونَةٌ بِالْغِنَى ، وَالْغِنَى مَطْنَةٌ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ ، الَّتِي قَدْ تَجَرَّأَ إِلَى هَلَاكِ النَّفْسِ غَالِبًا ، وَالْفَقِيرَ آمِنًا مِنْ ذَلِكَ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] .^{٢٥١}

لَا تَنْظُرْ يَا مُحَمَّدُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُتْرَفِينَ الَّذِي يَتَمَتَّعُونَ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ وَزِينَتِهَا الْوَهْمِيَّةِ ، اسْتِحْسَانًا لِمَا هُمْ فِيهِ ، وَتَمَنِّيًّا أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُهُ . فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَةٌ زَائِلَةٌ ، وَزِينَةٌ فَانِيَةٌ ، وَنِعْمَةٌ مُؤَقَّتَةٌ ،

٢٥١ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٣٥/٥): ((سبب نزولها ما روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال : نزل صيف برسول الله ﷺ فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعامًا، فقال: "قل له إن رسول الله ﷺ يقول : يعني كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفني إلى هلال رجب" ، فأثبته فقلت له ذلك. فقال اليهودي: والله لا أبيعهُ ولا أسلفهُ إلا برهن، فأثبت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: "والله لو باعني أو أسلفني لكفصيتهُ، وإني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض. اذهب بذرعي الحديد إليه". فنزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا. قال أبي بن كعب : من لم يتعزَّ بعزاء الله ، تقطعت نفسه حسراتٍ على الدنيا)) .

لِنَحْتَبِرَهُمْ بِهَذَا النِّعِيمِ وَنَبْتَلِيَهُمْ بِهِ ، حَتَّى يَسْتَحِقُّوا الْعَذَابَ بِكُفْرِهِمْ . وَثَوَابُ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَبْقَى ، فَهُوَ دَائِمٌ وَأَبَدِي ، لَا يَزُولُ وَلَا يَنْقُطُ وَلَا يَفْنَى ، وَهُوَ الْحَيَّةُ . أَوْ : مَا رَزَقَكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْهُدَى خَيْرٌ وَأَفْضَلُ مِمَّا مَنَحَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٣٠٣ / ١) : ((« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » لَا تَنْظُرْ « إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ » أَعْطَيْنَا « أَزْوَاجًا » أَصْنَافًا « مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، أَي : زِينَتَهَا وَبَهْجَتَهَا « لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ » ، أَي : لِنَجْعَلَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ بِأَنْ أَزِيدَ لَهُمُ النِّعْمَةَ فَيَزِيدُوا كُفْرًا وَطُغْيَانًا ، « وَرَزَقُ رَبِّكَ » فِي الْمَعَادِ ، يَعْنِي : الْجَنَّةَ « خَيْرٌ وَأَبْقَى » . قَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ : مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعِزَّةِ اللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ ، وَمَنْ يُتَبِعَ بَصَرَهُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يَطُلُّ حُزْنَهُ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ وَحَصَرَ عَذَابُهُ)) .

و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » زِينَتُهَا وَبَهْجَتُهَا ، وَهُوَ مِنَ زَهْرَةِ النَّبَاتِ وَحُسْنِهِ . وَانْتَصَبَ عَلَى الدَّمِ . وَيَبْغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْظُرَ إِلَى تَجَمُّلِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ يُحَرِّكُ دَاعِيَةَ الرَّغْبَةِ فِيهَا ، وَمِصْدَاقُهُ : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . وَقَالَ التَّعَالِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٤٤ / ٣) : ((وَقَوْلُهُ : « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » شَبَّهَ سُبْحَانَهُ نِعَمَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ بِالزَّهْرِ ، وَهُوَ مَا اصْفَرَ مِنَ النَّوْرِ . وَقِيلَ : الزَّهْرُ النَّوْرُ جُمْلَةً ، لِأَنَّ الزَّهْرَ لَهُ مَنْظَرٌ ، ثُمَّ يَضْمَحَلُّ عَنِ قُرْبٍ ، فَكَذَلِكَ مَا هَؤُلَاءِ)) .

وَقَالَ الْفَرَطِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٣١ / ١١) : ((« لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ » أَي لِنَبْتَلِيَهُمْ . وَقِيلَ : لِنَجْعَلَ ذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ وَضَلَالًا . وَمَعْنَى الْآيَةِ : لَا تَجْعَلْ يَا مُحَمَّدُ لَزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، فَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لَهَا . « وَلَا تَمُدَّنَّ » أَبْلَغُ مِنْ « لَا تَنْظُرَنَّ » ، لِأَنَّ الَّذِي يَمُدُّ بَصَرَهُ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ حِرْصٌ مُفْتَرِنٌ ، وَالَّذِي يَنْظُرُ قَدْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ مَعَهُ . . . « وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » أَي : ثَوَابُ اللَّهِ عَلَى الصَّبْرِ وَقِلَّةُ الْمُبَالَاتَةِ بِالدُّنْيَا أَوْلَى ، لِأَنَّهُ يَبْقَى ، وَالدُّنْيَا تَفْنَى . وَقِيلَ : يَعْنِي بِهَذَا الرِّزْقِ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْبِلَادِ وَالْغَنَائِمِ)) .

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ الْمُحَقَّقَةَ ، وَالِدَّوَامَ الَّذِي لَا يَنْقُطُ ، إِنَّمَا يَتَحَقَّقَانِ فِي الرِّزْقِ الْأُخْرَوِيِّ لَا الدُّنْيَوِيِّ ، وَإِنْ كَانَ حَلَالًا طَيِّبًا .

إِنَّ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَرَغَدِ الْعَيْشِ فِتْنَةٌ لَهُمْ ، فَيَزِدَادُونَ كُفْرًا وَضَلَالًا وَطُغْيَانًا ، وَيَسِيرُونَ إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ بِأَرْجُلِهِمْ . وَالنِّعِيمُ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ فِي الْآخِرَةِ أَعْظَمُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِي وَبَهْجَتِهَا الزَّائِلَةِ ، فَهُوَ نَعِيمٌ أَبَدِيٌّ دَائِمٌ بِلَا انْقِطَاعٍ ، لَا يَفْنَى وَلَا يَزُولُ . وَالْمُخَاطَبُ فِي الْآيَةِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أُمَّتَهُ ، لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا ، وَكَانَ

تركيزه على رضا الله ونعيم الآخرة الأبدية (الجنة) . ويجب على المؤمن أن لا ينظر إلى زينة الدنيا ونيعم أهلها ، لأن ذلك يُحرِّك فيه الرغبة إلى مُنافستهم على متاع الدنيا الزائل . وإذا دَخَلَ في مُنافسة معهم على هذا الحُطَام ، سيخرج خاسراً لا محالة ، وستكون خسارته هائلة ، لأنها تشمل الدنيا والآخرة معاً . وصدق الشاعر :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالِ
وما دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ فَيْءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ

وفي إحياء علوم الدين (٢٠٨ / ٣) : ((قال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ بعْ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرَبِّحَهُمَا جميعاً ، ولا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ تَخْسِرَهُمَا جميعاً ، وقال مُطَرِّفُ بنِ الشَّخِيرِ : لا تنظر إلى خَفْضِ عَيْشِ الملوكِ ولينِ رِيَاشِهِمْ ، ولكن انظر إلى سرعة طَعْنِهِمْ وسوءِ مُنْقَلَبِهِمْ . وقال ابن عباس : إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدُّنْيَا ثلاثةَ أَجْزَاءَ : جُزْءٌ للمؤمن ، وجُزْءٌ للمُنَافِقِ ، وجُزْءٌ للكافر . فالمؤمن يَتَزَوَّدُ ، والمُنَافِقُ يَتَزَيَّنُ ، والكافر يَتَمَتَّعُ . وقال بعضهم : الدُّنْيَا جِيفَةٌ ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْهَا شَيْئاً ، فليصبر على مُعَاشِرَةِ الكلابِ . وفي ذلك قِيلَ : يا خَاطِبَ الدُّنْيَا إلى نَفْسِهَا ... تَنَحَّ عَنِ خَطْبِهَا تَسْلَمَ ... إنَّ التي تَخْطُبُ غَدَارَةً... قَرِيبَةُ الغَرَسِ مِنَ المَآئِمِ . وقال أبو الدَّرْدَاءِ : من هَوَانَ الدُّنْيَا على اللهِ أَنَّهُ لا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، ولا يُنال ما عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا . وفي ذلك قِيلَ : إذا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبَ تَكَشَّفَتْ ... له عن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ)) .

وعن عُمر بن الخَطَّابِ _ رضي اللهُ عنه _ أتى النبي ﷺ وهو في غُرْفَةٍ على حَصِيرٍ ، قَدْ أَتَرَ الحَصِيرُ بظَهْرِهِ ، فقال : يا رسولَ اللهِ ، كَسَرَى يَشْرُونُونَ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَنْتَ هَكَذَا . فقال النبي ﷺ : ((إِنَّهُمْ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا)) ٢٥٢ .

إنَّ اللهَ يَمُقَّتُ الكَافِرِينَ ، لَكِنَّهُ لا يَظْلِمُهُمْ . أعطاهم الدُّنْيَا كي يَتَمَتَّعُوا فِيهَا ، وَيَغْرِقُوا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلذَّاتِ ، وَيَلْتَهُوا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ . وذلك لِكَيْ لا يَكُونَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الآخِرَةِ . إِنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِالدُّنْيَا الفَانِيَةِ ، وَيَنْتَظِرُونَ العَذَابَ الأَبَدِيَّ يَوْمَ القِيَامَةِ .

والحَصِيرُ: البِساطُ المَنسُوجُ مِن جَرِيدِ النَّخْلِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ جَعَلَ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ عَلامَاتٍ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى التَّقَشُّفِ وَخُشُونَةِ العَيْشِ ، وَالزُّهْدِ الشَّدِيدِ . فِي حِينِ أَنَّ قَيْصَرَ الرُّومِ وَكَسَرَى

٢٥٢ رواه أحمد في مُسنده (٢ / ٢٩٨) برقم (٧٩٥٠) ، والحديث في الصحيحين .

الْفُرْسَ وَمُلُوكَ الْعَجَمِ يَعِيشُونَ حَيَاةَ مُرْفَهَةٍ وَنَاعِمَةٍ ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا . وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ
أَعْطَاهُمْ حُطَامَ الدُّنْيَا الْفَانِي لِيَحْرِمَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْبَاقِي .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٠ / ٩٢) : ((قال القاضي عياض : هذا مما يحتج
به مَنْ يُفَضِّلُ الْفَقْرَ عَلَى الْغِنَى لِمَا فِي مَفْهُومِهِ أَنَّ بِمِقْدَارِ مَا يَتَعَجَّلُ مِنْ طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا يُفَوِّتُهُ مِنَ
الْآخِرَةِ مِمَّا كَانَ مُدْخَرًا لَهُ لَوْ لَمْ يَتَعَجَّلْهُ . قال : وَقَدْ يَتَأَوَّلُهُ الْآخَرُونَ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ حَظَّ الْكُفَّارِ هُوَ
مَا نَالُوهُ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا ، وَلَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٢٣٠) : ((فَكَانَ ﷺ أَزْهَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ،
إِذَا حُصِّلَتْ لَهُ يُفِيقُهَا هَكَذَا وَهَكَذَا فِي عِبَادِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا لَعْدٍ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ١٦٤) : (((أَمَا) فِي رِوَايَةِ الْأَ (تَرْضَى) يَا عُمَرُ ابْنَ
الْخَطَّابِ (أَنْ تَكُونَ لَهُمْ) فِي رِوَايَةِ لَيْسَ ، يَعْنِي كِسْرَى وَقَيْصَرَ (الدُّنْيَا) أَي : نَعِيمِهَا وَالتَّمَتُّعُ
بِزَهْرَتِهَا وَنَضْرَتِهَا وَلَدَّتْهَا (وَلَنَا الْآخِرَةُ) أَيُّهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَقُلْ : لِي ، مَعَ كَوْنِ السُّؤَالِ
عَنْ حَالِهِ ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْآخِرَةَ لِاتِّبَاعِهِ ، وَهَذَا قَالَهُ لِعُمَرَ ، وَقَدْ رَأَى عُمَرَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي
جَنْبِهِ ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ مِرْطٌ ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ إِهَابٌ مُعَلَّقَةٌ ٢٥٣ ،
فَقَالَ : كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ هَكَذَا ، فَذَكَرَهُ ، وَزَادَ فِي رِوَايَةِ : " يَا ابْنَ
الْخَطَّابِ ، أَوْلَنِكَ عَجَلْتَ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ شَاهِدٌ بِعَيْنِ الْفَوَادِ مَوْعُودِ
الْجَزَاءِ ، فَاسْتَوَى عِنْدَهُ ذَهَبُهَا وَتَرَابُهَا ، فَتَرَكَ الْفَانِي لِلْبَاقِي عَلَى يَقِينٍ وَمُشَاهَدَةٍ ، وَأَثَّرَ الصَّبْرُ بِحَسْبِ
النَّفْسِ عَمَّا تَشْتَهِيهِ طَبْعًا مِمَّا هُوَ مُحَلَّلٌ لَهَا شَرْعًا ، فَلِذَا قَالَ مَا قَالَ ، فَتَدَبَّرْ شَأْنَ أَهْلِ الْكَمَالِ)) .

٣٢_ الإسراف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .
وَلَا تُسْرِفُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْإِسْرَافُ : مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي كُلِّ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ ، وَهُوَ فِي الْإِنْفَاقِ
أَشْهَرُ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ أَمْرَهُ ، وَيَتَعَدَّوْنَ حُدُودَهُ . وَيَبْغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَاقُ
وَالْإِعْطَاءُ بِتَوَازُنٍ وَاعْتِدَالٍ ، بَلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ . وَالآيَةُ تَنْهَى عَنِ التَّبْذِيرِ وَالْإِسْرَافِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

٢٥٣ (الْأَدَمُ) الْجِلْدُ الْمَدْبُوعُ . (اللَّيْفُ) مَا يُخْرَجُ مِنَ سَعْفِ النَّخْلِ تُحْشَى بِهِ الْوَسَائِدُ . (الْمِرْطُ)
كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ أَوْ خَزٍّ أَوْ كَتَّانٍ يُؤْتَرَّرُ بِهِ . (الْإِهَابُ) الْجِلْدُ قَبْلَ أَنْ يُدْبَغَ .

وقال الطبري في تفسيره (٥ / ٣٦١) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ نَهَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ عن جميع معاني الإسراف ، وَلَمْ يُخَصَّصْ مِنْهَا مَعْنَى ذُنُوبٍ مَعْنَى ، وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، وَكَانَ الإسْرَافُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الإِخْطَاءُ بِإِصَابَةِ الْحَقِّ فِي الْعَطِيَّةِ ، إِمَّا بِتَجَاوُزِ حَدِّهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَإِمَّا بِتَقْصِيرِ عَنِّ حَدِّهِ الْوَاجِبِ ، كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ الْمُفْرَقَ مَالَهُ مُبَارَاةً ، وَالْبَاذِلَةَ لِلنَّاسِ حَتَّى أَجْحَفْتُ بِهِ عَطِيَّتَهُ ، مُسْرِفٌ بِتَجَاوُزِهِ حَدَّ اللَّهِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ ، وَكَذَلِكَ الْمُقْصِرُ فِي بَدَلِهِ فِيمَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ بَدَلَهُ فِيهِ ، وَذَلِكَ كَمَنْعِهِ مَا أَلْزَمَهُ إِيْتَاءَهُ مِنْهُ ... الصَّدَقَةَ إِذَا وَجِبَتْ فِيهِ ، أَوْ مَنْعَهُ مَن أَلْزَمَهُ اللَّهُ نَفَقَتَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ مَا أَلْزَمَهُ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ السُّلْطَانُ فِي أَخْذِهِ مِنْ رِعْيَتِهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِأَخْذِهِ ، كُلُّ هَؤُلَاءِ فِيمَا فَعَلُوا مِنْ ذَلِكَ مُسْرِفُونَ ، دَاخِلُونَ فِي مَعْنَى مَنْ أَتَى مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الإسْرَافِ ، بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ فِي عَطِيَّتِكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يُجْحِفُ بِكُمْ ... فَإِنَّ الْآيَةَ قَدْ كَانَتْ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبَبِ خَاصٍ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالْحُكْمُ بِهَا عَلَى الْعَامِ ، بَلْ عَامَّةُ آيِ الْقُرْآنِ كَذَلِكَ ، فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ، وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا مِنْ مَعْنَى الإسْرَافِ أَنَّهُ عَلَى مَا قُلْنَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَخْدُوهَا ثَمَانِيَةَ مَا فِي عَطَائِهِمْ مَنْ وَلَا سَرْفَ

يَعْنِي بِالسَّرْفِ : الْخَطَأَ فِي الْعَطِيَّةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يُؤْتَس : ١٢] .
 إِنَّ الْمُسْرِفِينَ الَّذِي أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْإِجْرَامِ ، زُيِّنَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعِبَادَاتِ ، وَالْإِنْهَمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ .
 وقال القرطبي في تفسيره (٨ / ٢٨٧) : ((﴿ كَذَلِكَ ﴾ كَمَا زُيِّنَ لَهُذَا الدُّعَاءُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَالْإِعْرَاضِ عِنْدَ الرَّخَاءِ ، ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ أَي : لِلْمُشْرِكِينَ أَعْمَالُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَهَذَا التَّزْيِينُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّهِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِضْلَالُهُ دُعَاؤُهُ إِلَى الْكُفْرِ)) .
 وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٢٤) : ((﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ الْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ مِنَ الْعِصْيَانِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَتَرْكِ الشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : كَمَا زُيِّنَ لَكُمْ أَعْمَالِكُمْ ، زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ أَعْمَالَهُمْ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأُنْقَى ﴾

[طه : ١٢٧] .

إِنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُ مَنْ أَسْرَفَ بِالْأَنهَمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ ، وَلَمْ يُصَدِّقْ بِكَلَامِ اللَّهِ ، وَارْتَكَبَ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ ، وَعَذَابُ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، لِأَنَّهُ دَائِمٌ بِلَا نِهَآيَةٍ وَلَا انْقِطَاعَ ، وَهُمْ خَالِدُونَ فِي النَّارِ ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا. وَقَالَ الثَّرطِي فِي تَفْسِيرِهِ (٢٣٠ / ١١) : ((﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ ، أَي : وَكَمَا جَزَيْنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ ، وَعَنِ النَّظَرِ فِي الْمَصْنُوعَاتِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا ، وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْمَعْصِيَةِ ، ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ ، أَي : لَمْ يُصَدِّقْ بِهَا ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ ، أَي : أَفْظَعُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الصَّنْكَ وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، ﴿ وَأَبْقَى ﴾ ، أَي : أَذْوَمَ وَأَثَبَتْ ، لِأَنَّهُ لَا يَنْقَطِعُ ، وَلَا يَنْقُضِي)) اه . وَقَالَ الْبِيضَاوِي فِي تَفْسِيرِهِ (٧٦ / ١) : ((﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ بِالْأَنهَمَاكِ فِي الشَّهَوَاتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآيَاتِ ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ بِلَا كَدِّبَ بِهَا وَخَالَفَهَا ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ وَهُوَ الْحَشْرُ عَلَى الْعَمَى ، وَقِيلَ : عَذَابُ النَّارِ ، أَي : وَلَكِنَّا بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ مِنْ صَنْكَ الْعَيْشِ ، أَوْ مِنْهُ ، وَمِنَ الْعَمَى . وَلَعَلَّهُ إِذَا دَخَلَ النَّارَ زَالَ عَمَاهُ لِيَرَى مَحَلَّهُ وَحَالَهُ ، أَوْ مِمَّا فَعَلَهُ مِنْ تَرْكِ الْآيَاتِ وَالْكَفْرِ بِهَا)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩] .
ثُمَّ صَدَقَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ ، فَأَنْجَاهُمْ هُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُرَادُ إِجَاؤُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَإِهْلَاكِ مَنْ كَفَرَ بِالْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ . وَذَلِكَ الْإِحْبَارُ بِإِهْلَاكِ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنَّ مَنْ يَشَاءُ غَيْرُهُمْ . وَأَهْلَكَ اللَّهُ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ ، الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ، وَكُلُّ مُشْرِكٍ مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِهِ . وَالآيَةُ تَحْوِيفٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ .
وَقَالَ الْبِيضَاوِي فِي تَفْسِيرِهِ (٨٤ / ١) : ((﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ ﴾ أَي : فِي الْوَعْدِ ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ، وَمَنْ فِي إِبْقَانِهِ حِكْمَةٌ ، كَمَنْ سَيُؤْمِنُ هُوَ أَوْ أَحَدٌ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، وَلِذَلِكَ حُمِيَّتِ الْعَرَبِ مِنْ عَذَابِ الْاسْتِئْصَالِ ، ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الشُّعْرَاءُ : ١٥١] .
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ ، الَّذِينَ عَرَفُوا فِي الذُّنُوبِ وَالْإِتْمَامِ وَالْمَعَاصِي . وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ الَّذِينَ عَقَرُوا النَّاقَةَ . وَجُعِلَ الْأَمْرُ مُطَاعًا عَلَى الْمَجَازِ ، وَالْمُرَادُ الْأَمْرُ .
وَقَالَ الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ (٩ / ٤٦٧) : ((لَا تُطِيعُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فِي تَمَادِيهِمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى سَخَطِهِ ، وَهُمْ الرُّهْطُ التَّسْعَةُ الَّذِينَ كَانُوا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ مِنْ ثَمُودَ)) اه . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٤٥٧) : ((يَعْنِي : رُؤْسَاءَهُمْ وَكِبْرَاءَهُمْ الدُّعَاةَ لَهُمْ إِلَى الشَّرِّ وَالْكَفْرِ وَمُخَالَفَةَ الْحَقِّ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزُّمَرُ : ٥٣] ٢٥٤ .

هذه دعوة إلهية كريمة للناس كلهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، فهو سبحانه يقبل التائبين ، ويعفو عنهم ، ويمنحهم الأجر الجزيل ، والكرامة العظمى في جنته الخالدة الباقية . وهذه الآية عامة وشاملة لجميع الناس إلى يوم القيامة ، غير مُقيّدة ولا مُحصّصة . حيث إنّ توبة الكافر تمحو ذنبيه ، والإسلام يهدم ما قبله . وتوبة العاصي تمحو ذنبيه ، وتعيده نظيفاً طاهراً . والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

أحبر عبادي يا محمد ، الذين ظلموا أنفسهم وأهلكوها بكثرة الذنوب والآثام والمعاصي ، والغرق في الكبائر والفواحش والشهوات المحرمة ، والاستكثار منها ، أن لا ييأسوا من رحمة الله ومغفرته ، ولا يفقدوا الأمل ، ولا يُصابوا بالإحباط ، إنّ الله يعفو عن الذنوب جميعاً لمن شاء ، مهما كانت كبيرة وكثيرة ، والرحمة الإلهية أكبر من كلِّ الذنوب ، وأعظم من جميع المعاصي .

إنَّ الله واسع المغفرة ، عظيم الرحمة . والآية تدعو الناس إلى عدم اليأس من رحمة الله . ولا شكَّ أنّ مجال الرحمة واسع ، وباب التوبة مفتوح ، ومن تاب تاب الله عليه ، وغفر له . وهذه الآية أرجى آية في القرآن على الإطلاق ، لأنها تتضمن وعداً إلهياً قاطعاً وجازماً بمغفرة كلِّ الذنوب مهما كانت ، لمن تاب وأتاب وعاد إلى الله تعالى . وهذا يدلُّ على سعة رحمة الله ، ورافته بخلقه ، وإحسانه إليهم ، وتكريمه وتفضله عليهم .

٢٥٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ١٩٠) : ((في سبب نزولها أربعة أقوال : أحدها أنّ ناساً من المشركين كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إنّ الذي تدعو إليه لحسن لو نُحِبْرنا أنّ لِمَا عَمَلْنَا كَفَّارَةً ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد بن جبّير عن ابن عباس . [والحديث مُتَّفَق عليه] . والثاني أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة والوليد ، ونُفِر من المسلمين ، كانوا قد أسلموا ثمَّ عُذِّبوا فافتتنوا ، فكان أصحاب رسول الله يقولون : لا يقبل الله من هؤلاء صرِّفاً ولا عدلاً ، قوم تركوا دينهم بعداب عُذِّبوه ، فنزلت هذه الآية ، فكتبها عمر إلى عيَّاش والوليد وأولئك النَّفَر ، فأسلموا وهاجروا ، وهذا قول ابن عُمر . والثالث أنها نزلت في وَحْشِيٍّ ، عن ابن عباس . والرابع أن أهل مكة قالوا : يرغم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرّم الله لم يُغْفَر له ، فكيف نهاجر ونُسلِم وقد فعلنا ذلك ؟ ، فنزلت هذه الآية ، وهذا مَرْوِيٌّ عن ابن عباس أيضاً)) .

لقد أضافَ اللهُ عِبَادَهُ إلى نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ : ﴿ عِبَادِي ﴾ وهذا تَشْرِيفٌ لَهُمْ ، وَرَفْعٌ لِمَكَانَتِهِمْ ، وإشعارٌ لَهُمْ بِالقُرْبِ وَالكَرَامَةِ وَالشَّرَفِ وَالرَّفْعَةِ . وَوَفَّقَ عُرْفَ الْقُرْآنِ فَإِنَّ كَلِمَةَ ﴿ عِبَادِي ﴾ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ ذَكَرَ الْغَارِقِينَ فِي الْآثَامِ وَالذُّنُوبِ ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الضَّعْفِ الْإِنْسَانِي أَمَامَ الشَّهَوَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَعَاصِي . وَجَاءَ التَّنْهِي الْإِلَهِيُّ : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ مِنَ الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَرَحْمَةُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ . وَجَاءَ التَّأَكِيدُ الْإِلَهِيُّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَوَعْدُهُ الْأَكِيدُ بِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ بِلا اسْتِثْنَاءٍ ، وَمَهْمَا كَانَتْ هَائِلَةً : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ . بَيْنَ اللَّهِ أَنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ كَيْ يَطْمَئِنَّ عِبَادُهُ ، وَتَرْتَاحَ قُلُوبُهُمْ ، وَلَا يَقْلِقُوا وَلَا يَنْزَعِجُوا وَلَا يَتَضَاقِبُوا .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ بِالْعِبَادِ مِنْ أُمَّهَاتِهِمْ ، وَأَنَّ الْإِسْرَافَ فِي الْمَعَاصِي يَضُرُّ الْإِنْسَانَ ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ تَعَالَى . فَاللَّهُ لَا تَضُرُّهُ الْمَعَاصِي ، وَلَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَاتُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَعَمَلَ الطَّاعَاتِ ، لِمَصْلَحَتِهِمْ وَمَنْفَعَتِهِمْ ، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْبَتِهِمْ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى طَاعَاتِهِمْ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَوَدَّدُ إِلَى خَلْقِهِ ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُهُمْ ، إِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَهُ . هُوَ الْغَنِيُّ عَنْهُمْ ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ . وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ : إِنَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . بَلْ قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ . وَوَضَعَ لِفِظِ الْجَلَالَةِ ﴿ اللَّهُ ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ ، لِبَيَانِ عَظَمَتِهِ تَعَالَى ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَكَرَمِهِ الَّذِي يَتَجَلَّى فِي غُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ بِلا اسْتِثْنَاءٍ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسْتَغْنِي الْمُنْعِمُ عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَاللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يُبَالِي ، وَهَذِهِ الْمَغْفِرَةُ لَا تُنْقِصُ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا . وَيَنْبَغِي عَلَى الدُّعَاءِ أَنْ يُبَشِّرُوا النَّاسَ بِمَغْفِرَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ ، وَيَقْتَحُوا أَمَامَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ ، وَلَا يَدْفَعُوهُمْ إِلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَيَنْبَغِي أَنْ يُرْشِدُوا النَّاسَ إِلَى مَحَبَةِ اللَّهِ ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِهِ ، دُونَ أَنْ يُسَيِّطُوا لَهُمْ الْمَعَاصِي وَالْآثَامَ ، وَيُمَيِّعُوا الشَّرِيعَةَ وَيَتَلَاعَبُوا بِهَا بِذَرِيعَةٍ أَنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ رَحِيمٌ . فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوَازُنِ وَالْمُؤَازَنَةِ بَيْنَ الْأُمُورِ . فَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَشَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَبْنِيَ حَيَاتَهُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، يَرْجُو اللَّهَ ، وَيَخَافُ ذُنُوبَهُ ، وَكَلَّمَ أذُنَهُ ذَنْبًا سَارِعًا إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهُ بِلا تَسْوِيفٍ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٧٥) : ((هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَعْوَةٌ لِجَمِيعِ الْعَصَاةِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ مِنْهَا ، وَرَجَعَ عَنْهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مَهْمَا كَانَتْ ، وَإِنْ كَثُرَتْ ، وَكَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ ، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ هَذِهِ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ ، لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يُغْفَرُ لِمَنْ لَمْ يَتُوبْ مِنْهُ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٦٦٧) : ((واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشریفهم ، ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار من الذنوب ، ثم عقّب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب ، فالتّهي عن القنوط للمذنبين غير المُسرفين من باب الأوّل وبفحوى الخطاب ، ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴾ فالألف واللام قد صيّرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس ، الذي يستلزم استغراق أفرادهِ فهو في فُوة ، إن الله يغفر كل ذنب كائناً ما كان ، إلا ما أخرجه النصّ القرآني وهو الشرك . ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب ، بل أكّد ذلك بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ فبإشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المُحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين في رجائه ، الخالعين لثياب القنوط ، الراضين لسوء الظن بمن لا يتعاضمه ذنب ، ولا يخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجّهين إليه في طلب العفو ، وما أحسن ما علّل سبحانه به هذا الكلام قائلًا : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : كثير المغفرة والرحمة ، عظيمهما بليغهما واسعهما ، فمن أبى هذا التفضّل العظيم والعطاء الجسيم ، وظنّ أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أوّلَى بهم ممّا بشرهم الله به ، فقد ركّب أعظم الشطط ، وعلّط أقبح الغلط)) .

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾))^{٢٥٥} .

إنّ النبي ﷺ لا يختار الدنيا وما فيها بديلاً عن هذه الآية ، لأنها أرجى آية في القرآن ، وهي تشمل على الطمع في رحمة الله ، والثقة المطلقة المبصرة به ، وهذا هو طريق الخلود في الجنّة الباقية . أمّا الدنيا وما فيها ، فزائلة وفانية . والحديث يُشير إلى معرفة النبي ﷺ برّبّه ، ورجاحة عقله ، ويُعد نظره ، وتعلّقه بنعيم الجنّة في الدار الآخرة ، الذي لا يقنى ، ولا يزول ، وعدم الاعتزاز بالدنيا الفانية ، وخطامها الزائل ، ومُتعتها المؤقتة ، وُزُحرفها الوهمي .

لا تياسوا من رحمة الله ، بسبب كثرة ذنوبكم وغيوبكم ، فتبَقون غارقين في المعاصي ، ولكن ثَقُوا بالله ، وتأكّدوا من سعة رحمته ، واعلموا أنّه يغفر الذنوب جميعاً ، من الشرك ، والقتل ، والزنا ، وشرب الخمر ، والظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبيرة والصغيرة .

٢٥٥ رواه الطبراني في الأوسط (١ / ٦٢) ، وحسنه الهيتمي في المجموع (١٠ / ٣٦٠) .

وما أجمل قول البوصيري :

يا نَفْسُ لا تَقْنِطِي مِنَ زَلَّةِ عَظُمَتْ
لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
إِنَّ الْكِبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ
تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعَصِيَانِ فِي الْقَسَمِ

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٤١١) : ((قال ابن حجر : واستدل بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها ، سواءً تعلقَتْ بحق الآدميين أم لا ، والمشهور عند أهل السنة أنَّ الذنوب كُلَّهَا تُغْفَرُ بالتوبة وبدونها لمن شاء الله ، لكنَّ حقَّ الآدمي لا بُدَّ من رَدِّه لصاحبه ، أو مُحالته ، وهي أرجى آية في القرآن على الأصح من أقاويل كثيرة ، وذلك لأنَّه عُرِضَ على قاتل حمزة (وحشي) آيات كثيرة ، فما اطمأنَّ ولا آمنَ إلا بها . (فائدة) رُئِيَ الشَّيْلِي فِي النَّوْمِ فَقِيلَ لَهُ : مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ ؟ . قال : حاسبونا فدققوا ... ثُمَّ مَنُوا فَأَعْتَقُوا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] .

هذا من كلام المؤمن من آل فرعون. إنَّ الله لا يُوفِّقُ للهداية والإيمان من هُوَ مُسْرِفٌ فِي كُفْرِهِ وضلاله ، ومُبَالِغٌ فِي الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ .

والمُسْرِفُ : الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِي الْمُسْتَكْبِرُ مِنْهَا ، وَالْكَذَّابُ : الْمُفْتَرِي .

وقال الطبري في تفسيره (١١ / ٥٤) : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ ، يقول : إِنَّ اللَّهَ لَا يُوفِّقُ لِلْحَقِّ مَنْ هُوَ مُتَعَدِّ إِلَى فِعْلٍ مَا لَيْسَ لَهُ فِعْلُهُ ، كَذَّابٌ عَلَيْهِ يَكْذِبُ ، ويقول عليه الباطلَ وَغَيْرَ الْحَقِّ . وقد اختلف أهل التأويل في معنى الإسراف الذي ذكَّره المؤمن في هذا المَوْضِعِ ، فقال بعضهم : عَنَى بِهِ الشَّرْكَ ، وأراد : إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُشْرِكٌ بِهِ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ ... وقال آخرون : عَنَى بِهِ مَنْ هُوَ قَتَّالٌ سَفَّكَ لِلدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّ وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنْ هَذَا الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ عَمَّ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ وَالشَّرْكَ مِنَ الْإِسْرَافِ ، وَسَفَّكَ الدَّمَّ بِغَيْرِ حَقِّ مِنَ الْإِسْرَافِ ، وَقَدْ كَانَ مُجْتَمِعًا فِي فِرْعَوْنَ الْأَمْرَانَ كِلَاهُمَا ، فَالْحَقُّ أَنْ يُعَمَّ ذَلِكَ ، كَمَا أَخْبَرَ جَلَّ تَنَازُهُ عَنْ قَائِلِهِ ، أَنَّهُ عَمَّ الْقَوْلَ بِذَلِكَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [غافر : ٣٤] .

إنَّ اللَّهَ يُضِلُّ كُلَّ مُشْرِكٍ مُسْرِفٍ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ، شَاكٌّ فِي الدِّينِ ، بَعْدَ وُضُوحِ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ ، لِغَلْبَةِ الْوَهْمِ ، وَالغَرَقِ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى . وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يَمْنَعُ الْكَافِرَ الْمُرتَابَ الشَّاكَّ فِي التَّوْحِيدِ وَصِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْ إِصَابَةِ الْحَقِّ ، وَمَعْرِفَةِ الْهُدَى .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٠٠): ((... يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، مُسْتَكْبِرٌ مِنْهَا، مُرْتَابٌ فِي دِينِ اللَّهِ، شَاكٌ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ)).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر : ٤٣] .
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ الْمُسْرِفِينَ فِي الضَّلَالِ وَالطُّغْيَانِ ، وَالغَارِقِينَ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي ، سَيُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ ، يَدْخُلُونَهَا ، وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٠٣) : ((أي : خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عَزَّ وَجَلَّ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٠٤) : ((﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ، أي : المُسْتَكْبِرِينَ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ . قال قتادة وابن سيرين : يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ . وقال مُجَاهِدُ وَالشَّعْبِيُّ : هُمُ السُّفَهَاءُ السَّفَاكُونَ لِلدَّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا . وقال عِكْرَمَةُ : الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ . وقيل : هُمُ الَّذِينَ تَعَدَّوْا حُدُودَ اللَّهِ)) .

وقال الله تعالى: ﴿أَفَنْضَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الرَّحْف: ٥] ٢٥٦ .
هذا استفهام إنكاري . والمعنى : أنتركم تذكيركم ودعوتكم من أجل أنكم مُسْرِفُونَ غارقون في الكُفْر والضَّلَالِ ؟ . هذا لا يَصْلُحُ ، وَلَنْ يَحْدُثَ .

إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ النَّاسَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَيَعْلَمُ مَا يُصْلِحُهُمْ وَمَا يُفْسِدُهُمْ ، وَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ _ نِقَاطَ قَوْلِهِمْ وَنِقَاطَ ضَعْفِهِمْ . وَهُوَ _ سُبْحَانَهُ _ يُعَامِلُهُمْ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، إِنَّهُ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ، وَلَوْ عَامَلَهُمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ لَأَهْلَكْتَهُمْ .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٩٧٠) : ((أفنمسلك عن إنزال القرآن وتتركه من أجل أنكم لا تؤمنون به؟ وهو قوله: ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي: لأن كنتم قَوْمًا مُشْرِكِينَ مُجَاوِزِينَ أَمْرَ اللَّهِ)) .
وهذه الآية تُشِيرُ إِلَى سَعَةِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَتْرِكِ الْعِبَادَ كَالْبَهَائِمِ بِدُونِ وَحْيِ سَمَاوِيِّ ، بَلْ ذَكَرَهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ ، وَلَمْ يَقْطَعْ تَذَكِيرَهُمْ وَهِدَايَتَهُمْ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ ، وَقَطَعَ أَعْدَارَهُمْ .
وَاللَّهُ يُرِيدُ إِنْقَاذَ عِبَادِهِ مِنَ النَّارِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةَ الْمُقَدَّسَةَ هِدَايَةً وَتَعْلِيمًا لَهُمْ ، وَفَتَحَ لَهُمْ كُلَّ الطَّرِيقَاتِ الْمُوصِلَةِ إِلَى النِّعَمِ الْأَبَدِيِّ ، وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .

٢٥٦ في زاد المسير (٧ / ٣٠٣) : ((وفي المُرَادِ بِالذِّكْرِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ ذَكَرَ الْعَذَابَ ، فَالْمَعْنَى : أَفَنْمَسَلُكَ عَنْ عَذَابِكَ وَتَتْرَكُكَ عَلَى كُفْرِكَ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدِ وَالسُّدِّيِّ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الْقُرْآنُ ، فَالْمَعْنَى : أَفَنْمَسَلُكَ عَنْ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مِنْ أَجْلِ أَنْكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ وَابْنِ زَيْدٍ)) .

وَلَوْ أَرْسَلَ اللَّهُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى النَّارِ بَدُونَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ لَمَا تَجَرَّأَ أَحَدٌ عَلَى الْإِعْتِرَاضِ ، لَكِنَّهُ
 _ سُبْحَانَهُ _ رَحِيمٌ بَعَادَهُ ، يَمْنَحُهُمُ الْفُرْصَةَ تَلَوُ الْفُرْصَةَ رَأْفَةً بِهِمْ ، وَمُسَاعِدَةً لَهُمْ ، فَطَاعَةُ الْعِبَادِ
 لَا تَنْفَعُهُ ، وَمَعَاصِيهِمْ لَا تَضُرُّهُ .

وَالْآيَةُ تُشِيرُ كَذَلِكَ إِلَى عِنَادِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَسْوَةِ طِبَاعِهِمْ ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ مَعَ
 أَنْ تَذَكِيرَهُمْ مُتَوَاصِلٌ ، وَإِرْشَادُهُمْ لَا يَنْقَطِعُ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى خُشُونَةِ صِفَاتِهِمْ ، وَقَلُوبِهِمُ الصَّخْرِيَّةِ ،
 وَحَيَاتِهِمُ الْعَارِقَةَ فِي الشَّهْوَانِيَّةِ الْإِسْتِهْلَاقِيَّةِ ، وَالْأَسَاطِيرِ الْوَثْنِيَّةِ الْحَاجِبَةِ لِئُورِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ .

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٤ / ١٥٦) : ((وَقَالَ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ
 صَفْحًا ﴾ : " وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ رُفِعَ حِينَ رَدَّتْهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَادَ
 بِعَائِدَتِهِ وَرَحْمَتِهِ فَكَّرَهُ عَلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عَشْرِينَ سَنَةً ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ " . وَقَوْلُ قَتَادَةَ
 لَطِيفٌ الْمَعْنَى جِدًّا ، وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ فِي مَعْنَاهُ : إِنَّهُ _ تَعَالَى _ مِنْ لُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ لَا يَتْرُكُ
 دُعَاءَهُمْ إِلَى الْخَيْرِ ، وَإِلَى الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَإِنْ كَانُوا مُسْرِفِينَ مُعْرِضِينَ عَنْهُ ، بَلْ أَمَرَ
 بِهِ لِيَهْتَدِيَ بِهِ مَنْ قَدَّرَ هِدَايَتَهُ ، وَتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ كَتَبَ شِقَاوَتَهُ)) .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٤٠) : ((﴿ أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ ، أَيْ : لِأَنَّ كُنْتُمْ
 مُنْهَمِكِينَ فِي الْإِسْرَافِ ، مُصِرِّينَ عَلَيْهِ ، عَلَى مَعْنَى إِنَّ حَالَكُمْ وَإِنْ اقْتَضَى تَخْلِيَتَكُمْ وَشَأْنَكُمْ حَتَّى
 تَمُوتُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، وَتَبَقُّوا فِي الْعَذَابِ الْخَالِدِ ، لَكِنَّا لِسَعَةِ رَحْمَتِنَا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ ، بَلْ
 نَهْدِيكُمْ إِلَى الْحَقِّ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ الْأَمِينِ ، وَإِنزَالِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) .

٣٣_ التَّبْذِيرُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] .
 يَأْمُرُ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقْرَابِ وَالْمُحْتَاجِينَ . وَالخِطَابُ إِمَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ تَهْيِيجًا وَإِهَابًا لِغَيْرِهِ مِنَ
 الْأُمَّةِ ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ هُوَ صَالِحٌ لِدَلِكِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ .

وَأَعْطَى كُلَّ قَرِيبٍ لَكَ حَقَّهُ مِنَ الْبِرِّ ، وَالْإِحْسَانِ ، وَصِلَةِ الرَّحْمِ ، وَحُسْنِ الْمَعَاشَرَةِ ، وَأَعْطَى
 الْمِسْكِينَ الْمُحْتَاجَ ، وَالْغَرِيبَ الْمُنْقَطِعَ فِي سَفَرِهِ حَقَّهُ أَيْضًا ، وَلَا تُنْفِقْ مَالَكَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ،
 فَتَكُونَ مُبْذِرًا . وَالتَّبْذِيرُ : إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ . وَلَا تَبْذِيرُ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥ / ٢٧ و ٢٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾
 فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ قَرَابَةُ الرَّجُلِ مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ ، فَعَلَى هَذَا فِي

حَقَّهُمْ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ بِرُهِمٍ وَصَلْتُهُمْ ، وَالثَّانِي التَّفَقُّةُ الْوَاجِبَةُ لَهُمْ وَقْتَ الْحَاجَةِ ، وَالثَّلَاثُ الْوَصِيَّةُ لَهُمْ عِنْدَ الْوَفَاةِ . وَالثَّانِي أَنَّهُمْ قَرَابَةُ الرَّسُولِ ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَالسُّدِّيُّ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ حَقُّهُمْ : إِعْطَاؤُهُمْ مِنَ الْخُمْسِ ، وَيَكُونُ الْخِطَابُ لِلْوَلَاةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ، قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : الصَّدَقَاتُ الْوَاجِبَةُ ، يَعْنِي : الزَّكَاةَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الَّذِي يَلْزَمُهُ إِعْطَاؤُهُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ . وَقِيلَ : حَقُّ الْمَسْكِينِ مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَابْنُ السَّبِيلِ مِنَ الصِّيَافَةِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا ﴾ فِي التَّبْدِيرِ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقٍّ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : لَوْ أَنْفَقَ الرَّجُلُ مَالَهُ كُلَّهُ فِي حَقٍّ مَا كَانَ مُبَدِّرًا ، وَلَوْ أَنْفَقَ مَدًّا فِي غَيْرِ حَقٍّ كَانَ مُبَدِّرًا . قَالَ الرَّجَّاجُ : التَّبْدِيرُ : التَّفَقُّةُ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَكَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَنْحَرُ الْإِيْلَ ، وَتُبَدِّرُ الْأَمْوَالَ ، تَطْلُبُ بِذَلِكَ الْفَخْرَ وَالسُّمْعَةَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّفَقُّةِ فِي وَجْهٍهَا فِيمَا يُقْرَبُ مِنْهُ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الْإِسْرَافُ الْمُتْلِفُ لِلْمَالِ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْمُبَدِّرُ : هُوَ الْمُسْرِفُ الْمُفْسِدُ الْعَاثِ ((.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي ذُو مَالٍ كَثِيرٍ ، وَذُو أَهْلِ وَوَلَدٍ ، فَكَيْفَ يَجِبُ لِي أَنْ أَصْنَعَ أَوْ أَنْفِقَ ؟ ، قَالَ : ((أَدِّ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ طَهْرَةً تُطَهِّرُكَ ، وَآتِ صِلَةَ الرَّحِمِ ، وَاعْرِفْ حَقَّ السَّائِلِ وَالْجَارِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ)) ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقِيلَ لِي . قَالَ : ((قَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا)) ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِذَا أَدَيْتُ الزَّكَاةَ إِلَى رَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ فَقَدْ أَدَيْتُهَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ؟ ، قَالَ : ((نَعَمْ ، إِذَا أَدَيْتَهَا إِلَى رَسُولِهِ فَقَدْ أَدَيْتَهَا ، وَلَكَ أَجْرُهَا ، وَعَلَى مَنْ بَدَّلَهَا إِيَّاهَا)) ٢٥٧ .

سَأَلَ هَذَا الرَّجُلُ _ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ _ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْإِنْفَاقِ ، فَأَرْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ضَرُورَةِ إِعْطَاءِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةَ ، وَسُمِّيَتْ زَكَاةً لِأَنَّهَا تُزَكِّي الْمَالَ ، أَي : تُطَهِّرُهُ وَتُنَمِّيهِ وَتُنزِلُ الْبَرَكَةَ فِيهِ ، وَتُطَهِّرُ صَاحِبَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالْحِرْصِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَمُسَاعَدَتِهِمْ ، وَمَعْرِفَةِ حَقِّ السَّائِلِ ، وَالْجَارِ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْمُسَافِرِ الْمُنْقَطِعِ الَّذِي يُرِيدُ الرُّجُوعَ إِلَى بَلَدِهِ ، وَلَا يَجِدُ مَا يَتَبَلَّغُ بِهِ . وَطَلَّبَ الرَّجُلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخْتَصِرَ فِي الْبَيَانِ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِإِعْطَاءِ الْقَرِيبِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَعَدَمِ الْإِسْرَافِ فِي الْإِنْفَاقِ . وَالتَّبْدِيرُ : إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي الْمَعَاصِي ، أَوْ أَنْ يَبْسُطَ يَدَهُ فِي إِنْفَاقِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ لِحَاجَاتِهِ .

٢٥٧ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٩٢) برقم (٣٣٧٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وسأل الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ عن أداء الزكاة إلى الشخص الذي يُرسله النَّبِيُّ ﷺ لاستلامها، وقد بيَّن له النَّبِيُّ ﷺ أن إعطاء الزكاة لهذا الشخص يُبرئ ذمته ، ولا يُطالب بإخراج شيء آخر ، وله الثواب العظيم من الله تعالى ، ومن بدل الزكاة فعليه الذنب. ولا شك أن مرتكب الذنب مُستحق للعقوبة. وعن أبي العبيدِين قال : سألتُ عبد الله _ يعني ابن مسعود _ عن قوله : ﴿ ولا تُبذَرُ تَبذِيرًا ﴾ قال : ((هُوَ النَّفَقَةُ فِي غَيْرِ حَقِّ)) ٢٥٨ .

كُلُّ إِنْفاقٍ فِي مَعْصِيَةِ هُوَ تَبذِيرٌ ، مَهْمَا كَانَ قَلِيلًا ، وَكُلُّ إِنْفاقٍ فِي طَاعَةِ لَيْسَ تَبذِيرًا ، مَهْمَا كَانَ كَثِيرًا . ولا تبذير في عمل الخير .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧] . هذا تعليلٌ للنهي ، وهو غاية في الذم والتقيح ، فلا يُوجد أسوأ من الشياطين ، وهم إخوانهم ، لأنهم يُطيعونهم فيما يأمرهم به من الإسراف .

إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَانُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيَاطِينِ ، وَأَمْثَالَهُمْ ، وَأَشْبَاهَهُمْ ، وَعَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي الْإِسْفَادِ وَالْإِضْلالِ . إِنَّهُمْ يُوافِقُونَ الشَّيَاطِينِ فِيمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَيْهِ ، وَيُشَاكِلُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِذَلِكَ كَانُوا إِخْوَانًا لَهُمْ .

وَكَانَ الشَّيْطَانُ جَاحِدًا لِنِعْمِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ . وَالشَّيْطَانُ لَا يُؤَدِّي حَقَّ النِّعْمَةِ ، وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا ، كَذَلِكَ إِخْوَانَهُ الْمُبَذِّرُونَ ، لَا يُؤَدُّونَ حَقَّ النِّعْمَةِ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي الطَّاعَاتِ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُسْرِفَ كَفُورٌ لِنِعْمِ اللَّهِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٤٤١) : ((إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ أمثالهم في الشَّرارة _ مَصْدَرُ الشَّرِّ _ ، فَإِنَّ النَّصِيحَ وَالْإِتْلَافَ شَرٌّ ، أَوْ أَصْدِقَاءَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُمْ فِي الْإِسْرَافِ وَالصَّرْفِ فِي الْمَعَاصِي . رُوِيَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْحَرُونَ الْإِبِلَ ، وَيَتَيَّاسَرُونَ عَلَيْهَا ، وَيُبذِّرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي السُّمْعَةِ ، فَنهَاهم اللَّهُ عَن ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُم بِالْإِنْفاقِ فِي الْقُرْبَاتِ ، ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ مُبَالِغًا فِي الْكُفْرِ بِهِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُطَاعَ)) .

وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣١٧) : ((قَالَ الشَّافِعِيُّ : التَّبذِيرُ : إِنْفاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَلَا تَبذِيرُ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ حِكَايَتِهِ لِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ هَذَا : وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ . قَالَ أَشْهَبُ عَن مَالِكٍ : التَّبذِيرُ هُوَ أَخْذُ الْمَالِ مِنْ حَقِّهِ ، وَوَضْعُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَهُوَ

٢٥٨ رواه الطبراني في الكبير (٩ / ٢٥٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٣٩) : ((رجاله ثقات)) .

الإسراف ، وهو حرام ، لقوله : ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ ، فإنَّ هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير ، والمراد بالأخوة المماتلة التامة ، وتجنُّب مِمَاتِلَةِ الشَّيْطَانِ وَلَوْ فِي خَصَلَةٍ واحدةٍ مِنْ خِصَالِهِ واجب ، فكيف فيما هو أعمُّ من ذلك ، كما يدلُّ عليه إطلاق المِمَاتِلَةِ . والإسرافُ في الإنفاقِ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فإذا فعَّله أحدٌ من بني آدم ، فقد أطاعَ الشَّيْطَانَ ، واقتدى به ، ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ ، أي : كثير الكُفْرَانِ عَظِيمِ التَّمُرُّدِ عَنِ الْحَقِّ ، لأنَّه مع كُفْرِهِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا شَرًّا ، وَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِعَمَلِ الشَّرِّ ، وَلَا يُؤَسِّسُ إِلَّا بِمَا لَا خَيْرَ فِيهِ . وفي هذه الآية تسجيل على المُبْدِرِينَ بِمِمَاتِلَةِ الشَّيَاطِينِ ، ثُمَّ التَّسْجِيلُ عَلَى جِنْسِ الشَّيْطَانِ بِأَنَّهُ كَفُورٌ ، فاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُبْدِرَ مُمَاتِلٌ لِلشَّيْطَانِ ، وَكُلُّ مُمَاتِلٍ لِلشَّيْطَانِ لَهُ حُكْمُ الشَّيْطَانِ ، وَكُلُّ شَيْطَانٍ كَفُورٌ ، فَالْمُبْدِرُ كَفُورٌ .

٣٤_ البَطْر

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال : ٤٧] ٢٥٩ .
 وَلَا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ كَكُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ يَوْمَ بَدْرٍ لِحِمَايَةِ الْعِيرِ فَخَرًّا وَعُتُوًّا وَتَكْبِيرًا وَطُغْيَانًا فِي التَّعَمَّةِ ، وَلِيُثْبِتِي النَّاسُ عَلَيْهِمُ بِالشَّجَاعَةِ وَالسَّمَّاحَةِ ، حَيْثُ قَالُوا : لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَشْرَبَ الْحَمْرَ ، وَنَنْخَرَ الْجَزُورَ (مَا يَصْلُحُ لِأَنْ يُدْبَحَ مِنَ الْإِبِلِ) ، وَتَضْرِبَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ (الْإِمَاءُ الْمُغَنِّيَاتُ) بِبَدْرٍ ، فَيَتَسَامَعُ بِذَلِكَ النَّاسُ ، فَيَخَافُوا مِنَّا ، وَيَهَابُونَا . وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهَا سُوقٌ كُلِّ عَامٍ .

٢٥٩ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٦٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا﴾ ، قَالَ الْمَفْسَّرُونَ: هُمْ أَبُو جَهْلٍ ، وَمَنْ خَرَجَ مَعَهُ مِنْ مَكَّةَ ، خَرَجُوا لِيَدْفَعُوا عَنْ عِيْرِهِمُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَمَعَهُمُ الْقِيَانُ وَالْمَعَازِفُ وَهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ مَا مَعَهُ كَتَبَ إِلَيْهِمْ إِنِّي قَدْ أَحْرَزْتُ أَمْوَالَكُمْ فَارْجِعُوا ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لِي حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا ، فَتَقِيمُ ثَلَاثًا ، وَنَنْخَرَ الْجَزْرَ (جَمْعُ جَزُورٍ) ، وَنُطْعِمَ الطَّعَامَ وَنُسَقِيَ الْخَمْرَ ، وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَا ، فَسَارُوا إِلَى بَدْرٍ فَكَانَتِ الْوَقْعَةُ فَسُقُوا كُؤُوسَ الْمَنَائِمِ مَكَانَ الْخَمْرِ ، وَنَاحَتْ عَلَيْهِمُ النَّوَائِحُ مَكَانَ الْقِيَانِ ، فَأَمَّا الْبَطْرُ فَهُوَ الطُّغْيَانُ فِي النَّعْمِ وَتَرْكُ شُكْرِهَا ، وَالرِّيَاءُ: الْعَمَلُ مِنْ أَجْلِ رِوَايَةِ النَّاسِ ، وَسَبِيلُ اللَّهِ هَاهُنَا دِينُهُ)).

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٥) : ((قال الرَّجَّاحُ : البَطْرُ : الطُّغْيَانُ فِي النِّعْمَةِ وَتَرْكُ شُكْرِهَا ، وَالرِّيَاءُ : إِظْهَارُ الْجَمِيلِ لِيُرَى وَإِبْطَانُ الْقَبِيحِ)) .
 وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنِ الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ خَافِيَةٌ ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ .
 وَقَدْ هَزَمَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ أَثَرًا إِثْرَ عَيْنٍ . وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ ، وَأَمَرَهُمْ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ .

وهذه الآية تنبيه للمؤمنين على ضرورة الإخلاص لله تعالى في القول والفعل ، كي يخالفوا المشركين الذين يسيطر على أعمالهم الشرك والبطر والرياء . والبطر هو الطغيان في النعمة ورفض الحق . وهذه الخصلة المذمومة تُعمي الإنسان ، فلا يستطيع رؤية الأشياء ، وتمييز الغث من السمين .
 وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٢٦٢) : ((ولا تكونوا أيها المؤمنون بالله ورسوله في العمل بالرياء والسُّمعة وتترك إخلاص العمل لله واحتساب الأجر فيه ، كالجيش من أهل الكفر بالله ورسوله الذين خرجوا من منازلهم بطراً ومراءاة الناس ، بزيتهم وأموالهم وكثرة عددهم وشدة بطانتهم ، وَيَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ)) ، يقول : وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ بِقِتَالِهِمْ إِيَّاهُمْ وَتَعْدِيْبِهِمْ مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ مِنَ الرِّيَاءِ وَالصَّدِّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أفعالِهِمْ ﴿ مُحِيطٌ ﴾ يقول : عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَذَلِكَ أَنَّ الأَشْيَاءَ كُلَّهَا لَهُ مُتَجَلِّيَةٌ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَهُوَ لَهُمْ بِهَا مُعَاقِبٌ ، وَعَلَيْهَا مُعَذِّبٌ)) .
 وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا)) ٢٦٠ .

إِنَّ اللَّهَ _ عَزَّ وَجَلَّ _ هُوَ الْمُتَكَبِّرُ ، وَلَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ يُنَازِعَهُ صِفَةَ الكِبْرِيَاءِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُخْتَالِينَ ، لِأَنَّهُمْ اتَّصَفُوا بِصِفَةٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إِلا لَهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .
 مَنْ جَرَّ نُوْبَهُ خِيَلًا وَبَطْرًا ، أَي : أَطَالَ الثِّيَابَ إِلَى مَا بَعْدَ الكَعْبَيْنِ بِقَصْدِ الكِبْرِ ، فَإِنَّ لَهُ عَقُوبَةً شَدِيدَةً ، حَيْثُ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكُلُّ مَنْ حُرِمَ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِلْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَالحَدِيثُ يَنْهَى عَنِ الخِيَلِ وَالبَطْرِ بِاسْبَالِ الثِّيَابِ عَلَى الأَرْضِ .
 وَالجَدِيدُ بِالدُّكْرِ أَنَّ "مَنْ يَتَنَاوَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ فِي الوَعِيدِ الْمَذْكُورِ عَلَى هَذَا الفِعْلِ المَخْصُوصِ .

٢٦٠ متفق عليه . البخاري (٥ / ٢١٨٢) برقم (٥٤٥١) ، ومسلم (٣ / ١٦٥٣) برقم (٢٠٨٧) .

والشخصُ الذي يَجْرُ ثَوْبُهُ بَطْرًا ، لَمْ يَعْرِفْ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فهو عَائِشٌ فِي الْخِيَلَاءِ وَالرِّيَاءِ
والتَّكْبُرِ عَلَى الْحَقِّ ، وَعَمَلُهُ الْقَبِيحُ يَحْمِلُ مَعَانِي الْاِسْتِكْبَارِ وَالغُرُورِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْخِصَالِ مُجْتَمِعَةٌ
تَجْعَلُ مِنَ الْفَرْدِ غُرْصَةً لِلغَضَبِ الْإِلَهِيِّ ، وَاللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمُتَكَبِّرِ إِهَانَةً لَهُ ، وَتَحْقِيقًا لِشَأْنِهِ .
وَلَوْ نَظَرَ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ لِأَدْرَكَ أَنَّهُ كَائِنٌ ضَعِيفٌ مَحْدُودُ الْقُدْرَاتِ ، سَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ - رَغْمِ
أَنْفِهِ - . وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ، فَلَا مَعْنَى لِلْبَطْرِ وَالاِسْتِكْبَارِ وَالغُرُورِ .

وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٢٥٩) : ((...) والحاصل أَنَّ لِلرِّجَالِ حَالَيْنِ : حَالِ اسْتِحْبَابٍ
وهو أَنْ يَفْتَضِرَّ بِالْإِزَارِ عَلَى نِصْفِ السَّاقِ ، وَحَالِ جَوَازٍ وَهُوَ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَكَذَلِكَ لِلنِّسَاءِ حَالَانِ :
حَالِ اسْتِحْبَابٍ وَهُوَ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا هُوَ جَائِزٌ لِلرِّجَالِ بِقَدْرِ الشَّبْرِ ، وَحَالِ جَوَازٍ بِقَدْرِ ذِرَاعٍ) .
وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٢٧٨) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ) نَظَرَ مَثُوبَةٍ أَوْ
رَحْمَةٍ أَوْ لُطْفٍ أَوْ عِنَايَةٍ ، فَعَبَّرَ عَنِ الْمَعْنَى الْكَائِنِ عِنْدَ النَّظَرِ بِهِ ، لِأَنَّ مَنْ نَظَرَ إِلَى مُتَوَاضِعِ رَحْمَةٍ ،
أَوْ إِلَى مُنْكَرٍ مَقْتَه . وَفِي رِوَايَةٍ لِلشَّيْخَيْنِ زِيَادَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (إِلَى مَنْ يَجْرُ إِزَارَهُ) وَفِي رِوَايَةِ ثَوْبِهِ ،
أَي : يُسْبِلُهُ إِلَى تَحْتِ كَعْبَيْهِ (بَطْرًا) أَي لِلكِبْرِ ، فَهُوَ حَرَامٌ مُتَوَعَّدٌ عَلَيْهِ بِالثَّأْرِ فِي عِدَّةِ أَخْبَارٍ .
وَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ جَرَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَطْرًا لَا يَحْرُمُ ، بَلْ يُكْرَهُ) .

٣٥ - البغي

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْتُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ
عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٢٣] .
فَلَمَّا أَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَاكِ إِجَابَةً لِدُعَائِهِمْ ، إِذَا هُمْ يَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ وَالْمَعَاصِي ،
يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا وَبَالَ بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَجَزَاءُ ظُلْمِكُمْ رَاجِعٌ إِلَيْكُمْ ، وَالْإِثْمُ عَائِدٌ عَلَيْكُمْ ،
وَأَنْتُمْ تَصْرُفُونَ أَنْفُسَكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَتَقْوَدُونَهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ . وَالْبَغْيُ : الْفَسَادُ وَالشَّرْكَ .
وَالْمَعْنَى : إِنَّ إِثْمَ الْبَغْيِ وَعُقُوبَةُ الْبَغْيِ عَلَى الْبَاغِي ، إِثْمًا عَاجِلًا ، وَإِمَّا آجِلًا .
وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

فَضَى اللَّهُ أَنَّ الْبَغْيَ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَأَنَّ عَلَى الْبَاغِي تَدْوِيرُ الدَّوَائِرِ

تَتَمَتَّعُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْحَقِيرَةِ بِالشَّهَوَاتِ الْفَانِيَةِ ، الَّتِي يَعْقِبُهَا النَّدْمُ الْبَاقِي ، وَالْعَذَابُ
الْأَبَدِي . وَلَذَلِكَ الدُّنْيَا سَرِيعَةُ الزَّوَالِ ، وَيَبْقَى عِقَابُهَا . ثُمَّ مَصِيرِكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
فِيخْبِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَعَاصِي ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا . وَهَذَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ .

والآية الكريمة تُبَيِّن طبيعة الإنسان الجاحد ، لا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، ولا يَرْجِعُ إِلَيْهِ إِلَّا وَقْتُ الشَّدَّةِ ، فإذا نَجَّاهُ اللَّهُ مِنَ الْمُصِيبَةِ ، وكَشَفَ عَنْهُ الكَرْبَ ، رَجَعَ إِلَى الكُفْرِ والضَّلَالِ والمعاصي ، وتمادى في الشَّرِّ والطُّغيان ، وغَرِقَ فِي الدُّنُوبِ والآثامِ .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٣٠) : ((﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ ﴾ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ المِخْنَةِ الَّتِي وَقَعُوا فِيهَا ، وَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ ، لَمْ يَفُؤُوا بِمَا وَعَدُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ فَعَلُوا فِعْلَ الجاحدين لا فِعْلَ الشَّاكرين ، وجعلوا البَغْيَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ مَكَانَ الشُّكْرِ ، وَ (إِذَا) فِي ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ ﴾ هِيَ الفُجَائِيَّةُ ، أَي : فَاجَؤُوا البَغْيَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ . وَالبَغْيُ : هُوَ الفِسادُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : بَغَى الجُرْحُ : إِذَا تَرَامَى فِي الفِسادِ ، وَزيادة ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ فِسادَهُمْ هَذَا شامِلٌ لِأَقْطَارِ الأَرْضِ . وَالبَغْيُ وَإِنْ كان يُنَافِي أَنْ يَكُونَ بِحَقِّ ، بَلْ لا يَكُونُ إِلَّا بِالباطِلِ ، لَكِنْ زيادة ﴿ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ إِشارةٌ إِلَى أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِغَيْرِ شُبْهَةٍ عِنْدَهُمْ ، بَلْ تَمَرُّدًا وَعِنَادًا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِشُبْهَةِ يَعتقدونها مَعَ كَوْنِها باطِلَةٌ . قَوْلُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الحِياةِ الدُّنْيا ﴾ ، لَمَّا ذَكَرَ سُبْحانَهُ أَنْ هؤُلاءِ المُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، ذَكَرَ عاقِبَةَ البَغْيِ وَسُوءَ مَعْبَئِهِ والحاصل أَنَّهُ إِذا جُعِلَ خَبَرُ المُبتدأ ﴿ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، فالمعنى : أَنَّ ما يَقَعُ مِنَ البَغْيِ عَلَى الغَيْرِ هُوَ بَغْيٌ عَلَى نَفْسِ الباغِي ، باعْتِبارِ ما يُؤوَلُ إِلَيْهِ الأَمْرُ مِنَ الانتِقامِ مِنْهُ ، مُجازاةً عَلَى بَغْيِهِ ، وَإِنْ جُعِلَ الخَبَرُ ﴿ مَتَاعَ ﴾ ، فالمرادُ : أَنَّ بَغْيَ هَذَا الجِنْسِ الإِنسانِيِّ عَلَى بَعْضِهِ بَعْضًا هُوَ سَريعُ الزوالِ ، قَريبُ الاضمحلالِ ، كَسائِرِ أمتعة الحِياةِ الدُّنْيا ، فَإِنَّها ذاهِبةٌ عَن قُربِ ، مُتلاشِيةٌ بِسرعةٍ ، لَيْسَ لِذَلِكَ كَثيرُ فائِدةٍ ، وَلا عَظيمُ جَدوى . ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ ما يَكُونُ عَلَى ذَلِكَ البَغْيِ مِنَ المُجازاةِ يَوْمَ القِيامَةِ مَعَ وَعِيدِ شَدِيدٍ ، فَقَالَ : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ ، وَتَقْدِيمِ الخَبَرِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى القَصْرِ ، وَالمَعْنَى : أَنَّكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الحِياةِ الدُّنْيا وَمَتاعِها تَرجعونَ إِلَى اللَّهِ ، فَيُجازِي المُسِيءَ بِإِساءَتِهِ ، وَالمُحْسِنَ بِإِحسانِهِ ، ﴿ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فِي الدُّنْيا ، أَي : فَتُخَبِّرُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيا مِنْ خَيْرٍ وَشَرِّ ، وَالمُرَادُ بِذَلِكَ المُجازاةُ ، كما تَقولُ لِمَنْ أَساءَ : سَأخَبِرُكَ بِما صَنَعْتَ ، وَفِيهِ أَشدُّ وَعَيدٍ ، وَأَفْظَعُ تَهْديدٍ)) .

وعن أبي بَكْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((لا تَبْغِ ، وَلا تَكُنْ باغِيًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقولُ : ﴿ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾)) ٢٦١ .

٢٦١ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٩) برقم (٣٢٩٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْبَغْيِ ، وَهُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي الْاِعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ ، فَهُوَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ ، وَعَاقِبَتُهُ وَخِيمَةٌ ، وَعَلَى الْبَاغِي تَدْوِيرُ الدَّوَائِرِ ، وَإِثْمُ الْبَغْيِ يَعُودُ عَلَى صَاحِبِهِ . وَلَهُ تَأْثِيرَاتٌ سَلْبِيَّةٌ عَلَى الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْمَجْتَمَعِ ، حَيْثُ إِنَّهُ يُحَوِّلُ الْفَرْدَ إِلَى وَخْشِ بَلَا أَخْلَاقٍ ، وَيُمَزِّقُ الْجَمَاعَةَ فَتَفْقِدُ تَمَاسُكَهَا ، وَيَنْشُرُ الْقِيَمَ السَّيِّئَةَ فِي الْمَجْتَمَعِ كَالْحَقْدِ وَالانْتِقَامِ وَالكَرَاهِيَّةِ .

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ تُعَجَّلَ لِمَالِكِهِ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدْخَرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ)) ٢٦٢ .

لَا يُوجَدُ ذَنْبٌ مِنَ الذُّنُوبِ أَوْلَى بِتَعْجِيلِ الْعُقُوبَةِ لِمَالِكِهِ فِي الدُّنْيَا ، مَعَ مَا يَكُونُ لَهُ مِنْ عُقُوبَةٍ فِي الْآخِرَةِ عَلَى هَذَا الذَّنْبِ ، مِنَ الْبَغْيِ (الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ وَالْعُدْوَانِ) وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ (قَطْعِ الصَّلَةِ بَيْنَ الشَّخْصِ وَأَقْرَابِهِ) . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عُقُوبَةَ الدُّنْيَا لَا تَرْفَعُ عَنْهُ عُقُوبَةَ الْآخِرَةِ ، بَلْ هِيَ زِيَادَةٌ لِلْعَذَابِ . وَالْحَدِيثُ يُحَدِّثُ مِنَ الظُّلْمِ وَقَطْعِ الرَّحِمِ ، وَيَدْعُو إِلَى الْعَدْلِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٥ / ٤٧٨) : ((مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ) بِسُكُونِ الْجِيمِ ، أَحَقُّ ... (أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِمَالِكِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدْخَرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) لِأَنَّ الْبَغْيَ مِنَ الْكِبْرِ ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ مِنَ الْاِقْتِطَاعِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَالرَّحِمَ الْقَرَابَةَ وَلَوْ غَيْرَ مَحْرَمٍ)) . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَمُؤَاسَاةِ الْأَقْرَابِ ، وَخَصَّه بِالذِّكْرِ اهْتِمَامًا بِهِ . وَيَنْهَى عَنِ كُلِّ قَبِيحٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ . وَالْفَحْشَاءُ : مَا تَنَاهَى قُبْحُهُ كَالشَّرِّ وَالزُّنَا . وَالْمُنْكَرُ : كُلُّ مَا تُنْكِرُهُ الْفِطْرَةُ . وَالْبَغْيُ : الظُّلْمُ وَتَجَاوُزُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ . وَاللَّهُ يُؤَدِّبُكُمْ بِمَا شَرَعَ لَكُمْ ، وَيُعِظُكُمْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَيْ تَتَّعِظُوا . وَقَدْ أَمَرَتِ الْآيَةُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَنَهَتْ عَنْ مَسَاوئِهَا . أَي : إِنَّهَا أَمَرَتْ بِكُلِّ خَيْرٍ ، وَنَهَتْ عَنِ كُلِّ شَرٍّ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : ((إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾)) ٢٦٣ .

٢٦٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٨) برقم (٣٣٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢٦٣ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٨٨) برقم (٣٣٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا قول صحيح ودقيق ، فما من خير إلا وهو داخل تحت العدل والإحسان ، وما من شر إلا وهو داخل تحت الفحشاء والمنكر والبغى . فكانت هذه الآية _ كما قال عنها الصحابي الجليل _ : أجمع آية في القرآن للخير والشر . لذلك يقرؤها كلُّ خطيب على المنبر في آخر كلِّ خطبة ، لتكون عظة جامعةً وشاملةً لكلِّ أمرٍ ونهي .

وهذه الآية جمعت أحكامًا كثيرةً ، وتضمنت جميع أوامر الشرع ونواهيه ، وهي أجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها ، والزجر عن المفاسد بأسرها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ٤٨٣ و ٤٨٤) : ((قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها أنه شهادة أن لا إله إلا الله ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني أنه الحق ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث أنه استواء السريرة والعلانية في العمل لله تعالى ، قاله سفيان بن عيينة . والرابع أنه القضاء بالحق ، ذكره الماوردي . قال أبو سليمان : العدل في كلام العرب : الإنصاف ، وأعظم الإنصاف : الاعتراف للمنعيم بنعمته . وفي المراد بالإحسان خمسة أقوال : أحدها أنه أداء الفرائض ، رواه أبي طلحة عن ابن عباس ، والثاني العفو ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث الإخلاص ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والرابع أن تعبد الله كأنك تراه ، رواه عطاء عن ابن عباس . والخامس أن تكون السريرة أحسن من العلانية ، قاله سفيان بن عيينة . فأما قوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ ، فالمراد به صلة الأرحام . وفي الفحشاء قولان : أحدهما أنها الرِّنا ، قاله ابن عباس . والثاني المعاصي ، قاله مقاتل . وفي المنكر أربعة أقوال : أحدها أنه الشرك ، قاله مقاتل . والثاني أنه ما لا يعرف في شريعة ولا سنة . والثالث أنه ما وعد الله عليه النار ، ذكرهما ابن السائب . والرابع أن تكون علانية الإنسان أحسن من سريرته ، قاله سفيان بن عيينة . فأما البغي فقال ابن عباس : هو الظلم . قوله تعالى : ﴿ يَعْظُكُمْ ﴾ ، قال ابن عباس : يؤدبكم . و ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بمعنى : تتعظون . قال ابن مسعود : هذه الآية أجمع آية في القرآن لخير أو لشر . وقال الحسن : والله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله إلا جمعه ، ولا تركت الفحشاء والمنكر والبغى شيئاً من معصية الله إلا جمعه)) وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

والذين إذا أصابهم الظلم ينتقمون ممن ظلمهم يمثل ظلمه من غير أن يعتدوا . ولا يستسلمون لظلم المعتدي ، ولا يتدللون له . ومع هذا ، فالصبر والعفو أفضل . ولا يوجد تعارض بين مدح الذين يعفون عن الظالمين ، ومدح الذين ينتقمون منهم ، لأن لكلِّ مقام مقال ، ولكلِّ حادثٍ حديث ، وكلُّ فعلٍ في موضعه محمود ، ويجب وضع الأمور في نصابها الصحيح ، فالتسامح

محمود في موضعه ، والانتقام محمود في موضعه ، وينبغي عدم الخلط بينهما . وما أجمال قول الشاعر :

وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا مُضِرَّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ١٥٠) : ((قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ، أي : فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدرُوا عَفَوا)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٧٧٠) : ((ذَكَرَ سُحَّانَهُ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَنْتَصِرُ مِمَّنْ ظَلَمَهَا ، فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ، أي : أصابهم بغْيٌ من بغْيٍ عَلَيْهِمْ بغير حق . ذَكَرَ سُحَّانَهُ هَؤُلَاءِ الْمُنتَصِرِينَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ ، كَمَا ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ عِنْدَ الْغَضَبِ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ ، لِأَنَّ التَّدْلِيلَ لِمَنْ بَغَى لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْعِزَّةَ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الْمُنَافِقُونَ : ٨] . فَالانتصار عند البغْيِ فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة . قَالَ النَّحَّيْ : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُذَلُّوا أَنْفُسَهُمْ ، فَيَجْتَرِئُ عَلَيْهِمُ السُّفَهَاءُ)) .

٣٦_ الفساد والإفساد

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١١] .
إِذَا قِيلَ لَهُؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ : لَا تَعْصُوا اللَّهَ ، وَلَا تَعْتَقُوا الْكُفْرَ وَالتَّفَاقُ ، وَلَا تَأْمُرُوا بِالْآثَامِ وَالمعاصي .
والمعنى : لَا تَكْفُرُوا وَتَوَالُوا الْكَافِرِينَ وَتَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ . قَالُوا _ كَذِبًا وَزُورًا _ : الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ هُوَ صِلَاحٌ وَليْسَ فِسَادًا . إِنَّمَا نَحْنُ عَلَى الْهُدَى وَالحقِّ وَالخَيْرِ ، وَنُرِيدُ صِلَاحَ الْمَجْتَمَعِ ، وَالإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ .

لَقَدْ نُهُوا عَنِ الْكُفْرِ ، وَالكُفْرُ أَشَدُّ فِسَادًا فِي الدِّينِ . وَالفِسَادُ هُوَ خُرُوجُ الشَّيْءِ عَنِ الْعَدَالِ .
وهؤلاء المُنَافِقُونَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَيَعْرِقُونَ فِي الْكُفْرِ وَالصَّلَالِ ، لِذَلِكَ اعْتَبَرُوا إِفْسَادَهُمْ فِي الْأَرْضِ إِصْلَاحًا . وَالْإِنْسَانُ إِذَا انْتَكَسَ قَلْبُهُ ، صَارَتْ أَفْكَارُهُ مَقْلُوبَةً ، وَأَحْكَامُهُ مَعْكُوسَةً . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سُقُوطِهِ فِي الشُّكُوكِ وَالتَّشْبُهَاتِ ، وَتَلَاعِبِ الْأَهْوَاءِ بِهِ ، وَعَدَمِ وَجُودِ مَنْهَجِ مُتَمَاسِكٍ فِي حَيَاتِهِ ، وَلَا مَعْنَى لَوْجُودِهِ . وَالفِسَادُ فِي الْأَرْضِ هُوَ الْكُفْرُ وَمَعْصِيَةُ اللَّهِ وَرَفْضُ أَمْرِهِ . وَالمُنَافِقُونَ فَاسِدُونَ وَمُفْسِدُونَ فِي آنٍ مَعًا ، فَقَدْ رَفَضُوا الْإِسْلَامَ ، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَحَارَبُوهُ ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَبَثُّوا الْفِتْنَ وَالْخِلَافَاتِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لِهَدْمِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الدَّخْلِ ، وَتَفْرِيقِ كَلِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَشْتِيتِ قَوَاهِمِهِمْ ، وَقَامُوا بِإِفْشَاءِ أَسْرَارِهِمْ إِلَى أَعْدَائِهِمْ . وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى فِسَادِ الْعُقُولِ ، وَهَلَاكِ الْأَبْدَانِ ، وَانْهِيَارِ الْحَضَارَةِ ، وَخِرَابِ الْعُمُرَانِ ، وَاشْتِعَالِ الْحُرُوبِ ، وَانْتِشَارِ الْفِتَنِ وَالْبَلْبَلَةِ ، فَيَزُولُ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ ، وَيَصِيرُ الْمَجْتَمَعُ غَابَةً يَأْكُلُ الْقَوِيُّ فِيهَا الضَّعِيفَ ، وَلَا يَأْمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَى حَيَاتِهِ وَلَا عَرَضِهِ وَلَا مَالِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مُمَارَسَةَ شَعَائِرِ دِينِهِ ، وَلَا أَدَاءَ الْعِبَادَاتِ . فَتُظْهِرُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبَ ، وَتَنْهَارُ الْعَقِيدَةَ فِي الْقُلُوبِ ، وَيُهَيِّئُ الدِّينَ ، وَتَنْتَشِرُ الْفُوضَى وَالْقَلَقَ ، وَيَحْدُثُ خَلَلٌ كَبِيرٌ فِي نِظَامِ الْوُجُودِ وَمَنْظُومَةِ الْحَيَاةِ ، وَتَصِيرُ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي غَايَةِ السُّوءِ ، وَتَزُولُ الْمَنَافِعُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ . وَأَيُّ فِسَادٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟ ! .

لَقَدْ كَانَ الْمَنَافِقُونَ مُتَحَالِفِينَ مَعَ الْكَافِرِينَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَيَنْقَلِبُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَ الْمُسْلِمِينَ وَأَخْبَارَهُمْ ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى إِضْعَافِ الْجَبْهَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتَحْطِيمِهِمْ ، وَانْتِشَارِ الْفِتَنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَيَنْهَارُ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الدَّخْلِ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٤٧) : ((وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ ، وَمُؤَالَاةِ أَهْلِهِ ، وَتَفْرِيقِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ . وَقِيلَ: كَانَتْ الْأَرْضُ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا الْفِسَادَ ، وَيُفْعَلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ارْتَفَعَ الْفِسَادُ ، وَصَلَحَتِ الْأَرْضُ ، فَإِذَا عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي ، فَقَدْ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)) .

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٦٩) : ((﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ جَوَابٌ لـ ﴿ إِذَا ﴾ . رَدٌّ لِلنَّاصِحِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ مُخَاطَبَتُنَا بِذَلِكَ ، فَإِنَّ شَأْنَنَا لَيْسَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ، وَإِنَّ حَالَنَا مُتَمَحِّضَةٌ عَنِ شَوَائِبِ الْفِسَادِ ، لِأَنَّ " إِنَّمَا " تُفِيدُ قَصْرَ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ عَلَى مَا بَعْدَهُ ، مِثْلَ : إِنَّمَا زَيْدٌ مَنْطَلِقٌ ، وَإِنَّمَا يَنْطَلِقُ زَيْدٌ . وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ تَصَوَّرُوا الْفِسَادَ بِصُورَةِ الصَّلَاحِ ، لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَرَضِ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (١ / ٣٢) : ((وَفِي الْمَرَادِ بِالْفِسَادِ هَاهُنَا خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْكُفْرُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي الْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ وَمُقَاتِلٌ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ الْكُفْرُ وَالْمَعَاصِي ، قَالَهُ السُّدِّيُّ عَنْ أَشْيَاخِهِ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ تَرَكَ امْتِثَالَ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابَ النَّوَاهِي ، قَالَهُ مِجَاهِدٌ . وَالخَامِسُ أَنَّهُ التَّفَاقُ الَّذِي صَادَفُوا بِهِ الْكُفْرَ ، وَأَطْلَعُوهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، ذَكَرَهُ شَيْخُنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فِيهِ خَمْسَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّ مَعْنَاهُ انْكَارَ مَا عُرِفُوا بِهِ . وَتَقْدِيرُهُ: مَا فَعَلْنَا شَيْئًا يُوجِبُ الْفِسَادَ . وَالثَّانِي أَنَّ مَعْنَاهُ إِنَّا نَقْصِدُ

الإصلاح بين المسلمين والكافرين ، والقولان عن ابن عباس . والثالث أنهم أرادوا : مُصَافَاة الكفار صلاح لا فساد ، قاله مُجاهد وقَتَادَة . والرابع أنهم أرادوا إنَّ فَعَلْنَا هذا هو الصلاح ، وتصديق مُحَمَّد هو الفساد ، قاله السُّدِي . والخامس أنهم ظَنُّوا أنَّ مُصَافَاة الكفار صلاح في الدنيا لا في الدِّين ، لأنهم اعتقدوا أنَّ الدَّوْلَة (النصر) إن كانت للنبي ﷺ فقد أَمْنُوهُ بِمُبايعته، وإن كانت للكفار ، فقد أَمْنُوهُم بِمُصَافَاتِهِمْ، ذَكَرَهُ شَيْخُنَا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢] .
يَكْذِبُ اللهُ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ، وَيَنْفِضُهُمْ . إِنَّ أَقْوَالَ الْمُنَافِقِينَ الْفَاسِدَةِ وَأَفْعَالِهِمُ الدِّينِيَّةُ هِيَ الْفَسَادُ بِعَيْنِهِ ، وَهُمْ الْمُفْسِدُونَ لِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَغَرَفُوا فِي الدُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ . وَلَكِن بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، فَقَدُوا الْقُدْرَةَ عَلَى الشُّعُورِ وَالْإِحْسَاسِ وَالتَّمْيِيزِ ، فَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ مَا يَقُومُونَ بِهِ هُوَ الْفَسَادُ .
و " أَلَا " كَلِمَةٌ تَنْبِيهِ وَإِثْبَاتٌ وَتَحْقِيقٌ لِمَا بَعْدَهَا وَتَأْكِيدٌ لِصِحَّةِ الْكَلَامِ . يُنْبِئُهُ بِهَا الْمُخَاطَبُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرَكِّزَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَحْرُسَ عَلَى فَهْمِ أَعْيَانِهِ وَدَلَالَتِهِ ، وَيَتَّقَى بِصِحَّتِهِ وَصَوَابِهِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٠) : ((﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ رَدِّ لِمَا ادَّعَوْهُ أَبْلَغُ رَدِّ ، لِلإِسْتِثْنَاءِ بِهِ . وَتَصْدِيرِهِ بِحَرْفِي التَّأْكِيدِ : ﴿ أَلَا ﴾ الْمُنْبَهَةِ عَلَى تَحْقِيقِ مَا بَعْدَهَا ، فَإِنَّ هَمْزَةَ الإِسْتِثْنَاءِ الَّتِي لِلإِنْكَارِ ، إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّفْيِ ، أَفَادَتْ تَحْقِيقًا)) .

وَاللَّهُ يُنَبِّئُهُ وَيُقَرِّرُ وَيُثَبِّتُ الْحُكْمَ الإِلَهِيَّ الْخَالِدَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ . فَقَدْ أَفْسَدُوا أَنْفُسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ، وَأَفْسَدُوا النَّاسَ بِأَن صَدَّوْهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَنَبِيِّهِ ﷺ .
إِنَّهُمْ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ ، وَيُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ حِيلَتَهُمْ سَتَنْتَظِلِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَسْمَائِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ .

وأيضًا ، إن المنافقين يعتبرون الطعن في الإسلام ومُوالاة الكافرين عَيْنَ الْعَقْلِ وَالصَّوَابِ ، وَقِمَّةِ الصَّلَاحِ . وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُ هَذَا مُنْتَهَى الْفَسَادِ . وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ ، لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ إِخْفَاءَ الْكُفْرِ وَإِظْهَارَ الْإِيمَانِ ذِكَاءً وَدِهَاءً وَعَبْقَرِيَّةً وَصَلَاحًا ، وَلَا يَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٣٣) : ((وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قولان : أحدهما لا يشعرون أنَّ الله يُطَّلِعُ نَبِيِّهِ عَلَى فسادهم . والثاني لا يشعرون أنَّ ما فعلوه فساد لا صلاح)) .

وقال الطبري في تفسيره (١ / ١٦٠) : ((وهذا القول من الله جل ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم إذا أمرُوا بطاعة الله فيما أمرهم الله به ، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه ، قالوا : إنما نحن مُصْلِحُونَ لا مُفْسِدُونَ ، ونحن على رُشد وهدى فيما أنكرتموه علينا دونكم لا ضالُّون . فَكَذَّبَهُمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ في ذلك من قِيلِهِمْ ، فقال : ألا إنهم هُمُ الْمُفْسِدُونَ الْمُخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُتَعَدُّونَ حُدُودَهُ ، الراكبون معصيته ، التاركون فُرُوضَهُ ، وهُم لا يَشْعُرُونَ ، ولا يَدْرُونَ أنهم كذلك ، لا الذين يأمرُونَهُم بِالْقِسْطِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَنْهَوْنَهُمُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

والله يُبْغِضُ الْعِصَاةَ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الدُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي بَيْنَ النَّاسِ ، فلا يُجَازِيهِمْ إِلَّا شَرًّا ، وَسَيُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ . وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٦٣٩) : ((﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يقول : والله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ عَامِلًا بِمَعَاصِيهِ فِي أَرْضِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] ٢٦٤ .

ولا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللَّهُ بِبِعْتَةِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ _ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ _ ، وتشريع الأحكام النافعة للناس في الدنيا والآخرة . والله يَنْهَى عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، فهو شديد الخطورة وذو صَرَرٍ عَظِيمٍ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ . وإذا كانت الأُمُورُ سائِرَةً بِشَكْلِ صَاحِبِهَا وَسَلِيمٍ ، ثُمَّ وَقَعَ الْإِنْحِرَافُ وَحَصَلَ الْإِفْسَادُ بَعْدَ ذَلِكَ ، كان أَصْرًا ما يكون على الْعِبَادِ . ووظيفَةُ الْأَنْبِيَاءِ هِيَ إِصْلَاحُ الْأَرْضِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وذلك بالدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ ، وبيان الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ . وقد أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَهُمْ غَارِقُونَ فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَالْفِسَادِ ، فَأَصْلَحَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَمَنْ دَعَا إِلَى خِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَهُوَ مِنَ الْفَاسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْمُفْسِدِينَ فِيهَا . وقد أَحَلَّ اللَّهُ الْحَلَالَ ، وَحَرَّمَ الْحَرَامَ ، وَبَيَّنَّ الْحُدُودَ ، فَلا تَعْتَدُوهَا .

٢٦٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٢١٥ و ٢١٦) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ، فيه ستة أقوال : أحدها لا تُفْسِدُوهَا بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِالْإِيمَانِ ، والثاني لا تُفْسِدُوهَا بِالظُّلْمِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِالْعَدْلِ ، والثالث لا تُفْسِدُوهَا بِالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِالطَّاعَةِ ، والرابع لا تَعْصُوا قَيْمِسِكَ اللَّهُ الْمَطْرَ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ بِمَعَاصِيكُمْ بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا بِالْمَطْرِ وَالخَيْصَبِ ، والخامس لا تُفْسِدُوهَا بِقَتْلِ الْمُؤْمِنِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِبِقَائِهِ ، والسادس لا تُفْسِدُوهَا بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا بِالْوَحْيِ)) .

وقال البغوي في تفسيره (٢٣٨ / ١) : ((﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ، أي : لا تُفْسِدُوا فِيهَا بِالْمَعَاصِي وَالذُّعَاءِ إِلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ، بعد إِصْلَاحِ اللَّهِ بِعَثِّ الرُّسُلِ ، وَبَيَانِ الشَّرِيعَةِ ، وَالذُّعَاءِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ وَالسُّدِيِّ وَالصَّحَّاحِ وَالْكَلْبِيِّ)) .
 وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣١١ / ٢) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ نَهَاهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، وَمِنْهُ قَتْلُ النَّاسِ ، وَتَخْرِيبُ مَنَازِلِهِمْ ، وَقَطْعُ أَشْجَارِهِمْ ، وَتَغْوِيرُ أَنْهَارِهِمْ . وَمِنْ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ الْكُفْرُ بِاللَّهِ ، وَالزُّفُوعُ فِي مَعَاصِيهِ . وَمَعْنَى ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ : بَعْدَ أَنْ أَصْلَحَهَا اللَّهُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ ، وَتَقْرِيرِ الشَّرَائِعِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤] .
 وَلَا تَسْعَوْا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ، وَلَا تَعْمَلُوا فِيهَا بِمَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَى . وَالْعُتُوُّ : أَشَدُّ الْفَسَادِ .
 وقال الطبري في تفسيره (٥٣٧ / ٥) عن قتادة : ((لَا تَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .
 هَذَا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ شُعَيْبٍ ؑ . وَانظُرُوا مَا حَلَّ بِالْأُمَّمِ السَّابِقَةِ حِينَ ارْتَكَبُوا الْمَعَاصِي ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، لَقَدْ انْتَمَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَأَهْلَكَهُمْ ، فَاعْتَبِرُوا بِهِمْ ، وَاتَّعَظُوا ، وَالْعُقَلَاءُ هُمُ الَّذِينَ اتَّعَظُوا بِغَيْرِهِمْ ، وَلَمْ يُكْرَرُوا أَحْطَاءَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ ، لِكَيْلَا يَلْاقُوا نَفْسَ مَصِيرِهِمُ الْكَارِثِي .
 وقال الطبري في تفسيره (٥٤٤ / ٥) : ((﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، يَقُولُ : وَانظُرُوا مَا نَزَلَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ ، حِينَ عَتَوْا عَلَى رَبِّهِمْ ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ مِنَ الْمَثَلَاتِ _ يَعْنِي الْعُقُوبَاتِ _ وَالنَّقَمَاتِ ، وَكَيْفَ وَجَدُوا عُقُوبَةَ عِصْيَانِهِمْ إِيَّاهُ ، أَلَمْ يُهْلِكْ بَعْضَهُمْ غَرَقًا بِالطُّوفَانِ ، وَبَعْضَهُمْ رَجْمًا بِالْحِجَارَةِ ، وَبَعْضَهُمْ بِالصَّيْحَةِ ؟ ، وَالْإِفْسَادُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَعْنَاهُ : مَعْصِيَةُ اللَّهِ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] .
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ مَنْ سَعَى فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، وَعَمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي ، وَلَا يَجْعَلُهُ نَافِعًا ، وَلَا يُثَبِّتَهُ ، بَلْ يَمْحَقُهُ وَيُدَمِّرُهُ .

وقال الطبري في تفسيره (٥٩٠ / ٦) : ((يَعْنِي : إِنَّهُ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ مَنْ سَعَى فِي أَرْضِ اللَّهِ بِمَا يَكْرَهُهُ ، وَعَمِلَ فِيهَا بِمَعَاصِيهِ)) .
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الرُّوم : ٤١] .

ظَهَرَتِ المَصَائِبُ وَالكَوَارِثُ وَالتَّكْبَاتُ فِي بَرِّ الأَرْضِ وَبَحْرِهَا ، بِسَبَبِ مَعَاصِي النّاسِ وَذُنُوبِهِمْ ، لِيُصِيبَهُمْ بِعُقُوبَةٍ بَعْضُ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ العِقَابِ العَظِيمِ فِي الآخِرَةِ ، لَعَلَّهُمْ يَتُوبُونَ وَيُقْلِعُونَ عَنِ آثَامِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، وَيَعُودُونَ إِلَى اللَّهِ نَادِمِينَ . وَالتَّوْبَةُ هِيَ أَسَاسُ التَّوْبَةِ ، وَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَالأَيَّةُ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ ذُنُوبَ النّاسِ سَبَبٌ لِظُهُورِ الفَسَادِ فِي العَالَمِ . وَشَوْمُ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي لَهُ تَأْتِيرٌ مُدْمِرٌ عَلَى الإِنْسَانِ وَالبِيئَةِ وَالمُجْتَمَعِ وَالتَّارِيخِ وَالحَضَارَةِ .

لقد ظهرت الأمراض والكوارث البيئية والاختلالات في الطبيعة ، وانتشرت التَّكْبَاتُ فِي البِرِّ وَالبَحْرِ . فَالتَّصَحُّرُ فِي ازدياد ، وَكثِيرٌ مِنْ دُولِ العَالَمِ تُعَانِي مِنْ شَحِّ الأَمْطَارِ وَقِلَّةِ المِيَاهِ . وَهُنَاكَ مُشْكَلاتٌ عَالِمِيَّةٌ تُشَكِّلُ تَهْدِيدًا للبَشَرِيَّةِ ، كَالاحْتِسَابِ الحَرَارِيِّ ، وَارْتِفَاعِ حَرَارَةِ الأَرْضِ وَالبَحْرِ ، وَاقْتِرَابِ المَاءِ مِنَ المُدُنِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَاتسَاعِ ثَقْبِ الأُوزُونِ ، وَكثرةِ الأعاصير والزلازل والبراكين ، ... إلخ . وَذلك بِسَبَبِ ذُنُوبِ النّاسِ ، حَيْثُ مُحِقَّتِ البِرْكَةُ ، وَعَمَّ شَوْمُ المَعْصِيَةِ وَآثارها الكارثية عَلَى الرُّوحِ وَالمَادَّةِ . وَأدَّتْ آثَامُ النّاسِ وَمَعَاصِيهِمْ إِلَى تَدْمِيرِ الطَّبِيعَةِ بِكُلِّ عَنَاصِرِهَا ، وَنَشْرِ الخَلَلِ وَالفَوْضَى فِي العَالَمِ . وَقَالَ ابنُ الجَوْزِيِّ فِي زادِ المَسِيرِ (٦ / ٣٠٥ وَ ٣٠٦) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ ﴾ ، فِي هَذَا الفَسَادِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا نُقْصَانُ البِرْكَةِ ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي ارْتِكَابُ المَعَاصِي ، قَالَ أَبُو العَالِيَةِ . وَالثَّلَاثُ الشَّرْكُ ، قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ . وَالرَّابِعُ قَطْعُ المَطَرِ ، قَالَ عَطِيَّةٌ . فَأَمَّا البِرُّ ، فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ : البِرُّ البَرِّيَّةُ الَّتِي لَيْسَ عِنْدَهَا نَهْرٌ . وَفِي البَحْرِ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَا كَانَ مِنَ المَدَائِنِ وَالقُرَى عَلَى شَطِّ نَهْرٍ ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ . وَقَالَ عِكْرَمَةُ : لَا أَقُولُ بِحَرَكَمِ هَذَا ، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَامِرَةٌ . وَقَالَ قَتَادَةُ : المُرَادُ بِالبَرِّ أَهْلُ البَوَادِي ، وَبِالبَحْرِ أَهْلُ القُرَى . وَقَالَ الرَّجَاجُ : المُرَادُ بِالبَحْرِ مُدُنُ البَحْرِ عَلَى الأَنْهَارِ ، وَكُلُّ ذِي مَاءٍ فَهُوَ بَحْرٌ . وَالثَّانِي أَنَّ البَحْرَ المَاءَ المَعْرُوفَ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ قَتْلُ ابنِ آدَمَ أَخَاهُ ، وَفِي البَحْرِ مَلِكٌ جَائِرٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضَبًا . وَقِيلَ لَعَطِيَّةٌ : أَيُّ فِسَادٍ فِي البَحْرِ ؟ ، فَقَالَ : إِذَا قَلَّ المَطَرُ قَلَّ الغَوْصُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ، أَيُّ : بِمَا عَمِلُوا مِنَ المَعَاصِي ، ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أَيُّ : جَزَاءَ بَعْضِ أَعْمَالِهِمْ ، فَالْفَحْطُ جَزَاءٌ ، وَنُقْصَانُ البِرْكَةِ جَزَاءٌ ، وَوُقُوعُ المَعْصِيَةِ مِنْهُمْ جَزَاءٌ مُعْجَلٌ لِمَعَاصِيهِمْ أَيْضًا . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فِي المُشَارِ إِلَيْهِمْ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمُ الَّذِينَ أُذِيقُوا الجَزَاءَ ، ثُمَّ فِي مَعْنَى رُجُوعِهِمْ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا يَرْجِعُونَ عَنِ المَعَاصِي ، قَالَ أَبُو العَالِيَةِ . وَالثَّانِي يَرْجِعُونَ إِلَى الحَقِّ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ . وَالثَّانِي أَنَّهُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدَهُمْ ، فَالمَعْنَى : لَعَلَّهُ يَرْجِعُ مَنْ بَعْدَهُمْ ، قَالَ الحَسَنُ)) .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، حَمْسٌ إِنْ ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ ، وَنَزَلَ فِيكُمْ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ، لَمْ تَظْهَرَ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يَعْمَلُوا بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤَنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبِهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأُخِذُوا بِبَعْضِ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ يَحْكَمْ أُمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَلْقَى اللَّهُ بِأَسْهَمِهِمْ بَيْنَهُمْ))^{٢٦٥} .

يُبَيِّنُ الْحَدِيثُ أَنَّ ظُهُورَ الْأَمْرَاضِ وَالْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ فِي الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ هُوَ عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ ، يُصِيبُ بِهَا النَّاسَ إِذَا كَثُرَ فِيهِمُ الْفَسَادُ وَالذُّنُوبُ وَالْآثَامُ وَالْمَعَاصِي .

وهذه القضايا الخمس التي وضَّحها الحديث لها تأثيرات سلبية ، فردياً وجماعياً . وهي قضايا عامة وشاملة لجميع المسلمين في كل زمان ومكان ، وليست خاصة بالمُهَاجِرِينَ ، وتخصيص النِّدَاءِ بِهِمْ ، لِأَنَّهْمُ أَصْحَابُ مَكَانَةٍ جَلِيلَةٍ وَمَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ ، وَلَهُمْ وَزْنٌ كَبِيرٌ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ ، كَمَا أَنَّهْمُ مُؤَهَّلُونَ لِتَقْلُدِ الْمَنَاصِبِ الْحَسَّاسَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمْ وَايَةٌ وَسَيْطَرَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

١- إِذَا ظَهَرَ فِيهِمُ الزُّنَا ، وَجَاهَرُوا بِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُمْ بِانْتِشَارِ الطَّاعُونَ ، وَهُوَ مَرَضٌ يُسَبِّبُ الْمَوْتَ ، وَانْتِشَارِ الْأَمْرَاضِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً فِي الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ . وَهَذِهِ عُقُوبَةٌ وَاضِحَةٌ وَعَلَامَةٌ ظَاهِرَةٌ لِانْتِشَارِ جَرِيمَةِ الزُّنَا فِي الْمَجْتَمَعِ . وَنَحْنُ نَتَابَعُ كُلَّ يَوْمٍ ظُهُورَ أَمْرَاضٍ جَدِيدَةٍ يَسْمَعُ بِهَا الْعَالَمُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ . وَمَا هَذَا إِلَّا بِسَبَبِ انْتِشَارِ الْفَوَاحِشِ فِي الْأُمَّمِ وَالشُّعُوبِ انْتِشَارِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ ، بِحَيْثُ أَصْبَحَتْ الْفَاحِشَةُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ رُقِيًّا وَتَقَدُّمًا وَتَمَرُّدًا عَلَى التَّقَالِيدِ الْبَالِيَةِ . وَهَذَا هُوَ الْإِنْهَارُ بَعِيْنُهُ .

٢- نَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ هُوَ سَرَقَةٌ مَا يَكَالُ وَيُوزَنُ عِنْدَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ . وَهَذَا الْإِنْتِمُ الْكَبِيرُ لَهُ عُقُوبَةٌ إِلَهِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، حَيْثُ يُصِيبُهُمُ اللَّهُ بِالْقَحْطِ وَالْجَفَافِ ، وَعَدَمِ نَزُولِ الْمَطْرِ ، وَالْغَلَاءِ وَقِلَّةِ الْمَوَادِّ التَّمْوِينِيَّةِ ، وَظُلْمِ الْوَلَاةِ وَالْحُكَّامِ لَهُمْ . وَنَقْصُ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ مِنَ الْكَوَارِثِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى غِيَابِ الثَّقَّةِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ ، وَانْتِشَارِ الْجَشَعِ وَالِاسْتِغْلَالِ ، فَيُصِيرُ الْمَجْتَمِعَ كَوْمَةً مِنَ الْأَضْدَادِ وَالصَّرَاعَاتِ وَالْأَحْقَادِ . وَالنَّتِيْجَةُ الْمَتْرَبَةُ عَلَى انْقِصَافِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ هِيَ الشَّدَّةُ وَضَنْكَ الْعَيْشِ وَقَسْوَةُ الْحَيَاةِ ، وَظُلْمُ الْحَاكِمِ لِلرَّعِيَّةِ .

٢٦٥ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٥٨٢) برقم (٨٦٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣_ إذا منعوا زكاة أموالهم ، ولم يؤدوا حقَّ الله فيها ، منع الله عنهم المطرَ ، ولولا البهائم ما نزلَ عليهم المطر من السماء ، أي إنَّ البهائم تستحق المطر ، ومانعو الزكاة لا يستحقونه ، وهذا دليل على شدَّة غضب الله عليهم ، لأنَّ رزقهم تابع لِرِزْقِ البهائم ، وهذا يعني أنها أفضل حالاً منهم . ومنعُ الزكاة جريمة بحق الفرد والجماعة . وكما هو معلوم فإنَّ الزكاة من أركان الإسلام الخمسة . ومنعها هو هدمٌ لبناء الإسلام ، يترتب عليه منع المطر من السماء . وهذه العقوبة الإلهية من شأنها أن تُؤدِّي إلى القحط والجفاف والجوع والعطش وانهيار مقومات الحياة .

وقال المناوي في فيض القدير (٢٩٧ / ٥) : ((أي : لم ينزل إليهم المطر عقوبة بشؤم منعمهم للزكاة عن مستحقيها ، فانتفاعهم بالمطر إنَّما هو واقع تبعاً للبهائم ، فالبهائم حينئذ خير منهم ، وهذا وعيد شديد على ترك إخراج الزكاة ، أعظم به من وعيد)) .

٤_ إذا أخلوا بالعهود والمواثيق التي أخذها الله ورسوله ﷺ عليهم ، وألزموا بالوفاء بها ، سلط الله عدوهم من غيرهم ، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم وبلادهم . وقضية " نقض العهد الإلهي والعهد النبوي " من القضايا المدمرة التي تُؤدِّي إلى انتكاسة كبرى في النفس البشرية ، وتكون العقوبة هي تسلُّط الأعداء وتكالبهم عليهم ، وسيطرتهم على ممتلكاتهم .

٥_ إذا امتنع الأئمة عن الحكم بما أنزل الله في كتابه كلياً أو جزئياً ، أو اختاروا بعض الأحكام لتحقيق مصالحهم ومنافعهم ، وعطلوا بقية الأحكام ، فكانوا كمن يؤمنون ببعض الكتاب ويتركون بعضه ، جعل الله بعضهم أعداء لبعض ، وصار صراعهم على حطام الدنيا الفاني ، فنزع الحق والخير والهدى من قلوبهم ، فاستحقوا عقوبة الله تعالى . وقضية عدم الحكم بالقرآن (الدستور الإلهي الكامل المعصوم) تلقي الضوء على أهمية تحكيم الشرع الإلهي كاملاً ، غير منقوص ولا مجزوء ، وضرورة نقل القيم القرآنية السامية إلى الواقع الملموس في حياة الفرد والجماعة . وعدم الحكم بكتاب الله يُؤدِّي حتماً إلى شيوع الجرائم ، والانحلال ، والعداوة الشديدة بين أفراد المجتمع لغياب العدالة الاجتماعية ، وتفشي الظلم على جميع المستويات . وعندئذ يتأسس مجتمع الكراهية والحقد والانتقام ، ويصبح العدل شعاراً برافاً لا وجود له في الواقع . ولا يمكن الاستهانة بتأثير الذنوب في تدمير الفرد والجماعة والبيئة ، إذ إنَّ لها تأثيراً كارثياً على كل سياقات الحياة المعاشة ، وهذا التأثير شامل لكل النواحي المعنوية والمادية . فالآثام تُعكِّر صفو الحياة وتُحيلها إلى جحيم لا يطاق ، حيث يُعاني الناس في أمور عيشتهم ضمن بيئة قاسية ضاغطة عليهم ، تُفقد لهم لذَّة الاستمتاع بمباهج الدنيا .

وهذه العُقوبات المذكورة في الحديث إنَّما تكون لمرتكبها في الدُّنيا ، ويَبقى عذاب النار الشديد في الآخرة ، لِمَن لَم يَتُبْ ، ويترك الآثامَ والمعاصي . والحديثُ يُحدِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ والمعاصي ، ويوضِّحُ أنها سبب الكوارث والمصائب والعُقوبات على الناس . وفي الحديث علامة واضحة مِنَ علاماتِ نُبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وصِحَّةِ رسالته .

وقال المُناوي في فيض القدير (٣ / ٤٥٢) عن حديث آخر : ((خَمْسٌ) مِنَ الْخِصَالِ (بِخَمْسِ) أَي مُقَابِلَةٌ بِهَا (مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ) أَي : مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ أَوْ مَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ قَوْمًا آخَرِينَ (إِلَّا سَلَطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ) جَزَاءً بِمَا اجْتَرَحُوهُ مِنَ نَقْضِ الْعَهْدِ الْمَأْمُورِ بِالْوَفَاءِ بِهِ (وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنَ عَنِ عَمْدٍ أَوْ جَهْلٍ (إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ وَلَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ) يَعْنِي : الزُّنَا ، وَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى فَاعِلِهِ (إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ) كَمَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (وَلَا طَفَّقُوا الْمِكْيَالَ إِلَّا مُنِعُوا) بِضَمِّ الْمِيمِ (النَّبَاتِ) يَعْنِي الْبَرَكَةَ فِيهِ (وَأَخَذُوا بِالسِّنِينَ) قَالَ فِي الْفِرْدَوْسِ : يُقَالُ لِعَامِ الْمَجَاعَةِ وَالْقَحْطِ : سَنَةٌ ، وَجَمَعَهَا سِنُونَ (وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ) أَي : إِعْطَاءَهَا إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا (إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمْ الْقَطْرُ) أَي : الْمَطَرُ)) .

٣٧_ الخِيَانَةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النِّسَاءُ : ١٠٥] .
وَلَا تَكُنْ مُدَافِعًا وَمُخَاصِمًا عَنِ الْخَائِنِينَ تُجَادِلُ وَتُدَافِعُ عَنْهُمْ . وَالآيَةُ تُحْمِلُ نَهْيًا عَنِ حِمَايَةِ الْخَائِنِينَ وَالْجِدَالِ عَنْهُمْ ، فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْعِقَابَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّونَ الدَّعْمَ . وَيَحْرُمُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُجَادِلَ عَنِ أَيِّ شَخْصٍ إِلَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ عَلَى حَقِّ . وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاصِمَ عَنِ غَيْرِهِ فِي إِثْبَاتِ حَقِّ ، أَوْ نَفْيِهِ ، وَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/٣٥٧): ((قال العلماء: ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريقاً منهم فريقاً عنهم ليحتموهم ويدفعوا عنهم، فإن هذا قد وقع على عهد النبي ﷺ ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٧٧١) : ((قوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ ﴾ ، أَي : لِأَجْلِ الْخَائِنِينَ ﴾ خَصِيمًا ﴾ ، أَي : مُخَاصِمًا عَنْهُمْ ، مُجَادِلًا لِلْمُحَقِّينَ بِسَبَبِهِمْ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاصِمَ عَنِ أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُحِقٌّ)) .

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] .

ولا تُخَاصِمُ وتُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنفُسَهُمْ بِالْمَعَاصِي ، لِأَنَّ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَضَرَرَهَا رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُبَالِغًا فِي الْخِيَانَةِ ، مُصِرًّا عَلَيْهَا ، غَارِقًا فِي الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ وَالْمَعَاصِي ، وَسَيِّعًا فِيهِ أَشَدَّ الْعِقَابِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٧٧١) : ((قوله : ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ ، أي : لا تُحَاجِجْ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنفُسَهُمْ ، وَالْمُجَادِلَةُ مَاخُوذَةٌ مِنَ الْجَدَلِ ، وَهُوَ الْقِتْلُ ، وَقِيلَ : مَاخُوذَةٌ مِنَ الْجَدَالَةِ ، وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ ، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمَيْنِ يُرِيدُ أَنْ يُلْقِيَ صَاحِبَهُ عَلَيْهَا . وَسُمِّيَ ذَلِكَ خِيَانَةً لِأَنفُسِهِمْ ، لِأَنَّ ضَرَرَ مَعْصِيَتِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ . وَالخَوَّانُ : كَثِيرُ الْخِيَانَةِ ، وَالْأَثِيمُ : كَثِيرُ الْإِثْمِ . وَعَدَمُ الْمَحَبَّةِ كِنَايَةٌ عَنِ الْبُغْضِ)) .

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] [٢٦٦] .

٢٦٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٣ و ٣٤٤) : ((قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ اِخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَاصَرَ قَرْيَةَ ، سَأَلُوهُ أَنْ يُصَالِحَهُمْ عَلَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ بَنِي النَّضِيرِ ، عَلَى أَنْ يَسِيرُوا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، فَأَبَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَأَبَوْا ، وَقَالُوا : أَرْسَلْنَا أَبَا لُبَابَةَ ، وَكَانَ مُنَاصِحًا لَهُمْ ، لِأَنَّ وَلَدَهُ وَأَهْلَهُ كَانُوا عِنْدَهُمْ ، فَبِعَثَهُ إِلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : مَا تَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ؟ ، فَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْفِهِ ، إِنَّهُ الدَّبْحُ فَلَا تَفْعَلُوا ، فَأَطَاعُوهُ ، فَكَانَتْ تِلْكَ خِيَانَتَهُ . قَالَ أَبُو لُبَابَةَ : فَمَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَرَفْتُ أَيَّيَّ قَدِ خُنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْأَكْثَرِينَ . وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا لُبَابَةَ رَتَبَ نَفْسَهُ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى سَارِيَةِ مِنَ سَوَارِيِ الْمَسْجِدِ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَذُوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ ، فَمَكَثَتْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ كَذَلِكَ ، ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ نَفْسِي حَتَّى يَكُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يَخْلُئِي ، فَجَاءَ فَحَلَّهُ بِيَدِهِ ، فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ : إِنَّ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ ، وَأَنْ أَخْلَعَ مِنْ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يُجْزِيكَ التُّلْتُ " . وَالثَّانِي أَنَّ جَبْرِيلَ أتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ : " اخْرُجُوا إِلَيْهِ وَانْكُمُوا " ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ مُحَمَّدًا =

يا أيُّها الذين صدَّقوا بوحداية الله ، وأقرُّوا ببُؤة مُحَمَّد ﷺ ، لا تخونوا الله بترك فرائضه ، والرَّسُول بترك سنَّته ، وهذا خِطَاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة ، وهو يَجْمَع أنواع الخيانات كُلِّهَا قَلِيلِهَا وكَثِيرِهَا ، ولا تخونوا ما ائتمنكم الله عليه من التكاليف الشرعية ، وأنتم تَعْلَمُونَ أَنَّهَا خِيَانَةٌ لِلأمانة ، وتَعْرِفُونَ تَبَعَةَ ذَلِكَ وَوَبَالَه ، أو وأنتم تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ تَخُونُونَ ، أي إِنَّ الخِيَانَةَ تُوجَد مِنْكُمْ عَن تَعَمُّدٍ لا عَن سَهْوٍ . وقال القرطبي في تفسيره (٣٤٦ / ٧) : ((والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عَلَيْهَا الْعِبَادَ . وَسُمِّيَتْ أمانةً لأنها يُؤْمَنُ معها مِنْ مَنَعِ الْحَقِّ ، مَأخوذة مِنَ الْأَمْنِ ...)) وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) ، أي : مَا فِي الخِيَانَةِ مِنَ الْفُحْحِ وَالْعَارِ . وَقِيلَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهَا أمانة)) .

وقال الطبري في تفسيره (٢١٩ / ٦) : ((يا أيُّها الذين آمنوا لا تَنقُضُوا الله حُقُوقَه عَلَيْكُمْ مِنْ فَرَائِضِهِ ، وَلا رَسُولَه مِنْ وَاجِبِ طَاعَتِهِ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَطِيعُوهُمَا فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَنَهَيْكُمْ عَنْهُ ، لا تَنقُضُوهُمَا)) وَتَخُونُوا أماناتِكُمْ)) وَتَنقُضُوا أديانَكُمْ ، وَواجِبَ أَعْمَالِكُمْ ، وَلا زَمَها لَكُمْ)) وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) أَنَّها لازمة عَلَيْكُمْ ، وَواجِبَةٌ بِالْحُجَجِ التي قَدْ ثَبَّتَ اللهُ عَلَيْكُمْ)) .

وقال البغوي في تفسيره (٢٤٧ / ١) : ((يا أيُّها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرَّسُولَ)) قال السُّدي : كانوا يَسْمَعُونَ الشَّيْءَ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ فَيُفْشُونَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْمُشْرِكِينَ . وقال الزُّهري والكلبي : نَزَلَتْ الآية فِي أَبِي لُبَابَةَ هَارونَ بنِ عَبْدِ الْمُنذِرِ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ مالِكٍ ...)) وَتَخُونُوا أماناتِكُمْ)) ، أي : وَلا تَخُونُوا أماناتِكُمْ ،)) وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)) أَنَّها أمانة قال السُّدي : إِذا خَانُوا اللهُ وَالرَّسُولَ فَقَدْ خَانُوا أماناتِهِمْ . وقال ابن عباس : لا تخونوا الله بترك فرائضه ، والرَّسُولَ بترك سنَّته ، وَتَخُونُوا أماناتِكُمْ . قال ابن عباس : هي ما يَخْفَى عَن أَعْيُنِ النَّاسِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ ، وَالْأَعْمَالِ التي ائتمن الله عَلَيْها . قال قتادة : اعلموا أَنَّ دِينَ اللهِ أمانة ، فَأَدُّوا

= يُرِيدُكُمْ ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، فنزلت هذه الآية ، قاله جابر بن عبد الله . والثالث أنها نزلت في قتل عُثمان ابن عَمَّان ، قاله الْمُغِيرَةُ بن شُعْبَةَ ، والرَّابِعُ أَنَّ قَوْمًا كانوا يَسْمَعُونَ الْحَدِيثَ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَيُفْشُونَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْمُشْرِكِينَ ، فنزلت هذه الآية ، قاله السُّدي . وفي خِيَانَةِ اللهِ قَوْلان : أَحدهما تَرْكُ فَرَائِضِهِ ، وَالثَّانِي مَعْصِيَةُ رَسولِهِ . وفي خِيَانَةِ الرَّسُولِ قَوْلان : أَحدهما مُخَالَفَتُهُ فِي السِّرِّ بَعْدَ طَاعَتِهِ فِي الظَّاهِرِ ، وَالثَّانِي تَرْكُ سُنَّتِهِ . وفي الْمُرَادِ بِالْأماناتِ ثَلَاثَةٌ أَقْوال : أَحدهما أَنَّها الفَرَائِضُ ، قاله ابن عباس . وفي خِيَانَتِها قَوْلان . أَحدهما تَنقِيسُها ، وَالثَّانِي تَرْكُها . وَالثَّانِي أَنَّها الدِّينَ ، قاله ابن زَيْد ، فيكون المعنى : لا تُظْهِرُوا الإِيمانَ وَتُبْطِئُوا الكُفْرَ ، وَالثَّالِثُ أَنَّها عَامةٌ فِي خِيَانَةِ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وَيُؤَكِّدُهُ نَزولُها فِي ما جَرى لِأبي لُبَابَةَ)) .

إلى الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ ما ائتمنكم عليه ، من فرائضه وحدوده ، ومن كانت عليه أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها)) .

إنّ الخيانة (عكس الأمانة) مرّتُها وخيم ، وهي نُقْطَةُ سوداء في تاريخ الفرد سوف تقضي على مصيره ، وتورده المَهَالِك . وأعظمُ خيانة هي خيانة الله ورسوله ﷺ ، وتمثّل في ترك الفرائض التي شرّعها الله تعالى ، ومُخَالَفَةُ السُّنَّةِ النبوية الشريفة . وهذه الجريمة شديدة الخطورة لأنها تعمل على تدمير المجتمع الإسلامي، وتعريض حياة المسلمين للخطر ، والقضاء على مُنْجِزَاتِ الحضارة الإسلامية وهدمها . كما يتوجب عدم إنقاص الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد .

ومن الضروري أن ينتبه المسلم إلى أقواله وأفعاله لئلا تكون حُجَّةً عليه . وأبو لبابة صحابي جليل ، لكن قَدَمَهُ قد زَلَّت في هذا المَوْقِف ، حيث أشارَ بيده إلى حَلْقِهِ ، إنّه الذَّبْح ، فأطاعه اليهود، فكانت تلك خيانتته . وقد أفشى سِرًّا من أسرار المُسْلِمِينَ للأعداء ، وانساق وراء عاطفته ، وسَقَطَ ضَحِيَّةً للعلاقة الجيدة التي تربطه مع يهود بني قُرَيْظَةَ .

وهذه الخيانة العظمى لا يمكن تبريرها بأي شكل ، إذ إنّ الرابطة الدينية لا يعلوها شيء ، وهي أسمى وأجلّ من علاقات القرابة أو الصداقة أو المصلحة ... إلخ . وأدرك أبو لبابة هذا الأمر الشنيع الذي أقدم عليه ، وندم عليه أشد الندم . والرُّجُوعُ إلى الحق فضيلة ، والاعتراف بالذنب خيرٌ من التّماذي في الباطل . ومن تاب ، تاب الله عليه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] ٢٦٧ .

هذه الآية شاملة وعمامة في كلِّ مُعَاهَدٍ يُخَافُ مِنْ وُقُوعِ النَّقْضِ مِنْهُ .

٢٦٧ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٧٣) : ((قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ ، قال المفسرون : الخوف هاهنا بمعنى العلم ، والمعنى : إن علمت من قوم قد عاهدتهم خيانتاً ، وهي نقض عهد . وقال مجاهد : نزلت في بني قُرَيْظَةَ . وفي قوله : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أربعة أقوال : أحدها فألقِ إليهم نقضك العهد ، لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء ، هذا قول الأكثرين ، واختاره الفراء وابن قُتَيْبَةَ وأبو عُبيدة . والثاني فانبذ إليهم جهراً غير سر ، ذكره الفراء أيضاً في آخرين . والثالث فانبذ إليهم على مهل ، قاله الوليد بن مسلم . والرابع فانبذ إليهم على عدل من غير حيف ، وأنشدوا : فَاضْرِبْ وَجْهَ الْعُدْرِ الْأَعْدَاءِ ... حتى يجيبوك إلى السَّوَاءِ ، ذكره أبو سُلَيْمَانَ الدمشقي)) .

وإذا عَلِمْتَ يا مُحَمَّدٌ مِنْ قَوْمِ عَاهِدوكِ نَقْضًا لِلْعَهْدِ بِدَلِيلٍ يَظْهَرُ لَكَ ، فَاطْرَحْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِنَقْضِهِ ، لِتَكُونَ أَنْتَ وَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ ، وَسَوَاءٌ فِي الْعِدَاوَةِ ، لِكَيْلَا يَتَوَهَّمُوا بِكَ الْغَدْرَ ، وَلِنَلَا يَتَّهَمُوكَ بِالْخِيَانَةِ ، قُلْ لَهُمْ : قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَهْدَكُمْ وَأَنَا مُقَاتِلُكُمْ ، لِيَعْلَمُوا ذَلِكَ فَيَكُونُوا مَعَكَ فِي الْعِلْمِ سَوَاءً ، وَلَا تُقَاتِلُهُمْ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ ، وَهُمْ يَتَّقُونَ بِكَ فَيَكُونُ ذَلِكَ غَدْرًا وَخِيَانَةً . إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الَّذِينَ يَخُونُونَ فِي الْعُهُودِ وَعَظِيمًا ، وَسَيُعَاقِبُهُمْ أَشَدَّ الْعِقَابِ . وَالآيَةُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِتَبْيِذِ الْعَهْدِ ، أَيِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ وَفَاءٌ وَلَا عَهْدٌ . وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٢٧١) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ ﴾ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ عَدُوِّكَ لَكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَهْدٌ وَعَقْدٌ أَنْ يَنْكُثَ عَهْدَهُ ، وَيَنْقُضَ عَقْدَهُ ، وَيَغْدِرَ بِكَ ، وَذَلِكَ هُوَ الْخِيَانَةُ وَالغَدْرُ ، ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ، يَقُولُ : فَانْجِزْهُمْ بِالْحَرْبِ ، وَأَعْلِمُهُمْ قَبْلَ حَرْبِكَ إِيَّاهُمْ أَنَّكَ قَدْ فَسَخْتَ الْعَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُهُورِ آثَارِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مِنْهُمْ ، حَتَّى تَصِيرَ أَنْتَ وَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّكَ لَهُمْ مُحَارِبٌ ، فَيَأْخُذُوا لِلْحَرْبِ آتَتْهَا ، وَتَبْرَأَ مِنَ الْغَدْرِ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ الْغَادِرِينَ بِمَنْ كَانَ مِنْهُ فِي أَمَانٍ وَعَهْدٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَغْدِرَ بِهِ ، فَيُحَارِبُهُ قَبْلَ إِعْلَامِهِ إِيَّاهُ أَنَّهُ لَهُ حَرْبٌ ، وَأَنَّهُ قَدْ فَاسَخَهُ الْعَقْدَ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٢٣) : ((يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ ﴾ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ ﴾ خِيَانَةً ﴾ أَيِ نَقْضًا لِمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَوَاطِيقِ وَالْعُهُودِ ، ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أَيِ : عَهْدَهُمْ ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ، أَيِ : أَعْلِمُهُمْ بِأَنَّكَ قَدْ نَقَضْتَ عَهْدَهُمْ حَتَّى يَبْقَى عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِأَنَّكَ حَرْبٌ لَهُمْ ، وَهُمْ حَرْبٌ لَكَ ، وَأَنَّهُ لَا عَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ ، أَيِ : تَسْتَوِي أَنْتَ وَهُمْ فِي ذَلِكَ وَعَنْ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ، أَيِ : عَلَى مَهْلٍ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ ، أَيِ : حَتَّى وَلَوْ فِي حَقِّ الْكُفَّارِ لَا يُحِبُّهَا أَيْضًا)) .

إِنَّ الْحَرْبَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْظُومَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ لَهَا مَسَارٌ مُنْضَبِطٌ ، وَمَصِيرٌ وَاضِحٌ ، وَتَقْوَمُ عَلَى أُسُسٍ ثَابِتَةٍ مُسْتَمْدَةٍ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَعْصُومَةِ . صَحِيحٌ أَنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ ، لَكِنَّ الْخِيَانَةَ وَالغَدْرَ لَا تَلِيْقَانِ بِأَخْلَاقِ الْمُسْلِمِ حَامِلِ لُؤْلُؤِ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَنَاشِرِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَفِي حَالِ ظُهُورِ عِلَامَاتٍ وَاضِحَةٍ عَلَى خِيَانَةِ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِعْلَامِهِمْ بِإِلْغَاءِ الْعَهْدِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ ، لِكَيْ يَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، لَا أَنْ يَتِمَّ قِتَالُهُمْ فِي حَالِ وُجُودِ عَهْدٍ فَيَكُونُ ذَلِكَ غَدْرًا وَخِيَانَةً .

قال الحافظ في الفتح (٦ / ٢٧٩) في تفسير الآية : ((أَيِ : اطْرَحْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مَنْ يُعْلِمُهُمْ بِأَنَّ الْعَهْدَ انْتَقَضَ)) .

وذلك كي يَكُونَ الطَّرْفَانِ لَدَيْهِمَا عِلْمٌ بِأَنَّ الْعَهْدَ قَدْ سَقَطَ ، وبالتالي سقطت كُلُّ الالتزامات في هذا العهد ، وهذا يدلُّ على الشَّرَفِ الإسلامي الرَّفِيعِ في السَّلَامِ والحَرْبِ ، فلا غَدْرٌ ولا خِيَانَةٌ . والمُسلِمُ يَنْظُرُ إلى السَّلَامِ والحَرْبِ مِنْ منظورِ ديني أخلاقي طاهر ، لا منظورِ ابتزازي انتهازي غَادِرٍ . وقاعدة " الغاية تُبَرِّرُ الوسيلة " غريبة المَنَشَأِ والتطبيقي ، وغير مَوْجودة في قاموس الحرب الإسلامي ، فَشَرَفُ الغاية لا بُدَّ أَنْ يُلازمه شَرَفُ الوسيلة .

وفي تفسير القرطبي (٣٢ / ٨) : ((قال ابن العربي : فَإِنَّ قِيلَ : كَيْفَ يَجُوزُ نَقْضُ الْعَهْدِ مَعَ خَوْفِ الْخِيَانَةِ وَالْخَوْفِ ظَنٌّ لَا يَقِينُ مَعَهُ ؟ ، فَكَيْفَ يَسْقُطُ يَقِينُ الْعَهْدِ مَعَ ظَنِّ الْخِيَانَةِ ؟ . فَالجواب من وجهين : أحدهما _ أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنَى الْيَقِينِ ... الثاني _ إِذَا ظَهَرَتْ آثَارُ الْخِيَانَةِ وَتَبَيَّنَتْ دَلَالَتُهَا وَجَبَ نَبْذُ الْعَهْدِ لِئَلَّا يُوقِعَ التَّمَادِي عَلَيْهِ فِي الْهَلَكَةِ ، وَجَارَ إِسْقَاطُ الْيَقِينِ هُنَا ضُرُورَةً . وَأَمَّا إِذَا عُلِمَ الْيَقِينُ فَيُسْتَعْنَى عَنِ نَبْذِ الْعَهْدِ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ ، لَمَّا اشْتَهَرَ مِنْهُمْ نَقْضُ الْعَهْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ ، وَالتَّبْدُّ : الرَّمْيُ وَالرَّفْضُ)) .

وقال الشافعي في الأم (٢٦٣ / ٤) : ((فَإِنَّ قَالَ الْإِمَامُ : أَخَافُ خِيَانَةَ قَوْمٍ ، وَلَا دَلَالَهَ لَهُ عَلَى خِيَانَتِهِمْ مِنْ خَبَرٍ ، وَلَا عِيَانٍ ، فَلَيْسَ لَهُ - وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ - نَقْضُ مُدَّتِهِمْ إِذَا كَانَتْ صَحِيحَةً ، لِأَنَّ مَعْقُولًا أَنَّ الْخَوْفَ مِنْ خِيَانَتِهِمْ الَّذِي يَجُوزُ بِهِ التَّبْدُّ إِلَيْهِمْ لَا يَكُونُ إِلَّا بِدَلَالَةٍ عَلَى الْخَوْفِ)) . إِنَّ الْخَوْفَ الْمُعْتَبَرَ شَرْعًا فِي هَذَا السِّيَاقِ لَيْسَ شُعُورًا دَاخِلِيًّا مُجَرَّدًا مِنَ الْأَدَلَّةِ أَوْ حَدِيثِ نَفْسٍ عَابِرًا . إِنَّهُ خَوْفٌ مُقْتَرَنٌ بِمُؤَشِّرَاتٍ وَقِرَائِنٍ وَمُرْجَحَاتٍ (اسْتِحَالَةُ التَّرْجِيحِ بِلَا مُرْجِحٍ) ، وَلَيْسَ إِجْرَاءً مِرَاجِيًّا تَابِعًا لِلْهَوَى لَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ الصَّحَّةِ ، فَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى قَوَاعِدٍ ثَابِتَةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا مَكَانَ لِلْأَوْهَامِ أَوْ الْخَيَالَاتِ أَوْ الْوَسَاوِسِ أَوْ الْحَالَاتِ الْمِرَاجِيَّةِ .

وعن سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : كَانَ مُعَاوِيَةُ يُسِيرُ بِأَرْضِ الرُّومِ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ أَمَدٌ ، فَأَرَادَ أَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ ، فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ ، فَإِذَا شَبَّخَ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ ، وَفَاءٌ لَا غَدْرٌ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحْلَنُ عُقْدَةً وَلَا يَشُدُّهَا ، حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمَدَهَا ، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)) ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَرَجَعَ ، وَإِذَا الشَّيْخُ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ ٢٦٨ .

٢٦٨ رواه أحمد في مسنده (١١١ / ٤) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤٢٣ / ٢) : ((وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طريق عن شعبة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح)) .

لقد جاء الإسلام بحفظ العهود والمواثيق ، واهتمَّ بالوفاء بالعُقود ، وحثَّ المُسلمين على الالتزام بها ، وجعل نقضها من العُدْر ، ومن إحدى صفات المنافقين .

كان معاوية بن أبي سفيان يسير بأرض الروم قبل انقضاء العهد ليقترب من بلادهم حين انقضاء العهد ، فإذا انقضى العهد هاجمهم وغزاهم ، فإذا شيخ على دابة يكبر تعجبًا واستبعادًا ، ويبيِّن أنَّ الواجب على معاوية وفاء لا عُدْر . وإنما كره عمرو بن عبسة _ رضي الله عنه _ ذلك ، لأنه اعتبره عُدْرًا وخيانةً .

وقد بين النبي ﷺ أن من كان بينه وبين قوم عهدًا، فيجب عليه حفظ العهد، وعدم التعرض له، فلا يُغيِّره ولا ينقضه ، حتى تنقضي مدة العهد ، ويصل إلى غايته ونهايته ، أو يرمي عهدهم إليهم بأن يُخبرهم بأنه نقض العهد على تقدير خوف الخيانة منهم، ليكون خصمه مساويًا معه في النقص، كي لا يكون ذلك منه عُدْرًا. أي : يُعلمهم أنه يريد أن يغزوهم ، وأن الصلح قد ارتفع ، فيكون الفريقان في علم ذلك سواء .

والعبارة النبوية: "فلا يخلنَّ عَقْدَهُ ولا يشدَّها" كناية عن حفظ العهد والميثاق، وعدم التعرض له بنقضه أو إخلافه ، فلا بُدَّ من حفظ العهود والمواثيق .

وفي تحفة الأحوذني (١٦٩ / ٥ و ١٧٠) : ((قوله (كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد) أي إلى وقت معهود (وكان يسير في بلادهم) أنه يذهب معاوية قبل انقضاء العهد ليقترب من بلادهم حين انقضى العهد (حتى إذا انقضى العهد) أي زمانه (وهو يقول: الله أكبر وفاء لا عُدْر) فيه اختصار وحذف لضيق المقام ، أي: ليكن منكم وفاء لا عُدْر ، يعني بعيد من أهل الله وأمة مُحَمَّد ﷺ ارتكاب العُدْر ، وللاستبعاد صدرَ الجملة بقوله : الله أكبر (وإذا هو عمرو بن عبسة) وإنما كره عمرو بن عبسة ذلك ، لأنه إذا هادتهم إلى مدة وهو مقيم في وطنه ، فقد صارت مدة مسيره بعد انقضاء المدة المضروبة كالمشروط مع المدة في أن لا يغزوهم فيها ، فإذا صار إليهم في أيام الهدنة ، كان إبقاؤه قبل الوقت الذي يتوقعونه ، فعَدَّ ذلك عمرو عُدْرًا ، وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانة ، فله أن يسير إليهم على غفلة منهم (فسأله معاوية عن ذلك) أي عن دليل ما ذكره (فلا يخلنَّ عهدًا) أي عَقْدَ عهدٍ (ولا يشدَّنه) أراد به المُبالغة عن عدم التغيير ، وإلا فلا مانع من الزيادة في العهد والتأكيد . والمعنى : لا يُغيِّرَنَّ عهدًا ولا ينقضنَّهُ بوجه (حتَّى يمضي أمدُه) بفتحيتين، أي تنقضي غايته (أو ينبذ) بكسر الباء ، أي يرمي عهدهم (إليهم) بأن يُخبرهم بأنه نقض العهد على تقدير خوف الخيانة منهم (على سواء) أي ليكون

خَصَّمَهُ مُسَاوِيًا مَعَهُ فِي التَّقْضِ ، كَيْلًا يَكُون ذَلِكَ مِنْهُ عَدْرًا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ . قَالَ الطَّبِيبِيُّ : عَلَى سَوَاءٍ حَالٌ . قَالَ الْمُظْهَرُ : أَي يُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَغْزَوْهُمْ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ قَدْ ارْتَفَعَ ، فَيَكُونُ الْفَرِيقَانِ فِي عِلْمٍ ذَلِكَ سَوَاءً)) .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٣ / ١٣٦١) : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ عَدْرِهِ ، أَلَا وَلَا غَادِرٍ أَعْظَمُ عَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ)) .

يُنْصَبُ لِكُلِّ نَاقِضٍ لِلْعَهْدِ رَايَةً عَظِيمَةً مُمَيَّزَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَضْحًا لَهُ ، وَهَذَا مُنْتَهَى الْخِزْيِ وَالْعَارِ ، وَتُرْفَعُ الرَّايَةُ حَسَبَ عَدْرِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يُوجَدُ غَادِرٌ أَعْظَمُ عَدْرًا وَإِنَّمَا مِنْ عَدْرِ صَاحِبِ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ ، لِأَنَّ عَدْرَهُ يَتَعَدَّى ضَرْرَهُ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَدْرَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ ، لِأَنَّ فِيهِ هَذَا الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٢ / ٤٣) : ((قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : الْوَلَاءُ الرَّايَةُ الْعَظِيمَةُ لَا يُنْسَكُهَا إِلَّا صَاحِبُ جَيْشِ الْحَرْبِ ، أَوْ صَاحِبُ دَعْوَةِ الْجَيْشِ ، وَيَكُونُ النَّاسُ تَبَعًا لَهُ ، قَالُوا : فَمَعْنَى لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ ، أَي : عَلَامَةٌ يُشْهَرُ بِهَا فِي النَّاسِ ، لِأَنَّ مَوْضِعَ الْوَلَاءِ الشُّهْرَةَ مَكَانَ الرَّئِيسِ عَلَامَةٌ لَهُ ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَنْصِبُ الْأَلْوِيَةَ فِي الْأَسْوَاقِ الْحَفَلَةَ لِغَدْرَةِ الْغَادِرِ لِتَشْهِيرِهِ بِذَلِكَ ، وَأَمَّا الْغَادِرُ فَهُوَ الَّذِي يُوَاعِدُ عَلَى أَمْرٍ وَلَا يَفِي بِهِ)) وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ _ بَيَانٌ غَلِظٌ تَحْرِيمِ الْعَدْرِ ، لَا سِيَّمَا مِنْ صَاحِبِ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ ، لِأَنَّ عَدْرَهُ يَتَعَدَّى ضَرْرَهُ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرِينَ . وَقِيلَ : لِأَنَّهُ غَيْرُ مُضْطَرٍّ إِلَى الْعَدْرِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْوَفَاءِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي تَعْظِيمِ كَذِبِ الْمَلِكِ .

وَالْمَشْهُورُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَارِدٌ فِي دَمِّ الْإِمَامِ الْغَادِرِ ، وَذَكَرَ الْقَاضِي عِيَّاضُ اِحْتِمَالَيْنِ : أَحَدُهُمَا هَذَا ، وَهُوَ نَهْيُ الْإِمَامِ أَنْ يَغْدِرَ فِي عَهْدِهِ لِرَعِيَّتِهِ وَلِلْكَفَّارِ وَغَيْرِهِمْ ، أَوْ عَدْرَهُ لِلْأَمَانَةِ الَّتِي قَلَّدَهَا لِرَعِيَّتِهِ ، وَالتَّزَمَ الْقِيَامَ بِهَا ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَيْهَا ، وَمَتَى خَانَهُمْ أَوْ تَرَكَ الشَّفَقَةَ عَلَيْهِمْ أَوْ الرَّفْقَ بِهِمْ ، فَقَدْ غَدَرَ بِعَهْدِهِ . وَالْإِحْتِمَالُ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ نَهْيَ الرَّعِيَّةِ عَنِ الْعَدْرِ بِالْإِمَامِ ، فَلَا يَشُقُّوا عَلَيْهِ الْعَصَا ، وَلَا يَتَعَرَّضُوا لِمَا يَخَافُ حُصُولَ فِتْنَةٍ بِسَبَبِهِ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٨ / ٣٢) : ((قَالَ عَلَمًاؤُنَا _ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ _ : إِنَّمَا كَانَ الْعَدْرُ فِي حَقِّ الْإِمَامِ أَعْظَمَ وَأَفْحَشَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَفْسَدَةِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا غَدَرُوا وَعَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَنْبِذُوا بِالْعَهْدِ ، لَمْ يَأْمَنْهُمْ الْعَدُوُّ عَلَى عَهْدٍ وَلَا صُلْحٍ ، فَتَشْتَدُّ شَوْكَتُهُ ، وَيَعْظَمُ ضَرْرُهُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مُنْفَرًا عَنِ الدُّخُولِ فِي الدِّينِ ، وَمُوجِبًا لِدَمِّ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعَدُوِّ عَهْدٌ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَحَيَّلَ عَلَيْهِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، وَتُدَارَ عَلَيْهِ كُلُّ خَدِيعَةٍ ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ

قوله ﷺ : " الْحَرْبُ خَدْعَةٌ " ٢٦٩ . وقد اختلف العلماء هل يُجَاهَدُ مَعَ الْإِمَامِ الْغَادِرِ ؟ ، على قولين . فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ لَا يُقَاتَلُ مَعَهُ ، بِخِلَافِ الْخَائِنِ وَالْفَاسِقِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْجِهَادِ مَعَهُ ، وَالْقَوْلَانِ فِي مَذْهَبِنَا _ يَعْنِي الْمَذْهَبَ الْمَالِكِي _)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الْأَنْفَالُ : ٧١] . وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى يُرِيدُونَ خِيَانَتَكَ وَالْعَدْرَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ ، بِمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْقَوْلِ وَدَعْوَى الْإِيمَانِ ، فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ قَبْلَ غَزْوَةِ بَدْرٍ بِالْكَفْرِ بِهِ ، أَيْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ قَبْلَ أَسْرِهِمْ ، فَقَوَّأَكَ اللَّهُ وَنَصَرَكَ عَلَيْهِمْ . وَإِذَا عَادُوا إِلَى الْخِيَانَةِ ، فَسَيُمَكِّنُكَ مِنْهُمْ أَيْضًا . إِنَّ اللَّهَ أَمَكَنَكَ مِنْهُمْ يَا مُحَمَّدٌ فِي يَوْمِ بَدْرٍ قِتْلًا وَأَسْرًا ، فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثْلَهُ فِي حَالِ عَوْدَتِهِمْ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ إِنْ عَادُوا إِلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَادَاتِهِمْ . وَاللَّهُ عَلِيمٌ مَا فِي ضَمَائِرِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ ، حَكِيمٌ فِي أَعْمَالِهِمْ بِهِمْ ، يَفْعَلُ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٩٣ / ٦) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ : وَإِنْ يُرِدْ هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى الَّذِينَ فِي أَيْدِيكُمْ ﴾ خِيَانَتَكَ ﴾ ، أَيْ : الْعَدْرَ بِكَ وَالْمَكْرَ وَالْخِدَاعَ ، بِإِظْهَارِهِمْ لَكَ بِالْقَوْلِ خِلَافَ

٢٦٩ متفق عليه . البخاري (٣ / ١١٠٢) برقم (٢٨٦٦) ، ومسلم (٣ / ١٣٦١) برقم (١٧٣٩) .
 للمرء أن يفعل في مقام الحرب ما لا يُؤَدِّنُ فِي فِعْلِهِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْمَوَاطِنِ ، وَمِنْ ذَلِكَ : الْخِدَاعُ ، وَهُوَ التَّوْبِيهُ وَالْكَذِبُ ، إِنْ اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : اسْتَعْمِلِ الْحِيلَةَ فِي الْحَرْبِ مَا أَمَكَنَكَ ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَصْلَحَةِ كَبِيرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَإِذَا أَعْيَيْتَكَ الْحِيلُ فَقَاتِلْ . وَقِيلَ : الْمَعْنَى : أَنَّ مَنْ خُدِعَ فِيهَا مَرَّةً وَاحِدَةً عَطِبَ وَهَلَكَ ، وَلَا عَوْدَةَ لَهُ . وَيَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكْذِبَ ، أَوْ يُصَرِّحَ بِغَيْرِ الْحَقِيقَةِ ، فَيُظْهِرَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً ، وَيَتَحَدَّثَ بِمَا يَشْتَعِدُّ بِهِ هِمَّةً أَصْحَابِهِ ، وَيَكِيدُ بِهِ عَدُوَّهُمْ ، أَوْ يَكْذِبُ عَلَى الْعَدُوِّ لِيُخَدِّعَهُ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٢ / ٤٥) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " الْحَرْبُ خَدْعَةٌ " . فِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ مَشْهُورَاتٍ ، اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَفْصَحَهُنَّ خَدْعَةٌ ، بِنَفْتِحِ الْخَاءِ وَإِسْكَانِ الدَّالِّ . قَالَ تُغَلَّبُ وَغَيْرُهُ : وَهِيَ لُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ . وَالثَّانِيَةُ بِضَمِّ الْخَاءِ وَإِسْكَانِ الدَّالِّ ، وَالثَّلَاثَةُ بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِّ . وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ ، وَكَيْفَ أَمَكَنَ الْخِدَاعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ ، فَلَا يَجِلُّ . وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ ، أَحَدُهَا فِي الْحَرْبِ . قَالَ الطَّبْرِيُّ : إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ الْمَعَارِضُ دُونَ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ ، هَذَا كَلَامُهُ . وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ نَفْسِ الْكَذِبِ ، لَكِنِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى التَّعْرِيفِ أَفْضَلُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

ما في نفوسهم ، ﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، يقول : فَقَدْ خَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ وَقَعَةِ بَدْر ، وَأَمَكَنَ مِنْهُمْ بِبَدْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بِمَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيُضْمِرُونَهُ فِي نَفْسِهِمْ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي تَدْبِيرِهِمْ وَتَدْبِيرِ أُمُورِ خَلْقِهِ سِوَاهُمْ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ [يُوسُف: ٥٢] .
 هذا من كلام النبي يُوسُفَ ﷺ. ذلك الذي فَعَلْتُ مِنْ رَدِّي رَسُولَ الْمَلِكِ إِلَيْهِ حَتَّى تَظْهَرَ بَرَاءَتِي ، لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي زَوْجَتِهِ فِي حَالِ غَيْبَتِهِ ، بَلْ تَعَفَّفْتُ عَنْهَا ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُرْسِدُ مَنْ خَانَ أَمَانَتَهُ ، وَلَا يُوقِفُهُ ، وَلَا يُسَدِّدُ خَطَاةَهُ ، بَلْ يَفْضَحْهُ فِي عَاقِبَتِهِ بِحِرْمَانِ الْهَدَايَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى . أَيِ إِنْ اللَّهُ يُبْطِلُ كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، وَلَا يَهْدِيهِمْ فِي كَيْدِهِمْ ، وَإِيقَاعُ الْفِعْلِ عَلَى الْكَيْدِ مُبَالَغَةٌ .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٥٠) : ((قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ، ذَهَبَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيِ : فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ الْعَزِيزُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي أَهْلِهِ بِالْغَيْبِ ، وَالْمَعْنَى : بِظَهْرِ الْغَيْبِ ، وَالْجَارِ وَالْمَجْرُورِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ ، أَيِ : وَهُوَ غَائِبٌ عَنِّي ، أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ . قِيلَ : إِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ وَهُوَ فِي السَّجْنِ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ الرَّسُولُ بِمَا قَالَتْهُ النَّسْوَةُ ، وَمَا قَالَتْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ وَقَدْ صَارَ عِنْدَ الْمَلِكِ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى . وَذَهَبَ الْأَقْلُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ ، وَالْمَعْنَى : ذَلِكَ الْقَوْلُ الَّذِي قُلْتُهُ فِي تَنْزِيهِهِ ، وَالْإِقْرَارِ عَلَى نَفْسِي بِالْمُرَاوَدَةِ لِيَعْلَمَ يُوسُفُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ، فَانْسَبَ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ، وَهُوَ غَائِبٌ عَنِّي ، أَوْ وَأَنَا غَائِبَةٌ عَنْهُ ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ أَيِ : لَا يُثَبِّتُهُ وَيُسَدِّدُهُ ، أَوْ لَا يَهْدِيهِمْ فِي كَيْدِهِمْ حَتَّى يُوقِعُوهُ عَلَى وَجْهِهِ يَكُونُ لَهُ تَأْتِيرٌ يَثْبُتُ بِهِ وَيَدُومُ . وَإِذَا كَانَ مِنْ قَوْلِ يُوسُفَ فِيهِ تَعْرِيفٌ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ حَيْثُ وَقَعَ مِنْهَا الْكَيْدُ لَهُ وَالْخِيَانَةُ لِرُزُوجِهَا ، وَتَعْرِيفٌ بِالْعَزِيزِ حَيْثُ سَاعَدَهَا عَلَى حَبْسِهِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بَرَاءَتَهُ وَنَزَاهَتَهُ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الْحَجَّ : ٣٨] .
 إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ كُلَّ خَائِنٍ لِلْأَمَانَةِ ، جَاحِدٍ نِعْمَةَ اللَّهِ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَجَاحِدِي النَّعْمِ ، إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ شَادَّةٌ ظَلَمَتْ نَفْسَهَا ، وَظَلَمَتْ الْآخِرِينَ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣ / ٣٠٢) : ((أَيِ : لَا يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ اتَّصَفَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْخِيَانَةُ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاتِيْقِ ، لَا يَفِي بِمَا قَالَ ، وَالْكَفُورُ الْجَحْدُ لِلنَّعْمِ ، فَلَا يَعْتَرَفُ بِهَا)) .
 وَإِبْرَادُ صِبْغَتِي الْمُبَالَغَةُ ﴿ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ ، (فَعَّالٌ وَقَعُولٌ) ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ كَذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ ، لَا لِإِخْرَاجِ مَنْ خَانَ دُونَ خِيَانَتِهِمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٩ / ١٦٠) : ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ يَخُونُ اللَّهَ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ ، وَيَعْصِيهِ وَيُطِيعُ الشَّيْطَانَ ﴿ كُفُورٌ ﴾ ، يقول : جَحُودٌ لِنِعْمَةِ عِنْدِهِ ، لَا يَعْرِفُ لِمُنْعِمِهَا حَقَّهُ فَيَشْكُرُهُ عَلَيْهَا)) .

والخيانة عاقبتها وخيمة ، وهي لا تصدُر إلا عن قلب مريض ، كما أنها تدلُّ على نفسية خبيثة تعتمد على التخايُّل ، والرَّوْعَانِ ، ونكثِ العُهُودِ والمَوَائِقِ ، وإخلافِ الوُعودِ ، وتغييرِ الكلامِ لتحقيقِ مصلحة آنية زائلة . والخيانة تكون في المال والنفس وغير ذلك ، وهي البطانة البائسة . وعن أبي هريرة قال : كان من دعاء النبي ﷺ : ((... ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ ، فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبِطَانَةَ)) ٢٧٠ .

ألجأ إليك وألوذ وأعتصم بك من الخيانة، وهي نقض العهد والأمانات ، سواء من أن تقع منه، أو تقع من غيره عليه ، " فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبِطَانَةَ " ، أي : ما يبطنه الإنسان من خيانة وعُدْر ، فإنها أذمُّ المساوي التي قد يضميرها الإنسان في نفسه ، والخيانة إذا التصقت بالإنسان ، فإنها تحوِّله إلى شخص ضعيف مُنهار ، فوجب الاستعاذة منها ، لأنها تُفسد حال الإنسان ، وتدمر حياته . والخيانة تتعارض مع الإيمان ، فهي تطعن فيه ، ولا يمكن أن تنسجم مع خُلق المؤمن بأية حال من الأحوال ، لأنَّ المؤمن شخصية متوازنة ، ظاهرها خيرٌ كباطنها دون تناقض ، أما الخيانة فتحمل في طبيعتها نقض العهود سرًّا ، وطعن الآخرين في ظهورهم ، وتضييع الأمانة ، وهذا يتنافى مع المنهجية الإسلامية في التعامل . والمؤمن قد توجد عنده بعض الأخلاق السيئة ، لكنَّ الخيانة لا يمكن أن تكون ضمن دائرة أخلاقه ، ومُحال أن تكون صفةً له .

وفي عون المعبود (٤ / ٢٨٤) : (((وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ) وهي ضدُّ الأمانة. قال الطيبي: هي مُخَالَفَةُ الْحَقِّ بِنَقْضِ الْعَهْدِ فِي السَّرِّ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ الآية ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ شامل لجميعها (فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبِطَانَةَ) أي: الخصلة الباطنة هي ضدُّ الظهارة . وَأَصْلُهَا فِي الثُّوبِ ، فَاسْتَعِيرَ لِمَا يَسْتَبْطِنُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَجْعَلُهُ بِطَانَةً حَالِهِ . قَالَ فِي الْمُغْرَبِ : بِطَانَةُ الشَّيْءِ أَهْلُهُ أَوْ خَاصَّتُهُ ، مُسْتَعَارَةٌ مِنْ بِطَانَةِ الثُّوبِ ، قَالَ فِي الْمِرْقَاةِ)) .

٢٧٠ رواه ابن جبان في صحيحه (٣ / ٣٠٤) برقم (١٠٢٩) . وقال النووي في رياض الصالحين : ((رواه أبو داود بإسناد صحيح)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ١٥٠): ((وأعوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بَسَّتِ الْبِطَانَةَ))
 وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ : أَفْحَشُ الزَّمَانَةِ عَدَمُ الْأَمَانَةِ . _ وَالزَّمَانَةُ : الضَّرْرُ _ . وقال الأحنف : الزَّمُ الْأَمَانَةُ
 يَلْزَمُكَ الْعِلْمُ . وقيل : الْخِيَانَةُ خِزْيٌ وَهَوَانٌ ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ . وَرَبُّ حِيلَةٍ
 عَلَى صَاحِبِهَا وَبَيْلَةٍ . وَالْبِطَانَةُ بِكسر الباءِ خِلَافُ الظَّهَارَةِ . ثُمَّ اسْتُعِيرَتْ لِمَنْ يَخْصُهُ الرَّجُلُ بِالاطِّلَاعِ
 عَلَى بَاطِنِ أَمْرِهِ . وَالتَّبَطُّنُ : الدُّخُولُ فِي الْأَمْرِ . فَلَمَّا كَانَتِ الْخِيَانَةُ أَمْرًا يُبْطِنُهُ الْإِنْسَانُ وَيَسْتُرُهُ ،
 وَلَا يُظْهِرُهُ ، سَمَّاهَا بِطَانَةً)) .

وعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((الْمُؤْمِنُ يُطْبِعُ عَلَى كُلِّ خَلَّةٍ
 غَيْرِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ)) ٢٧١ .

الْمُؤْمِنُ يُفْطِرُ عَلَى كُلِّ صِفَةٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ ، فَالْخِيَانَةُ وَالْكَذِبُ يَطْعَنَانِ فِي عَقِيدَةِ الْمُؤْمِنِ
 وَخُلُقِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ . وَالْإِنْسَانُ مَفْطُورٌ عَلَى حُبِّ الْحَقِّ وَالْإِحْلَاصِ وَالصِّدْقِ ، وَالْخِيَانَةُ وَالْكَذِبُ لَا
 يَكُونَانِ أَصِيلَيْنِ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ بِحَسَبِ فِطْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا يَكْتَسِبُهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ اِكْتِسَابًا
 بِعَوَامِلٍ مُخْتَلِفَةٍ ، كَالْبَيْئَةِ وَالْمُؤَثَّرَاتِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمَصَالِحِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَأَيْضًا اِلْتِمَادًا بِتَكَرُّرِ الْخِيَانَةِ
 وَالْكَذِبِ ، ثُمَّ تَحْوُلُ الْعَادَةُ فَتَكُونُ خُلُقًا مُكْتَسَبًا .

وَالْإِنْسَانُ مَفْطُورٌ فِي أَسَاسِ تَكْوِينِهِ عَلَى حُبِّ الْحَقِّ ، وَالَّذِي يُحِبُّ الْحَقَّ لَا يَكُونُ خَائِنًا وَلَا
 كَذَّابًا ، بَلْ يَأْتِيَانِ إِلَى أَخْلَاقِ النَّاسِ اِكْتِسَابًا ، وَالْحَدِيثُ ذَكَرَ الْمُؤْمِنَ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِنْسَانَ ، لِأَنَّ كُلَّ
 إِنْسَانٍ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِيمَانِ ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْفِطْرَةِ ، وَيُفْسِدُ فِطْرَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِرَادَتِهِ ، أَوْ تَعَمَّلَ الْبَيْئَةَ
 عَلَى إِفْسَادِ فِطْرَتِهِ .

وَالْمَنْهَجِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَرَفُضُ مُقَابَلَةَ الْخِيَانَةِ بِالْخِيَانَةِ ، فَالنَّارُ لَا تُطْفِئُ النَّارَ ، إِنَّمَا يُطْفِئُهَا الْمَاءُ .
 وَلَا يَنْبَغِي مُقَابَلَةَ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ مَنَارَةُ الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، وَنَاشِرُ الْأَخْلَاقِ
 الْكَرِيمَةِ وَالصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ .

٢٧١ رواه البزار (٣ / ٣٤٠) برقم (١١٣٩) . وقال الحافظ في الفتح (١٠ / ٥٠٨) : ((وسنده قوي .
 وذكر الدارقطني في العلل أن الأشبه أنه موقوف)) اه . وقال الهيثمي في المجمع (١ / ٢٧٣) : ((رواه
 البزار وأبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح)) اه . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣ / ٣٦٨) :
 ((رواه البزار وأبو يعلى ، ورواياته زوارة الصحيح ، وذكره الدارقطني في العلل مرفوعاً وموقوفاً ، وقال :
 الموقوف أشبه بالصواب ، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي من حديث ابن عمر مرفوعاً)) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك)) ٢٧٢ .

الأمانة خلقٌ عظيمٌ من الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام، ورغب فيها، وأثنى على من اتصف بها. ومن وضع عندك أمانة فأدّها إليه إذا طلبها ، ولا يخمّلتك بحده لحقك على أن تجحد أمانته ، ولا تُعامله بمعاملته ، ولا تُقابل خيانتته بخيانتك. ويجب الالتزام بالأمانة في المعاملات ونحوها .

وقال المناوي في فيض القدير (١ / ٢٢٣) : ((أدّ) وجوباً من الأمانة . قال الراغب : وهو دفع ما يحق دفعه وتأديته (الأمانة) هي كلُّ حقٍّ لزمك أدائه وحفظه ، وقصر جمع لها على حقِّ الحقِّ وآخر على حقِّ الخلقِ قُصور . قال القرطبي : والأمانة تشمل أعداداً كثيرةً ، لكن أمهاتها الودعة واللُّقطة والرهن والعارية . قال القاضي : وحفظ الأمانة أثر كمال الإيمان ، فإذا نقص الإيمان نقصت الأمانة في الناس ، وإذا زاد زادت (إلى من ائتمنك) عليها، وهذا لا مفهوم له ، بل غالي ، والخيانة التفريط في الأمانة . قال الحرّاني : والائتمان طلب الأمانة ، وهو إيداع الشيء لحفظه حتى يُعاد إلى المؤمن . ولما كانت النفوس نزاعةً إلى الخيانة رَواعَةً عند مضايق الأمانة ، وربما تأولت جوازها مع من لم يلتزمها عقبه بقوله (ولا تخن من خانك) أي : لا تُعامله بمعاملته، ولا تُقابل خيانتته بخيانتك ، فتكون مثله ، وليس منها ما يأخذه من مال من جحدته حقه، إذ لا تعدّي فيه ، أو المراد إذا خانك صاحبك فلا تُقابلهُ بجزء خيانتته ، وإن كان حسناً ، بل قابله بالأحسن ، الذي هو العفو ، وادفع بالتي هي أحسن ، وهذا كما قاله الطيبي أحسن . قال ابن العربي : وهذه مسألة متكررة على ألسنة الفقهاء ، ولهم فيها أقوال : الأول لا تخن من خانك مُطلقاً ، الثاني خن من خانك ، قاله الشافعي ، الثالث إن كان مما ائتمنك عليه من خانك فلا تخنه ، وإن كان ليس في يدك فخذ حَقَّك منه ، قاله مالك . الرابع إن كان من جنس حَقَّك فخذهُ، وإلا فلا ، قاله أبو حنيفة . قال : والصحيحُ منها جواز الاعتداء بأن تأخذ مثل مالك من جنسه أو غير جنسه إذا عدلت ، لأن ما للحاكم فعله ، إذا قدرت تفعله إذا اضطررت)) .

٣٨_ نَقْضُ الْعَهْدِ

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧] .

٢٧٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٣) برقم (٢٢٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الذين يَنْقُضُونَ ما عَهَدَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي الكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ ، مِنَ الإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِنْ بَعْدِ تَوْكِيدِهِ عَلَيْهِمْ بِإِجَابِهِ ذَلِكَ ، أَوْ يَنْقُضُونَ كُلَّ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ مِنَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالتَّصَدِيقِ بِرُسُلِهِ ، وَالْعَمَلِ بِشَرَائِعِهِ ، وَحِفْظِ حُدُودِهِ . وَالتَّقْضُ : ضِدُّ الإِبْرَامِ ، وَمَعْنَاهُ : حَلُّ الشَّيْءِ بَعْدَ عَقْدِهِ . وَنَقْضُ العَهْدِ : الإِعْرَاضُ عَنِ الثَّبَاتِ عَلَى أَحْكَامِهِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥٦) : ((وفي هذا العَهْدِ ثلاثة أقوال : أحدها أَنَّهُ ما عَهَدَ إِلَى أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالْوَصِيَّةِ بِاتِّبَاعِهِ ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني أَنَّهُ ما عَهَدَ إِلَيْهِمْ فِي القُرْآنِ فَأَقْرَبُوا بِهِ ثُمَّ كَفَرُوا ، قاله السُّدِّي . والثالث أَنَّهُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ ، قاله الرَّجَّاحُ . ونحن وإنْ لَمْ نَذْكَرْ ذَلِكَ العَهْدَ ، فَقَدْ ثَبَتَ بِخَبَرِ الصَّادِقِ ، فيجب الإِيمَانُ بِهِ . وفي ﴿ مِنْ ﴾ قَوْلانِ : أَحَدُهُما أَنَّها زائِدة ، والثاني أَنَّها لابتداء الغاية ، كَأَنَّهُ قال : ابتداء نَقْضِ العَهْدِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ . وفي هاء ﴿ مِيثَاقِهِ ﴾ قَوْلانِ : أَحَدُهُما أَنَّها تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . والثاني أَنَّها تَرْجِعُ إِلَى العَهْدِ ، فَتَقْدِيرُهُ : بَعْدَ إِحْكَامِ التَّوْفِيقِ فِيهِ)) .

وقال النَّسْفِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٤) : ((قِيلَ : عَهْدَ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ ثَلَاثَةَ عُهُودَ : العَهْدُ الأوَّلُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى جَمِيعِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يَقْرَأُوا بِرُبوبِيَّتِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ الآية . وَعَهْدٌ خَصَّ بِهِ النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَلِّغُوا الرِّسَالََةَ وَيُقِيمُوا الدِّينَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ . وَعَهْدٌ خَصَّ بِهِ العُلَمَاءَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾)) .

ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ صِلَةِ الأَرْحَامِ وَالقَرَابَاتِ ، وَيَقْطَعُونَ الصِّلَةَ بَيْنَ الأنبياءِ فِي إيمانِهِمْ بِبَعْضِ وَكُفْرِهِمْ بِبَعْضِ ، وَيَتَرَكُونَ مُوَالَاةَ المُؤْمِنِينَ . وَاللَّفْظُ فِي الآيَةِ عامٌ فِي كُلِّ قِطْعَةٍ لا يَرْضاها اللَّهُ تَعَالَى . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥٧) : ((وفي الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُوصَلَ ثَلَاثَةَ أقوالٍ : أَحَدُها الرَّحْمُ وَالقَرَابَةُ ، قاله ابن عباس وقتادة والسُّدِّي . والثاني أَنَّهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ قَطَعُوهُ بِالتَّكْذِيبِ ، قاله الحَسَنُ . والثالثُ الإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَأَنْ لا يُفَرِّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، فَأَمَنُوا بِبَعْضِ ، وَكَفَرُوا بِبَعْضِ ، قاله مُقاتِل)) .

وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ بِالدُّنُوبِ ، وَالْمَعَاصِي ، وَالْفِتَنِ ، وَتَعْوِيقِ النَّاسِ عَنِ الإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالقُرْآنِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٥٧) : ((وفي فَسادِهِمْ فِي الأَرْضِ ثَلَاثَةَ أقوالٍ : أَحَدُها أَنَّهُ اسْتَدْعَاؤُهُمُ النَّاسَ إِلَى الكُفْرِ ، قاله ابن عباس . والثاني أَنَّهُ العَمَلُ بِالمَعَاصِي ، قاله السُّدِّي وَمُقاتِل . والثالثُ أَنَّهُ قَطَعَهُمُ الطَّرِيقَ عَلَى مَنْ جَاءَ مُهاجِرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَمْنَعُوا النَّاسَ مِنَ الإِسْلامِ)) .

أُولئِكَ الْمَذْكُورُونَ ، الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ السَّيِّئَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، لِأَنَّهُمْ اسْتَبَدَّلُوا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ ، وَالنَّقْضَ بِالْوَفَاءِ ، وَالْقَطْعَ بِالْوَصْلِ ، وَالْفَسَادَ بِالصَّلَاحِ ، وَالْعِقَابَ بِالثَّوَابِ ، وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَصَارُوا إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ .

وقال الشَّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (١ / ٩٢) : ((وَأَخْرَجَ ابْنَ جَرِيرٍ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ نَسَبَهُ اللَّهُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، مِثْلُ : خَاسِرٍ ، وَمُسْرِفٍ ، وَظَالِمٍ ، وَمُجْرِمٍ ، وَفَاسِقٍ ، فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الْكُفْرَ . وَمَا نَسَبَهُ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ الذَّمَّ)) .

وقال البَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٦٣) : ((﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ وهذا الْعَهْدُ إِذَا الْعَهْدُ الْمَأْخُوذُ بِالْعَقْلِ ، وَهُوَ الْحُجَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى عِبَادِهِ الدَّالَّةُ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، وَوُجُوبِ وُجُودِهِ ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ . وَعَلَيْهِ أَوَّلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ . أَوْ : الْمَأْخُوذُ بِالرُّسُلِ عَلَى الْأُمَّمِ ، بَأَنَّهُمْ إِذَا بُعِثَ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ بِالْمُعْجِزَاتِ صَدَّقُوهُ وَاتَّبَعُوهُ ، وَلَمْ يَكْتُمُوا أَمْرَهُ ، وَلَمْ يُخَالِفُوا حُكْمَهُ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، وَنَظَائِرَهُ . وَقِيلَ: عُهُودُ اللَّهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ: عَهْدٌ أَخَذَهُ عَلَى جَمِيعِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ بَأَنَ يُقْرَأُوا بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَعَهْدٌ أَخَذَهُ عَلَى النَّبِيِّينَ بَأَنَ يُقِيمُوا الدِّينَ وَلَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، وَعَهْدٌ أَخَذَهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ بَأَنَ يُبَيِّنُوا الْحَقَّ وَلَا يَكْتُمُوهُ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ الصَّمِيرُ لِلْعَهْدِ . وَالْمِيثَاقُ : اسْمٌ لِمَا يَقَعُ بِهِ الْوَثَاقَةُ ، وَهِيَ الْاسْتِحْكَامُ . وَالْمُرَادُ بِهِ مَا وَثَّقَ اللَّهُ بِهِ عَهْدَهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْكِتَابِ ، أَوْ مَا وَثَّقُوهُ بِهِ مِنَ الْإِتِّمَامِ وَالْقَبُولِ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْمَصْدَرِ ، وَ ﴿ مِنْ ﴾ لِلْإِبْتِدَاءِ ، فَإِنَّ إِبْتِدَاءَ التَّقْضِ بَعْدَ الْمِيثَاقِ ، ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ، يُحْتَمَلُ كُلُّ قِطْعَةٍ لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ تَعَالَى ، كَقَطْعِ الرَّحِمِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالتَّفَرُّقِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْكِتَابِ فِي التَّصَدِيقِ ، وَتَرْكِ الْجَمَاعَاتِ الْمَفْرُوضَةِ ، وَسَائِرِ مَا فِيهِ رَفُضٌ خَيْرٌ أَوْ تَعَاطِي شَرٌّ ، فَإِنَّهُ يَقْطَعُ الْوَصْلَةَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ

﴿ وَيُنْفِسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بِالْمَنْعِ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالْحَقِّ ، وَقَطْعِ الْوَصْلِ الَّتِي بِهَا نِظَامُ الْعَالَمِ وَصَلَاخُهُ ، ﴿ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا بِإِهْمَالِ الْعَقْلِ عَنِ النَّظَرِ ، وَاقْتِنَاصِ مَا يُفِيدُهُمُ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ ، وَاسْتِبْدَالِ الْإِنْكَارِ وَالطَّغْنِ فِي الْآيَاتِ بِالْإِيمَانِ بِهَا ، وَالنَّظَرِ فِي حَقَائِقِهَا ، وَالِاقْتِنَاصِ مِنْ أَنْوَارِهَا ، وَاسْتِرَاءِ التَّقْضِ بِالْوَفَاءِ ، وَالْفَسَادِ بِالصَّلَاحِ ، وَالْعِقَابِ بِالثَّوَابِ)) .

وَعَنِ الْمُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَى أَبِي حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ [الْكَهْفُ : ١٠٣] ، قُلْتُ : يَا أَبَتَاهُ ، أَهُمُ الْخَوَارِجُ ؟ ، قَالَ : لَا يَا بُنَيَّ ، أَقْرَأِ الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا : ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَزُنًا ﴿ [الْكَهْفُ : ١٠٥] ، قال : ((هُمُ الْمُجْتَهِدُونَ مِنَ النَّصَارَى ، كَانَ كُفْرُهُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ بِمُحَمَّدٍ وَلِقَائِهِ ، وَقَالُوا : لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ طَعَامٌ وَلَا شَرَابٌ ، وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)) ٢٧٣ .

هذا تفسير على المعنى من سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ لا أن الآية أُريدَ منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ بالنهروان ، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل، لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام ، والقيام بشرائع الإسلام . والفاسق في اللغة : هو الخارج عن الطاعة . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧] ٢٧٤ . إن الذين يستبدلون بعهد الله إليهم في الإيمان بالنبي محمد ﷺ ، والوفاء بالأمانات ، وبأيمانهم الكاذبة ، ثمنًا قليلًا ، وهو خطأ الدنيا الفاني ، ومتاعها الزائل ، أولئك الموصوفون

٢٧٣ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٠٢) برقم (٣٤٠١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

٢٧٤ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١ / ٤١٠ و ٤١١) : ((قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن الأشعث بن قيس خصم بعض اليهود في أرض ، فحجده اليهودي ، فقدمه إلى النبي ﷺ ، فقال له : " أَلَكِ بَيْتَةٌ ؟ " قال : لا ، قال لليهودي : " أَتَحْلِفُ ؟ " ، فقال الأشعث : إِذَا يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ بِمَالِي ، فنزلت هذه الآية ، أخرجها البخاري ومسلم . والثاني أنها نزلت في اليهود ، عهد الله إليهم في التوراة تبين صفة النبي ﷺ فحجدهوا وحالفوا لما كانوا ينالون من سفلتهم من الدنيا ، هذا قول عكرمة ومقاتل . والثالث أن رجلاً أقام سلعته في السوق أول النهار ، فلما كان آخره جاء رجل يساومه فحلف لقد منعتها أول النهار من كذا ، ولولا المساء لما باعها به ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول الشعبي ومجاهد . فعلى القول الأول والثالث : العهد لزوم الطاعة وترك المعصية ، وعلى الثاني ما عهد به إلى اليهود في التوراة ، واليمين : الحلف . وإن قلنا إنها في اليهود والكفار ، فإن الله لا يكلمهم يوم القيامة أصلاً ، وإن قلنا إنها في العصاة ، فقد روي عن ابن عباس أنه قال : لا يكلمهم الله كلام خير . ومعنى ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : لا يعطف عليهم بخير ممتا لهم . قال الزجاج : تقول : فلان لا ينظر إلى فلان ولا يكلمه ، معناه أنه غضبان عليه . قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي لا يطهرهم من دنس كفرهم ودنوبهم .

بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ، لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا حَظٌّ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كَلَامًا يَنْفَعُهُمْ وَيَسْرُّهُمْ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَي : لَا يَرْحَمُهُمْ وَلَا يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَمْنَحُهُمْ خَيْرًا، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِمْ بِالْجَمِيلِ وَلَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُوجِعٌ عَلَى مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَعَاصِي .

وقال البياضوي في تفسيره (١ / ٥٥) : ((« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ » يَسْتَبَدِلُونَ « بِعَهْدِ اللَّهِ » بما عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَالْوَفَاءِ بِالْأَمَانَاتِ « وَأَيْمَانِهِمْ » وَبِمَا حَلَفُوا بِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ: وَاللَّهِ لِنُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَنْنُصِرَنَّهُ « ثُمَّ قَلِيلًا » مَتَاعَ الدُّنْيَا « أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ » بِمَا يَسْرُّهُمْ، أَوْ بِشَيْءٍ أَصْلًا ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَسْأَلُونَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ : « وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، فَإِنَّ مَنْ سَخِطَ عَلَى غَيْرِهِ وَاسْتَهَانَ بِهِ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَنِ التَّكَلُّمِ مَعَهُ وَاللِّتْفَاتِ نَحْوَهُ ، كَمَا أَنَّ مَنْ اعْتَدَى بِغَيْرِهِ يُقَاوِلُهُ وَيُخَيِّرُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، « وَلَا يُرَكِّبُهُمْ » وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِمْ ، « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » عَلَى مَا فَعَلُوهُ . قِيلَ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَحْبَارِ حَرْفُوا التَّوْرَةَ ، وَبَدَّلُوا نَعْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَحُكِمَ الْأَمَانَاتِ ، وَغَيْرَهُمَا ، وَأَخَذُوا عَلَى ذَلِكَ رِشْوَةً . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ أَقَامَ سَلْعَةً فِي السُّوقِ ، فَحَلَفَ لَقَدْ اشْتَرَاهَا بِمَا لَمْ يَشْتَرِهَا بِهِ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي تَرَاغُعِ كَانَ بَيْنَ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ وَيَهُودِيٍّ فِي بئرٍ أَوْ أَرْضٍ ، وَتَوَجَّهَ الْحَلْفُ عَلَى الْيَهُودِيِّ)) .

لقد نزلت الآية في اليهود لما بدلوا نعت النبي ﷺ ، وعهد الله إليهم في التوراة ، أو فيمن حلف كاذبًا في دعوى ، أو في بيع سلعة .

وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٢١٩ و ٢٢٠) : ((وأكثر المفسرين على أن الآية نزلت في اليهود وكنمانهم أمر محمد ﷺ ، وإيمانهم الذي بدلوه من صفة محمد عليه السلام هو الحق في التوراة ، والدليل على صحة هذا قوله : « وَإِنْ مِنْهُمْ » أَي : مِنَ الْيَهُودِ « لَقَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ » يُحَرِّفُونَهُ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ ، وَالمَعْنَى : يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ عَنْ سَنَنِ (نَهَج) الصَّوَابِ بِمَا يَأْتُونَهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، « لَتَحْسِبُوهُ » ، أَي : لَتَحْسِبُوا مَا لَوْوَا أَلْسِنَتَهُمْ بِهِ « مِنَ الْكِتَابِ »)) . وفي صحيح البخاري (٢ / ٨٥١) : عن عبد الله _ ابن مسعود _ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ)) . قال : فقال الأشعث _ ابن قيس _ : فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ . كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ ؟)) ،

قُلْتُ: لا ، قال : فقال لليهوديَّ : ((اخْلِفْ)) ، قال : قُلْتُ : يا رسول الله ، إِذَا يَخْلِفُ وَيَذْهَبُ بِمَالِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٢٧٥ .
 مَنْ حَلَفَ عَلَى مَا شَأْنُهُ أَنْ يَكُونَ مَحْلُوقًا عَلَيْهِ ، يَحُوزُ بِتِلْكَ الْيَمِينِ مَالًا لِغَيْرِهِ ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْيَمِينِ كَاذِبٌ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ ، وَسِعُاقِبَهُ أَشَدُّ الْعِقَابِ .

وَبَيَّنَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ أَرْضٌ مُشْتَرَكَةٌ ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ الْيَهُودِيُّ حَقَّهُ فِي الْأَرْضِ ، فَأَحْضَرَ خَصَمَهُ الْيَهُودِيَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا . فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَشْعَثَ : " أَلَمْ يَبَيِّنْهُ ؟ " ، أَي : هَلْ عِنْدَكَ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَدْعِي ؟ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْأَشْعَثِ دَلِيلٌ وَلَا بَيِّنَةٌ . فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودِيَّ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى مَا ادَّعَاهُ ، وَبَيَّنَّ الْأَشْعَثُ أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ يَهُودِيٌّ ، وَلَا يُبَالِي بِالْحَلْفِ ، وَسَيَخْلِفُ كَاذِبًا ، وَيَذْهَبُ بِأَرْضِهِ ، وَيَخْسِرُهَا .
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ أَي : يَسْتَبَدِلُونَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُشْتَرِيَّ يَأْخُذُ شَيْئًا وَيُعْطِي شَيْئًا ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُعْطَى وَالْمَأْخُودِ ثَمَنٌ لِلْآخِرِ ﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ أَي : بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَالْوَفَاءِ بِالْأَمَانَاتِ ﴿ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، وَالْمُرَادُ بِأَيْمَانِهِمْ : الْإِيمَانَ الْكَاذِبَةَ الَّتِي يَحْلِفُونَهَا لِيُؤَكِّدُوا مَا يُرِيدُونَ تَأْكِيدَهُ مِنْ أَقْوَالٍ أَوْ أَعْمَالٍ ، وَالْمَعْنَى : يَسْتَبَدِلُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ حُظُوظَ الدُّنْيَا وَحُطَامَهَا الزَّائِلَ وَمَتَاعَهَا الْفَانِيَّ وَشَهَوَاتِهَا الْبَاطِلَةَ ، نَحْوَ الْمَالِ وَالْمَنَافِعِ وَغَيْرِهَا .

وَوُصِفَ الثَّمَنُ هُنَا بِالْقَلَّةِ تَحْقِيرًا لَهُ ، إِذْ إِنَّهُ نَظِيرُ خِيَانَةِ عَهْدِ اللَّهِ ، وَالْاجْتِرَاءِ عَلَى الْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا قَلِيلًا وَإِنْ بَلَغَ مَا بَلَغَ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ، بِجَانِبِ رِضَا اللَّهِ وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ .
 ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَقُوبَةَ مَنْ تَلَبَّسَ بِهَذِهِ الْكَبِيرَةِ ، فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ يَعْنِي : لَا نَصِيبَ لَهُمْ وَلَا حَظَّ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ بِمَا يَسْرُهُمْ ، بَلْ يُكَلِّمُهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُهِينُهُمْ . لَا يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَهُوَ عَلَيْهِمْ غَضَبَانٌ ، ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أَي : وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَ رَحْمَةٍ وَعَطْفٍ وَلَا نَظْرًا يَسْرُهُمْ ، ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَدْنَسِ بِالْمَغْفِرَةِ ، وَلَا يُثْنِي عَلَيْهِمْ كَمَا يُثْنِي عَلَى الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، بَلْ يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ ، وَيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ جَزَاءَ غَدْرِهِمْ وَخِيَانَتِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُوجِعٌ بِسَبَبِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْجَرَائِمِ .

٢٧٥ رواه البخاري (٨٥١ / ٢) برقم (٢٢٨٥) واللفظ له ، ومسلم (١ / ١٢٢) برقم (١٣٨) .

إِنَّ إلْحَاقَ الصَّرِّ والأذى بالناس أمر في غاية الفُجْحِ والسُّوءِ في الدُّنْيَا ، ويُؤدِّي إلى عذاب النار الشديد في الآخرة . وأكُلُّ أموال الناس بالباطل من أعظم الذُّنُوب ، وهو من الكبائر المُهْلِكَة ، وقد عَظَّمَ اللهُ عِقُوبَتَهُ في كِتَابِهِ الكَرِيمِ ، وحذَّرَ النبي ﷺ من ذلك الذَّنْبِ تحذيرًا شديدًا . والحديثُ يَنْهَى عن استحلال أموال الناس بالباطل ، ويُحذِّرُ من أخذ حُقوقِ الناس بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ ، ويبيِّنُ أن المال المُقْتَطَعُ من المُسْلِمِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ ، لا يُبَارِكُ اللهُ فِيهِ ، ويوضِّحُ القاعدةَ الشرعيةَ الثابتةَ في كُلِّ زمان ومكان: إِنَّ البَيِّنَةَ على المُدَّعي ، واليَمِينَ على المُدَّعي عَلَيْهِ إذا أنكَرَ .

إِنَّ شِدَّةَ حِرْصِ اليهوديِّ على حُطامِ الدُّنْيَا الفاني ، جَعَلَهُ يعتدي على أرضِ غَيْرِهِ . ومن أجل توفيرِ الشَّرعيةِ لهذهِ السَّرِقَةِ كان مُستعدًّا للحَلْفِ واليَمينِ الكاذبِ . وقد يقول أحدهم إِنَّ هذا سُلُوكُ فردي ، لا يَحُوزُ تعميمه على جميع اليهود . وهذه رؤية قاصرة ، لأنَّ هذا السُّلُوكُ المُنْحَرِفُ مُنتشر بين اليهود ، بحيث صار صِفَةً لازمةً مُلتصقةً بهم ، ومُميِّزةً لهم . وقد سَرَقَ اليهودُ أراضي فلسطين بأكملها وهَجَّرُوا شَعْبَهَا ، في وَضَحِ النهار ، بِمُبارَكَةِ جميع اليهود . وَلَوْ وُجِدَ يهوديٌّ أو أكثر يُعارضون الكيَّانَ الصهيوني ويقفون ضِدَّهُ ، فهذا لا يُلغِي التَّعميمَ ، لأنَّ النادر لا حُكْمَ له .

وهذا اليهوديُّ فاسقٌ وفاجرٌ ، لا يُبالي بالحَلْفِ ، ولا يهتمُّ باليمين ، ولا يَعْباُ بما يَحْلِفُ عليه ، ولا يَخشى شيئًا ، ولا يتورَّعُ من شيءٍ . وهو على أتم الاستعداد لاستخدام الحَلْفِ لسرقة الآخرين .

أما المُسْلِمُ ، فهو يَخشى اللهُ ، ويُقَدِّسُ عَهْدَ اللهِ ، ولا يشتري به ثمنًا قليلًا ، ولا يبيع دِينَهُ بِعَرَضِ مِنَ الدُّنْيَا زائلٍ . وهُنَا تَبْرُزُ أيضًا ضرورةُ حِفْظِ الأيمان ، وعدم إقحام اسمِ اللهِ العظيم في سياق الخيانة أو العُدْر أو الكَذِبِ . والحَلْفُ بالله لا يكون إلا في الأُمُور العظيمة لا التافهة .

وفي تُحفةِ الأَحوذِي (٢٧٥ / ٨) (٢٧٦) : ((قَوْلُهُ : (عن عبد الله) أي : ابن مسعود _رضي اللهُ عنه _ (مَنْ حَلَفَ على يَمِينِ) المُرادُ باليَمِينِ هُنَا المُحْلُوفِ عَلَيْهِ مَجَازًا (وهو فيها فَاجِرٌ) أي : كاذبٌ . والجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ (لِيَقْتطِعَ بِهَا مالَ امرئٍ مُسْلِمٍ) أي : لِيَفْصِلَ قِطْعَةً مِنْ مالِهِ وبأخذها بتلك اليمين (لَقِيَ اللهُ) أي : يوم القيامة (وهو عَلَيْهِ غَضَبَان) أي : يُعْرَضُ عنه ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ والعِنايةِ (فِيَّ) بِتَشديدِ الياءِ المُفتوحةِ أي : في شَأني وحالي (كان ذلك) أي قَوْلُهُ ﷺ : " مَنْ حَلَفَ على يَمِينٍ " إلخ (كان بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ اليهودِ أرضٌ) أي مُتَنانَعٌ فِيها (فَجَحَدَنِي) أي أنكَرَ عَلَيَّ (فَقَدَّمْتُهُ) بِالتشديدِ أي : جِئْتُ بِهِ وَرَفَعْتُ أَمْرَهُ (أَلَلَّكَ بَيِّنَةٌ ؟) أي : شُهُودٌ (فقال لليهوديِّ : اْحْلِفْ) ، في شرحِ السُّنَّةِ فِيهِ دليلٌ على أن الكافر يَحْلِفُ في الخُصُوماتِ كما يَحْلِفُ المُسْلِمُ (وإذن) بالتَّوْنِ (يَحْلِفُ) بالتَّصْبِ ، (فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﷻ) إِنَّ

الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٦﴾ (إلى آخر الآية . قال الطيبي : فإن قُلْتُ : كيف يُطابق نزول هذه الآية قَوْلُهُ : إِذَنْ يَخْلِفُ فَيَذْهَبُ بِمَالِي ؟ ، قُلْتُ : فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا : كَأَنَّهُ قِيلَ لِلأَشْعَثِ : لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَلْفُ ، فَإِنْ كَذَبَ فَعَلَيْهِ وَبِأَلِهِ . وثانيهما : لعلَّ الآية تذكُّرٌ لليهودي بِمِثْلِهَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الوَعِيدِ . والآية بِتَمَامِهَا مَعَ تَفْسِيرِهَا هَكَذَا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ﴾ يَسْتَبَدِلُونَ ﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ إِلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ﴿ وَأَيْمَانِهِمْ ﴾ حَلْفِهِمْ بِهِ تَعَالَى كاذِبًا ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿ أَوْلَيْتَكَ لَا خَلَاقَ ﴾ نَصِيبَ ﴿ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ يَرْحَمُهُمْ ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ يُطَهِّرُهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مُؤَلِّمٌ .

وقال المناوي في فيض القدير (٦/١٢٠ و١٢١) : ((مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ) أي : على مَحْلُوفٍ يَمِينٍ . قال القاضي : إِنَّمَا قَالَ : عَلَى يَمِينٍ ، تَنْزِيلًا لِلْحَلْفِ مَنْزِلَةَ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ اتِّسَاعًا (صَبْرًا) هِيَ الَّتِي تُلْزِمُ وَيُجْبَرُ حَالُهَا عَلَيْهَا حَالَ كَوْنِهِ (يَقْتَضِعُ بِهَا) أَي بِسَبَبِ الْيَمِينِ (مَالٍ) وَفِي رِوَايَةٍ حَقٌّ (أَمْرِي) وَهِيَ بِالْتَّرْجِيحِ أَحَقُّ لِعُمُومِهَا وَشُمُولِهَا غَيْرِ الْمَالِ كَحَدِّ قَذْفٍ وَنَصِيبِ زَوْجَةٍ فِي قَسْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ (مُسْلِمٌ) قِيدَ اتِّفَاقِي لَا احْتِرَازِي فَالذَّمِّي كَذَلِكَ بَلْ حَقُّهُ أَوْجِبُ رِعَايَةً لِإِمْكَانِ أَنْ يُرْضِيَ اللَّهُ الْمُسْلِمَ الْمَظْلُومَ يَوْمَ الْجَزَاءِ بِرَفْعِ دَرَجَاتِهِ فَيَعْفُو عَنْ ظَالِمِهِ ، وَالْكَافِرُ لَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ (هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ) أَرَادَ بِالْفُجُورِ لَازِمَهُ وَهُوَ الْكُذْبُ . وَقَالَ الْقَاضِي : أَقَامَ الْفُجُورَ مَقَامَ الْكُذْبِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَنْوَاعِهِ (لَقِيَ اللَّهَ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ) فَيُعَامِلُهُ مُعَامِلَةَ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَا يُكَلِّمُهُ وَلَا يُكْرِمُهُ ، بَلْ يُهَيِّنُهُ وَيُعَذِّبُهُ ، أَوْ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ ، أَي مُرِيدٌ لِعُقُوبَتِهِ ، وَإِذَا لَقِيَهِ وَهُوَ يُرِيدُهَا جَازًا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ تَمَادِيهِ بِشَرَطِ أَنْ لَا يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِإِرَادَتِهِ عَذَابٍ وَاصِبٍ _ دَائِمٌ ثَابِتٌ _ ، فَإِنْ مَا تَعَلَّقَ بِهِ وَصَفَ الْإِرَادَةَ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ . وَغُفْرَانُ الْجَرَائِمِ أَصْلٌ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ ، إِنَّمَا بِالْمُؤَاوَنَةِ أَوْ بِالطُّوْلِ _ الْقُدْرَةِ _ الْمَحْضِ وَفِي رِوَايَةٍ " لَقِيَ اللَّهَ أَجْذَمٌ " وَفِي أُخْرَى " أَوْجِبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " ، وَهَذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الرَّجْرِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْمَنْعِ ، بِدَلِيلِ تَأْكِيدِ إِيْجَابِ النَّارِ فِي الرِّوَايَةِ الْآخِرَةِ بِتَحْرِيمِ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّ أَحَدَهَا يَسْتَلْزِمُ الْآخَرَ ، وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي التَّأْكِيدَ ، إِذْ مُرْتَكِبُ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ قَدْ بَلَغَ فِي الْإِعْتِدَاءِ الْغَايَةَ حَيْثُ اقْتِطَعَ حَقُّ أَمْرِي لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِهِ ، وَاسْتَخَفَّ بِحُرْمَةِ الْإِسْلَامِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَفِيهِ أَنَّ اقْتِطَاعَ الْحَقِّ يُوجِبُ دُخُولَ النَّارِ إِلَّا أَنْ يُبْرَأَ صَاحِبُ الْحَقِّ أَوْ يَعْفُوَ عَنِ الْحَقِّ . وَالْكَلامُ فِيْمَا إِذَا حَلَفَ بِاسْمِ مَنْ أَسْمَانَهُ تَعَالَى ، أَوْ بِصِفَةِ مَنْ صِفَاتِهِ ، فَإِنْ حَلَفَ بِغَيْرِ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِيَمِينٍ شَرْعِيٍّ ، وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ الْفُقَهَاءُ يَمِينًا مَجَازًا ، كَمَنْ حَلَفَ بِطَّلَاقٍ أَوْ عِتَاقٍ ... ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلَّقَ فِعْلَهُ بِشَرْطٍ ، فَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ الشَّرْطُ وَقَعَ الْمَشْرُوطُ .)) .

إنَّ الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين ، وقد قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] . وهذا مديحٌ إلهيٌّ عظيمٌ للذين يلتزمون بالعهود ، ويتمسكون بالوعود ، ويُنفذونها . والوفاء بالعهد يدلُّ على شخصية أخلاقية مُتوازنة تُمثِّلُ لَبِنَةً أساسية في بناء المجتمع الإسلامي الذي يعرف حُقوقه وواجباته ، فيجب الوفاء بالعهد الإلهيِّ ، أي : حفظ العلاقة بين المخلوق والخالق ، وأيضًا الوفاء بعهود الناس ومواثيقهم . والوفاء بعهد الله هو الدافع للوفاء بعهود الناس . وَمَنْ خَانَ عَهْدَ اللَّهِ ، فهو _ حَتْمًا _ سَيُخَوَّنُ عُهُودَ النَّاسِ . وإذا لم يردع الدينُ الإنسانَ ، فلن يردعه شيء . والمُسلمُ إذا عاهدَ أَوْفَى ، وإذا قالَ صَدَقَ ، وإذا حَلَفَ لَمْ يَحْنُثْ بِيَمِينِهِ ، وإذا وَعَدَ لَمْ يُخْلِفْ ، وإذا ائْتَمَنَ لَمْ يَخُنْ .

وفي الدر المنثور (١ / ٤١٧) عن أبي العالية قال : ((فَمَنْ أَعْطَى عَهْدَ اللَّهِ ثُمَّ نَقَضَهُ ، فالله ينتقم منه ، وَمَنْ أَعْطَى ذِمَّةَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ غَدَرَ بِهَا ، فالنبي ﷺ خصمه يوم القيامة)) .

إنَّ قضية " العهود " لَيْسَتْ لَعِبَةً أَوْ لَعْوًا جَارِيًا عَلَى الألسنة . إنها قضية حساسة يتوقف عليها مصير الإنسان . والعهدُ الإلهيُّ والذِمَّةُ النَّبَوِيَّةُ لهما منزلتان رفيعتان ، فلا ينبغي تعريضهما للمزاح أو اللغو أو الخيانة . ولا بُدَّ مِنَ الحذر الشديد في التعامل مع المُقدَّسات لئلا يَسْقُطَ الإنسانُ في الهاوية السحيقة ، وعندئذ لا ينفع الندم . والمُسلمُ يُقَدِّسُ عَهْدَ اللَّهِ تعالى ، ولا يشتري به ثمنًا قليلًا ، ولا يبيع دينه بعرض من الدنيا زائل . وهنا تَظْهَرُ أهميةُ حِفْظِ الأيمان ، وتعظيم اسم الله ، وعدم إقحامه في سياق الخيانة أو الكذب . والحلفُ بالله لا يَكُونُ إلا في الأمور المُهمَّة لا البسيطة .

وفي تاريخ دمشق (٥١ / ٣٩٥) أنَّ الشافعي قال : ((ما حَلَفْتُ بِاللَّهِ صادِقًا ولا كاذبًا)) . وهذا يدلُّ على تعظيم اسم الله تعالى ، فالحلفُ باللهِ قِصِيَّةٌ كُبرى ، وعلى المرء ألا ينخدع بكثرة الحلف _ على الصغيرة والكبيرة _ من قِبَلِ الجُهالِ والعوام ، فهذا جهلٌ وعدم توقير لاسم الله تعالى . والجاهلُ عَدُوٌّ نَفْسِهِ . وللأسف ، فإنَّ الحلفَ يَنْتَشِرُ بصورة كارثية في الأسواق ، فنرى الكثيرين يتخذون من الأيمان _ الصادقة أو الكاذبة _ وسيلةً لترويج السِّلَعِ والمَوَادِّ ، وتحقيق أرباح مادية عبر إقناع الزبائن بجودة البضائع ، وهم يُفَحِّمُونَ اسمَ اللهِ تعالى في مُعاملاتهم التَّجارية لِكَي يُصَدِّقَهُم النَّاسُ ، وبالتالي تُباع البضائعُ ، وَيَحْصُلُونَ على الأرباح والمكاسب .

وفي صحيح مُسلم (١ / ١٠٢) عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : ((ثلاثة لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ ، ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، ولا يُرَكِّبُهُمْ ، ولهم عذابٌ أليم)) ، وذكرَ مِنْهُمُ : ((وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتُهُ بِالْحَلْفِ الكاذِبِ)) .

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرًا مَا يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ مِنَ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ ، وَالْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ الْحَرَصِ عَلَى كُلِّ مَا يُقَرِّبُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ .
 وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ النَّاسِ ، لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَلَامًا يَسْرُهُمْ ، اسْتِهَانَةً بِهِمْ ، وَغَضَبًا عَلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَى جُرْمٍ قَدْ وَقَعُوا فِيهِ ، وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ فَيَرْحَمُهُمْ ، وَلَا يُطَهِّرُهُمْ وَلَا يَغْسِلُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ ، وَفَوْقَ كُلِّ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ فَسَوْفَ يَدَّخِرُ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَيُضَاعَفُ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ . وَذَكَرَ مِنْهُمْ : " وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ " ، أَي : الَّذِي يَخْلِفُ عَلَى بِضَاعَتِهِ كَاذِبًا ، لِيُرْوَجَّهَا وَيُحَلِّيَهَا فِي أَعْيُنِ الْمُشْتَرِينَ بِالْكَذِبِ وَالْخِدَاعِ ، وَهُوَ بِحَلْفِهِ الْكَاذِبِ قَدْ اقْتَرَفَ أَرْبَعَةَ ذُنُوبٍ عَظِيمَةٍ : الْحَلْفِ الْكَاذِبِ ، وَغَشِّ الْمُسْلِمِ ، وَأَخْذِ الْمَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَالاسْتِخْفَافِ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٣ / ٣٢٩) : ((ثَلَاثَةٌ) مِنَ النَّاسِ (لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) تَكْلِيمَ رَضِيَ عَنْهُمْ ، أَوْ كَلَامًا يَسْرُهُمْ ، أَوْ لَا يُرْسِلُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةَ بِالتَّحِيَّةِ وَمَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ . وَلَمَّا كَانَ لِكثْرَةِ الْجَمْعِ مَدْخَلَ عَظِيمٍ فِي مَشَقَّةِ الْحَزَنِ قَالَ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الَّذِي مَنْ افْتَضَحَ فِي جَمْعِهِ لَمْ يَفْزُ (وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) نَظْرَ رَحْمَةٍ وَعَطْفٍ وَلُطْفٍ (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ ، أَوْ لَا يُثْنِي عَلَيْهِمْ (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مُؤَلِّمٌ يَعْرِفُونَ بِهِ مَا جَهِلُوا مِنْ عَظَمَتِهِ ، وَاجْتَرَحُوا مِنْ مُخَالَفَتِهِ ... (وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتَهُ) بِشَدِّ الْفَاءِ ، أَي : الَّذِي يُرْوَجُّ بَيْعَ مَتَاعِهِ (بِالْحَلْفِ) بِكَسْرِ اللَّامِ وَسُكُونِهَا (الْكَاذِبِ) أَي الْفَاجِرِ . قَالَ الطَّبْرِيُّ : ... وَالْحَالِفُ الْبَائِعُ يُرَاعِي غِبْطَةَ نَفْسِهِ ، وَهَضْمَ صَاحِبِ الْحَقِّ ، ...)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الْأَنْفَالُ : ٥٦] . الَّذِينَ عَاهَدتْهُمْ يَا مُحَمَّدُ _ وَهُمْ زُعَمَاءُ بَنِي قُرَيْظَةَ _ عَلَى الْأَيْمَانِ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ يَخُونُونَ عَهْدَهُمْ ، وَيَنْفُضُونَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، أَي : كُلَّمَا عَاهَدتْمْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ . وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ ، وَلَا يَخَافُونَ عَاقِبَةَ عَدْرِهِمْ ، وَلَا يُبَالُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْعَارِ وَالنَّارِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٢٧٠) : ((يَقُولُ : أَخَذتْ _ يَا مُحَمَّدُ _ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ أَنْ لَا يُحَارِبُوكَ وَلَا يُظَاهِرُوا عَلَيْكَ مُحَارِبًا لَكَ كَقُرَيْظَةَ وَنُظَرَاتِهِمْ مِمَّنْ كَانَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ وَعَقْدٌ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ ، كُلَّمَا عَاهَدوكَ وَوَاتَّقوكَ حَارِبُوكَ وَظَاهَرُوا عَلَيْكَ ، وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ ، وَلَا يَخَافُونَ فِي فِعْلِهِمْ ذَلِكَ أَنْ يُوقَعَ بِهِمْ وَقَعَةٌ تَجْتَاكِهِمْ وَتُهْلِكُهُمْ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٧٢) : ((قال المُفسِّرون : كان رسول الله ﷺ قد عَاهَدَ يَهُودَ قُرَيْظَةَ أَنْ لَا يُحَارِبُوهُ ، وَلَا يُعَاوِنُوا عَلَيْهِ ، فَتَقَضُّوا الْعَهْدَ ، وَأَعَانُوا عَلَيْهِ مُشْرِكِي مَكَّةَ بِالسَّلَاحِ ، ثُمَّ قَالُوا : نَسِينَا وَأَخْطَأْنَا ، ثُمَّ عَاهَدُوهُ الثَّانِيَةَ ، فَتَقَضُّوا وَمَالُوا الْكُفَّارَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، وَكَتَبَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى مَكَّةَ يُوَافِقُهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)) .

٣٩_ العِش

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ : ١] .

" وَبَلِّغْ " كَلِمَةٌ عَذَابٌ ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ . وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّهْوِيلِ وَالتَّفْخِيمِ .

هَلَاكٌ وَعَذَابٌ لِأَوْلَادِ الْفُجَّارِ الَّذِينَ يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، وَيَخْسُونَ حُقُوقَ النَّاسِ . وَالتَّطْفِيفُ : التَّنْقِصَانُ ، أَوَّلُهُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّفِيفِ ، وَهُوَ التَّنْزِيلُ الْيَسِيرُ . وَسُمِّيَ الْمُطَفِّفُ بِهَذَا الْاسْمِ ، لِأَنَّهُ يَسْرِقُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ الشَّيْءَ الطَّفِيفَ الْيَسِيرَ ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ السَّرْقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَأَكَلَ الْحَرَامَ . وَقَالَ الْبَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٦١) : ((﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، يَعْنِي : الَّذِينَ يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، وَيَخْسُونَ حُقُوقَ النَّاسِ . قَالَ الرَّجَّاحُ : إِنَّمَا قِيلَ لِلَّذِي يَنْقُصُ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ : مُطَفِّفٌ ، لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْرِقُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ الطَّفِيفَ وَقَالَ السُّدِّيُّ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ، وَبِهَا رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : أَبُو جَهَيْتَةَ ، وَمَعَهُ صَاعَانٌ يَكِيلُ بِأَحَدِهِمَا ، وَيَكْتُمُ بِالْآخَرِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . فَاللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ الْوَيْلَ لِلْمُطَفِّفِينَ)) .

وَرَوَى ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ (١١ / ٢٨٦) : عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ ، كَانُوا مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ كَيْلًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فَأَحْسَنُوا الْكَيْلَ بَعْدَ ذَلِكَ .

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى إِحْسَانِ التَّعَامُلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَإِبْفَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَحَذْرٍ مِنَ الْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ ، وَإِنْقَاصِ الْمَوَازِينِ وَالْمَكَايِلِ .

عِنْدَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، كَانَ أَهْلُهَا وَمَنْ فِيهَا مِنَ التَّجَّارِ يَنْقُصُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، وَيَتَحَايِلُونَ فِيهَا بِالْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ : ﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، يَتَوَعَّدُ مَنْ يُطَفِّفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، فَاسْتَجَابَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَرَكَوا هَذِهِ الْمَعْصِيَةَ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ ، وَفِيهِ مَنَقِبَةٌ جَلِيلَةٌ لَهُمْ . وَفِي الْحَدِيثِ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ إِنْقَاصِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَكَوْنِ شَيْئًا قَلِيلًا . وَيَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُرَاقِبُوا اللَّهَ فِي أُمُورِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ، وَيُحْسِنُوا التَّعَامُلَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَيُعْطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَيَبْتَعِدُوا عَنِ الْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ وَالتَّخَدُّعِ وَالْخِيَانَةِ .

وروى ابن جَبَّان في صحيحه (١٠٩ / ١٦) : عن أبي هُرَيْرَةَ قال : قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَالنَّبِيَّ ﷺ بِخَبِيرٍ ، وَرَجُلٍ مِنْ بَنِي غِفَارٍ يُؤْمُهُمْ فِي الصُّبْحِ ، فَقَرَأَ فِي الْأُولَى ﴿ كَهَيْعِص ﴾ ، وَفِي الثَّانِيَةِ ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، وَكَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ لَهُ مِكْيَالَانِ ، مِكْيَالٌ كَبِيرٌ ، وَمِكْيَالٌ صَغِيرٌ ، يُعْطِي بِهَذَا ، وَيَأْخُذُ بِهَذَا ، فَقُلْتُ : وَيْلٌ لِفُلَانٍ .

جاء أبو هُرَيْرَةَ _ رضي اللهُ عنه _ إلى المدينة مُسْلِمًا لِلَّهِ تَعَالَى ، سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ ، حَيْثُ خَرَجَ لِقِتَالِ أَهْلِهَا الْيَهُودَ ، فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ يُؤْمُ النَّاسَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ ، فَوَجَدَهُ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى سُورَةَ مَرِيمَ ، وَفِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ سُورَةَ الْمُطَفِّفِينَ . وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ يَتَوَعَّدُ اللَّهُ مَنْ يُطَفِّفُونَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْعَذَابِ ، حَيْثُ يَنْقُصُونَ النَّاسَ ، وَيَخْسُونَهُمْ حُقُوقَهُمْ فِي مَكْيَالِهِمْ إِذَا كَالُوهُمْ ، أَوْ مَوَازِينِهِمْ إِذَا وَزَنُوا لَهُمْ . وَقَدْ تَأَثَّرَ أَبُو هُرَيْرَةَ بِسُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ زَجْرٍ وَتَحْذِيرٍ مِنَ الْخِيَانَةِ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، وَتَدَكَّرَ أَحَدَهُمْ ، حَيْثُ كَانَ لَهُ مِكْيَالَانِ ، مِكْيَالٌ كَبِيرٌ ، فَإِذَا وَزَنَ لِنَفْسِهِ عِنْدَ شِرَائِهِ الْبَضَاعَةَ اسْتَوْفَى الْوَزْنَ وَالْحَقَّ كَامِلًا ، وَمِكْيَالٌ صَغِيرٌ ، فَإِذَا وَزَنَ لِغَيْرِهِ عِنْدَ الْبَيْعِ نَقَصَ الْوَزْنَ لِلْمُشْتَرِي ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فِي نَفْسِهِ ، وَهُوَ يُصَلِّي ، وَلَمْ يَجْهَرْ بِهِ : وَيْلٌ لِفُلَانٍ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢١٨ / ١٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، أَي : شِدَّةُ عَذَابٍ فِي الْآخِرَةِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّهُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ يَسِيلُ فِيهِ صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، أَي : الَّذِينَ يَنْقُصُونَ مَكْيَالَهُمْ وَمَوَازِينَهُمْ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو قَالَ : الْمُطَفِّفُ : الرَّجُلُ يَسْتَأْجِرُ الْمِكْيَالَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَحِيفُ فِي كَيْلِهِ ، فَوَزَّوَهُ عَلَيْهِ . وَقَالَ آخَرُونَ : التَّطْفِيفُ فِي الْكَيْلِ ، وَالْوَزْنُ ، وَالْوُضُوءُ ، وَالصَّلَاةُ ، وَالْحَدِيثُ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [الْمُطَفِّفِينَ : ٢] .
 إِذَا أَخَذُوا الْكَيْلَ مِنَ النَّاسِ ، أَخَذُوهُ كَامِلًا وَافِيًا لِنَفْسِهِمْ ، وَحَصَلُوا عَلَى حُقُوقِهِمْ تَامَّةً . وَوَجُودُ " عَلَى " ، وَلَيْسَ مِنْ ، لِيَبَانَ أَنَّ اكْتِيَالَهُمْ لِمَا لَهُمْ عَلَى النَّاسِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٦٢٢ / ٤) : ((الْمُرَادُ بِالتَّطْفِيفِ الْبَحْسُ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ ، إِذَا بِالْإِزْدِيَادِ إِنْ اقْتَضَى مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا بِالتَّقْصَانِ إِنْ قَصَّاهُمْ ، وَلِهَذَا فَسَّرَ تَعَالَى الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ بِالْخَسَارِ وَالْهَلَاكِ ، وَهُوَ الْوَيْلُ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ ، أَي : مِنْ النَّاسِ ﴾ يَسْتَوْفُونَ ﴾ ، أَي : يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ بِالْوَافِي وَالزَّائِدِ)) اهـ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٥٢ / ٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أَي : مِنَ النَّاسِ . فِي (عَلَى)

بمعنى (من) في قول المُفسِّرين واللغويين . قال الفراء: (على) و (من) يعتقان في هذا الموضع ، لأنك إذا قلت : أَكَلْتُ عَلَيْكَ ، فكأنك قلت : أخذت ما عليك كَيْلًا ، وإذا قلت : أَكَلْتُ مِنْكَ ، فهو كقولك : اسْتَوْفَيْتُ مِنْكَ كَيْلًا . قال الرَّجَّاج : المعنى : إذا اکتالوا من الناس اسْتَوْفَوْا عليهم الكَيْلَ ، وكذلك إذا اتَّزَنُوا ، ولم يذكر (إذا اتَّزَنُوا) لأنَّ الكَيْلَ والوَزْنَ بهما الشِّراءَ والبيعَ فيما يُكَالُ ويُوَزَّنُ ، فأحدهما يدلُّ على الآخر)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَّنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : ٣] .
وإذا كالوا للناس أو وُزَّنُوا لهم ، يَنْقُصُونَ الكَيْلَ أو الوَزْنَ .

إذا اشْتَرَوْا لأنفسهم اسْتَوْفَوْا في الكَيْلِ والوَزْنِ ، وإذا باعوا وُوزَّنُوا لغيرهم نَقَّصُوا ، فلا يَرْضُونَ للناس ما يَرْضُونَ لأنفسهم . وهو وعيدٌ شديدٌ لكل من طَفَّفَ الكَيْلَ والوَزْنَ .

العذاب والهلاك لهؤلاء المُجَّار الذين يَنْقُصُونَ المِكيَالَ والمِيزَانَ . فإذا أخذوا الكَيْلَ من الناس أخذوه كاملاً بلا نَقْصٍ ، وإذا وُزَّنُوا للناس يَنْقُصُونَ الكَيْلَ . وهذه كانت صِفَةً قومِ شَعِيبَ ﷺ الذين حَلَّ عليهم العذاب الشديد . وهذا الفعل الشنيع هو خيانة للأمانة ، وسرقة في وَضَحِ النهار ، واستغفال للناس ، وخداع لهم ، وتحايل عليهم ، لذلك كان عذابه شديداً ، وعاقبته وخيمة .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٦٢) : ((﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزَّنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، أي : كالوا لهم ، أو وُزَّنُوا لهم ، أي : للناس . يُقَالُ : وُزَّنْتُكَ حَقًّا ، وكَلَيْتُكَ طَعَامَكَ ، أي : وُزَّنْتُ لَكَ ، وكَلَيْتُ لَكَ ، كما يُقَالُ : نصحتك ونصحتُ لَكَ ، وكسبتك وكسبتُ لَكَ ﴾ يُخْسِرُونَ ﴾ ، أي : يَنْقُصُونَ . قال نافع : كان ابن عمر يَمُرُّ بالبائع فيقول : اتَّقِ اللَّهَ ، وأَوْفِ الكَيْلَ والوَزْنَ ، فَإِنَّ المُطَفِّفِينَ يُوقَفُونَ يومَ القيامةِ حَتَّى إِنَّ العَرَقَ لِيُلْجِمُهُمْ إِلَى أَنْصَافِ آذَانِهِمْ)) .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : ((يا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ ، حَمْسٌ إِنْ ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ ، وَنَزَلَ فِيكُمْ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ)) ، وذكر من الخَمْسِ : ((وَلَمْ يَنْقُصُوا المِكيَالَ والمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بالسِّنِينَ وَشِدَّةِ المُنُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ)) [سَبَقَ تخريجه] .

يُبيِّن الحديثُ أنَّ ظُهورَ المصائب والكوارث في الأُمَمِ والشُّعوبِ هو عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ ، يُصِيبُ بها الناسَ إذا كَثُرَ فيهم الفَسَادُ والدُّنُوبُ والآثامُ والمَعاصي .

إنَّ نَقْصَ المِكيَالَ والمِيزَانَ هو سَرَقَةٌ ما يُكَالُ ويُوَزَّنُ عِنْدَ البِيعِ والشِّراءِ . وهذا الإثمُ الكبيرُ له عُقُوبَةٌ إلهيَّةٌ عظيمةٌ ، حيث يُصِيبُهُمُ اللَّهُ بالقَحْطِ والجفافِ ، وعدمِ نزولِ المطرِ ، والغلاءِ وقِلَّةِ الموادِ التمويينية ، وظلمِ الوِلاَةِ والحُكَامِ لهم .

ونقص المكيال والميزان من الكوارث الحقيقية في المجتمع ، ويُؤدّي إلى غياب الثقة بين الأفراد ، وانتشار الجشع والاستغلال ، فيصير المجتمع كومة من الأضداد والصراعات والأحقاد . والنتيجة المترتبة على إنقاص المكيال والميزان هي الشدة وضنك العيش وقسوة الحياة ، وظلم الحاكم للرعية .

وهذه العقوبات المذكورة في الحديث إنما تكون لمُرتكبها في الدنيا ، ويبقى عذاب النار الشديد في الآخرة ، لمن لم يتب ، ويترك الآثام والمعاصي . والحديث يُحذّر من الذنوب والمعاصي ، ويوضح أنها سبب الكوارث والمصائب والعقوبات على الناس .

وهذه هي النتائج العملية على أرض الواقع لعملية إنقاص المكيال والميزان ، وهي عقوبات عاجلة تأتي جزاءً وفاقاً على هذا الذنب العظيم ، والمعصية الكبيرة ، فتصح حياة الناس صعبة للغاية ، يُعانون القحط والجذب وقلة الغذاء وضيق العيش ، ويقع عليهم ظلم الحكّام والمسؤولين ، فيصبحون مهجورين في حياة مليئة بالتكد والألم والعذاب والتعاسة .

وفي الحديث علامة واضحة من علامات نبوة مُحَمَّد ﷺ ، ودليل على صدقه وصحة رسالته .

٤٠ - المَكْر

قال الله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .
كفّار بني إسرائيل أرادوا قتل النبي عيسى ﷺ ، فنجاه الله من مكربهم وشركهم ، ورفعَهُ إلى السماء دون أن يُمسَّ بأذى ، وألقى الله شبهة عيسى على من خانته ودلّ عليه حتى أخذ وصلب .
وسمّي مَكْرًا من باب المُشَاكَلَة (الاتّفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى) . والمَكْر من الخلق: الخُبث والخِدَاع والحيلة ، والمَكْر من الله : استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم .
ومَكْرُ الله مُجَازَاةٌ أعدائه الكافرين على مكربهم ، فسَمّي الجزاء باسم الابتداء ، لأنه في مُقَابَلَتِهِ .
ولا يجوز إضافة المَكْر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء ، وعلى سبيل المُقَابَلَة وازدواج الكلام ، لأنه مذموم عند الخلق .

والله أعظم المُجَازِينَ بالسّيئة العقوبة ، لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه ، وهو سبحانه أقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المُعاقَب ، وعلى إيصال الضّرر من حيث لا يحتسب . ومَكْرُ الله مُجَازَاةٌ على مَكْر أعدائه ، بحيث يجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وينصر أولياءه المؤمنين .

والله لم يُقل : وهو خير الماكرين ، وإنما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، وإظهار لفظ الجلالة في موقع الإضمار لتعظيم الله وتربية المهابة .

وقال الثرطبي في تفسيره (٩٩ / ٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعني كُفَّارَ بني إسرائيل الذين أحسَّ (عيسى) مِنْهُمْ الكُفْرَ : أي : قَتَلَهُ . وذلك أَنَّ عيسى عليه السلام لَمَّا أخرجهُ قَوْمُهُ وَأُمَّهُ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ عَادَ إِلَيْهِمْ مَعَ الْحَوَارِيِّينَ ، وصاحَ فِيهِمْ بالدَّعْوَةِ ، فَهَمُّوا بِقَتْلِهِ ، وتواطؤوا على الفَتْكِ به ، فذلك مَكْرُهُمْ . ومَكْرُ اللَّهِ : استدراجُه لعبادِهِ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، عَنِ الْفَرَاءِ وَغَيْرِهِ . قال ابن عباس : كُلَّمَا أَحْدَثُوا خَطِيئَةً جَدَّدْنَا لَهُمْ نِعْمَةً . وقال الزَّجَّاجُ : مَكْرُ اللَّهِ مُجَازَاتُهُ على مَكْرِهِمْ ، فَسَمِيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ الْإِبْتِدَاءِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٥] ، ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النَّسَاءُ : ١٤٢] . وأصلُ المَكْرِ في اللغة : الاحتيالُ والخِدَاعُ وقيل : "مَكْرُ اللَّهِ " إلقاءُ شَبَهٍ عيسى على غَيْرِهِ ، ورفَعَ عيسى إليه ، وذلك أَنَّ اليهودَ لَمَّا اجتمعوا على قَتْلِ عيسى ، دَخَلَ الْبَيْتَ هَارِبًا مِنْهُمْ ، فَرَفَعَهُ جَبْرِيلُ مِنَ الْكُوَّةِ _ النافذةِ الصَّغِيرَةِ في الحائطِ _ إلى السَّمَاءِ ، فَقَالَ مَلِكُهُمْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَبِيبٌ يُقَالُ لَهُ يَهُودًا : ادْخُلْ عَلَيْهِ فَاقْتُلْهُ ، فَدَخَلَ الْحَوْخَةَ_وهي بابٌ صَغِيرٌ كالنافذةِ الكَبِيرَةِ _ فَلَمَّ يَجِدُ هُنَاكَ عيسى ، وألقى اللَّهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عيسى ، فَلَمَّا خَرَجَ رَأَوْهُ على شَبَهِ عيسى ، فأخذوه وقتلوه وصلبوه ، ثُمَّ قالوا : وَجْهُهُ يُشَبِّهُ وَجْهَ عيسى ، وَبَدَنُهُ يُشَبِّهُ بَدَنَ صَاحِبِنَا ، فَإِنْ كانَ هَذَا صَاحِبِنَا فَأَيْنَ عيسى ؟ ، وَإِنْ كانَ هَذَا عيسى فَأَيْنَ صَاحِبِنَا ؟ ، فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ قِتالٌ ، فَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ ، وقيل غَيْرَ هَذَا ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، اسمُ فاعِلٍ مِنْ مَكْرٍ يَمَكُرُ مَكْرًا . وقد عدَّهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ في أسماءِ اللَّهِ تعالى ، فيقول إذا دعا به : يا خَيْرَ الماكِرِينَ ، امْكُرْ لي)) .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥١٩ / ١) : ((وأصلُ المَكْرِ في اللغة : الاغتيالُ والخِدَاعُ ، حكاه ابن فارس . وعلى هذا فلا يُسندُ إلى اللَّهِ سُبحانَهُ إلا على طَرِيقِ المُشَاكَلَةِ . وقيل : مَكْرُ اللَّهِ هُنَا إلقاءُ شَبَهٍ عيسى على غَيْرِهِ ، ورفَعَ عيسى إليه ، ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ، أي : أَقْوَاهُمْ مَكْرًا ، وَأَنْفَذَهُمْ كَيْدًا ، وَأَقْوَاهُمْ على إيصالِ الضَّرَرِ بِمَنْ يُريدُ إيصالَهُ به مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ)) .
وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : ((مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا ، وَالْمَكْرُ وَالخِدَاعُ في النارِ)) ٢٧٦ .

٢٧٦ رواه ابن جَبَّان في صحيحه (٣٢٦ / ٢) برقم (٥٦٧) . وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٣٥٩) : ((رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسناد جيِّد ، وابن جَبَّان في صحيحه)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٣٥٦ / ٤) : ((وأما حديث " الخديعة في النار " فَرُوِّيناهُ في الكامل لابن عَدِيٍّ مِنْ حَدِيثِ =

مَنْ خَدَعَنَا بِأَيِّ شَكْلٍ ، وَبِأَيَّةِ صُورَةٍ ، فَلَيْسَ عَلَى هَدْيِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ الْعَشَّاشَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، وَلَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّتِهِ ، وَهَذَا زَجْرٌ شَدِيدٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَفِيهِ تَهْدِيدٌ لِمَنْ تَمَادَى فِي الْعِشِّ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ١٨٥) : ((مَنِ عَشَّ) أَي : خَانَ . وَالْعِشُّ سَتْرُ حَالِ الشَّيْءِ (فَلَيْسَ مِتًّا) أَي : مِنْ مُتَابِعِينَا . قَالَ الطَّبِيبِيُّ : لَمْ يُرَدْ بِهِ نَفْيُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ نَفْيُ خُلُقِهِ عَنِ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، أَي : لَيْسَ هُوَ عَلَى سُنَّتِنَا أَوْ طَرِيقَتِنَا فِي مُتَابَعَةِ الْإِخْوَانِ ، كَمَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ لِصَاحِبِهِ : أَنَا مِنْكَ ، يُرِيدُ الْمُوَافَقَةَ وَالْمُتَابَعَةَ)) .

وَالْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ هُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِشِّ ، وَيُؤَدِّيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى النَّارِ ، لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَيْهِمَا الْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا ، وَذَلِكَ يَجْرُ إِلَى النَّارِ . إِنَّ الْمَكْرَ وَالْخِدَاعَ يُدْخِلَانِ صَاحِبَهُمَا فِي النَّارِ فِي الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُمَا مِنْ أَخْلَاقِ الْكُفَّارِ لَا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ .

وَفِي الْحَدِيثِ التَّغْلِيظُ فِي أَمْرِ الْعِشِّ وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ عَاقِبَةِ هَذِهِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ ، الَّتِي تَجْلِبُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ الْوِيَلَاتِ وَالْبَغْضَاءَ وَالتَّشَاخُنَ بَيْنَ النَّاسِ . وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُطَهِّرَ قَلْبَهُ مِنَ الشَّوَابِ ، كَمَا يُطَهِّرُ بَدَنَهُ مِنَ الْأَوْسَاحِ . وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ٢٧٥) : ((الْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ فِي النَّارِ) يَعْنِي : صَاحِبُ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ لَا يَكُونُ تَقِيًّا وَلَا خَائِفًا لِلَّهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا مَكَّرَ عَدَرَ ، وَإِذَا عَدَرَ خَدَعَ ، وَذَا لَا يَكُونُ فِي تَقَى ، وَكُلُّ خَلَّةٍ _ صِفَةٌ _ جَانَبَتِ التَّقَى فَهِيَ فِي النَّارِ)) .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ١٨٦) : ((مَنِ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِتًّا) أَي : لَيْسَ عَلَى مَنَاجِنَا ، لِأَنَّ وَصْفَ الْمُصْطَفَى ﷺ وَطَرِيقَتَهُ الرَّهْدُ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةُ فِيهَا ، وَعَدَمُ الشَّرِّهِ وَالطَّمَعِ الْبَاعِثِينَ عَلَى الْعِشِّ (وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ فِي النَّارِ) أَي : صَاحِبُهُمَا يَسْتَحِقُّ دُخُولَهَا ، لِأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى ذَلِكَ الْحِرْصُ فِي الدُّنْيَا ، وَالشُّحُّ عَلَيْهَا ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا ، وَذَلِكَ يَجْرُ إِلَيْهَا _ إِلَى النَّارِ _ ، وَأَخَذَ الذَّهَبِيُّ مِنَ الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْكِبَائِرِ ، فَعَدَّهَا مِنْهَا)) .

= قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، قَالَ : لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " الْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ فِي النَّارِ " ، لَكُنْتُ مِنْ أُمَّكِرِ النَّاسِ . وَإِسْنَادُهُ لَا بِأَسَ بِهِ ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ زَاهَوِيٍّ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَفِي إِسْنَادِ كُلِّ مِنْهُمَا مَقَالٌ ، لَكِنْ مَجْمُوعُهُمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْمَتَنِ أَصْلًا . وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الْبَرِّ وَالصَّلَةِ عَنِ عَوْفٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : بَلَّغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ، فَذَكَرَهُ)) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: ((المَكْرُ والخِدِيعَةُ والخِيَانَةُ في النار))^{٢٧٧}.
وقال المناوي في فيض القدير (٦ / ٢٧٦) : ((المکر والخديعة والخيانة في النار) أي:
تُدخِل أصحابها في النار . قال الراغب : والمکر والخديعة مُتقاربان ، وهما اسمان لِكُلِّ فِعْلٍ
يَقْصِدُ فاعله في باطنه خلاف ما يَقْتَضِيهِ ظاهره ، وذلك صَرِيحَان : أحدهما مذموم، وهو الأشهر عند
الناس والأكثر، وذلك أن يَقْصِدُ فاعله إنزالَ مَكْرُوهِه بالمخدوع ، وإيَّاه قَصَدَ الْمُصْطَفَى ﷺ بهذا
الحديث ، ومعناه : يُؤدِّيَان بقاصدهما إلى النار . والثاني بَعكسِه ، وهو أن يَقْصِدُ فاعلهما إلى
استرجار المَخْدُوعِ والمَمْكُورِ به إلى مَصْلِحَةٍ بهما ، كما يُفْعَلُ بالصبيِّ إذا امتنعَ مِن فِعْلٍ خَيْرٍ .
وقال الحكماء : المَكْرُ والخديعةُ يُحتاج إليهما في هذا العالم ، لأنَّ السَّفِيهَ يَمِيلُ إلى الباطل ، ولا
يَقْبَلُ الحَقَّ لِمُنَافَاةِ لَطْبِعِهِ ، فَيُحْتَاجُ أن يُخَدَعَ عن باطنه بِزُخْرَفِ مُمَوَّهَةٍ ، كخديعة الصبيِّ عَن
الثَّديِ عِنْدِ الفِطَامِ ، ولهذا قيل : مَخْرِقٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَخْرَاقٌ ، وَسَفِيسَةٌ فَإِنَّ الدُّنْيَا سَفِيسَةٌ ، وليس
ذا حَتَّى على تَعَاطِي الخُبْثِ ، بل على جذب الناس إلى الخَيْرِ بالاحتيال ، وَلِكَوْنِ المَكْرِ والخديعةِ
صَرِيحَيْنِ : سَيِّئًا وَحَسَنًا . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ
هُوَ يَبُورٌ ﴾ [فاطر : ١٠] ، ﴿ وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ
بِالمَكْرِ الحَسَنِ ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] .

وعن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يَدْعُو يقول : ((... ، وَاْمَكْرُ لِي وَلَا تَمَكْرُ عَلَيَّ))^{٢٧٨}.
المَكْرُ : الخِدَاعُ . وهو مِنَ اللّهِ إِيقَاعُ بِلَانِهِ بِأعدائه مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فِي مُقَابَلَةِ مَكْرِهِمْ ،
وهو صِفَةٌ كَمَالٍ فِي حَقِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . أي : أَنْزَلَ مَكْرَكَ بِمَنْ أَرَادَ بِي شَرًّا وَسُوءًا ، وَارْزُقْنِي الحِيلَةَ
السَّليمةَ ، والطريقةَ المثلَى فِي دَفْعِ كَيْدِ عَدُوِّي ، فَاسْلَمَ مِنْ كَيْدِهِمْ وَشَرِّهِمْ . وَلَا تَهْدِ عَدُوِّي إِلَى
طَرِيقِ دَفْعِهِ إِيَّايَ عَن نَفْسِهِ ، وَلَا تُعَامِلْنِي بِسُوءِ نِيَّتِي ، فَأَعْتَرَّ وَأتجاوزَ الحدَّ مِنْ حَيْثُ لَا أَشْعُرُ
فَأَهْلِكَ. والمَكْرُ لَا يُطَلَّقُ على اللّهِ تعالى إِلَّا فِي سَبِيلِ المُقَابَلَةِ والجَزَاءِ لِمَنْ يَمَكُرُ به تعالى وبأوليائه.
وفي تُحفة الأحوذي (٩ / ٣٧٧) : ((قال الطيبي : المَكْرُ : الخِدَاعُ ، وهو مِنَ اللّهِ إِيقَاعُ
بِلَانِهِ بِأعدائه مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . وقيل : هو استدراج العبد بالطاعة ، فَيَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ ،

٢٧٧ رواه الحاكم في المستدرک (٤ / ٦٥٠) برقم (٨٧٩٥) وسكت عنه الذهبي . وقال المنذري في
الترغيب والترهيب (٢ / ٣٥٩) : ((رواه أبو داود في مراسيله عن الحسن مُرْسَلًا مُخْتَصَرًا)) .
٢٧٨ رواه الترمذي في سننه (٥ / ٥٥٤) برقم (٣٥٥١) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

وهي مردودة . وقال ابن المَلَك : المَكْرُ: الحيلة والفكر في دفع عدوٍّ، بحيث لا يشعر به العدوُّ ، فالمعنى : اللهم اهْدِنِي إلى طريقِ دَفْعِ أعدائي عَنِّي ، ولا تَهْدِ عَدُوِّي إلى طريقِ دَفْعِهِ إِيَّاي عَن نَفْسِهِ ، كذا في المِرْقَاة)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٣] .

جَعَلَ اللهُ في كُلِّ قَرْيَةٍ عُظَمَاءَ مُجْرِمِيهَا ، وزُعماءَ الفسادِ والإجرامِ . وهؤلاءُ هُمُ الأقدَر على التخطيطِ والمَكْرِ والفسادِ وقيادةِ الناسِ وتجميعِ الأتباعِ بسببِ امتلاكِهِم للقُوَّةَ والمالَ والتنفوذِ . لذلكِ خُصُّوا بالذِّكْرِ . ولا شَكَّ أن زُعماءَ كُلِّ قَرْيَةٍ هُمُ الأقربُ إلى الكُفْرِ والضَّلَالِ بما لَدَيْهِم من الرِّئاسةِ والرِّعامةِ . وكُلُّ أفعالِهِم السيِّئةِ ستكونُ وَبَالًا عَلَيْهِم ، لأنها ستَقُودُهُم إلى الخِزْيِ في الدُّنيا ، والعذابِ في الآخرةِ . ولكنَّهُم لا يشعرونُ بذلكِ بسببِ غُرورِهِم وجَهْلِهِم وتجبرُهُم واستكبارِهِم . وكما جَعَلْنَا في مكةَ عُظَمَاءَ مُجْرِمِيهَا (المشركينَ عِبَدَةَ الأصنامِ الغارقينَ في الذُّنُوبِ والمعاصي) ، لِيُفْسِدُوا فِيهَا ، كذلكِ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ عُظَمَاءَ مُجْرِمِيهَا لِيُفْسِدُوا فِيهَا . والتاريخُ يُعيدُ نَفْسَهُ ، وما يَحِقُّ مَكْرُهُم السَّيِّئِ إلا بِأَنْفُسِهِمْ ، وكُلُّ مُحِطَاتِهِم الدنيئةِ ستَرْتَدُّ عَلَيْهِم ، وتعودُ عَلَيْهِم بالخسارةِ والخِزْيِ والعارِ والهلاكِ والعذابِ ، وينقلبُ السَّخِرُ على السَّاحِرِ ، لأنَّ اللهُ لَهُم بالمرصادِ ، ولكنَّهُم لا يشعرونُ بذلكِ ولا يُدْرِكُونَهُ ، ولا يَدْرُونَ أَنَّ العذابَ الأليمَ ينتظرُهُم في الدُّنيا والآخرةِ . وهُمُ غافلونَ عن هذا بسببِ جَهْلِهِم ، وعنادِهِم ، وغُرورِ القوَّةِ القتالِ ، لذلكِ يَغْرَقُونَ أكثرَ فأكثرَ في الكُفْرِ والضَّلَالِ والجرائمِ والمعاصي . وأوهامُهُم ستُدْمِرُهُم ، وتَقْضي عَلَيْهِم . واللهُ يَسْتَدْرِجُهُم إلى حَتْفِهِم وهلاكِهِم .

وكما ابْتُلِيَتْ يا مُحَمَّدُ بِقَوْمِكَ المُشركينَ الذينَ أنكَروا وَحِدانيَّةَ اللهُ ، وكذَّبوا بِآياتِهِ ، وَجَحَدُوا نُبُوتَكَ ، وارتكبوا الجرائمَ والذُّنُوبَ والمعاصي ، كذلكِ ابْتُلِيَ الرُّسُلُ مِن قَبْلِكَ ، وعانوا أشدَّ المُعاناةِ معَ رؤساءِ الكُفْرِ والضَّلَالِ وعتاةِ المُجرمينَ في أقوامِهِم ، ثُمَّ كانَ للرُّسُلِ النَّصْرُ والغَلَبَةُ والتمكينُ ، فلا تَقَلِّقْ يا مُحَمَّدُ ، ولا تَنْزَعِجْ ، ولا تتضايقْ . فالعاقبةُ للحقِّ وأهله . ودَوْلَةُ الباطلِ ساعةٌ ، ودَوْلَةُ الحقِّ إلى قِيامِ السَّاعةِ . وَمَن يَضْحَكُ أخيراً يَضْحَكُ كَثيراً ، والعبرةُ بالخواتيمِ .

وقال البَغَوِيُّ في تفسيره (١ / ١٨٥) : ((كما أَنَّ فُسَّاقَ مكةَ أَكْبَرُها ، كذلكِ جَعَلْنَا فُسَّاقَ كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرُها ، أي : عُظَمَاءَها ... وذلكِ سُنَّةُ اللهُ تعالى أَنَّهُ جَعَلَ في كُلِّ قَرْيَةٍ أَتباعَ الرُّسُلِ ضَعْفَاءَهُمْ ... وجَعَلَ فُسَّاقَهُم أَكْبَرَهُمْ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ ، وذلكِ أَنَّهُم أَجْلَسُوا على كُلِّ طريقِ مِن

طُرق مكة أربعة نفر لِيَصْرِفُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، يَقُولُونَ لِكُلِّ مَنْ يَقْدُمُ : إِيَّاكَ وَهَذَا الرَّجُلُ ، فَإِنَّهُ كَاهِنٌ سَاحِرٌ كَذَّابٌ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١١٧ و ١١٨) : ((قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴿١﴾ ، أي : وكما زَيْنًا للكافرين عَمَلَهُمْ ، فكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا . وقيل : معناه : وكما جَعَلْنَا فُسَّاقَ مكة أَكْبَارَهَا ، فكذلك جَعَلْنَا فُسَّاقَ كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَهَا ، وإنما جعل الأَكْبَارَ فُسَّاقَ كُلِّ قَرْيَةٍ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ ، بِمَا أُعْطُوا مِنَ الرِّيَاسَةِ وَالسَّعَةِ . وقال ابن قُتَيْبَةَ : تقدير الآية : وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمِيهَا أَكْبَارَ ، وَأَكْبَارَ لَا يَنْصَرِفُ ، وَهُمْ الْعُظَمَاءُ . قوله تعالى : ﴿ لِيَمْنَكُزُوا فِيهَا ﴾ . قال أبو عُبَيْدَةَ : الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْحِيلَةُ وَالْفُجُورُ وَالغُدْرُ وَالْخِلَافُ . قال ابن عباس : لِيَقُولُوا فِيهَا الْكُذْبَ)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] .
أَفَأَمِنُوا أَنْ يَسْتَدْرِجَهُمُ اللَّهُ بِالنَّعْمَةِ وَيَأْخُذَهُمْ بَعْتَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ؟ ، أَوْ : أَفَأَمِنُوا اسْتِدْرَاجَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِالنَّعْمَةِ حَتَّى يَهْلِكُوا فِي غَفْلَتِهِمْ ؟ ، فَلَا يَأْمَنُ ذَلِكَ إِلَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ ، وَتَرَكَ النَّظَرَ وَالْإِعْتِبَارَ .

وَتَكْرِيرُ " مَكْرَ اللَّهِ " لِلتَّكْبِيرِ لِزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ . وَمَكْرُ اللَّهِ : اسْتِدْرَاجُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ ، وَأَخَذَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ . وَقِيلَ : مَكْرُ اللَّهِ يَعْنِي أَخْذَهُ وَعَذَابَهُ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ١١) : ((يقول تعالى ذِكْرَهُ : أَفَأَمِنَ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُكذِّبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَجْحَدُونَ آيَاتِهِ اسْتِدْرَاجَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ مِنْ صِحَّةِ الْأَبْدَانِ وَرَحَاءِ الْعَيْشِ ، كَمَا اسْتَدْرَجَ الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْهِمْ قَصَصَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ قَبْلَهُمْ ، فَإِنَّ مَكْرَ اللَّهِ لَا يَأْمَنُهُ _ يَقُولُ : لَا يَأْمَنُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا مَعَ مَقَامِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ _ ﴿ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وَهُمْ الْهَالِكُونَ)) .

لَقَدْ أَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ لَمَّا اسْتَدْرِجَهُمْ بِالسَّرَاءِ وَالنَّعْمِ ، فَاسْتَبَعَدُوا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَكْرًا . وَمَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ غَفْلَتِهِمْ وَغَرَقِهِمْ فِي النَّعْمِ وَالْمَلَذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ . خَدَعَهُمْ رَغْدُ الْعَيْشِ ، وَغَرَّتْهُمْ النَّعْمُ ، فَكَانَ الْوَهْمُ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَجِبُ عَلَى أَنْ الْعَبْدُ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِاللَّهِ .

وفي تفسير ابن كثير (٢ / ٣١٢) : ((قال الحسن البصري رحمه الله : الْمُؤْمِنُ يَعْمَلُ بِالطَّاعَاتِ وَهُوَ مُشْفِقٌ وَجِلْ خَائِفٌ ، وَالْفَاجِرُ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي وَهُوَ آمِنٌ)) .

وَصَدَقَ الْقَاتِلُ :

أَحْسَنْتَ ظَنَّاكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ
وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدْرُ

لا يَأْمَنُ عَذَابَ اللَّهِ وَيَأْسَهُ وَنِقَمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَيْهِمْ وَأَخَذَهُ إِيَّاهُمْ فِي حَالِ سَهْوِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ إِلَّا الْفَاجِرُونَ الْمُجْرِمُونَ الْهَالِكُونَ ، وَهَذَا يُوضِّحُ أَنَّ الْأَمْنَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الدُّنُوبِ وَأَكْبَرَ الْمَعَاصِي ، وَيُنَافِي كَمَالَ التَّوْحِيدِ ، وَيُرْشِدُ إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .
وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣٣٢) : ((وَالِاسْتِفْهَامُ فِي «أَقَامُوا مَكْرَ اللَّهِ» لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَإِنْكَارِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمَانٍ مَا لَا يُؤْمَنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ ، وَعَقُوبَتِهِ لَهُمْ . وَفِي تَكَرُّرِ هَذَا الْاسْتِفْهَامِ زِيَادَةٌ تَقْرِيرٌ ، لِإِنْكَارِ مَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ بَيِّنَ حَالَ مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ ، فَقَالَ : «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» ، أَي : الَّذِينَ أَفْرَطُوا فِي الْخُسْرَانِ ، وَوَقَعُوا فِي وَعِيدِهِ الشَّدِيدِ . وَقِيلَ : مَكْرَ اللَّهِ هُنَا هُوَ اسْتِدْرَاجُهُ بِالتَّعَمَّةِ وَالصَّحَّةِ ، وَالْأَوْلَى حَمْلُهُ عَلَى مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ)) .
وعن ابن عباس فِي قَوْلِهِ : «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ» [النِّجْم : ٣٢] ، قَالَ : ((أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ : «مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» [المائدة : ٧٢] ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ : «لَا يَبْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» [يُونُسُ : ٨٧] ، وَالْأَمْنُ لِمَكْرِ اللَّهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : «فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ» [الأعراف : ٩٩] ، ... ٢٧٩ .
أَعْظَمُ الدُّنُوبِ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، أَي : عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ مَعَهُ ، وَاتِّخَاذُهُ شَرِيكًا وَنَدًّا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا فَهُوَ خَالِدٌ فِي عَذَابِ النَّارِ الْأَبَدِيِّ ، وَلَا تُوجَدُ فُرْصَةٌ لِنَجَاتِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ ذَنْبَ الشِّرْكِ لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَرْجِهِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْكَافِرِينَ ، وَالْأَمْنُ لِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ وَأَخْذِهِ وَعَذَابِهِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْهَالِكِينَ .
وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ : عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : ((إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ)) ٢٨٠ .

٢٧٩ رواه الطبراني في الكبير (١٢ / ٢٥٢) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ٢٤٩) : ((إسناده حسن)) .
٢٨٠ رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤ / ١٢٨) برقم (٤٥٤٠) . وقال العراقي في تخریج الإحياء (٤ / ٤٨) : ((رواه أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن)) .

مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ : الإمهال للعاصي واستدراجه بما يُحِبُّ حتى يَفْرَحَ وَيَغْتَبِرَ ، ثُمَّ يَأْتِيهِ عِقَابُ اللَّهِ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ . وَيَسْطُرُ الدُّنْيَا للعاصي لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى كِرَامَتِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، أَوْ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ، بَلِ الْحَقِيقَةُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَيُعْطِيهِ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُحِبُّ ، وَيَمْنَحُهُ الصَّحَّةَ وَالْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَالنَّعَمَ الْمُخْتَلِفَةَ ، فَيَغْتَبِرَ وَيَفْرَحَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ اللَّهُ بَغْتَةً ، فَلَا يُغْنِي عَنْهُ ذَلِكَ شَيْئًا .

والحديثُ يُوضِّحُ حَقَارَةَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلِحَقَارَتِهَا عِنْدَهُ لَمْ يَجْعَلْهَا ثَوَابًا لِلطَّائِعِينَ ، كَمَا لَمْ يَجْعَلِ الْحِرْمَانَ مِنْهَا عُقُوبَةً لِلْعَاصِينَ . وَاللَّهُ يَسْطُرُ الدُّنْيَا لِأَهْلِ الْمَعْصِيَةِ ، وَيُعِيدُهَا عَنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِدِنَائَتِهَا . وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلِقُدْرَتِهَا وَعَظَمَتِهَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ثَوَابًا لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَجَعَلَ الْحِرْمَانَ مِنْهَا عِقَابًا لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ .

إِنَّ اللَّهَ يَسْتَدْرِجُ الْعَاصِي ، أَي : يَأْخُذُهُ قَلِيلًا قَلِيلًا إِلَى مَا يُهْلِكُهُ . يُدْنِيهِ مِنَ الْعَذَابِ دَرَجَةً دَرَجَةً بِالْإِمهَالِ ، وَإِدَامَةِ الصَّحَّةِ ، وَازْدِيَادِ النَّعْمَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْهُ ، وَهُوَ سَاهٍ لَاهٍ .

وَقَالَ الْمُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (١ / ٣٥٤ و ٣٥٥) : ((إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى) أَي : عَلِمْتَ أَنَّهُ (يُعْطِي الْعَبْدَ) عَبْرَ الْمَضَارِعِ إِشَارَةً إِلَى تَجَدُّدِ الْإِعْطَاءِ وَتَكَرُّرِهِ (مِنَ الدُّنْيَا) أَي : مِنْ زَهْرَتِهَا وَزِينَتِهَا (مَا يُحِبُّهُ) أَي : الْعَبْدَ ، مِنْ نَحْوِ مَالٍ وَوَلَدٍ وَجَاهٍ (وَهُوَ مُقِيمٌ) أَي : وَالْحَالِ أَنَّهُ مُقِيمٌ (عَلَى مَعَاصِيهِ) أَي : عَاكِفٌ عَلَيْهَا مُلَازِمٌ لَهَا (فَإِنَّمَا ذَلِكَ) أَي : فَاْعَلَمُوا أَنَّمَا إِعْطَاؤُهُ مَا يُحِبُّ مِنَ الدُّنْيَا (مِنْهُ) أَي : مِنَ اللَّهِ (اسْتَدْرَاجٌ) أَي : أَخَذَ بِتَدْرِيجٍ وَاسْتَنْزَالٍ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَكُلَّمَا فَعَلَ مَعْصِيَةً قَابَلَهَا بِنِعْمَةٍ ، وَأَنْسَاهُ الْاسْتِغْفَارَ ، فَيُدْنِيهِ مِنَ الْعَذَابِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، ثُمَّ يَصُبُّهُ عَلَيْهِ صَبًّا . قَالَ إِمَامُ الْحَرَمِيِّينَ : إِذَا سَمِعْتَ بِحَالِ الْكُفَّارِ وَخُلُودِهِمْ فِي النَّارِ ، فَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ عَلَى خَطَرٍ ، فَلَا تَدْرِي مَاذَا يَكُونُ ، وَمَا سَبَقَ لَكَ فِي الْغَيْبِ ، وَلَا تَغْتَبِرْ بِصَفَاءِ الْأَوْقَاتِ ، فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الْآفَاتِ . وَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : كَمْ مِنْ مُسْتَدْرِجٍ بِالْإِحْسَانِ ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ . وَكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسُّتْرِ عَلَيْهِ . وَقِيلَ لِذِي الثُّونِ : مَا أَقْصَى مَا يُخَدِّعُ بِهِ الْعَبْدَ ؟ قَالَ : بِالْأَلطَافِ وَالْكَرَامَاتِ ، ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الْقَلَمُ : ٤٤] . وَفِي الْحِكْمِ : خِيفَ مِنْ وُجُودِ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ ، وَدَوَامِ إِسَاءَتِكَ مَعَهُ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ اسْتَدْرَاجًا . وَالاسْتَدْرَاجُ الْأَخْذُ بِالتَّدْرِيجِ لَا مُبَاغَتَةً . وَالْمُرَادُ هُنَا تَقْرِيْبُ اللَّهِ الْعَبْدَ إِلَى الْعُقُوبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَاسْتَدْرَاجِهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ أَنَّهُ كُلَّمَا جَدَّدَ ذَنْبًا جَدَّدَ لَهُ نِعْمَةً ، وَأَنْسَاهُ الْاسْتِغْفَارَ ، فَيَزِدُّهُ أَشْرًا وَبَطْرًا ، فَيَنْدْرِجُ فِي الْمَعَاصِي بِسَبَبِ تَوَاتُرِ النَّعْمِ عَلَيْهِ طَائِفًا أَنْ تَوَاتَرَتْهَا تَقْرِيْبُ مِنَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خِدْلَانٌ وَتَبْعِيدٌ)) .

وقال السُّيوطي في الدر المنثور (٣ / ٥٠٧): ((وأخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن رافع قال : من الأمن لِمَكَرِ اللَّهِ إقامة العبد على الذَّنْبِ يَتَمَنَّى على الله المغفرة)) .
 مَنْ ارتكَبَ ذُنْبًا فَتَجِبَ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ فَوْرًا بِشُرُوطِهَا الأربعة : الإقلاعُ عن الذَّنْبِ ، والتَّدَمُّ ، والاستغفارُ ، والعزمُ على عدم العودة إليه . وإذا كانت التَّوْبَةُ مِنْ مَظَالِمِ العِبَادِ في مالٍ أو عِرْضٍ أو نَفْسٍ ، أو غير ذلك ، فتزيد شرطًا خامسًا ، وهو التَّحَلُّلُ مِنْ صاحب الحق ، أو إعطاؤه حَقَّهُ .
 أمَّا إقامة العبد على الذَّنْبِ بلا توبة ، ويتمنى على الله المغفرة ، فهذا من الأمن لِمَكَرِ اللَّهِ .
 وقد فسَّرَ بعضُ العلماءِ المَكْرَ بأنَّ اللهَ يَسْتَدْرِجُهُم بالنَّعَمِ إذا عَصَوْهُ ، مِنْ صِحَّةِ الأبدانِ ورغَدِ العيشِ ، وغيرِها ، ويُمْلِي لَهُم ، ثُمَّ يأخذهم أخذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ .
 وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

إِنَّ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى . وَاللَّهُ يُذَكِّرُ النَّبِيَّ ﷺ فِي هَذِهِ الآيَةِ بِنِعْمَةٍ خَاصَّةٍ وَجَلِيلَةٍ ، وَهِيَ إنْقَاذُهُ مِنْ قُرَيْشٍ ، بَعْدَ أَنْ خَطَّطُوا لِلتَّخْلِصِ مِنْهُ ، وَإِنهَاءِ دَعْوَتِهِ إِلَى الأبدِ .
 اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ وَقْتَ مَكْرِ الكَافِرِينَ بِكَ ، لِيَحْبِسُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ كِي يَتَفَرَّقَ دَمُكَ بَيْنَ القِبَائِلِ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ مِنْ مَكَّةَ . وَالجَدِيرُ بِالدُّكْرِ أَنَّ سُورَةَ الأنفالِ مَدِينَةٌ ، وَمَكْرُ قُرَيْشٍ كَانَ فِي مَكَّةَ . وَاللَّهُ يُذَكِّرُهُم بِنِعْمَةِ العَظِيمَةِ فِي المَدِينَةِ كَمَا يَظَلُّوا ذَاكِرِينَ لِنِعَمِ اللَّهِ شَاكِرِينَ لَهُ .
 وقالَ البِيضاوي في تفسيره (١ / ١٠٣) : ((﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تَذَكَارَ لَمَّا مَكَرَتْ قُرَيْشٌ بِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ ، لِيَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي خِلاصِهِ مِنْ مَكْرِهِمْ وَاسْتِيلائِهِ عَلَيْهِمْ .
 والمعنى : واذكُرْ إِذْ يَمْكُرُونَ بِكَ ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بِالوَثَاقِ ، أَوْ الحَبْسِ ، أَوْ الإِثْنَانِ بِالجِرَاحِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ضَرْبُهُ حَتَّى أَثْبَتَهُ لَا حَرَكَ بِهِ وَلَا بَرَّاحَ ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ بِسُيُوفِهِمْ ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ مِنْ مَكَّةَ)) .
 وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣٤٦ و ٣٤٧) : ((قال أهل التفسير : لَمَّا بُوِيعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ العَقَبَةِ ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَلْحَقُوا بِالمَدِينَةِ ، أَشْفَقَتْ قُرَيْشٌ أَنْ يَغْلُوَ أَمْرُهُ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَأَكُنَّكُمْ بِهِ قَدْ كَرَّ عَلَيكُمْ بِالرِّجَالِ ، فَاجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ لِيَدْخُلُوا دَارَ النُّدُوءِ فَيَتَشَاوَرُوا فِي أَمْرِهِ ، فَاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير ، فقالوا : مَنْ أَنْتَ ؟ ، قَالَ : أَنَا شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، سَمِعْتُ مَا اجْتَمَعْتُمْ لَهُ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَحْضُرْكُمْ ، وَلَكِنْ تَعَدَّمُوا مِنْ رَأْيِي نُصْحًا ، فَقَالُوا : ادْخُلْ ، فَدَخَلَ مَعَهُمْ ، فَقَالُوا : انظُرُوا فِي أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : احْبِسُوهُ فِي وَثَاقٍ ، وَتَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّبَ المُنُونِ ، فَقَالَ إبليس : مَا هَذَا بِرَأْيٍ ، يُوشِكُ أَنْ يَثِيبَ أَصْحَابَهُ فَيَأْخُذُوهُ مِنْ

أيديكم ، فقال قاتل: أخرجوه من بين أظهركم ، فقال : ما هذا برأي ، يُوشك أن يجمع عليكم ، ثم يسير إليكم، فقال أبو جهل : نأخذ من كل قبيلة غلامًا ، ثم نعطي كل غلام سيفًا ، فيضربونه به ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فما أظن هذا الحي من قريش (يعني بني هاشم) يقوى على ضرب قريش كلها ، فيقبلون العقل (الدية) ونستريح ، فقال إبليس : هذا والله الرأي ، فتفرقوا عن ذلك . وأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ ، فأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت في مضجعه تلك الليلة ، وأمر عليًا ، فبات في مكانه ، وبات المشركون يحرسونه . فلما أصبح رسول الله ﷺ ، أذن له الله في الخروج إلى المدينة ، وجاء المشركون لَمَّا أصبحوا ، فرأوا عليًا ، فقالوا : أين صاحبك ؟ ، قال : لا أدري ، فافتصوا أثره ، حتى بلغوا الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخله لم يكن عليه نسج العنكبوت)) .

إن عداوة قريش للنبي ﷺ ليست ارتجالية أو عفوية . إنها عداوة راسخة تستند إلى الحقد الدفين ، والحسد المتجذر ، والمكر ، والخديعة . إنها عداوة عن سبق الإصرار والترصّد . لذلك كان أشرف قريش حريصين أشد الحرص على التخلص من النبي ﷺ ، وواد دعوته ، وذلك بالنخطيط الخبيث ، ووضع الاحتمالات المتعددة ودراستها ، من أجل تطبيق الاحتمال الأكثر إجرامًا وخبثًا على أرض الواقع . وقد أبطل الله كيدهم ، وأرسل جبريل _ عليه السلام _ لإعلام النبي ﷺ بخطة قريش . وأخذ النبي ﷺ بالأسباب ، فلم ينم في مضجعه ، وأمر عليًا أن ينام مكانه ، وهذا يدل على ثقة النبي ﷺ المطلقة بعلي _ رضي الله عنه _ ، والعلاقة الخاصة التي تجمع بين النبي ﷺ وابن عمه علي . وبات علي مكانه بلا تردد ولا خوف ، وهذا يدل على ثبات قلبه في الشدائد ، وشجاعته العظيمة . فحياة علي معرضة للخطر الحقيقي ، وقد يفقد حياته في أية لحظة ، ومع هذا نام مكان النبي ﷺ ، وعرض حياته للخطر امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، وحمايةً للدعوة الإسلامية . ورد الله كيد المشركين في نحورهم ، وجللهم بالخزي والعار ، فانتقلوا من فشل إلى فشل .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنه _ في قوله: ﴿ وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ ، قال : ((تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأنثتوه بالوثاق ، يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله _ عز وجل _ نبيه على ذلك ، فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًا يحرسونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليًا رد الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ ، قال : لا أدري ، فافتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم ، فصعدوا في

الجَبَل ، فَمَرُّوا بِالْغَارِ ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسَجَ الْعَنْكَبُوتِ ، فَقَالُوا : لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسَجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ)) ٢٨١ .

تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ فِي كَيْفِيَّةِ التَّخْلُصِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، وَالْقَضَاءِ عَلَى دَعْوَتِهِ ، فَطَلَبَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَشُدُّوهُ بِقَيْدٍ أَوْ حَبْلِ وَنَحْوِهِ ، وَطَلَبَ بَعْضُهُمْ قَتْلَهُ ، وَطَلَبَ بَعْضُهُمْ إِخْرَاجَهُ مِنْ بَلَدِهِ مَكَّةَ وَطَرْدَهُ مِنْهَا ، وَإِخْرَاجَ الرَّجُلِ مِنْ بَلَدِهِ نَظِيرُ قَتْلِهِ . فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَوَاطِنَ قُرَيْشٍ بِشَأْنِهِ ، فَبَاتَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهَذَا مُنْتَهَى التَّضْحِيحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِفَاعًا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالنَّبِيِّ ﷺ ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِغَارِ ثَوْرٍ ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلَيْهِمْ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، وَأَنَّهُمْ يُحَاصِرُونَهُ ، وَيَمْنَعُونَهُ مِنَ الْخُرُوجِ . وَعِنْدَمَا جَاءَ الصَّبَاحُ أَذْرَكُوا الْحَقِيقَةَ، وَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ ، وَسَأَلُوا عَلِيًّا عَنْ مَكَانِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَكَانَهُ ، فَافْتَضَّوْا أَنْزَرَهُ ، وَبَلَّغُوا الْجَبَلَ ، وَمَرُّوا بِغَارِ ثَوْرٍ ، فَرَأَوْا عَلَى بَابِهِ نَسَجَ الْعَنْكَبُوتِ ، وَقَدْ حَفِظَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِهَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ ، فَلَوْ دَخَلَ إِنْسَانٌ إِلَى الْغَارِ لَمْ يَكُنْ نَسَجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى بَابِهِ ، فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ ٢٨٢ . يَتَأَمَّرُ عَلَيْكَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَا مُحَمَّدَ ، وَيُحِطِّطُونَ لِلتَّخْلُصِ مِنْكَ ، وَيَكِيدُونَ لَكَ . وَاللَّهُ لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ ، يَرَعَاكَ ، وَيَحْفَظُكَ ، وَيُدَبِّرُ لَكَ مَا

٢٨١ رواه أحمد في مسنده (٣٤٨ / ١) برقم (٣٢٥١)، وحسنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣ / ١٨١)، ووافقه الحافظ في الفتح (٢٣٦ / ٧) .

٢٨٢ لا يجوز القول إن الله ماكر يمكر بعباده، ويُريد إضلالهم أو خداعهم . فالمكر من الله هو استدراج العبد ، وأخذُه بَغْتَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي . وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ (٤ / ٩٩) : ((وَقَالَ الرَّجَّاحُ : مَكْرُ اللَّهِ مُجَازَاتُهُ عَلَى مَكْرِهِمْ ، فَسَمِيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ الْإِبْتِدَاءِ)) اهـ .

وكما في قول الشاعر : أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
وهنا تبرز المُشَاكَلَةُ اللفظية . فالمعروفُ أَنَّ التَّصَدِيَّ لِلْجَهْلِ لَيْسَ جَهْلًا ، وَإِنَّمَا هُوَ عَيْنُ الْحَزْمِ . كَمَا أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَفْتَخِرُ بِالْجَهْلِ . وَمَا وَجُودُ هَذِهِ الْأَفَاضِ فِي كَلَامِ الشَّاعِرِ إِلَّا مِنْ بَابِ الْمُشَاكَلَةِ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢٥٣) : ((فَسَمِيَ انْتِصَارَهُ جَهْلًا ، وَالْجَهْلُ لَا يَفْتَخِرُ بِهِ ذُو عَقْلٍ ، وَإِنَّمَا قَالَ لِيُرْتَدِّجَ الْكَلَامُ فَيَكُونُ أَحْفَ عَلَى اللِّسَانِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ بَيْنَهُمَا . وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا وَضَعُوا لَفْظًا بِإِزَاءِ لَفْظٍ جَوَابًا لَهُ وَجَزَاءً ، ذَكَرُوهُ بِمَثَلِ لَفْظِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا لَهُ فِي مَعْنَاهُ)) .

يَفْضَحُ أَمْرَهُمْ، وَيَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ، وَيُبْطِلُ مَكْرَهُمْ، وَيَزِدُّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ. وَاللَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى مَكْرِهِمْ، وَيَقُودُهُمْ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَعَذَابِهِمْ. وَتَدْبِيرُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ تَدْبِيرِ الْمُشْرِكِينَ. إِذْ إِنَّ تَدْبِيرَهُ سُبْحَانَهُ يُبْطِلُ تَدْبِيرَهُمْ، وَيَجْعَلُهُ تَدْمِيرًا عَلَيْهِمْ.

وَاللَّهُ أَعْظَمُ الْمُجَازِينَ بِالسَّيِّئَةِ الْعُقُوبَةِ، فَقَدْ أَهْلَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَكِيدُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَرَاخَهُ مِنْهُمْ. وَسَمَّى هَذِهِ الْمُجَازَاةَ مَكْرًا مُشَاكِلَةً. وَالْمَكْرُ هُوَ التَّدْبِيرُ خُفِيَةً. وَاللَّهُ يُخْفِي مَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْهَلَاكِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً. فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَقْوَى مَكْرًا، وَالْأَقْدَرُ عَلَى إِيصَالِ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ الْكَافِرُونَ، وَلَا يَحْتَسِبُونَ.

وَقَالَ الْبَيْضاوي فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٠٣) : ((﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ بِرَدِّ مَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَوْ بِمُجَازَاتِهِمْ عَلَيْهِ، أَوْ بِمُعَامَلَةِ الْمَاكِرِينَ مَعَهُمْ، بِأَنْ أَخْرَجَهُمْ إِلَى بَدْرٍ، وَقَلَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى حَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا. ﴾ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ إِذْ لَا يُؤَبِّهُ بِمَكْرِهِمْ دُونَ مَكْرِهِ، وَإِسْنَادَ امْتِثَالِ هَذَا مَا يَحْسُنُ لِلْمُرَاوَجَةِ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهَا ابْتِدَاءً لِمَا فِيهِ مِنْ إِيهَامِ الذَّمِّ)) .

إِنَّ اللَّهَ أَعْظَمُ الْمُجَازِينَ لِمَكْرِ الْمَاكِرِينَ وَخُبَيْتِهِمْ، يُوقِعُهُمْ فِي شَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَيُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَكُونُ عَذَابُهُمْ وَهَلَاكُهُمْ مُفَاجِئًا وَمُبَاجِئًا وَصَاعِقًا، وَهَذَا أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ، وَأَعْظَمُ بَلَاءً مِنْ مَكْرِهِمْ. إِنَّهُمْ يَدْفَعُونَ ثَمَنَ مَكْرِهِمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً. وَغُنْصُرُ الْمُفَاجِئَةِ قَاتِلٌ.

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ صَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِّ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يُونُسُ : ٢١] .

بَنَى الْكُفْرَانُ حَيَاتِهِمْ عَلَى الشَّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، فَإِذَا أَصَابَتْهُمْ صَرَاءٌ، أَهْمَلُوا أَصْنَامَهُمْ، وَدَعَوْا اللَّهَ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ. وَإِذَا نَجَّاهُمْ اللَّهُ مِنْ أَزْمَتِهِمْ، وَفَرَّجَ كُرْبَتَهُمْ، وَأَذَاقَهُمُ الرَّحْمَةَ بَعْدَ الصَّرَاءِ، عَادُوا إِلَى شُرَكَاهُمْ، وَغَرِقُوا فِي مُعَانَدَتِهِمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُمْ بِذَلِكَ يَتَحَايِلُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَتَحَايِلُونَ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ أَقَامُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْحُجَّةَ، وَأُورِدُوهَا الْمَهَالِكَ، وَأَضَاعُوا دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتَهُمْ مَعًا. وَالرَّحْمَةُ _ فِي هَذَا السِّيَاقِ _ ذَاتُ مَعْنَى وَاسِعَةٍ يَشْمَلُ الصَّحَّةَ وَالْمَطَرَ وَالْأَمْنَ وَالْأَمَانَ وَرَعْدَ الْعَيْشِ.

إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى كُفَّارِ مَكَّةَ بِالْمَطَرِ وَالْخِصْبِ بَعْدَ الْبُؤْسِ وَالْجَدْبِ، وَزَرَقَهُمُ الْغِنَى بَعْدَ الْفَقْرِ، وَالْفَرَجَ بَعْدَ الْكُرْبِ، وَالرِّخَاءَ بَعْدَ الشَّدَةِ، وَالْأَمْنَ بَعْدَ الْخَوْفِ، فَإِنَّهُمْ يُقَابِلُونَ هَذِهِ النَّعْمَ الْإِلَهِيَّةَ الْعَظِيمَةَ بِالسُّخْرِيَةِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَتَكْذِيبِهَا، وَالاسْتِهْزَاءِ بِهَا، وَمُعَادَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِكُلِّ الْوَسَائِلِ. وَبَدَلًا أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ وَآلَاتِهِ، فَإِنَّهُمْ يَزِدُّادُونَ كُفْرًا وَضَلَالًا وَعِصْيَانًا وَتَمَرُّدًا.

وتنكير ﴿ مَكْرٌ ﴾ للتعظيم. أي إنَّ مَكْرَهُمْ كان عظيمًا وشديد الخطورة ، ويُشكِّل تهديدًا حقيقيًا على سَيْر الدَّعوة المُحمَّدية الإسلامية. إنَّهم يُحطِّطون لإطفاء نُور الله بِكُلِّ جَدِيَّة وإصرار، ويُدبِّرون خُططهم الخبيثة في خَفَاء وسِرِّيَّة . لكنَّ محاولاتهم باءت بالفشل. وعلى نَفْسِهَا جَنَّت بِرَاقِش .

قُلْ يا مُحَمَّد لهؤلاء المُشركين الذين يُنكِرُون وَحدانية الله ، ويُكذِّبون بآياته ، ويستهنئون بأدلته وخُججه ، وَيَسخَرُونَ مِن براهينه ومُعجزاته : اللهُ أَعَجَلُ عُقوبَةً ، وأسرعُ عذابًا، وأشدُّ نِقمةً .

وعذابه في إهلاككم أسرع مِن مَكْرِكُمْ في آياته وتكذيبها . وما يأتِيكم مِنَ العقاب أسرع في إهلاككم وإفنائكم مِن كَيْدِكُمْ وتُدبيرِكُمْ الخفِيِّ ومَكْرِكُمْ في إبطال آيات الله ودَفْعِ الحق .

وقد سَمَّى اللهُ عذابه وعُقوبته مَكْرًا : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ ، لِقُوعِها في مُقابَلَةِ مَكْرِهِمْ .

وهذه مُشاكَلَةٌ . والمَكْرُ هو التَّدبيرِ بِسِرِّيَّة وإخفاء الكَيْد . والمَكْرُ مِنَ اللهِ هو استدراج للعبد ، أو الجزاء على مَكْرِ العبد .

والملائكةُ الحَفَظَةُ يكتبون ما تَمكُرُونَ في آياتنا، ويُسجِّلونه كاملاً غير منقوص ، لِيَكُونَ حُجَّةً عليكم، تُدينِكُمْ، وتفضِحِكُمْ ، وتكشف باطلِكُمْ. وَسَوْفَ يَنْتَقِمُ اللهُ مِنْكُمْ، ويُعَذِّبِكُمْ أشدَّ العذاب يوم القيامة. وتُدبيرِكُمْ في الخَفَاءِ (مَكْرِكُمْ) لا يَخْفَى على الملائكةِ الحَفَظَةُ، فكَيْفَ يَخْفَى على الله ؟ .

والإضافة في ﴿ رُسُلَنَا ﴾ لتشريف الملائكةِ الحَفَظَةُ وتعظيمهم. فقد أضافهم اللهُ إلى ذاته المُقدَّسة، وهذا مُنتهى التكريم والتفخيم والتعظيم. وتوجيه الخطاب للمُشركين مُباشرةً : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ ما تَمكُرُونَ ﴾ لتوبيخهم وتقريعهم وتخويفهم ، وبث الرُّعب والهَلَع في قلوبهم .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٢٨) : (...) ، إذا أذاقهم اللهُ رَحمةً مِنْهُ مِن بعد أن مَسَّتْهم الضَّرَاءُ ، فَعَلُوا مُقابِل هذه النِّعمة العظيمة المَكْرَ مِنْهم في آيات الله ، والمُرَاد بإذاقهم رَحمةً سُبْحانَهُ أَنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْهِم في الأرزاق ، وَأَدْرَجَ عَلَيْهِم النِّعَمَ بالمطر وصَلاحِ الثَّمَرِ ، بعد أن مَسَّتْهم الضَّرَاءُ بالجَدْبِ وضيق المعاش ، فما شَكَرُوا نِعْمته ، ولا قَدَّرُوا حقَ قَدْرِها ، بل أضافوها إلى أصنامهم ، التي لا تَنْفَع ولا تَضُرُّ ، وطَعَنُوا في آيات الله ، واحْتالُوا في دَفْعِها بِكلِّ حيلة ، وهو معنى المَكْرِ فيها ، و﴿ إذا ﴾ الأولى شَرْطِيَّة ، وجوابها : ﴿ إذا لَهُم مَكْرٌ ﴾ ، وهي فُجائية ، ذَكَرَ معنى ذلك الخليل وسيبويه، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ رَسولَهُ أن يُجيبَ عَنْهُ ، فقال : ﴿ قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ ، أي: أَعَجَلُ عُقوبَةً . وقد ذَلَّ أَفْعَلُ التفضيل على أَنَّ مَكْرَهُمْ كان سَريعًا ، ولكنَّ مَكْرَ اللهِ أَسْرَعُ مِنْهُ ، و " إذا " الفُجائية يُستفادُ مِنْها السُّرعة ، لأنَّ المعنى أَنَّهُمْ فاجؤُوا المَكْرَ: أي أوقَعوه على جِهَةِ الفُجاءة والسُّرعة . وتسمية عُقوبة اللهِ سُبْحانَهُ مَكْرًا مِنْ باب المُشاكَلَةِ . ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا

يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٤﴾. والمعنى أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ ، وَهُم المَلَائِكَةُ، يَكْتُبُونَ مَكْرَ الكِفَارِ ، لَا يَخْفَى ذَلِكَ عَلَى المَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ الحَقِيقَةُ، فَكَيْفَ يَخْفَى عَلَى العَلِيمِ الخَبِيرِ ؟. وفي هذا وعيد لهم شديد . وهذه الجُمْلَةُ تَعْلِيلِيَّةٌ لِلجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا ، فَإِنَّ مَكْرَهُمْ إِذَا كَانَ ظَاهِرًا لَا يَخْفَى ، فَعُقُوبَةُ اللَّهِ كَانَتْ لَا مَحَالَةَ إِنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مُجَرَّدِ الإِعْرَاضِ ، بَلْ يَطْلُبُونَ الغَوَائِلَ (الدَّوَاهِي) لِآيَاتِ اللَّهِ بِمَا يُدَبِّرُونَهُ مِنَ المَكْرِ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤ / ١٧ و ١٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ سَبَبَ نَزْوِلَهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَعَا عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ بِالجَدْبِ ، فَفُحِطُوا سَبْعَ سِنِينَ ، أَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ ، فَقَالَ : اذْعُ لَنَا بِالخِصْبِ ، فَإِنَّ أَحْصَبْنَا صَدَقْنَاكَ ، فِدْعَا لَهُمْ ، فَسَقُوا ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا . ذَكَرَهُ المَاورِدِيُّ . قَالَ المُفَسِّرُونَ : المُرَادُ بِالنَّاسِ هَاهُنَا الكِفَارُ . وَفِي المُرَادِ بِالرَّحْمَةِ وَالضَّرَاءِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّ الرَّحْمَةَ العَاقِبَةَ وَالسُّرُورَ ، وَالضَّرَاءَ الفَقْرَ وَالبَلَاءَ . قَالَ ابن عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي الرَّحْمَةُ الإِسْلَامُ ، وَالضَّرَاءُ الكُفْرُ ، وَهَذَا فِي حَقِّ المُنَافِقِينَ ، قَالَه الحَسَنُ . وَالثَّلَاثُ الرَّحْمَةُ الخِصْبُ ، وَالضَّرَاءُ الجَدْبُ ، قَالَه الصَّحَّاحُ . وَفِي المُرَادِ بِالمَكْرِ هَاهُنَا أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الإِسْتِهْزَاءُ وَالتَّكْذِيبُ ، قَالَه مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الجُحُودُ وَالرَّدُّ ، قَالَه أَبُو غَيْبَةَ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ إِضَافَةُ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ، فيقولون : سَقِينَا بِنَوْءٍ كَذَا _ وَالتَّنَوُّهُ هُوَ التَّجَمُّعُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ المَطَرُ _ ، قَالَه مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّ المَكْرَ النِّفَاقَ ، لِأَنَّهُ إِظْهَارُ الإِيمَانِ وَإِبْطَانُ الكُفْرِ ، ذَكَرَهُ المَاورِدِيُّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أَي : جَزَاءً عَلَى المَكْرِ ، ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ يَعْنِي الحَقِيقَةَ ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ ، أَي : يَحْفَظُونَ ذَلِكَ لِمْجَازَاتِكُمْ عَلَيْهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [الرَّعْدُ : ٣٣] . وَزَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الكُفْرَ وَالصَّلَالَ ، وَثَبَعُوا عَنِ طَرِيقِ الهُدَى ، وَصُرِفُوا عَنِ الدِّينِ . وَهَذِهِ عُقُوبَةٌ إلهِيَّةٌ شَدِيدَةٌ لَهُمْ ، بِسَبَبِ فِسَادِ قُلُوبِهِمْ ، وَسُوءِ أَعْمَالِهِمْ . وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٣ / ١٢١) : ((وَالمُزَيَّنُ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَوْ الشَّيْطَانُ ، وَيُجُوزُ أَنْ يُسَمَّى المَكْرُ كُفْرًا ، لِأَنَّ مَكْرَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ كُفْرًا ، وَأَمَّا مَعْنَاهُ الحَقِيقِيُّ فَهُوَ الكَيْدُ أَوْ التَّمْوِيهِ بِالْأَبَاطِيلِ ، ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ، ... ، أَي : صَدَّهُمُ اللَّهُ ، أَوْ : صَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ)) . وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٥ / ٢٤) : ((بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وَضَعِ المَوْصُولُ مَوْضِعَ المُضْمَرِ دَمًا لَهُمْ ، وَتَسْجِيلًا عَلَيْهِمُ بِالكُفْرِ ﴿ مَكْرُهُمْ ﴾ تَمْوِيهِهُمُ بِالْأَبَاطِيلِ ، أَوْ كَيْدُهُمْ لِلْإِسْلَامِ بِشِرْكَهِمْ ، ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ، وَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ، أَي : سَبِيلِ الحَقِّ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرِّعْدُ : ٤٢] .
 وقد مَكَرَ كُفَّارُ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ بِأَنْبِيَائِهِمْ يَقْصِدُونَ قَتْلَهُمْ ، كما مَكَرَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ لِيَقْتُلُوكَ . ومَكَرَ الماكِرِينَ مخلوقٌ لله تعالى ، لا يَضُرُّ مَكْرَهُمْ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ ، وهو يُوصِلُ إِلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وفي هذا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَتَسْكِينٌ لَهُ . وقيل : فَلِلَّهِ خَيْرُ الْمَكْرِ ، أَي : يُجَازِيهِمْ بِهِ . والمعنى : كما نَجَّى اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ مِنْ مَكْرِ الْكَافِرِينَ ، كَذَلِكَ يُنَجِّيكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ مَكْرِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ (قَوْمِكَ) .

وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٣٢٨) : ((﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، يَعْنِي : مِنْ قَبْلِ مُشْرِكِي مَكَّةَ . وَالْمَكْرُ : إِصْطَالُ الْمَكْرُوهِ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ . ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أَي : عِنْدَ اللَّهِ جَزَاءُ مَكْرِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ مَكْرِهِمْ جَمِيعًا ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَإِلَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرُّ ، فَلَا يَضُرُّ مَكْرُ أَحَدٍ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِهِ)) .

وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ١٣٠) : ((﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ ، أَي : قَدْ مَكَرَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ بِمَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ ، فَكَادُوهُمْ ، وَكَفَرُوا بِهِمْ ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ ، حَيْثُ أَخْبَرَهُ أَنَّ هَذَا ذِيْدُنُ الْكُفَّارِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ مَعَ رُسُلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ مَكْرَهُمْ هَذَا كَالْعَدَمِ ، وَأَنَّ الْمَكْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، فَقَالَ : ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ لَا اعْتِدَادَ بِمَكْرِ غَيْرِهِ ، ثُمَّ فَسَّرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمَكْرَ الثَّابِتَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، فَقَالَ : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [الرِّعْدُ : ٤٢] ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، فَيُجَازِيهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَمَنْ عَلِمَ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَأَعَدَّ لَهَا جَزَاءَهَا ، كَانَ الْمَكْرَ كُلَّهُ لَهُ ، لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] .

مَكَرَ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، وَذَلِكَ حِينَ دَبَّرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَ قَتْلِهِ ﷺ ، وَعِنْدَ اللَّهِ جَزَاءُ مَكْرِهِمْ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبِمَكْرِهِمْ . وَلَا شَكَّ أَنَّ مَكْرَهُمْ مَحْفُوظٌ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى يُجَازِيَهُمْ بِهِ . إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَكْرِهِمْ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ ، فَيَرُدُّهُمْ خَائِبِينَ ، وَيُجَازِيَهُمْ عَلَى سُوءِ تَدْبِيرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ فِي الْعِظَمِ وَالشَّدَّةِ وَالْمَتَانَةِ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَصَمَهُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ . وَلَوْ بَلَغَ مِنْ تَدْبِيرِهِمْ أَنَّهُ تُزَالُ بِهِ الْجِبَالُ ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِي نُصْرَةِ دِينِهِ ، وَتَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ . أَوْ : مَا كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَبْطُلَ أَمْرًا هُوَ فِي ثُبُوتِهِ وَقُوَّتِهِ كَالْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ ، يَعْنِي أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ .

وفي تفسير الجلالين (١ / ٣٣٦) : ((« وَقَدْ مَكَرُوا » بالنبي ﷺ « مَكْرُهُمْ » ، حيث أرادوا قتلَه ، أو تقييده ، أو إخراجَه ، « وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ » أي : علمُه أو جزأُه ، « وإن » ما « كان مَكْرُهُمْ » وإن عَظُمَ « لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » ، المعنى : لا يُعْبَأُ بِهِ ، ولا يَضُرُّ إلا أنفُسَهُمْ ، والمراد بالجبال هنا قبيل : حقيقتها، وقيل: شرائع الإسلام المُشَبَّهة بها _ بالجبال _ في القَرَارِ والثَّبَاتِ)) .
وقال الله تعالى : « قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » [النحل : ٢٦] .

قد مَكَرَ الكُفَّارُ المُجْرِمُونَ بأنبيائهم ، وأرادوا إنهاء دَعْوَتِهِمْ مِنْ قَبْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ ، وهذا تسليية للنبي ﷺ ، وتخفيف عنه ، ورفَع لمعنوياته ، فقلَعَ اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنْ قَوَاعِدِهِ وَأُسُسِهِ ، أي إنَّه سُبْحَانَهُ أَبْطَلَ مَكْرَهُمْ بِالرُّسُلِ ، فَسَقَطَ عَلَيْهِمْ سَقْفُ بُنْيَانِهِمْ ، فَتَهَدَّمَ البِنَاءُ ، وماتوا .
لقد جَاءَهُمُ الهَلَاكُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِهِمْ أَنَّ مَكْرَهُمْ سَيَكُونُ وَبَالًا عَلَيْهِمْ . فاللَّهُ مُحِيطٌ بِهِمْ وَمِكْرَهُمْ ، ودَمَّرَهُمْ وَقَضَى عَلَيْهِمْ . وقد اعتبروا أَنَّ مَكْرَهُمْ مَتِينٌ وَمُخَكَّمٌ ، وأنه سبب بقائهم ونجاتهم ، فصَارَ سَبَبًا لِفَنَائِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ، والجاهلُ عدُوُّ نَفْسِهِ ، والأحمقُ يَمْشِي إلى الهاوية السحيقة ، وهو يظن أنه في طريقه إلى القِئَمَةِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٢٢٤) : ((« قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ، ذهب أكثرُ المُفسِّرين إلى أنَّ المراد به نُمْرُودُ بن كنعان ، حيث بنى بناءً عظيمًا ببابل ، ورامَ الصُّعُودَ إلى السَّمَاءِ لِيُقَاتِلَ أَهْلَهَا ، فأهَبَ اللهُ الرِّيحَ ، فَخَرَّ ذَلِكَ البِنَاءَ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ فَهَلَكُوا . والأوَّلَى أن الآية عامَّة في جميع المُبْطِلِينَ مِنَ المُتَقَدِّمِينَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ إلْحَاقَ الضَّرِّ بِالمُحِقِّينَ . ومعنى المَكْرُ هُنَا الكَيْدُ والتدبير الذي لا يُطَابِقُ الحَقَّ . وفي هذا وَعِيدٌ للكُفَّارِ المُعَاصِرِينَ لَهُ ﷺ بِأَنَّ مَكْرَهُمْ سَيَعُودُ عَلَيْهِمْ ، كما عاد مَكْرُ مَنْ قَبْلِهِمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ، « فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ » ، أي : أتى أمرُ اللهِ ، وهو الرِّيحُ التي أَخْرَبَتْ بُنْيَانَهُمْ . قال المُفسِّرون : أَرْسَلَ اللهُ رِيحًا فَأَلْقَتْ رَأْسَ الصَّرْحِ فِي البَحْرِ ، وَخَرَّ عَلَيْهِمُ الباقِي « مِنَ الْقَوَاعِدِ » ، قال الزَّجَّاجُ : مِنَ الأَساطِينِ ، والمعنى : أَنَّهُ أَتَاهَا أَمْرُ اللهِ مِنْ جِهَةِ قَوَاعِدِهَا فَرَعَزَعَهَا ، « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ » والمعنى : أَنَّهُ سَقَطَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ، لأنَّه بعد سُقُوطِ قَوَاعِدِ البِنَاءِ يَسْقُطُ جَمِيعُ ما هُوَ مُعْتَمِدٌ عَلَيْهَا . قال ابن الأعرابي : وَإِنَّمَا قال : « مِنْ فَوْقِهِمْ » لِئَعْلِمَكَ أَنَّهُمْ كانوا حَالِينَ تَحْتَهُ ، والعربُ تقول : خَرَّ عَلَيْنَا سَقْفٌ ، وَوَقَعَ عَلَيْنَا حَائِطٌ ، إِذَا كان يَمْلِكُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَقَعَ عَلَيْهِ ، فجاءَ بِقَوْلِهِ : « مِنْ فَوْقِهِمْ » لِئُخْرِجَ هَذَا الشُّكَّ الَّذِي فِي كَلامِ العَرَبِ ، فقال : « مِنْ فَوْقِهِمْ » أي : عَلَيْهِمْ وَقَعَ ، وكانوا تَحْتَهُ

فَهَلِكُوا ، وما أَفَلْتُوا . وقيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّقْفِ : السَّمَاءُ ، أي : أتاهم العذاب من السماء التي فوقهم . وقيل : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَمَثِيلٌ لِهَلَاكِهِمْ ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ سَقَطَ بُيُوتُهُ عَلَيْهِ . وقد اخْتَلَفَ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ، فَقِيلَ : هُوَ نُمْرُودُ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ بُخْتَنَصَّرُ وَأَصْحَابُهُ ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي : الهلاك ، ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ به ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ فِي أَمَانٍ . .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النَّحْلُ : ٤٥] .

هل أَمِنَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ مَكَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي دَارِ التَّدْوَةِ ، وَأَرَادُوا تَقْيِيدَهُ أَوْ قَتْلَهُ أَوْ إِخْرَاجَهُ ، أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً فِي حَالِ أَمْنِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ ، مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِأَلْفِهِمْ ؟ ، لَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ ، لِأَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَمَا كَانُوا يُقَدِّرُونَ ذَلِكَ . وَهَذِهِ الْآيَةُ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ، وَالِاسْتِفْهَامُ إِنكَارِيٌّ لِلتَّوْبِيخِ ، وَالْمَعْنَى : يَنْبَغِي أَنْ لَا يَأْمَنُوا عُقُوبَةً تَلْحَقُهُمْ كَمَا لَحِقَتْ بِالْمُكَدَّبِيِّينَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٧٥٤) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ جَلْمِهِ وَإِنظَارِهِ الْعُصَاةَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا ، وَيَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ فِي دُعَائِهِمْ إِيَّاهُمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَيْهَا ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ مَجِيئَهُ إِلَيْهِمْ)) .

وقال الشَّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٢٣٥) : ((﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ السَّيِّئَاتُ صِفَةً مَصْدَرٌ مَحذُوفٌ ، أَيْ: مَكَرُوا الْمَكَرَاتِ السَّيِّئَاتِ ، وَأَنْ تَكُونَ مَفْعُولَةً لِلْفِعْلِ الْمَذْكُورِ عَلَى تَضْمِينِهِ مَعْنَى الْعَمَلِ ، أَيْ: عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ، أَوْ صِفَةً لِمَفْعُولٍ مُقَدَّرٍ ، أَيْ: أَفَأَمِنَ الْمَاكِرُونَ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَاتِ ، أَوْ عَلَى حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ ، أَيْ: مَكَرُوا بِالسَّيِّئَاتِ ﴾ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ ، . . . ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ . وَمَكَّرُ السَّيِّئَاتِ : سَعِيَّهُمْ فِي إِيْذَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِيْذَاءِ أَصْحَابِهِ عَلَى وَجْهِ الْخُفْيَةِ ، وَاحْتِيَالِهِمْ فِي إِبْطَالِ الْإِسْلَامِ ، وَكَيْدِ أَهْلِهِ ﴾ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ ﴾ كَمَا خَسَفَ بِقَارُونَ . يُقَالُ : خَسَفَ الْمَكَانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا : ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ ، وَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ خُسُوفًا : أَي غَابَ بِهِ فِيهَا ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بِهِ فِي حَالِ غَفْلَتِهِمْ عَنْهُ ، كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ . وَقِيلَ : يُرِيدُ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَإِنَّهُمْ أَهْلَكُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ - ظَنَّهُمْ -)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [التَّمَل : ٥٠] .

دبر الكافرون مَكِيدَةً لقتل النبي ﷺ ، وجازاهم الله على مَكْرِهِمْ (كَيْدِهِمْ وَعَدْرِهِمْ) بتعجيل عقوبتهم وعذابهم وهلاكهم . وَسَمَّى اللهُ إهْلَاكَهُمْ وتدميرهم مَكْرًا على سبيل المُشَاكَلَة .
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمَكْرِ اللهِ بِهِمْ .

إنَّ مَكْرَهُمْ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ تَدْبِيرِ الْفِتْنِكِ بِصَالِحِ وَأَهْلِهِ ، وَمَكْرُ اللهِ إهْلَاكَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .
وقال البَغَوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ١٧٠) : ((﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا ﴾ غَدْرًا غَدْرًا حِينَ قَصَدُوا تَبَيُّتَ صَالِحِ وَالْفِتْنِكِ بِهِ ، ﴿ وَمَكْرَنَا مَكَرًا ﴾ جَزَيْنَاهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ بِتَعْجِيلِ عِقُوبَتِهِمْ)) .

وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٢٠٥) : ((﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بِمَكْرِ اللهِ بِهِمْ)) .

وقال ابن الجوزي فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٦ / ١٨٢) : ((وَفِي صِفَةِ إهْلَاكَهُمْ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ أَتَوْا دَارَ صَالِحِ شَاهِرِينَ سُيُوفِهِمْ ، فَرَمَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْحِجَارَةِ فَقَتَلَتْهُمْ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ .
وَالثَّانِي رَمَاهُمْ اللهُ بِصَخْرَةٍ فَقَتَلَتْهُمْ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالثَّالِثُ أَنَّهُمْ دَخَلُوا غَارًا يَنْتَظِرُونَ مَجِيءَ صَالِحِ ،
فَبَعَثَ اللهُ صَخْرَةً سَدَّتْ بَابَ الْغَارِ ، قَالَه ابْنُ زَيْدٍ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُمْ نَزَلُوا فِي سَفْحِ جَبَلٍ يَنْتَظِرُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَأْتُوا دَارَ صَالِحِ ، فَجَحَّمَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ فَأَهْلَكَهُمْ ، قَالَه مُقَاتِلٌ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [التَّمَل : ٥١] .
فَتَفَكَّرُوا وَتَأَمَّلُوا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ وَنَهَايَةِ حَالِهِمْ وَنَتِيجَةِ كَيْدِهِمْ وَتَدْبِيرِهِمُ الْخَفِيِّ ، كَيْفَ أَنَّ اللهُ
أَهْلَكَهُمْ وَعَذَّبَهُمْ كُلَّهُمْ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ ، وَلَمْ يَنْجُو مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَلَمْ يَهْرُبْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدمَارِ أَحَدٌ .
وَكَانَتْ نَهَايَتُهُمُ الْخَرَابُ الْهَائِلُ ، وَكَانَ مآلُهُمُ الدَّمَارُ الشَّامِلُ . وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى نَهَايَتِهِمُ الْفُطْيَعَةَ
جَزَاءً مَكْرَهُمْ وَتَخْطِيطَهُمُ السَّيِّئِ ، وَقَدْ وَقَعُوا فِي شَرِّ أَعْمَالِهِمْ . وَاللَّهُ جَازَاهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ فَأَهْلَكَهُمْ .
وقال الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤ / ٢٠٥) : ((﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ ، أَي :
انظُرْ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ أَمْرُهُمُ الَّذِي بَنَوْهُ عَلَى الْمَكْرِ ، وَمَا أَصَابَهُمْ بِسَبَبِهِ)) .

وَفِي تَفْسِيرِ الْجَلَالَيْنِ (١ / ٥٠١) : ((﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ ﴾
أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بِصِيحَةِ جَبْرِيلَ ، أَوْ بِرَمِي الْمَلَائِكَةِ بِحِجَارَةٍ وَلَا يَرُونَهُمْ)) .

وقال اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .
الَّذِينَ مَكْرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ، وَتَدَاوَلُوا الرِّأْيَ فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ : تَقْيِيدِهِ وَإِخْرَاجِهِ
وَقَتْلِهِ . وَالْإِشَارَةُ هُنَا إِلَى مَكْرِ قُرَيْشٍ ، لَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلِّمٌ وَمُوجِعٌ فِي الآخِرَةِ (عَذَابُ النَّارِ الشَّدِيدِ) ،
وَمَكْرُ أُولَئِكَ الْمُجْرِمِينَ هَالِكٌ وَبَاطِلٌ وَغَيْرُ نَافِذٍ ، لِأَنَّ الْأُمُورَ مُقَدَّرَةٌ لَا تَتَغَيَّرُ بِهِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٢٣ / ٣) : ((قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، قال مُجاهد وسعيد بن جُبَيْر وشَهْر بن حَوْشَب : هُمُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، يَعْنِي : يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ ، يُوْهِمُونَ أَنَّهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ بُغْضَاءٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ﴾ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، وقال عبد الرحمن بن زَيْد بن أَسْلَمَ : هُمُ الْمُشْرِكُونَ . وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا عَامَّةٌ ، وَالْمُشْرِكُونَ دَاخِلُونَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْوَرُ ﴾ ، أَي : يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ ، وَيُظْهِرُ زَيْفَهُمْ عَنِ قَرِيبٍ لِأُولَى الْبَصَائِرِ وَالتَّنْهَى ، فَإِنَّهُ مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صَفْحَاتٍ وَجْهِهِ ، وَفَلَتَاتٍ لِسَانِهِ ، وَمَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ تَعَالَى رِدَاءَهَا ، إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا ، فَالْمُرَائِي لَا يَزُوجُ أَمْرَهُ وَيَسْتَمِرُّ إِلَّا عَلَى غَيْبٍ ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَفَرِّسُونَ فَلَا يَزُوجُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، بَلْ يَنْكَشِفُ لَهُمْ عَنِ قَرِيبٍ ، وَعَالِمُ الْغَيْبِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤٧٨ / ٦ و ٤٧٩) : ((قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، قال أبو عُبَيْدَةَ : يَمْكُرُونَ بِمَعْنَى يَكْتَسِبُونَ وَيَجْتَرِحُونَ ، ثُمَّ فِي الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ الَّذِينَ مَكَّرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ، قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ . وَالتَّانِي أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الرِّيَاءِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَشَهْرٌ بِنِ حَوْشَبَ . وَالتَّلَاثُ أَنَّهُمْ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَابْنُ السَّنَابِ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُمْ قَائِلُو الشَّرْكِ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَفِي مَعْنَى يُبْوَرُ قَوْلَانُ : أَحَدُهُمَا يَبْطُلُ ، قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ ، وَالتَّانِي يَفْسُدُ ، قَالَهُ الرَّجَّاجُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فَاطِرُ : ٤٣] .

وَلَا يُحِيطُ الْعَمَلُ السَّيِّئُ ، كَالْحِيلَةِ وَالْخِدَاعِ وَالْعَدْرِ وَالْخِيَانَةِ ، إِلَّا بِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَسَاؤُوا ، وَوَبَالَ مَكْرِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ وَعَائِدٌ عَلَيْهِمْ وَحَدَمَهُمْ . وَلَا يَنْزِلُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَصْحَابِهِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَهُ . أَي : وَمَا يَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ دُونَ غَيْرِهِمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٤٢١ / ١٠) : ((وَلَا يَنْزِلُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، يَعْنِي بِالَّذِينَ يَمْكُرُونَهُ ، وَإِنَّمَا عَنَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ مَكْرُوهُ ذَلِكَ الْمَكْرُ الَّذِي مَكَّرَهُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ إِلَّا بِهِمْ)) .

وقال البغوي في تفسيره (٤٢٧ / ١) : ((﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴾ أَي : لَا يَحِلُّ وَلَا يُحِيطُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ ﴿ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، فَقَتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَاقِبَةُ الشَّرْكِ لَا تَحِلُّ إِلَّا بِمَنْ أَشْرَكَ . وَالْمَعْنَى : وَبَالَ مَكْرِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ)) .

وقد وَرَدَ فِي الْأَمْثَالِ : مَنْ كَشَفَ حِجَابَ غَيْرِهِ انْكَشَفَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغِيِّ قُتِلَ بِهِ ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا . وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَمْثَالَ خُلَاصَةٌ تَجَارِبُ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ .

والأمثال مُنبثقة عن العقل الجمعي ، لذلك تكون صحيحة ودقيقة ، وتَعكس خبرة عميقة في التعامل مع الأفكار والأفراد والمُجتمعات .

وقال بعضُ العلماء : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ : المَكْرُ والبَغْيُ والنَّكْثُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] .

٤١ _ الرِّيَاءُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النَّسَاء : ٣٨] .

يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِلْفَخْرِ والمُبَاهَاةِ والسُّمُوعَةِ والشُّهْرَةِ ونَيْلِ المَدِيحِ والإشادة ، وليس ابتغاء وجه الله تعالى . إِنَّهُمْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ ، وليس سبيل الله تعالى ، لأنَّ تفكيرهم مَحْصُورٌ فِي حُطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ . وهذا أَدَّى إِلَى عَرَقِهِمْ فِي الرِّيَاءِ ، وَغِيَابِ الإخْلَاصِ عَنْ أَعْمَالِهِمْ . وَلَا يُصَدِّقُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْحَيَاةِ بَعْدَ المَوْتِ (اليَوْمِ الْآخِرِ) ، كَالْمُنَافِقِينَ ومُشْرِكِي مَكَّةَ ، لأنَّ قُلُوبَهُمْ مَلِئَةٌ بِالشَّكِّ والحَيْرَةِ والرَّيْبَةِ والنَّفَاقِ . والآيَةُ تَحَدَّثُ عَنِ المُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُبْطِنُونَ الكُفْرَ ، وَيُظْهِرُونَ الإِيمَانَ . وَمَنْ كَانَ الشَّيْطَانُ صَاحِبًا لَهُ وَصَدِيقًا يُسَوِّلُ لَهُ ، وَيُزَيِّنُ لَهُ المَعَاصِي ، فَيَعْمَلُ بِأَمْرِهِ ، فَسَاءَ هَذَا الصَّاحِبُ ، وَيَسُ هذا الصَّدِيقُ ، حَيْثُ حَمَلَهُمْ عَلَى الصَّلَالِ والمَعَاصِي . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَعِيدًا لَهُمْ ، بَأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلَازِمُهُمْ فِي النَّارِ وَيُصَاحِبُهُمْ وَيَقْتَرِنُ بِهِمْ .

والجديرُ بالذكرُ أَنَّ ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ عَطَفَ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ [النَّسَاء : ٣٧] ، وَهَذَانِ الفَرِيقَانِ مَذْمُومَانِ وَمُفْرَطَانِ ، وَوَأَقْعَانِ فِي الكُفْرِ والصَّلَالِ والآثَامِ والمَعَاصِي . فَالفَرِيقُ الأوَّلُ النَّزَمُ بِالبُخْلِ ، وَمَنْعَ أَداءِ مَا أَوْجَبَ اللهُ فِي المَالِ ، حِرْصًا عَلَى حُطَامِ الدُّنْيَا الفَانِي ، وَمَتَاعِهَا القَلِيلِ الزَّائِلِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا ، بَلْ أَيْضًا أَمَرَ النَّاسَ بِالبُخْلِ ، وَحَثَّهُمْ عَلَى الإِمْسَاكِ حَوْفًا مِنَ الفَقْرِ . وَالفَرِيقُ الثَّانِي أَنْفَقَ الأَمْوَالَ وَبَدَّلَهَا ، وَلَكِنْ رِیَاءً وَسُمُوعَةً ، وَلَيْسَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٨٨) : ((﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ ﴾ [النَّسَاء : ٣٧] ، أَوْ الكَافِرِينَ . وَإِنَّمَا شَارَكَهُمْ فِي الدَّمِّ وَالعَوِيدِ ، لِأَنَّ البُخْلَ وَالسَّرْفَ الَّذِي هُوَ الإِنْفَاقُ لَا عَلَى مَا يَنْبَغِي ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمَا طَرَفَا إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ ، سَوَاءً فِي القُبْحِ وَاسْتِجْلَابِ الدَّمِّ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٨٣) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ . اِخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُمْ الْيَهُودُ ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي أَنَّهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، قَالَه السُّدِّيُّ وَالرَّجَّازُ وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدَّمَشَقِيُّ . وَالثَّلَاثُ مُشْرِكُو مَكَّةَ ، أَنْفَقُوا عَلَى عِدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، ذَكَرَهُ الشَّعْلِيُّ . وَالْقَرِينُ الصَّاحِبُ الْمُؤَالِفِ ، وَهُوَ فَعِيلٌ ، مِنْ الْاِقْتِرَانِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . وَفِي مَعْنَى مُقَارَنَةِ الشَّيْطَانِ قَوْلَانِ : أَحَدُهَا مُصَاحِبَتُهُ فِي الْفِعْلِ ، وَالثَّانِي مُصَاحِبَتُهُ فِي النَّارِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النِّسَاءُ : ١٤٢] .

ثَبِّينِ الْآيَةَ بَعْضَ قَبَائِحِ الْمُنَافِقِينَ وَفَضَائِحِهِمْ . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَعْمَلُونَ عَمَلَ الْخَادِعِ مِنْ إِظْهَارِ الْإِيمَانِ وَابْطَانِ الْكُفْرِ ، وَقِيلَ : يُخَادِعُونَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ ، أَوْ : يُخَادِعُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ، فَأَضَافَ خِدَاعَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ مَا يَفْعَلُ الْغَالِبُ فِي الْخِدَاعِ ، حَيْثُ تَرَكَّهُمْ فِي فِي الدُّنْيَا مَعْصُومِي الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ . وَقِيلَ : اللَّهُ مُجَازِبُهُمْ جَزَاءَ خِدَاعِهِمْ ، فَيُفْتَضِّحُونَ فِي الدُّنْيَا بِاطِّلَاعِ اللَّهِ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ ، وَيُعَاقِبُونَ فِي الْآخِرَةِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُعْطَوْنَ نُورًا كَمَا يُعْطَى الْمُؤْمِنُونَ ، فَيَمْضِي الْمُؤْمِنُونَ بِنُورِهِمْ ، وَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ ، وَيَبْقَوْنَ فِي الظُّلْمَةِ .

وقال الطبري في تفسيره (٤ / ٣٣٢) : ((﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾) يَحْرَازُهُمْ بِنِفَاقِهِمْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ بِمَا حَكَمَ فِيهِمْ مِنْ مَنَعِ دِمَائِهِمْ بِمَا أَظْهَرُوا بِالسُّنْتِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، مَعَ عِلْمِهِ بِبَاطِنِ ضَمَائِرِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ الْكُفْرَ ، اسْتِدْرَاجًا مِنْهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَلْقَوْهُ فِي الْآخِرَةِ ، فَيُورِدُهُمْ بِمَا اسْتَبْطَنُوا مِنَ الْكُفْرِ نَارَ جَهَنَّمَ)) .

وقد سَمَّى اللَّهُ جَزَاءَهُمْ خِدَاعًا بِطَرِيقِ الْمُشَاكَلَةِ ، لِأَنَّ وَبَالَ خِدَاعِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَصُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ . وَفِي الْآيَةِ ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ اسْتِعَارَةٌ لِاسْمِ الْخِدَاعِ لِلْمُجَازَاةِ عَلَى الْعَمَلِ ، وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْخِدَاعِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٤٠٠) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ، وَالْخِدَاعُ مِنَ اللَّهِ مُجَازَاتُهُمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ أَوْلِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ . قَالَ الْحَسَنُ : يُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ نُورٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَفْرَحُ الْمُنَافِقُونَ ، وَيَطْنُونَ أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا ، فَإِذَا جَاؤُوا إِلَى الصِّرَاطِ طُفِيَ نُورُ كُلِّ مُنَافِقٍ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [الْحَدِيدُ : ١٣])) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٥٥ / ١) : ((ولا شك أن الله لا يُخادع ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، يعتقدون أن أمرهم كما رآه عند الناس ، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يزوج عنده كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يخلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ، أي : هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا)) .

وإذا قام المنافقون إلى الصلاة مع المؤمنين قاموا متناقلين متكاسلين كارهين لها ، لأنهم يصلون خوفاً على حياتهم ، وخذراً على دمائهم ، لا يرجون بفعلها ثواباً ، ولا يخافون بتركها عقاباً . أما العقلة فقد يبتلى بها المؤمن .

إن المنافقين يصلون مراءاةً ، وهم متكاسلون متناقلون كالمكروه على الفعل ، لا يريدون بالصلاة وجه الله ، فإن رآهم أحد صلوا ، وإلا انصرفوا فلا يصلون . والمؤمن يقوم إلى الصلاة سعيداً وراعياً في رضا الله وطامعاً في أجره العظيم ، فإنه يناجي الله ، ويغفر له ، ويحبه إذا دعاه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٧٥٥ / ١) : ((قوله : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ الآية . هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ، لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ولا خشية ، ولا يعقلون معناها)) . يصلّي المنافقون ليراهم الناس ، ويحسبوهم مؤمنين ، ولولا الناس لما قام المنافقون إلى الصلاة . إنهم يقصدون بصلاتهم الرياء والسُمعة . والمراءاة مفاعلة من الرؤية ، لأن المرئي يريد عملهم ، وهم يرونه استحساناً . والرياء إظهار الجميل ليراه الناس لا لاتباع أمر الله تعالى . يعني : ليراهم الناس مُصلين ، لا يريدون رضا الله ولا ثوابه .

وقال الطبري في تفسيره (٣٣٢ / ٤) : ((وأما قوله : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُرأون الناس ﴾ ، فإنه يعني أن المنافقين لا يعملون شيئاً من الأعمال التي فرضها الله على المؤمنين على وجه التقرب بها إلى الله ، لأنهم غير موقنين بمعاد ولا ثواب ولا عقاب ، وإنما يعملون ما عملوا من الأعمال الظاهرة إبقاءً على أنفسهم ، وخذاراً من المؤمنين عليها أن يقتلوا أو يسلبوا أموالهم ، فهُمْ إذا قاموا إلى الصلاة التي هي من الفرائض الظاهرة قاموا كسالى إليها رياءً

للمؤمنين ، لِيَحْسَبُوهُمْ مِنْهُمْ ، وَلَيْسُوا مِنْهُمْ ، لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْتَقَدِي فَرَضِهَا وَوُجُوبِهَا عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ فِي قِيَامِهِمْ إِلَيْهَا كُسَالَى)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٧٥٥) : ((ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، فَقَالَ : ﴿ يُرَآؤُونَ النَّاسَ ﴾ ، أَي : لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ ، وَلَا مُعَامَلَةَ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ تَقِيَّةً لَهُمْ وَمُصَانَعَةً ، وَلِهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرَوْنَ فِيهَا غَالِبًا كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ فِي وَقْتِ الْعَتَمَةِ ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْغَلَسِ _ ظِلْمَةَ آخِرِ اللَّيْلِ _)) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ((إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ)) ٢٨٣ .

إِنَّ أَصْعَبَ وَأَشَدَّ صَلَاةٍ فِي الْمُوَظَّيَةِ عَلَيْهَا ، وَالْحِفَاطُ عَلَى أَدَائِهَا ، عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ : صَلَاتَا الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ ، لِغَلَبَةِ الْكَسَلِ فِيهِمَا ، وَلِقَلَّةِ تَحْصِيلِ الرِّيَاءِ لِهَاجَتِهِمَا ، وَلَمَّا فِيهِمَا مِنَ التَّعَبِ وَالْمَشَقَّةِ عَلَى النَّفْسِ مِنْ تَنْغِيصِ أَوَّلِ نَوْمِهَا وَآخِرِهِ ، وَلِهَذَا كَانَا أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ .
والحديثُ يُوضِّحُ خُصُوصِيَّةَ صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ وَفَضْلَهُمَا الْعَظِيمِ ، وَبَدُلُ عَلَى أَنَّ الْحِفَاطَ عَلَى هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ سَلَامَةٌ مِنَ التَّفَاقِ ، وَأَنَّ تَرْكَهُمَا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ .

وقال القرطبي في تفسيره (٥ / ٤٠٠) : ((فَإِنَّ الْعَتَمَةَ _ صَلَاةَ الْعِشَاءِ _ تَأْتِي وَقَدْ أَتَيْتَهُمْ عَمَلُ النَّهَارِ ، فَيَثْقُلُ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ إِلَيْهَا ، وَصَلَاةُ الصُّبْحِ تَأْتِي وَالنَّوْمُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ)) .
وَلَا يَذْكُرُ الْمُنَافِقُونَ اللَّهَ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا ، لِأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَهُ رِيَاءً وَسُمْعَةً ، وَلَوْ أَرَادُوا بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَكَانَ كَثِيرًا .

إِنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا ، أَوْ لَا يُصَلُّونَ إِلَّا صَلَاةً قَلِيلَةً . وَوَصَفُ الذِّكْرِ بِالْقِلَّةِ لِعَدَمِ الْإِخْلَاصِ ، أَوْ لِكَوْنِهِ غَيْرِ مَقْبُولٍ ، أَوْ لِكَوْنِهِ قَلِيلًا فِي نَفْسِهِ ، لِأَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعَةَ لِقَصْدِ الرِّيَاءِ إِنَّمَا يَفْعَلُهَا أَمَامَ النَّاسِ ، وَلَا يَفْعَلُهَا خَالِيًا كَالْمُخْلِصِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٣٢) : ((وَفِي تَسْمِيَةِ ذِكْرِهِمْ بِالْقَلِيلِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ سُمِّيَ قَلِيلًا لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، قَالَهُ عَلِيُّ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ وَقَتَادَةُ . وَالثَّانِي لِأَنَّهُ رِيَاءٌ ، وَلَوْ كَانَ لِلَّهِ لَكَانَ كَثِيرًا ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ قَلِيلٌ فِي نَفْسِهِ ، لِأَنَّهُمْ يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا يَظْهَرُ دُونَ مَا يَخْفَى مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالتَّسْبِيحِ ، ذَكَرَهُ الْمَاوَرِدِيُّ)) .

٢٨٣ متفق عليه، واللفظ لمسلم (١ / ٤٥١) برقم (٦٥١) . والبحاري (١ / ٢٣٤) برقم (٦٢٦) .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ))^{٢٨٤}.
 مَنْ أَعْلَنَ غُيُوبَ النَّاسِ وَفَضَّحَهُمْ ، وَلَمْ يَسْتَشِرْ عَلَيْهِمْ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَضَّحَهُ اللَّهُ تَعَالَى ،
 وَكَشَفَ سِتْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ الْخَلَائِقِ ، وَأَظْهَرَ مَا كَانَ يُخْفِيهِ عَنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ طَلَبَ
 بِعَمَلِهِ الثَّنَاءَ وَالْمَدْحَ مِنَ النَّاسِ ، وَطَلَبَ السُّمْعَةَ وَالشُّهْرَةَ بِأَمْرِ مَا بَيْنَ النَّاسِ .
 وَمَنْ طَلَبَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ الْإِخْلَاصِ ، وَلِيَتَحَدَّثَ النَّاسُ بِهِ طَلَبًا لِلثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ ، جَعَلَ اللَّهُ ثَوَابَهُ
 وَعَمَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يُجَازِيهِ عَلَيْهِ ، فَاللَّهُ لَا يَقْبَلُ عَمَلًا إِلَّا إِذَا كَانَ خَالصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ .
 وَالرِّيَاءُ: تَرْكُ الْإِخْلَاصِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ بَأَنْ يَقُولَ قَوْلًا أَوْ يَعْمَلَ عَمَلًا لَا يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ.
 وَقِيلَ: إِنَّ السُّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ مُتَشَابِهَانِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ السُّمْعَةَ تَتَعَلَّقُ بِحَاسَّةِ السَّمْعِ ، وَالرِّيَاءَ
 يَتَعَلَّقُ بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ .

وقد جعل الله الجزاء من جنس العمل ، فمن أحلص في أقواله وأفعاله ، ونوى بها وجه الله ،
 فله الأجر العظيم، ومن عمل من أجل الناس، فإن الله يعامله بما يُناقض مقصوده، حيث يُظهر الله
 سريره وفساد نيته أمام الناس في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما معاً .
 والحديث يُحذّر من طلب السُّمْعَةَ والرِّيَاءَ في الأعمال، ويوضح وجوب إخلاص النية لله وحده.
 وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨ / ١١٦) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ
 بِهِ وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ) قال العلماء : معناه مَنْ رَأَى بِعَمَلِهِ ، وَسَمِعَهُ النَّاسُ لِيُكْرِمُوهُ وَيُعَظِّمُوهُ
 وَيَتَعَدَّوْا خَيْرَهُ ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ النَّاسَ وَفَضَّحَهُ . وَقِيلَ : معناه مَنْ سَمِعَ بِغُيُوبِهِ وَأَدَاعَاهَا ،
 أَظْهَرَ اللَّهُ غُيُوبَهُ ، وَقِيلَ : أَسْمَعَهُ الْمَكْرُوهَ . وَقِيلَ : أَرَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهُ ،
 لِيَكُونَ حَسْرَةً عَلَيْهِ، وَقِيلَ : معناه مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ النَّاسَ أَسْمَعَهُ اللَّهُ النَّاسَ ، وَكَانَ ذَلِكَ حَظَّهُ مِنْهُ)) .
 وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦ / ١٥٥ و ١٥٦) : (((مَنْ سَمِعَ) بِالتَّشْدِيدِ، أَي: مَنْ نَوَّهَ
 بِعِلْمِهِ وَشَهَرَ لِيَرَاهُ النَّاسُ وَيَمْدُحُوهُ (سَمِعَ اللَّهُ بِهِ) أَي شَهَّرَهُ بَيْنَ أَهْلِ الْعَرَصَاتِ _ جَمْعُ عَرَصَةٍ وَهِيَ
 كُلُّ مَوْضِعٍ وَاسِعٍ لَا بِنَاءَ فِيهِ _ ، وَفَضَّحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ فِعْلُ الْمُرَائِي سُمْعَةً
 وَرِيَاءً ، لِأَنَّهُ يَفْعَلُهُ لِيُسْمَعَ بِهِ ، ذَكَرَهُ الْقَاضِي . وَذَكَرَ نَحْوَهُ الْبِيضَاوِيُّ . وَقَالَ النَّوَوِيُّ : معنى هذا
 الْحَدِيثِ : مَنْ رَأَى بِعِلْمِهِ وَسَمِعَهُ لِلنَّاسِ لِيُكْرِمُوهُ وَيُعَظِّمُوهُ ، فَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ ، وَفَضَّحَهُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِكُونِهِ فَعَلَهُ رِيَاءً وَسُمْعَةً، لَا لِأَجْلِ اللَّهِ . وَقِيلَ : معناه مَنْ سَمِعَ بِغُيُوبِ النَّاسِ أَظْهَرَ اللَّهُ

٢٨٤ متفق عليه، واللفظ لمسلم (٤ / ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٦) . والبحاري (٥ / ٢٣٨٣) برقم (٦١٣٤) .

غُيُوبِهِ ، وَقِيلَ : أَسْمَعَهُ الْمَكْرُوهَ . وَقِيلَ : أَرَاهُ ثَوَابَ ذَلِكَ وَلَا يُعْطِيهِ إِلَّا هَ لِيَكُونَ حَسْرَةً عَلَيْهِ . اهـ .
... (وَمَنْ رَأَى) بَعْمَلِهِ ، وَالرِّيَاءَ إِظْهَارَ الْعِبَادَةِ بِقَصْدِ رُؤْيَةِ النَّاسِ لَهَا فَيَحْمَدُوا صَاحِبَهَا (رَأَى اللَّهُ بِهِ) أَي : بَلَغَ مَسَامِعَ خَلْقِهِ أَنَّهُ مُرَائٍ مُزَوَّرٌ ، وَأَشْهَرَهُ بِذَلِكَ بَيْنَ خَلْقِهِ ، وَقَرَعَ بِهِ أَسْمَاعَهُمْ لِيَشْتَهَرُ بِأَنَّهُ مُرَائٍ فَيُفْتَضَحَ بَيْنَ النَّاسِ ، ذَكَرَهُ الْقَاضِي . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : السُّمْعَةُ أَنْ يَسْمَعَ النَّاسُ عَمَلَهُ ، وَيُنَوِّهَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الرِّيَاءِ ، يَعْنِي مَنْ نَوَّهَ بِعَمَلِهِ رِيَاءً وَسُمِعَتْ نَوَّهَ اللَّهُ بِرِيَاءِهِ وَتَسْمِيْعِهِ ، وَقَرَعَ بِهِ أَسْمَاعَ خَلْقِهِ فَتَعَارَفَوْهُ ، وَأَشْهَرُوهُ بِذَلِكَ فَيُفْتَضَحَ . اهـ . قَالَ ابْنُ حَجْرٍ : وَرَدَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثِ التَّصْرِيحِ بِوُقُوعِ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ ، فَهُوَ الْمُعْتَمَدُ ، وَفِيهِ نَذْبٌ _ اسْتِحْبَابٌ _ إِخْفَاءِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ : لَكِنْ يُسْتَشْنَى مَنْ يُظْهِرُهُ لِيُفْتَدَى بِهِ ، أَوْ لِيُنْتَفَعَ بِهِ ، كَكِتَابَةِ الْعِلْمِ ، فَمَنْ كَانَ إِمَامًا يُسْتَنْ بِعِلْمِهِ ، عَالِمًا بِمَا لِلَّهِ عَلَيْهِ ، قَاهِرًا لِشَيْطَانِهِ ، اسْتَوَى مَا ظَهَرَ مِنْ عِلْمِهِ وَمَا خَفِيَ ، لِصِحَّةِ قَصْدِهِ ، وَالْأَفْضَلُ فِي حَقِّ غَيْرِهِ الْإِخْفَاءُ مُطْلَقًا)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الْمَاعُونُ : ٤] .

هَلَاكٌ وَعَذَابٌ لِلْمُصَلِّينَ الْمُنَافِقِينَ . وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠ / ١٩٤) : ((أَي : عَذَابٌ لَهُمْ)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الْمَاعُونُ : ٥] .

مِنْ أَبْرَزِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ لَهُؤُلَاءِ الْمُصَلِّينَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ صَلَاتِهِمْ ، غَيْرُ مُبَالِغِينَ بِأَمْرِهَا ، وَلَا مُهْتَمِّينَ بِشَأْنِهَا . يُؤَخَّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا ، تَضْيِيعًا لِحَقِّهَا ، وَتَهَاوُنًا بِهَا ، وَإِهْمَالًا لَهَا . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ اهْتِمَامِهِمْ بِالصَّلَاةِ ، وَاعْتِبَارِهَا عِبًّا ثَقِيلًا يَجِبُ التَّخَلُّصُ مِنْهُ بِشَكْلِ سَرِيعٍ .

نَزَلَتْ ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ﴾ فِي الْمُنَافِقِينَ ، فَقَدْ كَانُوا يُهْمِلُونَ الصَّلَاةَ ، وَلَا يُعْظَمُونَهَا ، وَكَانُوا إِذَا صَلُّوا لَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا أَجْرًا ، وَلَا يَأْتُونَ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الصَّالِحِ ، حَيْثُ إِنَّهُمْ يَتَلَاعَبُونَ بِهَا ، وَلَا يُتِمُّونَ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا . وَإِذَا لَمْ يُصَلُّوا لَا يَخَافُونَ عِقَابًا وَلَا عَذَابًا . وَهَذَا اسْتِخْفَافٌ وَاضِحٌ بِأَمْرِ الصَّلَاةِ وَتَهَاوُنٌ بِهَا ، وَتَضْيِيعٌ لِحَقِّهَا الْعَظِيمِ .

وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : فِي صَلَاتِهِمْ . وَهَذَا فَرْقٌ جَوْهَرِيٌّ بَيْنَهُمَا . فَلَفْظُهُ " عَنْ " تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ ، مَشْغُولُونَ عَنِ الصَّلَاةِ ، وَمُهْمِلُونَ لِأَمْرِهَا ، وَغَيْرُ مُهْتَمِّينَ لِشَأْنِهَا ، وَهَذِهِ إِهَانَةٌ لِلصَّلَاةِ وَتَهَاوُنٌ بِهَا ، وَتَجَاهُلٌ لِعَظَمَتِهَا وَشَرَفِهَا وَفَضْلِهَا .

أَمَّا " فِي صَلَاتِهِمْ " ، فَتَدُلُّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُؤْمِنُ قَدْ يَسْهَوُ فِي صَلَاتِهِ ، وَقَدْ يَنْسَى . وَسَهْوُهُ الْمُنَافِقُ مَصْدَرُهُ احْتِقَارُ الصَّلَاةِ وَإِهْمَالُهَا وَتَضْيِيعُهَا ، أَمَّا سَهْوُ الْمُؤْمِنِ ، فَمَصْدَرُهُ النِّسْيَانُ وَوَسَاوَسُ الشَّيْطَانِ وَتَشْتُّتُ الدَّهْنِ ، مَعَ تَعْظِيمِهِ لِلصَّلَاةِ وَاحْتِرَامِهِ لَهَا ، وَعَدَمِ التَّهَاوُنِ بِحَقِّهَا .

وسَهُوَ الْمُؤْمِنُ خَارِجٌ عَنِ إِرَادَتِهِ وَطَاقَتِهِ ، وَلَيْسَ بِاخْتِيَارِهِ ، كَمَا أَنَّهُ يُجَبَّرُ بِسُجُودِ السَّهْوِ . وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٧١٨) : ((قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ﴾ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي الْعِلَاقَةِ ، وَلَا يُصَلُّونَ فِي السَّرِّ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ ، وَقَدْ التَزَمُوا بِهَا ، ثُمَّ هُمْ عَنْهَا سَاهُونَ ، إِمَّا عَنْ فِعْلِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَإِمَّا عَنْ فِعْلِهَا فِي الْوَقْتِ الْمُقَدَّرِ لَهَا شَرْعًا ، فَيُخْرِجُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا قَالَ مَسْرُوقٌ وَأَبُو الصُّحَى . وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . وَإِمَّا عَنْ وَقْتِهَا الْأَوَّلِ فَيُؤَخِّرُونَهَا إِلَى آخِرِهِ دَائِمًا أَوْ غَالِبًا ، وَإِمَّا عَنْ أَدَائِهَا بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، وَإِمَّا عَنْ الْخُشُوعِ فِيهَا ، وَالتَّدْبِيرِ لِمَعَانِيهَا ، فَالْلَفْظُ يَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ)) .

وعلى العبد أن يُقِيمَ نَفْسَهُ ، وَيَعْرِفَ دَرَجَتَهُ . فَمَنْ اتَّصَفَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ اتَّصَفَ بِجَمِيعِ ذَلِكَ ، فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ ، وَغَارِقٌ فِي النِّفَاقِ الْعَمَلِيِّ .

وفي صحيح مسلم (١ / ٤٣٤) : عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انصَرَفَ مِنَ الظُّهْرِ ، وَدَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ ، قَالَ : أَصَلَيْتُمُ الْعَصْرَ ؟ ، فَقُلْنَا لَهُ : إِنَّمَا انصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنَ الظُّهْرِ ، قَالَ : فَصَلُّوا الْعَصْرَ ، فَقُمْنَا ، فَصَلَّيْنَا ، فَلَمَّا انصَرَفْنَا ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ ، قَامَ فَتَنَقَّرَهَا أَرْبَعًا ، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)) .

إِنَّ الْمُنَافِقَ يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا بِغَيْرِ عُدْرٍ ، يَنْتَظِرُ غُرُوبَ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ ، أَي : يُحَادِثُهَا بِقَرْنَيْهِ عِنْدَ غُرُوبِهَا ، قَامَ فَتَنَقَّرَهَا كَتَنَقَّرَ الطَّائِرُ الْحَبَّةَ أَرْبَعًا ، أَي : صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا . وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى سُرْعَةِ أَدَاءِ صَلَاتِهِ .

إِنَّ صَلَاةَ الْمُنَافِقِ قَائِمَةٌ عَلَى التَّلَاعِبِ وَالتَّنَحِيلِ وَالتَّهَانِ وَالتَّكَاثُلِ ، يُؤَدِّيهَا بِحَرَكَاتٍ سَرِيعَةٍ كَتَنَقَّرَ الطَّائِرُ ، بِلَا طُمَأْنِينَةٍ ، وَلَا خُشُوعٍ ، وَلَا تَدْبِيرٍ ، وَلَا فَهْمٍ لِلآيَاتِ ، وَلَا اسْتِيعَابٍ لِلأَحْكَامِ ، وَلَا اِهْتِمَامٍ بِالْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ وَالْأَدَابِ . لَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ، وَهَذَا بِسَبَبِ سَيْطَرَةِ الرِّيَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِ ، وَلَيْسَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ ، وَابْتِغَاءُ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ . وَبِالتَّالِي ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ أَصْلًا . وَوُجُودُ صَلَاتِهِ كَعَدَمِهِ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥ / ١٢٤) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ " فِيهِ تَصْرِيحٌ بِذَمِّ تَأْخِيرِ صَلَاةِ الْعَصْرِ بِلَا عُدْرٍ لِقَوْلِهِ ﷺ : " يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ " . قَوْلُهُ ﷺ : " بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ " ، اِخْتَلَفُوا فِيهِ فَقِيلَ : هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَالمَرَادُ أَنَّهُ يُحَادِثُهَا بِقَرْنَيْهِ عِنْدَ

غروبها، وكذا عند طلوعها ، لأنَّ الكفار يَسجدون لها حينئذ ، فَيُقارنُها ليكون الساجدون لها في صورة الساجدين له، ويُحَيَّل لِنَفْسِهِ ولأَعوانِهِ أَنَّهُم إِنَّمَا يَسجدون له. وقيل: هو على المَجَاز والمُرَاد بِقَرْنِهِ وَقَرْنِيهِ عُلُوُّهُ وارتفاعه وسُلْطانه وتَسَلُّطه وغلْبته وأَعوانه . قال الحَطَّابِي: هو تمثيل ومعناه أن تأخيرها بتزيين الشيطان ومُداْفَعته لهم عن تعجيلها، كمدافعة ذوات القُرُون لِمَا تَدْفَعُه . والصحيح الأول . قوله ﷺ : " فنقرها أربعًا ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً " تصريح بِدَمٍ مِّن صَلَّي مُسْرِعًا ، بحيث لا يُكْمِل الخُشُوعَ والطَّمَأِينَةَ والأذكارَ ، والمُرَاد بالنَّفَرِ سُرْعَةُ الحركات كَنَقَرِ الطائر)) .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ [الماعون : ٦] .

إِنَّهُمْ يُصَلُّونَ مِنْ أَجْلِ السُّمْعَةِ والشُّهْرَةِ، فهم غير مُخْلِصِينَ لِلَّهِ ، ولا يَرجون ثوابه ، ولا يَخافون عِقابَه . يُصَلُّونَ أَمَامَ الْمُؤْمِنِينَ لِيُظْهِرُوا بِمَظْهِرِ الأتقياء الصالحين ، الذين استقرَّ الإيمان في قلوبهم ، وخَشَعَتْ جوارِحُهُم وأعضاؤُهُم . وأساسُ الرِّياءِ هو طَلَبُ الدُّنْيَا بالدِّينِ . فالْمُرَائِي يُظْهِرُ الطاعةَ والعبادةَ مِنْ أَجْلِ السُّمْعَةِ والشُّهْرَةِ والجاه والمدح ، ونَيْلِ الحَظْوَةِ عند الناس ، وطلب المَنْزِلَةِ في قلوبهم. والمُنافِقون يُصَلُّونَ رِياءً، وليس ابتغاء وجه الله تعالى، وإذا تَرَكَوا الصَّلَاةَ لَمْ يندموا ولم يُبالوا. إِنَّهُمْ يُصَلُّونَ فِي العَلانِيَةِ ، ويتركون الصَّلَاةَ فِي السِّرِّ . وهؤلاء المُنافِقون يُدْخِلُونَ أَنفُسَهُمْ فِي جماعة المُصَلِّينَ فِي الظاهر ، أَمَّا فِي الباطن فَهُمْ غافلون عن الصَّلَاةِ ، غير مُخْلِصِينَ لِلَّهِ تعالى . لا يَرجون أَجْرًا ، ولا يَخافون عذابًا .

وقال البَغَوِي فِي تفسيره (١ / ٥٥٢) : ((قال ابن عباس : هُمُ المُنافِقون يتركون الصَّلَاةَ إِذا غابوا عن الناس ، وَيُصَلُّونَها فِي العَلانِيَةِ إِذا حَضَرُوا ، لِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ . وقال قتادة : ساءَ عنها لا يُبالي صَلَّي أَمْ لَمْ يُصَلِّ . وقيل : لا يَرجون لها ثوابًا إِن صَلُّوا ، ولا يَخافون عِقابًا إِن تَرَكَوا . وقال مُجاهد : غافلون عنها يتهاونون بها . وقال الحسن : هو الذي إِن صَلَّاهَا صَلَّاهَا رِياءً ، وَإِن فاتته لَمْ يندم . قال أبو العالِيَةِ : لا يُصَلُّونَها لِمَواقِيتِها ، ولا يَتِمُّونَ رُكُوعَها وَسُجُودَها)) .

والجديرُ بالدُّكْرِ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ابتغاء وجه الله، فَرآه الناسُ ، واطَّلَعوا عليه ، فَفَرِحَ بِذلك ، وأعجبه ، فهذا ليس مِنَ الرِّياءِ . عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال : جاء رَجُلٌ إِلى النَّبِيِّ ﷺ ، فقال : إِنِّي أَعْمَلُ عَمَلًا يُطَّلَعُ عَلَيهِ ، فَيُعْجِبُنِي ، فقال : ((لَكَ أَجْرانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلانِيَةِ)) ٢٨٥ .

٢٨٥ رواه الطبراني في الأوسط (٥ / ٧١) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٥١٧) : ((رجاله ثقات)) .

المؤمنُ الحَقُّ يَحْرُصُ على إِخْلَاصِ الأَعْمَالِ لِلَّهِ تَعَالَى فَيُخْفِيهَا. وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ حَرِيصِينَ على تَنْقِيَةِ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الرِّيَاءِ .

هَذَا الرَّجُلُ يَعْمَلُ الصَّالِحَ، مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، خَالِصًا لَوْجِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُخْفِيهِ عَنِ النَّاسِ حِرْصًا عَلَى الإِخْلَاصِ لِلَّهِ ، وَيُعَدُّ عَنِ الرِّيَاءِ ، فَإِذَا عَرَفَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي حَاوَلَ إِخْفَاءَهُ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، رَجَاءً أَنْ يُعْمَلَ بِعَمَلِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، وَقِيلَ : أَعْجَبَهُ أَنْ يُنْبِي النَّاسُ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ ، فَيَفْرَحُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْعُجْبَ بِالنَّفْسِ ، وَطَلِبَ الْمُنْزِلَةَ وَالسُّمْعَةَ عِنْدَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ يُبْطِلُ الْعَمَلَ ، وَهَذَا مَا خَشِيَهِ السَّائِلُ ، فَكَأَنَّ مَعْنَى سُؤَالِهِ : هَلْ هَذِهِ الصُّورَةُ رِيَاءٌ أَمْ لَا ؟ . الْجَوَابُ النَّبِيُّ يُفِيدُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ رِيَاءً ، وَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَهُ أَجْرَانُ : أَجْرُ السِّرِّ لِإِخْلَاصِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى إِخْفَاءِ الْعَمَلِ ، وَأَجْرُ الْعِلَاقَةِ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ عَلَى الطَّاعَةِ فَيَقْتَدُونَ بِهِ ، وَيَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ ، أَوْ لِفَرَحِهِ بِالطَّاعَةِ وَظُهُورِهَا وَانْتِشَارِهَا وَسُرُورِهِ بِالْعِبَادَةِ . وَكَذَلِكَ جَمِيعُ النَّاسِ مِمَّنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ النَّاسُ مِثْلَ عَمَلِهِ ، فَلَهُ أَجْرَانُ : أَجْرُ الْعَمَلِ ، وَأَجْرُ تَعْلِيمِ النَّاسِ الْخَيْرَ .

وَفِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِابْنِ سَلَامٍ (٢ / ٢١٧) : ((قَالَ ابْنُ مَهْدِيٍّ : وَجْهُهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يُسَرُّ بِهِ إِذَا أُطِّلِعَ عَلَيْهِ لَيْسَتْ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ (ابْنُ سَلَامٍ) : يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ يُسَرُّ بِهِ لِيُرَكَّبَ وَيُثْنَى عَلَيْهِ خَيْرَ ، وَلَيْسَ لِلْحَدِيثِ عِنْدِي وَجْهٌ إِلَّا مَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ (ابْنُ مَهْدِيٍّ) لِأَنَّ الْآثَارَ كُلَّهَا تُصَدِّقُهُ)) .

٤٢ _ العِلْ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنَ أَنْهَارٍ ﴾ [الأعراف: ٤٣] . وَطَهَّرَ اللَّهُ قُلُوبَ سَاكِنِي الْجَنَّةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ وَالْحِقْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ إِلَّا الْمَحَبَّةُ وَالتَّعَاطُفُ . وَالغِلُّ هُوَ الْحِقْدُ الْكَامِنُ فِي الْقَلْبِ ، وَصَاحِبُ الْغِلِّ مُعَدَّبٌ بِهِ ، وَلَا عَذَابَ فِي الْجَنَّةِ . وَصِغَةُ الْمَاضِي تُفِيدُ التَّحَقُّقَ وَالتَّثَبُّتَ ، تَجْرِي أَنْهَارُ الْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ زِيَادَةً فِي نَعِيمِهِمْ .

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٢١) : ((﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ ، أَي : نُخْرِجُ مِنْ قُلُوبِهِمْ أَسْبَابَ الْغِلِّ ، أَوْ نُطَهِّرُهَا مِنْهُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُمْ إِلَّا التَّوَادُّ . وَعَنْ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَعُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنْهُمْ ، ﴿ تَجْرِي مِنَ أَنْهَارٍ ﴾ زِيَادَةً فِي لَدُنَّهُمْ وَسُرُورِهِمْ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٣٠٠) : ((قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ هذا من جملة ما يُنعم الله به على أهل الجنة أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم، حتى تصفؤ قلوبهم، ويؤد بعضهم بعضاً ، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا ، لكان في ذلك تنغيص لتعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر. والغل : الحقد الكامن في الصدور ، وقيل: نزع الغل في الجنة أن لا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل)) . وقال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

هؤلاء التابعون للمهاجرين والأنصار بإحسان إلى يوم القيامة (وهم الذين يحيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة) . واتباعهم بإحسان يعني اتباع آثارهم الحسنة وأخلاقهم الحميدة وصفاتهم الجميلة ، والسير على خطاهم في الدعوة إلى الله في السر والعلانية .

وفي تفسير القرطبي (١٨ / ٣٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعني التابعين ، ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة . قال ابن أبي ليلي : الناس على ثلاث منازل : المهاجرون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم ، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل . وقال بعضهم: كُنْ شَمْسًا ، فإن لم تستطع ، فكن قمرًا ، فإن لم تستطع ، فكن كوكبًا مُضِيئًا ، فإن لم تستطع ، فكن كوكبًا صغيرًا ، ومن جهة الثور لا تقطع . ومعنى هذا : كُنْ مُهَاجِرًا ، فإن لم تستطع ، فإن قلت : لا أجد ، فكن أنصاريًا ، فإن لم تجد ، فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع ، فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله)) .

وهؤلاء التابعون يدعون لأنفسهم ، ولمن سبقهم بالإيمان بالمغفرة . وفي هذا دليل على أن الشخص يبدأ بالدعاء لنفسه أولاً ، وبعدها يدعو للآخرين .

إنهم يدعون قائلين : يا ربنا ، اغفر لنا وإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحقداً وحسداً لأحد من المؤمنين ، إنك عظيم الرأفة وواسع الرحمة ، لمن يستحق ذلك من عبادك ، فاستجب لنا ، فإنك جدير بأن تجيب دعاءنا . والآية استوعبت جميع المؤمنين (المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين) . والأخوة المقصودة في الآية هي أخوة الدين لا أخوة النسب . ورابطة العقيدة أعظم من رابطة الدم . وقد وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم وشرفهم ، وإشادة بمكانتهم الرفيعة ، وتعظيماً لدورهم الحاسم في نصرة الإسلام .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨ / ٢٣٠) : ((والجُملة مَسْوَقة لمدحهم بمحبتهم لِمَن تَقَدَّمهم من المؤمنين ، ومُراعاتهم لحقوق الأُخوة في الدِّين والسَّنق بالإيمان ...)) ﴿ وإخواننا ﴾ أي: في الدِّين الذي هو أعز وأشرف عندهم من النَّسب)) .

وقد أمرهم الله بالاستغفار للمهاجرين والأنصار ، وأن يطلبوا من الله تعالى أن ينزع من قلوبهم الحقد والحسد للمؤمنين على الإطلاق . والصحابة داخلون في هذا المعنى ، لأنهم سادة المؤمنين وأعظمهم وأشرفهم . ومن لم يستغفر للصحابة ، ويطلب رضوان الله لهم ، فهو مُخالف للأمر الإلهي في الآية . ومن ترخَّم على صحابة النبي ﷺ ، وطلب من الله أن يرضى عنهم ، ولم يحمل في قلبه حقدًا عليهم ، ولا حسدًا لهم ، فهو من أهل هذه الآية . ومن يشتم واحدًا منهم ، ولم يترخَّم عليه ، كان خارجًا من جُملة أقسام المؤمنين (المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين) .

وقال البَغوي في تفسيره (١ / ٧٩) : ((فَكُلُّ مَنْ كان في قلبه غل على أحد من الصحابة ، ولم يترخَّم على جميعهم ، فإنه ليس ممن عناه الله بهذه الآية ، لأن الله تعالى رتب المؤمنين على ثلاث منازل : المهاجرين ، والأنصار ، والتابعين الموصوفين بما ذكر الله . فمن لم يكن من التابعين بهذه الصفة ، كان خارجًا من أقسام المؤمنين)) .

وقال الشُّوكاني في فتح القدير (٥ / ٢٨٤) : ((﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة . وقيل : هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام ، والظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة ، المتأخر إسلامهم في عصر النبوة ، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة ، لأنه يصدق على الكل أنهم جاؤوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار . والموصول مُبتدأ ، وخبره ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ ... والمراد بالأخوة هنا أخوة الدِّين . أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ، ولِمَن تقدَّمهم من المهاجرين والأنصار ، ﴿ ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ﴾ ، أي : غشًا وُغضًا وحسدًا . أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق ، فيدخل في ذلك الصحابة دُخولًا أوليًا لكونهم أشرف المؤمنين ، وَلِكون السِّياق فيهم ، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ، ويطلب رضوان الله لهم ، فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية ، فإن وجد في قلبه غلاً لهم ، فقد أصابه نزع من الشيطان ، وحلَّ به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه ، وخير أمة نبيه ﷺ ، وانفتح له باب من الخذلان يقعد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه ، باللجوء إلى الله سبحانه والاستغاثة به بأن

يَنْزِعَ عَن قَلْبِهِ مَا طَرَفَهُ مِنَ الْعِلِّ لِخَيْرِ الْقُرُونِ ، وَأَشْرَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَإِنْ جَاوَزَ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْعِلِّ إِلَى شَتْمِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَقَدْ انْقَادَ لِلشَّيْطَانِ بِرِمَامٍ ، وَوَقَعَ فِي غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ ، وَهَذَا الدَّاءُ الْعُضَالُ إِنَّمَا يُصَابُ بِهِ مَنْ ابْتُلِيَ بِمُعَلِّمٍ مِنَ الرَّافِضَةِ ، أَوْ صَاحِبٍ مِنْ أَعْدَاءِ خَيْرِ الْأُمَّةِ ، الَّذِينَ تَلَاعَبَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْأَكَاذِيبَ الْمُخْتَلِفَةَ ، وَالْأَقَاصِيصَ الْمُفْتَرَاةَ ، وَالْخُرَافَاتِ الْمَوْضُوعَةَ ، وَصَرَّفَهُمْ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَنْقُولَةَ إِلَيْنَا بِرَوَايَاتِ الْأَثَمَةِ الْأَكَابِرِ فِي كُلِّ عَصْرِ مِنَ الْعُصُورِ ، فَاشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ، وَاسْتَبَدَلُوا الْخُسْرَانَ الْعَظِيمَ بِالرَّيْحِ الْوَافِرِ ، وَمَا زَالَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ يَنْقَلِبُهُمْ مِنْ مَنْزِلَةٍ إِلَى مَنْزِلَةٍ ، وَمِنْ رُتْبَةٍ إِلَى رُتْبَةٍ ، حَتَّى صَارُوا أَعْدَاءَ كِتَابِ اللَّهِ ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَخَيْرِ أُمَّتِهِ ، وَصَالِحِي عِبَادِهِ ، وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْمَلُوا فَرَائِضَ اللَّهِ ، وَهَجَرُوا شِعَائِرَ الدِّينِ ، وَسَعَوْا فِي كَيْدِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ كُلِّ السَّعْيِ ، وَرَمَوْا الدِّينَ وَأَهْلَهُ بِكُلِّ حَجَرٍ وَمَدْرٍ ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي: كَثِيرُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بَلِيغُهُمَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِكَ)) .

٤٣ _ الحسد

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [البقرة : ٩٠] .
بِئْسَ الشَّيْءُ التَّافَهُ الْحَقِيرِ (حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِي) الَّذِي بَاعَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ أَنْفُسَهُمْ ، أَوْ : بِئْسَ مَا بَاعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، حَيْثُ بَاعُوا نَفْسِيهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الزَّائِلَةِ . وَ (بِئْسَ) كَلِمَةٌ مُسْتَوْفِيَةٌ لِجَمِيعِ الدَّمِ . وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ فِي الْوَجِيزِ (١ / ١١٧) : ((أَي : بِئْسَ مَا بَاعُوا بِهِ حَظًّا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ بِالْكَفْرِ بِالْقُرْآنِ)) .

وَالْمَخْصُوصُ بِالدَّمِ كُفْرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، حَسَدًا وَطَلَبًا لِمَا لَيْسَ لَهُمْ ، وَهُوَ عِلَّةٌ لِأَنْ يَكْفُرُوا . إِنَّهُمْ كَفَرُوا حَسَدًا مِنْهُمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْفَضْلَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، أَوْ : لِأَجْلِ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ وَحِيًّا مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَيَخْتَارُهُ مِنْ عِبَادِهِ . وَكُفْرُ الْيَهُودِ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَكِّ أَوْ جَهْلِ ، وَإِنَّمَا كَانَ حَسَدًا ، حَيْثُ خَرَجَتْ التُّبُوَّةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَصَارَتْ فِي الْعَرَبِ (أَبْنَاءَ النَّبِيِّ إِسْمَاعِيلَ ﷺ) .

فَرَجَعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ زِيَادَةً عَلَى سَابِقِ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ . أَي إِنَّهُمْ رَجَعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ ، وَالتَّنَكُّرُ فِي ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ لِلتَّعْظِيمِ ، عَلَى غَضَبِ اسْتِحْقَاقِهِ مِنْ قَبْلِ بَتَضْيِيعِ التَّوْرَةِ ، وَالْكَفْرِ بِالنَّبِيِّ عِيسَى ﷺ .

وللكافرين عذابٌ شديدٌ يُهينهم ويُذلُّهم ، لأنَّ سببَ كُفْرهم هو الحَسَدُ والتَّكْبُرُ والغُرورُ ، فكانَ جزاؤهم الإهانة والذُّلُّ والخِزْيُ والعارُ ، والجزءُ من جنس العمل . والمراد بهذا العذاب المُوَجَّع هو إذلالهم بخلاف عذاب العاصي، فإنَّه تطهيرٌ لدُنُوبه . والعذابُ المُهينُ يَقْتَضِي الخُلُودَ في النار . وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ١٧٦) : ((قال مُجاهد : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يهود شَرَوْا الحَقَّ بالباطل ، وكتمان ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ بأن يُبَيِّنُوهُ . وقال السُّدي : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، يقول : باعوا به أَنْفُسَهُمْ ، يقول : بِئْسَمَا اعتاضوا لأنفسهم ، فَرَضُوا به ، وَعَدَلُوا إليه مِنَ الكُفْرِ بما أنزَلَ اللهُ على مُحَمَّدٍ ﷺ عن تصديقه ومُؤازرته ونُصرتَه ، وإنَّما حَمَلَهُمْ على ذلك البَغْيُ والحَسَدُ والكِراهِيةُ لـ ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حَسَدَ أعظم من هذا . قال ابن إسحاق عن مُحَمَّدٍ عن عِكْرمة أو سعيد عن ابن عباس : ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَعْيَا أَنْ يُنَزَّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، أي أنَّ اللهُ جَعَلَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، ﴿ فَبَاؤُوا بَغْضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ﴾ ، قال ابن عباس : في الغَضَبِ على الغَضَبِ ، فَعَضِبَ عَلَيْهِمْ فيما كانوا ضَيَّعُوا مِنَ التَّوْرَةِ وهي مَعَهُمْ ، وَعَضِبَ بِكُفْرهم بهذا النبيِّ الذي بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ . (قُلْتُ) : ومعنى " باؤوا " اسْتَوْجَبُوا واستحقوا واستقروا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبِ . وقال أبو العالية : غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرهم بِالْإِنْجِيلِ وَعِيسَى ، ثُمَّ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرهم بِمُحَمَّدٍ ﷺ وبالقرآن ، وَعَن عِكْرمة وَقَتَادَةَ مِثْلَهُ . قال السُّدي : أمَّا الغضب الأول فهو حين غَضِبَ عَلَيْهِمْ في العَجَلِ ، وأمَّا الغضب الثاني فَعَضِبَ عَلَيْهِمْ حين كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وعن ابن عباس مِثْلَهُ . وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، لَمَّا كان كُفْرهم سَبَبَهُ البَغْيُ والحَسَدُ ، وَمِنْشَأُ ذلك التَّكْبُرُ ، فُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّعَارِ (الذُّلُّ) في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)) .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ٢٨٦ .

٢٨٦ قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٣١): ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أن حُيَّي بن أخطب وأبا ياسر كانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني أن كعب ابن الأشرف كان يهجو النبي، ويُحْرِضُ عليه كُفَّارَ قُرَيْشٍ في شِعْرِهِ ، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة يُؤذون رسولَ اللهِ حينَ قَدِمَها ، فأمرَ النبيُّ بالصَّفْحِ عنهم ، فنزلت هذه الآية، قاله عبد الله بن كعب ابن مالك، والثالث أن نَفَرًا من اليهود دَعَوْا حُدَيْفَةَ وَعَمَّارًا إلى دِينِهِمْ فَأَبَيَا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مُقاتِلُ)).

هذا تحذيرٌ إلهيٌّ للمؤمنين من اليهود ، وبيان لعداوتهم ، وحسدهم للمؤمنين ، مع علمهم بأنهم على الحق ، وأنَّ مُحَمَّدًا نبيٌّ صادق ، ورسول من عند الله . والآيةُ تشتمل على توبيخ شديد لليهود ، فقد ظَهَرَ لهم الحقُّ ، وأقيمت عليهم الحجَّةُ ، وانقطع عُذرهم ، وعرفوا أنَّ الإسلام حق ، وأنَّ مُحَمَّدًا عبدُ الله ورسوله . وبعد كُلِّ هذا ، اختاروا الكُفْرَ على الإيمان عنادًا وحسدًا . ولم يكتفوا بهذا، بل إنَّ اليهود يَتَمَنُّونَ زوالَ نعمة الإيمان عن المؤمنين . وهذا يدل على شِدَّة العداوة والحقد والحسد والبغضاء . ومحبة اليهود لكُفْر المؤمنين نابعة من شهوات أنفسهم وأهوائهم، لا أن اليهود يملكون الحق ، ويحرصون عليه . واليهودُ لم يكونوا جُهَّالًا أو ساذجين ، بل كانوا على علمٍ ومعرفة ، وكُفْرهم مبنِيٌّ على علمٍ لا جهلٍ ، وهذا أسوأ أنواع الكُفْر على الإطلاق .

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَيُنَكِّتُكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

تَمَنَّى اليهودُ لَوْ يَرُدُّونَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، حَسَدًا نَابِعًا مِنْ أَسْلِ أَنْفُسِهِمْ ، وَاتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ، وَلَيْسَ التَّرَامًا بِالذِّينِ ، أَوْ بَحْنًا عَنِ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ ، وَلَمْ يَأْمُرِهِمُ اللَّهُ بِذَلِكَ ، مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَ لِلْيَهُودِ الْحَقُّ فِي التَّوْرَةِ ، الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَتُوضِّحُ أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ صَادِقٌ . وَالْحَسَدُ مُتَجَدِّدٌ فِي قُلُوبِ الْيَهُودِ السُّودَاءِ ، وَقَدْ تَمَنَّوْا أَنْ يَرْتَدَّ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَيَعُودُوا إِلَى الْكُفْرِ ، وَسَعَوْا فِي ذَلِكَ مُسْتَعْدِمِينَ كُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُمَكِّنَةِ ، وَخَطَطُوا لِلْمُؤَامَرَاتِ وَالْمَكَائِدِ ، وَلَكِنَّهُمْ فَشَلُّوا . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ، أَعْلَنَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِمُ الْجِهَادَ ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ ، وَخَسِرَ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ حَيَاتِهِمْ ، وَضَاعَتْ مُمْتَلِكَاتِهِمْ . وَعَلَى الْبَاغِيِّ تَدْوِيرُ الدَّوَائِرِ . وَمَنْ سَلَ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ . وَصَدَّقَ الشَّاعِرُ :

وَالْبَغْيُ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَالظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمُ

وَالْحَسَدُ مِنْ أَسْوَأِ الصِّفَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَهُوَ تَمَنَّى زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ ، وَإِنْ لَمْ يَصِرْ لِلْحَاسِدِ مِثْلُهَا . أَمَّا الْغِبْطَةُ فَهِيَ تَمَنَّى النِّعْمَةِ بِدُونِ حُبِّ زَوَالِهَا عَنِ الْمَغْبُوطِ . وَكُلُّ شَخْصٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَرْضَى إِلَّا الْحَاسِدَ ، فَإِنَّهُ لَا يَرْضَى إِلَّا بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ غَيْرِهِ . وَقَلْبُ الْحَاسِدِ مُحْتَرِقٌ ، وَعَقْلُهُ تَائِهٌ ، وَحُزْنُهُ دَائِمٌ ، وَتَعَاسَتُهُ مُسْتَمِرَّةٌ . وَالْحَاسِدُ يُحْرِقُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا أَحَدٌ يَشْعُرُ بِهِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٢١٢) : ((يُحذَّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ سُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفْرَانِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ بَعْدَاوَتَهُمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَمَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ حُيَّيُّ بْنُ أَخْطَبٍ وَأَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبٍ مِنْ أَشَدِّ يَهُودِ الْعَرَبِ حَسَدًا ، إِذْ خَصَّصَهُمُ اللَّهُ بِرَسُولِهِ ﷺ ، وَكَانَا جَاهِدَيْنِ فِي

رد الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : ﴿ وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ ﴾ الآية وقال الضحَّاك : عن ابن عباس : أن رسولاً أمياً يُخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرُّسل والآيات ، ثم يُصدِّق بذلك كلُّه مثل تصديقهم ، ولكنهم جحدوا ذلك كُفراً وحسداً وبغياً . وكذلك قال الله تعالى : ﴿ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ . يقول : من بعد ما أضاء لهم الحقُّ ، لم يجهلوا منه شيئاً ، ولكنَّ الحسد حَمَلَهُمْ على الجُحود ، فعَيَّرهم ، ووبَّخهم ، ولا مهم أشد الملامة ، وشرَّع لِنَبِيِّهِ ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق ، والإيمان ، والإقرار بما أنزل الله عليهم ، وما أنزل من قَبْلهم ، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس : ﴿ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ من قَبْل أنفسهم . وقال أبو العالية: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ من بعد ما تَبَيَّنَ أَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله ، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل ، فكفروا به حسداً وبغياً ، إذ كان من غيرهم ، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس)) .

إنَّ صُدُورَ اليهود تمتلئ بالحسد تجاه المؤمنين . وهم مُتَلَبِّسون بالحسدِ بسبب قلوبهم المريضة وخبثها لما هو قبيحٌ وكرهها للحق . واليهود كانوا شديدي الحرص على إرجاع المسلمين إلى عوالم الجاهلية والكفر . وهذا مرجعه إلى الحسد . فهم لا يريدون للآخرين أن يتمتعوا بنعمة الإيمان ، بل يَتَمَنُّونَ زوالَ هذه النعمة . وهذه الخصلة الذميمة سببها كراهية الإنسان كإنسان ، وتمني زوال النعمة عنه ، وهذا اتجاه مُضاد للأخوة بين البشر بوصفهم من أصل واحد . والحسد كسياسة منهجية هدفها تجريد الخصم من كُلِّ فضيلة ، والاستحواذ على النعم كاملةً لِيَسْتَهْلَ القضاء على الخصوم . وقد قادَّ الحسدُ اليهودَ إلى الكُفْرِ بالنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، بعد معرفتهم اليقينية بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ رسالته ٢٨٧ .

٢٨٧ الحسد نُوْعان : مذموم ومحمود . أمَّا المذموم فهو تمني زوال النعمة عن المسلم . وهذا النوع حرامٌ بالإجماع . وقد ذمَّه الله ووبَّخ أصحابه ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٤] . والحسدُ المذموم اعتراض على إرادة الله تعالى ، وطعنٌ في حكْمته ، واتِّهامٌ له سُبْحانَهُ بأنه يُعْطِي النعمة لغير المستحق . أمَّا الحسدُ المحمود فهو الوارد في الحديث ، قال النبي ﷺ : ((لا حَسَدَ إلا في اثنتين : رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرْآنَ فهو يتلوه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً فهو يُنْفِقُه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ)) [متفق عليه . البخاري (٦ / ٢٧٣٧) ، ومسلم (١ / ٥٥٨)] . وهذا الحسدُ المحمود إنما هو العِبْطَةُ ، أي أن يَتَمَنَّى المرءُ النعمة التي على غيره ، من غير زوالها عن صاحبها . إنَّ الحسدَ لا يكون =

وروى الطبري في تفسيره (١ / ٤٥٤) عن ابن زيد أنه قال : ((كانت يهود يَسْتَفْتِحُونَ على كُفَّار العرب يقولون : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ قَدَّ جَاءَ النَّبِيُّ ، الَّذِي بَشَّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى ، أَحْمَدُ ، لَكَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ ! ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ مِنْهُمْ ، وَالْعَرَبُ حَوْلَهُمْ ، وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، وَحَسَدُوهُ)) .

هذا يعكس خطورة اتِّباع الهوى المُضاد لاعتناق الحق، كما يدل على أن الحسد الذي يسيطر على اليهود في كل مراحل وجودهم يساهم بشكل فعَّال في صَرْفِهِمْ عن الحق . وَهُمْ سَعِيدُونَ بهذا طمعاً في تحقيق مصالح شخصية ، والحفاظ على مناصبهم . وهذا أبعدهم عن البناء الحضاري ، فاليهودُ لا يَمْلِكُونَ أَيَّةَ حضارة ، وليس لهم أي دور إيجابي في تاريخ البشرية . وَمَنْ يُعَارِضُ هذا الكلام عليه أن يُرِينَا " آثار الحضارة اليهودية " كي نزرورها ونستفيد منها ! . واليهودُ يَسْتَوْلُونَ على التراث الفلسطيني ومعالم الحضارة العربية الإسلامية ، وَيُسَجِّلُونَهَا باسمهم في المنظمات الدولية لأنهم لا يَمْلِكُونَ حضارةً، لذلك يَخْتَرَعُونَ حضارةً وهمية لهم عبر الاستيلاء على إنجازات الآخرين . إن المشكلة الأساسية في عُقول اليهود ، هي اعتبار أنفسهم الأحق بالثبوت من العرب ، وأنهم أرقى من العرب ، وأعلى منهم شأنًا . وتفكيرُ اليهود يتشابه إلى حد بعيد مع تفكير إبليس ، حيث إن إبليس اعتبر نفسه أفضل من آدم ﷺ ، وينبغي أن يحصل على امتيازات خاصة متناسبة مع هذه الأفضلية المزعومة . واليهودُ اعتبروا أنفسهم أفضل من العرب، ويجب أن يحصلوا على الثبوت ليتناسب ذلك مع مكانتهم الرفيعة المزعومة .

وبما أن الأمور قد تَمَّتْ ، وَظَهَرَتِ الثُّبُوتُ في العرب بعد أن شَرَّفَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بها، لم يجد اليهود وزعماءهم غير الحسد الذي يستلزم زوال النعمة عن الآخرين ، وحيَاة المؤامرات ، والتخطيط للمكائد ، وبذل الجهود من أجل رد الناس عن الإسلام . وقد صارت هذه الأفعال الدينية هي الغاية من وجود اليهود الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام بكل الوسائل . وقد نَصَّبُوا أنفسهم أعواناً للشيطان، وأعداءً للرحمن . وهذا يدل على الحقد الدفين الذي يُحْرِقُ قلوب اليهود ، ونار الحسد المُتَأَجِّجَةَ في صدورهم .

= محمودًا إلا في أمرين ، الأول : رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فهو يتلوه على الدوام ، ويستمر على ذلك في ساعات الليل والنهار ، والثاني: رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا حَالًا ، فهو يُنْفِقُهُ في البرِّ والطاعات في ساعات الليل والنهار .

وصدق الشاعر :

كُلُّ العداوةِ قد تُرتجى إِمَاتَتُهَا إلا عداوةَ مَنْ عَاداكَ مِنْ حَسَدِ
فإنَّ في القلبِ مِنْهَا عُقْدَةٌ عُقِدَتْ وليس يفتَحُها راقٍ إلى الأبدِ

وقال الغزالي في الإحياء (٣ / ١٨٩) : ((اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بِنعمة فلك فيها حالتان : إحداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تُسمى حسداً . فالحسدُ حُدُّه كراهة النعمة وحبُّ زوالها عن المنعم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها ، وهذه تُسمى غبطة)) .

وقد قال أحد الحكماء : ما رأيتُ أعدلَ من الحسد، بدأ بصاحبه ففضى عليه. وصدق القائل :

اصْبِرْ على حَسَدِ الحَسُودِ فإنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
كالنارِ تَأْكُلُ بَعْضُهَا إنْ لَمْ تَجِدْ ما تَأْكُلُهُ

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ((إن اليهود قومٌ سئموا دينهم ، وهم قومٌ حسد ، ولم يحسدوا المسلمين على أفضل من ثلاث : ردِّ السلام ، وإقامة الصُّفوف ، وقولهم خلفَ إمامهم في المكتوبة : آمين))^{٢٨٨} .

إن اليهود ملؤوا من دينهم القائم على الأهواء والخرافات والمصالح الشخصية والمنافع المادية، والحسد يُحرق قلوبهم ، ويُدمر حياتهم . وهم يحسدون المسلمين على مظاهر وخصائصهم وألفتهم التي تتجلى في شعائر دينهم وصلاتهم .

واليهود يتمنون زوال النعمة عن المسلمين ، لأنهم يعلمون أن المسلمين على الحق ، لذلك يحسدونهم على رد السلام ، لأن فيه دلالة واضحة على تماسك المجتمع الإسلامي ، ومثانة العلاقة بين المسلمين ، ووحدتهم صفتهم . ويحسدونهم على إقامة الصُّفوف في الصلاة ، لأنه دليل الإيمان والانضباط والقوة والوحدة والتماسك والتعاون . ويحسدونهم على قولهم خلف الإمام في الصلاة المفروضة : آمين ، لأن كلمة " آمين " دعاء خالص لله تعالى بالاستجابة بعد قراءة سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن ، والتي لم ينزل مثلها في كل الكُتب السماوية السابقة .

٢٨٨ رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١٤٦ / ٥) برقم (٤٩١٠) . وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١ / ١٩٤) . ووافقه الهيثمي في المجمع (٢ / ٢٨٨) .

ورفضُ الدِّين هو المُحرِّكُ الأساسِيُّ للحسد . وهذا يدل على أن اليهود يعيشون بلا وازع ديني ولا رادع أخلاقي . وحسدُهم عام وشاملٌ إلا أنه يتمحور بشكل خاص حول ثلاثة أمور وضَّحها الحديث ، تُشكِّل ظواهرَ الوَحدة والتماسك والتكافل في المجتمع الإسلامي المترابط . وهذا يُشير إلى حرص اليهود على تفریق المسلمين وتشثيتهم وتمزيق مُجتمعهم، وفُق قاعدة "فَرَّقْ تَسُدْ"، كي تَخْلُو لهم السَّاحة، ويَعيشوا في الأرضِ فسادًا دُونَ حساب أو عِقاب ، حَسَب رؤيتهم القاصرة . وعن عائشة عن النبي ﷺ قال : ((ما حَسَدَتْكُمْ اليَهُودُ على شيءٍ ما حَسَدَتْكُمْ على السَّلامِ والتَّأمينِ))^{٢٨٩}.

خَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الأُمَّةَ المُحمَّديةَ الإسلاميَّةَ بخصائصٍ تميَّزت بها عن غيرها مِنَ الأُمَّمِ في الخير والأجر ، مثل السَّلامِ والتَّأمينِ . وما حَسَدَتْ اليهودُ المُسلمينَ على شيءٍ ممَّا شَرَعَ لهم ما حَسَدَتْهم على إفشاء السَّلامِ فيما بينهم ، وذلك لِمَا فيه مِنَ إظهارِ المَحَبَّةِ والوُدِّ بين المسلمين بعضهم البعض، والرَّفْقِ فيما بينهم ، وقولهم : آمين ، خَلَفَ الإمام ، لِمَا عَلِمُوا من فضلها وبركتها . إِنَّ اليهودَ يَحْسُدُونَ المسلمينَ على شعائرِ دينهم ، وخُصُوصِيَّاتِ المسلمين ، ويُدْرِكُونَ أَنَّ اليهوديةَ ديانةٌ أرضيةٌ بشريةٌ باطلة ، وأنَّ الإسلامَ هو الحَقُّ والدِّينَ السَّماويُّ الوحيدَ . والسَّلامُ تَحِيَّةُ أهلِ الجَنَّةِ . والتَّأمينُ قولُ " آمين " ، أي : اللهمَّ اسْتَجِبْ .

وقال القرطبي في تفسيره (١ / ١٦٩) : ((قال عُلَماؤُنا _ رحمةُ اللهِ عليهم _ : إِنَّمَا حَسَدَنَا أَهْلُ الكِتَابِ ، لأنَّ أَوْلَها حَمْدُ اللهِ ، وتَناءَ عَلَيهِ ، ثُمَّ خُضُوعٌ له واستكانةٌ ، ثُمَّ دُعَاءٌ لنا بالهدايةِ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ ، ثُمَّ الدُّعَاءُ عَلَيهِم مَعَ قَوْلنا : آمين)) .

وقال المُنَاوي في فيضِ القدير (٥ / ٤٤٠) : ((ما حَسَدَتْكم اليهودُ على شيءٍ ما حَسَدَتْكم على السَّلامِ) الذي هو تَحِيَّةُ أهلِ الجَنَّةِ (والتَّأمينِ) قالوا: لِمَ تَكن آمين قَبْلَنا إلا لِمُوسى وهارون ، ذَكَرَهُ الحَكيمُ في نوادرِهِ . [تَنبِيهِ] ذَلَّ هذا الخَبَرُ على أَنَّ السَّلامَ مِنَ خُصُوصِيَّاتِ هذه الأُمَّةِ ، لَكنَّ تَقَدَّمَ في خَلْقِ آدمَ أَنَّ اللهُ جَعَلَهُ تَحِيَّةً لِآدمَ وَلِذُرِّيَّتِهِ ، ذَكَرَهُ الحافظُ ابنُ حجرٍ)) .

٢٨٩ رواه ابن ماجه في سننه (١ / ٢٧٨) ، وقال في الزوائد : ((هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٤) : ((وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه وصححه ابن خزيمة من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة مرفوعًا : " ما حَسَدَتْكم اليهودُ على شيءٍ ما حَسَدَتْكم على السَّلامِ والتَّأمينِ " . وهو يدلُّ على أنَّه شَرَعَ لهذه الأُمَّةِ دُوعَهُم)) .

وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال عن اليهود : ((... ، إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ ، كَمَا يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا ، وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى الْقَبِيلَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا ، وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ : آمِينَ)) ٢٩٠ .

إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَى الْيَهُودِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَتَرَكَوهُ ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ . وَقَدْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ ، وَهَدَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، الَّذِي ضَلَّ عَنْهُ الْيَهُودُ . وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْيَهُودِ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَتَرَكَوْهَا ، وَضَلُّوا عَنْهَا ، وَهَدَى اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ لَهَا . وَالْيَهُودُ جَعَلُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ قِبْلَةً لَهُمْ ، وَالْكَعْبَةُ أَفْضَلُ . وَاخْتَصَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ (الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ) بِقَوْلِ : آمِينَ ، خَلْفَ الْإِمَامِ ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، وَالثَّوَابِ الْجَزِيلِ ، وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ ، وَالتَّأْمِينِ عَلَى مَا قَرَأَهُ الْإِمَامُ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ، وَلَمْ يُنْمَحْ هَذَا الشَّرْفَ لِلْيَهُودِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ . وَالْيَهُودُ يَحْسُدُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُؤَخِّدُ الْمُسْلِمِينَ ، وَتُعْلِي شَأْنَهُمْ وَقَدَّرَهُمْ .

إِنَّ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ آخِرَ الْأُمَمِ زَمَنِيًّا ، لِكُنْهَ الْأُمَّةِ الْأُولَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَابِقَةَ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ . وَقَدْ حَازَتْ قَصَبَ السَّبْقِ ، بِأَنَّ حَصَلَتِ عَلَى فَضِيلَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ السَّابِقِ لِلْسَّبْتِ (عِيدِ الْيَهُودِ) وَالْأَحَدِ (عِيدِ النَّصَارَى) . كَمَا أَنَّهَا سَابِقَةٌ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ الَّتِي حُرِّمَ مِنْهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . وَقَدْ هَدَى اللَّهُ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَعَ تَأْخُرِهَا فِي الزَّمَنِ ، فِي حِينِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ضَلُّوا عَنْهُ ، مَعَ أَنَّهُمْ سَابِقُونَ زَمَنِيًّا . وَالطَّرِيقُ لِمَنْ صَدَقَ لَا لِمَنْ سَبَقَ .

وَالْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ حَصَلَتْ عَلَى فَضْلِ التَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ (الْقَبِيلَةِ الَّتِي تُؤَخِّدُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ، فِي حِينِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى حُرِّمُوا مِنْ هَذَا الْفَضْلِ ، وَلَمْ يُنْمَحُوا هَذَا الشَّرْفَ الرَّفِيعَ . وَالْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ تَقُولُ خَلْفَ الْإِمَامِ : آمِينَ (اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ) . وَهَذَا الْفَضْلُ حُرِّمَ مِنْهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى تَفُوقِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِلَا اسْتِثْنَاءٍ . وَالْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ حَصَلَتْ عَلَى هَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَالشَّرْفِ الْجَلِيلِ ، لِأَنَّهَا قَبِلَتْ كَلَامَ اللَّهِ بِلَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا تَغْيِيرٍ وَلَا تَلَاْعَبٍ ، وَسَارَعَتْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ بِلَا شَرِيكَ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالتَّزَمَتْ أَوَامِرَهُ ، وَاجْتَنَبَتْ نَوَاهِيَهُ ، فَكَافَأَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَعَظَّمَ قَدْرَهَا ، وَشَرَّفَ مَكَانَتَهَا ، وَأَعْلَى شَأْنَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَطَرَدَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَعَنَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ

٢٩٠ رواه أحمد في مسنده (١٣٤ / ٦) . وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٤٤١) : ((قال

العراقي : هذا حديث صحيح)) .

حَرَفُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَاعْتَنَقُوا الضَّلَالَ ، وَرَفَضُوا الْهَدَايَةَ .

وعن سَلَمَةَ بنِ سَلَامَةَ بنِ وَقْشٍ _ وكان من أصحابِ بَدْرٍ _ قال : كان لنا جَارٌ من يهود في بني عبد الأشهل ، قال : فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ بيسير ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، قال سَلَمَةُ : وأنا يومئذٍ أحدثُ مَنْ فِيهِ سِتًّا عَلَيَّ بُرْدَةٌ مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفَنَاءِ أَهْلِي ، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ وَالْمِيزَانَ وَالْحِنَةَ وَالنَّارَ ... فَقَالَ ذَلِكَ لِقَوْمِ أَهْلِ شِرْكَ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ ، لَا يَرَوْنَ أَنْ بَعَثْنَا كَائِنًا بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَقَالُوا لَهُ : وَيْحَكَ يَا فُلَانُ ، تَرَى هَذَا كَائِنًا أَنْ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ وَنَارٌ يُجْرَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ ؟ ، قال : نعم ، والذي يُخَلِّفُ بِهِ ، لَوْ دَدَّ أَنْ لَهُ بِحِظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمُ تَنْوُرٍ فِي الدُّنْيَا يُحْمَوْنَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطَبَّقُ بِهِ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا . قَالُوا لَهُ : وَيْحَكَ ، وَمَا آيَةُ ذَلِكَ ؟ ، قال : نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ ، قَالُوا : وَمَتَى تَرَاهُ ؟ ، قال : فَنَنْظُرُ إِلَيَّْ وَأَنَا مِنْ أَحَدِئِهِمْ سِتًّا ، فَقَالَ : إِنْ يَسْتَنْفِذُ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكُهُ . قال سَلَمَةُ : فواللَّهِ مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَأَمَّا بِهِ ، وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا ، فَقُلْنَا : وَيْلَكَ يَا فُلَانُ ، أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ ، قال : بلى ، وَلَيْسَ بِهِ ٢٩١ .

هذا يدلُّ على أن اليهود كان لديهم علم ومعرفة بالنبي مُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ ظُهُورِهِ ، إِذْ إِنَّ صِفَتَهُ مَوْجُودَةٌ فِي كُتُبِهِمُ الدِّينِيَّةِ ، وَهُمْ عَلَى اطِّلَاعٍ عَلَيْهَا . وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَأْمَلُونَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ ، وَلَيْسَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَلَمَّا ظَهَرَ مِنَ الْعَرَبِ كَفَرُوا بِهِ ، وَجَحَدُوا نُبُوَّتَهُ وَرِسَالَتَهُ ، بَغْيًا وَحَسَدًا . وَالْيَهُودُ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَرَبِ بِاعْتِبَارِهِمْ جَمَاعَاتٍ بَدْوِيَّةٍ مُتَخَلِّفَةٍ بِدَائِيَّةٍ هَمَجِيَّةٍ ، وَكَانُوا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ شَعْبَ اللَّهِ الْمُخْتَارِ ، وَصَفْوَةَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ ، وَالْأَحَقُّ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَتَلْقَى وَحْيَ السَّمَاءِ . لِذَلِكَ ، أَنْكَرُوا كُلَّ فَضِيلَةٍ لِلْعَرَبِ ، وَكَفَرُوا بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ عَرَبِيٌّ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، مَعَ عِلْمِهِمُ التَّامِّ بِصِدْقِهِ وَصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ . وَكُفَّرَ الْيَهُودُ قَائِمًا عَلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَلَمْ يَكُونُوا جَهْلًا أَوْ سَادَجِينَ ، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَتَكْذِيبِ آيَاتِ اللَّهِ ، وَجَحْدِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

((وروى يعقوب بن سُفْيَانَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ يَهُودِيًّا قَدْ سَكَنَ مَكَّةَ ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، هَلْ وُلِدَ فِيكُمْ اللَّيْلَةُ مَوْلُودٌ ؟ ،

٢٩١ رواه أحمد في مسنده (٤٦٧/٣). قال الحافظ في الفتح (٥٨٣/٦): ((صَحَّحَهُ ابْنُ جَبَّانٍ مِنْ طَرِيقِهِ)).

قالوا : لا نَعْلَمُ ، قال : فَإِنَّهُ وُلِدَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، بَيْنَ كَتْفَيْهِ عِلَامَةٌ ، لا يَرِضِعُ لَيْلَتَيْنِ لِأَنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِحْنِ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَمِهِ ، فإنصرفوا فسألوا ، فقيل لهم : قد وُلِدَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عُلَامٌ ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ مَعَهُمْ إِلَى أُمِّهِ فَأَخْرَجَتْهُ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَى الْيَهُودِيُّ الْعِلَامَةَ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، وَقَالَ : ذَهَبَتِ النَّبُوءَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَمَا وَاللَّهِ لَيَسْطُونَ بِكُمْ سَطْوَةً يَخْرِجُ خَبْرَهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)) ٢٩٢ .

كان اليهودُ على عِلْمٍ ومعرفةٍ بِمَبْعَثِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وكانوا يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْعَرَبِ ، أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، واحترقت قلوبهم بالحقد والحسد ، وهذا سبب كُفْرِهِمْ . وَإِذَا كَانَ الْيَهُودُ قَدْ قَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَمَاذَا سَيَفْعَلُونَ مَعَ النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ؟ .
وقال اللهُ تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] ٢٩٣ .

حَسَدَ الْيَهُودُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى النَّبُوءَةِ وَالرَّسَالَةِ وَتَلَقَّى وَحْيَ السَّمَاءِ ، وَحَسَدُوا أَصْحَابَهُ عَلَى نِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى وَالْمَجْدِ وَالْعِزَّةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ ، وَحَسَدُوا الْعَرَبَ لِأَنَّ النَّبُوءَةَ ظَهَرَتْ فِيهِمْ ، وَخَرَجَتْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَقَدْ شَرَّفَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالنَّبُوءَةِ ، وَأَعْلَى قَدْرَهُ وَشَأْنَهُ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَشَرَّفَ الْعَرَبَ بِأَنْ اخْتَارَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ أَنْبِيَاءِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَمْ يَخْتَرَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا سَبَبٌ حَقْدَ الْيَهُودِ وَحَسَدَهُمْ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

٢٩٢ أوردته الحافظ في الفتح (٦ / ٥٨٣) .

٢٩٣ قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١٠٩ و ١١٠) : ((سبب نزولها أن أهل الكتاب قالوا : يَرْغُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ أُوتِيَ مَا أُوتِيَ فِي تَوَاضُعٍ وَلَهُ تَسْعُ نِسْوَةٌ ، فَأَيُّ مُلْكٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا ؟ ، فَتَرَلْتُ ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي : ﴿ أَمْ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهَا بِمَعْنَى أَلْفِ الْاسْتِفْهَامِ ، قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ . وَالثَّانِي بِمَعْنَى بَلِّ ، قَالَهُ الرَّجَّاحُ ... وَالْحَاسِدُونَ هَاهُنَا الْيَهُودُ . وَفِي الْمِرَادِ بِالنَّاسِ هَاهُنَا أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا النَّبِيُّ ﷺ ، رَوَاهُ عَطِيَّةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ عِكْرَمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي : النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ . وَالثَّلَاثُ : الْعَرَبُ ، قَالَهُ قَتَادَةُ . وَالرَّابِعُ : النَّبِيُّ وَالصَّحَابَةُ ، ذَكَرَهُ الْمَآوَرِدِيُّ . وَفِي الَّذِي ﴿ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : إِبَاحَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ أَنْ يَنْكِحَ مَا شَاءَ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ عَدَدٍ ، رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ . وَالثَّانِي أَنَّهُ النَّبُوءَةُ ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ وَالرَّجَّاحُ ، وَالثَّلَاثُ : بَعْثَةُ نَبِيِّ مِنْهُمْ ، عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ : هُمْ الْعَرَبُ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨٣): ((يعني بذلك حسدَهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة. ومنعهم من تصديقهم إياه حسدَهم له لكونه من العرب ، وليس من بني إسرائيل)) .
 وقال الواحدي في الوجيز (١ / ٢٦٩) : ((حسدت اليهودُ مُحَمَّدًا عليه السلام على ما آتاه من النبوة ، وما أباح له من النساء ، وقالوا : لو كان نبياً لشغله أمرُ النبوة عن النساء)) .
 وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، قال ابن عباس : ((نحنُ الناسُ دُونَ الناسِ)) ٢٩٤ .

والمقصود بالآية ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ هو النبي مُحَمَّد ﷺ ، وهذا من باب تسمية الخاص باسم العام ، إشارة إلى أن النبي مُحَمَّد ﷺ جُمِعَتْ فيه كَمالات الأولين والآخِرِينَ وفضائلهم .
 إنَّ ظُهُورَ النبي مُحَمَّد ﷺ من العرب مَلَأَ صُدُورَ اليهودِ غَيْظًا وحَقْدًا ، فَتَمَنَّوْا زوالَ نعمةِ النبوةِ عن مُحَمَّد ﷺ وقومِهِ . وهذا الحسدُ دفعهم إلى تكذيب الدعوة الإسلامية ، وعدم تصديق القرآن ، واكتفائهم بالتوراة وموسى ﷺ _ على حد زعمهم _ . مع أنهم في حقيقة الأمر يسيرون ضد موسى ﷺ والكتاب الذي جاء به . والكفرُ بِمُحَمَّد ﷺ هو كُفْرٌ بِجميعِ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .
 والنبوةُ بِناءٍ مُتكامل أسسه اللهُ في الأرض لهداية الضائعين إلى الطريق المستقيم ، واللهُ يُساعد عباده حُبًّا لهم ، وتفضلاً عليهم ، وإحساناً إليهم ، وهو سبحانه غنيٌّ عنهم ، ولا يحتاجهم .
 ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ . حسدُ اليهودِ غير منطقي ولا مبرَّر ، فاللهُ أعطى أسلافَ اليهودِ مِن ذُرِّيَةِ النبيِّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ النبوةَ ، وأنزلَ عليهم الكتابَ ، وجعلَ مِن بني إسرائيلِ أنبياءَ ومُلُوكًا ، وجمَعَ النبوةَ والمُلُكَ العظيمَ لداودَ وسُلَيْمانَ _ عليهما الصلاة والسلام _ ، وكلاهما مِن أنبياءِ بني إسرائيلِ . فلماذا يَحْضُ اليهودُ مُحَمَّدًا ﷺ بالحسدِ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ أُنعمَ اللهُ عليهم ؟ . والآيةُ توبيخٌ شديدٌ لليهودِ بسببِ الحسدِ ، وردَ عليهم ، وفضح لباطلهم ، وإلزام لهم بما عرفوه من فضلِ اللهِ على آلِ إِبْرَاهِيمَ وبني إسرائيلِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ١١١) : ((قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ ﴾ يعني التوراة والإنجيل والزبور ، كُلُّهُ كان في آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وهذا النبيُّ مِن أولادِ إِبْرَاهِيمَ . وفي الحكمة قولان : أحدهما النبوةُ ، قاله السُّدي ومقاتل . والثاني الفقه في الدين ، قاله أبو سُليمانَ الدمشقي . وفي المُلُكِ العظيمِ خمسةُ أقوال : أحدها مُلُكُ سُليمانَ ، رواه عطية عن ابن

٢٩٤ رواه الطبراني (١١ / ١٤٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٢): ((وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف)) .

عباس . والثاني مُلك داود وسُلَيْمان في النَّساء ، كان لداود مائة امرأة، ولسُلَيْمان سبعمائة امرأة وثلاثمائة سُريّة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال السُّدي. والثالث التُّبُوّة، قاله مجاهد. والرابع التأييد بالملائكة ، قاله ابن زيد في آخرين . والخامس الجَمْع بين سياسة الدنيا وسُرْع الدِّين ، ذكره الماوردي)) .

إنَّ اليهود يَحْسُدون النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على التُّبُوّة وكثرة نِسائه ، وهذا أمرٌ غير منطقي ولا معقول ، فاللَّهُ اتَّخَذَ إبراهيمَ خليلًا، وأعطاه مُلكًا عظيمًا ، وكَلَّمَ موسى تكليمًا ، وأنزَلَ عليه التَّوراة، واختارَ عيسى ، وأنزَلَ عليه الإنجيلَ ، وجَعَلَهُ يُبرئ الأعمى والأبرصَ ويُحيي الموتى بإذن الله ، وأعطى داود مُلكًا عظيمًا ، وأنزَلَ عليه الرُّبُورَ ، وألَانَ له الحديدَ ، وسَخَّرَ له الجبالَ ، وكان لَدَيْهِ مائة امرأة ، وأعطى سُلَيْمان مُلكًا عظيمًا لا ينبغي لأحدٍ من بَعْدِهِ ، وسَخَّرَ له الجِنَّ والإنسَ والشياطينَ والرِّياحَ، وكان لَدَيْهِ ألف امرأة ، واختَصَّهم اللهُ جميعًا بالتُّبُوّة والرِّسالة . ثُمَّ بعد كُلِّ هذا، يَحْسُدُ اليهودُ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ على التُّبُوّة وتعدُّدِ الرُّوجات ! . هذا يدلُّ على ضلال اليهود .

وفي تفسير القرطبي (٥ / ٢٤١) : ((فإذا كان في النَّظَرِ والمَسِّ نوعٌ من قِضاءِ الشَّهْوَةِ ، قَلَّ الجِمَاعُ ، والمُتَّقِي لا يَنْظُرُ ولا يَمَسُّ ، فتكون الشَّهْوَةُ مُجْتَمِعَةً في نَفْسِهِ، فيكون أكثرَ جِمَاعًا . وقال أبو بكر الوَرَّاق : كُلُّ شَهْوَةٍ تُقَسِّي القلبَ إلا الجِمَاعُ، فإنه يُصَفِّي القلبَ ، ولهذا كان الأنبياءُ يفعلون ذلك)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح : ١٥] .

سَيَقُولُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الحُدَيْبِيَّةِ، إذا انطَلَقْتُمْ إلى غنائمِ خَيْبَرَ لِتَحْضُلُوا عَلَيْهَا : اتركونا نَخْرُجْ معكم إلى خَيْبَرَ ، ونَشْهَدْ معكم قِتالَ أهلها ، يُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا وَعَدَ اللهُ الذي وَعَدَهُ لأهل الحُدَيْبِيَّةِ مِنْ جَعْلِ غنائمِ خَيْبَرَ لهم خاصَّةً لا يُشاركهم فيها أحد. فَصَدُّوا أَنْ يُجِيزَ لهم النبيُّ ﷺ ما يُخَالِفُ أمرَ اللهِ فيكون تَبْدِيلًا لأمره . قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ : لَنْ تَتَّبِعُونَا إلى خَيْبَرَ ، كَذَلِكُمْ حَكَمَ اللهُ بأنْ غَنِيمةِ خَيْبَرَ لِمَنْ شَهِدَ الحُدَيْبِيَّةَ ، لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ فيها نصيب ، فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنَا أَنْ نُصِيبَ معكم مِنَ الغنائمِ فَقُلْتُمْ ذلك ، والمعنى : لَيْسَ هذا حُكْمُ اللهِ ، وَلَمْ يَأْمُرْكُم اللهُ بذلك ، وَلَكِنَّ الحَسَدَ يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُشَارِكُوا الغنائمَ. قال اللهُ رَدًّا عليهم : بَلْ كَانُوا لَا يَفْهَمُونَ إِلَّا فِهْمًا قَلِيلًا ، وهو حِرْصُهُمْ على الغنائمِ ، وَفِطْنَتُهُمْ لأُمُورِ الدُّنْيَا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٢٤٢) : ((يقول تعالى مُحَبَّرًا عَنِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُمْرَةِ الْخُدَيْبِيَّةِ ، إِذْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ _ إِلَى خَيْبَرَ يَفْتَحُونَهَا أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مَعَهُمْ إِلَى الْمَغَنَمِ ، وَقَدْ تَخَلَّفُوا عَن وَقْتِ مُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالِدَتِهِمْ وَمُصَابِرَتِهِمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ لَا يَأْذَنَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مُعَاقَبَةً لَهُمْ مِنْ جِنْسِ ذَنْبِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ أَهْلَ الْخُدَيْبِيَّةِ بِمَغَانِمٍ خَيْرٍ وَخَدَّهِمْ ، لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ الْمُتَخَلِّفِينَ ، فَلَا يَقَعُ غَيْرُ ذَلِكَ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﷻ ﴾ ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَجُوَيْرِ : وَهُوَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَ بِهِ أَهْلَ الْخُدَيْبِيَّةِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أَي : وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الْخُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ سُؤَالِكُمُ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أَي : أَنْ نَشْرُكُكُمْ فِي الْمَغَانِمِ ، ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أَي : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا ، وَلَكِنْ لَا فَهْمَ لَهُمْ)) .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٠٢) : ((﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْخُدَيْبِيَّةِ ﴾ إِذَا انْطَلَقْتُمْ ﴾ سِرْتُمْ وَذَهَبْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ يَعْنِي غَنَائِمَ خَيْبَرَ ﴾ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ إِلَى خَيْبَرَ ، لِتَشْهَدَ مَعَكُمْ قِتَالَ أَهْلِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ الْخُدَيْبِيَّةِ وَعَدَهُمُ اللَّهُ فَتَحَ خَيْبَرَ ، وَجَعَلَ غَنَائِمَهَا لِمَنْ شَهِدَ الْخُدَيْبِيَّةَ خَاصَّةً عَوَضًا عَنِ غَنَائِمِ أَهْلِ مَكَّةَ إِذْ انْصَرَفُوا عَنْهُمْ عَلَى صَلْحٍ ، وَلَمْ يُصِيبُوا مِنْهُمْ شَيْئًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﷻ ﴾ ، ... ، يُرِيدُونَ أَنْ يُغَيِّرُوا مَوَاعِيدَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْخُدَيْبِيَّةِ بِغَنِيمَةِ خَيْبَرَ خَاصَّةً ﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ إِلَى خَيْبَرَ ، ﴿ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ مَرْجِعِنَا إِلَيْكُمْ أَنَّ غَنِيمَةَ خَيْبَرَ لِمَنْ شَهِدَ الْخُدَيْبِيَّةَ ، لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ فِيهَا نَصِيبٌ ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ ، أَي : يَمْنَعُكُمْ الْحَسَدُ مِنْ أَنْ تُصِيبَ مَعَكُمْ الْغَنَائِمَ ، ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لَا يَعْلَمُونَ عَنِ اللَّهِ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ مِنْهُمْ ، وَهُوَ مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ وَالرَّسُولَ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الْفَلَقُ : ٥] .

يجب اللجوء إلى الله ، والاستعاذة به من شر الحاسد الذي يتمتمنى زوال النعمة ، ويرفض قضاء الله وقدره وقسمته . ومجرد الحسد لا يضر المحسود ، وإنما يضر الحاسد ، ويحرق قلبه ، ويؤدب أعصابه . لذلك تم تقييد الآية ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ . يعني : إذا أظهر الحاسد ما في نفسه من الحسد ، وحوّل الحسد إلى إجراء على أرض الواقع ، لجلب الضرر للمحسود ، ومحاولة إبدائه ، والإساءة إليه . وتخصيص الحسد بالذكر ، لأنه منبع الأضرار النفسية والمشكلات الاجتماعية .

وتكبير ﴿ حَاسِدٍ ﴾ لأنه ليس كل حاسد يضر ويؤذي . والحاسد الذي يضر ويؤذي هو الذي يسعى في الفساد والأذى . وَخُتِمَتِ السُّورَةُ بِذِكْرِ الْحَسَدِ لِيَبَانَ أَنَّهُ الْأَشَدُّ سُوءًا وَضَرًّا ، وَأَنَّهُ أَخْسَ الطَّبَاعِ وَأَقْدَرُ الصِّفَاتِ . والحاسدُ مكروه مطرود . والحسدُ أولُ معصية عُصِيَ اللَّهُ بِهَا فِي السَّمَاءِ ، حَيْثُ حَسَدَ إِبْلِيسُ آدَمَ ﷺ ، فَرَفِضَ السُّجُودَ لَهُ . وَالْحَسَدُ أَيْضًا ، أَوَّلُ مَعْصِيَةٍ فِي الْأَرْضِ ، حَيْثُ حَسَدَ قَابِيلُ أَخَاهُ هَابِيلَ فَقَتَلَهُ . وَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيُخَمِّمَهُ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ الَّذِي يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ ، وَيَتَرَبَّصَ بِالنَّاسِ ، حَيْثُ يُرَاقِبُ أُمُورَهُمْ وَشُؤُونَهُمْ ، وَيَتَمَنَّى لَهُمُ الشَّقَاءَ وَالنَّعَاسَةَ ، وَأَنْ تَبْتَعِدَ السَّعَادَةُ عَنْ حَيَاتِهِمْ . وَهَذَا الْعَدُوُّ الْمُسْتَرْتَبِغِي التَّحْصُنِ مِنْ شَرِّهِ بِالْأُورَادِ الشَّرْعِيَّةِ . أَمَّا الْاسْتِسْلَامُ لَهُ ، وَاتِّخَاذُهُ شِمَاعَةً تُعَلَّقُ عَلَيْهَا كُلُّ الْمَصَائِبِ الَّتِي تُحَاصِرُ الْإِنْسَانَ ، فَهَذَا مِنْ شَأْنِهِ تَوْلِيدَ حَالَةٍ مَرَضِيَّةٍ مَهْوُوسَةٍ تَضْرِبُ الْمُجْتَمَعَ ، وَتَشُلُّ حَرَكَتَهُ ، وَتَبْتُ فِيهِ الْخَوْفُ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((... ، وَلَا تَحَاسَدُوا)) ٢٩٥ .

وَلَا يَتَمَنَّى أَحَدٌ مِنْكُمْ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ غَيْرِهِ . وَالْحَسَدُ : تَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ حَرَامٌ .

وقد حثت الشريعة على الإصلاح بين المسلمين ، وتوطيد الأخوة والاجتماع بينهم ، ونهت عن كل ما يدعو إلى الفرقة والتباغض والعداوة .

وفي تحفة الأحوذى (٥٥ / ٦) : ((وَلَا تَحَاسَدُوا) أَي : لَا يَتَمَنَّى بَعْضُكُمْ زَوَالَ نِعْمَةٍ بَعْضُ ، سِوَاءَ أَرَادَهَا لِنَفْسِهِ أَوْ لَا)) .

وفي صحيح مسلم (١٧١٩ / ٤) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ عن النبي ﷺ قال : ((الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاعْسِلُوا)) ٢٩٦ .

٢٩٥ متفق عليه . البخاري (٢٢٥٣ / ٥) برقم (٥٧١٧) ، ومسلم (١٩٨٢ / ٤) برقم (٢٥٥٨) .
٢٩٦ هذا يدل على أن القدر عقيدة ثابتة ، وكل الأشياء إنما تقع وفق إرادة الله ومشيئته وحكمته ، على الصورة التي يريد الله تعالى ، ولا يقع في ملكه إلا ما شاء . ولا يُصاب الإنسان بشيء أو سوء إلا بقدر الله تعالى . والحديث يدل على أن الإصابة بالعين حق وحقيقة ، وأنها شديدة الخطورة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧٤ / ١٤) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ " ، فِيهِ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ ، وَهُوَ حَقٌّ بِالنُّصُوصِ وَإِجْمَاعِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا يَقْدَرُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى حَسَبِ مَا قَدَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَبَقَ بِهَا عِلْمُهُ ، فَلَا يَقَعُ ضَرَرُ الْعَيْنِ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، إِلَّا يَقْدَرُ اللَّهُ تَعَالَى . وَفِيهِ صِحَّةُ أَمْرِ الْعَيْنِ ، وَأَنَّهَا قُوَّةُ الضَّرَرِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفِيَةَ الْعِلَاجِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَسَدِ بِالرُّقِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ ، لِمَا لِلْعَيْنِ مِنْ تَأْثِيرٍ ، وَقَدْ تُسَبَّبُ الضَّرَرُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَقَدْ حَذَّرَ الشَّرْعُ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا .
 إِنَّ الْإِصَابَةَ بِالْعَيْنِ شَيْءٌ ثَابِتٌ مَوْجُودٌ ، وَالْعَيْنُ : آفَةٌ تُصِيبُ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوَانَ نَتِيجَةً نَظَرَةَ الْعَائِنِ (الشَّخْصَ الَّذِي يُصِيبُ بِعَيْنِهِ) ، فَيُؤَثِّرُ فِيهِ ، فَيَمْرُضُ أَوْ يَهْلِكُ بِسَبَبِهِ . وَلَوْ أَمَكَّنَ أَنْ يَسْبِقَ الْقَدَرَ شَيْءٌ ، فَيُؤَثِّرُ فِي إِفْنَاءِ شَيْءٍ وَزَوَالِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ الْمُقَدَّرِ لَهُ ، لَكَانَ هَذَا الشَّيْءُ الَّذِي يَسْبِقُ الْقَدَرَ هُوَ الْعَيْنُ ، لِعَظِيمِ أَثَرِهَا وَخَطَرِهَا . وَالْحَدِيثُ جَرَى مَجْرَى الْمُبَالَغَةِ فِي إِثْبَاتِ الْعَيْنِ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَزِدَّ الْقَدَرَ شَيْءٌ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

ثُمَّ وَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى تَعَاوُنِ الْمُسْلِمِ مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي دَفْعِ ضَرَرِ الْعَيْنِ وَأَثَرِهَا لِمَنْ أُصِيبَ بِهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنْ يُؤَمَّرَ الْعَائِنُ فَيَغْسِلُ أَطْرَافَهُ وَمَا تَحْتَ الْإِزَارِ ، فَيُصَبُّ الْمَاءُ الْمُغْتَسَلُ بِهِ عَلَى الْمَعْيُونِ ، يَسْتَشْفُونَ بِذَلِكَ . وَقَدْ أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَلَّا يَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِغْتِسَالِ إِذَا أُرِيدَ مِنْهُمْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُنْكِرَ الْخَوَاصَّ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ ، وَيَسْتَبْعِدَهَا مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ شَهِدَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَأَمَرَ بِهَا .

وَفِي الْحَدِيثِ : إِثْبَاتُ الْعَيْنِ ، وَأَنَّهَا حَقٌّ ، وَبَيَانُ كَيْفِيَةِ التَّدَاوِيِّ مِنْهَا .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٤ / ١٧١) : ((قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَازَرِيُّ : أَخَذَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَقَالُوا : الْعَيْنُ حَقٌّ . وَأَنْكَرَهُ طَوَائِفٌ مِنَ الْمُتَدَبِّعَةِ ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى فِسَادِ قَوْلِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَعْنَى لَيْسَ مُخَالَفًا فِي نَفْسِهِ ، وَلَا يُؤَدِّي إِلَى قَلْبِ حَقِيقَةٍ ، وَلَا إِفْسَادٍ دَلِيلٍ ، فَإِنَّهُ مِنْ مُجَوِّزَاتِ الْعُقُولِ إِذَا أَخْبَرَ الشَّرْعُ بِوُقُوعِهِ وَجَبَّ اعْتِقَادُهُ ، وَلَا يَجُوزُ تَكْذِيبُهُ . وَهَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ تَكْذِيبِهِمْ بِهَذَا وَتَكْذِيبِهِمْ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ؟ . قَالَ : وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الطَّبَائِعِيِّينَ مِنَ الْمُثْبِتِينَ لِلْعَيْنِ أَنَّ الْعَائِنَ تَبِعَتْ مِنْ عَيْنِهِ قُوَّةٌ سُمِّيَتْ تَتَّصِلُ بِالْعَيْنِ فَيَهْلِكُ أَوْ يَفْسُدُ ، قَالُوا : وَلَا يَمْتَنِعُ هَذَا كَمَا لَا يَمْتَنِعُ انْبِعَاثُ قُوَّةِ سُمِّيَةٍ مِنَ الْأَفْعَى وَالْعَقْرَبِ تَتَّصِلُ بِاللَّدِيغِ فَيَهْلِكُ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْسُوسٍ لَنَا ، فَكَذَا الْعَيْنِ . قَالَ الْمَازَرِيُّ : وَهَذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ ، لِأَنَّ بَيْنَنَا فِي كُتُبِ عِلْمِ الْكَلَامِ أَنْ لَا فَاعِلَ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَبَيْنَنَا فِسَادَ الْقَوْلِ بِالطَّبَائِعِ ، وَبَيْنَنَا أَنَّ الْمُحَدَّثَ لَا يَفْعَلُ فِي غَيْرِهِ شَيْئًا ، وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا بَطَلَ مَا قَالُوهُ ، ثُمَّ نَقُولُ : هَذَا الْمُنْبَعِثُ مِنَ الْعَيْنِ إِمَّا جَوْهَرٌ وَإِمَّا عَرَضٌ ، فَبَاطِلٌ أَنْ يَكُونَ عَرَضًا لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْإِنْتِقَالَ ، وَبَاطِلٌ أَنْ يَكُونَ جَوْهَرًا لِأَنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَجَانِسَةٌ ، فَلَيْسَ بَعْضُهَا بِأَنْ يَكُونَ مُفْسِدًا لِبَعْضِهَا بِأَوْلَى مِنْ عَكْسِهِ ، فَبَطَلَ مَا قَالُوهُ قَالَ الْقَاضِي : فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْهِ مَا قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِي إِذَا عُرِفَ أَحَدٌ بِالْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ

أن يُجْتَنَبَ وَيُتَحَرَّزَ مِنْهُ ، وَيَنْبَغِي لِلْإِمَامِ مَنْعُهُ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ ، وَيَأْمُرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ ، فَإِنْ كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ، وَيَكْفُفُ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَضَرَرُهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ أَكْلِ الثُّومِ وَالْبَصَلِ الَّذِي مَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ دُخُولَ الْمَسْجِدِ لِقَلَا يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمَجْذُومِ الَّذِي مَنَعَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الْإِخْتِلَاطَ بِالنَّاسِ. وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَّاتِ مِنَ الْمَوَاشِي الَّتِي يُؤْمَرُ بِتَغْرِيبِهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَتَأَذَى بِهِ أَحَدٌ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هَذَا الْقَائِلُ صَحِيحٌ مُتَعَيَّنٌ، وَلَا يُعْرَفُ عَنْ غَيْرِهِ تَصْرِيحًا بِإِخْلَافِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)).

وقال المناوي في فيض القدير (٤ / ٣٩٦ و ٣٩٧) : ((العَيْنُ) أي الإصابة بالعَيْنِ (حَق) أي كائن مقضي به في الوضْع الإلهي لا شبهة في تأثيره في النفوس والأموال . قال القرطبي : هذا قول عامة الأمة ومذهب أهل السنة ، وأنكره قوم مبتدعة ، وهم محجوجون بما يُشاهد منه في الوجود ، فكَمَ مِنْ رَجُلٍ أَدْخَلْتَهُ الْعَيْنُ الْقَبْرَ ، وَكَمَ مِنْ جَمَلٍ أَدْخَلْتَهُ الْقَدْرَ ، لَكِنْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مُعْرُضٍ عَنِ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ ، فَتَمَسَّكَ بِاسْتِعَادٍ لَا أَسْلَ لَه ، فَإِنَّا نَشَاهِدُ مِنْ خَوَاصِّ الْأَحْجَارِ ، وَتَأْوِيلِ السَّحَرِ ، مَا يَقْضِي مِنْهُ الْعَجَبُ ، وَتَحَقُّقُ أَنَّ ذَلِكَ فِعْلٌ مُسَبَّبٌ كُلُّ سَبَبٍ (وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ) بِالتَّحْرِيكِ ، أَي : لَوْ أَمَكْنَ أَنْ يَسْبِقَ شَيْءٌ الْقَدْرَ فِي إِفْنَاءِ شَيْءٍ وَزَوَالِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ الْمُقَدَّرِ لَهُ (لَسَبَقْتَهُ) أَي الْقَدْرَ (الْعَيْنُ) لَكِنَّهَا لَا تَسْبِقُ الْقَدْرَ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْرَ الْمَقَادِيرِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ التَّقْدِيرِ خُلِقُوا . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فَقَوْلُهُ : " وَلَوْ كَانَ " مُبَالَغَةً فِي تَحْقِيقِ إِصَابَةِ الْعَيْنِ ، تَجْرِي مَجْرَى التَّمْثِيلِ ، إِذْ لَا يَرُدُّ الْقَدْرَ شَيْءٌ ، فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ سَابِقِ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَنُقُودِ مَشِيئَتِهِ ، وَلَا زَادَ لِأَمْرِهِ ، وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ : لَا طَلْبُكَ وَ لَوْ تَحْتَ الشَّرَى ، وَ لَوْ صَعِدَتِ السَّمَاءُ ، فَأَجْرَى الْحَدِيثِ مَجْرَى الْمُبَالَغَةِ فِي إِثْبَاتِ الْعَيْنِ ، لِأَنَّ الْقَدْرَ لَمْ يَرُدَّهُ شَيْءٌ . وَقَالَ الْقَاضِي : مَعْنَاهُ أَنَّ إِصَابَةَ الْعَيْنِ لَهَا تَأْوِيلٌ ، وَلَوْ أَمَكْنَ أَنْ يُعَاجِلَ الْقَدْرَ شَيْءٌ فَيُؤَثِّرَ فِي إِفْنَاءِ شَيْءٍ وَزَوَالِهِ قَبْلَ أَوَانِهِ الْمُقَدَّرِ لَسَبَقْتَهُ الْعَيْنُ (وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَأَعْتَسِلُوا) خِطَابٌ لِمَنْ يُتَهَمُ بِأَنَّهُ عَائِنٌ ، أَي إِذْ أَمَرَ الْعَائِنَ بِمَا اعْتِيدَ عِنْدَهُمْ مِنْ غَسْلِ أَطْرَافِهِ ، وَمَا تَحْتَ إِزَارِهِ ، وَيَصُبُّ غَسَّالَتَهُ عَلَى الْمَعْيُونِ ، فَلْيَفْعَلْ نَدْبًا ، وَقِيلَ : وَجُوبًا . وَبِتَعَيَّنِ الْمَصِيرِ إِلَيْهِ عِنْدَ خَوْفِ مَحْذُورِ بِالْمَعَانِ ، وَغَلَبَ عَلَى الظَّنِّ بُرُؤُهُ بِالْإِغْتِسَالِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَمَا يُؤْخَذُ تَرْيَاقَ لِسْمِ الْحَيَّةِ مِنْ لَحْمِهَا ، يُؤْخَذُ عِلَاجَ هَذَا مِنْ أَثَرِ النَّفْسِ الْغَضَبِيَّةِ وَأَثَرِ تِلْكَ الْعَيْنِ كَشُعْلَةِ نَارٍ أَصَابَتْ الْجَسَدَ ، فَفِي الْإِغْتِسَالِ إِطْفَاءُ لِتِلْكَ الشُّعْلَةِ ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ، وَبِهِ يُعْرَفُ أَنَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ الْمَازِي مِنْ أَنَّهُ تَعَبُدِي إِنَّمَا هُوَ لِخَفَاءِ وَجْهِ الْحِكْمَةِ عَلَيْهِ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : وَهَذَا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ مَنْ أَنْكَرَهُ ، وَلَا مَنْ فَعَلَهُ بِقَصْدِ التَّجْرِبَةِ . [تَنْبِيهِ] عَدُّوا مِنْ خِصَائِصِ نَبِيِّنَا الْإِسْتِغْسَالِ مِنَ الْعَيْنِ ، وَأَنَّهُ يَدْفَعُ ضَرَرَهَا)) .

والجدير بالذكر أنَّ هناك فرقاً بين الحَسَدِ والعَيْنِ ، فالحَسَدُ أَعْمُ مِنَ الْعَيْنِ ، فَكُلُّ عَائِنٍ حَاسِدٌ ،
وَلَيْسَ كُلُّ حَاسِدٍ عَائِنًا . والحاسد قد يَحْسُدُ ما لَمْ يَرَهُ ، والعائِنُ لا يَعْينُ إلا ما يَرَاهُ والموجود
بالفعل . والعائِنُ حَاسِدٌ خاص ، وهو أَضْرُّ مِنَ الحَاسِدِ . وقد ذُكِرَ الحَاسِدُ دُونَ العَائِنِ فِي الآيَةِ :
﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ، لِأَنَّهُ أَعْمُ . وَإِذَا اسْتَعَاذَ الْعَبْدُ مِنْ شَرِّ الحَسَدِ ، دَخَلَ فِيهِ الْعَيْنُ ،
وهذا مِنْ شُمُولِ القُرْآنِ الكَرِيمِ وإِعْجَازِهِ وَبِلاغَتِهِ .

وقال القُرطبي في تفسيره (٢٤٠ / ٢٠) : ((معنى الحَسَدِ تَمَنِّي زوالِ نِعْمَةِ المَحْسُودِ ، وَإِنْ
لَمْ يَصِرْ للحاسدِ مِثْلُهَا . والمُنَافَسَةُ هِيَ تَمَنِّي مِثْلُهَا ، وَإِنْ لَمْ تَزُلْ . فَالحَسَدُ شَرٌّ مَدْمُومٌ ، والمُنَافَسَةُ
مُبَاحَةٌ ، وَهِيَ العِطَّةُ قُلْتُ : قال العلماء : الحاسد لا يَصُرُّ إلا إِذَا ظَهَرَ حَسَدُهُ بِفِعْلِ أَوْ
قَوْلٍ ، وَذَلِكَ بِأَن يَحْمِلَهُ الحَسَدُ عَلَى إِيقَاعِ الشَّرِّ بِالمَحْسُودِ ، فَيَتَّبِعُ مَسَاوِيَهُ وَيَطْلُبُ عَثْرَاتِهِ
هذه سُورَةُ [يعني الفَلَقَ] ذَالَّةٌ عَلَى أَنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَالِقُ كُلِّ شَرٍّ ، وَأَمَرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ
جَمِيعِ الشُّرُورِ ، فَقَالَ : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ، وَجَعَلَ خَاتِمَةَ ذَلِكَ الحَسَدِ تَنْبِيْهَا عَلَى عَظَمَةِ وَكَثْرَةِ
ضَرَرِهِ ، وَالحاسدِ عَدُوِّ نِعْمَةِ اللّٰهِ . قال بعضُ الحُكَمَاءِ : بَارَزَ الحاسدُ رَبَّهُ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجِهٍ : أَحَدُهَا
أَنَّهُ أَبْغَضَ كُلَّ نِعْمَةٍ ظَهَرَتْ عَلَى غَيْرِهِ . وَثَانِيهَا أَنَّهُ سَاخِطٌ لِقِسْمَةِ رَبِّهِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لِمَ قَسَمْتَ هَذِهِ
القِسْمَةَ ؟ ، وَثَالِثُهَا أَنَّهُ ضَادٌّ فِعْلًا لِلّٰهِ ، أَي أَنَّ فَضْلَ اللّٰهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ يَبْخُلُ بِفَضْلِ اللّٰهِ .
وَرَابِعُهَا أَنَّهُ خَدَلُ أَوْلِيَاءِ اللّٰهِ أَوْ يُرِيدُ خِدْلَانَهُمْ ، وَزوالِ النِّعْمَةِ عَنْهُمْ . وَخَامِسُهَا أَنَّهُ أَعَانَ عَدُوَّهُ إبليسَ .
وَقِيلَ : الحاسد لا يَنَالُ فِي المَجَالِسِ إِلا نِدَامَةً ، وَلا يَنَالُ عِنْدَ المَلَائِكَةِ إِلا لَعْنَةً وَبِغضَاءً ، وَلا يَنَالُ فِي
الْخُلُوةِ إِلا جَزَعًا وَعَمًّا ، وَلا يَنَالُ فِي الآخِرَةِ إِلا حُرْنًا وَاحْتِرَاقًا ، وَلا يَنَالُ مِنَ اللّٰهِ إِلا بُعْدًا وَمَقْتًا)) .

وَصَدَقَ القَائِلُ : أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي
أَسَأْتَ عَلَى اللّٰهِ فِي حُكْمِهِ
فَأَخْرَاكَ رَبِّي بِأَن زَادَنِي
أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبُ
لَأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ
وَسَدَّ عَلَيْكَ وَجُوهَ الطَّلَبِ

٤٤ _ مَنَعَ الخَيْرِ

قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : ﴿ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٌ ﴾ [ق : ٢٥] .

كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة (يعنى الزكاة المفروضة وكل حق واجب) ، لا يبذل
خيرًا ، ظالم لا يُقَرُّ بتوحيد اللّٰهِ ، شاك في الحق والدين ، ومعناه : داخل في الريب . وقال ابن
كثير في تفسيره (٢٨٨ / ٤) : ((﴿ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ ﴾ أَي : لا يُؤَدِّي ما عَلَيْهِ مِنَ الخُقوقِ ، وَلا يَبْرُ
فِيهِ وَلا صِلَةَ وَلا صَدَقَةَ ، ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أَي : فِيمَا يُنْفِقُهُ وَيَصْرِفُهُ يَتَجَاوَزُ فِيهِ الحَدَّ . وَقَالَ قَتَادَةُ : مُعْتَدٍ

في مَنْطِقِهِ وَسَيَرِهِ وَأَمْرِهِ ﴿ مُرِيبٌ ﴾ أي : شاك في أمره ، مُرِيبٌ لِمَنْ نَظَرَ فِي أَمْرِهِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٧ / ٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ ﴾ فِي الْمُرَادِ بِالْخَيْرِ هَاهُنَا ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ ، قَالَه قَتَادَةُ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الْإِسْلَامُ ، يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ ، قَالَه الصَّحَّاحُ وَمُقَاتِلٌ . وَذَكَرَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ مَنَعَ بَنِي أَخِيهِ عَنِ الْإِسْلَامِ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ عَامٌ فِي كُلِّ خَيْرٍ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ ، حَكَاهُ الْمَاورِدِيُّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي : ظالم لا يَقْرُرُ بِالتَّوْحِيدِ ﴿ مُرِيبٌ ﴾ أي : شاك في الحق ، مِنْ قَوْلِهِمْ أَرَابَ الرَّجُلُ : إِذَا صَارَ ذَا رَيْبٍ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ﴾ [الْقَلَمُ : ١٢] .

بخيل بالمال عن الخُقوق ، أَوْ مَنَعَ لِلنَّاسِ مِنَ الْخَيْرِ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ ، مُتَجَاوِزٌ فِي الظُّلْمِ ، كَثِيرُ الدُّنُوبِ وَالْآثَامِ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣٣٢ / ٨) : ((﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ ﴾ فِيهِ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَنَعَ وَلَدَهُ وَعَشِيرَتَهُ الْإِسْلَامَ ، قَالَه ابن عباس . وَالثَّانِي مَنَعَ لِلْخُوقِ فِي مَالِهِ ، ذَكَرَهُ الْمَاورِدِيُّ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ أي ظُلُومٌ ﴿ أَثِيمٌ ﴾ فَاجِرٌ)) .

وقال الشَّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣٧٦ / ٥) : ((﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ ﴾ أي : بخيل بالمال لا يُنْفِقُهُ فِي وَجْهِهِ . وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ . قَالَ الْحَسَنُ : يَقُولُ لَهُمْ : مَنْ دَخَلَ مِنْكُمْ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ لَا أَنْفَعَهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ، ﴿ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ﴾ أي مُتَجَاوِزِ الْحَدِّ فِي الظُّلْمِ ، كَثِيرِ الْإِثْمِ)) .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٌ (١٣) ﴾ [سُورَةُ الْقَلَمِ] ، فَقَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : ((أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَاعٍ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعْفَاءُ الْمَعْلُوبُونَ)) ٢٩٧ .

أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ (فَظٌ غَلِيظٌ مُتَكَبِّرٌ) جَوَاطٍ (جَمُوعٌ مُنَوَّعٌ ، وَقِيلَ : الْكَثِيرُ اللَّحْمِ الْمُخْتَالُ فِي مِشِيَّتِهِ ، وَقِيلَ : الْقَصِيرُ الْبَطِينُ) مُسْتَكْبِرٌ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، جَمَاعٌ لِلْمَالِ بِحِرْصٍ وَنَهْمٍ وَلَا يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ . وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الْمُتَوَاضِعُونَ الْخَاضِعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسْتَضَعِفُهُمْ وَيَحْتَقِرُهُمْ . وَالحَدِيثُ يَحْضُّ عَلَى التَّوَاضُعِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَيُحَدِّدُ مِنَ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُؤَدِّي بِصَاحِبِهَا إِلَى النَّارِ ، كَالتَّكْبَرِ وَنَحْوِهِ .

وقال المُنَاوِيُّ فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٦٧ / ٣) : ((أَهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ) أي : فَظٌ غَلِيظٌ مُتَكَبِّرٌ أَوْ جَسِيمٌ عَظِيمٌ أَكُولٌ (جَوَاطٍ) أي جَمُوعٌ مُنَوَّعَةٌ أَوْ صَخْمٌ مُخْتَالٌ فِي مِشِيَّتِهِ أَوْ صِيَّاحٌ مُهَدَّرٌ

٢٩٧ رواه الحاكم في المستدرک (٥٤١ / ٢) برقم (٣٨٤٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(مُسْتَكْبِرٌ) أي مُتَعَاظِمٌ مُرْتَفِعٌ تِيهَا وَعُجْبًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] ، (وَأَهْلُ الْجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ) أي : هُمُ الْمُتَوَاضِعُونَ الْخَاضِعُونَ ضِدَّ الْمُتَكَبِّرِينَ الْأَشْرِينَ ، فَهُمُ الضُّعَفَاءُ عَنِ حَمْلِ التَّكَبُّرِ ، وَأَدْنَى النَّاسِ بِمَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ قُوَّةِ بَدَنٍ ، وَعَنِ الْمَعَاصِي (الْمُغْلَبُونَ) بِشَدِّ اللَّامِ الْمَفْتُوحَةِ ، أَي : الَّذِينَ كَثِيرًا مَا يُغْلَبُونَ ، وَالْمُغْلَبُ الَّذِي يُغْلَبُ كَثِيرًا ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ فِي هَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَغَيْرِهَا)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [الْمَعَارِجُ : ٢١] .

وَإِذَا كَثُرَ مَالُ الْإِنْسَانِ ، وَصَارَ يَتَقَلَّبُ فِي الْغِنَى وَرَعْدَ الْعَيْشِ ، فَإِنَّهُ يَتَسَلَّحُ بِالْبُخْلِ وَالْمَنَعِ وَالْإِمْسَاكِ ، فَلَا يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، وَلَا يُحَاوِلُ مُسَاعَدَةَ الْآخِرِينَ . وَالْإِنْسَانُ إِذَا أَصَابَهُ الْفَقْرُ جَزَعٌ ، وَلَمْ يَصْبِرْ ، وَإِذَا أَصَابَهُ الْغِنَى فَرِحَ ، وَلَمْ يُنْفِقْ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِ ، وَعَدَمِ تَمَتُّعِهِ بِبُعْدِ النَّظَرِ . إِنَّهُ يَغْرَقُ فِي اللَّحْظَةِ الْآئِنَةِ ، وَلَا يُفَكِّرُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ . وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ لِلْإِنْسَانِ هِيَ حَقَائِقُ وَاقِعِيَّةٌ ، وَطِبَائِعُ جُبِلَ عَلَيْهَا ، وَهَكَذَا خُلِقَ . وَفِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ (٢٢٣ / ١) : ((قَالَ ابْنُ كَيْسَانَ : خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ يُحِبُّ مَا يَسْرُهُ ، وَيَهْرَبُ مِمَّا يَكْرَهُ ، ثُمَّ تَعَبَّدَهُ بِإِنْفَاقِ مَا يُحِبُّ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَا يَكْرَهُ)) .

وَقَالَ الشُّوكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٤٠٩ / ٥) : ((قَالَ الْوَاحِدِيُّ وَالْمُفَسِّرُونَ : يَقُولُونَ : تَفْسِيرُ الْهَلَعِ مَا بَعْدَهُ ، يَعْنِي قَوْلُهُ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) ﴾ ، أَي : إِذَا أَصَابَهُ الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ أَوْ الْمَرَضُ ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ، فَهُوَ جَزُوعٌ ، أَي كَثِيرُ الْجَزَعِ ، وَإِذَا أَصَابَهُ الْخَيْرُ مِنَ الْغِنَى وَالْخَصْبِ وَالسَّعَةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَهُوَ كَثِيرُ الْمَنَعِ وَالْإِمْسَاكِ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : الْهَلُوعُ هُوَ الَّذِي إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ لَمْ يَشْكُرْ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ لَمْ يَصْبِرْ . قَالَ ثَعْلَبٌ : قَدْ فَسَّرَ اللَّهُ الْهَلُوعَ ، هُوَ الَّذِي إِذَا أَصَابَهُ الشَّرُّ أَظْهَرَ شِدَّةَ الْجَزَعِ ، وَإِذَا أَصَابَهُ الْخَيْرُ بَخَلَ بِهِ وَمَنَعَهُ النَّاسَ)) .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٥٤٢ / ٤) : ((يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْإِنْسَانِ ، وَمَا هُوَ مَجْبُولٌ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيَّةِ : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ ، أَي : إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ فَرِحَ وَجَزَعُ وَانخَلَعَ قَلْبُهُ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ ، وَأَيْسَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ ، أَي : إِذَا حَصَلَتْ لَهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ ، بَخَلَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ ، وَمَنَعَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا)) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الْمَاعُونَ : ٧] . هَذَا ذِمٌّ لِلَّذِينَ يَمْنَعُونَ النَّاسَ الْمَنَافِعَ الْبَسِيطَةَ وَالْحَاجَاتِ الصَّغِيرَةَ النَّافِهَةَ . وَأَصْلُ الْمَاعُونَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَنَفَعَتِهِ .

إنهم يرفضون مُساعدة الناس بالحاجات اليسيرة كالإبرة والدُّلو والقِدْر والفأس والملح والماء وغيرها . ومن كان يخيلاً بهذه الأشياء الصغيرة ، فهو أشدُّ بُخلًا بالأشياء الكبيرة . ومن رَفَضَ إعارة الناس هذه المنافع اليسيرة مع عودتها إليه ، فَمِنَ الطبيعي أن لا يُخْرِجَ الزكاة ولا الصدقات . والآية تُحذِّرُ من رَفَضِ مُساعدة الناس بمال أو منفعة ، وفيها ترهيب من البُخل بهذه الأشياء البسيطة الصغيرة، فإن البُخل بها هو أسوأ أنواع البُخل، وهو مُخِلٌ بالمُرُوعة والشرف والكرامة . وقد ذَمَّ اللهُ هذه الصِّفة السيئة (مَنَعَ المَاعُونَ) ، ووَصَفَ أصحابها بِقِلَّةِ النفع للناس ، وهذه أسوأ صِفة .

وقال ابن كثير في تفسيره(٤ / ٧١٨): ((وقوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ ﴾ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما يُنتفع به ، ويُستعان به مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القُرْبَاتِ أَوْلَى وأَوْلَى)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ٢٤٥ و ٢٤٦) : ((وفي المَاعُونَ سِتَّةُ أقوال : أحدها أنه الإبرة والماء والنار والفأس، وما يكون في البيت من هذا النَّحْوِ ، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ، وإلى نحوه ذهب ابن مسعود ، وابن عباس في رواية ، وروى عنه أبو صالح أنه قال : المَاعُونَ المعروف كُلهُ ، حتى ذَكَرَ القِدْرَ والقَصْعَةَ والفأس . وقال عكرمة : ليس الويل لِمَن مَنَعَ هذا ، إنما الويل لِمَن جَمَعَهُنَّ فَرَأَى في صلاته ، وَسَهَا عنها ، وَمَنَعَ هذا . قال الرَّجَّاح : والمَاعُونَ في الجاهلية كُلُّ ما كان فيه منفعة ، كالفأس والقِدْرَ والدُّلو والقِدَّاحَة ، ونَحْو ذلك . وفي الإسلام أيضًا . والثاني أنه الزكاة ، قاله عليُّ وابن يَعْمَر والحسن وعكرمة وقَتَادَة . والثالث أنه الطاعة ، قاله ابن عباس في رواية . والرابع المال ، قاله سعيد بن المُسَيَّب والرُّهْرِي . والخامس المعروف ، قاله محمد بن كعب . والسادس الماء ، ذَكَرَهُ القُرَّاء عن بعض العرب)) .

وقد قال ابن عباس _ رضي اللهُ عنه _ في تفسير ﴿ وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ ﴾ : ((العَارِيَّة)) ٢٩٨ .

وقال ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ في تفسير " المَاعُونَ " : ((ما يتعاون الناس بَيْنَهُمْ)) ٢٩٩ .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي اللهُ عنهما _ عن النبي ﷺ قال: ((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ)) ٣٠٠ .

٢٩٨ رواه الطبراني في الكبير (١٢ / ٢٢) . قال الهيثمي في المجمع (٧ / ٣٠٠): ((رجاله رجال الصحيح)) .

٢٩٩ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٩٣) برقم (٣٣٧٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٠٠ متفق عليه . البخاري (٥ / ٢٢٤١) برقم (٥٦٧٥) ، ومسلم (٢ / ٦٩٧) برقم (١٠٠٥) .

والمعروف: كُلُّ شَيْءٍ عُرِفَ فِيهِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى . وَمَنْ فَعَلَهُ كَانَ ثَوَابُهُ كَثَوَابَ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْمَالِ .
 أَيِ إِنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ ، كَانَ ثَوَابُهُ كَثَوَابَ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْمَالِ .
 والمعروفُ هو ما تَقْبَلُهُ الْأَنْفُسُ ، وَلَا تَجِدُ مِنْهُ نَكِيرًا مِنْ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ ، فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَى
 فَاعِلِهِ ، وَلَهُ أَجْرُهُ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْ صَدَقَةِ الْأَمْوَالِ ، بَلْ مِنْ صَدَقَةِ الْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ ٣٠١ .
 وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧ / ٩١) : ((قَوْلُهُ ﷺ : " كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ ")
 أَي : لَهُ حُكْمُهَا فِي الثَّوَابِ ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَحْتَقِرُ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَبْخَلَ بِهِ ،
 بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَحْضُرَهُ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٢) : (((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ) أَي : كُلُّ مَا يُفْعَلُ مِنْ
 أَنْوَاعِ الْبِرِّ وَثَوَابُهُ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْمَالِ . وَالْمَعْرُوفُ لُغَةً : مَا عُرِفَ . وَشَرَعًا ، قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ : الطَّاعَةُ .
 وَلَمَّا تَكَرَّرَ الْأَمْرُ بِالصَّدَقَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَالَتْ إِلَيْهَا الْقُلُوبُ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ كُلَّ طَّاعَةٍ مِنْ قَوْلٍ ،
 أَوْ فِعْلٍ ، أَوْ بَذْلِ صَدَقَةٍ ، يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُتَصَدِّقُونَ ، حَتَّى مِنْهُ لِلْكَافَّةِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْمَرْءِ
 طاقته . وَسُمِّيَتْ صَدَقَةً لِأَنَّهَا مِنْ تَصَدِيقِ الْوَعْدِ بِنَفْعِ الطَّاعَةِ عَاجِلًا وَثَوَابِهَا آجِلًا)) .

٤٥ _ الْبُغْضُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾
 [المائدة : ٢] .

٣٠١ قال المناوي في فيض القدير (٥ / ٣٣) : (((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ) قَالَ الْقَاضِي : الْمَعْرُوفُ فِي
 اصْطِلَاحِ الشَّارِعِ مَا عُرِفَ حُسْنُهُ بِالشَّرْعِ . وَبِإِزَائِهِ الْمُنْكَرُ ، وَهُوَ مَا أَنْكَرَهُ وَحَرَّمَهُ . وَقَالَ الرَّاعِبُ :
 الْمَعْرُوفُ اسْمٌ لِكُلِّ مَا عُرِفَ حُسْنُهُ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ مَعًا ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْاِقْتِصَادِ لِثُبُوتِ النَّهْيِ عَنِ السَّرْفِ .
 وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ : يُطْلَقُ الْمَعْرُوفُ عَلَى مَا عُرِفَ بِأَدْلَةِ الشَّرْعِ أَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الْبِرِّ جَزَتْ بِهِ الْعَادَةُ أَمْ لَا ...
 [تنبیه] قال الماوردي: المعروف نوعان: قَوْلٌ وَعَمَلٌ ، فَالْقَوْلُ طَيِّبُ الْكَلَامِ ، وَحُسْنُ الْبِشْرِ ، وَالتَّوَدُّدُ بِجَمِيلِ
 الْقَوْلِ ، وَالباعث عليه حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَرِقَّةُ الطَّبَعِ ، لَكِنْ لَا يُسْرَفُ فِيهِ فَيَكُونُ مَلَقًا مَذْمُومًا ، وَإِنْ تَوَسَّطَ
 واقتصد فهو بَرٌّ محمود . وَفِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ : " مَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ أَجْبَأُوه " . وَالْعَمَلُ بِذَلِّ الْجَاهِ ، وَالِإِسْعَافُ
 بِالنَّفْسِ ، وَالْمَعُونَةُ فِي النَّائِبَةِ ، وَالباعث عليه حُبُّ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ ، وَإِثَارُ الصَّلَاحِ لَهُمْ ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ
 سَرْفٌ ، وَلَا لَغَايَتُهَا حَدٌّ ، بِخِلَافِ الْأَوَّلَى ، فَإِنَّمَا وَإِنْ كَثُرَتْ أَفْعَالُ تَعُودُ بِنَفْعَيْنِ ، نَفْعٌ عَلَى فَاعِلِهَا فِي
 اِكْتِسَابِ الْأَجْرِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ ، وَنَفْعٌ عَلَى الْمُعَانَ بِهَا فِي التَّخْفِيفِ وَالْمُسَاعَدَةِ ، فَلِذَلِكَ سَمَّاهُ هُنَا صَدَقَةً)) .

ولا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ (أَهْلِ مَكَّةَ) كانوا قد صَدُّوكُم عن المَسْجِدِ الحَرَامِ عامِ الحُدَيْبِيَّةِ ،
على أَنْ تَعْتَدُوا عَلَيْهِم بِالانتِقامِ مِنْهُم بِالْحاقِ مَكْرُوهِ بِهِمْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٢٧٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ قال ابن عباس :
لا يَحْمِلَنَّكُمْ ، وقال غَيْرُهُ : لا يُدْخِلَنَّكُمْ فِي الجُرْمِ . والشَّنَانُ البُغْضُ . فِي مَعْنَى الكَلَامِ قَوْلانِ :
أحدهما ولا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ صَدُّوكُم عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا فِيهِ فَتُقَاتِلُوهُمْ
وتأخذوا أموالهم إذا دخلتموه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ أَهْلِ مَكَّةَ
وصَدُّهُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْتَدُوا بِإِتيانِ ما لا يَحِلُّ لَكُمْ مِنَ العَارةِ على المُعْتَمِرِينَ مِنَ المُشْرِكِينَ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٥) : ((لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ قَوْمٍ قد كانوا صَدُّوكُم عَنِ
الْوُصُولِ إلى المَسْجِدِ الحَرَامِ ، وذلك عامِ الحُدَيْبِيَّةِ ، على أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ ، فَتَقْتَصُوا
مِنْهُم ظُلْمًا وَعُدْوانًا ، بل احْكُمُوا بما أَمَرَكم اللَّهُ بِهِ مِنَ العَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ . وهذه الآية كما سَيَأْتِي
مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي : لا يَحْمِلَنَّكُمْ
بُغْضُ قَوْمٍ على تَرْكِ العَدْلِ ، فَإِنَّ العَدْلَ واجبٌ على كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حالٍ . وقال
بعضُ السَّلَفِ : ما عَامَلتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ . والعَدْلُ به قامتِ السَّمَاوَاتُ
والأَرْضُ . وقال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ عَفَّانَ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ زَيْدِ
ابنِ أَسْلَمَ ، قال : كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بالحُدَيْبِيَّةِ وأصحابُهُ حينَ صَدَّهُمُ المُشْرِكُونَ عَنِ البَيْتِ . وقد
اشتَدَّ ذلكَ عَلَيْهِمْ ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنَسُ بْنُ المُشْرِكِينَ مِنَ أَهْلِ المَشْرِيقِ يُرِيدُونَ العُمْرَةَ ، فقال أصحابُ
النَبِيِّ ﷺ : نَصُدُّهُ هؤُلاءِ كما صَدَّنا أصحابُهُمْ ، فأنزَلَ اللَّهُ هذه الآيةَ . والشَّنَانُ هُوَ البُغْضُ ، قاله ابن
عباسٍ وَغَيْرُهُ)) .

وقالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨] .
لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُ الأَعْداءِ الكُفَّارِ على تَرْكِ العَدْلِ فِيهِمْ ، والاعتداء عَلَيْهِمْ ، والنَّيْلُ مِنْهُم
لعداوتِهِمْ ، اعدِلُوا فِي أوليائِكُمْ وأعدائِكُمْ ، إِنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى مِنَ الظُّلْمِ ، لأنَّ العادِلَ مُطِيعٌ
لِلَّهِ تَعَالَى ، والمُطِيعُ مِنَ أَهْلِ التَّقْوَى ، أمَّا الظالمُ فهو عاصٍ لِلَّهِ تَعَالَى ، والعاصي بعيدٌ عَنِ التَّقْوَى .
أَوْ : إِنَّ العَدْلَ أَقْرَبُ لِأَنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ ، أَوْ لِأَنَّ تَتَّقُوا النَّارَ . وإذا كانَ وُجُوبُ العَدْلِ مَعَ الأَعْداءِ
الكُفَّارِ بهذه القُوَّةِ ، فما الظنُّ بوجوبِ العَدْلِ مَعَ المومنين الذين هُم أولياءُ اللَّهِ تَعَالَى ؟ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٠٣) : ((لا يَحْمِلَنَّكُمْ شِدَّةُ بُغْضِكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ على تَرْكِ
العَدْلِ فِيهِمْ ، فَتَعْتَدُوا عَلَيْهِم بارتكابِ ما لا يَحِلُّ ، كَمِثْلَةِ وَقْدِ وَقْتِ نِساءٍ وَصِيبَةِ وَنَقْضِ عَهْدِ

تَشْفِيًا مِمَّا فِي قُلُوبِكُمْ ، ﴿ اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ ، أي : العَدْلُ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . صرَّحَ لَهُمْ بِالْأَمْرِ بِالْعَدْلِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ بِمَكَانٍ مِنَ التَّقْوَى ، بَعْدَمَا نَهَاهُمْ عَنِ الْجَوْرِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ مُقْتَضَى الْهَوَى . وَإِذَا كَانَ هَذَا لِلْعَدْلِ مَعَ الْكُفَّارِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْعَدْلِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ؟) .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ [الْكُوْثَرُ : ٣] .

إِنَّ عَدُوَّكَ وَمُبْغِضَكَ يَا مُحَمَّدَ ، وَمُبْغِضَ مَا جِئْتَ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ ، هُوَ الْأَقْلُ الْأَذْلُ الْمُنْقَطِعُ ذِكْرُهُ ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ عَقَبٌ (وَوَلَدٌ) . وَقِيلَ : الْمُنْقَطِعُ عَنِ كُلِّ خَيْرٍ . وَالآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، سَمَّى النَّبِيَّ ﷺ أَبْتَرَ عِنْدَ مَوْتِ ابْنِهِ الْقَاسِمِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ٧٢١) : ((الْأَبْتَرُ الَّذِي إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ ، فَتَوَهَّمُوا لَجْهَلِهِمْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ بَنُوهُ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ . وَحَاشَا وَكَلَا ، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَأَوْجَبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ الْآبَادِ إِلَى يَوْمِ الْمَحْشَرِ وَالْمَعَادِ)) .

نُلاحِظُ مِنْ خِلَالِ سِيَاقِ الْأَعْتِدَاءِ اللَّفْظِيِّ مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ عَلَى الْمَقَامِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ أَنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ الطَّعْنَ فِي النَّبِيِّ ﷺ عَنْ طَرِيقِ النَّيْلِ مِنْ تَارِيخِهِ الْأَسْرِيِّ ، وَوَضَعَهُ الْعَائِلِي . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَجْزِهِمْ عَنِ مُقَارَعَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، وَتَقْدِيمِ الْبِرَاهِينِ الْعَقْلَانِيَّةِ الْمُنْطَقِيَّةِ ، لِذَلِكَ تَنَاوَلُوا وَضَعَهُ الْأَسْرِيَّ بِالْإِنْتِقَاصِ ، لِأَنَّهُ ﷺ قَدْ مَاتَ أَبْنَاؤُهُ الدُّكُورُ فِي حَيَاتِهِ .

وَوُجُودُ الْأَبْنَاءِ بِالِغَايَةِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَذُو مَرَكِزِيَّةٍ عَشَائِرِيَّةٍ فِي الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ ، وَقَدْ اعْتَقَدُوا _ لَجْهَلِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ _ أَنَّهُمْ نَاجِحُونَ فِي طَعْنِهِمْ ، لَكِنَّ الْأَمْرَ ارْتَدَّ عَلَيْهِمْ خُسْرَانًا ، وَلَمْ يَتَأَثَّرِ الْمَقَامُ النَّبَوِيُّ السَّمَامِيُّ بِهَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الطَّائِشَةِ الْحَاقِدَةِ الَّتِي لَا مَنُطِقَ لَهَا .

وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١ / ٥٣٦) : ((﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ إِنَّ مَنْ أَبْغَضَكَ لِيُبْغِضَهُ اللَّهُ ﴿ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ الَّذِي لَا عَقَبَ لَهُ ، إِذْ لَا يَبْقَى لَهُ نَسْلٌ ، وَلَا حُسْنَ ذِكْرٍ . وَأَمَّا أَنْتَ فَتَبْقَى ذُرِّيَّتَكَ وَحُسْنَ صِيَّتِكَ وَأَثَارَ فَضْلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَكَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْوَصْفِ)) .

وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٥ / ٧١٦) : ((﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أَي : إِنَّ مُبْغِضَكَ هُوَ الْمُنْقَطِعُ عَنِ الْخَيْرِ عَلَى الْعُمُومِ ، فَيَعُمُّ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، أَوِ الَّذِي لَا عَقَبَ لَهُ ، أَوِ الَّذِي لَا يَبْقَى ذِكْرُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْعُمُومِ ، وَأَنَّ هَذَا شَأْنُ كُلِّ مَنْ يُبْغِضُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ كَوْنُ سَبَبِ التُّزُولِ هُوَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ، فَالاعتبارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ . قِيلَ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ الدُّكُورُ مِنْ أَوْلَادِ الرَّجُلِ قَالُوا : قَدْ بُتِرَ فُلَانٌ ، فَلَمَّا مَاتَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمُ ، خَرَجَ أَبُو جَهْلٍ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : بُتِرَ مُحَمَّدٌ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . وَقِيلَ : الْقَاتِلُ بِذَلِكَ

عُقْبَةُ بن أَبِي مُعَيْطٍ . قال أهل اللغة : الأبتَرُ مِنَ الرِّجَالِ : الذي لا وَلَدَ له . ومن الدَّوَابِّ : الذي لا ذَنْبَ له . وكُلُّ أمرٍ انقطعَ مِنَ الخَيْرِ أثرُهُ فهو أبتَرٌ . وأصلُ البتْرِ القَطْعُ . يُقالُ : بترتُ الشَّيْءَ بترًا : قَطَعْتُهُ)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بن الأَشْرَفِ مَكَّةَ أَتَوْهُ ، فقالوا : نَحْنُ أَهْلُ السَّقَايَةِ والسَّدَانَةِ ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصُّنَيْبِيُّ المُنْتَبِرُ مِنْ قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟، فقال : أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ . فنزلَ على رَسولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ ٣٠٢ . كانَ كَعْبُ بن الأَشْرَفِ شاعِرًا مِنَ يَهُودِ العَرَبِ ، وكانَ يَهْجُو النَّبِيَّ ﷺ ، ويُحَرِّضُ عليه كُفَّارَ قُرَيْشٍ . ولَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بن الأَشْرَفِ مَكَّةَ جاءه أَهْلُ مَكَّةَ ، فقالوا : نحنُ أَهْلُ السَّقَايَةِ والسَّدَانَةِ ، أَي : نتولَّى ونَمْلِكُ سَقَايَةَ الحَجِيجِ ، ونَحْدُمُ الكعْبَةَ وما فيها ، ونتولَّى أُمُورَها ، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ ، وهو اسمُ المدينة النبوية القديم في الجاهليَّةِ ، فَهَلْ دِينُنا وما نَحْنُ عليه أَفْضَلُ أَمْ دِينُ مُحَمَّدٍ وما هو عليه ؟ ، والصُّنَيْبِيُّ : الأبتَرُ الذي لا عَقِبَ له ، والمُنْتَبِرُ : المُنْقَطِعُ المُنفردُ ، فأخبرهم أَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فنزلت على النَّبِيِّ ﷺ الآيةُ : ﴿ إِنَّ شَانِكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

إِنَّ كَارِهَكَ وَعَدُوَّكَ وَمُبْغِضَكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ المَقْطُوعُ والمُبْعَدُ عن رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، وهو المُنفردُ الوحيدُ . والأبتَرُ : مَنْ ماتَ أولادُهُ الدُّكُورَ ، فَلَمَّا ماتَ أبناءُ النَّبِيِّ ﷺ ، قالوا له : الأبتَرُ ، فَتَوَهَّمُوا _ لجهلهم وضلالهم _ أَنَّهُ إذا ماتَ أبناؤُهُ انقطعَ ذِكْرُهُ . وفي الحديث : بيانُ تَأْيِيدِ اللَّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَنَصْرِهِ له على عَدُوِّهِ .

لقد سألَ المُشْرِكُونَ كَعْبَ بن الأَشْرَفِ (طاغوت اليهود) أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ ، مَنْ صاحِبُ الخَيْرِ والفَضْلِ . المُشْرِكُونَ قَدَّمُوا أَنفُسَهُمْ باعتبارهم أَهْلُ سَقَايَةِ الحَجِيجِ ، وخِدْمَةِ الكعْبَةِ ، وقد كانت السَّقَايَةُ لبني هاشم ، والسَّدَانَةُ (خِدْمَةُ الكعْبَةِ) لبني عبد الدار . واعتبروا النَّبِيَّ ﷺ أبتَرَ لا وَلَدَ له ولا أَخَ ، وإذا ماتَ انقطعَ ذِكْرُهُ . فَحَكَّمَ اليهوديُّ كَعْبُ بن الأَشْرَفِ الحاقِدُ على الإسلامِ والكارهُ للنَّبِيِّ ﷺ بأنَّ المُشْرِكِينَ عِبَادُ الأصنامِ أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ حاملِ رسالةِ التَّوْحِيدِ ، وأعظمِ الأنبياءِ والمرسلين . وهذا يدلُّ على حِقْدِ اليهود على الإسلامِ ، وكُرْهِهِم للحقِّ ، وبُغْضِهِم للهدى ، وتلاعِبِهِم بالعَرَبِ الوثنيين الجاهلين .

٣٠٢ رواه ابن جَبَّان في صحيحه (١٤ / ٥٣٤) برقم (٦٥٧٢) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٧٢١) : ((رواه البَزَّاز ، وهو إسناد صحيح)) .

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].
 أرسل الله إليهم الرُّسُلَ لأنه عادل لم يكن ليُعَذِّبَ قَوْمًا بِذُنُوبِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ
 رَسُولًا . إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَى بِظُلْمٍ (بِشْرِكَ) وَهُمْ غَافِلُونَ لَمْ يُرْسِلْ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يُبَيِّنُ لَهُمْ ،
 وَيُنَبِّهُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُعَاجِلُ قَوْمًا بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا
 يُنَبِّهُهُمْ عَلَى حُجُجِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ لَا يَأْخُذُهُمْ عَفْلَةً بِلَا تَنْبِيهِ ،
 وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ ، وَفَضْلِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٣٩) : ((إِنَّمَا أَعَدَرْنَا إِلَى الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ، وَإِنزَالِ
 الْكِتَابِ ، لِئَلَّا يُؤَاخِذَ أَحَدٌ بِظُلْمِهِ وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ ، وَلَكِنْ أَعَدَرْنَا إِلَى الْأُمَّمِ ، وَمَا عَدَبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ
 إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ)) اهـ . وقال البغوي في تفسيره (١ / ١٩٠) : ((﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ أي : ذلك الذي فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ وَعَذَابِ مَنْ كَذَّبَهُمْ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ
 مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ [أي : لَمْ يَكُنْ مُهْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ] ، أي : بِشْرِكَ مَنْ أَشْرَكَ ﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾
 لَمْ يُنْذِرُوا حَتَّى نَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يُنْذِرُونَهُمْ . وقال الكلبي : لَمْ يُهْلِكْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَأْتِيَهُمُ الرَّسُولُ . وقيل : معناه لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكْهُمْ دُونَ التَّنبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرَّسُولِ فَيَكُونُ قَدْ ظَلَمَهُمْ ،
 وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَجْرَى السُّنَّةِ أَنْ لَا يَأْخُذَ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ وَجُودِ الذَّنْبِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مُذْنِبًا إِذَا أَمَرَ
 فَلَمْ يَأْتِمِرْ ، وَنُهِيَ فَلَمْ يَنْتَهَ ، يَكُونُ ذَلِكَ بَعْدَ إِذْأَارِ الرَّسُولِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٢٣٧) : ((لَمْ أَكُنْ أَهْلِكَ الْقُرَى بِسَبَبِ ظُلْمٍ مِنْ يَظْلِمُ
 مِنْهُمْ ، وَالْحَالُ أَنَّ أَهْلَهَا غَافِلُونَ ، لَمْ يُرْسَلِ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا . والمعنى : أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ الرَّسُولَ إِلَى
 عِبَادِهِ ، لِأَنَّهُ لَا يُهْلِكُ مَنْ عَصَاهُ بِالْكَفْرِ مِنَ الْقُرَى ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِعْذَارِ وَالْإِنذَارِ
 بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ ، وَإِنزَالِ الْكِتَابِ ، بَلْ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ إِسْرَائِلِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ ، وَارْتِفَاعِ الْعَفْلَةِ عَنْهُمْ
 بِإِنذَارِ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] . وقيل : المعنى :
 مَا كَانَ اللَّهُ مُهْلِكَ أَهْلِ الْقُرَى بِظُلْمٍ مِنْهُ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ ، بَلْ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ أَنْ
 يَسْتَحِقُّوا ذَلِكَ ، وَتَرْتَفِعَ الْعَفْلَةُ عَنْهُمْ بِإِرْسَالِ الْأَنْبِيَاءِ . وقيل : المعنى : أَنَّ اللَّهَ لَا يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَى
 بِسَبَبِ ظُلْمٍ مَنْ يَظْلِمُ مِنْهُمْ مَعَ كَوْنِ الْآخِرِينَ غَافِلِينَ عَنِ ذَلِكَ ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
 وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤])) .

وقال الله تعالى : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

فانتقم الله منهم بإغراقهم في البحر ، بسبب تكذيبهم آيات الله ، وإعراضهم عنها ، وكانوا لا يتدبرونها ، ولا يفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، حتى صاروا كالغافلين عنها .
وقال ابن كثير في تفسيره (٣٢٣ / ٢) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوْا وَتَمَرَّدُوا ، مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ ، انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَّقَهُ لِمُوسَى ، فَجَاوَزَهُ وَبَنَى إِسْرَائِيلَ مَعَهُ ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى أَثَرِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ، ارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ ، فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَتَعَافُلِهِمْ عَنْهَا)) .
وقال الشوكاني في فتح القدير (٣٤٧ / ٢) : ((﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أَي : أَرَدْنَا الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ لَمَّا نَكَّثُوا بِسَبَبِ مَا تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أَي : فِي الْبَحْرِ . قِيلَ : هُوَ الَّذِي لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ . وَقِيلَ : هُوَ لُجَّتُهُ وَأَوْسَطُهُ . وَجُمِلَهُ ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ تَعْلِيلًا لِلْإِغْرَاقِ ، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ مَعْطُوفًا عَلَى ﴿ كَذَّبُوا ﴾ . أَي : كَانُوا غَافِلِينَ عَنِ النَّقْمَةِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِانْتِقَامِنَا ، أَوْ عَنِ الْآيَاتِ الَّتِي لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، بَلْ كَذَّبُوا بِهَا ، وَكَانُوا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْغَافِلِينَ عَنْهَا . وَالثَّانِي أَوْلَى ، لِأَنَّ الْجُمْلَتَيْنِ تَعْلِيلٌ لِلْإِغْرَاقِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
أخرج الله ذرية آدم ﷺ بعضهم من ظهور بعض مثل الدرر _ ما عدا الذين ليس لهم أولاد بسبب العقم أو عدم الزواج أو الموت صغيرا _ ، وأخذ عليهم العهد والميثاق بأنه خالقهم الذي لا شريك له ، فأقرؤوا بذلك ، والتزموه .

وفي الآية دلالات عميقة ، فكلمة ﴿ رَبُّكَ ﴾ تشمل على ضمير المخاطب . وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ تعظيم له وتكريم ، وبدل على أن محمدا ﷺ هو عبد الله المخلص المخلص .
وأيضاً ، إن الله لم يذكر " ظهر آدم " ، لأن جميع الناس هم أبنائه ، فلا حاجة لذكره .

وقال الطبري في تفسيره (١١٠ / ٦) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ رَبَّكَ إِذْ اسْتَخْرَجَ وَوَلَدَ آدَمَ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ ، فَقَرَّرَهُمْ بِتَوْحِيدِهِ ، وَأَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ شَهَادَتَهُمْ بِذَلِكَ ، وَإِقْرَارَهُمْ بِهِ)) اهـ . وفي صفة التفاسير (٥٢ / ٤) : ((لِلْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ ، أَخْرَجَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ صُلْبِهِ ، وَهُمْ مِثْلُ الدَّرِّ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ

العَهْدَ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ ، فَأَقْرَأُوا ، وَشَهِدُوا بِذَلِكَ . وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ طُرُقٍ كَثِيرَةٍ ، وَقَالَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ . وَالثَّانِي أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّمَثِيلِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدْلَةَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَشَهِدَتْ بِهَا عَقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ الَّتِي رَكَّبَهَا فِيهِمْ ، وَجَعَلَهَا مُمَيِّزَةً بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالهُدَى ، فَكَأَنَّهُ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَقَالَ لَهُمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، فَقَالُوا : بَلَى . وَهَذَا الرَّأْيُ اخْتَارَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ وَأَبُو حَيَّانَ وَأَبُو السُّعُودِ ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ)) .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٨٤) : ((وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا : أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِإِقْرَارِهِمْ ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ . وَالثَّانِي : ذَلَّلَهُمْ بِخَلْقِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، قَالَهُ الرَّجَّاحُ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ أَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِإِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ)) .

لَقَدْ أَقْرَأُوا بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُمْ ، وَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ بِكَامِلِ قُوَاهِمُ الْعَقْلِيَّةِ ، وَذُونَ ضَعْفٍ مِنْ أَحَدٍ . ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أَنْتَ رَبُّنَا آمَنَّا وَصَدَّقْنَا . وَلَوْ قَالُوا : " نَعَمْ " لَكُفُّرًا ، لِأَنَّ " نَعَمْ " تَصَدِيقٌ لِلخَبَرِ سِوَاءَ كَانَ بِالتَّقْيِ أَوْ الْإِيجَابِ ، وَالْإِجَابَةُ بِنَعَمْ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَعْنِي : نَعَمْ أَنْتَ لَسْتَ رَبُّنَا ، وَهَذَا كُفْرٌ وَاضِحٌ . لِذَلِكَ كَانَتْ إِجَابَتُهُمْ بِـ " بَلَى " ، وَالْمَعْنَى : أَنْتَ رَبُّنَا . ﴿ شَهِدْنَا ﴾ بِذَلِكَ . لَقَدْ أَقْرَأُوا بِالرُّبُوبِيَّةِ . وَالْجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ سَوَالُ تَقْرِيرٍ .

﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ . لَيْلًا تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا الْعَهْدِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ غَافِلِينَ لَمْ يَتِمَّ تَسْبِيحُنَا ٣٠٣ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٨٥) : ((قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾ فِيهِ قَوْلَانٌ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى الْمِيثَاقِ وَالْإِقْرَارِ . وَالثَّانِي أَنَّهُ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْرِفَةِ أَنَّهُ الْخَالِقُ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَهَذِهِ الْآيَةُ تَذَكِيرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا أُخِذَ عَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْمِيثَاقِ ، وَاحْتِجَاجَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا يَقُولَ الْكُفَّارُ : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا الْمِيثَاقِ غَافِلِينَ لَمْ نَذْكُرْهُ ، وَنَسِيَانُهُمْ لَا يُسْقِطُ الْاِحْتِجَاجَ بَعْدَ أَنْ أُخْبِرَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّادِقِ . وَإِذَا ثَبَّتَ هَذَا بِقَوْلِ الصَّادِقِ ، قَامَ فِي النَّفُوسِ مَقَامَ الذِّكْرِ ، فَالاحتِجَاجُ بِهِ قَائِمٌ)) .

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ سُئِلَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((إِنَّ

٣٠٣ فِي الدُّرِّ الْمَشْهُورِ (٣ / ٥٩٩) أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : ((مَسَحَ اللَّهُ ظَهْرَ آدَمَ ، وَهُوَ يَبْطِنُ نَعْمَانَ _ وَادٍ إِلَى جَنْبِ عَرَفَةَ _ فَأَخْرَجَ مِنْهُ كُلَّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ)) .

اللَّهُ خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ ، وَيَعْمَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ ، وَيَعْمَلُ أَهْلُ النَّارِ يَعْمَلُونَ)) . فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفَيْمَ الْعَمَلِ ؟ ، قَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ ، اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُ النَّارَ)) ٣٠٤ .

خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ وَالْأَكْوَانَ ، وَقَدَّرَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِعِلْمِهِ عَلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ ، وَكُلٌّ مَيْسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّسْلِيمِ الْمُطْلَقِ بِهِ . وَقَدَرُ اللَّهِ ثَابِتٌ نَقْلًا وَعَقْلًا ، وَمُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَجَمِيعُ الْوَاقِعَاتِ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا . وَهُوَ مَا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ ، وَجَزَى بِهِ الْقَلَمُ ، مِمَّا كَانَتْ إِلَى الْأَبَدِ ، ثُمَّ وَقُوعَ هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى حَسَبِ مَا قَدَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى .

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ أَجْرَى اللَّهُ يَمِينَهُ _ وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينِ سُبْحَانَهُ _ عَلَى ظَهْرِ آدَمَ وَضَلْبِهِ ، فَأَخْرَجَ بِعِلْمِهِ مَا كَانَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ سَيَعْمَلُونَ بِعَمَلِهَا ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَأَخْرَجَ بِعِلْمِهِ مَا كَانَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ سَيَعْمَلُونَ بِعَمَلِهَا ، فَسَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ : فَفَيْمَ الْعَمَلِ ؟ ، أَي : فَمَاذَا يَعْمَلُ النَّاسُ وَقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ مَصِيرَهُمْ سَلَفًا ؟ ، فَوَضَّحَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ اخْتَارَ عَمَلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَفَقَهُ اللَّهُ لَذَلِكَ ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَرْلًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا ، وَكَذَلِكَ مَنْ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ عَمَلُ أَهْلِ النَّارِ ، تَرَكَهُ اللَّهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَرْلًا أَنَّهُ سَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ .

وَقَدْ وَضَّحَ اللَّهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ لِلْجَمِيعِ ، فَكُلُّ يَعْمَلُ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَخْتَارُ مَا يُرِيدُ ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لَا يُنَافِي الْعَمَلَ ، وَجَاهِلٌ مَنْ عَلَّقَ تَقْصِيرَهُ عَلَى الْقَدَرِ ، لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَهَدَاهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ حُرٌّ فِي اخْتِيَارِهِ ، وَيَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ اخْتِيَارِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

إِنَّ اللَّهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ ﷺ ، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً مَصِيرَهَا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً مَصِيرَهَا إِلَى النَّارِ . وَقَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى الدِّهْنِ أَنْ لَا فَائِدَةَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ مَا دَامَ الْمَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّ مُحَسُومًا سَلَفًا وَمَعْرُوفًا مُسَبِّقًا ، وَهَذَا وَهَمٌّ ، لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْإِجْبَارِ . وَمَعَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَهْلَ الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ ، إِلَّا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُجْبِرْ أَحَدًا عَلَى الطَّاعَةِ أَوْ

٣٠٤ رواه الحاكم في المستدرک (٥٩٣ / ٢) برقم (٤٠٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

المعصية ، والإنسان اختار طريقه بملء إرادته . لذلك لا معنى للاحتجاج بالقدر السابق ، لأنَّ القدر لا يضُرُّ ولا ينفع ، واللَّهُ وَحْدَهُ هو النافع والضار . وَمَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُوقِّعُهُ لأداء العبادات والطاعات ، ويثبتُه على هذا الطريق حتى الموت ، فيدخل الجنة . وَمَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لَهَا ، يَخْذُلُهُ اللَّهُ ، فيغرق في المعاصي والآثام حتى يموت على المعصية ، فيدخل النار . والعبرة بالخواتيم ، ومصير الإنسان يتحدد وفق العقيدة التي مات عليها . والحياة لا تُحدد مصير الإنسان ، وإنما الموت هو الذي يُحدد مصير الإنسان . وَمَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ . وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

وَإِذَا الْعِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَمَّ فَالْحَوَادِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

وقال المُنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ (٢ / ٣٣١) : ((وَقَدْ اختلف السلف ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَاعَى حُكْمَ السَّابِقَةِ ، وَجَعَلَهَا نُصْبَ عَيْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَاعَى حُكْمَ الْخَاتِمَةِ ، وَجَعَلَهَا نُصْبَ عَيْنِهِ . قِيلَ : وَالْأَوَّلُ أَوْلَى ، لِأَنَّهُ تَعَالَى سَبَقَ فِي عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ سَعِيدَ الْعَالَمِ وَشَقِيه ، ثُمَّ رَتَّبَ عَلَى هَذَا السَّبَقِ الْخَاتِمَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ بِحَسَبِ صِلَاحِ الْعَمَلِ وَفَسَادِهِ عِنْدَهَا ، وَعَلَى الْخَاتِمَةِ سَعَادَةَ الْآخِرَةِ وَشَقَاوَتَهَا)) .

وعن علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ)) . قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكى على كتابنا وندعُ العمل ؟ ، قال : ((اعمَلُوا ، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)) ٣٠٥ .

كُلُّ عَبْدٍ قُدَّرَ وَعُيِّنَ مَكَانُهُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَسَأَلَ الصَّحَابَةُ النَّبِيَّ ﷺ : أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ ؟ ، يَعْنِي : أَفَلَا نَعْتَمِدُ عَلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْنَا ، وَنَتْرِكُ الْعَمَلَ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ سَيَجْرُهُ الْقَضَاءُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَهَرًا ، وَيَكُونُ مَأَلُ حَالِهِ ذَلِكَ بَدُونِ اخْتِيَارِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُيسَّرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَهَرًا . وَحَاصِلُ السُّؤَالِ : أَلَا نَتْرِكُ مَشَقَّةَ الْعَمَلِ مَا دَامَ أَنَّ سَنَصِيرُ إِلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْنَا ، وَأَنَّ السَّعْيَ لَا يَزِدُّ قَضَاءَ اللَّهِ وَقَدْرَهُ ؟ . وَحَاصِلُ الْجَوَابِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَا مَشَقَّةَ ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَمَنْعَهُمْ عَنِ الْاِتِّكَالِ ، وَتَرْكِ الْعَمَلِ ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّزَامِ مَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ الْعِبَادَةِ ، مَعَ عَدَمِ جَعْلِ الْعِبَادَةِ وَتَرْكِهَا سَبَبًا مُسْتَقْلَلًا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، بَلْ هِيَ عِلَامَاتٌ فَقَطْ .

٣٠٥ رواه البخاري (٤ / ١٨٩١) برقم (٤٦٦٦) واللفظ له ، ومسلم (٤ / ٢٠٣٩) برقم (٢٦٤٧) .

والشُّبْهَةُ هِيَ أَنَّهُ إِذَا سَبَقَ الْقَضَاءُ بِمَكَانِ كُلِّ عَبْدٍ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَمَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ فَلَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِهِ ، فَمَا فَائِدَةُ الْعَمَلِ ؟ ، يَبْغِي تَرْكُهُ . وَهَذِهِ شُبْهَةُ النَّافِعِينَ لِلْقَدَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .
 وَجَوَابُ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ وَاضِحًا وَحَاسِمًا ، وَتَقْدِيرُهُ : إِنَّ اللَّهَ غَيَّبَ عَنَّا الْمَقَادِيرَ ، وَجَعَلَ الْأَعْمَالَ أَدْلَةً عَلَى مَا سَبَقَتْ بِهِ مَشِيئَتُهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ عِبَادَةَ بِالْعَمَلِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّزَامِ أَمْرِهِ . وَالْعَبْدُ يَعْمَلُ فِيمَا جَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ ، وَجَفَّ بِهِ الْقَلَمُ ، وَلَيْسَ شَيْئًا يَسْتَأْنَفُهُ .

لَا يَبْغِي تَرْكَ الْعَمَلِ ، وَالْإِتِّكَالُ عَلَى الْقَدَرِ السَّابِقِ . يَجِبُ الْإِمْتِثَالُ لِلشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي أَوْامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا . وَكُلُّ مُبَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ . فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَسِّرَهُ اللَّهُ لِعَمَلِ الطَّاعَاتِ فَيُنَالُ السَّعَادَةَ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَسِّرَهُ اللَّهُ لِلْمَعَاصِي فَيُنَالُ النَّعَاسَةَ . وَالْإِيمَانُ لَا يُكْتَسَبُ بِذَكَاءِ الْإِنْسَانِ وَقُدْرَاتِهِ الْذَاتِيَّةِ ، بَلْ هُوَ فَضْلٌ رَبَّانِيٌّ مَخْضُوعٌ ، يُعْطِيهِ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَحْجُبُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ .
 وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ اخْتِيَارِهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُجْبِرِ الْمُؤْمِنَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَلَمْ يُرْغِمِ الْكَافِرَ عَلَى الْكُفْرِ . فَكُلُّ مُبَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَيْ : مُهَيَّأٌ لِمَا قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .
 وَإِنْ هَدَى اللَّهُ الْعَبْدَ إِلَى الْإِيمَانِ فَيَفْضُلِ اللَّهُ ، وَلَهُ الْمِنَّةُ . وَإِنْ هَدَاهُ إِلَى الْكُفْرِ فَيَعْدِلِ اللَّهُ ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْعَبْدِ الْحُجَّةُ .

وَالْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِذَكَائِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ . وَعَلَى الطَّاعِ أَلَّا يَرْكُنَ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَيَعْتَمِدَ عَلَى مُسْتَوَاهِ الشَّخْصِيِّ ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ مُتَقَلِّبَةً ، وَاحْتِمَالُ انْقِلَابِ الْحَالِ وَارْتِدَّ بِقُوَّةٍ . وَعَلَى الْعَاصِي أَلَّا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَيَسْتَسَلِمَ لِلْكَاتِبَةِ وَالْبِئْسَ ، وَيَعْتَبِرُ دُنُوبَهُ عَقَبَةً فِي طَرِيقِ التَّوْبَةِ ، لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ .
 وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٦ / ١٩٥ و ١٩٦) : ((فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ كُنَّهَا دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ لِمَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْوَاقِعَاتِ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ ، خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا ، نَفْعٌهَا وَضَرُّهَا . وَقَدْ سَبَقَ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ قِطْعَةً صَالِحَةً مِنْ هَذَا .
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٢٣] . فَهُوَ مُلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى الْمَالِكِ فِي مُلْكِهِ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا عِلَّةَ لِأَفْعَالِهِ . قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ : سَبِيلُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْبَابِ التَّوْقِيفُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ مَخْضُوعِ الْقِيَاسِ وَمُجَرَّدِ الْعُقُولِ ، فَمَنْ عَدَلَ عَنِ التَّوْقِيفِ فِيهِ ضَلَّ ، وَتَاهُ فِي بَحَارِ الْحَيْرَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ شِفَاءَ النَّفْسِ ، وَلَا يَصِلَ إِلَى مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ ، لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي ضَرَبَتْ مِنْ دُونِهَا الْأَسْتَارَ .
 اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ وَحَجَبَهُ عَنِ عُقُولِ الْخَلْقِ وَمَعَارِفِهِمْ ، لِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَوَجَبْنَا أَنْ نَقْفَ حَيْثُ

حدّ لنا، ولا نتجاوزهُ، وقد طَوَى اللهُ تعالى عِلْمَ القَدْرِ على العَالَمِ، فَلَمْ يَعْلَمْهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ . وقيل إنَّ سِرَّ القَدْرِ يَنكشِفُ لهم إذا دَخَلُوا الجَنَّةَ ، ولا يَنكشِفُ قَبْلَ دُخُولِها ، واللهُ أَعْلَمُ . وفي هذه الأحاديث النَّهْيُ عَن ترك العمل والاتِّكَالِ على ما سَبَقَ به القَدَرُ ، بلْ تجب الأعمال والتكاليف التي وَرَدَ الشَّرْعُ بها ، وكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ له ، لا يَقْدِرُ على غَيْرِهِ ، ومَن كان مِن أهل السَّعَادَةِ يسِّرَهُ اللهُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ ، ومَن كان مِن أهل الشَّقَاوَةِ يسِّرَهُ اللهُ لِعَمَلِهِمْ)) .

وقال المُنَاوِي في فيض القدير (١٢ / ٢) : ((اَعْمَلُوا) بظاهر ما أَمَرْتُمْ ولا تَتَكَلَّمُوا على ما كُتِبَ لكم مِن خَيْرٍ وَشَرٍّ (فَكُلُّ) أي : كُلُّ مَن خُلِقَ (مُيسَّرٌ) أي مُهيأً وَمَصْرُوفٌ (لِمَا خُلِقَ له) أي : لأمرٍ خُلِقَ ذلك المرءُ له ، فلا يَقْدِرُ البتَّةَ على عملٍ غَيْرِهِ ، فذو السَّعَادَةِ مُيسَّرٌ لِعَمَلِ أهلِها بِحُكْمِ القَدْرِ الجاري عليه ، وإذا غَلَبَتْ مادَّةُ الحُكْمِ واستحكمت في إنسانٍ فإنَّما تيسَّرَ له عَمَلُ الخُبثِ _ الفِسْقِ والفُجُورِ _ فكان مُظهِراً للأفعال الخبيثة التي هي عُنوانُ الشَّقَاءِ ، وَحُكْمٌ عَكْسُهُ عَكْسُ حُكْمِهِ . [تبيهِه] قال الغَزَالِيُّ : بَيَّنَّ بهذا الخَبَرُ أَنَّ الخَلْقَ مَجاري قَدْرِ اللهِ ، وَمَحَلُّ أفعاله ، وإن كانوا هُم أيضاً مِن أفعاله ، لكن بعض أفعاله مَحَلٌّ لِبَعْضٍ . وَقَوْلُهُ : " اَعْمَلُوا " وإن جَرَى على لسان الرُّسُولِ ، فهو فِعْلٌ مِن أفعاله تعالى ، وهو سبب لِعِلْمِ الخَلْقِ بأنَّ العِلْمَ نافعٌ ، وَعِلْمُهُم مِن أفعالِ اللهِ ، وهو سببٌ لِحركة الأَعْضاء ، وهي أيضاً مِن أفعاله تعالى ، لكن بعض أفعاله مُسَبَّبٌ للِبَعْضِ ، أي : الأوَّلُ شَرَطٌ للثاني ، كَخَلْقِ الحياةِ شَرَطٌ لِخَلْقِ العِلْمِ ، والعِلْمُ للإرادةِ ، بمعنى أو لا يَسْتَعِدُّ لِقَبولِ العِلْمِ إلا ذُو حياةٍ ، ولا للإرادةِ إلا ذُو عِلْمٍ ، فَيَكُونُ بعضُ أفعاله سَبَباً للِبَعْضِ لا مُوجِباً لغيرِهِ ، وهذا القَوْلُ مِنَ اللهِ سَبَبٌ لوجود الاعتقادِ ، والاعتقادِ سببٌ للَخَوْفِ ، والَخَوْفُ سببٌ لِتَرْكِ الشَّهَوَاتِ والتجافي عن ذارِ الغُرُورِ ، وهو سببُ الوُصولِ إلى جِوارِ الرَّحْمَنِ ، وهو مُسَبَّبُ الأسبابِ ومُرْتَبِّها ، فَمَن سَبَقَ له في الأزلِ السَّعَادَةُ ، يسَّرَ له الأسبابَ التي تُقودُه بسلاسلِها إلى الجَنَّةِ ، ومَن لا يَسْتَعِدُّ عن سَماعِ كلامِ اللهِ ورسولِهِ والعُلَماءِ ، فإذا لم يَسْمَعْ لم يَعْلَمْ ، وإذا لم يَعْلَمْ لم يَخَفْ ، وإذا لم يَخَفْ لم يَتْرَكَ الرُّكُونَ إلى الدُّنيا ، وإذا لم يَتْرَكَ صارَ مِن حِزْبِ الشَّيْطَانِ ، ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحِجْرُ : ٤٣])) اهـ . وفي نَفْسِ المَرِجِعِ (١٣ / ٢) : ((قال الطيبي : قَوْلُهُ : " مَقْعَدُهُ " أي : مَحَلُّ قُعودِهِ ، وَكُنِيَ عَن كَوْنِهِ مِن أهلِ الجَنَّةِ أو النارِ باستقرارِهِ فيها قال : وَقَوْلُهُ : أَفلا نَتَكَلَّمُ ، أي : أَفلا نَعْتَمِدُ على ما كُتِبَ لنا في الأزلِ ، وَنَتْرَكَ العَمَلَ ، يَعْنِي : إذا سَبَقَ القَضَاءُ لِكُلِّ واحدٍ مِنَّا بِجَنَّةٍ أو نارٍ ، فأَيُّ فائدةٍ في السَّئِي ؟ ، فَإِنَّهُ لا يَزِدُّ القَضَاءُ والقَدَرَ ، فأجاب بِقَوْلِهِ : " اَعْمَلُوا " ، وهو مِن أُسْلُوبِ الحَكِيمِ ، مَنعَهُم عَن

الانكال والتترك ، وأمرهم بامتنال ما يجب على العبد من امتثال أمر ربه ، وعبوديته عاجلاً ، وتفويض الأمر إليه آجلاً، يعني أنتم عبيد ، ولا بُدَّ لكم من العبودية بما أمرتم ، وإياكم والتصرف في الأمور الإلهية لآية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، فلا تجعلوا العبادة وتركها سبباً مستقبلاً لدخول الجنة والنار ، بل هي أمارات وعلامات ، ولا بُدَّ في الإيجاب من لطف الله أو خذلانه _ ترك عون العبد ونصرتَه _ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

خلق الله لجَهَنَّمَ خلقاً كثيراً من الجن والإنس، وجعلهم وقوداً لها ، يُعذَّبون فيها أشد العذاب. وهؤلاء هم الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب الأزلية ، وسبق في علم الله أنهم من الأشقياء الذين يموتون على الكفر . وهذا يدل على شمول علم الله لكل شيء . والله يعلم أهل النار قبل أن يخلقهم ، ويعلم قبل خلقهم أنهم يصيرون إلى النار بكفرهم وضلالهم . والآية تُبين نفاذ علم الله فيهم . وعندما خلقهم هيأهم للنار لأنهم مستحقون لها، ويعمل أهل النار يعملون، حتى يموتوا على الكفر، ويدخلوا النار خالدين فيها. وكلُّ ميسرٍ لما خلق له . وهذا كله خاضع لعَدَلِ الله ، لأنَّ الله مُنَزَّه عن الظلم . لقد حَقَّتْ عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة بما كَسَبَتْ أيديهم، والله لم يظلمهم ، ولم يُجبرهم على اختيار الكفر ، وإنما اختاروه بمحض إرادتهم ، وبكامل قواهم العقلية ، ودون ضغط من أحد .

وقال التَّسْفِي في تفسيره (٤٧ / ٢) : ((فالحاصل أنَّ مَنْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُ فِي الْأَزَلِّ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُ الْعِبَادَةُ خَلَقَهُ لِلْعِبَادَةِ ، وَمَنْ عَلِمَ مِنْهُ أَنْ يَكُونُ مِنْهُ الْكُفْرُ خَلَقَهُ لِذَلِكَ وَقَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ بِأَنَّ هَذِهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ _ يَعْنِي فِي ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ _ ، أَي : لَمَّا كَانَ عَاقِبَتُهُمْ جَهَنَّمَ جَعَلَ كَأَنَّهُمْ خُلِقُوا لَهَا، فِرَارًا عَنِ إِرَادَةِ الْمَعَاصِي ، عُدُولًا عَنِ الظَّاهِرِ)) .

لهم قلوب لا يتفكرون بها في قدرة الله وآياته ومعجزاته ، ولا يفهمون بها الحق والهدى والخير والصواب ، ولا يعرفون بها منفعتهم ومصالحهم .

وقال الطبري في تفسيره (١٢٩ / ٦) : ((وأما قوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ، فإن معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجَهَنَّمَ من خلقه قلوب، لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حججَه لِرُسُلِهِ، فيعلموا توحيد ربهم ، ويعرفوا حقيقة نبوة

أنبيائهم ، فَوَصَفَهُمْ رَبُّنَا جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِأَنَّهُمْ : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَرْكِهِمْ تَدَبُّرَ صِحَّةِ نُبُوَّةِ الرَّسُلِ ، وَبُطُولِ الْكُفْرِ _ يَعْنِي بُطْلَانَهُ _ .

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا مَظَاهِرَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَابْدَاعِهِ بِصَرَاعْتِيبَارٍ ، وَلَا يَرَوْنَ طَرِيقَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الْهُدَى ، وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ نَظَرَ تَأْمُلٍ وَاعْتِبَارٍ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ١٢٩) : ((وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يَنْظُرُونَ بِهَا إِلَى آيَاتِ اللَّهِ وَأَدْلَتِهِ ، فَيَتَأَمَّلُونَهَا وَيَتَفَكَّرُونَهَا فِيهَا ، فَيَعْلَمُونَ بِهَا صِحَّةَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ رُسُلُهُمْ ، وَفَسَادَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ ، وَتَكْذِيبَ رُسُلِهِ ، فَوَصَفَهُمُ اللَّهُ بِتَرْكِهِمْ إِعْمَالَهَا فِي الْحَقِّ أَنََّّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا)) .

وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا الْآيَاتِ وَالْمَوْاعِظَ وَالْإِرْشَادَاتِ سَمَاعَ فَهْمٍ وَتَدَبُّرٍ وَاتِّعَازٍ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُهَا عَمَّا يَنْفَعُهَا فِي الدِّينِ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ١٢٩) : ((وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ آيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ فَيَعْتَبِرُونَهَا وَيَتَفَكَّرُونَهَا فِيهَا ، وَلَكِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا)) .

إِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِجَوَارِحِهِمْ وَحَوَاسِّهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، فَصَارَ وَجُودُهَا كَعَدَمِهِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْجَوَارِحَ وَالْحَوَاسَّ طَرِيقًا لِلْهُدَايَةِ ، لَكِنَّهُمْ أَغْلَقُوا هَذَا الطَّرِيقَ بِتَعْطِيلِهِمْ لَجَوَارِحِهِمْ وَحَوَاسِّهِمْ ، وَعَدَمِ اسْتِخْدَامِهَا لِمَعْرِفَةِ نُورِ الْإِيمَانِ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٩٢) : ((لَمَّا أَعْرَضَ الْقَوْمُ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ ، كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَفْقَهُ ، وَلَمْ يُبْصِرْ ، وَلَمْ يَسْمَعْ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ التَّخَوِيُّ : أَرَادَ بِهَذَا كُلَّهُ أَمْرَ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُمْ يَعْقِلُونَ أَمْرَ الدُّنْيَا)) .

أَوْلَيْتُكَ كَالْحَيَوَانَاتِ فِي عَدَمِ الْفَهْمِ وَالْبَصَرِ وَالتَّسْمَعِ ، هُمُّهُمْ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ وَالتَّمَتُّعَ بِالشَّهَوَاتِ وَالتَّمَلُّدَاتِ ، لَا يَزْجُونَ ثَوَابًا ، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابًا ، وَلَا يَهْتَمُّونَ بِالْآخِرَةِ . بَلْ هُمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ، لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتَ تَعْرِفُ مَنَفْعَتَهَا وَمَصْلَحَتَهَا ، وَتُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَنَفْعَةِ وَالْمَضَرَّةِ ، وَتَتَّبِعُ صَاحِبَهَا وَمَالِكَهَا ، أَمَّا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ فَلَا يَعْرِفُونَ مَنَفْعَتَهُمْ وَلَا مَصْلَحَتَهُمْ ، وَيَعْصُونَ اللَّهَ خَالِقَهُمْ ، وَلَا يُطِيعُونَهُ ، وَيَسِيرُونَ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ، وَيُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عِنَادًا وَجَهْلًا وَاسْتِكْبَارًا . وَالتَّحْيَوَانَاتُ تَعْرِفُ اللَّهَ وَتُطِيعُهُ ، أَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ وَلَا يُطِيعُونَهُ .

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي زَادِ الْمَسِيرِ (٣ / ٢٩٢) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَيْتُكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ ، شَبَّهَهُمْ بِالأَنْعَامِ ، لِأَنَّهَا تَسْمَعُ وَتُبْصِرُ ، وَلَا تَعْتَبِرُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، لِأَنَّ الأَنْعَامَ تُبْصِرُ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَّهَا ، فَتَلْزَمُ بَعْضَ مَا تُبْصِرُهُ ، وَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُ أَكْثَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَانِدٌ ، فَيُقَدِّمُ عَلَى النَّارِ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٣٥٦) : ((بَلْ هُمْ أَضَلُّ)) أي : من الدَّوَابِّ ، لأنها قد تستجيب لراعيها إذا أنسَ بها ، وإن لم تُفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خُلقت له ، إمَّا بطبعها، وإمَّا بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنمَّا خُلِقَ ليعبد اللهَ ويؤخِّده، فكفَّرَ بالله وأشركَ به، ولهذا من أطاعَ اللهَ من البشر ، كان أشرفَ من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفَّرَ به من البشر كانت الدَّوَابُّ أتمَّ منه)) .

أولئك الكاملون في العفلة ، الذين غرِقُوا في الكُفْرِ والضلال والجَهْلِ والعناد والاستكبار ، وتركوا الفهم والتدبُّر والاتعاط ، وأعرضُوا عن الإيمان ، وغفلُوا عن آياتِ الله وحججه ومظاهر وحدانيته وقدرته، ولم يُفكِّروا بالجنة والنار ، وغفلُوا عن أمر الآخرة. وقد أضعوا مصيرهم بأيديهم، وساروا إلى العذاب يارادتهم .

والجديُّ بالذكر أن ﴿ أولئك ﴾ اسم إشارة للبعيد ، للدلالة على بعدهم في العفلة والضلال ، ممَّا يُشير إلى سوء حالهم وانهارهم الشامل .

وقال الله تعالى : ﴿ واذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

واذكر الله سرًّا ، مُعْظَمًا له ، ومُتَضَرِّعًا إليه ، وخائفًا منه . أي : اذكر الله سرًّا ، رَغْبَةً ورهبةً ، تَدَلُّلاً وخَوْفًا منه ، ووَاسِطًا بين الجهر والسر ، في أوَّل النَّهَارِ وآخره، ولا تَغْفُلْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى . والآية تدلُّ على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع ومذموم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ٣١٣ و ٣١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ واذكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ ﴾ . في هذا الذكر أربعة أقوال : أحدها أنه القراءة في الصلاة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا أمر أن يقرأ في نفسه في صلاة الإسرار . والثاني أنه القراءة خلف الإمام سرًّا في نفسه، قاله قتادة . والثالث أنه ذكر الله باللسان . والرابع أنه ذكر الله باستدامة الفكر ، لا يغفل عن الله تعالى . ذكر القَوْلَيْنِ الماوردي. وفي المُخاطَب بهذا الذكر قولان: أحدهما أنه المُسْتَمِعُ للقرآن، إمَّا في الصلاة، وإمَّا من الخطيب ، قاله ابن زيد . والثاني أنه خطاب النبي ﷺ ، ومعناه عام في جميع المُكَلَّفِينَ . قوله تعالى : ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ التَّضَرُّعُ الخُشُوعُ في تواضع ، والخِيفَةُ الحَذَرُ من عقابه . قوله تعالى : ﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ الجهر الإعلان بالشيء ، ورجل جَهِير الصَّوْتِ ، إذا كان صَوْتُهُ عَالِيًا . وفي هذا نص على أنه الذكر باللسان ، ويحتمل وجهين : أحدهما قراءة القرآن ، والثاني الدعاء ، وكلاهما مندوب إلى إخفائه)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٢] .
 وإنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ مُعْرِضُونَ عَنِ التَّأْمَلِ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، لا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا ، ولا يَتَعَطَّوْنَ بِهَا .
 وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٦٠٦) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا ﴾
 يَعْنِي : عَنِ حُجَجِنَا وَأَدَلَّتِنَا عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالْأُلُوهَةَ لَنَا خَالِصَةٌ ﴾ لَغَافِلُونَ ﴾ يقول : لَسَاهُونَ لا يَتَفَكَّرُونَ
 فِيهَا ، ولا يَعْتَبِرُونَ بِهَا)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٦٨٠) : ((﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا ﴾ التي
 تُوجِبُ الِاعْتِبَارَ وَالتَّفَكُّرَ ، وتُوقِظُ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ ﴾ لَغَافِلُونَ ﴾ عَمَّا تُوجِبُهُ الْآيَاتُ)) .
 وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] .
 حَوِّفْهُمْ يَا مُحَمَّدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَوْمَ يَتَحَسَّرُ الْمُسِيءُ عَلَى إِسَاءَتِهِ ، وَيَتَحَسَّرُ الْمُحْسِنُ عَلَى قِلَّةِ
 إِحْسَانِهِ ، إِذْ فُرِعَ مِنَ الْحِسَابِ ، وَأُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، وَذُبِحَ الْمَوْتُ ، وَهُمْ
 فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُفْعَلُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ ، أَوْ : وَهُمْ الْيَوْمَ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا أَنْذَرُوا بِهِ يَوْمَ الْحَسْرَةِ وَالتَّدَامَةِ ،
 وَهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٤٧٧) : ((﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ أي : يَوْمَ
 يَتَحَسَّرُونَ جَمِيعًا ، فَالْمُسِيءُ يَتَحَسَّرُ عَلَى إِسَاءَتِهِ ، وَالمُحْسِنُ عَلَى عَدَمِ اسْتِكْتَارِهِ مِنَ الْخَيْرِ ، إِذْ
 قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي : فُرِعَ مِنَ الْحِسَابِ ، وَطُوبِتِ الصُّحُفُ ، وَصَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْلُ
 النَّارِ فِي النَّارِ . وَجُمْلَةُ : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ ، أَي : غَافِلِينَ عَمَّا يُعْمَلُ
 بِهِمْ ، وَكَذَلِكَ جُمْلَةُ ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ١] .
 قَرَّبَ وَقْتُ حِسَابِ النَّاسِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَالمَقْصُودُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَدَنَا مَوْعِدُ مُجَازَاتِهِمْ ،
 وَهُمْ غَارِقُونَ فِي الدُّنُوبِ وَالمَعَاصِي ، وَمُسْتَعْرِقُونَ فِي الشَّهَوَاتِ وَالمَلَذَّاتِ . غَافِلُونَ عَنِ يَوْمِ
 الْحِسَابِ الْعَظِيمِ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) . لا يَقُومُونَ بِالْعِبَادَاتِ ، وَلا يَفْعَلُونَ الطَّاعَاتِ ، وَلا يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ ،
 وَلا يَسْتَعِدُّونَ لَهَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ . وَتَنْكِيْرُ ﴿ غَفْلَةٍ ﴾ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ .
 وَالْحِسَابُ قَرِيبٌ لِأَنَّهُ آتٍ ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ . وَإِنَّمَا البَعِيدُ مَا انْتَهَى وَانْقَرَضَ . أَوْ : إِنَّ
 الْحِسَابَ قَرِيبٌ ، لِكثْرَةِ مَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ ، وَقِلَّةِ مَا بَقِيَ . وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ قَبْلَ أَنْ
 يُبَاغِتَهُ ، وَعِنْدَئِذٍ لا تُوجَدُ آيَةٌ فُرْصَةٌ لِلتَّعْوِيضِ ، وَمَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتِ قِيَامَتُهُ ، وَطُوبِتِ صَفْحَتُهُ ،
 وَانْتَهَى امْتِحَانُهُ الدُّنْيَوِيُّ ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ انْتِظَارُ النَتِيجَةِ فِي الْآخِرَةِ . إِنَّمَا الخُلُودُ فِي الْجَنَّةِ ، أَوْ الخُلُودُ

في النار . والدُّنيا دارُ عملٍ ولا حِسَاب ، والآخرة دار حِسَاب ولا عمل ، أي إنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة . ولا أحد يرجع من الموت كي يعمل صالحًا .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٢) : ((وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن ابن هانئ أبي نُواس الشاعر أنّه قال : أشعرُ الناس الشَّيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناسُ في غفلاتِهِم وَرَحَى المَنِيَّةِ تَطْحَنُ

فقيل له : من أين أخذ هذا ؟ ، قال : من قول الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ .

والله يُنَبِّه عباده على اقتراب يوم القيامة ، الذي يُحَاسِب فيه الناس ، ويُجَازِي المُحْسِن بإحسانه ، والمُسيء بإساءته ، فإمّا إلى جَنَّةٍ أبديّة ، أو إلى نار أبديّة . والناسُ تائهون في الآثام والخطايا ، وضائعون في الآمال الكاذبة والأهواء الباطلة . غافلون عمّا ينتظرهم ، ولا يُجَهِّزون أنفسهم للموت ، ولا يستعدون لِمَا بَعْدَهُ . كُلُّ تفكيرهم محصور في حُطام الدنيا الزائل ، ومُتعتها الفانية ، ولا يَعْمَلُونَ للآخرة الباقية .

وقال القرطبي في تفسيره (١١ / ٢٣٦) : ((﴿ اقْتَرَب ﴾ ، أي : قَرُبَ الوقت الذي يُحَاسِبون فيه على أعمالهم ، ﴿ للناس ﴾ . قال ابن عباس : المراد بالناس هاهنا المُشركون وقيل : الناس عُموم ، وإن كان المُشار إليه في ذلك الوقت كُفَّار قُرَيْش . يدلُّ على ذلك ما بَعْدَهُ مِنَ الآيات . وَمَنْ عَلِمَ اقْتِرَابَ السَّاعَةِ قَصُرَ أَمَلُهُ ، وَطَابَتْ نَفْسُهُ بِالتَّوْبَةِ ، وَلَمْ يَرْكُنْ إِلَى الدُّنْيَا ، فَكَانَ ما كان لَمْ يَكُنْ إذا ذَهَبَ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ، وَالمَوْتُ لا مَحَالَةَ آتٍ ، وَمَوْتُ كُلِّ إنسانٍ قِيَامُ سَاعَتِهِ ، وَالْقِيَامَةُ أيضًا قَرِيبَةٌ بِالإضافة إلى ما مَضَى مِنَ الزَّمان ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا أَقَلُّ مِمَّا مَضَى . وقال الصَّحَّاحُ : معنى ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ ، أي : عَدَّابُهُمْ . يعني : أهل مكة ، لأنهم اسْتَبَطُّوا ما وَعَدُوا بِهِ مِنَ العذاب تكديبًا . وكان قَتْلُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ . النَّحَّاسُ : ولا يجوز في الكلام : اقْتَرَبَ حِسَابُهُم لِلنَّاسِ ، لئلا يتقدَّم مُضَمَّرٌ على مُطَّهَّرٍ ، لا يجوز أن يُنَوَّى به التأخير ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ بالدُّنيا عن الآخرة . الثاني : عن التَّأَهُبِ لِلحِسَابِ وَعَمَّا جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ .

وقال الله تعالى : ﴿ واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٧] .

واقْتَرَبَ يَوْمُ القِيَامَةِ ، فإذا شَأَنُ الكافرين أنْ أَبْصارُهُم شاخِصَةٌ مِنْ هَوْلِ ذلك اليوم ، لا تَكَادُ تَطْرِفُ مِنَ الحَيْرَةِ وَشِدَّةِ الفَزَعِ . ويقولون : يا حَسْرَتَنا وَهَلَاكَنا ، قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ تَامَةٍ فِي الدُّنْيَا عَنْ

هذا المصير السيئ واليوم الرهيب ، لم نَعْلَمْ أَنَّهُ حَقٌّ . أَضْرَبُوا عَنِ الْقَوْلِ السَّابِقِ ، وَأَخْبِرُوا بِالْحَقِيقَةِ الْمُؤَلِّمَةِ ، وَالْمَعْنَى: لَمْ نَكُنْ فِي غَفْلَةٍ ، فَقَدْ أَرْشَدَنَا الْأَنْبِيَاءُ ، وَنَبَّهَتْنَا الْآيَاتُ ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا بِتَكْذِيبِنَا لِلرُّسُلِ ، وَوَضْعِ الْعِبَادَةِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٩٩ / ١١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يَعْنِي الْقِيَامَةَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ ، " هِيَ " ضَمِيرُ الْأَبْصَارِ ، وَالْأَبْصَارُ الْمَذْكُورَةُ بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لَهَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شَخِصَتْ عِنْدَ مَجِيءِ الْوَعْدِ وَقِيلَ : إِنَّ الْكَلَامَ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ هِيَ ﴾ ، التَّقْدِيرُ: إِذَا هِيَ ، بِمَعْنَى الْقِيَامَةِ بَارِزَةً وَاقِعَةً ، أَيْ : مِنْ قُرْبِهَا كَأَنَّهَا آتِيَةٌ حَاضِرَةٌ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ عَلَى تَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ، أَيْ : أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا شَاخِصَةٌ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ، أَيْ : مِنْ هَؤُلَاءِ لَا تَكَادُ تَطَّرِفُ ، يَقُولُونَ: يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ بِمَعْصِيَتِنَا ، وَوَضَعْنَا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٦٢ / ٣) : ((قَوْلُهُ : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْأَهْوَالُ وَالزَّلَازِلُ وَالْبَلَابِلُ ، أَرْفَتِ السَّاعَةُ وَاقْتَرَبَتْ ، إِذَا كَانَتْ وَوَقَعَتْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، أَيْ : مِنْ شِدَّةِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ أَيْ : يَقُولُونَ : يَا وَيْلَنَا ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أَيْ : فِي الدُّنْيَا ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ يَعْتَرِفُونَ بِظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٦١٠ / ٣) : ((... ، ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ أَيْ : مِنْ هَذَا الَّذِي دَهَمَنَا مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ ، ﴿ بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أَضْرَبُوا عَنِ الْوَعْدِ وَصَفِ أَنْفُسِهِمْ بِالْغَفْلَةِ ، أَيْ : لَمْ نَكُنْ غَافِلِينَ ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ لِأَنْفُسِنَا بِالتَّكْذِيبِ وَعَدَمِ الْإِنْقِيَادِ لِلرُّسُلِ)) .

وقال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الرُّوم: ٧] .

يَعْلَمُ الْكُفَّارُ أُمُورَ الدُّنْيَا وَمَعَايِشَهَا مِنَ التَّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالْبِنَاءِ وَالْعَرَسِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَهُمْ غَمِيَانٌ عَنِ أَمْرِ الْآخِرَةِ ، سَاهُونَ عَنْهَا لَا تَخْطُرُ بِأَلْفِهِمْ ، غَافِلُونَ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَالْعَمَلِ لَهَا .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلدُّنْيَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، فَظَاهِرُهَا مَا يَعْرِفُهُ الْجُهَالُ مِنَ التَّمَتُّعِ بِالْمَلذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ وَجَمْعِ حُطَامِهَا ، وَبَاطِنُهَا وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ، يَتَزَوَّدُونَ مِنْهَا إِلَيْهَا بِالْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ .

وقال البغوي في تفسيره (٢٦٢ / ١) : ((﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يَعْنِي : أَمْرٌ مَعَاشِهِمْ ، كَيْفَ يَكْتَسِبُونَ وَيَتَجَرَّوْنَ وَمَتَى يَغْرُسُونَ وَيَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ ، وَكَيْفَ يَبْنُونَ وَيَعِيشُونَ .

قال الحسن: إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَنْفُرَ الدَّرْهَمَ بِطَرْفِ ظَفْرِهِ، فَيَذْكُرُ وَزَنَهُ، وَلَا يُحْطِي، وهو لا يُحْسِنُ يُصَلِّي، ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ سَاهُونَ عَنْهَا، جَاهِلُونَ بِهَا، لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا)). .
 إِنَّ الْكُفَّارَ أَذْكَيَاءَ فِي تَحْصِيلِ حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِي، وَخُبْرَاءَ فِي مَعْرِفَةِ شُؤْنِهَا وَتَفَاصِيلِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ غَيْبِيٌّ لَا عَقْلَ لَهُ. يَعْرِفُونَ عُمُرَانَ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ جُهَّالٌ.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٠٥) : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، أي : يَعْلَمُونَ ظَاهِرَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا، وَمَلَازِمِهَا، وَأَمْرِ مَعَاشِهِمْ، وَأَسْبَابِ تَحْصِيلِ فَوَائِدِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ. وَقِيلَ : هُوَ مَا تُلْقِيهِ الشَّيَاطِينُ إِلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا عِنْدَ اسْتِرَاقِهِمُ السَّمْعَ. وَقِيلَ: الظاهر: الباطل ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي التَّعَمَّةُ الدَّائِمَةُ، وَاللَّذَّةُ الْخَالِصَةُ ﴿هُمُ غَافِلُونَ﴾ لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهَا، وَلَا يُعَدُّونَ لَهَا مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، أَوْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالتَّصَدِيقِ بِمَجِيئِهَا)). .

إِنَّ عِلْمَ الْكُفَّارِ مُنْحَصِرٌ فِي الدُّنْيَا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرَهَا (اللذات والشهوات)، وَيَجْهَلُونَ بَاطِنَهَا وَحَقِيقَتَهَا، وَهِيَ مَضَارُّهَا وَمَتَاعُهَا. وَيَعْلَمُونَ وَجُودَهَا الظاهري، وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّهَا فَانِيَّةٌ وَزَائِلَةٌ، وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ غَافِلُونَ. وَتَنْكِيرُ ﴿ظَاهِرًا﴾ لِلتَّحْقِيرِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمْ عَرَفُوا الْقُشُورَ، وَلَمْ يَعْرِفُوا اللَّبَابَ. وَتَكَرُّرُ الصَّمِيرِ " هُمْ " لِإِفَادَةِ الْحَضَرِ : ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وَوَرُودُهَا اسْمِيَّةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ غَفَلَتِهِمْ وَدَوَامِهَا. وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٧ / ٥٠ و ٥١) : ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وَهُوَ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ زَخَارِفِهَا وَمَلَازِمِهَا، وَسَائِرِ أَحْوَالِهَا الْمُوَافِقَةِ لِشَهَوَاتِهِمْ، الْمُتَلَابِئَةِ لِأَهْوَائِهِمْ، الْمُسْتَدْعِيَّةِ لِأَنهَمَا كُفَّارٌ فِيهَا، وَعُكُوفِهِمْ عَلَيْهَا، لَا تَمْتَنِعُهُمْ بِزَخَارِفِهَا وَتَنْعُمِهِمْ بِمَلَازِمِهَا كَمَا قِيلَ، فَإِنَّهُمَا لَيْسَا بِمَا عِلْمُوهُ مِنْهَا، بَلْ مِنْ أفعالِهِمُ الْمُتَرْتِبَةِ عَلَى عُلُومِهِمْ. وَتَنْكِيرُ ﴿ظَاهِرًا﴾ لِلتَّحْقِيرِ وَالتَّخْصِيسِ دُونَ الْوَاحِدَةِ كَمَا تُؤْهِمُ، أَي: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا حَقِيرًا خَسِيسًا مِنَ الدُّنْيَا، ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي الغاية القُصْوَى، وَالْمَطْلَبُ الْأَسْتَى ﴿هُمُ غَافِلُونَ﴾ لَا يُحْطِرُونَهَا بِالْبَالِ، وَلَا يُدْرِكُونَ مِنَ الدُّنْيَا مَا يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَتِهَا مِنْ أَحْوَالِهَا، وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا. وَالجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وَإِيرَادُهَا اسْمِيَّةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِمْرَارِ غَفَلَتِهِمْ وَدَوَامِهَا، وَ" هُمْ " الثَّانِيَّةُ تَكَرُّرٌ لِلأُولَى، أَوْ مُبْتَدَأٌ، وَغَافِلُونَ خَبْرُهُ. وَالجُمْلَةُ خَبْرٌ لِلأُولَى، وَهُوَ عَلَى الْوَجْهِينِ مُنَادٍ عَلَى تَمَكُّنِ غَفَلَتِهِمْ عَنِ الْآخِرَةِ، الْمُحَقَّقَةِ لِمُقْتَضَى الْجُمْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، تَقْرِيرًا لِجَهْلَتِهِمْ، وَتَشْبِيهًا لَهُمْ بِالْبَهَائِمِ الْمَقْصُورِ إِدْرَاكَاتِهَا مِنَ الدُّنْيَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا الْخَسِيسَةِ دُونَ أَحْوَالِهَا الَّتِي هِيَ مَبَادِي الْعِلْمِ بِأُمُورِ الْآخِرَةِ، وَإِشْعَارًا بِأَنَّ الْعِلْمَ الْمَذْكُورَ وَعَدَمَ الْعِلْمِ رَأْسًا سَيِّئًا)). .

وَصَدَقَ الْقَائِلُ :

أَبْنَىٰ إِنَّ مِنَ الرِّجَالِ بِهِمَّةً فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطِنٌ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ فَإِذَا أُصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ

وقال الله تعالى : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] .

لننذر يا محمد بهذا القرآن العرب ، الذين ما جاءهم رسول ولا كتاب ، لتطاول زمن الفترة عليهم، وهذا يدل على شدة حاجتهم إلى الوحي الإلهي . والمراد بالإنذار تخويفهم من عذاب الله . فهم غافلون عن الهدى والإيمان ، يتخبطون في ظلمات الشرك وعبادة الأصنام .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧٤٣) : ((قوله تعالى : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم ، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧ / ٥) : ((قوله تعالى : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ﴾ في " ما " قولان : أحدهما أنها تنفي ، وهو قول قتادة والزجاج في الأكثرين . والثاني أنها بمعنى كما ، قاله مقاتل . وقيل : هي بمعنى الذي . قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ أي : عن حجاج التوحيد وأدلة البعث)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] .

الاستفهام بمعنى النفي ، أي : لا أحد أضل وأجهل ممن يدعو من دون الله إلهة ، ويعبد أصنامًا ، لا تسمع دعاء الداعين ، ولا تعلم حاجات المحتاجين ، ولا تستجيب لمن ناداها أبدًا ما دامت الدنيا ، لأنها جمادات ، من حجر أو خشب أو نحو ذلك . والأصنام التي يعبدونها ويدعونها غافلون ، لا يسمعون ولا يفهمون .

لا أحد أضل من المشركين ، حيث تركوا عبادة الله السميع البصير المجيب ، الذي يُجيب دعاء الداعين ، ويُعطي الملهوفين ، ويُعطي السائلين ، ويُجيب المضطرين ، إلى عبادة الأصنام ، وهي جمادات ، لا يستجيبون لهم . وضماير العقلاء ، لأن المشركين يُعاملون آلهتهم (أصنامهم) كعقلاء . ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والعقلة مع ظهور حالها للشكك بها وبعبدتها .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢٠/٥) : ((﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ ، أي : لا أحد أضل منه ، ولا أجهل ، فإنه دَعَا مَنْ لَا يَسْمَعُ ، فكيف يَطْمَعُ في الإجابة فَضلاً عن جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ ؟ ، فَتَبَيَّنَ بهذا أنه أجهل الجاهلين ، وأضل الضالين . والاستفهام للتقريع والتوبيخ . وقوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لعدم الاستجابة ، ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ ، الضمير الأول للأصنام ، والثاني لعباديتها . والمعنى : والأصنام التي يدعونها عن دعائهم إياها غافلون عن ذلك ، لا يسمعون ولا يعقلون لكونهم جمادات ، والجمع في الضميرين باعتبار معنى " مَنْ " ، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل)) .
وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

لقد كُنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا النَّازِلِ بِكَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَصِيبِ ، أَوْ : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الَّذِي عَايَنْتَ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ ، فَأَزَالَ اللَّهُ عَنْكَ الْحِجَابَ الَّذِي كَانَ عَلَى قَلْبِكَ وَسَمِعَكَ وَبَصَرَكَ فِي الدُّنْيَا ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ قَوِي نَافِذٌ ، تَرَى بِهِ مَا كَانَ مَحْجُوبًا عَنْكَ ، وَتُبْصِرُ بِهِ مَا كَانَ يَخْفَى عَلَيْكَ مِنَ الدُّنْيَا ، لِرُزَالِ الْمَوَانِعِ بِالْكُلِّيَّةِ . لَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، حَتَّى رَأَيْتَهُ بِعَيْنَيْكَ وَعَايَنْتَهُ ، فَزَالَتِ الْغَفْلَةُ عَنْكَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢٨٥ / ٤) : ((وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أحدها أن المراد بذلك الكافر ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان . والثاني أن المراد بذلك كل أحد من برِّ وفاجر ، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة ، والدنيا كالمنام ، وهذا اختيار ابن جرير ، ونقله عن حسين ابن عبد الله بن عبيد الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . والثالث أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه ، والمعنى على قولهما : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْكَ ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ بِإِنزَالِهِ إِلَيْكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ خِلَافَ هَذَا ، بَلْ الْخِطَابُ مَعَ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ يَعْنِي مِنْ هَذَا الْيَوْمِ ، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، أَي : قَوِي ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مُسْتَبْصِرًا ، حَتَّى الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا ، يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨ / ١٣ و ١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ ﴾ أي : ويُقال له : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ﴾ الْيَوْمَ . وفي الْمُخَاطَبَ بهذه الآيات ثلاثة أقوال : أحدها أنه الكافر، قاله ابن عباس وصالح بن كيسان في آخرين. والثاني أنه عام في البرِّ والفاجر، قاله حُسين بن عبد الله بن عبَّيد الله بن عباس ، واختاره ابن جرير. والثالث أنه النبي ﷺ، وهذا قول ابن زيد . فعلى القول الأول يكون المعنى : لقد كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا بِكُفْرِكَ بِهِ . وعلى الثاني : كُنْتَ غَافِلًا عَنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ ، ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ﴾ الذي كان في الدنيا يَغْشَى قَلْبَكَ وَسَمْعَكَ وَبَصْرَكَ. وقيل: معناه : أَرَيْنَاكَ مَا كَانَ مَسْتَوْرًا عَنْكَ ، وعلى الثالث : لقد كُنْتَ قَبْلَ الْوَحْيِ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا أُوحِيَ إِلَيْكَ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ بِالْوَحْيِ ﴿ فَبَصَّرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدًا ﴾ وفي المراد بالبصر قولان: أحدهما البصر المعروف، قاله الضَّحَّاك. والثاني العلم، قاله الرَّجَّاح. وفي قوله: ﴿ الْيَوْمَ ﴾ قولان: أحدهما أنه يوم القيامة، قاله الأَكْثَرُونَ. والثاني أنه في الدنيا، وهذا على قول ابن زيد. فأما قوله: ﴿ حَدِيدًا ﴾ فقال ابن قُتَيْبَةَ: الحديد بمعنى الحاد، أي: فَأَنْتَ ثَاقِبُ الْبَصْرِ، ثُمَّ فِيهِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٌ: أَحَدُهَا فَبَصَّرَكَ حَدِيدًا إِلَى لِسَانِ الْمِيزَانِ حِينَ تُوزَنُ حَسَنَاتُكَ وَسَيِّئَاتُكَ، قاله مجاهد. والثاني أنه شاخص لا يَطْرِفُ لِمُعَايِنَةِ الْآخِرَةِ ، قاله مُقَاتِل . والثالث أنه العلم النافذ ، قاله الرَّجَّاح)) .

٤٧ _ الْقَسْوَةُ

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].
ثُمَّ صَلَبَتْ وَاشْتَدَّتْ قُلُوبُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، فلا يُؤَثَّرُ فِيهَا وَعَظٌ وَلَا إِرْشَادٌ وَلَا تَذْكَيرٌ ، مِنْ بَعْدِ رُؤْيَا الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، وَالآيَاتِ الْوَاضِحَةِ ، فَإِنَّهَا مِمَّا تُوجِبُ لَيْنَ الْقَلْبِ، فَقُلُوبُكُمْ كَالْحِجَارَةِ فِي الْقَسْوَةِ وَعَدَمِ الْفَائِدَةِ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْحِجَارَةِ .

وووصف قلوبهم بالصَّلابة والعِلْظَة يُراد مِنْهَا رَافِضَةٌ لِلإِعْتِبَارِ وَالإِتْعَازِ ، وَلَا تَتَأَثَّرُ بِالنِّصَائِحِ وَالإِرْشَادَاتِ . وَلَمْ يَتِمَّ تَشْبِيهُ قُلُوبِهِمْ بِالْحَدِيدِ مَعَ أَنَّهُ أَصْلَبُ مِنَ الْحِجَارَةِ ، لِأَنَّ الْحَدِيدَ يَلِينُ بِالنَّارِ .
وقال الواحدي في الوجيز (١ / ١١٣) : ((﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أي: اشْتَدَّتْ وَصَلَبَتْ ﴾ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ مِنْ بَعْدِ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ مِنَ الْمَسْخِ ، وَرَفَعِ الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ ، وَانْبِجَاسِ الْمَاءِ مِنَ الْحَجَرِ ، وَإِحْيَاءِ الْمَيْتِ بِضَرْبِ عُضْوٍ ، وَهَذِهِ الْآيَاتِ مِمَّا يُصَدِّقُونَ بِهَا ﴾ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ فِي الْقَسْوَةِ وَعَدَمِ الْمَنْفَعَةِ ، بَلْ ﴿ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذِهِ الْقَسْوَةِ تَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ مَا عَرَفُوا صِدْقَهُ ، وَقُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِقَابِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ ، ثُمَّ عَذَرَ الْحِجَارَةَ ، وَفَضَّلَهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ...)) .

والآية توبيخ لليهود (بني إسرائيل) ، وتقريع لهم ، بسبب فسوة قلوبهم ، وغلظة طباعهم ، وخبث نفوسهم ، وسوء أخلاقهم . إن قلوبهم خالية من الرحمة والخشوع ، لأنها قاسية وباسية ، لا تعرف الاستجابة لأوامر الله ، ولا الخضوع له . وكثرة الذنوب جعلت قلوب اليهود كالحجارة التي لا تلين . ولا يمكن للإنسان أن يُنفذ أوامر الله ، ويقبل آياته ، إلا إذا كان صاحب قلب رقيق لين . وقلوب بني إسرائيل في الشدة والقسوة والغلظة كالحجارة ، بل هي أشد قسوة .

وحتى الحجارة تستحي أن تصل إلى مستوى فسوة قلوب اليهود ، لأن الجمادات تخشى الله تعالى ، وتعلم أنه خالقها وصانعها ، وكل شيء يُسبح الله تعالى بطريقة يجهلها البشر ولا يفهمونها . قال القرطبي في تفسيره (١ / ٥٠٠) : ((القسوة : الصلابة والشدة واليبس ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بني إسرائيل)) .

وفي الدر المنثور (١ / ١٩٧) عن قتادة قال : ((من بعد ما أراه الله من إحياء الموتى ، ومن بعد ما أراه من أمر القتل ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، ثم عذر الله الحجارة ، ولم يعذر شقي آدم ، ...)) .

وقد استعاد النبي ﷺ من القلب القاسي لعلمه أن القلب هو ملك الأعضاء ، وسيد الجوارح ، والركيزة الأساسية في قضية الإيمان والكفر ، ففي صحيح مسلم (٤ / ٢٠٨٨) أن النبي ﷺ قال : ((... ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ...)) .

ألجأ إليك وأستجير من العلم الذي لا يعود بالنفع على صاحبه ، وبالهداية إلى الحق والرشاد ، والنفع في أمور الدنيا والآخرة ، كالسحر والتنجيم والرجم بالغيب ، وأعوذ بك من القلب القاسي الذي لا يتأثر ولا يذل لله ، ولا ينقاد لأمر الشرع والطاعات .

والقلب القاسي يمنع الإنسان من تلقي رحمة الله ، ويحجبه عن العلم والإيمان ، والخراب المتجدد في أعماق القلب القاسي يحول الجمال إلى فبح ، والهدى إلى ضلال ، والإيمان إلى كُفر ، والسعادة إلى شقاء ، لأن البيئة الفاسدة غير قادرة على احتضان الحق والقيم الجميلة .

والقلب القاسي يجعل الإنسان يخسر كل شيء ، ويضيع دنياه وآخرته ، لأن الوعاء (القلب) الذي خلق لاستقبال النور الإلهي صار قاسياً يابساً متعفنًا ، عاجزاً عن استقبال الخير والحق والإيمان . والعطر ذو الرائحة الزكية لا يوضع في حاوية القمامة المخصصة للنفايات . والجدير بالذكر أن هناك رحمة إلهية عامة تشمل جميع الناس ، ورحمة إلهية خاصة بالمؤمنين وخدمهم .

وفي تحفة الأحودي (٣١٨ / ٩) : ((قَوْلُهُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ " ،
أي : لَا يَسْكُنُ وَلَا يَطْمِئِنُّ بِذِكْرِ اللَّهِ)) .

وقال المناوي في فيض القدير (١٠٨ / ٢) : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ)
لِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَلَا لاسْتِمَاعِ كَلَامِهِ . وَهُوَ الْقَلْبُ الْقَاسِي الَّذِي هُوَ أَعْبَدُ الْقُلُوبِ مِنْ حَضْرَةِ
عَلَامِ الْغُيُوبِ)) اهـ . وفي نَفْسِ الْمَرْجِعِ (١٥٣ / ٢) : ((قَالَ الْعَلَائِي : تَضَمَّنَ الْحَدِيثُ
الاستعادة مِنْ ذَنْبِيءِ أفعالِ الْقُلُوبِ . وَفِي قَرْنِهِ بَيْنَ الاستعادة مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ،
إشارة إِلَى أَنَّ الْعِلْمَ النَافِعَ مَا أَوْزَتْ الْخُشُوعَ ، وَفِيهِ أَنَّ السَّجْعَ لَا يَنْدَمُ ، لَكِنْ إِذَا حَصَلَ بِلا تَكْلُفٍ ،
وَلَا إِعْمَالِ فِكْرٍ ، بَلْ لِكَمَالِ فَصَاحَةِ ، وَالتَّكْلُفُ مَذْمُومٌ)) .

وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن
مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ١٣] .
إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ خَانُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ الْكِرَامَ ، نَقَضُوا وَخَانُوا مِيثَاقَهُمْ (الْعَهْدَ الْمُؤَكَّدَ) بِأَنْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ ، وَتَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ ، فَكَانَتِ الْعُقُوبَةُ هِيَ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَجَعَلَ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ، لَا تَلِينُ لِذِكْرِ اللَّهِ ، وَلَا تَسْتَقْبِلُ الْخَيْرَ . فَهُمْ لَمْ يُطَهَّرُوا قُلُوبَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ
وَالْمَعَاصِي ، وَلَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهَا فِي الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ .

بِسَبَبِ نَقْضِ الْيَهُودِ لِلْمِيثَاقِ وَنَكْثِهِمْ لِلْعَهْدِ ، طَرَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَجَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
صَلْبَةً خَشَنَةً جَافِيَةً ، لَا تَلِينُ لِلْحَقِّ ، وَلَا تَسْتَجِيبُ لِلْإِيمَانِ ، وَلَا تَقْبَلُ الطَّاعَةَ . وَقَدْ تَلَاعَبَ الْيَهُودُ
بِالتَّوْرَةِ ، وَحَرَّفُوهَا ، وَزَادُوا فِيهَا ، وَأَنْقَضُوا مِنْهَا ، وَتَأَوَّلُوا نُصُوصَهَا بِشَكْلِ مُنْحَرِفٍ ، وَكَذَّبُوا عَلَى
اللَّهِ ، وَلَا جَرِيْمَةَ أَسْوَأَ مِنْ تَغْيِيرِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى . وَتَرَكَوا نَصِيحًا وَافِرًا مِمَّا أُمِرُوا بِهِ فِي التَّوْرَةِ . وَلَا تَزَالُ
يَا مُحَمَّدٌ تَطْهَرُ عَلَى خِيَانَةٍ مِنَ الْيَهُودِ ، بِنَقْضِ الْعَهْدِ ، وَنَكْثِ الْوَعْدِ ، وَالتَّخْطِيطِ لِلْمُؤَامَرَاتِ
وَتَدْبِيرِ الْمَكَائِدِ ، وَالْغَدْرِ ، وَالْخِيَانَةِ . وَهَذِهِ عَادَةُ الْيَهُودِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤٥ / ٢) : ((أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِمْ
مِيثَاقَهُ وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ ، فَقَالَ : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أَي : فَسَبَبِ نَقْضِهِمْ الْمِيثَاقَ الَّذِي
أَخَذَ عَلَيْهِمْ ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أَي : أَبْعَدْنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ، ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ
قَاسِيَةً ﴾ أَي : فَلَا يَتَعَطَّوْنَ بِمَوْعِظَةٍ لِيُغْلِظَهَا وَقَسَّاءَتْهَا . ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ أَي :
فَسَدَّتْ فُهُومُهُمْ ، وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى
غَيْرِ مُرَادِهِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ ، عِبَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، أَي :

وتركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل، فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمه، ﴿ ولا تزال تطلع على خائبة منهم ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك . وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمألؤهم على الفتك برسول الله ﷺ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣١٣ و ٣١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ فِيمَا نَقُضِهِمْ ﴾ في الكلام محذوف تقديره : فنقضوا فينقضهم ﴾ لعناهم ﴾ . وفي المراد بهذه اللعنة ثلاثة أقوال : أحدها أنها التعذيب بالجزية ، قاله ابن عباس . والثاني التعذيب بالمسخ ، قاله الحسن ومقاتل . والثالث الإبعاد من الرحمة ، قاله عطاء والزجاج . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ ... والقسوة خلاف اللين والرفقة . وفي تحريفهم الكلم ثلاثة أقوال : أحدها تغيير حدود التوراة ، قاله ابن عباس . والثاني تغيير صفة محمد ﷺ ، قاله مقاتل . والثالث تفسيره على غير ما أنزل ، قاله الزجاج قوله تعالى : ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ، النسيان هاهنا الترك عن عمد ، والحظ النصيب . قال مجاهد : نسوا كتاب الله الذي أنزل عليهم ، وقال غيره : تركوا نصيبهم من الميثاق المأخوذ عليهم . وفي معنى ﴿ ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ قولان : أحدهما أمرؤا . والثاني أوصوا . قوله تعالى : ﴿ ولا تزال تطلع على خائبة منهم ﴾ قال ابن عباس : وذلك مثل نقض فريضة عهد رسول الله ﷺ ، وخروج كعب بن الأشرف إلى أهل مكة للتحريض على رسول الله ﷺ ﴿ إلا قليلاً منهم ﴾ لم ينقضوا العهد ، وهم عبد الله بن سلام وأصحابه)) .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٣] .

فهلأ تضرعوا حين جاءهم العذاب ، ولجؤوا إلى الله تعالى ، ودعوه بصدق وإخلاص ، ولكنهم لم يتضرعوا . وقست قلوبهم ، وبلغوا من القسوة والعناد والاستكبار مبلغاً عظيماً . وقسوة قلوبهم قادتهم إلى الهلاك . وقد عاب الله عليهم قسوة قلوبهم ، وعدم خضوعهم له ، ورفض دعائه . بين الله لرسوله ﷺ ووضح له حال أحد الأقسام السابقة . فقد أرسل الله إليهم ، وقطع حجبهم ، وأزال أعدارهم ، ولكنهم بلغوا من القسوة والعناد والاستكبار مبلغاً عظيماً . فقد أخذوا بالشدة والعذاب والعقاب ، فلم يخضعوا لله ، ولم يطيعوه . وأصرؤا على كفرهم ، وتكذيبهم بالوحي والتبوء . ولو أنهم عند مجيء العذاب خضعوا لله ، واستسلموا لأمره ، لرفع الله عنهم العذاب .

وَحَسَنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ وَالذُّنُوبِ ، وَأَغْوَاهُمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَأَغْرَاهُمْ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَلذَّاتِ ، فَتَمَسَّكُوا بِالْكُفْرِ ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ .
وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ عُذْرٌ فِي تَرْكِ الدُّعَاءِ إِلَّا الْعِنَادَ وَالِاسْتِكْبَارَ ، وَلَا مَانِعَ لَهُمْ مِنَ التَّضَرُّعِ إِلَّا قَسْوَةَ قُلُوبِهِمْ ، وَإِعْجَابَهُمْ بِأَعْمَالِهِمِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي حَسَّنَهَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَجَمَّلَهَا لَهُمْ .
وَطَبِيعَةُ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّهَا تَخْضَعُ لِلَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، وَتَسْتَسَلِمُ لَهُ فِي الْأَزْمَاتِ وَالْكَوَارِثِ ، وَتَلْجَأُ إِلَيْهِ فِي الْمَصَائِبِ . أَمَّا هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، فَقَدْ رَفَضُوا أَمْرَ اللَّهِ ، وَخَالَفُوا الطَّبِيعَةَ الْبَشَرِيَّةَ ، وَذَلِكَ لِقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ . وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ نَتِيجَةُ لِلْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَالِإِصْرَارِ عَلَيْهَا .
وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٦ / ٣٨٩) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ .
" لَوْلَا " تَحْضِيضٌ ، وَهِيَ الَّتِي تَلِي الْفِعْلَ ، بِمَعْنَى هَلَا . وَهَذَا عِتَابٌ عَلَى تَرْكِ الدُّعَاءِ ، وَإِخْبَارٌ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا حِينَ نَزَلَ الْعَذَابُ . يَجُوزُ أَنْ يَكُونُوا تَضَرَّعُوا تَضَرَّعٌ مِّنْ لَّمْ يُخْلِصْ ، أَوْ تَضَرَّعُوا حِينَ لَا يَسْتَعِينُ الْعَذَابُ . وَالتَّضَرُّعُ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ غَيْرُ نَافِعٍ . وَالدُّعَاءُ مَأْمُورٌ بِهِ حَالَ الرَّخَاءِ وَالشَّدَةِ . ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . أَي : صَلَبَتْ وَعَلَّظَتْ . وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكِبْرِ وَالِإِصْرَارِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ . ﴿ وَرَبَّنَا لَهْمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، أَي :
أَغْوَاهُمْ بِالْمَعَاصِي وَحَمَلَهُمْ عَلَيْهَا)) .

وَفِي الدَّرِّ الْمُنْتَوِرِ (٣ / ٢٦٨) أَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ((وَلَا تَعَرَّضُوا لِعُقُوبَةِ اللَّهِ بِالْقَسْوَةِ ، فَإِنَّهُ عَابَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ قَبْلَكُمْ)) .

لَا يُمَكِّنُ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْتَهِينُ بِقَسْوَةِ الْقَلْبِ ، أَوْ يَعْتَبِرَ الْمَشَاعِرَ وَالْأَحَاسِيْسَ مُجَرَّدَ رَفَاهِيَّةٍ وَكَمَايَاتٍ لَا وَزْنَ لَهَا . فَالْأَمْرُ لَا يَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ حُبِّ رُومَانِيَّةٍ ، أَوْ أُغْنِيَّةٍ عَاطِفِيَّةٍ . إِنَّ الْقِصَّةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِقُدْرَةِ الْقَلْبِ عَلَى تَقَبُّلِ الْإِيمَانِ أَوْ عَجْزِهِ عَنْ ذَلِكَ . وَمَصِيرُ الْإِنْسَانِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى مُحتَوِيَّاتِ قَلْبِهِ ، وَالْقَلْبُ هُوَ مَحَلُّ نَظَرِ اللَّهِ تَعَالَى . وَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ صَالِحًا فَهُوَ نَاجٍ ، وَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ فَاسِدًا فَهُوَ هَالِكٌ .
وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الْحَجَّ : ٥٣] .

الْآيَةُ تُقَدِّمُ تَعْلِيلًا لِعَمَلِيَّةِ إِقْدَاءِ الشَّيْطَانِ ، وَتُبْرِزُ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَنَعِهَا . لِيَجْعَلَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ مِنْ شُبُهَاتٍ وَوَسَاوِسٍ وَأَكَاذِيبٍ ضَالَّةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَشُرْكٌ وَنِفَاقٌ ، وَالْمَشْرُكِينَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَلَا تَخْضَعُ لِعَظَمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَلَا تَسْتَجِيبُ لِلْحَقِّ ، وَلَا تَعْتَرِفُ بِالصَّوَابِ .

وهذان الفريقان (الذين في قلوبهم مَرَضٌ ، وأصحاب القلوب القاسية) ظالمون . وإنَّ الظالمين لَفِي ضَلَالٍ وَعِنَادٍ بَعِيدٍ كُلِّ الْبُعْدِ عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ . إِنَّهُمْ لَفِي خِلَافٍ طَوِيلٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ .

وتقديرُ الآية : وَإِنَّهُمْ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . فَوَضَعَ الظَّاهِرُ ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ ، إِدَانَةً لَهُمْ ، وَقَضَاءً عَلَيْهِمْ بِالظُّلْمِ .

وَالشَّقَاقُ هُوَ غَايَةُ الْعَدَاوَةِ . وَقَالَ الشُّوْكَانِيُّ فِي فَتْحِ الْقَدِيرِ (٣ / ٦٦٢) : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ، أَي : عَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ . وَوَصَفُ الشَّقَاقِ بِالْبُعْدِ مُبَالَغَةٌ ، وَالْمَوْصُوفُ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ مَنْ قَامَ بِهِ ((.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٠٨) : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ﴾ ، أَي : شَكٌّ وَشُرْكٌ وَكُفْرٌ وَنِفَاقٌ ، كَالْمُشْرِكِينَ حِينَ فَرِحُوا بِذَلِكَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ صَاحِبٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : ﴿ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ﴾ هُمُ الْمُتَنَافِقُونَ . ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هُمُ الْمُشْرِكُونَ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ : هُمُ الْيَهُودُ ((.

وقال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الرَّؤْمَرُ : ٢٢] . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا تَلِينَ قُلُوبُهُمْ ، وَلَا تَخْشَعُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَلَا تَعِي ، وَلَا تَفْهَمُ . أَي إِنَّ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةٌ عَنِ الْقَبُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَذَكُّرًا لِعِبَادِهِ . وَكُلَّمَا تَلَّى عَلَيْهِمْ ذِكْرُ اللَّهِ الَّذِي يُكذِّبُونَ بِهِ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ . أُولَئِكَ الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فِي بُعْدٍ عَنِ الْحَقِّ ظَاهِرٍ .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٦٢٧) : ﴿ قَوْلُهُ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ جَفَّتْ قُلُوبُهُمْ ، وَنَأَتْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَعْرَضَتْ ، يَعْنِي عَنِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ مُذَكِّرًا بِهِ عِبَادَهُ ، فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، وَلَمْ يُصَدِّقْ بِمَا فِيهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : هَؤُلَاءِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ وَتَدَبَّرَهُ بِفَهْمٍ أَنَّهُ فِي ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ جَائِرٍ ((.

إِنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَةَ عَقُوبَةً إِلَهِيَّةً . وَلَيْسَتْ شَيْئًا خَلْقِيًّا يُوجَدُ مَعَ الْإِنْسَانِ . وَقَدْ يُوَلَّدُ الْإِنْسَانُ لَيِّنَ الْقَلْبِ ، طَاهِرَ السَّرِيرَةِ ، وَمَعَ مُرُورِ الزَّمَنِ يَقْسُو قَلْبُهُ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتَكَبَهَا ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ هِيَ عِقَابُ إِلَهِيٌّ عَادِلٌ لِلْعَبْدِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ .

وفي تفسير القرطبي (١٥ / ٢١٦) : ((قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : مَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَكْثَرَ مِنْ قَسْوَةِ قَلْبٍ ، وَمَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَى قَوْمٍ إِلَّا نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ)) .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧ / ٢٥٠) : ((﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، أي : من أجل ذِكْرِهِ الذي حَقُّهُ أَنْ تَنْسُحَ لَهُ الصُّدُور ، وَتَطْمَئِنَّ بِهِ الْقُلُوب . أي : إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُمْ أَوْ آيَاتُهُ اشْمَأَزُّوا مِنْ أَجْلِهِ ، وَازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ قَسَاوَةً . . . ﴿ أَوْلَيْكَ ﴾ الْبُعْدَاءُ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ مِنْ قَسَاوَةِ الْقُلُوبِ ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ بُعِدَ عَنِ الْحَقِّ ﴿ مُبِينٍ ﴾ ظَاهِرٌ كَوْنُهُ ضَالًّا لِكُلِّ أَحَدٍ)) .
 وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] .

طُولُ الزَّمَنِ أَثَرٌ سَلْبًا فِي الْقُلُوبِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا خَطٌّ دِفَاعٍ ، وَلَا مَنَاعَةٌ ذَاتِيَّةٌ . وَالْأَمْرُ شَبِيهٌ بِعَوَامِلِ التَّعْرِيبِ وَالتَّجْوِيبِ فِي الْجِيُولُوجِيَا ، حَيْثُ إِنَّ تِلْكَ الْعَوَامِلَ عَلَى مَرِّ السَّنَوَاتِ تَعْمَلُ عَلَى تَغْيِيرِ الْمَعَالِمِ الطَّبِيعِيَّةِ كَالْجِبَالِ وَالصَّحَارِي ، وَتُعِيدُ صِيَاغَةَ شَكْلِهَا بِسَبَبِ عَدَمِ وُجُودِ الْمَصَدَّاتِ وَالْوَسَائِلِ الْوَقَائِيَّةِ . وَطُولُ الزَّمَنِ لَا تَأْتِيرُ لَهُ فِي الْقَلْبِ الطَّاهِرِ الْمُحَصَّنِ بَوْسَائِلِ الْحِمَايَةِ وَالصِّيَانَةِ .

وَاللَّهُ أَعْطَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِمْ ، فَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةً صُلْبَةً ، لَا مَكَانَ فِيهَا لِلْحَقِّ وَالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ، وَغَيْرِ مُسْتَعِدَّةٍ لِتَقْبُلِ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ . وَابْتَعَدَ أَهْلُ الْكِتَابِ عَنِ الْوَحْيِ السَّمَاوِيِّ ، وَغَرِقُوا فِي حُطَامِ الدُّنْيَا الْفَانِي ، وَأَعْرَضُوا عَنِ تَعَالِيمِ اللَّهِ وَمَوَاعِظِهِ وَإِرْشَادَاتِهِ . وَاللَّهُ يُحَدِّثُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُشَابَهَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَسَاءَتْ أَخْلَاقُهُمْ ، وَقَسَدَتْ عَقَائِدُهُمْ ، عِنْدَمَا طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ .

وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ مِنْ نَتَائِجِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي . وَالْيَهُودُ مَشْهُورُونَ بِقَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَخُشُونَةِ طِبَاعِهِمْ ، وَعِنَادِهِمْ ، وَغُرُوبِهِمْ ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ . وَعِنْدَمَا ابْتَعَدُوا عَنِ زَمَنِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ (أَعْظَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْإِطْلَاقِ) ، وَطَالَتْ عَلَيْهِمُ الْمُدَّةُ الزَّمْنِيَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ ، اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، اتَّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ، وَتَحْقِيقًا لِمَصَالِحِهِمْ الشَّخْصِيَّةِ ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ ، وَتَغَلَّغَلَتْ فِيهَا عِشْقُ الدُّنْيَا وَالْحِرْصُ عَلَى مَتَاعِهَا الزَّائِلِ وَحُطَامِهَا الْفَانِي ، وَصَارَتْ قُلُوبُهُمْ صُلْبَةً ، تَقْبَلُ السَّيِّئَاتِ وَالْمَعَاصِي ، وَتَرْفُضُ الْحَسَنَاتِ وَالطَّاعَاتِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤ / ٣٩٧) : ((نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالَّذِينَ حَمَلُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، لَمَّا تَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، بَدَلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الْمُؤْتَفِكَةِ (الْمُتَقَلِّبَةِ) ، وَقَلَّدُوا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَلَا يَقْبَلُونَ مَوْعِظَةً ، وَلَا تَلِينَ قُلُوبُهُمْ بِوَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ)) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ((لَمْ يَكُنْ بَيْنَ إِسْلَامِهِمْ وَبَيْنَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ إِلَّا أَرْبَعَ سِنِينَ: «وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ»))
 ٣٠٦

يُعَاتِبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ يُحِبُّهُمْ، وَيُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِّ كَمَا يَحْتَنِبُهُ، وَيَنْتَبِهُوا، وَيَأْخُذُوا بِالْحَيْطَةِ وَالْحَدَرِ، وَلَا يُكْرَهُوا أخطاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ (اليهود والنصارى) . وَالْعَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ . وَيَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دِرَاسَةَ تَارِيخِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ لِأَخْذِ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ، وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهَا .

٤٨ _ الفُجُور

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٥] .
 وَاللَّوَاتِي يَزْنِينَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ، فَاطْلُبُوا أَنْ يَشْهَدُوا عَلَى ارْتِكَابِهِنَّ الزَّانَا أَرْبَعَةَ رِجَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَحْرَارِ الْعُدُولِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الزَّانَا لَا يَتَّبِعُ إِلَّا فِي وُجُودِ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، تَشْدِيدًا عَلَى الْمُدَّعِي ، وَسِتْرًا عَلَى أَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٧٩ / ٥) : ((وَتَعْدِيلِ الشُّهُودِ بِالْأَرْبَعَةِ فِي الزَّانَا حُكْمٌ ثَابِتٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)) .

فَإِنْ ثَبِتَتْ جَرِيمَةُ الزَّانَا عَلَيْهِنَّ بِشَهَادَةِ الرِّجَالِ الْأَرْبَعَةِ ، فَاحْبِسُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَمُوتَ عِقُوبَةً لَهُنَّ ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ مَخْرَجًا وَنَجَاةً بِمَا يُشْرَعُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ .
 وَقَدْ أَمَرُوا بِهَذَا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ . كَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا زَنَتْ حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَمُوتَ ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ ، وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، وَهُوَ جُلْدُ الْبِكْرِ مِائَةً، وَتَغْرِيبُهَا عَامًا ، وَرَجْمُ الْمُحْصَنَةِ .

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٦١٣ / ١) : ((كَانَ الْحُكْمُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ثَبِتَتْ زِنَاهَا بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ حُبِسَتْ فِي بَيْتِهَا ، فَلَا تُمَكِّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يَعْنِي الزَّانَا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ . فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ : كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ

٣٠٦ رواه الحاكم في المستدرک (٥٢١ / ٢) برقم (٣٧٨٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

النور، فَنَسَخَهَا بِالْجَلْدِ أَوْ الرَّجْمِ، وكذا زُوِيَ عَن عِكْرَمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعَطَاءِ الْخُرَاسَانِيِّ وَأَبِي صَالِحٍ وَقَتَادَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ وَالضَّحَّاكَ أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ ، وهو أمر مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)) .
 وفي صحيح مسلم (٣ / ١٣١٦) عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ ، جَلْدُ مِائَةٍ ، وَنَفْيُ سَنَةٍ ، وَالتَّيِّبُ بِالتَّيِّبِ ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ)) .

معنى " خُذُوا عَنِّي " : افهموا وتعلموا عَنِّي . قَدْ جَعَلَ اللَّهُ حَدًّا وَاضِحًا فِي حَقِّ الْمُحْصَنِ وَغَيْرِهِ، وهو بيان لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ . حَدُّ زِنَا الْبِكْرِ بِالْبِكْرِ ، صَرْبُ مِائَةِ جَلْدَةٍ ، وَنَفْيُ سَنَةٍ خَارِجَ بَلَدَتِهِ . وَحَدُّ زِنَا التَّيِّبِ بِالتَّيِّبِ ، جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ ، وَالجَلْدُ مَنْسُوخٌ ، وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ الرَّجْمُ ، وَلَيْسَ مَعَ الْقَتْلِ شَيْءٌ ، لِهَذَا رَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ مَاعِزًا ، وَلَمْ يَجْلِدْهُ ، وَرَجَمَ الْغَامِديَّةَ ، وَلَمْ يَجْلِدْهَا . وَهَذَا الْحَدِيثُ يُوضِّحُ حَدَّ الزَّانِي إِذَا كَانَ مُحْصَنًا أَوْ بَكْرًا .
 وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١ / ١٨٩ و ١٩٠) : ((أَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا " ، فَأَشَارَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَلِكَ السَّبِيلُ ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، فَقِيلَ : هِيَ مُحْكَمَةٌ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مُفَسَّرٌ لَهَا ، وَقِيلَ : مَنْسُوخَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي فِي أَوَّلِ سُورَةِ النُّورِ . وَقِيلَ : إِنَّ آيَةَ النُّورِ فِي الْبِكْرِينِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي التَّيِّبِينَ . وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى وُجُوبِ جَلْدِ الزَّانِي الْبِكْرَ مِائَةً ، وَرَجْمِ الْمُحْصَنِ وَهُوَ التَّيِّبِ ، وَلَمْ يُخَالَفْ فِي هَذَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، إِلَّا مَا حَكَى الْقَاضِي عِيَّاضٌ وَغَيْرُهُ عَنِ الْخَوَارِجِ وَبَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ كَالنَّطَّامِ وَأَصْحَابِهِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا بِالرَّجْمِ . وَاخْتَلَفُوا فِي جَلْدِ التَّيِّبِ مَعَ الرَّجْمِ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : يَجِبُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، فَيُجْلَدُ ثُمَّ يُرْجَمُ ، وَبِهِ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَإِسْحَاقُ بْنُ زَاهَوِيٍّ وَدَاوُدُ وَأَهْلُ الظَّاهِرِ ، وَبَعْضُ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ . وَقَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ : الْوَاجِبُ الرَّجْمُ وَحَدُّهُ . وَحَكَى الْقَاضِي عَن طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَجِبُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا إِذَا كَانَ الزَّانِي شَيْعًا نَبِيًّا ، فَإِنْ كَانَ شَابًّا نَبِيًّا اقْتَصَرَ عَلَى الرَّجْمِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ بَاطِلٍ لَا أَصْلَ لَهُ . وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اقْتَصَرَ عَلَى رَجْمِ التَّيِّبِ فِي أَحَادِيثٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا قِصَّةُ مَاعِزٍ ، وَقِصَّةُ الْمَرْأَةِ الْغَامِديَّةِ . وَفِي قَوْلِهِ ﷺ : " وَاعْدُوا أَنْتِيسُ عَلَى امْرَأَةٍ هَذَا ، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَأَرْجُمُهَا " . قَالُوا : وَحَدِيثُ الْجَمْعِ بَيْنِ الْجَلْدِ وَالرَّجْمِ مَنْسُوخٌ ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ فِي الْبِكْرِ : " وَنَفْيُ سَنَةٍ " ، فَفِيهِ حُجَّةٌ لِلشَّافِعِيِّ وَالْجَمَاهِيرِ

أنه يجب نفية سنة رجلاً كان أو امرأة . وقال الحسن : لا يجب النفي . وقال مالك والأوزاعي : لا نفي على النساء ، وزوي مثله عن عليّ _ رضي الله عنه _ ، وقالوا : لأنها عورة ، وفي نفيها تضييع لها، وتعريض لها للفتنة، ولهذا نهيته عن المسافرة إلا مع محرم. وحجة الشافعي قوله ﷺ : " البكر بالبكر ، جلد مائة ، ونفي سنة " . وأما العبد والأمة ، ففيهما ثلاثة أقوال للشافعي: أحدها يُعزَّب كل واحد منهما سنة ، لظاهر الحديث. وبهذا قال سفيان الثوري وأبو ثور وداود وابن جرير. والثاني يُعزَّب نصف سنة ، لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [النساء : ٢٥] . وهذا أصح الأقوال عند أصحابنا . وهذه الآية مُخصَّصة لعموم الحديث. والصحيح عند الأصوليين جواز تخصيص السنة بالكتاب ، لأنه إذا جاز تخصيص الكتاب بالكتاب ، فتخصيص السنة به أولى . والثالث لا يُعزَّب المملوك أصلاً ، وبه قال الحسن البصري وحماد ومالك وأحمد وإسحاق ، لقوله ﷺ في الأمة إذا زنت : " فليجلدها " ، ولم يذكر النفي ، ولأن نفيه يضرب سيده ، مع أنه لا جناة من سيده ، وأجاب أصحاب الشافعي عن حديث الأمة إذا زنت أنه ليس فيه تعرض للنفي ، والآية ظاهرة في وجوب النفي ، فوجب العمل بها ، وحمل الحديث على موافقتها ، والله أعلم . وأما قوله ﷺ : " البكر بالبكر ، والثيب بالثيب " ، فليس هو على سبيل الاشتراط، بل حد البكر الجلد والتغريب، سواء زنى بامرأة أم بغيرها ، وحد الثيب الرجم ، سواء زنى بامرأة أم بغيرها ، وهو خير بالغ عاقل ، سواء أن المراد بالبكر من الرجال والنساء من لم يُجامع في نكاح صحيح ، وهو خير بالغ عاقل ، سواء كان جامعاً بوطء شبهة أو نكاح فاسد أو غيرهما أم لا . والمراد بالثيب من جامع في دهره مرة من نكاح صحيح ، وهو بالغ عاقل حر ، والرجل والمرأة في هذا سواء ، والله أعلم . وسواء في كل هذا المسلم والكافر والرشيذ والمهجور عليه لسفه ، والله أعلم)) .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ٤٣٤ و ٤٣٥) : ((خذوا عني) أي : خذوا الحكم في حد الزنا عني ، ذكره القاضي . وقال القرطبي : أي افهموا عني تفسير السبيل المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ ﴾ الآية ، واعملوا به ، وذلك أن مقتضى الآية أن من زنى حبس في بيته حتى يموت ، وبه قال ابن عباس في النساء ، وابن عمر فيهما ، فكان هو حد الزنا لأن به يحصل الإيلاء والعقوبة بأن يُمنع من التصرف والنكاح حتى يموت ، فذلك حده ، غير أن ذلك الحكم كان ممدوداً إلى غاية ، وهو أن يُبين الله لهن سبيلاً غير الحبس ، فلما بلغ وقت بيانه المعلوم

عند الله بينه وبينه ، فبلغه لأصحابه ، فقال : " خذوا عني " وعدي الأخذ بعن دُون من ، الذي هو الأصل ، لأنه لما كان الأمر صادرًا عنه أعطاه معناه ، أو لأنه أعطى فعل الأخذ معنى الرواية ، أي ارزوا حُكم الزنا عني ، وهذا خرج مخرج التنبية والتأكيد ، إذ هو لم يُبعث إلا ليؤخذ عنه (خذوا عني) قال الطيبي : تكرير خذوا يدل على ظهور أمر كان خفي شأنه واهتم به (قد جعل الله لهن) أي للنساء الزواني (سيلاً) أي خلاصًا عن إمساكهن في البيوت المأمور به ، في سورة النور ، يعني جعل لهن طريقًا يخلصن بها من الحبس فيها (البكر بالبكر) بكسر الباء في الأصل ، من لم تُوطأ ، والمراد هنا من لم تزوج من الرجال والنساء ، كذا في المحرر (جلد مائة) أي ضرب مائة ضربة (ونفي سنة) عن البلد الذي وقع الزنا فيها (والثيب بالثيب) في الأصل من تزوج ودخل من ذكر أو أنثى ، والمراد هنا المُحصن ، يعني إذا زنا بكر ببكر ، وثيب بشيب ، فحذف ذلك اختصارًا لدلالة السياق عليه (جلد مائة والرجم) بالحجارة إلى أن يموت ، فرجم المُحصن واجب بإجماع المسلمين . قال القرطبي : ولا التفات لإنكار الخوارج والنظام، إِمَّا لِكُونِهِمْ غَيْر مُسْلِمِينَ عِنْد مَنْ يُكْفَرُهُمْ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ لَا يُعْتَدُ بِخِلَافِهِمْ . وَأَخَذَ الظَّاهِرِيَّةُ بِظَاهِرِ هَذَا الْخَبَرِ ، وَأَوْجَبُوا الْجَمْعَ بَيْنَ الْجُلْدِ وَالرَّجْمِ ، وَاقْتَصَرَ الْجَمْهُورُ عَلَى الرَّجْمِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اقْتَصَرَ عَلَى رَجْمِ مَا عَزَّ ، فَهُوَ نَاسِخٌ . وَلِلرَّجْمِ شُرُوطٌ أُخْرَى ، وَدَلَائِلُ أُخْرَى ، مُبَيَّنَةٌ فِي الْفُرُوعِ . وَفِيهِ حُجَّةٌ لِلشَّافِعِيِّ فِي وُجُوبِ نَفْيِ الْمَرْأَةِ . وَقَالَ مَالِكٌ : لَا تُنْفَى خَوْفَ الْفَسَادِ ، فَيُخَصَّ عُمُومُ التَّغْرِيبِ بِالْمَصْلُحَةِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١٦] .

والرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ اللَّذَانِ يَزْنِيَانِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ ، بِطَرِيقِ التَّغْلِيْبِ ، فَأَذُوهُمَا بِالتَّوْبِيخِ ، وَالتَّقْرِيعِ ، وَالتَّعْيِيفِ ، وَالضَّرْبِ بِالنَّعَالِ ، فَإِنَّ أَفْلَعًا عَنِ الذَّنْبِ ، وَتَابَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ، وَأَصْلَحَا الْعَمَلَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَحَسُنَتْ سِيرَتُهُمَا ، فَاتْرَكَوهُمَا ، وَكُفُّوا عَنْهُمَا الْأَذَى . إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ النَّائِبِ وَيَرْحَمُهُ .

وهذا كان قبل نزول الحدود ، وقد نسخت بالجلد والرجم .

وقال الرازي في التفسير الكبير (٢٣٥ / ٩) : ((خُصَّ الْحَبْسُ فِي الْبَيْتِ بِالْمَرْأَةِ ، وَخُصَّ الْإِيذَاءُ بِالرَّجُلِ ، لِأَنَّ الْمَرْأَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الزَّانَا عِنْدَ الْخُرُوجِ وَالْبُرُوزِ ، فَإِذَا حُبِسَتْ فِي الْبَيْتِ ، انْقَطَعَتْ مَادَّةُ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ حَبْسُهُ فِي الْبَيْتِ ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْخُرُوجِ فِي إِصْلَاحِ مَعَاشِهِ ، وَاکْتِسَابِ قُوتِ عِيَالِهِ ، فَلَا جَرَمَ جُعِلَتْ عُقُوبَتُهُمَا مُخْتَلِفَةً)) .

وروى أبو داود في سننه (٢ / ٥٤٨) : عن ابن عباس قال : ﴿ واللّاتِي يَأْتِيَنَّ الفاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَاْمَسْكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ ، وَذَكَرَ الرَّجُلَ بَعْدَ الْمَرَأَةِ ثُمَّ جَمَعَهُمَا ، فَقَالَ : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ ، فَنُسِخَ ذَلِكَ بِآيَةِ الْجَلْدِ ، فَقَالَ : ﴿ الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النُّور : ٢] .

كانت المرأة الزانية تُحبس في البيت ، وتُمنع من مخالطة الناس ، حتى تموت ، بعد أن يشهد عليها أربعة شهود بارتكابها جريمة الزنا ، وكان ذلك عقاباً لها . والفاحشة هي الزنا . وإنَّ الله ذَكَرَ حُكْمَ الرَّجُلِ الزَّانِي بَعْدَ ذِكْرِهِ لِحُكْمِ الْمَرَأَةِ الزَّانِيَةِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ الرَّجُلَ الزَّانِي يُعَاقَبُ بِالتَّوْبِيخِ وَالضَّرْبِ ، فَإِنْ تَابَ رُفِعَ عَنْهُ الْعِقَابُ . وَهَاتَانِ الْآيَتَانِ كَانَتَا فِي حُكْمِ الزَّانِي وَالزَّانِيَةِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ نُسِخَ ذَلِكَ بِآيَةِ الْجَلْدِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . أَيِ إِنْ حَدَّ الرَّنَا صَارَ مِائَةَ جَلْدَةٍ لِلْبَكْرِ ، وَالرَّجْمَ لِلثَّيْبِ ، وَنُسِخَ الْحُكْمُ بِالْحَبْسِ وَالْعِقَابِ .

إِنَّ الزَّانِي إِذَا كَانَ مُحْصَنًا فَيُعَاقَبُ بِالرَّجْمِ ، أَمَا إِنْ كَانَ بَكْرًا لَمْ يَتَزَوَّجْ فَيُجْلَدُ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَيُعْرَبُ عَنْ بَلَدِهِ لِمُدَّةٍ عَامٍ ، فَالْجَلْدُ عُقُوبَةٌ حَسِيَّةٌ ، وَالتَّغْرِيْبُ (الْإِخْرَاجُ مِنْ بَلَدِهِ) عُقُوبَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ . وَذَلِكَ لِكَفَى يُدْرِكُ حَجْمَ جَرِيْمَتِهِ ، وَيَرْتَدِعُ الْآخَرُونَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِفَعْلَتِهِ الْقَبِيْحَةِ .

وَالزَّانَا مِنْ أَسْوَأِ الْكِبَائِرِ ، وَأَعْظَمِ الْمَفَاسِدِ ، فَهُوَ يُؤَدَّى إِلَى اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ ، وَانْتِشَارِ الْأَمْرَاضِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ ، وَيُمَزَّقُ الرِّوَابِطَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بَيْنَ النَّاسِ ، وَيَنْشُرُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ . لِذَلِكَ أَوْجَبَ اللَّهُ الْحَدَّ عَلَى جَرِيْمَةِ الزَّانَا عِقَابًا عَلَيْهَا .

وَفِي صَحِيْحِ الْبُخَارِيِّ (٢ / ٩٣٧) : عَنِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ زَنَى وَلَمْ يُحْصَنْ ، بِجَلْدِ مِائَةٍ وَتَغْرِيْبِ عَامٍ .

يُوضَّحُ الْحَدِيثُ أَنَّ لِلزَّانَا عُقُوبَةَ مُحَدَّدَةً فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى . وَالزَّانِي إِنْ كَانَ مُحْصَنًا (مُتَزَوِّجًا أَوْ سَبَقَ لَهُ الزَّوْجُ) فَإِنَّ حَدَّ الرَّجْمِ حَتَّى الْمَوْتِ . وَهَذَا ثَابِتٌ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ .

أَمَّا إِنْ كَانَ الزَّانِي غَيْرَ مُحْصَنٍ ، فَحَدُّهُ أَنْ يُجْلَدَ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ ، وَأَضَافَتِ السُّنَّةُ عُقُوبَةَ التَّغْرِيْبِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْجَلْدِ ، وَهِيَ الْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهَا جَرِيْمَةَ الزَّانَا لِمُدَّةٍ عَامٍ ، تَأْدِيْبًا لَهُ ، وَتَهْدِيْبًا لِسُلُوكِهِ ، وَإِبْعَادًا لَهُ عَنِ عَادَاتِهِ الْقَبِيْحَةِ .

لقد حَصَّنَ الإسلامُ المُجتمعَ من جريمة الزَّنا ، وسَدَّ كافَّةَ الذرائعِ المُوصلة إليها ، وركَّزَ على صيانة شرف المرأة خاصَّةً ، لأنَّ المرأةَ هي وعاءُ الشَّهْوَةِ ، ومنبَعُ الفِتنة ، ومصدَّرُ الإغراء ، وكُتلةُ الغرائزِ . لذلك قدَّم اللهُ ذِكْرَ الزانيةِ على الزاني ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . فالمرأةُ هي منبعُ الفِتنةِ الجِنسيةِ، ومصدَّرُ الجَدبِ، وهي _ غالبًا _ سببُ المُشكلاتِ الجِنسيةِ ، لأنَّها تمتلكُ سلاحَ الإغراءِ وعواملَ الاستدراجِ ومُقوماتِ الجاذبيةِ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ١٧٢) : ((وإنما قدَّمَ ﴿ الزَّانِيَةُ ﴾ لأنَّ الزَّنا في الأغلبِ يكونُ بتعرُّضِها للرَّجُلِ ، وعَرَّضَ نَفْسَها عليه ، ولأنَّ مَفْسَدَتَهُ تتحقَّقُ بالإضافةِ إليها)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١ / ٦١٣) : ((قوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ ، أي : واللذان يأتیان الفاحشةَ فآذوهما . قال ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ وسعيد بن جبیر وغيرهما : أي بالشتِّمِ والتَّعْييرِ والضَّرْبِ بالنَّعالِ . وكان الحُكْمُ كذلك حتى نَسَخَهُ اللهُ بالجلْدِ أو الرَّجْمِ . وقال عكرمة وعطاء والحسن وعبد الله بن كثير : نزلت في الرَّجُلِ والمرأةِ إذا زَنِيَا . وقال السُّدي : نزلت في الفتيانِ من قبل أن يتزوجوا . وقال مُجاهد : نزلت في الرَّجُلَيْنِ إذا فعلا _ يُشيرُ إلى عمَلِ قومِ لوطٍ ﷺ _ ، واللهُ أعلمُ وقوله : ﴿ فإن تابا وأصلحا ﴾ ، أي : أقفلا ونزعا عما كانا عليه ، وصلحت أفعالهما وحسنت ، ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ ، أي : لا تُعنّفوهما بكلامٍ قبيحٍ بعد ذلك ، لأنَّ التائبَ من الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له ﴿ إنَّ اللهَ كانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾)) .

واللهُ تَوَّابٌ على مَنْ تابَ ، رحيمٌ به ، وهو سبحانه عظيمُ التَّوْبَةِ ، واسعُ الرَّحْمَةِ . وعن أبي هريرة _ رضي اللهُ عنه _ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((إذا زنت أمةٌ أحدكم ، فتبيّنَ زناها ، فليجلدها الحدَّ ، ولا يُثْرَبَ عليها)) ٣٠٧ .

إذا زنت الأُمَّةُ المملوكَةُ ، وتبيّنَ زناها بالبينةِ ، أو الاعترافِ ، أو الحملِ ، فليجلدها سيِّدُها خمسينَ جَلْدَةً (نِصْفُ حَدِّ الزانيةِ الحُرَّةِ) ، لِقَوْلِهِ تعالى : ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما على الْمُحْصَناتِ مِنَ العَذابِ ﴾ ، ثُمَّ لا يُعَيَّرُها ، ولا يُوبَّخُها ، ولا يُلومُها على الزَّنا بعد جَلْدِها ، لأنَّ هذا الحدَّ كَفَّارةٌ لِمَا صَنَعَتْ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٣٥ و ٣٦) : ((قوله : ﴿ واللذان ﴾ يعني الزَّانِيَيْنِ ، وهل هو عامٌ أم لا ، فيه قولان : أحدهما أنه عامٌ في الأَبكارِ والثُّيَّبِ مِنَ الرَّجالِ والنِّساءِ ، قاله الحَسَنُ

٣٠٧ متفق عليه . البخاري (٢ / ٧٧٧) برقم (٢١١٩) ، ومسلم (٣ / ١٣٢٨) برقم (١٧٠٣) .

وعطاء. والثاني أنه خاص في البكرين إذا زنيا ، قاله أبو صالح والسدي وابن زيد وسفيان. قال القاضي أبو يعلى: والأول أصح، لأن هذا تخصيص بغير دلالة. قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَانَهَا﴾ يعني الفاحشة. قوله: ﴿فَادُوهُمَا﴾ فيه قولان: أحدهما أنه الأذى بالكلام والتعير، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال قتادة والسدي والضحاك ومقاتل. والثاني أنه التعير والضرب بالنعال، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس. ﴿فإن تابا﴾ من الفاحشة، ﴿وأصلحا﴾ العمل، ﴿فأعرضوا﴾ عن أذاهما، وهذا كُله كان قبل الحد. فصل. كان حد الزانيين _ فيما تقدم _ الأذى لهما، والحبس للمرأة خاصة، فنسخ الحكمين جميعاً. واختلفوا بماذا وقع نسخهما، فقال قوم: بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: " خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، جلد مائة ، ورحم بالحجارة ، والبكر بالبكر ، جلد مائة ، ونفي سنة " . وهذا على قول من يرى نسخ القرآن بالسنة . وقال قوم: نسخ بقوله: ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ ، قالوا: وكان قوله: ﴿ واللذان يأتيانها ﴾ للبكرين ، فنسخ حكمهما بالجلد ، ونسخ حكم الثيب من النساء بالرحم . وقال قوم : يُحتمل أن يكون النسخ وقع بقرآن ، ثم رفع رسمه ، وبقي حكمه ، لأن في حديث عبادة : " قد جعل الله لهن سبيلاً " ، والظاهر أنه جعل بوحي لم تستقر تلاوته . قال القاضي أبو يعلى : وهذا وجه صحيح ، يخرج على قول من لم ينسخ القرآن بالسنة . قال : ويُمتنع أن يقع النسخ بحديث عبادة ، لأنه من أخبار الآحاد ، والنسخ لا يجوز بذلك)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [عَبَسَ : ٤٠] .

وُجُوهُ الْكُفَّارِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَيْهَا غُبَارٌ وَسَوَادٌ وَكَأَبَةُ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ ، لِمَا تَرَاهُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْعَذَابِ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٤٥٤) : ((يقول تعالى ذكروه : ﴿ وُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه الكفار ﴿ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ . ذَكَرَ أَنَّ الْبَهَائِمَ الَّتِي يُصَيِّرُهَا اللَّهُ تُرَابًا يَوْمَئِذٍ بَعْدَ الْقَضَاءِ بَيْنَهَا يُحْوَلُ ذَلِكَ التُّرَابُ غَبَرَةً فِي وُجُوهِ أَهْلِ الْكُفْرِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴾ [عَبَسَ : ٤١] .

تَغَشَى وَتَعَلُّوْا وُجُوهَهُمْ سَوَادٌ وَظُلْمَةٌ .

وقال البغوي في تفسيره (١ / ٣٤٠) : ((﴿ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴾ تَعَلُّوْهَا وَتَغَشَاهَا ظُلْمَةٌ وَكُسُوفٌ . قال ابن عباس : تَغَشَاهَا ذَلَّةٌ . قال ابن زيد : الفرق بين الغبرة والفترة أن الفترة ما ارتفع من الغبار فَلَحِقَ بِالسَّمَاءِ ، والغبرة ما كان أسفل في الأرض)) .

وعن أبي بن كعب _ رضي الله عنه _ : في قوله عز وجل : ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ . قال : يصيران عبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين . وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) ﴾ ٣٠٨ .

وقال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ ﴾ [عَبَسَ : ٤٢] .

أولئك الموصوفون بسواد الوجوه هم الجامعون بين الكفر والفجور . إنهم الكفرة فلوبئهم ، الفجرة في أعمالهم . وقال الطبري في تفسيره (١٢ / ٤٥٥) : ((يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين هم صفتهم يوم القيامة هم الكفرة بالله ، كانوا في الدنيا ، الفجرة في دينهم ، لا يبألون ما أتوا به من معاصي الله ، وركبوا من محارمه ، فجزأهم الله بسوء أعمالهم ما أخبر به عباده)) .

وقال أبو السعود في تفسيره (٩ / ١١٤) : ((﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه ، وما فيه من معنى البعد للإيدان ببعدهم في سوء الحال ، أي : أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ الجامعون بين الكفر والفجور ، فلذلك جمع الله تعالى إلى سواد وجوههم العبرة)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٤] .

وإن الكفار الذين ارتكبوا الذنوب والمعاصي في الدنيا ، لفي نارٍ مُحرقة ، وعذابٍ دائم . وتكبير ﴿ جحيم ﴾ للتفخيم والتهويل .

وفي تفسير الجلالين (١ / ٧٩٦) : ((﴿ وَإِنَّ الْفَجَارَ ﴾ الكفار ﴿ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ نارٍ مُحرقة)) .

٤٩ _ الفسق

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .
 وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَمَرِّدُونَ الْخٰرِجُونَ عَنِ الْإِيْمَانِ وَطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى .
 أي إنهم خارجون عن الشريعة ، مخالفون للأوامر الإلهية . قد انحرفوا عن الصراط المستقيم بعدم تحكيمهم للشريعة الإلهية المعصومة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١ / ٣٢٧) : ((﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ مُستهيناً به ، مُنكراً له ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكّموا بغيره ، ولذلك وصفهم بقوله : ﴿ الكافرون ﴾ و ﴿ الظالمون ﴾ و ﴿ الفاسقون ﴾ ، فكفرهم لإنكاره ، وظلمهم بالحكم على

٣٠٨ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٥٤٣) برقم (٣٨٤٧) وصحّحه ، ووافقه الذهبي .

خلافه ، وفسقهم بالخروج عنه . ويجوز أن يكون كُـلُّ واحدة من الصِّفَات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحُكْم به مُلائمة لها ، أو لطائفة ، كما قيل : هذه في المُسْلِمِينَ لِاتِّصَالِهِمْ بِخَطَابِهِمْ ، وَالظَّالِمُونَ فِي الْيَهُودِ ، وَالْفَاسِقُونَ فِي النَّصَارَى)) .

وفي صحيح مُسْلِمٍ (٣ / ١٣٢٧) : عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا : انْتَهَوْا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ أَمْرَكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجُلْدِ فَخُذُوهُ ، وَإِنْ أَتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، فِي الْكُفَّارِ كُلِّهَا . اعْتَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ الرَّجْمَ هُوَ حَدُّ الرِّبَا فِي التَّوْرَةِ ، لَكِنَّهُ انْتَشَرَ فِي أَشْرَافِ الْيَهُودِ ، فَصَارُوا يُطَبِّقُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ دُونَ الشَّرِيفِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى اخْتِرَاعِ عُقُوبَةٍ لِلرِّبَا تَشْمَلُ الشَّرِيفَ وَالْوَضِيعَ دُونَ تَمْيِيزِ ، فَاخْتَارُوا التَّحْمِيمَ (أَي تَسْوِيدَ الْوَجْهِ) وَالْجُلْدَ بَدَلًا مِنَ الرَّجْمِ .

وفي صحيح مُسْلِمٍ (٣ / ١٣٢٧) : عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ _ قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا _ أَي مُسْوَدَّ الْوَجْهِ _ مَجْلُودًا ، فَدَعَاهُمْ ﷺ فَقَالَ : ((هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالُوا : نَعَمْ . فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ : ((أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟)) ، قَالَ : لَا ، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ . نَجِدُهُ الرَّجْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا ، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ . قُلْنَا : تَعَالَوْا فَلَنَجْتَمِعَ عَلَى شَيْءٍ نَقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجُلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ .

وعن عبد الله بن عُمر _ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا _ أَنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ وَامْرَأَةٍ وَقَدْ زَنِيَا ، فَقَالَ لَهُمْ : ((كَيْفَ تَفْعَلُونَ بِمَنْ زَنَى مِنْكُمْ ؟)) . قَالُوا : نُحَمِّمُهُمَا وَنَضْرِبُهُمَا ، فَقَالَ : ((لَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ الرَّجْمَ ؟)) ، فَقَالُوا : لَا نَجِدُ فِيهَا شَيْئًا ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : كَذَبْتُمْ ، فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَوَضَعَ مِدْرَاسَهَا الَّذِي يَدْرُسُهَا مِنْهُمْ كَفَّهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ، فَطَفِقَ يَقْرَأُ مَا دُونَ يَدِهِ وَمَا وَرَاءَهَا ، وَلَا يَقْرَأُ آيَةَ الرَّجْمِ ، فَنَزَعَ يَدَهُ عَنِ آيَةِ الرَّجْمِ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ ! ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا : هِيَ آيَةُ الرَّجْمِ ، فَأَمَرَ بِهِمَا فَرَجَمًا قَرِيبًا مِنْ حَيْثُ مَوْضِعُ الْجَنَائِزِ عِنْدَ الْمَسْجِدِ ، فَرَأَيْتُ صَاحِبَهَا يَحْنِي عَلَيْهَا يَقِيهَا الْحِجَارَةَ^{٣٠٩} .

٣٠٩ رواه البخاري (٤ / ١٦٦٠) برقم (٤٢٨٠) واللفظ له ، ومسلم (٣ / ١٣٢٦) برقم (١٦٩٩) .

مُطْلَقًا . قوله ﷺ (فقال : ما تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ ؟) ، قال العلماء : هذا السؤال ليس لتقليدهم ، ولا لمعرفة الحُكْمِ مِنْهُمْ ، فَإِنَّمَا هُوَ لِإِلْزَامِهِمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَهُ فِي كِتَابِهِمْ ، وَلَعَلَّهُ ﷺ قَدْ أُوجِي إِلَيْهِ أَنْ الرَّجْمَ فِي التَّوْرَةِ الْمَوْجُودَةَ فِي أَيْدِيهِمْ لَمْ يُغَيِّرُوهُ ، كَمَا غَيَّرُوا أَشْيَاءَ ، أَوْ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، وَلِهَذَا لَمْ يَخْفَ ذَلِكَ عَلَيْهِ حِينَ كَتَمُوهُ . قوله (نَسَوْدُ وَجُوهَهُمَا وَنَحْمِلُهُمَا) هكذا هو في أكثر النُّسَخِ نَحْمِلُهُمَا بِالْحَاءِ وَاللَّامِ ، وَفِي بَعْضِهَا نُجَمِّلُهُمَا بِالْجِيمِ ، وَفِي بَعْضِهَا نُحَمِّمُهُمَا بِمِيمَيْنِ ، وَكُلُّهُ مُتَقَارِبٌ ، فَمَعْنَى الْأَوَّلِ نَحْمِلُهُمَا عَلَى الْحَمْلِ ، وَمَعْنَى الثَّانِي نُجَمِّلُهُمَا جَمِيعًا عَلَى الْحَمْلِ ، وَمَعْنَى الثَّلَاثِ نَسَوْدُ وَجُوهَهُمَا بِالْحَمِّ بِضَمِّ الْحَاءِ وَفَتْحِ الْمِيمِ ، وَهُوَ الْفَحْمُ ، وَهَذَا الثَّلَاثُ ضَعِيفٌ ، لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَهُ : نَسَوْدُ وَجُوهَهُمَا . فَإِنْ قِيلَ : كَيْفَ رُجِمَ الْيَهُودِيَّانَ بِالْبَيْتَةِ أَمْ بِالْإِقْرَارِ ؟ ، قُلْنَا : الظاهر أَنَّهُ بِالْإِقْرَارِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ شَهِدَ عَلَيْهِمَا أَرْبَعَةَ أَنَّهُمْ رَأَوْا ذَكَرَهُ فِي فَرْجِهَا ، فَإِنْ صَحَّ هَذَا ، فَإِنْ كَانَ الشُّهُودُ مُسْلِمِينَ فَظَاهِرٌ ، وَإِنْ كَانُوا كُفَرًا فَلَا اعْتِبَارَ بِشَهَادَتِهِمْ ، وَيَتَعَيَّنُ أَنَّهَا أَقْرَأُ بِالزَّيْنِ)) .

وروى أبو داود في سننه (٢ / ٣٢٣) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، هُوَ آيَاتُ الثَّلَاثِ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ ، خَاصَّةً فِي قُرَيْظَةَ وَالتَّنْضِيرِ .

وعن هَمَامٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ حُدَيْفَةَ فَذَكَرُوا ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : إِنَّ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَالَ حُدَيْفَةُ : ((نَعَمْ الْإِخْوَةُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِنْ كَانَ لَكُمْمُ الْخُلُوعُ وَلَهُمُ الْمُرُ ، كَلًّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَحْدُوا السُّنَّةَ بِالسُّنَّةِ حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ)) ٣١٠ .
 إِنَّكُمْ سَتَتَّبِعُونَ آثَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمِنْهُمْ جَهَنَّمُ فِي عَدَمِ تَحْكِيمِ الشَّرْعِ الْإِلَهِيِّ . وَهَذَا حَاصِلٌ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي تَحْتَكُمُ إِلَى الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ ، وَلَا تَأْخُذُ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا بِشَكْلِ جُزْئِي .
 وَعَدَمُ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَرْءُ جَاحِدًا لِلْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ ، أَوْ مُسْتَهْزِئًا بِهِ مُسْتَحْفًا بِمَكَانَتِهِ ، أَوْ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ الْحُكْمَ

٣١٠ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٢) برقم (٣٢١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال الميداني في مجمع الأمثال (١ / ١٩٥) : ((حَذْوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ ، أَي : مِثْلًا بِمِثْلٍ . يُضْرَبُ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ . وَمِثْلُهُ " حَذْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ " ، وَالْقُدَّةُ : لَعْلَهَا مِنَ الْقَدِّ وَهُوَ الْقَطْعُ يَعْنِي بِهِ قَطْعُ الرِّيشَةِ الْمَقْدُودَةِ عَلَى قَدْرِ صَاحِبَتِهَا فِي التَّسْوِيَةِ ، وَهِيَ فُعْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ ، كَاللُّقْمَةِ وَالْعُرْفَةِ)) .

البشري الوضعي أفضل من حُكم الله تعالى . أمّا إذا لم يحكم بالشرع الإلهي تحت ضغوطات مُعيّنة أو اتّباعاً للهوى ، فهو حينئذ ظالم فاسق ، ومُرتكب لكبيرة عظيمة ، ولا يخرج من المِلّة .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((إنّه ليس بالكُفر الذي يذهبون إليه ، إنّه ليس كُفراً ينقل عن المِلّة)) وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿﴾ ، كُفْرٌ ذُوْنَ كُفْرٍ ٣١١ .

هذا الكُفْر الذي لا ينقل عن المِلّة أوردَ بمعناه اللغوي لا الاصطلاحي . فالكُفْر (لُغَةً) يعود إلى كَلِمَةِ " الكُفْر " (بفتح الكاف) بمعنى السُّتْر والتَّغْطِيَة ٣١٢ . فَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِشَرَعِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ ، أَي: سَتَرَهُ وَغَطَّاهُ وَتَجَاوَزَهُ ، وَلَمْ يَخْضَعْ لَهُ ، لا بمعنى الجُحود والإنكار .

والحُكْمُ بالشرعية قضيةٌ أساسية لا يُمكن التساهل فيها أو أخذها بشكل اجتزائي ، فينبغي أن تكون دساتيرُ الدُّول مُستمددةً من الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد للتشريع ، وفي هذا ضمانةٌ لاستقرار الفرد روحياً ومادياً ، وازدهار المجتمع بكُلِّ أطيافه ، وحفظ حقوق أبنائه المُسلمين وغير المُسلمين ، ممّا يُؤدِّي إلى صناعة نهضة حقيقية مُتصلة بالسماء .

وتطبيقُ الشريعة لا يُشكّل خَطراً على أحد ، فالشرعُ الإلهي هو الضمانة الأكيدة لنهضة المجتمعات، وصونُها من أعداء الداخل والخارج ، وحماية المكتسبات الحضارية للفرد والجماعة، حيث يعيش الجميع ضمن حالة مزدهرة من السُّلم الأهلي ، والسلام الاجتماعي الذي يحتضن كُلاًّ أبناء المجتمع على اختلاف أديانهم وأعراقهم ، فلا يُوجد صِدَام بين الحاكم والمحكوم، ولا صِرَاع بين الأَكْثَرِيَّة والأَقَلِّيَّات . وفي ظلِّ مُجتمع الإخاء سوف تتعرَّز قيم التسامح والنِّماء والانتماء على أرض الواقع ، وليس بصورة شعاراتية جوفاء. وعندئذ يكون الإنسان المناسب في المكان المناسب داخل مجتمع يُقدِّر أبنائه ، ويُطوِّر إمكانياتهم ، ويضعهم في مكانهم اللائق بهم ، لكي تدور عَجَلَةٌ التنمية واقفاً ملموساً لا جبراً على ورق . وتحكيمُ الشريعة في حياة المُجتمعات سيُلغِي الشَّطَطَ الطبقي ، ويقضي على الفوارق الطبقية _ بمعناها التمييزي السليبي _ . فعندئذ يُقدِّر الضعيفُ على

٣١١ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٤٢) برقم (٣٢١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣١٢ في لسان العرب لابن منظور (٥ / ١٤٤) : ((والكُفْرُ بالفتح التَّغْطِيَة ، وكَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفَرُهُ بالكسر أَي سَتَرْتُهُ . والكافِرُ : الليل ، وفي الصِّحاح : الليل المظلم ، لأنَّه يَسْتُرُ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ شَيْءٍ . وكَفَرَ الليلُ الشَّيْءَ وكَفَرَ عليه غَطَّاه ، وكَفَرَ الليلُ على أُنْثَى صاحبي غَطَّاه بِسَوَادِهِ وظلَّمته ، وكَفَرَ الجهلُ على عِلْمِ فُلانٍ غَطَّاه ، والكافرُ البَحْرُ لِسِتْرِهِ ما فيه ، ويُجمَعُ الكافِرُ كِفْراً)) .

أخذ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِي ، كما أَنَّ الْقَوِي تَوَجَّهَ قُوَّتُهُ فِي سُبُلِ الْخَيْرِ ، فلا يُنْقِصُ مِنْ مَكَانَتِهِ أَوْ حَقُوقِهِ . وَلَئِنْ يَشْعُرُ الْفُقَرَاءُ بِأَنَّهُمْ مَنبُودُونَ فِي مَجْتَمَعٍ يَحْتَقِرُهُمْ وَيَقْهَرُهُمْ ، وَلَئِنْ يَشْعُرُ الْأَغْنِيَاءُ أَنَّهُمْ مَحَلُّ الْحَسَدِ وَالتَّرْبُصِّ بِشُرُوتِهِمْ وَالاستِيلاءِ عَلَى مُمْتَلِكَاتِهِمْ . وَلَئِنْ تَشْعُرُ الْمَرْأَةُ بِأَنَّ حَقُوقَهَا مَهْضُومَةٌ ، وَأَنَّ الْمُجْتَمَعِ يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةً ذُوئِيَّةً مَحْصُورَةً فِي إِطَارِ نَيْلِ الْمُتَعَةِ الشَّهْوَانِيَّةِ . وَلَئِنْ يَشْعُرُ الرَّجُلُ بِأَنَّ السُّلْطَةَ السِّيَاسِيَّةَ تَضْغَطُ عَلَيْهِ وَتَحْتَقِرُهُ ... إلخ. وهذه نماذج اجتماعية على سبيل الذِّكْرِ لا الحِصْرِ .

وَبِعِبَارَةِ أُخْرَى ، إِنَّ تَحْكِيمَ الشَّرِيعَةِ سَوْفَ يُعْطِي لِكُلِّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ ، فَيَتَكَرَّسُ الْمَنْهَجُ الْمَتَمَسِّكُ الَّذِي يَجْعَلُ السُّلْطَاتِ فِي الْمَجْتَمَعِ مُتَوَازِنَةً لَهَا حَقُوقٌ وَعَلَيْهَا وَاجِبَاتٌ ، دُونَ تَطَرُّفٍ ، وَلَا اضْطِرَابٍ . لَكِنَّ بَعْضَ الْجِهَاتِ الْمَعْرِضَةِ الْمُرْتَبِطَةِ بِأَجْنِدَاتٍ خَارِجِيَّةٍ تُخَوِّفُ مِنْ تَطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ . وَحُجَّتُهَا الْوَاهِيَةُ الْمُكْرَّرَةُ تَتَمَثَّلُ فِي أَنَّ تَطْبِيقَ الشَّرِيعَةِ تَخْلُفُ وَرَجْعِيَّةً ، وَتَطْبِيقَ الْحُدُودِ (قَطْعَ الْيَدِ ، الرَّجْمَ ، الْجُلْدَ ، ...) يُعْتَبَرُ مُعَادِيًّا لِحَقُوقِ الْإِنْسَانِ ، وَعَوْدَةً إِلَى الْعُصُورِ الْبَدَائِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَقْلِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ سَوْفَ يَتِمُّ اضْطِهَاذُهَا وَتَحْسَرُ حَقُوقُهَا . وَهَذِهِ الْأَسْطُوَانَةُ الْمَشْرُوحَةُ عِبَارَةٌ عَنِ سِينَارِيُو مُتَكَرِّرٍ وَمَحْفُوظٍ مُسَبِّقًا ، وَقَدْ صَارَ مَكْشُوفًا وَمَفْضُوحًا فِي آنٍ مَعًا .

إِنَّ تَطْبِيقَ الشَّرِيعَةِ هُوَ قِمَّةُ الْحَضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ الْمُتَّصِلَةُ بِالسَّمَاءِ ، وَعِنْدَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُطَبِّقُونَ الْحُدُودَ الشَّرِيعِيَّةَ كَانَتِ الْحَضَارَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَسِيْطِرُ عَلَى كَوَكَبِ الْأَرْضِ ، وَتَنْشُرُ الْقِيَمَ الْحَضَارِيَّةَ وَالْازْدَهَارَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَلِمَاذَا لَمْ تُصَبِّ بِالتَّخَلُّفِ أَوْ الْانْكَسَارِ ؟ . وَإِنَّ وَاقِعَ الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَعَاوِرَةَ يَخْلُو مِنْ تَطْبِيقِ الْحُدُودِ فَلِمَاذَا انْهَارَتْ هَذِهِ الْمَجْتَمَعَاتُ ؟ .

وَالْحُدُودُ الشَّرِيعِيَّةُ هِيَ إِجْرَاءَاتٌ رَدَعٌ وَتَخْوِيفٌ ، وَلَهَا شُرُوطٌ صَعْبَةٌ لِلْغَايَةِ مِنْ أَجْلِ تَطْبِيقِهَا . وَعِنْدَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُطَبِّقُونَ الْحُدُودَ فِي عَصُورِ الْازْدَهَارِ لَمْ يَتَحَوَّلِ الْمُجْتَمَعُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مَشْغُولِينَ وَمُعَاقِبِينَ وَتَوَقَّفَتْ عَمَلِيَّةُ الْإِنْتِاجِ . وَعَدَدُ الَّذِينَ طَبَّقَتْ عَلَيْهِمُ الْحُدُودَ عِبْرَ تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَلِيلٌ جِدًّا ، بِحَيْثُ لَا يُذَكَّرُ . أَمَّا وَرَقَةُ الْأَقْلِيَّاتِ الَّتِي يُلْعَبُ بِهَا فَهِيَ وَرَقَةٌ مَحْرُوقَةٌ . فَقَدْ عَاشَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرَهُمْ فِي كَنَفِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَحْكُومَةِ بِالشَّرِيعَةِ كُلِّ هَذِهِ الْقُرُونِ ، وَلَمْ نَسْمَعْ عَنْ إِجْبَارِهِمْ عَلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ هَدْمِ أَمَاكِنِ عِبَادَتِهِمْ ، أَوْ الْاِعْتِدَاءِ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ ، أَوْ سَرَقَةِ أَمْوَالِهِمْ . وَمَا وُجُودُهُمْ بَيْنَنَا حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ إِلَّا مُؤَشِّرٌ عَلَى حُسْنِ مَعَامَلَتِهِمْ . مَعَ أَنَّهُ كَانَ سَهْلًا اسْتِنْصَالَهُمْ عِنْدَمَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُسَيِّطِرُونَ عَلَى الْعَالَمِ مَعْنَوِيًّا وَمَادِيًّا . وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى سَاهَمُوا فِي صِنَاعَةِ مَجْدِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَةِ الْإِسْلَامِ وَرَحْمَتِهِ وَحَيَوِيَّةِ نِظَامِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَأَنَّهُ دَاعِمٌ لِكُلِّ الْمَوَاطِبِ وَالْكَفَآءَاتِ ، بِلَا تَمْيِيزٍ وَلَا غُنْصَرِيَّةٍ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .
 وإنَّ أكثرَ الناسِ خارجون عن طاعة الله ، مُعَارِضُونَ للحق ، رافضون للهدى ، مُخَالِفُونَ
 للصَّواب ، غارقون في الدُّنُوبِ والمعاصي . وقال البيضاوي في تفسيره (٣٣٢ / ١) : ((﴿ وَإِنَّ
 كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ لَمُتَمَرِّدُونَ فِي الكُفْرِ ، مُعْتَدُونَ فِيهِ)) .
 وقال الشُّوكَانِي فِي فَتْحِ القَدِيرِ (٧١ / ٢) : ((﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ مُتَمَرِّدُونَ
 عَنِ قَبُولِ الحَقِّ ، خَارِجُونَ عَنِ الإِنصَافِ)) .
 وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٨] .
 واللهُ لا يُرشدُ الخارجين عن طاعته إلى سبيل الحق ، ولا يَهْدِيهِم إلى طريقِ الجَنَّةِ .
 وقال ابن كثير في تفسيره (١٥٢ / ٢) : ((﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، أي :
 الخارجين عن طاعته ومُتَابِعَةِ شَرِيعَتِهِ)) .
 وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٩] .
 والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ، وَأَنكَرُوا الْقُرْآنَ وَالْمُعْجِزَاتِ ، وَجَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، يُصِيبُهُمُ
 العَذَابُ الأَلِيمُ بسببِ خُرُوجِهِمْ عَنِ طَاعَةِ اللهِ وَكُفْرِهِمْ بِهِ .
 وقال ابن كثير في تفسيره (١٨٠ / ٢) : ((أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به
 الرُّسُلُ ، وَخَرَجُوا عَنِ أَمْرِ اللهِ وَطَاعَتِهِ ، وَارْتَكَبُوا مِنْ مَنَاهِيهِ وَمَحَارِمِهِ وَانْتَهَاكِ حُرْمَاتِهِ)) .
 وقال الطبري في تفسيره (١٩٧ / ٥) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : وَأَمَّا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِمَن أَرْسَلْنَا
 إِلَيْهِ مِنْ رُسُلِنَا ، وَخَالَفُوا أَمْرَنَا وَنَهَيْنَا ، وَدَافَعُوا حُجَّتِنَا ، فَإِنَّهُمْ يُبَاشِرُهُمْ عَذَابُنَا وَعِقَابُنَا عَلَى
 تَكْذِيبِهِمْ مَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ حُجَّتِنَا ﴾ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، يقول : بما كانوا يَكْذِبُونَ . وكان ابن زيد
 يقول : كُلُّ فِسْقٍ فِي الْقُرْآنِ فَمَعْنَاهُ الكَذِبُ)) .
 وقال البيضاوي في تفسيره (٤١٠ / ١) : ((﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ ،
 جَعَلَ العَذَابَ مَاسًّا لَهُمْ ، كَأَنَّهُ الطَّالِبُ لِلوُصُولِ إِلَيْهِمْ ، وَاسْتَعْنَى بِتَعْرِيفِهِ عَنِ التَّوْصِيفِ ﴾ بِمَا كَانُوا
 يَفْسُقُونَ ﴾ بسببِ خُرُوجِهِمْ عَنِ التَّصْديقِ وَطَاعَةِ)) .
 وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١] .
 ولا تَأْكُلُوا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ مِنَ الذَّبَائِحِ الَّتِي ذُبِحَتْ لِغَيْرِ اللهِ ، أَوْ ذُكِرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِ اللهِ . وَإِنَّ
 الأَكْلَ مِنْهَا مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَإِثْمٌ عَظِيمٌ ، وَخُرُوجٌ عَنِ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَمُخَالَفَةٌ لِلحَقِّ وَالدِّينِ .
 وَذَلِكَ لِأَنَّ الدَّبْحَ عِبَادَةٌ ، وَالعِبَادَةُ لَا تَكُونُ إِلاَّ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، لِأَنَّهُ المُنْفَرِدُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ وَالمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١١٤ و ١١٥) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ . سبب نُزولها مُجَادلة المُشركين للمؤمنين في قَوْلهم : أَتَأْكُلُونَ مِمَّا قَتَلْتُمْ ، وَلَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ ؟ ، على ما ذَكَرنا في سبب قَوْله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ هذا قول ابن عباس . وقال عكرمة : كَتَبَتْ فَارِسَ إِلَى قُرَيْشٍ إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ لَا يَأْكُلُونَ مَا ذَبَحَهُ اللَّهُ ، وَيَأْكُلُونَ مَا ذَبَحُوا لِأَنْفُسِهِمْ ، فَكَتَبَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ ، فَوَقَعَ فِي أَنْفُسِ نَاسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ . وَفِي الْمُرَادِ بِمَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ، أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الْمَيْتَةُ ، رَوَاهُ ابْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّانِي أَنَّهُ الْمَيْتَةُ وَالْمُنْحَنِقَةُ ، إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ ﴾ [المائدة : ٣] . رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَالثَّلَاثُ أَنَّهَا ذَبَائِحُ كَانَتْ الْعَرَبُ تَذْبِحُهَا لِأَوْثَانِهَا ، قَالَهُ عَطَاءٌ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ عَامٌ فِيمَا لَمْ يُسَمَّ اللَّهُ عِنْدَ ذَبْحِهِ . وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى ذَهَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ الْخَطْمِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٢٧) : ((اسْتُدِلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى أَنَّ الذَّبِيحَةَ لَا تَحِلُّ إِذَا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَإِنْ كَانَ الذَّبَائِحُ مُسْلِمًا . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا تَحِلُّ هَذِهِ الذَّبِيحَةُ بِهَذِهِ الصَّفَةِ ، وَسَوَاءٌ مَتْرُوكُ التَّسْمِيَةِ عَمْدًا أَوْ سَهْوًا ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو وَنَافِعِ مَوْلَاهُ وَعَامِرِ الشَّعْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ، وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، نَصَرَهَا طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي ثَوْرٍ وَدَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ ، وَاخْتَارَ ذَلِكَ أَبُو الْفَتْوحِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الطَّائِيُّ مِنْ مُتَأَخَّرِي الشَّافِعِيَّةِ فِي كِتَابِهِ [الْأَرْبَعِينَ] وَاحْتَجَّوْا لِمَذْهَبِهِمْ هَذَا بِهَذِهِ الْآيَةِ ثُمَّ قَدْ أَكَّدَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وَالضَّمِيرُ قِيلَ : عَائِدٌ عَلَى الْأَكْلِ ، وَقِيلَ : عَائِدٌ عَلَى الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي فِي الْمَسْأَلَةِ : أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ التَّسْمِيَةُ ، بَلْ هِيَ مُسْتَحْبَةٌ ، فَإِنْ تَرَكْتُ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا لَا يَضُرُّ ، وَهَذَا مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَجَمِيعِ أَصْحَابِهِ ، وَرِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، نُقِلَتْ عَنْهُ ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ ، وَنَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَشْهَبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَحُكِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَحَمَلَ الشَّافِعِيُّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ عَلَى مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَهَذَا الْمَسْئَلُ الَّذِي طَرَفَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ قَوِيًّا . الْمَذْهَبُ الثَّلَاثُ فِي الْمَسْأَلَةِ : إِنْ تَرَكَ الْبِسْمَلَةَ عَلَى الذَّبِيحَةِ نِسْيَانًا لَمْ يَضُرَّ ، وَإِنْ تَرَكَهَا عَمْدًا لَمْ تَحِلَّ ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الْإِمَامِ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، وَبِهِ يَقُولُ

أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويته ، وهو محكي عن عليّ وابن عباس وسعيد بن المسيّب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة ابن أبي عبد الرحمن)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : ٦٧] .

إنّ المنافقين هم الكاملون في الفسق ، وهو التمرد في الكفر ، والعصيان ، والانسلاخ عن كمال خير ، والخروج عن طاعة الله . وكفى به زحوا لأهل النفاق . والله لم يقل : إنّهم الفاسقون ، بل قال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٤٨٤) : ((﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، أي : الخارجون عن طريق الحق ، الداخولون في طريق الضلالة)) .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤١١) : ((يقول : إنّ الذين يُخَادِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِظْهَارِهِمْ لَهُمْ بِالسُّنَنِ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ ، وَهُمْ لِلْكَفْرِ مُسْتَبْطِنُونَ ، هُمُ الْمُفَارِقُونَ طَاعَةَ اللَّهِ ، الْخَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] .

يَخْلِفُونَ لَكُمْ بِأَعْظَمِ الْإِيمَانِ لِيَنَالُوا رِضَاكُمْ فَيَنْتَفِعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ظَاهِرًا وَتَعَامَلُوهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ رِضَاكُمْ لَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النَّفَاقِ وَالْكَفْرِ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعُقُوبَتِهِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ . والمعنى : لَا يَنْفَعُ رِضَاكُمْ مَعَ سَخَطِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ سَاخِطٌ عَلَيْهِمْ لِمَا يَعْلَمُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النَّفَاقِ، فَلَا يُنْقِذُهُمْ رِضَاكُمْ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَاللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ . وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِئَلَّا يُتَوَهَّمُ أَنَّ رِضَا الْمُؤْمِنِينَ يَفْتَضِي رِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤٥٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُهُ : يَخْلِفَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ اعْتِدَارًا بِالْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ ﴾ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، يقول : فَإِن أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ رَضِيتُمْ عَنْهُمْ ، وَقَبِلْتُمْ مَعذِرَتَهُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ مِنْ كَذِبِهِمْ ، فَإِنَّ رِضَاكُمْ عَنْهُمْ غَيْرُ نَافِعِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ، لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ سِرَائِرِ أَمْرِهِمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، وَمِنْ خَفِيِّ اعْتِقَادِهِمْ مَا تَجْهَلُونَ ، وَأَنْتُمْ عَلَى الْكَفْرِ بِاللَّهِ ، يَعْنِي أَنَّكُمْ الْخَارِجُونَ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكَفْرِ بِاللَّهِ ، وَمِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ)) .

واللَّهُ لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 ووضع الفاسقين موضع الضمير (الإظهار في موضع الإضمار) للتسجيل عليهم بالفسق والخروج
 عن الطاعة، ولزيادة التشنيع والتقييح.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٥٧٤): ((...)) ، وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الخلف
 هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال:
 ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ،
 وإذا كان هذا هو ما يريد الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها
 المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم، على أن رضاكم عنهم
 لو وقع لكان غير معتد به، ولا مفيد لهم. والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم،
 نهى المؤمنين عن ذلك، لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن ((.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٧): ((...)) ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم
 فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله، ورضاكم وخذكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله،
 وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله، فلا يهتك سترهم،
 ولا ينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم، والاعتذار بمعاذيرهم بعد الأمر
 بالإعراض، وعدم الالتفات نحوهم ((.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
 فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

إن الله أرشد عباده إلى طريق سعادتهم، وأمر المترفين _ الذين هم عليه القوم وأصحاب
 الثروة والسلطة والثفوذ _ بالطاعة والخير. والله يأمر بالطاعات، ولا يأمر بالمعاصي. وإذا قال
 أحدهم: أمرته فعصاني، فيفهم من هذا الكلام أن الأمر كان بعكس المعصية. وقوله تعالى:
 ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يُشير إلى أن الأمر كان بمخالفة الفسق، لكنهم خرجوا عن الأمر
 الإلهي، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فاستحقوا العذاب، وحل بهم الدمار المهلك. وقد
 خص المترفون بالذكر لأنهم الرؤساء، وهم الأكثر طيشًا وغرورًا وسفاهةً، والأقدر على المعصية
 والفجور، والأسرع إلى سفك الدماء، وتبذير الأموال. والناس تبع لهم. وإذا أراد الله إهلاك
 قرية بسبب سوء حالها، أمر الأغنياء المتنعمين في ملذات الدنيا وشهواتها بطاعته وشكر نعمة،

فَخَالَفُوا وَعَصَوْا . لقد أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ فَعَصَوْهُ ، وَغَرَفُوا فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَاعْتَرَوْا بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَوَاحِشُ وَالْمَعَاصِي ، وَلَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ الْكَثِيرَةِ ، فَاسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللَّهِ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ ، فَوَجَبَ عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْعَذَابُ بِسَبَبِ مَعَاصِي أَهْلِهَا وَظُهُورِ فِسْقِهِمْ ، فَدَمَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ دَمَارًا شَدِيدًا ، لَا يُمَكِّنُ تَخِيلُهُ وَلَا تَصَوُّرَهُ ، وَجَعَلَهَا خَرَابًا ، وَأَهْلَكَ أَهْلَهَا ، وَجَعَلَهُمْ أَثَرًا إِثْرَ عَيْنٍ . لقد عَذَّبَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكَ اسْتِثْصَالٍ ، وَلَا أَحَدٌ يَهْلِكُ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا رَادَّ لِإِرَادَتِهِ النَّافِذَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَا شَيْءٌ يَقِفُ أَمَامَ قَضَائِهِ السَّابِقِ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠٣ / ١٠) : ((يُعْلَمُ أَنَّ مَنْ هَلَكَ هَلَكًا يَرَادَتُهُ ، فَهُوَ الَّذِي يُسَبِّبُ الْأَسْبَابَ ، وَيَسْتَوْقِهَا إِلَى غَايَاتِهَا ، لِيَحِقَّ الْقَوْلُ السَّابِقُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤٨ / ٣) : ((وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَاهَا . فَقِيلَ : مَعْنَاهَا : أَمْرًا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا أَمْرًا قَدْرِيًّا ، ... ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . قَالُوا : مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَخَّرَهُمْ إِلَى فِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : أَمْرُنَاهُمْ بِالطَّاعَاتِ ، فَفَعَلُوا الْفَوَاحِشَ ، فَاسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ ، رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ أَيْضًا)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١٩ و ١٨ / ٥) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ فِي سَبَبِ إِرَادَتِهِ لِذَلِكَ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا مَا سَبَقَ لَهُمْ فِي قَضَائِهِ مِنَ الشَّقَاءِ ، وَالثَّانِي عِنَادُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُمْ فَأَمَّا الْمُتْرَفُونَ ، فَهُمْ الْمُتَنَعِّمُونَ الَّذِينَ قَدْ أَبْطَرَتْهُمْ النِّعْمَةُ وَسَعَةُ الْعَيْشِ . وَالمُفَسِّرُونَ يَقُولُونَ : هُمُ الْجَبَّارُونَ وَالمُسْلَطُونَ وَالمُلُوكُ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْمُتْرَفِينَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الرُّؤْسَاءُ ، وَمَنْ عَدَاهُمْ تَبِعَ لَهُمْ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ ، أَي : تَمَرَّدُوا فِي كُفْرِهِمْ ، لِأَنَّ الْفِسْقَ فِي الْكُفْرِ الْخُرُوجَ إِلَى أَفْحَشِهِ)) .

والجدير بالذكر أن المعاصي إذا ظهرت ، ولم يتم تغييرها ، ولا مكافحتها ، كانت سبباً لهلاك الجميع . وعندئذ يأتي العذاب دون تفريق بين المحسن والمسيء . وإذا كثرت المعاصي والآثام عمَّت العقوبة الصالح والطالح . عن زينب بنت جحش _ رضي الله عنها _ أنها سألت النبي ﷺ : أَنُهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ ، قَالَ : ((نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبِيثُ)) ٣١٣ .

كَيْفَ يُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْنَا الْهَلَكَ وَفِينَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ ؟ ، وَكَأَنَّهُا أَحَدَتْ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الْأَنْفَالُ : ٣٣] ،

٣١٣ متفق عليه . البخاري (١٣١٧ / ٣) برقم (٣٤٠٣) ، ومسلم (٢٢٠٧ / ٤) برقم (٢٨٨٠) .

فقال لها النبي ﷺ : " نَعَمْ ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ " ، والخَبَثُ : الفُسُوقُ والفُجُورُ والمعاصي ، مِنْ نَحْوِ الرِّئَا ، والخُمُور ، وغيرها ، وإذا كَثُرَ المُجْتَرِئُونَ على معاصي الله ذُون رَادِعٍ وَلَا وَاذِعٍ ، عَمَّ الهَلَاكُ الجَمِيعَ ، ثُمَّ يُبْعَثُ كُلُّ عَلَى نَيْتِهِ . وقيل : إذا عَزَّ الأَشْرَارُ وَذَلَّ الصَّالِحُونَ ، فَيَهْلِكُ العَامَّةُ بِفَسَادِ الخَاصَّةِ ، وَلَوْ كَانَ فِيهِمُ الصَّالِحُونَ ، إذا انتشرت الفواحشُ ، وَفَشَتِ المُنْكَرَاتُ ، وَلَمْ يُنْكَرْهَا أَحَدٌ ، كما قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] .
والحديثُ يُوضِّحُ أَنَّ إهْلَاكَ الجَمِيعِ يَكُونُ عِنْدَ ظُهُورِ المُنْكَرِ والإِعْلَانِ بالمعاصي ، وَإِذَا كَثُرَ الخَبَثُ عَمَّ العِقَابُ الصَّالِحَ وَالتَّالِحَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/١٨) : ((وَفَسَّرَهُ الجُمُهورُ بالفُسُوقِ وَالتَّجُورِ . وقيل : المُرَادُ الرِّئَا خَاصَّةً ، وقيل : أَوْلَادُ الرِّئَا . وَالتَّالِحُ أَنَّهُ المَعَاصِي مُطْلَقًا . معنى الحديث أَنَّ الخَبَثَ إِذَا كَثُرَ فَقَدْ يَحْصُلُ الهَلَاكُ العَامُ وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ صَالِحُونَ)) .

وفي فتح الباري (١٣ / ١٠٩) : ((قَالَ ابْنُ العَرَبِيِّ : فِيهِ البَيَانُ بِأَنَّ الخَيْرَ يَهْلِكُ بِهَلَاكِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ يُغَيَّرْ عَلَيْهِ خَبَثُهُ ، وَكَذَلِكَ إِذَا غَيَّرَ عَلَيْهِ لَكِنْ حَيْثُ لَا يُجَدِّي ذَلِكَ ، وَيُصِرُّ الشَّرِّيرُ عَلَى عَمَلِهِ السَّيِّئِ ، وَيَفْشُو ذَلِكَ وَيَكْثُرُ حَتَّى يَعْمَ الفَسَادُ ، فَيَهْلِكُ حِينَئِذٍ القَلِيلُ وَالكَثِيرُ ، ثُمَّ يُحْشَرُ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى نَيْتِهِ)) .

وقَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السَّجْدَةُ : ١٨] ٣١٤ .
أَفَمَنْ كَانَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنًا مُطِيعًا لِلَّهِ كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا خَارِجًا عَنِ طَاعَةِ اللهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ فِي الشَّرْفِ وَالتَّوَابِ وَالكِرَامَةِ ، كَمَا لَمْ يَسْتَوُوا فِي الدُّنْيَا بِالعِبَادَةِ وَالتَّوَابَةِ .
وَالجَمْعُ فِي ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ لِلحَمَلِ عَلَى المَعْنَى . وَلَمْ يَقُلِ اللهُ : لَا يَسْتَوِيَانِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ مُؤْمِنًا وَاحِدًا وَفَاسِقًا وَاحِدًا ، بَلْ أَرَادَ جَمِيعَ المُؤْمِنِينَ وَجَمِيعَ الفَاسِقِينَ .

٣١٤ قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ فِي زَادِ المَسِيرِ (٦ / ٣٤٠ وَ ٣٤١) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ﴾ ، فِي سَبَبِ نَزْوِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ الوَلِيدَ بْنَ عُمَيْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : أَنَا أَحَدُ مَنْكَ سِنَانًا ، وَأَبْسَطُ مَنْكَ لِسَانًا ، وَأَمَلًا لِلكُتَيْبَةِ مِنْكَ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ : اسْكُتْ ، فَإِنَّمَا أَنْتَ فَاسِقٌ ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ ، فَعَنَى بِالمُؤْمِنِ عَلِيًّا ، وَبِالفَاسِقِ الوَلِيدَ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَبِهِ قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى وَمُقَاتِلٌ . وَالتَّالِحُ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ وَأَبِي جَهْلٍ ، قَالَه شَرِيكٌ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ، قَالَ الرَّجَّاحُ : المَعْنَى : لَا يَسْتَوِي المُؤْمِنُونَ وَالكَافِرُونَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/٦١٠) : ((يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ عَدْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنَّهُ لَا يُسَاوِي فِي حُكْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بِآيَاتِهِ مُتَّبِعًا لِرُسُلِهِ ، بِمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، أَيْ : خَارِجًا عَنِ طَاعَةِ رَبِّهِ ، مُكَذِّبًا لِرُسُلِ اللَّهِ إِلَيْهِ...)) ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أي : عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٤٤) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : أَفَهَذَا الْكَافِرُ الْمُكَذِّبُ بَوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ ، الْمُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيِهِ ، كَهَذَا الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ ، الْمُصَدِّقُ بَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، الْمُطِيعُ لَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ؟ كَلَّا ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، يَقُولُ : لَا يَعْتَدِلُ الْكُفَّارُ بِاللَّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ عِنْدَهُ ، فِيمَا هُوَ فَاعِلٌ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ فَجَمَعَ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ قَبْلَ ذَلِكَ اثْنَيْنِ : مُؤْمِنًا وَفَاسِقًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِالْمُؤْمِنِ : مُؤْمِنًا وَاحِدًا ، وَبِالْفَاسِقِ : فَاسِقًا وَاحِدًا ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ بِهِ جَمِيعَ الْفَاسِقِ ، وَجَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْنَانِ غَيْرِ مَصْمُودٍ لِهَمَا ، ذَهَبَتْ بِهِمَا الْعَرَبُ مَذْهَبَ الْجَمْعِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [السَّجْدَةُ : ٢٠] .

وَأَمَّا الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ فَمَلَجَوْهُمْ وَمَنَزَلْنَاهُمُ النَّارَ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤ / ٣٦٢) : ((﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ ، أَيْ : خَرَجُوا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَتَمَرَّدُوا عَلَيْهِ وَعَلَى رُسُلِهِ ، ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ ، أَيْ : مَنَزَلْنَاهُمُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ وَيَسْتَقِرُّونَ فِيهِ هُوَ النَّارُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الْحَشْرُ : ١٩] . وَلَا تَكُونُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالَّذِينَ تَرَكُوا ذِكْرَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ وَأَمْرَهُ ، فَأَنسَاهُمْ حُظُوظَ أَنفُسِهِمْ أَنْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْفَجْرَةُ الْخَارِجُونَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، الْخَاسِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، الْمُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ .

لَقَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ اللَّهِ ، وَأَعْرَضُوا عَنْ طَاعَتِهِ ، وَلَمْ يَمْتثلُوا أَمْرَهُ ، فَعُوقِبُوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَنسَاهُمْ حُظُوظَ أَنفُسِهِمْ ، حَتَّى لَمْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا يَنْفَعُهَا . وَهَذَا مِنَ الْمُجَازَاةِ عَلَى الذَّنْبِ بِالذَّنْبِ . وَالْمَعْنَى : لَا تَنْسُوا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُنْسِيَكُمْ الْعَمَلَ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِكُمْ الَّتِي تَنْفَعُكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ .

وقال أبو السعود في تفسيره (٨ / ٢٣٢) : ((﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي : نَسُوا حُقُوقَهُ تَعَالَى ، وَمَا قَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَلَمْ يُرَاعُوا مَوَاجِبَ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ حَقَّ رِعَايَتِهَا ، ﴿ فَأَنسَاهُمْ ﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أَيْ : جَعَلَهُمْ نَاسِينَ لَهَا حَتَّى لَمْ يَسْمَعُوا مَا يَنْفَعُهَا ، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا يُخَلِّصُهَا ، أَوْ أَرَاهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا أَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الْكَامِلُونَ فِي الْفُسُوقِ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢٨٩ / ٥) : ((﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ ، أي : تركوا أمره ، أو ما قدروه حق قدره ، أو لم يخافوه ، أو جميع ذلك ، ﴿ فأنساهم أنفسهم ﴾ أي : جعلهم ناسين لها بسبب نسيانهم له ، فلم يشتغلوا بالأعمال التي تُنجيهم من العذاب ، ولم يكفوا عن المعاصي التي توقعهم فيه . ففي الكلام مضاف محذوف ، أي : أنساهم حُطوط أنفسهم . قال سفيان : نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم . وقيل : نسوا الله في الرخاء فأنساهم أنفسهم في الشدائد ، ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ ، أي : الكاملون في الخروج عن طاعة الله)) .

٥٠_ المُسَافِحَةُ

قال الله تعالى : ﴿ والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكِيماً ﴾ [النساء: ٢٤] .

وحُرِّمَ عليكم نِكَاحَ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلا ما مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ (الإماء)، فَيَحِلُّ لَكُمْ وَطُؤُهُنَّ بَعْدَ الاسْتِبْرَاءِ (الحامل حتى تضع ، وذات الحيض حتى تحيض) ، وَلَوْ كانَ لَهُنَّ أَزْواجٌ فِي دارِ الحَرْبِ ، لِأَنَّ بالسَّبْيِ تَنْقَطِعُ عِصْمَةُ الكافِرِ ، أَي إِنَّ النِّكَاحَ مُرْتَفِعٌ بالسَّبْيِ . هذا التَّحْرِيمُ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَفَرَضَهُ عَلَيْكُمْ فَرِيضَةً ، فَالْتِزَمُوا بِهِ ، وَتَمَسَّكُوا بِشَرْعِهِ ، وَطَبَّقُوا ما فَرَضَهُ عَلى أَرْضِ الوَاقِعِ .

وَأَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ نِكَاحَ ما سِوَاهُنَّ . وما عَدَا ما ذَكَرَهُنَّ اللَّهُ مِنَ المَحَارِمِ هُنَّ حَلالٌ لَكُمْ . والآية: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ احتجَّ بها مَنْ أَباحَ الجَمْعَ بَيْنَ الأُحْتِنِ . حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ما حَرَّمَ ، وَأَحَلَّ لَكُمْ ما أَحَلَّ ، مِنْ أَجْلِ أَنْ تَطْلُبُوا النِّسَاءَ بِطَرِيقِ شَرْعِي ، فَتَدْفَعُوا لَهُنَّ المُهورَ ، حَالِ كَوْنِكُمْ مُتَزَوِّجِينَ مُتَعَفِّفِينَ غَيْرِ زَانِينَ .

فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح ، فأعطوهنَّ مُهورَهُنَّ فَرِيضَةً فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ . والاسْتِمْتاعُ التَّلذُّذُ ، والأُجُورُ المُهورُ . وَسُمِّيَ المَهرُ أَجْرًا ، لِأَنَّهُ أَجْرُ الاسْتِمْتاعِ . والآيةُ دَليلٌ عَلى أَنَّ المَهرَ يُسَمَّى أَجْرًا . ولا إثمَ عَلَيْكُمْ ولا لَوْمٌ ولا حَرَجٌ إِذا أَسْقَطَ المَهرَ أو بَعْضَهُ بِرِضاهُنَّ . إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً بِمِصْالِحِ العِبادِ ، حَكِيماً فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الأحْكامِ .

وفي صحيح مسلم (٢ / ١٠٧٩) : عن أبي سعيد الخدري أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أوطاس ، فَلَقُوا عَدُوًّا ، فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا ، فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غَشِيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، أَي : فَهِنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ .

أرسل النبي ﷺ جَيْشًا إِلَى أوطاس (اسم مكان) ، فَلَقُوا عَدُوًّا مِنَ الْكُفَّارِ ، فَقَاتَلُوهُمْ ، وَغَلِبُوهُمْ ، وَأَخَذُوا نِسَاءَهُمْ سَبَايَا ، فَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَافُوا الْإِثْمَ مِنْ جَمَاعِهِنَّ لِأَنَّهُنَّ زَوَاجَاتُ ، وَالْمُزَوَّجَةُ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِرُوجِهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وَبَيَّنَّ أَنَّهُنَّ حَلَالٌ بَعْدَ الْاِسْتِبْرَاءِ .

لقد نظم الشَّرعُ أَحْكَامَ الدِّينِ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْحَرْبُ يَنْتُجُ عَنْهَا أُسْرَى مِنْ رِجَالِ الْعَدُوِّ وَسَبَايَا مِنْ نِسَائِهِمْ ، فَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ أَحْكَامَ هَؤُلَاءِ ، فَحَرَّمَ وَطَأَ السَّبَايَا الْحَوَامِلَ وَذَوَاتِ الْأَزْوَاجِ حَتَّى تَضَعَ الْحَوَامِلُ حَمْلَهُنَّ ، وَحَتَّى تَثْبُتَ بَرَاءَةُ غَيْرِ الْحَامِلِ مِنَ الْحَمْلِ بِالْحَيْضِ . وَقَعَتْ غَزْوَةُ حُنَيْنٍ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ عَقِبَ فَتْحِ مَكَّةَ ، بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الطَّائِفِ مِنْ قَبِيلَتِي هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ ، فِي وادٍ يُسَمَّى حُنَيْنًا ، بَيْنَ مَدِينَةِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ . وَكَانَ الْكُفَّارُ قَدْ خَرَجُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ ، وَبَعْدَ هَزِيمَةِ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ وَنَصَرَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ ، انْسَحَبَ الْفَارُوقُ مِنَ الْكُفَّارِ إِلَى وادي أوطاس ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ حُنَيْنٍ ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ جَيْشًا إِلَى أوطاس ، فَلَقُوا عَدُوًّا مِنَ الْكُفَّارِ ، فَقَاتَلُوهُمْ فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ وَغَلِبُوهُمْ ، وَكَانَ مِنْ غَنَائِمِهِمْ سَبَايَا مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَتَحَرَّجَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مُعَاشَرَتِهِنَّ وَجَمَاعِهِنَّ — وَالتَّحَرُّجُ : الْخَوْفُ مِنْ مُوَاقَعَةِ الْإِثْمِ — ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُنَّ زَوَاجَاتُ ، وَالزَّوْجَةُ لَا تَحِلُّ لِغَيْرِ زَوْجِهَا ، فَقَدْ ظَنُّوا أَنَّ نِكَاحَ أَزْوَاجِهِنَّ لَمْ يَنْقَطِعْ عِصْمَتُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِ بَيَانِ وَطَأِ مَنْ تَحَرَّجُوا فِيهِنَّ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، أَي : حُرِّمَ عَلَيْكُمْ نِكَاحَ الْمُحْصَنَاتِ (الزَّوْجَاتِ) إِلَّا مَا مَلَكَتُمْ بِالسَّبْيِ ، فَإِنَّهُ يَنْفَسَخُ نِكَاحُ أَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّارِ ، وَيَحْلُلُنَّ لَكُمْ بَعْدَ اسْتِبْرَاءِ أَرْحَامِهِنَّ مِنْ مَاءِ الزَّوْجِ الْكَافِرِ ، إِذَا بَوَّضَ الْحَمْلَ إِذَا كَانَتْ حَامِلًا ، أَوْ بِحَيْضَةٍ وَاحِدَةٍ إِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذَوَاتِ الْحَمْلِ . وَفِي الْحَدِيثِ : أَنَّ نِكَاحَ الْمُشْرِكِينَ يَنْفَسَخُ إِذَا سُبِّتَ زَوْجَاتُهُمْ ، لِأَنَّهَا تَصِيرُ مَمْلُوكَةً لِمَنْ سَبَاهَا . وَفِيهِ : دَلَالَةٌ عَلَى تَوْقُفِ الْإِنْسَانِ وَبَحْثِهِ ، وَسُؤَالِهِ عَمَّا لَا يَتَحَقَّقُ وَجْهَهُ وَلَا حُكْمَهُ ، وَهُوَ ذَأْبٌ مَنْ يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٣٥ و ٣٦) : ((قوله : (بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أوطاس) أوطاس مَوْضِعٌ عِنْدَ الطائف ، يُصْرَفُ وَلَا يُصْرَفُ . قوله : (فَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا فَكَانَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غَشِيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾) ، أي : فَهِنَّ لَكُمْ حَلَالٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ . معنى تَحَرَّجُوا خَافُوا الْحَرَجَ وَهُوَ الْإِثْمُ ، مِنْ غَشِيَانِهِنَّ أَي مِنْ وَطْئِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَنْهِنَّ زَوَاجَاتُ ، وَالْمُزْوَجَةُ لَا تَحِلُّ لِغَيْرِ زَوْجِهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِبَاحَتَهُنَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، وَالْمُرَادُ بِالْمُحْصَنَاتِ هُنَا الْمُزْوَجَاتُ ، وَمَعْنَاهُ : وَالْمُزْوَجَاتُ حَرَامٌ عَلَى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتُمْ بِالسَّبْيِ ، فَإِنَّهُ يَنْفَسَخُ نِكَاحُ زَوْجِهَا الْكَافِرِ ، وَتَحِلُّ لَكُمْ إِذَا انْقَضَى اسْتِبْرَآؤُهَا . وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ، أَي : اسْتِبْرَآؤِهِنَّ ، وَهِيَ بَوْضِعُ الْحَمْلِ عَنِ الْحَامِلِ ، وَبِحَيْضَةٍ مِنَ الْحَائِلِ (غَيْرِ الْحَامِلِ) ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ . وَاعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْمَسِيْبَةَ مِنَ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ لَا يَحِلُّ وَطْؤُهَا بِمِلْكِ الْيَمِينِ حَتَّى تُسَلِّمَ ، فَمَا دَامَتْ عَلَى دِينِهَا فَهِيَ مُحْرَمَةٌ ، وَهَؤُلَاءِ الْمَسِيْبَاتُ كُنَّ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ ، فَيُؤَوَّلُ هَذَا الْحَدِيثُ وَشَبَّهَهُ عَلَى أَنَّهِنَّ أَسْلَمْنَ ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : هذه الآية : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، قال : كُلُّ ذَاتِ زَوْجٍ إِتْيَانُهَا زِنًا إِلَّا مَا سَيِّتُ ٣١٥ .
والجديريُّ بالدُّكْرِ أَنَّ الشَّيْعَةَ الرَّوَافِضَ حَمَلُوا الْآيَةَ ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ عَلَى نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعَةِ ، وَهَذَا بَاطِلٌ ، لِأَنَّ مَعْنَى الْاسْتِمْتَاعِ فِي الْآيَةِ هُوَ التَّمَتُّعُ بِالْأَزْوَاجِ عَنْ طَرِيقِ الْجَمَاعِ لَا نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعَةِ (النَّكَاحِ الْمُؤَقَّتِ بَوَاقٍ مَعْلُومٍ) .

وَلَا شَكَّ أَنَّ نِكَاحَ الْمُتَمَتِّعَةِ كَانَ مَشْرُوعًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ ، وَتَبَيَّنَتْ حُرْمَةُ نِكَاحِ الْمُتَمَتِّعَةِ بِالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ ، وَلَا عِبْرَةَ بِمَا خَالَفَ ذَلِكَ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢ / ١٠٢٣) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذْنْتُ لَكُمْ فِي الْاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُحِلِّ سَبِيلَهُ ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا)) .

٣١٥ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٣٣) برقم (٣١٩١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

نِكَاحُ الْمُتَعَةِ هُوَ الزَّوْجُ الْمُؤَقَّتُ بِمُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ بِلَفْظِ التَّمَتُّعِ عَلَى قَدَرٍ مِنَ الْمَالِ، وَقَدْ كَانَ هَذَا الزَّوْجُ مُبَاحًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ لِحَاجَةِ، ثُمَّ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ، لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ انْعَقَدَ إِجْمَاعُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى تَحْرِيمِهِ، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَشَدَّ بَعْضُ الشَّيْخَةِ وَأَبَاحُوهُ، وَلَا يُعْتَدُ بِخِلَافِهِمْ . فَمَنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مُتَزَوِّجًا زَوْجًا مُتَعَةً، فَلْيُفَارِقِ الْمَرْأَةَ الَّتِي عِنْدَهُ، وَلَا يَجُوزَ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْ مَهْرِهِنَّ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِرَاقُهُنَّ قَبْلَ الْأَجْلِ الْمُسَمَّى .

أَذِنَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أُحْكِمَ الْأَمْرُ، فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِلنَّاسِ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ زَوْجَ الْمُتَعَةِ تَحْرِيمًا قَاطِعًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَكَانَ زَوْجُ الْمُتَعَةِ مَعْرُوفًا فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَسْفَارِهِمْ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ فِي إِقَامَتِهِمْ . وَقَدْ مَرَّ حُكْمُ زَوْجِ الْمُتَعَةِ بِمَرَاكِلَ مُخْتَلِفَةٍ، فَقَدْ نَهَاهُمْ عَنْهُ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِهِ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ مُطْلَقًا، وَوَرَدَ النَّهْيُ عَنْهُ فِي رَوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تُشِيرُ إِلَى أَنَّ النَّهْيَ كَانَ فِي فَتْحِ مَكَّةَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَهَذَا هُوَ الْأَشْهُرُ، أَوْ كَانَ فِي غَزْوَةِ أُوطَاسَ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ أَيْضًا، أَوْ كَانَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، أَوْ كَانَ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ ﷺ فِي حِجَّةِ الْوُدَّاعِ، وَكَانَ نَهْيًا مُؤَبَّدًا لَا تَأْقِينًا، فَيَكُونُ الصَّحِيحُ أَنَّ نِكَاحَ الْمُتَعَةِ مِمَّا تَكَرَّرَ نَسْخُهُ، فَأُبِيحَ فِي خَيْبَرَ، ثُمَّ حُرِّمَ فِيهَا، ثُمَّ أُبِيحَ عَامَ الْفَتْحِ، وَهُوَ عَامُ أُوطَاسَ، ثُمَّ حُرِّمَ تَحْرِيمًا مُؤَبَّدًا، فَلَمْ يَبْقَ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ، وَأُئِمَّةِ الْأُمَّةِ، وَلَمْ يُخَالَفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بَعْضُ الشَّيْخَةِ مِمَّنْ لَا يُعْتَدُ بِخِلَافِهِمْ .

ثُمَّ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ مَنْ كَانَ مُتَزَوِّجًا زَوْجًا مُتَعَةً، فَلْيُفَارِقِ الْمَرْأَةَ الَّتِي عِنْدَهُ، لِأَنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ، وَأَمَرَ كَذَلِكَ أَلَّا يَأْخُذَ الرَّجُلُ شَيْئًا مِمَّا أُعْطِيَ لِلْمَرْأَةِ فِي مُقَابِلِ الْإِسْتِمْتَاعِ بِهَا، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِرَاقُهَا قَبْلَ الْأَجْلِ الْمُسَمَّى، لِأَنَّهَا اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ بِمُعَاشَرَتِهَا .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٩ / ١٨٦ و ١٨٧) : ((وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ التَّصْرِيحُ بِالْمَنْسُوخِ وَالنَّاسِخِ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَحَدِيثِ : " كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا " . وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِتَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ يَتَعَيَّنُ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ إِلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُمْ النَّاسِخُ كَمَا سَبَقَ . وَفِيهِ أَنَّ الْمَهْرَ الَّذِي كَانَ أُعْطَاهَا يَسْتَقِرُّ لَهَا، وَلَا يَحِلُّ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْهُ، وَإِنْ فَارَقَهَا قَبْلَ الْأَجْلِ الْمُسَمَّى، كَمَا أَنَّهُ يَسْتَقِرُّ فِي النَّكَاحِ الْمَعْرُوفِ الْمَهْرُ الْمُسَمَّى بِالْوَطْءِ، وَلَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ بِالْفُرْقَةِ بَعْدَهُ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٤٩ - ٥٥) : ((قوله: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾
أما سبب نزولها ، فروى أبو سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم أوطاسٍ لهنَّ أزواج ، فكُرهنا أن
نقع عليهنَّ ، فسألنا النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، فاستحللناهن قال ابن قتيبة: والإحصان
أن يحمي الشيء ، ويمنع منه ، فالمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ : ذوات الأزواج ، لأن الأزواج أحصنوهن
ومنَعُوا مِنْهُنَّ . قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، والمُحْصَنَاتُ
الحرائر ، وإن لم يكن متزوجات ، لأنَّ الحرَّة تُحصَن وتُحصِن ، وليست كالأمة وفي المراد
بالمُحْصَنَاتِ هاهنا ثلاثة أقوال : أحدها ذوات الأزواج ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيَّب
والحسن وابن جبير والنخعي وابن زيد والقرءاء وابن قتيبة والزجاج . والثاني العفاف ، فإنهن حرام
على الرجال إلا بعقد نكاح أو ملك يمين ، وهذا قول عُمر بن الخطاب وأبي العالية وعطاء وعبيدة
والسُّدي . والثالث الحرائر ، فالمعنى أنهن حرام بعد الأربع اللواتي ذُكِرْنَ في أوَّل السُّورة. رُوِيَ عن
ابن عباس وعبيدة ، فعلى القول الأوَّل في معنى قوله : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ قولان : أحدهما
أنَّ معناه إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا في الحروب ، وعلى هذا تأوَّل الآية عليٌّ وعبد الرحمن
ابن عوف وابن عُمر وابن عباس ، وكان هؤلاء لا يرونَّ بيع الأمة طلاقاً . والثاني إلا ما ملكت
أيمانكم من الإماء ذوات الأزواج بسبي أو غير سبي ، وعلى هذا تأوَّل الآية ابن مسعود وأبي ابن
كعب وجابر وأنس ، وكان هؤلاء يرونَّ بيع الأمة طلاقاً . وقد ذكر ابن جرير عن ابن عباس وسعيد
ابن المسيَّب والحسن أنهم قالوا : بيع الأمة طلاقها ، والأول أصح ، لأن النبي ﷺ خَبِرَ بِرَبْرَةٍ إِذْ
أَعْتَقَهَا عَائِشَةُ بَيْنَ الْمَقَامِ مَعَ زَوْجِهَا الَّذِي زَوَّجَهَا مِنْهُ سَادَتْهَا فِي حَالِ رِقَّتِهَا ، وَبَيْنَ فِرَاقِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلِ
النَّبِيُّ ﷺ عِتْقَ عَائِشَةَ إِيَّاهَا طَلَاقًا ، وَلَوْ كَانَ طَلَاقًا لَمْ يَكُنْ لِتَخْيِيرِهِ إِيَّاهَا مَعْنَى ، وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ
القول الأول ما ذكرناه من سبب نزول الآية . وعلى القول الثاني : العفاف حرام إلا بملك ،
والمَلِكُ يكون عقداً ، ويكون ملك يمين . وعلى القول الثالث : الحرائر حرام بعد الأربع ، إلا ما
ملكتم أيمانكم من الإماء ، فإنهن لم يُحصَرْنَ بعدد . قوله تعالى : ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ ، قال
الزجاج : هو منصوب على التوكيد ، محمول على المعنى ، لأنَّ معنى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَذَا كِتَابًا . قال : ويجوز أن ينتصب على جهة الأمر ، ويكون ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ مُفَسَّرًا لَهُ ،
فيكون المعنى : الزموا كتاب الله . قال : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ ، أي : ما بعد هذه
الأشياء ، إلا أنَّ السُّنة قد حرَّمت تزويج المرأة على عمتها ، وتزويجها على خالتها قال شيخنا
علي بن عبَّيد الله : وعامة العلماء ذهبوا إلى أنَّ قوله : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ تحليل ورد

بلفظ العموم ، وأنه عموم دخله التخصيص ، والمُخصَّص له نَهَى النبي ﷺ أن تُنكح المرأة على عَمَّتِها أو على خالتيها ، وليس هذا على سبيل النَّسخ . وذهب طائفة إلى أن التحليل المذكور في الآية منسوخ بهذا الحديث . قوله تعالى : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم ﴾ ، أي : تطلبوا إمَّا بِصَدَاقٍ في نِكَاحٍ أو ثمنٍ في مِلْكٍ ﴿ مُحْصِينَ ﴾ . قال ابن قُتَيْبَةَ : متزوجين . وقال الرَّجَّاح : عاقدين التزويج . وقال غَيْرُهُما : مُتَعَفِّينَ غَيْرَ زَانِينَ ، وَالسَّفَّاحَ الرَّزِي . قال ابن قُتَيْبَةَ : أصله من سَفَحْتُ القِرْبَةَ ، إذا صَبَّيْتُها ، فَسَمِّي الرَّزِي سَفَّاحًا ، لأنَّ (يُسَافِحُ) يَصُبُّ النُّطْفَةَ ، وَتَصُبُّ المَرَأَةُ النُّطْفَةَ . وقال ابن فارس : السَّفَّاحُ صَبَّ المَاءِ بلا عَقْدٍ ولا نِكَاحٍ ، فهو كالشيء يُسَفِّحُ ضَيَاعًا . قوله تعالى : ﴿ فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، فيه قولان : أحدهما أَنَّهُ الاستمتاع في النِّكاحِ بِالْمُهْرِ ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد والجمهور . والثاني أَنَّهُ الاستمتاع إلى أجل مُسمى من غير عَقْدٍ نِكَاحٍ ، وقد رُوِيَ عن ابن عباس أَنَّهُ كان يُفْتِي بِجَوَازِ المُنْتَعَةِ ، ثُمَّ رَجَعَ عن ذلك ، وقد تكَلَّفَ قومٌ من مُفسِّري القُرْآنِ فقالوا: المراد بهذه الآية نِكَاحِ المُنْتَعَةِ ، ثُمَّ نَسِخَتْ بما رُوِيَ عن النبي ﷺ أَنَّهُ نَهَى عن مُتْعَةِ النِّسَاءِ ، وهذا تَكَلَّفٌ لا يُحْتَاجُ إليه ، لأنَّ النبي ﷺ أَجَازَ المُنْتَعَةَ ، ثُمَّ مَنَعَ مِنْهَا ، فكان قَوْلُهُ منسوخًا بقَوْلِهِ . وأمَّا الآية ، فإنها لم تتضمن جَوَازَ المُنْتَعَةِ ، لأنَّهُ تعالى قال فيها : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم مُحْصِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ ﴾ ، فدَلَّ ذلك على النِّكاحِ الصَّحِيحِ . قال الرَّجَّاح : ومعنى قَوْلِهِ : ﴿ فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ ، فما نَكَحْتُمُوهُنَّ على الشَّرِيطَةِ التي جَرَتْ ، وهو قَوْلُهُ : ﴿ مُحْصِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ ﴾ ، أي : عاقدين التزويج ، ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، أي : مَهْرَهُنَّ . ومن ذهب في الآية إلى غير هذا ، فقد أخطأ ، وجَهِلَ اللُّغَةَ . قوله تعالى : ﴿ ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ ﴾ ، فيه سِتَّةُ أقوالٍ : أحدها أن معناه : لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما تركته المرأة من صدَاقِها ، ووهبته لزوجها ، هذا مرويًا عن ابن عباس وابن زيد . والثاني ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ مُقَامٍ أو فُرْقَةٍ بعد أداء الفريضة ، رُوِيَ عن ابن عباس أيضًا . والثالث ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أيها الأزواج إذا أعسرتم بعد الفَرَضِ لِنِسَائِكُمْ فيما تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ أن يَنْقُصَكُمْ أو يُبْرِنَكُمْ ، قاله أبو سُلَيْمَانَ التَّمِيمِي . والرابع لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إذا انقضى أجل المُنْتَعَةِ أن يَزِدَنَّكُمْ في الأجل ، وتزیدونهن في الأجر من غير استبراء ، قاله السُّدِّي ، وهو يعود إلى قِصَّةِ المُنْتَعَةِ . والخامس لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أن تَهَبَ المَرَأَةُ لِلرَّجُلِ مَهْرَها ، أو يَهَبَ هو للتي لم يدخُلْ بها نِصْفَ المَهْرِ الذي لا يَجِبُ عليه ، قاله الرَّجَّاحُ . والسادس أَنَّهُ عام في الرِّبَاةِ والنَّقْصانِ والتأخير والإبراء ، قاله القاضي أبو يعلى)) .

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٥] .

ومن لم يكن منكم ذا قدرة وغنى أن يتزوج الحرائر العفيفات المؤمنات ، فله أن يتزوج من الإماء المؤمنات اللواتي يملكنه المؤمنون . أي : من لا يملك مهر الحرة المؤمنة ، فليتزوج الأمة المؤمنة .

ولا يجوز للرجل الحر أن يتزوج الأمة إلا بشرطين: الأول _ أن لا يجد مهر الحرة ، والثاني _ أن يكون خائفًا على نفسه من الزنا .

والله هو العالم بالسرائر وحقائق الأمور ، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . وجميع الناس ينتمون إلى النبي آدم ﷺ ، ومن نفس واحدة، فلا تستكفوا من نكاح الإماء، فأنتم وهن سواء في الدين ، حيث إن دينكم واحد ، ورُبَّ أمة خير من حرة ، والعبرة بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب، وفيه تأنيس وترغيب لهم بنكاح الإماء ، اللواتي يُنظر إليهن نظرة دونية ، ويُعتبرن من قاع المجتمع . وهذا يدل على حرص الإسلام على ترسيخ المساواة الاجتماعية ، ودعم الطبقات الفقيرة والضعيفة والمنبوذة في المجتمع ، وجعل رابطة الدين أعظم من رابطة الدم . تزوجوا أيها المؤمنون الإماء بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن . والآية ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ دليل على أن السيد هو ولي أمته ، لا تزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، لا يتزوج إلا بإذنه . وقد روى الترمذي في سننه (٣ / ٤١٩) وحسنه : عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : ((أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ سَيِّدِهِ فَهُوَ عَاهِرٌ)) .

وقال الترمذي : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن نكاح العبد بغير إذن سيده لا يجوز ، وهو قول أحمد وإسحق وغيرهما بلا اختلاف .

جعل الله للسيد على عبده حقوقًا كثيرة ، لأنه اشتراه بماله ، فهو ملكه ، ونفعه له . والعبد هو المملوك ، وإذا تزوج بغير إذن سيده فهو زان ، وزواجه باطل . وليس للعبد أن يتصرف في نفسه بزواج ولا بغيره ، لأن رقبته ومنفعته مملوكتان لسيدته الذي اشتراه بماله . وإذا اشتغل العبد بحق الزوجة لم يتفرغ لخدمة سيده ، فيضيع حقه ، وتزول المنفعة .

وقال المناوي في فيض القدير (٣ / ١٥٢) : ((أَيْمًا عَبْدٌ تَزَوَّجَ بِغَيْرِ إِذْنِ مَوْلَاهُ) أي: ساداته (فهو زانٍ) وفي رواية للترمذي : فهو عاهر . وهذا نص صريح في بطلان نكاحه بغير إذن سيده وإن أجازته بعد ، وهو مذهب الشافعي ، إذ لم يقل في الخبر : إلا أن يجيزه السيد)) .
 وادفَعُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِلْإِمَاءِ مُهُورَهُنَّ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ ، وَبِدُونِ مُمَاطَلَةٍ وَضِرَارٍ ، وَلَا تَبْخَسُوهُنَّ مِنْهُ شَيْئًا اسْتِهَانَةً بِهِنَّ ، لِكُونِهِنَّ إِمَاءَ مَمْلُوكَاتٍ ، عَفِيفَاتٍ بِالنِّكَاحِ ، غَيْرِ مُجَاهِرَاتٍ بِالزَّانَا ، وَلَا مُتَسَتِّرَاتٍ بِالزَّانَا مَعَ أَحْبَابٍ ، حَيْثُ يَزْنُونَ بِهِنَّ سِرًّا . وَالخِدْنُ : صَدِيقُ الْمَرْأَةِ يَزْنِي بِهَا سِرًّا . وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ . فَإِذَا أُحْصِنَ بِالزَّوْجِ ثُمَّ زَنَيْنَ ، فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْحَرَائِرِ الْأَبْكَارِ مِنْ عُقُوبَةِ الزَّانَا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَدَّ زَنَا الْعَبْدِ نِصْفُ حَدِّ زَنَا الْحُرِّ ، فَيُجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً ، وَيُعْرَبُ نِصْفَ سَنَةٍ ، وَلَا رَجْمَ عَلَى الْعَبِيدِ ، لِأَنَّ الرَّجْمَ لَا يَنْتَصِفُ .
 إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الزَّانَا ، وَإِنَّ صَبْرَكُمْ وَتَعَفُّفَكُمْ عَنِ نِكَاحِهِنَّ أَفْضَلُ لِكَيْلَا يَصِيرَ الْوَلَدُ رَقِيقًا . وَاللَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ ، وَقَدْ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرَ)) ٣١٦ .

٣١٦ رواه ابن ماجه في سننه (١ / ٥٩٨) برقم (١٨٦٢) . وقال المناوي في فيض القدير (٦ / ٤٩) : ((مَنْ أَرَادَ) وفي رواية مَنْ أَحَبَّ (أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا) مِنَ الْأَدْنَسِ الْمَعْنُويَةِ (فَلْيَتَزَوَّجِ الْحَرَائِرَ) قَالَ فِي الْإِتْحَافِ : مَعْنَى الطَّهَارَةِ هُنَا السَّلَامَةُ مِنَ الْآثَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْفُرُوجِ ، لِأَنَّ تَزْوِيجَ الْحَرَائِرِ أَعْوَنَ عَلَى الْعَفَافِ مِنَ تَزْوِيجِ الْإِمَاءِ ، لِاِكْتِفَاءِ النَّفْسِ بِهِنَّ عَنِ طَلْبِ الْإِمَاءِ غَالِبًا ، بِخِلَافِ الْعَكْسِ . وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ : إِنَّمَا خَصَّهِنَّ لِأَنَّ الْأُمَّةَ مَسْبِيَّةٌ لَهُ غَيْرُ مُؤَدَّبَةٍ ، وَتَكُونُ حَرَاجِحًا وَلَاجِحَةً غَيْرَ لَازِمَةٍ لِلخِدْرِ _ وَهُوَ سِتْرٌ يُمَدُّ لِلجَارِيَةِ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ _ ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مُؤَدَّبَةً لَمْ تُحْسِنْ تَأْدِيبَ أَوْلَادِهَا وَتَرْبِيَّتَهُمْ ، بِخِلَافِ الْحَرَائِرِ ، وَلِأَنَّ الْعَرَضَ مِنَ التَّزْوِيجِ التَّنَاسُلَ بِخِلَافِ التَّسْرِي ، وَلِهَذَا جَازَ الْعَزْلَ عَنِ الْأُمَّةِ مُطْلَقًا بِغَيْرِ إِذْنِهَا . قَالَ : وَيُمْكِنُ حَمْلُ الْحَرَائِرِ عَلَى الْمَعْنَى كَمَا قَالَ الْحَمَاسِيُّ : وَلَا يَكْشِفُ الْعَمَاءُ إِلَّا ابْنَ حُجْرَةٍ ... يَرَى عَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا وَقِيلَ : عَبْدُ الشَّهْوَةِ أَقْلٌ مِنَ عَبْدِ الرَّقِّ ، فَإِنَّ لِلنِّكَاحِ مَنَافِعَ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً ، مِنْهَا عَضُّ الْبَصْرِ ، وَكَفُّ النَّفْسِ عَنِ الْحَرَامِ ، وَنَفْعُ الْمَرْأَةِ ، فَهُوَ يَنْفَعُ بِالتَّزْوِيجِ نَفْسَهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ ، وَيَنْفَعُ الْمَرْأَةَ وَفِيهِ سَلَامٌ بِنِ سَوَّارٍ أَوْرَدَهُ الذَّهَبِيُّ فِي الصُّغَفَاءِ ، وَقَالَ : لَا يُعْرَفُ ، وَكَثِيرٌ بِنِ سَلَامٍ قَالَ فِي الْكَاشِفِ : ضَعَّفُوهُ ، وَالصَّحَّاحُ بِنِ مُزَاحِمٍ وَفِيهِ خُلْفٌ (اِخْتِلَافٌ) . وَقَالَ الْمُنْذَرِيُّ بَعْدَ عَزْوِهِ لِابْنِ مَاجَةَ : حَدِيثٌ ضَعِيفٌ)) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢ / ٥٥ - ٥٩) : ((قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ﴾ ، الطُّولُ: الغنى والسَّعة في قول الجماعة، والمُحْصَنَاتُ: الحرائر . قال الرَّجَاحُ : والمعنى: مَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَهْرِ الْحُرَّةِ ، يُقَالُ : قَدِ طَالَ فُلَانٌ طَوْلًا عَلَى فُلَانٍ ، أَي : كَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِ فِي الْقُدْرَةِ . وَالْمُرَادُ بِالْفَتَيَاتِ هَاهُنَا الْمَمْلُوكَاتُ ، يُقَالُ لِلْأُمَّةِ : فِتْنَةٌ ، وَلِلْعَبْدِ : فَتَى . وَقَدْ سُمِّيَ بِهَذَا الْاسْمِ مَنْ لَيْسَ بِمَمْلُوكٍ فَأَمَّا ذِكْرُ الْإِيمَانِ فَشَرَطُ فِي إِبَاحَتِهِمْ وَلَا يَجُوزُ نِكَاحُ الْأُمَّةِ الْكِتَابِيَّةِ ، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَجُوزُ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ﴾ ، قَالَ الرَّجَاحُ : مَعْنَاهُ : اَعْمَلُوا عَلَى ظَاهِرِكُمْ فِي الْإِيمَانِ ، فَإِنَّكُمْ مُتَعَبِّدُونَ بِمَا ظَهَرَ مِنْ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ . قَالَ : وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ أَرَادَ التَّسْبِ ، أَي : كَلُّكُمْ وَلَدِ آدَمَ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : دِينِكُمْ وَاحِدٌ ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ هَاهُنَا الْمُؤْمِنَاتِ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَطْعَنُ فِي الْأَنْسَابِ ، وَتَفَخَّرَ بِالْأَحْسَابِ ، وَتُسَمَّى ابْنُ الْأُمَّةِ الْهَجِينِ ، فَأَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَمْرَ الْعَبِيدِ وَغَيْرِهِمْ مُسْتَوٍ فِي بَابِ الْإِيمَانِ ، وَإِنَّمَا كَرِهَ التَّزْوِيجَ بِالْأُمَّةِ ، وَحَرَّمَ إِذَا وَجَدَ إِلَى الْحُرَّةِ سَبِيلًا ، لِأَنَّ وَلَدَ الْأُمَّةِ مِنَ الْخُرِّ يَصِيرُونَ رَقِيقًا ، وَلِأَنَّ الْأُمَّةَ مُمْتَهَنَةً فِي عَشْرَةِ الرِّجَالِ ، وَذَلِكَ يَشُقُّ عَلَى الزَّوْجِ . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَمَعْنَى الْآيَةِ : كَلُّكُمْ بَنُو آدَمَ ، فَلَا يَتَدَاخَلُكُمْ شُمُوحٌ وَأَنْفَعَةٌ مِنْ تَزْوِجِ الْإِمَاءِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَلْيَنْكِحْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، أَي : لِيَنْكِحَ هَذَا فِتْنَةً هَذَا . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَانكِحُوهُنَّ ﴾ ، يَعْنِي : الْإِمَاءَ ، ﴿ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ أَي : سَادَتِهِنَّ ، وَالْأَجُورُ : الْمُهُورُ . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مُقَدَّمٌ فِي الْمَعْنَى ، فَتَقْدِيرُهُ : انكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، أَي : بِالنِّكَاحِ الصَّحِيحِ ﴿ وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ . وَالثَّانِي أَنَّ الْمَعْنَى : وَآتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ كَمَا هُوَ أَمْتَالُهُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ عِفَائِفٌ غَيْرُ زَوَانٍ ، ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ ﴾ يَعْنِي : أَخْلَاءَ . كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا ظَهَرَ مِنَ الزَّنى ، وَيَسْتَحِلُّونَ مَا خَفِيَ . وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : (الْمُسَافِحَاتُ) الْمُعْلِنَاتُ بِالزَّنى ، (وَالْمُتَّخِذَاتُ أَحْدَانُ) ذَاتُ الْخَلِيلِ الْوَاحِدِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَتَّخِذُ صَدِيقًا تَزْنِي مَعَهُ ، وَلَا تَزْنِي مَعَ غَيْرِهِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَنْ قَرَأَ بِالْفَتْحِ أَرَادَ : أَسْلَمَنْ فَصِرَنْ مَمْنُوعَاتِ الْفُرُوجِ عَنِ الْحَرَامِ بِالْإِسْلَامِ ، وَمَنْ قَرَأَ بِالضَّمِّ أَرَادَ : إِذَا تَزَوَّجْتَ فَصِرَنْ مَمْنُوعَاتِ الْفُرُوجِ مِنَ الْحَرَامِ بِالْأَزْوَاجِ . فَأَمَّا الْفَاحِشَةُ فَهِيَ الزَّنى ، وَالْمُحْصَنَاتُ : الْحَرَائِرُ ، وَالْعَذَابُ : الْحَدُّ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ وَالتَّزْوِيجُ شَرْطًا فِي إِجْبَابِ الْحَدِّ عَلَى الْأُمَّةِ ، بَلْ يَجِبُ وَإِنْ عُدِمَا ، وَإِنَّمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي الْحَدِّ لِئَلَّا يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ

أَنَّ عَلَيْهَا نِصْفَ مَا عَلَى الْحُرَّةِ إِذَا لَمْ تَكُنْ مُحْصَنَةً ، وَعَلَيْهَا مِثْلُ مَا عَلَى الْحُرَّةِ إِذَا كَانَتْ مُحْصَنَةً .
 قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى إِبَاحَةِ تَزْوِيجِ الْإِمَاءِ . وَفِي (الْعَنْتِ) خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ الرَّثِي ،
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ وَالصَّحَّاحُ وَابْنُ زَيْدٍ وَمُقَاتِلُ بْنُ قُتَيْبَةَ . وَالثَّانِي أَنَّهُ
 الْهَالِكُ ، ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالرَّجَاجُ . وَالثَّلَاثُ لِقَاءُ الْمَشَقَّةِ فِي مَحَبَّةِ الْأُمَّةِ ، حَكَاهُ الرَّجَاجُ . وَالرَّابِعُ أَنَّ
 الْعَنْتَ هَاهُنَا الْإِثْمُ . وَالخَامِسُ أَنَّهُ الْعُقُوبَةُ الَّتِي تُعْزِيهِ تَشَقُّقُ عَلَيْهِ _ وَهِيَ الْحَدُّ ، ذَكَرَهُمَا ابْنُ جُرَيْرٍ
 الطَّبْرِيُّ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى : وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى إِبَاحَةِ نِكَاحِ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ بِشَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا
 عَدَمُ طَوْلِ الْحُرَّةِ ، وَالثَّانِي خَوْفُ الرَّثِي ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيِّ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَمَسْرُوقٍ وَمَكْحُولٍ
 وَأَحْمَدُ وَمَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ وَالحَسَنِ وَابْنِ الْمُسَيَّبِ وَمُجَاهِدٍ وَالزُّهْرِيِّ قَالُوا : يَنْكَحُ
 الْأُمَّةَ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ . قَالَ
 ابْنُ عَبَّاسٍ وَالجَمَاعَةُ : عَنْ نِكَاحِ الْإِمَاءِ ، وَإِنَّمَا نَدَبَ إِلَى الصَّبْرِ عَنْهُ لِاسْتِرْقَاقِ الْأَوْلَادِ .

٥١_ الكُفْرَانُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هُود : ٩] .
 إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ مِنَ الصِّحَّةِ وَالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ سَلَبَ مِنْهُ تِلْكَ
 النِّعَمَ ، فَوَقَعَ فِي الْمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ قَنُوطٌ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ ، شَدِيدُ الْكُفْرِ بِهِ .
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لِقَلَّةٌ لِقَلَّةٍ صَبْرَهُ وَجَهْلُهُ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَدَمُ ثِقَتِهِ بِهِ وَعَدَمُ التَّسْلِيمِ لِقَضَائِهِ ، يَسْتَشْعِرُ
 الْيَأْسَ وَالْقَنُوطَ عِنْدَ نَزْوِلِ الشَّدَةِ . وَالْآيَةُ ذَمٌّ لِمَنْ يَقْنَطُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ .
 وَالجَدِيدُ بِالذِّكْرِ أَنَّ (يُؤُوسٌ وَكُفُورٌ) مِنْ صَبِيغِ الْمُبَالَغَةِ ، أَيِ إِنَّهُ شَدِيدُ الْيَأْسِ ، كَثِيرُ الْكُفْرَانِ .
 وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ (٤ / ١٨٩ و ١٩٠) : ((﴿ وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ،
 أَيِ : أَعْطَيْنَاهُ نِعْمَةً مِنْ صِحَّةٍ وَأَمْنٍ وَجِدَّةٍ (غِنَى) وَغَيْرِهَا ، وَأَوْصَلْنَاهَا إِلَيْهِ بِحَيْثُ يَجِدُ لَدَّتْهَا ﴾ ثُمَّ
 نَزَعْنَا مِنْهُ ﴾ ، أَيِ : سَلَبْنَاهَا إِيَّاهُ . وَإِيرَادُ النَّزْعِ لِلْإِشْعَارِ بِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِهَا ، وَحِرْصِهِ عَلَيْهَا ﴾ إِنَّهُ
 لَيُؤُوسٌ ﴾ شَدِيدُ الْقَنُوطِ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ، فَطَوَّعَ رَجَاءَهُ مِنْ عَوْدِ أَمْثَالِهَا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا بِفَضْلِ اللَّهِ
 تَعَالَى ، لِقَلَّةِ صَبْرِهِ ، وَعَدَمِ تَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ وَثِقَتِهِ بِهِ ، ﴿ كُفُورٌ ﴾ عَظِيمُ الْكُفْرَانِ لِمَا سَلَفَ مِنَ النِّعَمِ .
 وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ النَّزْعَ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ كُفْرَانِهِمْ بِمَا كَانُوا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
 وَتَأْخِيرُهُ عَنْ وَصْفِ يَأْسِهِمْ مَعَ تَقَدُّمِهِ عَلَيْهِ لِرِعَايَةِ الْفَوَاصِلِ ، عَلَى أَنَّ الْيَأْسَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
 وَقَطَعَ الرَّجَاءَ عَنْ إِضَافَةِ أَمْثَالِهِ فِي الْعَاجِلِ وَإِصَالِ أَجْرِهِ فِي الْآجِلِ ، مِنْ بَابِ الْكُفْرَانِ لِلنِّعْمَةِ
 السَّالِفَةِ أَيْضًا)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢ / ٧٠١) : (... ، وقيل : المراد جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هي أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام في الغالب. وقيل : المراد بالإنسان الوليد بن المغيرة . وقيل : عبد الله بن أمية المخزومي . والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ، ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أن سلبناه إيها ، ﴿ إِنَّهُ لَيُؤُوسٌ ﴾ ، أي : آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها ، وأمثالها. والكفور : عظيم الكفران ، وهو الجحود بها ، قاله ابن الأعرابي . وفي إيراد صيغتي المبالغة في ﴿ لَيُؤُوسٌ كُفُورٌ ﴾ ما يدل على أن الإنسان كثير اليأس ، وكثير الجحود عند أن يسلبه الله بعض نعمة ، فلا يرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها . وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة يُنعم الله بها عليه ، لأن الإذابة والذوق أقل ما يوجد به الطعم .)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

وإذا أصابكم الكرب والشدة في البحر ، وخفتم من العرق ، غاب عن أذهانكم ونطل وسقط من كُنتم تعبدونه من الآلهة ، ولم تجدوا غير الله مغيثاً يُغيثكم ، فاتكم تدعونه وحده لا شريك له ، لأنكم في شدة لا يكشفها إلا هو ، سبحانه وتعالى . والمعنى : أنكم أخلصتم الدعاء لله ، ونسيتم الأنداد . والإنسان في هذه الحالة الصعبة لا يتضرع إلى الآلهة الباطلة والأصنام العاجزة ، وإنما يتضرع إلى الله تعالى . فلما أجاب الله دعاءكم ، وأنقذكم من العرق ، وأنجاكم من هول البحر ، وأخرجكم إلى بر الأمان ، أعرضتم عن الإيمان والإخلاص والطاعة ، وكان الكافر جاحداً ليعم الله تعالى . أو : من طبيعة الإنسان جحود نعم الله وإنكارها إلا من عصمه الله ، والإنسان لفظ الجنس .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٧١) : ((يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ النَّاسَ إِذَا مَسَّهُمْ ضُرٌّ دَعَوْهُ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ ، أي : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب قاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً ، فركب في البحر يدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يُغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك علي عهد لأن أخرجتني منه ، لأذهبن فلاضعن يدي في يدي محمد ، فالأجدنه رؤوفاً رحيمًا ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، أسلم وحسن إسلامه _ رضي الله عنه وأرضاه _ .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ ، أي : نسيتم ما عرفتم من توحيدِهِ ، وأعرضتم عن دُعائه وَحَدِّهِ لا شريك له ، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا ﴾ ، أي : سَجِيئَةً هَذَا ، يَنْسَى النِّعَمَ وَيَجْحَدُهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣ / ٣٤٩) : ((﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ يَعْنِي خَوْفَ الْعَرَقِ ﴿ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ ﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ، وَذَهَبَ عَنْ خَوَاطِرِكُمْ ، وَلَمْ يُوجَدْ لِإِغَاثَتِكُمْ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ جِنِّ أَوْ مَلَكٍ أَوْ بَشَرٍ ، ﴿ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ وَحَدِّهِ ، فَإِنَّكُمْ تَعْقِدُونَ رَجَاءَكُمْ بِرَحْمَتِهِ وَإِغَاثَتِهِ . وَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ الْكُفَّارَ إِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ فِي أَصْنَامِهِمْ وَسَائِرِ مَعْبُودَاتِهِمْ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لَهُمْ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَأَمَّا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْلَمُ بِالْفِطْرَةِ عِلْمًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُدَافَعَتِهِ أَنَّ الْأَصْنَامَ وَنَحْوَهَا لَا فِعْلَ لَهَا ، ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عَنِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَرَجَعْتُمْ إِلَى دُعَاءِ أَصْنَامِكُمْ ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهَا ، ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا ﴾ ، أَي : كَثِيرَ الْكُفْرَانِ لِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَهُوَ تَعْلِيلٌ لِمَا تَقَدَّمَ . وَالْمَعْنَى : أَنََّّهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يَتَمَسَّكُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ، وَفِي الرَّخَاءِ يُعْرِضُونَ عَنْهُ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كُفُورٍ ﴾ [لقمان : ٣٢] .

وما يُكذِّبُ بآيَاتِ اللَّهِ إِلَّا كُلُّ غَدَّارٍ ، مُبَالِغٍ فِي كُفْرَانِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى .

وقال الطبري في تفسيره (١٠ / ٢٢٤) : ((يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَمَا يَكْفُرُ بِأَدْلَتِنَا وَحُجَجِنَا إِلَّا كُلُّ غَدَّارٍ بَعْدَهُ . وَالْخَتْرُ عِنْدَ الْعَرَبِ : أَقْبَحُ الْعَدْرِ وَقَوْلُهُ : ﴿ كُفُورٍ ﴾ يَعْنِي : جَحُودًا لِلنِّعَمِ غَيْرِ شَاكِرٍ مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٥٩٨) : ((قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كُفُورٍ ﴾ ، فَالْخَتَّارُ هُوَ الْعَدَّارُ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَمَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : وَهُوَ الَّذِي كَلَّمَا عَاهَدَ نَقَضَ عَهْدَهُ . وَالْخَتْرُ : أْتَمُّ الْعَدْرِ وَأَبْلَغُهُ وَقَوْلُهُ : ﴿ كُفُورٍ ﴾ أَي : جَحُودًا لِلنِّعَمِ ، لَا يَشْكُرُهَا ، بَلْ يَتَنَاسَاهَا وَلَا يَذْكُرُهَا)) .

٥٢_ الْفَوَاحِشُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

وَلَا تَقْرُبُوا كِبَائِرَ الذُّنُوبِ عَلَانِيَتِهَا وَسِرِّيَّتِهَا . وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَرَوْنَ بِالزَّنَا بَأْسًا فِي السِّرِّ ، وَيَعْتَبِرُونَهُ حَلَالًا ، وَيَسْتَقْبِحُونَهُ فِي الْعِلَانِيَّةِ ، فَحَرَّمَ اللَّهُ فِي السِّرِّ وَالْعِلَانِيَّةِ . وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْفَوَاحِشِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهَا عَلَى الْعُمُومِ ، وَهُوَ الْأَوْلَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهَا عَلَى نَوْعٍ خَاصٍ .

والآية تَنْهَى عَنْ كُلِّ الْمَعَاصِي والأفعال الشنيعة الظاهرة والباطنة ، سَوَاءً تَمَّت الْمُجَاهِرَةُ بِهَا أَمْ حَدَّثَتْ فِي الْخَفَاءِ . وَسَوَاءً مَا ظَهَرَ مِنَ الْمَعَاصِي كَأَفْعَالِ الْجَوَارِحِ ، وَمَا بَطَّنَ كَأَفْعَالِ الْقَلْبِ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣ / ١٤٨) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ ، فيه خمسة أقوال : أحدها أَنَّ الْفَوَاحِشَ الرَّئِيَّةَ ، وَمَا ظَهَرَ مِنْهُ الْإِعْلَانُ بِهِ ، وَمَا بَطَّنَ الْإِسْتِسْرَارُ بِهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَالسُّدِّيُّ . وَالثَّانِي أَنَّ مَا ظَهَرَ الْخَمْرُ وَنِكَاحَ الْمُحْرَمَاتِ ، وَمَا بَطَّنَ الرَّئِيَّةَ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ . وَالثَّلَاثُ أَنَّ مَا ظَهَرَ الْخَمْرُ ، وَمَا بَطَّنَ الرَّئِيَّةَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ . وَالرَّابِعُ أَنَّهُ عَامٌ فِي الْفَوَاحِشِ ، وَظَاهِرُهَا عَلَانِيَتُهَا ، وَبَاطِنُهَا سِرُّهَا ، قَالَ قَتَادَةُ . وَالخَامِسُ أَنَّ مَا ظَهَرَ أَفْعَالُ الْجَوَارِحِ ، وَمَا بَطَّنَ اعْتِقَادُ الْقُلُوبِ ، ذَكَرَهُ الْمَاوُزِدِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْمَوْضِعِ)) .

وفي الدر المنثور (٢ / ٤٩٠) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كان أهلُ الجاهلية يُحَرِّمُونَ مَا ظَهَرَ مِنَ الرَّئِيَّةِ ، وَيَسْتَحِلُّونَ مَا خَفِيَ . يَقُولُونَ : أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْهُ فَهُوَ لَوْمٌ ، وَأَمَّا مَا خَفِيَ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾)) .

هذا يُشِيرُ إِلَى انْتِكَاسَةِ كُبْرَى فِي الْعَقْلِ الْجَاهِلِيِّ الْمَحْضُورِ فِي عَالَمِ الرَّئِيَّةِ وَالسَّمْعَةِ وَالظَّاهِرِ دُونَ أَيِّ اعْتِبَارٍ لِلْجَوْهَرِ الْحَقِيقِيِّ . وَأَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَمْلِكُونَ مِيزَانًا إِيْمَانِيًّا لِقِيَاسِ الْأَعْمَالِ . وَالرَّئِيَّةُ _ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ _ لَيْسَ مُشْكَلَةً أَوْ إِثْمًا ، بَلِ الْمَشْكَلَةُ تَكْمُنُ فِي ظُهُورِهِ الَّذِي قَدْ يُسَبِّبُ فَضِيحَةً أَوْ عَارًا أَوْ تَلَوِينًا لِلنَّسَبِ ، أَمَّا إِذَا تَمَّ إِخْفَاؤُهُ فَلَا مُشْكَلَةَ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ النَّاسَ لَنْ يَعْرِفُوا بِالْأَمْرِ . وَهَذَا هُوَ الْإِنْهِيَارُ الشَّامِلُ فِي الْعَقْلِ الْجَاهِلِيِّ الَّذِي تَغَيَّبَ عَنْهُ مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى .

والرَّئِيَّةُ تَدْمِيرٌ شَامِلٌ لِلْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ ، فَهُوَ بَوْرَةٌ لِلْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ ، كَمَا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى ضِيَاعِ الْأَنْسَابِ ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْأُسْرَةِ ، وَانْتِشَارِ ثِقَافَةِ الشَّهَوَاتِ وَالْغَرَائِزِ بِشَكْلِ حَيَوَانِيٍّ لَا أَخْلَاقِيٍّ .

وَأَحْكَامُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَابِعَةٌ مِنَ الْأَهْوَاءِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَالْعُقُولِ الْقَاصِرَةِ . وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ أَدْلَةً نَقْلِيَّةً وَلَا بَرَاهِينَ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ نَظَرُوا إِلَى الرَّئِيَّةِ بِاعْتِبَارِهِ شَهْوَةً عَابِرَةً يَنْبَغِي إِخْفَاؤُهَا مِثْلَ الْعِلَاقَةِ الْجَنْسِيَّةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ ، فَإِذَا كَانَ الرَّئِيَّةَ وَرَاءَ أَبْوَابٍ مُغْلَقَةٍ فَلَا بَأْسَ بِهِ ، لِأَنَّهُ تَفْرِيعٌ لِلشَّهْوَةِ بَعِيدًا عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ ، أَمَّا إِذَا حَدَّثَ الرَّئِيَّةَ بِشَكْلِ عَلَنِيٍّ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سُوءِ الْأَخْلَاقِ ، وَفَسَادِ الطَّبَاعِ . وَهَذَا مُؤَشِّرٌ بَاهِرٌ عَلَى أَنَّ فِلْسَفَةَ الْجَاهِلِيَّةِ قَائِمَةٌ عَلَى الرَّئِيَّةِ ، وَخِدَاعِ الْآخَرِينَ ، وَارْتِدَائِ الْأَفْعَةِ الزَّائِفَةِ ، وَالْإِهْتِمَامِ بِالْمَظْهَرِ دُونَ الْجَوْهَرِ . وَالتَّرْكِيزُ الْجَاهِلِيُّ كَانَ مُنْصَبًّا عَلَى أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ ، وَأَحْكَامِ النَّاسِ ، وَلَمْ تَكُنِ الثَّقَافَةُ الْجَاهِلِيَّةُ مَعْنِيَّةً بِأَفْعَالِ الْقَلْبِ ، وَالطَّهَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ . وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ الْجَاهِلِيَّةَ مَسْرُوحٌ كَبِيرٌ ، يَقُومُ كُلُّ فَرْدٍ بِتَقْمُّصِ دَوْرِ الشَّرِيفِ دُونَ الْإِهْتِمَامِ بِحَقِيقَةِ الشَّرَفِ .

وقال ابن قُتَيْبَةَ في غريب الحديث (٢٠٧ / ١) : ((وكان الرَّجُلُ في الجاهليَّةِ يَلْقَى المَرْأَةَ ، فيقول لها : سَافِحِي ، فيكون ذلك عنده أحسن من أن يقول : زانيني))^{٣١٧} .
هذا يُشير إلى التلاعب بالألفاظ، فلفظة " زَانِيِي " حادَّةٌ وشديدة الوطأة، أمَّا لفظة " سَافِحِيِي " فهي أقل حِدَّةً من لفظة " زانيني " . وهكذا يتجلَّى التحايل ، واختيار الألفاظ المُخادعة . وهذا الأمر منتشر في كلِّ المجالات . فالخمرُ صارت تُسمَّى مشروباتِ رُوحِيَّة ، والرَّقِصُ المَاجِحُ صارَ يُسمَّى فَنًا ، والرِّبَا صارَ يُسمَّى فائدةً ، والعشيقَاتُ صِرْنَ تحتَ مُسمَّى صديقات ، ... إلخ .
وكان أهلُ الجاهليَّةِ إذا خَطَبَ الرَّجُلُ المَرْأَةَ قال : أَنْكِحِيِي ، فإذا أرادَ الرِّبَا قال : سَافِحِيِي .
والمُسَافِحُ هو الزَّانِي ، مِنَ السَّفْح ، وهو صَبُّ المَنِيِّ . فالزَّانِي ليس مَعْنِيًّا بتكوين أُسْرَةٍ ، وَتَحْمَلُ مَسْئُولِيَةَ الرُّوْحَةِ والأولاد . وإنَّما هو مَعْنِيٌّ بِالخُصُولِ على مُتعة رخيصة عابرة ، وقضاء شَهْوَتِهِ بشكل سريع ، وإطفاء نار الغريزة كَيْفَمَا اتَّفَقَ .

وعن عبد الله _ ابن مسعود _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ ، ولذلك حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَّنَ))^{٣١٨} .

اتَّصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ كَمَالٍ يَلِيْقُ بِذاتِهِ سُبْحانَهُ ، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنِ كُلِّ النَّقائِصِ . ولا أَحَدٌ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنَ اللَّهِ على عِبادِهِ ، فاللَّهُ يَغَارُ أَنْ تُنْتَهَكَ مَحارِمُهُ ، ولذلك حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ، وهي كُلُّ حِصْلَةٍ قَبِيحَةٍ مِنَ الأَقْوالِ والأَفْعالِ ، فاللَّهُ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ سِرًّا وَعَلانِيَّةً ، غَيْرَةً على عِبادِهِ ، وَحِفْظًا لمصالحهم . وظهورُ الفَوَاحِشِ مُؤذِنٌ بِخطر عظيم ، ومُؤذِنٌ بتعجيل العقوبة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣٢ / ١٠) _ عن رواية أُخرى للحديث _ : ((قال العلماء : الغَيْرَةُ بفتح العين ، وأصلها المنع ، والرَّجُلُ غَيُورٌ على أهله ، أي : يَمْنَعُهُم مِنَ التَّعَلُّقِ بأجنبي بنظر أو حديث أو غيرِهِ . والغَيْرَةُ صِفَةُ كَمال ، فأخبر ﷺ بأنَّ سَعْدًا _ ابنَ عُبادة _ غَيُورٌ ، وأنَّ اللَّهَ أَغْيَرُ مِنْهُ ، وأنَّ اللَّهَ أَغْيَرُ مِنْهُ ﷺ ، وأنَّه مِنْ أَجْلِ ذلك حَرَّمَ الفَوَاحِشَ ، فهذا تفسيرٌ لِمَعْنَى غَيْرَةِ اللَّهِ تعالى ، أي أَنَّها مَنَعُهُ سُبْحانَهُ وتعالى النَّاسَ مِنَ الفَوَاحِشِ ، لَكِنَّ الغَيْرَةَ في حَقِّ النَّاسِ يُقارِنُها تَغْيِيرُ حالِ الإنسانِ وانزعاجه ، وهذا مُستحيلٌ في غَيْرَةِ اللَّهِ تعالى)) .

٣١٧ قال الزمخشري في الفائق (٣ / ٣٥٤) : ((تقول العربُ للمرأة : ما ذينِي وسَافِحِيِي . وقيل : هو أن يُجَلِّيَ بينهما ، مِنْ أَمَدِيَّتٍ فَرَسِيٍّ وَمَدْيَنِيَّةٍ ، إذا أرسلته يَرَعِي)) .

٣١٨ متفق عليه . مسلم (٤ / ٢١١٣) برقم (٢٧٦٠) ، والبخاري (٤ / ١٦٩٦) برقم (٤٣٥٨) .

وقال المناوي في فيض القدير (٢ / ٣٠٥) : ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ) عَلَى عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ (وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ وَغَيْرُهُ اللَّهَ) هِيَ (أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ) أَي يَفْعَلُ (مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ ، وَشَرَعَ عَلَيْهَا أَعْظَمَ الْعُقُوبَاتِ ، وَأَشْنَعَ الْقِتْلَاتِ ، وَشَدَّ غَيْرَتَهُ عَلَى إِمَائِهِ وَعَبِيدِهِ ، فَإِنْ عَطَلَتْ هَذِهِ الْعُقُوبَاتُ شَرَعًا ، أَجْرَاهَا سُبْحَانَهُ قَدْرًا . وَمِنْ غَيْرَتِهِ تَعَالَى غَيْرَتَهُ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَدِينِهِ وَكَلَامِهِ أَنْ يَحْظَى بِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ غَيْرَةً عَلَيْهِ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [الإسراء : ٤٦] وفي الحديث تحذير شديد من افتتاح حمى المعاصي والآثام المؤذية للهلاك والطرده عن دار السلام)) اه . وفي نفس المرجع (٦ / ٤٢٧) : ((لا شَيْءَ أَغْيِرُ) بِالرَّفْعِ خَيْرٌ لَا أَفْعَلُ تَفْضِيلًا مِنَ الْغَيْرَةِ (مِنَ اللَّهِ تَعَالَى) أَي لَا شَيْءَ أَزْجِرُ مِنْهُ عَلَى مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا وَجَدَ مَا يَكْرَهُهُ أَوْ يَسْرُهُ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ إِلَى مَكْرُوهٍ أَوْ مَحْبُوبٍ ، فَضُرِبَ مَثَلًا لِتَغْيِيرِ الْحَالِ بِعِلْمِ الْمَكْرُوهِ ، فَسُمِّيَ الْوَعِيدُ قَبْلَ وَالْجَزَاءُ بَعْدَ غَيْرَةٍ . وَقَوْلُهُ : " شَيْءٌ " اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ الَّتِي لَا يَخْتَصُّ بِهَا ، فَكُلُّ مَوْجُودٍ شَيْءٌ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ ، يُسَمَّى بِهِ فِي التَّعْرِيفِ ، وَلَا يُسَمَّى بِهِ فِي الْإِبْتِهَالِ ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وَلَا يُسَمَّى بِشَخْصٍ ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْمُمَاثِلِ مِنَ الْأَجْسَامِ الَّتِي تَشْعَلُ الْحَيِّزَ ، وَتَسْتَقِرُّ بِالْمَكَانِ ، وَيَحْجُبُ مَا وَرَاءَهُ عَنِ الْعِيَانِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مُحَالٌ عَلَيْهِ مَعْنَى ، مَمْنُوعٌ تَسْمِيَتِهِ شَرَعًا وبِقِيَةِ الْحَدِيثِ : " وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ " غَيْرَةً عَلَى عَبْدِهِ أَنْ يَقَعَ فِيهَا يَضُرُّهُ ، وَشَرَعَ عَلَيْهَا أَعْظَمَ الْعُقُوبَاتِ ، وَذَلِكَ أَشْرَفُ الْغَيْرَةِ . سَمِعَ الشَّيْبَانِيُّ قَارِنًا يَقْرَأُ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] ، قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ؟ هَذَا حِجَابُ الْغَيْرَةِ ، وَلَا أَحَدٌ أَغْيِرُ مِنَ اللَّهِ ، يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلِ الْكُفَّارَ أَهْلًا لِمَعْرِفَتِهِ . وَمِنْ غَيْرَةِ اللَّهِ أَنْ الْعَبْدَ يُفْتَحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْأُنْسِ ، فَيَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ ، وَيَلْتَنِدُ بِهِ ، وَيَشْعَلُهُ عَنِ الْمَقْصُودِ ، فَيَغَارُ عَلَيْهِ ، فَيُرْدُهُ إِلَيْهِ بِالْفَقْرِ وَالذُّلِّ ، وَيُشْهِدُهُ غَايَةَ فَقْرِهِ وَإِعْدَامِهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ ، فَتَعُودُ عِزُّهُ ذَلِكَ الْأُنْسِ وَالصَّفَاءِ ذِلَّةً وَمَسْكَنَةً ، وَذَرَّةً مِنْ هَذَا أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي مِنْ ذَلِكَ الصَّفَاءِ وَالْأُنْسِ الْمَجْرَدِ عَنِ شُهُودِ الْيَقِينِ)) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

وإذا فعلَ المشركونَ فاحشةً ، وهي الفعلةُ شديدةُ القبحِ والسُّوءِ ، كالطَّوْافِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ غُرَاءً ، قَانِلِينَ : لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابِ عَصِينَا اللَّهُ فِيهَا ! ، اعْتَدَرُوا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الْقَبِيحِ وَاحْتَجُّوا بِتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ

والافتداء بهم ، والسَّيْر على خُطَاهُمْ ، والالتزام بالعادات والتقاليد ، والافتراء على الله تعالى ، حيث نَسَبُوا الفاحشة (الطَّوْاف حول الكعبةِ عُراءً) إلى الله تعالى ، وأسندوها إلى أمره وشرعه . وعقيدةُ المُشركين في هذه القضية تقوم على الاعتذار والاحتجاج بتقليد الآباء ، وأنَّهم كانوا يفعلون هذه الفاحشة ، فافتدوا بهم ، وتابَعُوهم ، وأنَّ الله أمرهم أن يفعلوها ، وأقرَّهم عليها ، ورضيها لهم ، ولو كرهها لنقلهم عنها ، وأبعدهم منها . وهاتان حُجَّتَان باطلتان ، لأنَّ الأولى تقليد للجُحَّال الذين ليس لديهم علم ولا معرفة ولا يملكون دليلاً نقلياً ولا دليلاً عقلياً . والثانية كذب واضح على الله تعالى . وقد أمر الله مُحَمَّدًا ﷺ أن يَرُدَّ عليهم . قُلْ لهؤلاء المُشركين يا مُحَمَّدُ : إنَّ الله لا يأمر بالأفعال القبيحة والخِصَال السيئة . والله مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ ، ولا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق . أتَكْذِبُونَ على الله وتفترون عليه وتنسبون إليه الفاحشة بلا دليل ولا بُرْهان ولا نظر صحيح ؟ . والاستفهامُ للإِنكار والتوبيخ .

والآيةُ تَدْمُ التقليدَ الأعمى والجَهْلَ ، وتوضِّحُ خطورتَهُما . وفي هذا دَعْوَةٌ إلى طَلَبِ العِلْمِ . وقال البيضاوي في تفسيره (١٥ / ١) : ((﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ فَعَلَةٌ مُتْنَاهِيَةٌ فِي القُبْحِ ، كَعِبَادَةِ الصَّنَمِ ، وَكَشْفِ العَوْرَةِ فِي الطَّوْافِ ، ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، اعْتَذَرُوا وَاحْتَجُّوا بِأَمْرِنَا : تقليد الآباء ، والافتراء على الله سبحانه وتعالى ، فأعرضَ عن الأوَّل لِظُهُور فساده ، وَرَدَّ الثاني بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ، لأنَّ عاداته سبحانه وتعالى جَرَتْ على الأمر بمحاسن الأفعال ، والحث على مكارم الخِصَال ، ولا دَلَالَةٌ عَلَيْهِ على أَنَّ أَقْبَحَ الفِعَالِ بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي ، فإن المراد بالفاحشة ما يَنْفِرُ عنه الطَّبِيعُ السليم ، وَيَسْتَنْقِصُهُ العقلُ المُستقيم . وقيل : هُمَا جوابا سُؤاليْنِ مُتَرْتَبَيْنِ ، كأنه قيل لهم لِمَا فَعَلُوا : لِمَ فَعَلْتُمْ ؟ ، فقالوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، فقيل : وَمِنْ أَيْنَ أَخَذَ آبَاؤُكُمْ؟ ، فقالوا : اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، إنكار يتضمَّنُ النَّهْيَ عن الافتراء على الله تعالى)) .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢٨٩ / ٢) : ((الفاحشة : ما تَبَالَغَ فِي فُحْشِهِ وَقُبْحِهِ مِنَ الذُّنُوبِ . قال أكثر المُفسِّرين : هي طَوَافُ المُشركين بِالْبَيْتِ عُراءً ، وقيل : هي الشَّرْكُ . والظاهر أَنَّهَا تَصْدُقُ على ما هو أعمُّ مِنَ الأُمْرَيْنِ جميعاً ، والمعنى : أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَنْبًا قَبِيحًا مُتْبَالِغًا فِي القُبْحِ اعْتَذَرُوا عن ذلك بِعُدْرَيْنِ : الأوَّل : أَنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ اقْتِدَاءً بِآبَائِهِمْ لِمَا وَجَدُوهُمْ مُسْتَمْرِينَ على فِعْلِ تلك الفاحشة ، والثاني : أَنَّهُمْ مأمورون بذلك مِنْ جِهَةِ اللَّهِ سبحانه . وكلا العُدْرَيْنِ في غاية البُطْلانِ والفساد ، لأنَّ وُجُودَ آبَائِهِمْ على القُبْحِ لا يُسَوِّغُ لَهُمْ فِعْلَهُ ، والأمر من الله سبحانه

لهم لم يكن بالفحشاء، بل أمرهم باتباع الأنبياء، والعمل بالكُتُب المُنزلة، ونهاهم عن مخالفتها، ومما نهاهم عنه فعل الفواحش، ولهذا رَدَّ اللهُ سُبحانَه عليهم بأن أمرَ نبيِّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾، فكيف تدعون ذلك عليه سُبحانَه. ثم أنكر عليهم ما أضافوه إليه، فقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وهو من تمام ما أمر النبي ﷺ بأن يقوله لهم، وفيه من التقريع والتوبيخ أمر عظيم، فإنَّ القَوْل بالجهل إذا كان قبيحًا في كل شيء، فكيف إذا كان في التَّقْوُل على الله؟، وإنَّ في هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ، للمقلِّدة الذين يتبعون آباءهم في المذاهب المُخالفة للحق، فإنَّ ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزُّخْرُفُ : ٢٣]، والقائلون: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا ﴾. والمقلِّد لولا اغتراره بكونه وجدَّ أباه على ذلك المذهب مع اعتقاده بأنَّه الذي أمر الله به، وأنه الحق، لم يبقَ عليه، وهذه الخصلة هي التي بقي بها اليهودي على اليهودية، والنصراني على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضَّلالات إلا كؤنهم وجدوا آباءهم في اليهودية والنصرانية أو البدعية، وأحسنوا الظنَّ بأن ما هم عليه هو الحق الذي أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ويحتوا عن دين الله كما ينبغي. وهذا هو التقليد البحت، والقصور الخالص، فإما من نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية أنا لك النذير المُبالغ في التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشرُّ بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأي بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا نبيًّا واحدًا، أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته، فقال: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾، ولو كان محض رأي أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رُسُلٌ كثيرون مُتعدِّدون بعدد أهل الرأي المُكَلِّفين للناس بما لم يكلفهم الله به، وإنَّ من أعجب الغفلة وأعظم الدُّهول عن الحق، اختيار المُقلِّدة لآراء الرِّجال مع وجود كتاب الله، ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم)) .

إنَّ المُشركين (أهل الجاهلية) كانوا غارقين في التقليد الأعمى، يسيرون على خطى آباءهم الضالين، ويفترون على الله تعالى. ولم يكتفوا بفعل الفاحشة (كل ما اشتدَّ قُبْحُه من الدُّنُوب)، بل أيضًا كانوا يُرجعونها إلى الله تعالى، ويسبونها إليه، فيزعمون أن الله قد أمرهم بها. ومن المعلوم أن الله يأمر بالطاعات ومكارم الأخلاق، ولا يأمر بالفحشاء والأعمال القبيحة.

والمقصود بالفاحشة في الآية هو الطَّوَّافُ بِالْبَيْتِ عُرَاءً ، حيث كانوا يتقربون إلى الله تعالى بالغرْيِ وكشفِ العَوْرَاتِ ، وكانوا يقولون: نَطُوفُ كَمَا وَلَدْنَا أُمَّهَاتِنَا ، وأيضًا كانوا يقولون : لا نَطُوفُ فِي ثِيَابِ عَصِيْنَا اللّٰهَ فِيهَا . وَحُجَّتْهُمْ فِي الطَّوَّافِ بِالْبَيْتِ عُرَاءً تَقُومُ عَلَى أَمْرَيْنِ : تَقْلِيدِ الْآبَاءِ ، وَالكَذِبِ عَلَى اللّٰهِ تَعَالَى . وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢ / ٢٧٩) : ((كانت العربُ ما عدا قُرَيْشًا لا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ فِي ثِيَابِهِمُ الَّتِي لَبَسُوهَا ، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللّٰهِ فِيهَا ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ الْخُمْسُ ^{٣١٩} يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِهِمْ . وَمَنْ أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ فِيهِ ، وَمَنْ مَعَهُ ثَوْبٌ جَدِيدٌ طَافَ فِيهِ ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فَلَا يَتَمَلَّكُهُ أَحَدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ ثَوْبًا جَدِيدًا ، وَلَا أَعَارَهُ أَحْمَسِيٌّ ثَوْبًا طَافَ غُرْيَانًا ، وَرَبَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ فَتَطُوفُ غُرْيَانًا ، فَتَجْعَلُ عَلَى فَرْجِهَا شَيْئًا لِيَسْتَرَهُ بَعْضُ السِّتْرِ ، فَتَقُولُ :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ
وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَا أَجْلَهُ)) .

إِنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَتَحَكَّمُ بِمَقَالِيدِ الْأُمُورِ ، وَتُسَيِّطِرُ عَلَى عَقَائِدِ الْعَرَبِ ، وَتُمْسِكُ بِتَفَاصِيلِ الْعِلَاقَةِ الدِّينِيَّةِ _ الاجتماعية . وَقَدْ اسْتَغْلَتْ عِبَادَةَ الطَّوَّافِ حَوْلَ الْبَيْتِ (الْكَعْبَةِ) لِتَدْعِيمِ نَفُوذِهَا ، وَتَرْسِيخِ سُلْطَتِهَا ، وَتَلْمِيحِ اسْمِهَا ، وَإِبْرَازِ مَكَانَتِهَا السَّامِيَّةِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ . فَقُرَيْشٌ _ وَخَدَهَا _ كَانَتْ تَطُوفُ بِمَلَابِسِهَا ، وَهَذَا مُؤَشِّرٌ بَاهِرٌ عَلَى حِرْصِهَا عَلَى التَّمَيُّزِ ، وَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى تَفُوقِهَا عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ الَّتِي كَانَتْ لَا تَطُوفُ بِثِيَابِهَا ، بِحُجَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَطُوفُونَ فِي ثِيَابِ عَصَا اللّٰهِ فِيهَا . وَهَذِهِ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ ، فَلَوْ كَانَتْ الْمَعَاصِي تَتَطَلَّبُ خَلْعَ الثِّيَابِ لَصَارَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عُرَاءً _ رِجَالًا وَنِسَاءً _ . فَالْإِنْسَانُ لَا يَدْرِي أَنَّهُ سَيَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ ، فَالْعِصْمَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ _ وَخَدَهُمْ _ . كَمَا أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ غَارِقَةً فِي الشَّرْكِ وَالذُّنُوبِ الْمَعَاصِي ، وَمَعَ هَذَا كَانَتْ تَطُوفُ بِثِيَابِهَا الَّتِي عَصَتْ اللّٰهَ فِيهَا ! . وَهَذَا مُؤَشِّرٌ جَدِيدٌ عَلَى تَمَيُّزِ قُرَيْشٍ وَسَيِّطِرَتِهَا الْمُطْلَقَةَ عَلَى الشَّرَائِعِ الدِّينِيَّةِ ، وَالسَّلُوكِيَّاتِ الاجتماعية . وَقُرَيْشٌ كَانَتْ تَتَحَكَّمُ بِمَنْ تَشَاءُ ، تُعْطِي فُلَانًا ثِيَابًا فَيَطُوفُ مَسْتَوْرًا ، وَتَمْنَعُ الثِّيَابَ

٣١٩ فِي شَرْحِ النَّوَوِيِّ عَلَى صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٨ / ١٩٧) : ((قَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ : الْخُمْسُ هُمُ الْقُرَيْشِيُّ ، وَمَنْ وَلَدَتْهُ قُرَيْشٌ وَكَانَتْ وَجَدِيَّةً قَيْسٌ ، سُمُّوا خُمْسًا لِأَنَّهُمْ تَحَمَّسُوا فِي دِينِهِمْ ، أَي تَشَدَّدُوا . وَقِيلَ : سُمُّوا خُمْسًا بِالْكَعْبَةِ لِأَنَّهَا خُمْسَاءٌ ، حَجَرُهَا أَيْضٌ يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ)) اهـ . قُلْتُ : وَمِنْ تَشَدُّدِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَسْتَنْظِلُونَ أَيَّامَ مَنِيٍّ ، وَكَانُوا يَدْخُلُونَ الْبَيْوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَهُمْ مُخْرِمُونَ ، وَلَا يَخْرُجُونَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ إِلَى عَرَفَاتٍ ، وَإِنَّمَا يَقْفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ .

عن فُلانٍ فَيَطُوفُ عُريَانًا . وبعبارة أخرى ، كانت قُرَيْشٌ تَسْتُرُ مَنْ تَشَاءُ ، وتُعْرِي مَنْ تَشَاءُ . وهكذا وَصَلَ نفوذها إلى العورات، فصارت تتحكّم بِكشْفِها أَوْ سِتْرِها. وهذا يُشير إلى نفوذها الهائل ، وسيطرتها الشاملة على تفاصيل الحياة العربية بكل أبعادها الروحية والمادية .

حتى المرأة دَخَلت في هذه اللعبة ، فكانت تطوف عُريَانَةً واضعةً على فَرْجها قِطعةً قُمَاشٍ أو ما شابه من أجل سِتْرِ فَرْجها الذي قد يظهر بَعْضُهُ أو كُلُّهُ ، وكأن شيئًا لم يكن ! .

وقال عُروَة: ((كان الناسُ يَطُوفون في الجاهلية عُراءَ إلا الحُمسُ ، والحُمسُ قُرَيْشٌ وما وَلَدَتْ . وكانت الحُمسُ يَحْتَسِبُونَ على الناس ، يُعطي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثَّيابَ يَطُوف فيها ، وتُعطي المرأة المرأة الثَّيابَ تَطُوف فيها ، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الحُمسُ طافَ بالبيتِ عُريَانًا)) ٣٢٠ .

نَفَى النبي ﷺ ما كان في الحَجِّ من أعمالِ الجاهليَّةِ ، وأقرَّ ما أمره اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بإقراره . ويروي التابعيُّ عُروَة بن الزُّبَيْر أنَّ الناس كانوا يَطُوفون في الجاهليَّةِ بالكعْبَةِ عُراءَ إلا الحُمسُ (قُرَيْشٌ وكنانةٌ وَجَدَيْلَةُ قَيْس) ، سُمُّوا بذلك لِتَحْمُسِهِمْ وَتَشَدُّدِهِمْ في دينهم ، وكانت الحُمسُ يُعْطُونَ الناسَ حِسْبَةَ اللهِ تعالى ، فَيُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثَّيابَ يَطُوف فيها ، وتُعْطِي المرأةُ المرأةُ الثَّيابَ تَطُوف فيها ، فَمَنْ لَمْ تُعْطِهِ الحُمسُ ثيابًا طافَ بالبيتِ عُريَانًا .

وكانَ يُقيض جماعةُ الناسِ _ غيرِ الحُمسِ _ يُدْفَعون من عَرَقاتٍ ، وتُقيض الحُمسُ من جَمْعٍ ، وهي المُزْدَلْفَةُ ، ولا يتجاوزونها إلى عَرَفةٍ ، لئلا يَخْرُجوا عن حُدودِ الحَرَمِ الذي شَرَّفَهُم اللهُ بِسُكْنائِهِ ، وجَعَلَهُ عِصْمَةً لِدِمَائِهِمْ وأموالِهِمْ . وعَرَفةٌ لَيْسَتْ مِنَ الحَرَمِ .

إنَّ الطَّوَّافَ حَوْلَ الكعْبَةِ عُراءَ يُمَثِّلُ طَقْسًا دينيًّا ذا مرجعية وثنية ، حَوْلَ أجسادِ الرجال والنساء إلى لوحاتٍ عارية أمام العيون بلا حجل . وفلسفة طَوَّافِ العُريِّ في الجاهلية تتمحور حول اعتقاد المُشركين أهلِ الجاهلية أن العُري يُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ تعالى ، فهُم لا يُريدون الطَّوَّافَ في ثياب عَصَوا اللهُ فيها _ حَسَبَ رؤيتهم القاصرة _ . لذلك كان التَّخَلُّصُ من الثياب هو التَّطَهُّرُ الأسمى الذي يُخَلِّصُهُمْ مِنَ الدُّنُوبِ ، ويجعلهم أنقياء بلا خطايا كيوم ولدتهم أمهاتهم . وينبغي التركيز على أن أهل الجاهلية كانوا يَطُوفون بالبيتِ عُراءَ سِوَى قُرَيْشٍ التي كانت تنزعم قبائل العرب . وقُرَيْشٌ هي مركزُ التشريع الجاهلي على كافة الأصعدة، وقلبُ الجسمِ القَبلي العربي الوثني ، وحارسةُ " الشرعية الصنميَّة " المُجمَع عليها بين القبائل، والمَقْطُورَةُ الأُولَى في قِطَارِ عِبادةِ الأصنام (الآلهة الباطلة) .

٣٢٠ رواه البخاري (٥٩٩ / ٢) واللفظ له برقم (١٥٨٢) ، ومسلم (٨٩٣ / ٢) برقم (١٢١٩) .

وهذه السلوكيات النابعة من العقائد الجاهلية هي تكثيف للنظام الطبقي الاجتماعي التمايزي .
إذ إنَّ قُرَيْشَ وما وَلَدَتْ تَتَمَيَّرُ عن باقي القبائل بأنها لا تطوف عاريةً ، وفي ذلك تمييز واضح على أساس قبلي ، وإعلاء لشأن قُرَيْشَ بين العرب ، ممَّا يدلُّ على أن فوضى النظام العقدي الجاهلي تهدف إلى تكريس التدايعات الطبقية في مجتمع الجزيرة العربية ، وتقسيم الناس حسب عقلية جاهلية اعتماداً على شعائر وثنية وتعاليم جاهلية . فصار الشرفُ _ بحد ذاته _ تياراً طبقياً تمايزياً مَبْنِيّاً على الفروقات المادية بين البشر . وهذا أدى إلى تكثيف الصفات الأخلاقية بشكل سلبي كَمِّي ضمن الإشكاليات الإقطاعية المناوئة للفكر الأخلاقي المُتماسك .

كما أنَّ إعطاء قُرَيْشَ الثياب للآخرين كي يَطُوفوا ، ومن لم يُعْطَ بَقِيَّ عُرباناً ، مُؤسَّرٌ على ابتزاز قُرَيْشَ لباقي القبائل ، وتجذير سَطوتها ونفوذها على قبائل العرب ، فمجمع الجزيرة العربية كان طبقياً إقطاعياً مُتَطَرِّفاً، وهذا الوتر الحساس قامت قُرَيْشَ باللعب عليه، فاستغلَّت وجود البيت الحرام (الكعبة) ومسؤوليتها عنه في قَهْر الآخرين وإلباسهم متى أرادت ، وتعريتهم متى شاءت . وفي هذا دلالة واضحة على فلسفة السادة والعبيد ، وأنَّ قُرَيْشَ تريد إحكام قبضتها على قبائل العرب ، بحيث يَظَلُّون خاضعين لها في أمور دينهم ودنياهم . وهي تريد تذكيرهم بأنها هي السيدة المطلقة صاحبة الكلمة الفصل ، فهي تَكْسِي مَنْ تشاء ، وتُعَرِّي مَنْ تشاء .

وفي تفسير القرطبي (٧ / ١٦٧) أنَّ قُرَيْشاً كانت تقول : ((نحن أهل الحرم ، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يَطُوف إلا في ثيابنا ، ولا يأكل إذا دَخَلَ أرضنا إلا من طعامنا)) .
وهذا اعتراف صريح يدل على حرص قُرَيْشَ على تعزيز قبضتها على باقي القبائل ، وبسط سيادتها على كامل التراب العربي ، وإخضاع الآخرين لقانونها ، وثيابها ، وطعامها . أي إنَّ قُرَيْشاً كانت حريصة على إلغاء هُويَّات القبائل وأنظمتها ، وتجذير الهُويَّة القُرَشِيَّة في البيئة العربية . وهكذا تصبح الهُويَّة القُرَشِيَّة هي الهُويَّة الجامعة لقبائل العرب ، وينضوي الجميع تحت راية قُرَيْشَ . وهذا يكشف الخطة الإستراتيجية التي كانت قُرَيْشَ تنتهجها لتوحيد العرب تحت لوائها ، وصبغهم بهويتها وعاداتها وتقاليدها . فلا اسم يعلو على اسم قُرَيْشَ ، ولا تاريخ للعرب غير تاريخ قُرَيْشَ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨ / ١٦٢ و ١٦٣) : ((وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراً ، وَيَرْمُونَ ثيابهم ، وَيَتَرَكُونَهَا مُلقاةً على الأرض ، ولا يأخذونها أبداً ، ويتركونها تُداس بالأرجل حتى تَبَلَى ، ويُسمَّى اللقاء)) .

إنَّ طَوَافَ العُرَيِّ مِنَ الفَوَاحِشِ القَبِيحَةِ الَّتِي كَانَتْ تَمَارَسُهَا القَبَائِلُ دُونَ وَاذِعِ دِينِي أَوْ أَخْلَاقِي .
وهذه المُمَارَسَةُ تَمَّ فِي غِيَابِ الأخْلَاقِ الفَاضِلَةِ الَّتِي تُحَرِّكُ الشُّعُورَ الإنْسَانِيَّ ، لِذَلِكَ لَمْ نَجِدْ أَحَدًا
يَعْتَرِضُ عَلَى طَوَافِ العُرَيِّ، فَهُوَ تَقَافَةُ مَجْتَمَعٍ سَائِدَةٍ، وَإِنْكَارُهَا يَعْنِي الطَّعْنَ فِي دِينِ العَرَبِ عُمُومًا ،
وَقُرَيْشٍ خُصُوصًا ، وَهَذَا خَطُّ أَحْمَرَ ، لَا يُسْمَحُ بِتَجَاوُزِهِ . وَالْعَقْلَةُ اللِّاخْلَاقِيَّةُ المُؤَسَّسَةُ عَلَى انْهِيَارِ
الْمَنْحَى القِيمِيِّ، تَأْخُذُ مَسَارًا جَدِيدًا يُرَوِّجُ لِلانْفِلَاتِ مِنْ إِطَارِ القِيمِ السَّامِيَةِ وَالْفَضَائِلِ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ
كُلِّ المَنَاحِي الأَخْلَاقِيَّةِ، وَهَكَذَا تَمَّ حَيَوْنَةُ الإنْسَانِ ، وَإِدْمَاجُهُ بِصُورَةٍ قَسْرِيَّةٍ بِالمَسَارِ السَّلْبِيِّ الهَادِمِ
لِكُلِّ فِضِيلَةٍ، وَالمُتَبَيِّنِي لِكُلِّ رَذِيلَةٍ. وَإِنَّا لَنَجِدُ أَنَّ قُرَيْشًا قَبْلَ الإِسْلَامِ تُرَوِّجُ لِنَفْسِهَا بِوَصْفِهَا مَرْكَزَ
التَّشْرِيعِ لِباقيِ القَبَائِلِ، فَهِيَ تَبْتَكِرُ الشَّرَائِعَ الأَرْضِيَّةَ، وَتُسَوِّقُهَا لِالأَخْرَيْنِ مِنْ أَجْلِ الحِفَافِ عَلَى
مَكَانَتِهَا وَتَلْمِيعِ مَرْكَزِهَا الاجْتِمَاعِيِّ وَسُلْطَتِهَا. إِنَّ قُرَيْشًا تَقْرِضُ إِيقَاعَهَا عَلَى الأَخْرَيْنِ. وَباقيِ القَبَائِلِ
لَا تَمْلِكُ إِلاَّ أَنْ تَسْتَجِيبَ وَتَخْضَعُ لِهَذَا الإِيقَاعِ المُدْمِرِّ. فَقُرَيْشٌ هِيَ حَجَرُ الزَّوَايَةِ فِي البِنَاءِ العَرَبِيِّ
القَبْلِيِّ الجَاهِلِيِّ ، وَهِيَ التَّوَاةُ الأَسَاسِيَّةُ الَّتِي يَدُورُ فِي مَدَارَاتِهَا باقِيِ القَبَائِلِ .
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ _ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ _ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : ((النَّاسُ تَبِعُوا لِقُرَيْشٍ فِي هَذَا الشَّانِ ،
مُسْلِمِيهِمْ تَبِعُوا لِمُسْلِمِيهِمْ ، وَكَافِرِيهِمْ تَبِعُوا لِكَافِرِيهِمْ)) ٣٢١ .

فَضَّلَ اللهُ قُرَيْشًا عَلَى سَائِرِ قَبَائِلِ العَرَبِ ، وَهُمْ المُتَقَدِّمُونَ فِي الإِمَامَةِ وَالْإِمَارَةِ ، وَيَجِبُ عَلَى
النَّاسِ أَنْ يُطِيعُوهُمْ وَيُقَدِّمُوهُمْ وَلَا يَتَقَدَّمُوا عَلَيْهِمْ . وَالمُسْلِمُونَ تَابَعُوا لِمُسْلِمِي قُرَيْشٍ ، وَالكَافِرُونَ
تَابَعُوا لِكَافِرِي قُرَيْشٍ . وَفِي الجَاهِلِيَّةِ ، كَانَتْ قُرَيْشٌ تَتَزَعَّمُ العَرَبَ فِي الكُفْرِ وَالشِّرْكِ ، وَكَانَتْ أَوَّلَ
مَنْ حَارَبَ الإِسْلَامَ وَأَنْكَرَتِ الرِّسَالَةَ النَّبَوِيَّةَ ، وَقَدْ تَبِعَهَا المُنْكَرُونَ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ اعْتَنَقَتْ قُرَيْشٌ
الإِسْلَامَ قَبْلَ النَّاسِ ، وَسَبَقَتْ الجَمِيعَ فِي التَّصْدِيقِ وَالْإِيْمَانِ ، وَحَمَلَتْ رَايَةَ التَّوْحِيدِ ، وَنَشَرَتْ
الإِسْلَامَ فِي أَصْقَاعِ الأَرْضِ ، وَتَبِعَهَا المُؤْمِنُونَ المُؤَحِّدُونَ عَلَى ذَلِكَ. وَبِذَلِكَ تَكُونُ قُرَيْشٌ زَعِيمَةً
العَرَبِ، وَقُدُوةً لِلنَّاسِ جَمِيعًا فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ. وَالنَّاسُ يَخْضَعُونَ لَهَا فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ،
وَهِى أَوْلَى بِالرِّئَاسَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالقِيَادَةِ ، وَالنَّاسُ لَا يَجْتَمِعُونَ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلَا يُدْعَنُونَ إِلاَّ لَهَا .
وَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى أَنْ فَضَّلَ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، وَقُرَيْشٌ مِمَّنْ فَضَّلَهُمُ اللهُ عَلَى النَّاسِ .
وَالْحَدِيثُ يُوضِّحُ بَعْضَ مَنَاقِبِ قُرَيْشٍ، وَمَا لَهَا مِنْ مَكَانَةٍ عَالِيَةٍ، وَمَقَامٍ رَفِيعٍ عِنْدَ العَرَبِ بِكُلِّ قَبَائِلِهِمْ
بِلا اسْتِثْنَاءٍ .

٣٢١ رواه البخاري (٣ / ١٢٨٨) واللفظ له، وروى مسلم الجزء الأول من الحديث (٣ / ١٤٥١) .

وقال الحافظ في الفتح (٦ / ٥٣٠) : ((وقوله : " كافرهم تَبِعَ لكافرهم " وَقَعَ مِصْدَاقَ ذلك ، لأنَّ العرب كانت تُعَظِّمُ قُرَيْشًا في الجاهلية بِسُكْنَاهَا الحَرَمَ ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَدَعَا إلى اللَّهِ ، تَوَقَّفَ غَالِبُ العرب عن اتِّباعه ، وقالوا : ننظر ما يصنع قَوْمُه ، فَلَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ ، وَأَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ ، تَبِعَتْهُمُ العربُ ، وَدَخَلُوا في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، واستمرَّتْ خِلافةُ النَّبِيِّ ﷺ في قُرَيْشٍ ، فَصَدَّقَ أَنَّ كافرهم كان تَبِعًا لكافرهم ، وصار مُسْلِمُهُم تَبِعًا لِمُسْلِمِهِم)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢ / ٢٠٠) عن قُرَيْشٍ : ((لِأَنَّهُمْ كانوا في الجاهلية رؤساء العرب ، وأصحاب حَرَمِ اللَّهِ ، وأهل حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ ، وكانت العرب تنظر إسلامهم ، فلَمَّا أُسْلِمُوا وَفُتِحَتْ مَكَّةَ ، تَبِعَهُمُ النَّاسُ ، وجاءت وَفُودُ العرب من كُلِّ جِهَةٍ ، ودخل النَّاسُ في دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . وكذلك في الإسلام هم أصحاب الخِلافة ، والناس تَبِعَ لَهُم ، وَبَيَّنَّ ﷺ أَنَّ هَذَا الحُكْمَ مُسْتَمِرٌّ إلى آخِرِ الدُّنْيَا ما بَقِيَ مِنَ النَّاسِ اثْنان . وقد ظَهَرَ ما قاله ﷺ ، فَمِنْ زَمَنِهِ ﷺ إلى الآن الخِلافةُ في قُرَيْشٍ من غير مُزاحمةٍ لَهُم فيها ، وتبقى كذلك ما بَقِيَ اثْنان ، كما قاله ﷺ . قال القاضي عياض : استدلل أصحابُ الشافعي بهذا الحديث على فضيلة الشافعي . قال : ولا دَلالةُ فيه لَهُم لأنَّ المُراد تقديم قُرَيْشٍ في الخِلافةِ فقط . قُلْتُ : هُوَ حُجَّةٌ في مَزِيَّةِ قُرَيْشٍ على غيرهم ، والشافعي قُرَيْشِي)) .

وقال المُناوي في فيض القدير (٦ / ٢٩٤) : (((الناس تَبِعَ لِقُرَيْشٍ) خَيْرٌ بِمعنى الأمر . كما يدلُّ عليه خَيْرٌ : " قَدَّمُوا قُرَيْشًا " . وقيل : خَيْرٌ على ظاهره ، والمُراد بالناس بعضهم ، وهو سائر العرب من غير قُرَيْشٍ ، ذَكَرَهُ ابن حجر (في الخَيْرِ والشَّرِّ) أي : في الإسلام والجاهلية ، كما في رواية ، لِأَنَّهُمْ كانوا في الجاهلية متبوعين في كُفْرِهِم لِكَوْنِ أمر الكعبة في يَدِهِم ، فكذا هم متبوعون في الإسلام ، أو أَنَّ السابق بالإسلام كان من قُرَيْشٍ ، فكذا في الكُفْرِ ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ رَدَّ دَعْوَتَهُ ، وكفر به ، وأعرضَ عن الآياتِ والتُّنُورِ ، فكانوا قُدُورَةً في الحَالِينِ . وقال القاضي : معناه أَنَّ مُسْلِمِي قُرَيْشٍ قُدُورَةٌ غيرهم من المُسلمين ، لِأَنَّهُم المُتَقَدِّمُونَ في التَّصَدِيقِ ، والسَّابِقُونَ في الإِيْمَانِ ، وكافرهم قُدُورَةٌ غيرهم من الكُفَّارِ ، فَإِنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ رَدَّ الدَّعْوَةَ ، وكَفَرَ بالرسول ﷺ)) .

٥٣_ البِغَاءُ

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحِياةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التَّوْر : ٣٣] .

ولا تُجبروا إماءكم على الزنا ، إن أردنَ تَعَفُّفاً عن فعلِ الفاحشة ، وهذه الإرادة محل الإكراه ، وليست قيداً ولا شرطاً . بل يحرم إكراههنَّ على الزنا مُطلقاً أرذَنَ العِفَّةِ أم لا . والآية توضح فظاًعة هذا الأمر وشناعته ، فالمفروض أنَّ السيد يُحصنُ أمتَهُ المملوكَةَ ، ويُشبعها معنوياً ومادياً وعاطفياً وجسدياً، ويُحافظ على شرفها وعِفَّتِها ، ويحميها من كل شر وسوء، لا أن يُجبرها على الزنا مُقابل الأجرة ، فهذا يدلُّ على انعدام الشرف واختفاء العِيرةِ وسوء الأخلاق .

وكانوا يُجبرون الإماءَ على البِغَاءِ من أجل نَيْلِ حُطَامِ الدُّنيا الزائل، والحُصولِ على المال (أجرة الإماء مُقابل الزنا)، وبيع أولادهنَّ . وهذا مالٌ حرام، لأنَّه جاء من طريق قَدْر (الفاحشة والرذيلة) . ومن يُجبرهنَّ على الزنا، فإنَّ اللهَ غَفُورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، لا يُؤاخذهنَّ بالزنا ، ولا يُعاقبهنَّ عليه، لأنهنَّ مُكْرَهَاتٌ مَجْبُورَاتٌ، والإثمُ على مَنْ أكرهنَّ، وسوفَ ينتقم اللهُ منهم، ويُعذِّبهم أشدَّ العذاب . وقال ابن كثير في تفسيره (٣ / ٣٨٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ الآية . كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني ، وجعلَ عليها ضريبةً يأخذها منها كُلَّ وقت ، فلما جاء الإسلام نهى اللهُ المؤمنين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذَكَرَ غَيْرُ واحدٍ من المُفسِّرين من السَّلَفِ والخَلَفِ في شأن عبد الله بن أبي بن سلُول، فإنَّه كان له إماء ، فكان يُكرهنَّ على البِغَاءِ ، طلباً لِخِراجهنَّ ، ورغبةً في أولادهن ، ورياسةً منه فيما يزعم)) .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢ / ٢٢١) : ((قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ راجع إلى الفَتَيَاتِ ، وذلك أنَّ الفتاة إذا أرادت التَّحَصُّنَ ، فحينئذ يُمكن ويُتصوَّر أن يكون السَّيِّدُ مُكْرِهًا ، ويُمكن أن يُنهي عن الإكراه . وإذا كانت الفتاة لا تريد التَّحَصُّنَ ، فلا يُتصوَّر أن يُقال للسَّيِّدِ : لا تُكْرِهها، لأنَّ الإكراه لا يُتصوَّر فيها وهي مُريدة للزنى ، فهذا أمر في سادةِ فَتَيَاتِ حَالِهَم هذه، وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي ، فقال : إنَّما ذَكَرَ اللهُ تعالى إرادةَ التَّحَصُّنِ مِنَ المَرَأَةِ ، لأنَّ ذلك هو الذي يُصوَّر الإكراه ، فأما إذا كانت هي راغبة في الزنى لم يُتصوَّر إكراه قوله تعالى : ﴿ لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، أي: الشَّيْء الذي تَكْسِبُهُ الأُمَّةُ بِفَرْجِها ، والوَلَدُ يُسْتَرَقُ ، فَيُبَاعُ . وقيل : كان الزاني يفتدي ولده من المَزْنِي بها بِمِائَةِ مِنَ الإِبِلِ يَدفعها إلى سيِّدها . قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ ﴾ ، أي : يَفْهَرْنَ ، ﴿ فَإِنَّ اللهُ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ ﴾ لهنَّ ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهنَّ)) .

كانت المَرَأَةُ في الجاهليَّة قبل الإسلام سلعةً رخيصةً ، يتم التلاعب بمشاعرها ، والمتاجرة بجسدها ، والاستهزاء بعقلها . ومن الكوارث الجاهلية تحويل المرأة إلى عاهرة تحترف البِغَاءِ من

أجل جني المال لسيدها . وكان هذا الأمر عادياً ، فالعقل الجمعي يتقبله بلا مشكلات ، والثقافة المجتمعية تنظر إليه على أنه قضية تجارية طبيعية .

وكانوا في الجاهلية يرسلون إمامهم يزنين، ويجعلون عليهن ضرائب يأخذونها منهن كل وقت . وكان هذا الأمر ثقافة مجتمعية غير منكورة . وبالتأكيد ، تُعتبر الإمامة الحلقة الأضعف في المجتمع ، فهن أنصاف نساء، وصاحبات مكانة اجتماعية مُتدنية، ويُنظر إليهن باعتبارهن سلعة للبيع والشراء . وفي المنظور الجاهلي ، لا توجد مشكلة إن فقدت الإمامة عفتهن أو شرفهن ، فهن مجرد إماء (نساء درجة ثانية) ، ولسن حرائر ، ولا ينتمين إلى عائلات مرموقة ، ولا قبائل معروفة .

وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٣٢٢): ((وكان أهل الجاهلية يأمرون إماءهم بالبغاء، ويأخذون أجورهن . وكان لعبد الله بن جدعان إماء يُساعين، وهو في الجاهلية سيد تيم)) . وفي صحيح مسلم (٤ / ٢٣٢٠) عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنه _ أن جارية لعبد الله ابن أبي بن سلول يُقال لها مسيكة ، وأخرى يُقال لها أميمة ، فكان يُكرههما على الرّئي ، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ ولا تکرهوا فتیاتکم علی البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يکرههن فإن الله من بعد إکراههن غفورٌ رحيم ﴾ .

كان عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين له جارتان ، مسيكة وأميمة ، وكان يُجبرهما على الرّنا طلباً للمال ، ورغبة في أولادهن ، ورياسة منه ، وحُباً للرّعاة العشائرية القبليّة ، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ من أجل إيجاد حل لهما، وإنقاذهما من هذه الأزمة الأخلاقية السيئة، فأنزل الله الآية التي تُبين حرمة إكراه الإمامة على الرّنا من أجل الحصول على حطام الحياة الفاني . ولا يليق بالسادّة أن تكون الإمامة خيراً منهم ، وأكثر أخلاقاً وشرافاً ، وأعف عن الرّنا ، وهم يُجبرونهنّ عليه ، من أجل عرض دنيوي زائل . والحرض على الشرف والسُّمعة الطيبة والمُروءة والرُّجولة _ بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها _ أفضل من الحصول على عرض زائل ، يُشوّه السُّمعة ، ويخلب الخزيّ والعار ، ويُسيب الفضيحة . ويجب التوبة من هذا الفعل الدنيء القدير ، ومن تاب تاب الله عليه ، وغفر له ، وتجاوز عنه ، وهو سبحانه غفورٌ لذنوب عباده ، رحيم بهم .

وقد نهى الله عمّا يُؤدّي إلى الرّنا ، وأغلق جميع الطُّرقات إليه ، وسدّ الذرائع المُوصلة إليه ، بسبب أضراره ومفاسده ، فهو يُؤدّي إلى اختلاط الأنساب ، وتمزيق العائلات ، وتدمير المجتمع . وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٦ / ١٧): ((وأصل البغي الطّلب ، غير أنّه أكثر ما يُستعمل في طلب الفساد والرّنا . والمراد ما تكتسبه الأمة بالفجور ، لا بالصنائع الجائزة)) .

والأجره التي تأخذها الزانية على زناها مال حرام خبيث ، لأنه جاء من طريق قدر غير مشروع .
قال النبي ﷺ : ((مَهْرُ الْبَغِيِّ خَبِيثٌ)) ٣٢٢ .

ما تأخذ الزانية من مال مقابل زناها ، ومقابل تسليم نفسها للرجل الأجنبي ، فهو مُحَرَّم ، لأنَّ الزَّنا مُحَرَّم ، وكلُّ مالٍ جاء من طريق مُحَرَّم ، فهو مال مُحَرَّم خبيث ، يجب التخلُّص منه . ومَهْرُ الْبَغِيِّ ما تأخذ على زناها ، وسَمِّيَ مَهْرًا لأنه على صورته ، فهو مُقَابِلُ تَمَكِينِ الْمَرْأَةِ مِنْ نَفْسِهَا .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠ / ٢٣١) : ((مَهْرُ الْبَغِيِّ فهو ما تأخذه الزانية على الزنى ، وسماه مهراً لكونه على صورته ، وهو حرام بإجماع المسلمين)) .

كانوا في الجاهلية يُكْرَهُونَ إِمَاءَهُمْ عَلَى الزَّنا، والاكْتِسَابِ بِهِ، وَيَأْخُذُونَ أُجُورَهُنَّ ، فَنَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ﴾ . وكان عُزْفُ الْإِمَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ هُوَ الزَّنا، فَقَدْ كَانَ عِلْمُهُ مُمَيَّزَةً لَهُنَّ . وكانت الحرائر يمتنعن من الزنا، لأنه إساءة لشرفهن، وشرف عائلاتهن ، وسمعة قبائلهن . ولا يخفى أنَّ الشرف في المجتمع القبلي قضية مركزية حساسة ، وهي مسألة حياة أو موت .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة بن ربيعة تُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ ﴾ ، الآية . قالت : فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً ، فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْهَا . فقالت عائشة : أَقْرَبِي أَيْتُهَا الْمَرْأَةُ ، فَوَاللَّهِ مَا بَايَعْنَا إِلَّا عَلَى هَذَا ، قالت : فَتَنَعَمُ إِذَا ، فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ ٣٢٣ .

أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهِ ﷺ أَنْ يَمْتَحِنَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ لِيَعْلَمَ صِدْقَ إِيْمَانِهِنَّ ، وَيَقِينَ إِسْلَامَهُنَّ ، إِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ﷺ صِدْقُهُنَّ بَايِعَهُنَّ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَوَاهُنَّ ، وَلَمْ يُرْجِعُهُنَّ .

ومعنى " فَأَخَذَ عَلَيْهَا " أي إنَّ شُرُوطَ الْمُبَايَعَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى النَّسَاءِ أَتَتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الْمُؤْتَمِنَةُ : ١٢] . قالت عائشة _ رضي الله عنها _ : " فَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى رَأْسِهَا حَيَاءً " ، أي : حَيَاءً مِنَ الزَّنا الَّذِي ذَكَرْتُهُ الْآيَةُ ، فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

٣٢٢ رواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٤٨) برقم (٢٢٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٣٢٣ رواه أحمد في مسنده (٦ / ١٥١) واللفظ له ، وابن جبان في صحيحه (١٠ / ٤١٨) .

ما رأى منها " مِمَّا قَدَّمْتُهُ مِنْ حَيَاءٍ ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ انْكَارِ مِنْهَا أَنْ تَأْتِيَ الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ بِمِثْلِهِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : " أَفَرِي أَيُّهَا الْمَرْأَةُ " بَايَعِي النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا جَاءَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ ، " فَوَاللَّهِ مَا بَايَعَنَا إِلَّا عَلَى هَذَا " ، أَي : إِنَّ جَمِيعَ النِّسَاءِ بَايَعْنَ بِمِثْلِ مَا تُبَايَعِي عَلَيْهِ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : " فَتَنَمَّ إِذَا " فَاسْتَجَابَتْ لِنُصْحِ عَائِشَةَ لَهَا ، وَبَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ ، " فَبَايَعَهَا بِالْآيَةِ " ، فَقَبِلَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُبَايِعُ الرِّجَالَ بِالمُصَافِحَةِ ، وَيُبَايِعُ النِّسَاءَ بِالقَوْلِ دُونَ المُصَافِحَةِ .

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَصَوَّرُ أَنْ تَزْنِيَ الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ. فَالرِّزْنَا مِنْ خِصَائِصِ الإِمَاءِ صَاحِبَاتِ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ . أَمَّا الْحَرَائِرُ الْمُتَنِمِّيَاتُ إِلَى الْعَائِلَاتِ الْمُحْتَرَمَةِ ، وَالْقَبَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ ، فَهُنَّ بَعِيدَاتُ كُلِّ الْبُعْدِ عَنِ الرِّزْنَا . وَهَذِهِ الْجَرِيمَةُ سَتَجْلِبُ الْعَارَ إِلَى عَائِلَاتِهِنَّ ، وَهَذَا الْعَارُ لَا يُمَكِّنُ غَسْلَهُ ، وَلَا يُمَكِّنُ نِسْيَانَهُ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ ، وَسَيَظَلُّ الْخِزْيُ وَالْعَارُ وَالتَّعْيِيرُ وَالفَضِيحَةُ طِيلَةَ الْحَيَاةِ .

ولهذا لَمَّا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ (امْرَأَةَ أَبِي سُفْيَانَ) عَلَى أَلَّا تَزْنِي ، قَالَتْ : ((وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ !؟)) ٣٢٤ .

هذا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرِّزْنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ خِصَائِصِ الْحَرَائِرِ صَاحِبَاتِ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ قَدِرٌ تَخْتَصُّ بِهِ الإِمَاءُ الْمَحْصُورَاتُ فِي قَاعِ الْمَجْتَمَعِ .

تَمَّ الْكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى

٣٢٤ قال ابن حجر في الإصابة (٨ / ١٥٥) : ((مِنْ طُرُقِهِ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ مُرْسَلٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ ، وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ ، فِي رِوَايَةِ الشَّعْبِيِّ : " وَلَا يَزْنِينَ " ، قَالَتْ هِنْدُ : وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ !؟)) .

الفصل الأول : الأخلاق الحميدة [7]

- تمهيد [8] ١_ السُّلوك الحَسَن [9] ٢_ دفع السيئة بالحسنة [51] ٣_ فِعْل الخَيْر [53]
 ٤_ المُسَارَعَة فِي فِعْل الخَيْر [55] ٥_ الحِكْمَة [60] ٦_ الإِصْلَاح بَيْن النّاس [72]
 ٧_ الصَّدْق [85] ٨_ قول التي هي أحسن [97] ٩_ الاستقامة [99] ١٠_ العَفْو عن
 النّاس [107] ١١_ العَفْو مقرونًا بالصَّفْح [110] ١٢_ رُوح السّلام [112] ١٣_ الرّحمة [121]
 ١٤_ المَوَدَّة [125] ١٥_ التّعاون [133] ١٦_ الإِخاء [139] ١٧_ الإِحسان [158]
 ١٨_ الإِيتار [169] ١٩_ القِرَى (إكرام الصَّيْف) [178] ٢٠_ العِقَّة [181] ٢١_ عَض
 البَصَر وَحَفْظ الفَرْج [192] ٢٢_ الإِعراض عن اللّغو [217] ٢٣_ القَصْد فِي المَشْي
 وَالحَفْض مِن الصَّوْت [219] ٢٤_ السَّكِينَة [221] ٢٥_ الاعتدال فِي الأُمور [229]
 ٢٦_ شُكْر النِّعْمَة [236] ٢٧_ الصَّبْر [259] ٢٨_ كَظْم العَيْظ [291] ٢٩_ القِسْط [294]
 ٣٠_ التّواضع [297] ٣١_ الوفاء بالعهد [303] ٣٢_ النّظافة [327]

الفصل الثاني : الأخلاق الذميمة [333]

- تمهيد [334] ١_ مساوئ الأخلاق [335] ٢_ الرأى الفَطِير (بلا تفكير) [340] ٣_ الفُضُول
 [341] ٤_ الاختيال والعُجْب [348] ٥_ التَّكْبُر [353] ٦_ الغرور [379] ٧_ المُخَاصَمَة
 وَالمُنَازَعَة [387] ٨_ القَوْل يُخَالِف الفِعْل [400] ٩_ الجَهر بالسُّوء [404] ١٠_ اتِّبَاع
 الشَّهَوَات [405] ١١_ الكَذِب [419] ١٢_ سُوء الظن [428] ١٣_ التَّجَسُّس [442]
 ١٤_ استراق السمع [443] ١٥_ الغيبة [445] ١٦_ التَّمِيمَة [450] ١٧_ البُهتان [452]
 ١٨_ الهمز واللمز [455] ١٩_ إشاعة الأخبار الكاذبة [460] ٢٠_ لَعْو القَوْل [463]
 ٢١_ اللَّعْب وَاللَّهْو [466] ٢٢_ الاستهزاء والسُّخْرِيَّة [475] ٢٣_ التَّنَابُز بالألقاب [505]

٢٤	الافتراء على الله ورسوله [508] ٢٥	حُب انتشار الفاحشة [518] ٢٦	الغضب [519]
٢٧	الأسى على ما فات [522] ٢٨	الجُبْن [524] ٢٩	البُخْل [534] ٣٠
	والأذى في الصَّدَقَات [561] ٣١	الطمع [566] ٣٢	الإسراف [576] ٣٣
	التبذير		
	[584] ٣٤	البَطْر [587] ٣٥	البَغْي [589] ٣٦
	الفساد والإفساد [593] ٣٧	الخِيَانَة	
	[601] ٣٨	نَقْض العَهْد [613] ٣٩	العِش [623] ٤٠
	المَكْر [626] ٤١	الرِّبَاء [645]	
	[676] ٤٢	العِغْل [653] ٤٣	الحَسَد [656] ٤٤
	مَنْع الخَيْر [672] ٤٥	البُغْض [676]	
	[710] ٤٦	العَفْلَة [680] ٤٧	القَسْوَة [696] ٤٨
	الفُجُور [703] ٤٩	الفِسْق [710]	
	[744] ٥٠	المُسَافِحَة [723] ٥١	الكُفْرَان [732] ٥٢
	الفواحش [734] ٥٣	البِغَاء [744]	
749	فَهْرَس		
751	صَدَرَ للمؤلف		

صَدَرَ لِلْمُؤَلِّفِ

الدراسات الدينية :

- ١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_ النبي مُحَمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة . ٦_ العلوم والفنون في القرآن . ٧_ العمل في القرآن . ٨_ العلاقات الأخلاقية في القرآن . ٩_ الدَّعوة الإسلامية . ١٠_ دراسات منهجية في القرآن والتوراة والإنجيل . ١١_ الإنسان والعلاقات الاجتماعية . ١٢_ بحوث في الفكر الإسلامي . ١٣_ منهج الكافرين في القرآن . ١٤_ التناقض في التوراة والإنجيل . ١٥_ صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل . ١٦_ عقائد العرب في الجاهلية .

الأدب والثقافة والفكر :

- ١٧_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر . ١٨_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة . كلام في فلسفة الشُّعر) . ١٩_ صرخة الأزمنة (سِفْر الاعتراف) . ٢٠_ مشكلات الحضارة الأمريكية . ٢١_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين .

الشُّعر :

- ٢٢_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)

الرواية :

- ٢٣_ أشباح الميناء المهجور
- ٢٤_ جبل التنظيف